

صُفْوَةُ النَّفْسِ

تفسير للقرآن الكريم ، جامع بين المأثور والمعقول ، مستمد من أوثق كتب التفسير
« الطبري ، الكشاف ، القرطبي ، الألوسي ، ابن كثير ، البحر المحيط » وغيرها
بأسلوب مبسّط ، وتنظيم حديث ، مع العناية بالوجه البليغ واللغوية

المجلد الثاني

تأليف

محمد علي الصّابوني

الأستاذ بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية
مكة المكرمة - جامعة الملك عبد العزيز

دار القرآن الكريم

بيروت

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

صُفْوَةُ النَّفْسِ

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ"

"وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ.."
"البقرة"

وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"أَشْرَافُ أُمَّتِي حَمَلَةُ الْقُرْآنِ" "المنذرية"

"مَنْ قَرَأَ حَرْفًا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ فَلَهُ حَسَنَةٌ وَالحَسَنَةُ بِعَشْرِ
أَمْثَلِهَا، لَا أَقُولُ الْم حَرْفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وَلامٌ حَرْفٌ
وَمِيمٌ حَرْفٌ" "البخاري"

اقْرَأُوا الْقُرْآنَ فَإِنَّهُ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ شَفِيعًا لِأَصْحَابِهِ
"البخاري"

إِلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ وَمُؤْمِنَةٍ ..
يُرِيدُ الْعَمَادَةَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فِي الدَّخْرِ ..

أَصْدَقَ كِتَابِ اللَّهِ وَتَفْسِيرِهِ ..
لِيَأْتِيَهُمْ عَوْنًا عَلَى فَرْحِهِمُ الْقُرْآنَ وَلِيَعْمَلُوا بِهِ ..
وَقَدْ قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ:

"تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّكُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدِي أَبَدًا
كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّتِي" "متفق عليه"

السَّيِّدُ حَسَنُ عِبَادِ شَرِيفِي

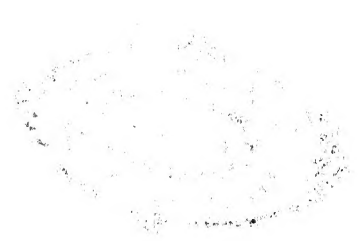
الطبعة الرابعة
(منقحة)

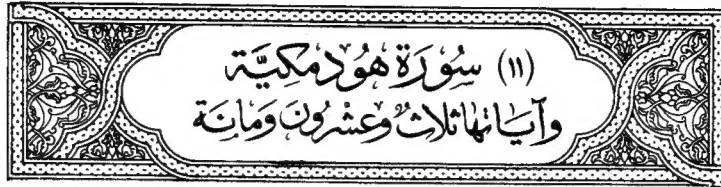
جميع الحقوق محفوظة

١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةِ
المحسن الكبير
معالي السيد حسن عباس الشربتلي
وجعله وقفاً لله تعالى
فجزاه الله كل خير
يوزع مجاناً ولا يباع

Handwritten text in the top right corner, possibly a date or reference number, including "1900" and "1000".





بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة هود مكية وهي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « التوحيد، الرسالة، البعث والجزاء » وقد عرضت لقصص الأنبياء بالتفصيل تسلياً للنبي عليه الصلاة والسلام على ما يلقيه من أذى المشركين لا سيما بعد تلك الفترة العصيبة التي مرت عليه بعد وفاة عمه « أبي طالب » وزوجه « خديجة » فكانت الآيات تنزل عليه وهي تقص عليه ما حدث لإخوانه الرسل من أنواع الابتلاء ، ليتأسى بهم في الصبر والثبات .

* ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي أحكمت آياته ، فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض ، لأنه تنزيل الحكيم العليم ، الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد . . ثم عرضت لعناصر الدعوة الإسلامية ، عن طريق الحجج العقلية ، مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وضربت مثلاً للفريقين وضّحت به الفارق الهائل بين المؤمنين والكافرين ، وفرقت بينهما كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ﴿ مثلُ الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ، هل يستويان مثلاً ؟ أفلا تذكرون ؟ ﴾ .

* ثم تحدثت عن الرسل الكرام مبتدئة بقصة « نوح » عليه السلام أب البشر الثاني ، لأنه لم ينج من الطوفان إلا نوحٌ والمؤمنون الذين ركبوا معه في السفينة ، وغرق كل من على وجه الأرض ، وهو أطول الأنبياء عمراً ، وأكثرهم بلاءً وصبراً .

* ثم ذكرت قصة « هود » عليه السلام الذي سميت السورة الكريمة باسمه ، تخليداً لجهوده الكريمة في الدعوة إلى الله ، فقد أرسله الله تعالى إلى قوم « عاد » العتاة المتجبرين ، الذين اغتروا بقوة أجسامهم وقالوا : من أشدُّ منا قوة ؟ فأهلكهم الله بالريح الصرصر العاتية ، وقد أسهت الآيات في الحديث عنهم بقصد العظة والعبرة للمتكبرين المتجبرين ﴿ وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم وعصوا رسله ، واتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ . . إلى قوله ألا إن عاداً كفروا ربهم ، ألا بعداً لعادٍ قوم هود ﴾ .

* ثم تلتها قصة نبي الله « صالح » ثم قصة « لوط » ثم قصة « شعيب » ثم قصة « موسى وهارون » صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، ثم جاء التعقيب المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات في

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ كَتَبُ أَحْكَمْتُ أَيَّتُهُ ثُمَّ فَصَلْتُ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴿٢﴾ وَإِنْ أَسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي

إهلاك الله تعالى للظالمين ﴿٣﴾ ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائم وحصيد . . إلى قوله تعالى : وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿٤﴾ .

* وختمت السورة الكريمة ببيان الحكمة من ذكر قصص المرسلين ، وذلك للاعتبار بما حدث للمكذبين في العصور السالفة ، ولتثبيت قلب النبي عليه السلام أمام تلك الشدائد والأهوال ﴿٥﴾ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . . إلى قوله فاعبدوه وتوكل عليه ، وما ربك بغافل عما تعملون ﴿٦﴾ وهكذا تختم السورة بالتوحيد كما بدأت به ليتناسق البدء مع الختام !!

اللفظ : ﴿أَحْكَمْتُ﴾ الإحكام : المنع من الفساد يقال : أحكم الأمر إذا أتى به على وجه لا يتطرق إليه خلل أو فساد ﴿مُسْتَقْرَاهَا﴾ المكان الذي تأوي إليه في الدنيا ﴿مُسْتَوْدَعُهَا﴾ المكان الذي تصير إليه بعد الموت ﴿أُمَّةٌ مَعْدُودَةٌ﴾ الأمة هنا بمعنى المدة من الزمن أي مدة محدودة من السنين قال القرطبي : والأمة اسم مشترك يطلق على ثمانية أوجه : الجماعة ، الملة ، الرجل الجامع للخير ، الحين والزمن ، أتباع الأنبياء ^(١) الخ ﴿مَرِيَّةٌ﴾ شك وارتياب ﴿ضَلٌّ﴾ ضاع وتلاشى ﴿لَا جَرَمَ﴾ كلمة واحدة بمعنى حقاً وهو قول الخليل وسيبويه ﴿أَخْبَتُوا﴾ خشعوا وخضعوا والإخبات : الذل والخضوع ﴿الْأَصْمُ﴾ الذي لا يسمع وبه صمم .

سَبَبُ النُّزُولِ : ذكر القرطبي عن ابن عباس أن « الأخنس بن شريق » كان رجلاً حلوا الكلام وحلوا المنطق ، يلقي رسول الله ﷺ بما يحب ، وينطوي له بقلبه على ما يسوء فأنزل الله ﴿٧﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَشْنُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخْفُوا مِنْهُ . . الآية ^(٢) .

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ، وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ، وعن ابن عباس أن معناه : أنا الله أرى ﴿كِتَابٌ أَحْكَمْتُ آيَاتِهِ﴾ أي هو كتابٌ جليل القدر ، نظمت آياته نظماً محكماً ، لا يلحقه تناقض ولا خلل ﴿ثُمَّ فَصَلْتُ﴾ أي بينت فيه أمور الحلال والحرام ، وما يحتاج إليه العباد في أمور المعاش والمعاد ﴿مَنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ أي من عند الله فصلها وبينها الخير العالم بكيفيات الأمور ، ولذا كانت محكمة أحسن الإحكام ومفصلة أحسن التفصيل ﴿أَلَّا

(١) كقوله تعالى ﴿وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِنَ النَّاسِ﴾ أي جماعة ، وقوله ﴿وَأَدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي حين من الزمن ، وقوله ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي ملة ودين الخ . (٢) القرطبي ٥ / ٩ .

فَضِّلْ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤﴾ أَلَا إِنَّهُمْ يَكُونُونَ صُدُورَهُمْ لَيَسْتَخِفُّوهُنَّ أَلَا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ عَزِيزٌ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٥﴾ * وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٦﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيَبْلُوَكُمْ

تعبدوا إلا الله ﴿١﴾ أي لثلاث تعبداً إلا الله ﴿٢﴾ إنني لكم منه نذيرٌ وبشيرٌ ﴿٣﴾ أي إنني مرسلٌ إليكم من جهته تعالى ، أنذركم بعذابه إن كفرتم ، وأبشركم بثوابه إن آمنتم ﴿٤﴾ وأن استغفروا ربكم ثم توبوا إليه ﴿٥﴾ أي استغفروه من الذنوب وأخلصوا التوبة واستقيموا عليها بالطاعة والإجابة ﴿٦﴾ يمتنعكم متاعاً حسناً ﴿٧﴾ أي يمتنعكم في هذه الدنيا بالمنافع الجليلة من سعة الرزق ، ورغد العيش ﴿٨﴾ إلى أجلٍ مسمى ﴿٩﴾ أي إلى وقتٍ محدّدٍ هو انتهاء أعماركم ﴿١٠﴾ ويؤتٍ كلَّ ذي فضلٍ فضله ﴿١١﴾ أي ويعطي كل محسنٍ في عمله جزاءً إحسانه ﴿١٢﴾ وإن تولّوا ﴿١٣﴾ أي وإن تولّوا عن الإيمان وتعرضوا عن طاعة الرحمن ﴿١٤﴾ فإنني أخاف عليكم عذاب يوم كبيرٍ ﴿١٥﴾ أي أخاف عليكم عذاب يوم القيامة ، ووصف العذاب بأنه كبير لما فيه من الأهوال الشديدة ﴿١٦﴾ إلى الله مرجعكم ﴿١٧﴾ أي إليه جلٌّ وعلا رجوعكم بعد الموت ﴿١٨﴾ وهو على كل شيء قديرٌ ﴿١٩﴾ أي قادر على إماتتكم ثم إحيائكم وعلى معاقبة من كذب لا يعجزه شيء ، وفي الآية تهديد عظيم ﴿٢٠﴾ ألا إنهم يثنون صدورهم ليستخفوا منه ﴿٢١﴾ قال ابن عباس : نزلت في الأخنس بن شريق كان يجالس رسول الله ﷺ ويحلف أنه ليحبه ويضمر خلاف ما يظهر^(١) وقال القرطبي : أخبر عن معادة المشركين للنبي ﷺ والمؤمنين ، ويظنون أنه تخفى على الله أحوالهم^(٢) والمعنى إنهم يطؤون صدورهم على عداوة النبي والمؤمنين ، يريدون بذلك أن يستخفوا من الله حتى لا يفتضح أمرهم ﴿٢٢﴾ ألا حين يستغشون ثيابهم ﴿٢٣﴾ أي حين يتغطون بثيابهم ﴿٢٤﴾ يعلم ما يسرون وما يعلنون ﴿٢٥﴾ أي يعلم تعالى ما يُبطنون وما يُظهرون وكان الآية تقول : لا تظنوا أن تغطيتكم تحجبكم عن الله بل الله يعلم سرائركم وظواهركم لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿٢٦﴾ إنه عليمٌ بذات الصدور ﴿٢٧﴾ أي عالم بما في القلوب ﴿٢٨﴾ وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ﴿٢٩﴾ أي ما من شيء يدب على وجه الأرض من إنسان أو حيوان إلا تكفل الله برزقه تفضلاً منه تعالى وكرماً ، فكما كان هو الخالق كان هو الرازق ﴿٣٠﴾ ويعلم مستقرها ومستودعها ﴿٣١﴾ قال ابن عباس : مستقرها حيث تأوي إليه من الأرض ، ومستودعها الموضع الذي تموت فيه فتدفن^(٣) ﴿٣٢﴾ كل في كتابٍ مبين ﴿٣٣﴾ أي كلٌّ من الأرزاق ، والأقدار ، والأعمار ، مسطرٌّ في اللوح المحفوظ وهو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ﴿٣٤﴾ أي خلقها في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا ، وفيه الحث للعباد على التأنّي في الأمور فإن الإله القادر على خلق الكائنات بلمح البصر خلقها في ستة أيام

أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾
 وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ ۚ أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ
 بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٨﴾ وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ ثُمَّ زَعَفْنَاهَا مِنْهُ إِنَّهُ لَيَكْفُرُ ۚ ﴿٩﴾
 وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي ۚ إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا
 وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١١﴾ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَضَائِقٌ بِهِ صَدْرُكَ
 ﴿١٢﴾ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ۚ أَيُّ وَكَانَ الْعَرْشُ قَبْلَ خَلْقِهَا عَلَى الْمَاءِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : أَيُّ مَا كَانَ تَحْتَهُ
 خَلْقٌ ، وَفِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْعَرْشَ وَالْمَاءَ كَانَا مَخْلُوقَيْنِ قَبْلَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴿١٣﴾ ﴿لَيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ
 عَمَلًا﴾ أَيُّ خَلْقَهُنَّ لِحِكْمَةٍ بِالْغَةِ لِيخْتَبِرَكُمْ فَيُظْهِرَ الْمُحْسِنُ مِنَ الْمُسِيءِ ، وَيَجَازِيَكُمْ حَسَبَ أَعْمَالِكُمْ
 ﴿وَلَئِنْ قُلْتُمْ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ﴾ أَيُّ وَلَئِنْ قُلْتُمْ يَا مُحَمَّدٌ لِأَوْلَٰئِكَ الْمُنْكَرِينَ مِنْ كَفَارِ مَكَّةَ إِنَّكُمْ
 سَتَبْعَثُونَ بَعْدَ مَوْتِكُمْ لِلْحِسَابِ ﴿لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ أَيُّ لَيَقُولَنَّ الْكَفَّارُ
 الْمُنْكَرُونَ لِلْبَعْثِ وَالنُّشُورِ مَا هَذَا الْقُرْآنُ إِلَّا سِحْرٌ وَاضِحٌ مَكْشُوفٌ ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى
 أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ﴾ أَيُّ إِلَى مَدَّةٍ مِنَ الزَّمَنِ قَلِيلَةٍ ﴿لَيَقُولَنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾ أَيُّ لَيَقُولَنَّ اسْتَهْزَاءً مَا يَمْنَعُهُ مِنَ التَّرْوَلِ ؟
 ﴿أَلَا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ﴾ أَيُّ أَلَا فَلْيَتَّبِعُوا فَإِنَّهُ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ لَيْسَ مَدْفُوعًا عَنْهُمْ
 ﴿وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أَيُّ نَزَلَ وَأَحَاطَ بِهِمْ جَزَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿وَلَئِنْ أَدْخَلْنَا
 الْإِنْسَانَ مِنْ رَحْمَةٍ﴾ أَيُّ أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ بِأَنْوَاعِ النِّعَمِ مِنَ الصَّحَّةِ ، وَالْأَمْنِ ، وَالرِّزْقِ وَغَيْرِهَا مِنَ النِّعَمِ
 ﴿ثُمَّ نَزَعْنَاهَا مِنْهُ﴾ أَيُّ ثُمَّ سَلَبْنَا تِلْكَ النِّعَمَ مِنْهُ ﴿إِنَّهُ لَيَكْفُرُ﴾ أَيُّ قَنُوطٌ مِنَ رَحْمَةِ اللَّهِ ، شَدِيدُ
 الْكُفْرِ بِهِ ﴿وَلَئِنْ أَدْخَلْنَاهُ نِعْمَاءً بَعْدَ ضَرَاءٍ مَسَتْهُ﴾ أَيُّ وَلَئِنْ مَنْحْنَا الْإِنْسَانَ نِعْمَةً مِنْ بَعْدِ مَا نَزَلَ بِهِ مِنَ
 الْضُرِّ ، وَمَا أَصَابَهُ مِنَ الْبَلَاءِ ، كَالْفَقْرِ وَالْمَرَضِ وَالشَّدَةِ ﴿لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي﴾ أَيُّ انْقَطَعَ الْفَقْرُ
 وَالضِّيقُ وَالْمَصَائِبُ وَلَنْ تَصِيبَنِي بَعْدَ الْيَوْمِ ﴿إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ﴾ أَيُّ بَطَرٌ بِالنِّعْمَةِ مَغْتَرٌ بِهَا ، مُتَعَاظِمٌ عَلَى
 النَّاسِ بِمَا أُوتِيَ ، وَالْآيَةُ ذِمٌّ لِمَنْ يَقْنَطُ عِنْدَ الشَّدَائِدِ ، وَيَبْطِرُ عِنْدَ النِّعَمِ ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا
 الصَّالِحَاتِ﴾ أَيُّ هَذِهِ عَادَةُ الْإِنْسَانِ إِلَّا الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَصْبِرُونَ عَلَى الضَّرَاءِ ، وَيَفْعَلُونَ الْخَيْرَ فِي النِّعْمَةِ ،
 فَهُمْ فِي حَالَتِي الْمَحَنَةِ وَالنِّعْمَةِ مُحْسِنُونَ ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ أَيُّ أُولَٰئِكَ الْمُوصُوفُونَ بِالصِّفَاتِ
 الْحَمِيدَةِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ لَذُنُوبِهِمْ ، وَأَجْرٌ كَبِيرٌ فِي الْآخِرَةِ هُوَ الْجَنَّةُ قَالَ فِي الْبَحْرِ : وَوَصَفَ الثَّوَابَ بِأَنَّهُ كَبِيرٌ وَذَلِكَ
 لِمَا اِحْتَوَى عَلَيْهِ مِنَ النِّعَمِ السَّرْمَدِيِّ ، وَالْأَمْنِ مِنَ الْعَذَابِ ، وَرِضَا اللَّهِ عَنْهُمْ ، وَالنَّظَرَ إِلَى وَجْهِهِ
 الْكَرِيمِ ﴿١٤﴾ ﴿فَلَعَلَّكَ تَارِكٌ بَعْضَ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ﴾ كَانَ الْمَشْرُكُونَ يَقْتَرِحُونَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنْ يَأْتِيَ
 بِكَتَرٍ أَوْ يَأْتِيَ مَعَهُ مَلِكٌ ، وَكَانُوا يَسْتَهْزِئُونَ بِالْقُرْآنِ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ : فَلَعَلَّكَ يَا مُحَمَّدٌ تَارِكٌ بَعْضَ مَا أُنْزِلَ

أَنْ يَقُولُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ كُتُبٌ أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ إِنَّكَ أَنْتَ نَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ
 افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوْرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾
 فَإِلَّا يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكَ أَنْزِلَ بِلَعْنِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا
 النَّارُ وَحِطَّ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ

إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَبْلُغُهُمْ إِتْيَاهُ لاسْتَهْزَائِهِمْ ﴿وضائقُ به صدرك﴾ أي ويضيق صدرك من تبليغهم ما
 نزل عليك من ربك خشية التكذيب ، والغرض تحريضه ﷺ على تبليغ الرسالة وعدم المبالاة بمن عاداه
 ﴿أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز﴾ أي لأجل أن يقولوا هلاً أنزل عليه مالٌ كثير ﴿أو جاء معه
 ملك﴾ أي جاء معه ملك يصدقهم كما اقترحنا ، قال تعالى محمداً مهمته عليه السلام ﴿إنما أنت نذير﴾
 أي لست يا محمد إلا منذراً تخوف المجرمين من عذاب الله ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ أي قائم على
 شئون العباد يحفظ عليهم أعمالهم ﴿أم يقولون افتراه﴾ أي بل يقولون اختلق محمد هذا القرآن وافتراه
 من عند نفسه ؟ ﴿قل فاتوا بعشر سُوْرٍ مثله مفتريات﴾ أي إن كان الأمر كذلك فاتوا بعشر سور
 مثله في الفصاحة والبلاغة مفتريات فأنتم عرب فصحاء ﴿وادعوا من استطعتم من دون الله﴾ أي
 استعينوا بمن شئتم غير الله سبحانه ﴿إن كنتم صادقين﴾ في أن هذا القرآن مفترى ﴿فإن لم يستجيبوا
 لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله﴾ أي فإن لم يستجب لكم من دعوتهم للمعاونة وعجزوا عن ذلك
 فاعلموا أيها المشركون أنما نزل هذا القرآن بوحي من الله ﴿وأن لا إله إلا هو﴾ أي لا رب ولا معبود إلا
 الله الذي أنزل هذا القرآن المعجز ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ لفظه استفهام ومعناه أمر أي فأسلموا بعد
 ظهور هذه الحجة القاطعة إذ لم يبق لكم عذر مانع من ذلك ، قال في التسهيل : الاستفهام معناه استدعاء
 إلى الإسلام ، وإلزام للكفار أن يسلموا لما قام الدليل على صحة الإسلام لعجزهم عن الإتيان بمثل
 القرآن^(١) ﴿من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي من كان يقصد بأعماله الصالحة نعيم الدنيا فقط
 لأنه لا يعتقد بالآخرة ﴿نوف إليهم أعمالهم فيها﴾ أي نوف إليهم أجور أعمالهم بما يحبون فيها من
 الصحة والأمن والرزق ﴿وهم فيها لا يبخسون﴾ أي وهم في الدنيا لا يُنقصون شيئاً من أجورهم قال
 قتادة : من كانت الدنيا همه ونيتة جازاه الله بحسناته في الدنيا ، ثم يُقضي إلى الآخرة وليس له حسنة
 يُعطى بها ، وأما المؤمن فيُجازى بحسناته في الدنيا ويثاب عليها في الآخرة^(٢) ﴿أولئك الذين ليس لهم في
 الآخرة إلا النار﴾ أي هؤلاء الذين هدفهم الدنيا ليس لهم في الآخرة إلا نار جهنم وعذابها المخلد ﴿وحيط

قَبْلَهُ كَتَبُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الْأَحْزَابِ فَلَئِنَّ أَمْرَهُ فَلَئِنَّ تَكُ
 فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٧﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا
 أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾
 الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿١٩﴾ أُولَئِكَ لَا يَكُونُوا مُعْجِزِينَ
 فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءٍ يُضْعِفُ لَهُمْ الْعَذَابُ مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا

ما صنعوا فيها) أي بطل ما صنعوه من الأعمال الصالحة لأنهم قد استوفوا في الدنيا جزاءها ﴿وباطل ما
 كانوا يعملون﴾ تأكيد لما سبق أي باطل ما كانوا يعملون في الدنيا من الخيرات ﴿أفمن كان على بينة
 من ربه﴾ أي أفمن كان على نور واضح ، وبرهان ساطع من الله تعالى ، وهو النبي ﷺ والمؤمنون ،
 وجوابه محذوف أي كمن كان يريد الحياة الدنيا ؟ يريد أن بينهما تفاوتاً كبيراً ، وتبائناً بعيداً ، فلا يستوي من
 أراد الله ، ومن أراد الدنيا وزينتها ﴿ويتلوه شاهد منه﴾ أي ويتبعه شاهد من الله بصدقه قال ابن
 عباس : هو جبريل عليه السلام ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة﴾ أي ومن قبل القرآن كتاب
 التوراة الذي أنزله الله على موسى قدوة في الخير ورحمة لمن نزل عليهم ﴿أولئك يؤمنون به﴾ أي
 أولئك الموصوفون بأنهم على نور من ربهم يصدقون بالقرآن حق التصديق ﴿ومن يكفر به من
 الأحزاب فالنار موعده﴾ أي ومن يكفر بالقرآن من أهل الملل والأديان ، فله نار جهنم يردها لا محالة
 ﴿فلاتك في مِرْيَةٍ مِنْهُ﴾ أي فلا تكن في شك من هذا القرآن ﴿إنه الحق من ربك﴾ أي إنه
 الحق الثابت المنزل من عند الله ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون أنه تنزيل رب
 العالمين ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً﴾ أي لا أحد أظلم ولا أظلم ممن اختلق الكذب على
 الله بنسبة الشريك والولد إليه ﴿أولئك يعرضون على ربهم﴾ أي يعرضون يوم القيامة في جملة الخلق على
 خالقهم ومالكهم ﴿ويقول الأشهاد هؤلاء الذين كذبوا على ربهم﴾ أي ويقول الخلائق والملائكة الذين
 يشهدون على أعمالهم هؤلاء الذين كذبوا على الله ، والغرض فضيحتهم في الدار الآخرة على رؤوس
 الأشهاد والتشهير بهم خزيًا ونكالاً ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ لظلمهم وافتراءهم على الله ،
 واللعنة : الطرد من رحمة الله ﴿الذين يصدون عن سبيل الله﴾ أي يمنعون الناس عن اتباع الحق ،
 وسلوك سبيل الهدى الموصل إلى الله ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي ويريدون أن تكون السبيل معوجة أي
 ييغون أن يكون دين الله معوجاً على حسب أهوائهم ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي جاحدون
 بالآخرة منكرون للبعث والنشور ﴿أولئك لم يكونوا معجزين في الأرض﴾ أي ليسوا مفلتين من
 عذاب الله وإن أمهلهم ﴿وما كان لهم من دون الله من أولياء﴾ أي ليس لهم من يتولاهم أو يمنعهم
 من عذاب الله ﴿يضاعف لهم العذاب﴾ جملة مستأنفة أي يضاعف عليهم العذاب بسبب إجرامهم

كَانُوا يُبْصِرُونَ ﴿٢٠﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢١﴾ لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَخْبَتُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٣﴾ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصْمَى وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾

وطغيانهم ﴿ ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون ﴾ أي سبب تشديد العذاب ومضاعفته عليهم أن الله جعل لهم سمعاً وبصراً ، ولكنهم كانوا صماً عن سماع الحق ، عمياً عن اتباعه ، فلم ينتفعوا بما منحهم الله من حواس ﴿ أولئك الذين خسروا أنفسهم ﴾ أي خسروا سعادة الدنيا والآخرة ، وخسروا راحة أنفسهم لدخولهم نار جهنم ﴿ وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ أي وغاب عنهم ما كانوا يزعمونه من شفاعاة الآلهة ﴿ لا جرم أنهم في الآخرة هم الأخسرون ﴾ أي حقاً إنهم يوم القيامة من أخسر الناس ، ولا ترى أحداً أبين خسراناً منهم ، لأنهم أثروا الفانية على الباقية ، واستعاضوا عن الجنان بلظى النيران ، ثم لما ذكر تعالى حال الكفار الأشقياء ، ذكر حال المؤمنين السعداء فقال ﴿ إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم ﴾ أي جمعوا مع الإيمان والعمل الصالح الإخبات : وهو الاطمئنان إليه سبحانه والخشوع له والانقطاع لعبادته ﴿ أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ﴾ أي منعمون في الجنة لا يخرجون منها أبداً ﴿ مثل الفريقين ﴾ أي فريق المؤمنين وفريق الكافرين ﴿ كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع ﴾ قال الزمخشري : شبه فريق الكافرين بالأعمى والأصم ، وفريق المؤمنين بالبصير والسميع ، وهو من اللف والطباق ^(١) والمعنى حال الفريقين العجيب كحال من جمع بين العمى والصمم ، ومن جمع بين السمع والبصر ﴿ هل يستويان مثلاً ﴾ الاستفهام إنكاري أي لا يستويان مثلاً فليس حال من يبصر نور الحق ويستضيء بضياءه كحال من يخط في ظلمات الضلالة ولا يهتدي إلى سبيل السعادة ﴿ أفلا تذكرون ﴾ أي أفلا تعتبرون وتتعتظون ؟ والغرض التفريق بين أهل الطاعة والإيمان ، وأهل الجحود والعصيان .

البالغة : ١ - ﴿ عذاب يوم كبير ﴾ إضافة العذاب إلى اليوم الكبير للتهويل والتفطيع .

٢ - ﴿ ما يسرون وما يعلنون ﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿ نعماء وضراء ﴾ وبين ﴿ نذير وبشير ﴾ .

٣ - ﴿ يثوس كفور ﴾ من صيغ المبالغة أي شديد اليأس كثير الكفران .

٤ - ﴿ كالأعمى والأصم ﴾ فيه تشبيه مرسل مجمل لوجود أداة التشبيه وحذف وجه الشبه أي مثل

الفريق الكافر كالأعمى والأصم في عدم البصر والسمع ، ومثل الفريق المؤمن كالسميع والبصير .

لطيفة : قال بعض الصالحين : الاستغفار بلا إقلاع عن الذنب توبة الكذابين ^(٢) .

تَبْيِيْهُ : التحدي بعشر سور جاء بعد التحدي بالقرآن الكريم ، فلما عجزوا عن الإتيان بمثل القرآن تحداهم بعشر سور ، ثم لما عجزوا تحداهم بالإتيان بسورة مثله في البلاغة والفصاحة والاشتمال على المغيبات والأحكام التشريعية وأمثالها ، وهي الأنواع التسعة وقد نظمها بعضهم بقوله :

ألا إنما القرآن تسعة أحرفٍ سأنبيكها في بيت شعر بلا مكل
حلال ، حرام ، محكم ، متشابه بشير ، نذير ، قصة ، عظة ، مثل

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه .. إلى .. فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾
من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٤٩) .

النَّاسِكَةُ : لما ذكر تعالى عناد الكافرين من أهل مكة ، وتكذيبهم لرسول الله ﷺ واتهامهم له بافتراء القرآن ، ذكر هنا قصة نوح مع قومه الكافرين لتكون كالعظة والعبرة لمن كذب وعاند ، ولتسلية الرسول ﷺ بسرد قصص المرسلين وما جرى لهم مع أقوامهم .

اللفظة : ﴿ الملأ ﴾ أشرف القوم وسادتهم ﴿ أراذلنا ﴾ الأراذل هنا : المراد بهم الفقراء والضعفاء والسفلة ، وهو جمع أرذل بمعنى السافل الذي لا خلاق له ولا يبالي بما يفعل ﴿ فعُميت ﴾ عمي عن كذا ، وعمي عليه كذا ، بمعنى التبس عليه ولم يفهمه ، وخفي عليه أمره ﴿ جادلنا ﴾ الجدل في كلام العرب : المبالغة في الخصومة ﴿ تزدري ﴾ تحتقر ﴿ الفلك ﴾ السفينة ويطلق على المفرد والجمع ﴿ التنور ﴾ مستوقد النار ﴿ مرساها ﴾ رسا الشيء يرسو ثبت واستقر ﴿ عاصم ﴾ مانع يقال : عصمه إذا منعه ومنه الحديث (فقد عصموا مني دماءهم) ﴿ غيض ﴾ غاض الماء نقص بنفسه وغضته أنقصته ﴿ الجودي ﴾ جبل بقرب الموصل .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَنْ لَا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمِ

الْيَمِ ﴿٢٦﴾ فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا

النفسير : ﴿ ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه ﴾ أي أرسلناه رسولاً إلى قومه بعد أن امتلأت الأرض بشركهم وشرورهم ﴿ إني لكم نذير مبين ﴾ أي بأنني منذر لكم وخوف من عذاب الله إن لم تؤمنوا ﴿ أن لا تعبدوا إلا الله ﴾ أي أرسلناه بدعوة التوحيد وهي عبادة الله وحده ﴿ إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم ﴾ أي إني أخاف عليكم إن عبدتم غيره عذاب يوم شديد مؤلم ﴿ فقال الملأ الذين كفروا من قومه ﴾ أي قال السادة والكبراء من قوم نوح ﴿ ما نراك إلا بشراً مثلاً ﴾ أي ما نراك إلا واحداً مثلاً ولا فضل لك علينا قال الزمخشري : وفيه تعريض بأنهم أحق منه بالنبوة ، وأن الله لو أراد أن يجعلها في أحد من البشر لجعلها فيهم ^(١) ﴿ وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾ أي وما اتبعك إلا سفلة الناس قال في التسهيل : وإنما

بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَءَاتَنِي رَحْمَةً مِنْ عِنْدِهِ فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ أَنْزِلُكُمْ كُوهَا وَأَنْتُمْ لَهَا كَاهُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقَوْمِ لَا تَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَا لَا إِنِّ أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَمَا أَنَا بِطَارِدٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّهُمْ مُلْتَقُوا رَبِّهِمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٩﴾ وَيَقَوْمِ مَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ طَرَدْتُهُمْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣٠﴾ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدِرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنْفُسِهِمْ إِنِّي إِذَا لَمَنْ

وصفوههم بذلك لفقرهم جهلاً منهم واعتقاداً بأن الشرف هو بالمال والجاه ، وليس الامر كذلك ، بل المؤمنون أشرف منهم على فقرهم وخمولهم^(١) ﴿بَادِيَ الرَّأْيِ﴾ أي في ظاهر الرأي من غير تفكير أو روية ﴿وما نرى لكم علينا من فضل﴾ أي وما نرى لك ولأتباعك من مزية وشرف علينا يؤهلكم للنبوّة ، واستحقاق المتابعة ﴿بل نظنكم كاذبين﴾ أي بل نظنكم كاذبين فيما تدعونه ، أرادوا أن يحجوا نوحاً من وجهين : أحدهما : أن المتبعين له أراذل القوم ليسوا قدوة ولا أسوة ، والثاني : أنهم مع ذلك لم يتروا في اتباعه ، ولا أمعنوا الفكر في صحة ما جاء به ، وإنما بادروا إلى ذلك من غير فكرة ولا روية ، وغرضهم ألا تقوم الحجة عليهم بأن منهم من آمن به وصدّقه ﴿قال يا قوم أرايتم إن كنتُ على بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ تُلطف معهم في الخطاب لاستمالتهم إلى الإيمان أي قال لهم نوح : أخبروني يا قوم إن كنتُ على برهان وأمر جليٍّ من ربي بصحة دعواي ﴿وأتاني رحمةً من عنده﴾ أي ورزقني هداية خاصة من عنده وهي النبوّة ﴿فَعَمَّيْتُ عَلَيْكُمْ﴾ أي فخفي الأمر عليكم لاحتجابكم بالمادة عن نور الإيمان ﴿أنزلكم كُوهًا وأنتم لها كاهون﴾ أي أنكرهكم على قبولها ونجبركم على الإهتداء بها والحال أنكم كاهون منكرون لها ؟ والاستفهام للإنكار أي لا نفعل ذلك لأنه لا إكراه في الدين ﴿ويا قوم لا أسألكم عليه مالا﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الدعوة أجراً ، ولا أطلب على النصيحة مالا حتى تهمني ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي ما أطلب ثوابي إلا من الله فإنه هو الذي يثيبني ويجازيني ﴿وما أنا بطارد الذين آمنوا﴾ أي ولست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عن مجلسي ، ولا بطاردهم عني كما طلبتم ﴿إنهم ملاقوا ربهم﴾ أي إنهم صائرون إلى ربهم ، وفائزون بقربه فكيف أطردهم ؟ ﴿ولكني أراكم قوماً تجهلون﴾ أي ولكنكم قوم تجهلون قدرهم فطلبون طردهم ، وتظنون أنكم خير منهم ﴿ويا قوم من ينصُرني من الله إن طردتهم﴾ أي من يدفع عني عقاب الله إن ظلمتهم وطردتهم ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتفكرون فتعلمون خطأ رأيكم وتنزجرون عنه ؟ ﴿ولا أقول لكم عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ﴾ أي لا أقول لكم عِنْدِي المال الوافر الكثير حتى تتبعوني لغناي ﴿ولا أعلم الغيب﴾ أي لا أقول لكم إنني أرسلت إنني أعلم الغيب حتى تظنوا بي الربوبية ﴿ولا أقول إِنِّي مَلَكٌ﴾ أي ولا أقول لكم إنني من الملائكة أرسلت

الظَّالِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا يَنْوُحُ قَدْ جَدَلْنَا فَاكْثَرْتَ جِدْلَنَا فَاْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُمْ بِهِ اللَّهُ إِنْ شَاءَ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ افْتَرَيْتُهُ فَعَلِيَ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَجْرُمُونَ ﴿٣٥﴾ وَأُوحِيَ إِلَيَّ نُوحٌ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحِّينَا وَلَا تَخْطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٣٧﴾ وَيَصْنَعُ الْفُلُكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأَ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنِّي فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ

إليكم فأكون كاذباً في دعواي ﴿٣١﴾ ولا أقول للذين تزدي أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً ﴿٣٢﴾ أي ولا أقول لهؤلاء الضعفاء الذين آمنوا بي واحتقرتموهم لفقرهم لن يمنحهم الله الهداية والتوفيق ﴿٣٣﴾ الله أعلم بما في أنفسهم ﴿٣٤﴾ أي أعلم بسرائرهم وضمائرهم ﴿٣٥﴾ إني إذا لمن الظالمين ﴿٣٦﴾ أي إني إن قلت ذلك أكون ظالماً مستحقاً للعقاب ﴿٣٧﴾ قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا ﴿٣٨﴾ أي قال قوم نوح لنوح عليه السلام : قد خاصمتنا فأكثرت خصومتنا ﴿٣٩﴾ فأتينا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴿٤٠﴾ أي فأتينا بالعذاب الذي كنت تعدنا به إن كنت صادقاً في ما تقول ﴿٤١﴾ قال إنما يأتيكم به الله إن شاء ﴿٤٢﴾ أي أمر تعجيل العذاب إليه تعالى لا إليّ فهو الذي يأتيكم به إن شاء ﴿٤٣﴾ وما أنتم بمعجزين ﴿٤٤﴾ أي ولستم بفائتين الله هرباً لأنكم في ملكه وسلطانه ﴿٤٥﴾ ولا ينفعكم نصحي إن أردت أن أنصح لكم ﴿٤٦﴾ أي ولا ينفعكم تذكيري إياكم ونصحي لكم ﴿٤٧﴾ إن كان الله يريد أن يغويكم ﴿٤٨﴾ أي إن أراد الله إضلالكم وهو جواب لما تقدم والمعنى ماذا ينفع نصحي لكم إن أراد الله شقاوتكم وإضلالكم ؟ ﴿٤٩﴾ هو ربكم وإليه ترجعون ﴿٥٠﴾ أي هو خالقكم والمتصرف في شئونكم ، وإليه مرجعكم ومصيركم فيجازيكم على أعمالكم ﴿٥١﴾ أم يقولون افتراه ﴿٥٢﴾ أي يقول كفار قريش اختلق محمد هذا القرآن من عند نفسه ﴿٥٣﴾ قل إن افتريته فعليّ إجرامي ﴿٥٤﴾ أي قل لهم يا محمد إن كنت قد افتريت هذا القرآن فعليّ وزري وذنبى ، ولا تؤاخذون أنتم بجريرتي ﴿٥٥﴾ وأنا بريء مما تجرمون ﴿٥٦﴾ أي وأنا بريء من إجرامكم بكفركم وتكذيبكم ، والآية اعتراض بين قصة نوح للإشارة إلى أن موقف مشركي مكة كموقف المشركين من قوم نوح في العناد والتكذيب ﴿٥٧﴾ وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن ﴿٥٨﴾ أي أوحى الله إلى نوح أنه لن يتبعك ويصدق برسالتك إلا من قد آمن من قبل ﴿٥٩﴾ فلا تبتئس بما كانوا يفعلون ﴿٦٠﴾ أي فلا تحزن بسبب كفرهم وتكذيبهم لك فإني مهلكهم ﴿٦١﴾ واصنع الفلك بأعيننا ﴿٦٢﴾ أي اصنع السفينة تحت نظرنا وبحفظنا ورعايتنا ﴿٦٣﴾ ووحينا ﴿٦٤﴾ أي وتعليمنا لك قال مجاهد : أي كما نأمرك ﴿٦٥﴾ ولا تخاطبني في الذين ظلموا ﴿٦٦﴾ أي لا تشفع فيهم

(١) هذا رأي أكثر المفسرين ، وذهب ابن عطية وأبو حيان إلى أن الآية من جملة قصة نوح وأن الضمير عائد إلى قوم نوح والمعنى يقولون افتري نوح هذه الأخبار الخ .

مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ ﴿٣٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٤٠﴾ * وَقَالَ أَرَبِئُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِبُهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٤١﴾ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ

فإني مهلكهم لا محالة ﴿إنهم مُغرقون﴾ أي هالكون غرقاً بالطوفان ﴿ويصنعُ الفلْكَ﴾ حكاية حالٍ ماضيةٍ لاستحضارها في الذهن أي صنع نوحُ السفينة كما علّمه ربه ﴿وكلما مرّ عليه ملاء من قومه سخروا منه﴾ أي كلما مرّ عليه جماعة من كبراء قومه هزءوا منه وضحكوا وقالوا : يا نوحُ كنتَ بالأمس نبياً ، وأصبحتَ اليوم نجاراً !! ﴿قال إن تسخروا منّا﴾ أي إن تهزءوا منا اليوم ﴿فإنّا نسخر منكم كما تسخرون﴾ أي فإنّا سنسخر منكم في المستقبل عندما تغرقون مثل سخريتكم منا الآن ، فأنتم أولى بالسخرية والاستهزاء ﴿فسوف تعلمون﴾ وعيدٌ وتهديد أي سوف تعلمون عاقبة التكذيب والاستهزاء ﴿من يأتيه عذابٌ يُخْزِيهِ﴾ أي عذابٌ يذُلُّه ويهينه وهو الغرق ﴿ويحلُّ عليه عذابٌ مُقِيمٌ﴾ أي وينزل عليه عذاب دائم لا ينقطع وهو عذاب جهنم ﴿حتى إذا جاء أمرنا﴾ أي جاء أمرنا الموعد بالطوفان ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء من التنور الذي يوقد به النار قال العلماء : جعل الله ذلك علامة لنوح وموعداً لهلاك قومه ، وقال ابن عباس : التنور وجهُ الأرض قال الطبري : والعرب تسمي وجه الأرض تنور الأرض ، قيل له : إذا رأيت الماء على وجه الأرض فاركب أنت ومن معك^(١) في السفينة وقال ابن كثير : التنور وجه الأرض أي صارت الأرض عيوناً تغور ، حتى فار الماء من التناير التي هي مكان النار صارت تغور ماءً ، وهذا قول جمهور السلف والخلف^(٢) ﴿قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي احمل في السفينة من كل صنفٍ من المخلوقات اثنين : ذكراً ، وأنثى ﴿وأهلك إلا من سَبَقَ عليه القول﴾ أي واحمل قرابتك أيضاً أولادك ونساءك إلا من حكم الله بهلاكه ، والمراد به ابنه الكافر «كنعان» وامراته «واعلة» ﴿ومن آمن﴾ أي واحمل معك من آمن من أتباعك ﴿وما آمن معه إلا قليل﴾ أي وما آمن بنوح إلا نزرٌ يسير مع طول إقامته بينهم وهي مدة تسعمائة وخمسين سنة ، قال ابن عباس : كانوا ثمانين نفساً منهم نساؤهم ، وعن كعب : كانوا اثنين وسبعين نفساً ، وقيل : كانوا عشرة^(٣) ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومُرساها﴾ أي وقال نوح لمن آمن به اركبوا في السفينة ، باسم الله يكون جريهاً على وجه الماء ، وباسم الله يكون رسوهاً واستقرارها قال الطبري : المعنى بسم الله حين تجري وحين تُرسي ، أي حين تسير وحين تقف^(٤) ﴿إن ربي لغفور رحيم﴾ أي ساتر للذنوب التائبين ، رحيم بالْمَوْءِنين حيث نجاهم من الغرق ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ أي والسفينة تسير بهم وسط الأمواج ، التي هي كالجبل في العِظَم والارتفاع ، بإذن الله وعنايته ولطفه قال الصاوي : رُوي أن الله أرسل المطر

(١) بعد أن ذكر الإمام الطبري أقوال السلف في المراد بالتنور قال : وأولى هذه الأقوال عندنا قول من قال : هو التنور الذي يجبر فيه لأن ذلك

هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله يحمل على الأغلب الأشهر . انظر الطبري ٤٠/١٢ . (٢) المختصر ٢٢٠/٢ .

(٣) مختصر ابن كثير ٢٢٠/٢ . (٤) الطبري ٤٤/١٢ .

فِي مَعَزٍ يَنْبُئُ أَرْكَبَ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ سَاوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ ﴿١٣﴾ وَقِيلَ يَتَّارُضْ أَبْلَعِي مَاءَكَ وَيَسْمَاءُ أَقْلَعِي وَغِيضَ الْمَاءِ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١٤﴾ وَنَادَى نُوحٌ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنْتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ ﴿١٥﴾ قَالَ يَنْفُحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْخٰهِلِينَ ﴿١٦﴾

أربعين يوماً و ليلة ، وخرج الماء من الأرض ينابيع كما قال تعالى ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر وفجرنا الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قدر﴾ وارتفع الماء على أعلى جبل أربعين ذراعاً حتى أغرق كل شيء ^(١) ﴿ونادى نوحُ ابنه وكان في معزل﴾ أي ونادى نوحُ ولده «كنعان» قبيل سير السفينة وكان في ناحية منها لم يركب مع المؤمنين ﴿يا بُنَيَّ اركب معنا﴾ أي اركب معنا ولا تهلك نفسك بالغرق ﴿ولا تكن مع الكافرين﴾ أي فتغرق كما يغرقون ﴿قال ساوي إلى جبل يعصمني من الماء﴾ أي سأصعد إلى رأس جبل أتحصن به من الغرق ، ظناً منه أن الماء لا يصل إلى رؤوس الجبال ﴿قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم﴾ أي قال له أبوه نوح : لا معصوم اليوم من عذاب الله ولا ناجي من عقابه إلا من رحمه الله ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ أي حال بين نوح وولده موج البحر فغرق ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك﴾ أي انشقي وابتلعي ما على وجهك من الماء ﴿ويا سماء اقلعي﴾ أي أمسكي عن المطر ﴿وغِيضُ الْمَاءِ﴾ أي ذهب في أغوار الأرض قال مجاهد : نقص الماء ﴿وقُضِيَ الْأَمْرُ﴾ أي تمَّ أمر الله بإغراق من غرق ، ونجاة من نجا ﴿واستوت على الجودي﴾ أي استقرت السفينة على جبل الجودي بقرب الموصل ﴿وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ أي هلاكاً وخساراً لمن كفر بالله وهي جملة دعائية قال الألوسي : ولا يخفى ما في الآية من الدلالة على عموم هلاك الكفرة ، بل على عموم هلاك أهل الأرض ما عدا أهل السفينة ، ويدل عليه ما روي أن الغرق أصاب امرأة معها صبي لها فوضعت على صدرها ، فلما بلغها الماء وضعت على منكبها ، فلما بلغها الماء رفعتها بيديها ، فلو رحم الله أحداً من أهل الأرض لرحمها ^(٢) ﴿ونادى نوحُ رَبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ أي نادى نوحُ رَبَّهُ متضرعاً إليه فقال : ربِّ إِنَّ ابْنِي «كنعان» من أهلي وقد وعدتني بنجاتهم ﴿وإنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ﴾ أي وعدك حق لا خُلف فيه ﴿وأنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ أي وأنتَ يا الله أعدل الحاكمين بالحق ﴿قال يا نوحُ إنه ليسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ أي قال له ربه : يا نوحُ إِنَّ ولدك هذا ليس من أهلك الذين وعدتكَ بنجاتهم لأنه كافر ولا ولاية بين المؤمن والكافر ﴿إنه عملٌ غيرُ صالح﴾ أي إِنَّ عمله سيءٌ غير صالح ﴿فلا تسألن ما ليس لك به علم﴾ أي لا تطلب مني أمراً لا تعلم أصوابُ هو أم غير صواب ؟ ﴿إني أعظك أن تكون من

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢١٦ . (٢) روح المعاني ١٢/ ٦٢ .

قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٤٧﴾ قِيلَ
يَنُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا وَبَرَكَاتٍ عَلَيْكَ وَعَلَى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ وَأُمٌّ سَمْتَعُهُمْ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلِيمٌ ﴿٤٨﴾
تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ
لِلْمُتَّقِينَ ﴿٤٩﴾

الجاهلين ﴿٤٧﴾ أي إني أنبهك وأنصحك خشية أن تكون من الجاهلين قال في التسهيل : وليس في ذلك وصف له بالجهل ، بل فيه ملاطفة وإكرام ﴿٤٨﴾ قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم ﴿٤٩﴾ أي قال نوح معتذراً إلى ربه عما صدر عنه : رب إني أستجير بك من أن أسألك أمراً لا يليق بي سؤاله ﴿٥٠﴾ وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين ﴿٥١﴾ أي وإلا تغفر لي زلتي ، وتنداركني برحمتك ، أكن ممن خسر آخرته وسعادته ﴿٥٢﴾ قِيلَ يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلَامٍ مِنَّا ﴿٥٣﴾ أي اهبط من السفينة بسلامة وأمن ﴿٥٤﴾ وبركاتٍ عليك وعلى أُمَمٍ مِّمَّنْ مَعَكَ ﴿٥٥﴾ أي وخيراتٍ عظيمة عليك وعلى ذرية من معك من أهل السفينة ، قال القرطبي : دخل في هذا كل مؤمن إلى يوم القيامة ﴿٥٦﴾ وَأُمٌّ سَمْتَعُهُمْ ﴿٥٧﴾ أي وأُممٌ أخرى من ذرية من معك تمتعهم متاع الحياة الدنيا وهم الكفرة المجرمون ﴿٥٨﴾ ثُمَّ يَمْسُهُمْ مِنَ الْعَذَابِ أَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ أي ثم نذيقهم في الآخرة العذاب الأليم وهو عذاب جهنم ﴿٦٠﴾ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ ﴿٦١﴾ أي هذه القصة وأشباهاها من أخبار الغيوب السالفة التي لم تشهدها ﴿٦٢﴾ نُوحِيهَا إِلَيْكَ ﴿٦٣﴾ أي نعلمك بها يا محمد بواسطة الوحي ﴿٦٤﴾ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ﴿٦٥﴾ أي لم يكن عندك ولا عند أحدٍ من قومك علمٌ بها من قبل هذا القرآن ﴿٦٦﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ أي فاصبر على أمر الله بتبليغ الدعوة كما صبر نوح ، فإن العاقبة المحمودة لمن اتقى الله ، وفيه تسلية له ﷺ على أذى المشركين .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ﴾ شبه الذي لا يهتدي بالحجة لخفائها عليه ، بمن سلك مفازة لا يعرف طرقها ومسالكها ، واتباع دليلاً أعمى فيها على سبيل الاستعارة التمثيلية .

٢ - ﴿أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الاستفهام للإنكار والتقريع .

٣ - ﴿فَإِنَّا نَعِدُنَا﴾ الأمر يراد به التهكم والاستهزاء .

٤ - ﴿فَعَلِيَ إِجْرَامِي﴾ مجاز بالحذف أي عقوبة إجرامي وجاء بـ ﴿إِنْ﴾ الدالة على الشك لبيان أنه على سبيل الفرض ﴿إِنْ افْتَرَيْتَهُ﴾ بخلاف إجرامهم فإنه محقق ﴿وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرَمُونَ﴾ .

٥ - ﴿وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ الأعين كناية عن الرعاية والحفظ يقال للمسافر « صحبتك عين الله » أي رعاية الله وحفظه .

٦ - ﴿يا أرضُ ابلعي ماءك ويا سماء اقلعي﴾ بين الأرض والسماء طباقاً ، وبين ابلعي وأقلعي جناسٌ ناقص ، وكلاهما من المحسنات البديعية .

فكائدة : قال ابن عباس في قوله تعالى ﴿إنه ليس من أهلِكَ﴾ كان ابنه من صلبه ، ولكنه لم يكن مؤمناً ، وما بغت امرأة نبي قط ومعنى الآية : إنه ليس من أهلِكَ الذين وعدتكَ أن أنجيهم معك^(١) .

أقول : نهت الآية على أن أهله هم الصلحاء ، أهل دينه وشريعته ، فمن لا صلاح له لا نجاة له ، ومدار الأهلية القرابة الدينية ، لا القرابة البدنية .

أبي الإسلام لا أبَ لي سواه إذا افتخروا بقيسٍ أو تميم

لطيفة : روي أن أعرابياً سمع هذه الآية ﴿وقيل يا أرضُ ابلعي ماءك ، ويا سماء اقلعي . .﴾ الآية فقال : هذا كلام القادرين لا يشبه كلام المخلوقين ، ويروى أن « ابن المقفع » - وكان أفصح أهل زمانه - رام أن يعارض القرآن فنظم كلاماً ، وجعله مفصلاً ، وسمّاه سوراً ، فمر يوماً بصبي فسمعه يقرأ الآية فرجع إلى بيته ومحا ما كان قد بدأ به ، وقال : أشهد أن هذا لا يُعارض أبداً ، وما هو من كلام البشر^(٢) .

تبليغ : هذه الآية بلغت من أسرار الإعجاز غايتها ، وحوّت من بدائع الفوائد نهايتها ، وجمعت من المحاسن اللفظية والمعنوية ما يضيق عنه نطاق البيان ، وقد اهتم بإظهار لطائفها وأسرارها العلامة أبو حيان حيث قال رحمه الله وطيب ثراه : في هذه الآية أحد وعشرون نوعاً من البديع : المناسبة في قوله ﴿أقلعي وابلعي﴾ والمطابقة بذكر الأرض والسماء ، والمجاز في ﴿يا سماء﴾ المراد مطر السماء ، والاستعارة في ﴿أقلعي﴾ والإشارة في ﴿وغيض الماء﴾ فإنها إشارة إلى معانٍ كثيرة ، والتمثيل في ﴿وقضي الأمر﴾ عبر بالأمر عن إهلاك الهالكين ونجاة الناجين ، والإرداف في ﴿واستوت على الجودي﴾ فلفظ واستوت كلام تام أردفه بلفظ ﴿على الجودي﴾ قصداً للمبالغة في التمكن بهذا المكان ، والتعليل في ﴿وغيض الماء﴾ فإنه علة للاستواء ، والاحتراس في ﴿بعداً للقوم الظالمين﴾ وهو أيضاً ذم لهم ، والإيجاز وهو ذكر القصة باللفظ القصير مستوعباً للمعاني الجمّة ، وعدد بقية الوجوه وهي : الإيضاح ، والمساواة ، وحسن النسق ، وصحة التقسيم ، وحسن البيان ، والتمكين ، والتجنيس ، والتسليم ، والمقابلة ، والتعذيب ، والوصف^(٣) .

« مقتطفات من تفسير سيد قطب في ظلال القرآن »

وننقل هنا فقراتٍ من تفسير شهيد الإسلام « سيد قطب » عليه الرحمة والرضوان حيث قال ما نصه :

(١) الطبري ٥١/١٢ . (٢) روح المعاني ٦٣/١٢ . (٣) النهر الماد من البحر ٥/٢٢٧ .

« وعند هذا المقطع من قصة نوح يلتفت السياقُ لفئةٍ عجيبة ، إلى استقبال مشركي قريش لمثل هذه القصة التي تشبه أن تكون قصَّتْهم مع الرسول ﷺ ودعواهم أن محمداً يفترى هذا القصص ﴿أم يقولون افتراه ؟ قل إن افتريته فعليّ إجرامي وأنا بريء مما تجرمون﴾ فالافتراء إجرام وعليّ تبعته ، وأنا أعرف أنه إجرام فمستبعدُ أن أرتكبه ، وهذا الاعتراضُ لا يخالف سياق القصة في القرآن لأنها إنما جاءت لتأدية غرضٍ معيّن ، ثم يمضي السياقُ في قصة نوح يعرض مشهداً ثانياً ، مشهد نوح يتلقى وحي ربه وأمره ﴿وأوحى إلى نوح أنه لن يؤمن من قومك إلا من قدامن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون . واصنع الفلك بأعيننا ووحينا﴾ أي برعايتنا وتعليمنا ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ فقد تقرر مصيرهم ، وانتهى الإنذار ، وانتهى الجدل . والمشهد الثالث من مشاهد القصة : مشهدُ نوح يصنع الفلك ﴿ويصنع الفلك وكلما مرَّ عليه ملاً من قومه سخرّوا منه﴾ والتعبير بالمضارع هو الذي يعطي المشهد حيويته وجدته ، فنحن نراه ماثلاً لخيالنا من وراء هذا التعبير ، وقومه المتكبرون يمدّون به فيسخرون ، يسخرون من الرجل الذي كان يقول لهم إنه رسول ، ثم إذا هو ينقلب نجاراً يصنع مركباً ، والمشهد الرابع : مشهد التعبئة عندما حلت اللحظة المرتقبة ﴿حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين . . .﴾ ثم يأتي المشهد الهائل المرهوب : مشهد الطوفان ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال . . . وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ إن الهول هنا هولان : هولٌ في الطبيعة الصامته ، وهولٌ في النفس البشرية يلتقيان . وإننا بعد آلاف السنين لنمسك أنفسنا - ونحن نتابع السياق - والهول يأخذنا كأننا نشهد المشهد ، ﴿وهي تجري بهم في موج كالجبال﴾ ونوحُ الوالد الملهوف يبعث بالنداء تلو النداء ، وابنه الفتى المغرور يأبى إجابة الدعاء ، والموجة الغامرة تحسم الموقف في سرعةٍ خاطفة راجفة ﴿وحال بينهما الموج فكان من المغرقين﴾ وينتهي كل شيء ، وكأن لم يكن دعاء ولا جواب ، وتلك سمة بارزة في تصوير القرآن . وتهداً العاصفة ، ويخيم السكون ، ويقضى الأمر ، ويوجه الخطاب إلى الأرض والسماء بصيغة العاقل ، فتستجيب كلتاها للأمر الفاصل ، فتبلع الأرض وتكف السماء ﴿وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودي ، وقيل بعداً للقوم الظالمين﴾ .

قال الله تعالى: ﴿وإلى عادٍ أخاهم هوداً . . إلى . . رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد﴾ من آية (٥٠) إلى نهاية آية (٧٣) .

المناسكة : هذه هي القصة الثانية من القصص التي ذكرها الله في هذه السورة الكريمة ، وهي قصة هود مع قومه عاد ، وقد ذكرها تعالى بالإسهاب ، ولهذا سميت السورة « سورة هود » ثم أعقبها بالحديث عن ثمود وهي القصة الثالثة في هذه السورة ، ثم قصة إبراهيم وبشارة الملائكة له بإسحاق وهي القصة الرابعة .

اللفظة: ﴿مدراراً﴾ كثيراً متتابعاً من درت السماء تدر إذا سكبت المطر بسخاء ، والمدرارُ : الكثير الدر وهو من أبنية المبالغة ﴿اعتراك﴾ أصابك ﴿ناصيتها﴾ الناصية : منبت الشعر في مقدم الرأس ﴿جبار﴾ الجبار : المتكبر ﴿عنيد﴾ العنيد : الطاعي الذي لا يقبل الحق ولا يذعن له ، قال أبو عبيدة : العنيد والمعاند : المعارض بالخلاف ﴿استعمركم فيها﴾ جعلكم عمّارها وسكانها ﴿تحسير﴾ تضليل وإبعاد عن الخير ﴿حنيد﴾ مشوي يقال : حنذت الشاة أحنيذها حنذاً أي شويتها ﴿نكرهم﴾ أنكرهم يقال : نكره وأنكره واستنكره بمعنى واحد وهو أن يجده على غير ما عهده قال الشاعر :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت من الحوادث إلا الشيب والصَّلْعَا^(١)

فجمع الشاعر بين اللغتين ﴿أوجس﴾ استشعر وأحس ﴿بعلي﴾ زوجي .

وإِلَىٰ عَادِ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَقَوْمِ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ إِن أَنُتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴿٥٥﴾ يَقَوْمِ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى الَّذِي فَطَرَنِي أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَقَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ

التفسير: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قبيلة عاد نبياً منهم اسمه هود ﴿قال يا قوم اعبدوا الله﴾ أي اعبدوا الله وحده دون الآلهة والأوثان ﴿ما لكم من إله غيره﴾ أي ليس لكم معبود غيره يستحق العبادة ﴿إن أنتم إلا مفترون﴾ أي ما أنتم في عبادتكم غير الله إلا كاذبون عليه جل وعلا ، لأنه لا إله سواه ﴿يا قوم لا أسألكم عليه أجراً﴾ أي لا أطلب منكم على النصيح والبلاغ جزاء ولا ثواباً ﴿إن أجري إلا على الذي فطرني﴾ أي ما ثوابي وجزائي إلا على الله الذي خلقني ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أنغفلون عن ذلك فلا تعقلون أن من يدعوكم إلى الخير دون إرادة جزاء منكم هو لكم ناصح أمين ؟ والاستفهام للإنكار والتفريع ﴿ويا قوم استغفروا ربكم﴾ أي استغفروه من الكفر والإشراك ﴿ثم توبوا إليه﴾ أي ارجعوا إليه بالطاعة والاستقامة على دينه والتمسك بالإيمان والتوحيد ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ أي يرسل عليكم المطر غزيراً متتابعاً ، روي أن عاداً كان حُبس عنهم المطر ثلاث سنين حتى كادوا يهلكون ، فأمرهم هود بالتوبة والاستغفار ووعدهم على ذلك بنزول الغيث والمطر ، وفي الآية دليل على أن التوبة والاستغفار ، سبب للرحمة ونزول الأمطار ﴿ويزدكم قوةً إلى قوتكم﴾ أي ويزدكم عزاً وفخاراً فوق عزكم وفخاركم قال مجاهد : شدة إلى شدتكم^(٢) ، فإنهم كانوا في غاية القوة والبطش حتى قالوا ﴿من أشد منا قوة﴾ ؟ ﴿ولا تتولّوا مجرمين﴾ أي لا تعرضوا عما أدعوكم إليه مصرّين على الإجرام ، وارتكاب الآثام ﴿قالوا يا هود ما جئتنا ببينة﴾ أي ما جئتنا بحجة واضحة تدل على صدقك قال الألوسي : وإنما قالوه لفرط عنادهم ، أو لشدة

وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا عَنْ قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ
إِنِّي أَشْهَدُ اللَّهَ وَأَشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ ﴿٥٥﴾ إِنِّي
تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هِيَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٦﴾ فَإِنْ
تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئًا إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ
شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَنَجَّيْنَاهُمْ مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٨﴾

عَمَاهُمْ عَنْ الْحَقِّ^(١) ﴿وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك﴾ أي لسنا بتاركين عبادة الأصنام من أجل قولك ﴿وما نحن لك بمؤمنين﴾ أي لسنا بمصدقين لبوتك ورسالتك ، والجملة تقنيطٌ من دخولهم في دينه ، ثم نسبوه إلى الخبل والجنون فقالوا ﴿إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ﴾ أي ما نقول إلا أصابك بعض آلهتنا بجنون لما سببتها ونهيتها عن عبادتها قال الزمخشري : دلت أجوبتهم المتقدمة على أن القوم كانوا جفاةً ، غلاظ الأكباد ، لا يلتفتون إلى النصيح ، ولا تلين شكيمتهم للرشد ، وقد دلَّ قولهم الأخير على جهلٍ مفرط ، وبلهٍ متناهٍ ، حيث اعتقدوا في حجارة أنها تنتصر وتنقم^(٢) ﴿قال إني أشهد الله﴾ أي قال هودُ إني أشهد الله على نفسي ﴿واشهدوا أني بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِهِ﴾ أي وأشهدكم أيضاً أيها القوم بأنني بَرِيءٌ مما تشركون في عبادة الله من الأوثان والأصنام ﴿فكِيدوني جميعاً ثم لا تُنْظِرُونَ﴾ أي فاحتالوا في هلاكهم أنتم وأهلتكم ثم لا تمهلوني طرفة عين قال أبو السعود : وهذا من أعظم المعجزات ، فإنه عليه السلام كان رجلاً مفرداً بين الجم الغفير من عتاة عاد ، الغلاظ الشداد ، وقد حقرهم وهيجهم بانتقاص آلهتهم ، وحثمهم على التصدي له فلم يقدرُوا على مباشرة شيء ، وظهر عجزهم عن ذلك ظهوراً بلياً^(٣) وقال الزمخشري : من أعظم الآيات أن يواجه بهذا الكلام رجلاً واحداً أمة عطاشاً إلى إراقة دمه ، يرمونه عن قوسٍ واحدة ، وذلك لثقتة بربه وأنه يعصمه منهم ، فلا تنشب فيه مخال بهم ، ومثله قول نوح ﴿فأجمعوا أمركم وشركاءكم﴾^(٤) ﴿إني توكلتُ على الله ربي وربكم﴾ أي إني لجأت إلى الله وفوضت أمري إليه تعالى مالكي ومالككم ﴿ما من دابةٍ إلا هو آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ أي ما من نسمةٍ تدبُّ على وجه الأرض إلا هي في قبضته وتحت قهره ، والآخذُ بالناصية تمثيلٌ للملك والقهر ، والجملة تعليلٌ لقوة توكله على الله وعدم مبالاته بالخلق ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي إن ربي عادل ، يجازي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، لا يظلم أحداً شيئاً ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ﴾ أي فإن تعرضوا عن قبول دعوتي فقد أبلغتكم أيها القوم رسالة ربي ، وما على الرسول إلا البلاغ ﴿ويستخلفُ ربي قوماً غيركم﴾ أي فسوف يهلككم الله ويستخلف قوماً آخرين غيركم ، وهذا وعيدٌ شديد ﴿ولا تضرُّونه شيئاً﴾ أي لا تضرُّون الله شيئاً بإشراككم ﴿إِنْ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أي إنه سبحانه رقيبٌ على كل شيء ، وهو يحفظني من شركم ومكركم ﴿ولما

وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ، وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٥٩﴾ وَاتَّبِعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴿٦٠﴾ أَلَا بَعْدَ لَعَادِ قَوْمِ هُودٍ ﴿٦١﴾ * وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تَوْبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالُوا يَصْلِحْ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا أَتَنْهَانَا أَنْ نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَإِنَّنَا

جاء أمرنا ﴿٥٩﴾ أي ولما جاء أمرنا بالعذاب ، وهو ما نزل بهم من الريح العقيم ﴿نجينا هوداً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي نجينا من العذاب هوداً والمؤمنين بفضل عظيم ونعمة منا عليهم ﴿ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ أي وخلصناهم من ذلك العذاب الشديد ، وهي الريح المدمرة التي كانت تهدم المساكن ، وتدخل في أنوف أعداء الله وتخرج من أديبارهم ، وتصرعهم على وجوههم حتى صاروا كأعجاز نخل خاوية ﴿وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم﴾ الإشارة لأثارهم أي تلك آثار المكذبين من قوم عاد انظروا ماذا حل بهم ، حين كفروا بالله ، وأنكروا آياته في الأنفس والآفاق الدالة على وحدانيته ؟ ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا رسوله هوداً ، وجمعه تفضيلاً لحالهم ، وإظهاراً لكمال كفرهم وعنادهم ، ببيان أن عصيانهم له عصيان لجميع الرسل السابقين واللاحقين لاتفاق كلمتهم على التوحيد ﴿واتبعوا أمر كل جبار عنيد﴾ أي أطاعوا أمر كل مستكبر على الله ، حائل عن الحق ، لا يُدعن له ولا يقبله ، يريد به الرؤساء والكبراء ﴿واتبعوا في هذه الدنيا لعنة﴾ أي وألحقوا باللعة والطرده من رحمة الله في الدنيا ﴿ويوم القيامة﴾ أي ويوم القيامة أيضاً تلحقهم اللعة قال الرازي : جعل اللعن رديفاً لهم ومتابعاً ومصاحباً في الدنيا والآخرة ، ومعنى اللعة الإبعاد من رحمة الله تعالى ومن كل خير ﴿أَلَا إِنَّ عَادًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ﴾ هذا تشنيع لكفرهم وتهويل بحرف التنبيه وبتكرار اسم عاد أي ألا فانتبهوا إن عاداً كفروا بربهم إذ عبدوا غيره ، وجحدوا نعمته إذ كذبوا رسوله ، فاستحقوا اللعة في الدنيا ، واللعة في الآخرة ﴿ألا بعداً لعاد قوم هود﴾ أي أبعدهم الله من الخير ، وأهلكهم عن بكرة أبيهم ، وهي جملة دعائية بالهلاك واللعة ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾ أي ولقد أرسلنا إلى قوم ثمود نبياً منهم وهو صالح عليه السلام ﴿قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره﴾ أي اعبدوا الله وحده ليس لكم ربٌ معبود سواه ﴿هو أنشأكم من الأرض﴾ أي هو تعالى ابتداء خلقكم من الأرض ، فخلق آدم من تراب ثم ذريته من نطفة ﴿واستعمركم فيها﴾ أي جعلكم عمارها وسكانها تسكنون بها ﴿فاستغفروهم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروهم من الشرك ثم ارجعوا إليه بالطاعة ﴿إن ربي قريب مجيب﴾ أي إنه سبحانه قريب الرحمة مجيب الدعاء ﴿قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوًّا قبل هذا﴾ أي كنا نرجو أن تكون فينا سيِّداً قبل تلك المقالة فلما قلتها انقطع رجائنا فيك ﴿أتنهانا أن نعبد ما يعبد آبائنا﴾ أي أتنهانا يا صالح عن عبادة الأوثان التي عبدها آبائنا ؟ ﴿وإننا لفي شكٍ مما تدعونا إليه مريب﴾ أي وإننا لشاكون في

لَنِي شِكِّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٌ ﴿٦٢﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيْنَةٍ مِنْ رَبِّي وَآتَنِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَنْ يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ، فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴿٦٣﴾ وَيَقَوْمِ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٤﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ذَلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ ﴿٦٦﴾ وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَنِينَ ﴿٦٧﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ۚ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ ﴿٦٨﴾ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ ۚ

دعواك ، وأمرُك مريب يوجب التهمة ﴿٦٢﴾ قال يا قوم أرايتم إن كنتُ على بينة من ربي ﴿٦٢﴾ أي أخبروني إن كنتُ على برهانٍ وحيجة واضحة من ربي ﴿٦٢﴾ وآتاني منه رحمة ﴿٦٢﴾ أي وأعطاني النبوة والرسالة ﴿٦٢﴾ فمن ينصرني من الله إن عصيته ﴿٦٢﴾ أي فمن يمنعني من عذاب الله إن عصيت أمره ؟ ﴿٦٢﴾ فما تزيدونني غير تخسير ﴿٦٢﴾ أي فما تزيدونني بموافقتكم وعصيان أمر الله غير تضليل وإبعاد عن الخير قال الزمخشري : ﴿٦٢﴾ غير تخسير ﴿٦٢﴾ يعني تخسرون أعمالِي وتبطلونها^(١) ﴿٦٢﴾ ويا قوم هذه ناقة الله لكم آية ﴿٦٢﴾ أضاف الناقة إلى الله تشريفاً لها لأنها خرجت من صخرة صماء بقدرة الله حسب طلبهم أي هذه الناقة معجزتي لكم وعلامة على صدقي ﴿٦٢﴾ فذروها تأكل في أرض الله ﴿٦٢﴾ أي دعوها تأكل وتشرب في أرض الله فليس عليكم رزقها ﴿٦٢﴾ ولا تمسوها بسوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴿٦٢﴾ أي لا تنالوها بشيءٍ من السوء فيصيبكم عذاب عاجل لا يتأخر عنكم ﴿٦٢﴾ فَعَقَرُوهَا فَقَالَ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ ﴿٦٢﴾ أي ذبحوا الناقة فقال لهم صالح : استمتعوا بالعيش في بلدكم ثلاثة أيام ثم تهلكون قال القرطبي : إنما عقرها بعضهم وأضيف إلى الكل لأنه كان برضى الباقين ، فعقرت يوم الأربعاء فأقاموا يوم الخميس والجمعة والسبت وأتاهم العذاب يوم الأحد^(٢) ﴿٦٢﴾ ذلك وعدٌ غير مكذوب ﴿٦٢﴾ أي وعدٌ حق غير مكذوب فيه ﴿٦٢﴾ فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين آمنوا معه ﴿٦٢﴾ أي فلما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا صالحاً ومن آمن به ﴿٦٢﴾ برحمة منا ﴿٦٢﴾ أي بنعمة وفضلٍ عظيم من الله ﴿٦٢﴾ ومن خزي يومئذٍ ﴿٦٢﴾ أي ونجيناهم من هوان ذلك اليوم وذُله ﴿٦٢﴾ إن ربَّكَ هو القويُّ العزيز ﴿٦٢﴾ أي القوي في بطشه ، العزيز في ملكه ، لا يغلبه غالب ، ولا يقهره قاهر ﴿٦٢﴾ وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جانمين ﴿٦٢﴾ أي أخذتهم صيحة من السماء تقطعت لها قلوبهم ، فأصبحوا هامدين موتى لا حراكَ بهم كالطير إذا جثمت ﴿٦٢﴾ كأن لم يَغْنَوْا فيها ﴿٦٢﴾ أي كأن لم يقيموا في ديارهم ولم يَعْمُرُوهَا ﴿٦٢﴾ أَلَا إِنَّ ثَمُودًا كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لَثَمُودَ ﴿٦٢﴾ أي ألا فانتبهوا أيها القوم إن ثمود كفروا بآيات ربهم فسحقاً لهم وبُعداً ، وهلاكاً ولعنة ﴿٦٢﴾ ولقد جاءت رسلنا إبراهيم بالبشرى ﴿٦٢﴾ هذه هي القصة الرابعة وهي قصة لوط وهلاك قومه المكذبين أي جاءت الملائكة الذين أرسلناهم لإهلاك قوم لوط إبراهيم

فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيزٍ ﴿٦٦﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا لَا تَخَفْ ۖ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ قَوْمِ لُوطٍ ﴿٦٧﴾ وَأَمْرًا تُرَقِّئُهُمْ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ ﴿٦٨﴾ قَالَتْ يَوَيْلَ لَيَّ إِلَدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا ۖ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٦٩﴾ قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ۖ رَحِمْتُ اللَّهَ وَبَرَكَتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ ۖ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٠﴾

بالبشارة بإسحاق^(١) ، قال القرطبي : لما أنزل الله الملائكة لعذاب قوم لوط مروا بإبراهيم فظنهم أضيافاً ، وهم جبريل وميكائيل وإسرافيل قاله ابن عباس ، وقال السدي : كانوا أحد عشر ملكاً على صورة الغلمان الحسان الوجوه^(٢) ﴿قالوا سلاماً﴾ أي سلموا عليه سلاماً ﴿قال سلام﴾ أي قال لهم إبراهيم : سلام عليكم قال المفسرون : ردّ عليهم التحية بأحسن من تحيتهم لأنه جاء بها جملة اسمية وهي تدل على الثبات والاستمرار ﴿فما لبث أن جاء بعجل حنيز﴾ أي فما أبطأ ولا تأخر مجيئه حتى جاء بعجل مشوي فقدمه لهم قال الزمخشري : والعجل : ولد البقرة ويسمى « الحسيل » وكان مال إبراهيم عليه السلام البقر ، والحنيز : المشوي بالحجارة المحماة في أخدود وقيل : الذي يقطر دسمه ويدل عليه « بعجل سمين »^(٣) ﴿فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم﴾ أي فلما رآهم لا يمدون أيديهم إلى الطعام ولا يأكلون منه أنكرهم ﴿وأوجس منهم خيفة﴾ أي أحس منهم الخوف والفرع قال قتادة : كان العرب إذا نزل بهم ضيف فلم يطعم من طعامهم ظنوا أنه لم يجيء بخير وأنه جاء يحدث نفسه بشر^(٤) ﴿قالوا لا تخف﴾ إنا أرسلنا إلى قوم لوط ﴿أي قالت الملائكة : لا تخف﴾ إنا ملائكة ربك لا نأكل ، وقد أرسلنا لإهلاك قوم لوط ﴿وامراته قائمة فضحكت﴾ أي وامرأة إبراهيم واسمها « سارة » قائمة وراء الستر تسمع كلامهم فضحكت استبشاراً بهلاك قوم لوط ﴿فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب﴾ أي بشرتها الملائكة بإسحاق ولداً لها ويأتيه مولود هو يعقوب ابناً لولدها ﴿قالت يا يويلى ألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخاً﴾ أي قالت سارة متعجبة : يا لهفي ويا عجبى ألد وأنا امرأة مسنة وهذا زوجي إبراهيم شيخ هرم أيضاً فكيف يأتينا الولد ؟ ﴿إن هذا لشيء عجيب﴾ أي إن هذا الأمر لشيء غريب لم تجر به العادة قال مجاهد : كانت يومئذ ابنة تسع وتسعين سنة ، وإبراهيم ابن مائة وعشرين سنة^(٥) ﴿قالوا أتعجبين من أمر الله﴾ أي أتعجبين من قدرة الله وحكمته في خلق الولد من زوجين هرمين ؟ ليس هذا بمكان عجب على قدرة الله ﴿رحمتُ الله وبركاته عليكم أهل البيت﴾ أي رحمكم الله وبارك فيكم يا أهل بيت إبراهيم ﴿إنه حميد مجيد﴾ أي إنه تعالى محمود مجد في صفاته وذاته ، مستحق للحمد والتمجيد من عباده ، وهو تعليل بديع لما سبق من البشارة .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾ المراد بالسما المطر فهو مجاز مرسل لأن المطر ينزل

(١) البشرى هي البشارة بالولد ، وقيل : بهلاك قوم لوط قال الزمخشري : والظاهر الولد . (٢) القرطبي ٦٢/٩ .

(٣) الكشف ٤٠٩/٢ . (٤) الطبري ٧١/١٢ . (٥) البضاوي ٢٥٣ .

من السماء ولفظ «مدراراً» للمبالغة أي كثير الدر .

٢ - ﴿فكيدوني جميعاً﴾ أمرٌ بمعنى التعجيز .

٣ - ﴿ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها﴾ استعارة تمثيلية شبه الخلق وهم في قبضة الله وملكه وتحت قهره وسلطانه بالمالك الذي يقود المقدور عليه بناصيته كما يقاد الأسير والفرس بناصيته .

٤ - ﴿إن ربي على صراط مستقيم﴾ استعارة لطيفة عن كمال العدل في ملكه تعالى فهو مطلع على أمور العباد لا يفوته ظالم ، ولا يضيع عنده معتصم به .

٥ - ﴿ولما جاء أمرنا﴾ الأمر كناية عن العذاب .

٦ - ﴿نجينا هوداً . . ونجيناهم من عذاب غليظ﴾ التكرار في لفظ الإنجاء لبيان أن الأمر شديد عظيم لا سهل يسير ، ويسمى هذا الإطناب .

٧ - ﴿وعصوا رسله﴾ أي عصوا رسولهم هوداً وفيه تفضيح لحالهم وبيان أن عصيانهم له عصيانٌ لجميع الرسل السابقين واللاحقين ، وهو مجاز مرسل من باب إطلاق الكل وإرادة البعض .

٨ - ﴿ألا إن عاداً . . ألا بعداً لعاد﴾ تكرير حرف التنبيه وإعادة لفظ «عاد» للمبالغة في تهويل حالهم .

تنبية : لم يقل هود عليه السلام : ﴿إني أشهد الله وأشهدكم وإناقال : ﴿إني أشهد الله وأشهدوا أني بريء مما تشركون﴾ وذلك لثلا يفيد التشريك بين الشهادتين والتسوية بينهما ، فأين شهادة الله العلي الكبير من شهادة العبد الحقير ؟ !

قال الله تعالى : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروح . . إلى . . ويوم القيامة بثس الرfid المرفود﴾ من آية (٧٤) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين مروا عليه وهم بطريقهم لإهلاك قوم لوط ، وبشروه بالبشارة السارة بولادة غلام له ، وقد ذكرت الآيات مرورهم على لوط وما حلَّ بقومه من النكال والدمار ، وهي القصة الخامسة ، ثم ذكرت قصة شعيب مع أهل مدين ، وقصة موسى مع فرعون ، وفي جميع هذه القصص عبرٌ وعظات .

اللفتة : ﴿الروح﴾ الخوف والفرع ﴿منيب﴾ الإنابة : الرجوع والتوبة ﴿عصيب﴾ شديد في الشر قال الشاعر :

وإنك إلا تُرض بكر بن وائل
يكن لك يوم بالعراق عصيب

﴿يهرعون﴾ يسرعون قال الفراء : الإهرع الإسراع مع رعدة يقال أهرع الرجل إهرعاً أي أسرع في رعدة من برد أو غضب^(١) ﴿تُخْزَوْنَ﴾ أخزاه : أهانه وأذله قال حسان :

فأخزأك ربّي يا عُتَيْبَ بن مالكٍ ولَقَاكَ قبل الموتِ إحدى الصَّوَاقِ

﴿سَجِيلٌ﴾ السَّجِيل والسَّجِين : الشديد من الحجر قاله أبو عبيدة ، وقال الفراء : طينٌ طَبَخَ حتى صار كالآجر ﴿منضود﴾ متتابع بعضه فوق بعض في النزول ﴿مَسُومَةٌ﴾ معلّمة من السِما وهي العلامة ﴿شَقَاقِي﴾ الشقاق : العداوة قال الشاعر :

ألا من مبلغٍ عني رسولاً فكيف وجدتُم طعمَ الشقاق^(٢)

﴿رهطك﴾ رهط الرجل : عشيرته التي يتقوى بهم ﴿الورد﴾ المدخل ﴿الرفد﴾ العطاء والإعانة .

فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ الرَّوْعُ وَجَاءَتْهُ الْبُشْرَى يُجْدِلُنَا فِي قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّهٌ مُنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَلْبِسُ إِبْرَاهِيمُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا إِنَّهُ قَدْ جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ لَاتِهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِئًا بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالَ هَذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴿٧٧﴾ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ

النَّفْسِيرُ : ﴿فلما ذهب عن إبراهيم الروع﴾ أي فلما ذهب عن إبراهيم الخوف الذي أوجسه في نفسه ، واطمأن قلبه لضيوفه حين علم أنهم ملائكة ﴿وجاءته البشرى﴾ أي جاءته البشارة بالولد ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ أي أخذ يجادل ملائكتنا في شأن إهلاك قوم لوط ، وغرضه تأخير العذاب عنهم لعلهم يؤمنون قال المفسرون : لما قالت الملائكة : ﴿إنا مهلكو أهل هذه القرية﴾ قال لهم : أرايتم إن كان فيها خمسون من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا : لا ، قال : فأربعون؟ قالوا : لا فما زال يتنزّل معهم حتى قال لهم : أرايتم إن كان فيها رجل واحد مسلم أتهلكونهم؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً﴾ ، قالوا نحن أعلم بمن فيها لننجيّه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين ﴿٧٣﴾ ﴿إن إبراهيم لحليم﴾ أي غير عجول في الانتقام من السيئ إليه ﴿أواه منيب﴾ أي كثير التأوه والتأسف على الناس لركة قلبه ، منيب رجّاعٌ إلى طاعة الله ﴿يا إبراهيم أعرض عن هذا﴾ أي قالت الملائكة : يا إبراهيم دع عنك الجدل في قوم لوط فقد نفذ القضاء بعذابهم ﴿إنه قد جاء أمر ربك﴾ أي جاء أمر الله بإهلاكهم ﴿وإنهم آتيهم عذابٌ غير مردود﴾ أي نازلٌ بهم عذابٌ غير مصروفٍ عنهم ولا مدفوع ﴿ولما جاءت رسلنا لوطاً سيئاً بهم﴾ أي ولما جاءت الملائكة لوطاً أصابه سوء وضجر ، لأنه ظهر أنهم من البشر فخاف عليهم من قومه ﴿وضاق بهم ذرعاً﴾ أي ضاق صدره بمجيئهم خشيةً عليهم من قومه الأشرار ﴿وقال هذا يومٌ عصيب﴾ أي شديد في الشر ﴿وجاءه قومه يهرعون إليه﴾ أي جاء قومه

(١) القرطبي ٧٤/٩ . (٢) الرسول هنا بمعنى الرسالة والبيت للأخطل كذا في القرطبي . (٣) انظر الطبري ٨٠/١٢ .

كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَقَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴿٧٩﴾ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴿٨٠﴾ قَالُوا يَلُوطُ إِنَّا رُسلُ رَبِّكَ لَنْ يَصْلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرَاتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾ فَلَمَّا

يسرعون إليه لطلب الفاحشة بالضيوف كأنهم يدفعون إلى ذلك دفعاً ﴿٨٠﴾ ومن قبل كانوا يعملون السيئات ﴿٨١﴾ أي ومن قبل ذلك الحين كانت عادتهم إتيان الرجال وعمل الفاحشة فلذلك لم يستحيوا حين جاءوا يهرعون لها مجاهرين قال القرطبي : وكان سبب إسرائهم أن امرأة لوط الكافرة لما رأت الأضياف وجماهم ، خرجت حتى أتت مجلس قومها فقالت لهم : إن لوطاً قد أضاف الليلة فتية ما رأيت مثلهم جمالاً فحيثما جاءوا يهرعون إليه ^(١) ﴿٨٠﴾ قال يا قوم هؤلاء بناتي هن أطهر لكم ﴿٨١﴾ أي قال لهم لوط : هؤلاء نساء البلدة أزوجكم بهن فذلك أطهر لكم وأفضل ، وإنما قال بناتي لأن كل نبي أب لأمته في الشفقة والتربية ﴿فاتقوا الله ولا تخزون في ضيفي﴾ أي اخشوا عذاب الله ولا تفضحوني وتهينوني في ضيوفي ﴿أليس منكم رجل رشيد﴾ أي استفهام توبيخ أي أليس فيكم رجل عاقل يمنع عن القبيح ؟ ﴿قالوا لقد علمت ما لنا في بناتك من حق﴾ أي قال له قومه : لقد علمت يا لوط ما لنا في النساء من أرب ، وليس لنا رغبة فيهن ﴿وإنك لتعلم ما نريد﴾ أي وأنت تعلم غرضنا وهو إتيان الذكور ، صرّحوا له بغرضهم الخبيث قبحهم الله ﴿قال لو أن لي بكم قوة﴾ أي لو كان لي قوة أستطيع أن أدفع أذاكم بها ﴿أو آوي إلى ركن شديد﴾ أي ألتجأ إلى عشيرة وأنصار تنصرنني عليكم ، وجواب « لو » محذوف تقديره لبطشت بكم وفي الحديث (رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد) ^(٢) يريد ﷺ أن الله كان ناصره ومؤيده ، فهو ركنه الشديد وسنده القوي قال قتادة : وذكر لنا أن الله تعالى لم يبعث نبياً بعد لوط إلا في منعة من عشيرته ^(٣) ، وحين سمع رسل الله تعالى تحسر لوط على ضعفه وانقطاعه من الأنصار ﴿قالوا يا لوط إِنَّا رسلُ ربك لن يصلوا إليك﴾ أي قالت الملائكة للوط : إِنَّا رسلُ ربك أرسلنا لإهلاكهم وإناهم لن يصلوا إليك بضرر ولا مكروه ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي اخرج بهم بطائفة من الليل قال الطبري : أي اخرج من بين أظهرهم أنت وأهلك ببقية من الليل ^(٤) ﴿ولا يلتفت منكم أحدٌ إلا امرأتك﴾ أي لا ينظر أحدٌ منكم وراءه إلا امرأتك فإنها ستهلك كما هلكوا ، نهوا عن الالتفات لئلا تنفطر أكبادهم على قريتهم قال القرطبي : إن امرأة لوط لما سمعت هدة العذاب التفتت وقالت : واقوماه ! فأدركها حجر فقتلها ^(٥) ﴿إنه مصيبها ما أصابهم﴾ أي إنه يصيب امرأتك من

(١) القرطبي ٧٥/٩ . (٢) أخرجه الشيخان عن أبي هريرة مرفوعاً . (٣) روح المعاني ١٠٨/١٢ . (٤) الطبري ٨٩/١٢ .

(٥) القرطبي ٨٠/٩ .

جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَيْهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنْضُودٍ ﴿٨٣﴾ مُّسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ الظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٤﴾ * وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَنْقُومِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِن إِلَهِ غَيْرُهُ وَلَا تَنْقُصُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أُرْسِلُكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٥﴾ وَيَنْقُومِ أَوْفُوا الْمِكَالَ وَالْمِيزَانَ

العذاب ما أصاب قومك ﴿٨٣﴾ إن موعدهم الصبح ﴿٨٤﴾ أي موعد عذابهم وهلاكهم الصبح ﴿٨٥﴾ ليس الصبح ب قريب ﴿٨٦﴾ استعجلهم بالعذاب لغظه على قومه فقالوا له : أليس وقت الصبح قريباً ؟ قال المفسرون : إن قوم لوط لما سمعوا بالضيوف هرعوا نحوه ، فأغلق بابه وأخذ يجادل قومه عنهم من وراء الباب ، فتسوروا الجدار ، فلما رأت الملائكة ما بلوط من الكرب قالوا يا لوط : افتح الباب ودعنا وإياهم ، ففتح الباب فضربهم جبريل بجناحه فطمس أعينهم وعموا ، وانصرفوا على أعقابهم يقولون : النجاء ، النجاء كما قال تعالى ﴿٨٧﴾ ولقد راودوه عن ضيفه فطمسنا أعينهم ﴿٨٨﴾ ثم إن لوطاً سرى بمن معه قبل الفجر ، ولما حان وقت عذابهم أمر الله جبريل فاقتلع مدائن قوم لوط - وهي خمس - من تخوم الأرض حتى أدناها من السماء بما فيها ، حتى سمع أهل السماء صراخ الديكة ، ونباح الكلاب ، ثم أرسلها مقلوبة وأتبعهم الله بالحجارة ولهذا قال تعالى ﴿٨٩﴾ فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها ﴿٩٠﴾ أي فلما جاء وقت العذاب قلبنا بهم القرى فجعلنا العالي سافلاً ﴿٩١﴾ وأمطرنا عليها حجارة من سجيل ﴿٩٢﴾ أي أرسلنا على أهل تلك المدن حجارة صلبة شديدة من نارٍ وطين ، شبهها بالمطر لكثرتها وشدتها ﴿منضود﴾ أي متتابعة ، بعضها في إثر بعض ﴿مُسَوِّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ﴾ أي معلّمة بعلامة قال الربيع : قد كتب على كل حجر اسم من يرمى به قال القرطبي : وقوله ﴿عِنْدَ رَبِّكَ﴾ دليلٌ على أنها ليست من حجارة الأرض ﴿٩٣﴾ وما هي من الظالمين ببعيد ﴿٩٤﴾ أي ما هذه القرى المهلكة ﴿٩٥﴾ ببعيدة عن قومك « كفار قريش » فإنهم يميرون عليها في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ قال المفسرون : وقد صار موضع تلك المدن بحراً أجاجاً يعرف بـ « البحر الميت » لأن مياهه لا تغذي شيئاً من الحيوان وقد اشتهر باسم « بحيرة لوط » والأرض التي تليها قاحلة لا تنبت شيئاً ﴿٩٦﴾ وإلى مدين أخاهم شعيباً هذه هي القصة السادسة من القصص المذكورة في هذه السورة أي وأرسلنا إلى قبيلة مدين أخاهم شعيباً ، وقد كان شعيب من نفس القبيلة ولهذا قال « أخاهم » ﴿٩٧﴾ قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴿٩٨﴾ أي اعبدوا الله وحده فليس لكم رب سواه ﴿٩٩﴾ ولا تنقصوا المكيال والميزان ﴿١٠٠﴾ أي لا تنقصوا الناس حقوقهم في المكيال والميزان ، وقد اشتهروا بتطفيف الكيل والوزن ﴿١٠١﴾ إنني أراكم بخير ﴿١٠٢﴾ أي إنني أراكم في سعة تغنيكم عن نقص الكيل والميزان قال القرطبي : أي في سعة من الرزق ، وكثرة من النعم ﴿١٠٣﴾ وإنني أخاف عليكم عذاب يوم محيط ﴿١٠٤﴾ أي إنني أخاف عليكم إن لم تؤمنوا عذاب يوم مهلك ، لا يفلت منه أحد ، والمراد به عذاب يوم القيامة ﴿١٠٥﴾ ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ﴿١٠٦﴾ أي أتموا الكيل والوزن للناس بالعدل ﴿١٠٧﴾ ولا تبخسوا الناس

بِالْفِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتَوُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ أَصْلَوْنَا تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا وَأَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ قَالَ يَنْقُومُ آرَاءُيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفُكُمْ إِلَيَّ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

أشياءهم ﴿٨٥﴾ أي لا تُنقصوهم من حقوقهم شيئاً ﴿٨٦﴾ ولا تعتوا في الأرض مفسدين ﴿٨٧﴾ أي ولا تسعوا بالفساد في الأرض ، والعشي أشد الفساد ﴿بَقِيَتْ اللَّهُ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ أي ما أبقاه الله لكم من الحلال خير مما تجمعونه من الحرام ، إِنْ كُنْتُمْ مُصَدِّقِينَ بِوَعْدِ اللَّهِ وَوَعِيدِهِ وَقَالَ مُجَاهِدٌ : أَي طَاعَةُ اللَّهِ خَيْرٌ لَكُمْ ^(١) ﴿وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ﴾ أي ولستُ ب قريب أحفظ عليكم أعمالكم وأجازيكم بها وإنما أنا ناصح مبلّغ ، وقد أعذر من أنذر ﴿قَالُوا يَا شَعِيبُ أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرَكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ لما أمرهم شعيب عليه السلام بعبادة الله تعالى وترك عبادة الأوثان ، وبإيفاء الكيل والميزان ، ردّوا عليه على سبيل السخرية والاستهزاء فقالوا : أصلاتك تدعوك لأن تأمرنا بترك عبادة الأصنام التي عبدها آبائنا ؟ إِنْ هَذَا لَا يَصْدُرُ عَنْ عَاقِلٍ ﴿أَوْ أَنْ نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ﴾ أي وتأمرُكَ بأن نترك تطيف الكيل والميزان . قال الإمام الفخر : إِنْ شَعِيباً أَمَرَهُمْ بِشَيْئَيْنِ : بِالتَّوْحِيدِ ، وَتَرْكِ الْبَخْسِ ، فَأَنكَرُوا عَلَيْهِ أَمْرَهُ بِهِذَيْنِ النَّوَاعِينَ فَقَوْلُهُ ﴿مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى التَّوْحِيدِ ، وَقَوْلُهُ ﴿نَفْعَلُ فِي أَمْوَالِنَا﴾ إِشَارَةٌ إِلَى تَرْكِ الْبَخْسِ ، وَقَدْ يَرَادُ بِالصَّلَاةِ الدِّينُ وَالْمَعْنَى : دِينُكَ يَا مَرْكَ بِذَلِكَ ؟ وَأَطْلَقَ عَلَيْهِ الصَّلَاةَ لِأَنَّهَا أَظْهَرَ شَعَارَ الدِّينِ ، وَرَوَى أَنَّ شَعِيباً كَانَ كَثِيرَ الصَّلَاةِ وَكَانَ قَوْمُهُ إِذَا رَأَوْهُ يَصْلِي تَغَامَزُوا وَتَضَاحَكُوا ، فَقَصَدُوا بِقَوْلِهِمْ ﴿أَصْلَاتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ السَّخَرِيَّةَ وَالْهَزْءَ ، كَمَا إِذَا رَأَيْتَ مَعْتَوْهَا يَطَالِعُ كِتَاباً ثُمَّ يَذْكُرُ كَلَاماً فَاسِداً فَتَقُولُ : هَذَا مِنْ مِطَالَعَةِ تِلْكَ الْكُتُبِ ^(٢) ؟ ﴿إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ أَي إِنَّكَ لَأَنْتَ الْعَاقِلُ الْمُتَصِفُ بِالْحَلَمِ وَالرَّشْدِ ؟ قَالَ الطَّبْرِيُّ : يَسْتَهْزِئُونَ بِهِ فَإِنَّهُمْ أَعْدَاءُ اللَّهِ قَالُوا لَهُ ذَلِكَ اسْتَهْزَاءً ، وَإِنَّمَا سَفَّهَوْهُ وَجَهَّلُوهُ بِهَذَا الْكَلَامِ ^(٣) ﴿قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي﴾ أَي قَالَ لَهُمْ شَعِيبٌ : أَخْبِرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَى بَرَهَانٍ مِنْ رَبِّي وَهُوَ الْهُدَايَةُ وَالنُّبُوَّةُ ﴿وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا﴾ أَي أَعْطَانِي الْمَالَ الْحَلَالَ ، فَقَدْ كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ كَثِيرَ الْمَالِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَالْجَوَابُ مَحْذُوفٌ دَلَّ عَلَيْهِ الْمَعْنَى أَي أَخْبِرُونِي إِنْ كُنْتُ عَلَى حُجَّةٍ وَاضِحَةٍ ، وَيَقِينٍ مِنْ رَبِّي ، وَكُنْتُ نَبِيًّا عَلَى الْحَقِيقَةِ أَيْصَحُّ لِي أَنْ لَا أَمُرُكُمْ بِتَرْكِ عِبَادَةِ الْأَوْثَانِ ، وَالْكَفِّ عَنِ الْمَعَاصِي ؟ وَالْأَنْبِيَاءُ لَا يُعْتَبَرُونَ إِلَّا لِذَلِكَ ^(٤) ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَخْلِفُكُمْ إِلَيَّ مَا أَتَّهَكُمُ عَنْهُ﴾ أَي لَسْتُ أَنْهَاطَكُمْ عَنْ شَيْءٍ وَأَرْتَكِبُهُ وَإِنَّمَا أَمُرُكُمْ بِمَا أَمَرَ بِهِ نَفْسِي ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾ أَي لَا أُرِيدُ فِيمَا أَمُرُكُمْ بِهِ وَأَنْهَاطَكُمْ عَنْهُ إِلَّا إِصْلَاحَكُمْ وَإِصْلَاحَ أَمْرِكُمْ بِقَدْرِ اسْتَطَاعَتِي ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ أَي لَيْسَ التَّوْفِيقُ

عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠٠﴾ وَيَقَوْمٍ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ
هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ ﴿١٠١﴾ وَأَسْتَغْفِرُكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ
وَدُودٌ ﴿١٠٢﴾ قَالُوا يَشْعِيبُ مَا نَفَقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرُّكَ فِيْنَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ
عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿١٠٣﴾ قَالَ يَقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظَهْرِي ۚ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ
مُحِيطٌ ﴿١٠٤﴾ وَيَقَوْمِ أَعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَمِلٌ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَمَنْ هُوَ كَذِبٌ

إلى الخير إلا بتأييده سبحانه ومعونته ﴿عليه توكلت وإليه أنيب﴾ أي على الله سبحانه اعتمدت في جميع
أموري ، وإليه تعالى أرجع بالتوبة والإنابة ﴿ويا قوم لا يجرمنكم شِقَاقِي﴾ أي لا يكسبنكم عداوتي
﴿أن يصيبكم مثل ما أصاب قوم نوح أو قوم هود أو قوم صالح﴾ أي يصيبكم العذاب كما أصاب
قوم نوح بالغرق ، وقوم هود بالريح ، وقوم صالح بالرجفة وقال الحسن المعنى : لا يحملنكم معاداتي على
ترك الإيمان فيصيبكم ما أصاب الكفار ^(١) ﴿وما قوم لوط منكم ببعيد﴾ أي وما ديار الظالمين من قوم
لوط بمكان بعيد ، أفلا تتعظون وتعتبرون ! ؟ ﴿واستغفروا ربكم ثم توبوا إليه﴾ أي استغفروا
ربكم من جميع الذنوب ، ثم توبوا إليه توبةً نصوحاً ﴿إن ربي رحيم ودود﴾ أي إنه جل وعلا عظيم
الرحمة ، كثير الود والمحبة لمن تاب وأناب ﴿قالوا يا شعيب ما نفقه كثيراً مما تقول﴾ أي قالوا لنبيهم
شعيب على وجه الاستهانة : ما نفهم كثيراً مما تحدثنا به قال الألوسي : جعلوا كلامه المشتمل على فنون
الحكم والمواعظ ، وأنواع العلوم والمعارف ، من قبيل التخليط والهديان الذي لا يفهم معناه ، ولا يدرك
فحواه مع أنه كما ورد في الحديث الشريف (خطيب الأنبياء) ^(٢) ﴿وإننا لنراك فينا ضعيفاً﴾ أي
لا قوة لك ولا عز فيما بيننا ﴿ولولا رهطك لرجمناك﴾ أي ولولا جماعتك لقتلناك رمياً بالأحجار ﴿وما
أنت علينا بعزيز﴾ أي لست عندنا بمكرم ولا محترم حتى نمتنع من رجمك ﴿قال يا قوم أرهطي أعز
عليكم من الله﴾ ؟ هذا توبيخ لهم أي أتركوني لأجل قومي ولا تتركوني إعظماً لجنان الرب تبارك
وتعالى ؟ فهل عشتري أعز عندكم من الله وأكرم ؟ قال ابن عباس : إن قوم شعيب ورهطه كانوا أعز
عليهم من الله وصغر شأن الله عندهم ، عز ربنا وجل شأنه ^(٣) ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ أي
جعلتم الله خلف ظهوركم لا تطيعونه ولا تعظمونه كالشيء المنبوذ وراء الظهر لا يُعْبَأُ به ، وهذا مثل قال
الطبري : يقال للرجل إذا لم يقض حاجة الرجل : نبذ حاجته وراء ظهره أي تركها ولم يلتفت إليها ^(٤)
﴿إن ربي بما تعملون محيط﴾ أي إنه جل وعلا قد أحاط علماً بأعمالكم السيئة وسيجازيكم عليها ﴿ويا
قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل﴾ تهديد شديد أي اعملوا على طريقتكم إني عامل على طريقتي

وَأَرْتَقِبُوا إِلَيَّ مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴿٩٣﴾ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَثِمِينَ ﴿٩٤﴾ كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا ^{قُلْ} أَلَا بُعْدًا لِّمَدِينٍ كَمَا بَعَدَتْ ثَمُودُ ﴿٩٥﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوَرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأَتَّبَعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرَّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾

كأنه يقول : اثبتوا على ما أنتم عليه من الكفر والعداوة ، فأنا ثابت على الإسلام والمصابرة ﴿سوف تعلمون من يأتيه عذابٌ يخزيه﴾ أي سوف تعلمون الذي يأتيه عذاب يذله ويهينه ﴿ومن هو كاذب﴾ أي وتعلمون من هو الكاذب ﴿وارتقبوا إنني معكم رقيب﴾ أي انتظروا عاقبة أمركم إنني منتظر معكم ﴿ولما جاء أمرنا نجينا شعيباً والذين آمنوا معه برحمة منا﴾ أي ولما جاء أمرنا بإهلاكهم نجينا شعيباً والمؤمنين معه بسبب رحمة عظيمة منا لهم ﴿وأخذت الذين ظلموا الصيحة﴾ أي وأخذ أولئك الظالمين صيحة العذاب قال القرطبي : صاح بهم جبريل صيحةً فخرجت أرواحهم من أجسادهم ^(١) ﴿فأصبحوا في ديارهم جاثمين﴾ أي موتى هامدين لا حراك بهم قال ابن كثير : وذكر ههنا أنه أتتهم صيحة ، وفي الأعراف رجفة ، وفي الشعراء عذاب يوم الظلة ، وهم أمة واحدة اجتمع عليهم يوم عذابهم هذه النقم كلها ، وإنما ذكر في كل سياق ما يناسبه ^(٢) ﴿كأن لم يَغْنَوْا فيها﴾ أي كأن لم يعيشوا وقيموا في ديارهم قبل ذلك ﴿ألا بعداً لمدين كما بعدت ثمود﴾ قال الطبري : أي ألا أبعد الله مدين من رحمته بإحلال نقمته ، كما بعدت من قبلهم ثمود من رحمته بإنزال سخطه بهم ^(٣) ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطانٍ مبين﴾ هذه هي القصة السابعة وهي آخر القصص في هذه السورة والمعنى : لقد أرسلنا موسى بشرائع وأحكام وتكاليف إلهية ، وأيدناه بمعجزاتٍ قاهرة ، وبيّنات باهرة ، كالعصا واليد ﴿إلى فرعون وملائته﴾ أي إلى فرعون وأشراف قومه ﴿فاتبعوا أمر فرعون﴾ أي فأتطاعوا أمر فرعون وعصوا أمر الله ﴿وما أمر فرعون برشيد﴾ أي وما أمر فرعون بسديد لأنه ليس فيه رشد ولا هدى ، وإنما هو جهل وضلال ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ أي يتقدم أمامهم إلى النار يوم القيامة كما كان يتقدمهم في الدنيا ﴿فأوردتهم النار﴾ أي أدخلهم نار جهنم ﴿وبئس الورد المورود﴾ أي بئس المدخل المدخول هي ﴿واتبعوا في هذه لعنة﴾ أي ألحقوا فوق العذاب الذي عجله الله لهم لعنة في الدنيا ﴿ويوم القيامة﴾ أي وأردفوا بلعنة أخرى يوم القيامة ﴿بئس الردف المرفود﴾ أي بئس العون المعان والعطاء المعطى لهم ، وهي اللعنة في الدارين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ذهب الروحُ . . وجاءته﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿جاء أمر ربك﴾ كناية عن العذاب الذي قضاه الله لهم .

٣ - ﴿أليس منكم رجلٌ رشيدٌ﴾ الاستفهام للتعجب والتوبيخ .

٤ - ﴿أو آوي إلى ركنٍ شديدٍ﴾ قال الشريف الرضي : وهذه استعارة والمراد بها قومه وعشيرته ، جعلهم ركناً له لأن الإنسان يلجأ إلى قبيلته ، ويستند إلى أعوانه كما يستند إلى ركن البناء الرصين ، وجاء جواب « لو » محذوفاً تقديره : لحلت بينكم وبين ما همتم به من الفساد ، والحذف ههنا أبلغ لأنه يوهم بعظيم الجزاء وغليظ النكال^(١) .

٥ - ﴿عاليها سافلها﴾ بينهما طباقٌ .

٦ - ﴿عذاب يومٍ محيطٍ﴾ فيه مجاز عقلي أسند الإحاطة لليوم مع أن اليوم ليس بجسم باعتبار أن العذاب يكون فيه ، فهو إسنادٌ للزمان .

٧ - ﴿واتخذتموه وراءكم ظهرياً﴾ فيه استعارة تمثيلية كالشيء الذي يلقي وراء الظهر ولا يكثرث به .

٨ - ﴿فأوردتهم النار﴾ فيه استعارة مكنية لأن الورود في الأصل يقال للمرور على الماء للاستسقاء منه ، فشبه النار بما يورد وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو الورود ، وشبه فرعون في تقدمه على قومه بمنزلة من يتقدم على الواردين إلى الماء ليكسر العطش وقوله ﴿وبشس الورد المورود﴾ تأكيد له لأن الورد إنما يورد لتسكين العطش وتبريد الأكباد وفي النار إلهابٌ للعطش وتقطيع للأكباد ، نعوذ بالله من نار جهنم .

قال الله تعالى : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (١٠٠) إلى نهاية آية (١٢٣) .

المناسبة : لما ذكر تعالى بعض قصص المرسلين ، وما حلَّ بأممهم من النكال والدمار ، ذكر هنا العبرة من سرد هذه القصص ، وهي أن تكون شاهداً على تعجيل العقوبة للمكذبين والانتقام العاجل منهم ، وبرهاناً على تأييد الله ونصرته لأوليائه وأنبيائه ، وقد ذكرت الآيات يوم القيامة وانقسام الناس فيه إلى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على الأذى ، والتوكل على الحي القيوم .

الْفَصْلُ الثَّانِي : ﴿حَصِيدٌ﴾ مستأصل كالزرع المحصود ﴿تَتَيْبٌ﴾ التباب : الهلاك والخسران قال لبيد :

فلقد بليتُ وكلُّ صاحبِ جدِّه ليلِيَّ يعودُ وذاكُمُ التَّيِّبُ^(١)

﴿زفير﴾ الزفير : إخراج النَّفْس من شدة الجري ﴿وشهيق﴾ الشهيق : ردُّ النَّفْس وقال الليث : الزفير أن يملاً الرجل صدره من النَّفْس في حال الغم الشديد ويخرجه ، والشهيق أن يخرج ذلك النَّفْس بشدة^(٢) وقال بعض أهل اللغة : الزفير مثل أول نبيق الحمار ، والشهيق مثل آخره ﴿مجذوذ﴾ مقطوع من جذه يجذه إذا قطعه ﴿تركناوا﴾ الركون : الميل إلى الشيء والرضا به ﴿زُلفاً﴾ الزُلف : جمع زُلفة وهي الطائفة من أول الليل قال ثعلب : هي أول ساعات الليل ، وأصلها من الزلفى وهي القربة ﴿وأزلفت الجنة﴾ قُرِبت ﴿أترفوا﴾ التَّرف : البطر يقال فلان مترف أي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿مرية﴾ شك وريب .

سَبَبُ الزُّوْل : عن ابن مسعود أن رجلاً جاء إلى النبي ﷺ فقال : إني عاجلتُ امرأةً في أقصى المدينة ، وإني أصبتُ منها من دون أن أمسَّها ، وأنا هذا فاقض فيَّ ما شئتَ ! فقال له عمر : لقد سترك الله لو سترت على نفسك ، فلم يردَّ عليه رسولُ الله ﷺ شيئاً ، فانطلق الرجل ونزلت هذه الآية ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار وزلفاً من الليل إنَّ الحسنات يذهبن السيئات﴾ فأتبعه رسول الله ﷺ رجلاً فدعاه فتلاها عليه^(٣) .

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْقُرَى نَقْصُهُ عَلَيْكَ مِنْهَا قَائِمٌ وَحَصِيدٌ ﴿١٠١﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَمَا أَغْنَتْ عَنْهُمْ آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠٢﴾ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ

النَّفْسِير : ﴿ذلك من أنباء القرى نقصه عليك﴾ أي ذلك القصص من أخبار القرى التي أهلكنا أهلها بكفرهم وتكذيبهم الرسل ، نقصه عليك يا محمد ونخبرك عنه بطريق الوحي ﴿منها قائمٌ وحصيدٌ﴾ أي من هذه القرى ما هو عامر قد هلك أهلُه وبقي بنيانُه ، ومنها ما هو خراب قد اندثر بأهله فلم يبق له أثر كالزراع المحصود ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلمناهم﴾ أي وما ظلمناهم بإهلاكهم بغير ذنب ، ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي فاستحقوا عذاب الله ونقمته ﴿فما أغنت عنهم آلِهَتُهُمُ الَّتِي يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أي ما نفعتهم آلِهَتُهُمُ الَّتِي عبدوها من دون الله ، ولا دفعت عنهم شيئاً من عقاب الله وعذابه ﴿لَمَّا جَاءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ أي حين جاء قضاء الله بعذابهم ﴿وما زادوهم غير تَتْبِيبٍ﴾ أي وما زادتهم تلك الآلهة غير تخسير وتدمير ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة﴾ أي مثل ذلك الأخذ والإهلاك الذي أخذ الله به أهل القرى الظالمين المكذبين ، يأخذ تعالى

عَذَابَ الْآخِرَةِ ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ ﴿١٦﴾ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ ﴿١٧﴾ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٨﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٩﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿٢٠﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءٌ غَيْرٌ مَّجْدُودٍ ﴿٢١﴾ فَلَا تَكُ

بعذابه الفجرة الظلمة قال الألوسي : وفي الآية من إنذار الظالم ما لا يخفى كما قال عليه السلام (إن الله ليُملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته) ثم قرأ الآية (١٦) ﴿إِنْ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ أي إن عذابه موجه شديد ، وهذا مبالغة في التهديد والوعيد ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَةٌ لِّمَن خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ أي إن في هذه القصص والأخبار لعظة وعبرة لمن خاف عذاب الله وعقابه في الآخرة ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ يَجْمَعُ لَهُ النَّاسُ﴾ أي يجتمع فيه الخلائق للحساب والثواب والعقاب ﴿وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾ أي يشهده أهل السماء والأرض ، والأولون والآخرين قال ابن عباس : يشهده البر والفاجر (١٧) ﴿وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ﴾ أي ما تؤخر ذلك اليوم - يوم القيامة - إلا لزمان معين سبق به قضاء الله ، لا يتقدم ولا يتأخر ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلِّمُنَّ أَنْفُسَ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ أي يوم يأتي ذلك اليوم الرهيب لا يتكلم أحد إلا بإذن الله تعالى ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ أي فمن أهل الموقف شقي ، ومنهم سعيد كقوله ﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ﴾ ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ أي فأما الأشقياء الذين سبقت لهم الشقاوة فإنهم مستقرون في نار جهنم ، لهم من شدة كربهم ﴿زَفِيرٌ﴾ وهو إخراج النَّفْسِ بشدة ﴿وَشَهِيقٌ﴾ وهو ردُّ النَّفْسِ بشدة ، وقال بعض المفسرين : شبه صراخهم في جهنم بأصوات الحمير قال الطبري : في روايته عن قتادة : صوت الكافر في النار صوت الحمار ، أوله زفير وآخره شهيق (١٩) ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ أي ماكثين في جهنم أبداً على الدوام ما دامت السموات والأرض قال الطبري : إن العرب إذا أرادت أن تصف الشيء بالدوام أبداً قالت : هذا دائم دوام السموات والأرض بمعنى انه دائم أبداً ، فخطبهم جل ثناؤه بما يتعارفون به بينهم قال ابن زيد : ما دامت السماء سماءً ، والأرض أرضاً والمعنى خالدون فيها أبداً (٢٠) وقال الزمخشري : فيه وجهان : أحدهما أن تراد سموات الآخرة وأرضها وهي دائمة مخلوقة للأبد ، والثاني : أن يكون عبارة عن التأييد ونفي الانقطاع (٢١) ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ الاستثناء في أهل التوحيد (٦) ، لأن لفظة ﴿شَقُوا﴾ تعم الكفار والمذنبين ، فاستثنى الله من خلود أهل الشقاوة العصاة من المؤمنين ، فإنهم يطهرون في نار جهنم ثم يخرجون منها بشفاعة سيد المرسلين ﷺ ويدخلهم الله الجنة ويقال لهم : ﴿طَبَّعْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾ ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ أي يفعل ما يريد يرحم ويعذب كما يشاء ويختار ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه

(١) روح المعاني ١٣٧/١٢ . (٢) القرطبي ٩٦/٩ . (٣) الطبري ١١٧/١٢ . (٤) الطبري ١١٧/١٢ . (٥) الكشاف ٢/ ٤٣ .

(٦) هذا اختيار الطبري وهو أحد أوجه عشرة ذكرها المفسرون في معنى الاستثناء وانظر القرطبي ٩٩/٩ .

فِي مَرِيَّةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ مَا يَعْبُدُونَ إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِينَ رَبُّكَ أَعْمَلُهُمْ إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢١﴾ فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾ هذا بيانٌ لحال الفريق الثاني « أهل السعادة » اللهم اجعلنا منهم أي وأما السعداء الأبرار فإنهم مستقرون في الجنة ، لا يُخرجون منها أبداً ، دائمون فيها دوام السموات والأرض ، أو ما دامت سموات الجنة وأرض الجنة حسب مشيئته تعالى ، وقد شاء تعالى لهم الخلود والدوام ﴿عطاءً غير مجذوذ﴾ أي عطاءً غير مقطوع عنهم ، بل هو ممتد إلى غير نهاية ﴿فلاتك في مريّةٍ مَّا يَعْبُدُ هَؤُلَاءِ﴾ أي لا تكن في شكٍ من عبادة هَؤُلَاءِ المشركين في أنها ضلال بمعنى لا تشك في فساد دينهم ﴿ما يعبدون إِلَّا كَمَا يَعْبُدُ آبَاؤُهُمْ مِنْ قَبْلُ﴾ أي هم متبعون لأبائهم تقليداً من غير حجة ولا برهان ، وهذه تسليّة للرسول ﷺ ووعدٌ له بالانتقام منهم ، إذ حالهم حالٌ من سبقهم من الضالين المكذبين ، وقد بلغك ما نزل بأسلافهم فسينزل بهم مثله ﴿وَإِنَّا لَمُوفُونَ نَصِيبُهُمْ غَيْرَ مَنْقُوصٍ﴾ أي وسنعطيههم جزاءهم من العذاب كاملاً غير منقوص وقال ابن عباس : ما قُدِّرَ لهم من الخير والشر (١) ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتَلَفَ فِيهِ﴾ قال الطبري : يقول تعالى مسلماً نبيه في تكذيب مشركي قومه له : لا يحزنك يا محمد تكذيب هَؤُلَاءِ لك ، فلقد آتينا موسى التوراة كما آتيناك الفرقان ، فاختلف في ذلك الكتاب ، فكذب به بعضهم ، وصدق به بعضهم ، كما فعل قومك (٢) ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ أي ولولا حكم الله السابق بتأخير الحساب والجزاء إلى يوم القيامة لقُضِيَ بينهم في الدنيا فجوزي المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، ولكن سبق القدر بتأخير الجزاء إلى يوم الحساب ﴿وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِنْهُ مُرِيبٍ﴾ أي وإن كفار قومك لفي شكٍ من هذا القرآن مُريبٍ لهم ، إذ لا يدرون أحقُّ هو أم باطل ؟ ﴿وَإِنْ كَلَّا لَمَا لِيُوفِينَ رَبُّكَ أَعْمَالُهُمْ﴾ أي وإن كلاً من المؤمنين والكافرين لما ينالوا جزاء أعمالهم وسيوفيههم ربُّك جزاءها في الآخرة ﴿إِنَّهُمْ بِمَا يَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي عليمٌ بأعمالهم جميعاً ، صغيرها وكبيرها ، وسيجازيهم عليها ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أَمَرْتَ﴾ أي استقم يا محمد على أمر الله واثبت وداوم على الاستقامة كما أمرك ربُّك ﴿وَمَنْ تَابَ مَعَكَ﴾ أي ومن تاب من الشرك والكفر وآمن معك ﴿وَلَا تَطْغَوْا﴾ أي لا تجاوزوا حدود الله بارتكاب المحارم ﴿إِنَّهُمْ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي إنه تعالى مطلعٌ على أعمالكم ويجازي عليها ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ أي لا تميلوا إلى الظلمة من الولاة وغيرهم من الفسقة الفجرة فتمسككم نار جهنم قال

لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصِرُونَ ﴿١١٦﴾ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفِي النَّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ أَيْلٍ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٧﴾ وَأَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٩﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ

البيضاوي : الركون هو الميل اليسير أي لا تميلوا إليهم أدنى ميل فتمسككم النار بركونكم إليهم ، وإذا كان الركون اليسير إلى من وجد منه ما يسمى ظلماً كذلك ، فما ظنك بالركون إلى الظالمين الموسومين بالظلم ، والميل إليهم كل الميل (١) ؟ ! ﴿وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون﴾ أي ليس لكم من يمنعكم من عذابه ثم لا تجدون من ينصركم من ذلك البلاء قال القرطبي : والآية دالة على هجران أهل الكفر والمعاصي فإن صحبتهم كفر أو معصية إذ الصحبة لا تكون إلا عن مودة ، وأما صحبة الظالم على التقية فمستثناة من النهي بحال الاضطرار (٢) ﴿وأقم الصلاة طرفي النهار﴾ أي أقم الصلاة المكتوبة على تمامها وكما لها أول النهار وآخره ، والمراد صلاة الصبح والعصر لأنها طرفا النهار (٣) ﴿وزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ﴾ أي ساعات منه قريبة من النهار ، والمراد بها المغرب والعشاء ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ أي إن الأعمال الصالحة ومنها الصلوات الخمس تكفر الذنوب الصغائر ، لحديث (الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر) قال المفسرون : المراد بالحسنات الصلوات الخمس واستدلوا على ذلك بسبب النزول ، وهذا قول الجمهور ، والأظهر أن المراد بها العموم وهو اختيار ابن كثير حيث قال : المعنى إن فعل الخيرات يكفر الذنوب السالفة كما جاء في الحديث (ما من مسلم يُدنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له) (٤) ﴿ذلك ذكرى للذاكرين﴾ أي ذلك المذكور من الاستقامة والمحافظة على الصلاة ، عظة للمتعظين وإرشاد للمسترشدين ﴿واصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ أي اصبر يا محمد على ما تلقى من المكارِه ومن أذى المشركين ، فإن الله معك وهو لا يضيع ثواب المحسنين ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ أي فهلاً كان من الأمم الماضية قبلكم أولو عقل وفضل ، وجماعة أخيار ينهون الأشرار عن الإفساد في الأرض ﴿إلا قليلاً ممن أنجينا منهم﴾ استثناء منقطع أي لكن قليلاً منهم ، نهوا عن الفساد فنَجَوْا قال في البحر : «لولا» في الآية للتحضيض صاحبها معنى التأسف والتفجع مثل قوله ﴿يا حسرة على العباد﴾ والغرض التأسف على تلك الأمم التي لم تهتد كقوم نوح وعاد وثمود ومن تقدم ذكره (٥) ﴿واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه﴾ أي واتبع أولئك الظلمة شهواتهم ، وما نَعَمُوا به من الاشتغال بالمال واللذات وآثروها على الآخرة ﴿وكانوا

(١) البيضاوي ٢٥٨ . (٢) القرطبي ١٠٨/٩ . (٣) هذا قول الحسن وقتادة واختار الطبري أنها الصبح والعصر وهو مروي عن ابن عباس . (٤) المختصر ٢/٢٣٥ . (٥) البحر ٥/٢٧١ .

النَّاسِ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۖ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
 مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ۝١١٨ وَكَلاَّ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَشِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ
 الْحَقُّ وَموْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ۝١١٩ وَقُلْ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ أَعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ ۝١٢٠ وَانْتَظِرُوا
 إِنَّا مُنْتَظِرُونَ ۝١٢١ وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ۚ وَمَا رَبُّكَ
 بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ۝١٢٢

مجرمين ﴿أي وكانوا قوماً مصرّين على الإجرام﴾ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴿أي
 ما جرت عادة الله تعالى أن يهلك القرى ظلماً وأهلها مصلحون في أعماهم ، لأنه تعالى منزّه عن الظلم ،
 وإنما يهلكهم بكفرهم ومعاصيهم﴾ ولو شاء ربك لجعل الناس أمةً واحدة ﴿أي لو شاء الله لجعل الناس كلهم
 مؤمنين مهتدين على ملة الإسلام ، ولكنه لم يفعل ذلك للحكمة﴾ ولا يزالون مختلفين إلا من رحم
 ربك ﴿أي ولا يزالون مختلفين على أديان شتى ، وملل متعددة ما بين يهودي ، نصراني ، ومجوسي ، إلا
 ناساً هداهم الله من فضله وهم أهل الحق﴾ ولذلك خلقهم ﴿اللام لامُ العاقبة أي خلقهم
 لتكون العاقبة اختلافاً ما بين شقي وسعيد قال الطبري : المعنى وللإختلاف بالشقاء والسعادة خلقهم ،
 فريق في الجنة ، وفريق في السعير﴾ ۝١١٨ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿أي تمَّ أمر
 الله ونفذ قضاؤه بأن يملأ جهنم من الجن والإنس من الكفرة الفجرة جميعاً قال الألوسي : والجملة متضمنة
 معنى القسم ولذا جيء باللام في ﴿لَأَمْلَأَنَّ﴾ ۝١١٩ وكأنه قال : والله لأملأَنَّ جهنم من أتباع إبليس من
 الإنس والجن أجمعين ﴿وكلاَّ نقصُّ عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك﴾ أي كل هذه الأخبار التي
 قصصناها عليك يا محمد من أخبار الرسل السابقين ، إنما هي بقصد تثبيتك على أداء الرسالة ، وتطمين
 قلبك ، ليكون لك بمن مضى من إخوانك المرسلين أسوة فتصبر كما صبروا ﴿وجاءك في هذه الحق﴾
 أي جاءك في هذه الأنباء التي قصها الله عليك النبأ اليقيني الصادق ﴿وموعظةٌ وذكورٌ للمؤمنين﴾ أي
 وجاءك في هذه الأخبار أيضاً ما فيه عظة وعبرة للمعتبرين ، وخصَّ المؤمنين بالذكر لانتفاعهم بمواعظ
 القرآن ﴿وقل للذين لا يؤمنون اعملوا على مكانتكم إِنَّا عامِلون﴾ أي اعملوا على طريقتكم ومنهجكم
 إِنَّا عامِلون على طريقتنا ومنهجنا ، وهو أمرٌ ومعناه التهديد والوعيد ﴿وانتظروا إِنَّا منتظرون﴾ تهديد
 آخر أي انتظروا ما يحلُّ بنا إِنَّا منتظرون ما يحلُّ بكم من عذاب الله ﴿ولله غيبُ السموات والأرض﴾ أي
 علمٌ ما غاب وخفي فيهما ، كلُّ ذلك بيده وبعلمه ﴿وإليه يُرجعُ الأمرُ كله﴾ أي إليه يردُّ أمر كل شيء ،
 فينتقم ممن عصى ، ويثيب من أطاع وفيه تسلية للنبي ﷺ وتهديد للكفار بالانتقام منهم ﴿فاعبدوه وتوكل
 عليه﴾ أي اعبد ربك وحده ، وفوضْ إليه أمرك ، ولا تعتمدْ على أحدٍ سواه ، فإنه كافي من توكل عليه

﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي لا يخفى عليه شيء من أعمال العباد ، ويجازي كلاً بعمله .

البلاغَة : ١ - ﴿منها قائم وحصيد﴾ شبه ما بقي من آثار القرى وجدرانها بالزرع القائم على ساقه ، وشبه ما هلك مع أهله ولم يبق له أثر بالزرع المحصود بالمنجل على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم﴾ فيه طباق السلب .

٣ - ﴿إذا أخذ القرى﴾ مجازٌ عن الأهل أي أخذ أهل القرى .

٤ - ﴿شقي وسعيد﴾ بينهما طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٥ - ﴿فأما الذين شقوا . . وأما الذين سعدوا﴾ فيه لفٌ ونشر مرتب .

٦ - ﴿لولا كلمة سبقت من ربك﴾ الكلمة هنا كناية عن القضاء والقدر .

٧ - ﴿إن الحسنات يذهبن السيئات﴾ بينهما طباقٌ .

٨ - ﴿ذكرى للذاكرين﴾ بينهما جناس الاشتقاق .

تنبيه : خلود أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، ثابتٌ مقطوعٌ به بالنصوص العديدة ، وأما الاستثناء بالمشيئة في هذه السورة فقد استعمل في أسلوب القرآن للدلالة على الثبوت والاستمرار ، والنكتة في ذكره بيان أن هذه الأمور إنما كانت بمشيئته تعالى ولو شاء لغيرها ، وليس شيء خارج عن مشيئته ، فالإيمان والكفر ، والسعادة والشقاوة ، والخلود والخروج كلها بمشيئته تعالى .

فائدة : أشار الشهاب إلى لطيفة من البلاغة القرآنية ، وهي أن الأوامر بأفعال الخير أفردت للنبي ﷺ وإن كانت عامة في المعنى ﴿فاستقم كما أمرت ، وأقم الصلاة ، واصبر﴾ وفي المنهيات جمعت للأمة ﴿ولا تطغوا ، ولا تركنوا إلى الذين ظلموا﴾ كذا في العناية .

« تم بحونه تعالى تفسير سورة هود »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة يوسف إحدى السور المكية التي تناولت قصص الأنبياء ، وقد أفردت الحديث عن قصة نبي الله « يوسف بن يعقوب » وما لاقاه عليه السلام من أنواع البلاء ، ومن ضروب المحن والشدائد ، من إخوته ومن الآخرين ، في بيت عزيز مصر ، وفي السجن ، وفي تأمر النسوة ، حتى نجَّاه الله من ذلك الضيق ، والمقصودُ بها تسليّة النبي ﷺ بما مرَّ عليه من الكرب والشدة ، وما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

✽ والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وأدائها ، وفي قصصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية ، التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت طريّةً نديّةً ، في أسلوب ممتع لطيف ، سلسٍ رقيق ، يحمل جو الأُنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالد بن معدان : « سورة يوسف ومريم ممَّا يتفكَّه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها »^(١) .

✽ نزلت السورة الكريمة على رسول الله ﷺ بعد سورة « هود » ، في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، حيث توالى الشدائد والنكبات عليه وعلى المؤمنين ، وبالأخص بعد أن فقد عليه السلام نصيره : زوجه الطاهر الحنون « خديجة » وعمّه « أبا طالب » الذي كان له خير نصير ، وخير معين ، وبوفاتها اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين ، حتى عُرف ذلك العام بـ « عام الحُزن » .

✽ في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه الرسول المؤمنون ، الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة تسليّةً له ، وتخفيفاً لآلامه ، بذكر قصص المرسلين ، وكأن الله تعالى يقول لنبيه عليه السلام : لا تحزن يا محمد ولا تتفجع لتكذيب قومك ، وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فرجاً ، وإن بعد الضيق

مخرجاً ، أنظر إلى أخيك « يوسف » وتمعنْ ما حدث له من صنوف البلايا والمحن ، وألوان الشدائد والنكبات ، وما ناله من ضروب المحن : محنة حسد إخوته وكيدهم له ، ومحنة رميه في الحب ، ومحنة تعلق امرأة العزيز به وعشقها له ، ثم مراودته عن نفسه بشتى طرق الفتنة والإغراء ، ثم محنة السجن بعد ذلك العزَّ ورغد العيش !! انظر إليه كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل العقيدة ، وصبر على الضرَّ والبلاء ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، وملَّكه الله خزائنهما ، فكان السيد المطاع ، والعزيز المكرَّم . . وهكذا أفعَل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بدَّ أن توطَّد النفس على تحمل البلاء ، اقتداءً بمن سبقك من المرسلين ﴿ فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ﴾ ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ، ولا تحزن عليهم ولا تك في ضيقٍ مما يمكرون ﴾ .

* وهكذا جاءت قصة يوسف الصديق تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقاه ، وجاءت تحمل البشرِّ والأنس ، والراحة ، والطمأنينة لمن سار على درب الأنبياء ، فلا بدَّ من الفرج بعد الضيق ، ومن اليسر بعد العسر ، وفي السورة دروسٌ وعبر ، وعظات بالغات ، حافلات بروائع الأخبار العجيبة ، والأنباء الغريبة ﴿ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمع وهو شهيد ﴾ .

* هذا هو جوُّ السورة ، وهذه إحياءُها ورموزُها . . تُبشِّرُ بقرب النصر ، لمن تمسَّك بالصبر ، وسار على طريق الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، فهي سلوى للقلب ، وبلسمٌ للجروح ، وقد جرت عادة القرآن الكريم بتكرير القصة في مواطن عديدة ، بقصد « العظة والاعتبار » ولكنَّ بإيجاز دون توسع ، لاستكمال جميع حلقات القصة ، وللتشويق إلى سماع الأخبار دون سامة أو ملل ، وأما سورة يوسف فقد دُكرت حلقاتها هنا متتابعة بإسهاب وإطناب ، ولم تكرر في مكان آخر كسائر قصص الرسل ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في المجمل والمفصل ، وفي حالتي الإيجاز والإطناب ، فسبحان الملك العلي الوهاب .

قال العلامة القرطبي : ذكر الله أقاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد ، في وجوه مختلفة ، وبألفاظ متباينة ، على درجات البلاغة والبيان ، وذكر قصة يوسف عليه السلام ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة المكرر ، ولا على معارضة غير المكرر ، والإعجاز واضح لمن تأمل . وصدق الله ﴿ لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب . . ﴾ !

قال الله تعالى : ﴿ الرتلک آیاتُ الكتاب المبين . . إلى . . آتيناہ حکماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين ﴾ من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللفظة : ﴿ المبين ﴾ الظاهر الجلي ﴿ القصص ﴾ إتباع الخبر بعضه بعضاً وأصله في اللغة المتابعة ﴿ وقالت لأخته قُصِّيه ﴾ أي اتبعي أثره والمراد بالقصص الأخبار التي قصها علينا الله في كتابه العزيز ﴿ الرؤيا ﴾ خاصة بالمنام وأما باليقظة فهي بالتاء الرؤية قال الألوسي : مصدر رأى الحلمية الرؤيا ومصدر

البصرية الرؤية ولهذا خُطِيءَ المتنبي في قوله « ورؤياك أحلى في العيون من الغمض »^(١) ﴿يَجْتَبِيكَ﴾ الاجتباء : الاصطفاء والاختيار وأصله من جبيت الشيء أي حصلته ﴿عُصْبَةٌ﴾ جماعة قال الفراء : ما زاد على العشرة ، والعصبة والعصابة العشرة فصاعداً ﴿اطرحوه﴾ الطرح : رمي الشيء وإلقاؤه ﴿غيابة الجب﴾ قعره وغوره سمي به لغيبته عن عين الناظر ﴿يرتفع﴾ يتسع في أكل ما لذ وطاب قال الراغب : الرتع حقيقته في أكل البهائم ويستعار للإنسان إذا أريد به الأكل الكثير قالت الخنساء :

ترتفع ما رتعت حتى إذا اذكرت فأنما هي إقبال وإدبار^(٢)

﴿السيارة﴾ المسافرين ﴿سوّت﴾ زينت ﴿واردهم﴾ الوارد الذي يرد الماء ليستقي للقوم.

سَبَبُ التَّزْوِيلِ : روي أن اليهود سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف وما حصل له مع إخوته من أولاد يعقوب فنزلت السورة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿١﴾ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ يُوسُفُ

النَّفْسِيرُ : ﴿الر﴾ إشارة إلى الإعجاز، فمن هذه الحروف وأمثالها تتألف آيات الكتاب المعجز^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي تلك الآيات التي أنزلت إليك يا محمد هي آيات الكتاب المعجز في بيانه ، الساطع في حججه وبراهينه ، الواضح في معانيه ، الذي لا تشبهه حقائقه ، ولا تلتبس دقائقه ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ أي أنزلناه بلغة العرب كتاباً عربياً مؤلفاً من هذه الأحرف العربية ﴿لعلكم تعقلون﴾ أي لكي تعقلوا وتدرکوا أن الذي يصنع من الكلمات العادية هذا الكتاب المعجز ليس بشراً ، وإنما هو إله قدير ، وهذا الكلام وحي منزل من رب العالمين ﴿نحن نقص عليك أحسن القصص﴾ أي نحن نحدثك يا محمد ونروي لك أخبار الأمم السابقة ، بأصدق كلام ، وأحسن بيان ﴿بما أوحينا إليك هذا القرآن﴾ أي بإيحائنا إليك هذا القرآن المعجز ﴿وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الْغَافِلِينَ﴾ أي وإنَّ الحال والشأن أنك كنت من قبل أن نوحى إليك هذا القرآن لمن الغافلين عن هذه القصة ، لم تخطر ببالك ، ولم تفرغ سمعك ، لأنك أُمِّيٌّ لَا تَقْرَأُ وَلَا تَكْتُبُ ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ من هنا بداية القصة ، أي اذكر حين قال يوسف لأبيه يعقوب يا أُمِّي إِنِّي رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ هَذِهِ الرُّؤْيَا الْعَجِيبَةَ ، رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا مِنْ كَوَاكِبِ السَّمَاءِ خَرَّتْ سَاجِدَةً لِي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾ أي ورأيت في المنام الشمس والقمر ساجدةً لي مع الكواكب قال ابن عباس : كانت الرؤيا فيهم وحيًا^(٤) قال المفسرون : الكواكب الأحد عشر كانت

(١) روح المعاني ١٢/١٧٩. (٢) تصف بقرة فقدت ولدها فكلما غفلت عنه رتعت فإذا ذكرته حنت إليه فأقبلت وأدبرت ، وهو مثل لفقدها أخاها صخراً . (٣) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة والتحقيق الدقيق حول الموضوع في أول سورة البقرة . (٤) الطبري ١٢/١٥١.

لَأَيُّهِ يَتَابَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ يَبْنَىٰ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١١﴾ وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِنْ قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٢﴾ * لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ ءَايَاتٍ لِّلْسَائِلِينَ ﴿١٣﴾ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا أَيْنَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿١٤﴾ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ

إخوته ، والشمس والقمر أبواه ، وكان سنه إذ ذاك اثنتي عشرة سنة ، وبين هذه الرؤيا واجتماعه بأبيه وإخوته في مصر أربعون سنة ^(١) ﴿قال يا بني لا تقصص رؤياك على إخوتك﴾ أي قال له يعقوب : لا تخبر بهذه الرؤيا إخوتك ﴿فيكيدوا لك كيدا﴾ أي فيحتالوا لإهلاكك حيلة عظيمة لا تقدر على ردها ﴿إن الشيطان للإنسان عدو مبين﴾ أي ظاهر العداوة قال أبو حيان : فهم يعقوب من رؤيا يوسف أن الله تعالى يبلغه مبلغاً من الحكمة ، ويصطفيه للنبوّة ، وينعم عليه بشرف الدارين ، فخاف عليه من حسد إخوته فنهاه أن يقصّ رؤياه عليهم ^(٢) ﴿وكذلك يجتبيك ربك﴾ أي وكما أراك مثل هذه الرؤيا العظيمة كذلك يختارك ربك للنبوّة ﴿ويعلمك من تأويل الأحاديث﴾ أي يعلمك تفسير الرؤيا المنامية ﴿ويتم نعمته عليك وعلى آل يعقوب﴾ أي يتم فضله وإنعامه عليك وعلى ذرية أبيك يعقوب ﴿كما أتمها على أبويك من قبل إبراهيم وإسحق﴾ أي كما أكمل النعمة من قبل ذلك على جدك إبراهيم وجدك إسحق بالرسالة والاصطفاء ﴿إن ربك عليم حكيم﴾ أي عليم بمن هو أهل للفضل ، حكيم في تدبيره لخلقه ﴿لقد كان في يوسف وإخوته آيات للسائلين﴾ أي لقد كان في خبر يوسف وإخوته الأحد عشر عبر وعظات للسائلين عن أخبارهم ﴿إذ قالوا ليوسف وأخوه أحبُّ إلينا منا﴾ هذه هي المحنة الأولى ليوسف عليه السلام أي حين قالوا : والله ليوسف وأخوه « بنيامين » أحبُّ منا عند أبينا ، أرادوا أن زيادة محبته لهما أمر ثابت لا شبهة فيه ، وإنما قالوا ﴿وأخوه﴾ وهم جميعاً إخوة لأن أمهما كانت واحدة ﴿ونحن عصبة﴾ أي والحال نحن جماعة ذوو عدد ، نقدر على النفع والضرر ، بخلاف الصغيرين ﴿إن أبانا لفي ضلال مبين﴾ أي إنه في خطأ وخروج عن الصواب بين واضح ، لإثارة يوسف وأخاه علينا بالمحبة قال القرطبي : لم يريدوا ضلال الدين إذ لو أرادوه لكفروا ، وإنما أرادوا أنه في خطأ بين في إثارة اثنين على عشرة ^(٣) ﴿اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضاً﴾ أي أقتلوا يوسف أو ألقوه في أرض بعيدة مجهولة ﴿يخل لكم وجه أبيكم﴾ أي فعند ذلك يخلص ويصفو لكم حب أبيكم ، فيقبل عليكم قال الرازي : المعنى إن يوسف شغله عنا وصرف وجهه إليه ، فإذا فقدناه قبل علينا بالمحبة والميل ^(٤) ﴿وتكونوا من بعده قوماً صالحين﴾ أي وتوبوا من بعد هذا

(١) الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٣٤ . (٢) البحر ٥/ ٢٨٠ . (٣) القرطبي ٩/ ١٣١ . (٤) الرازي ١٨/ ٩٤ .

لَكُمْ وَجْهٌ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴿١٠﴾ قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطُهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿١١﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ لَنَصِحُونَ ﴿١٢﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿١٣﴾ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا لَئِنْ أَكَلَهُ الذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ ﴿١٥﴾ فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وَاجْتَمَعُوا أَنْ يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُمْ بِأَمْرِهِمْ هَذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٦﴾ وَجَاءَ آبَاؤُهُمْ

الذنب وتصبحوا قوماً صالحين ﴿١٠﴾ قال قائلٌ منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه في غيابة الجب ﴿١١﴾ أي قال لهم أخوهم «يهودا» ^(١) وهو أكبر ولد يعقوب : لا تقتلوا يوسف بل ألقوه في قعر الجب وغوره ﴿١٢﴾ يلتقطه بعض السَّيَّارَةِ أي يأخذه بعض المارة من المسافرين ﴿١٣﴾ إن كنتم فاعلين أي إن كان لا بدَّ من الخلاص منه فافتكوا بذلك ، وكان رأيهم فيه أهون شراً من رأي غيره ﴿١٤﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ المعنى أي شيء حدث لك حتى لا تأمنا على أخينا يوسف ، ونحن جميعاً أبناءك ؟ ﴿١٥﴾ وإنا له لناصحون أي ونحن نشفق عليه ونريد له الخير قال المفسرون : لما أحكموا العزم ذكروا هذا الكلام وأظهروا عند أبيهم أنهم في غاية المحبة ليوسف ، وفي غاية الشفقة عليه ، ليستنزلوه عن رأيهم في تخوفه منهم وكأنهم قالوا : لِمَ تخافنا عليه ونحن نحبه ونريد الخير به !! ﴿١٦﴾ أَرْسَلَهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَع وَيَلْعَبُ أي أرسله معنا غداً إلى البادية ، يتسع في أكل ما لذَّ وطاب ، ويلهو ويلعب بالاستباق وغيره ﴿١٧﴾ وإنا له لحافظون أي ونحن نحفظه من كل سوء ومكره ، أكدوا كلامهم بأنَّ واللام وهم كاذبون ﴿١٨﴾ قال إني ليحزنني أن تذهبوا به أي قال لهم يعقوب : إنه ليؤلمني فراقه لقلة صبري عنه ﴿١٩﴾ وأخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون أي وأخاف أن يفترسه الذئب في حال غفلتكم عنه ، وكأنه لقنهم الحجة قال الزمخشري : إعتذر إليهم بشيئين : أحدهما : أن ذهابهم به ومفارقتها إيَّاه مما يحزنه لأنه كان لا يصبر عنه ساعة ، والثاني : خوفه عليه من الذئب إذا غفلوا عنه برعيهم ولعبهم ^(٢) ﴿٢٠﴾ قَالُوا لئن أكله الذئب ونحن عُصْبَةٌ إِنَّا إِذَا لَخَّاسِرُونَ اللام للقسم أي والله لئن أكله الذئب ونحن جماعة أقوياء أشداء إنا لمستحقون أن يدعى علينا بالخسار والدمار ﴿٢١﴾ فلما ذهبوا به في الكلام محذوف أي فأرسله معهم فلما أخذوه وابتعدوا به عن أبيه ﴿٢٢﴾ وأجمعوا أن يجعلوه في غيابة الجب أي عزموا واتفقوا على إلقائه في غور الجب ﴿٢٣﴾ وأوحينا إليه لتنبئهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون أي أوحينا إلى يوسف لتخبرنَّ إخوانك بفعلهم هذا الذي فعلوه بك وهم لا يشعرون في ذلك الوقت أنك يوسف ، قال الرازي : وفائدة هذا الوحي تأنيسه ، وتسكين نفسه ، وإزالة الغم والوحشة عن قلبه ، بأنه سيحصل له الخلاص من هذه المحنة ^(٣) ﴿٢٤﴾ وجاءوا آباهم عشاءً يبكون أي رجعوا إلى أبيهم وقت العشاء ليلاً وهم يبكون ، روي أنه لما سمع يعقوب بكاءهم

(١) هذا قول ابن عباس وقيل هو «روبل» وهو قول قتادة . (٢) الكشف ٤٨/٢ - (٣) الفخر الرازي ١٨/١٠٠ .

عِشَاءً يَبْكُونَ ﴿١٦﴾ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴿١٧﴾ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ أَفَصِرُ جَمِيلٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴿١٩﴾ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَبُشْرَى هَذَا غُلْمٌ وَأَسْرُوهُ بَضْلَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَرَوْهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢١﴾

فرع ، وقال : ما لكم يا بني ، وأين يوسف ؟ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ﴾ أي نتسابق في العدو ، أو في الرمي ﴿وتركنا يوسف عند متاعنا فأكله الذئب﴾ أي تركنا يوسف عند ثيابنا وحوادثنا ليحفظها فجاء الذئب فافترسه ﴿وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين﴾ أي لست بمصدق لنا في هذه المقالة ولو كنا في الواقع صادقين ، فكيف وأنت تتهمنا وغير واثق بقولنا ؟ وهذا القول منهم يدل على الارتياب ، وكما قيل : يكاد المريب يقول خذوني ﴿وجاءوا على قميصه بدم كذب﴾ أي جاءوا على ثوبه بدم كاذب ، وُصِفَ بالمصدر مبالغةً كأنه نفسُ الكذب وعينه قال ابن عباس : ذبحوا شاة ولطخوا بدمها القميص فلما جاءوا يعقوب قال : كذبتُم لو أكله الذئب لخرقَ القميص^(١) وروي أنه قال : « ما أحلم هذا الذئب أكل ابني ولم يشق قميصه » ؟ ! ﴿قال بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ﴾ أي زَيَّنَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْ؟ في يوسف وليس كما زعمتم أن الذئب أكله ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ﴾ أي أمري صبرٌ جميل لا شكوى فيه ﴿والله المستعان على ما تصفون﴾ أي وهو سبحانه عوني على تحمل ما تصفون من الكذب ﴿وجاءت سيارة﴾ أي قوم مسافرون مروا بذلك الطريق قال ابن عباس : جاء قوم يسرون من مدين إلى مصر فأخطئوا الطريق فانطلقوا يهيمون حتى هبطوا على الأرض التي فيها جب يوسف ، وكان الجب في قفرة بعيدة عن العمران^(٢) ﴿فأرسلوا واردهم﴾ أي بعثوا من يستقي لهم الماء ﴿فأدلى دلوهُ﴾ أي أرسل دلوهُ في البئر قال المفسرون : لما أدلى الوارد دلوهُ وكان يوسف في ناحية من قعر البئر تعلّق بالحبل فخرج فلما رأى حسنه وجماله نادى ﴿قال يا بشرى هذا غلام﴾ قاله على سبيل السرور والفرح لتبشير نفسه وجماعته قال أبو السعود : كأنه نادى البشري وقال تعالى فهذا أوانك حيث فاز بنعمة جليلة^(٣) ﴿وأَسْرُوهُ بَضْلَةً﴾ أي أخفوا أمره عن الناس لبيعوه في أرض مصر متاعاً كالْبَضْعة ، والضمير يعود على الوارد وجماعته ﴿والله عليم بما يعملون﴾ أي لا يخفى عليه سبحانه أسرارهم ، وما عزموا عليه في أمر يوسف ﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة﴾ هذه هي المحنة الثانية في حياة يوسف الصديق وهي محنة الاسترقاق أي باعه أولئك المارة الذين استخرجوه من البئر بثمن قليل منقوص هو عشرون درهماً كما قال ابن عباس ﴿وكانوا فيه من الزاهدين﴾ أي وكانوا في يوسف من الزاهدين الذين لا يرغبون فيه لأنهم التقطوه وخافوا أن يكون عبداً أبقاً فيتزعزعه سيده من أيديهم ، ولذلك باعوه بأبخس الأثمان ﴿وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته أكرمي مثواه﴾ أي وقال الذي اشتراه من مدينة مصر لزوجته أكرمي إقامته عندنا قال

وَقَالَ الَّذِي اشْتَرَاهُ مِنْ مِصْرَ لَأَمْرَأَتِهِ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَكَذَلِكَ مَكَانَ لِْيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَآتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿٢٢﴾

ابن عباس : كان اسم الذي اشتراه « قطفير » وهو العزيز الذي كان على خزائن مصر^(١) ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ أي عسى أن يكفيننا بعض المهمات إذا بلغ أو تنبناه حيث لم يكن يولد لهما ولد ﴿وكذلك مكانا ليوسف في الأرض﴾ أي وكما نجيناه من الجب جعلناه متمكنا في أرض مصر يعيش فيها بجز وأمان ﴿ولنعلمه من تأويل الأحاديث﴾ أي نوقفه لتعبير بعض المنامات ﴿والله غالب على أمره﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون لطائف صنعه وخفايا فضله ﴿ولما بلغ أشده﴾ أي بلغ منتهى شدته وقوته وهو ثلاثون سنة ﴿آتيناه حكما وعلمًا﴾ أي أعطيناه حكمة وفقها في الدين ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي المحسنين في أعمالهم .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿تلك آيات﴾ الإشارة بالبعيد لبعده مرتبته في الكمال وعلو شأنه .

٢ - ﴿كما أتمها على أبويك﴾ تشبيه مرسل مجمل .

٣ - ﴿أحد عشر كوكبا والشمس والقمر﴾ قال الشريف الرضي : هذه استعارة لأن الكواكب والشمس والقمر مما لا يعقل فكان الوجه أن يقال : ساجدة ، ولكنها لما أطلق عليها فعل من يعقل جاز أن توصف بصفة من يعقل لأن السجود من فعل العقلاء^(٢) .

٤ - ﴿بدم كذب﴾ الدم لا يوصف بالكذب والمراد بدم مكذوب فيه أو دم ذي كذب وجيء بالمصدر على طريق المبالغة .

لطيفة : روي أن امرأة تحاكت إلى شريح فبكت فقال الشعبي : يا أبا أمية أما تراها تبكي ؟ فقال الشعبي : لقد جاء إخوة يوسف ويكون وهم ظلمة كذبة ، لا ينبغي للإنسان أن يقضي إلا بالحق^(٣) .

تنبيه : ذهب بعض المفسرين إلى أن إخوة يوسف أنبياء واستدلوا على ذلك بأنهم الأسباط المذكورون في قوله تعالى ﴿قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط﴾ والصحيح أن الأسباط ليسوا أولاد يعقوب وإنما هم القبائل من ذرية يعقوب كما نبه عليه المحققون ، ولو كان إخوة يوسف أنبياء لما أقدموا على مثل هذه الأفعال الشنيعة ، فالحسد ، والسعي بالفساد ، والإقدام على القتل ، والكذب ، وإلقاء يوسف في الجب ، كل ذلك من الكبائر التي تنافي

عصمة الأنبياء ، فالقول بأنهم أنبياء - مع هذه الجرائم - لا يقبله عقل حصيف ، وانظر ما قاله العلامة ابن كثير رحمه الله في هذا الشأن ، فإنه لطيف ودقيق .

قال الله تعالى : ﴿ورأودته التي هو في بيتها . . إلى . . فلبث في السجن بضع سنين﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى ما أكرم به يوسف من الإقامة في القصر مع عزيز مصر ، ذكر هنا ما تعرض له عليه السلام من أنواع الفتنة والإغراء من زوجة العزيز ، وصموده أمام تلك الفتنة العارمة ، وما ظهر منه من العفة والنزاهة حتى أثر دخول السجن على عمل الفاحشة ، وكفى بذلك برهاناً على عفته وطهارته .

اللفظ : ﴿ورأودته﴾ المرادة: الطلب برفقٍ ولين مأخوذة من راد يروذ إذا جاء وذهب ومنه الرائد لطلب الكلاء ، يقال في الرجل : رأودها عن نفسها ، وفي المرأة رأودته عن نفسه أي طلبت منه مضاجعتها ﴿هيت﴾ اسم فعل أمر بمعنى تعال وهلم ﴿مثنوي﴾ مقامي ، والثواء الإقامة مع الاستقرار ﴿همت﴾ الهم يأتي بمعنى العزم والقصد ، ومنه ﴿وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه﴾ ويأتي بمعنى الخاطر وحديث النفس دون عزم قال الشاعر :

هممت بهم من بشينة لو بدا شفيت غليلات الهوى من فؤاديا^(١)

فاهم من امرأة العزيز كان هم عزم وتصميم ، والهم من يوسف كان مجرد حديث نفس ﴿السوء﴾ المنكر ، والفجور ، والمكروه ﴿الفحشاء﴾ ما تنهى قبحه والمراد به الزنى ﴿قدت﴾ القد : الشق والقطع وأكثر ما يستعمل في الطول ، والقط يستعمل في العرض ﴿ألفيا﴾ وجدا ﴿كيدكن﴾ الكيد : المكر والحيلة ﴿الخطئين﴾ المتعمدين للذنوب قال الأصمعي : خطيء الرجل فهو خاطيء إذا تعدد الذنب ، وأخطأ يخطيء إذا غلط ولم يتعمد^(٢) ﴿شغفها حباً﴾ وصل حبه إلى سويدها قلبها قال الزجاج : الشغاف سويدها القلب ﴿أصب﴾ أمل يقال : صبا إلى اللهو إذا مال إليه .

وَرَأَوْدَتُهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ

التفسير : ﴿ورأودته التي هو في بيتها عن نفسه﴾ هذه هي المحنة الثالثة بعد محنة الحب والاسترقاق ، والمرادة الطلب برفقٍ ولين كما يفعل المخادع بكلامه المعسول المعنى : طلبت امرأة العزيز التي كان يوسف في بيتها منه أن يضاجعها ، ودعته برفق ولين أن يواقعها ، وتوسلت إليه بكل وسيلة ﴿وغلقت الأبواب﴾ أي غلقت أبواب البيوت عليها وعلى يوسف وأحكمت إغلاقها قال القرطبي : كانت سبعة أبواب غلقتها ثم دعته إلى نفسها^(٣) ﴿وقالت هيت لك﴾ أي هلم وأسرع إلى الفراش فليس ثمة ما يخشى قال في البحر : أمرته بأن يسرع إليها^(٤) ﴿قال معاذ الله﴾ أي عياداً بالله من فعل السوء قال أبو السعود : وهذا إشارة إلى أنه منكر هائل يجب أن يعاذ بالله تعالى للخلاص منه ، لما أراه الله من البرهان النير على ما

مَثَوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴿٢٤﴾ وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصُهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا

فيه من غاية القبح ونهاية السوء^(١) ﴿إنه ربي أحسن مثواي﴾ أي إن زوجك هو سيدي العزيز الذي أكرمني وأحسن تعهدي فكيف أسىء إليه بالخيانة في حرمة؟ ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يظفر الظالمون بمطالبهم ، ومنهم الخائنون المجازون بالإحسان بالسوء ، ثم أخبر تعالى أن امرأة العزيز حاولت إيقاعه في شركها ، وتوسلت إليه بكل وسائل الإغراء ، ولولا أن الله جلّ وعلا حفظه من كيدها لهلك فقال ﴿ولقد همت به﴾ أي همت بمخالطته عن عزمٍ وقصدٍ وتصميم ، عزمًا جازمًا على الفاحشة لا يصرفها عنها صارف ، وقصدت إجباره على مطاوعتها بالقوة ، بعد أن استحكمت من تغليق الأبواب ، ودعوته إلى الإسراع ، مما اضطره إلى الهرب إلى الباب ﴿وهمَّ بها﴾ أي مالت نفسه إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، وحدثته نفسه بالنزول عند رغبتها حديث نفسٍ ، دون عزمٍ وقصد ، فبين الهممين فرق كبير^(٢) قال الإمام الفخر : الهمُّ خطورُ الشيء بالبال أو ميلُ الطبع ، كالصائم في الصيف يرى الماء البارد فتحمله نفسه على الميل إليه وطلب شربه ، ولكن يمنعه دينه عنه^(٣) ﴿لولا أن رأى برهان ربه﴾ جوابه محذوف أي لولا حفظ الله ورعايته ليوسف ، وعصمته له لخالطها وأمضى ما حدثته نفسه به ، ولكن الله عصمه بالحفظ والتأييد فلم يحصل منه شيء البتة قال في البحر : نسب بعضهم ليوسف ما لا يجوز نسبته لأحد الفساق ، والذي اختاره أن « يوسف » عليه السلام لم يقع منه هم البتة ، بل هو منفي لوجود رؤية البرهان كما تقول : « قارفت الذنب لولا أن عصمك الله » وكقول العرب : « أنت ظالم إن فعلت » وتقديره : إن فعلت فأنت ظالم وكذلك هنا التقدير : لولا أن رأى برهان ربه لهمَّ بها ولكنه وجد رؤية البرهان فانتفى الهم ، وأما أقوال السلف فنعتقد أنه لا يصح عن أحدٍ منهم شيء من ذلك ، لأنها أقوال متكاذبة يناقض بعضها بعضاً مع كونها قاذحة في بعض فساق الملل فضلاً عن المقطوع لهم بالعصمة^(٤) وقال أبو السعود : إن همَّ بها بمعنى ميله إليها بمقتضى الطبيعة البشرية ، ميلاً جبلياً ، لا أنه قصدها قصداً اختيارياً ، ألا يرى إلى ما سبق من استعصامه النبي عن كمال كراهيته له ونفرته عنه ، وحكمه بعدم إفلاح الظالمين ، وهل هو إلا تسجيل باستحالة صدور الهم منه تسجيلاً محكماً ؟ وما قيل : إنه حلَّ الهميان ، وجلس مجلس الختان ، فإنما هي خرافات وأباطيل ، تمجها الأذان ، وتردّها العقول والأذهان^(٥) ﴿كذلك لنصرف عنه السوء﴾ أي ثبتناه على العفة أمام دوافع الفتنة والإغراء لنصرف عنه المنكر والفجور ، وهذه آية بيّنة ، وحجة قاطعة على أنه عليه السلام لم يقع منه هم بالمعصية ، ولو كان كما زعموا لقال « لنصرفه عن السوء والفحشاء » فلما قال ﴿لنصرف عنه﴾ دلّ على أن ذلك شيء خارج عن الإرادة فصرفه الله عنه ، بما منحه من موجبات العفة والعصمة ﴿والفحشاء﴾ أي لنصرف عنه الزنى الذي تنهى قبضه ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ بفتح اللام أي

(١) أبو السعود ٦٢/٢ . (٢) هذا من باب المشكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ، فالهمُّ منها كان همَّ عزمٍ وقصدٍ ، والهمُّ منه كان حديث نفس . (٣) الفخر الرازي ١١٩/١٨ . (٤) البحر ٢٩٥/٥ . (٥) أبو السعود ٦٣/٢ .

لَذَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ قَالَ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَنْ نَفْسِي^ج وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن قَبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذَّابِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِنْ كَانَ قَمِيصُهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٧﴾ فَلَمَّا رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدِّمَ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ^ط إِنْ كَيْدُكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ^ط إِنَّكَ كُنتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٢٩﴾ * وَقَالَ نِسْوَةٌ

الذين أخلصهم الله لطاعته ، واصطفاهم واختارهم لوحيه ورسالته ، فلا يستطيع أن يغويهم الشيطان . . ثم أخبر تعالى بما حصل من المفاجأة العجيبة بقدم زوجها وهما يتسابقان نحو الباب ، ولا تزال هي في هياجها الحيواني ﴿واستبقا الباب﴾ أي تسابقا نحو باب القصر ، هو للهرب ، وهي للطلب ﴿وقدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ﴾ أي شقت ثوبه من خلف لأنها كانت تلحقه فجذبتة فشقت قميصه ﴿وألفيا سيدها لدى الباب﴾ أي وجدا العزيز عند باب القصر فجأة وقد حضر في غير أوان حضوره ، وبمهارة فائقة تشبه مهارة إبليس انقلب الوضع فأصبح الظالم مظلوماً ، والبريء متهماً ﴿قالتُ ما جزاء من أراد بأهلك سوءاً إلا أن يسجن أو عذاب أليم﴾ أي ما جزاؤه إلا السجن أو الضرب ضرباً مؤلماً وجيعاً ﴿قال هي راودتني عن نفسي﴾ أي قال يوسف مكذباً لها : هي التي دعتنني إلى مقارفة الفاحشة لا أنني أردت بها السوء ﴿وشهد شاهد من أهلها﴾ قال ابن عباس : كان طفلاً في المهد أنطقه الله ، وكان ابن خالها^(١) قال في البحر : وكونه من أهلها أوجب للحجة عليها ، وأوثق لبراءة يوسف ، وأنفى للتهمة^(٢) ﴿إن كان قميصه قد من قبل فصدقت وهو من الكاذبين﴾ أي إن كان ثوبه قد شق من أمام فهي صادقة وهو كاذب ﴿وإن كان قميصه قد من دبر فكذبت وهو من الصادقين﴾ أي وإن كان ثوبه قد شق من وراء فهي كاذبة وهو صادق ، لأن الأمر المنطقي أن يشق الثوب من خلف إن كانت هي الطالبة له وهو الهارب ﴿فلما رأى قميصه قد من دبر﴾ أي فلما رأى زوجها أن الثوب قد شق من وراء ﴿قال إنه من كيدكن﴾ أي إن هذا الأمر من جملة مكركن واحتيالكن أيتها النسوة ﴿إن كيدكن عظيم﴾ تأكيد لما سبق ذكره أي مكركن معشر النسوة واحتيالكن للتخلص مما دبرتن شيئاً عظيم ﴿يوسفُ أعرض عن هذا﴾ أي يا يوسف أكرم هذا الأمر ولا تذكره لأحد ، يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : وهنا تبدو صورة من « الطبقة الراقية » في المجتمع الجاهلي ، رخاوة في مواجهة الفضائح الجنسية ، وميل إلى كتمانها عن المجتمع ، فيلتفت العزيز إلى يوسف البريء ويأمره بكنم الأمر وعدم إظهاره لأحد ، ثم يخاطب زوجته الخائن بأسلوب اللباقة في مواجهة الحادث الذي يثير الدم في العروق ﴿واستغفري لذنبك﴾ أي توبيي واطلبي المغفرة من هذا الذنب القبيح ، وكان هذا هو المهم محافظة على الظواهر^(٣) ﴿إنك كنت من الخاطئين﴾ أي من القوم المتعمدين للذنب ، وفي هذا إشارة إلى أن العزيز كان قليل الغيرة حيث لم ينتقم ممن أرادت خيانتة ، وتدليس فراشه بالإثم

فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتْنَهَا عَنْ نَفْسِهِ ۖ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا ۚ إِنَّا لَنَرِلْهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَكًا ۖ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا ۖ وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ أَكْبَرْنَهُ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا هَذَا بَشَرًا ۖ إِنْ هَذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَلِكُنَّ

والفجور قال ابن كثير : كان زوجها ليّن العريكة سهلاً ، أو أنه عذرهما لأنها رأت ما لا صبر لها عنه ^(١) ﴿وقال نسوة في المدينة﴾ أي قال جماعة من النساء في مدينة مصر ، روي أنهن خمس نسوة : امرأة ساقى العزيز ، وامرأة الحاجب ، وامرأة الخباز ، وامرأة صاحب الدواب ، وامرأة صاحب السجن قاله ابن عباس وغيره ، والأظهر أن تلك الواقعة شاعت في البلد ، واشتهرت وتحدث بها النساء ﴿امرأة العزيز تراوّد فتاها عن نفسه﴾ أي امرأة عزيز مصر تطلب من خادمها وعندها أن يواقعها وتخادعه وتتوسل إليه لقضاء وطرها منه قال أبو حيان : وتصريحهن بإضافتها إلى العزيز مبالغة في التشنيع ، لأن النفوس أميل لسماع أخبار ذوي الجاه ، وعبرن بـ ﴿تراوّد﴾ للدلالة على أن ذلك صار سجية لها فهي دائماً تخادعه عن نفسه لأن المضارع يفيد التجدد والاستمرار ^(٢) ﴿قد شغفها حباً﴾ أي بلغ حبه شغاف قلبها - وهو حجابها - وشقه حتى وصل إلى فؤادها ﴿إنا لنراها في ضلالٍ مبين﴾ أي إنا لنعقد أنها في ضلال عن طريق الرشد واضح بسبب حبها إيّاه ﴿فلما سمعت بمكرهن﴾ أي فلما سمعت بحديثهن ، وسماه مكرّاً لأنه كان في خفية ، كما يخفي الماكر مكره ﴿أرسلت إليهن﴾ أي أرسلت إليهنّ تدعوهم إلى منزلها لحضور وليمة قال المفسرون : دعت أربعين امرأة من الذوات منهن النساء الخمس المذكورات ﴿وأعتدت لهنّ متكاً﴾ أي هيأت لهنّ ما يتكئن عليه من الفرش والوسائد ^(٣) ﴿وآتت كلّ واحدةٍ منهنّ سكيناً﴾ في الكلام محذوف أي قدمت لهن الطعام وأنواع الفاكهة ثم أعطت كل واحدةٍ منهنّ سكيناً لتقطع به ﴿وقالت اخرج عليهن﴾ أي وقالت ليوسف وهنّ مشغولات بتقشير الفاكهة والسكاكين في أيديهن : اخرج عليهنّ فلم يشعرن إلا ويوسف يمرّ من بينهنّ ﴿فلما رأينه أكبرته﴾ أي فلما رأى يوسف أعظمته وأجللته ، وبهتن من جماله ودّهشن ﴿وقطعنّ أيديهن﴾ أي جرحن أيديهن بالسكاكين لفرط الدهشة المفاجئة ﴿وقلن حاش لله﴾ أي تنزه الله عن صفات العجز ، وتعالى عظّمته في قدرته على خلق مثله ﴿ما هذا بشراً﴾ أي ليس هذا من البشر ﴿إن هذا إلا ملك كريم﴾ أي ما هو إلا ملك من الملائكة ، فإن هذا الجمال الفائق ، والحسن الرائع مما لا يكاد يوجد في البشر ﴿قالت فذلكنّ الذي لمنتنني فيه﴾ صرّحت عند ذلك بما في نفسها من الحب ليوسف لأنها شعرت بأنها انتصرت عليهن فقالت قولة

(١) مختصر ابن كثير ٢/٢٤٧ . (٢) البحر ٥/٣٠١ . (٣) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : لقد أقامت لهن مأدبة في قصرها ، وندرك من هذا أنهن كنّ نساء الطبقة الراقية ، فهن اللواتي يدعين إلى المآذب في القصور ، وهن اللواتي يؤخذن بهذه الوسائل الناعمة المظهر ، ويبدو أنهن يأكُلن وهنّ متكئات على الوسائد والحشايا وأعدت لهن هذا المتكأ وآتت كل واحدةٍ منهن سكيناً تستعملها في الطعام ، ويؤخذ من هذا صورة الترف والحضارة المادية التي كان عليها أهل القصور ، وبيننا هنّ منشغلات بتقطيع اللحم أو تقشير الفاكهة فاجأتهم بيوسف فلما رأينه بهتن لطلعته ودّهشن وجرحن أيديهن بالسكاكين . ظلال القرآن ١٢/٢٣٢ .

الَّذِي لُمْتُنِّي فِيهِ وَلَقَدْ رَاودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ فَاسْتَعْصَمَ وَلَئِنْ لَمْ يَفْعَلْ مَا أُمِرُهُ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٣٣﴾ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾ ثُمَّ بَدَأَ لَهُمْ مِّنْ بَعْدِ مَا رَأَوُا الْآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾ وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانٍ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ

المنتصرة : هذا الذي رأيتموه هو ذلك العبد الكنعاني الذي لمتني في محبته ، فانظرون ماذا لقيتن منه من الافتتان والدهش والإعجاب !! ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم﴾ أي أردت أن أنال وطري منه ، وأن أقضي شهوتي معه ، فامتنع امتناعاً شديداً ، وأبى إباءً عنيماً قال الزمخشري : والاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد ^(١) ﴿ولئن لم يفعل ما أمره لیسجننَّ لیکوناً من الصاغرين﴾ أي ولئن لم يطاوعني ليعاقبن بالسجن والحبس وليكوننَّ من الأذلاء المهانين قال القرطبي : عاودته المراودة بمحضر منهن ، وهتكت جلباب الحياء ، وتوعدت بالسجن إن لم يفعل ، ولم تعد تخشى لوماً ولا مقالاً ، خلاف أول أمرها إذ كان ذلك سراً بينها وبينه ^(٢) ﴿قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه﴾ لجأ يوسف إلى ربه وجعل يناجيه في خشوع وتضرع فقال : رب السجن أثرٌ عندي وأحبُّ إلى نفسي من اقتراف الفاحشة ، وأسند الفعل إليهن لأنهن جميعاً مشتركات في الدعوة بالتصريح أو التلويح ، وقيل إنها لما توعدته نصحه وزين له مطاوعتها ، ونهيه عن إلقاء نفسه في السجن ﴿وإلا تصرف عني كيدهن﴾ أي وإن لم تدفع عني شرهن وتعصمني منهن ﴿أصب إليهن﴾ أي أملُ إلى إجابتهن بمقتضى البشرية ﴿وأكن من الجاهلين﴾ أي بسبب ما يدعونني إليه من القبيح ، وهذا كله على سبيل التضرع والاستغاثة بجناب الله تعالى كعادة الأنبياء والصالحين ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن﴾ أي أجاب الله دعاءه فنجاه من مكرهن ، وثبته على العصمة والعفة ﴿إنه هو السميع﴾ أي لدعاء الملتجئين إليه ﴿العليم﴾ بأحوالهم وما انطوت عليه نياتهم . . وهكذا اجتاز يوسف محتته الثالثة بلطف الله ورعايته ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننَّه حتى حين﴾ هذه بداية المحنة الرابعة وهي الأخيرة من محن الشدة في حياة يوسف الصديق وهي « محنة السجن » وكل ما بعدها فرخاء والمعنى ثم ظهر للعزیز وأهله ومن استشارهم بعد الدلائل القاطعة على براءة يوسف ، سجنه إلى مدة من الزمن غير معلومة ، روي أن امرأة العزيز لما استعصى عليها يوسف وأيست منه ، احتالت بطريق آخر ، فقالت لزوجها : إن هذا العبد العبراني قد فضحني في الناس يقول لهم : إني راودته عن نفسه وأنا لا أقدر على إظهار عذري ، فإما أن تأذن لي فأخرج وأعتذر ، وإما أن تحبسه ، فعند ذلك بدا له سجنه قال ابن عباس : فأمر به فحمل على حمار ، وضرب بالطليل ، وتؤدي عليه في

نَحْمَرًا وَقَالَ الْآخَرُ إِنِّي أُرْسِنِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْرًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنْ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٦﴾ قَالَ لَا يَأْتِيَكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا ذَلِكَ مِمَّا
عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ

أسواق مصر ، إن يوسف العبراني أراد سيده فجزأوه أن يسجن ، قال أبو صالح ما ذكر ابن عباس هذا الحديث إلا بكى ^(١) ﴿ودخل معه السجن فتيان﴾ أي أدخل يوسف السجن واتفق أنه أدخل حينئذ آخران من خدم الملك الخاص أحدهما خبازه ، والآخر ساقيه ، اتهما بأنهما أرادا أن يسماه فحبسهما ﴿قال أحدهما إني أراني أعصر خمراً﴾ أي قال الساقى إني رأيت في المنام أني أعصر عنباً يثول إلى خمر وأسقي منه الملك ﴿وقال الآخر إني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه﴾ أي وقال الخباز : إني رأيت في منامي أني أحمل على رأسي طبقاً فيه خبز ، والطير تأكل من ذلك الخبز ﴿نبئنا بتأويله إنا نراك من المحسنين﴾ أي أخبرنا بتفسير ما رأينا إنا نراك من الذين يحسنون تفسير الرؤيا ، أخبراه عن رؤيائهما لما علما أنه يجيد تفسير الرؤيا ﴿قال لا يأتیکما طعامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَكُمَا﴾ أي لا يأتیکما شيء من الطعام إِلَّا أخبرتکما ببيان حقيقته وماهيته وكيفيته قبل أن يصل إليكما ، أخبرهما بمعجزاته ومنها معرفة «المغيبات» توطئة لدعائهما إلى الإيـمان قال البيضاوي : أراد أن يدعوهم إلى التوحيد ويرشدهما إلى الدين القويم قبل أن يسعفهما إلى ما سألاه عنه ، كما هو طريقة الأنبياء في الهداية والإرشاد ، فقدّم ما يكون معجزة له من الإخبار بالغيب ليدهما على صدقه في الدعوة والتعبير ^(٢) ﴿ذلكما مما علّمني ربي﴾ إن ذلك الإخبار بالمغيبات ليس بكهانة ولا تنجيم ، وإنما هو بإلهام ووحى من الله ﴿إني تركت ملة قوم لا يؤمنون بالله﴾ أي خصني ربي بذلك العلم لأنني من بيت النبوة وقد تركت دين قوم مشركين لا يؤمنون بالله ﴿وهم بالآخرة هم كافرون﴾ أي يكذبون بيوم القيامة ، نبّه على أصلين عظيمين : الإيـمان بالله ، والإيـمان بدار الجزاء ، إذ هما أعظم أركان الإيـمان ، وكرر لفظة ﴿هم﴾ على سبيل التأكيد ﴿واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب﴾ أي اتبعت دين الأنبياء ، لا دين أهل الشرك والضلال ، والغرض إظهار أنه من بيت النبوة ، لتقوى رغبتها في الاستماع إليه والوثوق بكلامه ﴿ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء﴾ أي ما ينبغي لنا معاصر الأنبياء أن نشرك بالله شيئاً مع اصطفائه لنا وإنعامه علينا ﴿ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس﴾ أي ذلك الإيـمان والتوحيد من فضل الله علينا حيث أكرمنا بالرسالة ، وعلى الناس حيث بعث الرسل لهدايتهم وإرشادهم ﴿ولكن أكثر الناس لا يشكرون﴾ أي لا يشكرون فضل الله عليهم فيشركون به غيره . . ولما ذكر عليه السلام ما هو عليه من الدين الحنيف الذي هو دين الرسل ، تلطّف في حسن الاستدلال على فساد ما عليه قوم الفتيين من عبادة

النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٨﴾ يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَرَبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمْ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿٢٩﴾ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ ۚ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمِيَتْهُمَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ ۚ إِنَّ الْحُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ۚ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ يَصْحَبِي السِّجْنِ ۖ أَمَّا أَحَدُكُمْ فَيسْقَى رَبُّهُ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا الْآخَرُ فَيُصَلِّبُ فِتْنًا كُلَّ الطَّيْرِ مِنْ رَأْسِهِ ۚ قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٣١﴾ وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ ۖ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٣٢﴾

الأصنام فقال ﴿يا صاحبي السجن﴾ أرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار ﴿أي يا صاحبي﴾ في السجن آلهة متعددة لا تنفع ولا تضر ولا تستجيب لمن دعاها كالأصنام ، خير أم عبادة الواحد الأحد ، المتفرد بالعظمة والجلال ؟! ﴿ما تعبدون من دونه إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم﴾ أي ما تعبدون يا معشر القوم من دون الله إلا أسماء فارغة سميتموها آلهة وهي لا تملك القدرة والسلطان لأنها جمادات ﴿ما أنزل الله بها من سلطان﴾ أي ما أنزل الله لكم في عبادتها من حجة أو برهان ﴿إن الحكم إلا لله﴾ أي ما الحكم في أمر العبادة والدين إلا لله رب العالمين ﴿أمر ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أي أمر سبحانه بإفراد العبادة له ، لأنه لا يستحقها إلا من له العظمة والجلال ﴿ذلك الدين القيم﴾ أي ذلك الذي أدعوكم إليه من إخلاص العبادة لله هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي يجهلون عظمة الله فيعبدون ما لا يضر ولا ينفع . . تدرج عليه السلام في دعوتهم وألزمهم الحجة بأن بين لهم أولاً رجحان التوحيد على اتخاذ الآلهة المتعددة ، ثم برهن على أن ما يسمونها آلهة ويعبدونها من دون الله لا تستحق الألوهية والعبادة ، ثم نص على ما هو الحق القويم والدين المستقيم وهو عبادة الواحد الأحد الفرد الصمد ، وذلك من الأسلوب الحكيم في الدعوة إلى الله ، حيث قدم الهداية والإرشاد ، والنصيحة والموعظة ، ثم شرع في تفسير رؤياهما فقال ﴿يا صاحبي السجن﴾ أمّا أحدكما فيسقي ربه خمرًا ﴿أي يا صاحبي﴾ في السجن أمّا الذي رأى أنه يعصر خمرًا فيخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من سقي سيده الخمر ، وأمّا الآخر الذي رأى على رأسه الخبز فيقتل ويعلّق على خشبة فتأكل الطير من لحم رأسه ، قال المفسرون : روي أنه لما أخبرهما بذلك جحداً وقالاً ما رأينا شيئاً فقال ﴿قضى الأمر الذي فيه تستفتيان﴾ أي انتهى وتمّ قضاء الله صدقتهما أو كذبتما فهو واقع لا محالة ﴿وقال للذي ظن أنه ناجٍ منها﴾ أي قال يوسف للذي اعتقد نجاته وهو الساقى ﴿اذكرني عند ربك﴾ أي اذكرني عند سيّدك وأخبره عن أمري لعله يخلصني ممّا ظلمت به ﴿فأنساه الشيطان ذكر ربه﴾ أي أنسى الشيطان الساقى أن يذكر أمر يوسف للملك ﴿فلبث في السجن بضع سنين﴾ أي مكث يوسف في السجن سبع سنين ، قال المفسرون : وإنما لبث في السجن بضع سنين ، لأنه اعتمد ووثق بالمخلوق ، وغفل أن يرفع حاجته إلى الخالق جل وعلا قال القرطبي : قال وهب بن منبه : أقام أيوب في البلاء سبع سنين ، وأقام يوسف في السجن سبع سنين .

البَلَاغَةُ : ١ - بين ﴿صدقته﴾ و﴿كذبت﴾ و﴿الصادقين﴾ و﴿الكاذبين﴾ طباقٌ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - ﴿من الخاطئين﴾ من باب تغليب الذكور على الإناث .

٣ - ﴿سمعت بمكرهن﴾ استعير المكر للغيبة لشبهها له في الإخفاء .

٤ - ﴿وقطعن أيديهن﴾ كذلك فيه استعارة حيث استعار لفظ القطع عن الجرح أي جرحن أيديهن .

٥ - ﴿أعصر خراً﴾ مجاز مرسل باعتبار ما يكون أي عنباً يثول إلى خمر .

فَكَايْدَةٌ : روي أن جبريل جاء إلى يوسف وهو في السجن معاتباً له فقال له : يا يوسف من خلصك من القتل من أيدي إخوانك ؟ قال: الله تعالى ، قال: فمن أخرجك من الحب ؟ قال: الله تعالى ، قال : فمن عصمك من الفاحشة ؟ قال: الله تعالى ، قال : فمن صرف عنك كيد النساء ؟ قال : الله تعالى ، قال : فكيف تركت ربك فلم تسأله ووثقت بمخلوق ؟ قال : يا رب كلمة زلتُ مني أسألك يا إله إبراهيم وآله والشيخ يعقوب عليهم السلام أن ترحمني فقال له جبريل : فإن عقوبتك أن تلبث في السجن بضعة سنين^(١) .

تبليغه : قال العلماء في قوله تعالى ﴿واستبقا الباب﴾ هذا من اختصار القرآن المعجز ، الذي يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة ، وذلك أنها لما راودته عن نفسه وأبى ، عزمت على أن تجربته بالقسر والإكراه ، فهرب منها فتسابقا نحو الباب هي لترده إلى نفسها وهو يهرب منها فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة البليغة ﴿واستبقا الباب﴾ .

شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم

لقد شطَّ القلم ، وزلقت القدم ببعض المفسرين حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة الفاحشة ، وشُحنت بعضُ كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية ، بل المنكرة الباطلة في تفسير « الهم » و « البرهان » حتى زعم بعضهم أن يوسف حلَّ رباط السروال ، وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، ثم رأى صورة أبيه « يعقوب » عاضاً على أصبعه ، فقام عنها وتركها خجلاً من أبيه إلى غير ما هنالك من أقوال واهية ، لا زمام لها ولا خطام . ولست أدري كيف دخلت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير ، وتقبلها بعضهم بقبول حسن ، وكلُّها - كما يقول العلامة أبو السعود - خرافات وأباطيل ، تمجَّها الأذان ، وتردها العقول والأذهان ! ؟ ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن « يوسف الصديق » نبي كريم ، ابن نبي كريم ، وأن العصمة من صفات الأنبياء !! يا قوم اعقلوا وفكروا ، ونزهوا هذه الكتب عن أمثال هذه الترهات والأباطيل ، فإن الزنى جريمة من أشنع الجرائم فكيف يرتكبها نبي من الأنبياء المكرمين ؟ وهاكم الأدلة أسوقها من كتاب الله فقط على عصمته عليه السلام من عشرة وجوه :

الأول : امتناعه الشديد ووقوفه أمامها بكل صلابة وعزم ﴿قال معاذ الله إنه ربي أحسن مثوياً . .﴾ .

الثاني : فراره منها بعد أن غلقت الأبواب وشدت عليه الحصار ﴿واستبقا الباب وقدت قميصه من

دبر . .﴾ .

(١) القرطبي ٩/ ١٩٦ .

الثالث : إيثاره السجن على الفاحشة ﴿قال رب السجن أحبُّ إليَّ مما يدعونني إليه . .﴾ .

الرابع : ثناء الله تعالى عليه في مواطن عديدة ﴿إنه من عبادنا المخلصين﴾ ﴿آتيناهُ حُكماً وَعِلْماً﴾ فهل يكون مخلصاً لله من همٍّ بفاحشة الزنى ؟ .

الخامس : شهادة الطفل الذي أنطقه الله وهو في المهد بالحجة الدامغة ﴿وشهد شاهدٌ من أهلها . .﴾ الآية .

السادس : اعتراف امرأة العزيز ببراءته وعفته ﴿ولقد راودته عن نفسه فاستعصم . .﴾ .

السابع : استغاثته بربه لينجيه من كيد النساء ﴿فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن . .﴾ .

الثامن : ظهور الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة على براءته وإدخاله السجن لدفع مقالة الناس ﴿ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننَّهُ حتى حين﴾ .

التاسع : عدم قبوله الخروج من السجن حتى تبرأ ساحته من التهمة ﴿ارجعْ إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن . .﴾ ؟ .

العاشر : الاعتراف الصريح من امرأة العزيز والنسوة ببراءته ﴿قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين﴾ . وكفى بذلك برهاناً على عفته ونزاهته ! ! والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

قال الله تعالى : ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان . . إلى . . ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٦٨) .

المناسكة : لما أراد الله الفرج عن يوسف وإخراجه من السجن ، رأى ملك مصر رؤيا عجيبة أفزعته ، فجمع السحرة والكهنة والمنجمين وأخبرهم بما رأى في منامه ، وسأهم عن تأويلها فأعجزهم الله جميعاً ليكون ذلك سبباً في خلاص يوسف من السجن .

اللغة : ﴿عجاف﴾ هزيلة ضعيفة جمع أعجف والأثنى عجفاء ﴿تعبرون﴾ التعبير : معرفة تفسير الرؤيا المنامية ﴿أضغاث﴾ جمع ضيغ وهو الحزمة من الحشيش اختلط فيها اليبس بالرطب ﴿أحلام﴾ جمع حلم وهو ما يراه النائم ومعناه أخلاط منامات اختلط فيها الحق بالباطل ﴿أذكر﴾ تذكّر بعد النسيان ﴿دأباً﴾ الدأب : الاستمرار على الشيء يقال : دأب على عمله فهو دأب أي استمر عليه ﴿تحصنون﴾ تحرزون وتدخرون ﴿حصحص﴾ ظهر وبان ﴿مكين﴾ ذو مكانة رفيعة ﴿رحلهم﴾ جمع رحل وهو ما على ظهر المركوب من متاع الراكب وغيره ﴿غمير﴾ نأتي لهم بالميرة وهي الطعام ﴿يحاطبكم﴾ تهلکوا جميعاً .

وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَى سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعٌ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ الْفُضْيَرُ : ﴿وقال الملك إني أرى سبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف وسبع سنبلات خضر وأخر يابس﴾ أي قال ملك مصر إني رأيت في منامي سبع بقرات سمان خرجت من نهر يابس ، وفي أثرهن سبع بقرات هزيلة في غاية الهزال

أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنْتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ قَالُوا أَضْغَتْ أَحْلَامٌ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ الْأَحْلَامِ بِعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾ وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ يُوسُفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ لَّعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُخْصِنُونَ ﴿٤٨﴾ ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ

فابتعلت العجافُ السَّمانَ ﴿٤٦﴾ وسبعُ سنبلاتٍ خضرٍ وأخرَ يابساتٍ ﴿٤٧﴾ هذا من تنمة الرؤيا أي ورأيتُ أيضاً سبعَ سنبلاتٍ خضرٍ قد انعقد حبُّها وسبعاً أخرَ يابساتٍ قد استحصدت ، فالتوت اليابسات على الخضر فأكلنهنَّ ﴿٤٨﴾ يا أيها الملاء أفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ ﴿٤٩﴾ أي يا أيها الأشراف من رجالي وأصحابي أخبروني عن تفسير هذه الرؤيا ﴿٥٠﴾ إن كنتم للرؤيا تعبرون ﴿٥١﴾ أي إن كنتم تجيدون تعبيرها وتعرفون مغزاها ﴿٥٢﴾ قالوا أضغاث أحلام ﴿٥٣﴾ أي أخطا رؤيا كاذبة لا حقيقة لها قال الضحاك : أحلامٌ كاذبة ﴿٥٤﴾ وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين ﴿٥٥﴾ أي ولسنا نعرف تأويل مثل هذه الأحلام الكاذبة ^(١) ﴿٥٦﴾ وقال الذي نجا منها وادَّكرَ بعد أُمَّةٍ ﴿٥٧﴾ أي وقال الذي نجا من السجن وهو الساقى وتذكر ما سبق له مع يوسف بعد مدة طويلة ﴿٥٨﴾ أنا أنبئكم بتأويله ﴿٥٩﴾ أي أنا أخبركم عن تفسير هذه الرؤيا من عنده علم بتأويل المنامات ﴿٦٠﴾ فأرسلون ﴿٦١﴾ أي فأرسلوني إليه لاتيكم بتأويلها ، خاطب الملك بلفظ التعظيم قال ابن عباس : لم يكن السجن في المدينة ولهذا قال فأرسلون ^(٢) ﴿٦٢﴾ يوسفُ أَيُّهَا الصِّدِّيقُ ﴿٦٣﴾ في الكلام محذوف دلُّ عليه السياق وتقديره : فأرسلوه فانطلق الساقى إلى السجن ودخل على يوسف وقال له : يا يوسف يا أيها الصِّدِّيق وسمَّاه صديقاً لانه كان قد جرب صدقه في تعبير الرؤيا التي رآها في السجن ، والصديق مبالغة من الصدق ﴿٦٤﴾ أفْتِنَا فِي سَبْعِ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ، وسبع سنبلات خضرٍ وأخرَ يابساتٍ ﴿٦٥﴾ أي أخبرنا عن تأويل هذه الرؤيا العجيبة ﴿٦٦﴾ لعلِّي أرجع إلى الناس لعلهم يعلمون ﴿٦٧﴾ أي لأرجع إلى الملك وأصحابه وأخبرهم بها ليعلموا فضلك وعلمك ويخلصوك من محتك قال الإمام الفخر : وإنما قال ﴿٦٨﴾ لعلِّي أرجع إلى الناس ﴿٦٩﴾ لأنه رأى عجز سائر المعبرين عن جواب هذه المسألة فخاف أن يعجز هو أيضاً عنها فلهذا السبب قال لعلِّي ^(٣) ﴿٧٠﴾ قال تزرعون سبع سنين دأباً ﴿٧١﴾ أي تزرعون سبع سنين دائبين بجد وعزيمة ﴿٧٢﴾ فما حصدتم فذروه في سنبله ﴿٧٣﴾ أي فما حصدتم من الزرع فاتركوه في سنبله لئلا يسوس ﴿٧٤﴾ إلا قليلاً مما تأكلون ﴿٧٥﴾ أي إلا ما أردتم أكله فادرسوه واتركوا الباقي في سنبله ﴿٧٦﴾ ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد ﴿٧٧﴾ أي ثم يأتي بعد سني الرخاء سبع سنين مجدبات ذات شدة وقحط على الناس ﴿٧٨﴾ يأكلن ما قدمتم لهن ﴿٧٩﴾ أي تأكلون فيها مما ادخرتم أيام الرخاء ﴿٨٠﴾ إلا

(١) وقيل المعنى : لسنا نعرف تأويل الأحلام على الإطلاق . (٢) الطبري ١٢ / ٢٢٩ . (٣) الرازي ١٨ / ١٤٩ .

يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصُرُونَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِي بِهِ ^ط فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ^ج إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿١٢﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رُودَتْنَ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ ^ع قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْحَقُّ أَنَا رُودْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ ^ج وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٣﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْخَائِبِينَ ﴿١٤﴾ * وَمَا أَبرئُ نَفْسِي ^ج

قليلاً مما تحصنون ﴿١١﴾ أي إلا القليل الذي تدخرونه وتخبئونه للزراعة ﴿١٢﴾ ثم يأتي من بعد ذلك عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون ﴿١٣﴾ أي ثم يأتي بعد سني القحط والجذب العصيبة عام رخاء ، فيه يُمطر الناس ويغاثون ، وفيه يعصرون الأعناب وغيرها لكثرة خصبه ، قال الزمخشري : تأول عليه السلام البقرات السماء والسنبلات الخضر بسنين مخاصيب ، والعجاف واليابسات بسنين مجدبة ، ثم بشرهم بأن العام الثامن يجيء مباركاً خصيباً ، كثير الخير ، غزير النعم ، وذلك من جهة الوحي ^(١) ﴿١٤﴾ وقال الملك اتنوني به ﴿١٥﴾ أي ولما رجع الساقى إلى الملك وعرض عليه ما عرّبه يوسف رؤياه استحسّن ذلك فقال : أحضروه لي لأسمع منه تفسيرها بنفسى ولأبصره ﴿١٦﴾ فلما جاءه الرسول ﴿١٧﴾ أي فلما جاء رسول الملك يوسف ﴿١٨﴾ قال ارجع إلى ربك ﴿١٩﴾ أي قال يوسف للرسول : إرجع إلى سيدك الملك ﴿٢٠﴾ فأسأله ما بال النسوة اللاتي قَطَّعنَ أيديهن ﴿٢١﴾ أي سلّه عن قصة النسوة اللاتي قَطَّعنَ أيديهن هل يعلم أمرهن ؟ وهل يدري لماذا حُبستُ ودخلت السجن ؟ وأني ظلمت بسببهن ؟ أبى عليه السلام أن يخرج من السجن حتى تُبرأ ساحته من تلك التهمة الشنيعة ، وأن يعلم الناس جميعاً أنه حُبس بلا جرم ﴿٢٢﴾ إن ربي بكيدهن عليم ﴿٢٣﴾ أي إنه تعالى هو العالم بخفيات الأمور وبما دبرن من كيد لي ﴿٢٤﴾ قال ما خطبكنَّ إذ راودتنَّ يوسف عن نفسه ﴿٢٥﴾ جمع الملك النسوة ودعا امرأة العزيز معهن فسألهن عن أمر يوسف وقال لهن : ما شأنكن الخطير حين دعوتن يوسف إلى مقارفة الفاحشة ؟ ﴿٢٦﴾ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿٢٧﴾ أي معاذ الله أن يكون يوسف أراد السوء ، وهو تنزيه له وتعجب من نزاهته وعفته ﴿٢٨﴾ قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق ﴿٢٩﴾ أي ظهر وانكشف الحق وبان بعد خفائه ﴿٣٠﴾ أنا راودتُه عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴿٣١﴾ أي أنا التي أغريته ودعوته إلى نفسي وهو بريء من الخيانة وصادق في قوله «هي راودتني عن نفسي» وهذا اعتراف صريح ببراءة يوسف على رءوس الأَشهاد ﴿٣٢﴾ ذلك ليعلم أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ ﴿٣٣﴾ الأظهر أن هذا من كلام يوسف قاله لما وصله براءة

(١) الكشاف ٤٧٧/٢ .

(٢) يقول الشهيد سيد قطب عليه الرحمة : رجع الرسول فأخبر الملك ، وأحضر الملك النسوة يستجوبهن ، والخطب : الأمر الجلل ، فكان الملك استقصى فعلم أمرهن ، فهو يواجههن مقرأً الاتهام ، ومشيئاً إلى أمر لهن جلل وشأن لهن خطير ﴿٣٤﴾ ما خطبكنَّ إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ ومن هذا نعلم شيئاً مما دار في حفل الاستقبال في بيت العزيز ، وما قالته النسوة ليوسف وما أشرن إليه من الإغراء الذي يبلغ درجة المراودة ، ومن هذا نتخيل صورة هذه الأوساط ونسائتها حتى في ذلك العهد الموهل في التاريخ ، فالجاهلية دائماً هي الجاهلية ، إنه حيثما كان الترف ، وكانت القصور والحاشية ، كان التحلل والتَمَيُّع ، والفجور الناعم الذي يرتدي ثياب الأرستقراطية ! ! لظلال القرآن ١٢/٢٤٨ .

إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥٣﴾ وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ ۖ اسْتَخْلَصْهُ
لِنَفْسِي فَلَمَّا كَلَّمَهُ قَالَ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾
وكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوا مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلَا جُرْأَاحِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٥٧﴾ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ
فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ أَتُؤْتُونَ أُتًى أَوْ فِي الْكَيْلِ

النسوة له والمعنى ذلك الأمر الذي فعلته من ردّ الرسول حتى تظهر براءتي ليعلم العزيز أنني لم أخنه في زوجته في غيبته بل تعففت عنها ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ﴾ أي لا يوفق الخائن ولا يسدّد خطاه ﴿وما أبرئ نفسي إن النفس لأمارة بالسوء﴾ أي لا أزكي نفسي ولا أنزهها ، فإن النفس البشرية ميالة إلى الشهوات ، قاله يوسف على وجه التواضع قال الزمخشري : أراد أن يتواضع لله ويهضم نفسه ، لئلا يكون لها مزكياً ، وبحالها معجباً ومفتخراً^(١) ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ أي إلا من رحمه الله بالعصمة ﴿إن ربي غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿وقال الملك ائتوني به استخلصه لنفسى﴾ أي ائتوني بيوسف اجعله من خاصتي وخلصائي ، قال ذلك لما تحقق براءته وعرف عفته وشهامته وعلمه ﴿فلما كلمه قال إنك اليوم لدينا مكين أمين﴾ أي فلما أتوا به وكلمه يوسف وشاهد الملك فضله ، ووفور عقله ، وحسن كلامه قال إنك اليوم قريب المنزلة رفيع الرتبة ، مؤتمن على كل شيء ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض﴾ أي قال يوسف للملك اجعلني على خزائن أرضك ﴿إنني حفيظ عليم﴾ أي أمين على ما استودعنتني ، عليم بوجوه التصرف ، وإنما طلب منه الولاية رغبة في العدل ، وإقامة الحق والإحسان ، وليس هو من باب التزكية للنفس ، وإنما هو للإشعار بحنكته ودرايته لاستلام وزارة المالية ﴿وكذلك مكنا ليوسف في الأرض﴾ أي وهكذا مكنا ليوسف في أرض مصر ، وجعلنا له العزّ والسلطان بعد الحبس والضيق ﴿يتبوا منها حيث يشاء﴾ أي يتخذ منها منزلاً حيث يشاء ويتصرف في المملكة كما يريد ﴿نصيب برحمتنا من نشاء﴾ أي نخص بإنعامنا وفضلنا من نشاء من عبادنا ﴿ولا نضيع أجر المحسنين﴾ أي لا نضيع أجر من أحسن عمله وأطاع ربه بل نضاعفه له ﴿ولأجر الآخرة خيرٌ للذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي أجر الآخرة وثوابها خيرٌ للمؤمنين المتقين من أجر الدنيا ، وفيه إشارة إلى أن المطلب الأعلى هو ثواب الآخرة ، وأن ما يُدخِرهُ لهُ لاء المحسنين أعظم وأجل من هذا النعيم العاجل في الدنيا ﴿وجاء إخوة يوسف فدخلوا عليه فعرفهم وهم له منكرون﴾ أي دخلوا على يوسف فعرف أنهم إخوته ولكنهم لم يعرفوه لهية الملك ، وبعُد العهد ، وتغير الملامح قال ابن عباس : كان بين إلقائه في الحب وبين دخولهم عليه اثنتان وعشرون سنة فلذا أنكروه^(٢) ، وكان سبب مجيئهم أنهم أصابتهم مجاعة في بلادهم بسبب القحط الذي عمّ البلاد ، فخرجوا إلى مصر ليشتروا من

وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرُبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفَتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضْعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَى أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانَ نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٦٣﴾ قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٦٤﴾ وَلَمَّا فَتَحُوا

الطعام الذي ادخره يوسف ، فلما دخلوا على يوسف قال كالمنكر عليهم : ما أقدمكم بلادي ؟ قالوا : جئنا للميرة ، قال : لعلكم عيون « جواسيس » علينا ؟ قالوا : معاذ الله ، قال : فمن أين أنتم ؟ قالوا : من بلاد كنعان وأبونا يعقوب نبي الله ، قال : وله أولاد غيركم ؟ قالوا : نعم كنا اثني عشر فذهب أصغرنا وهلك في البرية - وكان أحبنا إليه - وبقي شقيقه فاحتبسه ليتسلّى به عنه وجئنا نحن العشرة ، فأمر بآنزالهم وإكرامهم^(١) ﴿ ولما جهّزهم بجهازهم ﴾ أي هيا لهم الطعام والميرة وأعطاهم ما يحتاجون إليه في سفرهم ﴿ قال اتنوني بأخركم من أبيكم ﴾ أي اتنوني بأخيك بنيامين لأصدقكم ﴿ ألا ترون أنني أوفي الكيل ﴾ أي ألا ترون أنني أتم الكيل من غير بخس ﴿ وأنا خير المنزلين ﴾ أي خير من يكرم الضيفان وخير المضيفين لهم ، وكان قد أحسن إنزالهم وضيافتهم ﴿ فإن لم تأتوني به فلا كيل لكم عندي ولا تقربون ﴾ أي إن لم تأتوني بأخيك فليس لكم عندي بعد اليوم ميرة ، ولا تقربوا بلادي مرة ثانية ، رغبتهم ثم توعدهم قال في البحر : والظاهر أن كل ما فعله يوسف عليه السلام كان بوحى من الله وإلا فمقتضى البر أن يبادر إلى أبيه ويستدعيه لكن الله أراد تكميل أجر يعقوب ومحتته ، ولتفسّر الرؤيا الأولى^(٢) ﴿ قالوا سُرُودٌ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي سنخادعه ونحتال في انتزاعه من يده ، ونجتهد في طلبه منه ، وإنا لفاعلون ذلك ﴿ وقال لفتيانه اجعلوا بضاعتهم في رحالهم ﴾ أي قال يوسف لغلمايه الكياليين اجعلوا المال الذي اشتروا به الطعام في أوعيتهم ﴿ لعلهم يعرفونها إذا انقلبوا إلى أهلهم ﴾ أي لكي يعرفوها إذا رجعوا إلى أهلهم وفتحوا أوعيتهم ﴿ لعلهم يرجعون ﴾ أي لعلهم يرجعون إلينا إذا رأوها ، فإنه علم أن دينهم يحملهم على رد الثمن لأنهم مطهرون عن أكل الحرام فيكون ذلك أدعى لهم إلى العود إليه ﴿ فلما رجعوا إلى أبيهم قالوا يا أبانا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْل ﴾ أي فلما عادوا إلى أبيهم قالوا له - قبل أن يفتحوا متاعهم - يا أبانا لقد أنذرنا بمنع الكيل في المستقبل إن لم نأت بأخيना بنيامين ، فإن ملك مصر ظن أننا جواسيس وأخبرناه بقصتنا فطلب أخانا ليتحقق صدقنا ﴿ فأرسل معنا آخانا نكتل ﴾ أي أرسل معنا أخانا بنيامين لناخذ ما نستحقه من الحبوب التي تُكال لنا ﴿ وإنا له لحافظون ﴾ أي نحفظه من أن يناله مكروه ﴿ قال هل آمنكم عليه إلا كما أمنتكم على أخيه من قبل ﴾ أي قال لهم يعقوب : كيف آمنكم على بنيامين وقد فعلتم بأخيه يوسف ما فعلتم بعد أن ضمنتم لي حفظه ، ثم ختم العهد ؟ فأخاف أن تكيدوا له كما كدتم لأخيه ؟ فإنا لا أثق بكم ولا بحفظكم ، وإنما أثق بحفظ الله ﴿ فالله خير حافظاً ﴾ أي حفظ

مَتْلَعُهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتِهِمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي هَذِهِ بَضْعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٥٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكَ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٥٦﴾ وَقَالَ يَبْنِي لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا اللَّهُ خَيْرٌ مِنْ حِفْظِكُمْ ﴿وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ أَيُّهُوَ أَرْحَمُ مِنْ وَالِدِيهِ وَإِخْوَتِهِ ، فَأَرْجُو أَنْ يُنَّ عَلَى بِحِفْظِهِ وَلَا يَجْمَعُ عَلَى مُصِيبَتَيْنِ ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ﴾ أَيُّ وَلَمَّا فَتَحُوا الْأَوْعِيَةَ الَّتِي وَضَعُوا فِيهَا الْمِيرَةَ وَجَدُوا ثَمَنَ الطَّعَامِ فِي مَتَاعِهِمْ ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا مَا نَبْغِي﴾ أَيُّ مَاذَا نَبْغِي ؟ وَأَيُّ شَيْءٍ نَطْلُبُ مِنْ إِكْرَامِ الْمَلِكِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا ؟ ﴿هَذِهِ بَضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا﴾ أَيُّ هَذَا ثَمَنُ الطَّعَامِ قَدْ رُدَّ إِلَيْنَا مِنْ حَيْثُ لَا نَدْرِي ، فَهَلْ هُنَاكَ مَزِيدٌ فَوْقَ هَذَا الْإِحْسَانِ ، أَوْفَى لَنَا الْكَيْلُ ، وَرَدُّ لَنَا الثَّمَنُ !! أَرَادُوا بِذَلِكَ اسْتِزْجَالَ أَبِيهِمْ عَنْ رَأْيِهِ ﴿وَنَمِيرُ أَهْلَنَا﴾ أَيُّ نَأْتِي بِالْمِيرَةِ وَالطَّعَامِ لِأَهْلِنَا ﴿وَنَحْفَظُ أَخَانَا﴾ أَيُّ نَحْفَظُهُ مِنَ الْمَكَارِهِ ، وَكَرَرُوا حِفْظَ الْأَخِ مَبَالِغَةً فِي الْحُضِّ عَلَى إِرْسَالِهِ ﴿وَزَدَادُ كَيْلٍ بَعِيرٌ﴾ أَيُّ وَزَدَادُ بِاسْتِصْحَابِنَا لَهُ حَمْلُ بَعِيرٍ ، رَوَى أَنَّهُ مَا كَانَ يُعْطَى الْوَاحِدَ إِلَّا كَيْلُ بَعِيرٍ مِنَ الطَّعَامِ ، فَأَعْطَاهُمْ حَمْلَ عَشْرَةِ جَمَالٍ وَمَنْعَهُمُ الْحَادِي عَشَرَ حَتَّى يَحْضُرَ أَخُوهُمْ ﴿ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ﴾ أَيُّ سَهْلٌ عَلَى الْمَلِكِ إِعْطَاؤُهُ لِسَخَائِهِ ﴿قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنْ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ﴾ أَيُّ قَالَ لَهُمْ أَبُوهُمْ : لَنْ أُرْسِلَ مَعَكُمْ بَنِيَامِينَ إِلَى مِصْرَ حَتَّى تَعْطُونِي عَهْدًا مُؤَكَّدًا وَتَحْلِفُوا بِاللَّهِ لَتَرُدَّنِي عَلَيَّ ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكُمْ﴾ أَيُّ إِلَّا أَنْ تُغْلِبُوا فَلَا تَقْدَرُوا عَلَى تَخْلِيصِهِ ، وَلَا يَبْقَى لَكُمْ طَرِيقٌ أَوْ حِيلَةٌ إِلَى ذَلِكَ قَالَ مُجَاهِدٌ : إِلَّا أَنْ تَمُوتُوا كُلُّكُمْ فَيَكُونَ ذَلِكَ عَذْرًا عِنْدِي ﴿فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ﴾ أَيُّ فَلَمَّا حَلَفُوا لَهُ وَأَعْطَوْهُ الْعَهْدَ الْمُؤَكَّدَ ﴿قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ﴾ أَيُّ اللَّهُ شَهِيدٌ رَقِيبٌ عَلَى ذَلِكَ ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ﴾ أَيُّ لَا تَدْخُلُوا مِصْرَ مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ قَالَ الْمُفَسِّرُونَ : خَافَ عَلَيْهِمْ مِنَ الْعَيْنِ إِنْ دَخَلُوا مُجْتَمِعِينَ إِذْ كَانُوا أَهْلَ جَمَالٍ وَهَيْبَةٍ ، وَالْعَيْنُ حَقٌّ تَدْخُلُ الرَّجُلَ الْقَبْرَ ، وَالْجَمَلَ الْقَدْرَ كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ ﴿وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ لَا أَدْفَعُ عَنْكُمْ بِتَدْبِيرِي شَيْئًا مِمَّا قَضَاهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ، فَإِنْ الْخِذْرَ لَا يَدْفَعُ الْقَدْرُ ﴿إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ أَيُّ مَا الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ جَلَّ وَعَلَا وَحْدَهُ لَا يَشَارِكُهُ أَحَدٌ ، وَلَا يَمَانَعُهُ شَيْءٌ ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ وَبِهِ وَثَقْتُ ﴿وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ أَيُّ عَلَيْهِ فَلْيَعْتَمِدْ أَهْلُ التَّوَكُّلِ وَالْإِيمَانِ ، وَلْيَفُوضُوا أُمُورَهُمْ إِلَيْهِ ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ﴾ أَيُّ دَخَلُوا مِنَ الْأَبْوَابِ الْمُتَفَرِّقَةِ كَمَا أَوْصَاهُمْ أَبُوهُمْ ﴿مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ﴾ أَيُّ مَا كَانَ دُخُولُهُمْ مُتَفَرِّقِينَ لِيَدْفَعَ عَنْهُمْ مِنْ قَضَاءِ اللَّهِ شَيْئًا ﴿إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾ أَيُّ إِلَّا خَشْيَةُ الْعَيْنِ شَفَقَةً مِنْهُ عَلَى بَنِيهِ ﴿وَإِنَّهُ لَذُو عِلْمٍ لَمَّا عَلِمْنَاهُ﴾ أَيُّ وَإِنْ يَعْقُوبَ لَذُو عِلْمٍ وَاسِعٍ لِتَعْلِيمِنَا إِيَّاهُ بِطَرِيقِ

وَأَنَّهُ لَدُوْعِلِمٍ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٢﴾

الوحي ، وهذا ثناء من الله تعالى عظيم على يعقوب ، لأنه علم بنور النبوة أن القدر لا يدفعه الحذر ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي لا يعلمون ما خص الله به أنبياءه وأصفياه من العلوم التي تنفعهم في الدارين .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿إني أرى سبع بقرات﴾ صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية .

٢ - ﴿سمان . . . وعجاف﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿خضر . . . ويابسات﴾ طباق .

٣ - ﴿أضغاث أحلام﴾ هذا من أبلغ أنواع الاستعارة وألطفها فإن الأضغاث هو المختلط من الحشيش المضموم بعضه إلى بعض ، فشبه اختلاط الأحلام وما فيها من المحبوب والمكروه ، والخير والشر باختلاط الحشيش المجموع من أصناف كثيرة .

٤ - ﴿يوسف أيها الصديق﴾ هذا من براعة الاستهلال فقد قدم الثناء قبل السؤال طمعاً في إجابة مطلبه .

٥ - ﴿يأكلن ما قدمتم هن﴾ فيه مجاز عقلي لأن السنين لا تأكل وإنما يأكل الناس ما ادخروه فيها ، فهو من باب الإسناد إلى الزمان كقول الفصحاء : نهار الزاهد صائم وليله قائم .

٦ - ﴿لأمارة بالسوء﴾ لم يقل آمرة مبالغة في وصف النفس بكثرة الدفع في الهاوي ، والقود إلى المغاوي لأن «فعال» من أبنية المبالغة .

٧ - ﴿فعرّفهم وهم له منكرون﴾ بين عرف وأنكر طباق .

٨ - ﴿لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة﴾ فيه إطناب وهو زيادة اللفظ على المعنى ، وفائدته تمكين المعنى من النفس ، وفيه أيضاً من المحسنات البديعية ما يسمى « طباق السلب » .

فكائِدة : أثنى رسول الله ﷺ على يوسف الصديق في كرمه وصبره وحلمه فقال : (لولبتُ في السجن ما لبث يوسف لأجبتُ الداعي) وكفى بهذا برهاناً على عفة يوسف ونزاهته عليه السلام .

لطيفة : ذكر بعض العلماء أن يوسف عليه السلام ما زال النساء يملن إليه ميل شهوة حتى نبأه الله ، فألقى عليه هيئة النبوة فشغلت هيئته كل من رآه عن حسنه .

قال الله تعالى : ﴿ولما دخلوا على يوسف . . . إلى . . . وأتوني بأهلكم أجمعين﴾
من آية (٦٩) إلى نهاية آية (٩٣) .

المناسكة : تتحدث الآيات عن مجيء إخوة يوسف للمرة الثانية إلى مصر ومعهم « بنيامين » الأخ الشقيق ليوسف ، وما كان من شأنه حين ظهر الصواع في رحله ، فاحتجزه يوسف عنده بحكم شريعة يعقوب ، ثم ما كان من تمام المحنة على يعقوب عليه السلام بفقد ولديه حتى ذهب الحزن ببصره .

اللفظة : ﴿تبتس﴾ تحزن ﴿العير﴾ الإبل التي عليها الأحمال ثم كثر الاستعمال حتى قيل لكل قافلة عير ﴿صواع﴾ الصواع : الصاع الذي يكال به يُذَكَّر ويؤنَّث وهو السقاية ﴿زعيم﴾ كفيل ﴿سوكت﴾ زينت وسهلت ﴿كظيم﴾ ممتلئ من الحزن يكتمه ولا يديه ﴿تفتأ﴾ لا تفتأ ولا تزال من أخوات كان الناقصة ﴿حرصاً﴾ الحرص : المرص الذي يُشفي على الهلاك قال الشاعر :

سَرَى هَمِّي فَأَمْرَضَنِي وَقِدْمًا زَادَنِي مَرَضًا
كَذَاكَ الْحُبُّ قَبْلَ الْيَوْمِ مِمَّا يُورِثُ الْحَرَصَا

وأصل الحرص الفساد في الجسم أو العقل ﴿بني﴾ البث : أشد الغم والهم ﴿فتحسسوا﴾ التحسس : طلب الشيء بالحواس ، والتعرف عليه مع الاستقصاء الدقيق ويستعمل في الخير كما أن التجسس يستعمل في الشر ، وقيل يستعمل في الخير والشر ﴿لا تثريب﴾ التريب : التأنيب والتوبيخ .

وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢٠﴾ فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ جَعَلَ السَّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتَهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿١٢١﴾ قَالُوا وَقَبِلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا

التفسير : ﴿ولما دخلوا على يوسف﴾ أي وحين دخل أولاد يعقوب على يوسف ﴿آوى إليه أخاه﴾ أي ضم إليه أخاه الشقيق بنيامين ﴿قال إني أنا أخوك﴾ أي أنا أخوك يوسف ، أخبره بذلك واستكتمه ﴿فلا تبتئس بما كانوا يعملون﴾ أي لا تحزن بما فعلوا بنا فيما مضى فإن الله قد أحسن إلينا وجمعنا بخير قال المفسرون : لما دخل إخوة يوسف عليه أكرمهم وأحسن ضيافتهم ثم أنزل كل اثنين في بيت وبقي « بنيامين » وحيداً فقال : هذا لا ثاني له فيكون معي ، فبات يوسف يضمه إليه ويعانقه ، وقال له : أنا أخوك يوسف فلا تحزن بما صنعوا ، ثم أعلمه أنه سيحتال لإيقائه عنده وأمره أن يكتم الخبر ﴿فلما جهَّزهم بجهازهم﴾ أي ولما قضى حاجتهم وحمل إبلهم بالطعام والميرة ﴿جعل السقاية في رحل أخيه﴾ أي أمر يوسف بأن تجعل السقاية - وهي صاع من ذهب مرصع بالجواهر - في متاع أخيه بنيامين ﴿ثم أذن مؤذن﴾ أي نادى مناد ﴿أيتها العير﴾ أي يا أصحاب الإبل ويا أيها الركب المسافرون ﴿إنكم لسارقون﴾ أي أنتم قوم سارقون ، وإنما استحلت أن يرميهم بالسرقة لما في ذلك من المصلحة من إمساك أخيه ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ ؟ قال المفسرون : لما وصل المنادون إليهم قالوا : ألم نكرمكم ونحسن ضيافتكم ؟ ونوف إليكم الكيل ؟ ونفعل بكم ما لم نفعل بغيركم ؟ قالوا : بلى وما ذاك ؟ قالوا : فقدنا سقاية الملك ولا ننتهم عليها غيركم فذلك قوله تعالى : ﴿قالوا وأقبلوا عليهم ماذا تفقدون﴾ أي التفتوا إليهم وسألوهم ماذا ضاع

تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفَقِدُ صُوعَ الْمَلِكِ وَلِمَن جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا فَا جَزَاؤُهُ إِنْ كُنْتُمْ كَاذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا جَزَاؤُهُ مَنْ وَجَدَ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَّتِهِمْ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ اسْتَخْرَجَهَا مِنْ وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ وَفَوْقَ

منكم وماذا فقد ؟ وفي قولهم ﴿ماذا تفقدون﴾ بدل «ماذا سرقنا» إرشاد لهم إلى مراعاة حسن الأدب ، وعدم المجازفة بنسبة البريئين إلى تهمة السرقة ، ولهذا التزموا الأدب معهم فأجابوهم ﴿قالوا نفقد صُوع الملك﴾ أي ضاع منا مكيال الملك المُرْصَع بالجواهر ﴿ولمن جاء به حمل بعير﴾ أي ولمن جاءنا بالمكيال وردّه إلينا حملُ بعيرٍ من الطعام كجائزة له ﴿وأنا به زعيم﴾ أي أنا كفيلٌ وضامنٌ بذلك ﴿قالوا تالله لقد علمتم ما جئنا لنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ﴾ قسمٌ فيه معنى التعجب أي قالوا متعجبين : والله لقد علمتم أيها القوم ما جئنا بقصد أن نفسد في أرضكم ﴿وما كنا سارقين﴾ أي ولسنا ممن يُوصَف بالسرقة قط لأننا أولاد أنبياء ولا نفعل مثل هذا الفعل القبيح قال البيضاوي : استشهدوا بعلمهم على براءة أنفسهم لما عرفوا منهم من فرط أمانتهم ، كردّ البضاعة التي جعلت في رحالهم ، وكنتم أفواه الدواب لثلا تتناول زرعاً أو طعاماً لأحد^(١) ﴿قالوا فما جزاؤه إن كنتم كاذبين﴾ أي ما عقوبة السارق في شريعتكم إن كنتم كاذبين في ادعاء البراءة ﴿قالوا جزاؤه من وجد في رحله فهو جزاؤه﴾ أي جزاء السارق الذي يوجد الصاع في متاعه أن يُسْتَرْقَ ويصبح مملوكاً لمن سرق منه ﴿كذلك نجزي الظالمين﴾ أي كذلك نجازي من تعدّى حدود الله بالسرقة وأمثالها ، وهذا القول منهم هو الحكم في شريعة يعقوب وقد نسخ بقطع الأيدي في الشريعة الإسلامية ﴿فبدأ بأوعيتهم قبل وعاء أخيه﴾ أي بدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه بنيامين قال المفسرون : هذا من تمام الحيلة ودفع التهمة فإنهم لما ادعوا البراءة قالوا لهم : لا بدّ من تفتيش أوعيتكم واحداً واحداً فانطلقوا بهم إلى يوسف فبدأ بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء «بنيامين» قال قتادة : ذكر لنا أنه كان لا يفتح متاعاً ولا ينظر وعاءً إلا استغفر الله مما قذفهم به ، حتى بقي أخوه - وكان أصغر القوم فقال : ما أظنُّ هذا أخذ شيئاً فقالوا : والله لا نتركك حتى تنظر في رحله فإنه أطيب لنفسك وأنفسنا ، فلما فتحوا متاعه وجدوا الصُوع فيه فذلك قوله تعالى ﴿ثم استخرجها من وعاء أخيه﴾ أي استخرج الصُوع من متاع أخيه بنيامين ، فلما أخرجها منه نكس الإخوة رؤوسهم من الخياء ، وأقبلوا عليه يلومونه ويقولون له فضحتنا وسودت وجوهنا يا ابن راحيل ﴿كذلك كدنا ليوسف﴾ أي كذلك صنعنا ودبرنا ليوسف وألهمناه الحيلة ليستبقي أخاه عنده ﴿ما كان ليأخذ أخاه في دين الملك﴾ أي ما كان ليوسف أن يأخذ أخاه في دين ملك مصر ، لأن جزاء السارق عنده أن يُضْرَب ويُعْرَمَ ضعف ما سرق ﴿إلا أن يشاء الله﴾ أي إلا بمشيئته تعالى وإذنه ، وقد دلّت الآية على أن تلك الحيلة كانت بتعليم الله وإلهامه له

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عِلْمٌ ﴿٧٦﴾ * قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يَوْسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبَيِّدْهَا لَهُمْ قَالِ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴿٧٧﴾ قَالُوا يَأَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذَا الظَّالِمُونَ ﴿٧٩﴾ فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمِنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴿٨٠﴾ أَرْجِعُوا إِلَى

﴿نرفع درجات من نشاء﴾ أي نرفع بالعلم منازل من نشاء من عبادنا كما رفعنا يوسف ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾ أي فوق كل عالم من هو أعلم منه حتى ينتهي إلى ذي العلم البالغ وهو رب العالمين قال الحسن : ليس عالم إلا فوقه عالم حتى ينتهي العلم إلى الله وقال ابن عباس : الله العليم الخبير فوق كل عالم ^(١) ﴿قالوا إن يسرق فقد سرق أخ له من قبل﴾ أي إن سرق فقد سرق أخوه الشقيق من قبله يعنون يوسف ، تنصلوا من السرقة ورموا بها يوسف وأخاه ﴿فأسرها يوسف في نفسه ولم يبديها لهم﴾ أي أخفى تلك القولة في نفسه وكتمها ولم يظهرها لإخوته تطفأ معهم ﴿قال أنتم شر مكاناً﴾ أي أنتم شر منزلة حيث سرقتم أخاكم من أبيكم ثم طفقتم تفترون على البريء ، ولم يواجههم بهذا الكلام وإنما قاله في نفسه ﴿والله أعلم بما تصفون﴾ أي أعلم بما تتقوكون وتفترون ﴿قالوا يا أيها العزيز إن له أبا شيخاً كبيراً﴾ استرحام واستعطاف أي قالوا مستعطفين يا أيها السيد المبجل إن أباه شيخ كبير في السن لا يكاد يستطيع فراقه ﴿فخذ أحداً مكانه﴾ أي خذ بدلاً واحداً منا فلسنا عنده بمنزلته من المحبة والشفقة ﴿إنا نراك من المحسنين﴾ أي أتمم إحسانك علينا فقد عودتنا الجميل والإحسان ﴿قال معاذ الله أن نأخذ إلا من وجدنا متاعنا عنده﴾ أي نعوذ بالله من أن نأخذ أحداً بجرم غيره ﴿إنا إذا لظالمون﴾ أي نكون ظالمين إن فعلنا ذلك قال الألوسي : والتعبير بقوله ﴿من وجدنا متاعنا عنده﴾ بدل « من سرق » لتحقيق الحق والاحتراز عن الكذب ^(٢) ﴿فلما استيسأوا منه خلسوا نجياً﴾ أي ولما يسأوا من إجابة طلبهم بأساً تاماً ، وعرفوا أن لا جدوى من الرجاء ، اعتزلوا جانباً عن الناس يتناجون ويتشاورون ﴿قال كبيرهم ألم تعلموا أن أباك قد أخذ عليكم ميثاقاً من الله﴾ أي قال أكبرهم سناً وهو « روبيل » أليس قد أعطيتكم أباك عهداً وثيقاً برء أخيك ؟ ﴿ومن قبل ما فرطتم في يوسف﴾ أي ومن قبل هذا ألا تذكرون تفريطكم في يوسف ؟ فكيف ترجعون إليه الآن ؟ ﴿فلن أبرح الأرض حتى يأذن لي أبي﴾ أي فلن أفارق أرض مصر حتى يسمح لي أبي بالخروج منها ﴿أو يحكم الله لي﴾ أي يحكم لي بخلاص أخي ﴿وهو خير الحاكمين﴾ أي وهو سبحانه أعدل الحاكمين لأنه لا يحكم إلا بالعدل والحق ﴿إرجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق﴾ أي ارجعوا إلى أبيكم فأخبروه بحقيقة ما جرى

أَيْكُمْ فَقُولُوا يَا بَنَاتَا إِنْ أَبْنِكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴿٨٦﴾ وَسَعَلَ الْقَرْيَةُ الَّتِي كُنَّا فِيهَا وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٨٧﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلٌ ۖ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿٨٨﴾ وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٩﴾ قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ ﴿٩٠﴾ قَالَ

وقولوا له إن ابنك بنيامين سرق ﴿وما شهدنا إلا بما علمنا﴾ أي ولسنا نشهد إلا بما تيقنا وعلمنا فقد رأينا الصاع في رحله ﴿وما كنا للغيب حافظين﴾ أي ما علمنا أنه سيسرق حين أعطيناك الميثاق ﴿واسأل القرية التي كنا فيها﴾ أي واسأل أهل مصر عن حقيقة ما حدث قال البيضاوي : أي أرسل إلى أهلها واسألهم عن القصة ^(١) ﴿والعير التي أقبلنا فيها﴾ أي واسأل أيضاً القافلة التي جئنا معهم وهم قوم من كنعان كانوا بصحبته في هذه السفرة ﴿وإننا لصادقون﴾ أي صادقون فيما أخبرناك من أمره ﴿قال بل سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ أي زَيَّنَتْ وسَهَّلَتْ لكم أنفسكم أمراً ومكيدةً فنفذتموها ، اتهمهم بالتأمر على « بنيامين » لما سبق منهم في أمر يوسف ﴿فصبر جميل﴾ أي لا أجد سوى الصبر محتسباً أجري عند الله ﴿عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً﴾ أي عسى أن يجمع الله شملهم بهم ، ويقر عيني برؤيتهم جميعاً ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العالم بحالي الحكيم في تدبيره وتصريفه ﴿وتولى عنهم﴾ أي أعرض عن أولاده كراهة لما سمع منهم ﴿وقال يا أسفَى على يوسف﴾ أي يا لهفي ويا حسرتي وحزني على يوسف ﴿وابيضَّتْ عيناه من الحزن﴾ أي فقد بصره وعشي ^(٢) من شدة البكاء حزناً على ولديه ﴿فهو كظيم﴾ أي مملوء القلب كمداً وغيظاً ولكنه يكتُم ذلك في نفسه ، وهو مغموم ومكروب لتلك الداهية الدهياء قال أبو السعود : وإنما تأسف على يوسف مع أن الحادث مصيبة أخويه لأن ذكر يوسف كان آخذاً بمجامع قلبه لا ينساه ولأنه كان واثقاً بحياتها طامعاً في إياها وأما يوسف فلم يكن في شأنه ما يحرك سلسلة رجائه سوى رحمة الله وفضله ^(٣) وقال الرازي : الحزن الجديد يقوي الحزن القديم الكامن في النفس ، والأسى يبعث الأسى ويثير الأحزان قال الشاعر :

فقلت له إن الأسى يبعث الأسى فدعني فهذا كله قبر مالك ^(٤)

﴿قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَوُا تَذَكَّرُ يُونُسَ﴾ أي لا تفتأ ولا تزال تذكر يوسف وتتفجع عليه ﴿حتى تكون حرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ﴾ أي حتى تكون مريضاً مشرفاً على الهلاك أو تهلك أسى وحسرة وتموت ﴿قال إنما أشكو بثي وحزني إلى الله﴾ أي قال لهم يعقوب : لست أشكو غمّي وحزني إليكم وإنما أشكو ذلك إلى الله فهو الذي

(١) البيضاوي ٢٦٨ . (٢) عشي البصر ضعف حتى كاد لا يرى من شدة البكاء كان غشاوة صارت عليه قال الشاعر : عشت عيني من طول البكا . قال المفسرون : إن يعقوب فقد بصره من شدة حزنه على يوسف وبقي لا يبصر ست سنوات حتى كشف الله عنه الضر بقميص يوسف واستدلوا بقوله تعالى ﴿القاء على وجهه فارتد بصيراً﴾ . (٣) أبو السعود ٨٨/٣ . (٤) الفخر الرازي ١٨/١٩٣ .

إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرِّيَّ إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَبْنِي أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَأْيِسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٧﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ ﴿٨٨﴾ قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ ﴿٨٩﴾ قَالُوا أَوْنَكَ لَا تَ يُوسُفَ قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾

تنفع الشكوى إليه ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من رحمة وإحسانه ما لا تعلمون أنتم فأرجو أن يرحمني ويلطف بي ويأتيني بالفرج من حيث لا أحتسب ﴿يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ﴾ أي اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه فالتمسوا يوسف وتعرفوا على خبره وخبر أخيه بحواسكم ﴿وَلَا تَأْيِسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ﴾ أي لا تقنطوا من رحمة الله وفرجه وتنفيسه ﴿إِنَّهُ لَا يَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ أي فإنه لا يقنط من رحمة تعالى إلا الجاحدون المنكرون لقدرة جلّ وعلا ﴿فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَيْهِ قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَّا الضُّرَّ﴾ في الكلام محذوف أي فخرجوا راجعين إلى مصر فدخلوا على يوسف فلما دخلوا قالوا يا أيها العزيز أصابنا وأهّلنا الشدة من الجذب والقحط ﴿وَجِئْنَا بِبِضْعَةٍ مُزَجَّةٍ﴾ أي وجئنا ببضاعة رديئة مدفوعة يدفعها كل تاجر رغبة عنها واحتقاراً قال ابن عباس: كانت دراهمهم رديئة لا تقبل في ثمن الطعام^(١) ، أظهروا له الذل والانكسار استرحاماً واستعطافاً ﴿فَأَوْفِ لَنَا الْكَيْلَ﴾ أي أتمم لنا الكيل ولا تنقصه لرداءة بضاعتنا ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا﴾ أي برّد أخينا إلينا^(٢) أو بالمساحة عن رداءة البضاعة ﴿إِنَّ اللَّهَ يَجْزِي الْمُتَصَدِّقِينَ﴾ أي يثيب المحسنين أحسن الجزاء . . ولما بلغ بهم الأمر إلى هذا الحد من الاسترحام والضيق والانكسار أدركته الرأفة فباح لهم بما كان يكتمه من أمره ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنْتُمْ جَاهِلُونَ﴾ ؟ أي هل تذكرون ما فعلتم بيوسف وأخيه حال شبابكم وطيشكم ؟ والغرض تعظيم الواقعة كأنه يقول : ما أعظم ما ارتكبتم في يوسف وما أقبح ما أقدمتم عليه ! قال أبو السعود : وإنما قاله نصحاً لهم ، وتحريضاً على التوبة ، وشفقة عليهم^(٣) ﴿قَالُوا أَتُنْكَلُ لَأَنْتَ يُوسُفَ﴾ أي قال إخوته متعجبين مستغربين : أنت يوسف حقاً ؟ ﴿قَالَ أَنَا يُوسُفَ وَهَذَا أَخِي﴾ أي قال : نعم أنا يوسف وهذا أخي الشقيق ﴿قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ أي منّ علينا بالخلاص من البلاء ، والاجتماع بعد الفرقة ، والعزة بعد الذلة ﴿إِنَّهُ مِنْ يَتَّى وَيَصْبِرْ﴾ أي إنه من يتق الله فيراقبه ويصبر على البلاء والمحن ﴿فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ أي لا يبطل أجرهم ولا يضيع إحسانهم بل يجزيهم عليه أوفى الجزاء قال البيضاوي : ووضع المحسنين موضع الضمير للتنبيه على أن المحسن من جمع بين التقوى والصبر^(٤) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكِ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ اعتراف بالخطيئة وإقرار بالذنب

(١) الرازي ٢٠١ / ١٨ . (٢) هذا قول ابن جريج واختار الطبري أن المراد المساحة لرداءة البضاعة . (٣) أبو السعود ٣ / ٩٠ .

(٤) البيضاوي ٢٦٩ .

قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ أَثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَطِئِينَ ﴿٩١﴾ قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٩٢﴾ أَذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأَتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾

أي والله لقد فضلك الله علينا بالتقوى والصبر ، والعلم والحلم ﴿وإن كنا لخطائين﴾ أي وحالنا وشأننا أننا كنا مذنبين بصنيعنا الذي صنعنا بك ، ولذلك أعزك الله وأذلنا ، وأكرمك وأهاننا ﴿قال لا تثريب عليكم اليوم﴾ أي قال لهم يوسف : لا عتب عليكم اليوم ولا عقوبة بل أصفح وأعفو ﴿يغفر الله لكم﴾ دعاء لهم بالمغفرة وهذا زيادة تكريم منه لما فرط منهم ﴿وهو أرحم الراحمين﴾ أي هو جل وعلا المتفضل على التائب بالمغفرة والرحمة ، أرحم بعباده من كل أحد ﴿إذهبوا بقميصي هذا فألقوه على وجه أبي﴾ قال الطبري : ذكر أن يوسف لما عرف نفسه إخوته سألهم عن أبيهم فقالوا : ذهب بصره من الحزن فعند ذلك أعطاهم قميصه ^(١) ، وأراد يوسف تبشير أبيه بحياته ، وإدخال السرور عليه بذلك ﴿يأت بصيراً﴾ أي يرجع إليه بصره ﴿واتوني بأهلكم أجمعين﴾ أي وجيئوني بجميع الأهل والذرية من أولاد يعقوب .

البَلَاغَةُ : ١ - ﴿ولما جهزهم بجهازهم﴾ فيه جناس الاشتقاق وكذلك في ﴿أذن مؤذن﴾ .

٢ - ﴿فأسرها . . ولم يدها﴾ بينهما طباق .

٣ - ﴿شيخاً كبيراً﴾ فيه إطناب للاستعطاف .

٤ - ﴿واسأل القرية﴾ مجاز مرسل علاقته المحلية .

٥ - ﴿يا أسفى على يوسف﴾ بين لفظي الأسف ويوسف جناس الاشتقاق .

٦ - ﴿تالله تفتأ﴾ إيجاز بالحذف أي تالله لا تفتأ .

٧ - ﴿ولا تيأسوا من روح الله﴾ فيه استعارة استعير الرُّوح وهو تنسيم الريح التي يلدُ شميمها ويطيب نسيمها ، للفرَج الذي يأتي بعد الكربة ، واليُسْر الذي يأتي بعد الشدة .

لطيفة : ذكر القاضي عياض في كتابه «الشفأ» أن أعرابياً سمع رجلاً يقرأ هذه الآية ﴿فلما استيأسوا منه خلصوا نجياً﴾ فقال : أشهد أن مخلوقاً لا يقدر على مثل هذا الكلام ^(٢) . وذلك أن الآية ذكرت صفة اعتزالهم لجميع الناس ، وانفرادهم من غيرهم ، وتقليبهم الآراء ظهراً لبطن ، وأخذهم في تزوير ما يلقون به أباهم عند عودهم إليه ، وما يوردون عليه من ذكر الحادث ، فتضمنت تلك الآية القصيرة ، معاني القصة الطويلة .

قال الله تعالى : ﴿ولما فصلت العير قال أبوهن . . . إلى . . . وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ من آية (٩٤) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : تتحدث الآيات عن مجيء أسرة يعقوب بأسرهم إلى مصر ، ودخولهم على يوسف وهو في عز السلطان وعظمة الملك ، وتحقيق الرؤيا بسجود إخوته الأحد عشر له مع أبيه وأمه ، واجتماع الشمل بعد الفرقة ، وحلول الأنس بعد الكدر ، ثم تختم السورة الكريمة بتوجيه الأنظار إلى عجائب الكون الدالة على القدرة والوحدانية ، وما في قصص القرآن من العبر والعظات ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ !!

اللغة : ﴿تفندون﴾ تنسبوني إلى الخرف قال الأصمعي : إذا كثّر كلام الرجل من خرف فهو المفند وقال الزمخشري : التفنيد النسبة إلى الفند وهو الخرف وإنكار العقل من هرم يقال : شيخ مفند ولا يقال عجوز مفندة ، لأنها لم تكن في شببتها ذات رأي تفند في كبرها^(١) ﴿ضلالك﴾ ذهابك عن الصواب ﴿البدو﴾ البادية ﴿نزغ﴾ أفسد وأغوى وأصله من نزغ الراكب الدابة إذا نخسها ليحملها على الجري ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع وأصله من فطر إذا شق ثم صار عبارة عن الخلق والإيجاد ﴿غاشية﴾ عذاب يغشاهم ﴿بغته﴾ فجأة ﴿أسنا﴾ عذابنا ﴿عبرة﴾ عظة وتذكرة .

وَلَمَّا فَصَلَ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٤٤﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ ﴿٤٥﴾ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ

التفسير : ﴿ولما فصلت العير﴾ أي خرجت منطلقاً من مصر إلى الشام ﴿قال أبوهم﴾ أي يوسف ﴿إني لأجد ريح يوسف﴾ أي قال يعقوب لمن حضر من قرابته إني لأشم رائحة يوسف قال ابن عباس : هاجت ريح فحملت ريح قميص يوسف وبينهما مسيرة ثمان ليال^(٢) ﴿لولا أن تفندون﴾ أي تسفهوني وتنسبوني إلى الخرف وهو ذهاب العقل وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لأخبرتكم أنه حي ﴿قالوا تالله إنك لفي ضلالك القديم﴾ أي قال حفدته ومن عنده : والله إنك لفي خطأ وذهاب عن طريق الصواب قديم ، بإفراطك في محبة يوسف ، ولهجك بذكره ، ورجائك للقاءه قال المفسرون : وإنما قالوا ذلك لاعتقادهم أن يوسف قد مات ﴿فلما أن جاء البشير﴾ أي فلما جاء المبشر بالخبر السار قال مجاهد : كان البشير أخاه يهوذا الذي حمل قميص الدم فقال : أفرحه كما أحزنه^(٣) ﴿ألقاه على وجهه﴾ أي طرح البشير القميص على وجه يعقوب ﴿فارتد بصيراً﴾ أي عاد بصيراً لما حدث له من السرور والانتعاش ﴿قال ألم أقول لكم إني أعلم من الله ما لا تعلمون﴾ أي قال يعقوب لأبنائه : ألم أخبركم بأني أعلم ما لا تعلمونه من حياة يوسف وأن الله سيرده عليّ لتتحقق الرؤيا ؟ قال المفسرون : ذكرهم بقوله ﴿إنما أشكو بثي وحزني إلى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون﴾ روي أنه سأل البشير كيف يوسف ؟ فقال : هو ملك مصر ، قال ما أصنع بالملك ! على أي دين تركته ؟ قال : على دين الإسلام ، قال : الآن تمت النعمة^(٤) ﴿قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا﴾ طلب أبناؤه أن يستغفر لهم لما فرط منهم ثم اعترفوا بخطأهم بقولهم ﴿إنّا كنا خاطئين﴾ أي مخطئين فيما ارتكبنا مع يوسف

مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ قَالُوا يٰأَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ ءَاوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾ وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يٰتَابَتِ هَذِهِ تَأْوِيلُ رُءُوسِي مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِّمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾ * رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ

﴿قال سوف استغفر لكم ربي﴾ وعدهم بالاستغفار قال المفسرون: أخر ذلك إلى السحر ليكون أقرب إلى الإجابة وقيل: أخرهم إلى يوم الجمعة ليتحرى ساعة الإجابة ^(١) ﴿إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي السائر للذنوب الرحيم بالعباد ﴿فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه﴾ أي فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلهم على يوسف ضم إليه أبويه واعتنقهما ﴿وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمين﴾ أي ادخلوا بلدة مصر آمين من كل مكروه ، وإنما قال ﴿إن شاء الله﴾ تبركاً وتيمناً ﴿ورفع أبويه على العرش﴾ أي أجلسهما على سرير الملك بجانبه ﴿وخرّوا له سجداً﴾ أي سجد له أبوه وأمه وإخوته حين دخولهم عليه قال المفسرون : كان السجود عندهم تحية وكرامة لا عبادة ﴿وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل﴾ أي هذا تفسير الرؤيا التي رأيتها في منامي وأنا صغير ﴿قد جعلها ربي حقاً﴾ أي صدقاً حيث وقعت كما رأيتها في النوم ﴿وقد أحسن بي إذ أخرجني من السجن﴾ أي أنعم عليّ بإخراجه من السجن قال المفسرون : ولم يذكر قصة الحب تكملاً منه لثلاثيخجل إخوته ويذكرهم صنيعهم بعد أن عفا عنهم ﴿وجاء بكم من البدو﴾ أي جاء بكم من البادية لأنهم كانوا أهل إبل وغنم بادية فلسطين ، ذكرهم بنعمة الله على آل يعقوب حيث نقلهم من البادية إلى الحضر واجتمع شمل الأسرة بمصر قال الطبري : ذكر أن يعقوب دخل مصر هو ومن معه من أولاده وأهاليهم وأبنائهم وهم أقل من مائة ، وخرجوا منها يوم خرجوا وهم زيادة على ستمائة ألف ^(٢) ﴿من بعد أن نزع الشيطان بني وبين إخوتي﴾ أي أفسد ما بيني وبين إخوتي بالإغواء قال أبو حيان : وذكر هذا القدر من أمر إخوته لأن النعمة إذا جاءت إثر بلاء وشدة كانت أحسن موقعاً ^(٣) ﴿إن ربي لطيف لما يشاء﴾ أي لطيف التدبير يحقق مشيئته بلطف ودقة خفية لا يحسها الناس ولا يشعرون بها ﴿إنه هو العليم الحكيم﴾ أي العليم بخلقه الحكيم في صنعه قال المفسرون : إن يعقوب عليه السلام أقام مع يوسف في مصر أربعاً وعشرين سنة ثم مات وكان قد أوصى أن يُدفن بالشام إلى جنب أبيه إسحق ، فمضى يوسف بنفسه ودفنه ثمة ، ثم لما عاد إلى مصر عاش بعد أبيه ثلاثاً وعشرين سنة ، فلما تم أمره وعلم أنه لا يدوم تاقت نفسه إلى الملك الدائم الخالد ، واشتاق إلى لقاء الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحق فقال ﴿رب قد آتيتني من الملك﴾ أي

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة : وحكاية عبارته بكلمة ﴿سوف﴾ لا تخلو من إشارة إلى قلب إنساني مكلوم فإنه يعدهم بالاستغفار بعد

أن يصفو ويسكن ويستريح . (٢) الطبري ٧٣/١٣ . (٣) البحر ٥/ ٣٤٩ .

الْأَحَادِيثُ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيَّ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿١٥٦﴾ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٥٧﴾ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٨﴾ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٦٠﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٦١﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَشِيَةٌ مِنْ

أعطيتني العزَّ والجاه والسلطان ، وذلك من نعمة الدنيا ﴿وعلمتني من تأويل الأحاديث﴾ أي علمتني تفسير الرؤيا ، وذلك من نعمة العلم ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي يا مبدع السموات والأرض وخالقهما على غير مثال سابق ﴿أنت وليي في الدنيا والآخرة﴾ أي أنت يا رب متولي أموري وشئوني في الدارين ﴿توفني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾ أي اقبضني إليك مسلماً ، واجعل لحاقي بالصالحين ، ابتهل إلى ربه أن يحفظ عليه إسلامه حتى يموت عليه ، وإلى هنا تنتهي قصة يوسف الصديق ، ثم يأتي التعقيب بعد ذلك بإقامة البرهان على صحة نبوة محمد عليه الصلاة والسلام ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك﴾ أي ذلك الذي أخبرناك عنه يا محمد من أمر يوسف وقصته ، من الأخبار المغيبة التي لم تكن تعلمها قبل الوحي ، وإنما نعلمك نحن بها على أبلغ وجه وأدق تصوير ، ليظهر صدقك في دعوى الرسالة ﴿وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون﴾ أي وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تأمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقاءه في الحب وهم يحتالون ويمكرون به وبأبيه ليرسله معهم ، فإنك يا محمد لم تشاهدهم حتى تقف على حقيقة القصة وإنما جاءتك بوحي من العليم الخبير ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ هذه تسلية للنبي ﷺ أي ليس أكثر الخلق ولو حرصت على إيمانهم وبالغت في إرشادهم بمصدقين لك لتصميمهم على الكفر ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ أي وما تطلب منهم على هذا النصح ، والدعاء إلى الخير والرشد أجرة حتى يثقل عليهم ﴿إن هو إلا ذكرٌ للعالمين﴾ أي ما هذا القرآن إلا عظة وتذكير للعالمين ، وأنت لا تطلب في تلاوته عليهم مالا ، فلو كانوا عقلاء لقبلوا ولم يتمردوا ﴿وكأين من آية في السموات والأرض﴾ أي كم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته ، الكائنة في السموات والأرض كالشمس والقمر والنجوم ، والجبال والبحار والأشجار ، وسائر ما فيها من العجائب ﴿يمرون عليها﴾ أي يشاهدونها ليل نهار ، ويمرون عليها بالعشي والإيكار ﴿وهم عنها معرضون﴾ أي لا يفكرون فيها ولا يعتبرون ، فلا تتعجب من إعراضهم عنك فإن إعراضهم عن هذه الآيات الدالة على وحدانية الله وقدرته أغرب وأعجب ﴿وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون﴾ أي لا يؤمن أكثر هؤلاء المكذبين من قومك إلا إذا أشركوا مع الله غيره ، فإنهم يقرّون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون معه الأصنام قال ابن عباس : ومن ذلك قولهم في تلبيتهم : «لبيك لا شريك لك ، إلا شريكاً هو لك ، تملكه وما ملك» ^(١) ﴿أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من

عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧﴾ قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْسَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿١٠﴾ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ

عذاب الله ﴿١﴾ أفأمن هؤلاء المكذبون عقوبة من عذاب الله تغشاهم وتشملهم ؟ ﴿٢﴾ أو تأتيتهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون ﴿٣﴾ أي أو تأتيتهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون ؟ والاستفهام إنكاري وفيه معنى التوبيخ ﴿٤﴾ قل هذه سبيلي ﴿٥﴾ أي قل يا محمد هذه طريقي ومنهاجي واضحة مستقيمة لا عوج فيها ولا شك ولا شبهة ﴿٦﴾ أَدْعُوا إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴿٧﴾ أي أَدْعُوا إِلَى عِبَادَةِ اللَّهِ وَطَاعَتِهِ ، عَلَى بَيَانٍ وَحُجَّةٍ وَاضِحَةٍ أَنَا وَمَنِ آمَنَ بِي ﴿٨﴾ وسبحان الله وما أنا من المشركين ﴿٩﴾ أي وأنزهه سبحانه عن الشركاء والأنداد ، فَأَنَا مُؤْمِنٌ مُوَحِّدٌ وَلَسْتُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٠﴾ وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ ﴿١١﴾ أي وما أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا رَجُلًا مِنَ الْبَشَرِ لَا مَلَائِكَةَ مِنَ السَّمَاءِ قَالَ الطَّبْرِي : أي رجلاً لا نساءً ولا ملائكة نوحى إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا^(١) ، والآية ردٌ على من أنكر أن يكون النبي من البشر ، أو زعم أن في النساء نبيات ﴿١٢﴾ من أهل القرى ﴿١٣﴾ أي من أهل المدن والأمصار لا من أهل البوادي قال الحسن : لم يبعث الله نبياً من أهل البادية قط ولا من النساء ولا من الجن^(٢) قال المفسرون : وإنما كانوا من أهل الأمصار لأنهم أعلم وأحلم ، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة ﴿١٤﴾ أفلم يسيرا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴿١٥﴾ أي أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿١٦﴾ ولدارُ الآخرة خيرٌ للذين اتقوا ﴿١٧﴾ أي الدار الآخرة خير للمؤمنين المتقين من هذه الدار التي ليس فيها قرار ﴿١٨﴾ أفلا تعقلون ﴿١٩﴾ أي أفلا تعقلون فتؤمنون !! ﴿٢٠﴾ حتى إذا استيأس الرسل ﴿٢١﴾ أي يش الرسل من إيمان قومهم ﴿٢٢﴾ وظنوا أنهم قد كُذِّبوا ﴿٢٣﴾ أي أيقن الرسل أن قومهم كذبوهم ﴿٢٤﴾ جاءهم نصرنا ﴿٢٥﴾ أي أتاهم النصر عند اشتداد الكرب ، ففي اللحظة التي تستحكم فيها الشدة ، ويأخذ فيها الكرب بالمخائق ، ولا يبقى أملٌ في غير الله ، في هذه اللحظة يجيء النصر كاملاً حاسماً فاصلاً ﴿٢٦﴾ فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ ﴿٢٧﴾ أي فنَجَّينا الرسل والمؤمنين بهم دون الكافرين ﴿٢٨﴾ ولا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٩﴾ أي ولا يُرَدُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم ﴿٣٠﴾ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿٣١﴾ أي لقد كان في قصة يوسف وإخوته عظة وتذكرة لأُولِي الْعُقُولِ النَّيِّرة ﴿٣٢﴾ ما كان حديثاً يُفْتَرَى ﴿٣٣﴾ أي ما كان هذا القرآن أخباراً تُروى أو أحاديث تختلق ﴿٣٤﴾ ولكن تصديق الذي بين يديه ﴿٣٥﴾ أي ولكن كان هذا القرآن مصداقاً لما

تَصَدِّقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِّلَ كُلَّ شَيْءٍ وَهْدَى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١١١﴾

سبقه من الكتب السماوية المنزلة من قبل ﴿وتفصيل كل شيء﴾ أي تبيان كل ما يحتاج إليه من أحكام الحلال والحرام ، والشرائع والأحكام ﴿وهدى﴾ ورحمة لقوم يؤمنون ﴿أي وهداية من الضلالة ورحمة من العذاب لقوم يصدقون به ويعملون بأوامره ونواهيه .

البلاغَة : ١ - ﴿تالله إنك لفي ضلالك﴾ أكدوا كلامهم بالقسم وإنَّ واللام وهذا الضرب يسمى ﴿إنكارياً﴾ لتتابع أنواع المؤكدات .

٢ - ﴿أدخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ جملة ﴿إن شاء الله﴾ دعائية جيء بها للتبرك وفي الآية تقديم وتأخير تقديره : ادخلوا مصر آمنين إن شاء الله .

٣ - ﴿ورفع أبويه على العرش وخروا له سجداً﴾ أبواه المراد به الأب والأم فهو من باب التغليب ، والرفع مؤخر عن الخور وإن تقدم لفظاً للاهتمام بتعظيمه لهما أي سجدوا له ثم أجلس أبويه على عرش الملك .

٤ - ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ جملة ﴿ولو حرصت﴾ اعتراضية بين اسم ﴿ما﴾ الحجازية وخبرها ، وجيء بهذا الاعتراض لإفادة أن الهداية بيد الله جل وعلا وحده .

٥ - ﴿وما تسألهم عليه من أجر﴾ هذا على حذف مضاف أي وما تسألهم على تبليغ القرآن من أجر .

٦ - ﴿وهم عنها معرضون﴾ ﴿إلا وهم مشركون﴾ فيه من المحسنات البديعية «السجع» وهو توافق الفاصلتين في الحرف الأخير .

تنبية : دلَّ قوله تعالى ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ على أن الغرض من ذكر هذه القصص والأخبار ، العظة والاعتبار ، ووجه الاعتبار بهذه القصة أن الذي قدر على إخراج يوسف من الجب بعد إلقائه فيه ، وإخراجه من السجن ، وتخليكه مصر بعد العبودية ، وجمع شمله بأبيه وإخوته بعد المدة الطويلة واليأس من الاجتماع ، قادرٌ على إعزاز محمد ﷺ ، وإعلاء شأنه ، وإظهار دينه ، وأن الإخبار بهذه القصة العجيبة جار مجرى الإخبار عن الغيوب ، فكان ذلك معجزة لرسول الله ﷺ .

« انتهى بعون الله وتوفيقه تفسير سورة يوسف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الرعد من السور المدنية، التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المدنية، من تقرير «الوحدانية» و«الرسالة» و«البعث والجزاء» ودفع الشبه التي يثيرها المشركون .

* ابتدأت السورة الكريمة بالقضية الكبرى ، قضية الإيمان بوجود الله ووحدانيته ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، كذب المشركون بالقرآن ، وجحدوا وحدانية الرحمن ، فجاءت الآيات تقرر كمال قدرته تعالى ، وعجيب خلقه ، في السموات والأرض ، والشمس والقمر ، والليل والنهار ، والزروع والثمار ، وسائر ما خلق الله في هذا الكون الفسيح البديع .

* ثم تلتها الآيات في إثبات البعث والجزاء ، ثم بعد ذكر الأدلة الساطعة والبراهين القاطعة على انفراده جل وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضرر ، ضرب القرآن مثلين للحق والباطل أحدهما : في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، ثم هو يجرف في طريقه الغطاء ، فيطفو على وجهه الزبد الذي لا فائدة فيه والثاني : في المعادن التي تُذاب لتصاغ منها الأواني وبعض الحلية كالذهب والفضة ، وما يعلو هذه المعادن من الزبد والخبث ، الذي لا يلبث أن يذهب جفاءً ويضمحل ويتلاشى ، ويبقى المعدن النقي الصافي ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها فاحتمل السيلُ زبدًا رابياً...﴾ الآيات فذلك مثل الحق والباطل .

* وذكرت السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة وأهل الشقاوة ، وضربت لهم المثل بالأعمى والبصير ، وبينت مصير كل من الفريقين ، ثم ختمت بشهادة الله لرسوله بالنبوة والرسالة وأنه مرسل من عند الله .

التَّسْمِيَةُ : سميت ﴿سورة الرعد﴾ لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي تتجلى فيها قدرة الله وسلطانه ، فالماء جعله الله سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحاب ، والسحابُ جمع الله فيه بين الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطر ويحمل الصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وجمع النقيضين من العجائب كما قال القائل : جمع النقيضين من أسرار قدرته : هذا السحاب به ماء به نار .
فما أجلُّ وأعظم قدرة الله !!

اللُّغَاتُ : ﴿عَمَدٌ﴾ الدعائم وهو اسم جمع وقيل : جمع عمود ﴿صَيَّوْنَاكَ﴾ جمع صَيَّنُو

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْمَرْ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ۖ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ أَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ
 مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلِغَاءٌ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ ﴿٢﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا
 وَهُوَ الغصنُ الخارج عن أصل الشجرة وأصله المثلُ ومنه قيل للعجم صِنُونُ لماثلته للأب ، فإذا كان للشجرة
 عدة فروع فهي صنوان ﴿الأغلال﴾ جمع غل وهو طوقٌ تُشدُّ به اليد إلى العنق ﴿المثلات﴾ جمع مثلة وهي
 العقوبة وسميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب من المماثلة ﴿تغيضُ﴾ غاض الماء نقص أو غار ﴿ساربُ﴾
 السارب : الذاهب في سربه أي طريقه بوضوح النهار لا يستخفي عن الأنظار ﴿معقبات﴾ ملائكة يعقب
 بعضهم بعضاً أي يأتي بعضهم عقب بعض ﴿المحال﴾ القوة والإهلاك والنعمة .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن أنس أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً إلى جبار من فراعنة العرب فقال : اذهب
 فادعه لي فقال يا رسول الله : إنه جبارٌ عاتٍ قال : اذهب فادعه لي ، فذهب إليه فقال : يدعوك رسول
 الله ﷺ فقال : أخبرني عن إله محمد أمن ذهب هو ؟ أو من فضة ؟ أو من نحاس ؟ فرجع إلى رسول الله
 ﷺ فأخبره بما قال الرجل وقال له : ألم أخبرك أنه أعنى من ذلك ؟ فقال : ارجع إليه الثانية فادعه لي ،
 فرجع إليه فأعاد عليه ذلك الكلام ، فبينما هو يجادلُه إذ بعث الله عليه سحابة حيال رأسه فرعدت فوقعت
 منها صاعقة فذهبت بحفف رأسه فأنزل الله ﷻ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله
 وهو شديد المحال ﴿١﴾

التفسير : ﴿المر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن ﴿٢﴾ وقال ابن عباس معناه : أنا الله أعلم وأرى ﴿٣﴾ تلك
 آيات الكتاب ﴿٤﴾ أي هذه آيات القرآن المعجز ، الذي فاق كل كتاب ﴿والذي أنزل إليك من ربك الحق﴾ أي
 والذي أوحى إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل ، ولا يحتمل الشك والتردد
 ﴿ولكن أكثر الناس لا يؤمنون﴾ أي ومع وضوحه وجلائه كذب به أكثر الناس ﴿الله الذي رفع السموات بغير
 عمد ترونها﴾ أي خلقها مرتفعة البناء ، قائمة بقدرته لا تستند على شيء حال كونكم تشاهدونها وتنظرونها
 بغير دعائم ، وذلك دليل وجود الخالق المبدع الحكيم ﴿ثم استوى على العرش﴾ أي علا فوق العرش علواً
 يليق بجلاله من غير تجسيم ولا تكيف ولا تعطيل ﴿٥﴾ ﴿وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجرى لأجل مسمى﴾ أي
 ذلَّل الشمس والقمر لمصالح العباد ، كلٌّ يسير بقدرته تعالى إلى زمنٍ معيَّن هو زمن فناء الدنيا ﴿يدبر الأمر﴾
 أي يصرف بحكمته وقدرته أمور الخلق وشئون الملكوت من إيجاد وإعدام ، وإحياء وإماتة وغير ذلك

(١) أسباب النزول ١٥٦ . (٢) انظر توضيح الحروف المقطعة في أول تفسير سورة البقرة .

(٣) الطبري ٩١/١٣ (٤) أنظر أقوال السلف في سورة الأعراف من هذا الكتاب .

رَوَّسَى وَأَنْهَرًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلَ النَّهَارُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزُرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٤﴾ * وَإِنْ تَعْجَبَ فَعَجَبٌ

﴿يَفْصَلُ الْآيَاتِ﴾ أي يبينها ويوضحها ﴿لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ﴾ أي لتصدقوا بقاء الله ، وتوقنوا بالمعاد إليه ، لأن من قدر على ذلك كله فهو قادرٌ على إحياء الإنسان بعد موته ﴿وهو الذي مدَّ الأرض﴾ أي هو تعالى بقدرته بسط الأرض وجعلها ممدودة فسيحة ، وهذا لا ينافي كرويتها فإن ذلك مقطوعٌ به ، والغرضُ أنه تعالى جعلها واسعة فسيحة ممتدة الآفاق ليستقر عليها الإنسان والحيوان ، ولو كانت كلها جبلاً وودياناً لما أمكن العيش عليها قال في التسهيل : ولا يتنافى لفظُ البسط والمدُّ مع التكوين ، لأن كل قطعةٍ من الأرض ممدودةٌ على حدِّتها ، وإنما التكوين لجملة الأرض^(١) ﴿وجعل فيها رواسي﴾ أي وخلق في الأرض جبلاً ثوابت رواسخ لثلاث تضطرب بأهلها كقوله ﴿أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ ﴿وَأَنْهَاراً﴾ أي وجعل فيها الأنهار الجارية ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي جعل فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين اثنين ذكراً وأنثى ليتمَّ بينهما أسباب الإخصاب والتكاثر طبق سنته الحكيمه^(٢) وقال أبو السعود : أي جعل من كل نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين ، إمّا في اللون كالأبيض والأسود ، أو في الطعم كالخلو والحامض ، أو في القدر كالصغير والكبير ، أو في الكيفيّة كالخارّ والبارد وما أشبه ذلك^(٣) ﴿يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارُ﴾ أي يُلبسه إياه فيصير الجوُّ مظلماً بعد ما كان مضيئاً ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إنّ في عجائب صنع الله لدلالات وعلامات باهرة على قدرته ووحدانيته لمن تأمل وتفكّر ، وخصَّ « المتفكرون » بالذكر لأنّ ما احتوت عليه هذه الآيات من الصنيع العجيب لا يُدرك إلا بالتفكر ﴿وفي الأرض قطعٌ متجاورات﴾ أي في الأرض بقاعٌ مختلفة متلاصقات قريب بعضها من بعض قال ابن عباس : أرضٌ طيبة ، وأرضٌ سبخة تُنبِتُ هذه ، وهذه إلى جنبها لا تُنبِتُ^(٤) ﴿وجناتٌ منْ أَعْنَابٍ﴾ أي بساتين كثيرة من أشجار العنب ﴿وزرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَغَيْرُ صِنَوَانٍ﴾ أي وفي هذه القطع المتجاورة أنواع الزروع والحبوب والنخيل والرطب ، منها ما يُنبِتُ منه من أصل واحدٍ شجرتان فأكثر ، ومنها ما ينبت منه شجرة واحدة ﴿يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضْلُ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ﴾ أي الكل يسقى بماء واحدٍ ، والتربة واحدة ، ولكن الثمار مختلفات الطعم قال الطبري : الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ ، والكمثرى ، والعنب الأبيض والأسود ، بعضها حلوٌ ، وبعضها حامض ، وبعضها أفضل من بعض مع اجتماع جميعها على شرب واحد^(٥) ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي علامات باهرة ظاهرة لمن عقل وتدبّر ، وفي ذلك ردٌّ على

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٣٠/٢ . (٢) قال في الظلال : هذه حقيقة لم يعرفها البشر من طريق علمهم وبحنهم إلا قريباً وهي أن كل الأحياء تتألف من ذكر وأنثى ، حتى النباتات التي كان مظنوناً أن ليس لها من جنسها ذكورتين أنها تحمل في ذاتها الزوج الآخر ، فتضم أعضاء الذكر وأعضاء الأنثى مجتمعة في زهرة أو متفرقة في العود . الظلال ٧٢/٥ . (٣) أبو السعود ٩٧/٣ . (٤) الطبري ٩٧/١٣ . (٥) نفس المرجع السابق ٩٨/١٣ .

قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا أُنَّا لَنِي خَلْقٍ جَدِيدٌ ۚ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٦٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٦٧﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ ۖ إِنَّمَا أَنْتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ

القائلين بالطبيعة ﴿٦٦﴾ وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أننا لفي خلقٍ جديد ﴿٦٧﴾ أي إن تعجب يا محمد من شيء فليس ما هو أعجب من قول الكفار أنذا متنا وأصبحنا رفاتاً هل سنبعث من جديد ؟ فإن إنكارهم للبعث حقيق أن يتعجب منه ، فإن الذي قدر على إنشاء ما ذكرنا من السموات والأرض ، والأشجار والثمار ، والبحار والأنهار قادر على إعادتهم بعد موتهم ﴿أولئك الذين كفروا بربهم﴾ أي هؤلاء الذين أنكروا البعث هم الجاحدون لقدرة الله ﴿وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يُغْلَوْنَ بالسلاسل في أعناقهم يوم القيامة ﴿وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي وهم في جهنم مخلدون فيها أبداً لا يموتون فيها ولا يُخرجون ﴿ويستعجلونك بالسَّيِّئَةِ قبل الحسنة﴾ أي يستعجلوك المشركون يا محمد بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية ، استعجلوا ما هُتِدُوا به من عذاب الدنيا استهزاء ﴿وقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ أي وقد مضت عقوبات أمثالهم من المكذبين ، فما لهم لا يعتبرون ولا يتَّعْظُونَ ؟ ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي وإن ربك لذو صفحٍ عظيم للناس ، لا يجعل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين بل يمهلهم بتأخيرها ﴿وإن ربك لشديد العقاب﴾ أي شديد العقاب لمن أصرَّ على المعاصي ولم يتب من ذنوبه . قرن تعالى بين سعة حلمه وشدة عقابه ليبقى العبد بين الرغبة والرغبة ، والرجاء والخوف ﴿ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه﴾ أي ويقول المشركون من كفار قريش هلاً أنزل على محمد معجزة تدل على صدقه مثل معجزات موسى وعيسى !! قال في البحر : لم يعتدوا بالآيات الخارقة المنزلة كانشقاق القمر ، وانقياد الشجر ، ونبع الماء من بين الأصابع وأمثال هذه المعجزات فاقترحوا عناداً آياتٍ أخرى ^(١) ﴿إنما أنت منذرٌ ولكل قوم هاد﴾ جواب لما اقترحوا أي لست أنت يا محمد إلا محذّر ومبصّر ، شأنك شأن كل رسول قبلك ، فلكل قوم نبي يدعوهم إلى الله وأما الآيات الخارقة فأمرها إلى مدبر الكون والعباد ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ أي الله وحده الذي يعلم ما تحمله كل أنثى في بطنها هل هو ذكرٌ أم أنثى ؟ تامٌ أم ناقص ؟ حسنٌ أو قبيح ﴿وما تغيض الأرحام﴾ أي وما تنقصه الأرحام بإلقاء الجنين قبل تمامه ﴿وما تزداد﴾ أي وما تزداد على الأشهر التسعة قال ابن عباس : ما تغيض بالوضع لأقل من تسعة أشهر ، وما تزداد بالوضع لأكثر من تسعة أشهر ، وعنه المراد بالغرض : السقط الناقص ، وبالأزدياد : الولد التام ^(٢) ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي كل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة ﴿عالمٌ

وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسْرَأَ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ ۚ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخَفٌّ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ۚ يَحْفَظُونَهُ مِّنْ أَمْرِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۚ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا أَفْلَا مَرَدُّ لَهُ ۚ وَمَا لَهُمْ مِّنْ دُونِهِ ۚ مِّنْ وَّالٍ ﴿١١﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيَسْبِغُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ۚ وَالْمَلَائِكَةُ مِّنْ خِيفَتِهِ ۚ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ۚ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ ﴿١٣﴾

الغيب والشهادة ﴿٨﴾ أي ما غاب عن الحسّ وما كان مشاهدًا منظورًا ، فعلمه تعالى شاملٌ للخفيّ والمرئي لا يخفى عليه شيء ﴿٩﴾ الكبير المتعال ﴿٩﴾ أي العظيم الشأن الذي كل شيء دونه المستعلي على كل شيء بقدرته المنزهة عن المشابهة والمماثلة ﴿١٠﴾ سواء منكم من أسرأ القول ومن جهر به ﴿١٠﴾ أي يستوي في علمه تعالى ما أضمرته القلوب وما نطقت به الألسنة ﴿١١﴾ ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار ﴿١١﴾ أي ويستوي عنده كذلك من هو مستتر بأعماله في ظلمات الليل وهو في غاية الاختفاء ، ومن هو ذاهب في طريقه بوضوح النهار مستعلن لا يستخفي فيما يعمل وهو في غاية الظهور ﴿١٢﴾ له معقبات ﴿١٢﴾ أي لهذا الإنسان ملائكة موكلّة به تتعقب في حفظه يأتي بعضهم بعقب بعض كالحرس في الدوائر الحكومية ﴿١٣﴾ من بين يديه ومن خلفه ﴿١٣﴾ أي من أمام الإنسان ومن ورائه ﴿١٣﴾ يحفظونه من أمر الله ﴿١٣﴾ أي يحفظونه من الأخطار والمضار بأمره تعالى قال مجاهد : ما من عبد إلا وملاك موكل به يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والحوام ^(١) ﴿١٣﴾ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴿١٣﴾ أي لا يزيل نعمته عن قوم ولا يسلبهم إياها إلا إذا بدّلوا أحوالهم الجميلة بأحوال قبيحة ، وهذه من سنن الله الاجتماعية أنه تعالى لا يبدل ما بقوم من عافية ونعمة ، وأمن وعزة إلا إذا كفروا تلك النعم وارتكبوا المعاصي وفي الأثر « أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك : إنه ليس من أهل قرية ، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا حول الله عنهم ما يجون إلى ما يكرهون » ^(٢) ﴿١٣﴾ وإذا أراد الله بقوم سوءاً ﴿١٣﴾ أي وإذا أراد تعالى هلاك قوم أو عذابهم ﴿١٣﴾ فلا مردّ له ﴿١٣﴾ أي لا يقدر على ردّ ذلك أحد ﴿١٣﴾ وما لهم من دونه من والٍ ﴿١٣﴾ أي ليس لهم من دون الله ولي يدفع عنهم العذاب والبلاء ﴿١٣﴾ هو الذي يريكم البرق ﴿١٣﴾ هذا بيان لأثار قدرته تعالى المنبئة في الكون أي يريكم أيها الناس البرق الخاطف من خلال السحاب ﴿١٣﴾ خوفًا وطمعًا ﴿١٣﴾ قال ابن عباس : خوفًا من الصواعق وطمعًا في الغيث ^(٣) ، فإن البرق غالباً ما يعقبه صواعق مدمرة ، وقد يكون وراءه المطر المdrار الذي به حياة البلاد والعباد ﴿١٣﴾ وينشئ السحاب الثقيل ﴿١٣﴾ أي وبقدرته كذلك يخلق السحب الكثيفة المحمّلة بالماء الكثير ﴿١٣﴾ ويسبغ الرعد بحمده والملائكة من خيفته ﴿١٣﴾ أي يسبغ الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه ، وتسبغ له الملائكة خوفاً من عذابه ، وتسبغ الرعد حقيقة دلّ عليها القرآن فتو من بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر

(١) الطبري ١٣/ ١١٩. (٢) أخرجه ابن أبي حاتم كذا في مختصر ابن كثير ٢/ ٢٧٤. (٣) زاد المسير ٤/ ٣١٣.

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كَبَسِطَ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ۚ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿١٤﴾ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتُخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ أَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ

إلا بما هو حق كما قال ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ﴿أي يرسل الصواعق المدمرة نقمة يهلك بها من شاء﴾ وهم يجادلون في الله ﴿أي وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث﴾ وهو شديد المحال ﴿أي وهو تعالى شديد القوة والبطش والنتكال ، القادر على الانتقام ممن عصاه﴾ له دعوة الحق ﴿أي لله تعالى تتجه الدعوة الحق فهو الحقيق بأن يُعبد وحده بالدعاء والالتجاء﴾ والذين يدعون من دونه ﴿أي والآلهة الذين يدعوهم الكفار من دون الله﴾ لا يستجيبون لهم بشيء ﴿أي لا يستجيبون لهم دعاء، ولا يسمعون لهم نداء﴾ إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه ﴿أي إلا كمن يبسط كفيه للماء من بعيد يدعو ويناديه ليصل الماء إلى فمه ، والماء جماد لا يحس ولا يسمع قال أبو السعود: شبه حال المشركين في عدم حصولهم عند دعاء آلهتهم على شيء أصلاً بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل ، قد بسط كفيه من بعيد إلى الماء يبغى وصوله إلى فمه وليس الماء ببالغ فمه أبداً لكونه جماداً لا يشعر بعطشه﴾ (١) ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ أي مادعاؤهم والتجاؤهم لآلهتهم إلا في ضياع وخسار لأنه لا يُجدي ولا يفيد ﴿ولله يسجد من في السموات والأرض﴾ أي ولله وحده يخضع وينقاد أهل السموات وأهل الأرض ﴿طَوْعاً وَكَرْهًا﴾ أي طائعين وكارهين قال الحسن: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كرْهًا (٢) أي في حالة الفزع والاضطرار ﴿وظلالهم بالغدو والآصال﴾ أي وتسجد ظلالهم أيضاً لله في أول النهار وأواخره ، والغرض الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء ، ودان له كل شيء ، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الأدميين ، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى ﴿قل من رب السموات والأرض﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين مَنْ خالق السموات والأرض ومدبر أمرها ؟ والسؤال للتهكم والسخرية بما عبدوا من دون الله ﴿قل الله﴾ أي قل لهم تقريباً وتبكيئاً : الله خالقهما ﴿قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضرراً﴾ أي قل لهم - إلزاماً لإقامة الحجة عليهم - أجمعتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرُونَ على نفع أنفسهم ، ولا على دفع الضرر عنها ، فكيف يستطيعونه لغيرهم ؟ ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أَمْ هل تستوي الظلمات والنور﴾ هذا تمثيل لضلالتهم في عبادة غير الله ، والمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن ، وبالظلمات الضلال وبالنور

أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا تَخْلُقُهُ فَتَشَبَّهُ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ ﴿١٦﴾

الهدى أي كما لا يستوي الأعمى والبصير ، وكما لا تستوي الظلمات والنور ، كذلك لا يستوي المؤمن الذي يبصر ضياء الحق ، والمشرك الذي عمي عن رؤية ذلك الضياء ، فالفارق بين الحق والباطل واضح وضوح الفارق بين الأعمى والبصير ، والفارق بين الإيمان والضلال ظاهر ظهور الفارق بين النور والظلام ﴿أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم أي أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم ؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله ، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئاً ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله ، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين ، ولما أقام الحجة عليهم جاء بهذا البيان الواضح ﴿قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار﴾ أي الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره ، وهو المنفرد بالالوهية والربوبية ، الغالب لكل شيء ، وجميع الأشياء تحت قدرته وقهره .

البَلاغَةُ : في الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبدیع ما يلي :

١ - الإشارة بالبعيد عن القريب في ﴿تلك آيات الكتاب﴾ تنزيلاً لها منزلة البعيد للدلالة على علو شأنها ورفعة منزلتها و﴿أل﴾ في الكتاب للتفخيم أي الكتاب العجيب الكامل في إعجازه وبيانه .

٢ - الاستعارة التبعية في ﴿يغشي الليل النهار﴾ شبه إزالة نور النهار بواسطة ظلمة الليل بالغطاء الكثيف واستعار لفظ ﴿يغشي﴾ المشير إلى تغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية الحسية للأمر المعنوية .

٣ - الطباق في ﴿تغيضُ . . وتزداد﴾ وفي ﴿الغيب والشهادة﴾ وفي ﴿أسر . . وجهر﴾ وفي ﴿مستخفٍ . . وسارب﴾ لأن السارب الظاهر وفي ﴿خوفاً وطمعاً﴾ وفي ﴿طوعاً وكرهاً﴾ وكلها من المحسنات البديعية اللفظية .

٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿قل الله﴾ أي الله خالق السموات والأرض .

٥ - التشبيه التمثيلي في ﴿كباسط كفيه﴾ شبه عدم استجابة الأصنام للداعين لها بعدم استجابة الماء لباسط كفيه إليه من بُعد فوجه الشبه منتزع من متعدد .

٦ - الاستعارة في ﴿هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور﴾ استعار لفظ الظلمات والنور للكفر والإيمان وكذلك لفظ الأعمى للمشرك الجاهل والبصير للمؤمن العاقل .

تَبْيِيْهُ : سميت الملائكة معقبات لأنهم يتعاقبون على أعمال العباد بالليل والنهار كما في البخاري (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة الفجر والعصر . .) الحديث .

فَكَايْدَة : روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا سمع صوت الرعد يقول : (سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته وهو على كل شيء قدير) وكان أبو هريرة يقول من قالها فأصابته صاعقة فعلي ديته^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماءً . . إلى . . وما لهم من الله من واق ﴾

من آية (١٧) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى في الآيات السابقة أن في الأرض دعوتين : دعوة الحق ، ودعوة الباطل ، وذكر أن دعوة الله هي دعوة الحق ، ودعوة ما يعبدون من دونه هي دعوة الباطل . . ذكر تعالى هنا مثلين ضربهما للحق وأهله ، والباطل وحزبه ، ليتضح الفرق بين الهدى والضلال ، والرشد والغى ، ثم أعقبه بذكر مآل المؤمنين في دار النعيم ، والكافرين في دار الجحيم .

اللفظة : ﴿ زبداء ﴾ الزبد : الغناء الذي يحمله السيل ﴿ رابياً ﴾ عالياً متنفخاً ﴿ جفء ﴾ مضمحلاً متلاشياً لا منفعة فيه ولا بقاء له^(٢) يقال : جفا الماء بالزبد إذا قذفه ورمى به ﴿ المهاد ﴾ الفراش وأصله المكان الممهّد الموطأ للنوم والراحة ﴿ يدرءون ﴾ يدفعون والدرء : الدفع ﴿ عقيب ﴾ العاقبة ويسمى الجزاء على الفعل عقيب لأنه يكون عقب الفعل ﴿ عدن ﴾ استقرار وثبات وخلود يقال : عدن بالمكان إذا أقام به ﴿ ييسط ﴾ يوسع ﴿ يقدر ﴾ يضيق ﴿ متاع ﴾ كل شيء يتمتع به إلى أجل ثم ينتهي ويفنى ﴿ طوبى ﴾ فرح وقرة عين قال الزمخشري : مصدر من طاب كبشري وزلفى ومعناه أصبت خيراً وطيباً^(٣) ﴿ يئأس ﴾ اليأس : القنوط من الشيء ﴿ أمليت ﴾ أمهلت يقال : أملى الله له إذا أمهله وطول له المدة ﴿ واق ﴾ اسم فاعل من وقى إذا دفع الأذى والضرع عنه .

سبب النزول : قال ابن عباس : نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبي ﷺ : اسجدوا للرحمن قالوا : وما الرحمن ؟ أنسجد لما تأمرنا ؟ فأنزل الله ﴿ وهم يكفرون بالرحمن قل هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب ﴾^(٤) .

أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ نَفْسٍ : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ أي أنزل تعالى من السماء مطراً ﴿ فسالت أودية بقدرها ﴾ أي فجرت مياه الأودية بمقدار سعتها كل بحسبه ، فالكبير بمقدار كبره ، والصغير بمقدار صغره ﴿ فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ أي حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غناء ، ورغوة تظهر على وجه الماء قال الطبري : هذا مثل ضرب به الله للحق والباطل ، والإيمان والكفر ، فمثل الحق في ثباته ، والباطل في اضمحلاله ، مثل الماء الذي أنزله الله من السماء إلى الأرض ، فاحتمل السيل زبداً عالياً ، فالحق هو الماء الباقي الذي يمكث في الأرض ، والزبد الذي لا يتنفع به هو الباطل ، وهذا أحد مثلي الحق

(١) القرطبي ٢٩٨/٩ . (٢) البحر ٣٨٢/٥ . (٣) الكشف ٥٢٨/٢ . (٤) أسباب النزول ١٥٧ والقرطبي ٣١٨/٩ .

مَنْعَ زَبَدٍ مِّثْلَهُ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ ۚ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ ۚ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ ۚ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ ۖ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِّثْلَهُ مَعَهُ ۖ لَافْتَدَوْا بِهِ ۚ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿١٨﴾ * أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾

والباطل، والمثل الآخر (١) قوله تعالى ﴿وَمَا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلِيٍّ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ﴾ أي ومن الذي يوقد عليه الناس من المعادن كالذهب والفضة والنحاس ، مما يُسبك في النار طلب الزينة أو الأشياء التي يُتُّفَع بها كالأواني زبدٌ مثل زبد السيل ، لا يُتُّفَع به كما لا يُتُّفَع بزبد السيل ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ أي كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فمثل الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس ، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل ﴿فأما الزبد فيذهب جُفَاءً﴾ أي فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي ﴿وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ أي وأما ما ينفع الناس به من الماء الصافي ، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض ﴿كذلك يضرب الله الأمثال﴾ أي مثل المثلين السابقين بين الله الأمثال للحق والباطل ، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا (٢) ﴿لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ﴾ أي للمؤمنين الذين استجابوا لله بالإيمان والطاعة المثوبة الحسنى وهي الجنة دار النعيم ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لم يجيبوا ربه إلى الإيمان به وهم الكافرون ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ أي لو كان لهم جميع ما في الدنيا من الأموال ﴿ومثله معه﴾ أي ومثل جميع ما في الدنيا ﴿لافتدوا به﴾ أي لبذلوا كل ذلك فداءً لأنفسهم ليتخلصوا من عذاب الله ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي لهم الحساب السيئ قال الحسن : يُحاسبون بذنوبهم كلها لا يُغفر لهم منها شيء ﴿ومأواهم جهنم﴾ أي المكان الذي يأوون إليه يوم القيامة نار جهنم ﴿وبئس المهاد﴾ أي بئس هذا المستقر والفراش المهد لهم في النار ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾

الهمزة للاستفهام الإنكاري أي هل يستوي من آمن وصدق بما نزل عليك يا محمد ومن بقي يتخبط في ظلمات الجهل والضلال لا لبَّ له كالأعمى ؟ والمراد به عمى البصيرة قال ابن عباس نزلت في حمزة وأبي جهل ﴿إنما يتذكر أولوا الألباب﴾ أي إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول السليمة ، ثم عدد تعالى

(١) الطبري ١٣ / ١٣٤ . (٢) يقول الشهيد « سيد قطب » في تفسيره الظلال ما نصه : « ثم غضي مع السياق يضرب مثلاً للحق والباطل ، للدعوة الباقية والدعوة الذاهبة مع الريح ، إن الماء لينزل من السماء فتسيل به الأودية ، وهو يلم في طريقه غثاءً يطفو على وجهه في صورة الزبد ، وهو نافش رابٍ متفخ ولكنه بعد غثاء ، والماء من تحته سارب ساكن هادئ ولكنه هو الماء الذي يحمل الخير والحياة ، كذلك يقع في المعادن التي تذاب لتصاغ منها حلية كالذهب والفضة أو آنية كالحديد والرصاص ، فإن الخبث يطفو ولكنه بعد خبث يذهب ويبقى المعدن في نقاء ، ذلك مثل الحق والباطل ، فالباطل يطفو ويعلو ويبدو رايياً متفخاً ولا يلبث أن يذهب جُفَاءً مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك ، والحق يظل هادئاً ساكناً ولكنه الباقي في الأرض كالماء المحيي ، والمعدن الصريح » .

وَالَّذِينَ يُؤْفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ ﴿٢٠﴾ وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرُءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٢٤﴾ وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ

صفاتهم فقال ﴿الذين يؤفون بعهد الله﴾ أي يتمون عهد الله الذي وصاهم به وهي أوامره ونواهيه التي كلف بها عباده ﴿ولا ينقضون الميثاق﴾ أي لا يخالفون ما وثقوه على أنفسهم من العهود المؤكدة بينهم وبين الله ، وبين العباد ﴿والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يصلون الأرحام التي أمر الله بصلتها ﴿ويخشون ربهم﴾ أي يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً ﴿ويخافون سوء الحساب﴾ أي يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار ، فهم لرهبتهم جادون في طاعة الله ، محافظون على حدوده ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي صبروا على المكروه طلباً لمرضاة الله ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي أنفقوا بعض أموالهم التي أوجبها الله عليهم في الخفاء والعلانية ﴿ويدرءون بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون الجهل بالحلم والأذى بالصبر وقال ابن عباس : يدفعون بالعمل الصالح السيء من الأعمال^(١) بمعنى يفعلون الحسنات ليدرءوا بها السيئات وفي الحديث (وأتبع السيئة الحسنة تمحها) ﴿أولئك لهم عقبى الدار﴾ أي العاقبة المحمودة في الدار الآخرة وهي الجنة وقد جاء تفسيرها في قوله ﴿جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي جنات إقامة خالدة يدخلها أولئك الأبرار ومن كان صالحاً من آبائهم ونسائهم وأولادهم ، ليأنسوا بلقائهم ويتم بهم سرورهم ، وإن لم يكونوا يستحقون هذه المنازل العالية بأعمالهم ، فترفع منازل هؤلاء إكراماً لأولئك وذلك فضل الله ، ثم إنهم إكراماً آخر بيّنه بقوله ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب﴾ أي والملائكة تدخل عليهم للتهنئة من كل باب من أبواب الجنة يقولون لهم ﴿سلام عليكم بما صبرتم﴾ أي سلمتم من الآفات والمحن بصبركم في الدنيا ، ولئن تعبتم فيما مضى فلقد استرحتم الساعة ، وهذه بشارة لهم بدوام السلامة ﴿فنعم عقبى الدار﴾ أي نعمت هذه العاقبة الحميدة عاقبتكم وهي الجنة بدل النار ، ولما ذكر تعالى أوصاف المؤمنين التسع أعقبه بذكر أوصاف الكافرين الذميمة فقال ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه﴾ أي ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل﴾ أي يقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها ﴿ويفسدوا في الأرض﴾ ﴿أولئك لهم اللعنة﴾ أي أولئك الموصوفون بما ذكر من القبائح لهم البعد

لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ ﴿٢٦﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَّعَاقِبُ ﴿٢٩﴾ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ مِنْ رَحْمَتِهِ ، وَالطَّرْدُ مِنْ جَنَّتِهِ ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ أي لهم ما يسوءهم في الدار الآخرة وهو عذاب جهنم على عكس المتقين ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع على من يشاء من عباده ويضيّق على من يشاء حسب الحكمة والمصلحة ﴿وَفَرَحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وفرح هؤلاء المشركون بنعيم الدنيا فرح أشد وبطر ، وهو إخبار في ضمنه ذمّ وتسفيه لمن فرح بالدنيا ولذلك حَقَّرَهَا بقوله ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ أي قليل وشيء حقير بالنظر إلى الآخرة ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ أي ويقول كفار مكة هلاً أنزل على محمد معجزة من ربه مثل معجزة موسى في فلق البحر ، ومعجزة عيسى في إحياء الموتى ونحو ذلك ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أُنَابَ﴾ أي قل لهم يا محمد الأمر بيد الله وليس إليّ ، يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ إِضْلَالَهُ فَلَا تَغْنِي عَنْهُ الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ شَيْئاً ، ويرشد إلى دينه من أراد هدايته لأنه رجع إلى ربه بالتوبة والإِنَابَةَ قَالَ فِي التَّسْهِيلِ : خَرَجَ بِالْكَلَامِ مَخْرَجَ التَّعَجُّبِ حِينَ طَلَبُوا آيَةً وَالْمَعْنَى قَدْ جَاءَكُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالْقُرْآنِ وَآيَاتٍ كَثِيرَةٍ فَعَمِيتُمْ عَنْهَا ، وَطَلَبْتُمْ غَيْرَهَا ، وَتَمَادَيْتُمْ عَلَى الْكُفْرِ فَإِنَّ تَعَالَى يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ مَعَ ظُهُورِ الْآيَاتِ ، وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ دُونَ ذَلِكَ ^(١) ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ هَذَا بَدَلُ وَالْمَعْنَى يَهْدِي أَهْلَ الْإِنَابَةِ وَهُمْ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَسْكُنُ وَتَسْتَأْنِسُ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ وَتَوْحِيدِهِ ، وَجِيءَ بِصِيغَةِ الْمَضَارِعِ لِإِفَادَةِ دَوَامِ الْاطْمِئْنَانِ وَاسْتِمْرَارِهِ ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أَيِ أَلَا فَانْتَبِهُوا أَيُّهَا الْقَوْمُ فَإِنَّ بِذِكْرِ اللَّهِ تَسْتَأْنِسُ وَتَسْكُنُ قُلُوبُ الْمُؤْمِنِينَ ، فَلَا يَشْعُرُونَ بِقَلْقٍ وَاضْطِرَابٍ مِنْ سُوءِ الْعِقَابِ ، عَلَى عَكْسِ الَّذِينَ إِذَا ذَكَرَ اللَّهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُهُمْ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحَسَنُ مَّآبٍ﴾ أَيِ أَمَّا الْمُؤْمِنُونَ أَهْلُ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَفَرَّةٌ عَيْنٌ لَهُمْ وَنِعْمٌ مَا يَلْقَوْنَ مِنَ الْهَنَاءِ وَالسَّعَادَةِ فِي الْمَرْجِعِ وَالْمُنْقَلَبِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : ﴿طُوبَى لَهُمْ﴾ فَرَحٌ وَقَرَّةٌ عَيْنٌ ﴿كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ﴾ أَيِ كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاءَ مِنْ قَبْلِكَ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ فِي أُمَّةٍ قَدْ مَضَتْ قَبْلَهَا أُمَمٌ كَثِيرَةٌ ، فَهِيَ آخِرُ الْأُمَمِ وَأَنْتَ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ ﴿لِتَتْلُوا عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أَيِ لِتَبْلُغَهُمْ هَذَا الْوَحْيَ الْعَظِيمَ وَالذِّكْرَ الْحَكِيمَ ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ أَيِ وَالْحَالُ أَنَّهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ الَّذِي وَسَّعَتْ رَحْمَتُهُ كُلَّ شَيْءٍ ﴿قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أَيِ قُلْ يَا مُحَمَّدُ هَؤُلَاءِ الْمُشْرِكِينَ إِنْ الرَّحْمَنُ الَّذِي كَفَرْتُمْ بِهِ

وَالِيهِ مَتَابٌ ﴿٢٠﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كَلِمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلَّ اللَّهُ الْأَمْرَ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَأْمُرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلِ مِّن قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٢٢﴾ أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَأَنكُرْتُمْ مَعْرِفَتَهُ هُوَ رَبِّي الَّذِي آمَنْتُ بِهِ لَا مَعْبُودَ لِي سِوَاهُ ﴿٢٣﴾ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابٌ ﴿٢٤﴾ أَيُّ عَلَيْهِ وَحْدَهُ اعْتَمَدْتُ ، وَإِلَيْهِ تَوْبَتِي وَمَرْجِعِي فَيُثَبِّتُنِي عَلَى مَجَاهِدَتِكُمْ ، وَالْغَرَضُ تَسْلِيَةُ النَّبِيِّ ﷺ مِمَّا يَلْقَاهُ مِنْ كُفَّارِ قُرَيْشٍ مِنَ الْجُحُودِ وَالْعِنَادِ فَقَدْ كَذَّبَ قَبْلَهُمُ الْأُمَمُ ﴿٢٥﴾ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴿٢٦﴾ أَيُّ لَوْ كَانَ كِتَابٌ مِنَ الْكُتُبِ الْمُنْزَلَةِ سُيِّرَتْ بِتَلَاوَتِهِ الْجِبَالُ وَزَعَزَعَتْ عَنْ أَمَاكِنِهَا ﴿٢٧﴾ أَوْ قُطِعَتْ بِهِ الْأَرْضُ ﴿٢٨﴾ أَيُّ شَقِيقَتْ بِهِ الْأَرْضُ حَتَّى تَتَصَدَّعَ وَتُصِيرَ قِطْعًا ﴿٢٩﴾ أَوْ كَلَّمَ بِهِ الْمَوْتَى ﴿٣٠﴾ أَيُّ خَوَّطَبَتْ بِهِ الْمَوْتَى حَتَّى أَجَابَتْ وَتَكَلَّمَتْ بَعْدَ أَنْ أَحْيَاهَا اللَّهُ بِتَلَاوَتِهِ عَلَيْهَا ، وَجَوَابُ ﴿لَوْ﴾ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : لَكَانَ هَذَا الْقُرْآنُ ، لَكُونَهُ غَايَةً فِي الْهُدَايَةِ وَالتَّذْكِيرِ ، وَنَهَايَةً فِي الْإِنذَارِ وَالتَّخْوِيفِ ^(١) وَقَالَ الزَّجَّاجُ : تَقْدِيرُهُ «لَمَّا آمَنُوا» لَغْلُوهُمْ فِي الْمَكَابِرَةِ وَالْعِنَادِ ، وَتَمَادِيهِمْ فِي الضَّلَالِ وَالْفُسَادِ ﴿بَلَّ لِلَّهِ الْأَمْرَ جَمِيعًا﴾ بَلَّ لِلْإِضْرَابِ وَالْمَعْنَى : لَوْ أَنَّ قُرْآنًا فَعَلَ بِهِ مَا ذُكِرَ لَكَانَ ذَلِكَ هَذَا الْقُرْآنُ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ لَمْ يَجِبْهُمْ إِلَى مَا اقْتَرَحُوا مِنَ الْآيَاتِ ، لِأَنَّهُ هُوَ الْمَالِكُ لَجَمِيعِ الْأُمُورِ وَالْفَاعِلُ لِمَا يَشَاءُ مِنْهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِ تَحَكُّمٌ أَوْ اقْتِرَاحٌ ﴿أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهْدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾ أَيُّ أَفَلَمْ يَقْطَعُ وَيَبْأَسِ الْمُؤْمِنُونَ مِنْ إِيْمَانِ الْكُفَّارِ ، وَيَعْلَمُوا أَنَّهُ تَعَالَى لَوْ شَاءَ هَدَايَتَهُمْ لَهْدَاهُمْ لِأَنَّ الْأَمْرَ لَهُ ، وَلَكِنْ قَضَتْ الْحِكْمَةُ أَنْ يَكُونَ بِنَاءُ التَّكْلِيفِ عَلَى الْإِخْتِيَارِ ^(٢) ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ أَيُّ وَلَا يَزَالُ كُفَّارُ مَكَّةَ يُصِيبُهُمْ بِسُوءِ أَعْمَالِهِمْ وَكُفْرِهِمْ دَاهِيَةً تَقْرَعُ أَسْمَاعَهُمْ وَتَقْلُقُ بَالَهُمْ مِنْ صُنُوفِ الْبَلَايَا وَالْمَصَائِبِ ﴿أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ﴾ أَيُّ أَوْ تَحُلُّ الْقَارِعَةُ وَالدَاهِيَةُ قَرِيبًا مِنْ دِيَارِهِمْ فَيَفْزَعُونَ مِنْهَا وَيَتَطَايَرُ إِلَيْهِمْ شَرُّهَا ﴿حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ بِإِظْهَارِ الْإِسْلَامِ وَانْتِصَارِكُمْ عَلَيْهِمْ بِفَتْحِ مَكَّةَ ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ أَيُّ لَا يُخْلِفُ وَعْدَهُ لِرُسُلِهِ وَأَوْلِيَائِهِ بِنَصْرَتِهِمْ عَلَى أَعْدَائِهِ ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ تَسْلِيَةً وَتَأْنِيسًا لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيُّ كَمَا اسْتَهْزَأَ بِكَ الْمُشْرِكُونَ فَقَدْ اسْتَهْزَأَ الْمُجْرِمُونَ بِرُسُلِهِمْ وَأَنْبِيَائِهِمْ ﴿فَأَمَلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ أَيُّ أَمَهَلْتُهُمْ وَتَرَكْتُهُمْ فِي أَمْنٍ وَدَعَا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ بِالْعَذَابِ ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أَيُّ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِي لَهُمْ عَلَى الْكُفْرِ وَالتَّكْذِيبِ ؟ ﴿أَفَمَن هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أَيُّ أَفَمَن هُوَ رَقِيبٌ حَافِظٌ عَلَى عَمَلِ كُلِّ إِنْسَانٍ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ الْعِبَادِ وَهُوَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَالْخَبَرُ مَحْذُوفٌ تَقْدِيرُهُ : كَمَنْ لَيْسَ بِهَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ الْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَسْمَعُ وَلَا تَنْفَعُ وَلَا تَمْلِكُ مِنَ الْأَمْرِ شَيْئًا قَالَ الْفَرَاءُ : وَتُرِكَ جَوَابُهُ لِأَنَّ

(١) هَذَا اخْتِيَارُ الزَّمَخْشَرِيِّ وَاخْتَارَ الزَّجَّاجُ أَنْ التَّقْدِيرُ «لَمَّا آمَنُوا» .

(٢) ذَهَبَ بَعْضُ الْمُفْسِّرِينَ إِلَى أَنَّ مَعْنَى «أَفَلَمْ يَبْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا» أَفَلَمْ يَعْلَمْ وَيَتَبَيَّنْ وَهِيَ لُغَةٌ هَوَازِنٌ وَهَذَا مَنْقُولٌ عَنْ بَعْضِ السَّلَفِ ، وَلَكِنْ لَا ضَرُورَةَ لِإَخْرَاجِ الْكَلِمَةِ عَنْ مَعْنَاهَا الْأَصْلِي طَالَمَا يُمْكِنُ فَهْمُهَا عَلَى الْوَجْهِ الْمُبَادِرِ كَمَا بَيَّنَّا .

وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بَيِّظُهُمْ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا
مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ
الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ ﴿٣٤﴾

المعنى معلوم وقد بيّنه بعد هذا بقوله ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ كأنه قيل : هل الله كشركائهم ؟ ^(١) وقال الزمخشري : هذا احتجاج عليهم في إشراكهم بالله يعني أفالله الذي هو قائم رقيب على كل نفسٍ صالحة أو طالحة بما كسبت من خير أو شر وقد أعد لكل جزاء كمن ليس كذلك ^(٢) ﴿وجعلوا لله شركاء قل سمّوهم﴾ أي وجعل المشركون آلهة عبودها معه من أصنام وأنداد في منتهى العجز والحقارة والجهالة ، قل لهم يا محمد : سمّوهم لنا وصفوهم لننظر هل لهم ما يستحقون به العبادة والشركة مع الله ؟ ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي أم تخبرون الله بشركاء لا يعلمهم سبحانه وهو استفهام للتوبيخ ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي أم تسمونهم شركاء بظنٍ باطلٍ فاسد لا حقيقة له ، لفرط الجهل وسخافة العقل ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ أي زين لهم الشيطان ذلك الكفر والضلال ﴿وصدّوا عن السبيل﴾ أي منعوا عن طريق الهدى ﴿ومن يضلّل الله فما له من هادٍ﴾ أي ومن يضلله الله فما له أحدٌ يهديه ﴿لهم عذابٌ في الحياة الدنيا﴾ أي هؤلاء الكفرة عذاب عاجل في هذه الحياة الدنيا بالقتل والأسر وسائر المحن ﴿ولعذاب الآخرة أشقُّ﴾ أي ولعذابهم في الآخرة أثقل وأشد إيلاماً من عذاب الدنيا ﴿وما لهم من الله من واقٍ﴾ أي وليس لهم من يحميهم من عذاب الله أو يدفع عنهم سخطه وانتقامه .

الْبَلَاغَةُ : ١ - ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أودية . .﴾ الآية شبه تعالى الحق والباطل بتشبيه رائع يسمى « التشبيه التمثيلي » لأن وجه الشبه فيه منتزَع من متعدد ، فمثّل الحق بالماء الصافي الذي يستقر في الأرض ، والجوهر الصافي من المعادن الذي به ينتفع العباد ، ومثّل الباطل بالزبد والرغوة التي تظهر على وجه الماء ، والخبث من الجوهر الذي لا يلبث أن يتلاشى ويضمحل ، والصورة التي توحى بها الآية « صورة الحق والباطل » وهما في صراع كالزبد الذي تتقاذفه الأمواج ﴿فأما الزبد فيذهب جفاءً وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض﴾ وهو تمثيل في منتهى الروعة والجمال .

٢ - ﴿فسالت أوديةً بقدرها﴾ مجاز عقلي من إسناد الشيء لمكانه والأصل فسالت مياه الأودية .

٣ - ﴿كذلك يضرب الله الحق والباطل﴾ فيه إيجاز بالحذف أي أمثال الحق وأمثال الباطل .

٤ - ﴿للذين استجابوا . . والذين لم يستجيبوا﴾ بينهما طباق السلب .

٥ - ﴿كمن هو أعمى﴾ شبه الجهل والكفر بالعمى على سبيل الاستعارة التبعية لأن المراد بالأعمى الجاهل الكافر .

٦ - ﴿سراً وعلانية﴾ بينهما طباق وكذلك بين ﴿الحسنة والسيئة﴾ و﴿يسيطر ويقدر﴾ و﴿يضل ويهدي﴾ للتضاد بين اللفظين .

٧ - ﴿إلا متاع﴾ أي إلا مثل المتاع الذي يستمتع به الإنسان في الحاجات الموقته ففيه تشبيه بليغ لحذف الأداة ووجه الشبه .

فكائِدَة : بين تعالى في قوله ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أن النسب لا ينفع إذا لم يحصل معه العمل الصالح ، وفيه قطع للأطماع الفارغة لمن يتمسك بمجرد حبل الأنساب .

تنبيه : قال الإمام الطيبي في قوله تعالى ﴿أفمن هو قائم على كل نفس . .﴾ في هذه الآية احتجاج بليغ مبني على فنون من علم البيان أولها : التوبيخ لهم على قياسهم الفاسد في عبادة غير الله ثانيها : وضع الظاهر موضع الضمير ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ تنبيهاً على ضلالهم في جعل شركاء لمن هو فرد واحد لا يشاركه أحد في اسمه ثالثها : إنكار لوجود الشركاء على وجه برهاني ﴿قل سمّوهم﴾ رابعها : نفي الشيء بنفي لازمه ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم﴾ خامسها : الاحتجاج عليهم بطريق التدرج لبعثهم على التفكير ﴿أم بظاهر من القول﴾ أي أتقولون بأفواهكم من غير روية ولا تفكير ببطلان ما تقولون ؟ فكان هذا الاحتجاج منادياً على نفسه بالاعجاز وأنه ليس من كلام البشر^(١) .

قال الله تعالى : ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون تجري من تحتها الأنهار . . إلى . . ومن عنده علم الكتاب﴾ من آية (٣٥) إلى نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما أعد للكفار في الآخرة ذكر ما أعد للمؤمنين في جنات النعيم ، ثم توعد المشركين بالعذاب الأليم ، وختم السورة الكريمة ببيان صدق رسالته عليه السلام بشهادة الله تعالى وشهادة المؤمنين من أهل الكتاب .

اللفظة : ﴿الأحزاب﴾ الطوائف المتفرقة من أحزاب اليهود والنصارى سموا بذلك لأنهم جماعات متفرقة لا تجمعهم عقيدة واحدة ﴿مآب﴾ أي مآبي بمعنى مرجعي ﴿يمحو﴾ المحو : إزالة الأثر من كتابة أو غيرها وعكسه الإثبات ﴿أم الكتاب﴾ أصل كل الكتب والمراد منه علم الله أو اللوح المحفوظ ﴿البلاغ﴾ اسم بمعنى التبليغ ﴿مكر﴾ المكر : تدبير أمر في خفاء ، وقد يكون في الخير وقد يكون في الشر .

سبب النزول : قال الكلبي : عيّرت اليهود رسول الله ﷺ وقالت : ما نرى لهذا الرجل مهمة إلا النساء والنكاح ولو كان نبياً كما زعم لشغله أمر النبوة عن النساء ، فأنزل الله تعالى ﴿ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك وجعلناهم أزواجاً وذرية﴾^(٢) .

(١) نقلاً عن حاشية الصاوي على الجلالين . (٢) أسباب النزول ١٥٨ .

* مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا نَارٌ ۖ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٥٥﴾ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ ﴿٥٦﴾ وَكَذَلِكَ أُنْزِلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ أَتَبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِيَّةً ۖ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِعَايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٥٨﴾ يَمْحُوا اللَّهُ

التفسير : ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي صفة الجنة العجيبة الشأن التي وعد الله بها عباده المتقين أنها تجري من تحت قصورها وغرفها الأنهار ﴿أُكْلُهَا دَائِمٌ وَظُلُّهَا﴾ أي ثمرها دائم لا ينقطع ، وظلها دائم لا تنسخه الشمس ﴿تلك عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي تلك الجنة عاقبة المتقين ومآلهم ﴿وعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ أي وأما عاقبة الكفار الفجار فهي النار ﴿والذين آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي والذين أنزلنا إليهم التوراة والإنجيل - ممن آمن بك واتبعت يا محمد - كعبد الله بن سلام والنجاشي وأصحابه يفرحون بهذا القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به ﴿ومِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ﴾ أي ومن أهل الملل المتحزبين عليك وهم أهل أديان شتى من ينكر بعض القرآن مكابرة مع يقينهم بصدقه لأنه موافق لما معهم ﴿قل إنما أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ﴾ أي قل يا محمد إنما أُمِرْتُ بعبادة الله وحده لا أشرك معه غيره ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا وَإِلَيْهِ مَعَابٍ﴾ أي إلى عبادته أدعو الناس وإليه مرجعي ومصيري ﴿وكذلك أنزلناه حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي ومثل إنزال الكتب السابقة أنزلنا هذا القرآن بلغة العرب لتحكم به بين الناس ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم﴾ أي ولئن اتبعت المشركين فيما يدعونك إليه من الأهواء والآراء بعدما أتاك الله من الحجج والبراهين ﴿ما لك من الله من وليٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ أي ليس لك ناصرٌ ينصرك أو يقيك من عذاب الله ، والمقصود تحذير الأمة من اتباع أهواء الناس لأن المعصوم إذا خوطب بمثل ذلك كان الغرض تحذير الناس قال القرطبي : الخطاب للنبي ﷺ والمراد الأمة ^(١) ﴿ولقد أرسلنا رسلًا من قبلك﴾ أي أرسلنا قبلك الرسل الكرام ﴿وجعلنا لهم أزواجًا وذرية﴾ أي وجعلنا لهم النساء والبنين ، وهو ردٌ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا : لو كان مرسلًا حقًا لكان مشغولاً بالزهد وترك الدنيا والنساء ، فردَّ الله مقالتهن وبين أن محمداً ﷺ ليس ببدعٍ في ذلك ، بل هو كمن تقدم من الرسل ﴿وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أي لم يكن لرسولٍ أن يأتي قومه بمعجزةٍ إِلَّا إِذَا أذن الله له فيها ، وهذا ردٌ على الذين اقترحوا الآيات ﴿لكل أجلٍ كتابٌ﴾ أي لكل مدة مضرورة كتابٌ كتبه الله في اللوح المحفوظ ، وكل شيء عنده بمقدار قال الطبري : لكل أمر قضاه الله كتابٌ قد كتبه فهو عنده ^(٢) ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾

مَا يَسَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ^٤ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ^٥ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ^٦ وَسَيَعْلَمُ الْكُفْرُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسَتْ مُرْسَلًا قُلْ كُنِيَ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾

أي ينسخ الله ما يشاء نسخه من الشرائع والأحكام وصحف الملائكة الكرام ، ويثبت ما يشاء منها دون تغيير قال ابن عباس : يبدل الله ما يشاء فينسخه إلا الموت والحياة والشقاء والسعادة فإنه قد فرغ منها^(١) وقيل : إن المحو والإثبات عام في جميع الأشياء لما روي أن عمر بن الخطاب كان يطوف بالبيت ويكي ويقول : اللهم إن كنت كتبت علي شقوة أو ذنباً فامحه ، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب ، واجعله سعادة ومغفرة^(٢) ، وقد رجحه أبو السعود وهو قول ابن مسعود أيضاً ﴿وعنده أم الكتاب﴾ أي أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقادير الأشياء كلها ﴿وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم﴾ أي وإن أريناك يا محمد بعض الذي وعدناهم من العذاب ﴿أو نتوفينك﴾ أي نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي ليس عليك إلا تبليغ الرسالة وعلينا حسابهم وجزاؤهم ﴿أولم يروا أننا نأتي الأرض نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ أي أولم يروا أن المشركون أننا نمكّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام ؟ وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجز وعده لرسوله عليه السلام^(٣) ﴿والله يحكم لا معقب لحكمه﴾ أي ليس يتعقب حكمه أحد بنقض ولا تغيير ﴿وهو سريع الحساب﴾ أي سريع الانتقام ممن عصاه ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر الكفار الذين خلّوا بأنبيائهم كما مكر كفار قريش بك ﴿فوالله المكر جميعاً﴾ أي له تعالى أسباب المكر جميعاً لا يضر مكرهم إلا بإرادته ، فهو يوصل إليهم العذاب من حيث لا يعلمون ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي من خير وشر فيجازي عليه ﴿وسيعلم الكفار لمن عُقْبَى الدار﴾ أي لمن تكون العاقبة الحسنة في الآخرة ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا﴾ أي يقول كفار مكة لست يا محمد مرسلًا من عند الله ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي حسبي شهادة الله بصدقني بما أيدني من المعجزات ﴿ومن عند علم الكتاب﴾ أي وشهادة المؤمنين من علماء أهل الكتاب .

البَلَاغَةُ : في الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال : إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران . (٢) الطبري ١٦٧/١٣ . (٣) قال سيد قطب : أن يد الله القوية تأتي الأمم الغنية حين تبطر وتكفر وتفسد فتتقص من قوتها وقدرها وراثتها وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات امتداد وسلطان أقول : هذا التفسير جديد وفيه إشراقة من إشراقات النور ، ونفحة من نفحات الجمال .

- ١ - التشبيه في قوله ﴿كذلك أرسلناك﴾ وفي ﴿وكذلك أنزلناه﴾ ويسمى مراسلاً مجملاً .
 - ٢ - الإيجاز بالحذف في ﴿أكلها دائم وظلُّها﴾ أي وظلُّها دائم حذف منه الخبر بدليل السابق .
 - ٣ - المقابلة في ﴿تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .
 - ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أرسلنا رسلاً﴾ .
 - ٥ - الطباق في ﴿يمحو . . ويثبت﴾ .
 - ٦ - القصر في ﴿إنما أمرتُ أن أعبدَ الله﴾ وفي ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ وكلاهما قصرٌ إضافي من باب قصر الموصوف على الصفة أي ليس لك من الصفات إلا صفة التبليغ .
 - ٧ - التهيج والإلهاب ﴿ولئن اتبعت أهواءهم﴾ .
 - ٨ - المجاز المرسل في ﴿نأتي الأرض﴾ أي يأتيها أمرنا وعذابنا .
- لطيفة :** فسر بعضهم قوله تعالى ﴿ننقصها من أطرافها﴾ أن نقصانها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير والصلاح ، وهذا مروى عن مجاهد وابن عباس في رواية عنه وأنشد بعضهم :
- | | |
|-------------------------------------|--|
| الأرضُ تحيا إذا ما عاشَ عالمُها | متى يمُتُ عالمٌ منها يمُتُ طَرَفُ |
| كالأرضِ تحيا إذا ما الغيثُ حلَّ بها | وإن أبى عادٍ في أكنافها التَّلَفُ ^(١) |

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الرعد »

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةٌ وَأَيَّانَهَا ثَنَانٌ وَخَمْسُونَ

بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ تناولت السورة الكريمة موضوع العقيدة في أصولها الكبيرة « الإيمان بالله ، الإيمان بالرسالة ، الإيمان بالبعث والجزاء » ويكاد يكون محور السورة الرئيسي « الرسالة والرسول » فقد تناولت دعوة الرسل الكرام بشيء من التفصيل ، وبيّنت وظيفة الرسول ، ووضحت معنى وحدة الرسالات السماوية ، فالأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين جاءوا لتشييد صرح الإيمان ، وتعريف الناس بالآله الحق الذي تعنونه الوجوه ، وإخراج البشرية من الظلمات إلى النور ، فدعوتهم واحدة ، وهدفهم واحد ، وإن كان بينهم اختلاف في الفروع .

✽ وقد تحدثت السورة عن رسالة موسى عليه السلام ، ودعوته لقومه إلى أن يعبدوا الله ويشكروه ، وضربت الأمثال بالمكذبين للرسل ، من الأمم السابقة كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، ثم تناولت الآيات موضوع الرسل مع أقوامهم على مر العصور والدهور ، وحكت ما جرى بينهم من محاورات ومناورات انتهت بإهلاك الله للظالمين ﴿ وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أولنعودنَّ في ملتنا ، فأوحى إليهم ربهم لنهلكنَّ الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ .

✽ وتحدثت السورة عن مشهد من مشاهد الآخرة ، حيث يلتقي الأشقياء المجرمون بأتباعهم الضعفاء ، وذكرت ما يدور بينهم من حوار طويل ، ينتهي بتكديس الجميع في نار جهنم يصطلون سعيها ، فلم ينفع الأتباع تلك اللعنات والشتائم التي وجهوها إلى الرؤساء فالكل في السعير ، ثم ضربت الآيات مثلاً لكلمة الإيمان ، وكلمة الضلال ، بالشجرة الطيبة ، والشجرة الخبيثة ، وختمت السورة ببيان مصير الظالمين يوم الجزاء والدين .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لمآثر أب الأنبياء ، وإمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام ، الذي حطم الأصنام ، وحمل راية التوحيد ، وجاء بالحنيفية السمحة ودين الإسلام الذي بعث به خاتم المرسلين ، وقد قص علينا القرآن الكريم دعواته المباركات بعد انتهائه من بناء البيت العتيق ، وكلها دعوات إلى الإيمان والتوحيد .

اللفظة : ﴿ويل﴾ هلاكٌ ودمارٌ ﴿يستحبون﴾ يختارون ويفضلون ﴿يسومونكم﴾ يذيقونكم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّكَتَبُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١﴾
 اللَّهُ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ
 الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ ﴿٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا
 مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلَّ اللَّهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤﴾

يقال : سامه الذلّ أي أذاقه الذلّ ﴿تأذّن﴾ أعلم إعلاماً لا شبهة فيه ﴿نبأ﴾ النبأ : الخبر وجمعه أنباء
 ﴿سلطان﴾ حجة وبرهان ﴿فاطر﴾ مبدع ومخترع ﴿استفتحوا﴾ استنصروا على أعدائهم ﴿جبار﴾ الجبار :
 المتكبر الذي لا يرى لأحدٍ عليه حقاً ﴿عنيد﴾ العنيد : المعاند للحق والمجانِب له الذي يذهب عن طريق
 الحق ، تقول العرب : شرُّ الإبل العنود ﴿صديد﴾ الصديد : القيح الذي يسيل من أجساد أهل النار
 ﴿يتجرعه﴾ أي يتحسّاه ويتكلف بلعه بمرارة ﴿يُسِغُهُ﴾ يتلعه .

النفسير : ﴿الر﴾ هذا الكتاب المعجز مؤلف من جنس هذه الحروف المقطعة فأتوا بمثله إن
 استطعتم ﴿كتاب أنزلناه إليك﴾ أي هذا القرآن كتاب أنزلناه عليك يا محمد ، لم تنشئه أنت وإنما
 أوحيناه نحن إليك ﴿لتُخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ أي لتخرج البشرية من ظلمات الجهل
 والضلّال إلى نور العلم والإيمان ﴿بإذن ربهم﴾ أي بأمره وتوفيقه ﴿إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي
 لتهدبهم إلى طريق الله العزيز الذي لا يُغالب ، المحمود بكل لسان ، الممجّد في كل مكان ﴿الله الذي له
 ما في السموات وما في الأرض﴾ أي المالك لما في السموات والأرض ، الغني عن الناس ، المسيطر على
 الكون وما فيه ﴿وويلٌ للكافرين من عذاب شديد﴾ قال الزجاج : ﴿ويلٌ﴾ كلمة تُقال للعذاب
 والهلكة ^(١) ، أي هلاك ودمارٌ للكافرين ويا ويلهم من عذاب الله الأليم ، ثم وضّح صفات أولئك الكفار
 بقوله ﴿الذين يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي يفضلون ويؤثرون الحياة الفانية على الحياة
 الآخرة الباقية ﴿ويصدّون عن سبيل الله﴾ أي يصرفون الناس ويمنعونهم عن دين الإسلام
 ﴿ويبغونها عوجاً﴾ أي يطلبون أن تكون دين الله معوجة لتوافق أهواءهم ﴿أولئك في ضلالٍ
 بعيد﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الذميمة في ضلالٍ عن الحق مبين ، لا يُرجى لهم صلاح ولا
 نجاح ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾ أي وما أرسلنا في الأمم الخالية رسولاً من الرسل إلا
 بلغة قومه ﴿ليبين لهم﴾ أي ليبين لهم شريعة الله ويفهمهم مراده ، لتتم الغاية من الرسالة ﴿فيضلّ
 الله من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي وليست وظيفة الرسل إلا التبليغ وأما أمر الهداية والإيمان فذلك بيد

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيْسَمِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٥٥﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ ﴿٥٦﴾ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٥٧﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٥٨﴾ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ

الله يضل من يشاء إضلاله ، ويهدي من يشاء هدايته على ما سبق به قضاؤه المحكم وهو العزيز الحكيم ﴿٥٥﴾ أي وهو العزيز في ملكه ، الحكيم في صنعه ﴿٥٦﴾ ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أي أرسلنا موسى بالمعجزات الباهرات الدالة على صدقه ﴿٥٧﴾ أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور أن تفسيرية بمعنى أي والمعنى أي أخرج بني إسرائيل من ظلمات الجهل والكفر إلى نور الإيمان والتوحيد قال أبو حيان : وفي قوله ﴿قومك﴾ خصوص لرسالة موسى إلى قومه بخلاف قوله لمحمد ﴿لتخرج الناس﴾ مما يدل على عموم الرسالة ﴿٥٨﴾ وذكّرهم بأيام الله أي ذكرهم بأيادي ونعمه عليهم ﴿٥٩﴾ إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور ﴿٦٠﴾ أي في التذكير بأيام الله لعبراً ودلالات لكل عبد منيب صابر على البلاء ، شاكراً للنعماء ﴿٦١﴾ قال موسى لقومه اذكروا نعمة الله عليكم ﴿٦٢﴾ أي اذكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿٦٣﴾ إذ أنجاكم من آل فرعون ﴿٦٤﴾ أي حين نجاكم من الذل والاستعباد من فرعون وزبانيته ﴿٦٥﴾ يسومونكم سوء العذاب أي يذيقونكم أسوأ أنواع العذاب ﴿٦٦﴾ ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم أي يذبحون الذكور ويستبقون الإناث على قيد الحياة مع الذل والصغار ﴿٦٧﴾ وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم ﴿٦٨﴾ أي وفي تلك المحنة ابتلاء واختبار لكم من ربكم عظيم قال المفسرون : وكان سبب قتل الذكور أن الكهنة قالوا لفرعون إن مولوداً يولد في بني إسرائيل يكون ذهاب ملكك على يديه ، فأمر بقتل كل مولود ﴿٦٩﴾ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ﴿٧٠﴾ هذا من تنمة كلام موسى أي واذكروا أيضاً حين أعلم ربكم إعلاماً لا شبهة فيه لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي ﴿٧١﴾ ولئن كفرتم إن عذابي لشديد ﴿٧٢﴾ أي ولئن جحدتم نعمتي بالكفر والعصيان فإن عذابي شديد ، وعدّ بالعذاب على الكفر ، كما وعدّ بالزيادة على الشكر ﴿٧٣﴾ وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعاً أي وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئاً ﴿٧٤﴾ فإن الله لغني حميد ﴿٧٥﴾ أي هو غني عن شكر عباده ، مستحق للحمد في ذاته وهو المحمود وإن كفره من كفره ﴿٧٦﴾ ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود ﴿٧٧﴾ أي ألم يأتكم أخبار من قبلكم من الأمم المكذبة كقوم نوح وعاد وثمود ماذا حل بهم لما كذبوا بآيات الله ؟ ﴿٧٨﴾ والذين من بعدهم ﴿٧٩﴾ أي والأمم الذين جاءوا بعدهم ﴿٨٠﴾ لا يعلمهم إلا

بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَقْوَاهِمَ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا
 أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴿١٠﴾ * قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِ اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ
 يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا
 عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَآتُونَا بُسُلَتِنِ مِثْلَ مِثْلِكُمْ ﴿١١﴾ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى
 مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِبُسُلَتِنِ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا

الله ﴿١﴾ أي لا يحصي عددهم إلا الله ﴿٢﴾ جاءتهم رسلهم بالبينات ﴿٣﴾ أي بالحجج الواضحات ، والدلائل
 الباهرات ﴿٤﴾ فردوا أيديهم في أفواههم ﴿٥﴾ أي وضعوا أيديهم على أفواههم تكذيباً لهم وقال ابن مسعود :
 عضوا أصابعهم غيظاً ﴿٦﴾ وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به ﴿٧﴾ أي كفرنا بما زعمتم أن الله أرسلكم به
 ﴿٨﴾ وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب ﴿٩﴾ أي في شك عظيم من دعوتكم ، وقلق واضطراب من
 دينكم ﴿١٠﴾ قالت رسلهم أفي الله شك ﴿١١﴾ أي أجابهم الرسل بقولهم : أفي وجود الله ووحدانيته شك ؟
 والاستفهام للإنكار والتوبيخ لأنه لا يحتمل الشك لظهور الأدلة ولهذا الفتوا الانتباه إلى براهين وجوده بقولهم
 ﴿١٢﴾ فاطر السموات والأرض ﴿١٣﴾ أي خالقهما ومبدعهما على غير مثال سابق ﴿١٤﴾ يدعوكم ليغفر لكم من
 ذنوبكم ﴿١٥﴾ أي يدعوكم إلى الإيمان ليغفر لكم ذنوبكم ﴿١٦﴾ ويؤخركم إلى أجل مسمى ﴿١٧﴾ أي إن آمنتُمْ أمدٌ
 في أعماركم إلى منتهى آجالكم ولم يعاقبكم في العاجل فيهلككم ﴿١٨﴾ قالوا إن أنتم إلا بشرٌ مثلنا ﴿١٩﴾ أي
 ما أنتم إلا بشرٌ مثلنا لا فضل لكم علينا ﴿٢٠﴾ تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ﴿٢١﴾ أي تريدون أن
 تصرفونا عن عبادة الأوثان التي كان عليها آباؤنا ﴿٢٢﴾ فاتونا بسُلطانٍ مِثْلِ مِثْلِكُمْ ﴿٢٣﴾ أي فاتونا بحجة ظاهرة على
 صدقكم ﴿٢٤﴾ قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشرٌ مثلكم ﴿٢٥﴾ أي قالت الرسل : نحن كما قلتم بشرٌ مثلكم
 ﴿٢٦﴾ ولكن الله يُمُنُّ على من يشاء من عباده ﴿٢٧﴾ أي يتفضل على من يشاء بالنبوة والرسالة قال الزمخشري :
 لم يذكروا فضلهم تواضعاً منهم وسلّموا لقولهم وأنهم بشرٌ مثلهم في البشرية وحدها ، فأما ما وراء ذلك
 فما كانوا مثلهم ﴿٢٨﴾ وما كان لنا أن نأتيتكم بسُلطانٍ إلا بإذن الله ﴿٢٩﴾ أي وما ينبغي لنا أن نأتيتكم بحجة
 وآية مما اقترحتموه علينا إلا بمشيئة الله وإذنه ﴿٣٠﴾ وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴿٣١﴾ أي على الله وحده فليعتمد
 المؤمنون في جميع أمورهم ﴿٣٢﴾ وما لنا ألا نتوكل على الله ﴿٣٣﴾ أي قالت الرسل : أي شيء يمنعنا من التوكل
 على الله ؟ ﴿٣٤﴾ وقد هدانا سُبُلنا ﴿٣٥﴾ أي والحال أنه قد بصرنا طريق النجاة من عذابه ﴿٣٦﴾ ولنصبرنَّ على
 ما أذيتُمونا ﴿٣٧﴾ أي ولنصبرنَّ على أذاكم قال ابن الجوزي : وإنما قُصَّ هذا وأمثاله على نبينا ﷺ ليقنتدي بمن

(١) مبنى القول الثاني على المجاز ومثله ﴿عضوا عليكم الأنامل من الغيظ﴾ والقول الأول محمول على الحقيقة وتوضيحه أنهم لما سمعوا كلام
 الأنبياء عجبوا منه وضحكوا على سبيل السخرية فعند ذلك ردوا أيديهم في أفواههم كما يفعل ذلك من غلبه الضحك فوضع يده على فيه .

لَنَّا لَا نَتَّوَكَّلُ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿١٧﴾
 وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ
 الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ وَلَنُسَكِّنَنَّكُمْ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٩﴾ وَأَسْتَفْتَحُوا وَخَابَ
 كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٠﴾ مَنْ وَرَاءَهُ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ ﴿٢١﴾ يَجْرَعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ
 كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَاءِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ ﴿٢٢﴾

قبله في الصبر وليعلم ما جرى لهم ^(١) ﴿وعلى الله فليتوكل المتوكلون﴾ ليس هذا تكراراً وإنما معناه الثبات على التوكل أي فليدوموا وليثبتوا على التوكل عليه وحده ، وهنا يسفر الطغيان عن وجهه متبجحاً بالقوة المادية التي يملكها المتجبرون ﴿وقال الذين كفروا لرسولهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا﴾ أي قال الكفار للرسول الأطهار والله لنطردنكم من ديارنا أو لترجعن إلى ديننا ﴿فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين﴾ أي أوحى الله إلى الرسول لأهلكن أعداءكم الكافرين المتجبرين ﴿ولنسكننكم الأرض من بعدهم﴾ أي ولأمنحنكم سكنى أرضهم بعد هلاكهم ﴿ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد﴾ أي ذلك النصر للرسول وإهلاك الظالمين لمن خاف مقامه بين يدي وخاف عذابي ووعيدي قال في البحر : ولما أقسموا على إخراج الرسول أو العودة في ملتهم أقسم تعالى على إهلاكهم ، وأي إخراج أعظم من الإهلاك بحيث لا يكون لهم عودة إليها أبداً ^(٢) ﴿واستفتحوا وخاب كل جبار عنيد﴾ أي واستنصر الرسول بالله على قومهم وخسر وهلك كل متجبر معاند للحق ﴿من ورائه جهنم ويسقى من ماء صديد﴾ أي من وراء ذلك الكافر جهنم ويسقى فيها من ماء صديد هو من قيح ودم ﴿يتجرعه ولا يكاد يسيغه﴾ أي يتلعه مرة بعد مرة لمرارته ، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته ﴿ويأتيه الموت من كل مكان وما هو بميت﴾ أي يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان ، ولكنه لا يموت ليستكمل عذابه ﴿ومن ورائه عذاب غليظ﴾ أي ومن بين يديه عذاب أشد مما قبله وأغلظ .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة أنواعاً من البلاغة والبيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة في ﴿لتخرج الناس من الظلمات إلى النور﴾ حيث استعار الظلمات للكفر والضلال ، والنور للهدى والإيمان ، وكذلك ﴿ويأتيه الموت﴾ استعارة عن غواشي الكروب وشدائد الأمور ، فقد يوصف المغموم بأنه في غمرات الموت مبالغة في عظيم ما يغشاه وأليم ما يلقاه .

٢ - الطباق بين ﴿يضل ويهدي﴾ وبين ﴿شكرتم وكفرتم﴾ وبين ﴿نخرجن وتعودن﴾ .

٣ - صيغة المبالغة في ﴿صَبَّارٌ شَكُورٌ﴾ وفي ﴿جَبَّارٌ عَنِيدٌ﴾ .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿أَرْسَلْنَا مِنْ رُسُولٍ﴾ وفي ﴿فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ .

٥ - السجع في ﴿شَدِيدٌ ، بَعِيدٌ ، عَنِيدٌ﴾ الخ .

فَكَايِدَةٌ : ذكر تعالى في البقرة ﴿يَذَّبَحُونَ﴾ بغير واو وهنا ﴿ويذبحون﴾ بالواو ، والسر في ذلك أنه في سورة البقرة جاء اللفظ تفسيراً لما سبق من قوله ﴿سوء العذاب﴾ فكأنه قال يسومونكم سوء العذاب ثم فسره بقوله ﴿يَذَّبَحُونَ أبناءكم﴾ أما في هذه السورة فهو غير تفسير لأن المعنى أنهم يعذبونهم بأنواع من العذاب وبالتذبيح أيضاً فهو نوع آخر من العذاب غير الأول والله أعلم .

قال الله تعالى : ﴿مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد .. إلى .. إن الإنسان لظلوم كفار﴾ من آية (١٨) إلى نهاية آية (٣٤) .

المناسبة : لما حكى تعالى استهزاء الكفار بالرسول ، وما أعد لهم من العذاب والنكال في الآخرة ، ضرب مثلاً لأعمالهم ، ثم ذكر المناظرة بين الرؤساء والأتباع ، وعقبتها بالتذكير بنعم الله على العباد ليعبدوه ويشكروه .

اللغة : ﴿عاصف﴾ شديد الريح ﴿برزوا﴾ البروز : الظهور بعد الخفاء ، والبراز المكان الواسع لظهوره ، وامرأة برزة أي تظهر للناس ﴿محيص﴾ منجى ومهرب يقال : حاص عن كذا أي فرّ وأراد الهرب منه ﴿جزعنا﴾ الجزع : عدم احتمال الشدة وهو نقيض الصبر ﴿مُصرخكم﴾ مُغيثكم الصارخ المستغيث ، والمُصرخ المغيث قال أمية :

فلا تجزعوا إني لكم غير مُصرخٍ وليس لكم عندي غناء ولا نصر^(١)

﴿اجتثت﴾ اقتلعت من أصلها ﴿البوار﴾ الهلاك ﴿خلال﴾ جمع خلة وهي الصحبة والصداقة قال امرؤ القيس :

صرفتُ الهوى عنهنَّ من خشية الردى فلستُ بمقليَّ الخلال ولا قالي^(٢)

﴿دائبن﴾ الدؤب في اللغة : مرور الشيء في العمل على عادة مطردة يقال دأب دؤباً .

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ

التفسير : ﴿مثل الذين كفروا بربههم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح﴾ أي مثل أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا يبتغون بها الأجر من صدقة وصلة رحم وغيرها مثل رمادٍ عاصفت به الريح فجعلته هباءً منثوراً ﴿في يوم عاصف﴾ أي في يوم شديد هبوب الريح قال القرطبي : ضرب الله هذه الآية

هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ يَئْسَ يَذْهَبُكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٩﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿٢٠﴾ وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَدَنَا اللَّهُ هَدَيْنَكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْجَبٍ ﴿٢١﴾ وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ

مثلاً لأعمال الكفار في أنه يحققها كما تحقق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى (١) لا يقدرون مما كسبوا على شيء (٢) أي لا يقدر الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البر في الدنيا لإحباطه بالكفر ، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيرته الريح (٣) ذلك هو الضلال البعيد (٤) أي الخسران الكبير (٥) ألم تر أن الله خلق السموات والأرض بالحق (٦) أي ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتأمل ببصيرتك أن الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد ، وأنه خلق السموات والأرض ليُستدلَّ بهما على قدرته ؟ قال المفسرون : أي لم يخلقهن عبثاً وإنما خلقهن لأمر عظيم (٧) إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد (٨) أي هو قادر على الإفناء كما قادر على الإيجاد والإحياء قال ابن عباس يريد : يمتكنكم يا معشر الكفار ويخلق قوماً غيركم خيراً منكم وأطوع (٩) وما ذلك على الله بعزيز (١٠) أي ليس ذلك بصعب أو متعذر على الله ، فإن القوي القادر لا يصعب عليه شيء (١١) وبرزوا لله جميعاً (١٢) أي خرجوا من قبورهم يوم البعث ، وظهروا للحساب لا يستريحون عن الله سائر قال الإمام الفخر : ورد بلفظ الماضي (١٣) وبرزوا (١٤) وإن كان معناه الاستقبال لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق ، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره (١٥) ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار (١٦) فقال الضعفاء للذين استكبروا (١٧) أي قال الأتباع والعوام للسادة الكبراء والقادة الذين أضلّوهم في الدنيا (١٨) إنا كنا لكم تبعاً (١٩) أي كنا أتباعاً لكم نأتمر بأمركم (٢٠) فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء (٢١) أي هل أنتم دافعون عنا شيئاً من عذاب الله ؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع (٢٢) قالوا لو هدانا الله لهديناكم (٢٣) أي قال القادة معتذرين : لو هدانا الله للإيمان لهديناكم إليه ، ولكن حصل لنا الضلال فأضلّلناكم فلا ينفعنا العتاب ولا الجزع (٢٤) سواء علينا أجزعنا أم صبرنا (٢٥) أي يستوي علينا الجزع والصبر قال الطبري : إن أهل النار يجتمعون فيقول بعضهم لبعض : إنما أدرك أهل الجنة بكنائهم وتضرعهم إلى الله فنعالوا نبكي وتضرع إلى الله ، فبكوا فلما رأوا أن ذلك لا ينفعهم قالوا : تعالوا نصبر فصبروا صبراً لم ير مثله ، فلما رأوا أنه لا ينفعهم قالوا (٢٦) سواء علينا أجزعنا أم صبرنا (٢٧) وقال مقاتل : جزعوا خمسمائة عام ، وصبروا خمسمائة عام (٢٨) ما لنا من محيص (٢٩) أي ليس لنا من مهرب أو ملجأ (٣٠) وقال الشيطان لما قُضي الأمر (٣١) هذه هي الخطبة البتراء التي يخطب بها إبليس في محفل

مَنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتَكُمْ فَأَسْتَجِبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ وَأَدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ ﴿٢٣﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ

الأشقياء في جهنم أي لما فرغ من الحساب ودخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار ﴿إِنَّ اللَّهَ وَعْدَكُمْ وَعْدًا حَقًّا بِإِثَابَةِ الْمَطِيعِ وَعِقَابِ الْعَاصِي فَوْقَى لَكُمْ وَعْدَهُ﴾ ووعدتكم فأخلفتكم ﴿أي وعدتكم ألا بعث ولا ثواب ولا عقاب فكذبتم وأخلفتكم الوعد﴾ وما كان لي عليكم من سلطان ﴿أي لم يكن لي قدرة وتسلب وقهر عليكم فأقهركم على الكفر والمعاصي﴾ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ﴿أي إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بالوسوسة والتزيين فاستجبتم لي باختياركم﴾ فلا تلوُموني ولوموا أنفسكم ﴿أي لا ترجعوا باللوم علي اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم﴾ ما أنا بمُصْرِخِكُمْ وما أنتم بمُصْرِخِيَّ ﴿أي ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثي من عذاب الله﴾ إني كُفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ ﴿أي كُفَرْتُ بِإِشْرَاكِكُمْ لِي مَعَ اللَّهِ فِي الطَّاعَةِ﴾ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿أي إن المشركين لهم عذاب مؤلم قال المفسرون : هذه الخطبة إنما تكون إذا استقر أهل الجنة في الجنة ، وأهل النار في النار ، فيأخذ أهل النار في لوم إبليس وتقريعه فيقوم فيما بينهم خطيباً بما أخبر عنه القرآن^(١) وقال الحسن : يقف إبليس يوم القيامة خطيباً في جهنم على منبر من نار يسمعه الخلائق جميعاً^(٢)﴾ وأدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها بإذن ربهم ﴿لما ذكر تعالى أحوال الأشقياء ، ذكر بعده أحوال السعداء ، ليقى العبد بين الرغبة والرغبة ، وبين الخوف والرجاء أي أدخلهم الله تعالى جنات تجري من تحت قصورها أنهار الجنة ماكثين فيها أبداً بأمره تعالى وتوفيقه وهدايته﴾ تحييتهم فيها سلام ﴿أي تحييتهم الملائكة بالسلام مع الإجلال والإكرام﴾ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ﴿هذا مثل ضرب به الله لكلمة الإيمان وكلمة الإشراف ، فمثل لكلمة الإيمان بالشجرة الطيبة ، ولكلمة الإشراف بالشجرة الخبيثة قال ابن عباس : الكلمة الطيبة « لا إله إلا الله » والشجرة الطيبة « المؤمن »^(٣)﴾ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿أي أصلها راسخ في الأرض وأغصانها ممتدة نحو السماء﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ﴿أي تعطي ثمرها كل وقت بتيسير الخالق وتكوينه ، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن ، وعمله يصعد إلى السماء ويناله بركته وثوابه في كل وقت﴾ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿أي يبين لهم الأمثال لعلهم يتعظون فيؤمنون﴾ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴿أي ومثل كلمة الكفر الخبيثة كشجرة الخنظل الخبيثة﴾ اجْتَنَبْتُ مِنْ فَوْقِ

لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلَ كَلِمَةِ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْنُتَتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ يَثْبُتُ
 اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴿٢٧﴾
 * أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴿٢٩﴾
 وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ۚ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴿٣٠﴾ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُقِيمُوا
 الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ ﴿٣١﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ

الأرض ﴿٣٢﴾ أي استؤصلت من جذورها واقتلعت من الأرض لعدم ثبات أصلها ﴿٣٣﴾ ما لها من قرار ﴿٣٤﴾ أي ليس لها استقرار وثبات ، كذلك كلمة الكفر لا ثبات لها ولا فرع ولا بركة قال ابن الجوزي : شبه ما يكسبه المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين ، فالؤمن كلما قال « لا إله إلا الله » صعدت إلى السماء ثم جاء خيرها ومنفعتيها ، والكافر لا يقبل عمله ولا يصعد إلى الله تعالى ، لأنه ليس له أصل في الأرض ثابت ، ولا فرع في السماء (١) ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ أي يثبتهم على كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » وعلى الإيمان في هذه الحياة فلا يزيغون ولا يُفْتَنُونَ ﴿ وفي الآخرة ﴾ أي عند سؤال الملكين في القبر كما في الحديث الشريف (المسلم إذا سئل في القبر شهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله فذلك قوله تعالى ﴿ يَثْبُتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾ . (٢))
 الآية ﴿ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يهديهم في الحياة ولا عند سؤال الملكين وقت الممات ﴿ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ﴾ أي من هداية المؤمن وإضلال الكافر لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا ﴾ استفهام للتعجب أي ألا تعجب أيها السامع من أولئك الذين غيروا نعمة الله بالكفر والتكذيب؟ قال المفسرون : هم كفار مكة فقد أسكنهم الله حرمة الأمن ، وجعل عيشهم في السعة ، وبعث فيهم محمداً ﷺ فلم يعرفوا قدر هذه النعمة ، وكفروا به وكذبوه ، فابتلاهم الله بالقحط والجذب ﴿ وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ أي أنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم ثم فسرها بقوله ﴿ جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ ﴾ أي أحلهم في جهنم يذوقون سعيها وبئس جهنم مستقراً ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ أُنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ أي جعلوا لله شركاء مماثلين عبدوهم كعبادته ليضلوا الناس عن دين الله ﴿ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِن مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ ﴾ أي استمتعوا بنعيم الدنيا فإن مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم ، وهو وعيد وتهديد ﴿ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾ أي قل يا محمد لعبادي الذين آمنوا فليقيموا الصلاة المفروضة عليهم ويؤدوها على الوجه الأكمل ﴿ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً ﴾ أي ولينفقوا مما أنعمنا عليهم به من الرزق خفية وجهرًا ﴿ مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ

وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۚ
 وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ ﴿٣٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ﴿٣٣﴾ وَءَاتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ
 وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۚ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾

ولا خلال ﴿٣٤﴾ أي من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا انتفاع فيه بمبايعة ولا صداقة ، ولا فداء ولا شفاعة . .
 ولما أطال الكلام في وصف أحوال السعداء والأشقياء ختم ذلك بذكر الدلائل الدالة على وجود الخالق الحكيم فقال ﴿٣٢﴾ الله الذي خلق السموات والأرض ﴿٣٣﴾ أي أبدعها واختراعها على غير مثال سبق ﴿٣٤﴾ وأنزل من السماء ماء ﴿٣٤﴾ أي أنزل من السحاب المطر ﴿٣٤﴾ فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ﴿٣٤﴾ أي أخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه ﴿٣٤﴾ وسخر لكم الفلك لتجري في البحر بأمره ﴿٣٤﴾ أي ذلل السفن الكبيرة لتسير بمشيئته ، تركبونها وتحملون فيها أمتعتكم من بلد إلى بلد ﴿٣٤﴾ وسخر لكم الأنهار ﴿٣٤﴾ أي الأنهار العذبة لتشربوا منها وتسقوا وتزرعوا ﴿٣٤﴾ وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ﴿٣٤﴾ أي وذلل لكم الشمس والقمر يجريان بانتظام لا يفتران ، لصالح أنفسكم ومعاشكم ﴿٣٤﴾ وسخر لكم الليل والنهار ﴿٣٤﴾ أي لتسكنوا في الليل ، ولتبتغوا من فضله بالنهار ، هذا لمنامكم وذاك لمعاشكم ﴿٣٤﴾ وآتاكم من كل ما سألتموه ﴿٣٤﴾ أي أعطاكم كل ما تحتاجون إليه ، وما يصلح أحوالكم ومعاشكم ، مما سألتموه بلسان الحال أو المقال ﴿٣٤﴾ وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ﴿٣٤﴾ أي وإن تعدوا نعم الله عليكم لا تطيقوا حصرها وعدّها ، فهي أكبر وأكثر من أن يحصوها عدد ﴿٣٤﴾ إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴿٣٤﴾ الإنسان اسم جنس أي إن الإنسان لمبالغ في الظلم والجحود ، ظالمٌ لنفسه بتعديه حدود الله ، جحودٌ لنعم الله ، وقيل : ظلوم في الشدة يشكو ويمجزع ، كفّار في النعمة يجمع ويمنع .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - التشبيه التمثيلي ﴿٣٤﴾ أعماهم كرماء اشتدت به الريح ﴿٣٤﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿٣٤﴾ ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة ﴿٣٤﴾ ومثلها ﴿٣٤﴾ ومثل كلمة طيبة ﴿٣٤﴾ .

(١) يقول سيد قطب رحمه الله : « وهنا يُفتح كتاب الكون على مصراعيه ، فتنتطق سطوره الهائلة بنعم الله التي لا تُحصى : السموات والأرض ، الشمس والقمر ، الليل والنهار ، البحار والأنهار ، الأمطار والثلوج ، هذه الصفحات الكونية المعروضة على الأنظار ، ولكن البشر لا ينظرون ولا يقرءون ، ولا يتدبرون ولا يشكرون ، إن الإنسان لظَلُومٌ كَفَّارٌ ، يجعل لله أنداداً وهو الخالق الرازق مسخر للكون لهذا الإنسان ، والمشهد الهائل المعروض هنا لأيدي الله وآلائه ، تسير فيه خطوط الريشة المبدعة : أفكل هذا الكون الهائل مسخر لذلك المخلوق الصغير ؟ السموات ينزل منها الماء ، والأرض تتلقاه ثم تخرج به الثمار ، والبحر تجري فيه الفلك بأمر الله مسخرة ، والأنهار تجري بالحياة والأرزاق في مصلحة الإنسان ، والشمس والقمر دائبان لا يفتران ، والليل والنهار يتعاقبان ، أفكل ذلك للإنسان ثم لا يشكر ولا يذكر ! ؟ »
 الظلال ١٦٦/١٣ .

- ٣ - الطباقي في ﴿أصلها .. وفرعها﴾ وفي ﴿طيبة .. وخبيثة﴾ وفي ﴿يذهب .. ويأتي﴾ وفي ﴿سراً .. وعلانية﴾ وفي ﴿جزعنا .. وصبرنا﴾ .
- ٤ - طباقي السلب في ﴿فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾ .
- ٥ - التعجيب ﴿ألم تركب ضرب الله مثلاً﴾ .
- ٦ - التهديد والوعيد ﴿قل تمتعوا﴾ .
- ٧ - صيغة المبالغة ﴿ظلم كفار﴾ لأن فعول وفعال من صيغ المبالغة .
- ٨ - السجع المرصع دون تكلف مثل ﴿البوار .. القرار .. النار﴾ الخ .

قال الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ .. إِلَى .. وَلِيَذْكُرَ أُولَئِكَ الْأَلْبَابُ﴾

من آية (٣٥) إلى آية (٥٢) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى بالدلائل الحسية والسمعية انفراده بالألوهية وأن لا معبود إلا الله ، ذكر هنا أبا الأنبياء « إبراهيم » عليه السلام حصن التوحيد ، ومبالغته في هدم الشرك والأوثان ، ثم ذكر موقف الظالمين يوم الدين ، وما يعتر بهم من الذل والهوان في يوم الحشر الأكبر .

اللفظ : ﴿اجنبي﴾ أبعدني ونحني يقال : جنّب وجنّب وأصله جعل الشيء في جانب آخر ﴿تشخص﴾ شخّص البصر : إذا بقيت العين مفتوحة لا تغمض من هول ما ترى ﴿مهطعين﴾ مسرعين يقال أھطع إھطاعاً إذا أسرع قال الشاعر :

بدجلة دارهم ولقد أراهم بدجلة مهطعين إلى السّماع^(١)

﴿مقنعي﴾ المقنع : الرافع رأسه المقبل ببصره على ما بين يديه ﴿هواء﴾ خالية ﴿مقرنين﴾ مشدودين ﴿الأصفاد﴾ الأغلال والقيود واحداً صنف ﴿سرايلهم﴾ جمع سربال وهو القميص والثوب ﴿تغشى﴾ تجلّ وتغطي .

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ رَبَّنَا إِنِّي أَصْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي

النفسير : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ أي اجعل مكة بلد آمن يأمن أهله وساكنوه ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ أي احمني يا رب وجنبي وأولادي عبادة الأصنام ، والغرض تثبيتاً على ملة التوحيد والإسلام ﴿رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾ أي يا رب إن هذه الأصنام أضلت كثيراً من الخلق عن الهداية والإيمان ﴿فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي﴾ أي فمن أطاعني وتبعني على التوحيد فإنه

زَرَعَ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمَ رَبَّنَا لِتُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْعَدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴿٣٧﴾ رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ ﴿٣٩﴾ رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ ﴿٤٠﴾ رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ

من أهل ديني ﴿ومن عصاني فإنك غفور رحيم﴾ أي ومن خالف أمري فإنك يا رب غفار الذنوب رحيم بالعباد ﴿ربنا إنني أسكنت من ذريتي﴾ كرر النداء رغبة في الإجابة وإظهاراً للتذلل والالتجاء إلى الله تعالى أي يا ربنا إنني أسكنت من أهلي - ولدي إسماعيل وزوجي هاجر- ﴿بوادٍ غير ذي زرع عند بيتك المحرم﴾ أي بوادٍ ليس فيه زرع في جوار بيتك المحرم ، وهو وادي مكة شرفها الله تعالى ﴿ربنا ليقموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ أي يا ربنا لكي يعبدوك ويقموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي فاجعل قلوب الناس تحن وتسرع إليهم شوقاً قال ابن عباس : لو قال (أفئدة الناس) لازدحمت عليه فارس والروم والناس كلهم ، ولكن قال ﴿من الناس﴾ فهم المسلمون (١) ﴿وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون﴾ أي وارزقهم في ذلك الوادي القفر من أنواع الثمار ليشكروك على جزيل نعمك، وقد استجاب الله دعاءه فجعل مكة حراماً آمناً يجي إليها ثمرات كل شيء رزقاً من عند الله ﴿ربنا إنك تعلم ما نخفي وما نعلن﴾ أي يا ربنا إنك العالم لما في القلوب تعلم ما نسر وما نظهر ﴿وما يخفي على الله من شيء في الأرض ولا في السماء﴾ أي لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات ، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء ، فكيف تخفي عليه وهو خالقها وموجدوها ؟ ﴿الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق﴾ أي الحمد لله الذي رزقني على كبر سني وشيخوختي إسماعيل وإسحاق قال ابن عباس : ولد له إسماعيل وهو ابن تسع وتسعين ، وولد له إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة (٢) ﴿إن ربي لسميع الدعاء﴾ أي مجيب لدعاء من دعاه ﴿رب اجعلني مقيم الصلاة ومن ذريتي﴾ هذه هي الدعوة السادسة من دعوات الخليل عليه السلام أي يا رب اجعلني ممن حافظ على الصلاة واجعل من ذريتي من يقيمها أيضاً ، وهذه خير دعوة يدعوها المؤمن لأولاده فلا أحبّ له من أن يكون مقبلاً للصلاة هو وذريته لأنها عماد الدين ﴿ربنا وتقبل دعاء﴾ أي تقبل واستجب دعائي فيما دعوتك به ﴿ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب﴾ هذه هي الدعوة السابعة وبها ختم إبراهيم دعاءه الضارع الخاشع بالاستغفار له ولوالديه ولجميع المؤمنين ، يوم يقوم الناس لرب العالمين قال المفسرون : استغفر لوالديه قبل أن يتبين له أن أباه عدو لله قال القرطبي : ولا يبعد أن تكون أمه

(١) روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها «سارة» زوجة إبراهيم فأمره الله تعالى أن يحمل ولده إسماعيل مع أمه من الشام إلى مكة فوضعها عند دوحه مكان زمزم كما في الحديث . (٢) القرطبي ٣٧٣/٩ . (٣) زاد المسير ٣٦٨/٤ .

الْحِسَابُ ﴿٤٣﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَفْلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٤﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْغَدَتْهُمْ أَسْوَاءُ ﴿٤٥﴾ وَأَنْذَرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَتَتَّبِعِ الرَّسُلَ ۖ أُولَئِكَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٦﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكَانٍ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴿٤٧﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٨﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ

مسلمة لأن الله ذكر عذره في استغفاره لأبيه دون أمه . . .^(١) وينتقل السياق إلى مشاهد القيامة وما فيها من الأهوال حين تنزل القلوب والأقدام ﴿ولا تحسبن الله غافلاً عما يعمل الظالمون﴾ أي لا تظن يا محمد أن الله ساه عن أفعال الظلمة ، فإن سنة الله إمهال العصاة ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر ، قال ميمون بن مهران : هذا وعيد للظالم ، وتعزية للمظلوم^(٢) ﴿إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار﴾ أي إنما يؤخرهم ليوم رهيب عصيب ، تشخص فيه الأبصار من الفزع والهلع ، فتظل مفتوحة مبهوتة لا تطرف ولا تتحرك قال أبو السعود : تبقى أبصارهم مفتوحة لا تتحرك أجفانهم من هول ما يرونه^(٣) ﴿مهطعين مقنعي رؤوسهم﴾ أي مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رؤوسهم مع إدامة النظر قال الحسن : وجوه الناس يومئذ إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد^(٤) ﴿لا يرتد إليهم طرفهم﴾ أي لا يطفون بعيونهم من الخوف والجزع ﴿وأفغدتهم أسواء﴾ أي قلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع ﴿وأنذر الناس يوم يأتيهم العذاب﴾ أي خوف يا محمد الكفار من هول يوم القيامة حين يأتيهم العذاب الشديد ﴿فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب﴾ أي فيتوجه الظالمون يومئذ إلى الله بالرجاء يقولون يا ربنا أمهلنا إلى زمن قريب لنستدرك ما فات ﴿نحب دعوتك وتتبع الرسل﴾ أي نحب دعوتك لنا إلى الإيمان وتتبع رسلك فيما جاءونا به ﴿أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال﴾ أي يقال لهم توبيخاً وتبكيتاً : ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى ؟ والمراد إنكارهم للبعث والنشور ﴿وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم﴾ أي سكنتم في ديار الظالمين بعد أن أهلكناهم ، فهلاً اعتبرتم بمساكنهم ؟ ﴿وتبين لكم كيف فعلنا بهم﴾ أي تبين لكم بالإخبار والملاحظة كيف أهلكناهم وانتقمنا منهم ﴿وضربنا لكم الأمثال﴾ أي بينا لكم الأمثال في الدنيا فلم تعتبروا ﴿وقد مكروا مكْرَهُمْ﴾ أي مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله ﴿وعند الله مكْرَهُمْ﴾ أي وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم ﴿وإن كان مكْرَهُمْ ليرزق من الجبال﴾ أي وإن كان مكْرَهُمْ من القوة والتأثير حتى يؤدي إلى زوال الجبال ولكن الله عصم ووقى منه ﴿فلا تحسبن

مُخْلَفَ وَعْدِهِ ۚ رُسُلَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴿٤٧﴾ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ۖ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ﴿٤٨﴾ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ﴿٤٩﴾ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ﴿٥٠﴾ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٥١﴾ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۚ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٥٢﴾

الله مُخْلَفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ ۚ أي لا تظننَّ أيها المخاطب أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وأخذ الظالمين المكذبين ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۚ أي إنه تعالى غالبٌ لا يعجزه شيء منتقم ممن عصاه ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾ أي يتقم من أعدائه يوم الجزاء ، يوم تبدل هذه الأرض أرضاً أخرى ، وتبدل السماوات سموات أخرى قال ابن مسعود : تُبَدَّلُ الْأَرْضُ بِأَرْضٍ كَالْفَضَةِ نَقِيَّةٍ ، لم يسفك فيها دم ، ولم يعمل عليها خطيئة^(١) ۚ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ۚ أي خرجت الخلائق جميعها من قبورهم ، ومثلوا أمام أحكم الحاكمين ، لا يسترهم ساتر ، ولا يقيهم واقٍ ، ليسوا في دورهم ولا في قبورهم ، وإنما هم في أرض المحشر أمام الواحد القهار ۚ وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقْرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ ۚ أي وفي ذلك اليوم الرهيب تبصر المجرمين مشدودين مع شياطينهم بالقيود والأغلال قال الطبري : أي مقرَّنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد وهي الأغلال والسلاسل ۚ سَرَابِيلُهُمْ مِّنْ قَطِرَانٍ ۚ أي ثيابهم التي يلبسونها من قطران وهي مادة يسرع فيها اشتعال النار ، تُطْلَىٰ بِهَا الْإِيلُ الْجَرَبِيُّ فيحرق الجربَ بحرَ وحدته ، وهو أسود اللون متننُّ الريح ۚ وَتَغْشَىٰ وُجُوهُهُمُ النَّارُ ۚ أي تلعوها وتحيط بها النار ، جزاء المكر والاستكبار ۚ لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ ۚ أي برزوا يوم القيامة لأحكم الحاكمين ليجازيهم الله على أعمالهم ، المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ۚ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۚ أي لا يشغله شأن عن شأن ، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان ، في مقدار نصف نهار من أيام الدنيا كما ورد به الأثر ۚ هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ ۚ أي هذا القرآن بلاغٌ لجميع الخلق من إنس وجان ، أنزل لتبليغهم بما فيه من فنون العبر والعظات ۚ وَلِيُنذِرُوا بِهِ ۚ أي لكي يُنصَحُوا بِهِ وَيَخَوْفُوا مِنْ عِقَابِ اللَّهِ ۚ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ ۚ أي ولكي يتحققوا بما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة ، على أنه تعالى واحد أحد ، فردٌ صمد ۚ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ ۚ أي وليتعض بهذا القرآن أصحاب العقول السليمة ، وهم السعداء أهل النهي والصلاح .

(١) الطبري ١٣/ ٢٥٠ وعن ابن عباس هي تلك الأرض وإنما تغير صفاتها فتسوى الجبال وتقلع الأشجار وتنشق الأنهار ، وتتناثر الكواكب وأنشد :

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعلم

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - التشبيه البليغ ﴿وأفندتهم هواء﴾ حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه أي قلوبهم كالهواء لفراغها من جميع الأشياء فأصبح التشبيه بليغاً .
 - ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات﴾ حذف منه والسموات تبدل غير السموات لدلالة ما سبق .
 - ٣ - الطباق في ﴿تبعني . . وعصاني﴾ وفي ﴿نخفي . . ونعلن﴾ وفي ﴿الأرض . . والسماء﴾ .
 - ٤ - جناس الاشتقاق في ﴿مكروا مكرمهم﴾ .
 - ٥ - العدول عن المضارع إلى الماضي ﴿وبرزوا﴾ بدل ﴿ويبرزون﴾ للدلالة على تحقق الوقوع مثل ﴿أتى أمر الله﴾ فكأنه حدث ووقع فأخبر عنه بصيغة الماضي .
 - ٦ - الاستعارة في ﴿فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم﴾ قال الشريف الرضي : وهذه من محاسن الاستعارة وحقيقة الهوي النزول من علو إلى انخفاض كالهبوط والمراد تسرع إليهم شوقاً وتطير إليهم حباً ، ولو قال «تحن إليهم» لم يكن فيه من الفائدة ما في التعبير بـ ﴿تهوي إليهم﴾ لأن الحنين قد يكون من المقيم بالمكان^(١) .
- لطيفة :** حكمة تعريف البلد هنا ﴿اجعل هذا البلد آمناً﴾ وتنكيره في البقرة ﴿اجعل هذا بلداً آمناً﴾ أنه تكرار الدعاء من الخليل ، ففي البقرة كان قبل بنائها فطلب من الله ان تجعل بلداً ، وأن تكون آمناً ، وهنا كان بعد بنائها فطلب من الله أن تكون آمناً أي بلد آمن واستقرار^(٢)، وهذا هو السر في التفريق بين الآيتين ، اللهم ارزقنا فهم أسرار كتابك العظيم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة إبراهيم »

(١) تلخيص البيان ١٨٤ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٢٨٦ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الحجر من السور المكية ، التي تستهدف المقاصد الأساسية للعقيدة الإسلامية «الوحدانية ، النبوة ، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول مصارع الطغاة والمكذبين لرسول الله في شتّى الأزمان والعصور ، ولهذا ابتدأت السورة بالإنذار والتهديد ، ملفعاً بظلٍ من التهويل والوعيد ﴿ربما يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين﴾ * ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون﴾ .

* عرضت السورة لدعوة الأنبياء ، وبينت موقف أهل الشقاوة والضلالة من الرسل الكرام ، فما من نبيٍّ إلا سخر منه قومه الضالون ، من لدن بعثة شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام ، إلى بعثة خاتم المرسلين ، وقد بينت السورة أن هذه سنة المكذبين ، في كل زمان وحين ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شيعٍ الأولين﴾ وما يأتيهم من رسولٍ إلا كانوا به يستهزئون . . . ﴿الآيات .

* وعرضت السورة إلى الآيات الباهرات ، المنبثة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينطق بأثار اليد المبدعة ، ويشهد بجلال عظمة الخالق الكبير ، بدءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض ، فمشهد الرياح اللواقح ، فمشهد الحياة والموت ، فمشهد الحشر والنشر ، وكلّها ناطقة بعظمة الله وجلاله ، وشاهدة بوحدانيته وقدرته ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين﴾ وحفظناها من كل شيطان رجيم . . . ﴿الآيات .

* وعرضت السورة إلى قصة «البشرية الكبرى» قصة الهدى والضلال ممثلة في خلق آدم عليه السلام ، وعدوه اللدود إبليس اللعين ، وما جرى من سجود الملائكة لآدم ، واستكبار إبليس عن السجود ، واعتراضه على أمر الله وتوعده لذرية آدم ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصالٍ من حمأ مسنون . . . ﴿الآيات .

* ومن قصة آدم تنتقل السورة إلى قصص بعض الأنبياء ، تسليّة لرسول الله عليه السلام ، وتثبيتاً لقلبه الشريف لئلا يتسرب إليه اليأس والقنوط ، فتذكر قصة لوط ، وشعيب ، وصالح عليهم السلام ، وما حل بأقوامهم المكذبين .

✽ وتختتم السورة الكريمة بتذكير الرسول ﷺ بالنعمة العظمى عليه ، بإنزال هذا الكتاب المجيد المعجز ، وتأمره بالصبر والسلوان على ما يلقيه من أذى المشركين ، وتبشره بقرب النصر له وللمؤمنين ﴿ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم . . ﴾ إلى آخر السورة الكريمة .

التسمية : سميت السورة الكريمة « سورة الحجر » لأن الله تعالى ذكر ما حدث لقوم صالح ، وهم قبيلة ثمود - وديارهم في الحجر بين المدينة والشام - فقد كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها ، وكأنهم مخلدون في هذه الحياة ، لا يعترهم موت ولا فناء ، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح ﴿فأخذتهم الصيحة مصبحين ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون﴾ .

اللفظ : ﴿رُبَّمَا﴾ رب للتقليل و ﴿مَا﴾ نكره موصوفة أي رب شيء ﴿لوما﴾ للتخفيض كلولا وهلا ﴿شَيْع﴾ جمع شيعه وهي الفرقة والطائفة من الناس ﴿نسلكه﴾ ندخله ، والسلك : إدخال الشيء في الشيء ﴿يعرجون﴾ عرج : صعد ، والمعارج المصاعد ﴿سُكِّرَتْ﴾ سُدَّتْ ومنعت ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة وأصله الظهور ومنه تبرز المرأة وهو إظهار زينتها ﴿لواقح﴾ جمع لاقح وهي الريح التي تحمل المطر ، والتي لا تأتي بخير تسمى الريح العقيم ، أو ملقحة للشجر أي تحمل اللقاح له ﴿صلصال﴾ طين يابس يسمع له صلصلة إذا ييس ﴿حمأ﴾ الحمأ : الطين الأسود ﴿مسنون﴾ متن متغير قال الفراء : هو المتغير وأصله من سننت الحجر إذا حككته به ﴿السموم﴾ الريح الحارة القاتلة .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : كانت امرأة تصلي خلف رسول الله ﷺ حسناء من أحسن الناس ، فكان بعض القوم يتقدم حتى يكون في الصف الأول لثلا يراها ، ويتأخر بعضهم حتى يكون في الصف المؤخر فإذا ركع نظر من تحت إبطه فأنزل الله ﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾^(١) .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ رَبَّمَا يُودُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ﴿٢﴾ ذَرَهُمْ يَأْكُلُوا

التفسير : ﴿الر﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن أي هذا الكتاب العجيب المعجز كلام الله تعالى وهو منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية الألف واللام والراء ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب ، الكامل في الفصاحة والبيان ، المتعالي عن الطاقة البشرية ، ﴿وقرآن مبين﴾ أي قرآن عظيم الشأن ، واضح بين ، لا خلل فيه ولا اضطراب ﴿ربما يود الذين كفروا﴾ أي ربما تمنى الكفار ﴿لو كانوا مسلمين﴾ أي لو كانوا في الدنيا مسلمين ، وذلك عند معاينة أهوال الآخرة ﴿ذرهم يأكلوا ويتمتعوا﴾

وَيَمْتَعُوا وَيُلْهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٤٥﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ ﴿٤٦﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَعْجِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَقَالُوا يَأْتِيهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٤٨﴾ لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٤٩﴾ مَا نُنْزِلُ الْمَلَكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذَا مُنْظَرِينَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٥١﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِعَابِ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥٣﴾ كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٥٤﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ ﴿٥٥﴾ وَلَوْ فَتَحْنَا

أي دَعَّاهُمْ يا محمد يأكلوا كما تأكل البهائم ، ويستمتعوا بديناهم الفانية ﴿ويلهمهم الأمل﴾ أي يشغلهم الأمل بطول الأجل ، عن التفكير فيما ينجيهم من عذاب الله ﴿فسوف يعلمون﴾ أي عاقبة أمرهم إذا رأوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا ، وهو وعيد وتهديد ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى الظالمة التي كذبت رسل الله ﴿إلا ولها كتاب معلوم﴾ أي إلا لها أجل محدود لإهلاكها ﴿ما تسبق من أمةٍ أجَلُها﴾ أي لا يتقدم هلاك أمةٍ قبل مجيء أوانه ﴿وما يستأخرون﴾ أي ولا يتأخر عنهم قال ابن كثير : وهذا تنبيه لأهل مكة وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم عليه من العناد والإلحاد الذي يستحقون به الهلاك ^(١) ﴿وقالوا يا أيها الذي نُزِّلَ عليه الذكر﴾ قال كفار قريش لمحمد ﷺ على جهة الاستهزاء والتهكم : يا من تزعم وتدعي أن القرآن نزل عليك ﴿إنك لمجنون﴾ أي إنك حقاً لمجنون ، أكدوا الخبر بأن واللام مبالغة في الاستخفاف والاستهزاء بمقامه الشريف عليه السلام ﴿لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين﴾ أي هلاً جئتنا بالملائكة لتشهد لك بالرسالة إن كنت صادقاً في دعواك أنك رسول الله !! قال تعالى رداً عليهم ﴿ما ننزل الملائكة إلا بالحق﴾ أي ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه ﴿وما كانوا إذاً منظرين﴾ أي وفي هذه الحالة وعندئذٍ لا إمهال ولا تأجيل ، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال ، وهو لا يريد ذلك مع أمته ﷺ لعلمه تعالى أنه يخرج من أصلاهم من يعبد الله ، ففيه ردٌ عليهم فيما اقترحوا ﴿إنا نحن نزلنا الذكر﴾ أي نحن بعظمة شأننا نزلنا عليك القرآن يا محمد ﴿وإننا له لحافظون﴾ أي ونحن الحافظون لهذا القرآن ، نصونه عن الزيادة والنقصان ، والتبديل والتغيير ، قال المفسرون : تكفل الله بحفظ هذا القرآن ، فلم يقدر أحد على الزيادة فيه ولا النقصان ، ولا على التبديل والتغيير كما جرى في غيره من الكتب فإن حفظها موكولٌ إلى أهلها لقوله تعالى ﴿بما استحفظوا من كتاب الله﴾ وانظر الفرق بين هذه الآية ﴿وإننا له لحافظون﴾ حيث ضمن حفظه وبين الآية السابقة حيث وكل حفظه إليهم فبدلوا وغيروا ﴿ولقد أرسلنا من قبلك في شِعَابِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً في طوائف وفرق الأمم الأولين ﴿وما يأتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ أي وما جاءهم رسولٌ إلاَّ سخروا منه واستهزءوا به ، وهذا تسلية للنبي ﷺ والمعنى كما فعل

عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴿١٥﴾
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ
السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ وَشِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعِيشٌ وَمَنْ لَّسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ

بك هؤلاء المشركون فكذلك فعل بمن قبلك من الرسل فلا تحزن ﴿كذلك نسلكه في قلوب المجرمين﴾ أي
كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين ، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب
أولئك المستهزئين ﴿لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين﴾ أي لا يؤمنون بهذا القرآن وقد مضت سنة الله
بإهلاك الكفار ، فما أقرب هؤلاء من الهلاك والدمار ؟ ثم بين تعالى أن كفار مكة لا ينقصهم توافر براهين
الإيمان فهم معاندون مكابرون ، وفي ضلالهم وعنادهم سائررون فقال ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء
فظلوا فيه يعرجون﴾ أي لو فرض أننا أضعدهم إلى السماء ، وفتحنا لهم باباً من أبوابها ، فظلوا
يصعدون فيه حتى شاهدوا الملائكة والملوك ﴿لقالوا إنما سكرت أبصارنا﴾ أي لقالوا - لفرط مكابرتهم
وعنادهم - إنما سدت أبصارنا وخدعت بهذا الارتقاء والصعود ﴿بل نحن قوم مسحورون﴾ أي سحرنا محمد
وخيل إلينا ذلك وما هو إلا سحر مبین قال الرازي : لو ظل المشركون يصعدون في تلك المعارج ،
وينظرون إلى ملكوت الله تعالى وقدرته وسلطانه ، وإلى عبادة الملائكة الذين هم من خشيته مشفقون لشكوا في
تلك الرؤية ، وبقوا مصرين على الكفر والعناد كما جحدوا سائر المعجزات من انشقاق القمر ، والقرآن
المعجز الذي لا يستطيع الجن والإنس أن يأتوا بمثله ^(١) ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته
فقال ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً﴾ أي جعلنا في السماء منازل تسير فيها الأفلاك والكواكب ﴿وزيناها
لِلنَّاظِرِينَ﴾ أي زيناها بالنجوم ليسر الناظر إليها ﴿وحفظناها من كل شيطان رجيم﴾ أي حفظنا السماء
الدنيا من كل شيطان لعين مطرود من رحمة الله ﴿إلا من استرق السمع فأتبعه شهاب مبين﴾ أي إلا من
اختلس شيئاً من أخبار السماء فأدرکه ولحقه شهاب ثاقب فأحرقه ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها
رواسي﴾ أي بسطناها ووسعناها وجعلنا فيها جبلاً ثوابت ^(٢) ﴿وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾ أي
أنبتنا في الأرض من الزروع والثمار من كل شيء موزون بميزان الحكمة ، بدقة وإحكام وتقدير ﴿وجعلنا
لكم فيها معاش﴾ أي ما تعيشون به من المطاعم والمشارب ﴿ومن لستم له برازقين﴾ أي وجعلنا لكم
من العيال والماليك والأنعام من لستم له برازقين ، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم ﴿وإن من

(١) الفخر الرازي ١٦٧/١٩ (٢) قال الفخر الرازي : إن الأرض كرة في غاية العظمة ، والكرة العظيمة تكون كل قطعة صغيرة منها إذا
نظر إليها كالسطح المستوي فلا إشكال في بسطها مع أنها كرة والدليل قوله تعالى ﴿والجبال أوتاداً﴾ سهاها أوتاداً مع أنه قد يحصل عليها
سطوح عظيمة مستوية فكذا هنا . الرازي ١٧٠/١٩ .

مَعْلُومٌ ﴿٢١﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ ﴿٢٢﴾ وَإِنَّا لَنَحْنُ
نَحْيِي ۖ وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ ﴿٢٣﴾ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَعْخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ
يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَنَّ خَلَقْنَاهُ
مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السُّمُومِ ﴿٢٧﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٨﴾ فَإِذَا

شيء إلا عندنا خزائنه ﴿٢١﴾ أي ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته
﴿وما ننزله إلا بقدر معلوم﴾ أي ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه ، وعلى حسب المصالح ،
كما نشاء ونريد ﴿وأرسلنا الرياح لواحٍ﴾ أي تلقح السحاب فيدر ماءً ، وتلقح الشجر فيفتتح عن أوراقه
وأكمامه ، فالرياح كالफल للسحاب والشجر ﴿فأنزلنا من السماء ماءً فأسقيناكموه﴾ أي فأنزلنا من السحاب
ماءً عذباً ، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم ﴿وما أنتم له بخازنين﴾ أي لستم بقادرين على
خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار ، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكنكم
عطشاً كقوله ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً فمن يأتيكم بماء معين﴾ ؟ ﴿وإننا لنحن نحيي ونميت ونحن
الوارثون﴾ أي الحياة والموت بيدنا ونحن الباقيون بعد فناء الخلق ، نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون
﴿ولقد علمنا المستقدمين منكم ولقد علمنا المستأخرين﴾ أي أحطنا علماً بالخلق أجمعين ، الأموات منهم
والأحياء قال ابن عباس : المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام والمستأخرون من هوجي ومن
سيأتي إلى يوم القيامة ^(١) وقال مجاهد : المستقدمون : الأمم السابقة ، والمستأخرون أمة محمد ﷺ ، والغرض
أنه تعالى محيطٌ بعلمه بمن تقدم وبمن تأخر ، لا يخفى عليه شيء من أحوال العباد ، وهو بيان لكمال علمه بعد
الاحتجاج على كمال قدرته ﴿وإن ربك هو يحشرهم﴾ أي وإن ربك يا محمد هو يجمعهم للحساب والجزاء
﴿إنه حكيمٌ عليمٌ﴾ أي حكيمٌ في صنعه عليمٌ بخلقه ، ولما ذكر تعالى الموت والفناء ، والبعث والجزاء ،
نبههم إلى مبدأ أصلهم وتكوينهم من نفس واحدة ، ليشير إلى أن القادر على الإحياء قادر على الإفناء
والإعادة ، وذكرهم بعداوة إبليس لأبيهم آدم ليحذروه فقال : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من صلصال﴾ أي
خلقنا آدم من طين يابس يسمع له صلصلة أي صوت إذا نُقِرَ ﴿من حمأ مسنون﴾ أي من طين أسود متغير
﴿والجان خلقناه من قبل من نار السموم﴾ أي ومن قبل آدم خلقنا الجان - أي الشياطين ورئيسهم إبليس -
من نار السموم وهي النار الحارة الشديدة التي تنفذ في المسام فتقتل بحرهما قال المفسرون : عني بالجان هنا
«إبليس» أبا الجن لأن منه تناسلت الجن فهو أصل لها كما أن آدم أصل للإنس ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني
خالق بشرًا من صلصال من حمأ مسنون﴾ أي اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة إني خالق بشرًا من

(١) هذا اختيار الطبري ، وقد فسرت الآية بثمان تأويلات ذكرها في البحر ثم قال : الأولى حمل هذه الأقوال على التمثيل لا على الحصر
البحر ٤٥١/٥ .

سَوِيَّتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ ﴿٢٩﴾ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٣٠﴾ إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَلٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ ﴿٣٣﴾ قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ ﴿٣٥﴾ قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿٣٦﴾ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ

طين يابس ، أسود متغير قال ابن كثير : فيه تنويه بذكر آدم في الملائكة قبل خلقه له ، وتشريفه إيَّاه بأمر الملائكة بالسجود له ، وامتناع إبليس عدوه عن السجود له حسداً وكفراً^(١) ﴿فإذا سويته﴾ أي سويت خلقه وصورته ، وجعلته إنساناً كاملاً معتدلاً الأعضاء ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ أي أفضت عليه من الروح التي هي خلق من خلقي فصار بشراً حياً ﴿فقعوا له ساجدين﴾ أي خروا له ساجدين ، سجد تحية وتكريم لا سجد عبادة ، قال المفسرون : وإنما أضاف الروح إليه تعالى على سبيل التشريف والتكريم كقوله « بيت الله ، ناقة الله ! شهر الله » وهي من إضافة الملك إلى المالك ، والصنعة إلى الصانع ﴿فسجد الملائكة كلهم أجمعون﴾ أي سجد لآدم جميع الملائكة لم يمتنع منهم أحد ﴿إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين﴾ الاستثناء منقطع لأن إبليس خلق آخر غير الملائكة^(٢) ، فهو من نار وهم من نور ، وهم لا يعصون الله ما أمرهم وهو أبى وعصى ، فليس هو من الملائكة بيقين ، ولكنه كان بين صفوفهم فتوجه إليه الخطاب والمعنى : سجد جميع الملائكة لكن إبليس امتنع من السجود بعد أن صدر له الأمر الإلهي ﴿قال يا إبليس ما لك ألا تكون مع الساجدين﴾ أي ما المانع لك من السجود ؟ وأي داعٍ دعا بك إلى الإباء والامتناع ؟ وهو استفهام توبيخ ﴿قال لم أكن لأسجد لبشرٍ خلقته من صلصالٍ من حمإٍ مسنون﴾ أي قال إبليس : لا ينبغي ولا يليق لمثلي أن يسجد لآدم وهو مخلوق من طينٍ يابس متغير ، فهو من طينٍ وأنا من نار فكيف يسجد العظيم للحقير ، والفاضل للمفضول ؟ رأى عدو الله نفسه أكبر من أن يسجد لآدم ، ومنعه كبره وحسده عن امتثال أمر الله ﴿قال فاخرج منها فإنك رجيم﴾ أي اخرج من السموات فإنك مطرود من رحمتي ﴿وإن عليك اللعنة إلى يوم الدين﴾ أي وإن عليك لعنتي إلى يوم الجزاء والعقوبة ﴿قال رب أنظرني إلى يوم يبعثون﴾ أي قال اللعين : أمهلني وأخرني إلى يوم البعث ﴿قال فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم﴾ أي قال له الله : إنك من المؤجلين إلى حين موت الخلائق قال القرطبي : أراد بسؤاله الإنظار- إلى يوم يبعثون - ألا يموت ، لأن البعث لا موت بعده ، فأجابه المولى بالإنظار إلى يوم الوقت المعلوم وهو يوم موت الخلائق ، فموت إبليس ثم يبعث^(٣) ﴿قال رب بما أغويتني﴾ أي بسبب إغوائك وإضلالك لي ﴿لأزينن لهم في الأرض﴾ أي لأزينن لذرية آدم المعاصي

(١) المختصر ٣١١/٢ . (٢) قد حققنا ذلك في سورة البقرة والأعراف ، وتقدم قول الحسن البصري : « والله ما كان إبليس من الملائكة طرفه

عين ، وانظر كتابنا « النبوة والأنبياء » ص ١٢٨ ففيه البيان الشافي . (٣) القرطبي ٢٧/١٠ .

رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٤﴾ قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ ﴿٤٥﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٦﴾ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٧﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ ﴿٤٨﴾

والآثام ﴿ولأغوينهم أجمعين﴾ أي ولأضلنهم عن طريق الهدى أجمعين ﴿إلا عبادك منهم المخلصين﴾ أي إلا من استخلصته من عبادك لطاعتك ومرضاتك فلا قدرة لي على إغوائه ﴿قال هذا صراطٌ عليّ مستقيم﴾ أي قال تعالى : هذا طريق مستقيم واضح ، وسنة أزلية لا تتخلف وهي ﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المؤمنين لا قوة لك على إضلالهم ﴿إلا من اتبعك من الغاوين﴾ استثناء منقطع لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين والمعنى لكن من غوى وضل من الكافرين فلك عليهم تسلط ، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله ، كما يتسلط الذئب على الشاردة من القطيع ﴿وإن جهنم لموعدهم أجمعين﴾ أي موعده إبليس وأتباعه جميعاً ﴿لها سبعة أبواب﴾ أي لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم وروي عن عليّ أنها أطباق ، طبق فوق طبق وأنها دركات بعضها أشد من بعض ﴿لكل باب منهم جزء مقسوم﴾ أي لكل جماعة من أتباع إبليس باب معين معلوم ، قال ابن كثير : كل يدخل من باب بحسب عمله ، ويستقر في دركٍ بقدر عمله^(١) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - المجاز المرسل في ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد أهلها وهو من باب إطلاق المحل وإرادة الحال .

٢ - الاستعارة التخيلية في ﴿عندنا خزائنه﴾ فهو تمثيل لكمال قدرته ، شبه قدرته على كل شيء بالخزائن المودوعة فيها الأشياء، وإخراج كل شيء بحسب ما اقتضته حكمته على طريق الاستعارة.

٣ - الطباق بين ﴿نحيي . . ونميت﴾ وبين ﴿المستقدمين . . والمستأخرين﴾ .

٤ - جناس الاشتقاق في ﴿خزائنه . . وخازنين﴾ .

٥ - السجع الذي له وقع على السمع مثل ﴿المجرمين ، الأولين ، المنظرين﴾ الخ .

لطيفة : ذكر أن رجلاً أراد أن يمتحن الأديان أيها أصح وأحسن ؟ فعمد إلى التوراة والإنجيل والقرآن - وكان خطاطاً - فنسخ من كل كتاب نسخة بخط جميل وزاد فيها ونقص ، ثم عرض التوراة على علماء اليهود فقبلوها وتصفحوها وأكرمواه بالمال ، ثم عرض الإنجيل الذي نسخه بيده على القسس فاشتروه

بشمن كبير وأكرموه ، ثم عرض نسخة القرآن على شيوخ المسلمين فنظروا فيه فلما رأوا فيه بعض الزيادة والنقص أمسكوا به فضربوه ثم رفعوا أمره إلى السلطان فحكم بقتله ، فلما أراد قتله أشهر إسلامه وأخبرهم بقصته وأنه امتحن الأديان فعرف أن الإسلام دين حق . انظر تفسير القرطبي ٦/١٠ .

قال الله تعالى : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ . . . إِلَى . . . وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾
من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٩٩) .

المناسكة : لما ذكر تعالى حال الأشقياء من أهل الجحيم ، أعقبهم بذكر حال السعداء من أهل النعيم ، ثم ذكر قصص بعض الرسل مع أقوامهم «لوط ، وشعيب ، وصالح» تسلياً لرسول الله ﷺ ليتأسى بهم في الصبر ، ثم ذكر الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وختم السورة ببشارته عليه السلام بإهلاك أعدائه المستهزئين .

اللفظة : ﴿نَصَبَ﴾ تعب وإعياء ﴿وجلون﴾ خائفون فزعون ﴿الغابرين﴾ الباقيين في العذاب ﴿القانطين﴾ القنوط : كمال اليأس ﴿تفضحون﴾ الفضيحة : أن يظهر من أمره ما يلزمه به العار ، يقال : فضحه الصبح إذا أظهره للناس قال الشاعر :

ولاح ضوء هلالٍ كاد يفضحنا مثلُ القلامَةِ قد قُصَّتْ من الظُّفْرِ^(١)

﴿لعمرك﴾ قسم بحياة محمد ﷺ أي وحياتك ﴿سكرتهم﴾ السكر : الغواية والضلالة ﴿يعمّهون﴾ يترددون تحيراً أو يعمون عن الرشd ، والعمة للقلب مثل العمى للبصر ﴿التوسمين﴾ التوسم من الوسم وهي العلامة التي يستدل بها على المطلوب يقال : توسم فيه الخير إذا رأى فيه أثراً منه قال ابن رواحة في رسول الله ﷺ :
إني توسمتُ فيكَ الخيرَ أعرفه والله يعلمُ أَنِي ثابتُ البصر^(٢)

وأصله التثبت والتفكر مثل التفرس وفي الحديث (اتقوا فِرَاسةَ المؤمنِ فإنه ينظر بنور الله)^(٣) ﴿الأيكة﴾ الشجرة الملتفة وجمعها أَيْكٌ ﴿الحجر﴾ اسم واد كانت تسكنه ثمود ﴿عضين﴾ أجزاء متفرقة من التعضية وهي التجزئة والتفريق ﴿اليقين﴾ الموت لأنه أمر متيقن .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن النبي ﷺ خرج على الصحابة وهم يضحكون فقال : أتضحكون وبين أيديكم الجنة والنار ؟ فشق ذلك عليهم فنزلت ﴿تَبَيَّنَ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ وَأَن عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾^(٤) .

(١) البحر ٥/٤٥٦ . (٢) القرطبي ١٠/٤٣ .

(٣) رواه الترمذي . (٤) القرطبي ١٠/٣٤ .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٦﴾ أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴿٤٨﴾ لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٩﴾ نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٥٠﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ ﴿٥١﴾ وَنَبِّئُهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ ﴿٥٢﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٣﴾ قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٥٤﴾ قَالَ أَبَشْرُكُمْ نِيَ عَلَىٰ أَنْ مَسْنَى الْكِبَرُ فِيمَ تُبَشِّرُونَ ﴿٥٥﴾ قَالُوا بِشْرُكَ بِالْحَقِّ فَلَاحِقٌ لَكَ مِنَ الْقَنِطِينِ ﴿٥٦﴾ قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ ﴿٥٧﴾ قَالَ فَمَا

التفسير : ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي إن الذين اتقوا الفواحش والشرك لهم في الآخرة البساتين الناضرة ، والعيون المتفجرة بالماء والسلسيل والخمر والعسل ﴿أَدْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ءَامِنِينَ﴾ أي يقال لهم : أدخلوا الجنة سالمين من كل الآفات ، آمنين من الموت ومن زوال هذا النعيم ﴿ونزعنا ما في صدورهم من غل﴾ أي أزلنا ما في قلوب أهل الجنة من الحقد والبغضاء والشحناء ﴿إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ﴾ أي حال كونهم إخوة متحابين لا يكدر صفوهم شيء ، على سرر متقابلين وجهاً لوجه قال مجاهد : لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض زيادة في الإنس والإكرام ، وقال ابن عباس : على سرر من ذهب مكللة بالدر والياقوت والزربرد^(١) ﴿لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب ﴿وما هم منها بمخرجين﴾ أي لا يُخرجون منها ولا يُطردون ، نعيمهم خالد ، وبقاؤهم دائم ، لأنها دار الصفاء والسرور ﴿نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ أي أخبر يا محمد عبادي المؤمنين بأني واسع المغفرة والرحمة لمن تاب وأناب ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ أي وأخبرهم أنَّ عذابي شديد لمن أصرَّ على المعاصي والذنوب قال أبو حيان : وجاء قوله ﴿وَأَنَّ عَذَابِي﴾ في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة (وَأني المَعذِبُ المؤلم) وكل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة^(٢) ﴿ونبئهم عن ضيف إبراهيم﴾ أي وأخبرهم عن قصة ضيوف إبراهيم ، وهم الملائكة الذين أرسلهم الله لإهلاك قوم لوط ، وكانوا عشرة على صورة غلمانٍ حسانٍ معهم جبريل ﴿إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا﴾ أي حين دخلوا على إبراهيم فسلموا عليه ﴿قال إنا منكم وجلون﴾ أي قال إبراهيم إنا خائفون منكم ، وذلك حين عرض عليهم الأكل فلم يأكلوا ﴿قالوا لا توجل إنا نبشرك بغلام عليم﴾ أي قالت الملائكة لا تخف فإننا نبشرك بغلام واسع العلم ، عظيم الذكاء ، هو إسحاق ﴿قال أبشروني على أن مسني الكبر فبم تبشرون﴾ أي قال إبراهيم أبشروني بالولد على حالة الكبر والهرم ، فبأي شيء تبشروني ؟ قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد ﴿قالوا بشرك بالحق فلا تكن من القانطين﴾ أي بشرك باليقين الثابت فلا تستبعده ولا تيأس من رحمة الله ﴿قال ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون﴾ استفهام إنكاري أي لا يقنط من رحمة الله إلا المخطئون طريق المعرفة والصواب ، الجاهلون برب الأرباب ، أما القلب العامر بالإيمان ، المتصل بالرحمن ، فلا ييأس ولا يقنط قال البيضاوي : وكان تعجب إبراهيم عليه السلام باعتبار

خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٥٧﴾ قَالُوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجْرِ مِينَ ﴿٥٨﴾ إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٩﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ ﴿٦٢﴾ قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٦٣﴾ وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٦٤﴾ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ الْبَلِّ وَأَتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ ﴿٦٥﴾ وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمَرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ ﴿٦٦﴾ وَجَاءَ أَهْلَ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٦٧﴾ قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ ﴿٦٨﴾

العادة دون القدرة فإن الله تعالى قادرٌ على أن يخلق بشراً من غير أبوين ، فكيف من شيخٍ فانٍ وعجوزٍ عاقرٍ ؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب (١) ﴿قال فما خطبكم أيها المرسلون﴾ أي قال إبراهيم ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله أيها الملائكة الكرام ؟ ﴿قالوا إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَى قَوْمِ ثَجْرِ مِينَ﴾ أي أرسلنا ربنا إلى قومٍ مشركين ضالين لا هلاكهم يعنون قوم لوط ﴿إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنْجُوهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ أي إلا أتباع لوط وأهله المؤمنين ، فسننجيهم من ذلك العذاب أجمعين ﴿إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَرْنَا إِنَّمَا لِمَنِ الْغَابِرِينَ﴾ أي إلا امرأة لوط فقد قدر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين قال القرطبي : استثنى من آل لوط امرأته وكانت كافرة فالتحقت بالمجرمين في الهلاك (٢) ﴿فلما جاء آل لوط المرسلون﴾ أي فلما أتى رسلُ الله لوطاً عليه السلام ﴿قال إنكم قومٌ منكرون﴾ أي قال لهم إنكم قوم لا أعرفكم فماذا تريدون ؟ ﴿قالوا بل جئناك بما كانوا فيه يمترون﴾ أي قالوا له بل نحن رسل الله ، جئناك بما كان فيه قومك يشكون فيه وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به ﴿وأتيناك بالحق وإنا لصادقون﴾ أي أتيناك بالحق اليقين من عذابهم وإنا لصادقون فيما نقول ﴿فأسر بأهلك بقطع من الليل﴾ أي سر بأهلك في طائفة من الليل ﴿وأتبع أدبارهم﴾ أي كن من ورائهم وسر خلفهم لتطمئن عليهم ﴿ولا يلتفت منكم أحد﴾ أي لا يلتفت أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع ﴿وامضوا حيث تؤمرون﴾ أي سيروا حيث يأمركم الله عز وجل قال ابن عباس : يعني الشام ﴿وقضينا إليه ذلك الأمر أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ أي أوحينا إلى لوط ذلك الأمر العظيم أن أولئك المجرمين سيستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد ﴿مصبحين﴾ أي إذا دخل الصباح تم هلاكهم واستئصالهم ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ أي جاء أهل مدينة سدوم - وهم قوم لوط - مسرعين يستبشرون بأضيافه ، طمعاً في ارتكاب الفاحشة بهم ، ظناً منهم أنهم أناسٌ أمثالهم قال المفسرون : أخبر أولئك السفهاء أن في بيت لوطِ شباناً مردداً حسناً فأسرعوا فرحين يبشرون بعضهم بعضاً بأضياف لوط (٣) ﴿قال إن

(١) البيضاوي ٢٨٦ . (٢) القرطبي ١٠ / ٣٦ .

(٣) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان : «تسامع القوم بأن في بيت لوطِ شباناً صباح الوجه ففرحوا بأن هناك صيداً» ﴿وجاء أهل المدينة يستبشرون﴾ والتعبير على هذا النحو يكشف عن مدى الشناعة والبشاعة التي وصل إليها القوم في الدُّس والفجور ، يكشف عن هذا المدى في مشهد أهل المدينة يجيئون جماعة مستبشرين بالعثور على شبان يعتدون عليهم جهرةً وعلانيةً ، هذه العلانية التي يترفع عنها الحيوان بيننا أولئك =

وَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ ﴿٦٦﴾ قَالُوا أَوْلَمْ نُنْهَكْ عَنِ الْعَالِينَ ﴿٦٧﴾ قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ لَعَمْرُكَ
إِنَّهُمْ لِنَفْسِكَ سَكِرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٦٩﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ ﴿٧٠﴾ فجعلنا عليها سافلهَا وأمطرنا عليهم حجارةً من
سجيل ﴿٧١﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّهَا لَإِسْبِيلٌ مُّقِيمٌ ﴿٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٤﴾ وَإِنْ كَانَ
أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لَظَالِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ وَإِنَّهُمَا لَبِإِمَامٍ مُّبِينٍ ﴿٧٦﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ

هؤلاء ضيفي فلا تفضحون ﴿٦٦﴾ أي هؤلاء ضيوفي فلا تقصدهم بسوء فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم ﴿واتقوا الله ولا تخزون﴾ أي خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه ، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه ﴿قالوا﴾
﴿أولم نُنْهَكْ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ أي قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد ؟ قال الرازي : المعنى ألسنا قد نهيناك أن
تكلمنا في أحدٍ من الناس إذا قصدناه بالفاحشة (١) ؟ ﴿قال هؤلاء بناتي﴾ إن كنتم فاعلين ﴿أي هؤلاء﴾
النساء فتزوجوهن ولا تركنوا إلى الحرام إن كنتم تريدون قضاء الشهوة قال المفسرون : المراد بقوله
﴿بناتي﴾ بنات أمته لأن كل نبيٍّ يعتبر أباً لقومه ﴿لعمرك﴾ إنهم لفي سكرتهم يعمهون ﴿أي وحياتك﴾ يا
محمد إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخطون ويترددون ، وهذه جملة اعتراضية جاءت ضمن قصة لوط
قسماً بحياة الرسول ﷺ تكريماً له وتشريفاً قال ابن عباس : « ما خلق الله وما ذراً وما برأ نفساً أكرم على
الله من محمد ﷺ وما سمعتُ اللهَ أقسم بحياة أحدٍ غيره (٢) ﴾ ﴿فأخذتهم الصيحةُ مشرقين﴾ أي أخذتهم
صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس ﴿فجعلنا عاليها سافلها﴾ أي قلبناها بهم فجعلنا
أعالي المنازل أسافلها قال المفسرون : حمل جبريل عليه السلام قريتهم واقتلعها من جذورها ، حتى رأوا
الأفلاك وسمعوا تسبيح الأملآك ثم قلبها بهم ﴿وأمطرنا عليهم حجارةً من سجيل﴾ أي أنزلنا عليهم
حجارة كالطر من طين طبخ بنار جهنم ﴿إن في ذلك لآياتٍ للمتوسمين﴾ أي فيما حلَّ بهم من الدمار
والعذاب لدلالات وعلامات للمعتبرين ، المتأملين بعين البصر والبصيرة ﴿وإنها لبسبيلٌ مقيم﴾ أي وإن
هذه القرى المهلكة ، وما ظهر فيها من آثار قهر الله وغضبه ، لطريقٍ ثابتٍ لم يندرس ، يراها المجتازون
في أسفارهم أفلا يعتبرون ؟ ﴿إن في ذلك لآيةٌ للمؤمنين﴾ أي لعبرةً للمصدقين ﴿وإن كان أصحاب
الأيكة لظالمين﴾ أي وإنه الحال والشأن كان قوم شعيب - وهم أصحاب الأيكة أي الشجر الكثير الملتف -
لظالمين بتكذيبهم شعيباً ، وقطعهم الطريق ، ونقصهم المكيال والميزان ﴿فانتقمنا منهم﴾ أي أهلكناهم
بالرجفة وعذاب يوم الظلة قال المفسرون : اشتد الحر عليهم سبعة أيام حتى قربوا من الهلاك ، فبعث الله
عليهم سحابة كالظلة ، فالتجئوا إليها واجتمعوا تحتها للتظلل بها ، فبعث الله عليهم منها ناراً فأحرقتهم

= القوم المجرمون يجاهرون بها ويتلمظون عليها ، وهي حالة من الارتكاس معدومة النظر ، فأما لوط فوقف مكروباً يحاول أن يدفع عن ضيوفه
وعن شرفه ، وقف يستثير النخوة الأدمية فيهم ، ويستجيش وجدان التقوى لله وهو يعلم أن هذه النفوس المرتكسة المطموسة لم يعد فيها نخوة
ولا شعور إنساني ، ولكنه في كربته وشدته يحاول ما يستطيع . « الظلال ١٤ / ٣١ .
(١) الفخر الرازي ٢٠٢ / ١٩ . (٢) الطبري ٤٤ / ١٤ .

الْمُرْسَلِينَ ﴿٨٠﴾ وَآتَيْنَهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ ﴿٨١﴾ وَكَانُوا يُخْتُونُ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ ﴿٨٣﴾ فَاغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ لَا تُمَدِّنْ عَيْنِكَ إِلَى مَا مَتَعْنَاهُ ۚ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ كَمَا أَنزَلْنَا جَمِيعًا ﴿٩٠﴾ وَإِنَّمَا لِيَامَامٍ مَبِينٌ ﴿٩١﴾ أَي وَإِنْ قَرَى قَوْمٌ لَوْطَ وَشَعِيبَ لَطَرِيقٍ وَاضِحٍ أَفَلَا تَعْتَبِرُونَ بِهِمْ يَا أَهْلَ مَكَّةَ ؟ ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ ﴿٩٣﴾ هَذِهِ هِيَ الْقِصَّةُ الرَّابِعَةُ وَهِيَ قِصَّةُ صَالِحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَي كَذَّبَتْ ثَمُودُ نَبِيَّهُمْ صَالِحًا ۚ وَالْحِجْرُ وَادٌّ بَيْنَ الْمَدِينَةِ وَالشَّامِ وَأَثَارُهُ بَاقِيَةٌ يَمُرُّ عَلَيْهَا الْمَسَافِرُونَ ۚ قَالَ الْبَيْضَاوِيُّ : وَمَنْ كَذَّبَ وَاحِدًا مِنَ الرُّسُلِ فَكَأَنَّمَا كَذَّبَ الْجَمِيعَ وَلِذَا قَالَ ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ (١) ﴿وَأَتَيْنَاهُمْ آيَاتِنَا فَكَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ﴾ أَي وَأَرَيْنَاهُمْ مَعْجَزَاتِنَا الدَّالَّةَ عَلَى قُدْرَتِنَا مِثْلَ النَّاقَةِ وَمَا فِيهَا مِنَ الْعَجَائِبِ فَكَانُوا لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا وَلَا يَتَّعِظُونَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : كَانَ فِي النَّاقَةِ آيَاتٌ : خُرُوجُهَا مِنَ الصَّخْرَةِ ، وَدَنُوقُ وَلَا دَتْهَا عِنْدَ خُرُوجِهَا ، وَعَظْمٌ خَلَقَهَا فَلَمْ تَشْبَهْهَا نَاقَةٌ ، وَكَثْرَةُ لَبْنِهَا حَتَّى كَانَ يَكْفِيهِمْ جَمِيعًا فَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِيهَا وَلَمْ يَسْتَدْلُوا بِهَا (٢) ﴿وَكَانُوا يُخْتُونُ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ أَي كَانُوا يَنْقُبُونَ الْجِبَالَ فَيَبْنُونَ فِيهَا بُيُوتًا آمِنِينَ يَحْسِبُونَ أَنَّهَا تَحْمِيهِمْ مِنَ عَذَابِ اللَّهِ ﴿فَآخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ أَي أَخَذْتَهُمْ صَيْحَةُ الْهَلَاكِ حِينَ أَصْبَحُوا ﴿فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ أَي مَا دَفَعَ عَنْهُمْ عَذَابَ اللَّهِ مَا كَانُوا يَشِيدُونَهُ مِنَ الْقَلَاعِ وَالْحِصُونِ ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أَي وَمَا خَلَقْنَا الْخَلَائِقَ كُلَّهَا سِوَاهَا وَأَرْضَهَا وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا خَلْقًا مُلْتَبَسًا بِالْحَقِّ ، فَلِذَلِكَ اقْتَضَتْ الْحِكْمَةُ إِهْلَاكَ أَمْثَالِ هَؤُلَاءِ الْمَكْذِبِينَ لِثَلَا يَعْمُ الْفَسَادُ ﴿وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْغِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ أَي وَإِنَّ الْقِيَامَةَ لَآتِيَةٌ لَا مُحَالَةَ فَيُجَازَى الْمُحْسَنُ بِالْحَسَنِ ، وَالْمُسِيءُ بِإِسَاءَتِهِ ، فَأَعْرَضَ يَا مُحَمَّدٌ عَنْ هَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ وَعَامِلِهِمْ مَعَامِلَةَ الْحَلِيمِ ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلْقُ الْعَلِيمُ﴾ أَي الْخَالِقُ لِكُلِّ شَيْءٍ ، الْعَلِيمُ بِأَحْوَالِ الْعِبَادِ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمُنَانِي﴾ أَي وَلَقَدْ أَعْطَيْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ سَبْعَ آيَاتٍ هِيَ الْفَاتِحَةُ لِأَنَّهَا تَتَنَبَّأُ بِتَكَرُّرِ قِرَائَتِهَا فِي الصَّلَاةِ وَفِي الْحَدِيثِ (الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ هِيَ السَّبْعُ الْمُنَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ) (٣) وَقِيلَ : هِيَ السُّورَةُ السَّبْعُ الطَّوَالُ ، وَالْأَوَّلُ أَرْجَحُ ﴿وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ﴾ أَي وَآتَيْنَاكَ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ الْجَامِعَ لِكَمَالَاتِ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَةِ ﴿لَا تُمَدِّنْ عَيْنَكَ إِلَى مَا مَتَعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ﴾ أَي لَا تَنْظُرْ إِلَى مَا مَتَعْنَاهُ بِبَعْضِ هَؤُلَاءِ الْكُفَّارِ ، فَإِنَّ الَّذِي أَعْطَيْنَاكَ أَعْظَمَ مِنْهَا وَأَشْرَفَ وَأَكْرَمَ ، وَكَفَى بِإِنْزَالِ الْقُرْآنِ عَلَيْكَ نِعْمَةً ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾ أَي لَا تَحْزَنْ لِعَدَمِ إِيْمَانِهِمْ ﴿وَخَفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ أَي تَوَاضَعْ لِمَنْ آمَنَ بِكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَضَعْفَائِهِمْ ﴿وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ

(١) الْبَيْضَاوِيُّ ٢٨٦ . (٢) زَادَ الْمَسِيرَ ٤/ ٤١١ . (٣) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَهَذَا الْقَوْلُ هُوَ اخْتِيَارُ الطَّبْرِيِّ .

عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ ﴿٩٠﴾ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴿٩١﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾
فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴿٩٤﴾ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴿٩٥﴾ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ
إِلَهًا آخَرَ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ
مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٩٨﴾ وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٩٩﴾

المبين ﴿٩٠﴾ أي قل لهم يا محمد أنا المنذر من عذاب الله ، الواضح البين في الإنذار لمن عصى أمر الجبار ﴿٩١﴾ كما
أنزلنا على المقتسمين ﴿٩٢﴾ الكاف للتشبيه والمعنى أنزلنا عليك القرآن كما أنزلنا على أهل الكتاب وهم اليهود
والنصارى الذين آمنوا ببعض كتابهم وكفروا ببعضه ، فانقسموا إلى قسمين ﴿٩٣﴾ الذين جعلوا القرآن
عِضِينَ ﴿٩٤﴾ أي جعلوا القرآن أجزاء متفرقة وقالوا فيه أقوالاً مختلفة قال ابن عباس : آمنوا ببعض وكفروا
ببعض ، وهذه تسلية لرسول الله ﷺ عن صنيع قومه بالقرآن وتكذيبهم له بقولهم سحر ، وشعر ،
وأساطير ، بأن غيرهم من الكفرة فعلوا بغيره من الكتب مثل فعل كفار مكة ﴿٩٥﴾ فو ربك لنسألنهم أجمعين عما
كانوا يعملون ﴿٩٦﴾ أي فأقسمُ بربك يا محمد لنسألن الخلائق أجمعين عما كانوا يعملون في الدنيا ﴿٩٧﴾ فاصدع بما
تؤمر وأعرض عن المشركين ﴿٩٨﴾ أي فاجهر بتبليغ أمر ربك ، ولا تلتفت إلى ما يقول المشركون ﴿٩٩﴾ إنا
كفيناك المستهزئين ﴿٩٠﴾ أي كفيناك شر أعدائك المستهزئين بإهلاكنا إياهم وكانوا خمسة من صناديد قريش
﴿٩١﴾ الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ﴿٩٢﴾ أي الذين أشركوا مع الله غيره من الأوثان والأصنام ﴿٩٣﴾ فسوف
يعلمون ﴿٩٤﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون عاقبة أمرهم في الدارين ﴿٩٥﴾ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما
يقولون ﴿٩٦﴾ أي يضيق صدرك بالاستهزاء والتكذيب ﴿٩٧﴾ فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ﴿٩٨﴾ أي فافزع
فيما نالك من مكروه إلى التسييح والصلاة والإكثار من ذكر الله ﴿٩٩﴾ واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴿٩٠﴾ أي
اعبد ربك يا محمد حتى يأتيك الموت ، سمي يقيناً لأنه متيقن الوقوع والنزول .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإيجاز بالحذف في ﴿أدخلوها بسلام﴾ أي يقال لهم أدخلوها .
- ٢ - المقابلة اللطيفة في ﴿نبيء عبادي أني أنا الغفور الرحيم﴾ مع الآية بعدها ﴿وأن عذابي﴾
فقد قابل بين العذاب والمغفرة وبين الرحمة الواسعة والعذاب الأليم، وهذا من المحسنات البديعية .
- ٣ - الكناية في ﴿أن دابر هؤلاء مقطوع﴾ كنى به عن عذاب الاستئصال .
- ٤ - المجاز في ﴿قدرنا إنها لمن الغابرين﴾ أسند الملائكة فعل التقدير إلى أنفسهم مجازاً وهو لله وحده
وذلك لما لهم من القرب والاختصاص لأنهم رسل الله أرسلوا بأمره تعالى .

- ٥ - الجناس الناقص في ﴿الصيحة مصبحين﴾ وجناس الاشتقاق في ﴿فاصفح الصفح﴾ .
- ٦ - صيغة المبالغة في ﴿الغفور الرحيم﴾ وفي ﴿الخلق العليم﴾ .
- ٧ - الطباق في ﴿عاليها سافلها﴾ .
- ٨ - السجع بلا تكلف في مواطن عديدة مثل ﴿آمنين ، مصبحين ، معرضين﴾ .
- ٩ - عطف العام على الخاص في ﴿سبعاً من المثاني والقرآن العظيم﴾ .
- ١٠ - الاستعارة التبعية في ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ حيث شبه إلانة الجانب بخفض الجناح بجامع العطف والرقعة في كل واستعير اسم المشبه به للمشبه ، وهذا من بليغ الاستعارات لأن الطائر إذا كف عن الطيران خفض جناحيه .
- تنبيه :** الجمع بين هذه الآية ﴿فوربك لنسألهم أجمعين﴾ وبين قوله ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ وقوله ﴿فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان﴾ أن القيامة مواطن ، فموطن يكون فيه سؤال وكلام ، وموطن لا يكون ذلك فيه ، هذا قول عكرمة ، وقال ابن عباس : لا يسألهم سؤال استخبار واستعلام هل عملتم كذا وكذا ، لأن الله عالم بكل شيء ، ولكن يسألهم سؤال تقرير وتوبيخ فيقول لهم : لم عصيتم القرآن وما حجتكم فيه ^(١) ؟

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الحجر »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهول والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات .

* تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوّفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاءً واستهتاراً .

* ولقد هدفت السورة الكريمة إلى تقرير مبدأ « وحدانية الله » جلّ وعلا بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، فخطبت كل حاسة في الإنسان ، وكل جارحة في كيانه البشري ، ليتجه بعقله إلى ربّه ، ويستنير بما يرى من آثار صنع الله على عظمة الله سبحانه .

* ثم تتابعت السورة الكريمة تذكّر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتحذّرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يثول إليها مصير كل معاندٍ وجاحد .

* وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، والصبر والعفو عما يلقاه من الأذى في سبيل تبليغ دعوة الله .

التسمية: سميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتغالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجيب صنع الخالق ، وتدلّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب .

اللفظة: ﴿نُطْفَةٌ﴾ النطفة الماء المهين الذي يتكون منه الإنسان ، من نطفٍ إذا قطر ﴿دَفءٌ﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١﴾ يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿٢﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٤﴾ وَالْأَنْعَمَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ

الدفء : ما يستدفء به الإنسان من البرد ﴿تُرِيحُونَ﴾ الرِّواح : رجوع المواشي بالعشي من المرعى ﴿تسرحون﴾ السَّراح : الخروج بها صباحاً إلى المرعى ﴿أُنْقَلِكُمْ﴾ الأُنْقَال : الأمتعة جمع ثقل سميت أنْقَالاً لأنها ثقيلة الحمل ﴿جَائِرٌ﴾ مائل عن الحق ﴿تُسِيمُونَ﴾ أسام الماشية تركها ترعى ، وسامت هي إذا رعت حيث شاءت فهي سائمة ﴿ذُرْأٌ﴾ خلق وأبدع ﴿مواخر﴾ أصل المخرشق الماء عن يمين وشمال يقال : مخرت السفينة إذا جرت تشق الماء مع صوت ﴿تميد﴾ تضطرب .

سَبَبُ النَّزُولِ : قال ابن عباس : لما نزل قوله تعالى ﴿اقتربت الساعة﴾ قال الكفار بعضهم لبعض : إنَّ محمداً يزعم أن القيامة قد اقتربت فأمسكوا عن بعض ما كنتم تعملون حتى ننظر ، فلما امتدت الأيام قالوا يا محمد : ما نرى شيئاً مما تُخَوِّفُنَا به فأنزل الله تعالى ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه . .﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿أتى أمر الله فلا تستعجلوه﴾ أي قرب قيام الساعة فلا تستعجلوا العذاب الذي أوعدكم به محمد ، وإنما أتى بصيغة الماضي لتحقيق وقوع الأمر وقربه ، قال الرازي : لما كان واجب الوقوع لا محالة عبر عنه بالماضي كما يقال للمستغيث : جاءك الغوث فلا تجزع (٢) ﴿سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله عما يصفه به الظالمون ، وتقصد عن إشراكهم به غيره من الأنداد والأوثان ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ﴾ أي يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالْوَحْيِ وَالنَّبُوَّةِ بِإِرَادَتِهِ وَأَمْرِهِ ﴿على من يشاء من عبادِهِ﴾ أي على الأنبياء والمرسلين ، وسمي الوحي روحاً لأنه تحيا به القلوب كما تحيا بالأرواح الأبدان ﴿أنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ أي بأنْ أَنْذِرُوا أَهْلَ الْكُفْرِ أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ إِلَّا اللَّهُ فَخَافُوا عَذَابِي وَانْتِقَامِي ، ثم ذكر تعالى البراهين الدالة على وحدانيته وقدرته فقال ﴿خلق السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقهما بالحق الثابت ، والحكمة الفائقة ، لا عبثاً ولا جُزَافاً ﴿تعالى عما يشركون﴾ أي تجدد وتقُدَّس عن الشريك والنظير ﴿خلق الإنسان من نُطْفَةٍ﴾ أي خلق هذا الجنس البشري من نطفة مهينة ضعيفة هي المنى ﴿فإذا هو خصيم مبين﴾ أي فإذا به بعد تكامله بشراً مَخَاصِمٌ لخالقه ، واضح الخصومة ، يكابر ويعاند ، وقد خلُقَ ليكون عبداً لا ضدّاً قال ابن الجوزي : لقد خلُقَ من نطفة وهو مع ذلك يخاصم وينكر البعث ، أفلا يستدل بأوله على آخره ، وبأن من قدر على إيجادهِ أولاً قادرٌ على إعادته ثانياً (٣) ؟ ﴿والأنعام خلقها﴾ أي وخلق الأنعام لمصالحكم وهي الإبل والبقر والغنم ﴿لكم فيها دِفْءٌ﴾

(١) زاد المسير ٤/٤٢٦ . (٢) الرازي ١٩/٢١٨ . (٣) زاد المسير ٤/٤٢٩ .

وَمَنْفَعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٧﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّا تَكُونُوا
بَلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٨﴾ وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا
تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَايزٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
لَّكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُنبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ

أي لكم فيها ما تستدفئون به من البرد مما تلبسون وتفترشون من الأصواف والأوبار ﴿٦﴾ ومنافع ومنها تأكلون ﴿٧﴾ أي ولكم فيها منافع عديدة من النسل والدر وركوب الظهر ، ومن لحومها تأكلون وهو من أعظم المنافع لكم ﴿٨﴾ ولكم فيها جمالٌ حين تُريحون وحين تَسرحون ﴿٩﴾ أي ولكم في هذه الأنعام والمواشي زينةٌ وجمالٌ حين رجوعها عشياً من المرعى ، وحين غُدُوها صباحاً لترعى ، جمال الاستمتاع بمنظرها صحيحةً سميئةً فارهة ﴿١٠﴾ وتحمل أثقالكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ﴿١١﴾ أي وتحمل أحمالكم الثقيلة وأمتعتكم التي تعجزون عن حملها إلى بلدٍ بعيد لم تكونوا لتصلوا إليه إلا بجهدٍ ومشقة ﴿١٢﴾ إن ربكم لرؤوفٌ رحيم ﴿١٣﴾ أي إن ربكم أيها الناس الذي سخر لكم هذه الأنعام لعظيم الرأفة والرحمة بكم ﴿١٤﴾ والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ﴿١٥﴾ أي وخلق الخيل والبغال والحمير للحمل والركوب وهي كذلك زينة وجمال ﴿١٦﴾ ويخلق ما لا تعلمون ﴿١٧﴾ أي ويخلق في المستقبل ما لا تعلمونه الآن كوسائل النقل الحديث : القاطرات ، والسيارات ، والطائرات النفثة وغيرها مما يجدُّ به الزمان وهو من تعليم الله للإنسان ﴿١٨﴾ وعلى الله قصد السبيل ﴿١٩﴾ أي وعلى الله جل وعلا بيان الطريق المستقيم ، الموصل لمن يسلكه إلى جنات النعيم ﴿٢٠﴾ ومنها جائز ﴿٢١﴾ أي ومن هذه السبيل طريقٌ مائلٌ عن الحق منحرفٌ عنه ، لا يوصل سالكه إلى الله وهو طريق الضلال ، كاليهودية والنصرانية والمجوسية ﴿٢٢﴾ ولو شاء لهداكم أجمعين ﴿٢٣﴾ أي لو شاء أن يهديكم إلى الإيمان لهداكم جميعاً ولكنه تعالى اقتضت حكمته أن يدع للإنسان حرية الاختيار ﴿٢٤﴾ فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴿٢٥﴾ ليرتب عليه الثواب والعقاب ، ولما ذكر تعالى ما أنعم به عليهم من الأنعام ، شرع في ذكر سائر النعم العظام وآياته المنبئة في الكائنات فقال ﴿٢٦﴾ هو الذي أنزل من السماء ماءً ﴿٢٧﴾ أي أنزل المطر بقدرته القاهرة من السحاب ﴿٢٨﴾ لكم منه شراب ﴿٢٩﴾ أي أنزله عذباً فراتاً لتشربوه فتسكن حرارة العطش ﴿٣٠﴾ ومنه شجرٌ فيه تُسِيمون ﴿٣١﴾ أي وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم ﴿٣٢﴾ يُنبِتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ﴿٣٣﴾ أي يخرجها من الأرض بهذا الماء الواحد على اختلاف صنوفها وطعومها وألوانها ﴿٣٤﴾ ومن كل الثمرات ﴿٣٥﴾ أي ومن كل الفواكه والثمار يخرج لكم أطيب

(١) قال في الظلال : « لقد جدَّت وسائل للحمل والركوب لم يكن يعلمها أهل الزمان ، والقرآن يبيِّن لها القلوب والأذهان بلا جحود ولا تحجر ﴿١٧﴾ ويخلق ما لا تعلمون ﴿١٧﴾ حتى لا يقول الناس : إنما استخدم آباؤنا الخيل والبغال والحمير فلا نستخدم سواها ، ولهذا هيا القرآن الأذهان والقلوب لاستقبال ما يتمخض عنه العلم ويتمخض عنه المستقبل . »

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٢﴾ وَمَا ذَرَأْنَا لَكُمُ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَنَهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لَنَا كُلًّا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَنَسَخَّرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ۚ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤﴾ وَالَّتِي فِي الْأَرْضِ رَوَّسَى أَنْ نَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَارًا وَسُبُلًا

الطعام ﴿١١﴾ إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴿١٢﴾ أي إن في إنزال الماء وإخراج الثمار لدلالة واضحة على قدرة الله ووحدانيته لقوم يتدبرون في صنعه فيؤمنون قال أبو حيان : ختم الآية بقوله ﴿يتفكرون﴾ لأن النظر في ذلك يحتاج إلى فضل تأمل ، واستعمال فكر ، ألا ترى أن الحبة الواحدة إذا وضعت في الأرض ومر عليها زمن معين لحقها من نداوة الأرض ما تنتفخ به فيشق أعلاها فتصعد منه شجرة إلى الهواء ، وأسفلها يغوص منه في عمق الأرض شجرة أخرى وهي العروق ، ثم ينمو الأعلى ويقوى وتخرج الأوراق والأزهار ، والأكمام والثمار ، المشتملة على أجسام مختلفة الطبائع والألوان والأشكال والمنافع وذلك بتقدير قادر مختار وهو الله تعالى ﴿١٣﴾ وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر ﴿١٤﴾ أي دّلّ الليل والنهار يتعاقبان لنامكم ومعاشكم ، والشمس والقمر يدوران لمصالحكم ومنافعكم ﴿والنجوم مسخرات بأمره﴾ أي والنجوم تجري في فلكها بأمره تعالى لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ أي إن في ذلك الخلق والتسخير لدلائل باهرة عظيمة ، لأصحاب العقول السليمة ﴿وما ذرا لكم في الأرض مختلفاً ألوانه﴾ أي وما خلق لكم في الأرض من الأمور العجيبة ، من الحيوانات والنباتات ، والمعادن والجمادات ، على اختلاف ألوانها وأشكالها ، وخواصها ومنافعها ﴿إن في ذلك لآية لقوم يذكرون﴾ أي لعبرة لقوم يتعظون ﴿وهو الذي سخر البحر﴾ أي وهو تعالى - بقدرته ورحمته - دّلّ لكم البحر المتلاطم الأمواج للركوب فيه والغوص في أعماقه ﴿لتأكلوا منه لحماً طرياً﴾ أي لتأكلوا من البحر السمك الطري الذي تصطادونه ﴿وتستخرجوا منه حليّة تلبسونها﴾ أي وتستخرجوا منه الجواهر النفيسة كاللؤلؤ والمرجان ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ أي وترى السفن العظيمة تشق عباب البحر جارية فيه وهي تحمل الأمتعة والأقوات ﴿ولتبتغوا من فضله﴾ أي سخر لكم البحر لتتبعوا بما ذكر ولتطلبوا من فضل الله ورزقه سبل معاشكم بالتجارة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على عظيم إنعامه وجليل إفضاله ﴿وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾ أي نصب فيها جبلاً ثوابت راسيات لثلا تضرب بكم وتميل قال أبو السعود : إن الأرض كانت كرة خفيفة قبل أن تخلق فيها الجبال ، وكان من حقها أن تتحرك كالأفلاك بأدنى سبب فلما خلقت الجبال توجهت بثقلها نحو المركز فصارت كالأوتاد لها ﴿١٥﴾ وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون﴾ أي وجعل فيها أنهاراً وطرقاً

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَّمَتِ بِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ ﴿١٦﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تَعُدُّوا
نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٨﴾ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ
دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿٢٠﴾ أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢١﴾ إِلَهُكُمْ إِلَهُهُ
وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَاجِرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ
إِنَّهُ لَا يَجِبُ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أُنْزِلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أُسْطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ
ومسالك لكي تهتدوا إلى مقاصدكم ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾ أي وعلامات يستدلون بها على
الطرق كالجبال والأنهار ، وبالنجوم يهتدون ليلاً في البراري والبحار قال ابن عباس : العلامات معالم
الطرق بالنهار وبالنجم هم يهتدون بالليل ^(١) ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ الاستفهام إنكاري أي
أتسوون بين الخالق لتلك الأشياء العظيمة والنعم الجليلة ، وبين من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا فضلاً
عن غيره ؟ أتشركون هذا الصنم الحقير مع الخالق الجليل ؟ وهو تبكيت للكفرة وإبطال لعبادتهم الأصنام
﴿أفلا تذكرون﴾ أي أفلا تتذكرون فتعرفون خطأ ما أنتم فيه من عبادة غير الله ؟ وهو توبيخ آخر ﴿وإن
تعُدُّوا نعمة الله لا تُحصوها﴾ أي إن تعدوا نعم الله الفائضة عليكم لا تضبطوا عددها فضلاً عن أن
تطبقوا شكرها ﴿إن الله لغفورٌ رحيم﴾ أي غفور لما صدر منكم من تقصير رحيم بالعباد حيث ينعم
عليهم مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿والله يعلم ما تسرون وما تعلنون﴾ أي يعلم ما تخفونه وما تظهرونه
من النوايا والأعمال وسيجازيكم عليها ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يُخلَقُونَ﴾
أي والذين يعبدونهم من دون الله كالأوثان والأصنام لا يقدرُونَ على خلق شيء أصلاً والحال أنهم
مخلوقون صنعهم البشر بأيديهم ، فكيف يكونون آلهة تعبد من دون الله ؟ ﴿أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ﴾ أي
وتلك الأصنام أَمْوَاتٌ لا أرواح فيها ، لا تسمع ولا تبصر لأنها جمادات لا حياة فيها ، فكيف تعبدونها
وأنتم أفضل منها لما فيكم من الحياة ؟ ﴿وما يشعرون أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ أي ما تشعر هذه الأصنام متى
يبعث عابدها ، وفيه تهكم بالمشركين لأنهم عبدوا جماداً لا يحس ولا يشعر ﴿إلهكم إِلَهُ وَاحِدٌ﴾ أي
إلهكم المستحق للعبادة إِلَهُ وَاحِدٌ لا شريك له ﴿فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة﴾ أي فالذين
لا يصدقون بالبعث والجزاء قلوبهم تنكر وحدانية الله عز وجل ﴿وهم مستكبرون﴾ أي متكبرون
متعظمون عن قبول الحق بعدما سطعت دلائله ﴿لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ أي حقاً
إن الله تعالى لا تخفى عليه خافية من أحوالهم يعلم ما يخفون وما يظهرون ﴿إنه لا يحب المستكبرين﴾
أي المتكبرين عن التوحيد والإيمان ﴿وإذا قيل لهم ماذا أنزل ربكم﴾ أي وإذا سئل هؤلاء الجاحدون أي
شيء أنزل ربكم على رسوله ﷺ ؟ ﴿قالوا أساطير الأولين﴾ أي قالوا على سبيل الاستهزاء : ما أنزله

كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾ قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾
ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تُسَاقُونَ فِيهِمْ ۖ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ
وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ فَأَلْقَوْا السَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ
بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾

ليس إلا خرافات وأباطيل الأمم السابقين ليس بكلام رب العالمين قال المفسرون : كان المشركون يجلسون على مداخل مكة يُنفرون عن رسول الله ﷺ إذا سألهم وفود الحاج ماذا أنزل على محمد ؟ قالوا أباطيل وأحاديث الأولين ^(١) ﴿ليحملوا أوزارهم كاملة يوم القيامة﴾ أي قالوا ذلك البهتان ليحملوا ذنوبهم كاملة من غير أن يكفر منها شيء ﴿ومن أوزار الذين يُضِلُّونهم بغير علم﴾ أي وليحملوا ذنوب الأتباع الذين أضلوهم بغير دليل أو برهان ، فقد كانوا رؤساء يُقتدى بهم في الضلالة ولذلك حملوا أوزارهم وأوزار من أضلوهم ﴿ألا ساء ما يزررون﴾ ألا للتنبيه أي فانتبهوا أيها القوم بشس الحمل الذي حملوه على ظهورهم ، والمقصود المبالغة في الزجر ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ أي مكر المجرمون بأنبيائهم وأرادوا إطفاء نور الله من قبل كفار مكة ، وهذا تسلية له ﷺ ﴿فأتى الله بنيانهم من القواعد﴾ أي قلع بنيانهم من قواعده وأساسه ، وهذا تمثيل لإفساد ما أبرموه من المكر بالرسول ﴿فخرَّ عليهم السقف من فوقهم﴾ أي فسقط عليهم سقف بنيانهم فتهدم البناء وماتوا ﴿وأتاهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي جاءهم الهلاك والدمار من حيث لا يخطر على بالهم ، والآية مشهد كامل للدمار والهلاك ، وللسخرية من مكر الماكرين ، وتدبير المدبرين ، الذين يقفون لدعوة الله ويحسبون مكرهم لا يُرد ، وتدبيرهم لا يخيب ، والله من ورائهم محيط ﴿ثم يوم القيامة يُخْزِيهِمْ﴾ أي يفضحهم بالعذاب ويذلهم ويبينهم ﴿ويقول أين شركائي الذين كنتم تشاقون فيهم﴾ أي يقول تعالى لهم على سبيل التوبيخ : أين هؤلاء الشركاء الذين كنتم تخاصمون وتعادون من أجلهم الأنبياء ؟ أحضروهم ليشفعوا لكم ، والأسلوب استهزاء وتهكم ﴿قال الذين أوتوا العلم إن الخزي اليوم والسوء على الكافرين﴾ أي يقول الدعاة والعلماء شامة بأولئك الأشقياء إن الذل والهوان والعذاب محيط اليوم بمن كفر بالله ﴿الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم﴾ أي تقبض الملائكة أرواحهم الخبيثة حال كونهم ظالمي أنفسهم بالكفر والإشراك بالله ﴿فألقوا السلم ما كنا نعمل من سوء﴾ أي استسلموا وانقادوا عند الموت على خلاف عادتهم في الدنيا من العناد والمكابرة ، وقالوا ما أشركنا ولا عصينا كما يقولون يوم المعاد ﴿والله ربنا ما كنا مشركين﴾ ﴿بلى إن الله عليم بما كنتم تعملون﴾ أي يكذبهم الله ويقول : بلى قد كذبتهم وعصيتهم

فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَيْئَسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٢١﴾

وكنتم مجرمين ﴿فادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها﴾ أي أدخلوا جهنم ماكثين فيها أبداً ﴿فلئیس مَثْوًى المتكبرين﴾ أي بُسَّتْ جهنم مقراً ومقاماً للمتكبرين عن طاعة الله .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الالتفات في ﴿فاتقون﴾ فهو خطاب للمستعجلين بطريق الالتفات .
 - ٢ - أسلوب الإطناب في ﴿أموات غير أحياء﴾ تأكيداً لسفاهة من عبد الأصنام ومثله ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون﴾ .
 - ٣ - الطباق بين ﴿يسرون ويعلنون﴾ وبين ﴿تريحون وتسرحون﴾ .
 - ٤ - صيغة المبالغة في ﴿خصيمٌ مبين﴾ وفي ﴿غفور رحيم﴾ .
 - ٥ - طباق السلب في ﴿أفمن يخلق كمن لا يخلق﴾ .
 - ٦ - الجناس الناقص في ﴿لا يخلقون .. وهم يخلقون﴾ .
 - ٧ - الاستعارة التمثيلية في ﴿قد مكر الذين من قبلهم﴾ . فخرٌ عليهم السقف من فوقهم ﴿شبهت حال أولئك الماكرين بحال قوم بنوا بنياناً شديداً الدعائم فانهدم ذلك البنيان وسقط عليهم فأهلكهم بطريق الاستعارة التمثيلية ، ووجه الشبه أن ما عدوه سبباً لبقائهم ، عاد سبباً لفنائهم كقولهم « من حفر حفرة لأخيه سقط فيها » .
- فَكَائِدَةٌ :** قال القرطبي : تسمى سورة النحل سورة النعم لكثرة ما عدَّد الله فيها من نعمه على عباده^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وقيل للذين اتقوا ماذا أنزل ربكم﴾ .. إلى .. يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾

المناسكَةُ : لما أخبر تعالى عن حال الأشقياء الذين كفروا نعمة الله ، وطعنوا في القرآن فزعموا أنه أساطير الأولين، وبَيَّن ما يكونون عليه في الآخرة من الفضيحة والذل والهوان ، ذكر هنا ما أعدّه للمتقين من وجوه التكريم في دار النعيم ، ليظهر الفارق بين حال أهل السعادة وحال أهل الشقاوة ، وبين الأبرار

والفجار على طريقة القرآن في المقارنة بين الفريقين .

اللفظ : ﴿الزُّبُرُ﴾ الكتب السماوية جمع زُبُور من زبرت الكتاب إذا كتبه ﴿يُخَسَفُ﴾ يخسف المكان خسوفاً إذا ذهب وغاب في الأرض ﴿يَتَفَيَّأُ﴾ يميل من جانب إلى جانب ومنه قيل للظل فيء لأنه يفيء أي يرجع من جهة إلى أخرى ﴿داخرون﴾ صاغرون ذليلون ، والدخور الصغار والذل قال ذو الرمة :

فلم يبقَ إلا داخِرٌ في مُحْيَسٍ ومنجَحِرٌ في غير أرضك في جُحُرٍ^(١)

* وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرٌ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣١﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ ﴿٣٢﴾ الَّذِينَ تَوَفَّيْنَاهُمُ الْمَلَائِكَةُ طَيِّبِينَ يَقُولُونَ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ أَدْخَلُوا الْجَنَّةَ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرٌ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ

النفسير : ﴿وقيل للذين اتقوا﴾ أي قيل للفريق الثاني وهم أهل التقوى والإيمان ﴿ماذا أنزل ربكم قالوا خيراً﴾ أي ماذا أنزل ربكم على رسوله ؟ قالوا أنزل خيراً قال المفسرون : هذا كان في أيام الموسم يأتي الرجل مكة فيسأل المشركين عن محمد وأمره فيقولون : إنه ساحر وكاهن وكذاب ، فيأتي المؤمنون ويسألهم عن محمد وعن ما أنزل الله عليه فيقولون : أنزل الله عليه الخير والهدى والقرآن^(٢) ، قال تعالى بياناً لجزائهم الكريم ﴿للذين أحسنوا في هذه الدنيا حسنة﴾ أي هؤلاء المحسنين مكافأة في الدنيا بإحسانهم ﴿ولدار الآخرة خير﴾ أي وما ينالونه في الآخرة من ثواب الجنة خيرٌ وأعظم من دار الدنيا لفنائها وبقاء الآخرة ﴿ولنعيم دار المتقين﴾ أي ولنعم دار المتقين دار الآخرة وهي ﴿جنات عدن﴾ أي جنات إقامة ﴿يدخلونها تجري من تحتها الأنهار﴾ أي يدخلون تلك الجنان التي تجري من بين أشجارها وقصورها الأنهار ﴿لهم فيها ما يشاءون﴾ أي لهم في تلك الجنات ما يشتهون بدون كد ولا تعب ، ولا انقطاع ولا نصب ﴿كذلك يجزي الله المتقين﴾ أي مثل هذا الجزاء الكريم يجزي الله عباده المتقين لمحارمه ، المتمسكين بأوامره ﴿الذين تتوفاهم الملائكة طيبين﴾ أي هم الذين تقبض الملائكة أرواحهم حال كونهم أبراراً ، قد تطهروا من دنس الشرك والمعاصي ، طيبة نفوسهم بقاء الله ﴿يقولون سلامٌ عليكم﴾ أي تسلم عليهم الملائكة وتبشرهم بالجنة قال ابن عباس : الملائكة يأتونهم بالسلام من قبل الله ، ويخبرونهم أنهم من أصحاب اليمين^(٣) ﴿أدخلوا الجنة بما كنتم تعملون﴾ أي هنيئاً لكم الجنة بما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال ﴿هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتي أمر ربك﴾ عاد الكلام إلى تقرير المشركين وتوبيخهم على تماديهم في الباطل واغترارهم بالدنيا والمعنى ما ينتظر

كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبْدْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ نَحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَمْنَا مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَهَلْ عَلَى الرُّسُلِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ

هؤلاء إلا أحد أمرين : إما نزول الموت بهم ، أو حلول العذاب العاجل ، أو ليس في مصير المكذبين قبلهم عبرة وغناء ؟ ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي كذلك صنع من قبلهم من المجرمين حتى حل بهم العذاب ﴿ وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ أي ما ظلمهم الله بتعذيبهم وإهلاكهم ولكن ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي ﴿ فأصابهم سيئات ما عملوا ﴾ أي أصابهم عقوبات كفرهم وجزاء أعمالهم الخبيثة ﴿ وحقاق بهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ أي أحاط ونزل بهم جزاء استهزائهم وهو العذاب الأليم في دركات الجحيم ﴿ وقال الذين أشركوا ﴾ أي قال أهل الكفر والإشراك وهم كفار قريش ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولا آبائنا ولا حرمانا من دونه من شيء ﴾ أي لو شاء الله ما عبدنا الأصنام لا نحن ولا آبائنا ، ولا حرمانا ما حرمانا من البحائر والسوائب وغيرها ، قالوا هذا على سبيل الاستهزاء لا على سبيل الاعتقاد ، وغرضهم أن إشراكهم وتحريمهم لبعض الذبائح والأطعمة واقع بمشيئة الله ، فهو راض به وهو حق وصواب ^(١) ﴿ كذلك فعل الذين من قبلهم ﴾ أي مثل هذا التكذيب والاستهزاء فعل من قبلهم من المجرمين ، واحتجوا مثل احتجاجهم الباطل ، وتناسوا كسبهم لكفرهم ومعاصيهم ، وأن كل ذلك كان بمحض اختيارهم بعد أن أنذرتهم رسلهم عذاب النار وغضب الجبار ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ أي ليس على الرسل إلا التبليغ ، وأما أمر الهداية والإيمان فهو إلى الله جلّ وعلا ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطَّاغُوت ﴾ أي أرسلنا الرسل إلى جميع الخلق بأن اعبدوا الله ووحّدوه ، واتركوا كل معبود دون الله كالشيطان والكاهن والصنم ، وكل من دعا إلى الضلال ﴿ فمنهم من هدى الله ﴾ أي فمنهم من أرشده الله إلى عبادته ودينه فأمن ﴿ ومنهم من حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ﴾ أي ومنهم من وجبت له الشقاوة والضلالة فكفر ، أعلم تعالى انه أرسل الرسل لتبليغ الناس دعوة الله فمنهم من استجاب فهداه الله ، ومنهم من كفر فأضله الله ﴿ فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة

(١) قال في الظلال « وهذه مقولة جديدة من مقولات المشركين في علة إشراكهم بالله ، فقد أحالوا إشراكهم لبعض الذبائح والأطعمة ، على إرادة الله ومشيئته ، فلو شاء الله - في زعمهم - ألا يفعلوا شيئاً من هذا المنعهم من فعله . . وهذا وهم وخطأ في فهم معنى المشيئة الإلهية ، فالله سبحانه لا يريد لعباده الشرك ، ولا يرضى لهم أن يجرموا ما أحله لهم من الطيبات ، وإرادته هذه ظاهرة منصوص عليها في شرائعه على السنة الرسل الذين كلّفوا بالتبليغ ولهذا قال تعالى بعده ﴿ ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطَّاغُوت ﴾ فهذا أمره ، وهذه إرادته لعباده ، وقد شأته إرادة الخالق الحكيم أن يخلق البشر باستعداد للهدى والضلال ، وأن يدع لهم مشيئة الاختيار »

عَقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ إِنْ تَحَرَّصَ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ يُضِلُّ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٣٧﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مِنْ يَمُوتٌ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يُخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَذِبِينَ ﴿٣٩﴾ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٤٠﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْأَلًا لِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

المكذبين ﴿٣٦﴾ أي سيروا يا معشر قريش في أكناف الأرض ثم انظروا ماذا حلَّ بالأمم المكذبين لعلكم تعتبرون ! ﴿٣٧﴾ إن تحرص على هدايتهم فإن الله لا يهدي من يضل ﴿٣٨﴾ الخطاب للرسول ﷺ أي إن تحرص يا محمد على هداية هؤلاء الكفار فاعلم أنه تعالى لا يخلق الهداية جبراً وقسراً فيمن يخلق فيه الضلالة بسوء اختياره ﴿٣٩﴾ وما لهم من ناصرين ﴿٣٩﴾ أي ليس لهم من ينقذهم من عذابه تعالى ﴿٤٠﴾ وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت ﴿٤٠﴾ أي حلف المشركون جاهدين في أيمانهم مبالغين في تغليظ اليمين بأن الله لا يبعث من يموت ، استبعدوا البعث ورأوه أمراً عسيراً بعد البلى وتفرق الأشلاء والذرات ، قال تعالى رداً عليهم ﴿٤١﴾ بلى وعداً عليه حقاً ﴿٤١﴾ أي بلى ليعتثهم ، وعد بذلك وعداً قاطعاً لا بد منه ﴿٤٢﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٤٢﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعلمون قدرة الله فينكرون البعث والنشور ﴿٤٣﴾ ليبيِّن لهم الذي يختلفون فيه ﴿٤٣﴾ أي سيعتثهم ليكشف ضلالهم في إنكارهم البعث ، وليظهر لهم الحق فيما اختلفوا فيه ، وليحقق العدل وهو التمييز بين المطيع والعاصي ، وبين المحق والمبطل ، وبين الظالم والمظلوم ﴿٤٤﴾ وليعلم الذين كفروا أنهم كانوا كاذبين ﴿٤٤﴾ أي وليعلم الجاحدون للبعث ، والمكذبون لوعده الله الحق أنهم كانوا كاذبين فيما يقولون ﴿٤٥﴾ إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون ﴿٤٥﴾ أي لا يحتاج الأمر إلى كبير جهد وعناء فإننا نقول للشيء كن فيكون قال المفسرون : هذا تقريب للأذهان ، والحقيقة أنه تعالى لو أراد شيئاً لكان بغير احتياج إلى لفظ ﴿كن﴾ ﴿٤٦﴾ والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا ﴿٤٦﴾ أي تركوا الأوطان والأهل والقرابة في شأن الله وابتغاء رضوانه من بعد ما عذبوا في الله قال القرطبي : هم صهيب وبلال وخبَّاب وعَمَّار ، عذبهم أهل مكة حتى قالوا لهم ما أردادوا ، فلما خلَّوهم هاجروا إلى المدينة ^(١) لنبوتنهم في الدنيا حسنة ﴿٤٧﴾ أي لنسكنهم داراً حسنة خيراً مما فقدوا قال ابن عباس : بوأهم الله المدينة فجعلها لهم دار هجرة ﴿٤٨﴾ ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴿٤٨﴾ أي ثواب الآخرة أعظم وأشرف وأكبر لو كان الناس يعلمون ﴿٤٩﴾ الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون ﴿٤٩﴾ أي هم الذين صبروا على الشدائد والمكاره ، فهجروا الأوطان ، وفارقوا الإخوان ، واعتمدوا على الله وحده يبتغون أجره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤٤﴾ أَفَلَمْ يَأْخُذُوا بِالَّذِينَ مَكَّرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقْلُبِهِمْ فَهُمْ بِمَعْجَزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَّهِ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَلِلَّهِ سَجْدٌ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ

ومثوبته ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجلاً نوحى إليهم﴾ أي وما أرسلنا من قبلك يا محمد إلى الأمم الماضية إلا بشراً نوحى إليهم كما أوحينا إليك قال المفسرون : أنكر مشركو قريش نبوة محمد ﷺ وقالوا الله أعظم من أن يكون رسوله بشراً ، فهلاً بعث إلينا ملكاً فنزلت ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾ أي اسألوا يا معشر قريش العلماء بالتوراة والإنجيل يخبرونكم أن جميع الأنبياء كانوا بشراً إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿بالبينات والزبر﴾ أي أرسلناهم بالحجج والبراهين الساطعة الدالة على صدقهم وبالزبر أي الكتب المقدسة ﴿وأنزلنا إليك الذكر﴾ أي القرآن المذكور الموقظ للقلوب الغافلة ﴿لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ أي لتعرف الناس الأحكام ، والحلال والحرام ﴿ولعلهم يتفكرون﴾ أي ولعلهم يتفكرون في هذا القرآن فيتعظون ﴿أفلمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض﴾ أي هل أمن هؤلاء الكفار الذين مكروا برسول الله ﷺ واحتالوا لقتله في دار الندوة ، هل آمنوا أن يخسف الله بهم الأرض كما فعل بقارون ؟ ﴿أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون﴾ أي يأتيهم العذاب بغتة في حال أمنهم واستقرارهم ، من حيث لا يخطر ببالهم ومن جهة لا يعلمون بها ﴿أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين﴾ أي يهلكهم في أثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء فإنهم على أي حال لا يعجزون الله ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ أي يهلكهم الله حال كونهم خائفين مترقبين لنزول العذاب قال ابن كثير : فإنه يكون أبلغ وأشد فإن حصول ما يتوقع مع الخوف شديد ﴿فإن ربكم لرؤوف رحيم﴾ أي حيث لم يعاجلكم بالعقوبة ﴿أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء﴾ أي أولم يعتبر هؤلاء الكافرون ويروا آثار قدرة الله وأنه ما من شيء من الجبال والأشجار والأحجار ومن سائر ما خلق الله ﴿يتفأيوا ظلاله عن اليمين والشمال سجداً لله﴾ أي تميل ظلالاتها من جانب إلى جانب ساجدة لله سجود خضوع لمشيئته تعالى وانقياد ، لا تخرج عن إرادته ومشيئته ﴿وهم داخرون﴾ أي خاضعون صاغرون فكل هذه الأشياء منقادة لقدرة الله وتديره فكيف يتعالى ويتكبر على طاعته أولئك الكافرون ؟ ﴿ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون﴾ أي

مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴿٥٠﴾

له تعالى وحده يخضع وينقاد جميع المخلوقات بما فيهم الملائكة فهم لا يستكبرون عن عبادته ﴿يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾ أي يخافون جلال الله وعظمته ، ويمثلون أوامره على الدوام .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الإيجاز بالحذف ﴿قالوا خيراً﴾ أي قالوا أنزل خيراً .
- ٢ - الإطناب في قوله ﴿ما عبدنا من دونه من شيء . . . ولا حرمننا من دونه من شيء﴾ .
- ٣ - الطباق في ﴿هدى الله . . . وحقَّتْ عليه الضلالة﴾ وفي ﴿لا يهدي من يُضل﴾ وفي ﴿اليمين والشمائل﴾ .
- ٤ - صيغة المبالغة في ﴿لرءوفٌ رحيم﴾ لأن فعول وفعل من صيغ المبالغة .
- ٥ - ذكر الخاص بعد العام في ﴿يسجد ما في السموات وما في الأرض . . . والملائكة﴾ زيادة في التعظيم والتكريم للملائكة الأطهار .
- ٦ - السجع في ﴿يتفكرون ، داخرون ، يشعرون﴾ .

فكائِدَة : استنبط بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً﴾ أن النبوة لا تكون إلا في الرجال ، وأما النساء فليس فيهن نبية ، وهو استنباط دقيق .

تبليّة : قال ابن تيمية في منهاج السنة : « والاحتجاج بالقدر حجة باطلة داحضة ، باتفاق كل ذي عقلٍ ودين من جميع العالمين ، ولهذا لما قال المشركون ﴿لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا﴾ ردَّ الله عليهم بقوله ﴿قل هل عندكم من علمٍ فتخرجوه لنا إن تتَّبِعُونَ إلا الظنَّ وإن أنتم إلا تخرصون﴾ والمشركون يعلمون بفطرتهم وعقولهم أن هذه الحجة باطلة ، فإنَّ أحدهم لو ظلم الآخر ، أو أراد قتل ولده ، أو الزنى بزوجه ، أو كان مصرأً على الظلم فهناه الناس عن ذلك فقال : لو شاء الله لم أفعل هذا ، لم يقبلوا منه هذه الحجة ولا يقبلها هو من غيره ، وإنما يحتج بها المحتج دفعاً للوم عن نفسه بلا وجه . . . » ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين . . . إلى . . . إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ من آية (٥١) إلى نهاية آية (٧٤) .

(١) عن محاسن التأويل الجزء العاشر بإيجاز .

المناسكة : لما ذكر تعالى أن كل ما في الكون منقادٌ لأمر الله ، خاضعٌ لسلطانه ، أمر هنا بإفراجه بالعبادة لأنه الخالق الرازق ، ثم ضرب الأمثال في ضلالات أهل الجاهلية ، وذكر الناس بنعمه الجليلة ليعبدوه ويشكروه .

اللفظة : ﴿واصباً﴾ دائماً ولازماً قال الجوهري : وصب الشيء وصوباً أي دام ومنه ﴿وهلم عذاباً واسب﴾ أي دائم وقال الشاعر : « وهزيم رعداه واسب »^(١) ﴿تجأرون﴾ الجؤار : رفع الصوت بالدعاء والتضرع يقال : جأر أي صاح قال الأعشى يصف بقرة :

فطافت ثلاثاً بينَ يومٍ وليلةٍ وكانَ النكيرُ أن تُطيفَ وتَجْأراً^(٢)

﴿كظيم﴾ ممتلئ غماً وغيظاً ، والكظم أن يطبق الفم فلا يتكلم من الغيظ ﴿يتواري﴾ يختفي ﴿هون﴾ هوانٍ وذُلٌّ ﴿فرث﴾ الفرث : الزبل الذي ينزل إلى الكرش أو المعى ﴿سائغاً﴾ لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ذلاً﴾ جمع ذلول وهو المنقاد المسخر بلا عناء ﴿حفدة﴾ الحفدة : قال الأزهري أولاد الأولاد ، والحفدة : الخدم والأعوان .

* وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌُ وَاحِدٌ فَإِنِّي فَارَهُبُونَ ﴿٥١﴾ وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَتَّقُونَ ﴿٥٢﴾ وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْعَرُونَ ﴿٥٣﴾ ثُمَّ إِذَا كُشِفَ الضُّرُّ عَنْكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ

التفسير : ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين﴾ أي لا تعبدوا إلهين فإن الإله الحق لا يتعدد ﴿إنما هو إله واحد﴾ أي إلهكم واحد أحد فردٌ صمد ﴿فإياي فارهبون﴾ أي خافون دون سواي ﴿وله ما في السموات والأرض﴾ أي ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿وله الدين واسباً﴾ أي له الطاعة والانقياد واجباً ثابتاً فهو الإله الحق ، وله الطاعة خالصة ﴿أفغير الله تتقون﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي كيف تتقون وتخافون غيره ، ولا نفع ولا ضر إلا بيده ؟ ﴿وما بكم من نعمة فمن الله﴾ أي ما تفضل عليكم أيها الناس من رزقٍ ونعمةٍ وعافيةٍ ونصرٍ فمن فضل الله وإحسانه ﴿ثم إذا مسَّكم الضرُّ فإليه تجأرون﴾ أي ثم إذا أصابكم الضرُّ من فقرٍ ومرضٍ وبأساءٍ فإليه وحده ترفعون أصواتكم بالدعاء ، والغرض أنكم تلجأون إليه وحده ساعة العسرة والضيق ، ولا تتوجهون إلا إليه دون الشركاء ﴿ثم إذا كشف الضر عنكم إذا فريقٌ منكم بربهم يشركون﴾ أي إذا رفع عنكم البلاء رجع فريق منكم إلى الإشراف بالله قال القرطبي : ومعنى الكلام التعجب من الإشراف بعد النجاة من الهلاك^(٣) ﴿ليكفروا بما آتيناهم﴾ أي ليبحدوا نعمته تعالى من كشف الضر والبلاء ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ أي تمتعوا بدار الفناء فسوف تعلمون عاقبة أمركم وما ينزل بكم من العذاب ، وهو أمرٌ

(١) البيت لحسان والهزيم : السحاب المتشقق بالمطر كذا في الطبري ١١٨/١٤ . (٢) القرطبي ١١٥/١٠ . (٣) القرطبي ١١٥/١٠ .

تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَهُمْ ۖ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَفْتَرُونَ ﴿٥٧﴾ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَنَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنْثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٩﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِنْ سُوءِ مَا بُشِّرَبِهِ ۚ أَيَسْكَبُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ ۗ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٦٠﴾ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السُّوءِ ۖ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦١﴾ وَلَوْ يَأْخُذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَعْجِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٦٢﴾

للتهديد والوعيد ﴿ويجعلون لما لا يعلمون نصيباً مما رزقناهم﴾ أي يجعلون للأصنام التي لا يعلمون ربوبيتها ببرهان ولا بحجة ^(١) نصيباً من الزرع والأنعام تقرباً إليها ﴿تالله لتسألن عما كنتم تفترون﴾ أي والله أيها المشركون لتسألن عما كنتم تحتلقونه من الكذب على الله ، والمراد سؤال توبيخ وتقريع ﴿ويجعلون لله البنات﴾ أي ومن جهل هؤلاء المشركين وسفاهتهم أن جعلوا الملائكة بنات الله ، فنسبوا إلى الله البنات وجعلوا لهم البنين ﴿سبحانه﴾ أي تنزه الله وتعظم عن هذا الإفك والبهتان ﴿ولهم ما يشتهون﴾ أي ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين مع كراهتهم أنهم يأنفون من البنات ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى﴾ أي إذا أخبر أحدهم بولادة بنت ﴿ظل وجهه مسوداً﴾ أي صار وجهه متغيراً من الغم والحزن قال القرطبي : وهو كناية عن الغم والحزن وليس يريد السواد ، والعرب تقول لكل من لقي مكروهاً قد اسودَّ وجهه ^(٢) ﴿وهو كظيم﴾ أي مملوء غيظاً وغماً ﴿يتوارى من القوم من سوء ما بشر به﴾ أي يختفي من قومه خوفاً من العار الذي يلحقه بسبب البنت ، كأنها بليّة وليست هبة إلهية ، ثم يفكر فيما يصنع ﴿أيسكه على هونٍ أم يدسه في التراب﴾ أي أيسك هذه الأنثى على ذلٍ وهوان أم يدفنها في التراب حية ؟ ﴿ألا ساء ما يحكمون﴾ أي ساء صنعهم وساء حكمهم ، حيث نسبوا لخالقهم البنات - وهي عندهم بتلك الدرجة من الذل والحقارة - وأضافوا البنين إليهم ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ﴿للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء﴾ أي هؤلاء الذين لم يصدقوا بالآخرة ونسبوا لله البنات سفهاً وجهلاً ، صفة السوء القبيحة التي هي كالمثل في القبح ، فالنقص إنما ينسب إليهم لا إلى الله ﴿ولله المثل الأعلى﴾ أي له جل وعلا الوصف العالي الشأن ، والكمال المطلق ، والتنزه عن صفات المخلوقين ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي العزيز في ملكه ، الحكيم في تدبيره ثم أخبر تعالى عن حلمه بالعباد مع ظلمهم فقال ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بظلمهم﴾ أي لو يؤاخذهم بكفرهم ومعاصيهم ويعاجلهم بالعقوبة ﴿ما ترك عليها من دابة﴾ أي ما ترك على الأرض أحداً يدب على ظهرها من إنسان وحيوان ﴿ولكن يؤخرهم إلى أجلٍ مسمى﴾ أي ولكن يؤخرهم إلى وقتٍ معينٍ تقتضيه الحكمة ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ أي فإذا جاء الوقت المحدد

(١) وقيل المعنى يجعلون لأهتهم التي لا علم لها لأنها جماد نصيباً مما أعطاهم الله . (٢) القرطبي ١٠/ ١١٦ .

وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ ﴿١٧﴾
 تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ وَمَا أُنزِلْنَا
 عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
 فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُم مِّنْهُ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم
 مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَنخُدُونَ
 هَلَاكِهِمْ لَا يَتَأَخَّرُونَ بَرَهَةً سِيرَةً مِنَ الزَّمَنِ وَلَا يَتَقَدَّمُونَ عَلَيْهَا كَقَوْلِهِ ﴿وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَّوْعِدًا﴾
 ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾ أَي يَجْعَلُونَ لَهُ تَعَالَى الْبَنَاتِ مَعَ كِرَاهَتِهِمْ لَهُنَّ ، وَهُوَ تَأْكِيدٌ لِّمَا سَبَقَ
 لِلتَّقْرِيعِ وَالتَّوْبِيخِ ﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ الْكُذْبَ أَنَّ لَهُمُ الْحُسْنَى﴾ أَي يَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَجْعَلُونَ وَمَعَ ذَلِكَ
 يَزْعُمُونَ أَنَّ لَهُمُ الْعَاقِبَةَ الْحُسْنَى عِنْدَ اللَّهِ وَأَنَّهُمْ أَهْلُ الْجَنَّةِ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ النَّارَ﴾ أَي حَقًّا إِنََّّهُمْ مَكَانَ مَا
 أَمَلُوا نَارَ جَهَنَّمَ الَّتِي لَيْسَ وَرَاءَ عَذَابِهَا عَذَابٌ ﴿وَأَنَّهُمْ مُّفْرَطُونَ﴾ أَي مُعَجَّلُونَ إِلَيْهَا وَمُقَدَّمُونَ ^(١) ، ثُمَّ
 ذَكَرَ تَعَالَى نِعْمَتَهُ فِي إِرْسَالِ الرُّسُلِ لِتَأْسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ فِي الصَّبْرِ عَلَى تَحْمِلِ الْأَذَى فَقَالَ ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ
 أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ أَي وَاللَّهِ لَقَدْ بَعَثْنَا قَبْلَكَ يَا مُحَمَّدُ رُسُلًا إِلَى
 أَقْوَامِهِمْ فَحَسَّنَ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمُ الْقَبِيحَةَ حَتَّى كَذَبُوا الرُّسُلَ وَرَدُّوا عَلَيْهِمْ مَا جَاءَهُمْ بِهِ مِنَ الْبَيِّنَاتِ
 ﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ﴾ أَي فَالشَّيْطَانُ نَاصِرُهُمُ الْيَوْمَ فِي الدُّنْيَا وَبُشُّ النَّاصِرِ ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أَي
 وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ مُّؤَلَّمٌ ﴿وَمَا أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أَي مَا
 أُنزِلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ يَا مُحَمَّدُ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الدِّينِ وَالْأَحْكَامِ لِتَقُومَ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ ﴿وَهَدَى
 وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أَي وَأُنزِلْنَا الْقُرْآنَ هَدَايَةً لِلْقُلُوبِ ، وَرَحْمَةً وَشِفَاءً لِّمَن آمَنَ بِهِ ، ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى
 عَظِيمَ قُدْرَتِهِ الدَّالَّةَ عَلَى وَحْدَانِيَّتِهِ فَقَالَ ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أَي
 أَنْزَلَ بِقُدْرَتِهِ الْمَاءَ مِنَ السَّحَابِ فَأَحْيَا بِذَلِكَ الْمَاءِ النَّبَاتَ وَالزَّرْعَ بَعْدَ جَدْبِ الْأَرْضِ وَيُسْهَى ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ
 لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أَي إِنَّ فِي هَذَا الْإِحْيَاءِ لَدَلَالَةً بَاهِرَةً عَلَى عَظِيمِ قُدْرَتِهِ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ التَّذْكِيرَ
 فَيَتَذَكَّرُونَ وَيَعْقِلُونَ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾ أَي وَإِنَّ لَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ فِي هَذِهِ الْأَنْعَامِ «الْإِيلَ
 وَالْبَقَرِ وَالضَّأْنِ وَالْمَعْزِ» لَعِظَةً وَعِبْرَةً يَعْتَبِرُ بِهَا الْعُقَلَاءُ ، فَفِي خَلْقِهَا وَتَسْخِيرِهَا دَلَالَةٌ عَلَى قُدْرَةِ اللَّهِ
 وَعَظَمَتِهِ وَوَحْدَانِيَّتِهِ ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ أَي نُسْقِيكُمْ مِنْ بَعْضِ الَّذِي فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ
 ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا﴾ أَي مِنْ بَيْنِ الرُّوثِ وَالدَّمِ ذَلِكَ الْحَلِيبُ الْخَالِصُ وَاللَّبَنُ النَّافِعُ ^(٢)

(١) هذا قول قتادة والحسن من الفرط وهو السابق إلى طلب الماء ، وقال مجاهد : «مُفْرَطُونَ» متروكون منسيون في النار .

(٢) قال الزخشي : والآية بيانٌ للعبرة فإن الله سبحانه يخلق اللبن وسطاً بين الفَرْثِ والدَّمِ يكتنفانه وبينهما برزخ من قدرة الله لا يبغي أحدهما عليه بلون ، ولا طعم ، ولا رائحة ، فسبحان الله ما أعظم قدرته ، وألطف حكمته لمن تفكر وتأمل . الكشف ٦١٥/٢ .

مِنْهُ سَكْرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٧﴾ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿١٨﴾ ثُمَّ كُلِي مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٩﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

﴿سائغاً للشاربين﴾ أي سهل المرور في حلقهم ، لذيذاً هيناً لا يغصُّ به من شربه ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرًا﴾ أي ولكم مما أنعم الله به عليكم من ثمرات النخيل والأعناب ما تجعلون منه خمرًا يسكر قال الطبري : وإنما نزلت هذه الآية قبل تحريم الخمر ثم حرمت بعد (١) ﴿ورزقاً حسناً﴾ كالتمر والزبيب قال ابن عباس : الرزق الحسن : ما أحلَّ من ثمرتها ، والسُّكر : ما حرَّم من ثمرتها . ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعقلون﴾ أي لآية باهرة ، ودلالة قاهرة على وحدانيته سبحانه لقوم يتدبرون بعقولهم قال ابن كثير : وناسب ذكر العقل هنا لأنه أشرف ما في الإنسان ، ولهذا حرَّم الله على هذه الأمة الأشربة المسكرة صيانةً لعقولها (٢) ، ولما ذكر تعالى ما يدل على باهر قدرته ، وعظيم حكمته من إخراج اللبن من بين فرثٍ ودمٍ ، وإخراج الرزق الحسن من ثمرات النخيل والأعناب ، ذكر إخراج العسل الذي جعله شفاءً للناس من النحل ، وهي حشرة ضعيفة وفيها عجائب بديعة وأمور غريبة ، وكل هذا يدل على وحدانية الصانع وقدرته وعظمته فقال تعالى ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون﴾ المراد من الوحي : الإلهام والهداية أي ألهما مصالحها وأرشدتها إلى بناء بيوتها المسدسة العجيبة تأوي إليها في ثلاثة أمكنة : الجبال ، والشجر ، والأكوار التي يبنها الناس ﴿ثم كلي من كل الثمرات﴾ أي كلي من كل الأزهار والثمار التي تشتهينها من الخلو ، والمر ، والحامض ، فإن الله بقدرته يحيلها إلى عسل ﴿فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾ أي أدخلي الطرق في طلب المرعى حال كونها مسخرة لك لا تضلين في الذهاب أو الإياب ﴿يخرج من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانه فيه شفاءٌ للناس﴾ أي يخرج من بطون النحل عسلٌ متنوعٌ منه أحمر ، وأبيض ، وأصفر ، فيه شفاءٌ للناس من كثيرٍ من الأمراض قال الرازي فإن قالوا : كيف يكون شفاءً للناس وهو يضر بالصفراء ؟ فالجواب أنه تعالى لم يقل : إنه شفاءٌ لكل الناس ، ولكل داء ، وفي كل حال ، بل لما كان شفاءً للبعض ومن بعض الأدوية صلح بأن يوصف بأن فيه شفاء (٣) ﴿إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون﴾ أي لعبرة لقوم يتفكرون في عظيم قدرة الله ، وبديع صنعه ﴿والله خلقكم ثم يتوفاكم﴾ أي خلقكم بقدرته بعد أن لم تكونوا شيئاً ثم يتوفاكم عند انقضاء آجالكم ﴿ومنكم من يُردُّ إلى أَرْدَلِ الْعُمُرِ﴾ أي يُردُّ إلى أرء وأضعف العمر وهو الهرم والخرف ﴿لكي لا يعلم بعد علم شيئاً﴾ أي لينسى ما يعلم فيشبهه الطفل في نقصان القوة والعقل ﴿إن الله عليمٌ قديرٌ﴾ أي عليمٌ بتدبير خلقه ،

وَاللَّهُ فَضَّلَ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ فِي الرِّزْقِ ۖ فَمَا الَّذِينَ فُضِّلُوا بِرَادَىٰ رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَاءٌ أَفَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٧١﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ۚ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَتِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ ﴿٧٢﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَهُمْ رِزْقًا مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَيْئًا وَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٧٣﴾ فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧٤﴾

قديرٌ على ما يريده ، فكما قدر على نقل الإنسان من العلم إلى الجهل ، فإنه قادر على إحيائه بعد إماتته قال عكرمة : من قرأ القرآن لم يرد إلى أرذل العمر^(١) ﴿والله فضل بعضكم على بعض في الرزق﴾ أي فاوت بينكم في الأرزاق فهذا غني وذاك فقير ، وهذا مالك وذاك مملوك ﴿فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيماهم فهم فيه سواء﴾ أي ليس هؤلاء الأغنياء بمشركين لعبيدهم المماليك فيما رزقهم الله من الأموال حتى يستوا في ذلك مع عبيدهم ، وهذا مثل ضربه الله تعالى للمشركين قال ابن عباس : لم يكونوا ليشركوا عبيدهم في أموالهم ونسائهم ، فكيف يشركون عبيدي معي في سلطاني^(٢) ؟ ﴿أفبنعمة الله يجحدون﴾ الاستفهام للإنكار أي أيشركون معه غيره وهو المنعم المتفضل عليهم ؟ ﴿والله جعل لكم من أنفسكم أزواجا﴾ أي هو تعالى بقدرته خلق النساء من جنسكم وشكلكم ليحصل الائتلاف والمودة والرحمة بينكم ﴿وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة﴾ أي جعل لكم من هؤلاء الزوجات الأولاد وأولاد الأولاد ، سموا حفدة لأنهم يخدمون أجدادهم ويسارعون في طاعتهم ﴿ورزقكم من الطيبات﴾ أي رزقكم من أنواع اللذائذ من الثمار والحبوب والحيوان ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله هم يكفرون﴾ أي أبعد تحقق ما ذكر من نعم الله يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ وهو استفهام للتوبيخ والتفريع ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقا من السموات والأرض شيئا﴾ أي ويعبد هؤلاء المشركون أوثانا لا تقدر على إنزال مطر ، ولا على إخراج زرع أو شجر ، ولا تقدر أن ترزقهم قليلا أو كثيرا ﴿ولا يستطيعون﴾ أي ليس لها ذلك ولا تقدر عليه لو أرادت ﴿فلا تضربوا لله الأمثال﴾ أي لا تمثلوا لله الأمثال ، ولا تشبهوا له الأشباه ، فإنه تعالى لا مثل له ولا نظير ولا شبيه ﴿إن الله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي يعلم كل الحقائق ، وأنتم لا تعلمون قدر عظمة الخالق .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من صنوف البيان والبدیع ما يلي :

١ - الالتفات من التكلم إلى الغيبة من الغيبة إلى المتكلم ﴿فإياي فارهبون﴾ لتربية المهابة والرهبة في القلوب مع إفادة القصر أي لا تخافوا غيري .

٢ - الطباقي في ﴿يستقدمون﴾ . . ويستأخرون ﴿ وفي ﴿أحيا الأرض بعد موتها﴾ وفي ﴿يؤمنون﴾ . . ويكفرون ﴿ .

٣ - الجناس الناقص بين ﴿كلي من كل﴾ .

٤ - الاعتراض ﴿ويجعلون لله البنات - سبحانه - ولهم ما يشتهون﴾ فلفظة (سبحانه) معترضة لتعجيب الخلق من هذا الجهل القبيح .

٥ - صيغة المبالغة في ﴿العزیز الحكيم﴾ و﴿عليمٌ قدير﴾ .

٦ - السجع ﴿يعقلون ، يعرشون ، يحددون ، يكفرون﴾ .

٧ - التهديد والوعيد ﴿فتمتعوا فسوف تعلمون﴾ .

٨ - قوله تعالى ﴿وتصف ألسنتهم الكذب﴾ قال الشهاب : هذا من بليغ الكلام وبديعه أي ألسنتهم كاذبة كقولهم ﴿عينها تصفُ السحر﴾ أي ساحرة ، وقدَّها يصف الهيف أي هيفاء .

قال الله تعالى : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً . . إلى . . . يعظكم لعلم تذكرون﴾

من آية (٧٥) إلى نهاية آية (٩٠)

المناسكة : لما ذكر تعالى سفاهة المشركين في عبادتهم لغير الله ، أعقبه بذكر مثلين توضيحاً لبطلان عبادة الأوثان التي لا تضر ولا تنفع ، ولا تستجيب ولا تسمع ، ثم ذكّر الناس ببعض النعم التي أفاضها عليهم ليعبدوه ويشكروه ، ويخلصوا له العمل طائعين منيبين .

اللفكتر : ﴿أبكم﴾ الأبكم : الأخرس الذي لا ينطق ﴿كل﴾ الكل : الثقليل الذي هو عيال على الغير وقد يسمى اليتيم كلاً لثقله على من يكفله قال الشاعر :

أَكُولُ لِمَالِ الْكَلِّ قَبْلَ شِبَابِهِ إِذَا كَانَ عَظُمَ الْكَلُّ غَيْرَ شَدِيدٍ^(١)

﴿لمح﴾ اللّمح : النظر بسرعة مثل الخطفة يقال لمحّه لمحاً ولمحاناً ﴿ظعنكم﴾ الظّعن : السفر والرحيل لطلب الكلاً ، والظعينة المرأة المسافرة ﴿أوبارها﴾ الوبر للإبل كالصوف للغنم ﴿ظلالاً﴾ الظلال : كل ما يستظل به من البيوت والشجر ﴿أكناناً﴾ جمع كنّ مثل حيل وأحمال وهو كل ما يحفظ ويبقى من الريح والمطر

* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنْ رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ^ج الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧٥﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٧٦﴾ وَلِلَّهِ غَيْبُ

وغيرهما ﴿سرايل﴾ جمع سربال قال الزجاج : كل ما لبسته من قميص أو درع فهو سربال^(١) .

التفسير : ﴿ضرب الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ومن رزقناه من رزقاً حسناً﴾ هذا مثل ضرب به الله تعالى لنفسه وللأصنام التي أشركوها مع الله جل وعلا أي مثل هؤلاء في إشراكهم مثل من سوى بين عبد مملوك عاجز عن التصرف ، وبين حر مالك يتصرف في أمره كيف يشاء ، مع أنها سيئات في البشرية والمخلوقية لله سبحانه وتعالى ، فما الظن برب العالمين حيث يشركون به أعجز المخلوقات ؟ ﴿فهو ينفق منه سراً وجهراً﴾ أي ينفق ماله في الخفاء والعلانية ابتغاء وجه الله ﴿هل يستوون﴾ ؟ أي هل يستوي العبيد والأحرار الذين ضرب لهم المثل ، فالأصنام كالعبد المملوك الذي لا يقدر على شيء ، والله تعالى له الملك ، وبيده الرزق ، وهو المتصرف في الكون كيف يشاء ، فكيف يسوى بينه وبين الأصنام ؟ ﴿الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي شكراً لله على بيان هذا المثل ووضوح الحق فقد ظهرت الحجة مثل الشمس الساطعة ، ولكن المشركين بسفاههم وجهلهم يسوون بين الخالق والمخلوق ، والمالك والمملوك ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شيء﴾ هذا هو المثل الثاني للتفريق بين الإله الحق والأصنام الباطلة قال مجاهد : هذا مثل مضروب للوثن والحق تعالى^(٢) ، فالوثن أبكم لا يتكلم ولا ينطق بخير ، ولا يقدر على شيء بالكلية لأنه إما حجر أو شجر ، ﴿وهو كل على مولاه﴾ أي ثقل عالة على وليه أو سيده ﴿أينما يوجهه لا يأت بخير﴾ أي حيثما أرسله سيده لم ينجح في مسعاه لأنه أخرس ، بليد ، ضعيف ﴿هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم﴾ أي هل يتساوى هذا الأخرس ، وذلك الرجل البليغ المتكلم بأفصح بيان ، وهو على طريق الحق والاستقامة ، مستنير بنور القرآن ؟ وإذا كان العاقل لا يسوي بين هذين الرجلين ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر^(٣) ، وبين الله سبحانه وهو القادر العليم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ؟ ﴿ولله غيب

(١) قال الإمام ابن القيم : ذكر الله تعالى مثلين : فالمثل الأول ضربه لنفسه سبحانه والأوثان ، فالله هو المالك لكل شيء ، ينفق كيف يشاء على عبده سراً وجهراً ، وليلاً ونهاراً ، والأوثان مملوكة عاجزة لا تقدر على شيء ، فكيف يجعلونها شركاء إلى ويعبدونها من دونه مع التفاوت العظيم والفرق المبين ؟ وأما المثل الثاني فالصنم الذي يعبد من دونه بمنزلة رجل أبكم ، لا يعقل ولا ينطق ، بل هو أبكم القلب واللسان ، ومع هذا لا يقدر على شيء البتة ، أينما أرسلته لا يأتيك بخير ، ولا يقضي لك حاجة ، والله سبحانه حي قادر ، متكلم ، يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ، وهذا وصف له بغاية الكمال والحمد . أعلام الموقعين لابن القيم . (٢) الرازي ٩٣/٢٠ . (٣) مختصر ابن كثير ٣٤٠/٢ .

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧٧﴾ وَاللَّهُ
أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾
أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ
لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ
أَصْوَاهَا وَأَوْبَارَهَا وَأَشْعَارِهَا أَثْنَا وَمِئْتًا إِلَى حِينٍ ﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ

السموات والأرض ﴿٧٧﴾ أي هو سبحانه المختص بعلم الغيب ، يعلم ما غاب عن الأبصار في السموات والأرض ﴿٧٨﴾ وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب ﴿٧٩﴾ أي ما شأن الساعة في سرعة المجيء إلا كنظرة سريعة بطرف العين ، بل هو أقرب لأنه تعالى يقول للشيء : كن فيكون ، وهذا تمثيل لسرعة مجيئها ولذلك قال ﴿٨٠﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿٨١﴾ أي قادر على كل الأشياء ومن جعلتها القيامة التي يكذب بها الكافرون ﴿٨٢﴾ والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ﴿٨٣﴾ أي أخرجكم من أرحام الأمهات لا تعرفون شيئاً أصلاً ﴿٨٤﴾ وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون ﴿٨٥﴾ أي خلق لكم الحواس التي بها تسمعون وتبصرون وتعقلون لتشكروه على نعمه وتحمده على آلائه ﴿٨٦﴾ ألم يروا إلى الطير مسخرات في جوف السماء ﴿٨٧﴾ هذا من الأدلة على قدرة الله تعالى ووحدانيته والمعنى : ألم يشاهدوا الطيور مذللات للطيران في ذلك الفضاء الواسع بين السماء والأرض ﴿٨٨﴾ ما يمسكهن إلا الله ﴿٨٩﴾ أي ما يمسكهن عن السقوط عند قبض أجنحتهن وبسطها إلا هو سبحانه ﴿٩٠﴾ إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴿٩١﴾ أي إن في ذلك لآيات ظاهرة ، وعلامات باهرة على وحدانيته تعالى لقوم يصدقون بما جاءت به رسل الله ﴿٩٢﴾ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ﴿٩٣﴾ هذا تعداد لنعم الله على العباد أي جعل لكم هذه البيوت من الحجر والمدر لتسكنوا فيها أيام مقامكم في أوطانكم ﴿٩٤﴾ وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً ﴿٩٥﴾ أي وجعل لكم بيوتاً أخرى وهي الخيام والقباب المتخذة من الشعر والصوف والوبر ﴿٩٦﴾ تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ﴿٩٧﴾ أي تستخفون حملها ونقلها في أسفاركم ، وهي خفيفة عليكم في أوقات السفر والحضر ﴿٩٨﴾ ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثناً ﴿٩٩﴾ أي وجعل لكم من صوف الغنم ، ووبر الإبل ، وشعر المعز ما تلبسون وتفرضون به بيوتكم ﴿١٠٠﴾ ومتاعاً إلى حين ﴿١٠١﴾ أي تنتفعون وتمتعون بها إلى حين الموت ﴿١٠٢﴾ والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ﴿١٠٣﴾ أي جعل لكم من الشجر والجبل والأبنية وغيرها ظلالاً تنقون بها حر الشمس ﴿١٠٤﴾ وجعل لكم من الجبال أكنناً ﴿١٠٥﴾ أي وجعل لكم في الجبال مواضع تسكنون فيها كالكهوف والحصون قال الرازي : لما كانت بلاد العرب شديدة الحر ، وحاجتهم إلى الظل ودفع الحر شديدة ، فلهذا ذكر تعالى هذه المعاني في معرض

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد ، وقال مقاتل : تنتفعون بها إلى أن تبلى .

الْجِبَالِ أَكَنَّا وَجَعَلْ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيَكُمُ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يَتِمُّ نِعْمَتُهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴿٨٨﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْعُ الْمُبِينُ ﴿٨٩﴾ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ ﴿٩٠﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٩١﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلَاءِ شُرَكَائُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا مِنْ دُونِكَ فَأَلْقُوا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٣﴾ وَالْقَوَا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَامُ وَضَلَّ

النعمة العظيمة^(١) ﴿٩٤﴾ وجعل لكم سراويل تقيكم الحر^(٢) أي جعل لكم الثياب من القطن والصوف والكتان لتحفظكم من الحر والبرد ﴿٩٥﴾ وسراويل تقيكم بأسكم أي ودروعاً تشبه الثياب تتقون بها شر أعدائكم في الحرب ﴿٩٦﴾ كذلك يتم نعمته عليكم أي مثل ما خلق هذه الأشياء لكم وأنعم بها عليكم فإنه يتم نعمة الدنيا والدين عليكم ﴿٩٧﴾ لعلكم تسلمون أي لتخلصوا لله الربوبية ، وتعلموا أنه لا يقدر على هذه الإنعامات أحد سواه ﴿٩٨﴾ فإن تولَّوْا فإنما عليك البلاغ المبين أي فإن أعرضوا عن الإيمان ولم يؤمنوا بما جئتهم به يا محمد فلا ضرر عليك لأن وظيفتك التبليغ وقد بلغت الرسالة وأدبت الأمانة ﴿٩٩﴾ يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها أي يعرف هؤلاء المشركون نعم الله التي أنعم بها عليهم ، ويعترفون بأنها من عند الله ثم ينكرونها بعبادتهم غير المنعم وقال السدي : نعمة الله هي محمد ﷺ عرفوا نبوته ، ثم جحدوها وكذبوه ﴿١٠٠﴾ وأكثرهم الكافرون أي أكثرهم يموتون كفاراً وفيه إشارة إلى أن بعضهم يهتدي للإسلام وأما أكثرهم فمصرّون على الكفر والضلال ﴿١٠١﴾ ويوم نبعث من كل أمة شهيداً أي ويوم القيامة نحشر الخلائق للحساب ونبعث في كل أمة نبيها يشهد عليها بالإيمان والكفر ﴿١٠٢﴾ ثم لا يؤذن للذين كفروا أي لا يؤذن للذين كفروا في الاعتذار لأنهم يعلمون بطلانه وكذبه ﴿١٠٣﴾ ولا هم يستعتبون أي لا يطلب منهم أن يسترضوا ربهم بقول أو عمل ، فقد فات أوان العتاب والاسترضاء ، وجاء وقت الحساب والعقاب قال القرطبي : العتبي هي رجوع المعتوب عليه إلى ما يرضي العاتب ، وأصل الكلمة من العتب وهي الموجدة فإذا وجد عليه يقال : عتب ، وإذا رجع إلى مسرتك فقد أعتب^(٣) ﴿١٠٤﴾ وإذا رأى الذين ظلموا العذاب فلا يخفف عنهم أي وإذا رأى المشركون عذاب جهنم فلا يقتر عنهم ساعة واحدة ﴿١٠٥﴾ ولا هم ينظرون أي لا يؤخرون ولا يمهلون ﴿١٠٦﴾ وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم أي وإذا أبصر المشركون شركاءهم الذين كانوا يعبدونهم في الدنيا ويزعمون أنهم شركاء الله في الألوهية ﴿١٠٧﴾ قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوا من دونك أي هؤلاء الذين عبدناهم من دونك قال البيضاوي : وهذا اعتراف بأنهم كانوا مخطئين في ذلك والتماس لتخفيف العذاب^(٤) ﴿١٠٨﴾ فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون أي أجابوهم بالتكذيب فيما قالوا في تقرير وتوكيد ، وذلك مما يوجب زيادة الغم والحسرة في قلوبهم ﴿١٠٩﴾ وألقوا إلى الله يومئذ السَّلام

(١) التفسير الكبير ٩٣/٢٠ . (٢) وهذا اختيار الطبري . (٣) القرطبي ١٠/١٦٣ . (٤) البيضاوي ٢٩٦ .

عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٨٧﴾ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ * إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾

أي استسلم أولئك الظالمون لحكم الله تعالى بعد الإياء والاستكبار في الدنيا ﴿وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي بطل ما كانوا يؤملون من أن ألهتهم تشفع لهم عند الله ، ثم أخبر تعالى عن ما لهم بعد أن أخبر عن حالهم فقال ﴿الذين كفروا وصدُّوا عن سبيل الله﴾ أي كفروا بالله ومنعوا الناس عن الدخول في دين الإسلام ﴿زدناهم عذاباً فوق العذاب﴾ أي زدناهم عذاباً في جهنم فوق عذاب الكفر ، لأنهم ارتكبوا جريمة صدَّ الناس عن الهدى فوق جريمة الكفر ، فضوعف لهم العذاب جزاءً وفاقاً ﴿بما كانوا يُفسدون﴾ أي بسبب إفسادهم في الدنيا بالكفر والمعصية ﴿ويوم نبعث في كل أمة شهيداً عليهم من أنفسهم﴾ أي اذكر للناس ذلك اليوم وهو له حين نبعث في كل أمة نبيها ليشهد عليها ﴿وجئنا بك شهيداً على هؤلاء﴾ أي وجئنا بك يا محمد شهيداً على أمتك ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾ أي ونزلنا عليك القرآن المنير بياناً شافياً بليغاً لكل ما يحتاج الناس إليه من أمور الدين فلا حجة لهم ولا معذرة قال ابن مسعود : قد بين لنا في هذا القرآن كلُّ علمٍ ، وكل شيء ^(١) ﴿وهدى ورحمةً وبشرى للمسلمين﴾ أي هداية للقلوب ، ورحمة للعباد ، وبشارة للمسلمين المهتدين ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان﴾ أي يأمر بمكارم الأخلاق بالعدل بين الناس ، والإحسان إلى جميع الخلق ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ أي مواساة الأقرباء ، وخصه بالذكر اهتماماً به ﴿وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ أي ينهى عن كل قبيح من قولٍ ، أو فعلٍ ، أو عملٍ قال ابن مسعود : هذه أجمعُ آيةٍ في القرآن لخيرٍ يُمتثل ، ولشرٍ يُجتنب ^(٢) والفحشاء كل ما تنهى قبحه كالزنى والشرك ، والمنكر كل ما تنكره الفطرة ، والبغى هو الظلم وتجاوز الحق والعدل ﴿يعظكم لعلكم تذكرون﴾ أي يؤدبكم بما شرع من الأمر والنهي لتتعظوا بكلام الله .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة التمثيلية في ﴿وضرب الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم . .﴾ الآية تمثيلٌ للوثن بالأبكم الذي لا ينتفع منه بشيء أصلاً ، مع القادر السميع البصير وشتان بين الرب والصنم .

٢ - التشبيه المرسل المجل في ﴿كلمح البصر﴾ .

- ٣ - الطباقي بين ﴿سراً وجهراً﴾ وبين ﴿يعرفون . . وينكرون﴾ وبين ﴿ظعنكم . . وإقامتكم﴾ .
- ٤ - الإيجاز بالحذف في ﴿سراييل تقيكم الحر﴾ أي والبرد حذف الثاني استغناءً بذكر الأول .
- ٥ - المقابلة اللطيفة ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى﴾ أمر بثلاثة ونهى عن ثلاثة وهو من المحسنات البديعية .
- ٦ - ذكر الخاص بعد العام للاهتمام بشأنه ﴿وإيتاء ذي القربى﴾ بعد لفظ الإحسان الذي هو عام .

لطيفة : ذكر أن « أكنم بن صيفي » لما بلغه خبر الرسول ﷺ انتدب رجلين فأتياه فقالا : أنت ؟ وما أنت ؟ فقال أنا محمد بن عبد الله ، وأنا رسول الله ثم تلا علينا هذه الآية ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان . .﴾ الآية فرجعا إلى أكنم فلما قرأ عليه الآية قال : إني أراه يأمر بمكارم الأخلاق ، وينهى عن مساوئها ، فكونوا في هذا الأمر رؤساء ، ولا تكونوا فيه أذناناً^(١) .

قال تعالى : ﴿وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم . . . إلى . . إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ من آية (٩١) إلى نهاية آية (١١٠) .

المناسبة : لما استقصى تعالى في الوعد والوعيد ، والترغيب والترهيب ، وذكر جملة المكارم والفضائل ، حذر تعالى هنا من نقض العهود والمواثيق وعصيان أوامر الله تعالى ، لأن العصيان سبب البلاء والحرمان ، ثم ذكر تعالى ما أعده لأهل الإيمان من الحياة الطيبة الكريمة .

اللفظ : ﴿تنقضوا﴾ النقض ضد الإيثار ، وهو فك أجزاء الشيء بعضها من بعض ﴿توكيدها﴾ التوكيد التشييع يقال : توكيد وتأكيد ﴿أنكاثاً﴾ أنقاضاً والنكث : النقض بعد الفتل ﴿دخلاً﴾ الدخل : الدغل والخديعة والغش قال أبو عبيدة : كل أمر لم يكن صحيحاً فهو دخل ﴿ينفذ﴾ نفذ الشيء ينفذ فني ﴿أعجمي﴾ الأعجمي الذي لا يتكلم العربية وقال الفراء : الأعجم الذي في لسانه عجمة وإن كان من العرب ، والعجمي الذي أصله من العجم ﴿يلحدون﴾ الإلحاد : الميل يقال لحد وألحد إذا مال عن القصد والاستقامة .

سبب النزول : أ - روي أن النبي ﷺ كان يجلس عند المروة إلى غلام نصراني يقال له « جبر » وكان يقرأ الكتب فقال المشركون : والله ما يعلمه ما يأتي به إلا جبر الرومي فأنزل الله عز وجل ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر . .﴾^(٢) الآية .

ب - عن ابن عباس أن المشركين أخذوا عمار بن ياسر وأباه ياسراً وأمه سُميَّة وصهيياً وبلالاً

فعدبوههم ، ورُبطت « سُمِّيَّة » بين بعيرين وُوجيء قُبِلها بحربة فقتلت ، وقُتل زوجها ياسر - وهما أول قتيلين في الإسلام - وأما عَمَار فأعطاهم ما أرادوا بلسانه مُكرهاً ، فشكا ذلك إلى رسول الله ﷺ فقال له الرسول الكريم : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئنٌ بالإيمان ، فقال رسول الله ﷺ : فإن عادوا فعدُّ وأنزل الله ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان . . ﴾ (١) الآية .

وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَعْمَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِي نَقَضَتْ غَزَاهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكُنَّا تَتَخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ أَنْ تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَى مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبُلُوكُمْ اللَّهُ بِهِءٌ وَلِيُبَيِّنَ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ مَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ يَضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَلَنُسْأَلَنَّ عَمَّا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَرِلَ قَدَمُ بَعْدِ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا أَلْسُوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ : ﴿ وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ ﴾ أي حافظوا على العهود التي عاهدتم عليها الرسول أو الناس وأدوها على الوفاء والتمام ﴿ ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ﴾ أي ولا تنقضوا أيمان البيعة بعد توثيقها بذكر الله تعالى ﴿ وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً ﴾ أي جعلتم الله شاهداً ورقياً على تلك البيعة ﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾ أي عليم بأفعالكم وسيجازيكم عليها ﴿ ولا تكونوا كالتي نقضت غزها من بعد قوَّةٍ أنكاثاً ﴾ هذا مثلٌ ضرب به الله لمن نكث عهده (٢) ، شبهت الآية الذي يخلف ويعاهد ويبرم عهده ثم ينقضه بالمرأة تغزل غزلها وتفتله محكماً ثم تحله أنكاثاً أي أنقاضاً قال المفسرون : كان بمكة امرأة حمقاء تغزل غزلاً ثم تنقضه ، وكان الناس يقولون : ما أحق هذه ! ﴿ تتخذون أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ أي تتخذون أيمانكم خديعة ومكراً تخدعون بها الناس ﴿ أن تكون أمةٌ هي أربى من أمة ﴾ أي لأجل أن تكون أمة أكثر عدداً وأوفر مالاً من غيرها قال مجاهد : كانوا يخالفون الحلفاء فيجدون أكثر منهم وأعز ، فينقضون حلف هؤلاء ويخالفون أولئك (٣) ﴿ إنما يبلوكم الله به ﴾ أي إنما يختبركم الله بما أمركم به من الوفاء بالعهد لينظر المطيع من العاصي ﴿ وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ أي ليجازي كل عاملٍ بعمله من خيرٍ وشرٍّ ﴿ ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ﴾ أي لو شاء الله لخلق الناس باستعداد واحد ، وجعلهم أهل ملة واحدة ، لا يختلفون ولا يفترون ﴿ ولكن يضل من يشاء ويهدي من يشاء ﴾ أي ولكن اقتضت حكمته أن يتركهم لاختيارهم ، ناسٌ للسعادة وناسٌ للشقاوة ، فيضل من يشاء بخذلانه إياهم عدلاً ، ويهدي من يشاء بتوفيقه إياهم فضلاً ﴿ ولنسألنَّ عَمَّا كنتم تعملون ﴾ أي ثم يسألكم يوم القيامة عن جميع أعمالكم فيجازيكم على الفتل والقطمير ﴿ ولا تتخذوا أيمانكم دخلاً بينكم ﴾ كرره تأكيداً ومبالغة في تعظيم شأن العهود أي لا تعقدوا الأيمان وتجعلوها خديعة

عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ وَلَا تَسْتُرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ تَمَنَّا قَلِيلًا إِنَّمَا عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لِّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٥﴾ مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أَنشَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿١٨﴾

ومكرأ تغرون بها الناس لتحصلوا على بعض منافع الدنيا الفانية ^(١) ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ أي فتزل أقدامكم عن طريق الاستقامة وعن محجة الحق بعد رسوخها فيه قال ابن كثير: هذا مثل لمن كان على الاستقامة فحاد عنها ، وزل عن طريق الهدى بسبب الإيمان الحائثة ، المشتملة على الصد عن سبيل الله ، لأن الكافر إذا رأى المؤمن قد عاهده ثم غدر به لم يبق له وثوق بالدين ، فيصد بسببه عن الدخول في الإسلام ^(٢) ولهذا قال ﴿وتذوقوا السوء بما صددتم عن سبيل الله﴾ أي يصيبكم العقاب الدنيوي العاجل الذي يسوءكم لصدكم غيركم عن اعتناق الإسلام بسبب نقض العهود ﴿ولكم عذاب عظيم﴾ أي ولكم في الآخرة عذاب كبير في نار جهنم ﴿ولا تشتروا بعهد الله ثمناً قليلاً﴾ أي لا تستبدلوا عهد الله وعهد رسوله بحطام الدنيا الفاني ﴿إنما عند الله هو خير لكم إن كنتم تعلمون﴾ أي ما عند الله من الأجر والثواب خير لكم من متاع الدنيا العاجل إذا كنتم تعلمون الحقيقة ، ثم علل ذلك بقوله ﴿ما عندكم ينفد وما عند الله باق﴾ أي ما عندكم أيها الناس فإنه فان زائل ، وما عند الله فإنه باق دائم ، لا انقطاع له ولا نقاد ، فأثروا ما يبقى على ما يفنى ﴿ولنجزيَنَّ الذين صبروا أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنثيب الصابرين بأفضل الجزاء ، ونعطيهم الأجر الوافي على أحسن الأعمال مع التجاوز عن السيئات ، وهذا وعد كريم بمنح أفضل الجزاء على أفضل العمل ، ليكون الجزاء على أحسن العمل دون سواه ، وكل ذلك بفضل الله ﴿من عمل صالحاً من ذكرٍ أو أنشَى وهو مؤمن﴾ أي من فعل الصالحات ذكراً كان أو أنشى بشرط الإيمان ﴿فلنحيينه حياة طيبة﴾ أي فلنحيينه في الدنيا حياة طيبة بالقناعة والرزق الحلال ، والتوفيق لصالح الأعمال وقال الحسن : لا تطيب الحياة لأحدٍ إلا في الجنة لأنها حياة بلا موت ، وغنى بلا فقر ، وصحة بلا سقم ، وسعادة بلا شقاوة ^(٣) ﴿ولنجزيَنَّهُم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون﴾ أي ولنجزيَنَّهُم في الآخرة بجزاء أحسن أعمالهم ، وما أكرمهم من جزاء ! ﴿فإذا قرأت القرآن﴾ أي إذا أردت تلاوة القرآن ﴿فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم﴾ أي فاسأل الله أن يحفظك من وساوس الشيطان وخطراته ، كيلا يوسوس لك عند القراءة

(١) قال في الظلال : « واتخاذ الإيمان غشاً وخداعاً يزعم العقيدة في الضمير ، ويشوه صورتها في ضمائر الآخرين ، فالذي يقسم وهو يعلم انه خادع في قسمه ، لا يمكن أن تثبت له عقيدة ولا أن تثبت له قدم على صراطها ، وهو في الوقت نفسه يشوه صورة العقيدة عند من يقسم لهم ثم ينكث ، ويعلمون أن أقسامه كانت للغش والدخل ، ومن ثم يصددهم عن سبيل الله بهذا المثل السيء الذي يضربه للمؤمنين بالله » .

(٢) المختصر ٢/ ٣٤٥ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٢٧ . والقول الأول لابن عباس وهو الأظهر .

إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿١٥١﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٥٢﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٥٣﴾ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥٤﴾ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِي وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴿١٥٥﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٥٦﴾

فيصدك عن تدبر القرآن والعمل بما فيه ﴿إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا﴾ أي ليس له تسلط وقدرة على المؤمنين بالاغواء والكفر لأنهم في كنف الرحمن ﴿وعلى ربهم يتوكلون﴾ أي يعتمدون على الله فيما نابهم من شدائد ﴿إنما سلطانه على الذين يتولونه﴾ أي إنما تسلطه وسيطرته على الذين يطيعونه ويتخذونه لهم ولياً ﴿والذين هم به مشركون﴾ أي بسبب إغوائه أصبحوا مشركين في عبادتهم وذبائحهم ، ومطاعمهم ومشاربهم ﴿وإذا بدلنا آية مكان آية﴾ أي وإذا أنزلنا آية مكان آية وجعلناها بدلاً منها بأن ننسخ تلاوتها أو حكمها ﴿والله أعلم بما يُنزل﴾ جملة اعتراضية سبقت للتوبيخ أي والله أعلم بما هو أصلح للعباد وبما فيه خيرهم ، فإن مثل آيات هذا الكتاب كمثل الدواء يُعطى منه للمريض جرعات حتى يماثل الشفاء ، ثم يستبدل بما يصلح له من أنواع أخرى من الأطعمة ﴿قالوا إنما أنت مفتر﴾ أي قال الكفرة الجاهلون إنما أنت يا محمد متقول كاذب على الله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثرهم جهلة لا يعلمون حكمة الله فيقولون ذلك سفهاً وجهلاً قال ابن عباس : كان إذا نزلت آية فيها شدة ثم نسخت قال كفار قريش : والله ما محمد إلا يسخر من أصحابه ، يأمرهم اليوم بأمر ، وينهاهم غداً عنه ، وإنه لا يقول : ذلك إلا من عند نفسه فنزلت (١) ﴿قل نزلته روح القدس من ربك بالحق﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما نزلته جبريل الأمين من عند أحكم الحاكمين بالصدق والعدل ﴿ليثبت الذين آمنوا﴾ أي ليثبت المؤمنين بما فيه من الحجج والبراهين فيزدادوا إيماناً ويقيناً ﴿وهدى وبشرى للمسلمين﴾ أي وهداية وبشارة لأهل الإسلام الذين انقادوا لحكمه تعالى ، وفيه تعريض بالكفار الذين لم يستسلموا لله تعالى ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر﴾ أي قد علمنا مقالة المشركين الشنيعة ودعواهم أن هذا القرآن من تعليم « جبر الرومي » وقد رد تعالى عليهم بقوله ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ أي لسان الذي يزعمون أنه علّمه وينسبون إليه التعليم أعجمي ﴿وهذا لسان عربي مبين﴾ أي وهذا القرآن عربي في غاية الفصاحة ، فكيف يمكن لمن لسانه أعجمي أن يعلم محمداً هذا الكتاب العربي المبين ؟ ومن أين للأعجمي أن يذوق بلاغة هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه ! ﴿إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله﴾ أي إن الذين لا يصدقون بهذا القرآن لا يوفقههم

إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِعَايَةِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٦﴾ مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ
 إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ
 وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اسْتَحَبُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ
 الْكَافِرِينَ ﴿١٨﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمِعِهِمْ وَأَبْصَرِهِمْ ﴿١٩﴾ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿٢٠﴾
 لَاجِرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٢١﴾

الله لإصابة الحق ، ولا يهديهم إلى طريق النجاة والسعادة ﴿ولههم عذاب أليم﴾ أي لهم في الآخرة
 عذابٌ موجه مؤلم ، وهذا تهديدٌ لهم ووعيد على كفرهم وافتراءهم ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا
 يؤمنون بآيات الله﴾ أي لا يكذب على الله إلا من لم يؤمن بالله ولا بآياته ، لأنه لا يخاف عقاباً يردعه ،
 فالكذب جريمة فاحشة لا يقدم عليها مؤمن ، وهذا ردُّ لقولهم ﴿إنما أنت مفتر﴾ ﴿وأولئك هم
 الكاذبون﴾ أي وأولئك هم الكاذبون على الحقيقة لا محمد الرسول الأمين ﴿من كفر بالله من بعد
 إيمانه﴾ أي من تلفظ بكلمة الكفر وارتد عن الدين بعد ما دخل فيه ﴿إلا من أكرهه وقلبه مطمئنٌ
 بالإيمان﴾ أي إلا من تلفظ بكلمة الكفر مكرهاً والحال أن قلبه مملوءٌ إيماناً و يقيناً ، والآية تغليظُ لجريمة المرتد
 لأنه عرف الإيمان وذاقه ثم ارتدَّ إيثاراً للحياة الدنيا على الآخرة قال المفسرون : نزلت في عمار بن ياسر أخذه
 المشركون فعذبوه حتى أعطاهم ما أرادوا مكرهاً فقال الناس : إنَّ عماراً كفر فقال رسول الله ﷺ : إنَّ
 عماراً ملئَ إيماناً من فرقه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله ﷺ وهو يبكي
 فقال له رسول الله ﷺ : كيف تجد قلبك ؟ قال : مطمئناً بالإيمان قال : إنَّ عادوا فعُدُّوا^(١) ﴿ولكن من
 شَرَحَ بالكفر صدرًا﴾ أي طابت نفسه بالكفر وانشرح صدره له ﴿فعليهم غضبٌ من الله ولههم
 عذابٌ عظيم﴾ أي ولههم غضبٌ شديد مع عذاب جهنم ، إذ لا جرم أعظم من جرمهم ﴿ذلك بأنهم
 استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة﴾ أي ذلك العذاب بسبب أنهم أثروا الدنيا واختاروها على الآخرة
 ﴿وأنَّ الله لا يهدي القوم الكافرين﴾ أي لا يوفقههم إلى الإيمان ولا يعصمهم من الزيغ والضلال
 ﴿وأولئك الذين طبع الله على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم﴾ أي ختم على قلوبهم وأسماعهم
 وأبصارهم فجعل عليها غلافاً بحيث لا تُدْعَن للحق ولا تسمعه ولا تبصره ﴿وأولئك هم الغافلون﴾
 أي الكاملون في الغفلة إذ أغفلتهم الدنيا عن تدبر العواقب ﴿لا جرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون﴾
 أي حقاً ولا شك ولا ريب في أنهم الخاسرون في الآخرة لأنهم ضيعوا أعمارهم في غير منفعة تعود عليهم قال
 المفسرون :^(٢) وصفهم تعالى بست صفات هي : الغضب من الله ، والعذاب العظيم ، واختيارهم الدنيا

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٠﴾

على الآخرة ، وحرمانهم من الهدى ، والطبع على قلوبهم ، وجعلهم من الغافلين ﴿ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فُتِنُوا﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين هاجروا في سبيل الله بعد ما فتنهم المشركون الطغاة عن دينهم بالعذاب ﴿ثم جاهدوا وصبروا﴾ أي ثم جاهدوا في سبيل الله وصبروا على مشاق الجهاد ﴿إن ربك من بعدها لغفور رحيم﴾ أي إن ربك بعد تلك الهجرة والجهاد والصبر سيغفر لهم ويرحمهم .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - التشبيه التمثيلي ﴿ولا تكونوا كالتی نقضت غزلها﴾ الآية شبه تعالى من يحلف ثم لا يفي بعهده بالمرأة التي تغزل غزلاً ثم تنقضه .

٢ - الاستعارة في ﴿فتزل قدم بعد ثبوتها﴾ استعار القدم للرسوخ في الدين والتمكن فيه لأن أصل الثبات يكون بالقدم ولما كان الزلل عن محجة الحق يشبه زلل القدم وانزلاقها عبر به عن الانزلاق الحسي بطريق الاستعارة .

٣ - الطباق بين ﴿يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ وبين ﴿أعجمي . . وعربي﴾ وبين ﴿ينفذ . . وباق﴾

٤ - جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ وفيه مجاز مرسل من إطلاق اسم المسبب على السبب أي إذا أردت قراءة القرآن .

٥ - الاعتراض ﴿والله أعلم بما يُنزَل﴾ الجملة اعتراضية لبيان الحكمة الإلهية في النسخ ، وفيه التفات من المتكلم إلى الغائب ، وذكر الاسم الجليل لتربية المهابة في النفس .

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي﴾ استعار اللسان للغة والكلام كقول الشاعر :

لسانُ السُّوءِ تُهديها إلينا وخُنت وما حَسْبُكَ أنْ تخوننا^(١)

والعرب تستعمل اللسان بمعنى اللغة كقوله تعالى ﴿وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسان قومه﴾

لطيفة : السر في الاستعاذة قبل قراءة القرآن أن القرآن هو الذكر الحكيم ، والحق المبين ، ولما كان الشيطان يثير الشبهات بوساوسه ، ويفسد القلوب بدسائسه ، أمر ﷺ بأن يستعيذ بالله ويلتجئ إليه عند تلاوة القرآن ، لأن قوة الإنسان تضعف عن دفعه بسهولة فيحتاج إلى الاستعانة بالله العلي الكبير .

قال الله تعالى : ﴿يوم تأتي كل نفسٌ . . إلى . . إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون﴾

من آية (١١١) إلى نهاية السورة الكريمة

المناسكة : لما ذكر تعالى حال من كفر بلسانه ، وحال من كفر بلسانه وجنانه ، ذكر هنا الجزاء

العادل الذي يلقاه كل إنسان في الآخرة ، وما أعدّه من العقاب العاجل في الدنيا لبعض المكذبين ، ثم ذكر قصة إبراهيم الأواه المنيب ، وأمر الرسول ﷺ باقتفاء آثاره المجيدة .

اللفظ : ﴿تجادل﴾ تخاصم وتخاصم وتجادل ﴿وَرِغْدًا﴾ واسعاً هنيئاً بلا كلفة ولا تعب ﴿أَنْعَمَ﴾ جمع نعمة كالأشد جمع الشدة ﴿أُمَّةً﴾ إماماً جامعاً لخصال الخير ﴿قَانِتًا﴾ مطيعاً خاضعاً من القنوت وهو الطاعة والخضوع ﴿اجْتَبَاهُ﴾ اصطفاه واختاره ﴿حَنِيفًا﴾ الحنيف : المائل عن الأديان الباطلة إلى دين الإسلام ، من الحنف وهو الميل .

سَبَبُ النُّزُول : لما قُتل حمزة ومثّل به المشركون في غزوة أحد قال ﷺ حين رآه (والله لأمثلنّ بسبعين منهم مكانك) فتزلت الآية الكريمة ﴿وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتهم به . .﴾^(١) الآية .

* يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ فَأَذْهَبَ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ الضَّالِّينَ :

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا﴾ أي ذكّرهم يوم القيامة حين تخاصم كل نفس عن ذاتها سعيًا في خلاصها ، لا يهمها شأن غيرها ﴿وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾ أي تُعطى جزاء ما عملت من غير بخس ولا نقصان ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ أي لا ينقصون أجورهم بل يُعطونها كاملةً وافيةً ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ هذا مثل ضرب به الله لأهل مكة وغيرهم ، بقوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة فعصوا وتمردوا ، فبدّل الله نعمتهم بنقمة ﴿كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً﴾ أي كان أهلها في أمنٍ واستقرار ، وسعادة ونعيم ﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ﴾ أي تأتيتها الخيرات والأرزاق بسعة وكثرة من كل الجهات ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعَمِ اللَّهِ﴾ أي لم يشكروا الله على ما آتاهم من خير ، وما وهبهم من رزق ﴿فَأَذْهَبَ اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾ أي سلبهم الله نعمة الأمن والاطمئنان ، وأذاقهم آلام الخوف والجوع والحرمان ﴿بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ أي بسبب كفرهم ومعاصيهم ، قال الرازي : وهذا مثل أهل مكة لأنهم كانوا في الأمن والطمأنينة والخصب ، ثم أنعم الله عليهم بالنعمة العظيمة وهو محمد ﷺ فكفروا به ، وبالغوا في إيذائه ، فعذبهم الله بالقحط والجوع سبع سنين حتى أكلوا الجيف والعظام^(٢) ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ﴾ أي ولقد جاءهم محمد بالآيات الباهرة والمعجزات الظاهرة وهو رسولٌ منهم يعرفون أصله ونسبه فلم يصدقوه ولم يؤمنوا برسالته ، والآية دالة على أن المراد بهم أهل مكة وهو قول ابن عباس ﴿فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ أي فأصابتهم الشدائد والنكبات وهم ظالمون بارتكاب المعاصي والآثام ﴿فَكَلَوْا مِمَّا

ظَلِمُونَ ﴿١١٦﴾ فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١١٧﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ۖ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١٨﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٩﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٢٠﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ۚ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٢﴾

رزقكم الله حلالاً طيباً ﴿١١٦﴾ أي كلوا من نعم الله التي أباحها لكم حال كونها حلالاً طيباً ﴿١١٧﴾ واشكروا نعمة الله إن كنتم إياه تعبدون ﴿١١٨﴾ أي واشكروا الله على نعمه الجليلة إن كنتم مخلصين في إيمانكم لا تعبدون أحداً سواه ، ثم ذكر تعالى ما حرمه عليهم مما فيه مضرة لهم فقال ﴿١١٩﴾ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخَنزِيرِ ﴿١٢٠﴾ أي لم يحرم ربكم عليكم أيها الناس إلا ما فيه أذى لكم كالميتة والدم ولحم الخنزير ﴿١٢١﴾ وَمَا أَهَلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ﴿١٢٢﴾ أي وما ذبح على اسم غير الله تعالى فإن فيه أذى للنفس والعقيدة ﴿١٢٣﴾ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٢٤﴾ أي فمن اضطر لأكل ما حرم الله من المذكورات من غير بغي ولا عدوان فإن الله واسع المغفرة عظيم الرحمة لا يؤاخذ من كان مضطراً ، ثم وبخ تعالى المشركين الذين حللوا وحرموا من تلقاء أنفسهم فقال ﴿١٢٥﴾ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴿١٢٦﴾ أي لا تقولوا أيها المشركون في شأن ما تصفه ألسنتكم من الكذب هذا حلالٌ وهذا حرام من غير دليل ولا برهان ﴿١٢٧﴾ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴿١٢٨﴾ أي لتكذبوا على الله بنسبة ذلك إليه ﴿١٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ أي إن الذين يخترعون الكذب على الله لا يفوزون ولا يظفرون بمطلوبهم لا في الدنيا ولا في الآخرة ﴿١٣١﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٣٢﴾ أي انتفاعهم واستمتاعهم في الدنيا قليل لأنه زائل ، ولهم في الآخرة عذاب مؤلم ، ثم ذكر تعالى ما حرم على اليهود فقال ﴿١٣٣﴾ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ ﴿١٣٤﴾ أي وعلى اليهود خاصة حرمانا عليهم ما قصصنا عليك يا محمد مما سبق ذكره في سورة الأنعام عقوبة لهم وهي شحوم البقر والغنم وكل ذي ظفر ﴿١٣٥﴾ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾ أي وما ظلمناهم بذلك التحريم ولكن ظلموا أنفسهم فاستحقوا ذلك كقوله ﴿١٣٧﴾ فَبُظْلِمَ مِنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ ﴿١٣٨﴾ ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴿١٣٩﴾ أي ثم إن ربك يا محمد للذين ارتكبوا تلك القبائح بجهلٍ وسفه ﴿١٤٠﴾ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا ﴿١٤١﴾ أي ثم رجعوا إلى ربهم وأصلحوا العمل بعد ذلك الزلل ﴿١٤٢﴾ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ أي إنه تعالى واسع المغفرة عظيم الرحمة ، والآية

إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٥﴾ شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١٢٦﴾ وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٧﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٨﴾ إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنْ رَبُّكَ لَيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٩﴾ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٣٠﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ

تأنيسُ لجميع الناس وفتحُ لباب التوبة ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ أي إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ إِمَامًا قَدْوَةً جَامِعًا لخصال الخير ولذلك اختاره الله لخلته ﴿قَانِتًا لِلَّهِ﴾ أي مطيعاً لربه قائماً بأمره ﴿حَنِيفًا﴾ أي مائلاً عن كل دين باطل إلى الدين الحق ، دين الإسلام ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ تأكيد لما سبق ورد على اليهود والنصارى في زعمهم أن إِبْرَاهِيمَ كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ﴿شَاكِرًا لِأَنْعَمِهِ﴾ أي قائماً بشكر نعم الله ﴿اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي اختاره واصطفاه للنبوة وهداه إلى الإسلام وإلى عبادة الواحد الأحد ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً﴾ أي جعلنا له الذكر الجميل في الدنيا ﴿وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ أي وهو في الآخرة من أصحاب الدرجات الرفيعة ، وفي أعلى مقامات الصالحين ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ (١) لما وصف تعالى إِبْرَاهِيمَ بتلك الأوصاف الشريفة أمر نبيه محمداً ﷺ أَنْ يَتَّبِعْ مِلَّتَهُ وَالْمَعْنَى ثُمَّ أَمَرْنَاكَ يَا مُحَمَّدُ بِاتِّبَاعِ دِينِ إِبْرَاهِيمَ وَمِلَّتِهِ الْحَنِيفِيَّةِ السَّمْحَةِ ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أي وما كَانَ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا ، وَإِنَّمَا كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا ، وَهُوَ تَأْكِيدٌ آخِرٌ لِرَدِّ مَزَاعِمِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى أَنَّهُمْ عَلَى دِينِهِ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ أي لَمْ يَكُنْ تَعْظِيمُ يَوْمِ السَّبْتِ وَتَرْكُ الْعَمَلِ فِيهِ مِنْ شَرِيعَةِ إِبْرَاهِيمَ وَلَا مِنْ شَعَائِرِ دِينِهِ ، وَإِنَّمَا جُعِلَ تَغْلِيظًا عَلَى الْيَهُودِ لِاخْتِلَافِهِمْ فِي الدِّينِ وَعَصْيَانِهِمْ أَمْرَ اللَّهِ ، حَيْثُ نَهَاهُمْ عَنِ الْإِصْطِدَادِ فِيهِ فَاصْطَادُوا فَمَسَخَهُمْ قَرْدَةً وَخَنَازِيرَ ﴿وَإِنْ رَبُّكَ لَيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي وَسَيَفْضِلُ اللَّهُ تَعَالَى بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَيَجَازِي كُلًّا بِمَا يَسْتَحِقُّ مِنَ الثَّوَابِ أَوِ الْعِقَابِ ﴿أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ أي أَدْعُ يَا مُحَمَّدُ النَّاسَ إِلَى دِينِ اللَّهِ وَشَرِيعَتِهِ الْقُدْسِيَّةِ بِالْأَسْلُوبِ الْحَكِيمِ ، وَاللُّطْفِ وَاللِّينِ ، بِمَا يُوَثِّرُ فِيهِمْ وَيَنْجِعُ ، لَا بِالزَّجْرِ وَالتَّأْنِيبِ وَالْقَسْوَةِ وَالشَّدَةِ ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي وَجَادِلِ الْمُخَالَفِينَ بِالطَّرِيقَةِ الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ مِنْ طَرُقِ الْمُنَازَعَةِ وَالْمُجَادَلَةِ بِالْحُجَجِ وَالْبَرَاهِينِ ، وَالرَّفْقِ وَاللِّينِ ﴿إِنْ رَبُّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ أي إِنْ رَبُّكَ يَا مُحَمَّدُ هُوَ الْعَالِمُ بِحَالِ الضَّالِّينَ وَحَالِ الْمُهْتَدِينَ ،

(١) قَالَ الْمَفْسُورُونَ : الْعُطْفُ بِشَمٍّ ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ فِيهِ تَعْظِيمُ مَنْزِلَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَإِجْلَالُ مَحَلِّهِ فَكَانَهُ بَعْدَ أَنْ عُدَّ مَنَاقِبَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ : وَهَهُنَا مَا هُوَ أَعْلَى مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ قَدْرًا ، وَأَرْفَعُ رَتَبَةً ، وَهُوَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ الْأُمِّيَّ الَّذِي هُوَ سَيِّدُ الْبَشَرِ مَتَّبِعٌ لِمِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ ، مُسْتَمْسِكٌ بِشَرِيعَتِهِ وَكَفَى بِذَلِكَ فَخْرًا .

فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ^ط وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ^ج وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

فعليك أن تسلك الطريق الحكيم في دعوتهم ومناظرتهم ، وليس عليك هدايتهم ، إنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴿ وإن عاقبتهم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ أي وإن عاقبتهم أيها المؤمنون من ظلمكم واعتدى عليكم فعاملوه بالمثل ولا تزيدوا قال المفسرون : نزلت في شأن « حمزة بن عبد المطلب » لما بقر المشركون بطنه يوم أحد ، فقال النبي ﷺ : لئن أظفرنني الله بهم لأمثلن بسبعين منهم ﴿ ولئن صبرتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ أي ولئن عفوتهم وتركتهم القصاص فهو خير لكم وأفضل ، وهذا نداء إلى الصبر ، وترك عقوبة من أساء ، فإن العقوبة مباحة وتركها أفضل ﴿ واصبر وما صبرك إلا بالله ﴾ أي واصبر يا محمد على ما ينالك من الأذى في سبيل الله ، فما تنال هذه المرتبة الرفيعة إلا بمعونة الله وتوقيه ﴿ ولا تحزنْ عليهم ﴾ أي لا تحزن على الكفار إن لم يؤمنوا ﴿ ولاتكُ في ضيقٍ مما يمكرون ﴾ أي ولا يضقْ صدرك بما يقولون من السفه والجهل ، ولا بما يدبرون من المكر والكيد ﴿ إنَّ الله مع الذين اتَّقَوْا والذين هم محسنون ﴾ أي مع المتقين بمعونته ونصره ، ومع المحسنين بالحفظ والرعاية ، ومن كان الله معه فلن يضره كيد الكائدين .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من صنوف البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿ فأذاقها الله لباسَ الجوعِ والخوفِ ﴾ شبه ذلك اللباس من حيث الكراهية بالطعم المر البشع وحذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الإذاقة على طريق الاستعارة المكنية .

٢ - الطباق بين ﴿ حلال .. وحرام ﴾ .

٣ - الالتفات ﴿ وآتيناه في الدنيا حسنة ﴾ التفت عن الغيبة إلى التكلم إشارة إلى زيادة الاعتناء بشأنه وتفخيم أمره .

٤ - التشبيه البليغ ﴿ كان أمة ﴾ أي كان بمفرده كالأمة والجماعة الكثيرة لجمعه أوصاف الكمالات التي تفرقت في الخلق كما قال الشاعر :

« وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد » .

تَبْيِيْهُ : دل قوله تعالى ﴿ وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ على الحث على الإنصاف في المناظرة ، واتباع الحق ، والرفق والمداراة ، على وجه يظهر منه أن القصد إثبات الحق وإزهاق الباطل ، لا نصرة الرأي وهزيمة الرأي الآخر .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النحل ولله الحمد والمنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة ، شأنها كشأن سائر السور المكية من العناية بأصول الدين «الوحدانية ، والرسالة ، والبعث» ولكنَّ العنصر البارز في هذه السورة الكريمة هو « شخصية الرسول ﷺ » ، وما أيده الله به من المعجزات الباهرة ، والحجج القاطعة ، الدالة على صدقه عليه الصلاة والسلام .

* تعرضت السورة الكريمة لمعجزة الإسراء ، التي كانت مظهراً من مظاهر التكريم الإلهي ، لخاتم الأنبياء والمرسلين ، وآية باهرة تدل على قدرة الله جل وعلا في صنع العجائب والغرائب .

* وتحدثت عن بني إسرائيل ، وما كتب الله عليهم من التشرّد في الأرض مرتين ، بسبب طغيانهم وفسادهم وعصيانهم لأوامر الله ﴿ وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت عن بعض الآيات الكونية ، التي تدل على العظمة والوحدانية ، وعن النظام الدقيق الذي يحكم الليل والنهار ، ويسير وفق ناموسٍ ثابت لا يتبدل ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل . . ﴾ الآيات .

* وتعرضت السورة إلى بعض الآداب الاجتماعية ، والأخلاق الفاضلة الكريمة ، فحثت عليها ، ودعت إلى التحلي بها ليكون هناك المجتمع المثالي الفاضل بدءاً من قوله تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت عن ضلالات المشركين حيث نسبوا إلى الله تعالى الصاحبة والولد ، والعجيب في أمرهم أنهم يكرهون البنات ، ثم ينسبونها إلى العلي الكبير ، المنزه عن الشبيه والنظير ﴿ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً . . ﴾ الآيات .

* وتحدثت عن البعث والنشور ، والمعاد والجزاء ، الذي كثر حوله الجدل ، وأقامت الأدلة والبراهين على إمكانه ، ثم تحدثت عن القرآن العظيم ، معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وذكرت تعنت المشركين في اقتراحاتهم ، حيث طلبوا معجزة أخرى غير القرآن ، أن يفجّر لهم الأنهار ، ويجعل مكة حدائق وبساتين

﴿وقالوا لن تؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . .﴾ الآيات .

* ثم ختمت السورة بتنزيه الله عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص ﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليٌ من الدن ولا كبره تكبيراً﴾ .
التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الإسراء» لتلك المعجزة الباهرة معجزة الإسراء التي خص الله تعالى بها نبيه الكريم .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُبْحَنَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَرَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا
اللفظة : ﴿سبحان﴾ اسمٌ للتسبيح ومعناه تنزيه الله تعالى من كل سوء ونقص وهو خاصٌ به سبحانه ﴿أسرى﴾ الإسراء : السيرُ لَيْلًا يقال : أسرى وسرى لغتان قال الشاعر :

سريتَ من حَرَمٍ لَيْلًا إِلَى حَرَمٍ كما سَرَى الْبَدْرُ فِي دَاجٍ مِنَ الظُّلَمِ

﴿فجاسوا﴾ قال الزجاج : طافوا ، والجوسُ : الطواف بالليل والتردد والطلب مع الاستقصاء وقال الواحدي : الجوسُ هو التردد والطلب ﴿الكرة﴾ الدولة والغلبة ﴿تتيراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿محوناً﴾ طمسنا قال علماء اللغة : المحوُ إذهاب الأثر يقال محوهُ فامحى أي ذهب أثره ﴿طائره﴾ عمله المقدّر عليه سمي الخير والشر بالطائر لأن العرب كانوا يتفاءلون ويتشاءمون بالطير إذا طار جهة اليمين أو الشمال ﴿مترفها﴾ المترفُّ : المتنعم الذي أبطرته النعمة وسعة العيش ﴿يصلهاها﴾ يدخلها ويذوق حرّها ﴿مدحوراً﴾ مطروداً مبعداً من رحمة الله .

التفسير : ﴿سبحان الذي أسرى بعبده لَيْلًا﴾ أي تنزهه وتقدهس عما لا يليق بجلاله ، الله العليُّ الشأن ، الذي انتقل بعبده ونبيه محمد ﷺ في جزءٍ من الليل ﴿من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى﴾ أي من مكة المكرمة إلى بيت المقدس ، وسمي بالأقصى لبعد المسافة بينه وبين المسجد الحرام قال المفسرون : وإنما قال ﴿لَيْلًا﴾ بلفظ التنكير لتقليل مدة الإسراء ، وأنه قطع به المسافات الشاسعة البعيدة في جزءٍ من الليل وكانت مسيرة أربعين ليلة ، وذلك أبلغ في القدرة والإعجاز ولهذا كان بدء السورة بلفظ ﴿سبحان﴾ الدال على كمال القدرة ، وبالفحكمة ، ونهاية تنزهه تعالى عن صفات المخلوقين ، وكان الإسراء بالروح والجسد ، يقظة لا مناماً ﴿الذي باركنا حوله﴾ أي الذي باركنا ما حوله بأنواع البركات الحسية والمعنوية ، بالثمار والأنهار التي خصَّ الله بها بلاد الشام ، وبكونه مقر الأنبياء ومهبط الملائكة الأطهار ﴿لنريه من آياتنا﴾ أي لنري محمد ﷺ آياتنا العجيبة العظيمة ، ونطلعه على ملكوت السموات

إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١﴾ وَءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَءِيلَ أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي
وَكِيلًا ﴿٢﴾ ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾ وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ
لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا أُولِي بَأْسٍ
شَدِيدٍ لِّجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ ۚ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا ﴿٥﴾ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ

والأرض، فقد رأى صلوات الله عليه السموات العلى والجنة والنار، وسدرة المنتهى، والملائكة والأنبياء وغير ذلك من العجائب والآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ أي إنه تعالى هو السميع لأقوال محمد، البصير بأفعاله، فلهذا خصه بهذه الكرامات والمعجزات احتفاءً وتكريماً ﴿وَأَتَيْنَا موسى الكتاب وجعلناه هدىً لبني إسرائيل﴾ أي أعطينا موسى التوراة هدايةً لبني إسرائيل يخرجهم بواسطة ذلك الكتاب من ظلمات الجهل والكفر إلى نور العلم والإيمان ﴿أَلَّا يَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا﴾ أي لا تتخذوا لكم رباً تكلون إليه أموركم سوى الله الذي خلقكم قال المفسرون: لما ذكر المسجد الأقصى وهو قلب الأرض المقدسة التي أسكنها الله بني إسرائيل جاء الحديث عنهم في مكانه المناسب من سياق السورة ﴿ذُرِّيَّةً مِّن حَمَلِنَا مَعَ نُوحٍ﴾ أي يا ذرية ويا أبناء المؤمنين الذين كانوا مع نوح في السفينة، لقد نجينا آبائكم من الغرق فاشكروا الله على إنعامه ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ أي إن نوحاً كان كثير الشكر يحمد الله على كل حال فاقتدوا به، وفي النداء لهم تلطف وتذكير بنعمة الله ﴿وَقَضَيْنَا إِلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ فِي الْكِتَابِ﴾ أي أخبرناهم وأعلمناهم وأوحينا إليهم في التوراة ﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ﴾ أي ليحصلن منكم الإفساد في أرض فلسطين وما حولها مرتين^(١) قال ابن عباس: أول الفساد قتل زكريا والثاني قتل يحيى عليهما السلام ﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ أي تطغون في الأرض المقدسة طغياناً كبيراً بالظلم والعدوان وانتهاك محارم الله ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾ أي أولى المرتين من الإفساد ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَا﴾ أي سلطنا عليكم من عبيدنا أناساً جبارين للانتقام منكم ﴿أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾ أي أصحاب قوة وبطش في الحرب شديد قال المفسرون: إن بني إسرائيل لما استحلوا المحارم وسفكوا الدماء سلط الله عليهم بختنصر ملك بابل فقتل منهم سبعين ألفاً حتى كاد يفنيهم هو وجنوده، وذلك أول الفسادين ﴿فَجَاسُوا خِلَلِ الدِّيَارِ﴾ أي طافوا وسط البيوت يروحون ويغدون للتفتيش عنكم واستئصالكم بالقتل والسلب والنهب لا يخافون من أحد ﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾ أي كان ذلك التسليط والانتقام قضاءً جزماً لا يقبل النقص والتبديل ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ثم لما تبتم وأنبتم أهلكننا أعداءكم ورددنا لكم الدَّوْلَةَ والغلبة عليهم بعد ذلك البلاء الشديد ﴿وَأَمْدَدْنَاكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ﴾ أي أعطيناكم الأموال الكثيرة والذرية

(١) قضاء الله على بني إسرائيل بالإفساد مرتين ليس قضاء قهر وإلزام، وإنما هو إخبار من الله تعالى بما سيكون منهم حسب ما وقع في علمه الإلهي الأزلي فتنبه.

وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦٠﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنُمْ أَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ﴿٦١﴾ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسُئَرُوا
وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا ﴿٦٢﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ
وَإِنْ عُدْتُمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ
الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا ﴿٦٤﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٦٥﴾
وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴿٦٦﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ

الوفيرة ، بعد أن نهبت أموالكم وسببت أولادكم ﴿وجعلناكم أكثر نفيراً﴾ أي جعلناكم أكثر عدداً ورجالاً من
عدوكم لتستعيدوا قوتكم وتبنوا دولتكم ﴿إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم﴾ أي إن أحسنتم يا بني إسرائيل
فإحسانكم لأنفسكم ونفعه عائد عليكم لا ينتفع الله منها بشيء ﴿وإن أسأتم فلها﴾ أي وإن أسأتم فعليها
لا يتضرر الله بشيء منها ، فهو الغني عن العباد ، لا تنفعه الطاعة ولا تضره المعصية ﴿فإذا جاء وعد
الآخرة﴾ أي فإذا جاء وعد المرة الأخيرة من إفسادكم بقتل يحيى وانتهاك محارم الله بعثنا عليكم أعداءكم مرة
ثانية ﴿ليسوءوا وجوهكم﴾ أي بعثناهم ليهينوكم ويجعلوا آثار المساءة والكآبة بادية على وجوهكم بالإذلال
والقهر ﴿وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة﴾ أي وليدخلوا بيت المقدس فيخربوه كما خربوه أول مرة
﴿وليتبرأوا ما علوا تَبِيرًا﴾ أي وليدمروا ويهلكوا ما غلبوا عليه تدميراً ، فقد سلط الله عليهم مجوس
الفرس فشردوهم في الأرض وقتلوهم ودمروا مملكتهم تدميراً ﴿عسى ربكم أن يرحمكم﴾ أي لعل الله
يرحمكم ويعفو عنكم إن تبتم وأنبتم ، وهذا وعدٌ منه تعالى بكشف العذاب عنهم إن رجعوا إلى الله
و﴿عسى﴾ من الله واجبة ﴿وإن عدتم عدنا﴾ أي وإن عدتم إلى الإفساد والإجرام عدنا إلى العقوبة
والانتقام ﴿وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ أي وجعلنا جهنم محبساً وسجناً للكافرين ، لا يقدرون
على الخروج منها أبد الآبدين ، ثم بينَ تعالى مزية التنزيل الكريم الذي فاق بها سائر الكتب السماوية فقال
﴿إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾ أي إنَّ هذا القرآن العظيم يهدي لأقوم الطرق وأوضح السبل ، ولما
هو أعدل وأصوب ﴿ويُبشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ أي ويبشِّرُ المؤمنين الذين
يعملون بمقتضاه بالأجر العظيم في جنات النعيم ﴿وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾
أي ويبشِّرهم بأن أعدائهم الذين لا يصدقون بالآخرة العقاب الأليم في دار الجحيم ، وقد جمعت الآية بين
الترغيب والترهيب ﴿ويدعُ الإنسان بالشرِّ دعاءهُ بالخير﴾ أي يدعُو بالشر على نفسه كدعائه لها بالخير ،

(١) قال في الظلال : « ولقد عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم المسلمين فأخرجوهم من الجزيرة كلها ، ثم عادوا إلى الإفساد فسلط الله عليهم
عباداً آخرين ، حتى كان العصر الحديث فسلط الله عليهم « هتلر » ولقد عادوا اليوم إلى الإفساد في صورة « إسرائيل » وليسلطن الله عليهم
من يسومهم سوء العذاب تصديقاً لوعد الله القاطع ، وفاقاً لسنته التي لا تتخلف ، وإنَّ غداً لناظره قريب » .

الَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَ فَضْلَتِهِ تَفْصِيلًا ﴿١٧﴾ وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٨﴾ أَقْرَأَ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٩﴾ مَن اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَا تَدْمِيرًا ﴿٢١﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ الْقُرُونِ مِن بَعْدِ نُوحٍ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ

ولو استجيب له في الشر كما يستجاب له في الخير لهلك قال ابن عباس : هو دعاء الرجل على نفسه وولده عند الضجر بما لا يحب أن يستجاب له : اللهم أهلكه اللهم دمه ونحوه^(١) وكان الإنسان عجولاً أي ومن طبيعة الإنسان العجلة ، يتعجل بالدعاء على نفسه ويسارع لكل ما يخطر بباله ، دون النظر في عاقبته ، ثم أشار تعالى إلى آيات الله الكونية في هذا الوجود ، التي كل منها برهان نير على وحدانية الله فقال ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين﴾ أي علامتين عظيمتين على وحدانيتنا وكما ل قدرتنا ﴿فمحونا آية الليل﴾ أي طمسنا الليل فجعلناه مظلماً لتسكنوا فيه ﴿وجعلنا آية النهار مبصرة﴾ أي جعلنا النهار مضيئاً مشرقاً بالنور ليحصل به الإبصار ﴿لتبتغوا فضلاً من ربكم﴾ أي لتطلبوا في النهار أسباب معاشكم ﴿ولتعلموا عدد السنين والحساب﴾ أي ولتعلموا عدد الأيام والشهور والأعوام ، بتعاقب الليل والنهار ، فالليل للراحة والسكون ، والنهار للكسب والسعي ﴿وكل شيء فصلناه تفصيلاً﴾ أي وكل أمر من أمور الدنيا والدين ، بيناه أحسن تبين ، وليس شيء من أمر هذا الوجود متروكاً للمصادفة والجُزاف ، وإنما هو بتقدير وتدبير حكيم ﴿وكل إنسان أَلزَمْنَاهُ طَبْعَهُ فِي عُنُقِهِ﴾ أي أن الإنسان مرهون بعمله مجزي به ، وعمله ملازم له لزوم القلادة للعنق لا ينفك عنه أبداً ﴿ونُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا﴾ أي نظهر له في الآخرة كتاب أعماله مفتوحاً فيه حسناته وسيئاته فيرى عمله مكشوفاً لا يملك إخفاءه أو تجاهله ﴿إِقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً﴾ أي إقرأ كتاب عملك كفى أن تكون اليوم شهيداً بما عملت ، لا تحتاج إلى شاهد أو حسيب ﴿من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضلَّ فإنما يضلُّ عليها﴾ أي من اهتدى فثواب اهتدائه له ، ومن ضلَّ فعقاب كفره وضلاله عليها ﴿ولا تزر وازرةٌ وزر أخرى﴾ أي لا يحمل أحد ذنب أحد ، ولا يجني جانٍ إلا على نفسه ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾ أي وما كنا معذبين أحداً من الخلق حتى نبعث لهم الرسل مذكرين ومنذرين فتقوم عليهم الحجة ﴿وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ أي وإذا أردنا هلاك قوم من الأقوام أمرنا المتنعمين فيها والقادة والرؤساء بالطاعة على لسان رسلنا فعصوا أمرنا وخرجوا عن طاعتنا وفسقوا وفجروا ﴿فحقَّ عليها القول فدمرناها تدميراً﴾

عِبَادِهِ خَيْرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾ كُلًّا ثَمِدًا هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا ﴿٢١﴾ لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَخْذُولًا ﴿٢٢﴾

أي فوجب عليهم العذاب بالفسق والطغيان فأهلكناهم إهلاكاً مريعاً قال ابن عباس : ﴿أمرنا مترفيها ففسقوا فيها﴾ أي سلطنا أشرارها فعصوا فيها فإذا فعلوا ذلك أهلكهم الله بالعذاب ^(١) ﴿وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح﴾ أي وكثير من الأمم الطاغية المكذبين للرسل أهلكناهم من بعد نوح كقوم عاد وثمود وفرعون قال ابن كثير : والآية إنذار لكفار قريش والمعنى إنكم أيها المكذبون لستم أكرم على الله منهم وقد كذبتهم أشرف الرسل وأكرم الخلائق فعقوبتكم أولى وأحرى ^(٢) ﴿وكفى بربك بذنوب عباده خيراً بصيراً﴾ أي كفى يا محمد أن يكون ربك رقيباً على أعمال العباد يدرك بواطنها وظواهرها ويجازي عليها ﴿من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد﴾ أي من كان يريد بعمله الدنيا فقط ولها يعمل ويسعى ليس له هم إلا الدنيا عجلنا له فيها ما نشاء تعجيله من نعيمها لا كل ما يريد ﴿ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً﴾ أي ثم جعلنا له في الآخرة جهنم يدخلها مهاناً حقيراً مطروداً من رحمة الله ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن﴾ أي ومن أراد الدار الآخرة وما فيها من النعيم المقيم ، وعمل لها عملها الذي يليق بها من الطاعات وهو مؤمن صادق الإيمان ﴿فأولئك كان سعيهم مشكوراً﴾ أي فأولئك الجامعون للخصال الحميدة من الإخلاص ، والعمل الصالح ، والإيمان . كان عملهم مقبولاً عند الله أحسن القبول ، مثاباً عليه ﴿كلأئذ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك﴾ أي كل واحد من الفريقين الذين أرادوا الدنيا ، والذين أرادوا الآخرة نعطيهم من عطائنا الواسع تفضلاً منا وإحساناً ، فنعطي المؤمن والكافر والمطيع والعاصي ﴿وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ أي ما كان عطاؤه تعالى محبوساً ممنوعاً عن أحد ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض﴾ أي أنظر يا محمد كيف فautنا بينهم في الأرزاق والأخلاق في هذه الحياة الدنيا فهذا غني وذاك فقير ، وهذا شريف وذاك حقير ﴿وللآخرة أكبر درجاتٍ وأكبر تفضيلاً﴾ أي ولتفاوتهم في الدار الآخرة أعظم من التفاوت في هذا الدار لأن الآخرة دار القرار وفيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿لا تجعل مع الله إلهاً آخر﴾ أي لا تجعل مع الله شريكاً ولا تتخذ غيره إلهاً تعبده ﴿فتقعد مذموماً مخذولاً﴾ أي فتصير ملوماً عند الله مخذولاً منه لا ناصر لك ولا معين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - براعة الاستهلال ﴿سبحان الذي أسرى﴾ لأنه لما كان أمراً خارقاً للعادة بدأه بلفظ يشير إلى كمال القدرة وتنزه الله عن صفات النقص .

٢ - إضافة التكريم والتشريف ﴿بعده﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿ولتعلن علواً﴾ ﴿تزر وازرة﴾ .

٤ - الطباق بين ﴿أحستم .. وأسأتم﴾ وبين ﴿ضل .. واهتدى﴾ .

٥ - إيجاز بالحذف ﴿اقرأ كتابك﴾ أي يقال له يوم القيامة اقرأ كتابك ﴿أمرنا مترفيها﴾ أي أمرناهم بطاعة الله فعصوا وفسقوا فيها .

٦ - المجاز العقلي ﴿آية النهار مبصرة﴾ لأن النهار لا يُبصر بل يُبصر فيه فهو من إسناد الشيء إلى زمانه .

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿طائره في عنقه﴾ استعير الطائر لعمل الإنسان ، ولما كان العرب يتفاءلون ويتشاءمون بالطير سموا نفس الخير والشر بالطائر بطريق الاستعارة .

لطيفة : الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس ثم عروجه من بيت المقدس إلى السموات العلى أنه جمع أرواح الأنبياء ، وموطن تنزل الوحي الإلهي على الرسل الكرام ، ولما كانت هذه الرحلة رحلة تكريم أراد تعالى أن يشرفهم بزيارته . ولهذا صلى بهم إماماً صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين .

تنبية : وصفه تعالى في هذه السورة بالعبودية ﴿أسرى بعده﴾ لأنه أشرف المقامات وأسمى المراتب العلية ، كما وصفه في مقام الوحي كذلك ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾ وفي مقام الدعوة ﴿وأنه لما قام عبد الله يدعوه﴾ ولهذا قال القاضي عياض :

ومما زادني شرفاً وتيهاً وكدتُ بأخصي أطأ الثريا
دخولي تحت قولك يا عبادي وأن صيرت أحمد لي نبياً

قال الله تعالى : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً .. إلى .. فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً﴾ من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٤٨) .

المناسكة : لما جعل تعالى الإيمان والعمل الصالح أساساً للفوز بالسعادة الأبدية ، وبين حال المؤمن الذي أراد بعمله الدار الآخرة ، ذكر هنا طائفة من الأوامر والزواجر التي يقوم عليها بنيان المجتمع الفاضل ، ثم ذكر تعالى موقف المشركين المكذبين من هذا القرآن العظيم .

اللفظ: ﴿أَفُ﴾ كلمة تضجر وتبرم قال ابن الأعرابي الأف: الضجر ، وأصلها أنه إذا سقط تراب أو رماد فنفع الإنسان ليزيله ، فالصوت الحاصل هو أف ثم توسعوا في الكلمة حتى أصبحت تقال لكل مكروه ﴿تنهرهما﴾ النهر: الزجر والغلظة ﴿الأوابين﴾ جمع أواب وهو كثير التوبة والإنابة من الأوب بمعنى الرجوع ﴿محسوراً﴾ منقطعاً عن النفقة والتصرف قال الفراء : تقول العرب للبعير هو محسور إذا انقطع سيره ، وحسرت الدابة إذا انقطعت عن المسير لذهاب قوتها ، فشبه حال من أنفق كل ماله بمن انقطع في سفره بسبب انقطاع مطيته^(١) ﴿إملاق﴾ فقر وفاقة ، أملق الرجل إذا افتقر ﴿خطأ﴾ قال الأزهري : خطيء يخطئ خطأ إذا تعمّد الخطأ ، وأخطأ إذا لم يتعمّد^(٢) ﴿القسطاس﴾ الميزان مأخوذ من القسط وهو العدل ﴿تقف﴾ تتبّع مأخوذ من قفوت أثر فلان إذا اتبعت أثره وأصله البهت والقذف بالباطل ﴿مرحاً﴾ المرح : شدة الفرح والمراد به هنا التكبر والخيلاء ﴿صرّفنا﴾ بينا ﴿أكنة﴾ جمع كنان وهو الغطاء الذي يستر الشيء ﴿وقراً﴾ صمماً وثقلاً .

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عَنْكَ الْكِبَرُ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أَفُ وَلَا تَنْهَرَهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۖ ﴿٢٣﴾ وَأَخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ۖ ﴿٢٤﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غُفُورًا ۖ ﴿٢٥﴾

التفسير: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ أي حكم تعالى وأمر بأن لا تعبدوا إلهاً غيره وقال مجاهد : ﴿وقضى﴾ يعني وصّى بعبادته وتوحيده ﴿وبالوالدين إحساناً﴾ أي وأمر بأن تحسنوا إلى الوالدين إحساناً قال المفسرون : قرن تعالى بعبادته برّ الوالدين لبيان حقهما العظيم على الولد لأنها السبب الظاهر لوجوده وعيشه ، ولما كان إحسانهما إلى الولد قد بلغ الغاية العظيمة وجب أن يكون إحسان الولد إليهما كذلك ﴿إمّا يبلغنّ عندك الكبر أحدهما أو كلاهما﴾ أي قد أوصيناك بهما وبخاصة إذا كبرا أو كبر أحدهما ، وإنما خصّ حالة الكبر لأنها حينئذٍ أحوج إلى البر والقيام بحقوقهما لضعفهما ومعنى ﴿عندك﴾ أي في كنفك وكفالتك ﴿فلا تقل لهما أف﴾ أي لا تقل للوالدين أقل كلمة تظهر الضجر ككلمة أف ولا تسمعهما قولاً سيئاً حتى ولو بكلمة التأفف ﴿ولا تنهرهما﴾ أي لا تزجرهما بإغلاظ فيما لا يعجبك منهما ﴿وقل لهما قولاً كريماً﴾ أي قل لهما قولاً حسناً ليناً طيباً بأدب ووقار وتعظيم ﴿واخفض لهما جناح الذل من الرحمة﴾ أي ألن جانبك وتواضع لهما بتذل وخضوع من فرط رحمتك وعطفك عليهما ﴿وقل ربّ ارحمهما كما ربياني صغيراً﴾ أي ادع لهما بالرحمة وقل في دعائك يا رب ارحم والدي برحمتك الواسعة كما أحسنا إليّ في تربيتهما حالة الصغر ﴿ربكم أعلم بما نفوسكم﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بما في نفوسكم من إرادة البر أو العقوق ﴿إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفوراً﴾ أي إن تكونوا قاصدين للبرّ والصلاح دون

وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ

العقوق والفساد فإنه جلّ وعلا يتجاوز عن سيئاتكم ويغفر للأوابين وهم الذين كلما أخطأوا عادوا إلى ربهم مستغفرين قال الرازي : والمقصود من هذه الآية أن الأولى لما دلّت على وجوب تعظيم الوالدين ثم إن الولد قد يظهر منه ما يخلّ بتعظيمهما فإن كانت تلك الهفوة ليست لأجل العقوق بل ظهرت بمقتضى الجبلة البشرية كانت في محل الغفران ^(١) ، وبمناسبة الإحسان إلى الوالدين يأمر تعالى بالإحسان إلى الأقارب والضعفاء والمساكين ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَىٰ حَقُّهُ﴾ أي أعط كل من له قرابة بك حقه من البر والإحسان ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ أي وأعط المسكين المحتاج والغريب المنقطع في سفره حقه أيضاً ﴿وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا﴾ أي لا تنفق مالك في غير طاعة الله فتكون مبذراً ، والتبذير الإنفاق في غير حق قال مجاهد : لو أنفق إنسان ماله كله في الحق لم يكن مبذراً ، ولو أنفق مuddاً في غير حق كان مبذراً وقال قتادة : التبذير النفقة في معصية الله تعالى وفي غير الحق والفساد ^(٢) ﴿إِنَّ الْمُبْذِرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ هذا تعليل للنهي وهو غاية في الذم والتقييح أي إن المبذرين كانوا أمثال الشياطين وأشباههم في الإفساد ، لأنهم ينفقون في الباطل وينفقون في الشر والمعصية فهم أمثالهم ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾ أي مبالغاً في كفران نعمة الله لا يؤدي حق النعمة كذلك إخوانه المبذرون لا يؤدون حق النعمة ، وحقها أن ينفقوها في الطاعات والحقوق غير متجاوزين ولا مبذرين ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمْ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ أي إن أعرضت عن ذوي القربى والمساكين وابن السبيل إذا لم تجد ما تعطيهم فقل لهم قولاً سهلاً ليناً وعدّهم وعداً جميلاً ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ﴾ تمثيل للبخل أي لا تكن بخيلاً ممنوعاً لا تعطي أحداً شيئاً كمن حبست يده عن الإنفاق وشدّت إلى عنقه ﴿وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ تمثيل للتبذير أي ولا تتوسع في الإنفاق توسعاً مفرطاً بحيث لا يبقى في يدك شيء ، والغرض من الآية لا تكن بخيلاً ولا مسرفاً ﴿فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا﴾ أي فتصير مذموماً من الخلق والخالق ، منقطعاً من المال كمن انقطع في سفره بانقطاع مطيته ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي يوسع الرزق على من يشاء ويضيّق على من يشاء ، وهو القابض ، الباسط المتصرف في خلقه ، بما يشاء حسب الحكمة ﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾ أي إنه عالم بمصالح العباد ، والتفاوت في الأرزاق ليس لأجل البخل بل لأجل رعاية المصالح فهو تعالى يعلم من مصالحهم ما يخفى عليهم ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةً إِمْلَاقٍ﴾ أي لا تقدّموا على قتل أولادكم مخافة الفقر ﴿نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا ﴿٤١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْنَىٰ ۖ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لَوْلِيهِ سُلْطَانًا فَلَا يَسْرِفُ فِي الْقَتْلِ ۖ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا ﴿٤٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۚ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ ۖ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا ﴿٤٤﴾ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ ۚ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٤٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَبَسَ لَكَ بِهِ ۚ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا ﴿٤٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۚ إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ

وإياكم ﴿٤١﴾ أي رزقهم علينا لا عليكم فنحن نرزقهم ونرزقكم فلا تخافوا الفقر بسببهم ﴿٤٢﴾ إن قتلهم كان خطئاً كبيراً ﴿٤٣﴾ أي قتلهم ذنبٌ عظيم وجرمٌ خطير قال المفسرون : كان أهل الجاهلية يثدّون البنات مخافة الفقر أو العار فنهاهم الله عن ذلك وضمن أرزاقهم ﴿٤٤﴾ ولا تقربوا الزنى ﴿٤٥﴾ أي لا تدنوا من الزنى وهو أبلغ من «لا تزنوا» لأنه يفيد النهي عن مقدمات الزنى كاللمس ، والقُبلة ، والنظرة ، والغمز وغير ذلك مما يجرّ إلى الزنى فالنهي عن القرب أبلغ من النهي عن الفعل ﴿٤٦﴾ إنه كان فاحشة ﴿٤٧﴾ أي إن الزنى كان فعلة قبيحة متناهية في القبح ﴿٤٨﴾ وساء سبيلاً ﴿٤٩﴾ أي ساء طريقاً موصلاً إلى جهنم ﴿٥٠﴾ ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلا بالحق ﴿٥١﴾ أي لا تقتلوا نفساً حرّم الله قتلها بغير حقٍ شرعي موجب للقتل كالمرتد ، والقاتل عمداً ، والزاني المحصن ﴿٥٢﴾ ومن قُتل مظلوماً فقد جعلنا لوليّه سلطاناً ﴿٥٣﴾ أي ومن قُتل ظلماً بغير حقٍ يوجب قتله فقد جعلنا لوارثه سلطةً على القاتل بالقصاص منه ، أو أخذ الدية ، أو العفو ﴿٥٤﴾ فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً ﴿٥٥﴾ أي فلا يتجاوز الحدّ المشروع بأن يقتل غير القاتل أو يمثّل به أو يقتل اثنين بواحد كما كان أهل الجاهلية يفعلون ، فحسبه أن الله قد نصره على خصمه فليكن عادلاً في قصاصه ﴿٥٦﴾ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن ﴿٥٧﴾ أي لا تتصرفوا في مال اليتيم إلا بالطريقة التي هي أحسن وهي حفظه واستثماره ﴿٥٨﴾ حتى يبلغ أشده ﴿٥٩﴾ أي حتى يبلغ اليتيم سن الرشد ويحسن التصرف في ماله ﴿٦٠﴾ وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولاً ﴿٦١﴾ أي وفوا بالعهد سواء كانت مع الله أو مع الناس لأنكم تُسألون عنها يوم القيامة ﴿٦٢﴾ وأوفوا الكيل إذا كلتم ﴿٦٣﴾ أي أتموا الكيل إذا كلتم لغيركم من غير تطفيفٍ ولا بخس ﴿٦٤﴾ وزنوا بالقسطاس المستقيم ﴿٦٥﴾ أي زنوا بالميزان العدل السوي بلا احتيالٍ ولا خديعة ﴿٦٦﴾ ذلك خيرٌ وأحسن تأويلاً ﴿٦٧﴾ أي وفاء الكيل وإقامة الوزن خيرٌ في الدنيا وأحسن مآلاً في الآخرة ﴿٦٨﴾ ولا تقف ما ليس لك به علم ﴿٦٩﴾ أي لا تتبّع ما لا تعلم ولا يعنيك بل تثبّت من كل خبر ، قال قتادة : لا تقل رأيت ولم تر ، وسمعت ولم تسمع ، وعلمت ولم تعلم ، فإن الله تعالى سائلك عن ذلك كله ﴿٧٠﴾ إن السمع والبصر والفؤاد كلٌ أولئك كان عنه مسئولاً ﴿٧١﴾ أي إن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن حواسه : عن سمعه ، وبصره ، وقلبه وعما اكتسبته جوارحه ﴿٧٢﴾ ولا تمش في الأرض مَرَحاً ﴿٧٣﴾ أي

الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنْتًا ۚ إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِيَذَّكَّرُوا وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤١﴾ قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَآ بَتَّغَوُا إِلَىٰ ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ سُبْحَنَهُ وَتَعَالَىٰ

لا تمش في الأرض مختلاً مشية المعجب المتكبر ﴿٤١﴾ إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً ﴿٣٨﴾ هذا تعليل للنهي عن التكبر والمعنى أنك أيها الإنسان ضئيل هزيل لا يليق بك التكبر ؟ كيف تتكبر على الأرض ولن تجعل فيها خرقاً أو شقاً ؟ وكيف تتناول وتتعظم على الجبال ولن تبلغها طولاً ؟ فأنت أحق وأضعف من كل واحد من الجهادين فكيف تتكبر وتتعالى وتختال وأنت أضعف من الأرض والجبال ؟ وفي هذا تهكم وتقريع للمتكبرين ﴿٣٧﴾ كل ذلك كان سيئاً عند ربك مكروهاً ﴿٣٨﴾ أي كل ذلك المذكور الذي نهى الله عنه كان عمله قبيحاً ومحرمًا عند الله تعالى ﴿٣٩﴾ ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ﴿٣٩﴾ أي ذلك الذي تقدم من الآداب والقصص والأحكام بعض الذي أوحاه إليك ربك يا محمد من المواعظ البليغة ، والحكم الفريدة ﴿٣٩﴾ ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى في جهنم ملوماً مدحوراً ﴿٣٩﴾ أي لا تشرك مع الله غيره من وثن أو بشر فتلقى في جهنم ملوماً تلوم نفسك ويلومك الله والخلق مطروداً مبعداً من كل خير قال الصاوي : ختم به الأحكام كما ابتدأها إشارة إلى أن التوحيد مبدأ الأمور ومنتهاها ، وهو رأس الأشياء وأساسها ، والأعمال بدونه باطلة لا تفيد شيئاً ^(١) ﴿٤٠﴾ أفأصفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إنثاً ؟ ﴿٤٠﴾ خطاب على وجه التوبيخ للعرب الذين قالوا إن الملائكة بنات الله والمعنى أفخصكم ربكم وأخلصكم بالذكر واختار لنفسه - على زعمكم - البنات ؟ كيف يجعل لكم الأعلى من النسل ويختار لنفسه الأدنى ! ﴿٤١﴾ إنكم لتقولون قولاً عظيماً ﴿٤١﴾ أي إنكم لتقولون قولاً عظيماً في شناعته وبشاعته حيث تنسبون إليه البنات وتجعلون لله ما تكرهون ﴿٤٠﴾ ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدّركوا ﴿٤٠﴾ أي ولقد بينّا للناس في هذا القرآن العظيم الأمثال والمواعظ ، والوعد والوعيد ، ليتذكروا بما فيه من الحجج النيرة والبراهين الساطعة ، فينزعروا عما هم فيه من الشرك والضلال ﴿٤١﴾ وما يزيدهم إلا نفوراً ﴿٤١﴾ أي وما يزيدهم هذا البيان والتذكير إلا تباعداً عن الحق ، وغفلة عن النظر والاعتبار ﴿٤١﴾ قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً ﴿٤١﴾ أي لو فرضنا أن مع الله آلهة أخرى كما يزعم هؤلاء المشركون إذا طلبوا طريقاً إلى مغالبة ذي العزة والجلال ليسلبوا ملكه كما يفعل ملوك الدنيا بعضهم ببعض ^(٢) ﴿٤١﴾ سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً ﴿٤١﴾ أي تنزه

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٢/ ٣٥٠.

(٢) هذا أحد وجهين في تفسير الآية الكريمة والوجه الآخر أن المعنى : لو كان الأمر كما تقولون لكان أولئك المعبودون يبتغون سبيلاً إلى التقرب إليه بعبادته وطاعته ويطلبون الزلفى لديه ، وهذا اختيار ابن جرير وابن كثير ، والوجه الأول أظهر كما يقول العلامة أبو السعود وهو المناسب للآية لقوله تعالى بعدها ﴿سبحانه﴾ فإنه صريح في الإنكار وأن قولهم فيه محذور عظيم .

عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا ﴿٤٣﴾ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا ﴿٤٥﴾ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٤٦﴾ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَوَّا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا ﴿٤٧﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَى

تعالى وتقدس عما يقول أولئك الظالمون ، وتعالى ربنا عما نسبوه إليه من الزور والبهتان تعالىاً كبيراً ، فإن مثل هذه الفرية مما يتنزه عنه مقامه الأسمى قال الشهاب : وذكر العلو بعد عنوانه بـ ﴿ذي العرش﴾ في أعلى مراتب البلاغة لأنه المناسب للعظمة والجلال ﴿تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن﴾ أي تسبح له الكائنات ، وتنزهه وتقدس الأَرْضَ والسموات ، ومن فيهن من المخلوقات ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾ أي وما من شيء في هذا الوجود إلا ناطق بعظمة الله ، شاهد بوحدانيته جلّ وعلا^(١) ، السموات تسبح الله في زرقتها ، والحقول في خضرتها ، والبساتين في نضرتها ، والأشجار في حفيفها ، والمياه في خريرها ، والطيور في تغريدها ، والشمس في شروقها وغروبها ، والسحب في إمطارها ، والكل شاهد بالوحدانية لله .

وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ أي ولكن لا تفقهون تسبيح هذه الأشياء لأنها ليست بلغاتكم ﴿إنه كان حلماً غفوراً﴾ أي إنه تعالى حلیم بالعباد لا يعاجل من عصاه بالعقوبة ، غفور لمن تاب وأناب ، ولولا حلم الله وغفرانه لأخذ البشر أخذ عزيز مقتدر ﴿وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً﴾ أي وإذا قرأت القرآن على هؤلاء المشركين الذين لا يصدقون بالآخرة جعلنا بينك وبينهم حجاباً خفياً يحجب عنهم فهم القرآن وإدراك أسرارهِ وحِكْمِهِ ﴿وجعلنا على قلوبهم أكنةً أن يفقهوه﴾ أي وجعلنا على قلوب هؤلاء الكفار أغطيةً لئلا يفهموا القرآن ﴿وفي آذانهم وقراً﴾ أي صمماً يمنعهم من استماعه ﴿وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولَوَّا على أدبارهم نفوراً﴾ أي وإذا وحدت الله وأنت تتلو القرآن فرَّ المشركون من ذلك هرباً من استماع التوحيد ﴿نحن أعلم بما يستمعون به﴾ أي نحن أعلم بالغاية التي يستمعون من أجلها للقرآن وهي الاستهزاء والسخرية قال المفسرون : كان المشركون يجلسون عند النبي ﷺ مظهرين الاستماع وفي الواقع قاصدين الاستهزاء فنزلت الآية تسلياً للرسول ﷺ وتهديداً للمشركين ﴿إذ يستمعون إليك وإذ هم نجوى﴾ أي حين يستمعون إلى قراءتك يا محمد ثم

(١) قال في الظلال : « وإنه لمشهد كوني فريد حين يتصور القلب كل حصاة وكل حجر ، كل حبة وكل ورقة ، كل زهرة وكل ثمرة ، كل نبتة وكل شجرة ، كل حشرة وكل زاحفة ، كل حيوان وكل إنسان ، كل دابة على الأرض ، وكل سباحة في الماء والهواء ومعها سكان السماء ، كلها تسبح الله وتتوجه إليه في علاه ، وحين تشف الروح وتصفو تدرك من أسرار هذا الوجود ما لا يدركه الغافلون » . الظلال ١٥ / ٣٩ .

إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١٧﴾ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿١٨﴾

يتناجون ويتحدثون بينهم سراً ﴿١٧﴾ إذ يقول الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً ﴿١٧﴾ أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴿١٨﴾ أي انظر يا محمد وتعجب كيف يقولون تارة عنك ، إنك ساحر ، وتارة إنك شاعر ، وتارة إنك مجنون ! وقد ضلوا بهذا البهتان والزور ﴿١٨﴾ فلا يستطيعون سبيلاً ﴿١٨﴾ أي لا يجدون طريقاً إلى الهدى والحق المبين .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة المكنية ﴿واخفض لهما جناح الذل﴾ شبه الذل بطائر له جناح وحذف الطائر ورمز له بشيء من لوازمه وهو الجناح على سبيل الاستعارة المكنية .

٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط﴾ مثل للبخل بالذي حبست يده عن الإعطاء وشدت إلى عنقه بحيث لا يقدر على مدها ، وشبه السرف ببسط الكف بحيث لا تحفظ شيئاً .

٣ - اللف والنشر المرتب ﴿فتقعد ملوماً محسوراً﴾ عاد لفظ ﴿ملوماً﴾ إلى البخل ولفظ ﴿محسوراً﴾ إلى الإسراف أي يلوكم الناس إن بخلت ، وتصبح مقطوعاً إن أسرفت .

٤ - الطباق بين ﴿يسط . . ويقدر﴾ .

٥ - جناس الاشتقاق ﴿قرأت القرآن﴾ .

٦ - التوبيخ ﴿أفأصفاكم ربكم بالبنين﴾ ؟ .

٧ - الفرض والتقدير ﴿لو كان معه آلهة كما يقولون﴾ .

لطيفة : نقف هنا أمام مثل من دقائق التعبير القرآني العجيبة ففي هذه السورة قدم تعالى رزق الأبناء على رزق الآباء ﴿نحن نرزقهم وإياكم﴾ وفي سورة الأنعام قدم رزق الآباء ﴿نحن نرزقكم وإياهم﴾ والسر في ذلك أن قتل الأولاد هنا كان خشية وقوع الفقر بسببهم فقدم تعالى رزق الأولاد ، وفي الأنعام كان قتلهم بسبب فقر الآباء فعلاً فقدم رزق الآباء ، فلهذا در التنزيل ما أروع أسرارها !

قال الله تعالى : وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً . . إلى . . ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴿من آية (٤٩) إلى نهاية آية (٦٩)﴾ .

المناسكة : لما ذكر تعالى موقف المشركين من القرآن العظيم ، وذكر تعاملهم عن فهم آياته البينات ، أردفه بذكر شبهاتهم في إنكار البعث والنشور وكرّ عليها بالإبطال والتفنيد ، ثم ذكر قصة آدم وإبليس للعظة والاعتبار ، وأعقبها بذكر نعمه العظيمة على العباد ثم بالوعيد والتهديد إن أصرّوا على الكفر والجحود .

اللفظ : ﴿رفاتاً﴾ الرفات : ما تكسر وبلي من كل شيء كالفئات والحطام والرضاض ﴿ينغضون﴾ قال الفراء : يقال أنغض فلان رأسه إذا حرّكه إلى فوق وأسفل كالمتعجب من الشيء^(١) قال الراجز : « أنغض نحوي رأسه وأقنعا » ﴿ينزغ﴾ يفسد ويبيح الشر والنزغ : الإفساد والإغراء ﴿لاحتنكن﴾ الاحتنك الأخذ بالكلية والاستئصال يقال : احتنك الجرّاد الزرع إذا ذهب به كلّهُ ﴿واستفزز﴾ اخدغ واستخفّ يقال : أفزّه الخوف واستفزه إذا أزعجه واستخفه ﴿وأجلب﴾ أصل الإجلاب السوق بجلبة من السائق وهو الصياح ، والجلب والجلبة الأصوات ﴿ورجلك﴾ الرجل جمع راجل وهو الذي يمشي على قدميه ﴿يُزجي﴾ يسوق ﴿حاصباً﴾ الحاصب والحصباء هي الحصى الصغار ﴿قاصفاً﴾ القاصف ما يقصف الشيء أي يكسره والريح الشديدة التي تكسر بشدة من قصف الشيء يقصفه أي كسره بشدة ، ورعد قاصف شديد الصوت ﴿تبعاً﴾ طالباً يقال تابع وتبع وهو النصير والمطالب .

سبب النزول : أ - عن ابن عباس أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهاباً ، وأن يُنحى عنهم الجبال فيزرعوا فقليل له : إن شئت أن تستأني بهم لعلنا نجتبي منهم ، وإن شئت نعطيهم الذي سألوا فإن كفروا أهلكوا ، فقال : لا بل أستأني بهم فنزلت ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون . .﴾^(٢) الآية .

ب - لما ذكر تعالى شجرة الزقوم في القرآن قال أبو جهل : يا معشر قريش إن محمداً يخوفكم بشجرة الزقوم ، أستم تعلمون أن النار تحرق الشجر ؟ ومحمد يزعم أن النار تثبت الشجر ، فهل تدرون ما الزقوم ؟ هو التمر والزبد ، يا جارية ابغينا تمراً وزبداً ، فجاءته به فقال : تزقموا من هذا الذي يخوفكم به محمد فأنزل الله تعالى ﴿والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً﴾^(٣) .

وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ * قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾

التفسير : ﴿وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً﴾ استفهام تعجب وإنكار أي قال المشركون المكذبون بالبعث أنذا أصبحنا عظاماً نخرة ، وذرات متفتتة كالتراب ﴿أننا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي هل سُبعت ونُخلت خلقاً جديداً بعد أن نبلى ونفنى ؟ ﴿قل كونوا حجارة أو حديداً﴾ أي قل لهم يا محمد لو كنتم حجارة

أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا ﴿٥١﴾ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ ۖ وَتَقْنُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٥٢﴾ وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ ۖ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٣﴾ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ

أو حديدًا لقدّر الله على بعثكم وإحيائكم فضلاً عن أن تكونوا عظاماً ورفاتاً فإن الله لا يعجزه شيء ، فالحجارة والحديد أبعد عن الحياة وهي أصلب الأشياء ولو كانت أجسامكم منها لأعادها الله فكيف لا يقدر على إعادتكم إذا كنتم عظاماً ورفاتاً ؟ ﴿أَوْ خَلَقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾ أي أو كونوا خلقاً آخر أو غل في البعد عن الحياة من الحجارة والحديد مما يصعب في نفوسكم تصوّر الحياة فيه فسيبعثكم الله قال مجاهد : المعنى كونوا ما شئتم فستعادون ﴿فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا﴾ ؟ أي من الذي يردنا إلى الحياة بعد فناءنا ﴿قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ أي قل لهم يعيدكم القادر العظيم الذي خلقكم وأنشأكم من العدم أول مرة ﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَى هُوَ﴾ ؟ أي يحركون رءوسهم متعجبين مستهزئين ويقولون استنكاراً واستبعاداً متى يكون البعث والإعادة ؟ ﴿قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا﴾ أي لعله يكون قريباً فإن كلّ ما هو آتٍ قريب ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَقْنُونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ أي سيكون بعثكم يوم الحشر الأكبر يوم يدعوكم الرب جل وعلا للاجتماع في المحشر فتجيبون لأمره ، وتقنون لهول ما ترون أنكم ما أقمتم في الدنيا إلا زمناً قليلاً ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ أي قل لعبادي المؤمنين يقولوا في مخاطبتهم ومحاوراتهم الكلمة الطيبة ويختاروا من الكلام اللطيف وأحسنه وينطقوا دائماً بالحسنى ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ﴾ أي إن الشيطان يُفسد ويُبجج بين الناس الشرّ ويُشعل نار الفتنة بالكلمة الخشنة يُقَلِّتُ بها اللسان ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا﴾ أي ظاهر العداوة للإنسان من قديم الزمان يتلمس سقّات لسانه ليحدث العداوة والبغضاء بين المرء وأخيه ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِنْ يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِنْ يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾ أي ربكم أيها الناس أعلم بدخائل نفوسكم إن يشأ يرحمكم بالتوفيق للإيمان ، وإن يشأ يعذبكم بالإماتة على الكفر والعصيان ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ أي وما جعلناك يا محمد حفيظاً على أعمال الكفار كفيلاً عنهم لتقصرهم على الإيمان إنما أرسلناك نذيراً فمن أطاعك دخل الجنة ، ومن عصاك دخل النار ﴿وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ إنتقال من الخصوص إلى العموم أي ربك جلّ وعلا أعلم بعباده بأحوالهم ومقاديرهم فيخص بالنبوة من شاء من خلقه ، وهو أعلم بالسعداء والأشقياء ، والآية ردّ على المشركين حيث استبعدوا النبوة على رسول الله وقالوا : كيف يكون يتيم أبي طالب نبياً ؟ وكيف يكون هؤلاء الفقراء الضعفاء أصحابه دون الأكابر والرؤساء ؟ ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي فضلنا بعض الأنبياء على بعض حسب علمنا وحكمتنا وخصصناهم بمزايا فريدة ، فاصطفينا إبراهيم

بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ^٤ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ^٥ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا^٦ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا^٧ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ^٨ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا^٩ وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا^{١٠} كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا^{١١} وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ^{١٢} وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا^{١٣} وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا^{١٤}

بالخُلَّةِ ، وموسى بالتكليم ، وسليمان بالملِك العظيم ، ومحمداً بالإِسرائِ والمِعراج وجعلناه سيِّد الأولين والآخرين ، وكلُّ ذلك فعل الحكيم العليم الذي لا يصدر شيءٌ إلا عن حكمته ﴿وَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ أي وأنزلنا الزبور على داود المشتمل على الحكمة وفصل الخطاب ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ آلِهَةٌ مِنْ دُونِهِ تَعَالَى قَالَ الْحَسَنُ : يعني الملائكة وعيسى وعزيراً فقد كانوا يقولون إنهم يشفعون لنا عند الله ﴿فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾ أي فلا يستطيعون رفع البلاء عنكم ولا تحويله إلى غيركم ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ أي أولئك الآلهة الذين يدعونهم من دون الله هم أنفسهم يبتغون القرب إلى الله ، ويتوسلون إليه بالطاعة والعبادة ، فكيف تعبدونهم معه ؟ ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ أي يرجون بعبادتهم رحمته تعالى ويخافون عقابه ويتسابقون إلى رضاه ﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ أي عذابه تعالى شديد ينبغي أن يُحذَر منه ويخاف من وقوعه وحصوله ﴿وَإِنْ مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا﴾ أي ما من قرية من القرى الكافرة التي عصت أمر الله وكذبت رسله إلا وسيهلكها الله إما بالاستئصال الكلي أو بالعذاب الشديد لأهلها ﴿كَانَ ذَلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا﴾ أي كان ذلك حكماً مسطراً في اللوح المحفوظ لا يتغير ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ﴾ قال المفسرون : اقترح المشركون على رسول الله ﷺ معجزات عظيمة منها أن يقلب لهم الصفا ذهباً ، وأن يزيح عنهم الجبال فأخبره تعالى أنه إن أجابهم إلى ما طلبوا ثم لم يؤمنوا استحقوا عذاب الاستئصال ، وقد اقتضت حكمته تعالى إِمهالهم لأنه علم أن منهم من يؤمن وأن من أولادهم من يؤمن فلهذا السبب ما أجابهم إلى ما طلبوا^(١) أو المعنى ما منعنا من إرسال المعجزات والخوارق التي اقترحها قومك إلا تكذيبهم من سبقهم من الأمم حيث اقترحوا ثم كذبوا فأهلكهم الله ودمرهم ﴿وَاتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصَرَةً فَظَلَمُوا بِهَا﴾ أي وأعطينا قوم صالح الناقة آيةً بينة ومعجزةً ساطعة واضحة فكفروا بها وجحدوا بعد أن سألوها فأهلكهم الله ﴿وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ أي وما نرسل بالآيات الكونية كالزلازل والرعَد والخسوف والكسوف إلا تخويفاً للعباد

(١) انظر سبب النزول المذكور سابقاً .

وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا ﴿١٠﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا ﴿١١﴾ قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَنْ أَنُخَرَّنَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٢﴾ قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاءُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا ﴿١٣﴾ وَاسْتَغْفِرْ مَنْ

من المعاصي قال قتادة : إن الله تعالى يخوف الناس بما شاء من الآيات لعلمهم يعتبرون ويرجعون^(١) ﴿١٠﴾ وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس ﴿١١﴾ أي واذكر يا محمد حين أخبرناك أن الله أحاط بالناس علماً في الماضي والحاضر والمستقبل فهو تعالى لا يخفى عليه شيء من أحوالهم وقد علم أنهم لن يؤمنوا ولو جتتهم بما طلبوا من الآيات والمعجزات ﴿١٢﴾ وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس ﴿١٣﴾ أي وما جعلنا الرؤية التي أريناها عياناً ليلة المعراج من عجائب الأرض والسماء إلا امتحاناً وابتلاءً لأهل مكة حيث كذبوا وكفروا وارتد بعض الناس لما أخبرهم بها قال البخاري عن ابن عباس : هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به وليست برؤيا منام^(٢) ﴿١٤﴾ والشجرة الملعونة في القرآن ﴿١٥﴾ أي وما جعلنا الشجرة الملعونة في القرآن وهي شجرة الزقوم إلا فتنة أيضاً للناس قال ابن كثير : لما أخبرهم رسول الله ﷺ أنه رأى الجنة والنار ورأى شجرة الزقوم كذبوا بذلك حتى قال أبو جهل متكبهاً : هاتوا لنا تمراً وزُبْداً وجعل يأكل من هذا بهذا ويقول : تزقّموا فلا نعلم الزقوم غير هذا^(٣) ﴿١٦﴾ ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً ﴿١٧﴾ أي ونخوف هؤلاء المشركين بأنواع العذاب والآيات الزاجرة فما يزيدهم تخويفنا إلا تمادياً وغياً واستمراراً على الكفر والضلال ، فماذا تنفع معهم الخوارق ؟ ما زادتهم خارقة الإسراء والمعراج ، ولا خارقة التخويف بشجرة الزقوم إلا استهزاء وإمعاناً في الضلال ، ثم أشار تعالى إلى أن هذا الطغيان سببه إغواء الشيطان ولهذا ذكر قصته عقب ذلك فقال ﴿١٨﴾ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس ﴿١٩﴾ أي أذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فسجدوا كلهم إلا إبليس استكبر وأبى افتخاراً على آدم واحتقاراً له ﴿٢٠﴾ قال أسجد لمن خلقت طيناً ﴿٢١﴾ استفهام إنكاري أي أسجد أنا العظيم الكبير لهذا الضعيف الحقير الذي خلقت من الطين ؟ كيف يصح للعالي أن يسجد للداني ؟ ﴿٢٢﴾ قال أريتكَ هذا الذي كَرَّمْتَ عَلَيَّ ﴿٢٣﴾ أي قال إبليس اللعين جراءةً على الرب وكفراً به : أترى هذا المخلوق الذي فضّلته عليّ وجعلته أكرم مني عندك ؟ ﴿٢٤﴾ لئن أخرتن إلى يوم القيامة لأحتنكن ذريته إلا قليلاً ﴿٢٥﴾ أي لئن أنظرنتي وأبقيتني حياً إلى يوم القيامة لأستأصلن ذريته بالإغواء والاضلال قال الطبري : أقسم عدو الله فقال لربه : لئن أخرت إهلاكه إلى يوم القيامة لأستأصلنهم ولأستميلنهم وأضلنهم إلا قليلاً منهم^(٤) ﴿٢٦﴾ قال اذهب فمن تبعك منهم فإن جهنم جزاؤكم جزاءً موفوراً ﴿٢٧﴾ أي قال الرب جلّ وعلا : اذهب فقد أنظرتك وابدل جهنم فيهم فمن أطاعك من

(١) الطبري ١٥/١٠٩ . (٢) الطبري ١٥/١١٠ . (٣) المختصر ٢/٣٨٦ .

(٤) الطبري ١٥/١١٦ والمراد بالقليل: المخلصون الذين عصمهم الله .

أَسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبَ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٠٤﴾ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا ﴿١٠٥﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمُ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهٗ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿١٠٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ

ذرية آدم فإن جزاءك وجزاءهم نار جهنم جزاء كاملاً وافرلاً لا ينقص لكم منه شيء قال القرطبي : والأمر في ﴿اذهب﴾ أمر إهانة والمعنى اجهد جهدك فقد أنظرناك^(١) ﴿واستغفر من استغفر من استغفرت منهم بصوتك﴾ أي استخفف واستجهل وحرّك من أردت أن تستغفره فتخذه بدعائك إلى الفساد قال ابن عباس : صوته كل داع يدعو إلى معصية الله تعالى وقال مجاهد : صوته الغناء والمزامير واللهو^(٢) ﴿وأجلب عليهم بخيلك ورجلك﴾ أي صيح عليهم بأعوانك وجنودك من كل راكب وراجل قال الطبري : المعنى اجمع عليهم من ركبنا جنودك ومشاتهم من يصيح عليهم بالدعاء إلى طاعتك ، والصرف عن طاعتي قال ابن عباس : خيله ورجله كل راكب وماش في معصية الله تعالى^(٣) وقال الزمخشري : الكلام وارد مورد التمثيل ، مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بفارس مغوار أوقع على قوم فصوت بهم صوتاً يستفزهم عن أماكنهم ، ويقلقهم عن مراكزهم ، وأجلب عليهم بجنده من خيالة ورجالة حتى استأصلهم^(٤) ﴿وشاركهم في الأموال والأولاد﴾ أي اجعل لنفسك شركة في أموالهم وأولادهم ، أما الأموال فبكسبها من الحرام وإنفاقها في المعاصي ، وأما الأولاد فبتحسين اختلاط الرجال بالنساء حتى يكثر الفجور ويكثر أولاد الزنى ﴿وعدهم وما يعدهم الشيطان إلا غروراً﴾ أي عدّهم بالوعد المغرية الخادعة والأمانى الكاذبة ، كالوعد بشفاة الأصنام ، والوعد بالغنّى من المال الحرام ، والوعد بالعفو والمغفرة وسعة رحمة الله ، والوعد باللذة والسرور في ارتكاب الموبقات كقول الشاعر :

خذوا بنصيب من سرور ولذة فكل وإن طال المدى يتصرم

﴿إن عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾ أي إن عبادي المخلصين ليس لك عليهم تسلط بالإغواء لأنهم في حفظي وأماني ﴿وكفى بربك وكيلًا﴾ أي كفى بالله تعالى عاصماً وحافظاً لهم من كيدك وشرك ، ثم ذكّر تعالى العباد بإحسانه ونعمه عليهم وبآثار قدرته ووجدانيته فقال ﴿ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتغوا من فضله﴾ أي ربكم أيها الناس هو الذي يسير لكم السفن في البحر لتطلبوا من رزقه في أسفاركم وتجاراكم ﴿إنه كان بكم رحيمًا﴾ أي هو تعالى رحيم بالعباد ولهذا سهل لهم أسباب ذلك ﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه﴾ أي وإذا أصابتكم الشدة والكرب في البحر وخشيت من الغرق ذهب

(١) القرطبي ٢٨٨/١٠ . (٢) القرطبي ٢٨٨/١٠ . (٣) الطبري ١١٨/١٥ . (٤) الكشف ٦٧٨/٢ . ويقول سيد قطب في الظلال : « إنه تجسيم لوسائل الغواية والإحاطة ، والاستيلاء على القلوب والمشاغرة والعقول ، فهي المعركة الصاخبة تُستخدم فيها الأصوات والخيال والرجال على طريقة المعارك والمبارزات ، يرسل فيها الصوت فيزعج الخصوم ويخرجهم من مراكزهم الحصينة ، أو يستدرجهم للفتح المنصوب والمكيدة المدبرة ، فإذا استدرجوا إلى العراء أخذتهم الخيل ، وأحاطت بهم الرجال » الظلال ٥١/١٥ .

إِلَّا إِلَٰهَهُ فَلَمَّا نَجَّيْكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا ﴿١٧﴾ أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِّفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴿١٨﴾ أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَ كُرَّ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا ﴿١٩﴾

عن خاطركم من كنتم تعبدونه من الآلهة ولم تجدوا غير الله مغنياً يغنيكم ، فالإنسان في تلك الحالة لا يتضرع إلى الصنم والوثن ، والملك والفلك وإنما يتضرع إلى الله تعالى ﴿ فلما نجاكم إلى البر أعرضتم ﴾ أي فلما نجاكم من الغرق وأخرجكم إلى البر أعرضتم عن الإيمان والإخلاص ﴿ وكان الإنسان كفوراً ﴾ أي ومن طبيعة الإنسان جحود نعم الرحمن ، ثم خوفهم تعالى بقدرته العظيمة فقال ﴿ أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر ﴾ أي أفأمنتم أيها الناس حين نجوتهم من الغرق في البحر أن يخسف الله بكم الأرض فيخفيكم في باطنها ؟ إنكم في قبضة الله في كل لحظة فكيف تأمنون بطش الله وانتقامه بزلزال أو رجفة أو بركان ؟ ﴿ أو يرسل عليكم حاصباً ﴾ أي يمطركم بحجارة من السماء تقتلكم كما فعل بقوم لوط ﴿ ثم لا تجدوا لكم وكيلاً ﴾ أي لا تجدوا من يقوم بأموركم ويحفظكم من عذابه تعالى ﴿ أم أمنتم أن يعيدكم فيه تارة أخرى ﴾ أي يعيدكم في البحر مرة أخرى ﴿ فيرسل عليكم قاصفاً من الريح ﴾ أي يرسل عليكم وأنتم في البحر ريحاً شديدة مدمرة ، لا تمر بشيء إلا كسرتة ودمرتة ﴿ فيغرقكم بما كفرتم ﴾ أي يغرقكم بسبب كفركم ﴿ ثم لا تجدوا لكم علينا به تبيعاً ﴾ أي لا تجدوا من يأخذ لكم بالثأر منا أو يطالبنا بتبعة إغراقكم .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿ أنذا كنا عظاماً ﴾ وتكرير الهمزة في ﴿ أننا لمبعوثون ﴾ لتأكيد النكير وكذلك تأكيده بأن واللام للإشارة إلى قوة الإنكار .

٢ - التعجيز والإهانة في الأمر ﴿ قل كونوا حجارة أو حديداً ﴾ .

٣ - الطباق بين ﴿ يرحمكم ﴾ و﴿ يعذبكم ﴾ وبين لفظ ﴿ البر .. والبحر ﴾ .

٤ - الإيجاز بالحذف ﴿ ولا تحويلاً ﴾ أي ولا تحويل الضر عنكم حذف لدلالة ما سبق .

٥ - المقابلة اللطيفة بين الجملتين ﴿ يرجون رحمته ﴾ ، ﴿ ويخافون عذابه ﴾ .

٦ - الإسناد المجازي ﴿ وما منعنا أن نرسل بالآيات ﴾ المنع محال في حقه تعالى لأن الله لا يمنعه عن إرادته شيء فالمنع مجاز عن الترك أي ما كان سبب ترك إرسال الآيات إلا تكذيب الأولين .

٧ - المجاز العقلي ﴿ الناقة مبصرة ﴾ لما كانت الناقة سبباً في إبصار الحق والهدى نسب إليها الإبصار

ففيه مجاز عقلي علاقته السببية .

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَأَجْلَبْ عَلَيْهِمْ بخيلك ورجلك﴾ مثَّلتُ حال الشيطان في تسلطه على من يغويه بالفارس الذي يصيح بجنده للهجوم على الأعداء لاستئصالهم .

٩ - التذييل ﴿إنه كان بكم رحياً﴾ لأنه كالتعليل لما سبق من تسيير السفن وتسخيرها في البحر .

تَبْدِيهِ : الغالب في لفظ ﴿الرؤيا﴾ أن تكون منامية وإذا كانت بالعين يقال ﴿رؤية﴾ بالياء ، وقوله تعالى ﴿وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنةً للناس﴾ جاءت على غير الغالب لأن المراد بها الرؤية البصرية التي رآها رسول الله ﷺ في الإسراء والمعراج وقد تقدم قول ابن عباس : «هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أُسري به» ولو كانت رؤيا منام لما كانت فتنةً للناس ولما ارتد بعضهم عن الاسلام .

قال الله تعالى : ﴿ولقد كرمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر . . إلى . . فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ من آية (٧٠) إلى نهاية آية (٨٩) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى ما امتنَّ به على الناس من تسيير السفن في البحر ، ومن تنجيتهم من الغرق ، ثم ذكر المنَّة بما أنعم به على النوع الإنساني من تكريمهم ، ورزقهم ، وتفضيلهم على سائر المخلوقات ، ثم ذكر أحوال الناس ودرجاتهم في الآخرة ، ثم حذر الرسول ﷺ من اتباع أهواء المشركين .

اللِّغْزُ : ﴿بإمامهم﴾ الإمام في اللغة : كل من يأتي به غيره سواء كان على هدى أو ضلال ويطلق الإمام على كتاب الأعمال لأن الإنسان يكون تابعاً لكتاب أعماله يقوده إلى الجنة أو النار ﴿فتيلاً﴾ الفتل : القشرة التي في شق النواة ويضرب مثلاً للشيء الحقير التافه ومثله القطمير والنقيير ﴿تركن﴾ تميل ﴿ليستفزونك﴾ الاستفزاز : الإزعاج بسبب من الأسباب للحمل على الخروج من الوطن وغيره ﴿وتحويلاً﴾ تغييراً وتبديلاً ﴿لدلوك﴾ الدلوك : الغروب يقال دلكت الشمس أي غابت قال أبو عبيد وابن قتيبة : الدلوك الغروب وأنشد لذي الرمة :

مصاييحُ ليستْ باللواتي تقودها نجومٌ ولا بالآفلاتِ الدَّوَالِكِ

وقال الأزهري : أصل الدلوك الميل يقال : مالت الشمس للزوال ، ومالت للغروب ﴿غَسَقٌ﴾ غسقُ الليل : سواده وظلمته يقال : غسق الليل إذا اشتدت ظلمته ﴿فتهجد﴾ التهجد : صلاة الليل بعد الاستيقاظ من النوم ، والهجودُ : النوم ، قال الشاعر :

أَلَا طَرَقْتَنَا وَالرَّقَاقُ هُجُودٌ فَبَاتَتْ بَعَلَاتِ النَّوَالِ تَجُودٌ^(١)
 ﴿زهق﴾ زال وبطل ﴿نأى﴾ تباعد والنأي : البُعد ﴿ظهيراً﴾ مُعِيناً وَنَصِيراً .

سَبَبُ النُّزُولِ : عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قالت قريش لليهود أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ! فقالوا : سلوه عن الروح فأنزل الله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي . .﴾^(٢) الآية .

* وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴿٧٠﴾ يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوْتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۖ فَأُولَٰئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً ﴿٧١﴾ وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ ۖ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ ۖ وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٧٢﴾ وَإِن كَادُوا

التفسير : ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾ أي لقد شرفنا ذرية آدم على جميع المخلوقات بالعقل ، والعلم ، والنطق ، وتسخير جميع ما في الكون لهم ﴿وحملناهم في البرّ والبحر﴾ أي وحملناهم على ظهور الدواب والسفن ﴿ورزقناهم من الطيبات﴾ أي من لذيذ المطاعم والمشارب قال مقاتل : السمن والعسل والزبد والتمر والحلوى وجعلنا رزق الحيوان التبن والعظام وغيرها ﴿وفضّلناهم على كثيرٍ ممّن خلقنا تفضيلاً﴾ أي وفضّلناهم على جميع من خلقنا من سائر الحيوانات وأصناف المخلوقات من الجن والبهائم والدواب والوحش والطير وغير ذلك ﴿يوم ندعو كل أناسٍ بإمامهم﴾ أي اذكر يوم الحشر حين ننادي كل إنسان بكتاب عمله ليسلم له وينال جزاءه ، والإمام الكتاب الذي سجل فيه عمل الإنسان ويقوّيه ﴿وكل شيءٍ أحصيناه في إمامٍ مبين﴾ قال ابن عباس : الإمام ما عمل وأُملي فكتب عليه ، فمن بُعث متقياً لله جعل كتابه يمينه فقرأه واستبشر^(٣) ﴿فمن أُوتِيَ كتابه بيمينه﴾ أي فمن أُعطي كتاب عمله بيمينه وهم السعداء أولو البصائر والنهي المتقون لله ﴿فأولئك يقرءون كتابهم﴾ أي يقرءون حسناتهم بفرح واستبشار لأنهم أخذوا كتبهم بأيمانهم ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ أي ولا يُنقصون من أجور أعمالهم شيئاً ولو كان بمقدار الفتيل وهو الخيط الذي في شق النواة ﴿ومن كان في هذه أعمى﴾ أي ومن كان في هذه الدنيا أعمى القلب ، لا يهتدي إلى الحق ولا إلى الخير ﴿فهو في الآخرة أعمى وأضلّ سبيلاً﴾ أي فهو في الآخرة أشدّ عمىً وأشدّ ضلالاً^(٤) عن طريق السعادة والنجاة قال قتادة : من كان في هذه الدنيا أعمى عمّاً عاين من نعم الله وخلقه

(١) القرطبي ٣٠٨/١٠ . (٢) أسباب النزول للواحدي ص ١٦٨ . (٣) الطبري ١٥/١٢٦ وهذا ما رجحه ابن كثير وقيل : إمام هدى أو إمام ضلالة وقيل : نبيهم . (٤) هذا كله من عمى القلب وقيل المراد أنه يحشر يوم القيامة أعمى البصر لقوله تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً﴾ الآية .

لِيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٦﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكُنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٧﴾ إِذَا لَا أَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٨﴾ وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفْزِفُونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذَا لَا يَلْبَثُونَ خِلْفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٩﴾ سُنَّةً مِنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٨٠﴾ أَقِمِ الصَّلَاةَ لِذُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ وَقُرْءَانَ

وعجائبه ، فهو فيما يغيب عنه من أمر الآخرة أشد عمى وأضل طريقاً ﴿٧٦﴾ وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك ﴿٧٧﴾ أي وإن كان الحال والشأن أن المشركين قاربوا أن يصرفوك عن الذي أوحينا إليك يا محمد من بعض الأوامر والنواهي ﴿لتفتري علينا غيره﴾ أي لتأتي بغير ما أوحاه الله إليك وتخالف تعاليمه ﴿وإذا لا تخذوك خليلاً﴾ أي لو فعلت ما أرادوا لا تخذوك صاحباً وصديقاً قال المفسرون : حاول المشركون محاولات كثيرة ليثنوا رسول الله ﷺ عن المضي في دعوته منها : مساومتهم له أن يعبدوا إلهه مقابل أن يترك التنديد بألهتهم وما كان عليه أبائهم ، ومنها مساومة بعضهم أن يجعل أرضهم حراماً كالبيت العتيق الذي حرّمه الله ، ومنها طلب بعض الكبراء أن يجعل لهم مجلساً غير مجلس الفقراء ، فعصمه الله من شرهم وأخبر أنه لا يكله إلى أحد من خلقه بل هو وليه وحافظه وناصره ﴿٧٨﴾ ولولا أن ثبتناك ﴿٧٩﴾ أي لولا أن ثبتناك على الحق بعصمتنا إياك ﴿لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً﴾ أي كدت تميل إليهم وتسايروهم على ما طلبوا ﴿إذا لا أذقناك ضعف الحياة وضعف الممات﴾ أي لو ركنك إليهم لضاعفنا لك عذاب الدنيا وعذاب الآخرة ، لأن الذنب من العظيم جرم كبير يستحق مضاعفة العذاب ، والغرض من الآية بيان فضل الله على الرسول في تثبيته على الحق ، وعصمته من الفتنة ، ولو تخلى عن عصمته لمال إليهم بعض الشيء و﴿لولا﴾ حرف امتناع لوجود أي امتنع الركون إليهم لعصمته تعالى وتثبيته له ، فليس في الآية ما ينقص من قدر الرسول ﷺ وإنما هي بيان لفضل الله العظيم على نبيه الكريم ﴿ثم لا تجد لك علينا نصيراً﴾ أي لا تجد من ينصرك منا أو يدفع عنك عذابنا ﴿وإن كادوا يستفزونك من الأرض ليخرجوك منها﴾ أي وإن كاد المشركون بمكرهم وإزعاجهم أن يخرجوك يا محمد من أرض مكة ﴿وإذا لا يلبثون خلافاً إلا قليلاً﴾ أي لو أخرجوك لم يلبثوا بعد خروجك إلا زمناً يسيراً وفق سنة الله التي لا تبدل مع الذين يخرجون رسلهم من أوطانهم قال قتادة : هم أهل مكة بإخراج النبي ﷺ من مكة ولو فعلوا ذلك ما أمهلوا ولكن الله تعالى منعهم من إخراجهم حتى أمره بالخروج ﴿٨٠﴾ سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ﴿أي هذه عادة الله مع رسله في إهلاك كل أمة أخرجت رسولها من بين أظهرهم﴾ ولا تجد لسنننا تحويلاً ﴿أي لن تجد لها تبديلاً أو تغييراً﴾ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل ﴿أي حافظ يا محمد على الصلاة في أوقاتها من وقت زوال

(١) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ معصوماً ، ولكن هذا تعريف للأمة لئلا يركن أحد منهم إلى المشركين في شيء من أحكام الله تعالى

الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴿٨٨﴾ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰ أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٨٩﴾ وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا ﴿٩٠﴾ وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٩١﴾ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ۖ

الشمس عند الظهيرة إلى وقت ظلمة الليل ﴿وقرآن الفجر﴾ أي وأقم صلاة الفجر ، وإنما عبر عنها بقرآن الفجر لأنه تطلب إطالة القراءة فيها ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ أي تشهد ملائكة الليل والنهار كما في الحديث (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار فيجتمعون في صلاة العصر ، وصلاة الفجر . .) الحديث ، قال المفسرون : في الآية الكريمة إشارة إلى الصلوات المفروضة ، فدلوك الشمس زوالها وهو إشارة إلى الظهر والعصر ، وغسق الليل ظلمته وهو إشارة إلى المغرب والعشاء ، وقرآن الفجر صلاة الفجر ، فالآية رمزٌ إلى الصلوات الخمس ^(١) ﴿ومن الليل فتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ﴾ أي وقم من الليل بعد النوم متهجداً بالقرآن فضيلةً وتطوعاً لك ﴿عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً﴾ أي لعل ربك يا محمد يقيمك يوم القيامة مقاماً محموداً يحمدك فيه الأولون والآخرون وهو مقام « الشفاعة العظمى » قال المفسرون : ﴿عسى﴾ في كلام الله للتحقيق لأنه وعد كريم وهو لا يتخلف ولهذا قال ابن عباس : عسى من الله واجبة أي تفيد القطع ﴿وقل رب أدخلني مدخل صدق﴾ أي قل يا رب أدخلني قברי مدخل صدق أي إدخالاً حسناً ﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ أي أخرجني من قברי عند البعث إخراجاً حسناً هذا قول ابن عباس ، وقال الحسن والضحاك : المراد دخوله المدينة المنورة ، وخروجه من مكة المكرمة وذلك حين أخرجه المشركون بعد أن تأمروا على قتله صلوات الله وسلامه عليه ^(٢) ﴿واجعل لي من لَدُنْكَ سلطاناً نصيراً﴾ أي اجعل لي من عندك قوةً ومنعةً تنصرني بها على أعدائك وتُعزِّز بها دينك ، وقد استجاب الله دعاءه فنصره على الأعداء ، وأعلأ دينه على سائر الأديان ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ أي سطع نور الحق وضياؤه وهو الإسلام ، وزهق الباطل وأنصاره وهو الكفر وعبادة الأصنام ، فلا شرك ولا وثنية بعد إشراق نور الإيمان ﴿إن الباطل كان زهوقاً﴾ أي إن الباطل لا بقاء له ولا ثبوت لأنه يضمحل ويتلاشى ، وإن كانت له صولةٌ وجولة فسرعان ما تزول كشعلة الهشيم ترتفع عالياً ثم تحبوسريعاً ، روي أن النبي ﷺ لما دخل مكة عام الفتح كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فجعل يطعنهما بعود في يده ويقول : ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً﴾ فما بقي منها صنمٌ إلا خرَّ لوجهه ثم أمر بها فكسرت ^(٣) ﴿ونزل من القرآن ما هو شفاءٌ ورحةٌ للمؤمنين﴾ أي ونزل من آيات القرآن العظيم ما يشفي القلوب من أمراض الجهل والضلال ، ويذهب صداً النفس من الهوى والدنس ، والشح والحسد ، وما هو رحمة للمؤمنين بما فيه من الإيمان

(١) قال القرطبي : وهذه الآية إشارة إلى الصلوات المفروضة بإجماع من المفسرين .

(٢) اختار هذا القول الطبري وهو المشهور ، والمعنى الأول أظهر لأنه سبقه لفظ البعث والغرض الدعاء بالموت على الإيمان والبعث على الإيمان.

(٣) التفسير الكبير للرازي ٢١/٢٣ وأصل الحديث أخرجه البخاري .

وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٦﴾ وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا ﴿٨٧﴾ قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ ۖ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلًا ﴿٨٨﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٩﴾ وَلَئِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴿٩٠﴾ إِلَّا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴿٩١﴾ قُلْ لَئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ۚ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٩٢﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا

والحكمة والخير المبين ﴿ولا يزيد الظالمين إلا خسار﴾ أي ولا يزيد هذا القرآن الكافرين به عند سماعه إلا هلاكاً ودماراً لأنهم لا يصدقون به فيزدادون كفراً وضلالاً ﴿وإذا أنعمنا على الإنسان أعرض ونسى بجانبه﴾ أي وإذا أنعمنا على الإنسان بأنواع النعم من صحة ، وأمن ، وغنى أعرض عن طاعة الله وعبادته ، وابتعد عن ربه غروراً وكبراً ﴿وإذا مسه الشر كان يئوساً﴾ أي وإذا أصابته الشدائد والمصائب أصبح يائساً قانطاً من رحمة الله ، والآية تمثيل لطغيان الإنسان فإن أصابته النعمة بطر وتكبر ، وإن أصابته الشدة أيس وقنط كقوله ﴿إن الإنسان خلق هلوياً ، إذا مسه الشر جزوعاً ، وإذا مسه الخير منوعاً﴾ ﴿قل كل يعمل على شاكلته﴾ أي كل واحد يعمل على نهجه وطريقته في الهدى والضلال ، فإن كانت نفس الإنسان مشرقة صافية صدرت عنه أفعال كريمة فاضلة ، وإن كانت نفسه فاجرة كافرة صدرت عنه أفعال سيئة شريرة ﴿فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾ أي ربكم أعلم بمن اهتدى إلى طريق الصواب وبمن ضل عنه وسيجزي كل عامل بعمله ﴿ويسألونك عن الروح قل الروح من أمرى ربى﴾ أي يسألك يا محمد الكفار عن الروح ما هي ؟ وما حقيقتها ؟ فقل لهم إنها من الأسرار الخفية التي لا يعلمها إلا رب البرية ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾ أي وما أوتيتم أيها الناس من العلم إلا شيئاً قليلاً لأن علمكم قليل بالنظر إلى علم الله ﴿ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك﴾ أي لو أردنا لمحوها هذا القرآن الذي هو مينة الرحمن من صدرك يا محمد فإن ذلك في قدرتنا ﴿ثم لا تجد لك به علينا وكيلاً﴾ أي لا تجد من يتوكل علينا باسترداده ، وردّه إليك بعد ذهابه ﴿إلا رحمة من ربك﴾ أي لكن رحمة من ربك تركناه محفوظاً في صدرك وصدر أصحابك ﴿إن فضله كان عليك كبيراً﴾ أي فضل الله عليك عظيم حيث أنزل عليك القرآن ، وأعطاك المقام المحمود ، وجعلك خاتم المرسلين وسيد الأولين والآخرين ، والمقصود بالآية الامتنان على الرسول بالقرآن والتحذير له عن التفريط فيه ، والخطاب له عليه السلام والمراد أمته ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾ أي لو اتفق واجتمع أرباب الفصاحة والبيان من الإنس والجان وأرادوا أن يأتوا بمثل هذا القرآن لما أطاقوا ذلك ولو تعاونوا وتساعدوا على ذلك جميعاً فإن هذا أمر لا يستطيع وليس بمقدور أحد ﴿ولقد صرّفنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي بينا لهم الحجج والبراهين القاطعة ، ووضحنا لهم الحق بالآيات والعيّن ، والترغيب

الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٨﴾

والترهيب ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي ومع البراهين القائمة والحجج الواضحة أبى أكثر الناس إلا جحوداً للحق وتكديماً لله ورسوله .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الاستعارة ﴿كل أناس يمامهم﴾ الإمام الذي يتقدم الناس في الصلاة وقد استعير هنا لكتاب الأعمال لأنه يرافق الإنسان ويتقدمه يوم القيامة .
- ٢ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولا يظلمون فتيلاً﴾ يضرب مثلاً للقلة أي لا ينقصون من ثواب أجورهم ولا بمقدار الخيط الذي في شق النواة .
- ٣ - الطباق ﴿ضعف الحياة وضعف الممات﴾ .
- ٤ - المجاز المرسل ﴿وقرآن الفجر﴾ أطلق الجزء على الكل أي قراءة الفجر والمراد بها الصلاة لأن القراءة جزء منها فالعلاقة الجزئية .
- ٥ - الإظهار في مقام الإضمار لمزيد الاهتمام والعناية ﴿إن قرآن الفجر كان مشهوداً﴾ بعد قوله ﴿وقرآن الفجر﴾ .
- ٦ - التفصيل بعد الإجمال ﴿فمن أوتي كتابه بيمينه . . ومن كان في هذه أعمى﴾ بعد ذكر كتاب الأعمال .
- ٧ - المقابلة اللطيفة بين ﴿أدخلني مدخل صدق﴾ و﴿وأخرجني مخرج صدق﴾ وبين ﴿جاء الحق﴾ و﴿وزهق الباطل﴾ .
- ٨ - إسناد الخير إلى الله والشر لغيره ﴿أنعمنا على الإنسان . . وإذا مسه الشر﴾ لتعليم الأدب مع الله تعالى .

لطفة : ذكر أن عالماً ممن ينكر المجاز والاستعارة في القرآن الكريم جاء إلى شيخ فاضل عالم منكراً عليه دعوى المجاز - وكان ذلك السائل المنكر أعمى - فقال له الشيخ ما تقول في قوله تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ هل المراد بالعمى الحقيقة وهو عمى البصر ، أم المراد به المجاز وهو عمى البصيرة ؟ فبهت السائل وانقطعت حجته .

قال الله تعالى : ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . . إلى . . ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيراً﴾ من آية (٩٠) إلى آية (١١١) نهاية السورة الكريمة

المناسبة : لما ذكر تعالى القرآن وما فيه من الدلائل الواضحة والبراهين القاطعة على صدق النبي الأمي ، وتحداهم فظهر عجزهم بوضوح إعجازه ، ذكر هنا نماذج عن تعنت الكفار وضلالهم باقتراح خوارق مادية غير القرآن العظيم ، ثم ذكر قصة موسى وتكذيب فرعون له مع كثرة الخوارق والمعجزات التي ظهرت على يديه تسلياً لرسول الله ﷺ عن تكذيب المشركين ، ثم ختم السورة الكريمة بدلائل القدرة والوحدانية .

اللفظة : ﴿كِسْفًا﴾ قطعاً جمع كِسْفَةٍ كدمنة ودمن يقال : كسفت الثوب أكسفه كِسْفًا إذا قطعته قطعاً قال الفراء : سمعت أعرابياً يقول للبزاز أعطني كِسْفَةً يريد قطعة^(١) ﴿قَبِيلًا﴾ معاينة ﴿ترقى﴾ تصعد ﴿خَبْتٌ﴾ خبت النار : سكن لهبها ، وخمدت : سكن جرهما ، وهمدت : طفئت جملة^(٢) ﴿قَتُورًا﴾ بخيلاً ﴿مَشُورًا﴾ الثبور : الهلاك يقال : ثبر الله العدو أهلكه ﴿لَفِيفًا﴾ اللفيف : الجمع من القوم من أخلاط شتى قال الجوهري : اللفيف ما اجتمع من الناس من قبائل شتى يقال : جاء القوم بلففهم ولفيفهم ﴿مُكْثٌ﴾ المكث : التطاول في المدة يقال مكث إذا أطال الإقامة ﴿تَخَافَتْ﴾ خافت في الكلام أسرته بحيث لا يكاد يسمع أحد ﴿الأذقان﴾ جمع ذَقْن وهو مجتمع اللحيين قال الشاعر :

فخروا لأذقان الوجوه تنوشهم
سباع من الطير العوادي وتنشف

سَبَبُ التَّزْوِيل : أ - عن ابن عباس أن رؤساء قريش اجتمعوا عند الكعبة فقالوا : ابعثوا إلى محمد فكلّموه وخاصموه حتى تّعذروا فيه ، فبعثوا إليه إن أشرف قومك قد اجتمعوا ليكلّموك فجاءهم سريعاً - وكان حريصاً على رُشدهم - فقالوا يا محمد : إنا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك ، لقد شتمت الآباء ، وعبت الدين ، وسفّهت الأحلام ، وفرقت الجماعة ، فإن كنت إنما جئت بهذا لتطلب مالاً جعلنا لك من أموالنا ما تكون به أكثرنا مالاً ، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا سودناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رتيباً - أي تابعاً من الجن - بذلنا أموالنا في طلب الطيب حتى نبرئك منه أو نُعذّر فيك ، فقال رسول الله ﷺ : ما بي ما تقولون ، ما جئكم أطلب أموالكم ولا الشرف فيكم ولا الملك عليكم ، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً فإن قبلوا مني ما جئكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة ، وإن تردّوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم ، فقالوا يا محمد إن كنت غير قابل منا ما عرضنا فقد علمت أنه ليس أحد من الناس أضيق بلاداً ، ولا أشدّ عيشاً منا ، فسل ربك يُسير لنا هذه الجبال ، ويجري لنا أنهاراً ، ويبعث من مضي من آبائنا حتى نسألهم أحقّ ما تقول ؟ وسله أن يجعل لك جناتاً وكنوزاً وقصوراً من ذهب وفضة تغنيك عنا فأنزل الله ﷻ ﴿وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . .﴾^(٣) الآية .

ب - عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ مخفياً بمكة ، وكان إذا صلى بأصحابه رفع صوته بالقرآن ، فإذا سمع ذلك المشركون سبوا القرآن ، ومن أنزله ومن جاء به ، فقال الله عز وجل لنبيه ﷺ ولا تجهر بصلاتك ولا تخافت بها وابتغ بين ذلك سبيلاً^(١) .

وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا^(١١) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّنْ نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا^(١٢) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسْفًا أَوْ تَأْتِيَ بَالَهُ وَالْمَلَائِكَةُ قَبِيلًا^(١٣) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّنْ زُخْرِفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنْزِلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرؤه قُلْ سُبْحَانَ رَبِّيْ هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا^(١٤) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمْ الْهُدَىٰ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا^(١٥) قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَّمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا^(١٦) قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا

التفسير : وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً^(١١) لما تبين إعجاز القرآن ولزمتهم الحجة وغلبوا أخذوا يتعللون باقتراح الآيات والخوارق والمعنى قال المشركون لن نصدقك يا محمد حتى تشقق لنا من أرض مكة عيناً غزيرة لا ينقطع منها الماء^(١٢) أو تكون لك جنة من نخيل وعنب^(١٣) أي يكون لك بستان فيه أنواع النخيل والأعناب^(١٤) فتفجر الأنهار خلالها تفيضاً أي تجعل الأنهار تتفجر فيها وتسير وسطها بقوة وغزارة^(١٥) أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً^(١٦) هذا هو الاقتراح الثالث أي تجعل السماء تتساقط علينا قطعاً قطعاً كما كنت تخوفنا وترغم أن الله سيعذبنا إن لم نؤمن بك قال المفسرون : أشاروا إلى قوله تعالى^(١٧) «إِنْ نَشَأْ نُخَسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطَ عَلَيْهِمْ كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ»^(١٨) أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً^(١٩) أي تحضر لنا الله وملائكته مقابلةً وعياناً فتراهم^(٢٠) أو يكون لك بيت من زخرف^(٢١) أي يكون لك قصر مشيد عظيم من ذهب لا من حجر أو طين^(٢٢) أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه^(٢٣) هذا هو الاقتراح السادس والأخير ، وكلها تدل على سفه وجهل كبير ، بسنة الله في خلقه وبحكمته وجلاله أي أو تصعد يا محمد إلى السماء بسلم ولن نصدقك لمجرد صعودك حتى تعود ومعك كتاب من الله تعالى منشور أنك عبده ورسوله نقرؤه بأنفسنا^(٢٤) قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً^(٢٥) أي قل لهم يا محمد تعجباً من فرط كفرهم وعنادهم : سبحان الله هل أنا إله حتى تطلبوا مني أمثال هذه المقترحات ؟ ما أنا إلا رسول من البشر بعثني الله إليكم فلم هذا الجحود والعناد ؟ !^(٢٦) وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولاً^(٢٧) ؟ أي إن السبب الذي منع المشركين من الإيمان بعد وضوح المعجزات هو استبعاد أن يبعث الله رسولاً إلى الخلق من البشر ، فلماذا يكون بشراً ولا يكون ملكاً ؟ وقد رد تعالى عليهم بقوله^(٢٨) «قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين»^(٢٩) أي قل لهم يا

بَنِي وَيَبْنِكُمْ^٤ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴿١٧﴾ وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ^٥ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ
أُولِيَاءَ مِنْ دُونِهِ^٦ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمِيَآ وَبُكْمًا^٧ وَصُمًّا^٨ مَا وَلَّهُمْ جَهَنَّمَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ
سَعِيرًا ﴿١٨﴾ ذَلِكَ جَزَاءُهُمْ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَإِذَا كُنَّا عِظْمًا وَرُفَاتًا أَوَآلْنَا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿١٩﴾
* أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّارْتِيَابٍ فِيهِ

محمد : لو كان أهل الأرض ملائكة يمشون على أقدامهم كما يمشي الناس ساكنين في الأرض مستقرين فيها ﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ أي لنزلنا عليهم رسولاً من الملائكة ولكن أهل الأرض بشرٌ فالرسول إليهم بشرٌ من جنسهم ، إذ جرت حكمة الله أن يرسل إلى كل قوم رسولاً من جنسهم ليمكنهم الفهم عنه ومخاطبته ، وهذا تسفيه وتجهيل لمنطق المشركين ﴿قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم﴾ أي كفى الله شاهداً على صدقي ﴿إنه كان بعبادو خبيراً بصيراً﴾ أي هو تعالى العالم بأحوال العباد وسيجازيهم عليها ﴿ومن يهد الله فهو المهتد﴾ أي من يهده الله إلى الحق فهو السعيد الرشيد ﴿ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه﴾ أي ومن يضلله الله عن الحق بسبب سوء اختياره فلن تجد لهم أنصاراً يعصمونهم من عذاب الله ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وُجُوهِهِمْ﴾ أي يُسحبون يوم القيامة على وجوههم تجرهم الزبانية من أرجلهم إلى جهنم كما يفعل في الدنيا بمن يبالغ في هوانه وتعذيبه ﴿عمياً وبُكْمًا وَصُمًّا﴾ أي يُحشرون حال كونهم عمياً وبُكْمًا وَصُمًّا يعني فاقد الحواس لا يرون ولا ينطقون ولا يسمعون ثم يرد الله إليهم أسماعهم وأبصارهم ونطقهم فيرون النار ويسمعون زفيرها وينطقون بما حكى الله عنهم ، عن أنس قيل يا رسول الله : كيف يُحشر الناس على وجوههم ؟ قال : الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم^(١) ﴿ماوَاهم جهنم كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ أي مستقرهم ومقامهم في جهنم كلما سكن لهاها وخذت نارها زدناهم ناراً ملتته ووهجاً وجرماً^(٢) ﴿ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أنذا كنا عظاماً ورفاتاً أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ أي ذلك العذاب جزاء كفرهم بآيات الله وتكذيبهم بالبعث والنشور وقولهم أنذا أصبحنا عظاماً نخرة، وذرات متفتتة سنُخلق ونبعث مرة ثانية؟ وقد ردَّ تعالى عليهم بقوله ﴿أو كُفِرْتُمْ يَوْمَ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ أي أولم ير هؤلاء المشركون أن الله العظيم الجليل الذي خلق هذا الكون الهائل بسمواته وأرضه قادرٌ على إعادة جسد الإنسان بعد فناءه؟ فإن القادر على الإحياء قادر على الإعادة بطريق الأخرى قال في البحر: نبههم تعالى على عظيم قدرته وباهر حكيمته بقوله ﴿أو كُفِرْتُمْ يَوْمَ أَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وهو استفهام إنكار وتوبيخ على استبعادهم الإعادة، واحتجاجٌ عليهم بأنهم قد رأوا قدرة الله على خلق هذه الأجرام العظيمة التي بعض ما تحويه البشر، فكيف يقرون بخلق هذا المخلوق العظيم

(١) أخرجه الشيخان . (٢) قال في التسهيل : المراد كلما أكلت لحومهم فسكن لهاها بدلوا أجساداً أخر ، ثم صارت ملتته أكثر مما كانت .

فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا ﴿٩٩﴾ قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ
 الْإِنْسَانُ نَسْنُ قَتُورًا ﴿١٠٠﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسَعَلَ بَنِي إِسْرَءِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ
 إِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَمُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ
 وَإِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَنْفِرْعَوْنَ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا
 مِنْ بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَءِيلَ أَسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا ﴿١٠٤﴾ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَّلْنَاهُ
 ثُمَّ يَنْكُرُونَ إِعَادَتَهُ ^(١) ﴿وَجَعَلْ لَهُمْ أَجَلًا لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ أَي جَعَلَ لَهُؤُلَاءِ الْمَشْرِكِينَ مَوْعِدًا مُحَدَّدًا لِمَوْتِهِمْ
 وَبَعَثَهُمْ ، لَا شَكَّ وَلَا رَيْبَ فِي مَجِيئِهِ ﴿فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾ أَي أَبَى هَؤُلَاءِ الْكَافِرُونَ الظَّالِمُونَ - مع
 وضوح الحق وسطوعه - إِلَّا جُحُودًا وَتَمَادِيًا فِي الْكُفْرِ وَالضَّلَالِ ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي﴾ أَي
 قُلْ يَا مُحَمَّدُ لَهُؤُلَاءِ الْمَعَانِدِينَ الْمَكَابِرِينَ ، الْمُقْتَرِحِينَ لِلْخَوَارِقِ وَالْمُعْجَزَاتِ : لَوْ كُنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رِزْقِ
 اللَّهِ وَنِعَمِهِ الَّتِي أَفَاضَهَا عَلَى الْعِبَادِ ﴿إِذَا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ أَي إِذَا لَبَخَلْتُمْ بِهِ وَامْتَنَعْتُمْ عَنِ الْإِنْفَاقِ
 خَوْفًا مِنْ نَفَادِهَا ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ أَي وَكَانَ الْإِنْسَانُ شَحِيحًا مَبَالِغًا فِي الْبَخْلِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ :
 ﴿قَتُورًا﴾ أَي بَخِيلًا مَنُوعًا وَقَالَ الزَّمَخْشَرِيُّ : وَلَقَدْ بَلَغَ هَذَا الْوَصْفَ بِالشَّحِّ الْغَايَةَ الَّتِي لَا يَبْلُغُهَا الْوَهْمُ ^(٢) ،
 ثُمَّ ذَكَرَ تَعَالَى أَنَّ كَثْرَةَ الْخَوَارِقِ لَا تُنْشِئُ الْإِيمَانَ فِي الْقُلُوبِ الْجَاخِدةِ ، وَهِيَ هَذِهِ مُوسَى قَدْ أُوتِيَ تِسْعَ آيَاتٍ
 بَيِّنَاتٍ ثُمَّ كَذَّبَ بِهَا فِرْعَوْنُ وَمَلَّؤُهُ فَحُلَّ بِهِمُ الْهَلَاكُ جَمِيعًا ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ﴾ أَي وَاللَّهِ لَقَدْ
 أَعْطَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ وَاضِحَاتٍ الدَّلَالَةِ عَلَى نُبُوته وَصَحَّةِ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَهِيَ « الْعَصَا ، وَالْيَدِ ،
 وَالطُّوفَانُ ، وَالْجَرَادُ ، وَالْقُمَّلُ ، وَالضَّفَادِعُ ، وَالْدَّمَ ، وَانْفِلَاقُ الْبَحْرِ ، وَالسَّنِينَ » خَمْسٌ مِنْهَا فِي سُورَةِ
 الْأَعْرَافِ ﴿فَارْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلَاتٍ﴾ وَبِالْبَاقِي مُتَفَرِّقَاتٍ
 ﴿فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ﴾ أَي فَاسْأَلْ يَا مُحَمَّدُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَمَّا جَرَى بَيْنَ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ فَإِنَّهُمْ
 يَعْلَمُونَهَا مِمَّا لَدَيْهِمْ فِي التَّوْرَةِ قَالَ الرَّازِيُّ : وَلَيْسَ الْمَطْلُوبُ مِنْ سَوْأَلِ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنْ يَسْتَفِيدَ هَذَا الْعِلْمُ
 مِنْهُمْ بَلِ الْمَقْصُودُ أَنْ يَظْهَرَ لِعَامَّةِ الْيَهُودِ وَعُلَمَائِهِمْ صَدَقَ مَا ذَكَرَهُ الرَّسُولُ فَيَكُونُ هَذَا السَّؤَالُ سَوْأَلِ
 اسْتِشْهَادٍ ^(٣) ﴿فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ أَي إِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَا مُوسَى قَدْ سُحِّرْتَ فَتَخْبُطُ
 عَقْلُكَ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بِصَآئِرٍ﴾ أَي قَالَ لَهُ مُوسَى تَوْبِيخًا
 وَتَبْكِيَةً : لَقَدْ تَبَيَّنَتْ يَا فِرْعَوْنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَاتِ التَّسْعَ مَا أَنْزَلَهَا إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ شَاهِدَةً عَلَى
 صِدْقِي ، تَبَصَّرُ النَّاسُ بِقُدْرَةِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ وَلَكِنَّكَ مَكَابِرُ مُعَانِدٍ ﴿وَإِنِّي لَا أَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنَ مَثْبُورًا﴾ أَي
 وَإِنِّي لَا أَعْتَقِدُكَ يَا فِرْعَوْنَ هَالِكًا خَاسِرًا ﴿فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفْزِهِمْ مِنَ الْأَرْضِ﴾ أَي أَرَادَ فِرْعَوْنَ أَنْ يُخْرِجَ مُوسَى
 وَقَوْمَهُ مِنْ أَرْضِ مِصْرَ ﴿فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا﴾ أَي فَأَغْرَقْنَا فِرْعَوْنَ وَجُنْدَهُ أَجْمَعِينَ فِي الْبَحْرِ ﴿وَقُلْنَا مِنْ

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٥٥﴾ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا ﴿١٥٦﴾ قُلْ ءَامِنُوا بِهِ وَلَا تُؤْمِنُوا^١ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴿١٥٧﴾ وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا ﴿١٥٨﴾ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَسْكُونُ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴿١٥٩﴾ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٦٠﴾

بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض ﴿١٥٥﴾ أي وقلنا لبني إسرائيل من بعد إغراق فرعون وجنده اسكنوا أرض مصر ﴿١٥٦﴾ فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً ﴿١٥٧﴾ أي فإذا جاء يوم القيامة جئنا بكم من قبوركم إلى المحشر مختلطين فيكم المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، ثم نفصل بينكم ونميز السعداء من الأشقياء ، ثم عاد إلى تعظيم حال القرآن وجلالة قدره فقال ﴿وبالحق أنزلناه وبحق نزل﴾ أي وأنزلنا هذا القرآن متلبساً بالحق ، لا يعتريه شك أو ريب ، فيه الحكم والمواعظ والأمثال التي اشتمل عليها القرآن وهكذا أنزل من عند الله ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إلا مبشراً بالجنة لمن أطاع ، ومنذراً بالنار لمن عصى ﴿وقرآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ﴾ أي وقرآنًا نزلناه مفروقاً منجماً لتقرأه على الناس على تودة ومهل ، ليكون حفظه أسهل ، والوقوف على دقائقه أيسر ﴿ونزلناه تنزيلاً﴾ أي نزلناه شيئاً بعد شيء على حسب الأحوال والمصالح ﴿قل آمنوا به أو لا تؤمنوا﴾ خطاب للمشركون الذين اقترحوا المعجزات على وجه التهديد والوعيد أي آمنوا بهذا القرآن أو لا تؤمنوا فإن إيمانكم به لا يزيده كمالاً ، وتكذيبكم له لا يورثه نقصاً ﴿إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾ أي العلماء الذين قرءوا الكتب السالفة من صالح أهل الكتاب إذا سمعوا القرآن تأثروا فخرّوا ساجدين لله رب العالمين ، والجملة تعليل لما تقدم والمعنى : إن لم تؤمنوا به أنتم فقد آمن به من هو خير منكم وأعلم ﴿ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولاً﴾ أي يقولون تنزه الله عن إخلاف وعده إنه كان وعده كائناً لا محالة ﴿ويسخرون للأذقان يبيكون ويزيدهم خشوعاً﴾ أي ويخرون لناحية الأذقان ساجدين على وجوههم باكين عند استماع القرآن ويزيدهم تواضعاً لله قال الرازي : والفائدة في هذا التكرير اختلاف الحالين وهو خروجهم للسجود وفي حال كونهم باكين عند استماع القرآن^(١) ﴿قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن﴾ أي نادوا ربكم الجليل باسم ﴿الله﴾ أو باسم ﴿الرحمن﴾ ﴿أيًّا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى﴾ أي بأي هذين الإسمين ناديتموه فهو حسن لأن أسماء جميعها حسنى وهذان منها قال المفسرون : سببها أن الكفار سمعوا النبي ﷺ يدعو (يا الله ، يا رحمن) فقالوا إن كان محمد ليأمرنا بدعاء إله واحد وما هو يدعو إلهين فنزلت الآية مبينة أنها لمسمى واحد ﴿ولا تجهر بصلواتك ولا تخافت بها﴾ أي لا تجهر يا محمد بقراءتك في الصلاة فيسمعك المشركون فيسبوا القرآن ومن أنزله ولا تُسرَّ بقراءتك بحيث لا تسمع من خلفك ﴿وابتغ بين ذلك

وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَخْخِذْ وَلِداً وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِيلِ وَكَبِّرَهُ تَكْبِيرًا ﴿١١﴾

سبيلاً ﴿١﴾ أي اقصد طريقاً وسطاً بين الجهر والمخافتة قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يرفع صوته بالقراءة فإذا سمعه المشركون سبوا القرآن ومن أنزله فنزلت ﴿٢﴾ ﴿١﴾ وقال الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ﴿٣﴾ أي الحمد لله الذي تنزه عن الولد ﴿٤﴾ ولم يكن له شريك في الملك ﴿٥﴾ أي ليس له شريك في ألوهيته ﴿٦﴾ ولم يكن له ولي من الدنيل ﴿٧﴾ أي ليس بذليل فيحتاج إلى الولي والنصير ﴿٨﴾ وكبره تكبيراً ﴿٩﴾ أي عظم ربك عظمة تامة واذكره بصفات العز والجلال ، والعظمة والكمال ، ختمت السورة كما بدأت بحمد الله وتقرير وحدانيته بلا ولد ولا شريك ، وتنزيهه عن الحاجة إلى الولي والنصير ، وهو العلي الكبير .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أبعث الله بشراً رسولا﴾ ؟ .
- ٢ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿ونحشرهم يوم القيامة﴾ اهتماماً بأمر الحشر .
- ٣ - الطباق بين ﴿من يهد . . ومن يضل﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وبين ﴿تجهراً . . وتخافت﴾ .
- ٤ - الجناس الناقص بين ﴿محسوراً﴾ و ﴿مشوراً﴾ لتغير بعض الحروف .
- ٥ - المقابلة اللطيفة ﴿وإني لأظنك يا فرعون مشوراً﴾ مقابل قوله فرعون ﴿وإني لأظنك يا موسى مسحوراً﴾ .
- ٦ - السجع الرصين الذي يزيد في جمال الأسلوب مثل ﴿فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً مبشراً ونذيراً﴾ ومثل ﴿إني لأظنك يا موسى مسحوراً . . وإني لأظنك يا فرعون مشوراً﴾ .

« تم بحمده تعالى تفسير سورة الإسراء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الكهف من السور المكية ، وهي إحدى سور خمس بُدئت بـ « الحمد لله » وهذه السور هي « الفاتحة ، الأنعام ، الكهف ، سبأ ، فاطر » وكلها تبتدىء بتمجيد الله جل وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والكبرياء ، والجلال والكمال .

* تعرضت السورة الكريمة لثلاث قصص من روائع قصص القرآن ، في سبيل تقرير أهدافها الأساسية لتثبيت العقيدة ، والإيمان بعظمة ذي الجلال . . أما الأولى فهي قصة « أصحاب الكهف » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، وهم الفتية المؤمنون الذين خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، ولجئوا إلى غارٍ في الجبل ، ثم مكثوا فيه نياماً ثلاثمائة وتسع سنين ، ثم بعثهم الله بعد تلك المدة الطويلة .

* والقصة الثانية : قصة موسى مع الخضر ، وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم ، وما جرى من الأخبار الغيبية التي أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح « الخضر » ولم يعرفها موسى عليه السلام حتى أعلمه بها الخضر كقصة السفينة ، وحادثة قتل الغلام ، وبناء الجدار .

* والقصة الثالثة : قصة « ذي القرنين » وهو ملك مكن الله تعالى له بالتقوى والعدل أن يبسط سلطانه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاربها ، وما كان من أمره في بناء السد العظيم .

* وكما استخدمت السورة - في سبيل هدفها - هذه القصص الثلاث ، استخدمت أمثلة واقعية ثلاثة ، لبيان أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والسلطان ، وإنما هو مرتبط بالعقيدة ، المثل الأول : للغني المزهو بماله ، والفقير المعترز بعقيدته وإيمانه ، في قصة أصحاب الجنتين . والثاني : للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال ، والثالث : مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة امتناع إبليس عن السجود لآدم ، وما ناله من الطرد والحرمان ، وكل هذه القصص والأمثال بقصد العظة والاعتبار .

التسمية : سميت « سورة الكهف » لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة العجيبة الغريبة قصة أصحاب الكهف .

قال الله تعالى : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب . . . إلى . . . ولا يُشرك في حكمه أحداً﴾
من آية (١) إلى نهاية آية (٢٦) .

اللفظ : ﴿بائع﴾ قاتل ومهلك قال الليث : باع الرجل نفسه إذا قتلها غيظاً وأصل البع الجهد كما قال الفراء ﴿جُرْزاً﴾ الجرُز : الأرض التي لا نبات عليها ﴿الكهف﴾ النقب المتسع في الجبل وإذا لم يكن متسعاً فهو غار ﴿الرقيم﴾ اللوح الذي كتبت فيه أسماء أصحاب الكهف ﴿شططاً﴾ الشطط : الجور والغلو وتعدي الحد قال الفراء : اشتط في الأمر جاوز الحد ، وشط المنزل بعد ﴿تزاور﴾ تتحنى وتميل من الأزوار بمعنى الميل قال عنتره « وأزور من وقع القنا بلبانه » ﴿الوصيد﴾ الفناء أي فناء الكهف ﴿فجوة﴾ متسع من المكان ﴿ورقكم﴾ الورق : اسم للفضة سواء كانت مضروبة أم لا ﴿أعثرنا﴾ أطلعنا ﴿تمار﴾ تجادل والمرء : المجادلة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۝ قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا ۝ مَّا كُنْ فِيهِ أَبَدًا ۝ وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ۝ مَّا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا ۝

التفسير : ﴿الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب﴾ أي الشاء الكامل مع التعظيم والإجلال لله الذي أنزل على رسوله محمد القرآن نعمةً عليه وعلى سائر الخلق ﴿ولم يجعل له عوجاً﴾ أي لم يجعل فيه شيئاً من العوج لا في ألفاظه ولا في معانيه ، وليس فيه أي عيب أو تناقض ﴿قيماً﴾ أي مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تناقض قال الطبري : هذا من المقدم والمؤخر أي أنزل الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً يعني مستقيماً لا اختلاف فيه ولا تفاوت ، ولا اعوجاج ولا ميل عن الحق ^(١) ، ﴿لينذر بأساً شديداً من لدنه﴾ أي لينذر بهذا القرآن الكافرين عذاباً شديداً من عنده تعالى ﴿ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات﴾ أي ويبشر المصدقين بالقرآن الذين يعملون الأعمال الصالحة ﴿أن لهم أجراً حسناً﴾ أي أن لهم الجنة وما فيها من النعيم المقيم ﴿ما كُنْ فِيهِ أَبَدًا﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم الذي لا انتهاء له ولا انقضاء ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ أي ويخوف أولئك الكافرين الذين نسبوا لله الولد عذابه الأليم قال البيضاوي : خصهم بالذكر وكرّر الإنذار استعظاماً لكفرهم ، وإنما لم يذكر المنذر به استغناءً بتقدم ذكره ^(٢) ﴿ما لهم به من علم﴾ أي ما لهم بذلك الافتراء الشنيع شيء من العلم أصلاً ﴿ولا لآبائهم﴾ أي ولا لأسلافهم الذين قلّدوهم فتأهوا جميعاً في

فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ آثَرِهِمْ ۚ إِنَّ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لِّهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِن آيَاتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ

بيداء الجهالة والضلالة ﴿كبرت كلمة تخرج من أفواههم﴾ أي عظمت تلك المقالة الشنيعة كلمة قبيحة ما أشنعها وأفظعها ؟ خرجت من أفواه أولئك المجرمين ، وهي في غاية الفساد والبطلان ﴿إن يقولون إلا كذباً﴾ أي ما يقولون إلا كذباً وسفهاً وزوراً ﴿فلعلك باخع نفسك على آثارهم﴾ أي فلعلك قاتل نفسك يا محمد ومهلكها غماً وحزناً على فراقهم وتوليهم وإعراضهم عن الإيمان ﴿إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً﴾ أي إن لم يؤمنوا بهذا القرآن حسرة وأسفاً عليهم ، فما يستحق هؤلاء أن تحزن وتأسف عليهم ، والآية تسلية للنبي عليه السلام ﴿إننا جعلنا ما على الأرض زينة لها﴾ أي جعلنا ما عليها من زخارف ورياش ومتاع وذهب وفضة وغيرها زينة للأرض كما زينا السماء بالكواكب ﴿لنبلوهم أيهم أحسن عملاً﴾ أي لنختبر الخلق أيهم أطوع لله وأحسن عملاً لآخرته ﴿وإننا لجاعلون ما عليها صعيداً جرُزاً﴾ أي سنجعل ما عليها من الزينة والنعيم حطاماً وركاماً حتى تصبح كالأرض الجرداء التي لا نبات فيها ولا حياة بعد أن كانت خضراء بهجة قال القرطبي : الآية وردت لتسلية النبي ﷺ والمعنى : لا تهتم يا محمد للدنيا وأهلها فإننا إنما جعلنا ذلك امتحاناً واختباراً لأهلها ، فمنهم من يتدبر ويؤمن ومنهم من يكفر ، ثم إن يوم القيامة بين أيديهم ، فلا يعظم عليك كفرهم فإننا سنجازيهم ^(١) ﴿أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا﴾ ؟ بدء قصة أصحاب الكهف ، والكهف الغار المتسع في الجبل ، والرقيم اللوح الذي كتب فيه أسماء أصحاب الكهف على المشهور والمعنى : لا تظنن يا محمد أن قصة أهل الكهف - على غرابتها - هي أعجب آيات الله ، ففي صفحات هذا الكون من العجائب والغرائب ما يفوق قصة أصحاب الكهف قال مجاهد : أحسبت أنهم كانوا أعجب آياتنا ؟ قد كان في آياتنا ما هو أعجب ^(٢) منهم ﴿إذ أوى الفتية إلى الكهف﴾ ^(٣) أي اذكر حين التجأ الشبان إلى الغار في الجبل وجعلوه مأواهم ﴿فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة﴾ أي أعطنا من خزائن رحمتك

(١) القرطبي ٣٥٤/١٠ . (٢) زاد المسير ١٠٨/٥ . (٣) خلاصة قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون أن ملكاً جباراً يسمى دقيانوس ظهر على بلدة من بلاد الروم تدعى « طرطوس » بعد زمن عيسى عليه السلام ، وكان يدعو الناس إلى عبادة الأصنام ويقتل كل مؤمن لا يستجيب لدعوته الضالة ، حتى عظمت الفتنة على أهل الإيمان ، فلما رأى الفتية ذلك حزنوا حزناً شديداً وبلغ خبرهم الملك الجبار فبعث في طلبهم فلما مثلوا عند الملك توعدهم بالقتل إن لم يعبدوا الأوثان ويذبحوا للطواغيت ، فوقفوا في وجهه وأظهروا إيمانهم وقالوا ﴿ربنا رب السموات والأرض لن ندعوك من دونه إلهاً﴾ فقال لهم : إنكم فتيان حديثه أسنانكم وقد أخرتكم إلى الغد لتروا رأيكم فهربوا ليلاً ومروا براع معه كلب فتبعهم فلما كان الصباح أوا إلى الكهف وتبعهم الملك وجنده فلما وصلوا إلى الكهف هاب الرجال وفرزوا من الدخول عليهم فقال الملك : سدوا عليهم باب الغار حتى يموتوا فيه جوعاً وعطشاً ، وألقى الله على أهل الكهف النوم فبقوا نائمين وهم لا يدرون ثلاثمائة وتسع =

لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْنَةٌ ءَامَنُوا بِرَبِّهِمْ
وَزِدْنَاهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَن نَّدْعُوهُ مِنْ دُونِهِ
إِنَّا لَنَاقِدُونَ قَوْلَهُ إِذَا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ مِّنْ
أَظْلَمِ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ فَأَوْدَا إِلَى الْكَهْفِ يَنْشُرُ لَكُمْ رَبُّكُمْ

الخاصة مغفرة ورزقاً ﴿وهي﴾ لنا من أمرنا رشداً ﴿أي أصلح لنا أمرنا كله واجعلنا من الراشدين
المهتدين﴾ فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً ﴿أي ألقينا عليهم النوم في الغار سنين عديدة
﴿ثم بعثناهم لنعلم أي الحزبين أحصى لما لبثوا أمداً﴾ أي ثم أيقظناهم من بعد نومهم الطويل لنرى
أي الفريقين أدق إحصاء للمدة التي ناموها في الكهف ؟ قال في التسهيل : والمراد بالحزبين : أصحاب
الكهف ، والذين بعثهم الله إليهم حتى رأوهم ﴿١١﴾ وقال مجاهد : الحزبان من أصحاب الكهف لما استيقظوا
اختلفوا في المدة التي لبثوا في الكهف فقال بعضهم : يوماً أو بعض يوم وقال آخرون : ربكم أعلم بما
لبثتم ﴿٢﴾ ، والقول الأول مروي عن ابن عباس ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ أي نحن نقص
عليك يا محمد خبرهم العجيب على وجه الصدق دون زيادة ولا نقصان ﴿إنهم فتية آمنوا بربهم
وزدناهم هدى﴾ أي إنهم جماعة من الشبان آمنوا بالله فثبتناهم على الدين وزدناهم يقيناً ﴿وربطنا
على قلوبهم﴾ أي قوينا عزمهم وألهمناهم الصبر حتى أصبحت قلوبهم ثابتة راسخة ، مطمئنة إلى الحق
معتزة بالإيمان ﴿إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض﴾ أي حين قاموا بين يدي الملك الكافر الجبار
من غير مبالاة فقالوا ربنا هو خالق السموات والأرض لا ما تدعوننا إليه من عبادة الأوثان والأصنام ﴿لن
ندعوا من دونه إلهاً﴾ أي لن نشرك معه غيره فهو واحد بلا شريك ﴿لقد قلنا إذا شططاً﴾ أي لئن
عبدنا غيره نكون قد تجاوزنا الحق ، وحُدنا عن الصواب ، وأفرطنا في الظلم والضلال ﴿هؤلاء قومنا

= سنين ثم أيقظهم الله وظنوا أنهم أقاموا يوماً أو بعض يوم ، وشعروا بالجوع فبعثوا أحدهم ليشترى لهم طعاماً وطلبوا منه التخفي والحذر فسار
حتى وصل البلدة فوجد معالمها قد تغيرت ولم يعرف أحداً من أهلها فقال في نفسه : لعلني أخطأت الطريق إلى البلدة ثم اشتري طعاماً ولما دفع
النقود للبائع جعل يقلبها في يده ويقول : من أين حصلت على هذه النقود ؟ واجتمع الناس وأخذوا ينظرون لتلك النقود ويعجبون ، ثم
قالوا من أنت يا فتى لعلك وجدت كنزاً ؟ فقال لا والله ما وجدت كنزاً إنما دراهم قومي ، قالوا له إنها من عهد بعيد ومن زمن الملك
دقيانوس ، قال : وما فعل دقيانوس ؟ قالوا مات من قرون عديدة ، قال والله ما يصدقني أحد بما أقوله : لقد كنا فتية وأكرهنا الملك على
عبادة الأوثان فهربنا منه عشية أمس فأوينا إلى الكهف فأرسلني أصحابي اليوم لأشتري لهم طعاماً ، فانطلقوا معي إلى الكهف أريكم
أصحابي ، فنعجبوا من كلامه ورفعوا أمره إلى الملك - وكان مؤمناً صالحاً - فلما سمع خبره خرج الملك والجند وأهل البلدة وحين وصلوا إلى
الغار سمعوا الأصوات وجلبة الخيل فظنوا أنهم رسل دقيانوس فقاموا إلى الصلاة فدخل الملك عليهم فرأهم يصلون فلما انتهوا من صلاتهم
عانقهم الملك وأخبرهم أنه رجل مؤمن وأن دقيانوس قد هلك من زمن بعيد وسمع كلامهم وقصتهم وعرف أن الله بعثهم ليكون أمرهم آية
للناس ثم ألقى الله عليهم النوم وقبض أرواحهم فقال الناس : لتخذن عليهم مسجداً .

مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَهَيِّ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مَرَفَقًا ﴿١٦﴾ * وَتَرَى الشَّمْسَ إِذَا طَلَعَتْ تَزَّوُّرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَتْ تَقَرِّضُهُمْ ذَاتَ الشِّمَالِ وَهُمْ فِي فَجْوَةٍ مِنْهُ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ مِنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ وَكَلْبُهُمْ بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ

اتخذوا من دونه آلهة ﴿١﴾ أي هؤلاء أهل بلدنا عبدوا الأصنام تقليداً من غير حجة ﴿٢﴾ لولا يأتون عليهم بسلطان بين ﴿٣﴾ أي هلاً يأتون على عبادتهم لها ببرهان ظاهر ، والغرض من التحضيض ﴿٤﴾ لولا ﴿٥﴾ التعجيز كأنهم قالوا إنهم لا يستطيعون أن يأتوا بحجة ظاهرة على عبادتهم للأصنام فهم إذاً كذبة على الله ﴿٦﴾ فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ﴿٧﴾ استفهام بمعنى النفي أي لا أحد أظلم من كذب على الله بنسبة الشريك إليه تعالى ﴿٨﴾ وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله ﴿٩﴾ أي وإذا اعتزلتم أيها الفتية قومكم وما يعبدون من الأوثان غير الله تعالى ﴿١٠﴾ فأووا إلى الكهف ﴿١١﴾ أي التجئوا إلى الكهف ﴿١٢﴾ ينشر لكم ربكم من رحمته ﴿١٣﴾ أي يبسط ربكم ويوسع عليكم رحمته ﴿١٤﴾ ويهيء لكم من أمركم مرفقاً ﴿١٥﴾ أي يسهل عليكم أسباب الرزق وما ترتفقون به من غداء وعشاء في هذا الغار ﴿١٦﴾ وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات اليمين ﴿١٧﴾ أي ترى أيها المخاطب الشمس إذا طلعت تميل عن كهفهم جهة اليمين ﴿١٨﴾ وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال ﴿١٩﴾ أي وإذا غربت تقطعهم وتبعد عنهم جهة الشمال والغرض أن الشمس لا تصيبهم عند طلوعها ولا عند غروبها كرامة لهم من الله لثلاث ذمهم بحرهما ﴿٢٠﴾ وهم في فجوة منه ﴿٢١﴾ أي في متسع من الكهف وفي وسطه بحيث لا تصيبهم الشمس لا في ابتداء النهار ، ولا في آخره ﴿٢٢﴾ ذلك من آيات الله ﴿٢٣﴾ أي ذلك الصنيع من دلائل قدرة الله الباهرة قال ابن عباس : لو أن الشمس تطلع عليهم لأحرقتهم ، ولو أنهم لا يقبلون لأكلتهم الأرض ﴿٢٤﴾ من يهد الله فهو المهتد ﴿٢٥﴾ أي من يوفقه الله للإيمان ويرشده إلى طريق السعادة فهو المهتدي حقاً ﴿٢٦﴾ ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً ﴿٢٧﴾ أي ومن يضلله الله بسوء عمله فلن تجد له من يهديه ﴿٢٨﴾ وتحسبهم أيقاظاً وهم رقود ﴿٢٩﴾ أي لو رأيتم أيها الناظر لظننتهم أيقاظاً لتفتح عيونهم وتقلبهم والحال أنهم نيام ﴿٣٠﴾ ونقلبهم ذات اليمين وذات الشمال ﴿٣١﴾ أي ونقلبهم من

(١) يقول الشهيد « سيد قطب » في الظلال : « وإلى هنا يبدو موقف الفتية واضحاً صريحاً حاسماً ، لا تردد فيه ولا تلثم ، إنهم فتية أشداء في أجسامهم ، أشداء في إيمانهم ، أشداء في استنكار ما عليه قومهم ، ولقد تبين الطريقان فلا سبيل إلى الالتقاء ، ولا بد من الفرار بالعقيدة . . إنهم فتية تبين لهم الهدى في وسط ظالم كافر ، ولا حياة لهم في هذا الوسط ؟ إنهم أعلنوا عقيدتهم وجأروا بها ، وهم لا يطبقون كذلك أن يداروا القوم ويعبدوا ما يعبدون من الآلهة على سبيل التقية ويخفوا عبادتهم لله . والأرجح أن أمرهم قد كشف ، فلا سبيل لهم إلا أن يفروا بدينهم إلى الله وأن يختاروا الكهف على زينة الحياة ، وقد أجمعوا أمرهم فهم يتناجون بينهم ثم يأوون إلى الكهف الضيق المظلم يستروحوون فيه رحمة الله ، فإذا الكهف فسيح تنتشر فيه الرحمة وتمتد ظلها فتشملهم بالرفق والرخاء واللين » . الظلال ١٥ / ١٣ .

رُعْبًا ﴿١٨﴾ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبَدًا ﴿٢٠﴾ وَكَذَلِكَ أَعَثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ

جانب إلى جانب لثلا تأكل الأرض أجسامهم ﴿وكلبهم باسط ذراعيه بالصيد﴾ أي وكلبهم الذي تبعهم باسط يديه بفناء الكهف كأنه يحرسهم ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملت منهم رعباً﴾ أي لو شاهدتهم وهم على تلك الحالة لفررت منهم هارباً رعباً منهم ، وذلك لما ألبسهم الله من الهيبة ، فرويتهم تثير الرعب إذ يراهم الناظر نيماً كالأيقاز ، يتقلبون ولا يستيقظون ﴿وكذلك بعثناهم ليتساءلوا بينهم﴾ أي كما أئمناهم كذلك بعثناهم من النوم وأيقظناهم بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ليسأل بعضهم بعضاً عن مدة مكثهم وإقامتهم في الغار ﴿قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي قال أحدهم : كم مكثنا في هذا الكهف ؟ فقالوا مكثنا فيه يوماً أو بعض اليوم قال المفسرون : إنهم دخلوا في الكهف صباحاً وبعثهم الله في آخر النهار فلما استيقظوا ظنوا أن الشمس قد غربت فقالوا لبثنا يوماً ، ثم رأوها لم تغرب فقالوا أو بعض يوم ، وما دروا أنهم ناموا ثلاثمائة وتسع سنين ﴿قالوا ربكم أعلم بما لبثتم﴾ أي قال بعضهم ، الله أعلم بمدة إقامتنا ولا طائل وراء البحث عنها فخذوا بما هو أهم وأنفع لكم فنحن الآن جوع ﴿فابعثوا أحداكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾ أي فارسلوا واحداً منكم إلى المدينة بهذه النقود الفضية ﴿فليظنر أيها أزكى طعاماً فليأتكم برزق منه﴾ أي فليختر لنا أحل وأطيب الطعام فليشتر لنا منه ﴿وليتلطّف ولا يُشعرن بكم أحداً﴾ أي وليتلطّف في دخول المدينة وشراء الطعام حتى لا يشعر بأمرنا أحد ﴿إنهم إن يظهروا عليكم يرموكم أو يعيدوكم في ملتهم﴾ أي إن يظفروا يقتلوكم بالحجارة أو يردوكم إلى دينهم الباطل ﴿ولن تُفلحوا إذا أبدأ﴾ أي وإن عدتم إلى دينهم ووافقتموهم على كفرهم فلن تفوزوا بخير أبداً ، وهكذا يتناجى الفتية فيما بينهم خائفين حذرين أن يظهر عليهم الملك الجبار فيقتلهم أو يردهم إلى عبادة الأوثان فيوصون صاحبهم بالتلطّف بالدخول والخروج وأخذ الحيلة والحذر ﴿وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب فيها﴾ أي وكما بعثناهم من نومهم كذلك أطلعنا الناس عليهم ليستدلوا بذلك على صحة البعث ويوقنوا أن القيامة لا شك فيها ، فتكون قصة أصحاب الكهف حجة واضحة ودلالة قاطعة على إمكان البعث والنشور فإن القادر على بعث أهل الكهف بعد نومهم ثلاثمائة عام قادر على بعث الخلق بعد مماتهم ﴿إذ يتنازعون بينهم أمرهم﴾ أي حين تنازع القوم في أمر أهل الكهف بعد أن أطلعهم الله عليهم ثم قبض أرواحهم

أَمَرَهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِدًا ﴿٢١﴾ سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۖ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنَّ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا ﴿٢٤﴾ وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا

﴿فقالوا ابنوا عليهم بنياناً﴾ أي قال بعض الناس : ابنوا على باب كهفهم بنياناً ليكون علماً عليهم ﴿ربهم أعلم بهم﴾ أي الله أعلم بحالهم وشأنهم ﴿قال الذين غلبوا على أمرهم لنتخذن عليهم مسجداً﴾ أي قال الفريق الآخر وهم الأكثرية الغالبة : لنتخذن على باب الكهف مسجداً نصلي فيه ونعبد الله فيه ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾ أي سيقول هؤلاء القوم الخائضون في قصتهم في عهد الرسول ﷺ من أهل الكتاب هم ثلاثة رجال يتبعهم كلبهم ﴿ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب﴾ أي ويقول البعض : إنهم خمسة سادسهم الكلب قذفاً بالظن من غير يقين ولا علم كمن يرمي إلى مكان لا يعرفه ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ أي ويقول البعض إنهم سبعة والثامن هو الكلب ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ أي الله أعلم بحقيقة عددهم ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ أي لا يعلم عدتهم إلا قليل من الناس قال ابن عباس : أنا من ذلك القليل ، كانوا سبعة إن الله عددهم حتى انتهى إلى السبعة^(١) قال المفسرون : إن الله تعالى لما ذكر القول الأول والثاني أردفه بقوله ﴿رجماً بالغيب﴾ ولما ذكر القول الأخير لم يقدح فيه بشيء فكانه أقر قائله ثم نبه رسوله إلى الأفضل والأكمل وهو رد العلم إلى علام الغيوب ﴿فلا تمار فيهم إلا مراءً ظاهراً﴾ أي فلا تجادل أهل الكتاب في عدتهم إلا جدال متيقن عالم بحقيقة الخبر ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ أي لا تسأل أحداً عن قصتهم فإن فيا أوحى إليك الكفاية ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾ أي لا تقولن لأمر عزمت عليه إني سأفعله غداً إلا إذا قرنته بالمشيئة فقلت إن شاء الله قال ابن كثير : سبب نزول الآية أن النبي ﷺ لما سئل عن قصة أصحاب الكهف قال : (غداً أجييكم) فتأخر الوحي عنه خمسة عشر يوماً^(٢) ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ أي إذا نسيت أن تقول إن شاء الله ثم تذكرت فقلها لتبقى نفسك مستشعرة عظمة الله ﴿وقل عسى أن يهيني ربي لأقرب من هذا رشداً﴾ أي لعل الله يوفقني ويرشدني إلى ما هو أصلح من أمر ديني ودنياي ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ أي مكثوا في الكهف نائمين ثلاثمائة وتسع سنين ، وهذا بيان لما أجمل في قوله تعالى ﴿سنين عدداً﴾ ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي الله أعلم

تَسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾

بمدة لبثهم في الكهف على وجه اليقين ﴿له غيب السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المختص بعلم الغيب وقد أخبرك بالخبر القاطع عن أمرهم الحكيم الخبير ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ أي ما أبصره بكل موجود ، وما أسمع له لكل مسموع ، يدرك الخفيات كما يدرك الجليات ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾ أي ليس للخلق ناصر ولا معين غيره تعالى ﴿ولا يُشْرِكُ في حكمه أحدا﴾ أي ليس له شريك ولا مثيل ولا نظير ، ولا يقبل في قضائه وحكمه أحداً لأنه الغني عما سواه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿يُشِرْ . . وينذر﴾ وبين ﴿يَهْدِي . . ويضل﴾ وبين ﴿أَيَقَاطُ . . ورقود﴾ وبين ﴿ذات اليمين . . وذات الشمال﴾ .
٢ - الطباق المعنوي بين ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ . . ثم بعثناهم﴾ لأن معنى الأول أغناهم والثاني أيقظناهم .

٣ - الجناس الناقص بين ﴿قاموا . . وقالوا﴾ .

٤ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام ﴿لينذر بأساً شديداً﴾ ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ لشناعة دعوى الولد لله ، وفيه من بديع الحذف وجليل الفصاحة حذف المفعول الأول أي لينذر الكافرين بأساً شديداً ، ثم ذكر المفعول الأول وحذف الثاني في قوله ﴿وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً﴾ عذاباً شديداً فحذف العذاب لدلالة الأول عليه وحذف من الأول المنذرين لدلالة الثاني عليه ، وهذا من ألطف الفصاحة .

٥ - صيغة التعجب ﴿أسمع به وأبصر﴾ .

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بَاخَعُ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ﴾ شبه حاله عليه السلام مع المشركين بحال من فارقتهم الأحباب فهم يقتل نفسه أو كاد يهلك نفسه حزناً ووجداً عليهم .

٧ - الاستعارة التبعية ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ﴾ شبهت الإنامة الثقيلة بضرب الحجاب على الأذان كما تضرب الخيمة على السكان وكذلك يوجد استعارة في ﴿وربطنا على قلوبهم﴾ لأن الربط هو الشد والمراد شددنا على قلوبهم كما تشد الأوعية بالأوكية .

قال الله تعالى : ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك . . إلى قوله . . ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ من آية (٢٧) إلى نهاية آية (٥٣) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى قصة أهل الكهف وهي تمثل صور التضحية والبطولة في سبيل العقيدة والإيمان ، أعقبها بذكر قصة صاحب الجنتين وهي نموذج آخر للعقيدة تمثلة في قصة الأخوين من بني إسرائيل : المؤمن المعتز بإيمانه ، والكافر وهو صاحب الجنتين ، وما فيها من عبر وعظات ، وفي ثنايا

الآيات جاءت بعض التوجيهات القرآنية الكريمة .

اللغة : ﴿ملتحداً﴾ ملجأ وأصله من لحد إذا مال ، ومن لجأت إليه فقد ملت إليه هكذا قال أهل اللغة ﴿فُرطاً﴾ مجاوزاً للحد من قولهم فرسٌ فُرط إذا كان متقدماً للخيل ، قال الليث : الفُرط الأمر الذي يفرط فيه قال الشاعر :

لقد كلفتني شطاً وأمراً خائباً فُرطاً^(١)
﴿سرادقها﴾ السرادق : السور والحائط ﴿المهل﴾ كل ما أذيب من المعادن قال أبو عبيدة : كل شيء أذيبته من ذهب أو نحاسٍ أو فضة فهو المهل ﴿سندس﴾ السندس : الرقيق من الحرير ﴿استبرق﴾ الاستبرق : الغليظ من الحرير وهو الديباج قال الشاعر :

تراهنّ يلبسن المشاعر مرةً واستبرق الديباج طوراً لباسها^(٢)
﴿الأرائك﴾ جمع أريكة وهي السرير المزيّن بالثياب والستور كسرير العروس ﴿حساناً﴾ جمع حسابة وهي الصاعقة ﴿هشياً﴾ الهشيم : الياس المتكسر من النبات ﴿نغادر﴾ نترك .

سبب النزول : روى أن أشراف قريش اجتمعوا عند رسول الله ﷺ وقالوا له : إن أردت أن تؤمن بك فاطرد هؤلاء الفقراء من عندك يعنون « بلالاً ، وخباباً ، وصهيباً » وغيرهم فإننا نأنف أن نجتمع بهم ، وتعيّن لهم وقتاً يجتمعون فيه عندك فأنزل الله ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم . . ﴾^(٣) الآية .

وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ تَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٧٧﴾ وَأَصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ

النفسير : ﴿واتل ما أوحى إليك من كتاب ربك﴾ أي اقرأ يا محمد ما أوحاه إليك ربك من آيات الذكر الحكيم ﴿لا مبدل لكلماته﴾ أي لا يقدر أحد أن يغيّر أو يبدل كلام الله ﴿ولن تجد من دونه ملتحداً﴾ أي لن تجد ملجأ غير الله تعالى أبداً ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي﴾ أي احبس نفسك مع الضعفاء والفقراء من المسلمين الذين يدعون ربهم بالصباح والمساء ﴿يريدون وجهه﴾ أي يبتغون بدعائهم وجه الله تعالى ﴿ولا تعد عيناك عنهم﴾ أي لا تصرف بصرك إلى غيرهم من ذوي الغنى والشرف قال المفسرون : كان عليه السلام حريصاً على إيمان الرؤساء ليؤمن أتباعهم ولم يكن مريداً لزينة الدنيا قط ، فأمر أن يجعل إقباله على فقراء المؤمنين وأن يعرض عن أولئك العظماء والأشراف من المشركين ﴿تريد زينة الدنيا﴾ أي تبتغي بمجالستهم الشرف والفخر قال ابن

مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَقَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ

عباس : لا تجاوزهم إلى غيرهم تطلب بدلمهم أصحاب الشرف والثروة (١) ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا﴾ أي لا تطع كلام الذين سألوك طرد المؤمنين فقلوبهم غافلة عن ذكر الله ، وقد شغلوا عن الدين وعبادة ربهم بالدنيا قال المفسرون : نزلت في عيينة بن حصن وأصحابه أتى النبي ﷺ وعنده جماعة من الفقراء منهم « سلمان الفارسي » وعليه شملة صوف قد عرق فيها فقال عيينة للنبي ﷺ : أما يؤذك ربح هؤلاء ؟ ونحن سادة مضر وأشرافها إن أسلمنا يسلم الناس ، وما يمنعنا من اتباعك إلا هؤلاء فنحنهم عنك حتى نتبعك ، أو اجعل لنا مجلساً ولهم مجلس ، فهم رسول الله ﷺ أن يجيئهم إلى ما طلبوا فلما نزلت الآية خرج رسول الله ﷺ يلتمس هؤلاء الفقراء فلما رآهم جلس معهم وقال (الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني ربي أن أصبر نفسي معهم) ﴿واتبع هواه﴾ أي سار مع هواه وترك أمر الله ﷻ وكان أمره فرطاً أي كان أمره ضياعاً وهلاكاً ودماراً ﴿وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾ ظاهره أمرٌ وحقيقته وعيدٌ وإنذار أي قل يا محمد لهؤلاء الغافلين لقد ظهر الحق وبان بتوضيح الرحمن فإن شئتم فآمنوا وإن شئتم فاكفروا كقوله ﴿اعملوا ما شئتم﴾ ﴿إنا أعتدنا للظالمين ناراً أحاط بهم سرادقها﴾ أي هيأنا للكافرين بالله ورسوله ناراً حامية شديدة أحاط بهم سورها كإحاطة السوار بالمعصم ﴿وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ أي وإن استغاثوا من شدة العطش فطلبوا الماء أغيثوا بماء شديد الحرارة كالنحاس المذاب أو كعكر الزيت المحمى يشوي وجوههم إذا قرب منهم من شدة حره وفي الحديث (ماء كعكر الزيت فإذا قرب إليه سقطت فروة وجهه فيه) (٢) أي سقطت جلدة وجهه فيه أعادنا الله من جهنم ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ أي بئس ذلك الشراب الذي يغاثون به وساءت جهنم منزلاً ومقيلاً يرتفق به أهل النار ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ لما ذكر تعالى حال الأشقياء أعقبه بذكر حال السعداء ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب ، أي إنا لا نضيع ثواب من أحسن عمله وأخلص فيه بل نزيده وننميه ﴿أولئك لهم جنات عدن﴾ أي لهم جنات إقامة ﴿تجري من تحتهم الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفهم ومنازلهم أنهار الجنة ﴿يُجْلُونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي يُجْلُونَ في الجنة بأساور الذهب قال المفسرون : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أساور : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار

وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَكَيِّنِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحُسْنَ مَرْتَفَقًا ﴿٣١﴾
 * وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا ﴿٣٢﴾
 كَلَّمَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهُمَا وَلَمْ تَظْلِمِ مِنْهُ شَيْعًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ
 يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ

من لؤلؤ ، لأن الله تعالى قال ﴿وحلوا أساور من فضة﴾ وقال ﴿ولؤلؤاً ولباسهم فيها حرير﴾ وفي الحديث (تبلغ حلية المؤمن حيث يبلغ الضوء) ﴿ويلبسون ثياباً خضراً من سندس واستبرق﴾ أي وهم رافلون في ألوان من الحرير ، برقيق الحرير وهو السندس ، وبغليظه وهو الاستبرق قال الطبري : معنى الآية أنهم يلبسون من الحلبي أساور من ذهب ، ويلبسون من الثياب السندس وهو ما رق من الديباج ، والاستبرق وهو ما غلظ فيه وثخن^(١) ﴿متكئين فيها على الأرائك﴾ أي متكئين في الجنة على السرر الذهبية المزينة بالثياب والستور قال ابن عباس : الأرائك الأسرة من ذهب وهي مكللة بالدُر والياقوت عليها الحجال ، الأريكة ما بين صنعاء إلى أيلة ، وما بين عدن إلى الجابية^(٢) ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفقاً﴾ أي نعم ذلك جزاء المتقين ، وحسنت الجنة منزلاً ومقيلاً لهم ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي اضرب هؤلاء الكفار الذين طلبوا منك أن تطرد الفقراء هذا المثل قال المفسرون : هما أخوان من بني إسرائيل ، أحدهما مؤمن ، والآخر كافر ، ورثا مالاً عن أبيهما فاشترى الكافر بما له حديقتين ، وأنفق المؤمن ماله في مرضاة الله حتى نفذ ماله فعيّر الكافر بفقره ، فأهلك الله مال الكافر ، وضرب هذا مثلاً للمؤمن الذي يعمل بطاعة الله ، والكافر الذي أبطرت النعمة ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب﴾ أي جعلنا لأحدهما - وهو الكافر - بستانين من شجر العنب ، مثمرين بأنواع العنب اللذيذ ﴿وحففناهما بنخل﴾ أي أحطناهما بسياج من شجر النخل ﴿وجعلنا بينهما زرعاً﴾ أي جعلنا وسط هذين البستانين زرعاً ويتفجر بينهما نهر ، وإنه لمنظرٌ بهيجٌ يصوره القرآن أروع تصوير ، منظر الحديقتين المثمرتين بأنواع الكرم ، المحفوفتين بأشجار النخل ، تتوسطهما الزروع وتتفجر بينهما الأنهار ﴿كلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئاً﴾ أي كل واحدة من الحديقتين أخرجت ثمرها يانعاً في غاية الجودة والطيب ولم تنقص منه شيئاً ﴿وفجّرنا خلالهما نهراً﴾ أي جعلنا النهر يسير وسط الحديقتين ﴿وكان له ثمر﴾ أي وكان للأخ الكافر من جنتيه أنواع من الفواكه والثمار ﴿فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً﴾ أي قال صاحب الجنتين لصاحبه المؤمن وهو يجادله ويخاصمه ويفتخر عليه ويتعالى : أنا أغنى منك وأشرف ، وأكثر أنصاراً وخداماً ﴿ودخل جنته وهو

أَبْدَأُ ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ ۚ إِنَّ تَرَنَّا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّي أَن يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَاؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا ﴿٤١﴾

ظالم لنفسه ﴿٣٥﴾ أي أخذ بيد أخيه المؤمن ودخل الحديقة يطوف به فيها ويريه ما فيها من أشجار وثمار وأنهار وهو ظالم لنفسه بالعجب والكفر ﴿٣٦﴾ قال ما أظنُّ أن تبید هذه أبدًا ﴿٣٧﴾ أي ما أعتقد أن تفتني هذه الحديقة أبدًا ﴿٣٨﴾ وما أظن الساعة قائمة ﴿٣٩﴾ أي وما أعتقد القيامة كائنة وحاصلة ، أنكر فناء جنته وأنكر البعث والنشور ﴿٤٠﴾ ولئن رددتُ إلى ربِّي لأجدنَّ خيراً منها ﴿٤١﴾ أي ولئن كان هناك بعثٌ - على سبيل الفرض والتقدير كما تزعم - فسوف يعطيني الله خيراً من هذا وأفضل ﴿منقلباً﴾ أي مرجعاً وعاقبة ، فكما أعطاني هذا في الدنيا فسيُعطيني في الآخرة لكرامتي عليه ﴿٤٢﴾ قال له صاحبه وهو يحاوره ﴿٤٣﴾ أي قال ذلك المؤمن الفقير وهو يراجع أخاه ويمجّده ﴿٤٤﴾ أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سَوَّكَ رجلاً ﴿٤٥﴾ أي أجددت الله الذي خلق أصلك من تراب ثم من مني ثم سَوَّكَ إنساناً سوياً ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿٤٦﴾ لكننا هو الله ربِّي ﴿٤٧﴾ أي لكن أنا أعترف بوجود الله فهو ربِّي وخالقي ﴿٤٨﴾ ولا أشرك بربِّي أحداً ﴿٤٩﴾ أي لا أشرك مع الله غيره ، فهو المعبود وحده لا شريك له ﴿٥٠﴾ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله ﴿٥١﴾ أي فهلاً حين دخلت حديقتك وأعجبت بما فيها من الأشجار والثمار قلت : هذا من فضل الله ، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ﴿٥٢﴾ لا قوة إلا بالله ﴿٥٣﴾ أي لا قدرة لنا على طاعته إلا بتوفيقه ومعونته ﴿٥٤﴾ إن ترننا أقل منك مالاً وولداً ﴿٥٥﴾ أي قال المؤمن للكافر : إن كنت ترى أنني أفقر منك وتعتر عليّ بكثرة مالك وأولادك ﴿٥٦﴾ فعسى ربِّي أن يؤتيني خيراً من جنتك ﴿٥٧﴾ جواب الشرط أي إنني أتوقع من صنع الله تعالى وإحسانه أن يقلب ما بي وما بك من الفقر والغنى فيرزقني جنة خيراً من جنتك لإيماني به ، ويسلب عنك نعمته لكفرك به ويخرب بستانك ﴿٥٨﴾ ويرسل عليها حسباناً من السماء ﴿٥٩﴾ أي يرسل عليها آفةً تجتاحها أو صواعق من السماء تدمرها ﴿٦٠﴾ فتصبح صعيداً زلقاً ﴿٦١﴾ أي تصبح الحديقة أرضاً ملساء لا تثبت عليها قدم ، جرداء لا نبات فيها ولا شجر ﴿٦٢﴾ أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً ﴿٦٣﴾ أي يغور ماؤها في الأرض فيتلف كل ما فيها من الزرع والشجر ، وحينئذٍ لا تستطيع طلبه فضلاً عن إعادته ورده ، وينتهي الحوار هنا وتكون المفاجأة المدهشة فيتحقق رجاء المؤمن بزوال النعيم عن الكافر ،

وَأَحِيطَ بِشْمَرِهِ ۖ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلْبِثَنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيْحُ ۖ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ أَلْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

وفجأة نقلنا السياق من مشهد البهجة والازدهار الى مشهد البوار والدمار ﴿وأحيط بشمره﴾ أي هلكت جنته بالكلية واستولى عليها الخراب والدمار في الزروع والثمار ﴿فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها﴾ أي يقلب كفيه ظهراً لبطن أسفاً وحزناً على ماله الضائع وجهده الذاهب قال القرطبي : أي يضرب إحدى يديه على الأخرى ندماً لأن هذا يصدر من الندام ﴿وهي خاوية على عروشها﴾ أي مهشمة محطمة قد سقطت السقوف على الجدران فأصبحت خراباً يباباً ﴿ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً﴾ أي وهو نادم على إشراكه بالله يتمنى أن لم يكن قد كفر النعمة ، ندم حين لا ينفع الندم قال تعالى ﴿ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله﴾ أي لم تكن له جماعة تنصره وتدفع عنه الهلاك ﴿وما كان منتصراً﴾ أي وما كان بنفسه ممتنعاً عن انتقام الله سبحانه ، فلم تنفعه العشيرة والولد حين اعتزّ وافترخ بهم وما استطاع بنفسه أن يدفع عنه العذاب ﴿هنالك الولاية لله الحق﴾ أي في ذلك المقام وتلك الحال تكون النصرة لله وحده لا يقدر عليها أحد فهو الولي الحق الذي ينصر أوليائه ﴿هو خير ثواباً وخير عقباً﴾ أي الله خير ثواباً في الدنيا والآخرة لمن آمن به ، وهو خير عاقبة لمن اعتمد عليه ورجاه ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض﴾ هذا مثل آخر للدنيا وبهرجها الخادع يشبه مثل الجنيتين في الفناء والزوال والمعنى اضرب يا محمد للناس مثل هذه الحياة في زوالها وفنائها وانقضائها بماء نزل من السماء فخرج به النبات وافياً غزيراً وخالط بعضه بعضاً من كثرته وتكاثره ﴿فأصبح هشيماً تذرؤه الرياح﴾ أي صار النبات متكسراً من اليبس متفتتاً تنسفه الرياح ذات اليمين وذات الشمال ﴿وكان الله على كل شيء مقتدرًا﴾ أي قادراً على الإفناء والإحياء لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء ﴿المال والبنون زينة الحياة الدنيا﴾ أي الأموال والأولاد زينة هذه الحياة الفانية ، ذاك مثلها وهذه زينتها والكل إلى فناء وزوال لا يغتر بها إلا الأحقق الجهول ﴿والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً وخيرٌ أملاً﴾ أي أعمال الخير تبقى ثمرتها أبد الأبد فهي خير ما يؤمله الإنسان ويرجوه عند الله قال ابن عباس : الباقيات الصالحات هي الصلوات الخمس وعنه أيضاً أنها كل عمل صالح من قول أو فعل يبقى للآخرة^(١) وفي الحديث (سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا

(١) هذا ما رجحه الطبري قال القرطبي : وهو الصحيح إن شاء الله .

وَيَوْمَ نُسِيرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٤٧﴾ وَعَرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُبَوِّلُنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ۚ وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلُمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ۖ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ ۚ بِئْسَ

الله ، والله أكبر ، هن الباقيات الصالحات) ﴿يوم نسير الجبال﴾ لما ذكر الدنيا ومآلها ذكر القيامة وأهوالها أي واذكر يوم نزيل الجبال من أماكنها ونسيرها كما نسير السحاب فنجعلها هباءً منبثاً ﴿وترى الأرض بارزة﴾ أي وترى الأرض ظاهرة للعيان ليس عليها ما يسترها من جبل ولا شجر ولا بنيان ، قد قلعت جبالها وهُدم بنيانها فهي بارزة ظاهرة ﴿وحشرناهم فلم نغادر منهم أحداً﴾ أي جمعنا الأولين والآخرين لموقف الحساب فلم تترك أحداً منهم ﴿وعرضوا على ربك صفاً﴾ أي عرضوا على رب العالمين مصطفين ، لا يحجب أحداً أحداً وفي الحديث (يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد صفوفاً) قال مقاتل : يعرضون صفاً بعد صف كالصفوف في الصلاة كل أمة وزمرة صفاً^(١) ﴿لقد جئتمونا كما خلقناكم أول مرة﴾ أي يقال للكفار على وجه التوبيخ والتقريع : لقد جئتمونا حفاة عراة لا شيء معكم من المال والولد كهيتكم حين خلقناكم أول مرة ﴿بل زعمت أن نجعل لكم موعداً﴾ أي زعمت أن لا بعث ولا جزاء ، ولا حساب ولا عقاب ﴿ووضع الكتاب﴾ أي وضعت صحائف أعمال البشر وعرضت عليهم ﴿فترى المجرمين مشفقين مما فيه﴾ أي ترى المجرمين خائفين مما فيه من الجرائم والذنوب ﴿ويقولون يا ويلتنا﴾ أي يا حسرتنا ويا هلاكنا على ما فرطنا في حياتنا الدنيا ﴿ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها﴾ أي ما شأن هذا الكتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ضبطها وأحاط بها ؟ قال تعالى ﴿ووجدوا ما عملوا حاضراً﴾ أي مكتوباً مثبثاً في الكتاب ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾ أي لا يعاقب إنساناً بغير جرم ، ولا ينقص من ثواب المحسن ﴿وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾ أي اذكر حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم لا سجود عبادة ﴿فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه﴾ أي سجد جميع الملائكة لكن إبليس الذي هو من الجن خرج عن طاعة ربه ، والآية صريحة في أن إبليس من الجن لا من الملائكة^(٢) ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدو﴾ أي أفتتخذونه يا بني آدم هو وأولاده الشياطين أولياء من دون الله وهم لكم

(١) القرطبي ٤١٧/١٠ .

(٢) انظر التحقيق الذي ذكرناه في كتابنا « النبوة والأنبياء » على أن إبليس لم يكن من الملائكة ص ١٢٨ .

لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا * ﴿٥٠﴾ مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا ﴿٥١﴾ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴿٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ﴿٥٣﴾

أعداء ﴿بئس للظالمين بدلاً﴾ أي بئس عبادة الشيطان بدلاً عن عبادة الرحمن ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض﴾ أي ما أشهدت هؤلاء الشياطين الذين عبدتموهم من دوني خلق السموات والأرض ﴿ولا خلق أنفسهم﴾ أي ولا أشهدت بعضهم خلق بعض فهم عبيد أمثالكم لا يملكون شيئاً ﴿وما كنت متخذ المضلين عضداً﴾ أي وما كنت متخذ الشياطين أعواناً في الخلق فكيف تطيعونهم من دوني ؟ ﴿ويوم يقول نادوا شركائي الذين زعمتم﴾ أي ويوم يقول الله للمشركين : أدعوا شركائي ليمنعوكم من عذابي ويشفعوا لكم كما كنتم تزعمون ﴿فدعوهم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يغيثوهم ﴿وجعلنا بينهم موبقاً﴾ أي جعلنا بين العابدين والمعبودين مهلكة لا يجتازها هؤلاء وهي النار ﴿ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها﴾ أي عاينوها وهي تنغيظ حقناً عليهم فأيقنوا أنهم داخلوها ﴿ولم يجدوا عنها مصرفاً﴾ أي لم يجدوا عنها معدلاً وذلك لأنها أحاطت بهم من كل جانب فلم يقدرُوا على الهرب منها .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿الغداة . . والعشي﴾ وبين ﴿فليؤ من . . فليكفر﴾ .
- ٢ - المقابلة البديعة بين الجنة ﴿نعم الثواب وحسنت مرتفعاً﴾ والنار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفعاً﴾ .
- ٣ - التشبيه ﴿بماء كالمهل يشوي الوجوه﴾ ويسمى مراسلاً مفصلاً لذكر الأداة ووجه الشبه .
- ٤ - التشبيه التمثيلي ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد وكذلك يوجد التشبيه التمثيلي في ﴿واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه﴾ .
- ٥ - المبالغة بإطلاق المصدر على اسم الفاعل ﴿أو يصبح ماؤها غوراً﴾ أي غائراً .
- ٦ - الكناية ﴿يقلب كفيه﴾ كناية عن التحسر والندم لأن النادم يضرب بيمينه على شماله .
- ٧ - الإنكار والتعجب ﴿أفتتخذونه وذريته أولياء﴾ ؟ .

تَنْبِيْهُ : الجمهور على أن الباقيات الصالحات من الكلمات الماثور فضلها « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » وقد ورد بذلك حديث تقدم ذكره وفي الترمذي أن رسول الله ﷺ قال : لقيت إبراهيم ليلة أُسري بي فقال يا محمد :

أقرىء أمتك مني السلام وأخبرهم أن الجنة طيبة التربة ، عذبة الماء ، وأنها قيعان ، وأن غراسها : سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر » رواه الترمذي .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل . . . إلى . . . ما لم تسطع عليه صبراً ﴾

من آية (٥٤) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسكة : لما ضرب تعالى المثل في قصة صاحب الجنتين ، وضرب المثل للحياة الدنيا وما فيها من نعيم خادع ومتاع زائل ، نبّه تعالى إلى الغاية من ذكر هذه الأمثال وهي « العظة والاعتبار » ثم ذكر القصة الثالثة « قصة موسى مع الخضر » وما فيها من أمور غيبية عجيبة .

اللغة : ﴿ قبلاً ﴾ مقابلةً وحياناً ﴿ موثلاً ﴾ ملجأً ومنجى قال ابن قتيبة : وأل فلان إلى كذا لجأ إليه وألاً ووءولاً والموئل : الملجأ قال الأعشى :

وقد أخاليسُ ربَّ البيت غفلته
وقد يحاذرُ مني ثم لا يثُلُ^(١)
﴿ حُقْباً ﴾ جمع حقبة وهي السنة والمراد بالحُقْب هنا الزمان الطويل ﴿ سَرَباً ﴾ السَّرب : المسلك في جوف الأرض ﴿ نَصَباً ﴾ النُّصب : التعب والمشقة ﴿ إمرأاً ﴾ امرأً عظيماً يقال : أمير الأمر إذا عظم ﴿ نُكْرأاً ﴾ منكرأً فظيعاً جداً .

وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ﴿٥٥﴾ وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا

التفسير : ﴿ ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مثل ﴾ أي بيّنا في هذا القرآن الأمثال وكرّرنا الحجج والمواعظ ﴿ وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً ﴾ أي وطبيعة الإنسان الجدال والخصومة لا ينيب لحق ولا ينزجر لموعظة ﴿ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى ﴾ أي ما منع الناس من الإيمان حين جاءهم الهدى من الله ﴿ ويستغفروا ربهم ﴾ أي ومن الاستغفار من الذنوب والآثام ﴿ إلا أن تأتيهم سنة الأولين ﴾ أي إلا انتظارهم أن تأتيهم سنة الأولين وهي الإهلاك ﴿ أو يأتيهم العذاب قبلاً ﴾ أي يأتيهم عذاب الله عياناً ومقابلة ومعنى الآية أنه ما منعهم من الإيمان والاستغفار إلا طلبهم أن يشاهدوا العذاب الذي وعدوا به عياناً ومواجهة كقولهم ﴿ فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ﴾^(٢) ﴿ وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ﴾ أي ما نرسل الرسل إلا لغرض التبشير والإنذار لا للإهلاك والدمار ، مبشرين لأهل الإيمان ومنذرين لأهل العصيان ﴿ ويجادل الذين كفروا بالباطل

هَزُوا ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِعَايَةِ رَبِّهِ ۖ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۖ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً ۖ أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي ۖ آذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ۖ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ۖ أَبَدًا ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ۚ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ۖ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ۖ الْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا

ليُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ ﴿٥٦﴾ أي ومع وضوح الحق يجادل الكفار بالباطل ليغلبوا به الحق ويبطلوه فهم حين يطلبون الخوارق ويستعجلون العذاب لا يريدون الإيمان وإنما يستهزئون ويسخرون ﴿٥٧﴾ واتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا ﴿٥٨﴾ أي اتخذوا القرآن وما خُوفُوا به من العذاب سخرية واستهزاء ﴿٥٩﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ۖ فَأَعْرَضَ عَنْهَا ﴿٥٩﴾ أي لا أحد أظلم ممن وعظ بآيات الله البينة ، وحججه الساطعة ، فتعامى عنها وتناساها ولم يلق لها بالاً ﴿٥٦﴾ ونسي ما قدمت يدها ﴿٥٦﴾ أي نسي ما عمله من الجرائم الشنيعة ، والأفعال القبيحة ، ولم يتفكر في عاقبتها ﴿٥٧﴾ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ ﴿٥٧﴾ أي جعلنا على قلوبهم غطية تحول دون فقه هذا القرآن وإدراك أسرارهِ ، والانتفاع بما فيه من المواعظ والأحكام ﴿٥٨﴾ وفي آذَانِهِمْ وَقْرًا ﴿٥٨﴾ أي وفي آذانهم صمماً معنوياً يمنعهم أن يسمعه سماع تفهم وانتفاع ﴿٥٩﴾ وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى ۖ الْهُدَىٰ فَلَنْ يَهْتَدُوا إِلَّا ۖ أَبَدًا ﴿٥٩﴾ أي وإن دعوتهم إلى الإيمان والقرآن فلن يستجيبوا لك أبداً لأنهم لا يفقهون ولا يسمعون ، فللهدى قلوبٌ مفتوحة مستعدة لقبول الإيمان وهؤلاء كالأنعام ﴿٥٧﴾ وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ ﴿٥٧﴾ أي وربك يا محمد واسع المغفرة عظيم الرحمة بالعباد مع تقصيرهم وعصيانهم ﴿٥٨﴾ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ ﴿٥٨﴾ أي لو يعاقبهم بما اقترفوا من المعاصي والإجرام لعجل لهم عذاب الدنيا ، ولكنه تعالى يمهلهم ويؤخر عنهم العذاب الذي يستعجلونه به رحمة بهم ، وقد جرت سنته بأن يمهّل الظالم ولكن لا يمهله ﴿٥٩﴾ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَّنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا ﴿٥٩﴾ أي لهم موعد آخر في القيامة يرون فيه الأهوال لن يجدوا لهم فيه ملجأ ولا منجى ﴿٥٩﴾ وَتِلْكَ الْقُرَىٰ ۖ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا ﴿٥٩﴾ أي تلك هي أخبار الأمم السالفة والقرون الخالية كقوم هود وصالح ولوط وشعيب أهلكتناهم حين ظلموا ﴿٥٩﴾ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾ أي جعلنا لهلاكهم وقتاً محدداً معلوماً ، أفلا يعتبر هؤلاء المكذبون المعاندون ؟ والآية وعيد وتهديد لكفار قريش قال ابن كثير : والمعنى احذروا أيها المشركون أن يصيبكم ما أصابهم فقد كذبتهم أعظم نبي وأشرف رسول ، ولستم بأعز علينا منهم فخافوا عذابي ونذري ﴿٦٠﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتْنِهِ لَا أُبْرَحُ حَتَّىٰ أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ هذه هي القصة الثالثة في هذه السورة الكريمة والمعنى اذكر حين قال

قَالَ لِفَتْنِهِ إِنَّا غَدَاءٌ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ﴿١٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنْسَنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ مَجْجَبًا ﴿١٧﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَأَرْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿١٨﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ﴿١٩﴾

موسى الكليم لفته « يوشع بن نون » لا أزال أسير وأتابع السير حتى أصل الى ملتقى بحر فارس وبحر الروم مما يلي جهة المشرق وهو مجمع البحرين^(١) « أو أمضي حُبًّا » أي أسير زماناً إلى أن أبلغ ذلك المكان « فلما بلغا مجمع بينهما نسيا حوتهما » أي فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين نسي « يوشع » أن يخبر موسى بأمر الحوت وما شاهده منه من الأمر العجيب ، روي أن الله تعالى أوحى إلى موسى أن يأخذ معه حوتاً فيجعله في ميكتل فحيثما فقد الحوت فهناك الرجل الصالح « فاتخذ سبيله في البحر سرباً » أي اتخذ الحوت سبيله في البحر مسلكاً قال المفسرون : كان الحوت مشوياً فخرج من الميكتل ودخل في البحر وأمسك الله جرية الماء على الحوت فصار كالطاق عليه وجد الماء حوله وكان ذلك آية من آيات الله الباهرة لموسى عليه السلام « فلما جاوزا قال لفته آتينا غداءنا » أي فلما قطعنا ذلك المكان وهو مجمع البحرين الذي جعل موعداً للملاقاة قال موسى لفته أعطنا طعام الغداء « لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً » أي لقينا في هذا السفر العناء والتعب ، وكان قد سار ليلة وجزءاً من النهار بعد أن جاوز الصخرة « قال أرايت إذ أويننا إلى الصخرة فإنني نسيت الحوت » أي قال الفتى « يوشع بن نون » حين طلب موسى منه الحوت للغداء أرايت حين التجأنا إلى الصخرة التي نمت عندها ماذا حدث من الأمر العجيب ؟ لقد خرج الحوت من الميكتل ودخل البحر وأصبح عليه مثل الكوة وقد نسيت أن أذكر لك ذلك حين استيقظت « وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره » أي وقد أنساني الشيطان أن أخبرك عن قصته الغريبة « واتخذ سبيله في البحر عجباً » أي واتخذ الحوت طريقه في البحر وكان أمره عجباً ، يتعجب الفتى من أمره لأنه كان حوتاً مشوياً فدبت فيه الحياة ودخل البحر « قال ذلك ما كنا نبغ » أي قال موسى هذا الذي نطلبه ونريده لأنه علامة على غرضنا وهو لقي الرجل الصالح فارتدا على آثارهما قصصاً أي رجعا في طريقهما الذي جاءا منه يتبعان أثرهما الأول لثلاثين يوماً عن الطريق « فوجدنا عبداً من عبادنا » أي وجدنا الخضر عليه السلام عند الصخرة التي فقد عندها الحوت ، وفي الحديث أن موسى وجد الخضر مسجياً بثوبه مستلقياً على الأرض فقال له : السلام عليك فرفع رأسه وقال : وأنتى بأرضك السلام^(٢) ؟ « آتيناه رحمةً من عندنا » أي وهبناه نعمة عظيمة وفضلاً كبيراً وهي الكرامات التي أظهرها الله على يديه^(٣) « وعلمناه من لدنا علماً » أي علماً خاصاً بنا لا يعلم إلا بتوفيقنا وهو علم الغيوب قال العلماء :

(١) هكذا نقل الطبري عن قتادة ٢٧١ / ١٥ . (٢) الحديث سيأتي مفصلاً إن شاء الله . (٣) الصحيح أن الخضر عليه السلام ليس بنبي وإنما هو من عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين وقد أظهر الله على يديه هذه الكرامات والأمور الغيبية تعليماً للخلق فضل العبودية .

قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾
وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴿٦٩﴾
قَالَ فَإِنْ أَتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ
نَحَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا
﴿٧٢﴾ قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾ فَاَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ

هذا العلم الرباني ثمرة الإخلاص والتقوى ويسمى « العلم اللدني » يورثه الله لمن أخلص العبودية له ،
ولا ينال بالكسب والمشقة وإنما هو هبة الرحمن لمن خصه الله بالقرب والولاية والكرامة ﴿قال له موسى
هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشدا﴾ أي هل تأذن لي في مرافقتك لأقتبس من علمك ما يرشدني
في حياتي ؟ قال المفسرون : هذه مخاطبة فيها ملاطفة وتواضع من نبي الله الكريم وكذلك ينبغي أن يكون
الإنسان مع من يريد أن يتعلم منه ﴿قال إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي قال الخضر : إنك لا
تستطيع الصبر على ما ترى قال ابن عباس : لن تصبر على صناعي لأنني علمت من غيب علم ربي ﴿وكيف
تصبر على ما لم تحيط به خبرا﴾ أي كيف تصبر على أمر ظاهره منكر وأنت لا تعلم باطنه ؟ ﴿قال
ستجدني إن شاء الله صابرا ولا أعصي لك أمرا﴾ أي قال موسى ستراني صابرا ولا أعصي أمرك إن
شاء الله ﴿قال فإن اتبعتنني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرا﴾ شرط عليه قبل بدء
الرحلة ألا يسأله ولا يستفسر عن شيء من تصرفاته حتى يكشف له سرها ، فقبل موسى شرطه رعاية لأدب
المتعلم مع العالم ، والمعنى لا تسألني عن شيء مما أفعله حتى أبينه لك بنفسني ﴿فانطلقا حتى إذا ركبا
في السفينة خرقها﴾ أي انطلق موسى والخضر يمشيان على ساحل البحر حتى مرت بهما سفينة فعرفوا
الخضر فحملوها بدون أجر فلما ركبا السفينة عمد الخضر إلى فأس فقلع لوحاً من ألواح السفينة بعد أن
أصبحت في لجة البحر ﴿قال أخرقتها لتغرق أهلها﴾ أي قال له موسى مستنكراً : أخرقت السفينة لتغرق
الركاب ؟ ﴿لقد جئت شيئاً إمرا﴾ أي فعلت شيئاً عظيماً هائلاً ، يروى أن موسى لما رأى ذلك أخذ ثوبه
فجعل له مكان الخرق ثم قال للخضر : قوم حملونا بغير أجر عمدت إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهل
السفينة لقد فعلت أمراً منكراً عظيماً !! ﴿قال ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرا﴾ أي ألم أخبرك
من أول الأمر أنك لا تصبر على ما ترى من صناعي ؟ ذكره بلطف في مخالفته الشرط ﴿قال لا تؤاخذني
بما نسيت﴾ أي لا تؤاخذني بمخالفتي الشرط ونسياني العهد ﴿ولا ترهقني من أمري عسرا﴾ أي لا
تكلفني مشقة في صحبتي إياك وعاملني باليسر لا بالعسر ﴿فانطلقا حتى إذا لقيا غلاماً فقتله﴾ أي
قبل عذره وانطلقا بعد نزولهما من السفينة يمشيان فمرّا بغلامان يلعبون وفيهم غلام وضيء الوجه جميل

قَالَ أَتُكَلِّمُ نَفْسًا زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُّكَرًا ﴿٧٤﴾ * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَحِّحْنِي ۖ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ وَلِيًّا بَدَلًا ﴿٧٧﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَلَائِكَةَ لَآتِيَنَّكَ مِنْهُم بِبَشِيرٍ لَّا يَكُونُ لَكَ فِيهِمْ كَلِمَةٌ وَلَٰكِن كُنْتَ فِيهِمْ مَّشْكُومًا ﴿٧٨﴾

الصورة فأمسكه الخضر واقتلع رأسه بيده ثم رماه في الأرض ﴿قال أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس﴾ أي قال موسى : أقتلت نفساً طاهرة لم ترتكب جرماً ولم تقتل نفساً حتى تقتل به ﴿لقد جئت شيئاً نكراً﴾ أي فعلت شيئاً منكراً عظيماً لا يمكن السكوت عنه . . لم يكن موسى ناسياً في هذه المرة ولا غافلاً ولكنه قاصداً أن ينكر المنكر الذي لا يصبر على وقوعه بالرغم من تذكره لوعده ، وقال هنا ﴿نكراً﴾ أي منكراً فظيلاً وهو أبلغ من قوله ﴿إمراً﴾ في الآية السابقة ، ذكر القرطبي أن موسى عليه السلام لما قال للخضر ﴿أقتلت نفساً زكيةً﴾ غضب واقتلع كتف الصبي الأيسر وقشر اللحم عنه فإذا مكتوب في عظم كتفه كافر لا يؤمن بالله أبداً ﴿١﴾ ﴿قال ألم أقول لك إنك لن تستطيع معي صبراً﴾ أي ألم أقول لك أنت على التعمين والتحديد لن تستطيع الصبر على ما ترى مني ؟ قال المفسرون : وقَّره في الأول فلم يواجهه بكاف الخطاب فلما خالف في الثاني واجهه بقوله ﴿لك﴾ لعدم العذر هنا ، ويعود موسى لنفسه ويجد أنه خالف وعده مرتين ، فيندفع ويقطع على نفسه الطريق ويجعلها آخر فرصة أمامه ﴿قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني﴾ أي إن أنكرت عليك بعد هذه المرة واعترضت على ما يصدر منك فلا تصاحبني معك ﴿قد بلغت من لدني عُذراً﴾ أي قد أعذرت إلي في ترك مصاحبتني فانت معذورٌ عندي لمخالفتي لك ثلاث مرات ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيئوهما﴾ أي مشياً حتى وصلا إلى قرية قال ابن عباس : هي انطاكية فطلبوا طعاماً وكان أهلها لثاماً لا يطعمون جائعاً ، ولا يضيئون ضيفاً ، فامتنعوا عن إصافتهما أو إطعامهما ﴿فوجدوا فيها جداراً يريد أن ينقض﴾ أي وجدا في القرية حائطاً مائلاً يوشك أن يسقط ويقع ﴿فأقامه﴾ أي مسح الخضر بيده فاستقام ، وقيل إنه هدمه ثم بناه وكلاهما مروى عن ابن عباس ﴿قال لو شئت لاتخذت عليه أجراً﴾ أي قال له موسى لو أخذت منهم أجراً نستعين به على شراء الطعام ! ! أنكر عليه موسى صنيع المعروف مع غير أهله ، روي أن موسى قال للخضر : قوم استطعمناهم فلم يطعمونا ، وضيئناهم فلم يضيئونا ثم قعدت تبني لهم الجدار لو شئت لاتخذت عليه أجراً ! ﴿قال هذا فراق بيني وبينك﴾ أي قال الخضر : هذا وقت الفراق بيننا حسب قولك ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ أي سأخبرك بحكمة هذه المسائل الثلاث التي أنكرتها علي ولم تستطع عليها وفي الحديث (رحم الله

أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾
وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ
زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا
صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِّنَ رَبِّكَ ﴿٨٢﴾ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ
تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٣﴾

أخي موسى لوددت أنه صبر حتى يقص الله علينا من أمرهما ولولبت مع صاحبه لأبصر العجب) (١) ﴿٧٩﴾ أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر ﴿٧٩﴾ هذا بيان وتفصيل للأحداث العجيبة التي رآها موسى ولم يطق لها صبراً والمعنى أما السفينة التي خرقتها فكانت لأناس ضعفاء لا يقدرّون على مدافعة الظلمة يشتغلون بها في البحر بقصد التكسب ﴿فأردت أن أعيبها﴾ أي أردت بخرقها أن أجعلها مغيبة لكلا يغتصبها الملك الظالم ﴿وكان وراءهم ملك﴾ أي كان أمامهم ملك كافر ظالم ﴿يأخذ كل سفينة غصباً﴾ أي يغتصب كل سفينة صالحة لا عيب فيها ﴿وأما الغلام فكان أبواه مؤمنين﴾ أي وأما الغلام الذي قتلته فكان كافراً فاجراً وكان أبواه مؤمنين وفي الحديث (إن الغلام الذي قتله الخضر طبع كافراً ، ولو عاش لأرّقه أبويه طغياناً وكفراً) (٢) ﴿فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً﴾ أي فخشنا أن يحملهما حبه على اتباعه في الكفر والضلال ﴿فأردنا أن يبدلها ربهما خيراً منه زكاةً وأقرب رُحماً﴾ أي فأردنا بقتله أن يرزقهما الله ولداً صالحاً خيراً من ذلك الكافر وأقرب برأ ورحمة بوالديه ﴿وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنز لهما﴾ أي وأما الجدار الذي بنيته دون أجر والذي كان يوشك أن يسقط فقد خبيء تحته كنز من ذهب وفضة لغلامين يتيمين ﴿وكان أبوهما صالحاً﴾ أي وكان والدهما صالحاً تقياً فحفظ الله لهما الكنز لصالح (٣) الوالد قال المفسرون : إن صلاح الآباء ينفع الأبناء ، وتقوى الأصول تنفع الفروع ﴿فأراد ربك أن يبلغا أشدهما ويستخرجا كنزهما﴾ أي فأراد الله بهذا الصنيع أن يكبرا ويشتد عودهما ويستخرجا كنزهما من تحت الجدار ﴿رحمةً من ربك﴾ أي رحمةً من الله بهما لصالح أبيهما ﴿وما فعلته عن أمري﴾ أي ما فعلت ما رأيت من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار عن رأيي واجتهادي ، بل فعلته بأمر الله وإلهامه ﴿ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً﴾ أي ذلك تفسير الأمور التي لم تستطع الصبر عليها وعارضت فيها قبل أن أخبرك عنها .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

١ - الطباق بين ﴿مبشرين . . ومنذرين﴾ وبين ﴿نسيت . . وأذكر﴾ .

(١) هذا جزء من حديث أخرجه الشيخان . (٢) رواه مسلم . (٣) قيل إنه الأب السابع ، وظاهر اللفظ أنه أبوهما مباشرة وهو الأرجح .

- ٢ - اللف والنشر المرتب ﴿أما السفينة﴾ ﴿وأما الغلام﴾ ﴿وأما الجدار﴾ فقد جاء بها مرتبة بعد ذكر ركوب السفينة وقتل الغلام وبناء الجدار بطريق اللف والنشر المرتب وهو من المحسنات البديعية.
- ٣ - الحذف بالإيجاز ﴿كل سفينة﴾ أي صالحة حذف لدلالة لفظ «أعيبها» وكذلك حذف لفظ كافر من ﴿وأما الغلام﴾ لدلالة قوله تعالى ﴿فكان أبواه مؤمنين﴾ .
- ٤ - التغليب ﴿أبواه﴾ المراد باللفظ أبوه وأمه .
- ٥ - الاستعارة ﴿يريد أن ينقض﴾ لأن الإرادة من صفات العقلاء وإسنادها إلى الجدار من لطيف الاستعارة وبلغ المجاز كقول الشاعر :

يريد الريحُ صدر أبي براء ويرغب عن دمء بني عقيل^(١)

- ٦ - التكرير للتفخيم والإضافة للتشريف ﴿عبداً من عبادنا﴾ .
- ٧ - السجع مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿نصباً ، سرباً ، عجباً﴾ .
- ٨ - تعليم الأدب ﴿فأردت أن أعيبها﴾ وهناك قال ﴿فأراد ربك﴾ حيث أسند ما ظاهره شر لنفسه وأسند الخير إلى الله تعالى ، وذلك لتعليم العباد الأدب مع الله جل وعلا .
- « قصة موسى والخضر كما في الصحيحين »

عن أبي بن كعب عن رسول الله ﷺ أنه قال : (إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل فسئل أي الناس أعلم ؟ فقال : أنا ، فعتب الله عز وجل عليه إذ لم يرُدُّ العلم إليه ، فأوحى الله إليه أن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك ، قال موسى يا رب فكيف لي به ؟ قال : تأخذ حوتاً فتجعله في مكثل فحيثما فقدت الحوت فهو ثم ، فانطلق موسى ومعه فتاه « يوشع بن نون » حتى إذا أتيا الصخرة وضعا رؤوسهما فناما واضطرب الحوت في المكثل فخرج منه فسقط في البحر فاتخذ سبيله في البحر سرباً ، وأمسك الله عن الحوت جرية الماء فصار عليه مثل الطاق ، فلما استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت فانطلقا بقية يومهما وليلتها حتى إذا كان من الغد قال موسى لفتاه : آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً - قال ولم يجد موسى النصب حتى جاوز المكان الذي أمره الله به - فقال فتاه ﴿أرأيت إذ أؤينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً﴾ قال فكان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً فقال موسى ﴿ذلك ما كنا نبغ﴾ فارتدا على آثارهما قصصاً ﴿قال رجعا يقصان آثارهما حتى انتهيا إلى الصخرة ، فإذا هو مسجى بثوب فسلم عليه موسى فقال الخضر : وأنى بأرضك السلام^(٢) ! من أنت ؟ قال : أنا موسى ، قال موسى بني إسرائيل ؟ قال نعم أتيتك لتعلمني مما علمت رشداً﴾ قال إنك لن تستطيع معي صبراً ﴿. يا موسى إني على علم من علم الله لا تعلمه علمنيه ،

(١) الطبري ٢٨٩/١٥ . (٢) يعني من أين السلام في هذه الأرض التي لا يعرف فيها السلام ؟

وأنت على علمٍ من علم الله علمكه لا أعلمه ، فقال موسى ﴿ ستجدني إن شاء الله صابراً ولا أعصي لك أمراً ﴾ فقال له الخضر ﴿ فإن اتبعني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً ﴾ فانطلقا يمشيان على الساحل فمرت سفينة فكلموهم أن يحملوهم فعرفوا الخضر فحملوهم بغير نول - أي بدون أجر - فلما ركبا في السفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلع لوحاً من ألواح السفينة بالقدوم ، فقال له موسى : قوم قد حملونا بغير نول عمدت إلى سفينتهم فخرقتها ﴿ لتغرق أهلها لقد جئت شيئاً إمرأاً ﴾ وقال رسول الله ﷺ : وكانت الأولى من موسى نسياناً ، وجاء عصفورٌ فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر : ما علمي وعلمك من علم الله تعالى إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر ، ثم خرجا من السفينة فبينما هما يمشيان على الساحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان ، فأخذ الخضر رأسه فاقتلعه فقتله ، فقال له موسى ﴿ أقتلت نفساً زكيةً بغير نفس لقد جئت شيئاً نكراً ﴾ قال ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً قال سفيان : وهذه أشد من الأولى ﴿ قال إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني قد بلغت من لدني عذراً ﴾ فانطلقا ﴿ حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض ﴾ فقال الخضر بيده هكذا - أي أشار بيده - فأقامه فقال موسى : قوم أتيناكم فلم يطعمونا ، ولم يضيفونا ﴿ لو شئت لاتخذت عليه أجراً ﴾ قال الخضر : ﴿ هذا فراق بيني وبينك سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً ﴾ قال رسول الله ﷺ : يرحم الله موسى لوددت أنه كان صبر حتى يقص الله علينا من أخبارهما !! أخرجه الشيخان .

تنبية : قال العلامة القرطبي : « كرامات الأنبياء ثابتة على ما دلت عليه الأخبار والآيات المتواترة ، ولا ينكرها إلا المبتدع الجاحد أو الفاسق الحائد ، فالآيات ما أخبر الله تعالى في حق مريم من ظهور الفواكه الشتوية في الصيف ، والصيفية في الشتاء ، وما ظهر على يدها حيث هزّت النخلة وكانت يابسة فثمرت ، وهي ليست بنبيه ، ويدل أيضاً ما ظهر على يد الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار » أ هـ . القرطبي ٢٨/١١ .

قال الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذي القرنين .. إلى .. فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً ﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى قصة الخضر أعقبها بقصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث إلى الغرب ، والشرق ، وإلى السدين ، وبنائوه للسد في وجه « يأجوج ومأجوج » وهي القصة الرابعة من القصص المذكورة في هذه السورة ، وجميعها ترتبط بالعقيدة والإيمان ، وهو الهدف الأصيل للسورة الكريمة .

اللغة : ﴿ ذو القرنين ﴾ هو الاسكندر المقدوني^(١) وهو ملك صالح أعطي العلم والحكمة ، سمي بذو القرنين لأنه ملك مشارق الأرض ومغاربها وكان مسلماً عادلاً قال الشاعر :

قد كان ذو القرنين قبلي مسلماً ملكاً علا في الأرض غير مفند

(١) الراجع أن ذا القرنين ملك مسلم من ملوك اليمن .

بلغ المشارق والمغارب يبتغي أسباب ملكٍ من كريمٍ سيد^(١)
 ﴿حمئة﴾ كثرة الحمأة وهي الطينة السوداء ﴿سداً﴾ السد : الحاجز والحائل بين الشيئين ﴿ردماً﴾ الردم .
 السد المنيع وهو أكبر من السد لأن الردم ما جعل بعضه على بعض حتى يصبح كالحجاب المنيع فالردم
 الحاجز الحصين المتين ﴿زبر الحديد﴾ قطع الحديد مفردة زبرة وهي القطعة ﴿الصدفين﴾ جانباً الجبل قال
 أبو عبيدة : الصدف كل بناء عظيم مرتفع ﴿قطراً﴾ القطر : النحاس المذاب ﴿نقياً﴾ خرقاً وثقباً
 ﴿دكاء﴾ مذكوكاً مسوياً بالأرض قال الأزهري : دكته أي دققته ﴿يموج﴾ يختلط ويضطرب
 ﴿الفردوس﴾ قال الفراء : البستان الذي فيه العنب وقال ثعلب : كل بستان يحوط عليه فهو فردوس^(٢) .
 سَبَبُ النُّزُولِ : أ - قال قتادة : إن اليهود سألوا النبي ﷺ عن ذي القرنين فأنزل الله ﴿ويسألونك عن
 ذي القرنين . . الآية^(٣) .

ب - قال مجاهد : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله : إني أتصدق ، وأصل الرحم ، ولا
 أصنع ذلك إلا لله تعالى ، فيذكر ذلك مني وأحمد عليه فيسرنى ذلك وأعجب به ، فسكت رسول الله ﷺ
 ولم يقل شيئاً فأنزل الله ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾^(٤) .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٢﴾ إِنَّا مَكَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَأَتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ
 سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَاتَّبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِنْدَهَا قَوْمًا

التفسير : ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾ أي يسألك اليهود يا محمد عن ذي القرنين ما شأنه ؟
 وما قصته ؟ ﴿قل سأتلوا عليكم منه ذكراً﴾ أي قل لهم سأقص عليكم من نبأه وخبره قرآنًا ووحياً ﴿إننا
 مكناه في الأرض وأتيناه من كل شيء سبباً﴾ أي يسرنا له أسباب الملك والسلطان والفتح والعمران ،
 وأعطيناه كل ما يحتاج إليه للوصول إلى غرضه من أسباب العلم والقدرة والتصرف قال المفسرون : ذو
 القرنين هو « الاسكندر اليوناني » ملك المشرق والمغرب فسمي ذا القرنين ، وكان ملكاً مؤمناً مكن الله له
 في الأرض فعدل في حكمه وأصلح ، وكان في الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما روي أن الذين
 ملكوا الأرض أربعة : مؤمنان وكافران ، أما المؤمنان فسلیمان وذو القرنين ، وأما الكافران فنمرود
 وبختنصر^(٥) ﴿فاتبع سبباً﴾ أي سلك طريقه الذي يسره الله له وسار جهة المغرب ﴿حتى إذا بلغ
 مغرب الشمس﴾ أي وصل المغرب ﴿وجدها تغرب في عين حمئة﴾ أي وجد الشمس تغرب في ماء
 وطين - حسب ما شاهد لا حسب الحقيقة - فإن الشمس أعظم من أن تدخل في عين من عيون الأرض قال
 الرازي : إن ذا القرنين لما بلغ أقصى المغرب ولم يبق بعده شيء من العمارات وجد الشمس كأنها تغرب في
 عين وهدة مظلمة وإن لم تكن كذلك في الحقيقة كما أن راكب البحر يرى الشمس كأنها تغيب في البحر إذا

(١) التفسير الكبير للرازي ١٦٤/٢١ . (٢) البحر ١٥٧/٦ . (٣) أسباب النزول ١٧٢ .

(٤) القرطبي ٧٠/١١ . (٥) البحر ١٥٧/٦ .

قُلْنَا يٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾ قَالَ أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نَعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكَرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءُ الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ يَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾ كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾ ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِمَا

لم ير الشطّ وهي في الحقيقة تغيب وراء البحر^(١) ﴿ووجد عندها قوما﴾ أي وجد عند تلك العين الحارة ذات الطين قوماً من الأقوام ﴿قلنا يا ذا القرنين إمّا أن تُعَذِّبَ وإمّا أن تتخذ فيهم حسناً﴾ أي قلنا له بطريق الإلهام : إمّا أن تقتلهم أو تدعوهم بالحسنى إلى الهداية والإيمان قال المفسرون : كانوا كفاراً فخيرّه الله بين أن يعذبهم بالقتل ، أو يدعوهم إلى الإسلام فيحسن إليهم ﴿قال أمّا من ظلم فسوف نعذّبه﴾ أي من أصرّ على الكفر فسوف نقتله ﴿ثم يُردّ إلى ربه فيعذّبه عذاباً نكراً﴾ أي ثم يرجع إلى ربه فيعذبه عذاباً منكرًا فظليعاً في نار جهنم ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ أي وأما من آمن بالله وأحسن العمل في الدنيا وقدم الصالحات فجزاؤه الجنة يتنعم فيها ﴿وسنقول له من أمرنا يُسرًا﴾ أي نيسر عليه في الدنيا فلا نكلفه بما هو شاق بل بالسهل الميسر. اختار الملك العادل دعوتهم بالحسنى فمن آمن فله الجنة ، والمعاملة الطيبة ، والمعونة والتيسير ، ومن بقي على الكفر فله العذاب والنكال في الدنيا والآخرة ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً بجنده نحو المشرق ﴿حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾ أي حتى إذا وصل أقصى المعمورة من جهة الشرق حيث مطلع الشمس في عين الرائي ﴿وجدها تطلع على قوم لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾ أي وجد الشمس تشرق على أقوام ليس لهم من اللباس والبناء ما يسترهم من حر الشمس فإذا طلعت الشمس دخلوا في أسراب تحت الأرض ، وإذا غربت خرجوا لمكاسبهم قال قتادة : مضى ذو القرنين يفتح المدائن ويجمع الكنوز ويقتل الرجال إلّا من آمن حتى أتى مطلع الشمس فأصاب قوماً في أسراب عراء ، ليس لهم طعام إلّا ما أنضجته الشمس إذا طلعت ، حتى إذا زالت عنهم الشمس خرجوا من أسرابهم في طلب معاشهم ، وذكر لنا أنهم كانوا في مكان لا يثبت عليه بنيان ويقال إنهم الزنج^(٢) ﴿كذلك وقد أحطنا بما لديه خبراً﴾ أي كذلك فعل بأهل المشرق من آمن تركه ومن كفر قتله كما فعل بأهل المغرب وقد أحطنا علماً بأحواله وأخباره ، وعتاده وجنوده ، فأمره من العظمة وكثرة الرجال بحيث لا يحيط به إلا علم اللطيف الخبير ﴿ثم أتبع سبباً﴾ أي سلك طريقاً ثالثاً بين المشرق والمغرب يوصله جهة الشمال حيث الجبال الشاهقة ﴿حتى إذا بلغ بين السدين﴾ أي حتى إذا وصل إلى منطقة بين حاجزين عظيمين ، بمنقطع أرض بلاد الترك مما يلي أرمينية وأذربيجان قال الطبري : والسدّ : الحاجز بين الشيتين وهما هنا

قَوْمًا لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا يَٰذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ فَهَلْ
تَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ
وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انْفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ
ءَاتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا اسْتَطَاعُوا أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

جبلان سدّ ما بينهما ، فردّم ذو القرنين حاجزاً بين يأجوج ومأجوج من ورائهم ليقطع مادة غوائلهم
وشرهم عنهم^(١) ﴿وجد من دونها قوماً لا يكادون يفقهون قولاً﴾ أي وجد من وراء السدين قوماً
متخلفين لا يكادون يعرفون لساناً غير لسانهم إلا بمشقة وعُسّر قال المفسرون : إنما كانوا لا يفقهون القول
لغربة لغتهم ، وبطء فهمهم ، وبعدهم عن مخالطة غيرهم ، وما فهم كلامهم إلا بواسطة ترجمان ﴿قالوا
يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض﴾ أي قال القوم لذي القرنين : إن يأجوج
ومأجوج - قبيلتان من بني آدم في خلقهم تشويه ، منهم مفرط في الطول ، ومنهم مفرط في القصر^(٢) - قوم
مفسدون بالقتل والسلب والنهب وسائر وجوه الشر قال المفسرون : كانوا من أكلة لحوم البشر ، يخرجون
في الربيع فلا يتركون أخضر إلا أكلوه ، ولا يابساً إلا احتملوه ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾ أي هل نفرض
لك جزءاً من أموالنا كضريبة وخراج ﴿على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾ أي لتجعل سدّاً يحميننا من شر
يأجوج ومأجوج قال في البحر : هذا استدعاء منهم لقبول ما يبذلونه على جهة حسن الأدب^(٣) ﴿قال ما
مكّنني فيه ربي خير﴾ أي ما بسطه الله عليّ من القدرة والمُلْك خيرٌ مما تبذلونه لي من المال ﴿فأعينوني
بقوة﴾ أي لا حاجة لي إلى المال فأعينوني بالأيدي والرجال ﴿أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾ أي أجعل
بينكم وبينهم سدّاً منيعاً ، وحاجزاً حصيناً ، وهذه شهامة منه حيث رفض قبول المال وتطوّل ببناء السد
واكتفى بعون الرجال ﴿آتوني زُبَرَ الحديد﴾ أي أعطوني قطع الحديد واجعلوها لي في ذلك المكان
﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ أي حتى إذا ساوى البناء بين جانبي الجبلين ﴿قال انفخوا﴾ أي
انفخوا بالمنافيخ عليه ﴿حتى إذا جعله ناراً﴾ أي جعل ذلك الحديد المتراكم كالنار بشدة الإجماع ﴿قال
آتوني أفرغ عليه قِطْرًا﴾ أي أعطوني أصب عليه النحاس المذاب قال الرازي : لما أتوه بقطع الحديد
وضع بعضها على بعض حتى صارت بحيث تسدّ ما بين الجبلين إلى أعلاهما ثم وضع المنافع عليها حتى
إذا صارت كالنار صبّ النحاس المذاب على الحديد المحمي فالتصق ببعضه ببعض وصار جبلاً صلباً^(٤) ﴿فما
استطاعوا أن يظهروه﴾ أي فما استطاع المفسدون أن يعلوه ويتسوروه لعلوه وملاسته ﴿وما
استطاعوا له نقباً﴾ أي وما استطاعوا نقبه من أسفل لصلابته وثخانته ، وبهذا السد المنيع أغلق ذو

قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا ﴿١٨﴾ * وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا ﴿١٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَافِرِينَ عَرَضًا ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَن ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿٢١﴾ الْحَسْبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِّن دُونِي أَوْلِيَاءَ ۚ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِّلْكَافِرِينَ نَزُلًا ﴿٢٢﴾ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿٢٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يُحْسِبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴿٢٤﴾

القرنين الطريق على يأجوج ومأجوج ﴿قال هذا رحمة من ربي﴾ أي قال ذو القرنين : هذا السدُّ نعمة من الله ورحمة على عباده ﴿فإذا جاء وعد ربي﴾ أي فإذا جاء وعد الله بخروج يأجوج ومأجوج وذلك قرب قيام الساعة ﴿جعله دكاء﴾ أي جعله الله مستويًا بالأرض وعاد متهدماً كأن لم يكن بالأمس ﴿وكان وعد ربي حقاً﴾ أي كان وعده تعالى بخراب السدِّ وقيام الساعة كائناً لا محالة . . وههنا تنتهي قصة ذي القرنين ثم يأتي الحديث عن أهوال الساعة وشدائد القيامة قال تعالى ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾ أي تركنا الناس يوم قيام الساعة يضطرب بعضهم ببعض - لكثرتهم - كاضطراب موج البحر ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾ أي ونفخ في الصور النفخة الثانية فجمعناهم للحساب والجزاء في صعيد واحد جمعاً لم يتخلف منهم أحد ﴿وعرضنا جهنم يومئذ للكافرين عرضاً﴾ أي أبرزنا جهنم وأظهرناها للكافرين يوم جمع الخلائق حتى شاهدها بأهوالها عرضاً خيفاً مفرعاً ﴿الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكري﴾ أي هم الذين كانوا في الدنيا غمياً عن دلائل قدرة الله ووحدانيته فلا ينظرون ولا يتفكرون ﴿وكانوا لا يستطيعون سمعاً﴾ أي لا يطيعون أن يسمعوا كلام الله تعالى لظلمة قلوبهم قال أبو السعود : وهذا تمثيل لإعراضهم عن الأدلة السمعية ، وتعاميهم عن الآيات المشاهدة بالأبصار فكانهم عمي صم ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء﴾ الهمزة للإنكار والتوبيخ أي أظن الكافرون أن يتخذوا بعض عبادي آلهة يعبدونهم دوني كالملائكة وعزير والمسيح ابن مريم ، وأن ذلك ينفعهم أو يدفع عنهم عذابي ؟ قال القرطبي : جواب الاستفهام محذوف تقديره أفحسبوا أن ذلك ينفعهم ، أو لا أعاقبهم ﴿إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً﴾ أي هيأنا جهنم وجعلناها ضيافة لهم كالنزول المعد للضيف قال البيضاوي : وفيه تهكم بهم وتنبية على أن لهم وراءها من العذاب ما تستحق جهنم دونه ﴿قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً﴾ أي قل يا محمد هؤلاء الكافرين هل نخبركم بأخسر الناس عند الله ؟ ﴿الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا﴾ أي بطل عملهم وضاع في هذه الحياة الدنيا لأن الكفر لا تنفع معه طاعة قال الضحاك : هم القسيسون والرهبان يتعبدون ويظنون أن عبادتهم تنفعهم وهي لا تقبل منهم ﴿وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا﴾ أي يظنون أنهم محسنون

أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ ۖ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا ﴿١٥﴾ ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حَوْلًا ﴿١٨﴾ قُلْ لَوْ كَانَتِ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴿١٩﴾ قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَىَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۖ فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۖ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ﴿٢٠﴾

بأفعالهم ﴿أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم﴾ أي كفروا بالقرآن وبالبعث والنشور فبطلت أعمالهم ﴿فلا تقيم لهم يوم القيامة وزناً﴾ أي ليس لهم عند الله قيمة ولا وزن ، ولا قدر ولا منزلة وفي الحديث (يؤتى بالرجل الطويل الأكول الشروب فلا يزن جناح بعوضة)^(١) ﴿ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هُزُوًا﴾ أي ذلك جزاؤهم وعقوبتهم نار جهنم بسبب كفرهم واستهزائهم بآيات الله ورسله ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي آمنوا بالله وعملوا بما يرضيه ﴿كانت لهم جنات الفردوس نُزُلًا﴾ أي لهم أعلى درجات الجنة وهي الفردوس منزلاً ومستقراً ﴿خالدين فيها لا يبغيون عنها حولاً﴾ أي ماكثين فيها أبداً لا يطلبون عنها تحولاً قال ابن رواحة : في جنان الفردوس ليس يخافون : خروجا عنها ولا تحويلاً ﴿قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي﴾ هذا تمثيل لسعة علم الله والمعنى لو كانت بحار الدنيا حبراً ومداداً وكتبت به كلمات الله وحكمه وعجائبه ﴿لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي﴾ أي لفني ماء البحر على كثرته وانتهى ، وكلام الله لا ينفد لأنه غير متناه كعلمه جل وعلا ﴿ولو جئنا بمثله مدداً﴾ أي ولو أتينا بمثل ماء البحر وزدناه به حتى يكثر فإن كلام الله لا يتناهى ﴿قل إنما أنا بشرٌ مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم إله واحد﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أنا إنسان مثلكم أكرمني الله بالوحي، وأمرني أن أخبركم أنه واحدٌ أحد لا شريك له ﴿فمن كان يرجو لقاء ربه﴾ أي فمن كان يرجو ثواب الله ويخاف عقابه ﴿فليعمل عملاً صالحاً﴾ أي فليخلص له العبادة ﴿ولا يشرك بعبادة ربه أحداً﴾ أي لا يراني بعمله ولا يبتغي بما يعمل غير وجه الله ، فإن الله لا يقبل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿مطلع .. ومغرب﴾ .

٢ - التشبيه البليغ ﴿جعله ناراً﴾ أي كالنار في الحرارة وشدة الإحمرار حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .

٣ - الاستعارة ﴿يموج في بعض﴾ شبههم لكثرتهم وتداخل بعضهم في بعض بموج البحر المتلاطم واستعار لفظ يموج لذلك ففيه استعارة تبعية .

٤ - الاستعارة أيضاً ﴿كانت أعينهم في غطاء﴾ أي كانوا ينظرون فلا يعتبرون وتعرض عليهم الآيات الكونية فلا يؤمنون، ولم تكن أعينهم حقيقة في غطاء وحجاب وإنما هو بطريق التمثيل .
٥ - الجناس الناقص ﴿يحسبون أنهم يحسنون﴾ لتغير الشكل وبعض الحروف، ويسمى أيضاً جناس التصحيف .

٧ - الاستفهام الذي يراد به التوبيخ والتقريع ﴿أفحسب الذين كفروا﴾ ؟

٨ - المقابلة اللطيفة ﴿وأما من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى﴾ مقابل ﴿أما من ظلم فسوف نعذبه﴾ الآية .

لطيفة : كثيراً ما يرد في القرآن لفظ « حبط » وأصل الحبوط هو انتفاخ بطن الدابة حين تأكل نوعاً ساماً من الكلاً ثم تلتقي حتفها ، وهذا اللفظ أنسب شيء لوصف الأعمال فإنها تنتفخ وأصحابها يظنونها صالحة ناجحة رابحة ثم تنتهي إلى البوار .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الكهف »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة مريم مكية ، وغرضها تقرير التوحيد ، وتنزيه الله جل وعلا عما لا يليق به ، وتثبيت عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد ، والإيمان بوجود الله ووحدانيته ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين .

✽ عرضت السورة الكريمة لقصص بعض الأنبياء مبتدئةً بقصة نبي الله « زكريا » وولده « يحيى » الذي وهبه على الكبر من امرأة عاقر لا تلد ، ولكن الله قادرٌ على كل شيء ، يسمع دعاء المكروب ، ويستجيب لنداء الملهوف ، ولذلك استجاب الله دعاءه ورزقه الغلام النبیه .

✽ وعرضت السورة لقصة أعجب وأغرب ، تلك هي قصة « مريم العذراء » وإنجابه لطفلٍ من غير أب ، وقد شاءت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الخارقة بميلاد عيسى من أم بلا أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلةً أمام الأبصار ، بعظمة الواحد القهار .

✽ وتحدثت كذلك عن قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم ذكرت بالشأن والتبجيل رسل الله الكرام : « إسحاق ، يعقوب ، موسى ، هارون ، إسماعيل ، إدريس ، نوحا » وقد استغرق الحديث عن هؤلاء الرسل الكرام حوالي ثلثي السورة ، والهدف من ذلك إثبات « وحدة الرسالة » وأن الرسل جميعاً جاءوا لدعوة الناس إلى توحيد الله ، ونبد الشرك والأوثان .

✽ وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، وعن أهوال ذلك اليوم الرهيب ، حيث يجثو فيه الكفرة المجرمون حول جهنم ليقذفوا فيها ، ويكونوا وقوداً لها .

✽ وختمت السورة الكريمة بتنزيه الله عن الولد ، والشريك ، والنظير ، وردت على ضلالات المشركين بأنصع بيان ، وأقوى برهان .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة مريم » تخليداً لتلك المعجزة الباهرة ، في خلق إنسانٍ بلا أب ، ثم إنطاق الله للوليد وهو طفل في المهد ، وما جرى من أحداث غريبة رافقت ميلاد عيسى عليه السلام .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كَهَيْعَصَ ﴿١﴾ ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكْرِياً ﴿٢﴾ إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا ﴿٣﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِراً فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾

اللفظ: ﴿وهن﴾ ضعف يقال وهن يهن فهو واهن والوهن ضعف القوة ﴿اشتعل﴾ الاشتعال انتشار شعاع النار ﴿عاقراً﴾ العاقر: التي لا تلد لكبر سنها ﴿عتياً﴾ العتي: النهاية في الكبر واليبس والجفاف يقال: عتا الشيخ كبر وولى قال الشاعر:

إنما يُعذر الوليدُ ولا يُعذر من كان في الزمان عتياً^(١)
﴿حناناً﴾ الحنان: الشفقة والرحمة والمحبة، وأصله من حنين الناقة على ولدها وحنانك تريد رحمتك قال طرفة:

أبا منذر أفنيت فاستبق بعضنا
حنانك بعض الشر أهون من بعض^(٢)
﴿انتبذت﴾ ابتعدت وتنحّت ﴿سويّاً﴾ مستوي الخلقة ﴿المخاض﴾ اشتداد وجع الولادة والطلق ﴿سرياً﴾ السري: النهر والجدول لأن الماء يسري فيه ﴿فريّاً﴾ الفري: العظيم من الأمر.

التفسير: ﴿كهيعص﴾ حروف مقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن^(٣) وتقرأ: «كاف، ها، يا، عَيْن، صَاد» ﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا﴾ أي هذا ذكر رحمة ربك لعبده زكريا نقصه عليك يا محمد ﴿إذ نادى ربه نداء خفياً﴾ أي حين ناجى ربه ودعاه بصوت خفي لا يكاد يسمع قال المفسرون: لأن الإخفاء في الدعاء أدخل في الإخلاص وأبعد من الرياء ﴿قال رب إني وهن العظم مني﴾ أي دعا في ضراعة فقال يا رب: لقد ضعف عظمي، وذهبت قوتي من الكبر ﴿واشتعل الرأس شيباً﴾ أي انتشر الشيب في رأسي انتشار النار في الهشيم ﴿ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾ أي لم تخيب دعائي في وقت من الأوقات بل عودتني الإحسان والجميل فاستجب دعائي الآن كما كنت تستجيبه فيما مضى قال البيضاوي: هذا توسل بما سلف له من الاستجابة، وأنه تعالى عودته بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه^(٤) ﴿وإني خفت الموالى من ورائي﴾ أي خفت بني العم والعشيرة من بعد موتي أن يضيّعوا الدين ولا يحسنوا وراثته العلم والنبوة وكانت امرأتي عاقراً ﴿أي لا تلد لكبر سنها أو لم تلد قط﴾ فهب لي من لدنك ولياً ﴿أي فارزقني من محض فضلك ولداً صالحاً

يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ۖ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿١٧﴾ يَزْكُرِيَا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَىٰ هَيْنٍ ۖ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴿٢٠﴾ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً ۚ قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿٢١﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً

يتولاني ﴿يرثني ويرث من آل يعقوب﴾ أي يرثني ويرث أجداده في العلم والنبوة قال البيضاوي : المراد وراثة الشرع والعلم فإن الأنبياء لا يورثون المال^(١) ﴿واجعله ربّ رَضِيًّا﴾ أي اجعله يا رب مرضياً عندك قال الرازي : قدّم زكريا عليه السلام على طلب الولد أموراً ثلاثة : أحدها : كونه ضعيفاً، والثاني : أن الله ماردّ دعاءه البتة، والثالث : كون المطلوب بالدعاء سبباً للمنفعة في الدين ثم صرّح بسؤال الولد وذلك مما يزيد الدعاء توكيداً لما فيه من الاعتماد على حول الله وقوته والتبري عن الأسباب الظاهرة^(٢) ﴿يا زكريا إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ﴾ أي نبشرك بواسطة الملائكة بغلام يسمى يحيى كما في آل عمران ﴿فنادته الملائكة وهو قائمٌ يصلي في المحراب أن الله يبشرك بيحيى﴾ ﴿لم نجعل له من قبلُ سمياً﴾ أي لم يسم أحدٌ قبله بيحيى فهو اسم فذّ غير مسبوق سَمَاءَ تعالى به ولم يترك تسميته لوالديه وقال مجاهد : ليس له شبيه في الفضل والكمال ﴿قال ربّ أنسى يكون لي غلام﴾ أي كيف يكون لي غلام ؟ وهو استفهام تعجب وسرور بالأمر العجيب ﴿وكانت امرأتي عاقراً﴾ أي والحال أن امرأتي كبيرة السن لم تلد في شبابه فكيف وهي الآن عجوز !! ﴿وقد بلغتُ من الكبر عتياً﴾ أي بلغت في الكبر والشيخوخة نهاية العمر قال المفسرون : كان قد بلغ مائة وعشرين سنة ، وامرأته ثمان وتسعين سنة ، فأراد أن يطمئن ويعرف الوسيلة التي يرزقه بها هذا الغلام ﴿قال كذلك قال ربك هو عليّ هين﴾ أي قال الله لزكريا : هكذا الأمر أخلقه من شيخين كبيرين ، وخلقته وإيجاده سهل يسير عليّ ﴿وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً﴾ أي كما خلقتك من العدم ولم تك شيئاً مذكوراً فأنا قادر على خلق يحيى منكما قال المفسرون : ليس في الخلق هينٌ وصعبٌ على الله ، فوسيلة الخلق للصغير والكبير ، والجليل والحقير واحدة ﴿كن فيكون﴾ وإنما هو أهونٌ في اعتبار الناس ، فإن القادر على الخلق من العدم قادرٌ على الخلق من شيخين هرمين ﴿قال ربّ اجعلْ لي آية﴾ أي اجعل لي علامة تدل على حل امرأتي ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ أي علامتك ألا تستطيع تكليم الناس ثلاثة أيام بلياليهن وأنت سوي الخلق ليس بك خرس ولا علة قال ابن عباس : اعتقل لسانه من غير مرض وقال ابن زيد : حبس لسانه فكان لا يستطيع أن يكلم أحداً وهو مع ذلك يسبح ويقرأ التوراة لم يكن الإنجيل ظهر بعد لأن هذا قبل ولادة عيسى عليه السلام فإذا أراد كلام الناس لم يستطع أن يكلمهم^(٣) ﴿فخرج على قومه من المحراب﴾ أي أشرف عليهم من المصلى وهو بتلك

وَعِشْيَا ۝ يَلْحَقِي خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ ۝ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ۝ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَاةً ۝ وَكَانَ تَقِيًّا ۝
وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ۝ وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا ۝ وَأَذْكُرُ فِي
الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرِيقًا ۝ فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا
فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۝ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا ۝

الصفة ﴿فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وأصيلاً﴾ أي أشار إلى قومه بأن سبحوا الله في أوائل النهار وأواخره ، وكان كلامه مع الناس بالإشارة لقوله تعالى في آل عمران ﴿قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام إلا رمزا﴾ ﴿يا يحيى خذ الكتاب بقوة﴾ في الكلام حذف والتقدير فلما ولد يحيى وكبر وبلغ السن الذي يؤمر فيه قال الله له : يا يحيى خذ التوراة بجِدِّ واجتهاد ﴿وآتيناك الحكم صبياً﴾ أي أعطيناك الحكمة ورجاحة العقل منذ الصغر ، روي أن الصبيان قالوا ليحيى : اذهب بنا نلعب فقال لهم : ما للعب خلقت ، وقيل : أعطيت النبوة منذ الصغر والأول أظهر قال الطبري : المعنى أعطيناك الفهم لكتاب الله في حال صباه قبل بلوغه سن الرجال ^(١) ﴿وحناناً من لدنا وزكاة﴾ أي فعلنا ذلك رحمة منا بأبويه وعطفاً عليه وتزكية له من الخصال الذميمة ﴿وكان تقياً﴾ أي عبداً صالحاً متقياً لله ، لم يهمل بمعصية قط قال ابن عباس : طاهراً لم يعمل بذنوبه ﴿وبراً بوالديه ولم يكن جباراً عصياً﴾ أي جعلناه باراً بأبيه وأمه محسناً إليهما ولم يكن متكبراً عاصياً لربه ﴿وسلاماً عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً﴾ أي سلام عليه من الله من حين مولده إلى حين مبعثه ، في يوم ولادته وفي يوم موته ويوم يبعث من قبره قال ابن عطية : حياته في المواطن التي يكون الإنسان فيها في غاية الضعف ، والحاجة ، والافتقار إلى الله ^(٢) ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾ هذه هي القصة الثانية في هذه السورة وهي أعجب من قصة «ميلاد يحيى» لأنها ولادة عذراء من غير بعل ، وهي أغرب من ولادة عاقر من بعلها الكبير في السن والمعنى اذكر يا محمد قصة مريم العجبية الغربية الدالة على كمال قدرة الله ﴿إذ انتبذت من أهلها مكاناً شرقياً﴾ أي حين تنحّت واعتزلت أهلها في مكان شرقي بيت المقدس لتفرغ لعبادة الله ﴿فاتخذت من دونهم حجاباً﴾ أي جعلت بينها وبين قومها ستراً وحاجزاً ﴿فأرسلنا إليها روحنا﴾ أي أرسلنا إليها جبريل عليه السلام ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ أي تصوّر لها في صورة البشر التام الخلقة قال ابن عباس : جاءها في صورة شاب أبيض الوجه جعد الشعر مستوى الخلقة ^(٣) قال المفسرون : إنما تمثل لها في صورة الإنسان لتستأنس بكلامه ولا تنفر عنه ، ولو بدا لها في الصورة الملكية لنفرت ولم تقدر على السماع لكلامه ، ودلّ على عفافها وورعها أنها تعودت بالله من تلك الصورة الجميلة الفاتكة في الحسن ^(٤) ﴿قالت إنني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً﴾ أي فلما رآته فزعّت وخشيت أن يكون إنما أرادها بسوء فقالت : إنني أحتمي

قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ
 بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَى هَيْنٌ ۖ وَلَنَجْعَلُكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا ۖ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾
 * فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ﴿٢٢﴾ فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ النَّخْلَةِ قَالَتْ يَلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا
 وَكُنتُ نَسِيًّا مَّنْسِيًّا ﴿٢٣﴾ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهَرِيءَ إِلَيْكَ بِجِذْعِ
 النَّخْلَةِ تَسْقُطُ عَلَيْكَ رَطْبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾

والتجىء إلى الله منك ، وجواب الشرط محذوف تقديره إن كنت تقياً فاتركني ولا تؤذني ﴿قال إنما أنا
 رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ أي قال لها جبريل مزيلاً لما حصل عندها من الخوف : ما أنا إلا
 ملكٌ مرسلٌ من عند الله إليك ليهب لك غلاماً طاهراً من الذنوب ﴿قالت أنسى يكون لي غلام﴾ أي
 كيف يكون لي غلام ؟ وعلى أي صفة يوجد هذا الغلام مني ؟ ﴿ولم يمسنني بشرٌ ولم أكُ بغياً﴾ أي
 ولست بذات زوج حتى يأتيني ولد ولست بزانية ﴿قال كذلك قال ربك هو علي هين﴾ أي كذلك الأمر
 حكم ربك بمجيء الغلام منك وإن لم يكن لك زوج ، فإن ذلك على الله سهل يسير ﴿ولنجعله آية
 للناس ورحمةً منا﴾ أي وليكون مجيئه دلالةً للناس على قدرتنا العجيبة ورحمة لهم ببعثته نبياً يهتدون
 بإرشاده ﴿وكان أمراً مقضياً﴾ أي وكان وجوده أمراً مفروغاً منه لا يتغير ولا يتبدل لأنه في سابق علم
 الله الأزلي ﴿فحملته فانتبذت به مكاناً قصياً﴾ انتهى الحوار بين الروح الأمين ومريم العذراء قال
 المفسرون : إن جبريل نفخ في جيب درعها فدخلت النفخة في جوفها فحملت به وتنحت إلى مكان بعيد
 ومعنى الآية أنها حملت بالجنين فاعتزلت - وهو في بطنها - مكاناً بعيداً عن أهلها خشية أن يعيروها بالولادة
 من غير زوج ﴿فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة﴾ أي فأجأها ألم الطلق وشدة الولادة إلى ساق نخلة
 يابسة لتعتمد عليه عند الولادة ﴿قالت يا ليتني ميتٌ قبل هذا وكنت نسياً منسياً﴾ أي قالت يا ليتني
 كنت قد ميتٌ قبل هذا اليوم وكنت شيئاً تافهاً لا يُعرف ولا يُذكر^(١) قال ابن كثير : عرفت أنها سُبُتلى وتُمتحن
 بهذا المولود فتمنت الموت لأنها عرفت أن الناس لا يصدقونها في خبرها ، وبعدها كانت عندهم عابدةً
 ناسكة تصبح عاهرة زانية ولذلك قالت ما قالت^(٢) ﴿فناداها من تحتها أَلَّا تَحْزَنِي﴾ أي فناداها الملك من
 تحت النخلة قائلاً لها : لا تحزني لهذا الأمر ﴿قد جعل ربك تحتك سرياً﴾ أي جعل لك جدولاً صغيراً
 يجري أمامك قال ابن عباس : ضرب جبريل برجله الأرض فظهرت عين ماءٍ عذب فجرى جدولاً
 ﴿وهزي إليك بجذع النخلة﴾ أي حركي جذع النخلة اليابسة ﴿تساقط عليك رطباً جنياً﴾ أي
 يتساقط عليك الرطب الشهي الطري قال المفسرون : أمرها بهز الجذع اليابس لترى آية أخرى في إحياء
 موات الجذع بعد رؤيتها عين الماء العذب الذي جرى جدولاً ، وذلك ليسكن ألمها وتعلم أن ذلك كرامة

(١) هذا قول قتادة وقال ابن عباس ﴿وكنت نسياً منسياً﴾ أي لم أخلق ولم أك شيئاً . (٢) مختصر ابن كثير ٤٤٨/٢ .

فَكُلِّي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا ۖ فِيمَا تَرَيْنَ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أَكَلِمَ الْيَوْمَ
 إِنْسِيًّا ﴿٣٦﴾ فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ ۚ قَالُوا يَا مَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْئًا فَرِيًّا ﴿٣٧﴾ يَأْتِيَنَّ هَرُونَ مَا كَانَ أَبُوكَ
 أَمْرًا سَوْءَ وَمَا كَانَتْ أُمُّكَ بَغِيًّا ﴿٣٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٣٩﴾ قَالَ
 إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ ءَاتَانِي الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا ﴿٤٠﴾ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ
 حَيًّا ﴿٤١﴾ وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٤٢﴾

من الله لها ﴿فكلي واشربي﴾ أي كلي من هذا الرطب الشهي ، واشربي من هذا الماء العذب السلسيل
 ﴿وقري عينا﴾ أي طيبي نفساً بهذا المولود ولا تحزني ﴿فإما ترين من البشر أحدا﴾ أي فإن رأيت أحداً
 من الناس وسألك عن شأن المولود ﴿فقولي إني نذرت للرحمن صوما﴾ أي نذرت السكوت والصمت
 لله تعالى ﴿فلن أكلم اليوم إنسيا﴾ أي لن أكلم أحداً من الناس . . أمرت بالكف عن الكلام ليكيها
 ولدها ذلك فتكون آية باهرة ﴿فأتت به قومها تحمله﴾ أي أتت قومها بعد أن طهرت من النفاس تحمل
 ولدها عيسى على يديها ﴿قالوا يا مريم لقد جئت شيئا فرياً﴾ أي فلما رأوها وابنها أعظموا أمرها
 واستكروه وقالوا لها : لقد جئت شيئا عظيماً منكراً ﴿يا أخت هارون ما كان أبوك امرء سوء﴾ أي يا
 شبيهة هارون في الصلاح والعبادة ما كان أبوك رجلاً فاجراً ﴿وما كانت أمك بغياً﴾ أي وما كانت أمك
 زانية فكيف صدر هذا منك وأنت من بيت طاهر معروف بالصلاح والعبادة ؟ قال قتادة : كان هارون
 رجلاً صالحاً في بني إسرائيل مشهوراً بالصلاح فشبهاها^(١) به ، وليس بهارون أخي موسى لأن بينهما ما
 يزيد على ألف عام وقال السهيلي : هارون رجل من عباد بني إسرائيل المجتهدين كانت مريم تشبه به في
 اجتهادها وليس بهارون أخي موسى بن عمران فإن بينهما دهماً طويلاً^(٢) ﴿فأشارت إليه﴾ أي لم تجهم
 وأشارت إلى عيسى ليكلموه ويسألوه ﴿قالوا كيف نكلّم من كان في المهد صبياً﴾ أي قالوا متعجبين :
 كيف نكلّم طفلاً رضيعاً لا يزال في السرير يغتذي بلبان أمه ؟ قال الرازي : روي أنه كان يرضع فلما
 سمع ذلك ترك الرضاع وأقبل عليهم بوجهه وكلمهم ، ثم لم يتكلم حتى بلغ مبلغاً يتكلم فيه الصبيان^(٣)
 ﴿قال إني عبد الله﴾ أي قال عيسى في كلامه حين كلمهم : أنا عبد لله خلقتني بقدرته من دون أب ،
 قدّم ذكر العبودية ، ليبطل قول من ادّعى فيه الربوبية ﴿آتاني الكتاب وجعلني نبياً﴾ أي قضى ربي أن
 يؤتيني الإنجيل ويجعلني نبياً ، وإنما جاء بلفظ الماضي لإفادة تحقّقه فإن ما حكم به الله أزلاً لا بدّاً إلا أن
 يقع ﴿وجعلني مباركاً أين ما كنت﴾ أي جعل في البركة والخير والنفع للعباد حيثما كنت وأينما حللت
 ﴿وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً﴾ أي أوصاني بالمحافظة على الصلاة والزكاة مدة حياتي
 ﴿وبراً بوالدتي﴾ أي وجعلني باراً بوالدتي محسناً لها ﴿ولم يجعلني جباراً شقياً﴾ أي ولم يجعلني

وَالسَّلَامُ عَلَى يَوْمٍ وُلِدْتُ وَيَوْمٍ أَمُوتُ وَيَوْمٍ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ سُبْحَنَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٣٦﴾ فَاخْتَلَفَ الْأَحْزَابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُ تَوَنُّنًا لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٩﴾

متعظماً متكبراً على أحد شقياً في حياتي ﴿والسلام عليّ يومُ ولدتُ ويومُ أموتُ ويومُ أُبعثُ حياً﴾ أي سلام الله عليّ في يوم ولادتي ، وفي يوم مماتي ، وفي يوم خروجي حياً من قبري ، هذا ما نطق به المسيح عليه السلام وهو طفل رضيع في المهد . . وهكذا يعلن عيسى عبوديته لله ، فليس هو إلهاً ، ولا ابن إله ، ولا ثالث ثلاثة كما يزعم النصارى ، إنما عبدٌ ورسول ، يحيا ويموت كسائر البشر ، خلقه الله من أم دون أب ليكون آية على قدرة الله الباهرة ، ولهذا جاء التعقيب المباشر ﴿ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون﴾ أي ذلك هو القول الحق في عيسى بن مريم لا ما يصفه النصارى من أنه ابن الله ، أو اليهود من أنه ابن زنى ويشكون في أمره ويمترون ﴿ما كان لله أن يتخذ من ولد﴾ أي ما ينبغي لله ولا يجوز له أن يتخذ ولداً ﴿سبحانه﴾ أي تنزه الله عن الولد والشريك ﴿إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون﴾ أي إذا أراد شيئاً وحكم به قال له كن فكان ، ولا يحتاج إلى معاناة أو تعب ، ومن كان هذا شأنه كيف يتوهم أن يكون له ولد ؟ قال المفسرون : وهذا كالدليل لما سبق كأنه قال : إن اتخاذ الولد شأن العاجز الضعيف المحتاج الذي لا يقدر على شيء ، وأما القادر الغني الذي يقول للشيء ﴿كن فيكون﴾ فلا يحتاج في اتخاذ الولد إلى إحبال الأنثى وحيث أوجده بقوله ﴿كن﴾ لا يسمى ابناً له بل هو عبده ، فهو تبكيت وإلزام لهم بالحجج الباهرة ﴿وإن الله ربي وربكم فاعبدوه هذا صراط مستقيم﴾ أي ومما أمر به عيسى قومه وهو في المهد أن أخبرهم أن الله ربه وربهم فليفردوه بالعبادة هذا هو الدين القويم الذي لا اعوجاج فيه ﴿فاختلف الأحزاب من بينهم﴾ أي اختلفت الفرق من أهل الكتاب في أمر عيسى وصاروا أحزاباً متفرقين ، فمنهم من يزعم أنه ابن الله ، ومنهم من يزعم أنه ابن زنى ﴿فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم﴾ أي ويل لهم من المشهد الهائل ومن شهود هول الحساب والجزاء ﴿أسمع بهم وأبصر يوم يأتوننا﴾ أي ما أسمعهم وأبصرهم في ذلك اليوم الرهيب ﴿لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين﴾ أي لكن الظالمون في هذه الدنيا في بعدٍ وغفلة عن الحق واضح جلي ﴿وأنذرهم يوم الحسرة﴾ أي أنذر الخلائق وخوفهم يوم القيامة يوم يتحسر المسيء إذ لم يحسن ، والمقصر إذ لم يزد من الخير ﴿إذ قضى الأمر﴾ أي قضى أمر الله في الناس ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿وهم في غفلة﴾ أي وهم اليوم في غفلة سادرون ﴿وهم لا يؤمنون﴾ أي لا يصدقون بالبعث والنشور ﴿إننا نحن

إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ ﴿٤١﴾

نرث الأرض ومن عليها ﴿٤١﴾ أي نحن الوارثون للأرض وما عليها من الكنوز والبشر ﴿وإلينا يرجعون﴾ أي مرجع الخلائق ومصيرهم إلينا للحساب والجزاء .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - الكناية ﴿وهن العظم مني﴾ كناية عن ذهاب القوة وضعف الجسم .
- ٢ - الاستعارة ﴿اشتعل الرأس شيباً﴾ شبه انتشار الشيب وكثرته باشتعال النار في الحطب واستعير الاشتعال للانتشار واشتق منه اشتعل بمعنى انتشر ففيه استعارة تبعية .
- ٣ - الطباق بين ﴿ولد .. ويموت﴾ .
- ٤ - جناس الاشتقاق ﴿نادى .. نداء﴾ .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿ولم يمسنني بشر﴾ كناية عن المعاشرة الزوجية بالجماع .
- ٦ - صيغة التعجب ﴿أسمع .. وأبصر﴾ .
- ٧ - السجع ﴿سرياً ، بغياً ، صبياً ، نبياً﴾ وهو من المحسنات البديعة .

تنبية : في يوم القيامة تشتد الحشرات حتى لكان اليوم محض للحسرة لا شيء فيه سواها ، وفي صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن الرسول ﷺ قال : (إذا دخل أهل الجنة الجنة ، وأهل النار النار ، يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح ، فيوقف بين الجنة والنار ، فيقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون - أي يمدون أعناقهم - وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، ثم يقال يا أهل الجنة : هل تعرفون هذا؟ فيشرئبون وينظرون ويقولون نعم هذا الموت ، فيؤمر به فيذبح ثم يقال : يا أهل الجنة خلود فلا موت ، ويا أهل النار خلود فلا موت ثم قرأ ﴿وأُنذِرهم يوم الحسرة ..﴾ الآية) .

قال الله تعالى : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً .. إلى .. هل تعلم له سوياء﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٥) .

المناسكة : لما ذكر تعالى « قصة مريم » واختلاف النصارى في شأن عيسى حتى عبده من دون الله ، أعقبها بذكر « قصة إبراهيم » وتحطيمه الأصنام لتذكير الناس بما كان عليه خليل الرحمن من توحيد

الربّ الديّان ، وسواء في الضلال من عبد بشراً أو عبد حجراً ، فالنصارى عبدوا المسيح ، ومشركو العرب عبدوا الأوثان .

اللفظة : ﴿صديقاً﴾ من أبنية المبالغة ومعناه كثير الصدق ﴿ملياً﴾ دهنراً طويلاً من قولهم أمليتُ لفلان في الأمر إذا أطلت له قال الشاعر :

فتصدّعت شُمُّ الجبال لموته وبكتُ عليه الرُمُلاتُ ملياً^(١)
﴿حفيّاً﴾ الحفيّ : المبالغ في البر واللطف به ﴿خلف﴾ الخلف : بسكون اللام الذي يخلف سلفه بالشر وبفتحها الذي يخلفه بالخير يقال جعلك الله خير خلفٍ لخير سلف وقال الشاعر :

ذهب الذين يُعاش في أكنافهم وبقيتُ في خُلف كجلد الأجر^(٢)
﴿غياً﴾ : شراً وضلّالاً قال أهل اللغة : كل شر عند العرب فهو غي ، وكل خير فهو رشاد .

سببُ النزول : عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ : يا جبريل ما يمنعك أن تزورنا أكثر ممّا تزورنا ؟ فنزلت الآية ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك . .﴾ الآية^(٣) .

وَأَذْكُرُ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾

التفسير : ﴿واذكر في الكتاب إبراهيم﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب العزيز خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام ﴿إنه كان صديقاً نبياً﴾ أي ملازماً للصدق مبالغاً فيه ، جامعاً بين الصديقية والنبوة والغرض تنبيه العرب إلى فضل إبراهيم الذي يزعمون الانتساب إليه ثم يعبدون الأوثان مع أنه إمام الحنفاء وقد جاء بالتوحيد الصافي الذي دعاهم إليه خاتم المرسلين ﴿إذ قال لأبيه يا أبتِ لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ أي ناداه متلطفاً بخطابه ، مستميلاً له نحو الهداية والإيمان ، يا أبتِ لم تعبد حجراً لا يسمع ولا يبصر ، ولا يجلب لك نفعاً أو يدفع عنك ضرراً ؟ ﴿يا أبتِ إنني قد جاءني من العلم ما لم يأتك﴾ كرّر النصيح باللطف ولم يصف أباه بالجهل الشنيع في عبادته للأصنام وإنما ترفق وتلطف في كلامه أي جاءني من العلم بالله ومعرفة صفاته القدسية ما لا تعلمه أنت ﴿فاتبعني أهدك صراطاً سويّاً﴾ أي اقبل نصيحتي وأطعني أرشدك إلى طريق مستقيم فيه النجاة من المهالك وهو دين الله الذي لا عوج فيه ﴿يا أبتِ لا تعبد الشيطان﴾ أي لا تطع أمر الشيطان في الكفر وعبادة الأوثان ﴿إن الشيطان كان للرحمن عصياً﴾ أي إن الشيطان عاصٍ للرحمن ، مستكبر على عبادة ربه ، فمن

يَنَابَتْ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ
 إِلَهِتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُحَنَّكَ وَأَهْجُرَنِي مَلِيًّا ﴿٤٧﴾ قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي
 حَفِيًّا ﴿٤٨﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا
 أَعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ وَيَسَّخَتْ وَيَعْقُوبُ ﴿٥٠﴾ وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴿٥١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَّحْمَتِنَا

أطاعه أغواه ، قال القرطبي : وإنما عبّر بالعبادة عن الطاعة لأن من أطاع شيئاً في معصية الله فقد عبده (١)
 ﴿يَا أَبْتَ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا﴾ تحذيرٌ من سوء العاقبة والمعنى
 أخاف أن تموت على كفرٍ فيحل بك عذاب الله الأليم وتكون قريناً للشيطان بالخلود في النيران قال الإمام
 الفخر : وإيراد الكلام بلفظ ﴿يَا أَبْتَ﴾ في كل خطاب دليل على شدة الحب والرغبة في صونه عن
 العقاب ، وإرشاده إلى الصواب ، وقد رتب إبراهيم الكلام في غاية الحسن ، لأنه نبّه أولاً إلى بطلان
 عبادة الأوثان ، ثم أمره باتباعه في الاستدلال وترك التقليد الأعمى ، ثم ذكره بأن طاعة الشيطان غير
 جائزة في العقول ، ثم ختم الكلام بالوعيد الزاجر عن الإقدام مع رعاية الأدب والرفق ، وقوله ﴿إِنِّي
 أَخَافُ﴾ دليل على شدة تعلق قلبه بمصالحه قضاءً لحق الأبوة (٢) ﴿قَالَ أَرَأَيْتَ أَنْتَ عَنْ إِلَهِتِي يَا
 إِبْرَاهِيمُ﴾ أي قال له أبوه أزر : أترك يا إبراهيم عبادة إلهتي ومنصرفٌ عنها ؟ استفهامٌ فيه معنى التعجب
 والإنكار لإعراضه عن عبادة الأوثان كأن ترك عبادتها لا يصدر عن عاقل قال البيضاوي : قابل أبوه
 استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظه وغلظة العناد ، فناداه باسمه ولم يقابل قوله ﴿يَا أَبْتَ﴾ بـ « يا
 ابني » وقدم الخبر وصدّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة كأنها مما لا يرغب عنها عاقل (٣) ، ثم هدّده بقوله
 ﴿لَنْ لَّمْ تَنْتَه لَأَرْجُحَنَّكَ﴾ أي لئن لم تترك شتم وعيب إلهتي لأرجحنك بالحجارة ﴿وَاهْجُرَنِي مَلِيًّا﴾ أي
 اهجرني دهماً طويلاً قال السدي : أبداً . . بهذه الجهالة تلقى « أزر » الدعوة إلى الهدى ، وبهذه القسوة
 قابل القول المؤدّب المهذّب ، وكذلك شأن الكفر مع الإيمان ، وشأن القلب الذي هدّبه الإيمان ، والقلب
 الذي أفسده الطغيان ﴿قَالَ سَلِّمْ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُكَ رَبِّي﴾ أي قال إبراهيم في جوابه : أمّا أنا فلا
 ينالك مني أذى ولا مكروه ، ولا أقول لك بعد ما يؤذيك لحرمة الأبوة ، وسأسال الله أن يهديك ويغفر
 لك ذنبك ﴿إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ أي مبالغاً في اللطف بي والاعتناء بشأني ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ
 مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي أترككم وما تعبدون من الأوثان وأرتحل عن دياركم ﴿وَأَدْعُوا رَبِّي﴾ أي وأعبد ربي
 وحده مخلصاً له العبادة ﴿عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾ أي راجياً بسبب إخلاصي العبادة له ألا
 يجعلني شقياً ، وفيه تعريضٌ بشقاوتهم بدعاء إلهتهم . . وهكذا اعتزل إبراهيم أباه وقومه وعبادتهم
 للأوثان ، وهجر الأهل والأوطان ، فلم يتركه الله وحيداً بل وهب له ذريةً وعوْضه خيراً ﴿فَلَمَّا أَعْتَزَلَهُمْ

وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا ﴿٥٠﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ ﴿٥١﴾ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٢﴾ وَنَذَيْنَهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا ﴿٥٣﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا ﴿٥٤﴾ وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا ﴿٥٥﴾ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِنْدَ

وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب ﴿٥٦﴾ قال المفسرون : لما هاجر إبراهيم إلى أرض الشام ، واعتزل أباه وقومه في الله ، أبدله الله من هو خيرٌ منهم ، فوهب له إسحق ويعقوب أولاداً أنبياء ، فأنس الله بهما وحشته عن فراق قومه بأولئك الأولاد الأطهار ، ويعقوب ابن اسحق ، وهما شجرتا الأنبياء فقد جاء من نسلهما أنبياء بني إسرائيل قال ابن كثير : المعنى جعلنا له نسلًا وعقباً أنبياء ، أقر الله بهم عينه في حياته بالنبوة ^(١) ولهذا قال ﴿وَكَلَّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ أي كل واحدٍ منهما جعلناه نبياً ﴿وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِنْ رَحْمَتِنَا﴾ أي أعطينا الجميع - إبراهيم وإسحق ويعقوب - كل الخير الديني والدنيوي ، من المال والولد والعلم والعمل ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ أي جعلنا لهم ذكراً حسناً في الناس ، لأن جميع أهل الملل والأديان يشنون عليهم لما لهم من الخصال المرضية ، ويصلون على إبراهيم وعلى آله إلى قيام الساعة ، قال الطبري : أي رزقناهم الثناء الحسن ، والذكر الجميل في الناس ^(٢) ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ﴾ أي اذكر يا محمد لقومك في القرآن العظيم خبر موسى الكليم ﴿إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ أي استخلصه الله لنفسه ، واصطفاه من بين الخلق لكلامه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي من الرسل الكبار ، والأنبياء الأطهار ، جمع الله له بين الوصفين الجليلين ، وإنما أعاد لفظ « كان » لتفخيم شأن النبي المذكور ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ﴾ أي نادينا موسى من جهة جبل الطور من ناحية اليمين حين كلمناه بلا واسطة ﴿وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾ أي أدنيناه للمناجاة حين كلمناه قال ابن عباس : أدني موسى من الملكوت ورفعت له الحجب حتى سمع صريف الأقلام ^(٣) قال الزمخشري : شبهه بمن قرَّبه بعض العظماء للمناجاة حيث كلمه بغير واسطة ملك ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِنْ رَحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾ أي وهبنا له من نعمتنا عليه أخاه هارون فجعلناه نبياً إجابة لدعائه حين قال ﴿وَاجْعَلْ لِي وَزيراً مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي﴾ جعلناه له عضداً وناصرًا ومعيناً ﴿وَادْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ﴾ أي اذكر يا محمد في القرآن العظيم خبر جدك « إسماعيل » الذبيح ابن إبراهيم ، وهو أبو العرب جميعاً ﴿إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ أي كان صادقاً في وعده ، لا يعد بوعده إلا وفي به قال المفسرون : وذكر بصدق الوعد وإن كان موجوداً في غيره من الأنبياء تشريفاً وإكراماً ، ولأنه عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعاناه غيره من الأنبياء ، فمن مواعيده الصبر وتسليم نفسه للذبح فلذلك أثنى الله عليه ﴿وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ أي جمع الله له بين الرسالة والنبوة قال ابن كثير : وفي الآية دليل على شرف إسماعيل على أخيه إسحق لأنه إنما وُصف بالنبوة فقط ، وإسماعيل وصف بالنبوة والرسالة ^(٤) ، ومن إسماعيل جاء خاتم المرسلين محمد ﷺ ﴿وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ﴾ أي كان

رَبِّهِ مَرْضِيًّا ﴿٥٥﴾ وَأَذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾
 أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَءِيلَ
 وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا ﴿٥٨﴾ * نَخْلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ
 أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غِيًّا ﴿٥٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ
 يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا ﴿٦٠﴾ جَنَّتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا ﴿٦١﴾

يحث أهله على طاعة الله ، وبخاصة الصلاة التي هي عماد الدين ، والزكاة التي بها تتحقق سعادة المجتمع ﴿وكان عند ربه مرضياً﴾ أي نال رضى الله قال الرازي : وهذا نهاية المدح لأن المرضي عند الله هو الفائز في كل طاعاته بأعلى الدرجات ^(١) ﴿واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقاً نبياً﴾ أي اذكر يا محمد في الكتاب الجليل خبر إدريس إنه كان ملازماً للصدق في جميع أحواله ، موحى إليه من الله قال المفسرون : إدريس هو جد نوح ، وأول مرسل بعد آدم ، وأول من خط بالقلم ولبس المخيط ، وكانوا من قبل يلبسون الجلود ، وقد أنزل الله عليه ثلاثين صحيفة ﴿ورفعناه مكاناً علياً﴾ أي رفعنا ذكره وأعلينا قدره ، بشرف النبوة والزلقى عند الله ^(٢) ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين﴾ أي أولئك المذكورون هم أنبياء الله ورسله الكرام ، الذين قصصنا عليك خبرهم في هذه السورة - وهم عشرة أولهم زكريا وآخرهم إدريس - وهم الذين أنعم الله عليهم بشرف النبوة ﴿من ذرية آدم﴾ أي من نسل آدم كإدريس ﴿وممن حملنا مع نوح﴾ كإبراهيم فإنه من ذرية سام بن نوح ﴿وممن ذرية إبراهيم﴾ كإسماعيل وإسحق ويعقوب ﴿وإسرائيل﴾ أي ومن ذرية إسرائيل وهو « يعقوب » كموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى ﴿وممن هدينا واجتبتنا﴾ أي ومن هديناهم للإيمان واصطفيناهم لرسالتنا ووحينا ﴿إذا تتلى عليهم آيات الرحمن خروا سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾ أي إذا سمعوا كلام الله سجدوا وبكوا من خشية الله مع ما لهم من علو الرتبة ، وسمو النفس ، والزلقى من الله تعالى ، قال القرطبي : وفي الآية دلالة على أن آيات الرحمن تأثيراً في القلوب ^(٣) ﴿فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات﴾ أي جاء من بعد هؤلاء الأتقياء قومٌ أشقياء ، تركوا الصلوات وسلكوا طريق الشهوات ﴿فسوف يلقون غيًّا﴾ أي سوف يلقون كل شر وخسارٍ ودمار ، قال ابن عباس : غيٌّ وادٍ في جهنم ، وإن أودية جهنم لتستعيز بالله من حره ^(٤) ﴿إلا من تاب وآمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا من تاب وأناب وأصلح عمله ﴿فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً﴾ أي فأولئك يسعدون في الجنة ولا ينقصون من جزاء أعمالهم شيئاً ﴿جنات عدن التي وعد الرحمن عباده بالغيب﴾ أي هي جنات إقامة التي وعدهم بها

(١) الفخر الرازي ٢٣٢/٢١ . (٢) وقيل المراد رفعه إلى السماء الرابعة .

(٣) القرطبي ١٢٠/١١ . (٤) القرطبي ١٢٥/١١ .

لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا ﴿١٧﴾ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا ﴿١٩﴾ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ﴿٢٠﴾

رَبِّهِمْ فَأَمَنُوا بِهَا بِالْغَيْبِ قَبْلَ أَنْ يَرَوْهَا تَصَدِيقًا بوعده تعالى ﴿إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا﴾ أي إن وعده تعالى بالجنة آتٍ وحاصلُ لا يُخْلَفُ ﴿لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا﴾ أي لا يسمعون في الجنة شيئاً من فضول الكلام ، لكن يسمعون تسليم الملائكة عليهم على وجه التحية والإكرام ، والاستثناء منقطع ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ أي ولهم ما يشتهون في الجنة من أنواع المطاعم والمشارب بدون كدٍ ولا تعب ، ولا تنغصصٍ ولا انقطاع ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ أي هذه الجنة التي وصفنا أحوال أهلها هي التي نورثها لعبادنا المتقين ﴿وَمَا نَنْزِلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ هذا من كلام جبريل لرسول الله ﷺ حين احتبس عنه فترة من الزمن والمعنى : ما نَنْزِلُ إِلَى الدُّنْيَا إِلَّا بِأَمْرِ اللَّهِ وَإِذْنِهِ ﴿لَهُ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ أي لله جل وعلا جميع الأمر ، أمر الدنيا والآخرة ، وهو المحيط بكل شيء لا تخفى عليه خافية ، ولا يعزب عنه مثقال ذرة ، فكيف نقدم على فعل شيء إلا بأمره وإذنه ؟ ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾ أي لا ينسى شيئاً من أعمال العباد ﴿رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ﴾ أي هو ربُّ العوالم علويها وسفليها فاعبده وحده ﴿وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ﴾ أي اصبر على تكاليف العبادة ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ أي هل تعلم له شبيهاً ونظيراً ؟

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الكناية اللطيفة ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيًّا﴾ كُنِيَ عَنْ الذِّكْرِ الْحَسَنِ وَالثَّنَاءَ الْجَمِيلَ بِاللِّسَانِ لِأَنَّ الثَّنَاءَ يَكُونُ بِاللِّسَانِ فَلِذَلِكَ قَالَ ﴿لِسَانَ صِدْقٍ﴾ كَمَا يَكْنَى عَنْ الْعَطَاءِ بِالْيَدِ .

٢ - الاستعارة ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ شَبَّهَ الْمَكَانَةَ الْعَظِيمَةَ وَالْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ بِالْمَكَانِ الْعَالِيِّ بِطَرِيقِ الِاسْتِعَارَةِ .

٣ - المبالغة ﴿صَدِيقًا نَبِيًّا﴾ أي مبالغاً في الصِّدْقِ .

٤ - الإشارة بالبعيد لعلو الرتبة ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ فَمَا فِيهِ مِنْ مَعْنَى الْبَعْدِ لِلإِشَادَةِ بِعُلُوِّ رَتَبَتِهِمْ وَبَعْدِ مَنْزِلَتِهِمْ فِي الْفَضْلِ .

٥ - الجناس الناقص ﴿خَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ لِتَغْيِيرِ الْحَرَكَاتِ وَالشَّكْلِ .

٦ - الطباقي ﴿له ما بين أيدينا وما خلفنا﴾ وبين ﴿بكرة﴾ .. وعشيّاً .

٧ - السجع الحسن الرصين ﴿عليّاً ، حفيّاً ، نبياً﴾ .

فكائِدة : في قول إبراهيم عليه السلام « يا أبت » تلتطف واستدعاء ، والتاء عوضٌ عن ياء الإضافة لأن أصله « يا أبي » ولهذا لا يُجمع بينهما .

تنبية : ذكر السيوطي في التحبير أن إبراهيم عليه السلام عاش من العمر مائة وخمسة وسبعين سنة ، وبينه وبين آدم ألفاً سنة ، وبينه وبين نوح ألف سنة ، ومنه تفرعت شجرة الأنبياء .

قال الله تعالى : ﴿ويقول الإنسان أتذا ما متُّ لسوف أُخرج حياً .. إلى .. أو تسمع لهم ركزاً﴾ من آية (٦٦) إلى آية (٩٨) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى طائفةً من قصص الأنبياء للعظة والاعتبار ، وكان الغرض الأساسي للسورة الكريمة إثبات قدرة الله على الإحياء والإفناء ، وإثبات يوم المعاد ، ذكر تعالى هنا بعض شبهات المكذبين للبعث والنشور وردّها عليها بالحجج القاطعة ، والبراهين الساطعة ، وختم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء والأشقياء .

اللغز : ﴿جثياً﴾ جمع جاثٍ يقال : جثا إذا قعد على ركبتيه من شدة الهول وهي قعدة الخائف الدليل قال الكُميت :

هُمُو تركوا سراثهم جثياً وهم دُونَ السَّراة مقرئينا^(١)

﴿عِتياً﴾ عصياناً وتمرداً عن الحق ﴿ندياً﴾ الندي والنادي : الذي يجتمع فيه القوم للحدث والمشورة قال الجوهري : الندي مجلس القوم ومتحدثهم وكذلك الندوة والنادي فإن تفرقوا فليس بندي^(٢) ﴿أثاثاً﴾ الأثاث : متاع البيت ﴿رثياً﴾ منظرًا حسناً ﴿تؤزهم﴾ الأثر : التهيج والإغراء ، قال أهل اللغة : الأثر والهرز والاستفزاز متقاربة ومعناها التهيج وشدة الإزعاج ومنه أزيز الرجل وهو غليانه وحركته ﴿وفدّاً﴾ جمع وفد وهو الذي يقدم على سبيل التكرمة معززاً مكرماً ﴿وردّاً﴾ مشاة عطاشاً قال الرازي : والورد اسم للعطاش لأن من يرد الماء لا يرده إلا للعطش^(٣) ﴿إدّاً﴾ منكرًا عظيماً قال الجوهري : الإدّ : الداهية والأمر الفظيع ﴿ركزاً﴾ الركز : الصوت الخفي .

سببُ النزول : عن خباب بن الأرت قال : كنتُ رجلاً قيناً - أي حداداً - وكان لي على العاص بن وائل دينٌ فأتيتُه أتقاضاه فقال : لا والله لا أقضيك حتى تكفر بمحمد ، فقلت : لا والله لا أكفر بمحمد

وَيَقُولُ الْإِنْسَانُ أَإِذَا مَاتَ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا ﴿٦٦﴾ أَوْ لَا يَذْكُرُ الْإِنْسَانُ أَنَا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئًا ﴿٦٧﴾ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنْزِعَنَّ مِنْ كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾

حتى تموت ثم تبعث - أي تموت الآن وتبعث أمامي وهذا من باب المستحيل - قال : فإني إذا مت ثم تبعث جثتي ولي ثم مال فأعطيتك فأنزل الله ﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينَّ مالا وولدا﴾^(١) .

التفسير : ﴿ويقول الإنسان أنذا ما ميت لسوف أخرج حيا﴾ أي يقول الكافر الذي لا يصدق بالبعث بعد الموت على وجه الإنكار والاستبعاد : أنذا مت وأصبحت تراباً ورفاتاً فسوف أخرج من القبر حياً ؟ قال ابن كثير : يتعجب ويستبعد إعادته بعد موته^(٢) ، واللام « لسوف » للمبالغة في الإنكار ، وهو إنكار منشؤه غفلة الإنسان عن نشأته الأولى ، أين كان ؟ وكيف كان ؟ ولو تذكر لعلم أن الأمر أيسر مما يتصور ﴿أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا﴾ أي أولاً يتذكر هذا المكذب الجاحد أول خلقه فيستدل بالبداة على الإعادة ؟ ويعلم أن الله الذي خلقه من العدم قادر على أن يعيده بعد الفناء وتشتت الأجزاء ؟ قال بعض العلماء : لو اجتمع كل الخلائق على إيراد حجة في البعث على هذا الاختصار لما قدروا عليها ، إذ لا شك أن الإعادة ثانياً أهون من الإيجاد أولاً^(٣) ، ونظيره قوله ﴿قل يحييها الذي أنشأها أول مرة﴾ ﴿فوربك لنحشرنهم والشياطين﴾ أي فوربك يا محمد لنحشرن هؤلاء المكذبين بالبعث مع الشياطين الذين أغوهم قال المفسرون : يُحْشَرُ كل كافر مع شيطان في سلسلة ﴿ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيًّا﴾ أي نحضر هؤلاء المجرمين حول جهنم قعوداً على الركب من شدة الهول والفرع ، لا يطيقون القيام على أرجلهم لما يدهمهم من شدة الأمر ﴿ثم لننزعنَّ من كل شيعة﴾ أي لناخذن ولننزعنَّ من كل فرقة وجماعة ارتبطت بمذهب ﴿أيهم أشدُّ على الرحمن عتياً﴾ أي من منهم أعصى لله وأشد تمرداً ، والمراد أنه يؤخذ من هؤلاء المجرمين ليُقذف في جهنم الأعتى فالأعتى قال ابن مسعود : يُبْدَأُ بالأكابر جرماً ﴿ثم لنحن أعلم بالذين هم أولى بها صليًّا﴾ أي نحن أعلم بمن هم أحق بدخول النار والاصطلاء بحرهما وبمن يستحق تضعيف العذاب فنبداً بهم ﴿وإن منكم إلا واردها﴾ أي ما منكم أحد من بر أو فاجر إلا وسيرد على النار ، المؤمن للعبور والكافر للقرار ﴿كان على ربك حتماً مقضياً﴾ أي كان ذلك الورود^(٤) قضاءً لازماً لا يمكن خلفة ﴿ثم نُنْجِي الَّذِينَ اتَّقَوْا﴾ أي نُنْجِي

(١) البخاري ومسلم وانظر سبب النزول ص ١٧٣ . (٢) المختصر ٢ / ٤٦٠ . (٣) الفخر الرازي ٢١ / ٢٤١ .

(٤) اختلف علماء السلف في معنى الورود فقال ابن عباس : الورود الدخول ، لا يبقى بر ولا فاجر إلا دخلها فتكون على المؤمن برداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم ، وقال ابن مسعود وقتادة : الورود : المرور عليها حين اجتياز الصراط ، ولعل هذا القول أصح أجارنا الله من جهنم .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا ﴿٧٣﴾
 وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثْنًا وَرِيعًا ﴿٧٤﴾ قُلْ مَنْ كَانَ فِي الضَّلَالَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ الرَّحْمَنُ مَدًّا
 حَتَّىٰ إِذَا رَأَوْا مَا يُوعَدُونَ إِمَّا الْعَذَابَ وَإِمَّا السَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرُّ مَكَانًا وَأَضْعَفُ جُنْدًا ﴿٧٥﴾
 وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾ أَفَرَأَيْتَ
 الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِينَ مَا لَا وُلَدًا ﴿٧٧﴾

من جهنم المتقين بعد مرور الجميع عليها ﴿ونذر الظالمين فيها جثياً﴾ أي وترك الظالمين في جهنم
 قعوداً على الركب قال البيضاوي : والآية دليل على أن المراد بالورود الجثث حوالها ، وأن المؤمنين يفارقون
 الفجرة إلى الجنة بعد نجاتهم ، ويبقى الفجرة فيها على هيئاتهم ^(١) ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي
 وإذا قرئت على المشركين آيات القرآن المبين ، واضحات الإعجاز ، بينات المعاني ﴿قال الذين كفروا
 للذين آمنوا أي الفريقين خيراً مقاماً وأحسن ندياً﴾ أي قال الكفرة المترفون لفقراء المؤمنين أي الفريقين :
 - نحن أو أنتم - أحسن مسكناً ، وأطيب عيشاً ، وأكرم منتدى ومجلساً ؟ قال البيضاوي : إن المشركين لما
 سمعوا الآيات الواضحات وعجزوا عن معارضتها ، أخذوا في الافتخار بما لهم من حظوظ الدنيا ،
 والاستدلال بزيادة حظهم فيها على فضلهم وحسن حالهم لقصور نظرهم ^(٢) ، فرد الله عليهم بقوله
 ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أحسن أثناً ورئياً﴾ أي وكثير من الأمم المكذبين بآياتنا أهلكتناهم
 بكفرهم كانوا أكثر من هؤلاء متاعاً ، وأجل صورةً ومنظراً ، فكما أهلكنا السابقين نهلك اللاحقين ، فلا
 يغتر هؤلاء بما لديهم من النعيم والمتاع ﴿قل من كان في الضلالة فليمدد له الرحمن مدداً﴾ أي قل يا
 محمد هؤلاء المشركين الزاعمين أنهم على حق : من كان في الضلالة منا ومنكم فليمهله الرحمن فيما هو
 فيه ، وليدعه في طغيانه ، حتى يلقي ربه وينقضي أجله قال القرطبي : وهذا غاية في التهديد والوعيد ^(٣)
 ﴿حتى إذا رأوا ما يوعدون﴾ أي حتى يروا ما يحل بهم من وعد الله ﴿إمّا العذاب وإمّا الساعة﴾ أي
 إمّا عذاب الدنيا بالقتل والأسر ، أو عذاب الآخرة بما ينالهم يوم القيامة من الشدائد والأحوال
 ﴿فسيعلمون من هو شر مكاناً وأضعف جنداً﴾ أي فسيعلمون عندئذ حين تنكشف الحقائق أي الفريقين
 شر منزلة عند الله ، وأقل فئة وأنصاراً ، هل هم الكفار أم المؤمنون ؟ وهذا في مقابلة قولهم ﴿خير مقاماً
 وأحسن ندياً﴾ ﴿ويزيد الله الذين اهتدوا هدى﴾ أي ويزيد الله المؤمنين المهتدين ، بصيرةً وإيماناً
 وهدايةً ﴿والباقيات الصالحات خيرٌ عند ربك ثواباً﴾ أي والأعمال الصالحة التي تبقى لصاحبها ذخراً في
 الآخرة خير عند الله من كل ما يتباهى به أهل الأرض من حيث الأجر والثواب ﴿وخير مرداً﴾ أي وخير
 رجوعاً وعاقبة ، فإن نعيم الدنيا زائل ونعيم الآخرة باقٍ دائم ﴿أفرايت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين

أَطْلَعَ الْغَيْبِ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴿٨٢﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا ﴿٨٣﴾ فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا ﴿٨٤﴾ يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا ﴿٨٥﴾ وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا ﴿٨٦﴾ لَا يَمْلِكُونَ الشَّفْعَةَ إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا ﴿٨٧﴾

مالاً وولداً ﴿٨٧﴾ نزلت في العاص بن وائل^(١) ، والاستفهام للتعجب أي تعجب يا محمد من قصة هذا الكافر الذي جحد بآيات الله وزعم أن الله سيعطيه في الآخرة المال والبنين ﴿أَطْلَعَ الْغَيْبِ﴾ أي هل اطلع على الغيب الذي تفرّد به علام الغيوب ؟ ﴿أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ أي أم أعطاه الله عهداً بذلك فهو يتكلم عن ثقةٍ ويقين ؟ ﴿كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾ ردُّ عليه ، ولفظة « كَلَّا » للردع والزجر أي ليرتدع ذلك الفاجر عن تلك المقالة الشنيعة فسَنَكْتُبُ ما يقول عليه ﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا﴾ أي سنزيد له في العذاب ونطيله عليه جزاء طغيانه واستهزائه ، ونضاعف له مدد العذاب مكان الإمداد بالمال والولد ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ أي ونرثه ما يخلفه من المال والولد بعد إهلاكه ، ويأتينا وحيداً لا مال معه ولا ولد ، ولا نصير له ولا سند ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا﴾ أي واتخذ المشركون أصناماً عبدوها من دون الله لينالوا بها العز والشرف ﴿كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ أي ليس الأمر كما ظنوا وتوهموا فإن الآلهة التي عبدوها ستبرأ من عبادتهم ويكونون لهم أعداء يوم القيامة ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ أي ألم تر يا محمد أننا سلطنا الشياطين على الكافرين تغريهم إغراءً بالشر ، وتهيجهم تهيجاً حتى يركبوا المعاصي قال الرازي : أي تغريهم على المعاصي وتحثهم وتهيجهم لها بالوساوس والتسويات^(٢) ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾ أي لا تتعجل يا محمد في طلب هلاكهم فإنه لم يبق لهم إلا أيام وأنفاس نعدّها عليهم عدّاً ثم يصيرون إلى عذاب شديد قال ابن عباس : نعدّ أنفاسهم في الدنيا كما نعدّ عليهم سنينهم^(٣) ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا﴾ أي يوم نحشر المتقين إلى ربهم معززين مكرمين ، راكبين على النوق كما يفد الوفود على الملوك منتظرين لكرامتهم وإنعامهم ﴿وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرْدًا﴾ أي ونسوق المجرمين كما تُساق البهائم مشاةً عطاشاً كأنهم إبلٌ عطاش تُساق إلى الماء وفي الحديث (يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَ طَرَائِقَ : رَاغِبِينَ ، وَرَاهِبِينَ ، وَاثْنَانِ عَلَى بَعِيرٍ ، وَثَلَاثَةَ عَلَى بَعِيرٍ ، وَأَرْبَعَةَ عَلَى بَعِيرٍ ، وَعَشْرَةَ عَلَى بَعِيرٍ ، وَنُحْرٌ بِقِيَّتِهِمْ إِلَى النَّارِ ، ثَقِيلٌ مَعَهُمْ حَيْثُ قَالُوا ، وَتَبِيتَ مَعَهُمْ حَيْثُ بَاتُوا)^(٤) ﴿لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ﴾ أي لا يشفعون ولا يُشْفَعُ لهم ﴿إِلَّا مَنْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ الاستثناء منقطع أي لكن من تحلّى بالإيمان

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَرْدًا ﴿٩٥﴾ إِنْ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ﴿٩٦﴾ فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا ﴿٩٧﴾ وَكَرَّهْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هَلْ يُحْسِبُ مِنْهُمْ مَنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا ﴿٩٨﴾

والعمل الصالح فإنه يملك الشفاعة قال ابن عباس : العهد « شهادة أن لا إله إلا الله » وقالوا اتخذ الرحمن ولداً أي اليهود والنصارى ومن زعم أن الملائكة بنات الله ﴿لقد جئتم شيئاً ادّاً﴾ أي لقد أتيتهم أيها المشركون بقول منكر عظيم تناهى في القبح والشناعة ﴿تكاد السموات يتفطرن منه﴾ أي تكاد السموات تتشقق من هول هذا القول ﴿وتنشق الأرض وتخرب الجبال هدّاً﴾ أي وتنشق كذلك الأرض وتندك الجبال وتهد هذا استعظاماً للكلمة الشنيعة ﴿أن دعوا للرحمن ولداً﴾ أي ما يليق به سبحانه اتخاذ الولد ، لأن الولد يقتضي المجانسة ويكون عن حاجة ، وهو المنزّه عن الشبيه والنظير ، والغني عن المعين والنصير ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبداً﴾ أي ما من مخلوق في العالم العلوي والسفلي إلا وهو عبد لله ، دليل خاضع بين يديه ، منقاد مطيع له كما يفعل العبيد ﴿لقد أحصاهم وعدّهم عدّاً﴾ أي علم عددهم وأحاط علمه بهم فلا يخفى عليه شيء من أمورهم ﴿وكلّهم آتية يوم القيامة فرداً﴾ أي وكل فرد يأتي يوم القيامة وحيداً فريداً ، بلا مال ولا نصير ، ولا معين ولا خفير ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ لما ذكر أحوال المجرمين ذكر أحوال المؤمنين والمعنى سيحدث لهم في قلوب عباده الصالحين محبة ومودة قال الربيع : يحبّهم ويحبّهم إلى الناس ﴿فإنما يسرناه بلسانك لتبشّر به المتقين وتُنذر به قوماً لداً﴾ أي فإنما يسرنا يا محمد هذا القرآن بلسانك العربي تقرأه ، وجعلناه سهلاً يسيراً لمن تدبره ، لتبشّر به المؤمنين المتقين ، وتخوّف به قوماً معاندين شديدي الخصومة والجدال ﴿وكم أهلكنا قبلهم من قرن﴾ أي كم من الأمم الماضية أهلكناها بتكذيبهم الرسل ، و« كم » للتكثير ﴿هل تحس منهم من أحد﴾ أي هل ترى منهم أحداً ؟ ﴿أو تسمع لهم ركزا﴾ أي أو تسمع لهم صوتاً خفياً ؟ والمعنى أنهم بادوا وهلكوا وخلت منهم الديار ، وأوحشت منهم المنازل ، فكما أهلكنا أولئك نهلك هؤلاء .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - ذكر العام وإرادة الخاص ﴿ويقول الإنسان﴾ المراد به الكافر لأنه هو المنكر للبعث .

٢ - الطباق بين ﴿مت﴾ وحيّاً وبين ﴿تبشّر﴾ وتُنذر .

٣ - الاستفهام للإنكار والتوبيخ ﴿أولا يذكر الإنسان﴾ .

٤ - المقابلة اللطيفة بين المتقين والمجرمين وبين حال الأبرار والأشرار ﴿يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفداً﴾ و﴿ونسوق المجرمين إلى جهنم ورداً﴾ .

٥ - الجناس غير التام ﴿وفداً . . ورداً﴾ لتغير الحرف الثاني .

٦ - اللف والنشر المرتب في ﴿شرُّ مكاناً وأضعف جنداً﴾ حيث رجع الأول إلى ﴿خيرٌ مقاماً﴾ والثاني إلى ﴿وأحسن ندياً﴾ كما يوجد بين ﴿خيرٌ . . وشرُّ﴾ طباق .

٧ - المجاز العقلي ﴿سنكتب ما يقول﴾ أي نأمر الملائكة بالكتابة فهو من إسناد الشيء إلى سببه .

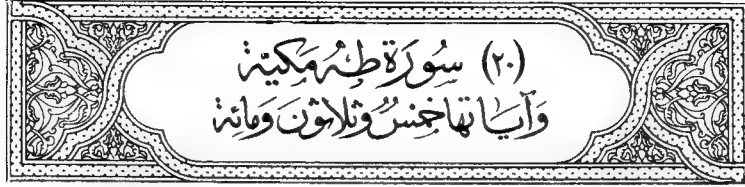
٨ - السجع الرصين مثل ﴿عبداً . عدداً ، فرداً ، ودأ﴾ وهو من المحسنات البديعية .

فكائِدَة : أخرج مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال : إني أحب فلاناً فأحبه فيحبه جبريل ، ثم ينادي في السماء : إن الله يحب فلاناً فأحبه فيحبه أهل السماء . .) الحديث وهو مصداق قوله تعالى ﴿سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ .

لطيفة : روي أن المأمون قرأ هذه الآية ﴿فلا تعجل عليهم إنما نعدُّ لهم عدداً﴾ وعنده جماعة من الفقهاء فيهم ابن السماك فأشار إليه المأمون أن يعظه فقال : إذا كانت الأنفاس بالعدد ، ولم يكن لها مدد ، فما أسرع ما تنفذ قال الشاعر :

حياتك أنفاسٌ تُعدُّ فكلما مضى نفس منك انتقصت به جزءاً

« تم بعونه تعالى تفسير سورة مريم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة طه مكية ، وهي تبحث عن نفس الأهداف للسور المكية ، وغرضها تركيز أصول الدين « التوحيد ، والنبوة ، والبعث والنشور » .

* في هذه السورة الكريمة تظهر شخصية الرسول ﷺ ، في شدّ أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد ، والاستهزاء والتكذيب ، ولا يرشاده إلى وظيفته الاساسية ، وهي التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، وليس عليه أن يجبر الناس على الإيمان .

* عرضت السورة لقصص الأنبياء ، تسلياً لرسول الله ﷺ وتطميناً لقلبه الشريف ، فذكرت بالتفصيل قصة « موسى وهارون » مع فرعون الطاغية الجبار ويكاد يكون معظم السورة في الحديث عنها وبالأخص موقف المناجاة بين موسى وربه ، وموقف تكليفه بالرسالة ، وموقف الجدال بين موسى وفرعون ، وموقف المبارزة بينه وبين السحرة ، وتتجلى في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى ، نبيه وكليمه ، وإهلاك الله لأعدائه الكفرة المجرمين .

* وعرضت السورة لقصة آدم بشكل سريع خاطف ، برزت فيه رحمة الله لأدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم ترك الخيار لهم لاختيار طريق الخير أو الشر .

* وفي ثنايا السورة الكريمة تبرز بعض مشاهد القيامة ، في عبارات يرتجف لها الكون ، وتهتز لها القلوب هلعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الدهول والسكون ﴿ وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً ﴾ .

* وعرضت السورة ليوم الحشر الأكبر ، حيث يتم الحساب العادل ، ويعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله الذي لا يتخلف ، بإثابة المؤمنين وعقاب المجرمين .

* وختمت ببعض التوجيهات الربانية للرسول ﷺ في الصبر وتحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي نصر الله .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة طه » وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه الصلاة والسلام ، تطيباً لقلبه ،

وتسلياً لفؤاده عما يلقاه من صدود وعناد ، ولهذا ابتدأت السورة بملاطفته بالنداء ﴿طه﴾ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى .

اللفظ : ﴿بقبس﴾ القبس : شعلة من نار ﴿المقدس﴾ المطهر والمبارك ﴿طوى﴾ اسم للوادي ﴿فتردى﴾ تهلك والردى : الهلاك ﴿أهش﴾ أخطب بها الشجر ليسقط الورق ﴿مأرب﴾ جمع مأربة وهي الحاجة ﴿جناحك﴾ الجناح : الجنب وجناحا الإنسان جنباه لأن يدي الإنسان يشبهان جناحي الطائر ﴿أزري﴾ الأزرق : القوة يقال : آزره أي قواه ومنه ﴿فآزره فاستغلف﴾ قال الشاعر :

أليس أبونا هاشمٌ شدَّ آزره وأوصى بنيهِ بالطَّعان وبالضرب^(١)
﴿اليم﴾ البحر ﴿تقرَّ عينها﴾ تُسرُّ بلفائك .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طه ﴿١﴾ مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى ﴿٢﴾ إِلَّا تَذَكُّرٌ لِّمَن يَخْشَى ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّنْ خَلْقِ الْأَرْضِ
وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَى ﴿٤﴾ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى ﴿٥﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ
الْأَرْنَى ﴿٦﴾ وَإِنْ تَجَهَّرَ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴿٨﴾ وَهَلْ أَتَاكَ

التفسير : ﴿طه﴾ * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴿الحروف المقطعة للتنبيه إلى إعجاز القرآن﴾ وقال ابن عباس : معناها يا رجل ، ومعنى الآية : ما أنزلنا عليك يا محمد القرآن لتشقى به إنما أنزلناه رحمة وسعادة ، روي أن رسول الله ﷺ لما نزل عليه القرآن صلى هو وأصحابه فأطال القيام فقالت قریش : ما أنزل الله هذا القرآن على محمد إلا ليشقى فتزلت هذه الآية^(٢) ﴿إلا تذكرة لمن يخشى﴾ أي ما أنزلناه إلا عظة وتذكيراً لمن يخشى الله ويخاف عقابه ، وهو المؤمن المستنير بنور القرآن ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾ أي أنزله خالق الأرض ، ومبدع الكون ، ورافع السموات الواسعة العالية ، والآية إخبار عن عظمته وجبروته وجلاله قال في البحر : ووصف السموات بالعلی دليل على عظمة قدرة من اخترعها إذ لا يمكن وجود مثلها في علوها من غيره تعالى^(٤) ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ أي ذلك الرب الموصوف بصفات الكمال والجمال هو الرحمن الذي استوى على عرشه استواء يليق بجلاله من غير تجسيم ، ولا تشبيه ، ولا تعطيل ، ولا تمثيل كما هو مذهب السلف^(٥) ﴿له ما في السموات وما في الأرض وما بينهما وما تحت الثرى﴾ أي له سبحانه ما في الوجود كله : السموات السبع ، والأرضون وما بينهما من المخلوقات وما تحت التراب من معادن ومكنونات ، الكل ملكه وتحت تصرفه وقهره وسلطانه أي وإن تجهر يا محمد بالقول أو ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾

(١) البيت لأبي طالب وانظر القرطبي ١١/١٩٣ . (٢) انظر أول سورة البقرة . (٣) هذا قول الضحاك وانظر زاد المسير ٥/٢٦٨ .

(٤) البحر ٦/٢٢٦ . (٥) انظر أفعال السلف الصالح في سورة الأعراف والرد .

حَدِيثُ مُوسَى (١) إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَعَلِّي آتِيكُمْ مِنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجْدٍ عَلَى النَّارِ هُدًى (٢) فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَمْوَسَى (٣) إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى (٤) وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى (٥) إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (٦)

تخفه في نفسك فسواء عند ربك ، فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى منه كالوسوسة والهاجس والخطر . . والغرض من الآية طمأنينة قلبه عليه السلام بأن ربه معه يسمعه ، ولن يتركه وحيداً يواجه الكافرين بلا سند فإذا كان يدعو جهراً فإنه يعلم السرّ وما هو أخفى ، والقلب حين يستشعر قرب الله منه ، وعلمه بسرّه ونجواه يطمئن ويرضى ويأنس بهذا القرب الكريم ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ أي ربكم هو الله المتفرد بالوحدانية ، لا معبود بحق سواه ، ذو الأسماء الحسنة التي هي في غاية الحسن وفي الحديث (إن لله تسعة وتسعين اسماً ، من أحصاها دخل الجنة)^(١) ﴿وهل أتاك حديث موسى﴾ الاستفهام للتقرير وغرضه التشويق لما يُلقي إليه أي هل بلغك يا محمد خبر موسى وقصته العجيبة الغريبة ؟ ﴿إِذْ رَأَى نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي حين رأى نارا فقال لامراته أقيمي مكانك فإني أبصرت نارا قال ابن عباس : هذا حين قضى الأجل وسار بأهله من مدين يريد مصر ، وكان قد أخطأ الطريق وكانت ليلة مظلمة شاتية فجعل يقدح بالزناد فلا يخرج منها شرّ فبينما هو كذلك إذ بصر بنار من بعيد على يسار الطريق ، فلما رآها ظنها نارا وكانت من نور الله ﴿لعلّي آتيكم منها بقبس﴾ أي لعلّي آتيكم بشعلة من النار تستدفنون بها ﴿أو أجد على النار هدى﴾ أي أجد هادياً يدلني على الطريق ﴿فلما أتاهما نُودِيَ يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ أي فلما أتى النار وجدها نارا بيضاء تتقد في شجرة خضراء وناداه ربّه يا موسى^(٢) : إني أنا ربك الذي أكلمك فاخلع النعلين من قدميك رعايةً للأدب وأقبل ﴿إنك بالواد المقدس طوى﴾ أي فإنك بالوادي المطهر المبارك المسمى طوى ﴿وأنا اخترتك فاستمع لما يُوحى﴾ أي اصطفتيك للنبوّة فاستمع لما أوحى إليك قال الرازي : فيه نهاية الهيبة والجلالة فكأنه قال : لقد جاءك أمر عظيم هائل فتأهب له واجعل كل عقلك وخاطرك مصروفاً إليه^(٣) ﴿إِننِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾ أي أنا الله المستحق للعبادة لا إله غيري فأفردني بالعبادة والتوحيد ﴿وأقم الصلاة لذكري﴾ أي أقم الصلاة لتذكركني فيها قال مجاهد : إذا صلى ذكر ربه لاشتغالها على الأذكار^(٤) وقال الصاوي : خص الصلاة بالذكر وإن كانت داخلّة في جملة العبادات لعظم شأنها ، واحتوائها على الذكر ، وشغل القلب واللسان والجوارح ، فهي أفضل أركان الدين بعد التوحيد^(٥) ﴿إِن السّاعة آتيةٌ أكاد أخفيها﴾ أي إن السّاعة قادمة وحاصلة لا محالة أكاد أخفيها عن نفسي فكيف

(١) أخرجه الترمذي . (٢) قال سيد قطب تغمد الله بالرحمة ، وجعل قاتليه باللعنة : إن القلب ليحجف ، وإن الكيان ليرتجف ، وهو يتصور ذلك المشهد . . موسى فريد في تلك الفلاة ، والليل دامس ، والظلام شامل ، والصمت نخم ، وهو ذاهب يلتبس النار التي آتسها من جانب الطور ، ثم إذا الوجود كله من حوله يتجاوب بذلك النداء العلوي ﴿إني أنا ربك فاخلع نعليك﴾ إنك بالواد المقدس طوى ﴿الظلال

٦٨/٥ . (٣) الرازي ١٩/٢٢ . (٤) الرازي ١٩/٢٢ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٥٠/٣ .

إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أَخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ
 هَوَاهُ فَتَرْدَى ﴿١٦﴾ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَمُوسَى ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا
 مَآرِبٌ أُخْرَى ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَمُوسَى ﴿١٩﴾ فَالْقَهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى ﴿٢٠﴾ قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا
 أَطْلَعَكُمْ عَلَيْهَا ^(١) ؟ قال المبرد : وهذا على عادة العرب فإنهم يقولون إذا بالغوا في كتمان الشيء : كتمته حتى
 من نفسي أي لم أطلع عليه أحداً ﴿لَتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾ أي لتنال كل نفس جزاء ما
 عملت من خير أو شر قال المفسرون : والحكمة من إخفائها وإخفاء وقت الموت أن الله تعالى حكم بعدم
 قبول التوبة عند قيام الساعة وعند الاحتضار ، فلو عرف الناس وقت الساعة أو وقت الموت ، لاشتغلوا
 بالمعاصي ثم تابوا قبل ذلك ، فيتخلصون من العقاب ، ولكن الله عمى الأمر ، ليظل الناس على حذر
 دائم ، وعلى استعداد دائم ، من أن تبغتهم الساعة أو يفاجئهم الموت ﴿فَلَا يَصُدُّكَ عَنْهَا مَنْ لَا
 يُؤْمِنُ بِهَا﴾ أي لا يصرفنك يا موسى عن التأهب للساعة والتصديق بها من لا يوقن بها ﴿وَاتَّبَعَ
 هَوَاهُ﴾ أي مال مع الهوى وأقبل على اللذائذ والشهوات ولم يحسب حساباً لآخرته ﴿فَتَرْدَى﴾ أي
 فهلك فإن الغفلة عن الآخرة مستلزمة للهلاك ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى﴾ أي وما هذه التي
 بيمينك يا موسى ؟ أليست عصا ؟ والغرض من الاستفهام التقرير والإيقاظ والتنبيه إلى ما سيبدو من
 عجائب صنع الله في الخشبة اليابسة بانقلابها إلى حية ، لتظهر لموسى القدرة الباهرة ، والمعجزة القاهرة قال
 ابن كثير : إنما قال له ذلك على وجه التقرير ، أي أما هذه التي في يمينك عصاك التي تعرفها ؟ فسترى ما
 نصنع بها الآن ^(٢) ؟ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا﴾ أي أعتمد عليها في حال المشي ﴿وَأَهُشُّ بِهَا
 عَلَى غَنَمِي﴾ أي أهز بها الشجرة وأضرب بها على الأغصان ليتساقط ورقها فترعاه غنمي ﴿وَلِيَ فِيهَا
 مَآرِبٌ أُخْرَى﴾ أي ولي فيها مصالح ومنافع وحاجات أخر غير ذلك قال المفسرون : كان يكفي أن يقول
 هي عصاي ولكنه زاد في الجواب لأن المقام مقام مباسطة وقد كان ربه يكلمه بلا واسطة ، فأراد أن يزيد في
 الجواب ليزداد تلذذاً بالخطاب ، وكلام الحبيب مريح للنفس ومذهب للعناء ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى﴾ أي
 اطرح هذه العصا التي بيدك يا موسى لترى من شأنها ما ترى ! ﴿فَالْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾ أي فلما
 ألقاها صارت في الحال حية عظيمة تنتقل وتحرك في غاية السرعة قال ابن عباس : انقلبت ثعباناً ذكراً يبتلع
 الصخر والشجر ، فلما رآه يبتلع كل شيء خافه ونفر منه وولّى هارباً ^(٣) قال المفسرون : لما رأى هذا الأمر
 العجيب الهائل ، لحقه ما يلحق البشر عند رؤية الأهوال والمخاوف ، لا سيما هذا الأمر الذي يذهب
 بالعقول ، وإنما أظهر له هذه الآية وقت المناجاة تأنيساً له بهذه المعجزة الهائلة حتى لا يفزع إذا ألقاها عند
 فرعون لأنه يكون قد تدرّب وتعود ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ أي قال له ربه : خذها يا موسى ولا تخف
 منها ﴿سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى﴾ أي سنعيدها إلى حالتها الأولى كما كانت عصا لا حية ، فأمسكها

(١) هذا خلاصة قول مجاهد وابن عباس واختاره الطبري وهو الأرجح في تفسير الآية وهناك أقوال أخرى لا تخلو من ضعف وانظر البحر المحيط ٢٣٢/٦ . (٢) المختصر ٤٧٢/٢ . (٣) القرطبي ١٩٠/١١ .

سِيرَتَهَا الْأُولَى ﴿٢١﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ؕ آيَةً أُخْرَى ﴿٢٢﴾ لِنُرِيكَ مِنْ
 آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٢٣﴾ أَذْهَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٢٤﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾
 وَأَحْلِلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ
 بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴿٣٢﴾ كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٣٣﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٣٥﴾
 قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٣٧﴾ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٣٨﴾
 فَعَادَتْ عَصَا ﴿٣٩﴾ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَى جَنَاحِكَ تَخْرُجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴿٤٠﴾ أَيُّ أَدْخَلَ يَدَكَ تَحْتَ إِبْطِكَ ثُمَّ
 أَخْرَجَهَا تَخْرُجُ نِيرَةً مُضِيئَةً كَضَوْءِ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مِنْ غَيْرِ عَيْبٍ وَلَا بَرَصٍ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : كَانَ إِذَا أَدْخَلَ يَدَهُ
 فِي جَيْبِهِ ثُمَّ أَخْرَجَهَا تَخْرُجُ تَلَالُأً كَأَنَّهَا فَلَقَةُ قَمَرٍ مِنْ غَيْرِ بَرَصٍ وَلَا أَذَى ^(١) ﴿٤١﴾ آيَةً أُخْرَى ﴿٤٢﴾ أَيُّ مَعْجَزَةٍ ثَانِيَةٍ
 غَيْرِ الْعَصَا ﴿٤٣﴾ لِنُرِيكَ مِنْ آيَاتِنَا الْكُبْرَى ﴿٤٤﴾ أَيُّ لِنُرِيكَ بِذَلِكَ بَعْضَ آيَاتِنَا الْعَظِيمَةِ . . أَرَاهُ اللَّهُ مَعْجَزَتَيْنِ
 « الْعَصَا ، وَالْيَدِ » وَهِيَ بَعْضُ مَا أَيَّدَهُ اللَّهُ بِهِ مِنَ الْمَعْجَزَاتِ الْبَاهِرَةِ ، ثُمَّ أَمْرُهُ أَنْ يَتَوَجَّهَ إِلَى فِرْعَوْنَ رَأْسَ
 الْكُفْرِ وَالطُّغْيَانِ ﴿٤٥﴾ إِذْ هَبَ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٦﴾ أَيُّ إِذْ هَبَ بِمَا مَعَكَ مِنَ الْآيَاتِ إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ تَكَبَّرَ
 وَتَجَبَّرَ وَجَاوَزَ الْحَدَّ فِي الطُّغْيَانِ حَتَّى ادَّعَى الْأُلُوهِيَّةَ ﴿٤٧﴾ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٤٨﴾ أَيُّ وَسَّعَهُ وَنَوَّرَهُ
 بِالْإِيمَانِ وَالنُّبُوَّةِ ﴿٤٩﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٥٠﴾ أَيُّ سَهَّلَ عَلَيَّ الْقِيَامَ بِمَا كَلَفْتَنِي مِنْ أَعْبَاءِ الرِّسَالَةِ وَالِدَعْوَةِ
 ﴿٥١﴾ وَأَحْلَلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٥٢﴾ أَيُّ حَلَّ هَذِهِ اللَّكْنَةَ الْحَاصِلَةَ فِي لِسَانِي حَتَّى يَفْهَمُوا كَلَامِي
 قَالَ الْمَفْسُورُونَ : عَاشَ مُوسَى فِي بَيْتِ فِرْعَوْنَ فَوَضَعَهُ فِرْعَوْنَ مَرَّةً فِي حِجْرِهِ وَهُوَ صَغِيرٌ فَجَرَّ لَحْيَهُ فِرْعَوْنَ بِيَدِهِ
 فَهَمَّ بِقَتْلِهِ ، فَقَالَتْ لَهُ أَسِيَّةُ : إِنَّهُ لَا يَعْقِلُ وَسَأُرِيكَ بَيَانَ ذَلِكَ ، قَدَّمَ إِلَيْهِ جَمْرَتَيْنِ وَلَوْلُؤَتَيْنِ ، فَإِنْ أَخَذَ
 اللَّوْلُؤَةَ عَرَفْتَ أَنَّهُ يَعْقِلُ ، وَإِنْ أَخَذَ الْجَمْرَةَ عَرَفْتَ أَنَّهُ طِفْلٌ لَا يَعْقِلُ ، فَقَدَّمَ إِلَيْهِ فَأَخَذَ الْجَمْرَةَ فَجَعَلَهَا فِي
 فِيهِ فَكَانَ فِي لِسَانِهِ حَبْسَةً ^(٢) ﴿٥٣﴾ وَاجْعَلْ لِي وَزِيرًا مِنْ أَهْلِي هَارُونَ أَخِي ﴿٥٤﴾ أَيُّ اجْعَلْ لِي مَعِينًا يُسَاعِدُنِي
 وَيَكُونُ مِنْ أَهْلِي وَهُوَ أَخِي هَارُونَ ﴿٥٥﴾ أَشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٥٦﴾ أَيُّ لَتَقْوِي بِهِ يَا رَبِّ ظَهْرِي ﴿٥٧﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي
 أَمْرِي ﴿٥٨﴾ أَيُّ اجْعَلْهُ شَرِيكًا لِي فِي النُّبُوَّةِ وَتَبْلِيغِ الرِّسَالَةِ ﴿٥٩﴾ كَى نُسَبِّحَكَ كَثِيرًا ﴿٦٠﴾ وَنَذْكُرَكَ كَثِيرًا ﴿٦١﴾ أَيُّ
 كَى نَتَعَاوَنَ عَلَى تَنْزِيلِكَ عَمَّا لَا يَلِيْقُ بِكَ وَنَذْكُرَكَ بِالْدُّعَاءِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْكَ ﴿٦٢﴾ إِنَّكَ كُنْتَ بِنَا بَصِيرًا ﴿٦٣﴾ أَيُّ
 عَالِمًا بِأَحْوَالِنَا لَا يَخْفَى عَلَيْكَ شَيْءٌ مِنْ أَفْعَالِنَا ، طَلَبَ مُوسَى مِنْ رَبِّهِ أَنْ يَعِينَهُ بِأَخِيهِ يَشْدُ بِهِ أَزْرَهُ ، لِمَا يَعْلَمُ
 مِنْهُ مِنْ فَصَاحَةِ اللِّسَانِ ، وَثَبَاتِ الْجَنَانِ ، وَأَنْ يَشْرَكَهُ مَعَهُ فِي الْمَهْمَةِ لِمَا يَعْلَمُ مِنْ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ وَتَكْبَرِهِ
 وَجَبَرُوتِهِ ﴿٦٤﴾ قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَى ﴿٦٥﴾ أَيُّ أُعْطِيتَ مَا سَأَلْتَ وَمَا طَلَبْتَ ، ثُمَّ ذَكَرَهُ تَعَالَى بِالْمُنَنِ
 الْعَظَامِ عَلَيْهِ ﴿٦٦﴾ وَلَقَدْ مَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَى ﴿٦٧﴾ أَيُّ أَنْعَمْنَا عَلَيْكَ يَا مُوسَى بِمَنْتَهُ أُخْرَى غَيْرَ هَذِهِ الْمُنَّةِ ﴿٦٨﴾ إِذْ
 أَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّكَ مَا يُوحَى ﴿٦٩﴾ أَيُّ أَهْمَنَاهَا مَا يُلْهِمُهَا كَمَا كَانَ سَبَبًا فِي نَجَاتِكَ ﴿٧٠﴾ أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ

(١) المختصر ٤٧٣/٢ . (٢) انظر الطبري ١٥٩/١٦ وقيل كان ذلك خلقه فسأل الله تعالى لإزالته .

أَنْ أَقْذِفِيهِ فِي الْتَّابُوتِ فَأَقْذِفِهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ ۚ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي ﴿٢٩﴾ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ۖ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَا مُوسَىٰ ﴿٣٠﴾

فاقذفيه في اليم ﴿٢٩﴾ أي ألهمناها أن ألق هذا الطفل في الصندوق ثم اطرحيه في نهر النيل ، ثم ماذا ؟ ومن يتسلمه ؟ ﴿٢٩﴾ فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لي وعدو له ﴿٢٩﴾ أي يلقيه النهر على شاطئه ويأخذه فرعون عدوي وعدوه قال في البحر : ﴿٢٩﴾ فليلقه ﴿٢٩﴾ أمر معناه الخبر جاء بصيغة الأمر مبالغة إذ الأمر أقطع الأفعال وأوجبها ^(١) ﴿٢٩﴾ وألقيت عليك محبة مني ﴿٢٩﴾ أي زرعت في القلوب محبتك بحيث لا يكاد يصبر عنك من رآك حتى أحببك فرعون قال ابن عباس : أحبه الله وحببه إلى خلقه ﴿٢٩﴾ ولتصنع على عيني ﴿٢٩﴾ أي ولتربى بعين الله بحفظي ورعايتي ﴿٢٩﴾ إذ تمشي أختك فتقول هل أدلكم على من يكفله ﴿٢٩﴾ أي حين تمشي أختك وتتبع أثرك فتقول لآل فرعون حين طلبوا لك المراضع : هل أدلكم على من يضمن لكم حضائنه ورضاعته ؟ قال المفسرون : لما التقطه آل فرعون جعل لا يقبل ثدي امرأة لأن الله حرم عليه المراضع وبقيت أمه بعد قذفه في اليم مغمومة فأمرت أخته أن تتبع خبره ، فلما وصلت إلى بيت فرعون ورأته قالت : هل أدلكم على امرأة أمينة فاضلة تتعهد لكم رضاع هذا الطفل ؟ فطلبوا منها إحضارها فأنت بأم موسى فلما أخرجت ثديها التقمه ففرحت زوجة فرعون فرحاً شديداً وقالت لها : كوني معي في القصر فقالت : لا أستطيع أن أترك بيتي وأولادي ولكن آخذه معي وأتي لك به كل حين فقالت نعم وأحسنست إليها غاية الإحسان فذلك قوله تعالى ﴿٢٩﴾ فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها ولا تحزن ﴿٢٩﴾ أي رددناك إلى أمك لكي تسر بلقائك ، وتطمئن بسلامتك ونجاتك ، ولكيلا تحزن على فراقك ﴿٢٩﴾ وقتلت نفساً فنجيناك من الغم ﴿٢٩﴾ أي قتلت القبطي حين أصبحت شاباً فنجيناك من غم القتل وصرفنا عنك شر فرعون وزبانيته ، وفي صحيح مسلم : وكان قتله خطأ ﴿٢٩﴾ وفتنناك فتوناً ﴿٢٩﴾ أي ابتليناك ابتلاءً عظيماً بأنواع من المحن ﴿٢٩﴾ فلبثت سنين في أهل مدين ﴿٢٩﴾ أي مكثت سنين عديدة عند شعيب في أرض مدين ﴿٢٩﴾ ثم جئت على قدر يا موسى ﴿٢٩﴾ أي جئت على موعدٍ ووقتٍ مقدر للرسالة والنبوة .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التشويق والحث على الإصغاء ﴿٢٩﴾ وهل أتاك حديث موسى ؟

٢ - الإطناب ﴿٢٩﴾ قال هي عصاي أتوكأ عليها وأهش بها على غنمي ﴿٢٩﴾ وكان يكفي أن يقول : هي عصاي ولكنه توسع في الجواب تلذذاً بالخطاب .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾ أصل الجناح للطائر ثم استعير لجنب الإنسان لأن كل جنب في موضع الجناح للطائر فسميت الجهتان جناحين بطريق الاستعارة .

٤ - الاحتراس وهو عند علماء البيان أن يؤتى بشيء يرفع توهم غير المراد مثل قوله ﴿بيضاء من غير سوء﴾ فلو اقتصر على قوله ﴿بيضاء﴾ لأوهم أن ذلك من برص أو بهق ولذلك احترس بقوله ﴿من غير سوء﴾ .

٥ - الاستعارة التمثيلية ﴿ولتصنع على عيني﴾ تمثيل لشدة الرعاية وفراط الحفظ والكلاءة بمن يصنع بمراى من الناظر لأن الحافظ للشيء في الغالب يديم النظر إليه فمثل لذلك بمن يصنع على عين الآخر .

٦ - السجع الحسن الذي يزيد الكلام جمالاً وبهاءً في أواخر الآيات ﴿فتشقى ، يخشى ، أخفى ، تسعى﴾ الخ .

فَكَايِدَة : قال العلماء : ما نفع أخ أخاه كما نفع موسى هرون فقد طلب له من ربه أن يجعله وزيراً له ويكرمه بالرسالة فاستجاب الله دعاءه وجعله نبياً مرسلأ .

تنبية : ذكر تعالى بعض المنن على موسى وعدد منها ستاً :

المنة الأولى : إلهام أمه صنع الصندوق وإلقاءه في النيل ليربى في بيت فرعون ﴿إذ أوحينا إلى أمك ما يوحى أن اقدفيه في التابوت﴾ .

الثانية : إلقاء المحبة عليه من الله تعالى بحيث لا يراه أحد إلا أحبه ﴿وألقيت عليك محبة مني﴾ .

الثالثة : حفظ الله ورعايته له بالكلاءة والعناية ﴿ولتصنع على عيني﴾ .

الرابعة : رده إلى أمه مع الإناعام والإكرام ﴿فرجعناك إلى أمك كي تقر عينها﴾ .

الخامسة : إنجاء موسى من القتل بعد قتله القبطي ﴿ونجيناك من الغم﴾ .

السادسة : تكليم الله له بعد عودته من أرض مدين وتكليفه بالرسالة ﴿ثم جئت على قدر يا موسى﴾

قال الله تعالى : ﴿واصطنعتك لنفسي .. إلى .. وذلك جزاء من تزكى﴾

من آية (٤١) إلى نهاية آية (٧٦) .

المناسكة : لما ذكر تعالى نعمته على موسى باستجابة دعائه وإعطائه سؤلّه ، ذكر هنا ما خصّه به من الاصطفاء والاجتباء ، وأمره بالذهاب إلى فرعون مع أخيه هارون لتبليغه دعوة الله ، ثم ذكر ما دار من الحوار بين موسى وفرعون وما كان من أمر السحرة وسجودهم لله رب العالمين .

الْفَكْر : ﴿اصْطَنَعْتُكَ﴾ اصطفتيك واخترتك ، وأصل الاصطناع : اتخاذ الصنعة وهو الخير تُسديه إلى إنسان ﴿تَنِيَا﴾ الوني : الضعف والفتور قال العجاج :

فَمَا وَنَى مُحَمَّدٌ مُّذْ أَنْ غَفَرَ لَهُ الْإِلَهُ مَا مَضَى وَمَا غَبَرَ^(١)
﴿يَفْرُطُ﴾ يتعجل ويبادر إلى عقوبتنا ، ومنه الفارط الذي يتقدم القوم إلى الماء ﴿يُسْحَتُكُمْ﴾ يستأصلكم ويبيدكم وأصله استقصاء الحلق للشعر قال الفرزدق :

وَعَضُّ زَمَانٍ يَا ابْنَ مِرْوَانَ لَمْ يَدَعْ مِنْ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتٌ أَوْ مَجْلَفٌ^(٢)
ثم استعمل في الإهلاك والإذهاب ، والسحت : المال الحرام لأنه يهلك الإنسان ويدمره ﴿النَجْوَى﴾ التناجي وهو الإسرار بالكلام ﴿أَوْجَسَ﴾ أضمر واستشعر الخوف في نفسه .

وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي^(٣) أَذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي^(٤) أَذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى^(٥)
فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى^(٦) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى^(٧) قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى^(٨) فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ^(٩)

النَّفْسِير : ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ أي اخترتك لرسالتني ووحيني ﴿إِذْهَبَ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي﴾ أي اذهب مع هارون بحججي وبراهيني ومعجزاتي قال المفسرون : المراد بالآيات هنا اليد والعصا التي أيد الله بها موسى ﴿وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ أي لا تفترا وتقصرا في ذكر الله وتسبيحه قال ابن كثير : والمراد ألا يفتر عن ذكر الله بل يذكران الله في حال مواجهة فرعون ، ليكون ذكر الله عوناً لهما عليه ، وقوة لهما وسلطاناً كاسراً له^(١) ﴿إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ أي تجبر وتكبر وبلغ النهاية في العتو والطغيان ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لِّنَا﴾ أي قولاً لفرعون قولاً لطيفاً رفيقاً ﴿لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾ أي لعله يتذكر عظمة الله أو يخاف عقابه فيرتدع عن طغيانه ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ أي قال موسى وهارون : يا ربنا إننا نخاف إن دعوانه إلى الإيثار أن يعجل علينا العقوبة ، أو يجاوز الحد في الإساءة إلينا ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ أي لا تخافا من سطوته إنني معكما بالنصرة والعون أسمع جوابه لكما ، وأرى ما يفعل بكما ﴿فَأَتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ أي إنا رسولان من عند ربك أرسلنا إليك ، وتخصيص الذكر بلفظ ﴿رَبِّكَ﴾ لإعلامه أنه مربوب وعبد مملوك لله إذ كان يدعي الربوبية ﴿فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَا تَعْذِْبُهُمْ﴾ أي أطلق سراح بني إسرائيل ولا تعذبهم بتكليفهم بالأعمال الشاقة ﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي قد جئناك بمعجزة تدل على صدقنا ﴿وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ أَتْبَعِ الْهُدَى﴾ أي والسلامة من عذاب الله لمن اهتدى وآمن بالله قال المفسرون : لم يقصد به التحية لأنه ليس بابتداء الخطاب وإنما قصد به السلام من عذاب

قَدْ جِئْنَاكَ بِغَايَةِ مَن رَّبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ﴿٤٧﴾ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ
 وَتَوَلَّى ﴿٤٨﴾ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى ﴿٤٩﴾ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴿٥٠﴾ قَالَ فَمَا بَالُ
 الْقُرُونِ الْأُولَى ﴿٥١﴾ قَالَ عَلَيْهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ
 مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٣﴾ كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى ﴿٥٤﴾ * مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً

الله وسخطه ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَى مَن كَذَبَ وَتَوَلَّى﴾ أي قد أخبرنا الله فيما أوحاه
 إلينا أن العذاب الأليم على من كذب أنبياء الله وأعرض عن الإيمان ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَمُوسَى﴾
 أي قال فرعون : ومن هذا الرب الذي تدعوني إليه يا موسى ؟ فإني لا أعرفه ؟ ولم يقل : من ربي لغاية
 عتوه ونهاية طغيانه بل أضافه إلى موسى وهارون ﴿مَنْ رَبُّكُمَا﴾ ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ
 خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ أي ربنا هو الذي أبدع كل شيء خلقه ثم هداه لمنافعه ومصالحه ، وهذا جواب في غاية
 البلاغة والبيان لا اختصاره ودلالته على جميع الموجودات بأسرها ، فقد أعطى العين الهيئة التي تطابق
 الإبصار ، والأذن الشكل الذي يوافق الاستماع ، وكذلك اليد والرجل والأنف واللسان قال الزمخشري :
 ولله در هذا الجواب ما أخصره وأجمعه وأبينه لمن ألقى الذهن ونظر بعين الإنصاف ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ
 الْأُولَى﴾ أي ما حال من هلك من القرون الماضية ؟ لِمَ لَمْ يُعِشُوا وَلِمَ يُجَاسِبُوا إِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا ؟ قال
 ابن كثير : لما أخبر موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق ، وقدر فهدى ، شرع فرعون يحتج
 بالقرون الأولى كأنه يقول : ما بالهم إذ كان الأمر كذلك لم يعبدوا ربك بل عبدوا غيره ؟ ﴿قَالَ عَلِمَهَا
 عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾ أي قال موسى : علم أحوالها وأعمالها عند ربي مسطر في اللوح المحفوظ ﴿لَا يَضِلُّ
 رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ أي لا يخطئ ربي ولا يغيب عن علمه شيء منها . ثم شرع موسى يبين له الدلائل
 على وجود الله وأثار قدرته الباهرة فقال ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا﴾ أي جعل الأرض كالمهد
 تمتهدونها وتستقرون عليها رحمة بكم ﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ أي جعل لكم طرقاً تسلكونها فيها
 لقضاء مصالحكم ﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي أنزل لكم من السحاب المطر عذباً فرتاً ﴿فَأَخْرَجْنَا
 بِهِ أَزْوَاجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّى﴾ أي فأخرج بذلك الماء أنواعاً من النباتات المختلفة الطعم والشكل والرائحة
 كل صنف منها زوج ، وفيه التفات من الغيبة إلى المتكلم تنبيهاً على عظمة الله ﴿كُلُوا وَارْعَوْا
 أَنْعَامَكُمْ﴾ أي كلوا من هذه النباتات والثمار واطربوا أنعامكم تسرح وترعى من الكلأ الذي أخرج الله
 والأمر للإباحة تذكيراً لهم بالنعم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ أي إنّ فيما ذكر لعلامات واضحة
 لأصحاب العقول السليمة على وجود الله ووحدايته ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي من الأرض

أُخْرَى ۖ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى ۚ قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَمُوسَى ۚ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ ۚ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى ۚ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى ۚ فَتَوَلَّى فِرْعَوْنُ بِجَمْعٍ كِيدُهُ ۖ ثُمَّ آتَى ۖ قَالَ لَهُمْ مُوسَى وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُمْ بِعَذَابٍ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى ۚ فَتَنَزَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى ۚ قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرَانِ ۖ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَ بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى ۚ

خلقناكم أيها الناس وإليها تعودون بعد مماتكم فتصيرون تراباً ﴿ومنها نخرجكم تارةً أخرى﴾ أي ومن الأرض نخرجكم مرة أخرى للبعث والحساب . . ثم أخبر تعالى عن عتو فرعون وعناده فقال ﴿ولقد أريناه آياتنا كلها﴾ أي والله لقد بصرنا فرعون بالمعجزات الدالة على نبوة موسى من العصا ، واليد ، والظوفان ، والجراد ، وسائر الآيات التسع ﴿فكذب وأبى﴾ أي كذب بها مع وضوحها وزعم أنها سحر ، وأبى الإيمان والطاعة لعتوه واستكباره ﴿قال أجئتنا لتخرجنا من أرضنا بسحرك يا موسى﴾ أي قال فرعون : أجئتنا يا موسى بهذا السحر لتخرجنا من أرض مصر ؟ ﴿فلنأتينك بسحر مثله﴾ أي فلنعارضنك بسحر مثل الذي جئت به ليظهر للناس أنك ساحر ولست برسول ﴿فاجعل بيننا وبينك موعداً﴾ أي عيّن لنا وقت اجتماع ﴿لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى﴾ أي لا نخلف ذلك الوعد لا من جهتنا ولا من جهتك ويكون بمكان معين ووقت معين ^(١) ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يُخَشِّرَ النَّاسُ ضُحًى﴾ أي قال موسى : موعدنا للاجتماع يوم العيد - يوم من أيام أعيادهم - وأن يجتمع الناس في ضحى ذلك النهار قال المفسرون : وإنما عيّن ذلك اليوم للمبارزة ليظهر الحق ويزهق الباطل على رءوس الأَشْهَاد ، ويشيع ذلك في الأقطار بظهور معجزته للناس ﴿فتولّى فرعون فججمع كيده ثم أتى﴾ أي انصرف فرعون فججمع السحرة ثم أتى الموعد ومع السحرة وأدواتهم وما جمعه من كيد ليطفىء نور الله قال ابن عباس : كانوا اثنين وسبعين ساحراً مع كل ساحر منهم حبال وعصي ^(٢) ﴿قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذباً فيسحتكم بعذاب﴾ أي قال موسى للسحرة لما جاء بهم فرعون : ويلكم لا تختلقوا على الله الكذب فيهلككم ويستأصلكم بعذاب هائل ﴿وقد خاب من افتري﴾ أي خسر وهلك من كذب على الله . . قدّم لهم النصيح والإنذار لعلهم يثوبون إلى الهدى ، ولما سمع السحرة منه هذه المقالة هالهم ذلك ووقعت في نفوسهم مهابته ولذلك تنازعوا في أمره ﴿فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى﴾ أي اختلفوا في أمر موسى فقال بعضهم : ما هذا بقول ساحر وأخفوا ذلك عن الناس وأخذوا يتناجون سرّاً ﴿قالوا إن هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما﴾ أي قالوا بعد التناظر والتشاور ما هذان إلا ساحران يريدان الاستيلاء على أرض مصر وإخراجكم منها بهذا السحر

(١) هذا ما اختاره ابن كثير في تفسيره ﴿مكاناً سوى﴾ واختار الطبري أن المراد مكاناً تستوي مسافته على الفريقين . (٢) القرطبي ١١/ ٢١٤ .

فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَى ﴿٦٥﴾ قَالُوا يَمُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٦٦﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٦٧﴾
فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٦٨﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٦٩﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا
صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سِحْرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٧٠﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا
﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَى﴾ أي غرضهما إفساد دينكم الذي أنتم عليه والذي هو أفضل المذاهب
والأديان قال الزمخشري : والظاهر أنهم تشاوروا في السرِّ وتجاذبوا أهداب القول ثم قالوا ﴿إِنْ هَذَانِ
لِسَاحِرَانِ﴾ فكانت نجواهم في تلفيق هذا الكلام وتزويره خوفاً من غلبة موسى وهارون لهما وتثبيطاً
للناس من اتباعهما ^(١) ﴿فَاجْمَعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ أَتُوا صَفًّا﴾ أي أحكموا أمركم واعزموا عليه ولا تتنازعا
وارموا عن قوسٍ واحدة ، ثم اتوا إلى الميدان مصطفين ليكون أهيب في صدور الناظرين ﴿وقد أفلح
اليوم من استعلى﴾ أي فاز اليوم من علا وغلب قال المفسرون : أرادوا بالفلاح ما وعدهم به فرعون
من الإنعامات العظيمة والهدايا الجزيلة مع التقريب والتكريم كما قال تعالى ﴿قَالُوا أَتُنتَ لَنَا لِأَجْرٍ إِنْ كُنَّا
نَحْنُ الْغَالِبِينَ ؟ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمُقْرِبِينَ﴾ ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقَى وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ
أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى﴾ أي قال السحرة لموسى : إِمَّا أَنْ تَبْدَأَ أَنْتَ بِالْإِلْقَاءِ أَوْ نَبْدَأُ نَحْنُ ؟ خَيْرُوهُ ثَقَّةً مِنْهُمْ بِالْغَلْبَةِ
لموسى لأنهم كانوا يعتقدون أنَّ أحداً لا يقاومهم في هذا الميدان ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُوا﴾ أي قال لهم موسى :
بل ابدءوا أنتم بالإلقاء قال أبو السعود : قال ذلك مقابلةً للأدب بأحسن من أدبهم حيث بت القول
بالقائهم أولاً ، وإظهاراً لعدم المبالاة بسحرهم ليبرزوا ما معهم ، ويستفرغوا أقصى جهدهم وقصارى
وسعهم ، ثم يُظهر الله سلطانه فيقذف بالحق على الباطل فيدمغه ^(٢) ﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ
إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى﴾ في الكلام حذف دل عليه المعنى أي فألقوا فإذا تلك الحبال والعصي التي
ألقوها يتخيلها موسى ويظنها - من عظمة السحر - أنها حيات تتحرك وتسعى على بطونها ، والتعبير يوحي
بعظمة السحر حتى إن موسى فزع منها واضطرب ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى﴾ أي أحسَّ موسى
الخوف في نفسه بمقتضى الطبيعة البشرية لأنه رأى شيئاً هائلاً ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ أي
قلنا لموسى لا تخف بما توهمت ^(٣) فَإِنَّكَ أَنْتَ الْغَالِبُ الْمُنتَصِرُ ﴿وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلَقَّفَ مَا صَنَعُوا﴾ أي
ألقى عصاك التي يمينك تبتلع بفمها ما صنعوه من السحر ﴿إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاحِرٌ﴾ أي إن الذي
اخترعوه وافتعلوه هو من باب الشعوذة والسحر ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ أي لا يسعد الساحر
حيث كان ولا يفوز بمطلوبه لأنه كاذب مضلل ﴿فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ
وَمُوسَى﴾ أي فألقى موسى عصاه فابتلعت ما صنعوا فخر السحرة حينئذٍ سجداً لله رب العالمين لما رأوا
من الآية الباهرة قال ابن كثير : لما ألقى موسى العصا صارت ثعباناً عظيماً هائلاً ، ذا قوائم وعنق ورأس

(١) الكشف ٣ . (٢) أبو السعود ٣/٣١٣ . (٣) أوحى الله تعالى له في تلك الساعة الراهنة بهذا القول .

يَرْبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿٧٥﴾ قَالَ ءَامَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرٌ كُرَّ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَا تُقِطْعَنَّ
 أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٧٦﴾ قَالُوا لَنْ
 نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٧٧﴾
 إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿٧٨﴾ إِنَّهُ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُ
 وَأَضْرَاسٌ ، فجعلت تتبّع تلك الحبال والعصي حتى لم تبق شيئاً إلا ابتلعته ، والناس ينظرون إلى ذلك
 عياناً نهاراً ، فلما عاين السحرة ذلك وشاهدوه علموا علم اليقين أن هذا ليس من قبيل السحر والحيل وأنه
 حق لا مرية فيه ، فعند ذلك وقعوا سجداً لله ، فقامت المعجزة واتضح البرهان ، ووقع الحق وبطل
 السحر ، قال ابن عباس : كانوا أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء بررة (١) ﴿٧٥﴾ قال آمنتكم له
 قبل أن آذن لكم ﴿٧٦﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتكم بموسى وصدقتموه بما جاء به قبل أن أسمح لكم بذلك
 وقبل أن تستأذنوني ؟ ﴿٧٧﴾ إنه لكبيركم الذي علّمكم السحر ﴿٧٨﴾ أي إنه رئيسكم الذي علّمكم السحر
 فاتفقتم معه لتذهبوا بملكي قال القرطبي : وإنما أراد فرعون بقوله هذا أن يلبس على الناس حتى لا يتبعوهم
 فيؤمنوا كما يمانهم (٢) ، ثم توعدّهم وهدّهم بالقتل والتعذيب فقال ﴿٧٥﴾ فَلَا تُقِطْعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ
 خَلْفٍ أي فوالله لأقطعن الأيدي والأرجل منكم مختلفات بقطع اليد اليمنى ، والرجل اليسرى أو
 بالعكس ﴿٧٦﴾ وَلَا صَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ أي لأعلقنكم على جذوع النخل وأقتلنكم شرّ قتل ﴿٧٧﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ
 أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى أي ولتعلمن أيها السحرة من هو أشدّ منا عذاباً وأدوم ، هل أنا أم رب
 موسى الذي صدقتم به وآمنتكم ﴿٧٨﴾ قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ أي قال السحرة : لن
 نخترارك ونفضلّك على الهدى والإيمان الذي جاءنا من الله على يد موسى ولو كان في ذلك هلاكنا ﴿٧٩﴾ وَالَّذِي
 فَطَرَنَا ﴿٨٠﴾ قسم بالله أي مقسمين بالله الذي خلقنا ﴿٨١﴾ فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ أي فاصنع ما أنت صانع
 ﴿٨٢﴾ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا أي إنما ينفذ أمرك في هذه الحياة الدنيا وهي فانية زائلة ورغبتنا في
 النعيم الخالد قال عكرمة : لما سجدوا أراهم الله في سجودهم منازلهم في الجنة فلذلك قالوا ما قالوا (٣)
 ﴿٨٣﴾ إِنَّا ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَنَا أي آمنا بالله ليغفر لنا الذنوب التي اقترفناها وما صدر منا
 من الكفر والمعاصي ﴿٨٤﴾ وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ أي ويغفر لنا السحر الذي عملناه لإطفاء نور
 الله ﴿٨٥﴾ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى أي والله خير منك ثواباً وأبقى عذاباً ، وهذا جواب قوله ﴿٧٥﴾ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا
 أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَى ﴿٨٦﴾ إنه من يأت ربّه مجرمًا فإنّ له جهنم ﴿٨٧﴾ هذا من تتمّة كلام السحرة عظة لفرعون
 أي من يلقي ربه يوم القيامة وهو مجرمٌ باقترافه المعاصي وموته على الكفر ، فإن له نار جهنم ﴿٨٨﴾ لَا يَمُوتُ فِيهَا
 وَلَا يَحْيَا أي لا يموت في جهنم فينقضي عذابه ، ولا يحيا حياة طيبة هنيئة (٤) ﴿٨٩﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مَوْناً قَدْ عَمِلَ

(١) المختصر ٤٨٦/٢ . (٢) القرطبي ٢٢٤/١١ . (٣) القرطبي ٢٢٥/١١ .

(٤) أنشد ابن الأنباري في هذا المعنى : أَلَا مَنْ لِنَفْسٍ لَا تَمُوتُ فَيَنْقُضِي

شقاها ولا تحيا حياة لها

مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى ﴿٧٤﴾ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴿٧٥﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى ﴿٧٦﴾

الصالحات ﴿﴾ أي ومن يلقي ربه مؤمناً موحداً وقد عمل الطاعات وترك المنهيات ﴿فأولئك لهم الدرجات العلى﴾ أي فأولئك المؤمنون العاملون للصالحات لهم المنازل الرفيعة عند الله ﴿جنات عدن﴾ بيان للدرجات العلى أي جنات إقامة ذات الدرجات العاليات ، والغرف الآمات ، والمسكن الطيبات ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت غرفها وسرورها أنهار الجنة من الخمر والعسل ، واللبن ، والماء ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي ماكثين في الجنة دوماً لا يخرجون منها أبداً ﴿وذلك جزاء من تزكى﴾ أي وذلك ثواب من تطهر من دنس الكفر والمعاصي ، وفي الحديث (الجنة مائة درجة ، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض ، والفردوس أعلاها درجة فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس)^(١) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة ﴿واصطنعتك لنفسى﴾ شبه ما خوّله به من القرب والاصطفاء بحال من يراه الملك أهلاً للكرامة وقرب المنزلة لما فيه من الخلال الحميدة فيصطنعه لنفسه ، ويختاره لخلته ، ويصطنعه لأموره الجليلة واستعار لفظ اصطنع لذلك ، ففيه استعارة تبعية .
- ٢ - المقابلة اللطيفة ﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم﴾ حيث قابل بين ﴿منها﴾ و﴿فيها﴾ وبين الخلق والإعادة وهذا من المحسنات البديعية .
- ٣ - إيجاز حذف ﴿بل ألقوا فإذا جبالهم﴾ أي فآلقوا فإذا جبالهم حذف للدلالة المعنى عليه ومثله ﴿فألقي السحرة سجداً﴾ بعد قوله ﴿وَأَلْقَ مَا فِي يَمِينِكَ﴾ حذف منه كلام طويل وهو فآلقى موسى عصاه فتلقفت ما صنعوا من السحر فآلقى السحرة سجداً ، وإنما حسن الحذف للدلالة المعنى عليه ويسمى إيجاز حذف .
- ٤ - الطباق بين ﴿يموت .. ويحيا﴾ وبين ﴿نعيد .. ونخرج﴾ .
- ٥ - المقابلة بين ﴿إنه من يأت ربه مجرماً﴾ وبين ﴿ومن يأت مؤمناً قد عمل الصالحات﴾ الخ والمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك .
- ٦ - السجع الحسن غير المتكلف في مثل ﴿سوى ، ضحى ، افترى ، يحيا ، تزكى﴾ الخ .
- ٧ - المؤكدات ﴿إنك أنت الأعلى﴾ أكد الخبر بعدة مؤكدات وهي ﴿إِنَّ﴾ المفيدة للتأكيد ، وتكرير الضمير ﴿أنت﴾ وتعريف الخبر ﴿الأعلى﴾ ولفظ العلو الدال على الغلبة ، وصيغة التفضيل ﴿الأعلى﴾ ولله

در التنزيل ما أبلغه وأروع ، وهذا من خصائص علم المعاني .

تنبيه : لم تذكر الآيات الكريمة أن فرعون فعل بالسحرة ما هددهم به ، وقد ذكر المفسرون أنه أنفذ فيهم وعيده فقطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم فماتوا على الإيمان ولهذا قال ابن عباس : كانوا في أول النهار سحرة ، وفي آخر النهار شهداء برة .

قال الله تعالى : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى .. إلى .. إلا هو وسع كل شيء علماً ﴾

من آية (٧٧) إلى نهاية آية (٩٨) .

المناسبة : لا تزال الآيات الكريمة تتحدث عن قصة موسى وفرعون ، وتشير الآيات هنا إلى عناية الله تعالى بموسى وقومه ، وإنجائهم وإهلاك عدوهم ، وتذكّرهم بنعم الله العظمى ومنه الكبرى على بني إسرائيل ، وما وصّاهم به من المحافظة على شكرها وتحذيرهم من التعرض لغضب الله بكفرها ، ثم تذكر الآيات انتكاس بني إسرائيل بعبادتهم العجل ، وقد طوى هنا ما فصل في آيات آخر .

اللفت : ﴿ دَرَكًا ﴾ لحاقاً مصدر أدركه إذا لحقه ﴿ تَطَغَوْا ﴾ الطغيان : مجاوزة الحد إلى ما لا ينبغي ﴿ هوى ﴾ صار إلى الهاوية وهي قعر النار من هوى يهوي إذا سقط من علو إلى سفلى ﴿ يَمْلِكُنَا ﴾ الملك : بفتح الميم وسكون اللام : الطاقة والقدرة ومعناه بأمر كنا نملكه من جهتنا ﴿ أَوْزَارًا ﴾ أثقالاً ومنه سمي الذنب وزراً لأنه يثقل الإنسان ﴿ خَوَار ﴾ الخوار : صوت البقر ﴿ يَا ابْنَ أُمٍّ ﴾ أي يا ابن أُمي واللفظة تدل على الاستعطف ﴿ سَوَّلَتْ ﴾ حسنت وزينت .

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفْ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى ۖ

فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ ۖ وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ ۖ يَبْنِي إِسْرَءِيلَ

التفسير : ﴿ ولقد أوحينا إلى موسى أن أسر بعبادي ﴾ أي أوحينا إلى موسى بعد أن تمادى فرعون في الطغيان أن سر بني إسرائيل ليلاً من أرض مصر ﴿ فاضرب لهم طريقاً في البحر يبساً ﴾ أي اضرب البحر بعصاك ليصبح لهم طريقاً يابساً يمشون عليه ﴿ لا تخاف دركاً ولا تخشى ﴾ أي لا تخاف لحاقاً من فرعون وجنوده ، ولا تخشى الغرق في البحر ﴿ فأتبعهم فرعون بجنوده فغشيهم من اليم ما غشيهم ﴾ أي فلاحقهم فرعون مع جنوده ليقتلهم فأصابهم من البحر ما أصابهم ، وغشيهم من الأحوال ما لا يعلم كنهه إلا الله ، والتعبير يفيد التهويل لما دهاهم عند الغرق ﴿ وأضل فرعون قومه وما هدى ﴾ أي أضلهم عن الرشده وما هداهم إلى خير ولا نجاة ، وفيه تهكم بفرعون في قوله ﴿ وما أهديكم إلا سبيل الرشاد ﴾ ﴿ يا بني إسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم ﴾ خطاب لبني إسرائيل بعد خروجهم من البحر وإغراق فرعون وجنوده والمعنى اذكروا يا بني إسرائيل نعمتي العظيمة عليكم حين نجيتكم من فرعون وقومه الذين كانوا يسومونكم سوء العذاب ﴿ وواعدناكم جانب الطور الأيمن ﴾ أي وعدنا موسى للمناجاة وإنزال التوراة عليه جانب طور سيناء الأيمن ، وإنما نسبت المواعدة إليهم لكون

قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ جَانِبَ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى ﴿٨٣﴾ كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلَّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨٤﴾ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴿٨٥﴾ * وَمَا أَجْعَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَمُوسَىٰ ﴿٨٦﴾ قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أُثْرِى وَعِجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ ﴿٨٧﴾ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴿٨٨﴾ فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ

منفعتها راجعة إليهم إذ في نزول التوراة صلاح دينهم ودنياهم ﴿ونزلنا عليكم المن والسلوى﴾ أي رزقناكم وأنتم في أرض التيه بالمن وهو يشبه العسل ، والسلوى وهو من أجود الطيور لحماً تفضلاً منا عليكم . . وفي هذا الترتيب غاية الحسن حيث بدأ بتذكيرهم بنعمة الإنجاء ، ثم بالنعمة الدينية ، ثم بالنعمة الدنيوية ﴿كلوا من طيبات ما رزقناكم﴾ أي قلنا لكم كلوا من الحلال اللذيذ الذي أنعمت به عليكم ﴿ولا تطغوا فيه فيحل عليكم غضبي﴾ أي لا تحملنكم السعة والعافية على العصيان لأمرى فينزل بكم عذابي ﴿ومن يحلل عليه غضبي فقد هوى﴾ أي ومن ينزل عليه غضبي وعقابي فقد هلك وشقي ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ أي وإني لعظيم المغفرة لمن تاب من الشرك وحسن إيمانه وعمله ، ثم استقام على الهدى والإيمان ، وفي الآية ترغيب لمن وقع في وهدة العصيان ببيان المخرج كيلا يئأس ﴿وما أعجلك عن قومك يا موسى﴾ أي أي شيء عجل بك عن قومك يا موسى ؟ قال الزمخشري : كان موسى قد مضى مع النقباء الذين اختارهم من قومه إلى الطور على الموعد المضروب ثم تقدمهم شوقاً إلى كلام ربه ^(١) ﴿قال هم أولاء على أثري﴾ أي قومي قريبون مني لم أتقدمهم إلا بشيء يسير وهم يأتون بعدي ﴿وعجلت إليك رب لترضى﴾ أي وعجلت إلى الموضع الذي أمرتني بالمجيء إليه لتزداد رضى عني . . اعتذر موسى أولاً ثم بين السبب في إسرعه قبل قومه وهو الشوق إلى مناجاة الله ابتغاء لرضى الله ﴿قال فإننا قد فتنا قومك من بعدك﴾ أي ابتليناهم بعبادة العجل من بعد ذهابك من بينهم ﴿وأضلهم السامري﴾ أي وأوقعهم السامري في الضلالة بسبب تزيينه لهم عبادة العجل ، وكان السامري ساحراً منافقاً من قوم يعبدون البقر قال المفسرون : كان موسى حين جاء لمناجاة ربه قد استخلف على بني إسرائيل أخاه هارون ، وأمره أن يتعهدهم بالإقامة على طاعة الله ، وفي أثناء غيبة موسى جمع السامري الحلي ثم صنع منها عجلاً ودعاهم إلى عبادته فعكفوا عليه وكانت تلك الفتنة وقعت لهم بعد خروج موسى من عندهم بعشرين يوماً ﴿فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفا﴾ أي رجع موسى من الطور بعدما استوفى الأربعين وأخذ التوراة غضبان شديد الحزن على ما صنع قومه من عبادة العجل ﴿قال يا قوم ألم يعدكم ربكم وعداً حسناً﴾

مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَقْتُم مَّوْعِدِي ﴿٨٨﴾ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَلَكِنَّا حَمَلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴿٨٩﴾ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ ﴿٩٠﴾ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُ لَا يُرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٩١﴾ وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يَتَقَوِّمُ إِلَيْنَا فَنُنْتِمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٩٢﴾ قَالُوا لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا

أي ألم يعدكم بإنزال التوراة فيها الهدى والنور ؟ والاستفهام للتوبيخ ﴿ أفطال عليكم العهد أم أردتم أن يحل عليكم غضب من ربكم فأخلفتكم موعدي ﴾ أي هل طال عليكم الزمن حتى نسيتم العهد أم أردتم بصنيعكم هذا أن ينزل عليكم سخط الله وغضبه فأخلفتكم وعدي ؟ قال أبو حيان : وكانوا وعدوه بأن يتمسكوا بدين الله وسنة موسى عليه السلام ، ولا يخالفوا أمر الله أبداً ، فأخلفوا مواعده بعبادتهم العجل ﴿٨٨﴾ ﴿ قالوا ما أخلفنا موعداً بملكنا ﴾ أي ما أخلفنا العهد بطاقتنا وإرادتنا واختيارنا بل كنا مكرهين ﴿ ولكننا حملنا أوزاراً من زينة القوم فقذفناها ﴾ أي حملنا أثقالاً وأحمالاً من حلي آل فرعون فطرحناها في النار بأمر السامري قال مجاهد : أوزاراً : أثقالاً وهي الحلي التي استعاروها من آل فرعون ﴿ فكذلك ألقى السامري ﴾ أي كذلك فعل السامري ألقى ما كان معه من حلي القوم في النار قال المفسرون : كان بنو إسرائيل قد استعاروا من القبط الحلي قبل خروجهم من مصر ، فلما أبطأ موسى في العودة إليهم قال لهم السامري : إنما احتبس عليكم لأجل ما عندكم من الحلي فجمعوه ودفعوه إلى السامري ، فرمى به في النار وصاغ لهم منه عجلاً ، ثم ألقى عليه قبضة من أثر فرس جبريل عليه السلام فجعل يخور ﴿٨٩﴾ فذلك قوله تعالى ﴿ فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوار ﴾ أي صاغ لهم السامري من تلك الحلي المذابة عجلاً جسداً بلا روح له خوار وهو صوت البقر ﴿٩٠﴾ ﴿ فقالوا هذا إلهكم وإله موسى فنسي ﴾ أي هذا العجل إلهكم وإله موسى فنسي إلهه هنا وذهب يطلبه في الطور ، قال قتادة : نسي موسى ربه عندكم ، فعكفوا عليه يعبدونه ، قال تعالى رداً عليهم وبياناً لسخافة عقولهم في عبادة العجل ﴿ أفلا يرون ألا يرجع إليهم قولا ولا يملك لهم ضرراً ولا نفعاً ﴾ أي أفلا يعلمون أن العجل الذي زعموا أنه إلههم لا يرد لهم جواباً ، ولا يقدر أن يدفع عنهم ضرراً أو يجلب لهم نفعاً فكيف يكون إلهاً ؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع ﴿ ولقد قال لهم هارون من قبل يا قوم إنما فتنتهم به ﴾ أي قال لهم هارون ناصحاً ومذكراً من قبل رجوع موسى إليهم : إنما ابتليتم وأضللتهم بهذا العجل ﴿ وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمري ﴾ أي وإن ربكم المستحق للعبادة هو الرحمن لا العجل ، فاقصدوا بي فيما أدعوكم إليه من عبادة الله ، وأطيعوا أمري بترك عبادة العجل ﴿ قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا

(١) البحر ٦/٢٦٨ . (٢) هذا خلاصة قول ابن عباس وقاتدة ومجاهد كذا في الطبري ١٦/٢٠٠ . (٣) قال الرازي : قيل إنه صار حياً وخار ، وقيل : لم تحله الحياة وإنما جعل فيه منافذ تدخل فيه الريح فيخرج له صوت يشبه صوت العجل . الرازي ٢٢/١٠٣ .

مُوسَى ﴿٩١﴾ قَالَ يَهْرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا ﴿٩٢﴾ أَلَا تَتَّبِعُنِي أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴿٩٣﴾ قَالَ يَبْنَومَ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴿٩٤﴾ قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يُسْمِرِي ﴿٩٥﴾ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴿٩٦﴾ قَالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَّنْ يُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ

موسى ﴿٩١﴾ أي قالوا لن نزال مقيمين على عبادة العجل حتى يعود إلينا موسى فننظر في الأمر (١) ﴿٩٢﴾ قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني ﴿٩٣﴾ في الكلام حذف أي فلما رجع موسى ووجدهم عاكفين على عبادة العجل امتلاً غضباً لله وأخذ برأس أخيه هارون يحره إليه وقال له : أي شيء منعك حين رأيتهم كفروا بالله أن لا تتبعني في الغضب لله والإنكار عليهم والزجر لهم عن ذلك الضلال ؟ ﴿٩٤﴾ أفعصيت أمري ﴿٩٥﴾ أي أخالفتني وتركت أمري ووصيتي ؟ قال المفسرون : وأمره هو ما كان أوصاه به فيما حكاه تعالى عنه ﴿٩٦﴾ وقال موسى لأخيه هارون اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين ﴿٩٧﴾ قال يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ﴿٩٨﴾ أي قال له هارون استعطافاً وترقيقاً : يا ابن أمي - أي يا أخي - لا تأخذ بلحيتي ولا بشعر رأسي قال ابن عباس : أخذ شعر رأسه بيمينه ولحيته بشماله من شدة غيظه وفراط غضبه لأن الغيرة في الله ملكته ﴿٩٩﴾ إني خشيت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل ﴿١٠٠﴾ أي إني خفت إن زجرتهم بالقوة أن يقع قتال بينهم فتلومني على ذلك وتقول لي : لقد أشعلت الفتنة بينهم ﴿١٠١﴾ ولم ترقب قولي ﴿١٠٢﴾ أي لم تنتظر أمري فيهم ، فمن أجل ذلك رأيت ألا أفعل شيئاً حتى ترجع إليهم لتتدارك الأمر بنفسك قال ابن عباس : وكان هارون هائباً مطيعاً له ﴿١٠٣﴾ قال فما خطبك يا سامري ﴿١٠٤﴾ أي ما شأنك فيما صنعت ؟ وما الذي حملك عليه يا سامري ؟ ﴿١٠٥﴾ قال بصرت بما لم يبصروا به ﴿١٠٦﴾ أي قال السامري : رأيت ما لم يروه وهو أن جبريل جاءك على فرس الحياة فألقي في نفسي أن أقبض من أثره قبضة فما ألقىته على شيء إلا دببت فيه الحياة ﴿١٠٧﴾ فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها ﴿١٠٨﴾ أي قبضت شيئاً من أثر فرس جبريل فطرحتها على العجل فكان له خوار ﴿١٠٩﴾ وكذلك سولت لي نفسي ﴿١١٠﴾ أي وكذلك حسنت وزينت لي نفسي ﴿١١١﴾ قال فادهب فإن لك في الحياة أن تقول لا ميساس ﴿١١٢﴾ أي قال موسى للسامري : عقوبتك في الدنيا ألا تمس أحداً ولا يمسك أحد قال الحسن : جعل الله عقوبة السامري ألا يماس الناس ولا يمسه عقوبة له في الدنيا وكأن الله عز وجل شدد عليه المحنة ﴿١١٣﴾ وإن لك موعداً لن تخلفه ﴿١١٤﴾ أي وإن لك

(١) قال سيد قطب عليه الرحمة في تفسير الظلال « ما كاد بنو إسرائيل يرون عجلاً من ذهب يخور حتى نسوا ربهم الذي أنقذهم من أرض الذل وعكفوا على عجل الذهب ، وفي بلاهة فكر ، وبلاهة روح قالوا ﴿هذا إلهم وإله موسى﴾ راح يبحث عنه على الجبل وهو هنا معنا وقد نسي موسى الطريق إلى ربه وضل عنه ، وهي قولة تضيف إلى معنى البلاهة والتفاهة اتهامهم لنبيهم بأنه غير موصول بربه حتى ليضل الطريق إليه فلا هو يهتدي ولا ربه يهديه ، وهذا العجل لم يكن حياً يسمع قولهم ويستجيب نداءهم لأنه جسد لا حياة فيه فهو في درجة أقل من درجة الحيوانية ، ولقد نصحهم هارون ولكنهم بدلاً من الاستجابة التوا وتقلصوا من نصحه ».

الَّذِي ظَلَّتْ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴿٩٧﴾ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴿٩٨﴾

موعداً للعذاب في الآخرة لن يتخلف ﴿وانظر إلى إلهك الذي ظلت عليه عاكفا﴾ أي انظر إلى هذا العجل الذي أقمت ملازماً على عبادته ﴿لنحرقنّه ثم لننسفنّه في اليمّ نسفا﴾ أي لنحرقنّه بالنار ثم لنطيرنّه رماداً في البحر لا يبقى منه عين ولا أثر ﴿إنما إلهكم الله الذي لا إله إلا هو﴾ أي يقول موسى لبني إسرائيل : إنما معبودكم المستحق للعبادة هو الله الذي لا ربّ سواه ﴿وسع كلّ شيء علماً﴾ أي وسع علمه كلّ شيء فلا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

١ - التهويل ﴿فغشيهم من اليمّ ما غشيهم﴾ .

٢ - الطباق بين ﴿وأضلّ .. وما هدى﴾ .

٣ - الاستعارة ﴿فقد هوى﴾ استعار لفظ الهوى وهو السقوط من علو إلى سفلى للهلاك والدمار .

٤ - صيغة المبالغة ﴿وإني لغفار﴾ أي كثير المغفرة للذنوب .

٥ - الطباق ﴿ضرّاً ولا نفعاً﴾ .

٦ - الإيجاز بالحذف في مواطن عديدة بينها في التفسير .

٧ - السجع الحسن غير المتكلف مثل ﴿أمري ، قولي ، نفسي﴾ و ﴿نفعاً ، علماً ، نسفا﴾ الخ .

تنبية : إنما عبد بنو إسرائيل العجل بسبب فتنة السامري وقد كانت بذور الوثنية راسخة في قلوبهم ولذلك لما نجّاهم الله من طغيان فرعون طلبوا من موسى أن يصنع لهم تمثالاً ليعبدوه كما قال تعالى ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم قالوا يا موسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ فلا عجب إذاً أن يعكفوا على عبادة عجل من ذهب له خوار !!

قال الله تعالى : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق .. إلى .. من أصحاب الصراط

السوي ومن اهتدى﴾ من آية (٩٩) إلى نهاية السورة .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة موسى بالتفصيل ، أعقبها بذكر أن هذا القصص وحي من الله ، وأن محمداً ﷺ ما كان له علم بهذه الأخبار والأنباء العجيبة لولا أن الله تعالى أوحى إليه ، وذلك من أكبر الدلائل والبراهين على صدق الرسالة .

اللفظة: ﴿قاعاً﴾ القاع : الأرض الملساء التي لا نبات فيها ولا بناء ﴿صفصفاً﴾ الصَّفَصَفُ : المستوي من الأرض كأنه على صفٍّ واحد في استوائه ﴿أمتاً﴾ الأمت : المكان المرتفع كالتلّ والهضبة ﴿همساً﴾ صوتاً خفياً ﴿عنت﴾ ذلت وخضعت قال أمية : «لعزته تعنو الوجوه وتسجد» قال الجوهري : عنا يعنو خضع وذلّ وأعناه غيره ومنه الآية ﴿وعنت الوجوه﴾ ﴿هضماً﴾ الهضم : النقص يقال : هضمه حقه إذا أنقصه والفرق بين الظلم والهضم أن الظلم المنع من الحق كله ، والهضم المنع من بعضه^(١) ﴿تضحى﴾ ضحى للشمس برز لها حتى يصيبه حرّها قال ابن أبي ربيعة :

رأت رجلاً أيماً إذا الشمس عارضت فيضحى وأماً بالعشيّ فينحصر^(٢)
﴿ضنكاً﴾ الضنك : الضيق والشدة يقال : منزل ضنك وعيش ضنك إذا كان شديداً ضيقاً ﴿سواتهما﴾ عوراتهما ﴿فتربصوا﴾ انتظروا ﴿الصراط السوي﴾ الطريق المستقيم .

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءٍ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا ﴿١٩٩﴾ مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وِزْرًا ﴿٢٠٠﴾ خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ حِمْلًا ﴿٢٠١﴾ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿٢٠٢﴾ يَخْشَفُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿٢٠٣﴾ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ

التفسير : ﴿كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق﴾ أي كما قصصنا عليك يا محمد خبر موسى مع فرعون وما فيه من الأنباء الغريبة كذلك نقص عليك أخبار الأمم المتقدمين ﴿وقد آتيناك من لدنا ذكراً﴾ أي أعطيناك من عندنا قرآناً يتلى منظوياً على المعجزات الباهرة قال في البحر : امتن تعالى عليه بإيتائه الذكر المشتمل على القصص والأخبار ، الدال على معجزات أوتيتها عليه السلام^(٣) ﴿من أعرض عنه فإنه يحمل يوم القيامة وزراً﴾ أي من أعرض عن هذا القرآن فلم يؤمن به ولم يتبع ما فيه ، فإنه يحمل يوم القيامة حملاً ثقيلاً ، وذنباً عظيماً يثقله في جهنم ﴿خالدين فيه وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ أي مقيمين في ذلك العذاب بأوزارهم ، وبئس ذلك الحمل الثقيل حملاً لهم ، شبه الوزر بالحمل لثقله ﴿يوم ينفخ في الصور ونحشر المجرمين يومئذ زُرْقاً﴾ أي يوم ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية، ونحشر المجرمين إلى أرض المحشر زُرْق العيون سود الوجوه قال القرطبي : تشبه خلقهم بزرقة العيون وسواد الوجوه^(٤) ﴿يتخافتون بينهم إن لبثتم إلا عشراً﴾ أي يتهايمسون بينهم ويسر بعضهم إلى بعض قائلين : ما مكثتم في الدنيا إلا عشر ليال قال أبو السعود : استقصروا مدة لبثهم فيها لما عاينوا الشدائد والأحوال^(٥) ﴿نحن أعلم بما يقولون إذ يقول أمثالهم طريقة إن لبثتم إلا يوماً﴾ أي نحن أعلم بما يتناجون بينهم إذ يقول أعقلهم وأعد لهم قولاً ما لبثتم إلا يوماً واحداً

(١) القرطبي ٢٤٩/١١ . (٢) البحر ٢٧١/٦ . (٣) البحر المحيط ٢٧٨/٦ . (٤) القرطبي ٢٤٤/١١ . (٥) أبو السعود ٣٢٤/٣ .

أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٣﴾ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٤﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٥﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا ﴿١٦﴾ يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴿١٧﴾ يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا ﴿١٨﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ * وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ ﴿١٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿٢٠﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿٢١﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿٢٢﴾ فَتَعَالَى

﴿ويسألونك عن الجبال فقل ينسفها ربي نسفا﴾ أي ويسألونك عن حال الجبال يوم القيامة فقل لهم : إن ربي يفتتها كالرمل ثم يرسل عليها الرياح فيطيرها ﴿فيذرها قاعاً صفصفا﴾ أي فيتركها أرضاً ملساء مستوية لا نبات فيها ولا بناء ﴿لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً﴾ أي لا ترى فيها انخفاضاً ولا ارتفاعاً ﴿يومئذ يتبعون الداعي لا عوج له﴾ أي في ذلك اليوم العصيب يتبع الناس داعي الله الذي يدعوهم لأرض المحشر يأتونه سراعاً لا يزيغون عنه ولا ينحرفون ﴿وخشعت الأصوات للرحمن﴾ أي ذلت وسكنت أصوات الخلائق هيبةً من الرحمن جل وعلا ﴿فلا تسمع إلا همساً﴾ أي لا تسمع إلا صوتاً خفياً لا يكاد يُسمع وعن ابن عباس : هو همس الأقدام في مشيها نحو المحشر^(١) ﴿يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولاً﴾ أي في ذلك اليوم الرهيب لا تنفع الشفاعة أحداً إلا لمن أذن له الرحمن في أن يشفع له ، ورضي لأجله شفاعة الشافع ، وهو الذي كان في الدنيا من أهل لا إله إلا الله ، قاله ابن عباس ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم تعالى أحوال الخلائق فلا تخفى عليه خافية من أمور الدنيا وأمور الآخرة ﴿ولا يحيطون به علماً﴾ أي لا تحيط علومهم بمعلوماته جل وعلا^(٢) ﴿وعنت الوجوه للحي القيوم﴾ أي ذلت وخضعت وجوه الخلائق للواحد القهار جبار السموات والأرض الذي لا يموت قال الزمخشري : المراد بالوجوه وجوه العصاة وأنهم إذا عاينوا يوم القيامة الخيبة والشقوة وسوء الحساب ، صارت وجوههم عانية أي ذليلة خاضعة مثل وجوه العتاة وهم الأسارى كقوله ﴿سيئت وجوه الذين كفروا﴾^(٣) ﴿وقد خاب من حمل ظلماً﴾ أي خسر من أشرك بالله ، ولم ينجح ولا ظفر بمطلوبه ﴿ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن﴾ أي من قدم الأعمال الصالحة بشرط الإيمان ﴿فلا يخاف ظلماً ولا هضماً﴾ أي فلا يخاف ظلماً بزيادة سيئاته ، ولا بخساً ونقصاً لحسناته ﴿وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً﴾ أي مثل إنزال الآيات المشتملة على القصص العجيبة أنزلنا هذا الكتاب عليك يا

(١) الطبري ٢١٤/١٦ . (٢) وقيل المراد : لا يحيطون بمعرفة ذاته إذ لا يعرف الله على الحقيقة إلا الله واختاره في التسهيل .

(٣) الكشاف ٩٢/٣ .

اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ، وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴿١١٦﴾
 وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً ﴿١١٧﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا
 إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى ﴿١١٨﴾ فَقُلْنَا يَنْدُمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى ﴿١١٩﴾ إِنَّ
 لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى ﴿١٢٠﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى ﴿١٢١﴾ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَنْدُمُ

محمد بلغة العرب ليعرفوا أنه في الفصاحة والبلاغة خارج عن طوق البشر ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ﴾ أي كررنا فيه الإنذار والوعيد ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ أو يحدث لهم ذكراً ﴿أَي كَيْ يَتَّقُوا الْكُفْرَ وَالْمَعَاصِيَ﴾ أي يحدث لهم موعظة في القلوب ينشأ عنها امتثال الأوامر واجتناب النواهي ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ أي جلَّ الله وتقدَّس الملك الحق الذي قهر سلطانه كل جبار عما يصفه به المشركون من خلقه ﴿وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ﴾ أي إذا أقرأك جبريل القرآن فلا تتعجل بالقراءة معه ، بل استمع إليه واصبر حتى يفرغ من تلاوته وحينئذٍ تقرأه أنت قال ابن عباس : كان عليه السلام يبادر جبريل فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحي حرصاً على حفظ القرآن ومخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك قال القرطبي : وهذا كقوله تعالى ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ﴾^(١) ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ أي سلَّ الله عز وجل زيادة العلم النافع قال الطبري : أمره بمسألته من فوائد العلم ما لا يعلم^(٢) ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ﴾ أي وصيناه أن لا يأكل من الشجرة من القديم ﴿فَنَسَى وَلَمْ يُجِدْ لَهُ عَزْماً﴾ أي نسي أمرنا ولم نجد له حزماً وصبراً عما نبهناه عنه ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى﴾ يذكر تعالى تشريف آدم وتكريمه وما فضله به على كثير من الخلق أي واذكر يا محمد حين أمرنا الملائكة بالسجود لآدم سجود تحية وتكريم فامثلوا الأمر إلا إبليس فإنه أبى السجود وعصى أمر ربه قال الصاوي : كررت هذه القصة في سبع سور من القرآن تعليماً للعباد امتثال الأوامر ، واجتناب النواهي وتذكيراً لهم بعبادة إبليس لأبيهم آدم^(٣) ﴿فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ أي ونبهنا آدم فقلنا له إن إبليس شديد العداوة لك ولحواء ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى﴾ أي لا تطيعاه فيكون سبباً لإخراجكما من الجنة فتشقيان ، وإنما اقتصر على شقائه مراعاة للفواصل ولاستلزام شقائه لشقائهما قال ابن كثير : المعنى إياك أن تسعى في إخراجك من الجنة فتتعبد وتشقى في طلب رزقك ، فإنك ههنا في عيش رغيد ، بلا كلفة ولا مشقة^(٤) ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾ أي إن لك يا آدم ألا ينالك في الجنة الجوع ولا العري ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ أي ولك أيضاً ألا يصيبك العطش فيها ولا حر الشمس ، لأن الجنة دار السرور والحبور ، لا تعب فيها ولا نصب ، ولا حر ولا ظمأ بخلاف دار الدنيا ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ﴾ أي حدثه خفية بطريق

هَلْ أَدْرُكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى ﴿١٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تُهْمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا
مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١١﴾ ثُمَّ أَجْتَبَهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى ﴿١٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَلِمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ
عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ

الوسوسة ﴿١٠﴾ قال يا آدم هل أدرك على شجرة الخلد وملك لا يبلَى ﴿١٠﴾ أي قال له إبليس اللعين : هل أدرك يا آدم على شجرة من أكل منها خلّد ولم يميت أصلاً ، ونال الملك الدائم الذي لا يزول أبداً ؟ وهذه مكيدة ظاهرها النصيحة ومتى كان اللعين ناصحاً ؟ ﴿١١﴾ فأكلا منها فبدت لهما سؤاتهما ﴿١١﴾ أي أكل آدم وحواء من الشجرة التي نهاهما الله عنها فظهرت لهما عوراتهما قال ابن عباس : عريا عن النور الذي كان الله تعالى قد ألبسهما إياه حتى بدت فروجهما ^(١) ﴿١٢﴾ وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ﴿١٢﴾ أي شرعا يأخذان من أوراق الجنة ويغطيان بها عوراتهما ليستترا بها ﴿١٣﴾ وعصى آدمُ ربه فغوى ﴿١٣﴾ أي خالف آدم أمر ربه بالأكل من الشجرة فضلً عن المطلوب الذي هو الخلود في الجنة حيث اغتر بقول العدو قال أبو السعود : وفي وصفه بالعصيان والغواية - مع صغر زلته - تعظيم لها وزجرٌ بليغ لأولاده عن أمثالها ^(٢) ﴿١٤﴾ ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى ﴿١٤﴾ أي ثم اصطفاه ربه فقرّبه إليه وقبل توبته وهداه إلى الثبات على التوبة والتمسك بأسباب الطاعة ﴿١٥﴾ قال اهبطا منها جميعاً بعضكم لبعض عدوٌ ﴿١٥﴾ أي قال الله لآدم وحواء : إنزلا من الجنة إلى الأرض مجتمعين بعضُ ذريتكما لبعض عدوٌ بسبب الكسب والمعايش واختلاف الطبائع والرغبات قال الزمخشري : لما كان آدم وحواء أصلي البشر جعلاً كأنهما البشر في أنفسهما فخطباً مخاطبتهم ^(٣) ﴿١٦﴾ فإِذَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى ﴿١٦﴾ أي فإن جاءكم من جهتي الكتب والرسل لهدايتكم ﴿١٧﴾ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴿١٧﴾ أي فمن تمسك بشريعتي واتبع رسلي فلا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة قال ابن عباس : ضمن الله تعالى لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه ألا يضل في الدنيا ، ولا يشقى في الآخرة وتلا الآية ^(٤) ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا ﴿١٨﴾ أي ومن أعرض عن أمري وما أنزلته على رسلي من الشرائع والأحكام فإن له في الدنيا معيشة قاسية شديدة وإن تنعم ظاهره ﴿١٩﴾ ونحشره يوم القيامة أعمى ﴿١٩﴾ أي ونحشره في الآخرة أعمى البصر قال ابن كثير : من أعرض عن أمر الله وتناساه فإن له حياة ضنكاً في الدنيا ، فلا طمأنينة له ولا انشراح لصدره ، بل صدره ضيقٌ حرج لضلّاله وإن تنعم ظاهره ولبس ما شاء ، وأكل ما شاء ، وسكن حيث شاء ، فإن قلبه في قلقٍ وحيرةٍ وشك ، وقيل : يُضَيَّقُ عليه قبره حتى تختلف أضلّاعه فيه ^(٥) ﴿٢٠﴾ قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً ﴿٢٠﴾ أي قال الكافر : يا رب بأي ذنب عاقبتني بالعمى وقد كنت في الدنيا بصيراً ؟ ﴿٢١﴾ قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها

(١) أبو السعود ٣٢٧/٣ . (٢) نفس المرجع السابق والصفحة . (٣) الكشف ٩٣/٣ . (٤) القرطبي ٢٥٨/١١ . (٥) المختصر ٤٩٧/٢ .

بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَكَ ءَايَتُنَا فَنَسِيهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ
يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾ أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ
فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٨﴾ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ
مُّسَمًّى ﴿١٢٩﴾ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ ءَانَايِ اللَّيْلِ
فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٠﴾ وَلَا تُمَدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ

وكذلك اليوم تُنسى ﴿١٢٥﴾ أي قال الله تعالى له : لقد أتتك آياتنا واضحة جلية فتعاميت عنها وتركتها ،
وكذلك تُترك اليوم في العذاب جزاءً وفاقاً ﴿١٢٦﴾ وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن
بآيات ربه ﴿١٢٧﴾ أي ومثل ذلك الجزاء الموافق للخيانة والتكذيب بآيات الله نعاقب من
أسرف بالانهاك في الشهوات ، ولم يصدق بكلام ربه وآياته البينات ﴿١٢٨﴾ وللعذاب الآخرة أشدُّ
وأبقى ﴿١٢٩﴾ أي عذاب جهنم أشدُّ من عذاب الدنيا لأنَّ عذابها أديم وأثبت لأنه لا
ينقطع ولا ينقضي ﴿١٣٠﴾ أفلم يهد لهم كم أهلكنا قبلهم من القرون ﴿١٢٥﴾ أي
أفلم يتبين لكفار مكة الذين كذبوك كم أهلكنا قبلهم من الأمم الخالية المكذبين لرسولهم ﴿١٢٦﴾ يمشون في
مسكنهم ﴿١٢٧﴾ أي يرون مساكن عاد وثمود ويعاينون آثار هلاكهم أفلا يتعظون ويعتبرون ؟ ﴿١٢٨﴾ إنَّ في ذلك
لآيات لِّأُولِي النُّهَى ﴿١٢٩﴾ أي إنَّ في آثار هذه الأمم البائدة لدلالات وعيراً لذوي العقول السليمة ﴿١٣٠﴾ ولولا
كلمة سبقت من ربك لكان لزاماً وأجلٌ مُّسمى ﴿١٢٥﴾ أي لولا قضاء الله بتأخير العذاب عنهم ووقت مُّسمى
لهلاكهم لكان العذاب واقعاً بهم قال الفراء : في الآية تقديم وتأخير والمعنى ولولا كلمة وأجلٌ مُّسمى لكان
لزماً أي لكان العذاب لازماً لهم ، وإنما أخره لتعتدل رءوس الآي (١) ﴿١٢٦﴾ فاصبر على ما يقولون ﴿١٢٧﴾ أي
فاصبر يا محمد على ما يقول هؤلاء المكذبون من قومك ﴿١٢٨﴾ وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل
غروبها ﴿١٢٩﴾ أي صلِّ وأنت حامد لربك قبل طلوع الشمس صلاة الصبح ، وقبل غروبها صلاة العصر
﴿١٣٠﴾ ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار ﴿١٣١﴾ أي وصلِّ لربك في ساعات الليل وفي أول النهار وآخره
﴿١٣٢﴾ لعلَّكَ تَرْضَى ﴿١٣٣﴾ أي لعلَّكَ تُعطى ما يرضيك قال القرطبي : أكثر المفسرين أن هذه الآية إشارة إلى
الصلوات الخمس ﴿١٣٤﴾ قبل طلوع الشمس ﴿١٣٥﴾ صلاة الصبح ﴿١٣٦﴾ وقبل غروبها ﴿١٣٧﴾ صلاة العصر ﴿١٣٨﴾ ومن آناء
الليل ﴿١٣٩﴾ صلاة العشاء ﴿١٤٠﴾ وأطراف النهار ﴿١٤١﴾ صلاة المغرب والظهر ، لأن الظهر في آخر طرف النهار الأول ،
وغروب الشمس آخر طرف النهار الأخير (٢) ﴿١٤٢﴾ ولا تُمدِّدْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَاهُ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ ﴿١٤٣﴾ أي لا تنظر
إلى ما متعنا به أصنافاً من الكفار من نعيم الدنيا وبهرجها الخادع ﴿١٤٤﴾ زهرة الحياة الدنيا ﴿١٤٥﴾ أي زينة الحياة
الدنيا ﴿١٤٦﴾ لنفتنهم فيه ﴿١٤٧﴾ أي لنبتليهم ونختبرهم بهذا النعيم حتى يستوجبوا العذاب بكفرهم ﴿١٤٨﴾ وورزقُ

الَّذِينَ لَنَفَعْنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٢١﴾ وَأَمْرٌ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا تَسْأَلُكَ رِزْقًا
نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى ﴿١٢٢﴾ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٢٣﴾
وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ
وَنُخْزَى ﴿١٢٤﴾ قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبَّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴿١٢٥﴾

ربك خير وأبقى ﴿١٢١﴾ أي ثواب الله خير من هذا النعيم الفاني وأدوم قال المفسرون : الخطاب للرسول ﷺ والمراد به أمته لأنه عليه السلام كان أزهد الناس في الدنيا وأشدَّ رغبة فيما عند الله ﴿١٢٢﴾ وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها ﴿١٢٣﴾ أي وأمر يا محمد أهلك وأمتك بالصلاة واصبر أنت على أدائها بخشوعها وآدابها ﴿١٢٤﴾ نسألك رزقاً نحن نرزقك ﴿١٢٥﴾ أي لا نكلفك أن ترزق نفسك وأهلك بل نحن نتكفل برزقك وإياهم ﴿١٢٦﴾ والعاقبة للتقوى ﴿١٢٧﴾ أي العاقبة الحميدة لأهل التقوى قال ابن كثير : أي حسن العاقبة وهي الجنة لمن اتقى الله ﴿١٢٨﴾ وقالوا لولا يأتينا بآية من ربه ﴿١٢٩﴾ أي قال المشركون هلاً يأتينا بمعجزة تدل على صدقه ؟ ﴿١٣٠﴾ أولم تأتِهِمْ بَيِّنَةٌ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٣١﴾ أي أولم يكتفوا بالقرآن المعجزة الكبرى لمحمد عليه السلام المحتوي على أخبار الأمم الماضية ؟ والاستفهام للتوبيخ والتفريع قال في البحر : اقترح المشركون ما يختارون على ديدنهم في التعنت فأجيبوا بأن هذا القرآن الذي سبق التبشير به في الكتب الإلهية السابقة أعظم الآيات في الإعجاز وهو الآية الباقية إلى يوم القيامة ﴿١٣٢﴾ ولو أنَّا أهلكناهم بعذاب من قبله ﴿١٣٣﴾ أي لو أنَّا أهلكنا كفار مكة من قبل نزول القرآن وبعثة محمد عليه السلام ﴿١٣٤﴾ لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولاً ﴿١٣٥﴾ أي لقالوا يا ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولاً حتى تؤمن به وتتبعه ﴿١٣٦﴾ فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى ﴿١٣٧﴾ أي فتمسك بآياتك من قبل أن نذل بالعذاب ونفتضح على رءوس الأشهاد قال المفسرون : أراد تعالى أن يبين أنه لا حجة لأحد على الله بعد إرسال الرسل وإنزال الكتب فلم يترك لهم حجة ولا عذراً ﴿١٣٨﴾ قل كل متربص ﴿١٣٩﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المكذبين كل منا ومنكم منتظر دوائر الزمان ولن يكون النصر ﴿١٤٠﴾ فتربصوا ﴿١٤١﴾ أمر تهديد أي فانظروا العاقبة والنتيجة ﴿١٤٢﴾ فستعلمون من أصحاب الصراط السوي ﴿١٤٣﴾ أي فستعلمون عن قريب من هم أصحاب الطريق المستقيم هل نحن أم أنتم ؟ ﴿١٤٤﴾ ومن اهتدى ﴿١٤٥﴾ أي اهتدى إلى الحق وسبيل الرشاد ومن بقي على الضلال قال القرطبي : وفي هذا ضرب من الوعيد والتخويف والتهديد ختمت به السورة الكريمة (١) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه الفصاحة والبيان والبديع ما يلي :

١ - التشبيه ﴿كذلك نقص عليك﴾ وهو تشبيه مرسل مجمل .

٢ - الاستعارة ﴿وساء لهم يوم القيامة حملاً﴾ شبه الوزر بالحمل الثقيل بطريق الاستعارة التصريحية .

٣ - الكناية ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ كناية عن أمر الدنيا وأمر الآخرة .

٤ - الطباق بين ﴿أعمى . . وبصيراً﴾ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿زهرة الحياة الدنيا﴾ مثل لنعم الدنيا بالزهر وهو النوار لأن الزهر له منظر حسن ثم يذبل ويضمحل وكذلك نعيم الدنيا .

٦ - الوعيد والتهديد ﴿فتربصوا﴾ .

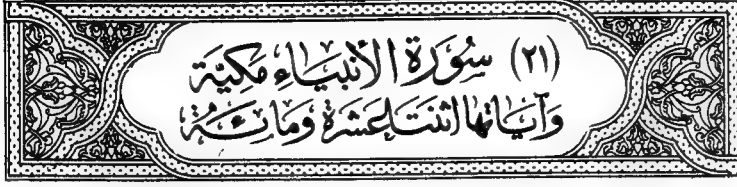
٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلت إلينا رسولاً﴾ .

٨ - السجع اللطيف غير المتكلف مثل ﴿ظلماً ، هضماً ، علماً﴾ ومثل ﴿تشقى ، تعرى ، ترضى﴾ الخ . . .

لطيفة : قال الناصر : في الآية سرٌ بديع من البلاغة يسمى قطع النظر عن النظر ، وذلك أنه قطع الظماً عن الجوع ، والضحو عن الكسوة مع ما بينهما من التناسب ، والغرض من ذلك تحقيق تعداد هذه النعم وتصنيفها ، ولو قرن كلاً بشكله لتوهم أن المعدودات نعمة واحدة ، على أن في الآية سرّاً آخر وهو قصد تناسب الفواصل ، ولو قرن الظماً بالجوع لانتثر سلك رءوس الآية^(١) .

فكائدة : قال الشهاب : ليس المراد بحكاية قول من قال ﴿عشراً﴾ أو ﴿يوماً﴾ أو ﴿ساعة﴾ حقيقة اختلافهم في مدة اللبث ، ولا الشك في تعيينه ، بل المراد أنه لسرعة زواله عبّر عن قلته بما ذكر ، فتفنن في الحكاية وأتى في كل مقام بما يليق به^(٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة طه » .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

هذه السورة مكية وهي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية في ميادينها الكبيرة « الرسالة ، الوجدانية ، البعث والجزاء » وتتحدث عن الساعة وشدائدها ، والقيامة وأهوالها ، وعن قصص الأنبياء المرسلين .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن غفلة الناس عن الآخرة ، وعن الحساب والجزاء ، بينما القيامة تلوح لهم وهم في غفلةٍ عن ذلك اليوم الرهيب ، وقد شغلتهُم مغريات الحياة عن الحساب المرقوب .

* ثم انتقلت إلى الحديث عن المكذبين ، وهم يشهدون مصارع الغابرين ، ولكنهم لا يعتبرون ولا يتعظون ، حتى إذا ما فاجأهم العذاب ، رفعوا أصواتهم بالتضرع والاستغاثة ولكن هيهات .

* وتناولت السورة دلائل القدرة في الأنفس والآفاق ، لتنبه على عظمة الخالق المدبر الحكيم ، فيما خلق وأبدع ، ولتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الإله الكبير .

* وبعد عرض الأدلة والبراهين ، الشاهدة على وحدانية رب العالمين ، تذكر السورة حال المشركين وهم يتلقون الرسول عليه السلام بالاستهزاء والسخرية والتكذيب ، وتعقب على ذلك بسنة الله الكونية في إهلاك الطغاة المجرمين .

* ثم تناول السورة الكريمة قصص بعض الرسل ، وتحدثت بالإسهاب عن قصة إبراهيم عليه السلام مع قومه الوثنيين ، في أسلوب مشوق ، فيه من نصاعة البيان ، وقوة الحجة والبرهان ما يجعل الخصم يقر بالهزيمة في خنوعٍ واستسلام ، وفي قصته عبر وعظات .

* وتتابع السورة الحديث عن الرسل الكرام فتتحدث عن « إسحاق ، ويعقوب ، ولوط ، ونوح ، داود ، وسليمان ، وأيوب ، وإسماعيل ، وإدريس ، وذو الكفل ، وذو النون ، وزكريا ، وعيسى » بإيجاز مع بيان الأهوال والشدائد التي تعرضوا لها ، وتختتم ببيان رسالة سيد المرسلين محمد بن عبد الله المرسل رحمة للعالمين .

التسمية : سميت «سورة الأنبياء» لأن الله تعالى ذكر فيها جملةً من الأنبياء الكرام في استعراضٍ

سريع ، يطول أحياناً ويقصر أحياناً ، وذكر جهادهم وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وتفانيهم في تبليغ الدعوة لإسعاد البشرية .

الفكرة : ﴿أضغاث﴾ أخلاط جمع ضغث وهي الأهاويل التي يراها الإنسان في منامه ﴿قصمنا﴾ القصم : كسر الشيء الصلب يقال : قصمت ظهره وانقصمت سنه إذا انكسرت ﴿يركضون﴾ الركض : العدو بشدة والركض ضرب الدابة بالرجل حثاً على العدو ﴿خامدين﴾ خمدت النار طفت والخمود الهمود ويراد به الموت تشبيهاً بخمود النار ﴿فيدمغه﴾ دمغه : أصاب دماغه نحو كبده ورأسه أصاب كبده ورأسه ﴿يستحسرون﴾ يعيون مأخوذ من الحسير وهو البعير المنقطع بالإعياء والتعب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴿١﴾ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا أَسْتَمِعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٢﴾ لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرَأَ النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ﴿٣﴾ قُلْ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٤﴾ بَلْ قَالُوا أَضْغَاثٌ أَحْلَمَ بَلْ

التفسير : ﴿اقترب للناس حسابهم﴾ أي قرب ودنا وقت حساب الناس على أعمالهم ﴿وهم في غفلة معرضون﴾ أي وهم مستغرقون في الشهوات ، غافلون عن ذلك اليوم الرهيب ، لا يعملون للآخرة ولا يستعدون لها كقول القائل : الناس في غفلاتهم : ورَحَى المنيّة تطحن^(١) ، وإنما وصف الآخرة بالاقتراب لأن كل ما هو آت قريب ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾ أي ما يأتيهم شيء من الوحي والقرآن من عند الله متجدد في النزول فيه عظة لهم وتذكير ﴿إلا استمعوه وهم يلعبون﴾ أي إلا استمعوا القرآن مستهزئين قال الحسن : كلما جدد لهم الذكر استمروا على الجهل^(٢) ﴿لاهيّة قلوبهم﴾ أي ساهية قلوبهم عن كلام الله ، غافلة عن تدبر معناه ﴿وأسروا النجوى الذين ظلموا﴾ أي تناجى المشركون فيما بينهم سراً ﴿هل هذا إلا بشر مثلكم﴾ أي قالوا فيما بينهم خفية هل محمد الذي يدعى الرسالة إلا شخص مثلكم يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟ ﴿أفتأتون السحر وأنتم تبصرون﴾ أي أفتقبلون السحر وأنتم تعلمون أنه سحر ؟ قال الألوسي : أرادوا أن ما أتى به محمد عليه السلام من قبيل السحر ، وذلك بناءً على ما ارتكز في اعتقادهم أن الرسول لا يكون إلا ملكاً وأن كل ما جاء به من الخوارق من قبيل السحر وعنوا بالسحر القرآن^(٣) ﴿قال ربي يعلم القول في السماء والأرض﴾ أي قال محمد ﷺ إن ربي لا يخفى عليه شيء مما يقال في السماء والأرض ﴿وهو السميع العليم﴾ أي السميع بأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، وفي هذا تهديد لهم ووعد ﴿بل قالوا أضغاث

(١) البيت لأبي العتاهية كذا في ابن كثير ٥٠١/٢ . (٢) القرطبي ٢٦٨/١١ . (٣) الألوسي ٩/١٧ .

أَفْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأُولُونَ ﴿٦٦﴾ مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوْحِي إِلَيْهِمْ فَسَلُّوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ ﴿٧٠﴾ لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٧١﴾ وَكَرَّ قَصْمَنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿٧٢﴾ فَلَمَّا أَحْسَوْا بِأَسْنَانَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿٧٣﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ

أحلام ﴿٦٦﴾ هذا إضرابٌ من جهته تعالى وانتقال إلى ما هو أشنع وأقبح حيث قالوا عن القرآن إنه أخلاط منامات ﴿٦٧﴾ بل افتراه ﴿٦٨﴾ أي اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿٦٩﴾ بل هو شاعر ﴿٧٠﴾ أي بل محمد شاعر وما أتى به شعر يخيل للسامع أنه كلام رائع مجيد قال في التسهيل : حكى عنهم هذه الأقوال الكثيرة ليظهر اضطراب أمرهم وبطلان أقوالهم فهم متحIRON لا يستقرون على شيء ^(١) ﴿٧١﴾ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون ﴿٧٢﴾ أي فليأتنا محمد بمعجزة خارقة تدل على صدقه كما أرسل موسى بالعصا وصالح بالناقة ﴿٧٣﴾ ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أفهم يؤمنون ﴿٧٤﴾ أي ما صدق قبل مشركي مكة أهل القرى الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات بل كذبوا فأهلكهم الله أفیصدق هؤلاء بالآيات لو رأوها ؟ كلا قال أبو حيان : وهذا استبعاد وإنكار أي هؤلاء أعتى من الذين اقترحوا على أنبيائهم الآيات فلو أعطيناهم ما اقترحوا لكانوا أضل من أولئك واستحقوا عذاب الاستئصال ولكن الله تعالى حكم بإيقائهم لعلمه أنه سيخرج منهم مؤمنون ﴿٧٥﴾ وما أرسلنا قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم ﴿٧٦﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد إلا رسلاً من البشر لا ملائكة فكيف ينكر هؤلاء المشركون رسالتك ويقولون : ما هذا إلا بشر مثلكم ؟ ﴿٧٧﴾ فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون ﴿٧٨﴾ أي فاسألوا يا أهل مكة العلماء بالتوراة والإنجيل هل كان الرسل الذين جاءوهم بشراً أم ملائكة ؟ إن كنتم لا تعلمون ذلك ﴿٧٩﴾ وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام ﴿٨٠﴾ أي ما جعلنا الأنبياء أجساداً لا يأكلون ولا يشربون كالملائكة بل هم كسائر البشر يأكلون ويشربون ، وينامون ويموتون ﴿٨١﴾ وما كانوا خالدين ﴿٨٢﴾ أي ما كانوا مخلصين في الدنيا لا يموتون ﴿٨٣﴾ ثم صدقناهم الوعد فأنجيناهم ومن نشاء ﴿٨٤﴾ أي ثم صدقنا الأنبياء ما وعدناهم به من نصرهم وإهلاك مكذبيهم وإنجائهم مع أتباعهم المؤمنين ﴿٨٥﴾ وأهلكنا المسرفين ﴿٨٦﴾ أي وأهلكنا المكذبين للرسل ، المجاوزين الحد في الكفر والضلال ، وهذا تخويف لأهل مكة ﴿٨٧﴾ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم ﴿٨٨﴾ اللام للقسمة أي والله لقد أنزلنا إليكم يا معشر العرب كتاباً عظيماً مجيداً لا يماثله كتاب فيه شرفكم وعزكم لأنه بلغتكم ﴿٨٩﴾ أفلا تعقلون ﴿٩٠﴾ أي أفلا تعقلون هذه النعمة فتؤمنون بما جاءكم به محمد عليه السلام ؟ ﴿٩١﴾ وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة ﴿٩٢﴾ أي وكثيراً أهلكنا من أهل القرى الذين كفروا بآيات الله وكذبوا رسله ﴿٩٣﴾ وأنشأنا بعدهم قوماً آخرين ﴿٩٤﴾

وَمَسْكِنَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَتَوَلَّيْنَا إِنْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خِلْمِينَ ﴿١٥﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِعَيْنٍ ﴿١٦﴾ لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ آلًا تَتَّخِذُهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١٧﴾ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴿٢٠﴾

أي وخلقنا أمة أخرى بعدهم ﴿فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون﴾ أي فلما رأوا عذابنا بحاسة البصر وتيقنوا نزوله إذا هم يهربون فارين منهزمين قال أبو حيان: لما أدركتهم مقدمة العذاب ركبوا دوابهم يركضونها هاربين منهزمين^(١) ﴿لا تركضوا وارجعوا إلى ما أترفتم فيه﴾ أي تقول لهم الملائكة استهزاء: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب وارجعوا إلى ما كنتم فيه من النعمة والسرور ولين العيش ﴿ومساكنكم﴾ أي ارجعوا إلى مساكنكم الطيبة ﴿لعلكم تُسألون﴾ أي لعلكم تُسألون عما جرى عليكم ، وهذا كله من باب الاستهزاء والتوبيخ ﴿قالوا يا ويلنا إنا كنا ظالمين﴾ أي قالوا يا هلاكنا ودمارنا إنا كنا ظالمين بالإشراك وتكذيب الرسل ، اعترفوا وندموا حين لا ينفعهم الندم ﴿فما زالت تلك دعواهم﴾ أي فما زالت تلك الكلمات التي قالوها يكررونها ويرددونها ﴿حتى جعلناهم حصيداً خامدين﴾ أي حتى أهلكناهم بالعذاب وتركناهم مثل الحصيد موتى كالزروع المحصود بالمناجل ﴿وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لآعين﴾ أي لم نخلق ذلك عبثاً وباطلاً وإنما خلقناها دلالة على قدرتنا ووحدانيتنا ليعتبر الناس ويستدلوا بالخلق على وجود الخالق المدبر الحكيم ﴿لو أردنا أن نتخذ لهم آلاء﴾ قال ابن عباس: هذا رد على من قال اتخذ الله ولداً والمعنى لو أردنا أن نتخذ ما يتلهم به من زوجة أو ولد ﴿لا نتخذناه من لدنا﴾ أي لا نتخذناه من عندنا من الحور العين أو الملائكة ﴿إن كنا فاعلين﴾ أي لو أردنا فعل ذلك لا نتخذنا من لدنا ولكنه منافٍ للحكمة فلم نفعله ﴿بل نقذف بالباطل فيدمغه﴾ أي بل نرمي بالحق المبين على الباطل المتزعزع فيقمعه ويُبطله ﴿فإذا هو زاهق﴾ أي هالك تالف ﴿ولكم الويل مما تصفون﴾ أي ولكم يا معشر الكفار العذاب والدمار من وصفكم الله تعالى بما لا يجوز من الزوجة والولد ﴿وله من في السموات والأرض﴾ أي وله جل وعلا جميع المخلوقات ملكاً وخلقاً وتصرفاً فكيف يجوز أن يشرك به ما هو عبدٌ ومخلوق له ؟ ﴿ومن عنده لا يستكبرون عن عبادته ولا يستحسرون﴾ أي والملائكة الذين عبدتموهم من دون الله لا يتكبرون عن عبادة مولاهم ولا يعيئون ولا يملئون ﴿يُسبِّحون الليل والنهار لا يفترون﴾ أي هم في عبادة دائمة ينزهون الله عما لا يليق به

أَمْ اتَّخَذُوا إِلَهَةً مِّنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ ﴿٢١﴾ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴿٢٣﴾ أَمْ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ إِلَهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِّن مَّعِيَ وَذِكْرٌ مِّن قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٢٤﴾

ويصلّون ويذكرون الله ليل نهار لا يضعفون ولا يسأمون ﴿٢١﴾ أم اتخذوا آلهة من الأرض هم يُنشرون ﴿٢١﴾ لما ذكر الدلائل على وحدانيته وأن من في السموات والأرض ملك له وأن الملائكة المقربين في طاعته وخدمته عاد إلى ما كان عليه من توبيخ المشركين وذمهم وتسفيه أحلامهم ، ﴿٢٢﴾ أم ﴿٢٢﴾ منقطعة بمعنى بل والهمزة فيها استفهام معناه التعجب والإنكار والمعنى هل اتخذ هؤلاء المشركون آلهة من الأرض قادرين على إحياء الموتى ؟ كلا بل اتخذوا آلهة جماداً لا تتصف بالقدرة على شيء فهي ليست بآلهة على الحقيقة لأن من صفة الإله القدرة على الإحياء والإماتة ﴿٢٣﴾ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴿٢٣﴾ هذا برهان على وحدانيته تعالى أي لو كان في الوجود آلهة غير الله لفسد نظام الكون كله لما يحدث بين الآلهة من الاختلاف والتنازع ^(١) في الخلق والتدبير وقصد المغالبة ، ألا ترى أنه لا يوجد ملكان في مدينة واحدة ، ولا رئيسان في دائرة واحدة ؟ ﴿٢٤﴾ فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴿٢٤﴾ أي تنزه الله الواحد الأحد خالق العرش العظيم عما يصفه به أهل الجهل من الشريك والزوجة والولد ﴿٢٤﴾ لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون ﴿٢٤﴾ أي لا يسأل تعالى عما يفعل لأنه مالك كل شيء والمالك يفعل في ملكه ما يشاء ، ولأنه حكيم فأفعاله كلها جارية على الحكمة ، وهم يُسألون عن أعمالهم لأنهم عبيد ﴿٢٤﴾ أم اتخذوا من دونه آلهة ﴿٢٤﴾ كرر هذا الإنكار استعظماً للشرك ومبالغة في التوبيخ أي هل اتخذوا آلهة من دون الله تصلح للعبادة والتعظيم ؟ ﴿٢٤﴾ قل هاتوا برهانكم ﴿٢٤﴾ أي قل يا محمد لأولئك المشركين اثبتوني بالحجة والبرهان على ما تقولون ﴿٢٤﴾ هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ﴿٢٤﴾ أي هذا الكتاب الذي معي والكتب التي من قبلي كالتوراة والإنجيل ليس فيها ما يقتضي الإشراف بالله ، ففي أي كتاب نزل هذا ؟ في القرآن أم في الكتب المنزلة على سائر الأنبياء ؟ ! فما زعمتموه من وجود الآلهة لا تقوم عليه حجة لا من جهة العقل ولا النقل ، بل كتب الله السابقة شاهدة بتنزيهه عن الشركاء والأنداد ﴿٢٤﴾ بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون ﴿٢٤﴾ أي بل أكثر المشركين لا يعلمون التوحيد فهم معرضون عن النظر والتأمل في دلائل الإيمان .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التنكير في غفلة للتعظيم والتفخيم ﴿٢٤﴾ وهم في غفلة .

(١) قال المفسرون : في الآية دليل على التامع الذي أورده الأصوليون وذلك أنا لو فرضنا إلهين فأراد أحدهما شيئاً وأراد الآخر نقيضه ، فإما أن تنفذ إرادة كل منهما وذلك محال لاستحالة اجتماع النقيضين ، وإما أن تنفذ إرادة واحد منهما دون الآخر فيكون الأول الذي تنفذ إرادته هو الإله ، والثاني عاجز فلا يصلح أن يكون إلهاً .

٢ - صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٣ - الإضراب الترقى ﴿بل قالوا أضغاث أحلام بل افتراه بل هو شاعر﴾ وهذا الاضطراب في وصف القرآن يدل على التردد والتحير في تزويرهم للحق الساطع المنير فقولهم الثاني أفسد من الأول ، والثالث أفسد من الثاني .

٤ - الإنكار التويخي ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟

٥ - التشبيه البليغ ﴿حصيداً خامدين﴾ أي جعلناهم كالزرع المحصود وكالنار الخامدة .

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه﴾ شبه الحق بشيء صلب والباطل بشيء رخو واستعير لفظ القذف والدمغ لغلبة الحق على الباطل بطريق التمثيل فكأنه رمي بجرم صلب على رأس دماغ الباطل فشقه وفي هذا التعبير مبالغة بديعة في إزهاق الباطل .

٧ - طباق السلب ﴿لا يسأل عما يفعل وهم يُسألون﴾ .

٨ - التبكيت وإلزام الحجر للخصم ﴿قل هاتوا برهانكم﴾ .

فَكَايْدَة : سئل كعب عن الملائكة كيف يسبحون الليل والنهار لا يفترون ؟ أما يشغلهم شأن ، أما تشغلهم حاجة ؟ فقال للسائل : يا ابن أخي جعل لهم التسبيح كما جعل لكم النفس ، ألسنت تأكل وتشرب ، وتقوم وتجلس ، وتحيا وتذهب وأنت تتنفس ؟ فكذلك جعل لهم التسبيح^(١) .

قال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي... إلى... أفأنتم له منكرون﴾

من آية (٢٥) إلى نهاية آية (٥٠) .

المناسكة : لما بين تعالى أحوال المشركين وأقام الأدلة والبراهين على وحدانية الله وبطلان تعدد الآلهة ، ذكر هنا أن دعوة الرسل جميعاً إنما جاءت لبيان التوحيد ثم ذكر بقية الأدلة على قدرة الله ووحدانيته في هذا الكون العجيب .

اللفظة : ﴿رتقاً﴾ الرتق : الضم والالتحام وهو ضد الفتق يقال رتقت الشيء فارتق أي التأم ومنه الرتقاء للمنضمة الفرج ﴿تميد﴾ تتحرك وتضطرب ﴿فجاجاً﴾ جمع فج وهو المسلك والطريق الواسع ﴿يسبحون﴾ يجرون ويسرون بسرعة كالسباح في الماء ﴿فبتهتهم﴾ تدهشهم وتحيرهم قال الجوهري : بهته بهتاً أخذه بغته وقال الفراء : بهته إذا واجهه شيء يحيره^(٢) ﴿يكلائكم﴾ يحرسكم ويحفظكم والكلاءة : الحراسة والحفظ .

سَبَبُ النَّزُولِ : مرَّ النبي ﷺ على أبي سفيان وأبي جهل وهما يتحدثان ، فلما رآه أبو جهل ضحك وقال لأبي سفيان : هذا نبي بني عبد مناف ! ! فغضب أبو سفيان وقال : ما تنكر أن يكون لبني عبد مناف نبي ؟ فرجع رسول الله ﷺ إلى أبي جهل وقال له : ما أراك منتهياً حتى يصيبك ما أصاب عمك الوليد بن المغيرة فنزلت ﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ يَتَخَذُونَكُمْ إِلهَ هُزُوءٍ ۖ ﴾ (١) الآية .

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾ وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَنَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ ﴿٢٦﴾ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴿٢٧﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴿٢٨﴾ * وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِي جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا

التفسير : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول ﴾ أي وما بعثنا قبلك يا محمد رسولا من الرسل ﴿ إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا ﴾ أي إلا أوحينا إليه أنه لا رب ولا معبود بحق سوى الله ﴿ فاعبدون ﴾ أي فاعبدوني وحدي وخصوني بالعبادة ولا تشركوا معي أحداً ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولداً ﴾ أي قال المشركون اتخذ الله من الملائكة ولداً قال المفسرون : هم حي من خزاعة قالوا : الملائكة بنات الله ﴿ سبحانه ﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يقول الظالمون ﴿ بل عبادٌ مُكْرَمُونَ ﴾ أي بل هم عبادٌ مبدلون اصطفاهم الله فهم مكرمون عنده في منازل عالية ، ومقامات سامية وهم في غاية الطاعة والخضوع ﴿ لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ﴾ أي لا يقولون شيئاً حتى يقوله شأنهم شأن العبيد المؤمنين وهم بطاعته وأوامره يعملون لا يخالفون ربه في أمر من الأوامر ﴿ يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ﴾ أي علمه تعالى محيط بهم لا يخفى عليه منهم خافية ﴿ ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ﴾ أي لا يشفعون يوم القيامة إلا لمن رضي الله عنه وهم أهل الإيمان كما قال ابن عباس : هم أهل شهادة لا إله إلا الله ﴿ وهم من خشيته مشفقون ﴾ أي وهم من خوف الله ورهبته خائفون حذرون لأنهم يعرفون عظمة الله قال الحسن : يرتعدون من خشية الله ﴿ ومن يقل منهم إني إله من دونه ﴾ أي ومن يقل من الملائكة إني إله ومعبود مع الله ﴿ فذلك نجزيه جهنم ﴾ أي فعقوبته جهنم قال المفسرون : هذا على وجه التهديد وعلى سبيل الفرض والتقدير لأن هذا شرط والشرط لا يلزم وقوعه والملائكة معصومون ﴿ كذلك نجزي الظالمين ﴾ أي مثل ذلك الجزاء الشديد نجزي من ظلم وتعدى حدود الله ﴿ أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففلقناهما ﴾ استفهام توبيخ لمن ادعى مع الله آلهة ورد على عبدة الأوثان أي أولم يعلم هؤلاء الجاحدون أن السموات والأرض كانتا

رَتَقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيًا أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٢١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ ﴿٢٢﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا جَعَلْنَا لِلْبَشَرِ مِنْ قَبْلِكَ الْخَلْدَ أَفَلَا يَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ ﴿٢٤﴾

شيئاً واحداً ملتصقتين ففصل الله بينهما ورفع السماء إلى حيث هي وأقر الأرض كما هي ؟ قال الحسن وقتادة : كانت السموات والأرض ملتزقتين ففصل الله بينهما بالهواء^(١) وقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات^(٢) ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي جعلنا الماء أصل كل الأحياء وسبباً للحياة فلا يعيش بدونه إنسان ولا حيوان ولا نبات ﴿أفلا يؤمنون﴾ أي أفلا يصدقون بقدرة الله ؟ ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تُمِيدَ بِهِمْ﴾ أي جعلنا في الأرض جبالاً ثوابت لئلا تتحرك وتضطرب فلا يستقر لهم عليها قرار ﴿وجعلنا فيها فجاجاً سُبُلًا لعلهم يهتدون﴾ أي وجعلنا في هذه الجبال مسالك وطرقاً واسعة كي يهتدوا إلى مقاصدهم في الأسفار قال ابن كثير : جعل في الجبال ثغراً يسلكون فيها طرقاً من قطر إلى قطر ، وإقليم إلى إقليم ، كما هو المشاهد في الأرض يكون الجبل حائلاً بين هذه البلاد وهذه فيجعل الله فيها فجوة ليسلك الناس فيها من ههنا إلى ههنا^(٣) ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً﴾ أي جعلنا السماء كالسقف للأرض محفوظة من الوقوع والسقوط وقال ابن عباس : حفظت بالنجوم من الشياطين ﴿وهم عن آياتها معرضون﴾ أي والكفار عن الآيات الدالة على وجود الصانع وقدرته من الشمس والقمر والنجوم وسائر الأدلة والعبير معرضون لا يتفكرون فيما أبدعته يد القدرة من الخلق العجيب والتنظيم الفريد الدال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة قال القرطبي : بين تعالى أن المشركين غفلوا عن النظر في السموات وآياتها ، من ليلها ونهارها ، وشمسها وقمرها ، وأفلاكها ورياحها ، وما فيها من القدرة الباهرة إذ لو نظروا واعتبروا لعلموا أن لها صانعاً قادراً واحداً يستحيل أن يكون له شريك^(٤) ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر﴾ أي وهو تعالى بقدرته نوع الحياة فجعل فيها ليلاً ونهاراً هذا في ظلامه وسكونه ، وهذا بضياءه وأنسه ، يطول هذا تارة ثم يقصر أخرى وبالعكس ، وخلق الشمس والقمر آيتين عظيمتين دلتين على وحدانيته ﴿كل في فلك يسبحون﴾ أي كل من الشمس والقمر والنجوم والكواكب والليل والنهار يجرون ويسرون بسرعة كالسابع في الماء ﴿وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد﴾ أي وما جعلنا لأحد من البشر قبلك يا محمد البقاء الدائم والخلود في الدنيا ﴿أفئنم ميت فهم الخالدون﴾ أي فهل إذا مت يا محمد سيخلدون بعدك في هذه الحياة ؟ لا لن يكون لهم ذلك بل كل إلى الفناء قال المفسرون : هذا رد لقول

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا رَأَوْا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْكُمْ أَن يَخْذُونَكُمْ إِلَّا هُزُؤًا أَهْذًا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٦﴾ خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٨﴾ لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ ﴿٣٩﴾ بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً

المشركين ﴿شاعرٌ تريبص به ريب المنون﴾ فأعلم تعالى بأن الأنبياء قبله ماتوا وتولى الله دينه بالنصر والحياطة ، فهكذا نحفظ دينك وشرعك ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ أي كل مخلوق إلى الفناء ولا يدوم إلا الحي القيوم ﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾ أي ونختبركم بالمصائب والنعم لنرى الشاكر من الكافر ، والصابر من القانط قال ابن عباس : نبتليكم بالشدة والرخاء ، والصحة والسقم ، والغنى والفقر ، والحلال والحرام ، والطاعة والمعصية ، والهدى والضلال^(١) وقال ابن زيد : نختبركم بما تحبون لنرى كيف شكركم ، وبما تكرهون لنرى كيف صبركم^(٢) ! ! ﴿وإلينا ترجعون﴾ أي وإلينا مرجعكم فنجازيكم بأعمالكم ﴿وإذا رآك الذين كفروا أن يتخذونك إلا هزوا﴾ أي إذا رآك كفار قريش كأبي جهل وأشياعه ما يتخذونك إلا مهزوءاً به يقولون ﴿أهذا الذي يذكر آلهتكم﴾ استفهام فيه إنكار وتعجب أي هذا الذي يسب آلهتكم ويُسفه أحلامكم ؟ ﴿وهم يذكرون الرحمن هم كافرون﴾ أي وهم كافرون بالله ومع ذلك يستهزئون برسول الله قال القرطبي : كان المشركون يعيبون من جحد إلهية أصنامهم وهم جاحدون لإلهية الرحمن ، وهذا غاية الجهل^(٣) ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ أي ركب الإنسان على العجلة فخلق عجولاً يستعجل كثيراً من الأشياء وإن كانت مضرّة قال ابن كثير : والحكمة في ذكر عجلة الإنسان ههنا أنه لما ذكر المستهزئين بالرسول ﷺ وقع في النفوس سرعة الانتقام منهم واستعجلوا ذلك^(٤) ولهذا قال ﴿سأوريكم آياتي فلا تستعجلون﴾ أي سأوريكم انتقامي واقتداري على من عصاني فلا تتعجلوا الأمر قبل أوانه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية : متى هذا العذاب الذي يعدنا به محمد إن كنتم يا معشر المؤمنين صادقين فيما أخبرتمونا به قال تعالى ﴿لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفون عن وجوههم النار ولا عن ظهورهم﴾ أي لو عرف الكافرون فظاعة العذاب حين لا يستطيعون دفع العذاب عن وجوههم وظهورهم لأنه محيط بهم من جميع جهاتهم لما استعجلوا الوعيد قال في البحر : وجواب ﴿لو﴾ محذوف لأنه أبلغ في الوعيد وأهيب وقدره الزمخشري بقوله : لما كانوا بتلك الصفة من الكفر والاستهزاء والاستعجال ولكن جهلهم هو الذي هوّنهم عندهم^(٥) ﴿ولا هم ينصرون﴾ أي لا ناصر لهم من عذاب الله ﴿بل تأتيتهم بغتة فتبتهتهم﴾ أي بل تأتيتهم الساعة فجأة فندهشهم وتحيرهم ﴿فلا يستطيعون ردّها ولا هم ينظرون﴾

فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴿٤١﴾ وَلَقَدْ اسْتَهْزَى بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٤٢﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ۚ بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٣﴾ أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِّن دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ ﴿٤٤﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُم بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَئِن مَّسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ

أي فلا يقدرُونَ على صرفها عنهم ولا يُهلُونَ ويؤخرون لتوبة واعتذار ﴿٤١﴾ ولقد استهزى برسُلٍ من قبلك ﴿٤٢﴾ تسلياً لرسول الله ﷺ عن استهزاء المشركين أي والله لقد استهزى برسُلٍ أولى شأنٍ خطير وذوي عدد كثير من قبلك يا محمد ﴿٤٣﴾ فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴿٤٤﴾ أي فتزل وحلٌ بالسافرين من الرسل العذاب الذي كانوا يستهزئون به قال أبو حيان : سلاه تعالى بأن من تقدمه من الرسل وقع من أمهم الاستهزاء بهم ، وأن ثمرة استهزائهم جنوها هلاكاً وعقاباً في الدنيا والآخرة فكذلك حال هؤلاء المستهزين ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَن يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴿٤٧﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المستهزين من يحفظكم من بأس الرحمن في أوقاتكم ؟ ومن يدفع عنكم عذابه وانتقامه إن أراد إنزاله بكم ؟ وهو سؤال تقرير وتنبيه كيلا يغترؤا بما نالهم من نعم الله ﴿٤٨﴾ بل هم عن ذكر ربهم معرضون ﴿٤٩﴾ أي بل هؤلاء الظالمون معرضون عن كلام الله ومواعظه لا يتفكرون ولا يعتبرون ﴿٥٠﴾ أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا ﴿٥١﴾ أي لهم آلهة تمنعهم من العذاب غيرنا ؟ ﴿٥٢﴾ لا يستطيعون نصر أنفسهم ﴿٥٣﴾ أي لا يقدرُونَ على نصر أنفسهم ، فكيف ينصرون عابديهم ؟ ﴿٥٤﴾ ولا هم منا يُصْحَبُونَ ﴿٥٥﴾ أي وليست هذه الآلهة تستطيع أن تجير نفسها من عذاب الله لأنها في غاية العجز والضعف قال ابن عباس : يُصْحَبُونَ : يُجَارُونَ أي لا يُجِيرُهُمْ مِنَّا أَحَدٌ لَّأَنَّ الْمَجِيرَ صَاحِبَ لِّجَارِهِ ﴿٥٦﴾ ﴿٥٧﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءَ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ﴿٥٨﴾ أي متعنا هؤلاء المشركين وآباءهم من قبلهم بما رزقناهم من حطام الدنيا حتى طالت أعمارهم في رخاء ونعمة وحسبوا أن ذلك يدوم فاعتروا بذلك ﴿٥٩﴾ أفلا يرون أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴿٦٠﴾ أي أفلا ينظرون فيعتبرون بأننا نأتي أرضهم فننقصها من أطرافها بالفتح على النبي وتسليط المسلمين عليها ؟ ﴿٦١﴾ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿٦٢﴾ استفهام بمعنى التقرير والإنكار أي أفهم الغالبون والحالة هذه أم المغلوبون ؟ بل هم المغلوبون الأخسرون الأذليون ﴿٦٣﴾ قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُم بِالْوَحْيِ ﴿٦٤﴾ أي قل لهم يا محمد إنما أخوفكم وأحذركم بوحى من الله لا من تلقاء نفسي ، فأنا مبلغٌ عن الله ما أنذرتكم به من العذاب والنكال ﴿٦٥﴾ ولا يسمع الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنْذَرُونَ ﴿٦٦﴾ أي ولكنكم أيها المشركون لشدة جهلكم وعنادكم كالصُّمِّ الذين لا يسمعون الكلام والإنذار فلا يتعظون ولا ينزجرون ﴿٦٧﴾ ولئن مسَّتْهم نَفْحَةٌ مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ ﴿٦٨﴾ أي

لَيَقُولَنَّ يَوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٤٦﴾ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ ﴿٤٧﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ وَضِيَاءً وَذِكْرًا لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَهَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٥٠﴾

ولئن أصابهم شيء خفيف مما أنذروا به من عذاب الله ولو كان يسيراً ﴿٤٦﴾ ليقولنَّ يا ويلنا إِنَّا كنا ظالمين ﴿٤٧﴾ أي ليعترفنَّ بجريمتهم ويقولون : يا هلاكنا لقد كنا ظالمين لأنفسنا بتكذيبنا رسل الله ﴿٤٨﴾ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة ﴿٤٩﴾ أي ونقيم الموازين العادلة التي توزن بها الأعمال في يوم القيامة ﴿٥٠﴾ فلا تُظلم نفس شيئاً ﴿٤٦﴾ أي فلا يُنقص محسنٌ من إحسانه ، ولا يُزاد مسيءٌ على إساءته ﴿٤٧﴾ وإن كان مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ﴿٤٨﴾ أي وإن كان العمل الذي عملته زنة حبةٍ من خردلٍ جثنا بها وأحضرناها قال أبو السعود : أي وإن كان في غاية القلة والحقارة ، فإن حبة الخردل مثلٌ في الصغر ^(١) ﴿٤٩﴾ وكفى بنا حاسبين ﴿٤٨﴾ أي كفى بربك أن يكون محصياً لأعمال العباد مجازياً عليها قال الخازن : والغرضُ منه التحذير فإن المحاسب إذا كان في العلم بحيث لا يمكن أن يشبهه عليه شيء ، وفي القدرة بحيث لا يعجز عن شيء فحقيق بالعاقل أن يكون على أشدِّ الخوف منه ^(٢) ﴿٥٠﴾ ولقد آتينا موسى وهارون الفرقان وضياءً وذكرًا للمتقين ﴿٤٨﴾ أي ولقد أعطينا موسى وهارون التوراة الفارقة بين الحق والباطل والهدى والضلال نوراً وضياءً وتذكيراً للمؤمنين ﴿٤٩﴾ الذين يخشون ربهم بالغيب ﴿٤٨﴾ أي هم الذين يخافون الله ولم يروه لأنهم عرفوا بالنظر والاستدلال أن لهم رباً عظيماً قادراً يجازي على الأعمال فهم يخشونه وإن لم يروه ﴿٥٠﴾ وهم من الساعة مشفقون ﴿٤٩﴾ أي وهم من أهوال القيامة وشدائدها خائفون وجلون ﴿٥٠﴾ وهذا ذكرٌ مباركٌ أنزلناه ﴿٤٨﴾ أي وهذا القرآن العظيم كتاب عظيم الشأن فيه ذكرٌ لمن تذكَّر ، وعظة لمن اتعظ ، كثير الخير أنزلناه عليكم بلغتكم ﴿٥٠﴾ أفأنتم له منكرون ﴿٤٩﴾ أي أفأنتم يا معشر العرب منكرون له وهو في غاية الجلاء والظهور ؟ قال الكرخي : الاستفهام للتوبيخ والخطابُ لأهل مكة فإنهم من أهل اللسان يدركون مزايا الكلام ولطائفه ، ويفهمون من بلاغة القرآن ما لا يدركه غيرهم مع أن فيه شرفهم وصيتهم فلو أنكره غيرهم لكان لهم مناصبته وعداؤه ^(٣) .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . رسول﴾ .
- ٢ - الاستفهام الذي معناه التعجب والإنكار ﴿أولم ير الذين كفروا﴾ .

(١) أبو السعود ١٢٤/٣ . (٢) حاشية الجمل ١٣١/٣ . (٣) انظر البحر المحيط ٣١٢/٦ .

- ٣ - الطباق بين الرتق والفتق في قوله ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾ .
- ٤ - التنكير للتعميم ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ ﴿وما جعلنا لبشر﴾ .
- ٥ - الالتفات من المتكلم إلى الغائب ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار﴾ بعد قوله ﴿وجعلنا من الماء﴾ وذلك لتأكيد الاعتناء بالنعم الجليلة التي أنعم بها على العباد .
- ٦ - الطباق بين الشر والخير ﴿ونبلوكم بالشر والخير﴾ .
- ٧ - المبالغة ﴿خلق الإنسان من عجل﴾ جعل لفرط استعجاله كأنه مخلوق من نفس العجل كقول العرب لمن لازم اللعب : هو من لعب وكوصف بعضهم قوماً بقوله «نساؤهم لُعْب ورجالهم طرب» .
- ٨ - الاستعارة ﴿ولا يسمع الصم الدعاء﴾ استعار الصم للكفار لأنهم كالبهائم التي لا تسمع الدعاء ولا تفقه النداء .
- ٩ - الكناية ﴿حبة من خردل﴾ كناية عن العمل ولو كان في غاية القلة والحقارة .
- ١٠ - السجع اللطيف ﴿يهتدون ، يسبحون ، يُنصرون﴾ الخ .

تنبية : سئل ابن عباس : هل الليل كان قبل أو النهار ؟ فقال : رأيتم الى السموات والأرض حين كانتا رتقاً هل كان بينهما إلا ظلمة ؟ ذلك لتعلموا أن الليل قبل النهار^(١) .

لطيفة : عن ابن عمر أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما فقال له : إذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله ثم تعال فأخبرني بما قال لك - يريد ابن عباس - فذهب إليه فسأله فقال ابن عباس : كانت السموات رتقاً لا تمطر ، وكانت الأرض رتقاً لا تثبت ، فلما خلق للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر ، وفتق هذه بالنبات ، فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر : قد كنت أقول : ما يعجبني جراءة ابن عباس في تفسير القرآن ، فالآن علمت بأنه قد أوتي في القرآن علماً^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عالمين . . إلى . . وكنا لهم حافظين﴾

من آية (٥١) إلى نهاية آية (٨٢) .

المناسبة : لما ذكر تعالى الدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أتبع ذلك بذكر قصص الأنبياء ، وما نال كثيراً منهم من الابتلاء تسلياً للرسول الأعظم ﷺ ليتأسى بهم في الصبر واحتمال الأذى في سبيل الله تعالى ، وتوطين النفس على مجابهة المشركين أعداء الله .

الغفر : ﴿رشده﴾ هداه إلى وجوه الصلاح ﴿التائب﴾ جمع تمال وهو الصورة المصنوعة مشبهة بمخلوق من مخلوقات الله تعالى يقال : مثلت الشيء بالشيء أي شبهته به واسم ذلك الممثل تمال ﴿جذاذا﴾ فتاناً والجذ : الكسر والقطع قال الشاعر :

بنو المهلب جذ الله دابرهم أمسوا رماداً فلا أصل ولا طرف^(١)

﴿نكسوا﴾ النكس : قلب الشيء بحيث يصير أعلاه أسفل ﴿نافلة﴾ زيادة ومنه النفل لأنه زيادة على ما فرض الله ويقال لولد الولد نافلة لأنه زيادة على الولد ﴿الكرب﴾ الغم الشديد ﴿نفشت﴾ النفش : الرعي بالليل بلا راع يقال : نفشت بالليل ، وهملت بالنهار إذا رعت بلا راع .

* وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ ﴿٥١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴿٥٢﴾ قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ ﴿٥٣﴾ قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٥٤﴾ قَالُوا أَجِئْتَنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٦﴾ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُولُوا مُدِيرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا

النفيس : ﴿ولقد آتينا إبراهيم رشده﴾ أي والله لقد أعطينا إبراهيم هداه وصلاحه إلى وجوه الخير في الدين والدنيا ﴿من قبل﴾ أي من صغره حيث وفقناه للنظر والاستدلال إلى وحدانية ذي الجلال ﴿وكنا به عالمين﴾ أي عالمين أنه أهل لما آتيناه من الفضل والنبوة ﴿إذ قال لأبيه وقومه ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون﴾ هذا بيان للرشد الذي أوتيته إبراهيم من صغره أي حين قال لأبيه آزر وقومه المشركين ما هذه الأصنام التي أنتم مقيمون على عبادتها ؟ وفي قوله ﴿ما هذه التماثيل﴾ تحقير لها وتصغير لشأنها وتجاهل بها مع علمه بتعظيمهم لها ﴿قالوا وجدنا آبائنا لها عابدين﴾ أي نعبدتها تقليداً لأسلافنا قال ابن كثير : لم يكن لهم حجة سوى صنيع آبائهم الضلال^(٢) ﴿قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين﴾ أي لقد كنتم وأسلافكم الذين عبدوا هذه الأصنام في خطأ بين بعبادتكم إياها إذ هي جمادات لا تنفع ولا تضر ولا تسمع ﴿قالوا أجئتنا بالحق أم أنت من اللاعبين﴾ أي هل أنت جاد فيما تقول أم لاعب ؟ وهل قولك حق أم مزاح ؟ استعظموا إنكاره عليهم ، واستبعدوا أن يكون ما هم عليه ضلالاً ، وجوزوا أن ما قاله على سبيل المزاح لا الجد فأضرب عن قولهم وأخبر أنه جاد فيما قال غير لاعب ﴿قال بل ربكم رب السموات والأرض الذي فطرهن﴾ أي ربكم الجدير بالعبادة هو رب السموات والأرض الذي خلقهن وأبدعهن لا هذه الأصنام المزعومة ﴿وأنا على ذلكم من الشاهدين﴾ أي وأنا شاهد لله بالوحدانية بالبراهين القاطعة والحجج الساطعة كالشاهد الذي تقطع به الدعاوى ﴿وتالله لا أكيدن أصنامكم بعد أن تولوا مدبرين﴾ أي وأقسم بالله لا مكرن بأهتكم وأحتالن في وصول الضر

إِلَّا كَبِيرًا هُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ وَابْرَاهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا ابْنِ بَرَاهِيمَ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿٦٣﴾ فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٦٤﴾

إليها بعد ذهابكم عنها إلى عيدكم قال المفسرون : كان لهم عيد يخرجون إليه في كل سنة ويجتمعون فيه فقال آزر لإبراهيم : لو خرجت معنا إلى عيدنا أعجبك ديننا ! ! فخرج معهم إبراهيم فلما كان ببعض الطريق ألقى نفسه إلى الأرض وقال إني سقيم أشتكى رجلي فتركوه ومضوا ثم نادى في آخرهم ﴿وتالله لا كيدن أصنامكم﴾ فسمعها رجلٌ فحفظها^(١) ﴿فجعلهم جُذاذاً﴾ أي كسر الأصنام حتى جعلها فتاتاً وحطاماً ﴿إلا كبيراً لهم﴾ أي إلا الصنم الكبير فإنه لم يكسره قال مجاهد : ترك الصنم الأكبر وعلق الفأس الذي كسر به الأصنام في عنقه ليحتج به عليهم^(٢) ﴿لعلهم إليه يرجعون﴾ أي لعلهم يرجعون إلى الصنم فيسألونه عمن كسر الأصنام فيتبين لهم عجزه وتقوم الحجة عليهم ﴿قالوا من فعل هذا بالهتنا إنه لمن الظالمين﴾ في الكلام محذوف تقديره : فلما رجعوا من عيدهم ونظروا إلى آلهتهم ورأوا ما فعل بها قالوا على جهة البحث والإنكار والتشنيع والتوبيخ : إن من حطم هذه الآلهة لشديد الظلم عظيم الجرم لجأته على الآلهة المستحقة للتعظيم والتوقير ﴿قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾ أي قال من سمع إبراهيم يقول ﴿وتالله لا كيدن أصنامكم﴾ سمعنا فتى يذكرهم بالذم ويسبهم ويعيبهم يسمى إبراهيم فعله هو الذي حطم الآلهة ! ﴿قالوا فأتوا به على أعين الناس﴾ أي قال غرود وأشرف قومه أحضروا إبراهيم بمرأى من الناس حتى يروه ، والغرض أن تكون محاكمته على رءوس الأشهاد بحضرة الناس كلهم ليكون عقابه عبرة لمن يعتبر ﴿لعلهم يشهدون﴾ أي لعلهم يحضرون عقابه ويرون ما يصنع به ﴿قالوا أأنت فعلت هذا بالهتنا يا إبراهيم﴾ أي هل أنت الذي حطمت هذه الآلهة يا إبراهيم ؟ ﴿قال بل فعله كبيرهم هذا﴾ أي قال إبراهيم بل حطمها الصنم الكبير لأنه غضب أن تعبدوا معه هذه الصغار فكسرها ، والغرض تبكيثهم وإقامة الحجة عليهم ولهذا قال ﴿فاسألوهم إن كانوا ينطقون﴾ أي اسألوا هذه الأصنام من كسرها؟ إن كانوا يقدرُونَ على النطق قال القرطبي : والكلام خرج مخرج التعريض وذلك أنهم كانوا يعبدونهم ويتخذونهم آلهة من دون الله كما قال إبراهيم لأبيه ﴿لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً﴾ فقال إبراهيم ﴿بل فعله كبيرهم هذا﴾ ليقولوا إنهم لا ينطقون ولا ينفعون ولا يضرُونَ فيقول لهم فلم تعبدونهم ؟ فتقوم عليهم الحجة منهم كما يجوز فرض الباطل مع الخصم حتى يرجع إلى الحق من نفسه فإنه أقرب في الحجة وأقطع للشبهة^(٣) ﴿فرجعوا إلى أنفسهم﴾ أي رجعوا إلى عقولهم وتفكروا بقلوبهم ﴿فقالوا إنكم أنتم الظالمون﴾ أي

ثُمَّ نَكْسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٧١﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً ۖ وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ ﴿٧٢﴾

أنتم الظالمون في عبادة ما لا ينطق ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ أي انقلبوا من الإذعان إلى المكابرة والطينان ﴿لقد علمت ما هؤلاء ينطقون﴾ أي قالوا في لجاجهم وعنادهم : لقد علمت يا إبراهيم أن هذه الأصنام لا تتكلم ولا تجيب فكيف تأمرنا بسؤالها ؟ وهذا إقرار منهم بعجز الآلهة ، وحينئذ توجهت لإبراهيم الحجة عليهم فأخذ يوبخهم ويعتقهم ﴿قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئاً ولا يضركم﴾ أي أتعبدون جمادات لا تضر ولا تنفع ؟ ﴿أف لكم ولما تعبدون من دون الله﴾ أي قبلاً لكم ونتناً لكم وللأصنام التي عبدتموها من دون الله ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفلا تعقلون قبح صنيعكم ؟ ﴿قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم﴾ لما لزمتهم الحجة وعجزوا عن الجواب عدلوا إلى البطش والتنكيل فقالوا : احرقوا إبراهيم بالنار انتقاماً لأهنتكم ونصرةً لها ﴿إن كنتم فاعلين﴾ أي إن كنتم ناصريها حقاً ﴿قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم﴾ أي ذات برد وسلامة وجاءت العبارة هكذا للمبالغة قال المفسرون : لما أرادوا إحراق إبراهيم جمعوا له حطباً مدة شهر حتى كانت المرأة تمرض فتندر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم ، ثم جعلوه في حفرة من الأرض وأضرموها ناراً فكان لها هب عظيم حتى إن الطائر ليمر من فوقها فيحترق من شدة وهجها وحرها ، ثم أوثقوا إبراهيم وجعلوه في منجنيق ورموه في النار ، فجاء إليه جبريل فقال : ألك حاجة ؟ قال أما إليك فلا ، فقال جبريل : فاسأل ربك ، فقال : «حسبي من سؤالي علمه بحالي» فقال الله : يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم^(١) ، ولم تحرق النار منه سوى وثاقه وقال ابن عباس : لو لم يقل الله ﴿وسلاماً﴾ لأذى إبراهيم بردها^(٢) ﴿وأرادوا به كيداً﴾ أي أرادوا تحريقه بالنار ﴿فجعلناهم الأخسرين﴾ أي أخسر الناس وأخسر من كل خاسر حيث كادوا لنبي الله فرد الله كيدهم في نحورهم ﴿ونجيناه ووطاً إلى الأرض التي باركنا فيها للعالمين﴾ أي ونجينا إبراهيم مع ابن أخيه لوط حيث هاجرا من العراق إلى الشام التي بارك الله فيها بالخصب وكثرة الأنبياء ووفرة الأنهار والأشجار قال ابن الجوزي : وبركتها أن الله عز وجل بعث أكثر الأنبياء منها وأكثر فيها الخصب والأنهار^(٣) ﴿ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة﴾ أي أعطينا إبراهيم - بعدما سأل ربه الولد - إسحاق وأعطيناه كذلك يعقوب نافلة أي زيادة وفضلاً من غير سؤال قال المفسرون : سأل إبراهيم ربه ولداً فأعطاه الله إسحاق وزاده يعقوب نافلة زيادة على ما سأل لأن ولد الولد كالولد ﴿وكلاً جعلنا

وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَبِيدِينَ ﴿٧٣﴾ وَلَوْ طَاءَ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبِيثَاتِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ
سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴿٧٤﴾ وَأَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٧٥﴾ وَنُوحًا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ
فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ
فَآغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٧٧﴾ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ

صالحين ﴿٧٣﴾ أي وكلاً من إبراهيم وإسحاق ويعقوب جعلناه من أهل الخير والصلاح ﴿٧٤﴾ وجعلناهم أئمةً
يهدون بأمرنا ﴿٧٥﴾ أي جعلناهم قدوة ورؤساء لغيرهم يرشدون الناس إلى الدين بأمر الله ﴿٧٦﴾ وأوحينا إليهم
فعل الخيرات ﴿٧٧﴾ أي أوحينا إليهم أن يفعلوا الخيرات ليجمعوا بين العلم والعمل ﴿٧٨﴾ وإقام الصلاة وإيتاء
الزكاة ﴿٧٩﴾ أي وأمرناهم بطريق الوحي بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ، وإنما خصهما بالذكر لأن الصلاة أفضل
العبادات البدنية ، والزكاة أفضل العبادات المالية ﴿٨٠﴾ وكانوا لنا عابدين ﴿٨١﴾ أي موحدين مخلصين في
العبادة ﴿٨٢﴾ ولوطاً آتيناه حُكماً وعِلماً ﴿٨٣﴾ أي وأعطينا لوطاً النبوة والعلم والفهم السديد قال ابن كثير :
كان لوط قد آمن بإبراهيم عليه السلام واتبعه وهاجر معه كما قال تعالى ﴿فَأَمِنَ لَهُ لُوطُ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَى
رَبِّي﴾ فاتاه الله حُكماً وعِلماً وأوحى إليه وجعله نبياً وبعثه إلى « سدوم » فكذبوه فأهلكهم الله ودمر
عليهم كما قص خبرهم في غير موضع من كتابه العزيز ^(١) ﴿٨٤﴾ ونجيناه من القرية التي كانت تعمل الخبائث ﴿٨٥﴾
أي خلصناه من أهل قرية سدوم الذين كانوا يعملون الأعمال الخبيثة كاللواط وقطع السبيل وغير ذلك
﴿٨٦﴾ إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فاسقين ﴿٨٧﴾ أي كانوا أشراراً خارجين عن طاعة الله ﴿٨٨﴾ وأدخلناه في رحمتنا إنه من
الصالحين ﴿٨٩﴾ أي أدخلناه في أهل رحمتنا لأنه من عبادنا الصالحين ﴿٩٠﴾ ونوحاً إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ ﴿٩١﴾ أي
واذكر قصة نوح حين دعا على قومه من قبل هؤلاء الأنبياء المذكورين ، دعا عليهم بالهلاك حين كذبوه بقوله
﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَّاراً﴾ ﴿٩٢﴾ فاستجبنا له فنجيناه وأهله من الكرب العظيم ﴿٩٣﴾ أي
استجبنا دعاءه فأنقذناه ومن معه من المؤمنين - ركاب السفينة - من الطوفان والغرق الذي كان كرباً وغماً
شديداً يكاد يأخذ بالأنفاس ﴿٩٤﴾ ونصرناه من القوم الذين كذبوا بآياتنا ﴿٩٥﴾ أي منعناه من شر قومه
المكذبين فنجيناه وأهلكناهم ﴿٩٦﴾ إنهم كانوا قوم سَوْءٍ فآغرقتناهم أجمعين ﴿٩٧﴾ أي كانوا منهمكين في الشر
فآغرقتناهم جميعاً ولم نُبْقِ منهم أحداً ﴿٩٨﴾ ودَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴿٩٩﴾ أي واذكر قصة داود وسليمان
حين يحكما في شأن الزرع ﴿١٠٠﴾ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ ﴿١٠١﴾ أي وقت رعت فيه غنم القوم ليلاً فأفسدته
﴿١٠٢﴾ وكنا لحكمهم شاهدين ﴿١٠٣﴾ أي كنا مطّلعين على حكم كل منهما عالين به ﴿١٠٤﴾ ففهمناها سليمان ﴿١٠٥﴾ أي

شَهِيدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ وَنَحْنُ نَعْلَمُ مَا دَاوُدُ أَحْبَبَ ۚ لَا يُسَبِّحُ إِلَّا بِحَمْدِ رَبِّهِ ۚ وَكَأَنَّهُ فَاعِلِينَ ﴿٧٩﴾ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكَ لَنُحْصِنَكَ مِنْ بَأْسِكُمْ ۚ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ ﴿٨٠﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ ۚ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُلًّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمِينَ ﴿٨١﴾ وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ ۖ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ ۚ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ ﴿٨٢﴾

علمنا وألهمنا سليمان الحكم في القضية ﴿وكلاً آتينا حكماً وعلماً﴾ أي وكلاً من داود وسليمان أعطيناها الحكمة والعلم الواسع مع النبوة قال المفسرون : تخاصم إلى داود رجلان دخلت غنم أحدهما على زرع الآخر بالليل فأفسدته فلم تُبق منه شيئاً ، ف قضى بأن يأخذ صاحب الزرع الغنم ، فخرج الرجلان على سليمان وهو بالباب فأخبراه بما حكم به أبوه فدخل عليه فقال : يا نبي الله لو حكمتَ بغير هذا كان أرفق للجميع ! قال : وما هو ؟ قال : يأخذ صاحب الغنم الأرض فيصلحها ويبذرهما حتى يعود زرعها كما كان ، ويأخذ صاحب الزرع الغنم وينتفع بالبانها وصوفها ونسلها ، فإذا خرج الزرع رُدَّت الغنم إلى صاحبها والأرض إلى ربها فقال له داود : وَفَقْتُ يَا بُنَيَّ وقضى بينهما بذلك فذلك قوله تعالى ﴿ففهمناها سليمان﴾ ﴿وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير﴾ أي جعلنا الجبال والطير تسبح مع داود إذا سَبَّح قال ابن كثير : وذلك لطيب صوته بتلاوة الزبور فكان إذا ترتَّم بها تقف الطير في الهواء فتجاوبه وتردُّ عليه الجبال تأويباً^(١) وإنما قدَّم ذكر الجبال على الطير لأن تسخيرها وتسييحها أعجب وأغرب وأدخل في الإعجاز لأنها جماد ﴿وكنا فاعلين﴾ أي وكنا قادرين على فعل ذلك ﴿وعلمناه صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ﴾ أي علمنا داود صنع الدروع بالإلانة الحديد له قال قتادة : أول من صنع الدروع داود وكانت صفائح فهو أول من سردها وحلقها^(٢) ﴿لنُحْصِنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ﴾ أي لتقيكم في القتال شرَّ الأعداء ﴿فهل أنتم شاكرون﴾ استفهام يراد به الأمر أي اشكروا الله على ما أنعم به عليكم ، ولما ذكر تعالى ما خصَّ به نبيه داود عليه السلام ذكر ما خصَّ به ابنه سليمان فقال ﴿ولسليمان الريح عاصفة﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح عاصفة أي شديدة الهبوب ﴿تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها﴾ أي تسير بمشيئته وإرادته إلى أرض الشام المباركة بكثرة الأشجار والأنهار والثمار ، وكانت مسكنه ومقر ملكه ﴿وكنا بكل شيء عالمين﴾ أي وكنا عالمين بجميع الأمور فما أعطينا تلك المكانة إلا لما نعلمه من الحكمة ﴿ومِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ﴾ أي وسخرنا لسليمان بعض الشياطين يغوصون في الماء ويدخلون أعماق البحار ليستخرجوا له الجواهر واللاآء ﴿ويعملون عملاً دون ذلك﴾ أي ويعملون أعمالاً أخرى سوى الغوص كبناء المدن والقصور الشاهقة والأمور التي يعجز عنها البشر ﴿وكنا لهم حافظين﴾ أي نحفظهم عن الزيف عن أمره أو الخروج عن طاعته .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من وجوه الفصاحة والبديع ما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿ثم نكسوا على رؤوسهم﴾ شبه رجوعهم عن الحق إلى الباطل بانقلاب الشخص حتى يصبح أسفله أعلاه بطريق الاستعارة .

٢ - الطباق بين ﴿ينفعكم ويضركم﴾ .

٣ - المبالغة ﴿كوني برداً﴾ أطلق المصدر وأراد اسم الفاعل أي باردة أو ذات برد .

٤ - عطف الخاص على العام ﴿فعل الخيرات وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ لأن الصلاة والزكاة من فعل الخيرات وإنما خصهما بالذكر تنبيهاً لعلو شأنهما وفضلهما .

٥ - الاحتباس ﴿وكلاً أتينا حكماً وعلماً﴾ دفعاً لتوهم انتقاص مقام داود عليه السلام .

٦ - المجاز المرسل ﴿وأدخلناه في رحمتنا﴾ أي في الجنة لأنها مكان تنزل الرحمة فالعلاقة المحلية .

٧ - السجع غير المتكلف ﴿العابدين الصابرين ، الصالحين﴾ الخ .

تَبْيِيْهُ : وصف تعالى الريح ههنا بقوله ﴿عاصفة﴾ ووصفها في مكان آخر بقوله ﴿رخاء﴾ والعاصفة هي الشديدة ، والرخاء هي اللينة ، ولا تعارض بين الوصفين لأن الريح كانت لينة طيبة وكانت تسرع في جريها كالعاصف فجمعت الوصفين فتدبر .

قال الله تعالى : ﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر . إلى . . وربنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ من آية (٨٣) إلى نهاية السورة الكريمة .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى جملة من الأنبياء « ابراهيم ، نوح ، لوط ، داود ، سليمان » وما نال كثيراً منهم من الابتلاء ، ذكر هنا قصة أيوب وابتلاء الله له بأنواع المحن ثم أعقبها بذكر محنة يونس وزكريا وعيسى وكل ذلك بقصد التسلية للرسول ﷺ ليتأسي بهم .

اللِّغْزُ : ﴿ذا النون﴾ النون : الحوت وذا النون لقب ليونس بن متى لابتلاعه النون له ﴿أحصنت﴾ الإحصان : العفة يقال : رجل محصن وامرأة محصنة أي عفيفة ﴿رغباً ورهباً﴾ الرغب : الرجاء ، والرهب : الخوف ﴿كفران﴾ الكفر والكفران : الجحود وأصله الستر لأن الكافر يستتر نعمة الله ويحدها ﴿حذب﴾ الحذب : ما ارتفع من الأرض مأخوذ من حذبة الظهر قال عنترة :

فما رعشت يداي ولا ازدهاني تواترهم إلي من الحذاب^(١)

﴿ينسلون﴾ يسرعون يقال : نسل الذئب ينسل نسلاناً أي أسرع ﴿حصب﴾ الحصب : ما توقد به النار

كالخطب وغيره ﴿زفير﴾ أنين وتنفس شديد ﴿حسيسها﴾ الحسيس : الصوت والحس والحركة الذي يُحس به من حركة الأجرام ﴿السجل﴾ الصحيفة لأن بها يُسجل المطلوب .

سَبَبُ الزَّوَلِ : عن ابن عباس قال : لما نزل قوله تعالى ﴿إِنكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصْبُ جَهَنَّمَ﴾ شقَّ ذلك على كفار قريش وقالوا : شتم آلهتنا وأتوا ابن الزُّبَيْرِي وأخبروه فقال : لو حضرته لرددتُ عليه قالوا : وما كنت تقول له ؟ قال أقول له : هذا المسيح تعبدونه النصارى ، وهذا عزيز تعبدونه اليهود ؛ أفهما من حصب جهنم ؟ فعجبت قريش من مقالته ورأوا أنَّ محمداً قد خصم فأنزل الله ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَ الْحَسَنِ أُولَئِكَ عَلَيْهَا مُبْعَدُونَ﴾^(١) .

* وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذَكَرْنَا لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٤﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿٨٥﴾

النُّفِيسُ : ﴿وأيوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ﴾ أي واذكر قصة نبيِّ الله أيوب حين دعا ربَّه بتضرع وخشوع ﴿أني مسني الضرُّ﴾ أي نالني البلاء والكرب والشدة قال المفسرون : كان أيوب نبياً من الروم ، وكان له أولاد ومال كثير ، فأذهب الله ماله فصبر ، ثم أهلك الأولاد فصبر ، ثم سلط البلاء والمرض على جسمه فصر فمر عليه ملاء من قومه فقالوا : ما أصابه هذا إلا بذنب عظيم فعند ذلك تضرع إلى الله فكشف عنه ضره ﴿وأنت أرحم الراحمين﴾ أي أكثرهم رحمة فارحمني ، ولم يصرَّح بالدعاء ولكنه وصف نفسه بالعجز والضعف ، ووصف ربه بغاية الرحمة ليرحمه ، فكان فيه من حسن التلطف ما ليس في التصريح بالطلب ﴿فاستجبنا له﴾ أي أجبنا دعاءه وتضرعه ﴿فكشفنا ما به من ضرٍّ﴾ أي أزلنا ما أصابه من ضر وبلاء ﴿وآتيناه أهلك ومثلهم معهم﴾ قال ابن مسعود : مات أولاده وهم سبعة من الذكور وسبعة من الإناث فلما عوفي أحيوا له وولدت له امرأته سبعة بنين وسبع بنات^(٢) . والمعنى أعطيناه أهلك في الدنيا ورزقناه من زوجته مثل ما كان له من الأولاد والأتباع ﴿رحمةً من عندنا﴾ أي من أجل رحمتنا إياه ﴿وذكري للعابدين﴾ أي وتذكروا لغيره من العابدين ليصبروا كما صبر قال القرطبي : أي وتذكروا للعباد لأنهم إذا ذكروا بلاء أيوب ومحتته وصبره وطنوا أنفسهم على شدائد الدنيا مثل ما فعل أيوب وهو أفضل أهل زمانه^(٣) ، يُروى أنَّ أيوب مكث في البلاء ثمان عشرة سنة فقالت له امرأته يوماً : لودعوت الله عز وجل فقال لها : كم لبثنا في الرخاء ؟ فقالت : ثمانين سنة فقال : إني أستحيي من الله أن أدعوه وما مكثت في بلائي المدة التي مكثتها في رخائي^(٤) ﴿وإسماعيل وإدريس وذا الكفل﴾ أي

(١) القرطبي ٣٢٧/١١ . (٢) هذا الأثر عن ابن مسعود أن الله أحيى أولاده بعد موتهم فيه نظر ، لأنه لا يرجع أحد إلى الدنيا بعد انتقاله منها إلا ما كان من معجزة المسيح عليه السلام والصحيح أن الله عوضه من زوجته أولاداً مثل من فقدهم . (٣) القرطبي ٣٢٧/١١ . (٤) النسفي

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا^١ إِنَّهُمْ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغْضِبًا فَظَنَّ أَن لَّنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ^٢ وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾ وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ﴿٨٩﴾

واذكر لقومك قصة إسماعيل بن إبراهيم وإدريس بن شيث وذا الكفل ﴿كل من الصابرين﴾ أي كل من هؤلاء الأنبياء من أهل الإحسان والصبر ، جاهدوا في الله وصبروا على ما نالهم من الأذى ﴿وأدخلناهم في رحمتنا﴾ أي أدخلناهم بصبرهم وصلاحهم الجنة دار الرحمة والنعيم ﴿إنهم من الصالحين﴾ أي لأنهم من أهل الفضل والصلاح ﴿وذا النون﴾ أي واذكر لقومك قصة يونس الذي ابتلعه الحوت ، والنون هو الحوت نُسب إليه لأنه التقمه ﴿إذ ذهب مغاضباً﴾ أي حين خرج من بلده مغاضباً لقومه إذ كان يدعوهم إلى الإيمان فيكفرون حتى أصابه ضجر منهم فخرج عنهم ولذلك قال الله تعالى ﴿ولا تكن كصاحب الحوت﴾ ولا يصح قول من قال : مغاضباً لربه قال أبو حيان : وقول من قال مغاضباً لربه يجب طرحه إذ لا يناسب منصب النبوة^(١) وقال الرازي : لا يجوز صرف المغاضبة إلى الله تعالى لأن ذلك صفة من يجهل كون الله مالكا للأمر والنهي ، والجاهل بالله لا يكون مؤمناً فضلاً عن أن يكون نبياً ، ومغاضبته لقومه كانت غضباً لله ، وأنفة لدينه ، وبغضاً للكفر وأهله^(٢) ﴿فظن أن لن نقدر عليه﴾ أي ظن يونس أن لن نصيق عليه بالعقوبة كقوله ﴿ومن قدر عليه رزقه﴾ أي ضيق عليه فهو من القدر لا من القدرة قال الإمام الفخر : من ظن عجز الله فهو كافر ، ولا خلاف أنه لا يجوز نسبة ذلك إلى أحاد المؤمنين فكيف إلى الأنبياء عليهم السلام ! روي أنه دخل ابن عباس على معاوية فقال له معاوية : لقد ضربتني أمواج القرآن البارحة فغرقت فيها فلم أجد لي خلاصاً إلا بك ، فقال : وما هي ؟ قال : يظن نبي الله يونس أن لن يقدر الله عليه ؟ فقال ابن عباس : هذا من القدر لا من القدرة^(٣) ﴿فنادى في الظلمات﴾ أي نادى ربه في ظلمة الليل وهو في بطن الحوت قال ابن عباس : جمعت الظلمات لأنها ظلمة الليل ، وظلمة البحر ، وظلمة بطن الحوت ﴿أن لا إله إلا أنت﴾ أي نادى بأن لا إله إلا أنت يا رب ﴿سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ أي تزهت يا رب عن النقص والظلم ، وقد كنت من الظالمين لنفسي وأنا الآن من التائبين النادمين فاكشف عني المحنة وفي الحديث (ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء إلا استجيب له)^(٤) ﴿فاستجبنا له ونجيناه من الغم﴾ أي استجبنا لتضرعه واستغاثته ونجيناه من الضيق والكره الذي ناله حين التقمه الحوت ﴿وكذلك ننجي المؤمنين﴾ أي كما نجيناه يونس من تلك المحنة ننجي المؤمنين من الشدائد والأحوال إذا استغاثوا بنا ﴿وزكريا إذ نادى ربّه رب لا تذرني فرداً﴾ أي واذكر يا محمد خبر رسولنا زكريا حين دعا ربه دعاء مخلص منيب قائلاً : رب لا تتركني وحيداً بلا ولد ولا وارث قال ابن عباس : كان سنّه مائة وسن زوجته تسعاً وتسعين^(٥) ﴿وأنت خير الوارثين﴾

(١) البحر ٦/٣٣٥ . (٢) تفسير الفخر الرازي ٢٢/٢١٤ . (٣) الفخر الرازي ٢٢/٢١٥ . (٤) أصل الحديث في سنن أبي داود .

(٥) الرازي ٢٢/٢١٧ .

فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ، يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُ، زَوْجَهُ، إِنَّهُمْ كَانُوا يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا
وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ﴿٩١﴾ وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا فَانْفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً
لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٢﴾ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ ﴿٩٣﴾ وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا
رَاجِعُونَ ﴿٩٤﴾ فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَنُتُبُونَ ﴿٩٥﴾
أي وأنت يا رب خير من يبقى بعد كل من يموت قال الألوسي : وفيه مدحٌ له تعالى بالبقاء ، وإشارة إلى فناء
من سواه من الأحياء ، واستمطارٌ لسحاب لطفه عز وجل^(١) ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ أي أجبنا دعاءه
﴿وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى﴾ أي رزقناه ولداً اسمه يحيى على شيخوخته ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ أي جعلناها
ولوداً بعد أن كانت عاقراً وقال ابن عباس : كانت سيئة الخلق طويلة اللسان فأصلحها الله تعالى فجعلها
حسنة الخلق^(٢) ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ﴾ أي إنما استجبنا دعاء من ذكر من الأنبياء لأنهم
كانوا صالحين يجدون في طاعة الله ويتسابقون في فعل الطاعات وعمل الصالحات ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا
وَرَهَبًا﴾ أي طمعاً ورجاءً في رحمتنا وخوفاً وفزعاً من عذابنا ﴿وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ أي كانوا متذللين
خاضعين لله يخافونه في السر والعلن ﴿وَالَّتِي أَحْصَنْتَ فَرَجَهَا﴾ أي واذكر مريم البتول التي أعفت
نفسها عن الفاحشة وعن الحلال والحرام كقوله ﴿لَمْ يَمْسَسْنِي بَشْرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ قال ابن كثير : ذكر تعالى
قصة مريم وابنها عيسى مقرونة بقصة زكريا وابنه يحيى لأن تلك مربوطة بهذه فإنها إيجاد ولدٍ من شيخ كبير قد
طعن في السن وامرأة عجوز لم تكن تلد في حال شبابها ، وهذه أعجب فإنها إيجاد ولدٍ من أنثى بلا ذكر
ولذلك ذكر قصة مريم بعدها^(٣) ﴿فَنفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أي أمرنا جبريل فنفخ في فتحة درعها -
قميصها - فدخلت النفخة إلى جوفها فحملت بعيسى ، وأضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف
﴿وَجَعَلْنَاهَا وَابْنَهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا مريم مع ولدها عيسى علامةً وأعجوبةً للخلق تدل على
قدرتنا الباهرة ليعتبر بها الناس ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها
أيها الناس ملةً واحدة غير مختلفة وهي ملة الإسلام ، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد قال ابن عباس :
معناه دينكم دينٌ واحدٌ^(٤) ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ أي وأنا إلهكم لا ربَّ سواي فأفردوني بالعبادة
﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ أي اختلفوا في الدين وأصبحوا فيه شيعاً وأحزاباً فمن موحد ، ومن يهودي ،
ونصراني ومجوسي ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾ أي رجوعهم إلينا وحسابهم علينا قال الرازي : معنى الآية
جعلوا أمر دينهم فيما بينهم قطعاً كما تتوزع الجماعة الشيء ويقسمونه تمثيلاً لاختلافهم في الدين
وصيورتهم فرقاً وأحزاباً شتى^(٥) ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ أي من يعمل شيئاً من
الطاعات وأعمال البر والخير بشرط الإيمان ﴿فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ﴾ أي لا بطلان لثواب عمله ولا يضيع

(١) روح المعاني ٨٧/١٧ . (٢) القول الأول قول قتادة وسعيد بن جبير وأكثر المفسرين كذا في القرطبي ٣٣٦/١١ .

(٣) المختصر ٥٢٠/٢ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة . (٥) تفسير الرازي ٢١٩/٢٢ .

وَحَرَامٌ عَلَى قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿٩٥﴾ حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ ﴿٩٦﴾
وَأَقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَرُ الَّذِينَ كَفَرُوا يُوَلِّنَا قُلُوبَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿٩٧﴾
إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلَهِةَ مَا وَرَدُّوهُمَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٩٩﴾ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٠﴾

شيء من جزائه ﴿وإناله كاتبون﴾ أي نكتب عمله في صحيفته والمراد أمر الملائكة بكتابة أعمال الخلق ﴿وحرامٌ على قريةٍ أهلكناها أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ قال ابن عباس : أي ممتنعٌ على أهل قريةٍ أهلكناها أن يرجعوا بعد الهلاك إلى الدنيا مرة ثانية وفي رواية عنه ﴿أنهم لا يرجعون﴾ أي لا يتوبون قال ابن كثير : والأول أظهر^(١) وقال في البحر : المعنى وممتنع على أهل قريةٍ قدرنا إهلاكهم لكفرهم رجوعهم في الدنيا إلى الإيمان إلى أن تقوم الساعة فحينئذ يرجعون^(٢) ﴿حتى إذا فُتحت يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ﴾ أي حتى إذا فتح سدُّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ ﴿وهم من كل حدبٍ ينسلون﴾ أي وهم لكثرتهم من كل مرتفع من الأرض ومن كل أكمة وناحية يسرعون النزول والمراد أن يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ لكثرتهم يخرجون من كل طريق للفساد في الأرض ﴿واقترَبَ الوعدُ الحقُّ﴾ أي اقترب وقت القيامة قال المفسرون : جعل الله خروج يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ علماً على قرب الساعة قال ابن مسعود : الساعةُ من الناس بعد يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ كالحامل المتمم لا يدري أهلها متى تفجؤهم بولدها ليلاً أو نهاراً^(٣) ﴿فإذا هي شاخصةٌ أبصار الذين كفروا﴾ الضمير للقصة والشأن أي فإذا شأن الكافرين أن أبصارهم شاخصة من هول ذلك اليوم لا تكاد تطرف من الحيرة وشدة الفزع ﴿يا ويلنا قد كنا في غفلة﴾ أي ويقولون يا ويلنا أي يا حسرتنا وهلاكنا قد كنا في الدنيا في غفلةٍ تامة عن هذا المصير المشئوم واليوم الرهيب ﴿بل كنا ظالمين﴾ أضربوا عن القول السابق وأخبروا بالحقيقة المؤلمة والمعنى لم تكن في غفلةٍ حيث ذُكرتنا الرسلُ ونَبَّهتْنا الآيات بل كنا ظالمين لأنفسنا بالكذب وعدم الإيمان ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله﴾ أي إنكم أيها المشركون وما تعبدونه من الأوثان والأصنام ﴿حَصَبُ جهنم﴾ أي حطب جهنم ووقودها قال أبو حيان : الحَصَبُ ما يحصب به أي يُرمى به في نار جهنم ، وقبل أن يُرمى به لا يُطلق عليه حَصَبٌ إلا مجازاً^(٤) ﴿أنتم لها واردون﴾ أي أنتم داخلوها مع الأصنام ، وإنما جمع الله الكفار مع معبوداتهم في النار لزيادة غمهم وحسرتهم برؤيتهم الآلهة التي عبدوها معهم في عذاب الجحيم ﴿لو كان هؤلاء آلهةً ما وردوها﴾ أي لو كانت هذه الأصنام التي عبدتموها آلهةً ما دخلوها جهنم ﴿وكلٌ فيها خالدون﴾ أي العابدون والمعبودون كلهم في جهنم مخلدون ﴿لهم فيها زفير﴾ أي هؤلاء الكفرة في النار زفير وهو صوت النفس الذي يخرج من قلب المغموم وهو يشبه أنين المحزون والمكلم ﴿وهم فيها لا يسمعون﴾ أي لا يسمعون في

إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ ﴿١١٠﴾ لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا ۖ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ ﴿١١١﴾ لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ﴿١١٢﴾ يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ ۚ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا ۚ إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ ﴿١١٣﴾ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١١٤﴾ إِنَّ فِي هَٰذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ ﴿١١٥﴾

جهنم شيئاً لأنهم يحشرون صُماً كما قال تعالى ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم غُمياً وبُكماً وُصُماً﴾ قال القرطبي : وسما ع الأشياء فيها روح وأنس ، فمنع الله الكفار ذلك في النار (١) وقال ابن مسعود : إذا بقي من يُخلَّد في نار جهنم جعلوا في توايت من نار ، فيها مسامير من نار فلا يسمعون شيئاً ، ولا يرى أحد منهم أنه يُعَذَّب في النار غيره ثم تلا الآية (٢) ﴿إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ﴾ أي سبقت لهم السعادة ﴿أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ أي هم عن النار مبعدون لا يصلون حرّاً ولا يذوقون عذابها قال ابن عباس : أولئك أولياء الله يمرون على الصراط مرّاً أسرع من البرق ويبقى الكفار فيها جثياً (٣) ﴿لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا﴾ أي لا يسمعون حسّ النار ولا حركة لها وصوتها ﴿وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ﴾ أي وهم في الجنة دائمون ، لهم فيها ما تشتهي النفس وتلذ الأعين ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ أي لا تصيبهم أهوال يوم القيامة والبعث لأنهم في مأمن منها ﴿وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ أي تستقبلهم الملائكة على أبواب الجنة يهتفونهم قائلين ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ أي هذا يوم الكرامة والنعيم الذي وعدكم الله به فأبشروا بالهناء والسرور ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي اذكر يوم نطوي السماء طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها قال ابن عباس : كطي الصحيفة على ما فيها ، فاللام بمعنى « على » ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ﴾ أي نحشرهم حفاة عُرَاءَ غُرُلًا على الصورة التي بدأنا خلقهم فيها وفي الحديث (إنكم محشورون إلى الله حفاة عُرَاءَ غُرُلًا) ﴿كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم عليه السلام (٤) . . . الحديث ﴿وَعَدًا عَلَيْنَا﴾ أي وعداً مؤكداً لا يخلف ولا يبدل لازم علينا إنجازه والوفاء به ﴿إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ أي قادرين على ما نشاء ، وهو تأكيد لوقوع البعث ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ﴾ أي سجلنا وطرنا في الزبور المنزل على داود ﴿مِن بَعْدِ الذِّكْرِ﴾ أي من بعد ما سطرنا في اللوح المحفوظ أولاً ﴿أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ أي أن الجنة يرثها المؤمنون الصالحون قال ابن كثير : أخبر سبحانه في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السموات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة وهم الصالحون (٥) وقال القرطبي : أحسن ما قيل فيها أنه يراد بها أرض

(١) القرطبي ٣٤٥/١١ . (٢) القرطبي ٣٤٥/١١ . (٣) مختصر ابن كثير ٥٢٣/٢ . (٤) رواه مسلم عن ابن عباس .

(٥) مختصر ابن كثير ٥٢٤/٢ .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَىٰ أُمَّةٍ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٨﴾
 فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ ءَاذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ۖ وَإِنْ أُدْرِيَ أَقْرَبُ ۚ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ ﴿١٩﴾ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ
 وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٠﴾ وَإِنْ أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢١﴾ قُلْ رَبِّ أَحْكُم بِالْحَقِّ ۚ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ
 الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿٢٢﴾

الجنة لأن الأرض في الدنيا قد ورثها الصالحون وغيرهم وهو قول ابن عباس ومجاهد ويدل عليه قوله تعالى ﴿وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده وأورثنا الأرض﴾ وأكثر المفسرين على أن المراد بالعباد الصالحين أمة محمد ﷺ^(١) ، وقال مجاهد : الزبور : الكتب المنزلة ، والذكر أم الكتاب عند الله^(٢) ﴿إِنَّ فِي هَذَا لِبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ أي إنَّ في هذا المذكور في هذه السورة من الأخبار والوعد والوعيد والمواظظ البالغة لكفاية لقوم خاضعين متذللين لله جل وعلا ، المؤثرين لطاعة الله على طاعة الشيطان ﴿وما أرسلناك إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي وما أرسلناك يا محمد إِلَّا رحمة للخلق أجمعين وفي الحديث ﴿إنما أنا رحمة مهداة﴾^(٣) فمن قبل هذه الرحمة وشكر هذه النعمة سعد في الدنيا والآخرة^(٤) ﴿قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : إنما أوحى إليَّ ربي أَنَّ إلهكم المستحق للعبادة إله واحد أحد فرد صمد ﴿فهل أنتم مسلمون﴾ استفهام ومعناه الأمر أي فأسلموا له وانقادوا لحكمه وأمره ﴿فإن تولَّوْا﴾ أي فإن أعرضوا عن الإسلام ﴿فقل آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ﴾ أي فقل لهم أعلمتكم بالحق على استواء في الإعلام لم أخصَّ أحداً دون أحد ﴿وإن أُدْرِيَ أَقْرَبُ ۚ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ﴾ أي وما أدري متى يكون ذلك العذاب ؟ ولا متى يكون أجل الساعة ؟ فهو واقع لا محالة ولكن لا علم لي بقربه ولا ببعده ﴿إنه يعلم الجهر من القول ويعلم ما تكتمون﴾ أي الله هو العالم الذي لا يخفى عليه شيء ، يعلم الظواهر والضمائر ، ويعلم السر وأخفى ، وسيجازي كلاً بعمله ﴿وإن أُدْرِيَ لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ﴾ أي وما أدري لعل هذا الإمهال وتأخير عقوبتكم امتحان لكم لنرى كيف صنعكم ﴿ومتَّعَ إِلَىٰ حِينٍ﴾ أي ولعلَّ هذا التأخير لتستمتعوا إلى زمنٍ معين ثم يأتيكم عذاب الله الأليم ﴿قال رب احكم بالحق﴾ أي احكم بيني وبين هؤلاء المكذبين وافصل بيننا بالحق ﴿وربُّنا الرحمن المستعان على ما تصفون﴾ أي أستعين بالله على الصبر على ما تصفونه من الكفر والتكذيب . . ختم السورة الكريمة بأمر النبي ﷺ بتفويض الأمر إليه وتوقع الفرج من عنده ، فهو نعم الناصر ونعم المعين .

(١) القرطبي ٣٤٩ / ١١ . (٢) اختار هذا القول ابن جرير الطبري وهو قريب مما ذكرناه . (٣) أخرجه الحافظ ابن عساكر .

(٤) لم يقل الله تعالى : رحمة للمؤمنين وإنما قال ﴿رحمة للعالمين﴾ فإن الله سبحانه وتعالى رحم الخلق بإرسال سيد المرسلين ﷺ لأنه جاءهم بالسعادة الكبرى ، والنجاة من الشقاوة العظمى ، ونالوا على يديه الخيرات الكثيرة في الآخرة والأولى ، وعلمهم بعد الجهالة ، وهداهم بعد الضلالة فكان رحمة للعالمين ، حتى الكفار رُحِموا به حيث أخرج عقوبتهم ولم يستأصلهم بالعذاب كالمنكسر والخسف والفرق .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة من وجوه البيان والبديع ما يلي :

- ١ - التعرض للرحمة بطريق التلطف ﴿وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولم يقل : ارحمني .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ .
- ٣ - الجناس الناقص ﴿الصَّابِرِينَ . . وَالصَّالِحِينَ﴾ .
- ٤ - الطباق بين ﴿رَغْباً . . وَرَهْباً﴾ وبين ﴿بَدَأْنَا . . وَنَعِيدُهُ﴾ وبين ﴿قَرِيبٌ أَمْ بَعِيدٌ﴾ .
- ٥ - التشريف ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا﴾ أضاف الروح إليه تعالى على جهة التشريف كقوله ﴿نَاقَةٌ لِلَّهِ﴾ .
- ٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ﴾ مثل اختلافهم في الدين وتفرقهم فيه إلى شيع وأحزاب بالجماعة تتوزع الشيء لهذا نصيب ولهذا نصيب ، وهذا من لطيف الاستعارة .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يَا وَيْلَنَا﴾ أي ويقولون يا ويلنا ، ومثله قوله ﴿وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ﴾ أي تقول لهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون .
- ٨ - التشبيه المرسل المفصل ﴿نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ﴾ أي طياً مثل طي الصحيفة على ما كتب فيها .
- ٩ - الاستفهام الذي يراد به الأمر ﴿فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي أسلموا .
- ١٠ - السجع ﴿فَاعْبُدُونِ ، رَاجِعُونَ ، كَاتِبُونَ﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأنبياء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الحج مدنية وهي تتناول جوانب التشريع ، شأنها شأن سائر السور المدنية التي تُعنى بأمور التشريع ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوع الإيمان ، والتوحيد ، والإنذار والتخويف ، وموضوع البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة وأهوالها ، هو البارز في السورة الكريمة ، حتى ليكاد يُخيل للقارئ أنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات التشريعية من الإذن بالقتال ، وأحكام الحج والهدي ، والأمر بالجهاد في سبيل الله ، وغير ذلك من المواضيع التي هي من خصائص السور المدنية ، حتى لقد عدّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المدني والمكي .

* ابتدأت السورة الكريمة بمطلع عنيف مخيف ، ترتجف له القلوب ، وتطيش لهوله العقول ، ذلكم هو الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، ويزيد في الهول على خيال الإنسان ، لأنه لا يدرك الدور والقصور فحسب ، بل يصل هوله إلى المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل المسقطات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكرى من الخمر ، وما بهم شيء من السكر والشراب ، ولكنه الموقف المرهوب ، الذي تنزلزل له القلوب ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم إن زلزلة الساعة شيء عظيم . .﴾ الآيات .

* ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور ، تنتقل السورة لتقيم الأدلة والبراهين على البعث بعد الفناء ، ثم الانتقال إلى دار الجزاء ، لينال الإنسان جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

* وتحدثت السورة عن بعض مشاهد القيامة ، حيث يكون الأبرار في دار النعيم ، والفجار في دار الجحيم .

* ثم انتقلت للحديث عن الحكمة من الإذن بقتال الكفار ، وتناولت الحديث عن القرى المدمرة بسبب ظلمها وطغيانها ، وذلك لبيان سنة الله في الدعوات ، وتطميناً للمسلمين بالعاقبة التي تنتظر الصابرين .

* وفي ختام السورة ضربت مثلاً لعبادة المشركين للأصنام ، ويُنبت أن هذه المعبودات أعجز وأحققر

من ان تخلق ذبابة فضلاً عن أن تخلق إنساناً سمياً بصيراً ، ودعت إلى اتباع ملة الخليل إبراهيم كهف الإيمان ، وركن التوحيد .

التسمية : سميت « سورة الحج » تخليداً للدعوة الخليل إبراهيم عليه السلام ، حين انتهى من بناء البيت العتيق ونادى الناس لحج بيت الله الحرام ، فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض ، وأسمع نداؤه من في الأصلاب والأرحام وأجابوا النداء « ليك اللهم ليك » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿١﴾ يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلَّ مَرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَن اللفظة : ﴿زلزلة﴾ الزلزلة : شدة الحركة وأصل الكلمة من زل عن الموضع أي زال عنه وتحرك ، وزلزل الله قدمه أي حركها ، وهذه اللفظة تستعمل في تهويل الشيء ﴿تذهل﴾ ذهل عن الشيء اشتغل عنه بشاغل من هم أو وجع أو غيره ﴿مضغة﴾ المضغة : اللحم الصغيرة قدر ما يُضغ ﴿مخلقة﴾ تامة الخلقة ﴿بهيج﴾ حسن سار للناظر ﴿عطفه﴾ العطف : الجانب ومنه قولهم : فلان ينظر في أعطافه أي في جوانبه ويسمى الرداء العطف والمعطف لأنه يوضع على الجانبين ﴿العشير﴾ الصاحب والخليل .

التفسير : ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ خطاب لجميع البشر أي خافوا عذاب الله وأطيعوه بامثال أوامره واجتناب نواهيه ، وجماع القول في التقوى هو : طاعة الله واجتناب محارمه ولهذا قال بعض العلماء : التقوى أن لا يراك حيث نهاك ، وأن لا يفقدك حيث أمرك ﴿إن زلزلة الساعة شيء عظيم﴾ تعليل للأمر بالتقوى أي إن الزلزال الذي يكون بين يدي الساعة أمر عظيم وخطب جسيم لا يكاد يتصور لهوله ﴿يوم ترونها﴾ أي في ذلك اليوم العصيب الذي تشاهدون فيه تلك الزلزلة وترون هول مطلعها ﴿تذهل كل مرضعة عما أرضعت﴾ أي تغفل وتذهل - مع الدهشة وشدة الفزع - كل أنثى مرضعة عن رضيعها ، إذ تنزع ثديها من فم طفلها وتنشغل - لهول ما ترى - عن أحب الناس إليها وهو طفلها الرضيع ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي تراهم كأنهم سكارى يترنحون ترنح السكران من هول ما يدركهم من الخوف والفزع ﴿وما هم بسكارى﴾ أي وما هم على الحقيقة بسكارى من الخمر ﴿ولكن عذاب الله شديد﴾ استدراك لما دهاهم أي ليسوا بسكارى ولكن أهوال الساعة وشدائدها أطارعت عقولهم وسلبت أفكارهم فهم من خوف عذاب الله مشفقون ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ أي وبعض من الناس من يخاصم وينازع في قدرة الله وصفاته بغير دليل ولا برهان ويقول ما لا خير فيه من الأباطيل قال المفسرون : نزلت في النضر بن الحارث وكان جدلاً يقول الملائكة بنات الله ، والقرآن أساطير الأولين ، ولا بعث بعد الموت قال أبو السعود : والآية عامة له ولأضرابه من العتاة المتمردين^(١) ﴿ويتبع كل شيطان

يُجَدِّدُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ﴿٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ
السَّعِيرِ ﴿٣﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ
مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ
أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَّنْ يُتَوَقَّى وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدِّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمَرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئاً وَتَرَى الْأَرْضَ

مريد ﴿٢﴾ أي يطيع ويقتدي بكل عاتٍ متمرد كرؤساء الكفر الصادقين عن الحق ﴿٣﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ ﴿٤﴾ أي حكم الله وقضى أنه من تولى الشيطان واتخذة ولياً ﴿٥﴾ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٦﴾ أي فإن الشيطان يغويه ويسوقه إلى عذاب جهنم المستعرة ، وعبر بلفظ ﴿ويهديه﴾ على سبيل التهكم ، ولما ذكر تعالى المجادلين في قدرة الله ، المنكرين للبعث والنشور ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما في الإنسان ، والثاني في النبات فقال ﴿يا أيها الناس إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ أي إِنْ شَكَكْتُمْ فِي قُدْرَتِنَا عَلَى إِحْيَائِكُمْ بَعْدَ مَوْتِكُمْ فَانظُرُوا فِي أَصْلِ خَلْقِكُمْ لِيُزِيلَ رَيْبَكُمْ فَقَدْ خَلَقْنَا أَصْلَكُمْ «آدم» مِنَ التُّرَابِ ، وَمِنْ قَدَرٍ عَلَى خَلْقِكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يَعِيدَكُمْ ثَانِي مَرَّةً ، وَالَّذِي قَدَرَ عَلَى إِخْرَاجِ النَّبَاتِ مِنَ الْأَرْضِ ، بَعْدَ مَوْتِهَا قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِّنْ قُبُورِكُمْ ﴿ثُمَّ مِّنْ نُّطْفَةٍ﴾ أي ثُمَّ جَعَلْنَا نَسْلَهُ مِنَ الْمَنِيِّ الَّذِي يَنْطَفِئُ مِنْ صُلْبِ الرَّجُلِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالنُّطْفَةُ : الْقَطْرُ سَمِيَ نُطْفَةً لِقَلَّتِهِ ^(١) ﴿ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ﴾ وهو الدم الجامد الذي يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه ﴿ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ﴾ أي مِنْ قِطْعَةٍ مِنْ لَحْمٍ مَقْدَارُ مَا يَمْضَغُ ﴿مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ أي مُسْتَبِينَةِ الْخَلْقِ مَصُورَةٌ وَغَيْرُ مَصُورَةٍ قَالَ ابْنُ زَيْدٍ : الْمَخْلُوقَةُ الَّتِي خَلَقَ اللَّهُ فِيهَا الرَّأْسَ وَالْيَدَيْنِ وَالرِّجْلَيْنِ ، وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ الَّتِي لَمْ يَخْلُقْ فِيهَا شَيْءٌ ﴿لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ﴾ أي لِنُبَيِّنَ لَكُمْ بِهَذَا التَّدْرِيجِ قُدْرَتَنَا ، وَأَنْ مِّنْ قَدَرٍ عَلَى خَلْقِ الْبَشَرِ مِنْ تُرَابٍ أَوَّلًا ، ثُمَّ مِنْ نُّطْفَةٍ ثَانِيًا ، وَلَا تَنَاسَبُ بَيْنَ التُّرَابِ وَالْمَاءِ ، وَقَدَرَ عَلَى أَنْ يَجْعَلَ النُّطْفَةَ عَلَقَةً وَبَيْنَهُمَا تَبَايُنٌ ظَاهِرٌ ، ثُمَّ يَجْعَلَ الْعَلَقَةَ مِضْغَةً وَالمِضْغَةُ عِظَامًا ، قَادِرٌ عَلَى إِعَادَةِ مَا بَدَأَهُ ، بَلْ هَذَا أَدْخَلَ فِي الْقُدْرَةِ وَأَهْوَنُ فِي الْقِيَاسِ ^(٢) ﴿وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ﴾ أي وَنُثَبِتَ مِنَ الْحَمْلِ فِي أَرْحَامِ الْأُمَهَاتِ مِنْ أَرْضِنَا أَنْ نُقَرِّهَ فِيهَا حَتَّى يَتَكَامَلَ خَلْقُهُ ﴿إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي إِلَى زَمَنٍ مُّعَيَّنٍ هُوَ وَقْتُ الْوَضْعِ ﴿ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً﴾ أي ثُمَّ نَخْرِجُ هَذَا الْجَنِينَ طِفْلاً ضَعِيفًا فِي بَدْنِهِ وَسَمْعُهُ وَبَصَرُهُ وَحَوَاسِهُ ، ثُمَّ نَعْطِيهِ الْقُوَّةَ شَيْئًا فَشَيْئًا ﴿ثُمَّ لِنَبْلُوَكُمْ أَشَدَّكُمْ﴾ أي كَيْهَالِ قُوَّتِكُمْ وَعَقْلِكُمْ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّتَوَفَّى﴾ أي وَمِنْكُمْ مَّنْ يَمُوتُ فِي رِيْعَانِ شَبَابِهِ ﴿وَمِنْكُمْ مَّنْ يُّرَدِّ إِلَى أَرْدَلِ الْعُمَرِ﴾ أي وَمِنْكُمْ مَّنْ يَعْمُرُ حَتَّى يَصِلَ إِلَى الشَّيْخُوخَةِ وَالْهَرَمِ وَضَعْفِ الْقُوَّةِ وَالْخُرْفِ ﴿لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا﴾ أي لِيَعُودَ إِلَى مَا كَانَ عَلَيْهِ فِي أَوَانِ الطُّفُولَةِ مِنْ ضَعْفِ الْبَنِيَّةِ ، وَسَخَافَةِ الْعَقْلِ ، وَقِلَّةِ الْفَهْمِ ، فَيَنْسِيَ مَا عِلِمَهُ وَيَنْكُرُ مَا عَرَفَهُ

هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٥٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥١﴾ وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ ﴿٥٢﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٥٣﴾ ثَانِي عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٥٤﴾ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٥٥﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿٥٦﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ ﴿٥٧﴾ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ أُنْقَلَبَ

ويعجز عما قدر عليه كما قال تعالى ﴿ومن نعمه ننكسه في الخلق﴾ وترى الأرض هامدة ﴿هذه هي الحجة الثانية على إمكان البعث أي وترى أيها المخاطب أو أيها المجادل الأرض يابسة ميتة لا نبات فيها﴾ فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ﴿أي فإذا أنزلنا عليها المطر تحركت بالنبات وانتفخت وزادت وحييت بعد موتها﴾ وأنبتت من كل زوج بهيج ﴿أي وأخرجت من كل صنف عجيب ما يسر الناظر ببهائه ورويقه﴾ ذلك بأن الله هو الحق ﴿أي ذلك المذكور من خلق الإنسان والنبات لتعلموا أن الله هو الخالق المدبر وأن ما في الكون من آثار قدرته وشاهد بأن الله هو الحق﴾ وأنه يحيي الموتى ﴿أي وبأنه القادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات﴾ وأنه على كل شيء قدير ﴿أي وبأنه قادر على ما أراد﴾ وأن الساعة آتية لا ريب فيها ﴿أي وليعلموا أن الساعة كائنة لا شك فيها ولا مرية﴾ وأن الله يبعث من في القبور ﴿أي يحيي الأموات ويعيدهم بعدما صاروا رمأ ، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿أي يجادل في شأنه تعالى من غير تمسك بعلم صحيح يهدي إلى المعرفة ولا كتاب نير بين الحجة بل بمجرد الرأي والهوى قال ابن عطية : كرر هذه على وجه التوبيخ فكأنه يقول : هذه الأمثال في غاية الوضوح والبيان ومن الناس مع ذلك من يجادل في الله بغير دليل ولا برهان﴾ ثانياً عطفه ﴿أي معرضاً عن الحق لاوياً عنه كقراً قال ابن عباس : مستكبراً عن الحق إذا دُعي إليه قال الزمخشري : وثني العطف عبارة عن الكبر والخيلاء فهو كتصغير الخد﴾ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴿أي ليضل الناس عن دين الله وشرعه﴾ له في الدنيا خزي ﴿أي له هوان وذل في الحياة الدنيا﴾ ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ﴿أي ونذيقه في الآخرة النار المحرقة﴾ ذلك بما قدمت يدك ﴿أي ذلك الخزي والعذاب بسبب ما اقترفته من الكفر والضلال﴾ وأن الله ليس بظلام للعبيد ﴿أي وأن الله عادل لا يظلم أحداً من خلقه﴾ ومن الناس من يعبد الله على حرف ﴿أي ومن الناس من يعبد الله على جانب وطرف من الدين ، وهذا تمثيل للمذبحذين الذين لا يعبدون الله عن ثقة ويقين بل عن قلق واضطراب كالذي يكون على طرف من الجيش فان أحسَّ بظفر أو غنيمة استقر وإلا فرّ قال الحسن : هو المنافق يعبد بلسانه دون قلبه وقال ابن عباس : كان الرجل يقدم المدينة فإن ولدت امرأته غلاماً وأنتجت خيله قال : هذا دين صالح ،

عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴿١١٦﴾ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ
 ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١١٧﴾ يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ لِبَيْسٍ الْمَوْلَى وَلِبَيْسٍ الْعَشِيرُ ﴿١١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ
 يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١١٩﴾ مَنْ كَانَ يَظُنُّ
 أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ ﴿١٢٠﴾

وإن لم تلد امرأته ولم تنتج خيله قال : هذا دين سوء^(١) ﴿فإن أصابه خيرٌ اطمأن به﴾ أي فإن ناله خير في حياته من صحة ورخاء أقام على دينه ﴿وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ أي وإن ناله شيء يفتن به من مكروه وبلاء ارتد فرجع إلى ما كان عليه من الكفر ﴿خسر الدنيا والآخرة﴾ أي أضاع دنياه وآخرته فشقي الشقاوة الأبدية ﴿ذلك هو الخسران المبين﴾ أي ذلك هو الخسران الواضح الذي لا خسران مثله ﴿يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه﴾ أي يعبد الصنم الذي لا ينفع ولا يضر ﴿ذلك هو الضلال البعيد﴾ أي ذلك هو نهاية الضلال الذي لا ضلال بعده ، شبه حالهم بحال من أبعد في التيه ضالاً عن الطريق ﴿يدعو لمن ضره أقرب من نفعه﴾ أي يعبد وثناً أو صنماً ضره في الدنيا بالخزي والذل أسرع من نفعه الذي يتوقعه بعبادته وهو الشفاعة له يوم القيامة ، وقيل : الآية على الفرض والتقدير : أي لو سلمنا نفعه أو ضره لكان ضره أكثر من نفعه^(٢) ، والآية سقت تسفيهاً وتجهيلاً لمن يعتقد أنه ينتفع بعبادة غير الله حين يستشفع بها ﴿لبئس المولى ولبيس العشير﴾ أي بئس الناصر وبئس القريب والصاحب ﴿إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ لما ذكر حال المشركين وحال المنافقين المذبذبين ذكر حال المؤمنين في الآخرة والمعنى إن الله يدخل المؤمنين الصادقين جنات تجري من تحت قصورها وغرفها أنهار اللبن والخمر والعسل وهم في روضات الجنات يجرون ﴿إن الله يفعل ما يريد﴾ أي يشي من يشاء ويعذب من يشاء لا معقب لحكمه ، فللمؤمنين الجنة بفضلهم ، وللكافرين النار بعدله ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة﴾ أي من كان يظن أن لن ينصر الله رسوله ﷺ في الدنيا والآخرة^(٣) ﴿فليمدد بسبب إلى السماء ثم ليقطع﴾ أي فليمدد بحبل إلى السقف ثم ليقطع عنقه وليختنق به ﴿فلينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ﴾ أي فلينظر هل يشفي ذلك ما يجد في صدره من الغيظ ؟ قال ابن كثير : وهذا القول قول ابن عباس وهو أظهر في المعنى وأبلغ في التهكم فإن المعنى : من كان يظن أن الله ليس بناصر محمداً وكتابه ودينه فليذهب فليقتل نفسه إن كان ذلك غائظه فإن الله ناصره لا محالة ﴿وكذلك أنزلناه آيات بينات﴾ أي ومثل ذلك الانزال البديع المنظوي على الحكم البالغة أنزلنا القرآن الكريم كله آيات واضحات

(١) القرطبي ١٧/١٢ ، (٢) البحر ٦/٣٥٦ .

(٣) للمفسرين في معنى الآية قولان : الأول أن الضمير في « ينصره » للرسول ﷺ والمعنى على هذا : من كان من الكفار يظن أن لن ينصر الله محمداً فليختنق بحبل فإن الله ناصره لا بد ، وهذا ما رجحه ابن كثير ، والثاني أن الضمير يعود على الإنسان نفسه والمعنى : من ظن بسبب ضيق صدره وكثرة غمه أن لن ينصره الله فليختنق وليمت بغيظه ، وهذا ما رجحه صاحب التسهيل .

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ ﴿١٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ
وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٧﴾
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ
وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ ﴿١٨﴾ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿١٩﴾

الدلالة على معانيها الرائقة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يُرِيدُ﴾ أي وأن الله هو الهادي لا هادي سواه يهدي من يشاء
إلى صراطٍ مستقيم ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي صدقوا الله ورسوله وهم أتباع محمد عليه السلام ﴿وَالَّذِينَ هَادُوا﴾ أي اليهود وهم المنتسبون إلى موسى عليه السلام ﴿وَالصَّالِحِينَ﴾ هم قوم يعبدون النجوم
﴿وَالنَّصَارَى﴾ هم المنتسبون إلى ملة عيسى عليه السلام ﴿وَالْمَجُوسَ﴾ هم عبدة النيران ﴿وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ هم العرب عبدة الأوثان ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ أي يقضي بين المؤمنين وبين
الفرق الخمسة الضالة فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أي شاهد على
أعمال خلقه عالم بكل ما يعملون ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أي يسجد
لعظمته كل شيء طوعاً وكرهاً ، الملائكة في أقطار السموات ، والإنس والجن وسائر المخلوقات في العالم
الأرضي ﴿وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ﴾ أي وهذه الأجرام العظمية مع سائر
الجبال والأشجار والحيوانات تسجد لعظمته سجود انقياد وخضوع ، قال ابن كثير : وخص الشمس
والقمر والنجوم بالذكر لأنها قد عبدت من دون الله ، فبيّن أنها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة (١) .
والغرض من الآية : بيان عظمته تعالى وانفراده بألوهيته وربوبيته بانقياد هذه العوالم العظمية له وجريها
على وفق أمره وتدبيره ﴿وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ﴾ أي ويسجد له كثير من الناس سجود طاعة وعبادة ﴿وَكَثِيرٌ حَقَّ
عَلَيْهِ الْعَذَابُ﴾ أي وكثير من الناس وجب له العذاب بكفره واستعصائه ﴿وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُّكْرِمٍ﴾
أي من أهانه الله بالشقاء والكفر فلا يقدر أحد على دفع الهوان عنه ﴿إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يعذب
ويرحم ، ويعز ويذل ، ويغني ويفقير ، ولا اعتراض لأحد عليه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التشبيه البليغ المؤكد ﴿وترى الناس سكارى﴾ أي كالسكارى من شدة الهول ، حذفت أداة
التشبيه والشبه .

٢ - الاستعارة ﴿شيطان مريد﴾ استعار لفظ الشيطان لكل طاغية متمرد على أمر الله .

٣ - الطباق بين ﴿يُضِلُّهُ... ويهديه﴾ .

٤ - أسلوب التهكم ﴿ويهديه إلى عذاب السعير﴾ .

٥ - طباق السلب ﴿مخلقة وغير مخلقة﴾ .

٦ - الاستعارة اللطيفة ﴿فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت﴾ شبه الأرض بنائم لا حركة له ثم يتحرك وينتعش وتدب فيه الحياة بنزول المطر عليه ففيها استعارة تبعية .

٧ - الكناية ﴿ثاني عطفه﴾ كناية عن التكبر والخيلاء .

٨ - المجاز المرسل ﴿بما قدمت يدك﴾ علاقته السببية لأن اليد هي التي تفعل الخير أو الشر .

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿من يعبد الله على حرف﴾ مثل للمنافقين وما هم فيه من قلق واضطراب في دينهم بمن يقف على شفا الهاوية يريد العبادة والصلاة ، ويا له من تمثيل رائع !

١٠ - المقابلة البديعة بين ﴿فإن أصابه خير اطمأن به . . وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه﴾ .

١١ - الطباق بين ﴿يضره . . . وينفعه﴾ وبين ﴿يهن . . فما له من مكرم﴾ .

١٢ - السجع اللطيف بين كثير من الآيات .

فَكَايْدَة : المُرْضِع التي شأنها أن ترضع ، والمرضعة هي التي في حال الإرضاع ملقمة ثديها لطفلها ولهذا قال ﴿تذهل كل مرضعة﴾ ولم يقل : مرضع ليكون ذلك أعظم في الذهول إذ تنزع ثديها من فم الصبي - أحب الناس إليها - وذلك غاية في شدة الهول والفرع .

تَبْيِيْهٌ : روى ابن أبي حاتم أنه قيل لعلي : « إن ههنا رجلاً يتكلم في المشيئة فاستدعاه فقال له ، يا عبد الله : خلقتك كما يشاء أو كما تشاء ؟ قال بل كما شاء ، قال : فيمرضك إذا شاء أو إذا شئت ، قل : بل إذا شاء ، قال : فيشفيك إذا شاء أو إذا شئت ؟ قال : بل إذا شاء ، قال : فيدخلك حيث شئت أو حيث يشاء ؟ قال : بل حيث يشاء ، قال والله لو قلت غير ذلك لضربت الذي بين عينيك بالسيف »^(١) .

قال الله تعالى : ﴿هذان خصمان اختصموا في ربهم . . إلى . . لتكبروا الله على ما هداكم وبشر المحسنين﴾

من آية (١٩) إلى نهاية آية (٣٧) .

المناسكة : لما ذكر تعالى أهل السعادة وأهل الشقاوة ، ذكر هنا ما دار بينهم من الخصومة في دينه وعبادته ، ثم ذكر عظم حرمة البيت العتيق وبناء الخليل له ، وعظم كفر هؤلاء المشركين الذين يصدون الناس عن سبيل الله والمسجد الحرام .

اللغة: ﴿يُصْهَرُ﴾ الصهر : الإذابة صهرت الشيء فانصهر أي أذبته فذاب ﴿مقامع﴾ المقامع : السياط جمع مقمعة سميت بذلك لأنها تقمع الفاجر ﴿العاكف﴾ المقيم الملازم ﴿الباد﴾ القادم من البادية ﴿بؤنا﴾ أنزلنا وهينأنا وأرشدنا ﴿رجالاً﴾ جمع راجل وهو الماشي على قدميه ﴿ضامر﴾ الضامر : البعير المهزول الذي أتعبه السفر ﴿تفتهم﴾ التفت في اللغة : الوسخ والقذر قال الشاعر^(١) :

حفوا رءوسهم لم يخلقوا تفتاً ولم يسألوا لهم قملاً وصئباناً

قال الثعلبي : أصل التفت في اللغة الوسخ ، تقول العرب للرجل تستقذره : ما أنفثك أي ما أوسخك وأقذر^(٢) ﴿المخبين﴾ المخبت : المتواضع الخاشع لله .

* هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُمْ مَقَمِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا

النفسير : ﴿هذان خصمان﴾ أي هذان فريقان مختصمان فريق المؤمنين المتقين ، وفريق الكفرة المجرمين ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي اختلفوا وتنازعوا من أجل الله ودينه قال مجاهد : هم المؤمنون والكافرون ، فالؤمنون يريدون نصرة دين الله ، والكافرون يريدون إطفاء نور الله ﴿فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار﴾ أي فصلت لهم ثياب من نار على قدر أجسادهم ليلبسوها إذا صاروا إلى النار قال القرطبي : شبهت النار بالثياب لأنها لباس لهم كالثياب ومعنى ﴿قطعت﴾ خيطة وسويت ، وذكر بلفظ الماضي لأن الموعود منه كالواقع المحقق^(٣) ﴿يصب من فوق رءوسهم الحميم﴾ أي يصب على رءوسهم الماء الحار المغلي بنار جهنم ﴿يصهر به ما في بطونهم والجلود﴾ أي يذاب به ما في بطونهم من الأمعاء والأحشاء مع الجلود قال ابن عباس : لو سقطت منه قطرة على جبال الدنيا لأذابتها وفي الحديث (إن الحميم ليصب على رءوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه ، فيسلت ما في جوفه حتى يمرق من قدميه وهو الصهر ، ثم يعاد كما كان)^(٤) قال الإمام الفخر : والغرض أن الحميم إذا صب على رءوسهم كان تأثيره في الباطن مثل تأثيره في الظاهر ، فيذيب أمعاءهم وأحشاءهم كما يذيب جلودهم وهو أبلغ من قوله ﴿وسقوا ماء حمياً فقطع أمعاءهم﴾^(٥) ﴿ولهم مقامع من حديد﴾ أي ولهم مطارق وسياط من الحديد يضربون بها ويدفعون وفي الحديث (لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها)^(٦) ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غم أعيدوا فيها﴾ أي كلما أراد أهل النار الخروج من النار من شدة غمها ردوا إلى أماكنهم فيها قال الحسن : إن النار تضربهم بلهبها فترفعهم حتى إذا كانوا في أعلاها ضربوا بالمقامع فهوا فيها سبعين خريفاً^(٧) ﴿وذوقوا عذاب الحريق﴾ أي يقال لهم : ذوقوا عذاب جهنم المحرق الذي

(١) البيت لامية بن أبي الصلت كذا في القرطبي ٥٠ / ١٢ . (٢) القرطبي ٥٠ / ١٢ . (٣) القرطبي ٢٦ / ١٢ . (٤) أخرجه الترمذي وقال : حسن صحيح غريب . (٥) تفسير الرازي ٢٢ / ٢٣ . (٦) أخرجه أحمد . (٧) تفسير الرازي ٢٢ / ٢٣ .

مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾ وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ﴿٢٦﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ كُتِمَ بِهِ تَكْذِبُونَ ، ولما ذكر تعالى ما أعد للكفار من العذاب والدمار ، ذكر ما أعد للمؤمنين من الثواب والنعيم فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يَدْخُلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ أي يدخل المؤمنون الصالحين في الآخرة جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار العظيمة المتنوعة ﴿يُجَلِّونَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ أي تلبسهم الملائكة في الجنة الأساور الذهبية كحلية وزينة يتزينون بها ﴿وَلُؤْلُؤًا﴾ أي ويحلون باللؤلؤ كذلك إكراماً من الله لهم ﴿وَلِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي ولباسهم في الجنة الحرير ، ولكنه أعلى وأرفع مما في الدنيا بكثير ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ أي أرشدوا إلى الكلام الطيب والقول النافع إذ ليس في الجنة لغو ولا كذب ﴿وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ﴾ أي إلى صراط الله وهو الجنة دار المتقين ، ثم عدد تعالى بعض جرائم المشركين فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ أي جحدوا بما جاء به محمد عليه السلام ويمنعون المؤمنين عن إتيان المسجد الحرام لأداء المناسك فيه قال القرطبي : وذلك حين صدوا رسول الله ﷺ عن المسجد الحرام عام الحديبية^(١) ، وإنما قال ﴿وَيَصُدُّونَ﴾ بصيغة المضارع ليدل على الاستمرار فكأن المعنى : إن الذين كفروا من شأنهم الصد عن سبيل الله ونظيره قوله ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ﴿أَيِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ مَنْسَكًا وَمَتَعِبَدًا لِلنَّاسِ جَمِيعًا سَوَاءً فِيهِ الْمُقِيمُ الْحَاضِرُ ، وَالَّذِي يَأْتِيهِ مِنْ خَارِجِ الْبِلَادِ﴾ ومن يرد فيه بالحاد بظلم ﴿أَيِ وَمَنْ يَرُدُّ فِيهِ سُوءًا أَوْ مِيلًا عَنْ الْقَصْدِ أَوْ يَهْمُ فِيهِ بِمَعْصِيَةٍ﴾ نذقه من عذاب أليم ﴿أَيِ نَذَقَهُ أَشَدَّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ الْمَوْجِعِ قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ : لَوْ أَنَّ رَجُلًا بَعْدَنَ هَمٍّ بِأَنْ يَعْمَلَ سَيِّئَةً عِنْدَ الْبَيْتِ أَذَاقَهُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا وَقَالَ مُجَاهِدٌ : تُضَاعَفُ السَّيِّئَاتُ فِيهِ كَمَا تُضَاعَفُ الْحَسَنَاتُ^(٢)﴾ وإذ بَوَّأْنَا لإبراهيم مكان البيت ﴿أَيِ وَادَّكَرَ حِينَ أَرَشَدْنَا إِبْرَاهِيمَ وَأَلْهَمْنَاهُ مَكَانَ الْبَيْتِ﴾ أن لا تشرك بي شيئاً ﴿أَيِ أَمَرْنَاهُ بِنَاءِ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ خَالِصًا لِلَّهِ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيِ ابْنِهِ عَلَى اسْمِي وَحْدِي^(٣)﴾ ووطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود ﴿أَيِ طَهَّرَ بَيْتِي مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَقْدَارِ لِمَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ فِيهِ بِالطَّوَّافِ وَالصَّلَاةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : وَالْقَائِمُونَ هُمُ الْمُصَلُّونَ ، ذَكَرَ تَعَالَى مِنْ أَرْكَانِ الصَّلَاةِ أَعْظَمُهَا وَهُوَ الْقِيَامُ وَالرُّكُوعُ وَالسُّجُودُ^(٤)﴾ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ ﴿أَيِ وَنَادَى فِي النَّاسِ دَاعِيًا لَهُمْ لِحَجِّ بَيْتِ اللَّهِ الْعَتِيقِ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : لَمَّا فَرَّغَ إِبْرَاهِيمُ

يَا تَوَكُّرْجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ آلَا نَعْلَمُ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَدْوَرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأَحَلَّتْ لَكُمْ آلَا نَعْلَمُ

من بناء البيت قيل له : أذن في الناس بالحج ، قال يا رب : وما يبلغ صوتي ؟ قال : أذن وعلي الإيلاغ فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح : يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليشيكم به الجنة ، ويجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال ، وأرحام النساء : لبيك اللهم لبيك ^(١) ﴿يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر﴾ أي يأتوك مشاة على أقدامهم أو ركبناً على كل جبل هزيل قد أتعبه وأنهكه بعد المسافة ﴿يأتين من كل فج عميق﴾ أي تأتي الإيلا الضامرة من كل طريق بعيد قال القرطبي : ورد الضمير إلى الإيلا ﴿يأتين﴾ تكرمة لها لقصدتها الحج مع أربابها كما قال ﴿والعاديات ضبحاً﴾ في خيل الجهاد تكرمة لها حين سعت في سبيل الله ^(٢) ﴿ليشهدوا منافع لهم﴾ أي ليحضروا منافع لهم كثيرة دينية ودنيوية قال الفخر الرازي : وإنما نكر المنافع لأنه أراد منافع مختصة بهذه العبادة دينية ودنيوية لا توجد في غيرها من العبادات ^(٣) ﴿ويذكروا اسم الله في أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي ويذكروا عند ذبح الهدايا والضحايا اسم الله في أيام النحر شكراً لله على نعمائه وعلى ما رزقهم وملكهم من الأنعام وهي : الإيلا والبقر والغنم والمعز قال الرازي : وفيه تنبيه على أن الغرض الأصلي ذكر اسمه تعالى عند الذبح وأن يخالف المشركين في ذلك فإنهم كانوا يذبحونها للنصب والأوثان ^(٤) ﴿فكلوا منها﴾ أي كلوا من لحوم الأضاحي ﴿وأطعموا البائس الفقير﴾ أي أطعموا منها البائس الذي أصابه بؤس وشدة ، والفقير الذي أضعفه الإعسار قال ابن عباس : البائس الذي ظهر بؤسه في ثيابه وفي وجهه ، والفقير الذي لا يكون كذلك ، ثيابه نقية ووجهه وجه غني ﴿ثم ليقضوا تفثهم﴾ أي ثم بعد الذبح ليزيلوا وسخهم الذي أصابهم بالإحرام وذلك بالحلل والتقصير وإزالة الشعث وقص الشارب والأظافر ﴿وليوفوا نذورهم﴾ أي ما أوجبوه على أنفسهم بالنذر طاعة لله ﴿وليطوفوا بالبيت العتيق﴾ أي ليطوفوا حول البيت العتيق طواف الإفاضة وهو طواف الزيارة الذي به تمام التحلل ، والعتيق : القديم سمي به لأنه أول بيت وضع للناس ﴿ذلك﴾ أي الأمر والشأن ذلك قال الزمخشري : كما يقدم الكاتب جملة من كتابه في بعض المعاني ثم إذا أراد الخوض في معنى آخر قال : هذا وقد كان كذا ^(٥) ﴿ومن يعظم حرمات الله﴾ أي من يعظم ما شرعه الله من أحكام الدين ويحتمل المعاصي والمحارم ﴿فهو خير له عند ربه﴾ أي ذلك التعظيم خير له ثواباً في الآخرة ﴿وأحلت لكم الأنعام إلا ما يتلى عليكم﴾ أي أحللنا لكم جميع الأنعام إلا ما استثنى في الكتاب المجيد كالميتة والمنخنقة وما ذبح لغير الله وغير ذلك ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان﴾ أي اجتنبوا الرجس الذي هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس ، وهو غاية المبالغة في النهي عن عبادتها وتعظيمها

إِلَّا مَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْتَانِ ۖ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ ۚ وَمَنِ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ﴿٣٢﴾ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٣٣﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةٍ ۖ الْأَنْعَامِ ۖ فَالْهَكُمُ إِلَهُ ۖ وَحَدِّثْ لَهُ ۖ أَسْلِمُوا ۖ وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا

﴿واجتنبوا قول الزور﴾ أي واجتنبوا شهادة الزور ﴿حنفاء لله غير مشركين به﴾ أي مائلين إلى الحق مسلمين لله غير مشركين به أحداً ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ تمثيل للمشرك في ضلاله وهلاكه أي ومن أشرك بالله فكأنما سقط من السماء فتخطفه الطير وتمزقه كل ممزق ﴿أو تهوي به الريح في مكانٍ سحيق﴾ أي أو عصفت به الريح حتى هوت به في بعض المهالك البعيدة ﴿ذلك ومن يعظم شعائر الله﴾ أي ذلك ما وضعه الله لكم من الأحكام والأمثال ومن يعظم أمور الدين ومنها أعمال الحج والأضاحي والهدايا ﴿فإنها من تقوى القلوب﴾ أي فإن تعظيمها من أفعال المتقين لله قال القرطبي : أضاف التقوى إلى القلوب لأن حقيقة التقوى في القلب وفي الحديث (التقوى ههنا) وأشار إلى صدره^(١) ﴿لكم فيها منافع إلى أجل مسمى﴾ أي لكم في الهدايا منافع كثيرة من الدر والنسل والركوب إلى وقت نحرها ﴿ثم محلها إلى البيت العتيق﴾ أي ثم مكان ذبحها في الحرم بمكة أو منى ، وخص البيت بالذكر لأنه أشرف الحرم كقوله تعالى ﴿هدياً بالغ الكعبة﴾ ﴿ولكل أمة جعلنا منسكاً﴾ أي شرعنا لكل أمة من الأمم السابقة من عهد إبراهيم مكاناً للذبح تقرباً لله قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه لم يزل ذبح المناسك وإراقة الدماء على اسم الله مشروعاً في جميع الملل ﴿ليذكروا اسم الله﴾ أي أمرناهم عند الذبح أن يذكروا اسم الله وأن يذبحوا لوجهه تعالى ﴿على ما رزقهم من بهيمة الأنعام﴾ أي شكراً لله على ما أنعم به عليهم من بهيمة الأنعام من الإبل والبقر والغنم ، بين تعالى أنه يجب أن يكون الذبح لوجهه تعالى وعلى اسمه لأنه هو الخالق الرازق لا كما كان المشركون يذبحون للأوثان ﴿فإلهكم إله واحد﴾ أي فربكم أيها الناس ومعبودكم إله واحد لا شريك له ﴿فله أسلموا﴾ أي فأخلصوا له العبادة واستسلموا لحكمه وطاعته ﴿وبشر المخبتين﴾ أي بشر المطيعين المتواضعين الخاشعين بجنات النعيم ، ثم وصف تعالى المخبتين بأربع صفات فقال ﴿الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾ أي إذا ذكر الله خافت وارتعشت لذكره قلوبهم لإشراق أشعة جلاله عليها فكأنهم بين يديه واقفون ، وجلاله وعظمته مشاهدون ﴿والصابرين على ما أصابهم﴾ أي يصبرون في السراء والضراء على الأمراض والمصائب والمحن وسائر المكارِه ﴿والمقيمي الصلاة﴾ أي الذين يؤدونها في أوقاتها مستقيمة كاملة مع الخشوع والخضوع ﴿ومما رزقناهم ينفقون﴾ أي ومن بعض الذي رزقناهم من

رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَالْبَدَنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ ۚ
فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ لَنْ
يُنَالَ اللَّهُ لَحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ ۚ كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَيْكُمْ وَبَشِّرِ
الْمُحْسِنِينَ ﴿٣٧﴾

فضلنا ينفقون في وجوه الخيرات ﴿٣٥﴾ والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ﴿٣٦﴾ أي والإبل السمينة - سميت بدناً لبدايتها وضخامة أجسامها - جعلناها من أعلام الشريعة التي شرعها الله لعباده قال ابن كثير : وكونها من شعائر الدين أنها تُهْدَى إلى بيته الحرام بل هي أفضل ما يهدي ^(١) ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ قال ابن عباس : نفع في الدنيا وأجر في الآخرة ﴿فاذكروا اسم الله عليها صواف﴾ أي اذكروا عند ذبحها اسم الله الجليل عليها حال كونها صواف أي قائمات قد صففن أيديهن وأرجلهن ﴿فاذا وجبت جنوبها﴾ أي فإذا سقطت على الأرض بعد نحرها ، وهو كناية عن الموت ﴿فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر﴾ أي كلوا من هذه الهدايا وأطعموا القانع أي المتعفف والمعتز أي السائل قاله ابن عباس ^(٢) ، وقال الرازي : الأقرب أن القانع هو الراضي بما يدفع إليه من غير سؤال وإلحاح ، والمعتز هو الذي يتعرض ويطلب ويعتريهم حالاً بعد حال ^(٣) ﴿كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون﴾ أي مثل ذلك التسخير البديع جعلناها منقادة لكم مع ضخامة أجسامها لكي تشكروا الله على إنعامه ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ أي لن يصل إليه تعالى شيء من لحومها ولا دمائها ﴿ولكن يناله التقوى منكم﴾ أي ولكن يصل إليه التقوى منكم بامثالكم أوامرهم وطلبكم رضوانه ﴿كذلك سخرها لكم لتكبروا الله على ما هداكم﴾ أي كرره للتأكيد أي كذلك ذللها لكم وجعلها منقادة لرغبتكم لتكبروا الله على ما أرشدكم إليه من أحكام دينه ﴿وبشر المحسنين﴾ أي بشر المحسنين في أعمالهم بالسعادة والفوز بدار النعيم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإيجاز ﴿اختصموا في ربهم﴾ أي في دين ربهم فهو على حذف مضاف .
- ٢ - الاستعارة ﴿قطعت لهم ثياب من نار﴾ استعارة عن إحاطة النار بهم كما يحيط الثوب بلباسه .
- ٣ - الطباق بين ﴿العاكف . . والباد﴾ لأن العاكف المقيم في المدينة والباد القادم من البادية .
- ٤ - التأكيد بإعادة الفصل ﴿فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور﴾ للعناية بشأن كل استقلالاً ، ويسمى في علم البديع الإطناب .

(١) المختصر ٥٤٤/٢ . (٢) وهو قول قتادة والنخعي ومجاهد وكثير من السلف . (٣) الرازي ٣٦/٢٣ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير﴾ لأن وجه الشبه منتزَع من متعدد .

٦ - الجناس الناقص ﴿وجبت جنوبها﴾ .

٧ - الطباق بين ﴿القانع والمعتز﴾ لأنه القانع المتعفف والمعتز السائل .

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿عميق ، سحيق ، العتيق﴾ ومثل ﴿المحسنين ، المختبين﴾ .

تنبية : لم يؤخذ الله تعالى أحداً من خلقه على اهم بالمعصية إلا في المسجد الحرام ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب اليم﴾ لأنه المكان المقدس الذي يجب أن يكون فيه الإنسان نقي القلب ، طاهر النفس ، صافي السريرة ، خالصاً بكليته لله ، فمن ينتهك حرمة الملك في حماه جدير بالجحيم والعذاب الأليم .

قال الله تعالى : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا . . إلى . . وإن الله هو العلي الكبير﴾
من آية (٣٨) إلى نهاية آية (٦٢) .

المناسكة : لما بين تعالى مناسك الحج وما فيه من منافع الدنيا والآخرة ، وذكر أن الكفار صدوا المؤمنين عن دين الله وعن دخول مكة ، بين هنا أنه يدافع عن المؤمنين وذكر الحكمة من مشروعية القتال ومنها الدفاع عن المقدسات ، وحماية المستضعفين ، وتمكين المؤمنين من عبادة الله تعالى .

اللفظ : ﴿صوامع﴾ جمع صومعة وهي البناء المرتفع وهي مختصة بالرهبان ﴿بيع﴾ جمع بيعة وهي كنيسة النصارى ﴿وصلوات﴾ كنائس اليهود وقال الزجاج : وهي بالعبرانية صَلَوَاتَا ﴿نكير﴾ مصدر بمعنى الإنكار قال الجوهري : النكير والإنكار تغيير المنكر ﴿معطلة﴾ متروكة وتعطيل الشيء إبطال منافعه ﴿مشيد﴾ مرفوع البنيان .

* **إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ ﴿٣٨﴾** أَذِنَ لِلَّذِينَ يَقْتُلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ

التفسير : ﴿إن الله يدافع عن الذين آمنوا﴾ أي ينصر المؤمنين ويدفع عنهم بأس المشركين ، وهذه بشارة للمؤمنين بإعلائهم على الكفار وكف كيدهم عنهم ﴿إن الله لا يحب كل خوان كفور﴾ أي إنه تعالى يبغض كل خائن للأمانة جاحد نعمة الله ﴿أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا﴾ فيه محذوف تقديره : أذن لهم في القتال بسبب أنهم ظلموا قال ابن عباس : هذه أول آية نزلت في الجهاد قال المفسرون : هم أصحاب رسول الله ﷺ كان مشركو مكة يؤذونهم أذى شديداً وكانوا يأتون رسول الله ﷺ بين مضروب ومشجوح ويتظلمون إليه فيقول لهم : اصبروا فاني لم أؤمر بقتالهم حتى هاجروا فأنزلت هذه الآية وهي أول آية أذن فيها بالقتال بعدما نهى عنه في أكثر من سبعين آية ﴿وإن الله على نصرهم لقدير﴾ أي هو تعالى قادر على نصر عباده من غير قتال ولكنه يريد منهم أن يبذلوا جهدهم في طاعته لينالوا أجر الشهداء ﴿الذين

اللَّهُ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِينِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ
 النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهْذَمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ
 مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا
 بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَاللَّهُ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ
 وَثَمُودٌ ﴿٤٢﴾ وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ ﴿٤٣﴾ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتَهُمْ
 أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ أَيُّ أُخْرِجُوا مِنْ أوطانهم ظلماً وعدواناً بغير سبب موجب للإخراج قال ابن
 عباس : يعني محمداً وأصحابه أخرجوا من مكة إلى المدينة بغير حق ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ أي ما كان
 لهم إساءة ولا ذنب إلا أنهم وحدوا الله ولم يشركوا به أحداً ﴿ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض﴾ أي
 لولا ما شرعه الله من الجهاد وقتال الأعداء لاستولى أهل الشرك على أهل الأديان وتعطلت الشعائر ولكنه
 تعالى دفع شرهم بأن أمر بقتالهم ﴿لهذمت صوامعُ وبيعُ﴾ أي لتهدمت معابد الرهبان وكنائس النصارى
 ﴿وصلواتُ﴾ أي كنائس اليهود ﴿ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ أي ومساجد المسلمين التي يعبد
 فيها الله بكرة وأصيلاً ، ومعنى الآية أنه لولا كفه تعالى المشركين بالمسلمين ، وإذنه بمجاهدة المسلمين
 للكافرين لاستولى المشركون على أهل الملل المختلفة في أزمانهم فهدموا موضع عباداتهم ، ولم يتركوا
 للنصارى بيعاً ، ولا لرهبانهم صوامع ، ولا لليهود كنائس ، ولا للمسلمين مساجد ، ولغلب المشركون
 أهل الأديان ، وإنما خص المساجد بهذا الوصف ﴿يذكر فيها اسم الله كثيراً﴾ تعظيماً لها وتشريفاً لأنها
 أماكن العبادة الحقة ﴿ولينصرن الله من ينصره﴾ قسم أي والله سينصر الله من ينصر دينه ورسوله ﴿إنَّ
 الله لقويٌّ عزيزٌ﴾ أي إنه تعالى قادر لا يعجزه شيء ، عزيز لا يقهر ولا يغلب قال ابن كثير : وصف نفسه
 بالقوة والعزة ، فبقوته خلق كل شيء ، وبعزته لا يقهره قاهر ولا يغلبه غالب ^(١) ﴿الذين إن مكناهم في
 الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ قال ابن عباس : هم المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان ،
 والمعنى : هؤلاء الذين يستحقون نصره الله هم الذين إن جعلنا لهم سلطاناً في الأرض وتملكاً واستعلاء
 عبدوا الله وحافظوا على الصلاة وأداء الزكاة ﴿وأمرُوا بالمعروف ونهوا عن المنكر﴾ أي دعوا إلى الخير ونهوا
 عن الشر ﴿ولله عاقبة الأمور﴾ أي مرجع الأمور إلى حكمه تعالى وتقديره ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت قبلهم
 قوم نوح وعاد وثمود﴾ تسلية للرسول ﷺ ووعيد للمشركين أي إن كذبك أهل مكة فاعلم أنك لست
 أول رسول يكذبه قومه فقد كان قبلك أنبياء كُذِّبوا فصبروا إلى أن أهلك الله المكذبين ، فاقصد بهم واصبر
 ﴿وقوم إبراهيم وقوم لوط وأصحاب مدين﴾ أي وكذب كذلك قوم إبراهيم وقوم لوط وقوم شعيب
 ﴿وكذب موسى﴾ أي وكذب موسى أيضاً مع وضوح آياته ، وعظم معجزاته فما ظنك بغيره ؟ ﴿فأمليتُ

فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٤﴾ فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مُعْطَلَةٌ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أُمْلِيتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَى الْمَصِيرِ ﴿٤٨﴾ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٤٩﴾ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ

للكافرين ثم أخذتهم ﴿أي أمهلتهم ثم أخذتهم بالعقوبة﴾ فكيف كان نكير ﴿استفهام تقرير أي فكيف كان إنكاري عليهم بالعذاب ألم يكن أليماً؟ ألم أبدلهم بالنعمة نقمة ، وبالكره قلة ، وبالعارة خراباً؟ فذلك أفعّل بالمكذبين من أهل مكة﴾ فكأين من قرية أهلكناها ﴿أي كم من قرية أهلكنا أهلها بالعذاب الشامل﴾ وهي ظالمة ﴿أي وهي مشركة كافرة﴾ فهي خاوية على عروشها ﴿أي خرت سقوفها على الأرض ثم تهدمت حيطانها فسقطت فوق السقوف فهي مخربة مهدمة﴾ وبشر معطلة ﴿أي وكم من بئر عطلت فتركت لا يستقى منها هلاك أهلها﴾ وقصر مشيد ﴿أي وكم من قصر مرفوع البنيان أصبح خالياً بلا ساكن ، أليس في ذلك عبرة للمعتبر؟﴾ أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوبٌ يعقلون بها ﴿أي أفلم يسافر أهل مكة ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا بما حل بهم من النكال والدمار !! وهلاً عقلوا ما يجب أن يعقل من الإيمان والتوحيد !﴾ أو آذان يسمعون بها ﴿أي أو تكون لهم آذان يسمعون بها المواعظ والزواجر﴾ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴿أي ليس العمى على الحقيقة عمى البصر ، وإنما العمى عمى البصيرة فمن كان أعمى القلب لا يعتبر ولا يتدبر ، وذكر الصدور للتأكيد ونفي توهم المجاز﴾ ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده ﴿أي ويستعجلك يا محمد هؤلاء المشركون بالعذاب استهزاءً ، وإن ذلك واقع لا محالة ، لكن لوقوعه أجل لا يتعداه لأنه تعالى لا يخلف الميعاد﴾ وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون ﴿أي هو تعالى حلیم لا يعجل فإن مقدار ألف سنة عند خلقه كيوم واحد عنده بالنسبة إلى حلمه فلم إذا يستبعدونه ويستعجلون العذاب؟ ولهذا قال بعد ذلك﴾ وكأين من قرية أُمليت لها وهي ظالمة ﴿أي وكثير من أهل قرية أخرت إهلاكهم وأمهلتهم مع استمرارهم على الظلم فاغتروا بذلك التأخير﴾ ثم أخذتها وإلي المصير ﴿أي ثم أخذتهم بالعذاب بعد طول الإمهال وإلى المرجع والمآب قال في البحر : لما كان تعالى قد أمهل قريشاً حتى استعجلت بالعذاب ذكر الآية تنبيهاً على أن السابقين أمهلوا ثم أهلكوا وأن قريشاً وإن أملى تعالى لهم وأمهلهم فإنه لا بد من عذابهم فلا يفرحوا بتأخير العذاب عنهم^(١)﴾ قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ﴿أي قل يا محمد هؤلاء المستعجلين للعذاب إنما أنا منذر لكم أخوفكم عذاب الله وأنذركم إنذاراً بيناً من غير أن يكون لي دخل في تعجيل العذاب أو

وَرَزَقُ كَرِيمٌ ﴿٥٠﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ ﴿٥١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ ۚ وَاللَّهُ عَلِيمٌ

تأخيره ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ أي فالمؤمنون الصادقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ورزق كريم في جنات النعيم قال الرازي : بين سبحانه أن من جمع بينهما فالله تعالى يجمع له بين المغفرة والرزق الكريم ^(١) وقال القرطبي : إذا سمعت الله تعالى يقول ﴿وَرَزَقٌ كَرِيمٌ﴾ فاعلم أنه الجنة ^(٢) ﴿وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ﴾ أي كذبوا بآياتنا وسعوا في إبطالها مغالبين مشاقين يريدون إطفاء نور الله ﴿أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ أي فأولئك هم أصحاب النار الحارة الموجهة ، الشديد عذابها ونكالها ، شبههم من حيث الدوام بالصاحب قال الرازي : فإن قيل : إنه عليه السلام بشر المؤمنين أولاً ، وأُنذر الكافرين ثانياً في هذه الآية فكان القياس أن يقال ﴿إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ﴾ والجواب أن الكلام مسوق إلى المشركين وهم الذين استعجلوا العذاب و﴿أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نداء لهم ، وإنما ذكر المؤمنين وثوابهم زيادة لغيظهم وإذائهم ^(٣) ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ أي وما أرسَلنا قبلك يا محمداً رسولاً ولا نبياً ﴿إِلَّا إِذَا تَمَنَّى﴾ أي إلا إذا أحب شيئاً وهويته نفسه ﴿أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ أي ألقى الشيطان فيما يشتهي ويتمناه بعض الوسواس التي توجب اشتغاله بالدنيا كما قال عليه السلام (إنه ليُغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم سبعين مرة) قال الفراء : تمنى إذا حدثت نفسه وفي البخاري : قال ابن عباس : «إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ» إلا إذا حدثت ألقى الشيطان في حديثه فيبطل الله ما يلقي الشيطان ويحكم الله آياته ، ويقال : أُمْنِيَّتُهُ : قراءته ^(٤) قال النحاس : وهذا من أحسن ما قيل في الآية وأجله ، ومعنى الآية : وما أرسَلنا رسولاً ولا نبياً فحدث نفسه بشيء وتمنى لأتمته الهداية والإيمان إلا ألقى الشيطان الوسواس والعقبات في طريقه بتزيين الكفر لقومه وإلقائه في نفوسهم مخالفةً لأمر الرسول وكأن الآية تسلية للرسول ﷺ تقول له : لا تحزن يا محمد على معاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين ^(٥) ﴿فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي يزيل ويبطل الله ما يلقيه الشيطان من الوسواس والأوهام ﴿ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ أي يثبت في نفس الرسول آياته الدالة على

(١) الرازي ٤٧/٢٣ . (٢) المختصر ٥٥٠/٢ . (٣) الرازي ٤٧/٢٣ . (٤) انظر صحيح البخاري كتاب التفسير . (٥) هذا أصح ما قيل في تفسير الآية وهو اختيار المحققين من المفسرين ، وأما قصة الغرائق التي أولع بذكرها بعض المفسرين فهي باطلة مردودة ، وهي أن الرسول عليه السلام قرأ سورة ﴿والنجم إذا هوى﴾ بمحض من المشركين والمسلمين فلما بلغ ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّى﴾ ومناة الثالثة الأخرى ألقى الشيطان على لسانه « تلك الغرائق العلى وإن شفاعتهن لترتجى » ففرح بذلك المشركون ولما انتهى من السورة سجد وسجد معه المشركون الخ قال ابن العربي : إن جميع ما ورد في هذه القصة باطل لا أصل له وقال ابن إسحاق : هي من وضع الزنادقة وقال البيهقي : رواها مطعون فيهم وقال ابن كثير : ذكر كثير من المفسرين قصة الغرائق وهي روايات مراسلات ومنقطعات لا تصح وقال القاضي عياض : هذا حديث لم يخرج أحد من أهل الصحة ولا رواه أحد بسند متصل سليم ، وإنما أولع به ويمثله المفسرون والمؤرخون ، المولعون بكل غريب ، المتلففون من الصحف كل صحيح وسقيم . أقول : مما يدل على بطلان القصة قوله تعالى في نفس السورة ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى﴾ إن هو إلا وحي يوحى ﴿فكيف نطق المعصوم بمثل هذا الذي يزعمونه ! سبحانه هذا بهتان عظيم وانظر الرد القاطع في تفسير الفخر الرازي .

حَكِيمٌ ﴿٥٦﴾ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٧﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٨﴾ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ ﴿٥٩﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٦٠﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٦١﴾ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا الْوَحْدَانِ فِي الرِّسَالَةِ ﴿٦٢﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾ أي مبالغ في العلم حكيم يضع الأشياء في مواضعها قال أبو السعود : وفي الآية دلالة على جواز السهو من الأنبياء عليهم السلام ، وتطرق الوسوسة إليهم ^(١) ﴿لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ﴾ أي ليجعل تلك الشبه والوساوس التي يلقيها الشيطان ﴿فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي فتنه للمنافقين الذين في قلوبهم شك وارتباب ﴿وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أي وفتنة للكافرين الذين لا تلين قلوبهم لذكر الله ، وهم خواص من الكفار عتاة كآبي جهل ، والنضر ، وعتبة ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ أي وإن هؤلاء المذكورين من المنافقين والمشركون لفي عداوة شديدة لله ولرسوله ، ووصف الشقاق بلفظ ﴿بَعِيدٍ﴾ لأنه في غاية الضلال والبعد عن الخير ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ أي وليعلم أهل العلم أن القرآن هو الحق النازل من عند الله تعالى ﴿فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ أي يؤمنوا بهذا القرآن ﴿فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ﴾ أي تخشع وتسكن له قلوبهم بخلاف من في قلبه مرض ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ أي مرشد المؤمنين إلى الصراط المستقيم ومنقذهم من الضلالة والغواية ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ﴾ أي ولا يزال هؤلاء المشركون في شك وريب من هذا القرآن ﴿حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً﴾ أي حتى تأتيهم الساعة فجأة دون أن يشعروا قال قتادة : ما أخذ الله قوماً قط إلا عند سكرتهم وغرتهم ونعمتهم فلا تغتروا بالله إنه لا يغتر بالله إلا القوم الفاسقون ﴿أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمٍ عَقِيمٍ﴾ أي أو يأتيهم عذاب يوم القيامة وسمي عقيماً لأنه لا يوم بعده قال أبو السعود : كأن كل يوم يلد ما بعده من الأيام ، فما لا يوم بعده يكون عقيماً ، والمراد به الساعة أيضاً كأنه قيل : أو يأتيهم عذابها ، ووضع ذلك موضع الضمير لمزيد التهويل ^(٢) ﴿الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لَّهُ﴾ أي الملك يوم القيامة لله وحده لا منازع له فيه ولا مدافع ﴿يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ﴾ أي يفصل بين عباده بالعدل ، فيدخل المؤمنين الجنة والكافرين النار ولهذا قال ﴿فَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ أي فالذين صدقوا الله ورسوله وفعلوا صالح الأعمال لهم النعيم المقيم في جنات الخلد ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله لهم العذاب المخزي مع الإهانة والتحقير في دار الجحيم ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ أي تركوا الأوطان والديار ابتغاء مرضاة الله وجاهدوا لإعلاء كلمة الله ﴿ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ

لِيرْزُقْنَهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لِيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾
 * ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيَنْصُرْنَهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ
 يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَا يَدْعُونَ
 مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٦٢﴾

ماتوا ﴿٥٨﴾ أي قتلوا في الجهاد أو ماتوا على فرشهم ﴿٥٩﴾ ليرزقنهم الله رزقاً حسناً ﴿٥٩﴾ أي ليعطينهم نعيماً خالداً لا
 ينقطع أبداً وهو نعيم الجنة ﴿٥٩﴾ وإن الله هو خير الرازقين ﴿٥٩﴾ أي هو تعالى خير من أعطى فإنه يرزق بغير
 حساب ﴿٥٩﴾ ليدخلنهم مدخلاً يرضونه ﴿٥٩﴾ أي ليدخلنهم مكاناً يرضونه وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا
 أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿٥٩﴾ وإن الله لعليم حلیم ﴿٥٩﴾ أي عليم بدرجات العاملين حلیم عن
 عقابهم ﴿٥٩﴾ ذلك ومن عاقب بمثل ما عوقب به ﴿٥٩﴾ أي جازى الظالم بمثل ما ظلمه ﴿٥٩﴾ ثم بُغِيَ عليه لينصرنه الله ﴿٥٩﴾
 أي ثم اعتدى الظالم عليه ثانياً لينصرن الله ذلك المظلوم ﴿٥٩﴾ إن الله لعفو غفور ﴿٥٩﴾ أي مبالغ في العفو
 والغفران ، وفيه تعريض بالحث على العفو والصفح ، فإنه تعالى مع كمال قدرته على الانتقام يعفو ويغفر
 فغيره أولى بذلك ﴿٥٩﴾ ذلك بأن الله يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ﴿٥٩﴾ أي ذلك النصر بسبب أن
 الله قادر ، ومن آيات قدرته إيلاج الليل في النهار أي أنه يدخل كلاً منهما في الآخر . بأن ينقص من الليل
 فيزيد في النهار وبالعكس وهذا مشاهد ملموس في الصيف والشتاء ﴿٥٩﴾ وأن الله سميع بصير ﴿٥٩﴾ أي سميع
 لأقوال عباده بصير بأحوالهم لا تخفى عليه خافية ﴿٥٩﴾ ذلك بأن الله هو الحق ﴿٥٩﴾ أي ذلك بأن الله هو الإله الحق
 ﴿٥٩﴾ وأن ما يدعون من دونه الباطل ﴿٥٩﴾ أي وأن الذي يدعوه المشركون من الأصنام والأوثان هو الباطل الذي لا
 يقدر على شيء ﴿٥٩﴾ وأن الله هو العلي الكبير ﴿٥٩﴾ أي هو العالي على كل شيء ذو العظمة والكبرياء فلا أعلى منه
 ولا أكبر .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - صيغة المبالغة ﴿خَوَّانُ كُفُورٍ﴾ لأن فعال وفعل من صيغ المبالغة .
- ٢ - الحذف لدلالة السياق عليه ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ﴾ أي أُذِنَ بِالْقِتَالِ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ .
- ٣ - تأكيد المدح بما يشبه الذم ﴿إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبَّنَا اللَّهُ﴾ أي لا ذنب لهم إلا هذا .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وبين ﴿وَالَّذِينَ
 سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ﴾ .

٦ - الطباق بين ﴿ينسخ .. ثم يحكم﴾ .

٧ - الاستعارة البديعة ﴿أو يأتيهم عذاب عقيم﴾ وهذا من أحسن الاستعارات لأن العقيم المرأة التي لا تلد ، فكأنه سبحانه وصف ذلك اليوم بأنه لا ليل بعده ولا نهار لأن الزمان قد مضى ، والتكليف قد انقضى ، فجعلت الأيام بمنزلة الولدان لليلي ، وجعل ذلك اليوم من بينها عقياً على طريق الاستعارة .

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً .. إِلَى .. فَنَعْمُ الْمَوْلَىٰ وَنَعْمُ النَّصِيرُ﴾

من آية (٦٣) إلى آية (٧٨) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى ما دلّ على قدرته الباهرة من إيلاج الليل في النهار والنهار في الليل ونبه به على نعمه ، أتبعه هنا بأنواع آخر من الدلائل على قدرته وحكمته ، وجعلها كالمقدمة لإثبات البعث والمعاد ، وختم السورة بدعوة المؤمنين إلى عبادة الله الواحد الأحد .

اللفظ : ﴿سلطاناً﴾ حجة وبرهاناً ﴿يسطون﴾ يبطشون ، والسطوة : القهر وشدة البطش يقال : سطا يسطو إذا بطش به ﴿يسلبهم﴾ سلب الشيء : اختطفه بسرعة ﴿قدروا﴾ عظموا ﴿يصطفي﴾ يجتبي ويختار ﴿حرج﴾ ضيق ﴿ملة﴾ الملة : الدين .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿٦٣﴾ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ

وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٦٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي

فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ ۖ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٦٥﴾ وَهُوَ

النفسير : ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء﴾ استفهام تقريرى أي ألم تعلم أيها السامع أن

الله بقدرته أنزل من السحاب المطر ؟ ﴿فتصبح الأرض مخضرة﴾ أي فأصبحت الأرض منتعشة خضراء بعد

يبسها ومحوها ، وجاء بصيغة المضارع ﴿فتصبح﴾ لاستحضار الصورة وإفادة بقائها كذلك مدة من الزمن

﴿إن الله لطيف خبير﴾ قال ابن عباس : لطيف بأرزاق عباده خبير بما في قلوبهم من القنوط ، والغرض من

الآية إقامة الدليل على كمال قدرته وعلى البعث والنشور فمن قدر على هذا قدر على إعادة الحياة بعد الموت

ولهذا قال ﴿وهو الذي أحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم﴾ ﴿له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي جميع ما

في الكون ملكه جل وعلا ، خلقاً وملكاً وتصرفاً ، والكل محتاج إلى تدبيره وإتقانه ﴿وإن الله هو الغني

الحميد﴾ أي هو تعالى غني عن الأشياء كلها لا يحتاج لأحد ، وهو المحمود في كل حال ﴿ألم تر أن الله سخر

لكم ما في الأرض﴾ تذكير بنعمة أخرى أي ألم تر أيها العاقل أن الله سخر لعباده جميع ما يحتاجون إليه من

الحيوانات والأشجار والأنهار والمعادن ﴿والفلك تجري في البحر بأمره﴾ أي وسخر السفن العظيمة المثقلة

بالأحمال والرجال تسير في البحر لمصالحكم بقدرته ومشيتته ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض﴾ أي ويمسك

الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ ﴿٦٦﴾ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ
فَلَا يَنْزِعُ عَنْكَ فِي الْآمْرِ وَادْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٧﴾ وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا
تَعْمَلُونَ ﴿٦٨﴾ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٦٩﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ
وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧٠﴾ وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ يَنْزِلْ بِهِ سُلْطَانٌ وَمَا لَيْسَ

بقدرته السماء كي لا تقع على الأرض فيهلك من فيها ﴿٦٦﴾ إلا بإذنه ﴿٦٧﴾ أي إذا شاء وذلك عند قيام الساعة
﴿٦٨﴾ إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴿٦٩﴾ أي وذلك من لطفه بكم ورحمته لكم حيث هيا لكم أسباب المعاش
فاشكروا الآله وهو الذي أحياكم بعد أن كنتم عدماً ﴿٧٠﴾ ثم يميتكم ﴿٧١﴾ أي يميتكم عند انتهاء
آجالكم ﴿٧٢﴾ ثم يحييكم ﴿٧٣﴾ أي بعد موتكم للحساب والثواب والعقاب ﴿٧٤﴾ إن الإنسان لكفور ﴿٧٥﴾ أي مبالغ في
الجهود لنعم الله قال ابن عباس : المراد بالإنسان الكافر والغرض من الآيات توبيخ المشركين كأنه يقول :
كيف تجعلون لله أنداداً وتعبدون معه غيره وهو المستقل بالخلق والرزق والتصرف !! ﴿٧٦﴾ لكل أمة جعلنا
منسكاً ﴿٧٧﴾ أي لكل نبي من الأنبياء وأمة من الأمم السابقين وضعنا لهم شريعة ومتعبداً ومنهاجاً ﴿٧٨﴾ كقوله
﴿٧٩﴾ لكل جعلنا منكم شرعةً ومنهاجاً ﴿٨٠﴾ هم ناسكوه ﴿٨١﴾ أي هم عاملون به أي بذلك الشرع ﴿٨٢﴾ فلا ينازعك
في الأمر ﴿٨٣﴾ أي لا ينازعك أحد من المشركين فيما شرعت لك ولأمتك فقد كانت الشرائع في كل عصر
وزمان ، وهو نهي يراى به النفي أي لا ينبغي منازعة النبي ﷺ لأن الحق قد ظهر بحيث لا يسع النزاع فيه
﴿٨٤﴾ وادع إلى ربك ﴿٨٥﴾ أي ادع الناس إلى عبادة ربك وإلى شريعته السمحة المطهرة ﴿٨٦﴾ إنك لعلى هدى مستقيم ﴿٨٧﴾
أي فإنك على طريق واضح مستقيم ، موصل إلى جنات النعيم ﴿٨٨﴾ وإن جادلوك فقل الله أعلم بما تعملون ﴿٨٩﴾
أي وإن خاصموك بعد ظهور الحق وقيام الحجة عليهم فقل لهم : الله أعلم بأعمالكم القبيحة وبما
تستحقون عليها من الجزاء ، وهذا وعيد وإنذار ﴿٩٠﴾ الله يحكم بينكم يوم القيامة فيما كنتم فيه تختلفون ﴿٩١﴾ أي
الله يفصل في الآخرة بين المؤمنين والكافرين فيما كانوا فيه يختلفون من أمر الدين ، فيعرفون حينئذ الحق
من الباطل ﴿٩٢﴾ ألم تعلم أن الله يعلم ما في السماء والأرض ﴿٩٣﴾ الاستفهام تقريرى أي لقد علمت يا محمد أن الله
أحاط علمه بما في السماء والأرض فلا تخفى عليه أعمالهم ﴿٩٤﴾ إن ذلك في كتاب ﴿٩٥﴾ أي إن ذلك كله مسطر في
اللوح المحفوظ ﴿٩٦﴾ إن ذلك على الله يسير ﴿٩٧﴾ أي إن حصر المخلوقات تحت علمه وإحاطته سهل عليه يسير لديه ثم
بين سبحانه ما يقدم عليه الكفار مع عظيم نعمه ، ووضوح دلائله فقال ﴿٩٨﴾ ويعبدون من دون الله ﴿٩٩﴾ أي
ويعبد كفار قريش غير الله تعالى أصناماً لا تنفع ولا تسمع ﴿١٠٠﴾ ما لم ينزل به سلطاناً ﴿١٠١﴾ أي ما لم يرد به حجة
ولا برهان من جهة الوحي والشرع ﴿١٠٢﴾ وما ليس لهم به علم ﴿١٠٣﴾ أي وما ليس عندهم به علم من جهة العقل
وإنما هو مجرد التقليد الأعمى للأباء ﴿١٠٤﴾ وما للظالمين من نصير ﴿١٠٥﴾ أي ليس لهم ناصر يدفع عنهم عذاب الله

لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبَشَرٌ مِّثْلُ الْمَصِيرِ ﴿٧٢﴾ يَتَأَيَّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ۚ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ

﴿وإذا تُتلى عليهم آياتنا بينات﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن الواضحة الساطعة وما فيها من الحجج القاطعة على وحدانية الله ﴿تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر﴾ أي ترى في وجوه الكفار الإنكار بالعُبوس والكرهية ﴿يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا﴾ أي يكادون يبطشون بالمؤمنين الذين يتلون عليهم القرآن ﴿قل أفأنبيئكم بشر من ذلكم النار﴾ أي قل لهم : هل أخبركم بما هو أسوأ أو أشنع من تخويفكم للمؤمنين وبطشكم بهم ؟ إنه نار جهنم وعذابها ونكالها ﴿وعدها الله الذين كفروا﴾ أي وعدها الله للكافرين المكذبين بآياته ﴿وبشر المصير﴾ أي بئس الموضع الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له﴾ أي يا معشر المشركين ضرب الله مثلاً لما يعبد من دون الله من الأوثان والأصنام فتدبروه حق التدبر واعقلوا ما يقال لكم ﴿إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ أي إن هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله لن تقدر على خلق ذبابة على ضعفها وإن اجتمعت على ذلك ، فكيف يليق بالعاقل جعلها آلهة وعبادتها من دون الله ! قال القرطبي : وخص الذباب لأربعة أمور : لمهانتها ، وضعفه ، ولاستقذاره ، وكثرته ، فإذا كان هذا الذي هو أضعف الحيوان وأحقره لا يقدر من عبودهم من دون الله على خلق مثله ودفع أذيته ، فكيف يجوز أن يكونوا آلهة معبودين ، وأرباباً مطاعين ؟ وهذا من أقوى الحجج وأوضح البرهان (١) ﴿وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه﴾ أي لو اختطف الذباب وسلب شيئاً من الطيب الذي كانوا يضمخون به الأصنام لما استطاعت تلك الآلهة استرجاعه منه رغم ضعفه وحقارته ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ أي ضعف العابد الذي يطلب الخير من الصنم ، والمطلوب الذي هو الصنم ، فكل منهما حقير ضعيف (٢) ﴿ما قدروا الله حق قدره﴾ أي ما عظموه حق تعظيمه حيث جعلوا الأصنام - على حقارتها - شركاء للقوي العزيز ولهذا قال ﴿إن الله لقوي عزيز﴾ أي هو تعالى قادر لا يعجزه شيء ، غالب لا يغلب ، فكيف يسوون بين القوي العزيز والعاجز الحقير ؟ ! ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ أي الله يختار رسلاً من الملائكة ليكونوا وسطاء لتبليغ الوحي إلى أنبيائه ، ويختار رسلاً من البشر لتبليغ شرائع الدين لعباده ، والآية رد على من أنكر أن يكون الرسول

(١) القرطبي ٩٧/١٢ . (٢) قال ابن عباس : الطالب الصنم ، والمطلوب الذباب ، وقال السدي : الطالب العابد ، والمطلوب الصنم نفسه وهذا هو الراجح وهو الذي اخترناه .

بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٧٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَرْكَعُوا وَاسْجُدُوا
وَأَعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٧٧﴾ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ
عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا
عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى
وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٧٨﴾

من البشر ﴿إنَّ الله سميع بصير﴾ أي يسمع ما يقولون ويرى ما يفعلون ﴿يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم﴾ أي يعلم ما قدموا وما أخرؤا من الأفعال والأقوال والأعمال ﴿وإلى الله ترجع الأمور﴾ أي إليه وحده جل وعلا ترد أمور العباد فيجازيهم عليها ﴿يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا﴾ أي صلوا لربكم خاشعين ، وإنما عبر عن الصلاة بالركوع والسجود لأنها أشرف أركان الصلاة ﴿واعبدوا ربكم﴾ أي أفردوه بالعبادة ولا تعبدوا غيره ﴿وافعلوا الخير﴾ أي افعلوا ما يقربكم من الله من أنواع الخيرات والمبرات كصلة الأرحام ، ومواساة الأيتام ، والصلاة بالليل والناس نيام ﴿لعلكم تفلحون﴾ أي لتفوزوا وتظفروا بنعيم الآخرة ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾ أي جاهدوا بأموالكم وأنفسكم لإعلاء كلمة الله حقَّ الجهاد باستفراغ الوسع والطاقة ﴿هو اجتباكم﴾ أي هو اختاركم من بين الأمم لنصرة دينه ، وخصكم بأكمل شرع وأكرم رسول ﴿وما جعل عليكم في الدين من حرج﴾ أي وما جعل عليكم في هذا الدين من ضيق ولا مشقة ، ولا كلفكم مالا تطيقون بل هي الحنفية السمحة ولهذا قال ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ أي دينكم الذي لا حرج فيه هو دين إبراهيم فالزموه لأنه الدين القيم كقوله ﴿دينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ ﴿هو سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ أي الله ^(١) سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ فِي الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ وَفِي هَذَا الْقُرْآنِ ، وَرَضِيَ لَكُمْ الْإِسْلَامُ دِينًا قَالَ الْإِمَامُ الْفَخْرُ : الْمَعْنَى أَنَّهُ سَبَّحَانَهُ فِي سَائِرِ الْكُتُبِ الْمُتَقَدِّمَةِ عَلَى الْقُرْآنِ ، وَفِي الْقُرْآنِ أَيْضًا بَيَّنَّ فَضْلَكُمْ عَلَى الْأُمَمِ وَسَمَّاكُمْ بِهَذَا الْأَسْمِ الْأَكْرَمِ ، لِأَجْلِ الشَّهَادَةِ الْمَذْكُورَةِ ، فَلَمَّا خَصَّكُمْ بِهَذِهِ الْكِرَامَةِ فَاعْبُدُوهُ وَلَا تَرُدُّوهُ تَكَالِيفَهُ ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ أي ليشهد عليكم الرسول بتبليغه الرسالة لكم وتشهدوا أنتم على الخلائق أنَّ رسلهم قد بلغتهم ﴿فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ أي وإذ قد اختاركم الله لهذه المرتبة الجليلة فاشكروا الله على نعمته بأداء الصلاة ودفع الزكاة ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ﴾ أي استمسكوا بحبله المتين وثقوا واستعينوا بالله في جميع أموركم ﴿فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ أي نعم هو تعالى الناصر والمعين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ومجاهد وهو الظاهر ، وقال الحسن : الضمير يعود على إبراهيم ، وهذا قول مرجوح والله أعلم .

- ١ - الامتنان بتعداد النعم ﴿ألم تر أن الله سخر لكم ما في الأرض ، والفلك تجري . . ﴾ الخ وكذلك الاستفهام الذي يفيد التقرير .
 - ٢ - الطباق ﴿يُمَيِّتْكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ .
 - ٣ - صيغة المبالغة ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِكَفُورٍ﴾ أي مبالغ في الجحود .
 - ٤ - النهي الذي يراد منه نفي الشيء ﴿فَلَا يَنَازِعُنْكَ﴾ أي لا ينبغي لهم منازعتك فقد ظهر الحق وبان .
 - ٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿تَعْرِفْ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرُ﴾ أي تستدل من وجوههم على المكروه وإرادة الفعل القبيح مثل قولهم : عرفت في وجه فلان الشر .
 - ٦ - التمثيل الرائع ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَابًا﴾ أي مثل الكفار في عبادتهم لغير الله كمثل الأصنام التي لا تستطيع أن تخلق ذبابة واحدة قال الزمخشري : سميت القصة الرائقة المتلقاة بالاستحسان مثلاً تشبيهاً لها ببعض الأمثال .
 - ٧ - المجاز المرسل ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا﴾ من إطلاق الجزء على الكل أي صلوا لأن الركوع والسجود من أركان الصلاة .
 - ٨ - ذكر العام بعد الخاص لإفادة العموم مع العناية بشأن الخاص ﴿ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ﴾ بدأ بخاص ، ثم بعام ، ثم بأعم .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الحج » .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة « المؤمنون » من السور المكية التي تعالج أصول الدين من « التوحيد والرسالة ، والبعث » سميت بهذا الاسم الجليل « المؤمنون » تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم الكريمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات النعيم .

✽ عرضت السورة الكريمة لدلائل القدرة والوحدانية مصورة في هذا الكون العجيب ، في الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، ثم في خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وفي الآيات الكونية المنبئة فيما يشاهده الناس في العالم المنظور من أنواع النخيل والأعنان ، والزيتون والرمان ، والفواكه والثمار ، والسفن الكبيرة التي تمخر عباب البحار ، وغير ذلك من الآيات الكونية الدالة على وجود الله جل وعلا .

✽ وقد عرضت السورة لقصص بعض الأنبياء تسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، فذكرت قصة نوح ، ثم قصة هود ، ثم قصة موسى ، ثم قصة مريم البتول وولدها عيسى ، ثم عرضت لكفار مكة وعنادهم ومكابرتهم للحق بعدما سطع سطوع الشمس في رابعة النهار ، وأقامت الحجج والبراهين على البعث والنشور ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة ، وأهم ما يجادل فيه المبطلون ، فقصمت ببيانها الساطع ظهر الباطل .

✽ وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار وقت الاحتضار وهم في سكرات الموت ، وقد تمنوا العودة الى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم من صالح العمل ، ولكن هيهات فقد انتهى الأجل ، وضاع الأمل . وختمت السورة بالحديث عن يوم القيامة حيث ينقسم الناس الى فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحسب والنسب فلا ينفع إلا الايمان والعمل الصالح ، وسجلت المحاور بين الملك الجبار وبين أهل النار وهم يصطرخون فيها فلا يغاثون ولا يجابون !!

قال الله تعالى : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ .. إِلَى .. وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفَلَكِ تَحْمَلُون ﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٢) .

اللغة : « سلاطة » السلاطة : الخلاصة مشتقة من السَّل وهو استخراج الشيء من الشيء ، تقول : سللت الشَّعر من العجين ، والسيف من الغمد قال أمية :

خلق البرية من سلالة متتن وإلى السلالة كلها ستعود^(١) ويقال : الولد سلالة أبيه لأنه انسل من ظهر أبيه ﴿مكين﴾ ثابت راسخ تقول : هذا شيء مكين أي متمكن في الثبوت والرسوخ ﴿طرائق﴾ جمع طريقة والمراد بالطرائق السموات السبع سميت بذلك لكون بعضها فوق بعض ، ومنه قولهم : طارق النعل إذا جعل إحداها على الأخرى ﴿صبغ﴾ الصبغ : الإدام وأصله الصباغ وهو الذي يلون به الثوب قال الهروي : كل إدام يؤتدم به فهو صبغ ﴿الأنعام﴾ الحيوانات المأكولة « الإبل ، والبقر ، والغنم » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٧﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمْتِنَتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴿٨﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾

التفسير : ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ أي فاز وسعد وحصل على البغية والمطلوب المؤمنون المتصفون بهذه الأوصاف الجليلة ، و﴿قد﴾ للتأكيد والتحقيق فكأنه يقول لقد تحقق ظفرهم ونجاحهم بسبب الإيمان والعمل الصالح ، ثم عدّد تعالى مناقبهم فقال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ قال ابن عباس : خاشعون : خائفون ساكنون أي هم خائفون متذللون في صلاتهم لجلال الله وعظمته لاستيلاء الهيبة على قلوبهم ﴿والذين هم عن اللغو معرضون﴾ أي عن الكذب والشتم والهزل قال ابن كثير: اللغو: الباطل وهو يشمل الشرك، والمعاصي، وما لا فائدة فيه من الأقوال والأفعال^(٢) ﴿والذين هم للزكاة فاعلون﴾ أي يؤدون زكاة أموالهم للفقراء والمساكين، طيبة بها نفوسهم طلباً لرضى الله ﴿والذين هم لفروجهم حافظون﴾ هذا هو الوصف الرابع أي عفا عن الحرام وصانوا فروجهم عما لا يحل من الزنا واللواط وكشف العورات ﴿إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم﴾ أي هم حافظون لفروجهم في جميع الأحوال إلا من زوجاتهم وإمائهم المملوكات ﴿فإنهم غير ملومين﴾ أي فإنهم غير مؤاخذين ﴿فمن ابتغى وراء ذلك﴾ أي فمن طلب غير الزوجات والمملوكات ﴿فأولئك هم العادون﴾ أي هم المعتدون المجاوزون الحد في البغي والفساد ﴿والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون﴾ أي قائمون عليها بحفظها وإصلاحها ، لا يخونون إذا ائتمنوا ، ولا ينقضون عهدهم إذا عاهدوا قال أبو حيان : والظاهر عموم الأمانات فيدخل فيها ما ائتمن الله تعالى عليه العبد من قول وفعل واعتقاد ، وما ائتمنه الإنسان من الودائع والأمانات^(٣) ﴿والذين هم على صلواتهم يحافظون﴾ هذا هو الوصف السادس أي يواظبون على الصلوات الخمس

(١) البحر المحيط ٣٩٣/٦ . (٢) ابن كثير المختصر ٥٥٩/٢ . (٣) البحر ٣٩٧/٦ .

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظْمًا فَكَسَوْنَا الْعِظْمَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ تُبْعَثُونَ ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ

ويؤدونها في أوقاتها قال في التسهيل : فإن قيل كيف كرّر ذكر الصلوات أولاً وآخراً ؟ فالجواب أنه ليس بتكرار ، لأنه قد ذكر أولاً الخشوع فيها ، وذكر هنا المحافظة عليها فهما مختلفان ^(١) ﴿أولئك هم الوارثون﴾ أي أولئك الجامعون لهذه الأوصاف الجليلة هم الجديرون بوراثنة جنة النعيم ﴿الذين يرثون الفردوس﴾ أي الذين يرثون أعالي الجنة التي تتفجر منها أنهار الجنة وفي الحديث (إذا سألتم الله فسلوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة) ^(٢) ﴿هم فيها خالدون﴾ أي هم دائمون فيها لا يخرجون منها أبداً ، ولا ييغون عنها حولاً . . ثم ذكر تعالى الأدلة والبراهين على قدرته ووحدانيته فقال ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ اللام جواب قسم أي والله لقد خلقنا جنس الإنسان من صفوة وخلصة استلت من الطين قال ابن عباس : هو آدم لأنه أنسل من الطين ﴿ثم جعلناه نطفة﴾ أي ثم جعلنا ذرية آدم وبنه منياً ينطف من أصلاب الرجال ﴿في قرار مكين﴾ أي في مستقر متمكن هو الرحم ﴿ثم خلقنا النطفة علقة﴾ أي ثم صيرنا هذه النطفة - وهي الماء الدافق - دماً جامداً يشبه العلقه ﴿فخلقنا العلقه مضغة﴾ أي جعلنا ذلك الدم الجامد مضغة أي قطعة لحم لا شكل فيها ولا تخطيط ﴿فخلقنا المضغة عظاماً﴾ أي صيرنا قطعة اللحم عظاماً صلبة لتكون عموداً للبدن ﴿فكسونا العظام لحماً﴾ أي سترنا تلك العظام باللحم وجعلناه كالكسوة لها ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ أي ثم بعد تلك الأطوار نفخنا فيه الروح فصيرناه خلقاً آخر في أحسن تقويم قال الرازي : أي جعلناه خلقاً مباحين للخلق الأول حيث صار إنساناً وكان جماداً ، وناطقاً وكان أبكم ، وسميعاً وكان أصم ، وبصيراً وكان أكمر ، وأودع كل عضو من أعضائه عجائب فطرة ، وغرائب حكمة لا يحيط بها وصف الواصفين ^(٣) ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ أي فتعالى الله في قدرته وحكمته أحسن الصانعين صنعاً ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ أي ثم إنكم أيها الناس بعد تلك النشأة والحياة لصائرون الى الموت ﴿ثم إنكم يوم القيامة تُبعثون﴾ أي تبعثون من قبوركم للحساب والمجازاة ، ولما ذكر تعالى الأطوار في خلق الإنسان وبدايته ونهايته ذكر خلق السموات والأرض وكلها أدلة ساطعة على وجود الله فقال ﴿ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق﴾ أي والله لقد خلقنا فوقكم سبع سموات ، سميت طرائق لأن بعضها فوق بعض ﴿وما كنا عن الخلق غافلين﴾ أي وما كنا مهملين أمر الخلق بل نحفظهم وندير أمرهم ﴿وأنزلنا من السماء

غَفِيلِينَ ﴿١٧﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴿١٨﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِّنْ نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَّكُمْ فِيهَا فَوَكُهٌ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿١٩﴾ وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصَبِغٍ لِلَّكِلَيْنِ ﴿٢٠﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢١﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ ﴿٢٢﴾

ماءً بقدر ﴿١٧﴾ أي أنزلنا من السحاب القطر والمطر بحسب الحاجة ، لا كثيراً فيفسد الأرض ، ولا قليلاً فلا يكفي الزروع والثمار ﴿فأسكنناه في الأرض﴾ أي جعلناه ثابتاً مستقراً في الأرض لتنتفعوا به وقت الحاجة ﴿وإننا على ذهابٍ به لقادرون﴾ وعيدٌ وتهديدٌ أي ونحن قادرون على إذهابه بالتغوير في الأرض فتهلكون عطشاً أنتم ومواشيكم قال ابن كثير : لو شئنا لجعلناه إذا نزل يغور في الأرض إلى مدى لا تصلون إليه ولا تنتفعون به لفعلنا ، ولكن بلطفه تعالى ورحمته ينزل عليكم المطر من السحاب عذبةً فرائاً ، فيسكنه في الأرض ، ويسلكه ينابيع فيها فيفتح العيون والأنهار ، ويسقى الزروع والثمار ، فتشربون منه أنتم ودوابكم وأنعامكم ﴿١﴾ ﴿فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب﴾ أي فأخرجنا لكم بذلك الماء حداثاً وبساتين فيها النخيل والأعناب ﴿لکم فيها فواكه كثيرة﴾ أي لكم في هذه البساتين أنواع الفواكه والثمار تتفكهون بها ﴿ومنها تأكلون﴾ أي ومن ثمر الجنات تأكلون صيفاً وشتاءً كالرطب والعنب والتمر والزبيب ، وإنما خصَّ النخيل والأعناب بالذكر لكثرة منافعها فإنها يقومان مقام الطعام ، ومقام الإدام ، ومقام الفواكه رطباً ويابساً وهما أكثر فواكه العرب ﴿وشجرة تخرج من طور سيناء﴾ أي ومما أنشأنا لكم بالماء أيضاً شجرة الزيتون التي تخرج حول جبل الطور وهو الجبل الذي كلم الله عليه موسى ﴿تنبت بالدهن﴾ أي تنبت الدهن أي الزيت الذي فيه منافع عظيمة ﴿وصبغ للكلين﴾ أي وإدام للكلين سمي صبغاً لأنه يلون الخبز إذا غمس فيه ، جمع الله في هذه الشجرة بين الأدم والدهن ، وفي الحديث (كلوا الزيت وادهنوا به فإنه من شجرة مباركة) ﴿٢﴾ ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة﴾ أي وإن لكم أيها الناس فيما خلق لكم ربكم من الأنعام وهي « الإبل والبقر والغنم » لعظةً بالغةً تعتبرون بها ﴿نسقيكم مما في بطونها﴾ أي نسقيكم من ألبانها من بين فرثٍ ودمٍ لبناً خالصاً سائغاً للشاربين ﴿ولكم فيها منافع كثيرة﴾ أي ولكم في هذه الأنعام منافع عديدة : تشربون من ألبانها ، وتلبسون من أصوافها وتركبون ظهورها ، وتحملون عليها الأحمال الثقيل ﴿ومنها تأكلون﴾ أي وتأكلون لحومها كذلك ﴿وعليها على الفلك تحملون﴾ أي وتحملون على الإبل في البر كما تحملون على السفن في البحر ، فإن الإبل سفائن البر كما أن الفلك سفائن البحر .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإخبار بصيغة الماضي لإفادة الثبوت والتحقق ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ كما أن ﴿قد﴾ لإفادة التحقيق أيضاً .

٢ - التفصيل بعد الإجمال ﴿الذين هم في صلاتهم خاشعون﴾ والذين هم عن اللغو معرضون . . . الخ .

٣ - إنزال غير المنكر منزلة المنكر ﴿ثم إنكم بعد ذلك لميتون﴾ الناس لا ينكرون الموت ولكن غفلتهم عنه وعدم استعدادهم له بالعمل الصالح يعدّان من علامات الإنكار ولذلك نزلوا منزلة المنكرين وألقي الخبر مؤكداً بمؤكدين « إنَّ واللام » .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿سبع طرائق﴾ شبهت السموات السبع بطرائق النعل التي يجعل بعضها فوق بعض بطريق الاستعارة .

٥ - التهديد ﴿وإنا على ذهاب به لقادرون﴾ .

٦ - السجع غير المتكلف ﴿خاشعون ، حافظون ، عادون﴾ وكذلك ﴿طين ، مكين ، الخالقين﴾ وهو من المحسنات البديعية .

تَبْيِيْهُ : ذكر تعالى في هذه الآيات من قوله ﴿ولقد خلقنا الإنسان﴾ إلى قوله ﴿وعلى الفلك تحملون﴾ أربعة أنواع من دلائل قدرته تعالى ، الأول : تقلب الإنسان في أطوار الخلق وهي تسعة آخرها البعث بعد الموت ، الثاني : خلق السموات السبع ، الثالث : إنزال الماء من السماء ، الرابع : منافع الحيوانات وذكر منها أربعة أنواع « الانتفاع بالألبان ، وبالصوف ، وباللحوم ، وبالركوب » .

فَكَايْدَةٌ : روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « كان إذا نزل على رسول الله ﷺ الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل ، فلبثنا ذات يوم ساعة فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال (اللهم زدنا ولا تنقصنا ، وأكرمنا ولا تهنا وأعطنا ولا تحرمنا ، وآثرنا ولا تؤثر علينا ، وأرضنا وارض عنا) ثم قال : لقد أنزل عليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنة ثم قرأ ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ حتى ختم العشر^(١) .

قال الله تعالى : ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه . . إلى . . وأنا ربكم فاتقون﴾

من آية (٢٣) إلى نهاية آية (٥٢) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما ذكر تعالى دلائل التوحيد في خلق الإنسان ، والحيوان ، والنبات ، وفي خلق السموات والأرض ، وعدّد نعمه على عباده ، ذكر هنا أمثالا لكفار مكة من المكذبين من الأمم السابقة وما

(١) أخرجه أحمد والترمذي والنسائي .

نالهم من العذاب ، فابتدأ بقصة نوح ، ثم بقصة هود ، ثم بقصة موسى وفرعون ، ثم بقصة عيسى بن مريم ، وكلها عبر وعظات للمكذبين بالرسل والآيات .

اللفظ : ﴿جَنَّةٌ﴾ بكسر الجيم أي جنون ﴿فَتَرَبَّصُوا﴾ فانظروا والتربص : الانتظار ﴿مَبْتَلِينَ﴾ مختبرين ﴿هِيَاهُنَا﴾ اسم فعل ماض بمعنى بُعد قال الشاعر :

تذكرت أياماً مضين من الصبا وهيئات هيئاتاً إليك رجوعها^(١)

﴿غُثَاءٌ﴾ الغثاء : العشب إذا يبس ، وغُثَاءُ السيل : ما يحمله من الحشيش والقصب اليابس ونحوه ﴿بَعْدَ﴾ هلاكاً قال الرازي : بعداً وسُحْقاً ودماراً ونحوها مصادر موضوعة مواضع أفعالها قال سيبويه وهي منصوبة بأفعال لا يستعمل إظهارها ومعنى ﴿بَعْدَ﴾ بعدوا بعداً أي هلكوا^(٢) ﴿قَرُونًا﴾ أمماً ﴿تَتَرَى﴾ تتابع يأتي بعضهم إثر بعض ﴿أَحَادِيثٌ﴾ جمع أحذوثة كأعجوبة وهي ما يتحدث به عجباً وتسلية ﴿مَعِينٌ﴾ ماء جار ظاهر للعيون ﴿رَبُوبَةٌ﴾ الربوة : المكان المرتفع من الأرض .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَنْقُومَ ۖ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ الْمَلَأُوا الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَرَبَّصُوا بِهِ ۚ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٢٦﴾

التفسير : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ﴾ أي والله لقد أرسلنا رسولنا نوحاً إلى قومه داعياً لهم إلى الله قال المفسرون : هذه تعزية لرسول الله ﷺ بذكر هذا الرسول ، ليتأسى به في صبره ، وليعلم أن الرسل قبله قد كذبوا ﴿فَقَالَ يَنْقُومُ﴾ فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ﴿أَيَّ اعبدوه وحده فليس لكم رب سواه﴾ ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ زجرٌ ووعيد أي أفلا تخافون عقوبته بعبادتكم غيره ؟ ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ﴾ أي فقال أشراف قومه ورؤساؤهم الممعنون في الكفر والضلال ﴿مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا رجلٌ من البشر يريد أن يطلب الرياسة والشرف عليكم بدعواه النبوة لتكونوا له أتباعاً . واعجب بضلال هؤلاء استبعدوا أن تكون النبوة لبشر ، وأثبتوا الربوبية لحجر ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً﴾ أي لو أراد الله أن يبعث رسولاً لبعث ملكاً ولم يكن بشراً ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ أي ما سمعنا بمثل هذا الكلام في الأمم الماضية ، والدهور الخالية ﴿إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ﴾ أي ما هو إلا رجلٌ به جنون ﴿فَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ أي انتظروا واصبروا عليه مدة حتى يموت ﴿قَالَ رَبِّ أَنْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ﴾ أي قال نوح بعد ما يئس من

فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَّوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكَ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّيْنَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُلْ رَبِّ انْزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ ﴿٢٩﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ ﴿٣١﴾ فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِلْقَاءِ الْآخِرَةِ وَأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ إِيمَانُهُمْ : رَبِّ انْصُرْنِي عَلَيْهِمْ بِإِهْلَاكِهِمْ عَامَةً بِسَبَبِ تَكْذِيبِهِمْ إِيَّاي ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ أي فأوحينا إليه عند ذلك ان اصنع السفينة بمرأى منا وحفظنا ﴿ووحينا﴾ أي بأمرنا وتعليمنا ﴿فإذا جاء أمرنا﴾ أي فإذا جاء أمرنا بإنزال العذاب ﴿وفار التنور﴾ أي فار الماء في التنور الذي يخبز فيه قال المفسرون : جعل الله ذلك علامة لنوح على هلاك قومه ﴿فاسلك فيها من كل زوجين اثنين﴾ أي فأدخل في السفينة من كل صنف من الحيوان زوجين « ذكر وأنثى » لئلا ينقطع نسل ذلك الحيوان ﴿وأهلك إلا من سبق عليه القول منهم﴾ أي واحمل أهلك أيضاً إلا من سبق عليه القول بالهلاك ممن لم يؤمن بزوجه وابنه ﴿ولا تخاطبني في الذين ظلموا إنهم مغرقون﴾ أي ولا تسألني الشفاعة للظالمين عند مشاهدة هلاكهم فقد قضيت أنهم مغرقون محكوم عليهم بالغرق ﴿فإذا استويت أنتَ ومن معك على الفلك﴾ أي فإذا علوت أنتَ ومن معك من المؤمنين على السفينة ﴿فقل الحمد لله الذي نجَّانا من القوم الظالمين﴾ أي احمداوا الله على تخليصه إياكم من الغرق وإنما قال ﴿فقل﴾ ولم يقل فقولوا لأن نوحاً كان نبياً لهم وإماماً فخطابه خطابُهم ﴿وقل رب أنزلني منزلاً مباركاً﴾ أي أنزلني إنزالاً مباركاً يحفظني من كل سوء وشر قال ابن عباس : هذا حين خرج من السفينة ﴿وأنت خير المنزلين﴾ أي أنت يا رب خير المنزلين لأوليائك والحافظين لعبادك ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أي إِنَّ فيما جرى على أمة نوح لدلائل وعبر يستدل بها أولوا الأبصار ﴿وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ﴾ أي وَإِنَّ الحال والشأن كنا مختبرين للعباد بإرسال المرسلين ﴿ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ أي ثُمَّ أوجدنا من بعد قوم نوح قومًا آخرين يخلفونهم وهم قوم عاد ﴿فأرسلنا فيهم رسولاً مِنْهُمْ﴾ أي أرسلنا إليهم رسولاً من عشيرتهم هو هود عليه السلام ﴿أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ أي اعبدوه وحده ولا تشركوا به أحداً لأنه ليس لكم رب سواه ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي أفلا تحافون عذابه وانتقامه إِنْ كَفَرْتُمْ ؟ ﴿وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلىء الآخرة﴾ أي قال أشرف قومه الكفرة المكذبون بالآخرة وما فيها من الثواب والعقاب ﴿وأُتْرَفْنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ أي وسعنا عليهم نعم الدنيا حتى بطروا ونعمناهم في هذه الحياة ﴿ما هذا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ﴾ أي قالوا لأتباعهم مضلين لهم : ما هذا الذي يزعم أنه رسول إلا إنسان مثلكم ﴿يَأْكُلُ مِمَّا

وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ * هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ ﴿٣٩﴾ قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ ﴿٤٠﴾ فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ ﴿٤٢﴾ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴿٤٣﴾

تأكلون منه ويشرب مما تشربون ﴿٣٣﴾ أي يأكل مثلكم ويشرب مثلكم فلا فضل له عليكم لأنه محتاج إلى الطعام والشراب ﴿٣٤﴾ ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاسرون ﴿٣٥﴾ أي ولئن أطعتموه وصدقتموه فإنكم لخاسرون حقاً حيث أذللتم أنفسكم باتباعه قال أبو السعود : انظر كيف جعلوا اتباع الرسول الحق الذي يوصلهم إلى سعادة الدارين خسراناً دون عبادة الأصنام التي لا خسران وراءها ؟ قاتلهم الله أنى يؤفكون ^(١) ﴿٣٦﴾ أَيْعِدُكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا ﴿٣٧﴾ استفهام على وجه الاستهزاء والاستبعاد أي أيعدكم بالحياة بعد الموت بعد أن تصبحوا رفاتاً وعظاماً بالية ؟ ﴿٣٨﴾ أَنْكُمْ تُخْرَجُونَ ﴿٣٩﴾ أي أَنْكُمْ ستخرجون لما أحياء من قبوركم وكرّر لفظ ﴿أَنْكُمْ﴾ تأكيداً لأنه لما طال الكلام حسن التكرار ﴿هِيَاتَ هِيَاتَ لِمَا تُوْعَدُونَ﴾ أي بعد بعد هذا الذي توعده من الإخراج من القبور ، وغرضهم بهذا الاستبعاد أنه لا يكون أبداً ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ أي لا حياة إلا هذه الحياة الدنيا ﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ أي يموت بعضنا ويولد بعضنا إلى انقراض العصر ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾ أي لا بعث ولا نشور ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ أي ما هو إلا رجل كاذب يكذب على الله فيما جاءكم به من الرسالة ، والإخبار بالمعاد ﴿وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ﴾ أي ولسنا له بمصدقين فيما يقوله ﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَبُونَ﴾ لما يشك فيهم من إيمانهم ورأى إصرارهم على الكفر دعا عليهم بالهلاك والمعنى رب انصُرْنِي عليهم بسبب تكذيبهم إياي ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ﴾ أي عن قريب من الزمان سيصيرون نادمين على كفرهم ﴿فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ﴾ أي أخذتهم صيحة العذاب المدمر عدلاً من الله لا ظلماً ﴿فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً﴾ أي هلكى كغثاء السيل قال المفسرون : صاح بهم جبريل صيحة رجفت لها الأرض من تحتهم فصاروا لشدها غثاءً كغثاء السيل وهو الشيء التافه الحقير الذي لا ينتفع منه بشيء ﴿فَبَعْدًا لِّلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ أي فسحقاً وهلاكاً لهم بكفرهم وظلمهم ، وهي جملة دعائية كأنه قال : بعداً لهم من رحمة الله وهلاكاً ودماراً لهم ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ﴾ أي أوجدنا من بعد هلاك هؤلاء أمماً وخلائق آخرين كقوم صالح وإبراهيم وقوم لوط وشعيب قال ابن عباس : هم بنو إسرائيل ، وفي الكلام حذف تقديره : فكذبوا أنبياءهم فأهلكناهم دل عليه قوله ﴿مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾ أي ما

ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا كُلًّا مَّا جَاءَ أُمَّةً رُسُولُهَا كَذَبُوهُ فَاتَّبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبَعْدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٤٤﴾ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَى وَأَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٤٥﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا عَالِينَ ﴿٤٦﴾ فَقَالُوا أَنْزِلْ لَنَا لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَقَوْمُهُمَا لَنَا عِدُونَ ﴿٤٧﴾ فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ ﴿٤٨﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ ﴿٥٠﴾ يَأْتِيهَا الرُّسُلُ كُلُّوهُ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾

تتقدم أمة من الأمم المهلكة عن الوقت الذي عيّن هلاكهم ولا تتأخر عنه ﴿ثم أرسلنا رسلنا تترًا﴾ أي بعثنا الرسل متتالين واحداً بعد واحد قال ابن عباس : يتبع بعضهم بعضاً ﴿كلما جاء أمة رسولها كذبوه﴾ تشنيع عليهم بكمال ضلالهم أي أنهم سلكوا في تكذيب أنبيائهم مسلك من سبقهم من الضالين المكذبين ولهذا قال ﴿فاتبعنا بعضهم بعضاً﴾ أي ألحقنا بعضهم في إثر بعض بالهلاك والدمار ﴿وجعلناهم أحاديث﴾ أي أخباراً تُروى وأحاديث تُذكر ، يتحدث الناس بما جرى عليهم تعجباً وتسلياً ﴿فبعداً لقومٍ لا يؤمنون﴾ أي فهلاكاً ودماراً لقومٍ لا يصدقون الله ورسله ﴿ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا﴾ أي أرسلناهما بآياتنا البينات قال ابن عباس : هي الآيات التسع «العصا ، اليد ، الجراد» الخ ﴿وسلطان مبين﴾ أي وحجة واضحة ملزمة للخصم ﴿إلى فرعون وملئه﴾ أي أرسلناهما إلى فرعون الطاغية وأشراف قومه المتكبرين ﴿فاستكبروا﴾ أي عن الإيمان بالله وعبادته ﴿وكانوا قوماً عالين﴾ أي متكبرين متمردين ، قاهرين لغيرهم بالظلم ﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ أي أنصدق رجلين مثلنا ونتبّعهما ؟ ﴿وقومهما لنا عابدون﴾ أي والحال أن قوم موسى وهارون منقادون لنا كالخدم والعبيد ؟ ﴿فكذبوهما فكانوا من المهلكين﴾ أي فكذبوا رسولينا فكانوا من المغرقين في البحر ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون﴾ أي أعطينا موسى التوراة بعد غرق فرعون وملئه ليهتدي بها بنو إسرائيل ﴿وجعلنا ابن مريم وأمه آية﴾ أي وجعلنا قصة مريم وابنها عيسى معجزة عظيمة تدل على كمال قدرتنا ﴿وآويناها إلى ربوة﴾ أي وجعلنا منزلها ومأواها إلى مكان مرتفع من أرض بيت المقدس قال ابن عباس : الربوة المكان المرتفع من الأرض ، وهو أحسن ما يكون فيه النبات ﴿ذات قرارٍ ومعين﴾ أي مستوية يستقر عليها وماء جارٍ ظاهر للعيون قال الرازي : القرار : المستقر كل أرض مستوية مبسوطة ، والمعين : الماء الظاهر الجاري على وجه الأرض ، وعن قتادة : ذات ثمارٍ وماء ، يعني أنه لأجل الثمار يستقر فيها ساكنوها^(١) ﴿يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً﴾ أي قلنا يا أيها الرسل كلوا من الحلال وتقربوا إلى الله بالأعمال الصالحة ، والنداء لكل رسولٍ في زمانه وصي به كل رسول إرشاداً لأمرته كما تقول تخاطب تاجراً : يا تجار اتقوا الربا ﴿إني بما تعملون علیم﴾ وعيدٌ وتحذيرٌ أي إني عالم بما

وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴿٥٢﴾

تعملون لا يخفى عليّ شيء من أمركم ، قال القرطبي : شمل الكل في الوعيد وإذا كان هذا مع الرسل والأنبياء ، فما ظن كل الناس بأنفسهم^(١) ؟ ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي دينكم يا معشر الأنبياء دين واحد ، وملتكم ملة واحدة وهي دين الإسلام ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ أي وأنا ربكم لا شريك لي فخافوا عذابي وعقابي .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة البديعة ﴿اصنع الفلك بأعيننا﴾ عبّر عن المبالغة في الحفظ والرعاية بالصنع على الأعين

لأن الحافظ للشيء في الأغلب يديم مراعاته بعينه فلذلك جاء بذكر الأعين بدلاً من ذكر الحفظ والحراسة على طريق الاستعارة .

٢ - الكناية ﴿وفار التنور﴾ كناية عن الشدة كقولهم حمي الوطيس ، وأطلق بعض العلماء التنور على وجه الأرض مجازاً .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿أنزلني منزلاً﴾ و﴿تعملون عليم﴾ .

٤ - الطباق بين ﴿نموت ونحيا﴾ وكذلك بين ﴿تسبق . . ويستأخرون﴾ .

٥ - الجناس الناقص ﴿أرسلنا رُسُلنا﴾ لتغيير بعض الحروف مع الشكل .

٦ - التشبيه البليغ ﴿فجعلناهم غشاء﴾ أي كالغشاء في سرعة زواله ومهانة حاله ، حذف وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً .

٧ - أسلوب الإطناب ﴿الذين كفروا ، وكذبوا بقاء الآخرة ، وأترفناهم في الحياة الدنيا﴾ ذمّهم وتسجيلاً عليهم القبائح والشناعات .

٨ - السجع اللطيف مثل ﴿تتقون ، تشربون ، مخرجون﴾ ومثل ﴿عالين ، المهلكين ، قرار ومعين﴾ .

فَكَايِدَةٌ : لفظ البشر يطلق على الواحد والجمع ، فمن إطلاقه على الواحد ﴿فتمثل لها بشراً سوياً﴾ ﴿أنؤمن لبشرين مثلنا﴾ ؟ ومن إطلاقه على الجمع ﴿فإما ترين من البشر أحداً﴾ ﴿وما هي إلا ذكرى للبشر﴾ أفاده صاحب الكشاف .

قال الله تعالى : ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زُبْراً . . إلى . . وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾
من آية (٥٣) إلى نهاية آية (٧٤) .

المناسكة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء والمرسلين ، أتبعه بذكر أخبار الكفرة المتمردين من أقوامهم واختلافهم وتفرقهم في الدين حتى أصبحوا فرقاً وأحزاباً ، ليجتنب الإنسان طرق أهل الضلال .

اللغة : ﴿زُبْرًا﴾ قطعاً جمع زبور وهي القطعة من الفضة أو الحديد ﴿غمرتهم﴾ الغمرة : الحيرة والضلالة وأصله في اللغة : الماء الذي يغمر القامة ﴿يجأرون﴾ يضجون ويستغيثون وأصل الجؤار رفع الصوت بالتضرع كما يفعل الثور ﴿تنكصون﴾ النكوص : الرجوع الى الوراء ﴿ناكبون﴾ نكب عن الطريق نكوباً إذا عدل عنه ومال الى غيره .

فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبْرًا كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٦٧﴾ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٦٨﴾ أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَنِينَ ﴿٦٩﴾ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٧٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ هُمْ بِعِبَائَتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٧٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لَا يُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ

النفسير : ﴿فتقطعوا أمرهم بينهم زُبْرًا﴾ أي تفرقت الأمم في أمر دينهم فرقاً عديدة وأدياناً مختلفة هذا مجوسي ، وهذا يهودي ، وهذا نصراني بعدما أمروا بالاجتماع ﴿كلُّ حزبٍ بما لديهم فرحون﴾ أي كل فريق منهم مغتبط بما اتخذ دينا لنفسه معجب به ، يرى أنه المحقُّ الرابع ، وأن غيره المبطل الخاسر ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ الخطاب للرسول ﷺ والضمير لكفار مكة أي فاترك يا محمد هؤلاء المشركين في غفلتهم وجهلهم وضلالهم ﴿حتى حين﴾ أي إلى حين موتهم ، وهذا تسلية لرسول الله ﷺ ووعيد للمشركين ﴿أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين﴾ أي أيقظ هؤلاء الكفار أن الذي نعطيهم في الدنيا من الأموال والأولاد ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ أي هو تعجيل ومسارة لهم في الإحسان ؟ كلاً ليس الأمر كما يظنون بل هو استدراج لهم ، واستجراؤهم الى زيادة الإثم ولهذا قال ﴿بل لا يشعرون﴾ أي بل هم أشباه البهائم ، لا فطنة لهم ولا شعور حتى يتفكروا في الأمر ، أهو استدراج أم مسارة في الخير ؟ والآية ردُّ على المشركين في زعمهم أن أموالهم وأولادهم دليلٌ رضى الله عنهم كما حكى الله عنهم ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين﴾ وفي الحديث (إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولن لا يحب ، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب) (١) ، ولما ذمَّ المشركين وتوعددهم عقب ذلك بمدح المؤمنين وذكرهم بأبلغ صفاتهم فقال ﴿إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون﴾ أي هم من جلال الله وعظمته خائفون ، ومن خوف عذابه حذرون ﴿والذين هم بآيات ربهم يؤمنون﴾ أي يصدقون بآيات الله القرآنية ، وآياته الكونية وهي الدلائل والبراهين الدالة على وجوده سبحانه

وفي كل شيء له آيةٌ تدلُّ على أنه واحد
﴿والذين هم بربهم لا يشركون﴾ أي لا يعبدون معه غيره ، بل يوحدونه ويخلصون العمل لوجهه قال

يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴿٦١﴾ وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَلٌ مِّنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ ﴿٦٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا

الإمام الفخر : وليس المراد منه الإيمان بالتوحيد ونفي الشريك لله فإن ذلك داخل في الآية السابقة ، بل المراد منه نفي الشرك الخفي وذلك بأن يخلص في العبادة لوجه الله وطلباً لرضوانه ^(١) ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ هذه هي الصفة الرابعة من أوصاف المؤمنين أي يعطون العطاء من زكاة وصدقة ، ويتقربون بأنواع القربات من أفعال الخير والبر وهم يخافون أن لا تقبل منهم أعمالهم قال الحسن : إن المؤمن جمع إحساناً وشفقة ، وإن المنافق جمع إساءة وأمناء ﴿أنهم إلى ربهم راجعون﴾ أي خوفهم أن يكونوا قد قصرُوا في القيام بشروط الطاعات والأعمال الصالحة ولاعتقادهم أنهم سيرجعون إلى ربهم للحساب ، روي أن عائشة سألت رسول الله ﷺ عن الآية الكريمة فقالت ﴿والذين يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ أهو الذي يزني ، ويسرق ، ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل ؟ فقال لها : (لا يا بنت الصديق ! ولكنه الذي يصلي ، ويصوم ، ويتصدق وهو مع ذلك يخاف الله عز وجل) ^(٢) ﴿أولئك يسارعون في الخير﴾ أي أولئك المتصفون بتلك الصفات الجليلة هم الذين يسابقون في الطاعات لنيل أعلى الدرجات لا أولئك الكفرة المجرمون ﴿وهم لها سابقون﴾ أي هم الجديرون بها والسابقون إليها قال الإمام الفخر : واعلم أن ترتيب هذه الصفات في نهاية الحسن ، فالصفة الأولى دلت على حصول الخوف الشديد ، الموجب للاحتراز عما لا ينبغي ، والثانية دلت على التصديق بوحداية الله ، والثالثة دلت على ترك الرياء في الطاعات ، والرابعة دلت على أن المستجمع لتلك الصفات الثلاثة يأتي بالطاعات مع الوجل والخوف من التقصير ، وذلك هو نهاية مقامات الصديقين رزقنا الله الوصول إليها ^(٣) ﴿ولا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أي لا نكلف أحداً من العباد ما لا يطيق تفضلاً منا ولطفاً . أتى بهذه الآية عقب أوصاف المؤمنين إشارة إلى أن أولئك المخلصين لم يكلفوا بما ليس في قدرتهم وأن جميع التكاليف في طاقة الإنسان ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ أي وعندنا صحائف أعمال العباد التي سطر فيها ما عملوا من خير أو شر نجازيهم في الآخرة عليها ولهذا قال ﴿وهم لا يُظلمون﴾ أي لا يظلمون من أعمالهم شيئاً بنقص الثواب أو زيادة العقاب قال القرطبي : والآية تهديد وتأمين من الحيف والظلم ^(٤) ﴿بل قلوبهم في غمرة من هذا﴾ أي بل قلوب الكفرة المجرمين في غطاء وغفلة وعماية عن هذا القرآن ﴿وهم أعمال من دون ذلك﴾ أي ولهم أعمال سيئة كثيرة غير الكفر والإشراك ﴿هم لها عاملون﴾ أي سيعملونها في المستقبل لتحقق عليهم الشقاوة فقد جمعوا بين الكفر وسوء الأعمال فحققت عليهم كلمة العذاب ﴿حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب﴾ أي حتى إذا أخذنا أغنياءهم وكبراءهم المتنعمين في هذه الحياة بالعذاب العاجل

هُم يَجْعُرُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَجْعُرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنْصِرُونَ ﴿٦٦﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰٰ أَعْقَابِكُمْ تَنْكِصُونَ ﴿٦٧﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سِمِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٨﴾ أَفَلَمْ يَذَّبُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٩﴾ أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ ﴿٧٠﴾ أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُم لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴿٧١﴾

كالجوع والقتل والأسر ﴿إذا هم يجأرون﴾ أي إذا هم يصيحون ويرفعون أصواتهم بالاستغاثة قال ابن عباس : هو الجوع الذي عذبوا به سبع سنين ﴿لا تجأروا اليوم﴾ أي لا تستغيثوا اليوم من العذاب ﴿إنكم منا لا تنصرون﴾ أي لا تمنعون من عذابنا فلا ينفعكم صراخ ولا استغاثة ﴿قد كانت آياتي تُتلى عليكم﴾ أي لقد كنتم تسمعون آيات القرآن تقرأ عليكم ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ أي كنتم تنفرون عن تلك الآيات كما يذهب الناكص على عقبيه بالرجوع إلى ورائه ، وهذا تمثيل لإعراضهم عن الحق بالراجع إلى الخلف ﴿مستكبرين به﴾ أي مستكبرين بسبب القرآن عن الإيمان قال ابن كثير : الضمير للقرآن كانوا يسمرون ويذكرون القرآن بالهجر من الكلام يقولون إنه سحر ، شعر ، كهانة إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة^(١) وقال ابن الجوزي : الضمير عائد إلى البيت الحرام وهي كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى : إنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت والحرم لأنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم ، تقولون : نحن أهل الحرم فلا نخاف أحداً ، ونحن أهل بيت الله وولاته ، هذا مذهب ابن عباس وغيره^(٢) ﴿سامراً تهجرون﴾ أي متحدثين ليلاً تسمرون تقولون في سمركم الهجر وهو القول الفاحش من الطعن في القرآن ، وسب النبي عليه السلام ﴿أفلم يدبّروا القول﴾ أي أفلم يتدبروا هذا القرآن العظيم ليعرفوا بما فيه من إعجاز النظم أنه كلام الله فيصدقوا به ؟ ﴿أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين﴾ أي أم جاءهم من الله بشيء مبتدع لم يأت مثله في آبائهم السابقين ؟ قال أبو السعود : يعني أن مجيء الكتب من جهته تعالى إلى الرسل سنة قديمة لا يكاد يتسنى إنكاره ، وأن مجيء القرآن على طريقته فمن أين ينكرونه^(٣) ؟ ﴿أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون﴾ توبيخ آخر لهم أي أم لم يعرفوا محمداً ﷺ بالأمانة والصدق وحسن الأخلاق؟ وبخهم أولاً بترك الانتفاع بالقرآن ، وثانياً بأن ما جاءهم قد جاء مثله لأبائهم الأولين وثالثاً بأنهم يعرفون محمداً ﷺ ونسبه وصدقه وأمانته ورابعاً اتهامهم له بالجنون وقد علموا أنه عليه السلام أرجحهم عقلاً وأثقبهم ذهنًا ولهذا قال بعده ﴿أم يقولون به جنة﴾ أي أم يقولون إن محمداً مجنون ، وهذا توبيخ آخر وتعجيب من تفننهم في العناد ، وتلونهم في الجحود ﴿بل جاءهم بالحق﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما زعموا بل جاءهم محمد بالحق الساطع الذي لا مدخل فيه للباطل بوجه من الوجوه ، وبالقرآن المشتمل على التوحيد وشرائع الإسلام ﴿وأكثرهم للحق كارهون﴾ أي ومع

وَلَوْ أَتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ^{٦٤} بَلْ أَتَيْنَهُمْ بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ ﴿٦٥﴾ أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَقَرَأْ رَبِّكَ خَيْرٌ^{٦٦} وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٦٨﴾ وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنُكَابُونَ ﴿٦٩﴾

وضوح الدعوة فإن أكثر المشركين يكرهون الحق لما في قلوبهم من الزيغ والانحراف ﴿ولو أتبع الحق أهواءهم﴾ أي لو كان ما كرهوه من الحق - الذي هو التوحيد والعدل - موافقاً لأهوائهم الفاسدة ، و متمشياً مع رغباتهم الزائغة ﴿لفسدت السموات والأرض ومن فيهن﴾ أي لفسد نظام العالم أجمع علويّه وسفليّه ، وفسد من فيه من المخلوقات لفساد أهوائهم واختلافهم قال ابن كثير : وفي هذا كله تبين عجز العباد ، واختلاف آرائهم وأهوائهم ، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأفعاله وتديره لخلقه^(١) ﴿بل أتيناهم بذكرهم﴾ أي بل أتيناهم بما فيه فخرهم وشرفهم ، وهو هذا القرآن العظيم الذي أكرمهم الله تعالى به ﴿فهم عن ذكرهم معرضون﴾ أي فهم معرضون عن هذا القرآن وكان اللائق بهم الانقياد له وتعظيمه لأنه شرفهم وعزهم ، وأعاد لفظ «الذكر» تعظيماً للقرآن ﴿أم تسألهم خرجاً﴾ أي أم تسألهم يا محمد أجراً على تبليغ الرسالة فلاجل ذلك لا يؤمنون ، وفي هذا تشنيع عليهم لعدم الإيمان فمحمد لا يطلب منهم أجراً فلماذا إذاً يكذبونه ويعادونه؟ ﴿فخراج ربك خير﴾ أي رزق الله وعطاؤه خير لك يا محمد ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي هو تعالى أفضل من أعطى ورزق لأنه يعطي لا حاجة ، وغيره يعطي لحاجة ﴿وإنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم﴾ أي وإنك يا محمد لتدعوهم إلى الطريق المستقيم وهو الإسلام الموصل إلى جنات النعيم ﴿وإن الذين لا يؤمنون بالآخرة عن الصراط لناكبون﴾ أي وإن الذين لا يصدقون بالبعث والثواب والعقاب لعادلون عن الطريق المستقيم منحرفون عنه .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿فذرهم في غمرتهم﴾ أصل الغمرة الماء الذي يغمر القامة ، شبه ما هم فيه من الجهالة والضلالة بالماء الذي يغمر الإنسان من فرقه إلى قدمه على سبيل الاستعارة .

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أيحسبون أنما نمدهم﴾ ؟

٣ - حذف الرابط في ﴿نسارع لهم في الخيرات﴾ حذف «به» أي نسارع لهم به في الخيرات ، وحسن حذفه لاستطالة الكلام مع أمن اللبس .

٤ - الطباق بين ﴿يؤمنون . . ويشركون﴾ .

٥ - الاستعارة البديعة ﴿ولدينا كتابٌ ينطق بالحق﴾ النطق لا يكون إلا من يتكلم بلسانه ، والكتاب ليس له لسان، فوصف سبحانه الكتاب بالنطق مبالغة في وصفه بإظهار البيان وإعلان البرهان ، وتشبيهاً باللسان الناطق بطريق الاستعارة .

٦ - جناس الاشتقاق ﴿يؤتون ما آتوا﴾ ﴿أعمال هم لها عاملون﴾ .

٧ - الاستعارة الفائقة ﴿فكنتم على أعقابكم تنكصون﴾ شبه إعراضهم عن الحق بالراجع القهقري الى الخلف وهو من قبيل الاستعارة التمثيلية .

٨ - السجع الرصين ﴿مشفقون ، يؤمنون ، يشركون ، سابقون﴾ الخ .

قال الله تعالى: ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر . . إلى . . اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾
من آية (٧٥) إلى نهاية آية (١١٨) .

المناسكة : لما ذكر تعالى إعراض المشركين عن دعوة الإيمان ، ذكر هنا سبب الإعراض وهو العناد والطغيان ، ثم أردفه بإقامة الأدلة على التوحيد ، ثم ذكر أحوال الآخرة وانقسام الناس إلى سعداء وأشقياء ، وختم السورة ببيان الحكمة من حشر الناس إلى دار الجزاء وأنه لولا القيامة لما تميز المطيع من العاصي ولا البر من الفاجر .

اللفظ : ﴿مبلسون﴾ يائسون متحIRON ، والإيلاس : اليأس من كل خير ﴿يجير﴾ يمنع ويحمي من استغاث به يقال : أجرت فلاناً على فلان إذا أغثته ومنعته منه ﴿همزات﴾ جمع همزة وهي الدفع والتحريك الشديد وهو كالهز والأز ، وهمزات الشيطان : كيده بالسوسة ﴿برزخ﴾ حاجز ومانع قال الجوهري : البرزخ : الحاجز بين الشيئين^(١) ﴿كالخون﴾ الكلوح : أن تتقلص الشفتان وتتباعدا عن الأسنان ، وذلك نهاية القبح لوجه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس قال : نزلت في قصة « ثمامة بن أثال » لما أسرته السرية وأسلم وخلي رسول الله ﷺ سبيله ، حال بين مكة وبين الميرة وقال : والله لا يأتيكم من اليامة حبة حنطة حتى يأذن فيها رسول الله ﷺ ، وأخذ الله قريشاً بالقحط والجوع حتى أكلوا الميتة والكلاب والعلهز قيل وما العلهز ؟ قال كانوا يأخذون الصوف والوبر فيبلونه بالدم ثم يشوونه ويأكلونه فقال أبو سفيان : أنشدك الله والرحم ، أليس تزعم أن الله بعثك رحمة للعالمين ؟ قال : بلى ، قال فوالله ما أراك إلا قتلت الأبناء بالسيف ، وقتلت الأبناء بالجوع فتزل قوله تعالى ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضر للجوا في طغيانهم يعمهون﴾^(٢) الآيات .

* وَلَوْ رَحِمْنَهُمْ وَكَشَفْنَا مَا بِهِمْ مِنْ ضُرٍّ لَلْجَأُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿٧٥﴾ وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ ﴿٧٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ ﴿٧٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾ وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٩﴾ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتَلَفُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٨٠﴾ بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ﴿٨١﴾ قَالُوا

التفسير : ﴿ولو رحمناهم وكشفنا ما بهم من ضرر﴾ أي لو رحمنا هؤلاء المشركين الذين كذبوك وعاندوك ورفعنا عنهم ما أصابهم من قحط وجذب وكشفنا عنهم البلاء ﴿لَلْجَأُ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي لاستمروا وتمادوا في ضلالتهم وتجاوزهم الحدَّ يترددون ويتخبطون حيارى ﴿ولقد أخذناهم بالعذاب﴾ أي ابتليناهم بالمصائب والشدائد ، وبالقحط والجوع ﴿فما استكانوا لربهم﴾ أي ما خضعوا لله ولا تواضعوا لجلاله ﴿وما يتضرعون﴾ أي وما دعوا ربهم لكشف البلاء بل استمروا على العتو والاستكبار ، والغرض أنه لم يحصل منهم تواضع ورجوع إلى الله في الماضي ، ولا التجاء إلى الله في المستقبل لشدة جبروتهم وطغيانهم ﴿حتى إذا فتحنا عليهم باباً ذا عذابٍ شديد﴾ أي حتى إذا جاءتهم أهوال الآخرة وأتاهم من عذاب الله ما لم يكونوا يحتسبون ﴿إذا هم فيه مبلسون﴾ أي إذا هم آيسون من كل خير قال أبو السعود : المراد بالعذاب عذاب الآخرة كما ينبيء عنه التهويل والوصف بالشدة والمعنى أنا محناهم بكل محنة من القتل ، والأسر ، والجوع وغير ذلك فما روي منهم لين ولا توجه إلى الإسلام إلى أن يروا عذاب الآخرة فحينئذ ييلسون وتخضع رقابهم^(١) ثم ذكّرهم تعالى بنعمه ودلائل وحدانيته فقال ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي خلق لكم هذه الحواس لتسمعوا وتبصروا وتفقهوا ، وفيه توبيخ للمشركين حيث لم يصرفوا النعم في مصارفها ، لأن السمع خلق لسمع به ما يرشده ، والبصر ليشاهد به الآيات على كمال أوصاف الله ، والعقل ليتأمل به في مصنوعات الله وباهر قدرته فمن لم يصرف تلك النعم في مصارفها فهو بمنزلة عادمها كما قال تعالى ﴿فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء﴾ وخص هذه الثلاثة بالذكر لعظم المنافع التي فيها ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قليلاً تشكرون ربكم ، و﴿ما﴾ لتأكيد القلة أي ما أقل شكركم لله على كثرة إفضاله وإنعامه عليكم ؟ ﴿وهو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي خلقكم وبثكم في الأرض بطريق التناسل ﴿وإليه تحشرون﴾ أي وإليه وحده تجمعون للجزاء والحساب ﴿وهو الذي يحيي ويميت﴾ أي يحيي الرّمم^(٢) ويميت الخلائق والأمم ﴿وله اختلاف الليل والنهار﴾ أي إن اختلاف الليل والنهار بالزيادة والنقصان بفعله سبحانه وحده ليقيم الدليل على وجوده وقدرته ﴿أفلا تعقلون﴾ أي أفليس لكم عقول تدركون بها دلائل قدرته ، وآثار قهره ، فتعلمون أن من قدر على ذلك ابتداءً ، قادر على إعادة الخلق بعد الفناء ؟ ﴿بل قالوا مثل ما قال الأولون﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس لهم عقل ولا نظر في هذه الآيات والعيّر ، بل قال هؤلاء

(١) أبو السعود ٤/ ٤٠ . (٢) إشارة إلى قوله تعالى ﴿قال من يحيي العظام وهي رميم﴾ ؟

أَوْذَانًا مَتَنَاوَعًا تَرَابًا وَعِظْمًا أَوْنَا لَمُبْعُوثُونَ ﴿٨٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٨٨﴾ قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّعْيِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٩١﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٩٢﴾ قُلْ مَنْ يَدِينُهُ مَلَكَتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴿٩٤﴾

المشركون - من كفار مكة - مثل ما قال الأمم المتقدمون ﴿قالوا أنذا ميتنا وكنا تراباً وعظاماً أننا لمبعوثون﴾ ؟ أي أنذا بلينا وصرنا ذرات ناعمة ، وعظاماً نخرة أننا لمخلوقون ثانية ؟ هذا لا يتصور ولا يكون أبداً ﴿لقد وعدنا نحن وآباؤنا هذا من قبل﴾ أي لقد وعدنا بهذا نحن ومن سبقنا فلم نر له حقيقة ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا أكاذيب وأباطيل المتقدمين ولما أنكروا البعث والنشور أمر تعالى رسوله أن يفحمهم بالحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل فقال ﴿قل لمن الأرض ومن فيها﴾ ؟ أي قل يا محمد جواباً لهم عما قالوه : لمن الأرض ومن فيها من المخلوقات ؟ ومن مالكتها والمتصرف فيها بالإيجاد والإفناء ؟ ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كان عندكم علم فأخبروني بذلك ، وفيه استهانة بهم وتقرير لجهلهم قال القرطبي : يخبر تعالى في الآية بربوبيته ووحدانيته ، وملكه الذي لا يزول ، وقدرته التي لا تحول ، ودلت هذه الآيات - وما بعدها - على جواز جدال الكفار وإقامة الحجة عليهم ، ونبّهت على أن من ابتدأ بالخلق والإيجاد ، والإبداع ، هو المستحق للألوهية والعبادة^(١) ﴿سيقولون لله﴾ أي فسيقولون الله خالقها وموجدها ولا بد لهم من الاعتراف بذلك ﴿قل أفلا تذكرون﴾ ؟ أي أفلا تعتبرون فتعلمون أن من ابتدأ ذلك قادر على إعادته ؟ ﴿قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم﴾ ؟ أي من هو خالق السموات الطباق بما فيها الشمس ، والكواكب والأقمار ، ومن هو خالق العرش الكبير الذي تحمله الملائكة الأطهار ؟ ﴿سيقولون لله﴾ أي سيقولون : الله خالقه وهو لله ﴿قل أفلا تتقون﴾ أي أفلا تخافون من عذابه فتوحدونه وتتركون عبادة غيره من الأوثان والأصنام ﴿قل من بيده ملكوت كل شيء﴾ الملكوت من صفات المبالغة أي من بيده الملك الواسع التام ؟ ومن بيده خزائن كل شيء ؟ ومن هو المتصرف في هذه الأكوان بالخلق والإيجاد والتدمير ؟ ﴿وهو يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ﴾ أي يحمي من استجار به والتجأ إليه ، ولا يغيث أحداً منه أحداً ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون فأخبروني عن ذلك ﴿سيقولون لله﴾ أي سيقولون : الملك كله والتدبير لله جلّ وعلا ﴿قل فأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ أي قل لهم : فكيف تُخدعون وتُصرفون عن طاعته وتوحيده مع اعترافكم وعلمكم بأنه وحده المتصرف المالك ؟ قال أبو حيان : والسحر هنا مستعار وهو تشبيه لما يقع منهم من التخليط ، ووضع الأفعال والأقوال غير مواضعها بما يقع للمسحور من التخليط والتخليط^(٢) رتب

بَلْ أَتَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٩٥﴾ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ
بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩٦﴾ عَلِيمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَلَّى عَمَّا
يُشْرِكُونَ ﴿٩٧﴾ قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيدُنِي مَا يُوعَدُونَ ﴿٩٨﴾ رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٩٩﴾ وَإِنَّا عَلَى أَنْ
تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لَقَادِرُونَ ﴿١٠٠﴾ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةِ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ ﴿١٠١﴾

هذه التوبيخات الثلاثة بالتدرج فقال أولاً ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ثم قال ثانياً ﴿أفلا تتقون﴾ ؟ وذلك
أبلغ لأن فيه زيادة تخويف ، ثم قال ثالثاً ﴿فأنى تُسحرون﴾ وفيه من التوبيخ ما ليس في غيره (١)
﴿بل أتيناهم بالحق﴾ أي بل جئناهم بالقول الصدق في أمر التوحيد والبعث والجزاء ﴿وإنهم
لكاذبون﴾ أي كاذبون فيما ينسبون لله من الشركاء والأولاد . لما بالغ في الحجاج عليهم بالآيات السابقة
أعقبها بهذه الآية كالوعيد والتهديد ، ثم بين بطلان الشريك والولد بالبرهان القاطع فقال ﴿ما اتخذ الله
من ولد﴾ أي ما اتخذ الله ولداً مطلقاً لا من الملائكة ولا من البشر ﴿وما كان معه من إله﴾ أي وليس
معه من يشاركه في الألوهية والربوبية ﴿إذا لذهب كل إله بما خلق﴾ أي لو كان معه إله - كما زعم عبدة
الأوثان - لانفرد كل إله بخلقه الذي خلق واستبد به ، وتميز ملك كل واحد عن ملك الآخر ﴿ولعلنا
بعضهم على بعض﴾ أي ولغلب بعضهم على بعض كحال ملوك الدنيا قال ابن كثير : المعنى لو قدر تعدد
الآله لا نفرد كل منهم بما خلق ، ثم لكان كل منهم يطلب قهر الآخر وخلافه فيعملو بعضهم على بعض وما
كان ينتظم الوجود ، والمشاهد أن الوجود منتظم متسق غاية الكمال فدل على تنزه الله عن الولد والشريك (٢)
ولهذا قال ﴿سبحان الله عما يصفون﴾ أي تنزه الله وتقدس عما يصفه به الظالمون ﴿عالم الغيب
والشهادة﴾ أي هو تعالى العالم بما غاب عن الأنظار ، وبما تدركه الأبصار ، لا تخفى عليه خافية من
شؤون الخلق ﴿فتعالى عما يشركون﴾ أي تقدس وتنزه عن الشريك والولد ﴿قل رب إمّا تريني ما
يُوعدون﴾ أي قل يا رب إن كان ولا بد من أن تُريني ما تعدهم من العذاب في الدنيا ﴿رب فلا تجعلني في
القوم الظالمين﴾ هذا جواب الشرط ﴿إمّا﴾ وكرر قوله ﴿رب﴾ مبالغة في الدعاء والتضرع أي رب فلا
تجعلني في جملة الظالمين فأهلك بهلاكهم قال أبو حيان : ومعلوم أنه عليه السلام معصوم مما يكون سبباً
لجعله مع الظالمين ولكنه أمر أن يدعو بذلك إظهاراً للعبودية وتواضعاً لله (٣) ﴿وإننا على أن نريك ما
نعدهم لقادرون﴾ أي ونحن قادرون على أن نريك العذاب الذي وعدناهم به ولكن نؤخره لحكمة
﴿ادفع بالتي هي أحسن السيئة﴾ أي ادفع إساءتهم بالصفح عنهم وتجميل بمكارم الأخلاق قال ابن
كثير : أرشده الى الترياق النافع في مخالطة الناس وهو الإحسان الى من يسيء إليه ليستجلب خاطره ،
فتعود عدواته صداقة ، وبغضه محبة (٤) ﴿نحن أعلم بما يصفون﴾ أي نحن أعلم بحالهم وبما يكون منهم

(١) نقلًا عن التسهيل ٥٥/٣ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧٣/٢ . (٣) البحر ٤٢٠/٦ . (٤) ابن كثير المختصر ٥٧٤/٢ .

وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٠١﴾ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴿١٠٣﴾ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴿١٠٤﴾

من التكذيب والاستهزاء وسنجازيهم عليه ﴿وقل رب أعوذ بك من همزات الشياطين﴾ أي اعتصم بك من نزغات الشياطين ووساوسهم المغرية على الباطل والمعاصي ﴿وأعوذ بك رب أن يحضرون﴾ أي واعتصم واحتمي بك يا رب من أن يصيبوني بسوء أو يكونوا معي في أموري ، كرر ذلك للمبالغة والاعتناء بشأن الاستعاذة ﴿حتى إذا جاء أحدهم الموت﴾ عاد الكلام عن المشركين أي حتى إذا حضر الموت أحدهم وعاین أهواله وشدائده ﴿قال رب أرجعون﴾ أي قال تحسراً على ما فرط منه : رب ردني الى الدنيا ، وصيغة الجمع للتعظيم ﴿لعلي أعمل صالحاً فيما تركت﴾ أي لكي أعمل صالحاً فيما ضيعت من عمري ﴿كلاً إنها كلمة هو قائلها﴾ ﴿كلاً﴾ كلمة ردع وزجر أي لا رجوع إلى الدنيا فليتردع عن ذلك فإن طلبه للرجعة كلام لا فائدة فيه ولا جدوى منه وهو ذاهب أدراج الرياح ﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون﴾ أي وأمامهم حاجز يمنعهم عن الرجوع إلى الدنيا - هو عالم البرزخ - الذي يحول بينهم وبين الرجعة يلبثون فيه إلى يوم القيامة قال مجاهد : البرزخ : الحاجز ما بين الدنيا والآخرة ﴿فإذا نفخ في الصور﴾ أي فإذا نفخ في الصور النفخة الثانية وهي نفخة البعث والنشور ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ﴾ أي فلا قرابة ولا نسب ينفعهم يوم القيامة لزوال التراحم والتعاطف من شدة الهول والدهشة بحيث يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبه وبنيه ﴿ولا يتساءلون﴾ أي لا يسأل بعضهم بعضاً عن شأنه لاشتغال كل واحد بنفسه ، ولا تنافي بينها وبين قوله ﴿وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون﴾ لأن يوم القيامة طويل وفيه مواقف ومواطن ، ففي بعضها يتكلمون وفي بعضها لا ينطقون ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ أي فمن رجحت حسناته على سيئاته ولو بواحدة ﴿فأولئك هم المفلحون﴾ أي فهم السعداء الذين فازوا فنجوا من النار وأدخلوا الجنة ﴿ومن خفت موازينه﴾ أي زادت سيئاته على حسناته ﴿فأولئك الذين خسروا أنفسهم﴾ أي فهم الأشقياء الذين خسروا سعادتهم الأبدية بتضييع أنفسهم وتدنيسها بالكفر والمعاصي ﴿في جهنم خالدون﴾ أي هم مقيمون في جهنم لا يخرجون منها أبداً ﴿تلفح وجوههم النار﴾ أي تحرقها بشدة حرها ، وتخصيص الوجوه بالذكر لأنها أشرف الأعضاء ﴿وهم فيها كالحون﴾ أي وهم في جهنم عابسون مشوهو المنظر قال ابن مسعود : قد بدت أسنانهم وتقلصت شفاههم كالرأس المشيطة بالنار ، وفي الحديث (تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه ، وتسترخي

أَلَمْ تَكُنْ ءَايَتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٥٦﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٥٧﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٥٨﴾ قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ﴿١٥٩﴾ إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١٦٠﴾ فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سَخِرَآءً حَتَّىٰ أَنسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَآئِزُونَ ﴿١٦٢﴾ قُلْ كَمْ لَبِئْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١٦٣﴾ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْئَلُ الْعَادِينَ ﴿١٦٤﴾ قُلْ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ لَّوْ أَن تَكْمُلُ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦٥﴾ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا

شفته السفلى حتى تبلغ سُرَّتَه) (١) ﴿ألم تكن آياتي تُتلى عليكم﴾ أي يقال لهم تعنيفاً وتوبيخاً : ألم تكن آيات القرآن الساطع تقرأ عليكم في الدنيا ؟ ﴿فكنتم بها تكذبون﴾ أي فكنتم لا تصدقون بها مع وضوحها ﴿قالوا ربنا غلبت علينا شقوتنا﴾ أي غلبت علينا شقاوتنا ﴿وكنا قوماً ضالين﴾ أي وكنا ضالين عن الهدى بسبب اتباعنا للملذات والأهواء ﴿ربنا أخرجنا منها﴾ أي أخرجنا من النار وردنا الى الدنيا ﴿فإن عُدنا فإننا ظالمون﴾ أي فإن رجعنا الى الكفر والمعاصي بعد ذلك نكون قد تجاوزنا الحد في الظلم والعدوان . أقرؤا أولاً بالأجرام ثم تدرجوا من الإقرار الى الرغبة والتضرع فجاء الجواب بالتيئيس والزجر ﴿قال اخسئوا فيها ولا تكلمون﴾ أي ذلوا في النار وانزجروا كما تُزجر الكلاب ولا تكلموني في رفع العذاب قال في التسهيل : اخسئوا : كلمة تستعمل في زجر الكلاب ففيها إهانة وإبعاد (٢) ﴿إنه كان فريقٌ من عبادي يقولون ربنا آمنة فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الراحمين﴾ قال مجاهد : هم بلال ، وخباب ، وصهيب وغيرهم من ضعفاء المسلمين كان أبو جهل وأصحابه يهزءون بهم (٣) ﴿فاتخذتموهم سخرياً﴾ أي فسخرتم منهم واستهزأتم بهم ﴿حتى أنسوكم ذكري﴾ أي حتى نسيتم بتشاغلهم بهم واستهزائكم عليهم عن طاعتي وعبادتي ﴿وكنتم منهم تضحكون﴾ أي وكنتم تضحكون عليهم في الدنيا ﴿إنني جزيتهم اليوم بما صبروا﴾ أي جزيتهم بسبب صبرهم على أذاكم أحسن الجزاء ﴿أنهم هم الفائزون﴾ أي أنهم هم الفائزون بالنعيم المقيم ﴿قال كم لبثتم في الأرض عدد سنين﴾ أي قال تعالى للكفار على سبيل التبكيت والتوبيخ : كم مكثتم في الدنيا وعمرتم فيها من السنين ؟ ﴿قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم﴾ أي مكثنا يوماً أو أقل من يوم ﴿فاسأل العادين﴾ أي الحاسبين المتمكنين من العدِّ قال ابن عباس : أنساهم ما كانوا فيه من العذاب المدة التي لبثوها ﴿قال إن لبثتم إلا قليلاً﴾ أي ما أقمتم حقاً في الدنيا إلا قليلاً قال الرازي : كأنه قيل لهم : صدقتم ما لبثتم فيها إلا قليلاً فقد انقضت ومضت ، والغرض تعريفهم قلة أيام الدنيا في مقابلة أيام الآخرة (٤) ﴿لو أنكم كنتم تعلمون﴾ أي لو كان لكم علم وفهم لعرفتم حقارة الدنيا ومتاعها الزائل ﴿أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً﴾ أي أظننتم - أيها الناس - أنما

(١) أخرجه الترمذي وقال : حسن غريب . (٢) التسهيل ٥٧/٣ . (٣) القرطبي ١٥٤/١٢ . (٤) التفسير الكبير ١٢٧/٢٣ .

خَلَقْنَاكُمْ عِبَادًا وَأَنْتُمْ إِلَيْنَا لَا تَرْجِعُونَ ﴿١١٦﴾ فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿١١٧﴾
وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿١١٨﴾
وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ ﴿١١٩﴾

خلقناكم باطلاً وهملاً بلا ثواب ولا عقاب كما خلقت البهائم ﴿وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ أي وأنه لا رجوع لكم إلينا للجزاء ؟ لا ليس الأمر كما تظنون وإنما خلقناكم للتكليف والعبادة ثم الرجوع إلى دار الجزاء ﴿فتعالى الله﴾ أي فتزّه وتقدّس الله الكبير الجليل ﴿الملك الحق﴾ أي صاحب السلطان ، المتصرف في ملكه بالإيجاد والإعدام ، والإحياء والإفناء ، تنزه عن العبث والنقائص وعن أن يخلق شيئاً سفهاً لأنه حكيم ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا ربّ سواه ولا خالق غيره ﴿رب العرش الكريم﴾ أي خالق العرش العظيم وصفه بالكريم لأن الرحمة والخير والبركة تنزل منه ، ولنسبته إلى أكرم الأكرمين ﴿ومن يدع مع الله إلهاً آخر﴾ أي ومن يجعل لله شريكاً ويعبد معه سواه ﴿لا برهان له به﴾ أي لا حجة له به ولا دليل ﴿فإنما حسابه عند ربه﴾ أي جزاؤه وعقابه عند الله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ أي لا يفوز ولا ينجح من جحد وكذب بالله ورسله ، افتتح السورة بقوله ﴿قد أفلح المؤمنون﴾ وختمها بقوله ﴿إنه لا يفلح الكافرون﴾ ليظهر التفاوت بين الفريقين فستان ما بين البدء والختام . ﴿وقل رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ أمر رسوله بالاستغفار والاسترحام تعليماً للأمة طريق الثناء والدعاء ، اللهم اغفر لنا وارحمنا برحمتك التي وسعت كل شيء ، يا أرحم الراحمين ، اللهم آمين .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الامتنان ﴿وهو الذي أنشأ لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ .
- ٢ - التفنن ﴿السمع والأبصار﴾ أفرد السمع وجمع الأبصار تفنناً .
- ٣ - التنكير للتقليل ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ و﴿ما﴾ تأكيد للقلّة المستفادة من التنكير والمعنى شكراً قليلاً وهو كناية عن عدم الشكر .
- ٤ - الاستفهام الذي غرضه الإنكار والتوبيخ ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ ﴿أفلا تذكرون﴾ ؟ ﴿أفلا تتقون﴾ ؟
- ٥ - الطباق بين ﴿يُحْيِي وَيُمِيت﴾ .
- ٦ - حذف جواب الشرط ثقةً بدلالة اللفظ عليه ﴿إن كنتم تعلمون﴾ أي إن كنتم تعلمون ذلك فأخبروني عنه

- ٧ - طباق السلب ﴿وهو يُجبر ولا يُجَار عليه﴾ .
- ٨ - تأكيد الكلام بذكر حرف الجر الزائد ﴿ما اتخذ الله من ولد﴾ أي ما اتخذ ولداً وكذلك ﴿وما كان معه من إله﴾ ذكر ﴿من﴾ في الجملتين تأكيداً وتثبيتاً للنفي .
- ٩ - الطباق في ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ .
- ١٠ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنا على أن نريك ما نعدهم لقادرون﴾ لا إنكار المخاطبين لذلك .
- ١١ - الطباق المعنوي ﴿ادفعْ بالتي هي أحسن السيئة﴾ لأن المعنى ادفع بالحسنة السيئة فهو طباق بالمعنى لا باللفظ .
- ١٢ - واو الجمع للتعظيم ﴿ربّ ارجعون﴾ ولم يقل ارجعني تعظيماً لله جل وعلا .
- ١٣ - المجاز المرسل ﴿إنها كلمة هو قائلها﴾ أطلق الكلمة على الجملة وهو من إطلاق الجزء وإرادة الكل .
- ١٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿فمن ثقلت موازينه﴾ وبين ﴿ومن خفت موازينه . .﴾ الآيتان .
- ١٥ - القصر ﴿أنهم هم الفائزون﴾ .
- ١٦ - جناس الاشتقاق ﴿اغفر وارحم وأنت خير الراحمين﴾ .
- ١٧ - السجع الموزون الخالي من التكلف وهو كثير مشهور .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة المؤمنون »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة النور من السور المدنية ، التي تتناول الأحكام التشريعية ، وتُعنَى بأمور التشريع ، والتوجيه والأخلاق ، وتهتم بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُربى عليها المسلمون أفراداً وجماعات ، وقد اشتملت هذه السورة على أحكام هامة وتوجيهات عامة تتعلق بالأسرة ، التي هي النواة الأولى لبناء المجتمع الأكبر .

* وضحت السورة الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم الخاصة والعامة ، كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض الأبصار ، وحفظ الفروج ، وحرمة اختلاط الرجال بالنساء الأجنيات ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و « البيت المسلم » من العفاف والستر ، والنزاهة والطهر ، والاستقامة على شريعة الله ، صيانةً لحرمتها ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانحلال الخلقي ، الذي يهدم الأمم والشعوب .

* وقد ذكرت في هذه السورة الكريمة بعض الحدود الشرعية التي فرضها الله كحد الزنى ، وحد القذف ، وحد اللعان ، وكل هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى ، واختلاط الأنساب ، والانحلال الخلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردّي في بؤرة الإباحية والفساد ، التي تُسبب ضياع الأنساب ، وذهاب العرض والشرف .

* وباختصار فإن هذه السورة الكريمة عاجلت ناحية من أخطر النواحي الاجتماعية هي « مسألة الأسرة » وما يحفها من مخاطر ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل ، تؤدي بها إلى الانهيار ثم الدمار ، هذا عدا عما فيها من آداب سامية ، وحكم عالية ، وتوجيهات رشيدة ، إلى أسس الحياة الفاضلة الكريمة ، ولهذا كتب أمير المؤمنين عمر بن الخطاب إلى أهل الكوفة يقول لهم : علّموا نساءكم سورة النور .

التَّسْمِيَةُ : سُميت سورة النور لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب ، والفضائل الإنسانية التي هي قبسٌ من نور الله على عباده ، وفيضٌ من فيوضات رحمته وجوده ﴿الله نور السموات والأرض﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك المبين يا رب العالمين .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

سُورَةُ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ

اللغة : ﴿سورة﴾ السورة في اللغة : المنزلة السامية والمكانة الرفيعة قال النابغة :

ألم تر أن الله أعطاك سورة ترى كل ملك دونها يتذبذب

وسميت المجموعة من الآيات لها بدء ونهاية سورة لشرفها وارتفاعها كما يسمى السور للمرتفع من الجدار ﴿الزاني﴾ الزنى : الوطء المحرم ويسمى الفاحشة لتناهي قبحه وهو مقصور وقد يمد على لغة أهل نجد فيقال الزناء قال الفرزدق :

أبا طاهر من يزن يعرف زناؤه ومن يشرب الخراطوم يصبح مسكراً

﴿رأفة﴾ شفقة وعطف مأخوذ من رؤف إذا رقيق ورحم ﴿المحصنات﴾ العفيفات وأصل الإحصان المنع سميت العفيفة محصنة لأنها منعت نفسها عن القبيح ، ومنه الحصن لأنه يمنع من الأعداء ﴿يدرأ﴾ يدفع والدرء : الدفع ﴿تشيع﴾ شاع الأمر شيوعاً إذا فشا وظهر وانتشر ﴿عصبة﴾ العصابة : الجماعة الذين يتعصب بعضهم لبعض .

سَبَبُ النَّزُولِ : أ - روي أن امرأةً تُدعى « أم مهزول » كانت من البغايا فكانت تُسافح الرجل وتشرط أن تنفق عليه ، فأراد رجل من المسلمين أن يتزوجها فذكر ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله ﴿الزانية﴾ لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ﴿١﴾ الآية .

ب - عن ابن عباس أن « هلال بن أمية » قذف امرأته عند النبي ﷺ بـ « شريك بن سحاء » فقال النبي ﷺ : (البينة أو حذفي ظهرك) فقال يا رسول الله : إذا رأى أحدنا مع امرأته رجلاً ينطلق يلتمس البينة ؟ والذي بعثك بالحق إني لصادق ، ولينزلن الله ما يرى ظهري من الحد فنزلت ﴿والذين يرمون أزواجهن﴾ (٢) . الآية .

النفسير : ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن من جوامع سور القرآن أوحينا بها إليك يا محمد ﴿وفرضناها﴾ أي أوجبنا ما فيها من الأحكام إيجاباً قطعياً ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ أي أنزلنا فيها آيات تشريعية ، واضحات الدلالة على أحكامها ، لتكون لكم - أيها المؤمنون - قسماً ونبراساً ، وتكرير لفظ الإنزال لإبراز كمال العناية بشأنها فكانه يقول : ما أنزلتها عليكم لمجرد التلاوة وإنما أنزلتها للعمل والتطبيق ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لكي تعتبروا وتتعضوا بهذه الأحكام وتعملوا بموجبها ، ثم شرع تعالى بذكر الأحكام وبدأ بحد الزنى فقال ﴿والزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة﴾ أي فيما

مِنْهُمَا مِائَةٌ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَيَشْهَدَ عَذَابُهُمَا طَائِفَةٌ
 مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى
 الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ
 شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٢٢﴾

شرعت لكم وفرضت عليكم أن تجلدوا كل واحدٍ من الزانيين - غير المحصنين - مائة ضربة بالسوط عقوبة
 لهما على هذه الجريمة الشنيعة ﴿ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله﴾ أي لا تأخذكم بهما رقة ورحمة في حكم
 الله تعالى فتخففوا الضرب أو تنقصوا العدد بل أوجعوهما ضرباً قال مجاهد : لا تعطلوا حدود الله ولا
 تتركوا إقامتها شفقة ورحمة ^(١) ﴿إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر﴾ هذا من باب الإلهاب والتهيج أي إن
 كنتم مؤمنين حقاً تصدقون بالله وباليوم الآخر ، فلا تعطلوا الحدود ولا تأخذكم شفقة بالزناة ، فإن جريمة
 الزنى أكبر من أن تستدر العطف أو تدفع إلى الرحمة ﴿وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ أي وليحضر
 عقوبة الزانيين جماعة من المؤمنين ، ليكون أبلغ في زجرهما ، وأنجع في ردعهما ، فإن الفضيحة قد تنكل
 أكثر مما ينكل التعذيب ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة﴾ أي الزاني لا يليق به أن يتزوج العفيفة
 الشريفة ، إنما ينكح مثله أو أخس منه كالبغي الفاجر ، أو المشركة الوثنية ﴿والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو
 مشرك﴾ أي والزانية لا يليق أن يتزوج بها المؤمن العفيف ، إنما يتزوجها من هو مثلها أو أخس منها ،
 كالزاني الخبيث أو المشرك الكافر ، فإن النفوس الطاهرة تأبى الزواج بالفواجر الفاسقات ، قال الإمام
 الفخر : «من أحسن ما قيل في تفسير هذه الآية : أن الفاسق الخبيث - الذي من شأنه الزنى والفسق - لا
 يرغب في نكاح الصالح من النساء ، وإنما يرغب في فاسقة خبيثة مثله أو في مشركة ، والفاسقة الخبيثة لا
 يرغب في نكاحها الصالحاء من الرجال وينفرون عنها ، وإنما يرغب فيها من هو من جنسها من الفسقة
 والمشركين ، وهذا على الأعم الأغلب كما يقال : لا يفعل الخير إلا الرجل التقى ، وقد يفعل بعض الخير
 من ليس بتقى فكذا هنا ^(٢)» ﴿وحرم ذلك على المؤمنين﴾ أي وحرم الزنى على المؤمنين لشناعته وقبحه ، أو
 حرم نكاح الزواني على المؤمنين لما فيه من الأضرار الجسيمة ^(٣) . . ثم شرع تعالى في بيان حد القذف فقال
 ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات الشريفات ﴿ثم لم يأتوا بأربعة شهداء﴾ أي
 ثم لم يأتوا على دعواهم بأربعة شهود عدول يشهدون عليهن بما نسبوا إليهن من الفاحشة ﴿فاجلدوهم
 ثمانين جلدة﴾ أي اضربوا كل واحدٍ من الرامين ثمانين ضربة بالسوط ونحوه ، لأنهم كذبة يتهمون
 البريئات ، ويخوضون في أعراض الناس ﴿ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً﴾ أي وزيدوا لهم في العقوبة بإهدار
 كرامتهم الإنسانية فلا تقبلوا شهادة أي واحدٍ منهم ما دام مصراً على كذبه وبهتانه ﴿وأولئك هم الفاسقون﴾

(١) التفسير الكبير ٢٣/ ١٤٨ . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٣/ ١٥٠ . (٣) قولان للمفسرين اختار الأول صاحب التسهيل واختار الثاني أبو السعود والقرطبي .

إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ
شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١١﴾ وَالْخَمِيسَةُ أَنْ لَعَنْتَ اللَّهَ
عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٢﴾ وَيَدْرُؤُا عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَدَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٣﴾
وَالْخَمِيسَةُ أَنْ غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٤﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ
اللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾

أي هم الخارجون عن طاعة الله عز وجل لإتيانهم بالذنب الكبير ، والجرم الشنيع قال ابن كثير : أوجب
تعالى على القاذف إذا لم يَقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام : أحدها أن يجلد ثمانين جلدة الثاني : أن
ترد شهادته أبداً الثالث : أن يكون فاسقاً ليس يعدل لا عند الله ولا عند الناس ^(١) ﴿١٠﴾ إلا الذين تابوا من بعد
ذلك ﴿١١﴾ أي إلا الذين تابوا وأنابوا وندموا على ما فعلوا من بعد ما اقترفوا ذلك الذنب العظيم ﴿١٢﴾ وأصلحوا
أي أصلحوا أعمالهم فلم يعودوا إلى قذف المحصنات قال ابن عباس : أي أظهروا التوبة ﴿١٣﴾ فإن الله غفور
رحيم ﴿١٤﴾ أي فاعفوا عنهم واصفحوا وردُّوا إليهم اعتبارهم بقبول شهادتهم ، فإن الله غفور رحيم يقبل
توبة عبده إذا تاب وأناب وأصلح سيرته وحاله . . ثم ذكر تعالى حكم من قذف زوجته وهو المعروف
باللعان فقال ﴿١٥﴾ والذين يرمون أزواجهم ﴿١٦﴾ أي يقذفون زوجاتهم بالزنى ﴿١٧﴾ ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم ﴿١٨﴾
أي وليس لهم شهود يشهدون بما رموهن به من الزنى سوى شهادة أنفسهم ﴿١٩﴾ فشهادة أحدهم أربع شهادات
بالله ﴿٢٠﴾ أي فشهادة أحدهم التي تزيل عنه حدَّ القذف أربع شهادات بالله تقوم مقام الشهداء الأربعة ﴿٢١﴾ إنه
لمن الصادقين ﴿٢٢﴾ أي إنه صادق فيما رمى به زوجته من الزنى ﴿٢٣﴾ والخامسة أن لعنة الله عليه ﴿٢٤﴾ أي وعليه أيضاً
أن يحلف في المرة الخامسة بأن لعنة الله عليه ﴿٢٥﴾ إن كان من الكاذبين ﴿٢٦﴾ أي إن كان كاذباً في قذفه لها بالزنى
﴿٢٧﴾ ويدراً عنها العذاب ﴿٢٨﴾ أي ويدفع عن الزوجة المقذوفة حدَّ الزنى الذي ثبت بشهادة الزوج ﴿٢٩﴾ أن تشهد
أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ﴿٣٠﴾ أي أن تحلف أربع مرات إنه لمن الكاذبين فيما رماها به من الزنى
﴿٣١﴾ والخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ﴿٣٢﴾ أي وتحلف في المرة الخامسة بأن غضب الله
وسخطه عليها إن كان زوجها صادقاً في اتهامه لها بالزنى ﴿٣٣﴾ ولولا فضل الله عليكم ورحمته ﴿٣٤﴾ أي ولولا
فضل الله عليكم ورحمته بكم بالستر في ذلك ، وجواب ﴿لولا﴾ محذوف لتحويل الأمر تقديره : هلكتم أو
لفضحكم أو عاجلكم بالعقوبة ، ورب مسكوت عنه أبلغ من المنطوق ﴿وأنَّ الله توابٌ حكيمٌ﴾ أي وأنه
تعالى مبالغ في قبول التوبة ، حكيم في ما شرع من الأحكام ومن جملتها حكم اللعان قال أبو السعود :
وجواب لولا محذوف لتحويله كأنه قيل : ولولا تفضله تعالى عليكم ورحمته بكم لكان ما كان مما لا يحيط به
نطاق البيان ومن جملته أنه تعالى لو لم يشرع لهم ذلك لوجب على الزوج حدَّ القذف مع أن الظاهر صدقه

إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنْكُمْ لَا نَحْسِبُهُ شَرًّا لَّكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لِّكُم لِّكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ مَا أَكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَأْنَفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَوْلَا جَاءُوا عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَاءِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٣﴾

لاشترাকে في الفضيحة ، ولو جعل شهاداته موجبةً لحد الزنى عليها لفات النظر لها ، ولو جعل شهاداتها موجبة لحد القذف عليه لفات النظر له ، فسبحانه ما أعظم شأنه ، وأوسع رحمته ، وأدق حكمته ^(١) . . ثم بين تعالى « قصة الإفك » ^(٢) التي اتهمت فيها العفيفة البريئة الطاهرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها بالكذب والبهتان فقال ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك ﴾ أي جاءوا بأسوء الكذب وأشنع صور البهتان وهو قذف عائشة بالفاحشة قال الإمام الفخر : الإفك أبلغ ما يكون من الكذب والافتراء ، وقد أجمع المسلمون على أن المراد ما أفك به على عائشة وهي زوجة الرسول المعصوم ^(٣) ﴿ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ ﴾ أي جماعة منكم أيها المؤمنون وعلى رأسهم « ابن سلول » رأس النفاق ﴿ لا تحسبوه شرًّا لكم ﴾ أي لا تظنوا هذا القذف والاتهام شرًّا لكم يا آل أبي بكر ﴿ بل هو خير لكم ﴾ لما فيه من الشرف العظيم بنزول الوحي ببراءة أم المؤمنين ، وهذا غاية الشرف والفضل قال المفسرون : والخير في ذلك من خمسة أوجه : تبرئة أم المؤمنين ، وكرامة الله لها بإنزال الوحي في شأنها ، والأجر الجزيل لها في الفرية عليها ، وموعظة المؤمنين ، والانتقام من المفترين ^(٤) ﴿ لكل امرئ منهم ما اكتسب من الإثم ﴾ أي لكل فرد من العصبة الكاذبة جزاء ما اجتراح من الذنب على قدر خوضه فيه ﴿ والذي تولى كبره منهم ﴾ أي والذي تولى معظمه وأشاع هذا البهتان وهو « ابن سلول » رأس النفاق ﴿ له عذاب عظيم ﴾ أي له في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿ لولا إذ سمعتموه ﴾ أي هلاً حين سمعتم يا معشر المؤمنين هذا الافتراء وقذف الصديقة عائشة ﴿ ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ﴾ أي هلاً ظنوا الخير ولم يسرعوا إلى التهمة فيمن عرفوا فيها النزاهة والطهارة ؟ فإن مقتضى الإيمان ألا يصدق مؤمن على أخيه قولة عائب ولا طاعن قال ابن كثير : هذا تأديب من الله تعالى للمؤمنين في قصة عائشة حين أفاض بعضهم في ذلك الكلام السوء ، وهلا قاسوا ذلك الكلام على أنفسهم فإن كان لا يليق بهم فأم المؤمنين أولى بالبراءة منه بطريق الأولى والأحرى ، روي أن امرأة « أبي أيوب » قالت له : أما تسمع ما يقول الناس في عائشة ! قال : نعم وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت : لا والله قال فعائشة والله خير منك ^(٥) ، وقالوا هذا إفك مبين ﴿ أي قالوا في ذلك الحين هذا كذب ظاهر مبين ﴾ لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ﴿ أي هلاً جاء أولئك المفترون بأربعة شهود يشهدون على ما قالوا ﴾ فإذا لم يأتوا بالشهداء ﴿ أي فإن عجزوا ولم يأتوا على دعواهم بالشهود ﴾ فأولئك عند الله هم الكاذبون ﴿ أي فأولئك هم

(١) إرشاد العقل السليم ٤/ ٤٨ . (٢) انظر القصة مفصلة في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ١١٧ . (٣) التفسير الكبير ٢٣/ ١٧٢ .

(٤) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ٦١ . (٥) مختصر ابن كثير ٢/ ٥٩١ .

وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِي مَا أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِالسِّنِّكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هِينًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا بَهْتَنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ اللَّهُ أَنْ تَعُودُوا لِمِثْلِهِ أَبَدًا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُحِبُّونَ أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ

المفسدون الكاذبون في حكم الله وشرعه ، وفيه توبيخٌ وتعنيفٌ للذين سمعوا الإِفْكَ ولم ينكروه أول وهلة ﴿ولولا فضلُ الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة﴾ أي لولا فضله تعالى عليكم - أيها الخائضون في شأن عائشة - ورحمته بكم في الدنيا والآخرة حيث أمهلكم ولم يعاجلكم بالعقوبة ﴿لمسكم فيما أفضتم فيه﴾ أي لأصابتكم ونالكم بسبب ما خضتم فيه من حديث الإِفْكَ ﴿عذاب عظيم﴾ أي عذاب شديد هائل يُستحقَر دونه الجلد والتعنيف قال القرطبي : هذا عتابٌ من الله بليغٌ لمن خاضوا في الإِفْكَ ، ولكنه برحمته ستر عليكم في الدنيا ، ويرحم في الآخرة من أتاه تائباً ﴿إذ تلقونه بالسنتكم﴾ أي وذلك حين تلتقونه ويأخذه بعضكم من بعض بالسؤال عنه قال مجاهد : أي يرويه بعضكم عن بعض ، يقول هذا سمعته من فلان ، وقال فلان كذا (١) ﴿وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم﴾ أي تقولون ما ليس له حقيقة في الواقع ، وإنما هو محض كذب وبهتان ﴿وتحسبونه هيناً﴾ أي وتظنونه ذنباً صغيراً لا يلحقكم فيه إثم ﴿وهو عند الله عظيم﴾ أي والحال أنه عند الله من أعظم الموبقات والجرائم لأنه وقوع في أعراض المسلمين قال في التسهيل : عاتبهم تعالى على ثلاثة أشياء : الأول : تلقيه بالألسنة أي السؤال عنه والثاني : التكلم به والثالث : استصغاره حيث حسبه هيناً وهو عند الله عظيم ، وفائدة قوله بالسنتكم وبأفواهكم الإشارة إلى أن ذلك الحديث كان باللسان دون القلب لأنهم لم يعلموا حقيقته بقلوبهم (٢) ﴿ولولا إذ سمعتموه قلتُم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا﴾ عتابٌ لجميع المؤمنين أي كان ينبغي عليكم أن تنكروه أول سماعكم له وتقولوا لا ينبغي لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ أي سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسول الله الطاهرة البريئة فإن هذا الافتراء كذبٌ واضح ، عظيم الجرم قال الزمخشري : هو بمعنى التعجب من عظيم الأمر والاستبعاد له ، والأصل في ذلك أن يُسَبَّحَ الله عند رؤية العجائب (٣) ﴿يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً﴾ أي يذكركم الله ويعظكم بالمواعظ الشافية لكي لا تعودوا إلى مثل هذا العمل أبداً ﴿إن كنتم مؤمنين﴾ أي إن كنتم حقاً مؤمنين فإن الإيمان وازع عن مثل هذا البهتان ، وفيه حثٌ لهم على الاتعاظ وتهييج ﴿ويبينُ الله لكم الآيات﴾ أي ويوضح لكم الآيات الدالة على الشرائع ومحاسن الآداب ، لتتعضوا وتتأدبوا بها ﴿والله عليم حكيم﴾ أي عالم بما يصلح العباد ، حكيم في تدبيره وتشريعہ ﴿إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة﴾ أي يريدون أن ينتشر الفعل القبيح المفرط في القبح

فِي الَّذِينَ ءَامَنُوا لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللَّهَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾

كإشاعة الرذيلة والزنى وغير ذلك من المنكرات ﴿في الذين آمنوا﴾ أي في المؤمنين الأطهار ﴿لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة﴾ أي لهم عذاب موجه مؤلم في الدنيا بإقامة الحد ، وفي الآخرة بعذاب جهنم قال الحسن : عنى بهذا الوعيد واللعن المنافقين فإنهم أحبوا وقصدوا إذابة الرسول ﷺ وذلك كفر وملعون صاحبه ^(١) ﴿والله يعلم وأنتم لا تعلمون﴾ أي هو تعالى عالم بالخفايا والنوايا وأنتم لا تعلمون ذلك قال الإمام الفخر : وهذه الجملة فيها حسن الموقع بهذا الموضع ، لأن محبة القلب كامنة ونحن لا نعلمها إلا بالأمارات أما الله سبحانه فهو لا يخفى عليه شيء ، فصار هذا الذكر نهاية في الزجر لأن من أحب إشاعة الفاحشة وإن بالغ في إخفاء تلك المحبة فهو يعلم أن الله تعالى يعلم ذلك منه ويعلم قدر الجزاء عليه ^(٢) ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رءوف رحيم﴾ جواب ﴿لولا﴾ محذوف لتهويل الأمر أي لولا فضله تعالى على عباده ورحمته بهم لأهلكهم وعذبهم ، وكان ما كان مما لا يكاد يتصوره الإنسان لأنه فوق الوصف والبيان .

البالغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التنكير للتفخيم ﴿سورة أنزلناها﴾ أي هذه سورة عظيمة الشأن ، جليلة القدر أنزلها الله .
- ٢ - الإطناب بتكرير لفظ ﴿أنزلنا﴾ في قوله ﴿وأنزلنا فيها آيات بينات﴾ لإبراز كمال العناية بشأنها ، وهو من باب ذكر الخاص بعد العام للعناية والاهتمام .
- ٣ - الاستعارة ﴿يرمون المحصنات﴾ أصل الرمي القذف بالحجارة أو بشيء صلب ثم استعير للقذف باللسان لأنه يشبه الأذى الحسي فيه استعارة لطيفة .
- ٤ - التهيج والإلهاب ﴿إن كنتم تؤمنون بالله﴾ كقولهم إن كنت رجلاً فأقدم .
- ٥ - صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ و ﴿تواب حكيم﴾ فإن « فعول ، وفعل ، وفعليل » من صيغ المبالغة وكلها تفيد بلوغ النهاية في هذه الصفات .
- ٦ - الطباق بين ﴿الصادقين﴾ و ﴿الكاذبين﴾ .
- ٧ - حذف جواب ﴿لولا﴾ للتهويل في ﴿ولولا فضل الله عليكم ورحمته﴾ وذلك حتى يذهب الوهم في تقديره كل مذهب فيكون أبلغ في البيان وأبعد في التهويل والزجر .

٨ - الطباقي ﴿لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم﴾ وكذلك ﴿وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم﴾ فقد طابق بين الشر والخير ، وبين الهين والعظيم .

٩ - الالتفات من الخطاب إلى الغيبة ﴿لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون﴾ والأصل أن يقال ظنتم وإنما عدل عنه مبالغة في التوبيخ وإشعاراً بأن الإيمان يقتضي ظناً خيراً بالمؤمنين .

١٠ - التحضيض ﴿لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء﴾ أي هلاً جاءوا وغرضه التوبيخ واللوم .

١١ - التعجب ﴿سبحانك هذا بهتان عظيم﴾ فيه تعجب ممن يقول ذلك والأصل في ذكر هذه الكلمة ﴿سبحانك﴾ أن يُسبح الله تعالى عند رؤية العجيب من صنائعه ، تنزيهاً له من أن يخرج مثله عن قدرته ثم كثر حتى استعمل في كل متعجب منه^(١) .

فكائِدَة : لماذا بدأ الله في الزنى بالمرأة ، وفي السرقة بالرجل ؟ والجواب أن الزنى من المرأة أقبح ، وجرمه أشنع فبدأ بها ، وأما السرقة فالرجل عليها أجرأ وهو عليها أقدر ولذلك بدأ به ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما﴾ .

تنبية : في التعبير بالإحصان ﴿والذين يرمون المحصنات﴾ إشارة دقيقة إلى أن كُذِفَ العفيف من الرجال أو النساء موجب لحدِّ الكُذف ، وأما إذا كان الشخص معروفاً بفجوره أو اشتهر بالاستهتار والمجون فلا حدَّ على قاذفه ، لأنه لا كرامة للفاسق الماخن . فتدبر السر الدقيق .

لطيفة : لماذا عدل عن قوله ﴿تواب رحيم﴾ إلى قوله ﴿تواب حكيم﴾ مع أن الرحمة تناسب التوبة ؟ والجواب أن الله عز وجل أراد الستر على العباد بتشريع اللعان بين الزوجين ، فلو لم يكن اللعان مشروعاً لوجب على الزوج حدُّ الكُذف مع أن الظاهر صدقه ، ولو اكتفى بلعانه لوجب على الزوجة حدُّ الزنى ، فكان من الحكمة وحسن النظر لهما جميعاً أن شرع هذا الحكم ، ودراً عنهما العذاب بتلك الشهادات ، فسبحانه ما أوسع رحمته ، وأجل حكمته !!^(٢) .

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان . . إلى . . وموعظةً للمتقين﴾ من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٤) .

الناسكة : لما ذكر تعالى حادثة الإفك ، أتبعها بالتحذير من سلوك طريق الشيطان المتربص بالإنسان الذي يدعو إلى السوء والشر والفساد ، ثم ذكر تعالى آداب الاستئذان والزيارة لأن أهل الإفك إنما وجدوا السبيل إلى بهتانهم من حيث اتفقت الخلوة فصارت طريقاً للتهمة ، فأوجب تعالى ألا يدخل إنسان بيت غيره إلا بعد الاستئذان والسلام ، ثم أتبعها بآيات غضُّ البصر .

(١) حاشية شيخ زاده على البيضاوي ٤١٩/٣ .

(٢) انظر الحكمة التشريعية في الحدود الإسلامية بالتفصيل في كتابنا « تفسير آيات الأحكام » ٥٢/٢ .

الْفَكْرَةُ: ﴿يَأْتِلُ﴾ يحلف والألِيَّةُ: اليمين ومنه ﴿يُؤْلُونُ مِنْ نِسَائِهِمْ﴾ أي يحلفون ﴿المحصنات﴾ العفاف الشريقات الطاهرات جمع محصنة وهي العفيفة ﴿مبرءون﴾ منزهون والبراءة: النزاهة مما نسب للإنسان من تهمة ﴿تستأنسوا﴾ تستأذنون وأصله في اللغة: طلب الأُنس بالشيء قال الشاعر:

عوى الذئب فاستأنست للذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطيّر
﴿يغضوا﴾ غضاً بصره: خفضه ونكّسه وأصله إطباق الجفن على الجفن قال جرير:

فغض الطرف إنك من غير فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

﴿خمرهن﴾ جمع خمار وهو ما تغطي به المرأة رأسها ، وخمرُوا الأنية أي غطوها ﴿جيوبهن﴾ جمع جيب وهو الصدر ﴿الآربة﴾ الحاجة إلى النساء .

سَبَبُ التَّنْزِيلِ: أ - كان أبو بكر الصديق ينفق على « مسطح بن أثاثة » لمسكته وقرباته ، فلما وقع أمر الإفك وقال فيه مسطح ما قال ، حلف أبو بكر ألا ينفق عليه ولا ينفعه بِنَافِعَةٍ أَبَدًا فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿وَلَا يَأْتِلُ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ . .﴾ الآية فقال أبو بكر : والله إني لأحب أن يغفر الله لي ، فرجع إلى مسطح النفقة التي كان ينفق عليه وقال : والله لا أنزعها منه أَبَدًا^(١) .

ب - عن علي كرم الله وجهه قال : مرَّ رجل على عهد رسول الله ﷺ في طريقٍ من طرقات المدينة ، فنظر إلى امرأة ونظرت إليه ، فوسوس لهما الشيطان أنه لم ينظر أحدهما إلى الآخر إلا إعجاباً به ، فبينما الرجل يمشي إلى جانب حائط ينظر إليها إذ استقبله الحائط « أي صدمه الحائط » فشق أنفه فقال : والله لا أغسل الدم حتى آتي رسول الله ﷺ فأعلمه أمري ، فأتاه فقصَّ عليه قصته فقال النبي ﷺ : هذا عقوبة ذنبك فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ . .﴾^(٢) الآيات .

* يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ

التفسير: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي يا من صدقتم بالله ورسوله لا تتبعوا آثار الشيطان ولا تسلكوا مسالكه بإشاعة الفاحشة، والإصغاء إلى الإفك والقول به ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ﴾ أي ومن يتبع سيرة الشيطان وطريقته ﴿فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ أي فإن الشيطان يضل الإنسان ويغويه لأنه يأمر بالفحشاء وهي ما أفرط قبحه، والمنكر وهو ما ينكره الشرع وتنفر منه العقول السليمة ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ﴾ أي لولا فضل الله عليكم ورحمته ﴿مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما تطهر أحدٌ منكم من الذنوب ، وبشرع الحدود المكفرة للخطايا ﴿مَا زَكَّى مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ أي ما تطهر أحدٌ منكم من الأوزار أبد الدهر ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ﴾ أي ولكن الله بفضله ورحمته يطهر من يشاء بتوقيفه للتوبة

عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتِلْ أُولُوا الْفَضْلِ مِنْكُمْ وَالسَّعَةِ أَنْ يُؤْتُوا أُولَى الْقُرْبَى وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٢﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوقِفُهُمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ

النصوص وقبولها منه قال القرطبي : والغرض أن تزكيتهم لكم ، وتطهيره وهدايته إنما هي بفضلها لا بأعمالكم^(١) ﴿والله سميعٌ عليمٌ﴾ أي سميع لأقوالكم عليم بنياتكم وضما ئركم ﴿ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة﴾ أي لا يحلف أهل الفضل في الدين وأصحاب الغنى واليسار ﴿أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله﴾ أي أن لا يؤتوا أقاربهم من الفقراء والمهاجرين ما كانوا يعطونهم إياه من الإحسان لذنب فعلوه ﴿وليُعْفُوا وليصفحوا﴾ أي وليعفوا عما كان منهم من جرم ، وليصفحوا عما بدر منهم من إساءة ، وليعودوا إلى ما كانوا عليه من الانعام والإحسان ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ أي ألا تحبون أيها المؤمنون أن يغفر الله لكم على عفوكم وصفحكم وإحسانكم إلى من أساء إليكم ؟ روي أن أبا بكر لما سمع الآية قال : بلى أحب أن يغفر الله لي وأعاد النفقة إلى مسطح وكفر عن يمينه وقال : والله لا أنزعها منه أبداً !! قال المفسرون : والآية دالة على فضل أبي بكر فإن الله تعالى امتدحه بقوله ﴿ولا يأتل أولوا الفضل﴾ وكفى به دليلاً على فضل الصديق رضي الله عنه وأرضاه ﴿والله غفور رحيم﴾ أي مبالغ في المغفرة والرحمة مع كمال قدرته على العقاب ، ثم توعد تعالى الذين يرمون العفاف الطاهرات فقال ﴿إن الذين يرمون المحصنات الغافلات﴾ أي يقذفون بالزنى العفيفات ، السلييات الصدور ، النقيات القلوب عن كل سوء وفاحشة ﴿المؤمنات﴾ أي المتصفات بالإيمان مع طهارة القلب ﴿لعنوا في الدنيا والآخرة﴾ أي طردوا وأبعدوا من رحمة الله في الدنيا والآخرة قال ابن عباس : هذا اللعن فيمن قذف زوجات النبي ﷺ إذ ليس له توبة ، ومن قذف مؤمنة جعل الله له توبة^(٢) وقال أبو حمزة : نزلت في مشركي مكة ، كانت المرأة إذا خرجت إلى المدينة مهاجرة قذفوها وقالوا خرجت لتفجر^(٣) ﴿ولهم عذاب عظيم﴾ أي ولهم مع اللعنة عذاب هائل لا يكاد يوصف بسبب ما ارتكبوا من إثم وجريمة ﴿يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون﴾ أي وذلك العذاب الشديد في ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين تشهد على الإنسان جوارحه فتنتطق الألسنة والأيدي والأرجل بما اقترف من سيئ الأعمال ﴿يومئذ يوفيه الله دينهم الحق﴾ أي يوم القيامة ينالهم حسابهم جزاؤهم العادل من أحكم الحاكمين ﴿ويعلمون أن الله هو الحق المبين﴾ أي ويعلمون حينئذ أن الله هو العادل الذي لا يظلم أحداً ، الظاهر عدله في تشريعه وحكمه . . ثم ذكر تعالى بالدليل القاطع ، والبرهان الساطع براءة عائشة ونزاهتها ، فهي زوجة رسول الله الطيب الطاهر وقد

الْمُبِينُ ﴿٢٥﴾ الْحَبِيثَاتُ لِلْغَيْبِيِّنَ وَالْغَبِيثُونَ لِلْغَيْبَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ أُولَئِكَ مُبَرَّءُونَ مِمَّا يَقُولُونَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢٦﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِنْ قِيلَ لَكُمْ ارْجِعُوا فَارْجِعُوا هُوَ أَزْكَى لَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾

جرت سنة الله أن يسوق الجنس إلى جنسه ، فلو لم تكن عائشة طيبة لما كانت زوجة لأفضل الخلق ﷺ ولهذا قال ﴿الخبيثات للخبِيثِينَ والخبِيثُونَ للخبِيثَاتِ ، والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات﴾ أي الخبيثات من النساء للخبِيثِينَ من الرجال ، والخبِيثُونَ من الرجال للخبِيثَاتِ من النساء ، وكذلك الطيبات من النساء للطيبين من الرجال والطيبون من الرجال للطيبات من النساء^(١) ، وهذا كالدليل على براءة عائشة لأنها زوجة أشرف رسول وأكرم مخلوق على الله ، وما كان الله ليجعلها زوجة لأحب عباده لو لم تكن عفيفة طاهرة شريفة ﴿أولئك مبرءون مما يقولون﴾ أي أولئك الفضلاء منزهون مما تقوله أهل الإفك في حقهم من الكذب والبهتان ﴿لهم مغفرة ورزق كريم﴾ أي لهم على ما نالهم من الأذى مغفرة لذنوبهم ، ورزق كريم في جنات النعيم قال ابن كثير : وفيه وعد بأن تكون زوجة رسول الله ﷺ في الجنة ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتاً غير بيوتكم﴾ لما حذر تعالى من قذف المحصنات وشدد العقاب فيه ، وكان طريق هذا الاتهام مخالطة الرجال للنساء ، ودخولهم عليهن في أوقات الخلوات أرشد تعالى إلى الآداب الشرعية في دخول البيوت فأمر بالاستئذان قبل الدخول والتسليم بعده ﴿حتى تستأذِنُوا وتسلمُوا على أهلها﴾ أي لا تدخلوا بيوت الغير حتى تستأذِنُوا وتسلمُوا على أهل المنزل ﴿ذلكم خير لكم﴾ أي ذلك الاستئذان والتسليم خير لكم من الدخول بغتة ﴿لعلكم تذكرون﴾ أي لتعظُوا وتعملُوا بموجب هذه الآداب الرشيدة قال القرطبي : المعنى إن الاستئذان والتسليم خير لكم من الهجوم بغير إذن ومن الدخول على الناس بغتة أو من تحية الجاهلية فقد كان الرجل منهم إذا دخل بيتاً غير بيته قال : حَيْتَم صباحاً ، وحَيْتَم مساءً ودخل فربما أصاب الرجل مع امرأته في الحاف ، وروي أن رجلاً قال للنبي ﷺ أأستأذن على أُمِّي ؟ قال نعم ، قال ليس لها خادمٌ غيري ، أأستأذن عليها كلما دخلت ؟ قال : أتحب أن تراها عريانة ؟ قال لا ، قال فاستأذن عليها^(٢) ﴿فإن لم تجدوا فيها أحداً﴾ أي فإن لم تجدوا في البيوت أحداً يأذن لكم بالدخول إليها ﴿فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم﴾ أي فاصبروا ولا تدخلوها حتى يسمح لكم بالدخول ، لأن للبيوت حرمة ولا يحل دخولها إلا بإذن أصحابها ﴿وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا﴾ أي وإن لم يؤذن لكم وطلب منكم الرجوع فارجعوا ولا تلحوا ﴿هو أزكى لكم﴾ أي الرجوع أطهر وأكرم لنفوسكم وهو خير لكم من اللجاج والانتظار على الأبواب ﴿والله بما تعملون عليم﴾ أي هو تعالى عالم

(١) هذا قول ابن زيد وهو الأظهر وقال مجاهد : الخبيثات من القول للخبِيثِينَ من الرجال وبالعكس ومراده أن كل كلام إنما يحسن في حق أهله

فسيء الكلام إنما يليق بالأشرار والفجار الخ وما ذكرناه أوضح بياناً ، وأقرب مثلاً . (٢) البضاوي ٥٧/٢

لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَعٌ لَكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُلْ
لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُلْ
لِلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۚ وَلْيَضْرِبْنَ

بالخفايا والنوايا وبجميع أعمالكم فيجازيكم عليها قال القرطبي : وفيه توعده لأهل التجسس على البيوت ،
ثم إنه تعالى لما ذكر حكم الدور المسكونة ذكر بعده حكم الدور غير المسكونة فقال ﴿ليس عليكم جناح﴾
أي ليس عليكم إثمٌ وحرَجٌ ﴿أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة﴾ أي أن تدخلوا بغير استئذان بيوتاً لا تختص
بسكنى أحد كالرباطات والفنادق والخانات قال مجاهد : هي الفنادق التي في طرق السابلة لا يسكنها أحد
بل هي موقوفة لياوي إليها كل ابن سبيل^(١) ﴿فيها متاعٌ لكم﴾ أي فيها منفعة لكم أو حاجة من الحاجات
كالاستظلال من الحر ، وإيواء الأمتعة والرحال ﴿والله يعلم ما تُبدون وما تكتُمون﴾ أي يعلم ما تظهرون
وما تُسرون في نفوسكم فيجازيكم عليه قال أبو السعود : وهذا وعيد لمن يدخل مدخلاً لفسادٍ أو اطلاع على
عورات^(٢) ، ثم أرشد تعالى إلى الآداب الرفيعة من غَض البصر ، وحفظ الفروج فقال ﴿قل للمؤمنين
يغضوا من أبصارهم﴾ أي قل يا محمد لأتباعك المؤمنين يكفوا أبصارهم عن النظر إلى الأجنبية من غير
المحارم ، فإن النظرة تزرع في القلب الشهوة ، ورُبَّ شهوة أورث حزناً طويلاً

كم نظرة فتكت في قلب صاحبها فتك السهام بلا قوس ولا وتر

﴿ويحفظوا فروجهم﴾ أي يصونوا فروجهم عن الزنى وعن الإبداء والكشف ﴿ذلك أزكى لهم﴾ أي ذلك
الغَضُّ والحفظ أظهر للقلوب ، وأتقى للدين ، وأحفظ من الوقوع في الفجور ﴿إن الله خير بما يصنعون﴾
أي هو تعالى رقيبٌ عليهم ، مطلعٌ على أعمالهم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالهم ، فعليهم أن يتقوا الله في
السر والعلن قال الإمام الفخر : فإن قيل فلم قدم غَضُّ الأبصار على حفظ الفروج ؟ قلنا : لأن النظر يريد
الزنى ، ورائد الفجور ، والبلوى فيه أشدُّ وأكثر ، ولا يكاد يُحترس منه^(٣) ﴿وقل للمؤمنات يغضضن من
أبصارهن ويحفظن فروجهن﴾ أي وقل أيضاً للمؤمنات يكففن أبصارهن عن النظر إلى ما لا يحل لهن
النظر إليه ، ويحفظن فروجهن عن الزنى وعن كشف العورات ، قال المفسرون : أكد تعالى الأمر
للمؤمنات بغض البصر وحفظ الفروج ، وزادهن في التكليف على الرجال بالنهي عن إبداء الزينة إلا
للمحارم والأقرباء فقال ﴿ولا يبدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ أي ولا يكشفن زينتَهُنَّ للأجانب إلا ما ظهر
منها بدون قصدٍ ولا نية سيئة قال ابن كثير : أي لا يظهرن شيئاً من الزينة للأجانب إلا ما لا يمكن
إخفاؤه ، كما قال ابن مسعود : الزينة زيتان : فزينة لا يراها إلا الزوج : الخاتم والسوار ، وزينة يراها
الأجانب وهي الظاهر من الثياب^(٤) ، وقيل : المراد به الوجه والكفان فإنها ليسا بعورة قال البيضاوي :
والأظهر أن هذا في الصلاة لا في النظر ، فإن كل بدن الحرة عورة لا يحل لغير الزوج والمحرم النظر إلى شيء

بُخْمَرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ آبَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَائِهِنَّ أَوْ أَبْنَاءَ
 بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَانِهِنَّ أَوْ بَنِي إِخْوَانِهِنَّ أَوْ نِسَائِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ أَوِ التَّابِعِينَ غَيْرَ
 أُولَى الْأَرْبَةِ مِنَ الرِّجَالِ أَوِ الطِّفْلِ الَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا عَلَى عَوْرَاتِ النِّسَاءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ
 مِنْ زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

منها إلا لضرورة كالمعالجة وتحمل الشهادة^(١) ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ أي وليلقين الخمار وهو
 غطاء الرأس على صدورهن لئلا يبدو شيء من النحر والصدر ، وفي لفظ الضرب مبالغة في الصيانة
 والتستر ، عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : يرحم الله النساء المهاجرات الأول لما أنزل الله
 ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها^(٢) قال المفسرون : كانت المرأة في
 الجاهلية - كما هي اليوم في الجاهلية الحديثة - تمر بين الرجال مكشوفة الصدر ، بادية النحر ، حاسرة
 الذراعين ، وربما أظهرت مفاتن جسمها وذوائب شعرها لتغري الرجال ، وكن يسدلن الخمر من ورائهن
 فتبقى صدورهن مكشوفة عارية ، فأمرت المؤمنات بأن يلقينها من قدامهن حتى يغطيها ويدفعن عنهن شر
 الأشرار ﴿ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن﴾ أي ولا يظهرن زينتهن الخفية التي حرم الله كشفها إلا
 لأزواجهن ﴿أو آبائهن أو أبناء بعولتهن﴾ أي أو آبائهن أو أبناء أزواجهن وهو العم أبو الزوج فإنهما من
 المحارم ، فإن الأب يصون عرض ابنته ، ووالد الزوج يحفظ على ابنه ما يسوءه ، ثم عدد بقية المحارم فقال
 ﴿أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن ، أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن﴾ فذكر تعالى الأبناء ، وأبناء
 الأزواج ، والإخوة ، وأبناء الإخوة ، وأبناء الأخوات وكلهم من المحارم الذين يحرم الزواج بهم لما جبل
 الله في الطباع من النفرة من مماسة القريبات ونكاحهن ﴿أو نسائهن﴾ أي المسلمات وخرج بذلك النساء
 الكافرات قال مجاهد : المراد نساؤهن المسلمات ، ليس المشركات من نسائهن ، وليس يحل للمرأة المسلمة
 أن تنكشف بين يدي مشركة وقال ابن عباس : هن المسلمات ولا تبدي زينتها أمام يهودية أو نصرانية^(٣) ﴿أو
 ما ملكت أيمانهن﴾ أي من الإماء المشركات قال ابن جرير : يعني من نساء المشركين فيجوز لها أن تظهر
 زينتها لها وإن كانت مشركة لأنها أمتها ﴿أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال﴾ أي الخدام غير أولي الميل
 والشهوة والحاجة إلى النساء كالبله والحمقى والمغفلين الذين لا يدركون من أمور الجنس شيئاً قال مجاهد :
 هو الأبله الذي يريد الطعام ولا يريد النساء ولا يهيمه إلا بطنه ﴿أو الطفل الذي لم يظهر على عورات
 النساء﴾ أي الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا حد الشهوة ، ولا يعرفون أمور الجماع لصغرهم فلا حرج أن
 تظهر المرأة زينتها أمامهم ﴿ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن﴾ أي ولا يضربن بأرجلهن
 الأرض لئلا يسمع الرجال صوت الخلخال فيطمع الذي في قلبه مرض قال ابن عباس : كانت المرأة تمر

(١) البيضاوي ٥٨/٢ (٢) أخرجه البخاري . (٣) مختصر ابن كثير ٦٠١/٢ وهذا قول أكثر السلف أن المراد بالنساء المؤمنات قال الفخر

الرازي : وقيل المراد بالنساء جميع النساء فإنهن سواء في حل نظر بعضهن إلى بعض ، وقول السلف محمول على الاستحباب .

وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ^٢ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِيهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^٣ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ^٤ وَلَيْسَتَعْفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا^٥ حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ^٦ وَالَّذِينَ يَبْتِغُونَ الْكِتَابَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا^٧ وَءَاتُوهُمْ مِّنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي ءَاتَاكُمْ وَلَا تُكْرِهُوا فَتِيانَكُمْ عَلَىٰ الْبِغَاءِ^٨ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا عَرَضَ الْحَيَوةِ الدُّنْيَا وَمَنْ يُكْرِهِنَّ^٩ فَإِنَّ اللَّهَ مِنْ بَعْدِ

بالناس وتضرب برجلها لسمع صوت خلخالها ، فهي الله تعالى عن ذلك لأنه من عمل الشيطان ﴿وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون﴾ أي ارجعوا أيها المؤمنون إلى ربكم بامثال الطاعات ، والكف عن الشهوات ، لتنالوا رضاه وتفوزوا بسعادة الدارين ﴿وأنكحوا الأيامي منكم﴾ أي زوجوا أيها المؤمنون من لا زوج له من الرجال والنساء من أحرار رجالكم ونسائكم قال الطبري : الأيامي جمع أيم ، يوصف به الذكر والأنثى يقال : رجل أيم وامرأة أيمة إذا لم يكن لها زوج^(١) ﴿والصالحين من عبادكم وإمائكم﴾ أي وأنكحوا كذلك أهل التقى والصلاح من عبيدكم وجواريككم قال البيضاوي : وتخصيص الصالحين لأن إحصان دينهم والاهتمام بشأنهم أهم^(٢) ، وفيه إشارة إلى مكانة التقى والصلاح في الإنسان ﴿إن يكونوا فقراء يغنيهم الله من فضله﴾ أي إن يكن هؤلاء الذين تزوجونهم أهل فاقة وفقر فلا يمنعكم فقرهم من إنكاحهم ، ففي فضل الله ما يغنيهم ﴿والله واسعٌ عليم﴾ أي واسع الفضل ، جواد كريم ، يعطي الرزق من يشاء وهو عليم بمصالح العباد قال القرطبي : وهذا وعدٌ بالغنى للمتزوجين طلباً لرضى الله ، واعتصاماً من معاصيه وقال ابن مسعود : التمسوا الغنى في النكاح وتلا هذه الآية^(٣) وفي الحديث (ثلاثة حقٌ على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازي في سبيل الله)^(٤) ﴿وليستعفف الذين لا يجدون نكاحاً﴾ أي وليجتهد في العفة وقمع الشهوة الذين لا تيسر لهم سبل الزواج لأسباب مادية ﴿حتى يغنيهم الله من فضله﴾ أي حتى يوسع الله عليهم ويسهل لهم أمر الزواج ، فإن العبد إذا اتقى الله جعل له من أمره فرجاً ومخرجاً ﴿والذين يبتغون الكتاب ممَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ أي والذين يريدون أن يتحرروا من رقِّ العبودية بمكاتبة أسيادهم من العبيد والأرقاء ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ أي فكَاتِبُوهُمْ على قدر من المال إن عرفتم منهم الأمانة والرشد ليصيروا أحراراً ﴿وَأَتُوهُمْ مِنْ مَّالِ اللَّهِ الَّذِي آتَاكُمْ﴾ أي أعطوهم مما أعطاكم الله من الرزق ليكون لهم عوناً على فكك أنفسهم ﴿ولا تُكْرِهُوا فَتِيَانَكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ﴾ أي لا تجبروا إماءكم على الزنى ﴿إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ أي إن أردن التعفف عن مقارفة الفاحشة ، وليس هذا للقيد أو الشرط وإنما هو لبيان فظاعة الأمر وشناعته ، فالأصل في المملوكة أن يُحصنها سيدها أمّا أن يأمرها بالزنى وتمتنع وتريد العفة فذلك منتهى الخسة والدناءة منه قال المفسرون: نزلت في « عبد الله بن سلول » المنافق كان له جارتان إحداها تسمى « مُسَيِّكَة » والثانية تسمى « أُمَيْمَة » فكان يأمرها بالزنى للكسب ويضربها على ذلك فشكتا ذلك إلى رسول الله ﷺ فنزلت الآية ﴿لتبتغوا عرض

إِكْرَاهِهِنَّ غُفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ آيَاتٍ مُبِينَاتٍ وَمَثَلًا مِّنَ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُمْ وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٣٤﴾

الحياة الدنيا﴾ أي لأجل أن تنالوا حطام هذه الحياة الزائل ، وتحصلوا على المال بطريق الفاحشة والرزيلة ﴿ومن يكرههنَّ فإن الله من بعد إكراههنَّ غفور رحيم﴾ أي ومن يجبرهن على الزنى فإن الله غفور لمن رحيم بهن لا يؤاخذهن بالزنى لأنهن أكرهن عليه وسيتقم ممن أكرههن شر انتقام ﴿ولقد أنزلنا إليكم آياتٍ مبينات﴾ أي والله لقد أنزلنا إليكم أيها المؤمنون آيات واضحة وأحكاماً مفصلات ﴿ومثلاً من الذين خلوا من قبلكم﴾ وضربنا لكم الأمثال بمن سبقكم من الأمم لتتعظوا وتعتبروا ﴿وموعظة للمتقين﴾ أي وعظة وذكرى للمتقين .

البلاغَة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستعارة اللطيفة ﴿لا تتبعوا خطوات الشيطان﴾ شبه سلوك طريق الشيطان والسير في ركابه بمن يتتبع خطوات الآخر خطوة خطوة بطريق الاستعارة .
- ٢ - الإيجاز بالحذف ﴿أن يؤتوا﴾ أي أن لا يؤتوا حذفت منه ﴿لا﴾ لدلالة المعنى وهو كثير في اللغة .
- ٣ - صيغة الجمع للتعظيم ﴿ألا تحبون أن يغفر الله لكم﴾ والمراد به أبو بكر الصديق .
- ٤ - الجناس الناقص بين ﴿يعملون﴾ و﴿يعلمون﴾ .
- ٥ - المقابلة اللطيفة بين ﴿الخبثات للخبثين . . والطيبات للطيبين﴾ .
- ٦ - الطباق بين ﴿تبدون . . وتكتمون﴾ .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿يغضُّوا من أبصارهم﴾ لأن المراد غض البصر عما حرم الله لا عن كل شيء فحذف ذلك اكتفاءً بفهم المخاطبين .
- ٨ - المجاز المرسل ﴿ولا يبدسن زينتهن﴾ المراد مواقع الزينة وهو من باب إطلاق اسم الحال على المحل قال الزمخشري : وذكر الزينة دون مواقعها للمبالغة في الأمر بالتستر والتصون .

فكائدَة : قال بعض المحققين : إن يوسف لما رُمي بالفاحشة برآه الله على لسان صبي في المهدي ، وإن مريم لما رُميت بالفاحشة برآها الله على لسان ابنها عيسى عليه السلام ، وإن عائشة لما رُميت بالفاحشة برآها الله في كتابه العزيز ، فما رضي الله لها ببراءة صبي ولا نبي حتى برآها الله في القرآن من القذف والبهتان^(١) .

تنبيه : السرُّ في تقديم غرض البصر على حفظ الفروج ﴿يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم﴾ هو أن النظر يريد الزنى ورائد الفجور ، وهو مقدمة للوقوع في الخطر كما قال الشاعر :

وكنْتَ إذا أرسلتَ طرفك رائداً لقلبك يوماً أتعبتك المناظر
رأيتَ الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ عليه وعلى عن بعضه أنتَ صابر

لطيفة : ذكر أن قسيساً أراد أن ينال من المسلمين بالطعن في أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله عنها ، فقال : إن الناس رموها بالإفك ولا ندري أهى بريئة أم متهمة ؟ فأجابه بعض الحاضرين بقوله : إسمعُ يا هذا ، هناك امرأتان اتهمتتا بالزنى وقد برأهما القرآن الكريم ، إحداهما ليس لها زوج وقد جاءت بولد ، والأخرى لها زوج ولم يأتها ولد- يقصد مريم وعائشة - فأيتهما أخرى بالتهمة ؟ فخرس القسيس .

قال الله تعالى: ﴿الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . إلى . . فأولئك هم الفائزون﴾
من آية (٣٥) إلى نهاية آية (٥٢) .

المناسكة : لما وصف تعالى نفسه بأنه أنزل آياتٍ مبينات ، وأقام دلائل واضحات على وحدانيته ، واختصاصه بتشريع الأحكام التي بها سعادة المجتمع ، عقبه بذكر مثلين : أحدهما في بيان أن دلائل الوحداية والإيمان في غاية الظهور والثاني : في بيان أن أديان الكفرة في نهاية الظلمة والخفاء ، وبالمقارنة بين المثلين يتضح الصبح لذي عينين .

اللغة : ﴿مشكاة﴾ المشكاة : الكوة في الحائط غير النافذة ، وأصلها الوعاء يجعل فيه الشيء ﴿دُرِّي﴾ متلألئ وقاد يشبه الدر في صفائه ولمعانه ﴿سراب﴾ السراب : ما يترأى للعين وسط النهار عند اشتداد الحر يشبه الماء الجاري وليس بماء ، سمي سراباً لأنه يسرب أي يجري كالماء قال الشاعر :

فلما كففنا الحرب كانت عهدكم كلمع سراب بالفلا متألّق^(١)

﴿قبة﴾ قال الفراء : هو جمع قاع مثل جار وجيرة ، والقاع المنبسط المستوي من الأرض وقال الزمخشري : القبة بمعنى القاع وليس جمعاً^(٢) ، وهكذا قال أبو عبيدة ﴿لجِّي﴾ اللجِّي : الذي لا يدرك قعره لعمقه ، واللجة معظم الماء ، والجمع لجج ، والتج البحر : تلاطمت أمواجه ﴿يزجي﴾ الإزجاء : سوق الشيء برفق وسهولة ﴿ركاماً﴾ مجتمعاً يركب بعضه بعضاً ﴿الودق﴾ : المطر قال الليث : الودق المطر كله شديده وهينه^(٣) ﴿سنا﴾ : السنا الضوء واللمعان قال الشياخ :

وما كادت إذا رفعت سناها ليصر ضوءها إلا البصير^(٤)

﴿مذعنين﴾ خاضعين منقادين ، أذعن للأمر خضع له ﴿يحيف﴾ يجور ويظلم .

* اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۚ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۚ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ ۚ

التفسير : ﴿الله نور السموات والأرض﴾ أي الله جلّ وعلا منور السموات والأرض ، أنار السموات بالكواكب المضيئة ، والأرض بالشرائع والأحكام وبعثة الرسل الكرام قال الطبري : أي هادي أهل السموات والأرض فهم بنوره إلى الحق يهتدون ، ويهداه من حيرة الضلالة يعتصمون^(١) وقال القرطبي : النور عند العرب : الضوء المدرك بالبصر واستعمل مجازاً في المعاني فيقال كلامٌ له نور قال الشاعر :

نسبُ كأن عليه من شمس الضحى نوراً ومن فلق الصباح عموداً

وقال جرير « وأنت لنا نورٌ وغيثٌ وعصمة » والناس يقولون : فلان نور البلد ، وشمسُ العصر وقمره ، فيجوز أن يقال : الله نور على جهة المدح لأن جميع الأشياء منه ابتدأوا ، وعنه صدورها ، وبقدرته استقامت أمورها^(٢) ، وقال ابن عطاء الله : « الكون كله ظلمة أناره ظهور الحق فيه ، إذ لولا وجود الله ما وجد شيء من العالم »^(٣) وفي الحديث (اللهم لك الحمد أنت نور السموات والأرض ومن فيهن) وقال ابن مسعود : « ليس عند ربكم ليلٌ ولا نهار ، نور السموات والأرض نور وجهه » وقال ابن القيم : سمى الله سبحانه نفسه نوراً ، وجعل كتابه نوراً ، ورسوله نوراً ، واحتجب عن خلقه بالنور ، وقد فسرت الآية بأنه منور السموات والأرض ، وهادي أهل السموات والأرض ، وما قاله ابن مسعود أقرب إلى تفسير الآية من قول من فسرهما بأنه هادي أهل السموات والأرض ، وأما من فسرهما بأنه منور السموات والأرض فلا تنافي بينه وبين قول ابن مسعود^(٤) ﴿مِثْلُ نُورِهِ﴾ أي مثل نور الله سبحانه في قلب عبده المؤمن ﴿كَمَشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ أي ككوة في الحائط لا منفذ لها ليكون أجمع للضوء وضع فيها سراج ثاقب ساطع قال في التسهيل : المعنى صفة نور الله في وضوحه كصفة مشكاة فيها مصباح على أعظم ما يتصوره البشر من الإضاءة والإنارة ، وإنما شبه بالمشكاة - وإن كان نورُ الله أعظم - لأن ذلك هو ما يدركه الناس من الأنوار ضرب لهم به المثل^(٥) ﴿المصباح في زجاجة﴾ أي في قنديل من الزجاج الصافي ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي تشبه الكوكب الدري في صفائها وحسنها ﴿يوقد من شجرة مباركة﴾ أي يشعل ذلك المصباح من زيت شجرة مباركة ﴿زيتونة﴾ أي هي من شجر الزيتون الذي خصه الله بمنافع عديدة ﴿لا شرقية ولا غربية﴾ أي ليست في جهة الشرق ولا في جهة الغرب ، وإنما هي في صحراء منكشفة تصيبها الشمس طول النهار لتكون ثمرتها أنضج ، وزيتها أصفى قال ابن عباس : هي شجرة بالصحراء لا يظللها شجر ، ولا جبل ، ولا كهف ، ولا يوارى بها شيء وهو أجود لزيتها^(٦) ﴿يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار﴾ مبالغة في وصف صفاء الزيت وحسنه وجودته أي يكاد زيت هذه الزيتون يضيء من صفائها

(١) الطبري ١٨/١٠٥ وهذا قول ابن عباس ومجاهد واختاره الطبري . (٢) القرطبي ١٢/٢٥٦ . (٣) الحكم لابن عطاء الله السكندري .

(٤) نقلاً عن محاسن التأويل . (٥) التسهيل ٣/٦٧ . (٦) مختصر ابن كثير ٢/٦٠٦ .

يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾ فِي بُيُوتٍ أُذِنَ لِلَّهِ أَنْ تَرْفَعَ وَيُذَكِّرَ فِيهَا أَسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ﴿٣٧﴾

وحسن ضيائه ولولم تمسه نار ، فكيف إذا امسته النار ؟ ﴿نور على نور﴾ أي نور فوق نور فقد اجتمع نور السراج ، وحسن الزجاجة ، وصفاء الزيت ، فاكتمل النور الممثل به ﴿يهدي الله لنوره من يشاء﴾ أي يوفق الله لاتباع نوره - وهو القرآن - من يشاء من عباده ﴿ويضرب الله الأمثال للناس﴾ أي يبين لهم الأمثال تقريباً لأفهامهم ليعتبروا ويتعظوا بما فيها من الأسرار والحكم ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي هو سبحانه واسع العلم لا يخفى عليه شيء من أمر الخلق ، وفيه وعد ووعد الطبري : ذلك مثل ضربه الله للقرآن في قلب أهل الإيمان به فقال : مثل نور الله الذي أنار به لعباده سبيل الرشاد مثل كوة في الحائط لا منفذ لها فيها مصباح أي سراج ، وجعل السراج مثلاً لما في قلب المؤمن من القرآن والآيات البينات ثم قال ﴿المصباح في زجاجة﴾ وذلك مثل للقرآن في قلب المؤمن الذي أنار الله صدره فخلص من الكفر والشك ، ثم قال ﴿الزجاجة كأنها كوكب دري﴾ أي كأن الزجاجة في صفائها وضيائها كوكب يشبه الدر في الصفاء والضياء والحسن ﴿يوقد من شجرة مباركة لا شرقية ولا غربية﴾ أي توقد هذا المصباح من دهن شجرة مباركة هي شجرة الزيتون ، ليست شرقية تطلع عليها الشمس بالعشي دون الغداة ، ولكن الشمس تشرق عليها وتغرب فيكون زيتها أجود وأصفى وأضوأ ﴿يكاد زيتها يضيء ولولم تمسه نار﴾ أي يكاد زيت هذه الزيتون يضيء من صفائه وحسن ضيائه وعنى بها أن حجج الله على خلقه تكاد من بيانها ووضوحها تضيء لمن فكر فيها ونظر ولولم يزدها الله بياناً ووضوحاً بنزول هذا القرآن ، فكيف وقد نبههم به وذكرهم بآياته فزادهم به حجة ! وذلك بيان من الله ونور على البيان ^(١) . ثم لما ذكر تعالى هدايته لمن يشاء من عباده ، ذكر مواطن هذه العبادة وهي المساجد أحب البقاع إلى الله فقال ﴿في بيوت أذن الله أن ترفع﴾ أي أمر تعالى أن تبنى وتشاد على اسمه خاصة ، وإن تعظم ويرفع شأنها لتكون منارات للهدى ومراكز للإشعاع الروحي قال ابن عباس : المساجد بيوت الله في الأرض ، تضيء لأهل السماء كما تضيء النجوم لأهل الأرض ^(٢) ﴿ويذكر فيها اسمه﴾ أي يعبد فيها الله بتوحيده ، وذكره ، وتلاوة آياته ﴿يسبح له فيها بالغدو والآصال﴾ أي يصلي لله تعالى في هذه المساجد في الصباح والمساء المؤمنون قال ابن عباس : كل تسبيح في القرآن فهو صلاة ^(٣) ﴿رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾ أي لا تشغلهم الدنيا وزخرفها وزينتها عن ذكر ربهم ، ولا يلهيهم البيع والشراء عن طاعة الله قال المفسرون : نزلت هذه الآية في أهل الأسواق من الصحابة رضوان الله عليهم ، كانوا إذا سمعوا النداء تركوا كل شغل وبادروا لطاعة الله ﴿وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة﴾ أي ولا تشغلهم الدنيا عن إقامة الصلاة في أوقاتها ، ودفع الزكاة للفقراء

لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۗ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا
أَعْمَلُوهُمْ كَسْرَابٍ بِقَيْعَةٍ يَّحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۗ
وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٩﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ
بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكِدْ يَرُهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴿٣٠﴾

والمستحقين بحدودها وشروطها ﴿يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار﴾ أي يخافون يوماً رهيباً
تضطرب من شدة هوله وفزعه قلوب الناس وأبصارهم ﴿ليجزئهم الله أحسن ما عملوا﴾ أي ليكافئهم على
أعمالهم في الدنيا بأحسن الجزاء ، ويجزيهم على الإحسان إحساناً ، وعلى الإساءة عفواً وغفراناً ﴿ويزيدهم
من فضله﴾ أي يتفضل عليهم فوق ذلك الجزاء بما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر
﴿والله يرزق من يشاء بغير حساب﴾ أي يعطي من شاء من خلقه عطاءً واسعاً بدون حدٍّ ولا عدٍّ يقال فلان
ينفق بغير حساب أي يوسع كأنه لا يحسب ما ينفقه قال الإمام الفخر : نبه به على كمال قدرته ، وكمال
جوده ، وسعة إحسانه ، فإنه سبحانه يعطيهم الثواب العظيم على طاعتهم ، ويزيدهم الفضل الذي لا
حد له في مقابلة خوفهم ^(١) ، ولما ذكر تعالى حال المؤمن وسعادته ، ذكر حال الكافر وخسارته ، وضرب
لذلك مثلين : الأول لعمله والثاني لاعتقاده وتجبته في الظلمات فقال ﴿والذين كفروا أعمالهم كسراب
بقيعة﴾ أي إن أعمال الكفار التي عملوها في الدنيا وظنوها أعمالاً صالحة نافعة لهم في الآخرة كالسراب الذي
يرى في القيعان وهو ما يرى في الفلوات من ضوء الشمس في الهجيرة حتى يظهر كأنه ماء يجري على وجه
الأرض ﴿يحسبه الظمان ماءً﴾ أي يظنه العطشان من بعيد ماءً جارياً ﴿حتى إذا جاءه﴾ أي حتى إذا وصل
إليه ﴿لم يجد شياً﴾ أي لم يرم ماءً ولا شرباً ، وإنما رأى سراباً فعظمت حسرته ﴿وجد الله عنده فوقه
حسابه﴾ أي وجد الله له بالمرصاد فوقه جزاء عمله ، فكذلك الكافر يحسب أن عمله ينفعه حتى إذا مات
وقدم على ربه لم يجد شيئاً من الأعمال لأنها ذهبت هباءً منثوراً ﴿والله سريع الحساب﴾ أي يعجل الحساب
لأنه لا يشغله محاسبة واحد عن آخر ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ هذا المثل الثاني لضلال الكفار والمعنى أو
مثلهم كظلمات متكاثفة في بحر عميق لا يدرك قعره ﴿يغشاه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه موجٌ من فوقه
سحاب﴾ أي من فوقه سحاب ﴿أي من فوق ذلك الموج الثاني سحاب كثيف
ظلمات بعضها فوق بعض﴾ أي هي ظلمات متكاثفة متراكمة بعضها فوق بعض قال قتادة : الكافر
يتقلب في خمس من الظلم : فكلامه ظلمة ، وعمله ظلمة ، ومدخله ظلمة ، ومخرجه ظلمة ، ومصيره إلى
الظلمات يوم القيامة إلى النار ^(٢) ﴿إذا أخرج يده لم يكد يراها﴾ هذا من تنمة التمثيل أي إذا أخرج ذلك
الإنسان الواقع في هذه الظلمات يده لم يقارب رؤيتها فإن ظلمة البحر ، وظلمة الموج ، وظلمة السحاب

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَفَّاتٍ كُلُّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ
 عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٢﴾ وَاللَّهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا
 ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ
 فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَرِ ﴿٤٤﴾

قد تكاثفت حتى حجبت عنه رؤية أقرب شيء إليه من شدة الظلمة فكذلك شأن الكافر يتخبط في ظلمات
 الكفر والضلال ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ أي ومن لم يهده الله للإيمان وينور قلبه بنور
 الإسلام لم يهتد أبداً الدهر ، ذكر تعالى لعمل الكافر مثالين : الأول لعمله الصالح ومثل له بالسراب
 الخادع ، والثاني لاعتقاده السيء ومثل له بالظلمات المتراكمة بعضها فوق بعض ثم ختم الآية الكريمة ذلك
 الختام الرائع ﴿ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور﴾ مقابل قوله في المؤمن ﴿نور على نور﴾ فكان
 هذا التمثيل والبيان في غاية الحسن والجمال ، فلله ما أروع تعبير القرآن !! ولما وصف سبحانه
 أنوار قلوب وظلمات قلوب الجاهلين أتبع ذلك بدلائل التوحيد فقال ﴿ألم تر أن
 الله يسبح له من في السموات والأرض﴾ أي ألم تعلم يا محمد علماً يقيناً أن الله العظيم الكبير يسبح له كل
 من في الكون من ملك ، وإنس ، وجن ، ينزهه ويقدسه ساكنوها ؟ ﴿والطير صافات﴾ أي والطير
 باسطات أجنحتهن حال الطيران تسبح ربها وتعبده كذلك بتسبيح ألهما وأرسلها إليه تعالى ﴿كلُّ قَدْ عَلِمَ
 صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ﴾ أي كلُّ من الملائكة والإنس والجن والطير قد أرشد وهدى إلى طريقته ومسلكه في عبادة
 الله ، وما كلف به من الصلاة والتسبيح ﴿والله عليم بما يفعلون﴾ أي لا تخفى عليه طاعتهم ولا تسبيحهم
 ﴿ولله ملك السموات والأرض﴾ أي هو المالك والمتصرف في الكون ، وجميع المخلوقات تحت ملكه يتصرف
 فيهم تصرف القاهر الغالب ﴿وإلى الله المصير﴾ أي وإليه مرجع الخلائق فيجازيهم على أعمالهم وهو تذكير
 يتضمن الوعيد ، ثم أشار تعالى إلى ظاهرة كونية تدل على قدرته و وحدانيته فقال ﴿ألم تر أن الله يزجي
 سحاباً﴾ أي يسوق بقدرته السحاب إلى حيث يشاء ﴿ثم يؤلف بينه﴾ أي يجمعه بعد تفرقه ﴿ثم يجعله
 ركاماً﴾ أي يجعله كثيفاً متراماً بعضه فوق بعض ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فتري المطر يخرج
 من بين السحاب الكثيف ﴿وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد﴾ أي وينزل من السحاب الذي هو
 كأمثال الجبال برداً ﴿فيصيب به من يشاء﴾ أي فيصيب بذلك البرد من شاء من العباد فيضره في زرعه وثمرته
 وماشيته ﴿ويصرفه عمن يشاء﴾ أي ويدفعه عمن يشاء فلا يضره قال الصاوي : كما ينزل المطر من السماء
 وهو نفعٌ لعباد كذلك ينزل منها البرد وهو ضررٌ للعباد ، فسبحان من جعل السماء منشأً للخير والشر^(١)
 ﴿يكاد سنا بركه﴾ أي يقرب ضوء برق السحاب ﴿يذهب بالأبصار﴾ أي يخطف أبصار الناظرين من شدة

يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ ﴿٤٤﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ ۚ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ ۚ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾ لَقَدْ أَنزَلْنَا آيَاتٍ مُّبَيِّنَاتٍ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾ وَيَقُولُونَ ءَمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مِّن بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ

إضاءته وقوة لمعانه ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ أي يتصرف فيهما بالطول والقصر ، والظلمة والنور ، والبرد والبرد ﴿إن في ذلك لعبرة﴾ أي إن فيما تقدم ذكره لدلالة واضحة ، وعظة بليغة على وجود الصانع المبدع ﴿لأولي الأبصار﴾ أي لذوي البصائر المستنيرة ، وخصهم بالذكر لأنهم المنتفعون حيث يتأملون فيجدون الماء والبرد ، والظلمة والنور تخرج من شيء واحد ، فسبحان القادر على كل شيء ﴿والله خلق كل دابة من ماء﴾ استدل على وحدانيته بتسبيح أهل السماء والأرض ، ثم بتصرف السحاب وإنزال المطر ، ثم بأحوال الحيوانات قال ابن كثير : يذكر تعالى قدرته التامة وسلطانه العظيم في خلقه أنواع المخلوقات على اختلاف أشكالها وألوانها وحركاتها وسكناتها من ماء واحد ^(١) ﴿فمنهم من يمشي على بطنه﴾ أي فمنهم من يزحف على بطنه كالحية والزواحف ﴿ومنهم من يمشي على رجلين﴾ كالإنسان والطير ﴿ومنهم من يمشي على أربع﴾ كالأنعام وسائر الدواب قال أبو حيان : قدم ما هو أظهر في القدرة وأعجب وهو الماشي بغير آلة من رجل وقوائم ، ثم الماشي على رجلين ، ثم الماشي على أربع ^(٢) ﴿يخلق الله ما يشاء﴾ أي يخلق تعالى بقدرته ما يشاء من المخلوقات ﴿إن الله على كل شيء قدير﴾ أي هو قادر على ما يشاء لا يمنعه مانع ، ولا يدفعه دافع قال الفخر : واعلم أن العقول قاصرة عن الإحاطة بأحوال أصغر الحيوانات على الكمال ، والاستدلال بها على الصانع ظاهر ، لأنه لو كان الأمر بتركيب الطبائع الأربع لكان في الكل على السوية ، فاختصاص كل واحد من هذه الحيوانات بأعضائها وأعمارها ومقادير أبدانها لا بد وأن يكون بتدبير قاهر حكيم ، سبحانه وتعالى عما يقول الجاحدون ^(٣) ﴿لقد أنزلنا آيات بينات﴾ أي لقد أنزلنا إليكم أيها الناس آيات واضحة ، دالات على طريق الحق والرشاد ﴿والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ أي يرشد من يشاء من خلقه إلى الدين الحق وهو الإسلام ، ولما ذكر دلائل التوحيد حذر من النفاق والمنافقين فقال ﴿ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا﴾ أي يقول المنافقون صدقنا بالله وبالرسول وأطعنا الله ورسوله ﴿ثم يتولى فريق منهم﴾ أي ثم يعرض جماعة منهم عن قبول حكمه ﴿من بعد ذلك﴾ أي من بعدما صدر منهم ما صدر من دعوى الإيمان ﴿وما أولئك بالمؤمنين﴾ أي وليس أولئك الذين يدعون الإيمان والطاعة بمؤمنين على الحقيقة قال الحسن : نزلت هذه الآية في المنافقين الذين كانوا يظهرن الإيمان ويسرون الكفر ﴿وإذا دُعوا إلى الله

لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِنْ يَكُنْ لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٥٢﴾

ورسوله ليحكم بينهم ﴿٤٨﴾ أي وإذا دعوا إلى حكم الله أو حكم رسوله ﴿٤٩﴾ إذا فريق منهم معرضون ﴿٥٠﴾ أي استنكفوا وأعرضوا عن الحضور إلى مجلس الرسول ﴿٥١﴾ وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعين ﴿٥٢﴾ أي وإن كان الحق بجانبهم جاءوا إلى رسول الله طائعين منقادين لعلمهم أنه عليه السلام يحكم بالحق قال الفخر : نبه تعالى على أنهم إنما يعرضون متى عرفوا أن الحق لغيرهم ؛ أما إذا عرفوه لأنفسهم عدلوا عن الإعراض وأذعنوا ببذل الرضا^(١) ﴿٤٩﴾ أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا ﴿٥٠﴾ أي هل في قلوبهم نفاق ؟ أم شكوا في نبوته عليه السلام ؟ ﴿٥١﴾ أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله ﴿٥٢﴾ أي أم يخافون أن يظلمهم رسول الله في الحكم ، والاستفهام للمبالغة في التوبيخ والذم كقول الشاعر :

ألست من القوم الذين تعاهدوا على اللؤم والفحشاء في سالف الدهر

﴿٥٠﴾ بل أولئك هم الظالمون ﴿٥١﴾ أي بل هم الكاملون في الظلم والعناد لإعراضهم عن حكم رسول الله ﴿٥٢﴾ إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا ﴿٥٣﴾ أي كان الواجب عليهم عندما يدعون إلى رسول الله للفصل بينهم وبين خصومهم أن يسرعوا ويقولوا سمعاً وطاعة ، فلو كان هؤلاء مؤمنين لفعلوا ذلك قال الطبري : ولم يقصد به الخبر ولكنه تأنيب من الله للمنافقين وتأديب منه لآخرين^(٢) ﴿٥٤﴾ وأولئك هم المفلحون ﴿٥٥﴾ أي وأولئك المسارعون إلى مرضاة الله هم الفائزون بسعادة الدارين ﴿٥٦﴾ ومن يطع الله ورسوله ﴿٥٧﴾ أي ومن يطع أمر الله وأمر رسوله في كل فعل وعمل ﴿٥٨﴾ ويخشى الله ويتقاه ﴿٥٩﴾ أي يخاف الله تعالى لما فرط منه من الذنوب ، ويمتثل أوامره ويجتنب زواجره ﴿٦٠﴾ فأولئك هم الفائزون ﴿٦١﴾ أي هم السعداء الناجون من عذاب الله الفائزون برضوانه . ذكر أن بعض بطارقة الروم سمع هذه الآية فأسلم وقال : إنها جمعت كل ما في التوراة والإنجيل .

البَلاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - إطلاق المصدر على إسم الفاعل للمبالغة ﴿الله نور السموات﴾ بمعنى منور لكل شيء بحيث كأنه عين نوره قال الشريف الرضي : وفي الآية إستعارة - على تفسير بعض العلماء - والمراد عندهم أنه هادي أهل السموات والأرض بصوادع برهانه ، ونواضع بيانه كما يهتدى بالأنوار الثاقبة والشهب اللامعة .

٢ - التشبيه التمثيلي ﴿مثل نوره كمشكاة فيها مصباح﴾ شبه نور الله الذي وضعه في قلب عبده المؤمن بالمصباح الوهاج في كوة داخل زجاجة تشبه الكوكب الدرّي في الصفاء والحسن الخ سمي تمثيلاً لأن وجه الشبه منتزع من متعدد ، وهو من روائع التشبيه .

٣ - الإطناب بذكر الخاص بعد العام تنوياً بشأنه ﴿عن ذكر الله وإقام الصلاة﴾ لأن الصلاة من ذكر الله .

٤ - جناس الاشتقاق ﴿تقلب فيه القلوب﴾ .

٥ - التشبيه التمثيلي الرائع ﴿والذين كفروا أعماهم كسراب﴾ الخ وكذلك في قوله ﴿أو كظلمات في بحر لجي﴾ وهذا من روائع التشبيه وبدائع التمثيل .

٦ - الطباق بين ﴿يصيب به . . ويصرفه﴾ .

٧ - الاستعارة اللطيفة ﴿يقلب الله الليل والنهار﴾ إذ ليس المراد التقلب المادي للأشياء الذاتية وإنما استعير لتعاقب الليل والنهار .

٨ - الجناس التام ﴿يذهب بالأبصار﴾ ﴿لأولي الأبصار﴾ المراد بالأولى العيون وبالثانية الألباب .

لطيفة : سمع بعض علماء الطبيعة من غير المسلمين هذه الآية ﴿أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج . . .﴾ الآية فسأل هل ركب محمد البحر ؟ فقالوا : لا فقال أشهد أنه رسول الله قالوا : وكيف عرفت ؟ فقال : إن هذا الوصف للبحر لا يعرفه إلا من عاش عمره في البحار ، ورأى الأهوال والأخطار ، فلما أخبرت أنه لم يركب البحر عرفت أنه كلام الله تعالى .

قال الله تعالى : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن أمرتهم ليخرجن . . إلى . . والله بكل شيء عليم﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٦٤) نهاية السورة الكريمة .

المناسكة : لما ذكر تعالى المنافقين وما هم عليه من صفات قبيحة ، أعقبه بذكر ما انطوت عليه نفوسهم من المكر والإحتيال والحلف الكاذب بأغلظ الأيمان ، وختم السورة الكريمة بالتحذير من سلوك طريق المنافقين .

اللفظة : ﴿الحلم﴾ : الاحتلام في المنام قال في القاموس : الحلم : الرؤيا جمعه أحلام ، والحلم والاحتلام : الجماع في النوم^(١) وقال الراغب : هو زمان البلوغ سمي به لكون صاحبه جديراً بالحلم أي الأناة وضبط النفس^(٢) ﴿القواعد﴾ جمع قاعد بغير تاء لأنه خاص بالنساء كحائض وطامث وهي المرأة التي قعدت عن الزواج وعن الولد ﴿أشتاتاً﴾ متفرقين جمع شت وهو الافتراق ، والشتات : الفرقة

﴿يتسللون﴾ التسلل : الخروج خفية يقال : انسلّ وتسلل إذا خرج مستتراً بطريق الخفية ﴿لوإذا﴾ اللواذ : أن يستتر بشيء مخافة من يراه .

سَبَبُ النُّزُولِ : روي أن رسول الله ﷺ بعث غلاماً من الأنصار يقال له : مُدْلَج إلى عمر بن الخطاب وقت الظهيرة ليدعوه فوجده نائماً ، فدقَّ عليه الغلام الباب ودخل ، فاستيقظ عمر وجلس فانكشف منه شيء فقال : وددت أن الله نهى أبناءنا ونساءنا وخدمنا عن الدخول في هذه الساعات إلا بإذن ، ثم انطلق إلى رسول الله ﷺ فوجد الآية قد أنزلت ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم . . ﴾ فخرَّ ساجداً شكراً لله تعالى (٣)

* وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أُمِّرْتُمْ لَيَخْرُجَنَّ قُلٌ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٥٦﴾ قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿٥٧﴾ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ

التفسير : ﴿وأقسموا بالله جهد أيمانهم﴾ أي حلف المنافقون بغاية الأيمان المغلظة ﴿لئن أُمِّرْتُمْ لَيَخْرُجَنَّ﴾ أي لئن أُمِّرْتُمْ بالخروج إلى الجهاد ليخرجن معك قال مقاتل : لما بين الله إعراض المنافقين وامتناعهم عن قبول حكمه عليه السلام أتوه فقالوا : لو أُمِّرْتُمْ أن نخرج من ديارنا وأموالنا ونسائنا لخرجنا ، وإن أُمِّرْتُمْ بالجهاد لجاهدنا فترلت (١) ﴿قل لا تقسموا﴾ أي لا تحلفوا فإن أيمانكم كاذبة ﴿طاعة معروفة﴾ أي طاعتكم لله ورسوله معروفة فإنها باللسان دون القلب ، وبالقول دون العمل ﴿إن الله خبير بما تعملون﴾ أي بصير لا يخفى عليه شيء من خفائكم ونواياكم ﴿قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول﴾ أي أطيعوا الله بإخلاص النية وترك النفاق ، وأطيعوا الرسول بالاستجابة لأمره والتمسك بهديه ﴿فإن تولَّوا﴾ أي فإن تولَّوا وتعرضوا عن طاعته ﴿فإنما عليه ما حُمِّل﴾ أي على الرسول ما كلف به من تبليغ الرسالة ﴿وعليكم ما حُمِّلتم﴾ أي وعليكم ما كلفتم به من السمع والطاعة واتباع أمره عليه السلام ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾ أي وإن أطعتم أمره فقد اهتديتم إلى طريق السعادة والفلاح ﴿وما على الرسول إلا البلاغ المبين﴾ أي ليس عليه إلا التبليغ الواضح للأمة ، ولا ضرر عليه إن خالفتم وعصيتم فإنه قد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ﴿وعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات﴾ أي وعد الله المؤمنين المخلصين الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ أي وعدهم بميراث الأرض وأن يجعلهم فيها خلفاء متصرفين فيها تصرف الملوك في ممالكهم ، كما استخلف المؤمنين قبلهم فملكهم ديار الكفار قال المفسرون : لما قدم رسول الله ﷺ وأصحابه المدينة رمتهم العرب عن قوس واحدة ، فكانوا لا يبيتون إلا في السلاح ، ولا يصبحون إلا في لأمتهم - أي سلاحهم - فقالوا أترون أنا نعيش حتى نبني

الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٥٦﴾ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِي النَّارِ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٥٧﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِيَسْتَعِذِّنَكُمْ الَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ

آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله عز وجل !! فتزلت الآية (١) ، وهذا وعدٌ ظهر صدقه بفتح مشارق الأرض ومغاربها لهذه الأمة وفي الحديث بشارة كذلك فقد قال ﷺ : (إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقتها ومغاربها ، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوي لي منها) (٢) ﴿وليمكننَّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم﴾ أي وليجعلنَّ دينهم - الإسلام - الذي ارتضاه لهم عزيزاً مكيناً عالياً على كل الأديان ﴿وليبذلنَّهم من بعد خوفهم أمناً﴾ أي وليغيرن حالهم التي كانوا عليها من الخوف والفرع إلى الأمن والاستقرار كقوله ﴿وآمنهم من خوف﴾ ﴿يعبدونني لا يشركون بي شيئاً﴾ استئناف بطريق الثناء عليهم كالتعليل للاستخلاف في الأرض أي يوحدونني ويخلصون لي العبادة ، لا يعبدون إلهاً غيري ﴿ومن كفر بعد ذلك﴾ أي فمن جحد شكر هذه النعم ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ هم الخارجون عن طاعة الله ، العاصون أمر الله قال أبو العالية : أي من كفر بهذه النعمة وليس يعني الكفر بالله قال الطبري : وهو أشبه بتأويل الآية لأن الله وعد الإنعام على هذه الأمة بما أخبر في هذه الآية بأنه منعم به عليهم ثم قال ﴿ومن كفر﴾ أي كفر هذه النعمة ﴿فأولئك هم الفاسقون﴾ (٣) ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾ أي أقيموا أيها المؤمنون الصلاة وأدوا الزكاة على الوجه الأكمل الذي يرضي الله ﴿وأطيعوا الرسول لعلكم ترحمون﴾ أي أطيعوا الرسول في سائر ما أمركم به رجاء الرحمة ﴿لا تحسبنَّ الذين كفروا معجزين في الأرض﴾ تسلياً للنبي ﷺ ووعده بالنصرة أي لا تظننَّ يا محمد الكافرين الذين عاندوك وكذبوك معجزين لله في هذه الحياة بل الله قادرٌ عليهم في كل حين وأن ﴿وماؤهم النار﴾ أي مرجعهم نار جهنم ﴿ولبئس المصير﴾ أي بشس المرجع والمآل الذي يصيرون إليه ﴿يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدقوا الله ورسوله وأيقنوا بشريعة الإسلام نظاماً وحكماً ومنهاجاً ليستأذنكم في الدخول عليكم العبيد والإماء الذين تملكونهم ملك اليمين ﴿والذين لم يبلغوا الحُلُمَ منكم﴾ أي والأطفال الذين لم يبلغوا مبلغ الرجال الأحرار ليستأذنوا أيضاً ﴿ثلاث مرات﴾ أي في ثلاثة أوقات ﴿من قبل صلاة الفجر﴾ أي في الليل وقت نومكم وخلودكم إلى الراحة ﴿وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة﴾ أي وقت الظهر حين تخلعون ثيابكم للقلولة ﴿ومن بعد صلاة العشاء﴾ أي وقت إرادتكم النوم واستعدادكم له ﴿ثلاث عورات لكم﴾ أي هي ثلاثة أوقات يختل فيها

وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ طَوْفُونَ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾
وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُوا كَمَا اسْتَعِذَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ وَاللَّهُ
عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ الَّتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ
مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٦٠﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ
وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ
تَسْتَرْكَبُوا الْعُورَاتُ فِيهَا بَادِيَةٌ وَالتَّكْشِفُ فِيهَا غَالِبٌ ، فَعَلَّمُوا عِبِيدَكُمْ وَخُدَمَكُمْ وَصَبْيَانَكُمْ أَلَّا يَدْخُلُوا
عَلَيْكُمْ فِي هَذِهِ الْأَوْقَاتِ إِلَّا بَعْدَ الِاسْتِئْذَانِ ﴿٦١﴾ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَهُنَّ ﴿٦٢﴾ أَي لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا
عَلَى الْمَالِكِ وَالصَّبْيَانِ حَرَجٌ فِي الدَّخُولِ عَلَيْكُمْ بَغَيْرِ اسْتِئْذَانٍ بَعْدَ هَذِهِ الْأَوْقَاتِ الثَّلَاثَةِ ﴿٦٣﴾ طَوَافُونَ عَلَيْكُمْ
بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴿٦٤﴾ أَي لَأَنَّهُمْ خُدَمُكُمْ يَطُوفُونَ عَلَيْكُمْ لِلخِدْمَةِ وَغَيْرِ ذَلِكَ قَالَ أَبُو حَيَّانَ : أَي يَمْضُونَ
وَيَجِثُونَ وَيَدْخُلُونَ عَلَيْكُمْ فِي الْمَنَازِلِ غَدَوَةً وَعَشِيَّةً بَغَيْرِ إِذْنٍ إِلَّا فِي تِلْكَ الْأَوْقَاتِ ^(١) ﴿٦٥﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ
الْآيَاتِ ﴿٦٦﴾ أَي مِثْلَ ذَلِكَ التَّوْضِيحِ وَالْبَيَانِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْأَحْكَامَ الشَّرْعِيَّةَ لِتَتَأَدَّبُوا بِهَا ﴿٦٧﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦٨﴾
أَي عَالِمٌ بِأُمُورِ خَلْقِهِ ، حَكِيمٌ فِي تَدْبِيرِهِ لَهُمْ ﴿٦٩﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمْ الْحُلُمَ ﴿٧٠﴾ أَي وَإِذَا بَلَغَ هَؤُلَاءِ الْأَطْفَالُ
الصِّغَارَ مَبْلُغَ الرِّجَالِ وَأَصْبَحُوا فِي سِنِّ التَّكْلِيفِ ﴿٧١﴾ فَلْيَسْتَأْذِنُوا كَمَا اسْتَأْذَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴿٧٢﴾ أَي فَعَلِمُوهُمْ
الْأَدَبَ السَّامِيَّ أَنْ يَسْتَأْذِنُوا فِي كُلِّ الْأَوْقَاتِ كَمَا يَسْتَأْذِنُ الرِّجَالُ الْبَالِغُونَ ﴿٧٣﴾ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ ﴿٧٤﴾ أَي
يَفْصِّلُ لَكُمْ أُمُورَ الشَّرِيعَةِ وَالِدِينِ ﴿٧٥﴾ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٧٦﴾ أَي عَلِيمٌ بِخَلْقِهِ حَكِيمٌ فِي تَشْرِيعِهِ قَالَ الْبَيْضاوِيُّ :
كَرَّرَهُ تَأْكِيداً وَمِبَالِغَةً فِي الْأَمْرِ بِالْإِسْتِئْذَانِ ^(٢) ﴿٧٧﴾ وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ ﴿٧٨﴾ أَي وَالنِّسَاءُ الْعَجَائِزُ اللَّوَاتِي قَعَدْنَ عَنْ
التَّصَرُّفِ وَطَلَبِ الزَّوْاجِ لِكِبَرِ سِنِهِنَّ ﴿٧٩﴾ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا ﴿٨٠﴾ أَي لَا يَطْمَعْنَ فِي الزَّوْاجِ وَلَا يَرْغِبْنَ فِيهِ
لِانْعِدَامِ دَوَافِعِ الشَّهْوَةِ فِيهِنَّ ﴿٨١﴾ فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَنْ يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ ﴿٨٢﴾ أَي لَا حَرَجَ وَلَا إِثْمَ عَلَيْهِنَّ فِي أَنْ
يَضَعْنَ بَعْضَ ثِيَابِهِنَّ كَالرِّدَاءِ وَالْجُلْبَابِ ، وَيُظْهِرْنَ أَمَامَ الرِّجَالِ بِمَلَابِسِهِنَّ الْمَعْتَادَةِ الَّتِي لَا تَلْفِتُ انْتِبَاهًا ، وَلَا
تُثِيرُ شَهْوَةً ﴿٨٣﴾ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ ﴿٨٤﴾ أَي غَيْرَ مُتَظَاهِرَاتٍ بِالزَّيْنَةِ لِيَنْظُرَ إِلَيْهِنَّ قَالَ أَبُو حَيَّانَ : وَحَقِيقَةُ التَّبَرُّجِ
إِظْهَارُ مَا يَجِبُ إِخْفَاؤُهُ ، وَرَبُّ عَجُوزٍ شَمَطَاءٍ يَبْدُو مِنْهَا الْخَرَصُ عَلَى أَنْ يَظْهَرَ بِهَا جَمَالُ ^(٣) ﴿٨٥﴾ وَأَنْ يَسْتَعْفِفْنَ
خَيْرٌ لَهُنَّ ﴿٨٦﴾ أَي وَأَنْ يَسْتَرْنَ بَارْتِدَاءَ الْجُلْبَابِ وَلبَسِ الثِّيَابِ كَمَا تَلْبَسُهُ الشَّابَّاتُ مِنَ النِّسَاءِ ، مِبَالِغَةً فِي التَّسْتَرِ
وَالْتَعَفُّفِ خَيْرٌ لَهُنَّ وَأَكْرَمُ ، وَأَزْكَى عِنْدَ اللَّهِ وَأَطْهَرُ ﴿٨٧﴾ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٨٨﴾ أَي يَعْلَمُ خَفَايَا النُّفُوسِ وَبِحَاجِزِي
كُلِّ إِنْسَانٍ بِعَمَلِهِ ، وَفِيهِ وَعْدٌ وَتَحْذِيرٌ ﴿٨٩﴾ لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ ﴿٩٠﴾
أَي لَيْسَ عَلَى أَهْلِ الْأَعْذَارِ « الْأَعْمَى ، وَالْأَعْرَجُ ، وَالْمَرِيضُ » حَرَجٌ وَلَا إِثْمٌ فِي الْقَعُودِ عَنِ الْغَزْوِ لُضْعْفِهِمْ
وَعَجْزِهِمْ ^(٤) ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ﴿٩٢﴾ أَي وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ إِثْمٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِ

(١) البحر ٤٧٢/٦ . (٢) البيضاوي ٦٢/٢ . (٣) البحر ٤٧٣/٦ . (٤) هذا قول الحسن وابن زيد وهو الظاهر واختاره صاحب البحر والكشاف وقيل المراد نفى الحرج عن أهل الأعذار أن يأكلوا مع الأصحاء واختاره الطبري والرازي .

بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَلَتِكُمْ
 أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ، أَوْ صَدِيقِكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعًا أَوْ أَشْتَاتًا فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا
 عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُبَرَكََةً طَيِّبَةً كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١﴾ إِنَّمَا
 الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ

أزواجكم وعيالكم قال البيضاوي : فيدخل فيها بيوت الأولاد لأن بيت الولد كبيته لقوله عليه السلام : إن
 أطيب ما يأكل المرء من كسبه ، وإن ولده من كسبه ^(١) ﴿أو بيوت آبائكم أو بيوت أمهاتكم ، أو بيوت
 إخوانكم أو بيوت أخواتكم ، أو بيوت أعمامكم أو بيوت عماتكم ، أو بيوت أخوالكم أو بيوت خالاتكم﴾
 أي لا حرج في الأكل من بيوت هؤلاء الأقارب قال الرازي : والظاهر أن إباحة الأكل لا تتوقف على
 الاستئذان لأن العادة أن هؤلاء القوم تطيب أنفسهم بأكل الأقارب ^(٢) ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ أي البيوت
 التي توكلون عليها وتملكون مفاتيحها في غياب أهلها قالت عائشة : كان المسلمون يذهبون مع رسول الله
 في الغزو ويدفعون مفاتيحهم إلى ضمانتهم ويقولون : قد أحللنا لكم الأكل منها فكانوا يقولون : إنه لا
 يحل لنا أن نأكل ، إنهم أذنوا لنا عن غير طيب أنفسهم وإنما نحن أمناء فأنزل الله ﴿أو ما ملكتم مفاتيحه﴾ ^(٣)
 ﴿أو صديقكم﴾ أي أو بيوت أصدقائكم وأصحابكم قال قتادة : إذا دخلت بيت صديقك فلا بأس أن تأكل
 بغير إذنه ﴿ليس عليكم جناح أن تأكلوا جميعاً وأشتاتاً﴾ أي ليس عليكم إثم أو حرج أن تأكلوا مجتمعين أو
 متفرقين قال المفسرون : نزلت في حي من كنانة كان الرجل منهم لا يأكل وحده ، يمكث يومه فإن لم يجد
 من يؤاكله لم يأكل شيئاً : وربما كانت معه الإبل الحفل فلا يشرب من ألبانها حتى يجد من يشاربه فأخبرهم
 تعالى بأن الرجل إذا أكل وحده لا حرج عليه ﴿فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم﴾ أي إذا دخلتم بيوتا
 مسكونة فسلموا على من فيها من الناس ﴿تحية من عند الله مباركة طيبة﴾ أي حيّوهم بتحية الإسلام
 « السلام عليكم » وهي التحية المباركة الطيبة التي شرعها الله لعباده المؤمنين قال القرطبي : وصفها
 بالبركة لأن فيها الدعاء واستجلاب المودة ، ووصفها بالطيب لأن سامعها يستطيبها ^(٤) ﴿كذلك يبين الله لكم
 الآيات لعلكم تعقلون﴾ قال ابن كثير : لما ذكر تعالى في هذه السورة الكريمة من الأحكام المحكمة ،
 والشرائع المبرمة ، نبّه عباده على أنه يبين لهم الآيات بيانا شافيا ليتدبروها ويتعقلوها لعلهم يعقلون ^(٥) ﴿إنما
 المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله﴾ أي إنما المؤمنون الكاملون في الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله
 تصديقا جازما لا يخالجه شك ﴿وإذا كانوا معه على أمر جامع﴾ أي وإذا كانوا مع الرسول في أمر هام فيه
 مصلحة للمسلمين ﴿لم يذهبوا حتى يستأذنوه﴾ أي لم يتركوا مجلسه حتى يستأذنوه فيأذن لهم قال

(١) البيضاوي ٢/ ٦٣ . (٢) التفسير الكبير ٢٤/ ٣٦ . (٣) ابن كثير ٢/ ٦١٩ المختصر

(٤) القرطبي ١٢/ ٣١٩ . (٥) ابن كثير ٢/ ٦٢٠ المختصر

يَسْتَعِذُّونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا أَسْتَعِذُّوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٧﴾ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨﴾ أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قَدْ يَعْلَمُ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ وَيَوْمَ يُرْجَعُونَ إِلَيْهِ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٩﴾

المفسرون : نزلت هذه الآية في وقت حفر الخندق ، فإن بعض المؤمنين كانوا يستأذنون في الانصراف لضرورة ، وكان المنافقون يذهبون بغير استئذان فنزلت تمدح المؤمنين الخالصين ، وتعرض بدم المنافقين ﴿إن الذين يستأذنونك أولئك الذين يؤمنون بالله ورسوله﴾ هذا توكيد لما تقدم ذكره تفخيماً وتعظيماً لشأن الرسول ﷺ أي إن الذين يستأذنونك يا محمد أولئك هم المؤمنون حقاً قال البيضاوي : أعاده مؤكداً على أسلوب أبلغ فإن جعل المستأذنين هم المؤمنين عكس الأسلوب الأول وفيه تأكيد للأول بذكر لفظ الله ورسوله فيكون مصداقاً ودليلاً على صحة الإيمان ^(١) ﴿فإذا استأذنتك لبعض شأنهم﴾ أي فإذا استأذنتك هؤلاء المؤمنون لبعض شئونهم ومهامهم ^(٢) ﴿فأذن لمن شئت منهم﴾ أي فاسمح لمن أحببت بالانصراف إن كان فيه حكمة ومصلحة ﴿واستغفر لهم الله﴾ أي وادع الله لهم بالعفو والمغفرة فإن الاستئذان ولو لعذر قصور لأنه تقديم لأمر الدنيا على أمر الدين ﴿إن الله غفور رحيم﴾ أي عظيم العفو واسع الرحمة ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً﴾ أي لا تنادوا الرسول باسمه كما ينادي بعضكم بعضاً باسمه بل قولوا : يا نبي الله ويا رسول الله تفخيماً لمقامه وتعظيماً لشأنه قال أبو حيان : لما كان التداعي بالأسماء على عادة البداءة أمروا بتوقير رسول الله ﷺ ودعائه بأحسن ما يدعى به نحو يا رسول الله ، يا نبي الله ، ألا ترى إلى بعض جفاة من أسلم كان يقول يا محمد فنهوا عن ذلك ^(٣) قال قتادة : أمرهم تعالى أن يفخموه ويشرفوه ﴿قد يعلم الله الذين يتسللون منكم لواذاً﴾ أي قد علم الله الذين ينسلون قليلاً قليلاً ويخرجون من الجماعة في خفية يستتر بعضهم ببعض قال الطبري : واللواذ هو أن يلوذ القوم بعضهم ببعض ، يستتر هذا بهذا وهذا بهذا ^(٤) ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره﴾ أي فليخف الذين يخالفون أمر الرسول ويتركون سبيله ومنهجه وسنته ﴿أن يصيبهم فتنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي تنزل بهم محنة عظيمة في الدنيا أو ينالهم عذاب شديد في الآخرة ﴿ألا إنَّ لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جل وعلا ما في الكون ملكاً وخلقاً وعبداً ﴿قد يعلم ما أنتم عليه﴾ أي قد علم ما في نفوسكم من الإيمان أو النفاق ،

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٤٤٠/٣

(٢) قال ابن عباس : « إن عمر استأذن النبي ﷺ في العمرة فأذن له ثم قال : (يا أبا حفص لا تنسنا من صالح دعائك) »

(٣) البحر ٤٧٦/٦ (٤) الطبري ١٣٥/١٨

والإخلاص أو الرياء ﴿وَيَوْمَ يَرْجِعُونَ إِلَيْهِ فَيَنْبِئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا﴾ أي ويوم القيامة يرجعون إليه فيخبرهم بما فعلوا في الدنيا من صغير وكبير ، وجليل وحقير ويجازي كلا بعمله ﴿والله بكل شيء عليم﴾ أي لا يخفى عليه خافية لأن الكل خلقه وملكه .

البَلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبيان نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة اللطيفة ﴿جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ شبه الإيمان التي يحلف بها المنافقون بالغين فيها أقصى المراتب في الشدة والتوكيد بمن يجهد نفسه في أمر شاق لا يستطيعه ويذل أقصى وسعه وطاقته بطريق الاستعارة .

٢ - المشاكلة ﴿عليه ما حُمِّلَ وعليكم ما حُمِّلْتُمْ﴾ أي عليه أمر التبليغ وعليكم وزر التكذيب .

٣ - الطباق بين الخوف والأمن ﴿من بعد خوفهم أمناً﴾ وكذلك بين الجميع والأشتات ﴿جميعاً أو أشتاتاً﴾ لأن المعنى مجتمعين ومتفرقين .

٤ - الإطناب بتكرير لفظ الحرج لترسيخ الحكم في الأذهان ﴿ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج﴾ .

٥ - صيغة المبالغة ﴿غفور رحيم﴾ .

فكائِدَة : قال بعض السلف : من أمر السُّنَّة على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولاً وفعلاً نطق بالبدعة لقوله تعالى ﴿وإن تطيعوه تهتدوا﴾^(١) .

لطيفة : قيل لبعضهم : من أحب إليك أخوك أم صديقك ؟ فقال : لا أحب أخي إذا لم يكن صديقي . وقال ابن عباس : « الصديق أوكد من القريب ألا ترى استغاثة الجهنميّين حين قالوا ﴿فما لنا من شافعين﴾ ولا صديق حميم ﴾ ولم يستغيثوا بالآباء والأمهات »^(٢) .

تبذير : كان بعض العرب يرى أحدهم أن عاراً وخزياً عليه أن يأكل وحده ويبقى جائعاً حتى يجد من يؤاكله ويشاربه واشتهر هذا عن حاتم فكان يقول :

إذا ما صنعت الزاد فالتمسي له أكيلاً فإنني لست آكله وحدي

وهذا من مآثر العرب ومفاخرهم ، فقد اشتهروا بالجوّد والكرم ، وقرى الضيف .

« تم بحمد الله تفسير سورة النور »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الفرقان مكية وهي تعنى بشئون العقيدة ، وتعالج شبهات المشركين حول رسالة محمد ﷺ وحول القرآن العظيم ، ومحور السورة يدور حول إثبات صدق القرآن ، وصحة الرسالة المحمدية ، وحول عقيدة الإيمان بالبعث والجزاء ، وفيها بعض القصص للعظة والاعتبار .

* ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن الذي تفنن المشركون بالطعن فيه ، والتكذيب بآياته ، فتارة زعموا أنه أساطير الأولين ، وأخرى زعموا أنه من اختلاق محمد أعانه عليه بعض أهل الكتاب ، وثالثة زعموا أنه سحرٌ مبین ، فردَّ الله تعالى عليهم هذه المزاعم الكاذبة ، والأوهام الباطلة ، وأقام الأدلة والبراهين على أنه تنزيل رب العالمين ، ثم تحدثت عن موضوع الرسالة التي طالما خاض فيها المشركون المعاندون ، واقترحوا أن يكون الرسول ملكاً لا بشراً ، وأن تكون الرسالة - على فرض تسليم الرسول من البشر - خاصة بذوي الجاه والثراء ، فتكون لإنسان غني عظيم ، لا لفقر يتييم ، وقد ردَّ الله تعالى شبهتهم بالبرهان القاطع ، والحجة الدامغة ، التي تقصم ظهر الباطل .

* ثم ذكرت الآيات فريقاً من المشركين عرفوا الحقَّ وأقروا به ، ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وذكرت منهم « عقبه بن أبي معيط » الذي أسلم ثم ارتد عن الدين بسبب صديقه الشقي « أبي بن خلف » وقد سماه القرآن الكريم بالظالم ﴿ ويوم يعرض الظالم على يديه ﴾ الآية وسمى صديقه بالشیطان .

* وفي ثانيا السورة الكريمة جاء ذكر بعض الأنبياء إجمالاً وجاء الحديث عن أقوامهم المكذبين ، وما حلَّ بهم من النكال والدمار نتيجة لطغيانهم وتكذيبهم لرسول الله كقوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرسّ وقوم لوط ، وغيرهم من الكافرين الجاحدين ، كما تحدثت السورة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وعن عجائب صنعه وأثار خلقه في هذا الكون البديع ، الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهد من شواهد العظمة والجلال .

* وختمت السورة ببيان صفات عباد الرحمن ، وما أكرمهم الله به من الأخلاق الحميدة التي استحقوا بها الأجر العظيم في جنات النعيم .

التسمية : سميت السورة الكريمة «سورة الفرقان» لأن الله تعالى ذكر فيها هذا الكتاب المجيد الذي أنزله على عبده محمد ﷺ ، وكان النعمة الكبرى على الإنسانية لأنه النور الساطع والضياء المبين ، الذي فرق الله به بين الحق والباطل ، والنور والظلام ، والكفر والإيمان ، ولهذا كان جديراً بأن يسمى الفرقان .

* * *

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴿٢﴾ وَأَتَّخِذُوا مِنْ دُونِهِ ءَالِهَةً لَا يَخْلُقُونَ

اللغة : ﴿تبارك﴾ من البركة وهي كثرة الخير وزيادته ويأتي بمعنى التمجيد والتعظيم قال الشاعر :

تباركت لا معطٍ لشيء منتهى وليس لما أعطيت يا رب مانع^(١)

﴿نذيراً﴾ النذير : المحذر من الهلاك ﴿نشوراً﴾ النشور : الإحياء بعد الموت ﴿مقرنين﴾ مربوطين بالسلاسل قال عمرو بن كلثوم :

فأبوا بالنهب وبالسبايا وأبنا بالملوك مقرئينا^(٢)

﴿ثبوراً﴾ هلاكاً ودماراً ﴿بوراً﴾ مأخوذ من البوار وهو الهلاك قال أبو عبيدة : يقال رجلٌ بور ورجال بور ومعناه هالك ، والبوار الهلاك^(٣) .

التفسير : ﴿تبارك الذي نزل الفرقان على عبده﴾ أي تمجد وتعظم وتكاثر خير الله الذي نزل القرآن العظيم الفارق بين الحق والباطل على عبده محمد ﷺ ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون محمد نبياً للخلق أجمعين مخوفاً لهم من عذاب الله ﴿الذي له ملك السموات والأرض﴾ أي هو تعالى المالك لجميع ما في السموات والأرض خلقاً وملكاً وعبيداً ﴿ولم يتخذ ولداً﴾ أي وليس له ولد كما زعم اليهود والنصارى ﴿ولم يكن له شريك في الملك﴾ أي وليس معه إله كما قال عبدة الأوثان ﴿وخلق كل شيء فقدرة تقدير﴾ أي أوجد كل شيء بقدرته مع الاتقان والإحكام قال في التسهيل : الخلق عبارة عن الإيجاد بعد العدم ، والتقدير عبارة عن اتقان الصنعة وتخصيص كل مخلوق بمقداره وصنعته ، وزمانه ومكانه ، ومصلحته وأجله وغير ذلك^(٤) وقال الرازي : وصف سبحانه ذاته بأربع أنواع من صفات الكبرياء : الأول : أنه المالك للسموات والأرض وهذا كالتنبيه على وجوده والثاني : أنه هو المعبود أبداً والثالث : أنه المنفرد بالالوهية والرابع : أنه الخالق لجميع الأشياء مع الحكمة والتدبير^(٥) ﴿واتخذوا من دونه آلهة﴾ أي

(١) البيت للطرماح وانظر البحر ٤٨٠/٦ . (٢) القرطبي ٨/١٣ . (٣) التفسير الكبير ٦٣/٢٤ . (٤) التسهيل ٧٤/٣ . (٥) التفسير الكبير

شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا ﴿٦﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءَ ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٧﴾ وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٨﴾ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٩﴾ وَقَالُوا مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ لَوْلَا أَنْزَلَ إِلَهُكَ إِلَهًا مَعَهُ نَذِيرًا ﴿١٠﴾ أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١١﴾

عبد المشركون غير الله من الأوثان والأصنام ﴿لا يخلقون شيئاً وهم يُخلقون﴾ أي لا يقدرُونَ على خلق شيء أصلاً بل هم مصنوعون بالنحت والتصوير فكيف يكونون آلهة مع الله ؟ ﴿ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً﴾ أي لا يستطيعون دفع ضرر عنهم ولا جلب نفع لهم ﴿ولا يملكون موتاً ولا حياةً ولا نشوراً﴾ أي لا تملك أن تميت أحداً ، ولا أن تحيي أحداً ولا أن تبعث أحداً من الأموات قال الزمخشري : المعنى أنهم أثروا على عبادة الله عبادة آلهة لا يقدرُونَ على شيء ، وإذا عجزوا عن دفع الضرر وجلب النفع الذي يقدر عليه العباد كانوا عن الموت والحياة والنشور الذي لا يقدر عليها إلا الله أعجز^(١) ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه﴾ أي وقال كفار قريش ما هذا القرآن إلا كذب اختلقه محمد من تلقاء نفسه ﴿وأعانه عليه قوم آخرون﴾ أي وساعده على هذا الاختلاق قومٌ من أهل الكتاب ﴿فقد جاءوا ظلماً وزوراً﴾ أي جاءوا بالظلم والبهتان حيث جعلوا العربي يتلقن من العجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع فصحاء العرب فكان كلامهم فيه محض الكذب والزور ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها﴾ أي وقالوا في حق القرآن أيضاً إنه خرافات الأمم السابقين أمر أن تكتب له ﴿فهي تُملى عليه بكرةً وأصيلًا﴾ أي فهي تُلقى عليه وتُقرأ عليه ليحفظها صباحاً ومساءً قال ابن عباس : والقائل هو «النضر بن الحارث» وأتباعه والإفك أسوأ الكذب^(٢) ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض﴾ هذا رد عليهم في تلك المزاعم أي قل لهم يا محمد أنزله الله العليم القدير الذي لا يخفى عليه شيء في السموات والأرض ﴿إنه كان غفوراً رحيمًا﴾ أي إنه تعالى لم يعجل لكم العقوبة بل أمهلكم رحمة بكم لأنه واسع المغفرة رحيم بالعباد ﴿وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق﴾ أي وقال المشركون ما لهذا الذي يزعم الرسالة يأكل الطعام كما نأكل ، ويمشي في الأسواق لطلب المعاش كما نمشي ؟ إنه ليس بملك ولا ملك ، لأن الملائكة لا تأكل ، والملوك لا تتبذل في الأسواق ، وفي قولهم ﴿ما لهذا الرسول﴾ مع إنكارهم لرسالته تهكم واستهزاء ﴿لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً﴾ أي هلاً بعث الله معه ملكاً ليكون له شاهداً على صدق ما يدعيه ! ﴿أو يلقى إليه كنز﴾ أي يأتيه كنز من السماء فيستعين به ويستغني عن طلب المعاش ﴿أو تكون له جنة يأكل منها﴾ أي يكون له بستان يأكل من ثماره ﴿وقال الظالمون إن

أَنْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلُ لَكَ قُصُورًا ﴿١٠﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا ﴿١١﴾ إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغِيظًا وَزَفِيرًا ﴿١٢﴾

تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا ﴿١﴾ أي وقال الكافرون ما تتبعون أيها المؤمنون إلا إنساناً سحر فغلب على عقله فهو يزعم أنه رسول الله ﴿٢﴾ انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها ﴿٣﴾ أي انظر كيف قالوا في حقك يا محمد تلك الأقاويل العجيبة ، الجارية لغرابتها مجرى الأمثال ! وكيف اخترعوا تلك الصفات والأحوال الشاذة فضلوها بذلك عن الهدى ! ﴿٤﴾ فلا يستطيعون سبيلاً ﴿٥﴾ أي فلا يجدون طريقاً إلى الحق بعد أن ضلوا عنه بتكذيبك وإنكار رسالتك ، ذكروا له عليه الصلاة والسلام خمس صفات وزعموا أنها تخل بالرسالة زعماً منهم أن فضيلة الرسول على غيره تكون بأمور جسمانية وهي غاية الجهالة والسفاهة فرد الله عليهم بأمرين : الأول : تعجيب الرسول ﷺ من تناقضهم فتارة يقولون عنه شاعر ، وتارة ساحر ، وأخرى يقولون إنه مجنون حتى أصبحت تلك الأقوال الغريبة الشاذة ، والأمور العجيبة جارية مجرى الأمثال والثاني : أن الله تعالى لو أراد لأعطى نبياً خيراً مما اقترحوا وأفضل مما يتصورون وهو المراد بقوله ﴿٦﴾ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ﴿٧﴾ أي تمجد وتعظم الله الكبير الجليل الذي لو أراد لجعل لك خيراً من ذلك الذي ذكره من نعيم الدنيا ﴿٨﴾ جنات تجري من تحتها الأنهار ﴿٩﴾ أي لو شاء لأعطاك بساتين وحدائق تسير فيها الأنهار لا جنة واحدة كما قالوا ﴿١٠﴾ ويجعل لك قصوراً ﴿١١﴾ أي ويجعل لك مع الحقائق القصور الرفيعة المشيدة كما هو حال الملوك قال الضحاك : لما عبر المشركون رسول الله ﷺ بالفاقة حزن عليه السلام فنزل جبريل معزياً له فبينما النبي وجبريل يتحدثان إذ فُتِحَ باب من السماء فقال جبريل : أبشر يا محمد هذا رضوان خازن الجنة قد أتاك بالرضى من ربك فسلم عليه وقال : ربك يخبرك بين أن تكون نبياً ملكاً ، وبين أن تكون نبياً عبداً - ومعه سبط من نور يتلأل - ثم قال : هذه مفاتيح خزائن الأرض فنظر رسول الله ﷺ إلى جبريل كالمستشير فأوماً بيده أن تواضع فقال رسول الله ﷺ ﴿١٢﴾ بل نبياً عبداً فكان عليه السلام بعد ذلك لا يأكل متكاً حتى فارق الدنيا ﴿١٣﴾ بل كذبوا بالساعة ﴿١٤﴾ أي بل كذبوا بالقيامة ﴿١٥﴾ واعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً ﴿١٦﴾ أي وهياناً لمن كذب بالآخرة ناراً شديدة الاستعار قال الطبري : المعنى ما كذب هؤلاء المشركون بالله وأنكروا ما جئتهم به من الحق من أجل أنك تأكل الطعام وتمشي في الأسواق ولكن من أجل أنهم لا يوقنون بالمعاد تكذيباً منهم بالقيامة وأعدنا لمن كذب بالبعث ناراً تُسعر عليهم وتتقد ﴿١٧﴾ إذا رأتهم من مكان بعيد ﴿١٨﴾ أي إذا رأت جهنم هؤلاء المشركين من مسافة بعيدة وهي خمسمائة عام ﴿١٩﴾ سمعوا لها تغيظاً وزفيراً ﴿٢٠﴾ أي سمعوا صوت لهيها وغليناها كالغضبان إذا غلا صدره من الغيظ وسمعوا لها صوتاً كصوت الحمار وهو الزفير قال ابن عباس : إن الرجل ليجر إلى النار فتشبهق إليه النار شهوق البغلة إلى الشعر ،

وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا ﴿١٤﴾ لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا ﴿١٥﴾ قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا ﴿١٦﴾ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ خَالِدِينَ كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا ﴿١٧﴾ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ ﴿١٨﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتُمُ وَعِبَادَهُمْ حَتَّى

وتزفر زفرة لا يبقى أحد إلا خاف^(١) ، وتقييد الرؤية بالبعد ﴿من مكان بعيد﴾ فيه مزيد تهويل لأمرها ﴿وإذا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا﴾ أي وإذا أُلْقُوا في جهنم في مكان ضيق قال ابن عباس : تضيق عليهم ضيق الزج في الرمح^(٢) - الزج : الحديدة التي في أسفل الرمح - ﴿مُقَرَّنِينَ﴾ أي مصفدين قد قرنت أيديهم إلى أعناقهم بالسلاسل ﴿دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ أي دعوا في ذلك المكان على أنفسهم بالويل والهلاك يقولون : يا هلاكنا ، نادوه نداء المتمني للهلاك ليسلموا عما هو أشد منه كما قيل : أشد من الموت ما يتمنى معه الموت ﴿لَا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا﴾ أي يقال لهم : لا تدعوا اليوم بالهلاك على أنفسكم مرة واحدة بل ادعوا مرات ومرات ، فإن ما أنتم فيه من العذاب الشديد يستوجب تكرير الدعاء في كل حين وأن ، وفيه إقناط لهم من استجابة الدعاء وتخفيف العذاب ﴿قُلْ أَذَلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ ؟ أي قل لهم يا محمد على سبيل التقرير والتهكم أذلك السعير خير أم جنة الخلود التي وعدوها المتقون ؟ قال ابن كثير : يقول الله تعالى يا محمد : هذا الذي وصفناه لك من حال الأشقياء الذين تتلقاهم جهنم بوجه عبوس وتغيظ وزفير ، ويلقون في أماكنها الضيقة مقرنين لا يستطيعون حراكاً ولا فكاً كما هم فيه ، أهذا خير أم جنة الخلد التي وعدوها الله المتقين من عباده^(٣) ؟ قال الإمام الفخر : فإن قيل كيف يقال العذاب خير أم جنة الخلد ؟ وهل يجوز أن يقول العاقل : السكر أحلى أم الصبر ؟ قلنا : هذا يحسن في معرض التقرير كما إذا أعطى السيد عبده مالا فتمرد وأبى واستكبر فيضربه ضرباً وجيعاً ويقول على سبيل التوبيخ : أهذا أطيب أم ذاك^(٤) ؟ ﴿كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءٌ وَمَصِيرًا﴾ أي كانت لهم ثواباً ومرجعاً ﴿لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ أي لهم في الجنة ما يشاءون من النعيم ﴿خَالِدِينَ﴾ أي ماكثين فيها أبداً سرمداً بلا زوال ولا انقضاء ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولًا﴾ أي كان ذلك الجزاء وعداً على ذي الجلال حقيقة بأن يُسأل ويطلب لكونه مما يتنافس فيه المتنافسون ، وهو وعد واجب ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب - يوم القيامة - حين يجمع الله الكفار والأصنام وكل من عبد من دون الله كالملائكة والمسيح قال مجاهد : هو عيسى وعزير والملائكة ﴿فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضَلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي فيقول تعالى للمعبودين تقريراً لعبدتهم : أنتم دعوتهم هؤلاء إلى عبادتكم ؟ ﴿أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ أي أم هم ضلوا الطريق فعبدوكم من تلقاء أنفسهم ؟ ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ﴾ أي قال

نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْمًا بُورًا ﴿١٨﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا وَمَنْ يَظْلِم مِثْرَكُمْ نَذِقُهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿١٩﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا ﴿٢١﴾

المعبودون تعجباً مما قيل لهم : تنزهت يا الله عن الأنداد ﴿ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء﴾ أي ما يحق لنا ولا لأحد من الخلق أن يعبد غيرك ، ولا أن يشرك معك سواك ﴿ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر﴾ أي ولكن أكثرت عليهم وعلى آبائهم النعمة - وكان يجب عليهم شكرها والإيمان بما جاءت به الرسل - فكان ذلك سبباً للإعراض عن ذكرك وشكرك ﴿وكانوا قوماً بوراً﴾ أي وكانوا قوماً هالكين ، قال تعالى توبيخاً للكفرة ﴿فقد كذبوكم بما تقولون﴾ أي فقد كذبكم هؤلاء المعبودون في قولكم إنهم آلهة ﴿فما تستطيعون صرفاً ولا نصراً﴾ أي فما تستطيعون أيها الكفار دفعاً للعذاب عنكم ولا نصراً لأنفسكم من هذا البلاء ﴿ومن يظلم منكم نذقه عذاباً كبيراً﴾ أي ومن يشرك منكم بالله فيظلم نفسه نذقه عذاباً شديداً في الآخرة ﴿وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق﴾ أي وما أرسلنا قبلك يا محمد أحداً من الرسل إلا وهم يأكلون ويشربون ويتجولون في الأسواق للتكسب والتجارة ، فتلك هي سنة المرسلين من قبلك فلم ينكروا ذلك عليك ؟ وهو جواب عن قولهم ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟ ﴿وجعلنا بعضكم لبعض فتنة أتصبرون﴾ أي جعلنا بعض الناس بلاءً لبعض ومحنة ، ابتلى الله الغني بالفقر ، والشريف بالوضع ، والصحيح بالمرضى ليختبر صبركم وإيمانكم أتشكرون أم تكفرون ؟ قال الحسن : يقول الأعمى لو شاء الله لجعلني بصيراً مثل فلان ، ويقول الفقير لو شاء الله لجعلني غنياً مثل فلان ، ويقول السقيم : لو شاء الله لجعلني صحيحاً مثل فلان ^(١) ﴿وكان ربك بصيراً﴾ أي عالماً بمن يصبر أو يجزع ، وبمن يشكر أو يكفر .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتشريف ﴿على عبده﴾ ولم يذكره باسمه تشريفاً له وتكريماً .

٢ - الاكتفاء بأحد الوصفين ﴿ليكون للعالمين نذيراً﴾ أي ليكون بشيراً ونذيراً واكتفى بالإنداز لمناسبته للكفار .

٣ - الجناس الناقص ﴿يُخْلَقُونَ . . وَيُخْلَقُونَ﴾ سمي ناقصاً لتغايره في الشكل .

٤ - الطباق بين ﴿ضرراً . . ونفعاً﴾ وبين ﴿موتاً . . وحياة﴾ .

٥ - الاستفهام للتهكم والتحقير ﴿ما لهذا الرسول يأكل الطعام﴾ ؟

٦ - الاستعارة التمثيلية ﴿سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ شبه صوت غليانها بصوت المغتاط وزفيره وهو صوت يسمع من جوفه وهو تمثيل وصف النار بالاهتياج والاضطرام على عادة المغيظ والغضبان .

٧ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا . . المرسلين﴾ .

٨ - الجناس غير التام ﴿تصبرون . . بصيراً﴾ لتقديم بعض الحروف وتأخير البعض .

لطيفة : نبه تعالى بقوله ﴿تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك﴾ على أنه تعالى يعطي العباد على حسب المصالح ، ويفتح على واحد أبواب المعارف والعلوم ويسد عليه أبواب الدنيا ، ويفتح على آخر أبواب الرزق ويحرمه لذة الفهم والعلم ، ولا اعتراض عليه لأنه فعال لما يريد .

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا . . إلى . . بل كانوا لا يرجون نشوراً﴾

من آية (٢١) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسكة : لما حكي تعالى إنكار المشركين لنبوة محمد عليه السلام وتكذيبهم للقرآن ، أعقبه بذكر بعض جرائمهم الأخرى ، ثم ذكر قصص بعض الأنبياء وما حلَّ بأقوامهم المكذبين تسلياً لرسول الله عليه الصلاة والسلام .

اللفظة : ﴿حجراً﴾ بكسر الحاء حراماً من حَجَره إذا منعه قال الشاعر :

« ألا أصبحت أسماء حجراً محرماً »

أي حراماً محرماً ﴿هباء﴾ قال أبو عبيدة : الهباء مثل الغبار يدخل من الكوة مع ضوء الشمس ﴿منثوراً﴾ المنثور : المتفرق ﴿مقيلاً﴾ المقييل : زمان القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار إذا اشتدَّ الحر ﴿تبرناً﴾ التبرير : التدمير والتكسير قال الزجاج : كلُّ شيء كسَّرتَه وفَتَّته فقد تبرَّته .

سبب النزول : روي أن «عقبة بن أبي معيط» وكان صديقاً لأبي بن خلف صنع وليمة فدعا إليها قريشاً ودعا رسول الله ﷺ فلما قُدم الطعام قال رسول الله ﷺ ما أنا بأكل طعامك حتى تشهد أنني رسول الله ففعل فأكل رسول الله من طعامه فلما بلغ «أبي بن خلف» ذلك قال لصديقه عقبة صبأت قال : لا ولكن دخل علي رجل عظيم فأبى أن يأكل طعامي حتى أشهد له بالرسالة فقال له أبي : وجهي من وجهك حرام إن رأيت محمداً حتى تبرق في وجهه وتطأ على عنقه وتقول كيت وكيت ، ففعل عدوُّ الله ما أمره به خليله فأنزل الله ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه . . الآية﴾^(١) .

* وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلِيكةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا

النفسير : ﴿وقال الذين لا يرجون لقاءنا﴾ أي قال المشركون الذين لا يرجون لقاء الله ، ولا يخشون عقابه لتكذيبهم بالبعث والنشور ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ أي هلاً نزلت الملائكة علينا فأخبرونا بصدق محمد ﴿أو نرى ربنا﴾ أي أو نرى الله عياناً فيخبرنا أنك رسوله قال أبو حيان : وهذا

كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حَجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ
 فجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾ وَيَوْمَ تَشَقُّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَمِ
 وَنُزِّلَ الْمَلَائِكَةُ تَنْزِيلًا ﴿٢٥﴾ الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعْضُ الظَّالِمُ
 كله على سبيل التعتت وإلا فما جاءهم به من المعجزات كافٍ لو وقفوا^(١) ﴿لقد استكبروا في أنفسهم﴾
 أي تكبروا في شأن أنفسهم حين تفوهوا بمثل هذه العظيمة ، وطلبوا ما لا ينبغي ﴿وعتوا عتواً كبيراً﴾ أي
 تجاوزوا الحد في الظلم والطغيان ، حتى بلغوا أقصى العتو وغاية الاستكبار ﴿يوم يرون الملائكة لا
 بشرى يومئذ للمجرمين﴾ أي يوم يرى المشركون الملائكة حين تنزل لقبض أرواحهم وقت الاحتضار لن
 يكون للمجرمين يومئذ بشارة تسرهم بل لهم الخيبة والخسران ﴿ويقولون حجراً محجوراً﴾ أي تقول
 الملائكة لهم : حرام ومحرم عليكم الجنة والبشرى والغفران قال ابن كثير : وذلك يصدق على وقت
 الاحتضار حين تبشرهم الملائكة بالنار ، فتقول للكافر عند خروج روحه : أخرجني أيتها النفس الخبيثة في
 الجسد الخبيث ، أخرجني إلى سمومٍ وحميم وظلٍ من محموم فتأبى الخروج وتتفرق في البدن فيضربونه
 بمقامع الحديد ، بخلاف المؤمنين حال احتضارهم فإنهم يُبشرون بالخيرات وحصول المسرات ﴿تنزل
 عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون﴾^(٢) ﴿وقدمننا إلى ما عملوا من
 عمل﴾ أي عمدنا إلى أعمال الكفار التي يعتقدونها براً كأطعام المساكين وصلة الأرحام ويظنون أنها تقرهم
 إلى الله ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي جعلناه مثل الغبار المنثور في الجو ، لأنه لا يعتمد على أساس ولا
 يستند على إيمان قال الطبري : أي جعلناه باطلاً لأنهم لم يعملوه لله ، وإنما عملوه للشيطان ، والهباء هو
 الذي يرى كهيئة الغبار إذا دخل ضوء الشمس من كوة ، والمنثور المتفرق^(٣) وقال القرطبي : إن الله أحبط
 أعمالهم بسبب الكفر حتى صارت بمنزلة الهباء المنثور^(٤) ﴿أصحاب الجنة يومئذ خير مستقراً﴾ لما بين
 تعالى حال الكفار وأنهم في الخسران الكلي والخيبة التامة ، شرح وصف أهل الجنة وأنهم في غاية السرور
 والحبور ، تنبيهاً على أن السعادة كل السعادة في طاعة الله عز وجل ، ومعنى الآية : أصحاب الجنة يوم
 القيامة خير من الكفار مستقراً ومنزلاً وماوى^(٥) ﴿وأحسن مقيلاً﴾ أي وأحسن منهم مكاناً للتمتع وقت
 القيلولة وهي الاستراحة نصف النهار ، فالؤمنون في الآخرة في الفردوس والنعيم المقيم ، والكفار في
 دركات الجحيم قال ابن مسعود : « لا يتتصف النهار من يوم القيامة حتى يقيل أهل الجنة في الجنة ،
 وأهل النار في النار » ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام﴾ أي واذكر ذلك اليوم الرهيب يوم تشقق السماء
 وتنفطر عن الغمام الذي يُسود الجو ويظلمه ويغم القلوب مرآة لكثرة وشدة ظلمته ﴿ونزل الملائكة
 تنزيلاً﴾ أي ونزلت الملائكة فأحاطت بالخلائق في المحشر ﴿الملك يومئذ الحق للرحمن﴾ أي الملك في

(١) البحر المحيط ٦/٤٩١ . (٢) ابن كثير ٢/٦٢٨ المختصر .

(٣) الطبري ٣/١٩ . (٤) القرطبي ١٣/٢٢ . (٥) كلمة « خير » ليست على بابها للمفاضلة وإنما هي لبيان حال أهل الجنة وأنهم في أحسن

حال وخير مكان ، ولا ضرورة للتأويل بأنهم خير من الكافرين المترفين في الدنيا .

عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَلْبِثَنِي أَخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٧٧﴾ يَوَلِّتَنِي لَيْتَنِي لَمْ أَخَذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٧٨﴾ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الرَّسُولُ يَرْبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا ﴿٨٠﴾ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٨١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا الْوَلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلًا ﴿٨٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ

ذلك اليوم لله الواحد القهار ، الذي تخضع له الملوك ، وتعنوله الوجوه ، وتذل له الجبابرة ، لا مالك يومئذٍ سواه كقوله ﴿لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار﴾ ﴿وكان يوماً على الكافرين عسيراً﴾ أي وكان ذلك اليوم صعباً شديداً على الكفار قال أبو حيان : ودل قوله ﴿على الكافرين﴾ على تيسيره على المؤمنين ففي الحديث (إنه يهون حتى يكون على المؤمن أخف عليه من صلاة مكتوبة صلاها في الدنيا) (١) ﴿ويوم يعرض الظالم على يديه﴾ أي واذكر يوم يندم ويتحسر الظالم على نفسه لما فرط في جنب الله ، وعرض اليدين كناية عن الندم والحسرة ، والمراد بالظالم «عقبة بن أبي معيط» كما في سبب النزول ، وهي تعم كل ظالم قال ابن كثير : يخبر تعالى عن ندم الظالم الذي فارق طريق الرسول ﷺ وسلك سبيلاً غير سبيل الرسول ، فإذا كان يوم القيامة ندم حيث لا ينفعه الندم ، وعرض على يديه حسرة وأسفاً ، وسواء كان نزولها في «عقبة بن معيط» أو غيره من الأشقياء فإنها عامة في كل ظالم (٢) ﴿يقول يا ليتني اتخذت مع الرسول سبيلاً﴾ أي يقول الظالم يا ليتني اتبعت الرسول فاتخذت معه طريقاً إلى الهدى ينجيني من العذاب ﴿يا ويلتيا ليتني لم أتخذ فلاناً خليلاً﴾ أي يا هلاكي وحسرتي يا ليتني لم أصاحب فلاناً واجعله صديقاً لي ، ولفظ ﴿فلان﴾ كناية عن الشخص الذي أضله وهو «أبي بن خلف» قال القرطبي : وكفى عنه ولم يصرح باسمه ليتناول جميع من فعل مثل فعله (٣) ﴿لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني﴾ أي لقد أضلني عن الهدى والإيمان بعد أن اهتديت وآمنت ثم قال تعالى ﴿وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾ أي يُضله ويُغويه ثم يتبرأ منه وقت البلاء فلا ينقذه ولا ينصره ﴿وقال الرسول يا رب إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً﴾ لما أكثر المشركون الطعن في القرآن ضاق صدر الرسول ﷺ وشكاهم إلى الله والمعنى : قال محمد يا رب إن قريشاً كذبت بالقرآن ولم تؤمن به وجعلته وراء ظهورها متروكاً وأعرضوا عن استماعه قال المفسرون : وليس المقصود من حكاية هذا القول الإخبار بما قال المشركون بل المقصود منها تعظيم شكايته ، وتخويف قومه ، لأن الأنبياء إذا التجأوا إلى الله وشكوا قومهم حل بهم العذاب ولم يمهلوا (٤) ﴿وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين﴾ أي كما جعلنا لك أعداء من مشركي قومك جعلنا لكل نبي عدواً من كفار قومه ، والمراد تسليية النبي ﷺ بالتأسي بغيره من الأنبياء ﴿وكفى بربك هادياً ونصيراً﴾ أي وكفى أن يكون ربك يا محمد هادياً لك وناصراً لك على أعدائك فلا تبال بمن عاداك ﴿وقال

(١) البحر ٦/٤٩٥ والحديث أخرجه أحمد بلفظ «الذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن» الحديث . (٢) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٣٠ .

(٣) القرطبي ١٢/٢٦ . (٤) نقلاً عن حاشية زاده على البياضوي ٣/ ٤٥١ .

بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٥﴾ الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٣٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا ﴿٣٧﴾ فَقُلْنَا أَذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا فَدَمَرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا ﴿٣٨﴾ وَقَوْمُ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرُّسُلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ﴿٣٩﴾ وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٤٠﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا ﴿٤١﴾

الذين كفروا ﴿٤١﴾ أي وقال كفار مكة ﴿لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة﴾ أي هلاً نزل هذا القرآن على محمد دفعة واحدة كما نزلت التوراة والإنجيل ؟ قال تعالى رداً على شبهتهم التافهة ﴿كذلك لنثبت به فؤادك﴾ أي كذلك أنزلناه مفزقاً لنقوي قلبك على تحمله فتحفظه وتعمل بمقتضى ما فيه ﴿ورتلناه ترتيلاً﴾ أي فصللنا تفصيلاً بديعاً قال قتادة : أي بيناه وقال الرازي : الترتيل في الكلام أن يأتي بعضه على إثر بعض على تودة وتمهل ، وأصل الترتيل في الأسنان وهو تفلجها^(١) وقال الطبري : الترتيل في القراءة الترسُّل والتثبت يقول : علمناكه شيئاً بعد شيء حتى تحفظه^(٢) ﴿ولا يأتونك بمثلٍ إلا جئناك بالحق﴾ أي ولا يأتيك هؤلاء الكفار بحجة أو شبهة للقدح فيك أو في القرآن إلا أتيناك يا محمد بالحق الواضح ، والنور الساطع لندمغ به باطلهم ﴿وأحسن تفسيراً﴾ أي أحسن بياناً وتفصيلاً ، ثم ذكر تعالى حال هؤلاء المشركين المكذبين للقرآن فقال ﴿الذين يُحْشَرُونَ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي يُسْحَبُونَ ويَجْرُونَ إلى النار على وجوههم ﴿أولئك شر مكاناً وأضل سبيلاً﴾ أي هم شر منزلاً ومصيراً ، وأخطأ ديناً وطريقاً وفي الحديث « قيل يا رسول الله : كيف يُحْشَرُ الكافر على وجهه يوم القيامة ؟ فقال : إن الذي أمشاه على رجليه قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة^(٣) »، ثم ذكر تعالى قصص الأنبياء تسلياً لرسول الله ﷺ وإلهاباً للمكذبين فقال ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي والله لقد أعطينا موسى التوراة ﴿وجعلنا معه أخاه هارون وزيراً﴾ أي وأعناه بأخيه هارون فجعلناه وزيراً له يناصره ويؤازره ﴿فقلنا اذهبا إلى القوم الذين كذبوا بآياتنا﴾ أي اذهبا إلى فرعون وقومه بالآيات الباهرات ، والمعجزات الساطعات ﴿فدمرناهم تدميراً﴾ أي فأهلكناهم إهلاكاً لما كذبوا رسلنا ﴿وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية﴾ أي وأغرقنا قوم نوح بالطوفان لما كذبوا رسلهم نوحاً وجعلناهم عبرة لمن يعتبر قال أبو السعود : وإنما قال الرسل بالجمع مع أنهم كذبوا نوحاً وحده لأن تكذيبه تكذيب للجميع لاتفاقهم على التوحيد والإسلام^(٤) ﴿وأعتدنا للظالمين عذاباً أليماً﴾ أي وأعدنا لهم في الآخرة عذاباً شديداً مؤلماً سوى ما حل بهم في الدنيا ﴿وعاداً وثمود وأصحاب الرس﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود وأصحاب البئر الذين انهارت بهم قال البيضاوي : وأصحاب الرس قوم كانوا يعبدون الأصنام فبعث الله إليهم شعبياً فكذبوه فبينما هم حول الرس - وهي البئر غير المطوية - انهارت فخسفت بهم وبديارهم^(٥) ﴿وقرُوناً بين ذلك كثيراً﴾ أي وأما

(١) التفسير الكبير ٢٤/ ٧٩ . (٢) الطبري ٨/ ١٩ . (٣) أخرجه أصحاب السنن . (٤) أبو السعود ٤/ ٩ . (٥) البيضاوي ٦٨/ ٢ .

وَكَلَّا ضَرْبَنَا لَهُ الْأَمْثَلُ وَكَلَّا تَبَرْنَا تَبِيرًا ﴿٦٩﴾ وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ الَّتِي أَمْطَرْنَا مَطَرًا سَوًّا أَفَلَمْ يَكُونُوا يَرَوْنَهَا بَلْ كَانُوا لَا يَرْجُونَ نُشُورًا ﴿٧٠﴾

وخلائق كثيرين لا يعلمهم إلا الله بين أولئك المكذبين أهلكناهم أيضاً ﴿٦٩﴾ وكلاً ضربنا له الأمثال ﴿٧٠﴾ أي وكلاً من هؤلاء بيننا لهم الحجج ، ووضحنا لهم الأدلة إغذاراً وإنذاراً ﴿٦٩﴾ وكلاً تبرنا تبيراً ﴿٧٠﴾ أي أهلكناه إهلاكاً ، ودمرناه تدميراً ، لما لم تنجع فيهم المواعظ ﴿٦٩﴾ ولقد أتوا على القرية التي أمطرت مطر السوء ﴿٧٠﴾ أي ولقد مرت قريش مراراً في متاجرهم إلى الشام على تلك القرية التي أهلكت بالحجارة من السماء وهي قرية « سدوم » عظمى قري قوم لوط ﴿٦٩﴾ أفلم يكونوا يرونها ؟ توبيخ لهم على تركهم الاعتاظ والاعتبار أي أفلم يكونوا في أسفارهم يرونها فيعتبروا بما حل بأهلها من العذاب والنكال بسبب تكذيبهم لرسولهم ومخالفتهم لأوامر الله ؟ قال ابن عباس : كانت قريش في تجارتها إلى الشام تمر بمدائن قوم لوط كقوله تعالى ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ﴾ ﴿ بل كانوا لا يرجون نشوراً ﴾ أي إنهم لا يعتبرون لأنهم لا يرجون معاداً يوم القيامة .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الترجي ﴿لولا أنزل علينا الملائكة﴾ لأن لولا بمعنى هلاً للترجي .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿عتوا عتوا﴾ و﴿حجراً محجوراً﴾ .
- ٣ - المبالغة بنفي الجنس ﴿لا بشرى يومئذ للمجرمين﴾ ومعناها لا يبشر يومئذ المجرمون وإنما عدل عنه للمبالغة .
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿فجعلناه هباءً منثوراً﴾ أي كالغبار المنثور في الجو في حقارته وعدم نفعه ، حذف منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٥ - الكناية اللطيفة ﴿يعض الظالم على يديه﴾ كناية عن الندم والحسرة ، كما أن لفظة ﴿فلان﴾ كناية عن الصديق الذي أضله .
- ٦ - الإسناد المجازي ﴿شر مكاناً﴾ لأن الضلال لا ينسب إلى المكان ولكن إلى أهله .

لطيفة : قال ابن القيم رحمه الله : هجر القرآن أنواع : أحدها : هجر سماعه والإيمان به . والثاني : هجر العمل به وإن قرأه وآمن به . والثالث : هجر تحكيمه والتحاكم إليه . والرابع : هجر تدبره وتفهم معانيه . والخامس : هجر الاستشفاء والتداوي به في جميع أمراض القلوب وكل هذا داخل في قوله تعالى ﴿ إن قومي اتخذوا هذا القرآن مهجوراً ﴾ وإن كان بعض المهجر أهون من بعض ^(١) .

قال الله تعالى : ﴿ وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزواً . . إلى . . أنسجد لما تأمرنا وزادهم نفوراً ﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

المناسكة : لما ذكر تعالى شبهات المشركين حول القرآن والرسول ، وردَّ عليهم بالحجج الدامغة ، والبراهين القاطعة ، ذكر هنا طرفاً من استهزائهم وسخريتهم بالرسول فلم يقتصروا على تكذيبه بل زادوا عليه بالاستهزاء والاحتقار ، ثم ذكر الأدلة على وحدانيته تعالى وقدرته .

اللفظة : ﴿سُبَاتًا﴾ السُّبَات : الراحة جعل النوم سُبَاتاً لأنه راحة للأبدان وأصل السبت : القطع ومنه السبت لليهود لانقطاعهم فيه عن الأعمال ﴿نشوراً﴾ النشور : الانتشار والحركة ، والنهار سبب للانتشار من أجل طلب المعاش ﴿أناسي﴾ جمع إنسي مثل كراسي وكرسي قال الفراء : الإنسي والأناسي اسم للبشر وأصله انسان ثم أبدلت من النون ياء فصار إنسي ﴿مرج﴾ خَلَى وأرسل وخلط يقال مرجته إذا خلطته ﴿وأمر مريج﴾ أي مضطرب مختلط ﴿فراة﴾ شديد العذوبة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة ﴿برزخاً﴾ حاجزاً .

وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا ﴿٤١﴾ إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَاهِتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا وَسَوْفَ يَعْلَمُونَ حِينَ يَرَوْنَ الْعَذَابَ مَن أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٢﴾ أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا ﴿٤٣﴾ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾

التفسير : ﴿وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَخْذُوكَ إِلَّا هُزُؤًا﴾ أي وإذا رآك المشركون يا محمد ما يتخذونك إلا موضع هزاء وسخرية ﴿هَذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا﴾ أي قائلين بطريق التهكم والاستهزاء : أهذا الذي بعثه الله إلينا رسولاً ؟ ﴿إِن كَادَ لِيُضِلَّنَا عَنْ ءَاهِتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ أي إن كاد ليصرفنا عن عبادة آلهتنا لولا أن ثبتنا عليها واستمسكنا بعبادتها قال تعالى رداً عليهم ﴿وسوف يعلمون حين يرون العذاب من أضل سبيلاً﴾ وعيد وتهديد أي سوف يعلمون في الآخرة عند مشاهدة العذاب من أخطأ طريقاً وأضل ديناً أم محمد ؟ ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ تعجب من ضلال المشركين أي أرايت من جعل هواه إلهاً كيف يكون حاله ؟ قال ابن عباس : كان الرجل من المشركين يعبد حجراً فإذا رأى حجراً أحسن منه رماه وأخذ الثاني فعبده ﴿أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ أي حافظاً تحفظه من اتباع هواه ؟ ليس الأمر لك قال أبو حيان : وهذا تئيس من إيمانهم ، وإشارة للرسول عليه السلام ألا يتأسف عليهم ، وإعلام أنهم في الجهل بالمنافع وقلة النظر في العواقب مثل البهائم ^(١) ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ﴾ ؟ أي أنظن أن هؤلاء المشركين يسمعون ما تقول لهم سماع قبول ؟ أو يعقلون ما تورده عليهم من الحجج والبراهين الدالة على الوحدانية فتهتم بشأنهم وتطمع في إيمانهم ؟ ﴿إِن هُم إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ أي ما هم إلا كالبهائم بل هم أبشع حالاً ، وأسوأ مآلاً من الأنعام السارحة ، لأن البهائم تهتدي لمراعيها ، وتنقاد لأربابها وتعرف من يحسن إليها ، وهؤلاء لا ينقادون لربهم ولا يعرفون

أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۖ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَامًا

إِحْسَانَهُ إِلَيْهِمْ ، ثم ذكر تعالى أنواعاً من الدلائل الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿ألم تر إلى ربك كيف مَدَّ الظِّلَّ﴾ أي ألم تنظر إلى بديع صنع الله وقدرته كيف بسط تعالى الظلَّ ومدَّه وقت النهار حتى يستروح الإنسان بظل الأشياء من حرارة الشمس المتوهجة ؟ إذ لولا الظلُّ لأحرقت الشمس الإنسان وكدَّرت حياته ﴿ولو شاء لجعلناه ساكنًا﴾ أي لو أراد سبحانه لجعله دائماً ثابتاً في مكان لا يزول ولا يتحول عنه ، ولكنه بقدرته ينقله من مكان إلى مكان ، ومن جهة إلى جهة ، فتارة يكون جهة المشرق ، وتارة جهة المغرب ، وأخرى من أمام أو خلف ﴿ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾ أي جعلنا طلوع الشمس دليلاً على وجود الظل ، فلولا وقوع ضوئها على الأجرام لما عرف أن للظل وجوداً ، ولما ظهرت آثار هذه النعمة الجليلة للعباد ، والأشياء إنما تُعرف بأضدادها فلولا الظلمة ما عُرف النور ، ولولا الشمس ما عرف الظل «وبضدها تتميز الأشياء» ﴿ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً﴾ أي أزلنا هذا الظل شيئاً فشيئاً ، وقليلًا قليلًا لا دفعة واحدة لثلاث تحتل المصالح قال ابن عباس : الظلُّ من وقت طلوع الفجر إلى وقت طلوع الشمس^(١) قال المفسرون : الظلُّ هو الأمر المتوسط بين الضوء الخالص والظلمة الخالصة ، وهو يحدث على وجه الأرض منبسطةً فيما بين ظهور الفجر إلى طلوع الشمس ، ثم إن الشمس تنسخه وتزيله شيئاً فشيئاً ، إلى الزوال ، ثم هو ينسخ ضوء الشمس من وقت الزوال إلى الغروب ويسمى فيئاً ، ووجه الاستدلال به على وجود الصانع الحكيم أن وجوده بعد العدم ، وعدمه بعد الوجود ، وتغير أحواله بالزيادة والنقصان ، والانبساط والتقلص ، على الوجه النافع للعباد لا بدُّ له من صانع قادر ، مدبر حكيم ، يقدر على تحريك الأجرام العلوية ، وتدبير الأجسام الفلكية وترتيبها على الوصف الأحسن ، والترتيب الأكمل وما هو إلا الله رب العالمين^(٢) . ثم أشار تعالى إلى آثار قدرته ، وجليل نعمته الفائضة على الخلق فقال ﴿وهو الذي جعل لكم الليل لباساً﴾ أي هو سبحانه الذي جعل لكم الليل كاللباس يستركم بظلامه كما يستركم اللباس بزينته قال الطبري : وصف الليل باللباس تشبيهاً من حيث يستر الأشياء فصار لهم ستراً يستترون به كما يستترون بالثياب التي يكسونها^(٣) ﴿والنوم سُبَاتًا﴾ أي وجعل النوم راحةً لأبدانكم بانقطاعكم عن أعمالكم ﴿وجعل النهار نُشُورًا﴾ أي وقتاً لانتشار الناس فيه لمعايشهم ، ومكاسبهم ، وأسباب رزقهم ﴿وهو الذي أرسل الرياح بُشْرًا بين يدي رحمته﴾ أي أرسل الرياح مبشرة بنزول الغيث والمطر

(١) الطبري ١٢/١٩ هذا القول منقول عن مجاهد وإليه ذهب كثير من المفسرين وقالوا إنه أطيب الأحوال ولذلك وصف به الجنة ﴿وظلَّ معدود﴾ وما أثبتناه هو الأرجح لأنه الظل المعروف ولفظ الشمس يرجحه وهو اختيار العلامة أبي السعود . (٢) انظر تفسير الرازي ٨٨/٢٤ ففيه كلام جيد نفيس . (٣) الطبري ١٤/١٩ .

وَأَنَاسِي كَثِيرًا ﴿٢٩﴾ وَلَقَدْ صَرَفْنَاهُ بَيْنَهُمْ لِيَذْكُرُوا فَآثِنًا أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٣٠﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ نَذِيرًا ﴿٣١﴾ فَلَا تَطْعَمُ الْكَافِرِينَ وَجَهَدَهُمْ بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا ﴿٣٢﴾ * وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَجِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ رُطُوبًا وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا ﴿٣٤﴾ أَي أَنزَلْنَا مِنَ السحاب الذي ساقته الرياح ماءً طاهراً مطهراً تشربون وتتطهرون به قال القرطبي : وصيغة ﴿طهور﴾ بناء مبالغة في « طاهر » فاقترض أن يكون طاهراً مطهراً^(١) ﴿لنحيي به بلدة ميتاً﴾ أي لنحيي بهذا المطر أرضاً ميتة لا زرع فيها ولا نبات ﴿ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي وليشرب منه الحيوان والإنسان لأن الماء حياة كل حي ، والناس محتاجون إليه غاية الحاجة لشربهم وزروعهم وسقي مواشيهم قال الإمام الفخر : وتنكير الأنعام والأناسي لأن حياة البشر بحياة أرضهم وأنعامهم ، وأكثر الناس يجتمعون في البلاد القريبة من الأودية والأنهار ، فهم في غنية عن شرب مياه المطر ، وكثير منهم نازلون في البوادي فلا يجدون المياه للشرب إلا عند نزول المطر ولهذا قال ﴿أنعاماً وأناسي كثيراً﴾ أي بشراً كثيراً لأن « فاعيل » يراد به الكثرة^(٢) ﴿ولقد صرفناه بينهم ليعذروا﴾ أي ضربنا الأمثال في هذا القرآن^(٣) للناس وبيئنا فيه الحجج والبراهين ليتفكروا ويتدبروا ﴿فأبى أكثر الناس إلا كفوراً﴾ أي أبى الكثير من البشر إلا الجحود والتكذيب ﴿ولو شئنا لبعثنا في كل قرية نذيراً﴾ أي لو أردنا لخففنا عنك أعباء النبوة فبعثنا في كل أهل قرية نبياً ينذرهم ، ولكننا خصصناك بالبعثة إلى جميع أهل الأرض إجلالاً لك ، وتعظيماً لشأنك ، فقابل هذا الإجلال بالثبات والاجتهاد في الدعوة وإظهار الحق ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ أي فلا تطع الكفار فيما يدعونك إليه من الكف عن آلهتهم ، وجاهدهم بالقرآن جهاداً كبيراً بالغاً نهايته لا يصاحبه فتور ﴿وهو الذي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ أي هو تعالى بقدرته خلى وأرسل البحرين متجاورين متلاصقين بحيث لا يتمازجان ﴿هذا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أي شديد العذوبة قاطع للعطش من فرط عذوبته ﴿وهذا مِلْحٌ أُجَاجٌ﴾ أي بليغ الملوحة ، مر شديد المרהرة ﴿وجعل بينهما برزخاً﴾ أي جعل بينهما حاجزاً من قدرته لا يغلب أحدهما على الآخر ﴿وججراً محجوراً﴾ أي ومنعاً من وصول أثر أحدهما إلى الآخر وامتزاجه به قال ابن كثير : معنى الآية انه تعالى خلق المائين : الحلو والمالح ، فالحلو كالأنهار والعيون والآبار ، والمالح كالبهار الكبار التي لا تجري ، وجعل بين العذب والمالح حاجزاً وهو اليابس من الأرض ، ومانعاً من أن يصل أحدهما إلى الآخر ، وهذا اختيار ابن جرير^(٤) وقال الرازي : ووجه الاستدلال ههنا بين لأن الحلاوة والملوحة إن كانت بسبب طبيعة الأرض أو الماء فلا بد من الاستواء ، وإن لم يكن كذلك فلا بد من قادر حكيم يخص كل واحد بصفة معينة^(٥) ﴿وهو الذي خلق من الماء بشراً﴾ أي خلق من النطفة إنساناً سميعاً بصيراً

(١) القرطبي ٣٩ / ١٣ . (٢) التفسير الكبير ٩١ / ٢٤ . (٣) الضمير في ﴿صرفناه﴾ عائد على القرآن وإن لم يتقدم له ذكر لوضوح الأمر ويؤيده قوله ﴿وجاهدهم به جهاداً كبيراً﴾ وقيل إنه عائد على المطر وهو كما قال في التسهيل بعيد . (٤) ابن كثير ٦٣٥ / ٢ المختصر .

(٥) التفسير الكبير ١٠١ / ٢٤ .

نَسَبًا وَصِهْرًا ۖ وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ ۚ وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِ ظَهِيرًا ۖ ﴿٤٥﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِن أَجْرٍ إِلَّا مِن شَاءِ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٤٧﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ ۚ وَكَفَىٰ بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا ﴿٤٨﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسَلِّ بِهِ خَيْرًا ﴿٤٩﴾

﴿فجعلله نسباً وصهراً﴾ أي قسمهم من نطفة واحدة قسمين : ذوي نسب أي ذكوراً ينسب إليهم لأن النسب إلى الآباء كما قال الشاعر :

فإنما أمهاتُ الناس أوعيةٌ مستودعات ولآباءُ أبناء
وإننا يُصاهر بهن ، فبالنسب يتعارفون ويتواصلون ، وبالمصاهرة تكون المحبة والمودة واجتماع الغريب
بالقريب ﴿وكان ربك قديراً﴾ أي مبالغاً في القدرة حيث خلق من النطفة الواحدة ذكراً وأنثى . . ولما
شرح دلائل التوحيد عاد إلى تهجين سيرة المشركين في عبادة الأوثان فقال ﴿ويعبدون من دون الله ما لا
ينفعهم ولا يضرهم﴾ أي يعبدون الأصنام التي لا تنفع ولا تضر لأنها جمادات لا تحس ولا تبصر ولا تعقل
﴿وكان الكافر على ربه ظهيراً﴾ أي معيناً للشيطان على معصية الرحمن ، لأنَّ عبادته للأصنام معاونة
للشيطان قال مجاهد : يظاهر الشيطان على معصية الله ويُعينه ^(١) ﴿وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً﴾ أي
مبشراً للمؤمنين بجنت النعيم ، ومنذراً للكافرين بعذاب الجحيم ﴿قل ما أسألكم عليه من أجر﴾ أي
قل لهم يا محمد لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً ﴿إلا من شاء أن يتخذ إلى ربه سبيلاً﴾ أي لكن من شاء
أن يتخذ طريقاً يقربه إلى الله بالإيمان والعمل الصالح فليفعل كأنه يقول : لا أسألكم مالاً ولا أجراً وإنما
أسألكم الإيمان بالله وطاعته وأجري على الله ﴿وتوكل على الحي الذي لا يموت﴾ أي اعتمد في جميع
أمورك على الواحد الأحد ، الدائم الباقي الذي لا يموت أبداً ، فإنه كافيك وناصرك ومظهر دينك على سائر
الأديان ﴿وسبح بحمده﴾ أي نزه الله تعالى عما يصفه هؤلاء الكفار بما لا يليق به من الشركاء والأولاد
﴿وكفى به بذنوب عباده خبيراً﴾ أي حسبك أن الله مطلع على أعمال العباد لا يخفى عليه شيء منها قال
الإمام الفخر : وهذه الكلمة يراد بها المبالغة كقولهم : كفى بالعلم جمالاً ، وكفى بالأدب مالاً ، وهي بمعنى
حسبك أي لا تحتاج معه إلى غيره لأنه خبيرٌ بأحوالهم ، قادر على مجازاتهم ، وذلك وعيدٌ شديد ^(٢) ﴿الذي
خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام﴾ أي هذا الإله العظيم الذي ينبغي أن تتوكل عليه هو
القادر على كل شيء ، الذي خلق السموات السبع في ارتفاعها واتساعها ، والأرضين في كثافتها وامتدادها
في مقدار ستة أيام من أيام الدنيا قال ابن جبير : الله قادر على أن يخلقها في لحظة ولكن علم خلقه الرفق
والثبوت ^(٣) ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق بجلاله من غير تشبيه ولا تعطيل ﴿الرحمن﴾ أي هو

وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا ﴿٢٥﴾

الرحمن ذو الجود والإحسان ﴿فاسأل به خبيراً﴾ أي فسل عنه من هو خير عارف بجلاله ورحمته ، وقيل : الضمير يعود إلى الله أي فاسأل الله الخير بالأشياء ، العالم بحقائقها يطلعك على جليلة الأمر^(١) ﴿وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن﴾ أي وإذا قيل للمشركين اسجدوا لربكم الرحمن الذي وسعت رحمته الأكوان ﴿قالوا وما الرحمن﴾ ؟ أي من هو الرحمن ؟ استفهموا عنه استفهام من يجهله وهم عالمون به ﴿أنسجد لما تأمرنا﴾ أي أنسجد لما تأمرنا بالسجود له من غير أن نعرفه ؟ ﴿وزادهم نفوراً﴾ أي وزادهم هذا القول بعداً عن الدين ونفوراً منه .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام للتهكم والاستهزاء ﴿أهذا الذي بعث الله رسلاً﴾ ؟
- ٢ - التعجب ﴿أرأيت من اتخذ إلهه هواه﴾ وفيه تقديم المفعول الثاني على الأول اعتناءً بالأمر المتعجب منه والأصل « اتخذ هواه إلهاً له » .
- ٣ - التشبيه البليغ ﴿جعل الليل لباساً﴾ أي كاللباس الذي يغطي البدن ويستره حذف منه الأداة ووجه الشبه فأصبح بليغاً .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين الليل والنهار والنوم والانتشار ﴿جعل الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار نشوراً﴾ .
- ٥ - الاستعارة البديعة ﴿بين يدي رحمته﴾ استعار اليدين لما يكون أمام الشيء وقدأمه كما تقول : بين يدي الموضوع او السورة .

- ٦ - الالتفات من الغيبة الى التكلم للتعظيم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿أرسل الرياح﴾ .
- ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج﴾ أي نهاية في الحلاوة ونهاية في الملوحة .

تنبية : الفرق بين ﴿ميت﴾ بالتخفيف و﴿ميت﴾ بالتشديد أن الأول لمن مات حقيقة والثاني لمن سيموت قال الشاعر :

أيا سائلي تفسير ميّت وميّت فدونك قد فسرتُ ما عنه تسأل
فما كان ذا روحٍ فذلك ميّت وما الميّتُ إلا من إلى القبر يحُمَلُ^(٢)

قال الله تعالى : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروحاً . . إلى . . فقد كذبتهم فسوف يكون لزاماً﴾

(١) القول الأول أظهر ، والثاني روي عن مجاهد . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦١ / ٣ .

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ (١) وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٢﴾ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ

الْمَنَاسِكَةَ : لما ذكر إعراض المشركين عن عبادة الرحمن أعقبها بذكر آياته الكونية الدالة على الوحدانية ، ثم ختم السورة الكريمة بذكر صفات عباد الرحمن التي استحقوا بها دخول الجنان .

اللفظ : ﴿بروجاً﴾ البروج : منازل الكواكب السيارة سميت بالبروج لأنها تشبه القصور العالية وهي للكواكب كالمنازل للسكان وقيل : هي الكواكب العظيمة ﴿غراماً﴾ لازماً دائماً غير مفارق ومنه الغريم ملازمته ﴿الغرفة﴾ الدرجة الرفيعة في الجنة وهي في اللغة العلية ، وكل بناء عالٍ فهو غرفة ﴿يعبأ﴾ يبالي ويهتم قال أبو عبيدة : ما أعبأ به أي وجوده وعدمه عندي سواء ، والعبء في اللغة الثقل ﴿لزاماً﴾ ملازماً لكم .

التفسير : ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً﴾ أي تمجد وتعظم الله الذي جعل في السماء تلك الكواكب العظام المنيرة (١) ﴿وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾ أي وجعل فيها الشمس المتوهجة في النهار ، والقمر المضيء بالليل ﴿وهو الذي جعل الليل والنهار خِلْفَةً﴾ أي يخلف كل منهما الآخر ويتعاقبان ، فيأتي النهار بضيائه ثم يعقبه الليل بظلامه ﴿لمن أراد أن يذكر﴾ أي لمن أراد أن يتذكر آلاء الله ، ويتفكر في بدائع صنعه ﴿أو أراد شكوراً﴾ أي أراد شكر الله على إفضاله ونعمائه قال الطبري : جعل الله الليل والنهار يخلف كل واحد منهما الآخر ، فمن فاته شيء من الليل أدركه بالنهار ، ومن فاته شيء من النهار أدركه بالليل (٢) ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً﴾ الإضافة للتشريف أي العباد الذين يحبهم الله وهم جديرون بالانتساب إليه هم الذين يمشون على الأرض في لين وسكينة ووقار ، لا يضربون بأقدامهم أشراً ولا بطراً ، ولا يتبخثون في مشيتهم ﴿وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾ أي وإذا خاطبهم السفهاء بغلظة وجفاء قالوا قولاً يسلمون من الإثم قال الحسن : لا يجهلون على أحد ، وإن جهل عليهم حلموا ﴿والذين يبيتون لربهم سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ أي يُحْيُونَ الليل بالصلاة ساجدين لله على جباههم ، أو قائمين على أقدامهم كقوله ﴿كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون﴾ قال الرازي : لما ذكر سيرتهم في النهار من وجهين : ترك الإيذاء ، وتحمل الأذى بين هنا سيرتهم في الليالي وهو اشتغالهم بخدمة الخالق (٣) ﴿والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم﴾ أي يدعون ربهم أن ينجيهم من عذاب النار ، ويبتهلون إليه أن يدفع عنهم عذابها ﴿إن عذابها كان غراماً﴾ أي لازماً دائماً

(١) قال مجاهد والحسن : البروج هي الكواكب العظام وقال ابن عباس وعلي : هي منازل الكواكب ، قال ابن كثير : والقول الأول أظهر .

(٢) الطبري ٢٠ / ١٩ . (٣) التفسير الكبير ٢٤ / ١٠٨ .

عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿٦٥﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٦٦﴾ وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴿٦٧﴾ وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾ وَمَنْ تَابَ

غير مفارق ﴿٦٥﴾ إنها ساءت مستقراً ومقاماً ﴿٦٦﴾ أي بثست جهنم منزلاً ومكان إقامة قال القرطبي : المعنى بشس المستقر وبشس المقام ، فهم مع طاعتهم مشفقون خائفون من عذاب الله ^(١) ، وقال الحسن : خشعوا بالنهار وتعبدوا بالليل فرقاً من عذاب جهنم ﴿٦٧﴾ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ﴿٦٨﴾ هذا هو الوصف الخامس من أوصاف عباد الرحمن والمعنى : ليسوا مبذرين في إنفاقهم في المطاعم والمشارب والملابس ، ولا مقصّرين ومضيّتين بحيث يصبحون بخلاء ﴿٦٩﴾ وكان بين ذلك قواماً ﴿٧٠﴾ أي وكان إنفاقهم وسطاً معتدلاً بين الإسراف والتقتير كقوله تعالى ﴿٧١﴾ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط ﴿٧٢﴾ الآية وقال مجاهد : « لو أنفقت مثل جبل أبي قبيس ذهباً في طاعة الله ما كان سرفاً ، ولو أنفقت صاعاً في معصية الله كان سرفاً » ^(٢) ﴿٧٣﴾ والذين لا يدعون مع الله إلهاً آخر ﴿٧٤﴾ أي لا يعبدون معه تعالى إلهاً آخر ، بل يوحّدونه مخلصين له الدين ﴿٧٥﴾ ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ﴿٧٦﴾ أي لا يقتلون النفس التي حرم الله قتلها إلا بما يحق أن تقتل به النفوس من كفر بعد إيمان ، أو زنى بعد إحصان ، أو القتل قصاصاً ﴿٧٧﴾ ولا يزنون ﴿٧٨﴾ أي لا يرتكبون جريمة الزنى التي هي من أفحش الجرائم ﴿٧٩﴾ ومن يفعل ذلك يلقَ أثاماً ﴿٨٠﴾ أي ومن يقترب تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة ثم فسرها بقوله ﴿٨١﴾ يضاعف له العذاب يوم القيامة ﴿٨٢﴾ أي يضاعف عقابه ويُغلّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي ﴿٨٣﴾ ويخلد فيه مهاناً ﴿٨٤﴾ أي يخلد في ذلك العذاب حقيراً ذليلاً أبداً الأبد ﴿٨٥﴾ إلا من تاب وعمل عملاً صالحاً ﴿٨٦﴾ أي إلا من تاب في الدنيا التوبة النصوح وأحسن عمله ﴿٨٧﴾ فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ﴿٨٨﴾ أي يكرمهم الله في الآخرة فيجعل مكان السيئات حسنات وفي الحديث (إنني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة ، وآخر أهل النار خروجاً منها ، رجل يؤتى به يوم القيامة فيقال : اعرضوا عليه صغار ذنوبه وارفعوا عنه كبارها ، فتعرض عليه صغار ذنوبه فيقال : عملت يوم كذا وكذا وكذا وكذا فيقول نعم لا يستطيع أن ينكر وهو مشفق من كبار ذنوبه فيقال له : فإن لك مكان كل سيئة حسنة فيقول يا رب : قد عملت أشياء لا أراها ههنا ، قال فضحك رسول الله ﷺ حتى بدت نواجذه ^(٣) ﴿٨٩﴾ وكان الله غفوراً رحيماً ﴿٩٠﴾ أي واسع المغفرة كثير الرحمة ﴿٩١﴾ ومن تاب وعمل صالحاً فإنه يتوب إلى الله متاباً ﴿٩٢﴾ أي ومن تاب عن المعاصي وأصلح سيرته فإن الله يتقبل توبته ويكون مرضياً عند الله تعالى ﴿٩٣﴾ والذين لا يشهدون

(١) القرطبي ٧٢/١٣ . (٢) الطبري ٢٣/١٩ وهذا على قول من فسر الإسراف بأنه الإنفاق في معصية الله ، وإليه ذهب بعض المفسرين

وهو منقول عن ابن عباس أيضاً والقول الأول أظهر . (٣) أخرجه مسلم .

وَعَمِلَ صَالِحًا فَلِئَنَّهُ يُتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ﴿٧١﴾ وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ﴿٧٢﴾
 وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يُخْرِجُوا عَلَيْهَا صُحْماً وَعُمِيَانًا ﴿٧٣﴾ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا
 قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ﴿٧٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾
 خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ﴿٧٦﴾ قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ
 يَكُونُ لَكُمْ لَزَامًا ﴿٧٧﴾

الزور ﴿٧١﴾ هذا هو الوصف السابع من أوصاف عباد الرحمن أي لا يشهدون الشهادة الباطلة - شهادة الزور - التي فيها تضييع لحقوق الناس ﴿وإذا مروا باللغو مروا كراما﴾ أي وإذا مروا بمجالس اللغو - وهي الأماكن التي يكون فيها العمل القبيح كمجالس اللهو ، والسينا ، والقمار ، والغناء المحرم - مروا معرضين مكرمين أنفسهم عن أمثال تلك المجالس قال الطبري : واللغو كل كلام أو فعل باطل وكل ما يستقبح كسب الإنسان ، وذكر النكاح باسمه في بعض الأماكن ، وسماع الغناء مما هو قبيح ، كل ذلك يدخل في معنى اللغو الذي يجب أن يحتنبه المؤمن ^(١) ﴿والذين إذا دُكِّروا بآيات ربهم﴾ أي إذا وعظوا بآيات القرآن وخوفوا بها ﴿لم يخرجوا عليها صُحْماً وَعُمِيَاناً﴾ أي لم يعرضوا عنها بل سمعوها بآذان واعية وقلوب وجله ﴿والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين﴾ أي اجعل لنا في الأزواج والبنين مسرة وفرحاً بالتمسك بطاعتك ، والعمل بمَرْضَاتِكَ ﴿واجعلنا للمتقين إماما﴾ أي اجعلنا قُدوة يقتدي بنا المتقون ، دعاة إلى الخير هُداة مهتدين قال ابن عباس : أي أئمة يقتدى بنا في الخير ^(٢) ﴿أولئك يجزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا﴾ أي أولئك المتصفون بالأوصاف الجليلة السامية ينالون الدرجات العالية ، بصبرهم على أمر الله وطاعتهم له سبحانه ﴿ويُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾ أي ويُلَقَّوْنَ بِالتَّحِيَّةِ وَالسَّلَامِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْكَرَامِ كَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ الآية ﴿خالدين فيها﴾ أي مقيمين في ذلك النعيم لا يموتون ولا يُخْرَجُونَ مِنَ الْجَنَّةِ لِأَنَّهَا دَارُ الْخُلُودِ ﴿حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ أي ما أحسنها مقراً وأطيبها منزلاً لمن اتقى الله ﴿قل ما يعبا بكم ربي لولا دعاؤكم﴾ أي قل لهم يا محمد : لا يكثرث ولا يحفل بكم ربي لولا تضرعكم إليه واستغاثتكم إِيَّاهُ فِي الشَّدَائِدِ ﴿فقد كذبتهم فسوف يكون لزاماً﴾ أي فقد كذبتهم أيها الكافرون بالرسول والقرآن فسوف يكون العذاب ملازماً لكم في الآخرة .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿وعباد الرحمن﴾ .

(١) الطبري ٣٢/١٩ . (٢) ابن كثير ٦٤٢/٢ المختصر .

٢ - الطباق بين السجود والقيام ﴿سُجِّدًا وَقِيَامًا﴾ وكذلك بين الإسراف والتقتير ﴿لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا﴾ .

٣ - المقابلة اللطيفة بين نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار ﴿حَسُنْتَ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا﴾ مقابل قوله عن أهل النار ﴿سَاءَتْ مُسْتَقْرَأً وَمُقَامًا﴾ .

٤ - الاستعارة البديعة ﴿لَمْ يَخْرُوا عَلَيْهَا صُماً وَعَمِيَانًا﴾ أي لم يتغافلوا عن قوارع النذر حتى يكونوا بمنزلة من لا يسمع ولا يبصر وهذا من أحسن الاستعارات .

٥ - الكناية ﴿قَرَّةٌ أَعْيُنٌ﴾ كناية عن الفرحة والمسرة كما أن ﴿الْغُرْفَةَ﴾ كناية عن الدرجات العالية في الجنة .

تَبْدِيهِ : قال القرطبي : وصف تعالى « عباد الرحمن » بإحدى عشرة خصلة هي أوصافهم الحميدة من التحلي ، والتخلي وهي « التواضع ، والحلم ، والتهجد ، والخوف ، وترك الإسراف والإقتار ، والبعد عن الشرك ، والنزاهة عن الزنى والقتل ، والتوبة ، وتجنب الكذب ، وقبول المواعظ ، والابتهاال إلى الله » ثم بين جزاءهم الكريم وهو نيل الغرفة أي الدرجة الرفيعة وهي أعلى منازل الجنة وأفضلها كما أن الغرفة أعلى مساكن الدنيا .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الفرقان »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة الشعراء مكية وقد عاجلت أصول الدين من « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تهتم بجانب العقيدة وأصول الإيمان .

✽ ابتدأت السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً للخلق ، وبأسماً شافياً لأمراض الإنسانية ، وذكرت موقف المشركين منه ، فقد كذبوا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه ، وطلبوا معجزة أخرى غير القرآن الكريم عناداً واستكباراً .

✽ ثم تحدثت السورة عن طائفة من الرسل الكرام ، الذين بعثهم الله لهداية البشرية ، فبدأت بقصة الكليم « موسى » مع فرعون الطاغية الجبار ، وما جرى من المحاوراة والمداورة بينهما في شأن الإله جلّ وعلا ، وما أيد الله به موسى من الحجة الدامغة التي تقصم ظهر الباطل ، وقد ذكرت في القصة حلقات جديدة ، انتهت ببيان العظة والعبرة من الفارق الهائل ، بين الإيمان والطغيان .

✽ ثم تناولت قصة الخليل إبراهيم عليه السلام ، وموقفه من قومه وأبيه في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وقد أظهر لهم بقوة حجته ، ونصاعة بيانه ، بطلان ما هم عليه من عبادة ما لا يسمع ولا ينفع ، وأقام لهم الأدلة القاطعة على وحدانية رب العالمين ، الذي بيده النفع والضرر ، والأحياء والإماتة .

✽ ثم تحدثت السورة عن المتقين والغاوين ، والسعداء والأشقياء ، ومصير كلٍّ من الفريقين يوم الدين .

✽ وبعد أن تابعت السورة في ذكر قصص الأنبياء « نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب » عليهم الصلاة والسلام ، وبيّنت سنة الله في معاملة المكذبين لرسله ، عادت للتنبؤ بشأن الكتاب العزيز ، تفخياً لشأنه ، وبياناً لمصدره ﴿ وإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ * نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسانٍ عربي مبين ﴾ .

✽ ثم ختمت السورة بالرد على افتراء المشركين ، في زعمهم أن القرآن من تنزل الشياطين ، ليتناسق البدء مع الختام في أروغ تناسق والتثام ! .

التسمية : سميت « سورة الشعراء » لأن الله تعالى ذكر فيها أخبار الشعراء ، وذلك للرد على المشركين في زعمهم أن محمداً كان شاعراً ، وأن ما جاء به من قبيل الشعر ، فردّ الله عليهم ذلك الكذب والبهتان بقوله ﴿ والشعراء يتبعهم الغاؤون ﴾ ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون * وأنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ وبذلك ظهر الحق وبان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ لَعَلَّكَ بَخْعٌ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾ إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴿٤﴾ وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنَ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ

اللفظة : ﴿ باخع ﴾ مهلك وقاتل وأصل البخع : أن يبلغ بالمذبح البخاع وهو الخرم النافذ في ثقب الفقرات وهو أقصى حدّ الذبح ﴿ فعلتكَ ﴾ الفعلة بفتح الفاء المرة من الفعل ﴿ تلقف ﴾ تبتلع ﴿ يافكون ﴾ من الإفك وهو الكذب ﴿ لا ضير ﴾ لا ضرر ، والضرر والضير بمعنى واحد قال الجوهري : ضاره يضوره ضيراً أي ضره قال الشاعر :

فإنك لا يضورك بعد حولٍ أظبي كان أمك أم حمار^(١)

﴿ منقلبون ﴾ راجعون ﴿ من خلاف ﴾ أي يخالف بين الأعضاء فيقطع اليد اليمنى والرجل اليسرى .

التفسير : ﴿ طسم ﴾ إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم وأنه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية^(٢) ﴿ تلك آيات الكتاب المبين ﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر إعجازه لمن تأمله ﴿ لعلك باخع نفسك أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ أي لعلك يا محمد مهلك نفسك لعدم إيمان هؤلاء الكفار ، فيه تسلية للرسول عليه السلام حتى لا يحزن ولا يتأثر على عدم إيمانهم ﴿ إِنْ نَشَأْ نُنزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً ﴾ أي لو شئنا لأنزلنا آية من السماء تضطربهم إلى الإيمان قهراً ﴿ فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ ﴾ أي فتظل أعناقهم منقاداً خاضعة للإيمان قسراً وقهراً ، ولكن لا نفعل لأننا نريد أن يكون الإيمان اختياراً لا اضطراراً قال الصاوي : المعنى لا تحزن على عدم إيمانهم فلو شئنا إيمانهم لأنزلنا معجزة تأخذ بقلوبهم فيؤمنون قهراً عليهم ، ولكن سبق في علمنا شقاؤهم فأرح نفسك من التعب^(٣) ﴿ وما يأتهم من ذكرٍ من الرحمن ﴾ أي ما يأتي هؤلاء الكفار شيء من القرآن أو الوحي منزل من عند الرحمن ﴿ مُحَدَّثٍ ﴾ أي جديد في النزول^(٤) ، ينزل وقتاً بعد وقت ﴿ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ معرضين ﴾ أي إلا كذبوا به

(١) البيت لخداش بن زهير ضرب مثلاً لمن ينتسب إليه الإنسان من شريف أو وضع . (٢) انظر ما كتبه في أول سورة البقرة حول الحروف المقطعة فيه الغنية والكفاية .

(٣) حاشية الصاوي على الجلالين ١٦٧/٣ . (٤) معنى « محدث » أي محدث في نزوله وإلا فكلام الله قديم لا يوصف بالحدوث كما لا يوصف بأنه مخلوق .

مُعْرِضِينَ ﴿٥﴾ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَاتِهِمْ أَنْبَأُوا مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٩﴾ وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنْ أَنْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿١٢﴾ وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ ﴿١٣﴾

واستهزءوا ولم يتأملوا بما فيه من المواعظ والعبر ﴿٥﴾ فقد كذبوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴿٦﴾ أي فقد بلغوا النهاية في الإعراض والتكذيب فسوف يأتيهم عاقبة ما كذبوا واستهزءوا به ، ثم نبه تعالى على عظمة سلطانه ، وجلالة قدره في مخلوقاته ومصنوعاته ، الدالة على وحدانيته وكمال قدرته فقال ﴿٧﴾ أولم يروا إلى الأرض كم أنبتنا فيها من كل زوج كريم ﴿٨﴾ أي أولم ينظروا إلى عجائب الأرض كم أخرجنا فيها من كل صنف حسن محمود ، كثير الخير والمنفعة ؟ والاستفهام للتوبيخ على تركهم الاعتبار ﴿٩﴾ إن في ذلك لآية ﴿١٠﴾ أي إن في ذلك الإنبات لآية باهرة تدل على وحدانية الله وقدرته ﴿١١﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٢﴾ أي وما كان أكثرهم يؤمن في علم الله تعالى ، فمع ظهور الدلائل الساطعة يستمر أكثرهم على كفرهم ﴿١٣﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿١٤﴾ أي هو سبحانه الغالب القاهر ، القادر على الانتقام ممن عصاه ، الرحيم بخلقهم حيث أمهلهم ولم يعجل لهم العقوبة مع قدرته عليهم قال أبو العالية : العزيز في نعمته ممن خالف أمره وعبد غيره ، الرحيم بمن تاب إليه وأناب وقال الفخر الرازي : إنما قدم ذكر ﴿١٥﴾ العزيز ﴿١٦﴾ على ﴿١٧﴾ الرحيم ﴿١٨﴾ لأنه ربما قيل : إنه رحمهم لعجزه عن عقوبتهم ، فأزال هذا الوهم بذكر العزيز وهو الغالب القاهر ، ومع ذلك فإنه رحيم بعباده ، فإن الرحمة إذا كانت مع القدرة الكاملة كانت أعظم وقعا ﴿١٩﴾ وإذ نادى ربك موسى ﴿٢٠﴾ أي واذكر يا محمد لأولئك المعرضين المكذبين من قومك حين نادى ربك نبيه موسى من جانب الطور الأيمن أمراً له أن يذهب إلى فرعون وملئه ﴿٢١﴾ أن أنت الظالمين ﴿٢٢﴾ أي بأن أنت هؤلاء الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بالكفر والمعاصي ، واستعباد الضعفاء من بني إسرائيل ﴿٢٣﴾ قوم فرعون ﴿٢٤﴾ أي هم قوم فرعون ، وهو عطف بيان كأن القوم الظالمين وقوم فرعون شيء واحد ﴿٢٥﴾ ألا يتقون ﴿٢٦﴾ ؟ أي ألا يخافون عقاب الله ؟ وفيه تعجيب من غلوهم في الظلم وإفراطهم في العدوان ﴿٢٧﴾ قال رب إني أخاف أن يكذبون ﴿٢٨﴾ أي قال موسى يا رب إني أخاف أن يكذبوني في أمر الرسالة ﴿٢٩﴾ ويضيق صدري ﴿٣٠﴾ أي ويضيق صدري من تكذيبهم أيائي ﴿٣١﴾ ولا ينطلق لساني ﴿٣٢﴾ أي ولا ينطلق لساني بأداء الرسالة على الوجه الكامل ﴿٣٣﴾ فأرسل إلى هارون ﴿٣٤﴾ أي فأرسل إلى هارون ليعينني على تبليغ رسالتك قال المفسرون : التمس موسى العذر بطلب المعين بثلاثة أعذار كل واحد منها مرتب على ما قبله وهي : خوف التكذيب ، وضيق الصدر ، وعدم انطلاق اللسان ، فالتكذيب سبب لضيق القلب ، وضيق القلب سبب لتعسر الكلام ، وبالأخص على من كان في لسانه حبسة كما في قوله

وَلَهُمْ عَلَى ذَنْبٍ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِأَيَّتِنَا ^ط إِنَّا مَعَكُمْ مُسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأَتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا
 إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ أَنْ أَرْسَلَ مَعَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٧﴾ قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ
 سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعَلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ قَالَ فَعَلْتُهَا إِذَا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾
 فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدَتْ
 ﴿واحللُّ عقدة من لساني يفقهوا قولي﴾ ثم زاد اعتذاراً آخر بقوله ﴿ولههم علي ذنب فأخاف أن يقتلوني﴾ أي ولفرعون وقومه علي دعوى ذنب وهو أنني قتلت منهم قبطياً فأخاف أن يقتلوني به ﴿قال كلاً﴾ أي قال الله تعالى له : كلاً لن يقتلوك قال القرطبي : وهو ردع وزجر عن هذا الظن ، وأمر بالثقة بالله تعالى أي ثق بالله وانزجر عن خوفك منهم فإنهم لا يقدرُونَ على قتلِكَ ^(١) ﴿فاذهبا بآياتنا﴾ أي اذهبا أنت وهارون بالبراهين والمعجزات الباهرة ﴿إنا معكم مستمعون﴾ أي فأنا معكم بالعون والنصرة أسمع ما تقولان وما يجيبكما به ، وصيغة الجمع « معكم » أريد به التثنية فكأنها لشرفها عند الله عاملهما في الخطاب معاملة الجمع تشريفاً لهما وتعظيماً ^(٢) ﴿فأتيا فرعون فقولا إنا رسول رب العالمين﴾ أي فأتيا فرعون الطاغية وقولا له : إنا مرسلان من عند رب العالمين إليك لندعوك إلى الهدى ﴿أن أرسل معنا بني إسرائيل﴾ أي أطلق بني إسرائيل من إيسارك واستعبادك وخل سبيلهم حتى يذهبوا معنا إلى الشام ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ في الكلام حذف يدل عليه المعنى تقديره : فأتياه فبلغاه الرسالة فقال فرعون لموسى عندئذ : ألم نربك في منازلنا صبيّاً صغيراً ؟ قصد فرعون بهذا الكلام المن على موسى والاحتقار له كأنه يقول : ألسنت أنت الذي ربيناك صغيراً وأحسننا إليك فمتى كان هذا الأمر الذي تدعيه ؟ ﴿ولبثت فينا من عمرِكَ سنين﴾ أي ومكثت بين ظهرانينا سنين عديدة نحسن إليك ونزعاك ؟ قال مقاتل : ثلاثين سنة ﴿وفعلت فعلتك التي فعلت﴾ أي فجازيتنا على أن ربيناك أن كفرت نعمتنا وقتلت منا نفساً ؟ والتعبيرُ بالفعل لتهويل الواقعة وتعظيم الأمر ، ومراده قتل القبطي ﴿وأنت من الكافرين﴾ أي وأنت من الجاحدين لأنعمانا الكافرين بإحساننا قال ابن عباس : من الكافرين لنعمتي إذ لم يكن فرعون يعلم ما الكفر ^(٣) ﴿قال فعلتها إذا وأنا من الضالين﴾ أي قال موسى : فعلت تلك الفعل وأنا من المخطئين لأنني لم أتعمد قتله ولكن أردت تأديبه ، ولم يقصد عليه السلام الضلال عن الهدى لأنه معصوم منذ الصغر وقال ابن عباس : ﴿وأنا من الضالين﴾ أي الجاهلين ﴿ففررتُ منكم لما خفتكم﴾ أي فهربتُ إلى أرض مدين حين خفت على نفسي أن تقتلوني وتؤاخذوني بما لا أستحقه ﴿فوهب لي ربي حكماً﴾ أي فأعطاني الله النبوة والحكمة ﴿وجعلني من المرسلين﴾ أي واختارني رسولاً إليك ، فإن أمنتَ سلمت ، وإن جحدتَ هلكت ﴿وتلك نعمة تمنُّها علي أن عبَّدت بني

(١) القرطبي ٩٢/١٣ . (٢) هذا ما خرَّج به سيويه رحمه الله الآية نقلاً عن البحر المحيط ٨/٧ .

(٣) وقال الحسن : يريد إنك من الكافرين بالوهمي ورجح الطبري قول ابن عباس وهو الأظهر .

بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ مُوقِنِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ ۖ أَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٢٥﴾ قَالَ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾ قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾ قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ لِيْنِ اتَّخَذَتْ إِلَٰهًا غَيْرِي لَا جَعَلَنكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾

إسرائيل ﴿٢٢﴾ أي كيف تمن علي بإحسانك إلي وقد استعبدت قومي ^(١) ؟ فما تعدّه نعمة ما هو إلا نعمة قال ابن كثير : المعنى ما أحسنت إلي وربيتني مقابل ما أسأت إلى بني إسرائيل فجعلتهم عبيداً وخداماً ، أفيفي إحسانك إلى رجل واحد منهم بما أسأت إلى مجموعهم ^(٢) ؟ وقال الطبري : أي أتمن علي أن اتخذت بني إسرائيل عبيداً ^(٣) ؟ ﴿قال فرعون وما رب العالمين﴾ أي قال فرعون متعالياً متكبراً : من هو هذا الذي تزعم أنه رب العالمين ؟ هل هناك إلهٌ غيري ؟ لأنه كان يجحد الصانع ويقول لقومه ﴿ما علمت لكم من إلهٍ غيري﴾ ﴿قال رب السموات والأرض وما بينهما﴾ أي قال موسى : هو خالق السموات والأرض ، والمتصرف فيهما بالإحياء والإعدام ، وهو الذي خلق الأشياء كلها من بحار وقفار ، وجبال وأشجار ، ونبات وثمار ، وغير ذلك من المخلوقات البديعة ﴿إن كنتم موقنين﴾ أي إن كانت لكم قلوب موقنة ، وأبصار نافذة ، فهذا أمر ظاهر جلي ﴿قال لمن حوله ألا تستمعون﴾ أي قال فرعون لمن حوله من أشراف قومه على سبيل التهكم والاستهزاء : ألا تسمعون جوابه وتعجبون من أمره ؟ أسأله عن حقيقة الله فيجيبني عن صفاته ، فأجاب موسى وزاد في البيان والحجة ﴿قال ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ أي هو خالقكم وخالق آبائكم الذين كانوا قبلكم ، فوجودكم دليل على وجود القادر الحكيم ، عدل عن التعريف العام إلى التعريف الخاص لأن دليل الأنفس أقرب من دليل الآفاق ، وأوضح عند التأمل ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾ فعند ذلك غضب فرعون ونسب موسى إلى الجنون ﴿قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ سمّاه رسولاً استهزاءً وأضافه إلى المخاطبين استنكافاً من نسبته له أي إن هذا الرسول لمجنون لا عقل له ، أسأله عن شيء فيجيبني عن شيء ، فلم يحفل موسى بسخرية فرعون وعاد إلى تأكيد الحجة بتعريف ثالث أوضح من الثاني ﴿قال رب المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون﴾ أي هو تعالى الذي يطلع الشمس من المشرق ويجعلها تغرب من المغرب ، وهذا مشاهد كل يوم يبصره العاقل والجاهل ولهذا قال ﴿إن كنتم تعقلون﴾ أي إن كان لكم عقول أدركتم أن هذا لا يقدر عليه إلا رب العالمين ، وهذا من أبلغ الحجج التي تقصم ظهر الباطل كقول إبراهيم في مناظرة النمرود ﴿قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتت بها من المغرب فبهت الذي كفر﴾ ولما انقطع فرعون وأبلس في الحجة رجع إلى الاستعلاء متوعداً بالبطش والعنف ﴿قال لئن اتخذت إلهاً غيري لأجعلنك من المسجونين﴾ أي لئن اتخذت رباً غيري لألقينك في غياهب السجن قال المفسرون : وكان

(١) هذا معنى ما قاله مقاتل . (٢) ابن كثير المختصر ٦٤٥/٢ . (٣) الطبري ٤٣/١٩ .

قَالَ أَوْلَوْجِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾ قَالَ فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ ﴿٣٢﴾ وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنّٰظِرِينَ ﴿٣٣﴾ قَالَ لِلْمَلَأِ حَوْلَهُ إِنَّ هَٰذَا لَسِحْرٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ ﴿٣٥﴾ قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَبْعَثْ فِي الْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ ﴿٣٦﴾ يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَحَابٍ عَلِيمٍ ﴿٣٧﴾

سجنه شديداً يحبس الشخص في مكان تحت الأرض وحده لا يبصر ولا يسمع فيه أحداً حتى يموت ولهذا لم يقل «لأسجنتك» وإنما قال لأجعلتك من المسجونين لأن سجنه كان أشد من القتل قال في التسهيل : لما أظهر فرعون الجهل بالله فقال ﴿وما رب العالمين﴾ أجابه موسى بقوله ﴿رب السموات والأرض﴾ فقال ﴿ألا تستمعون﴾ ؟ تعجباً من جوابه ، فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿ربكم ورب آبائكم الأولين﴾ لأن وجود الإنسان وآبائه أظهر الأدلة عند العقلاء ، وأعظم البراهين ، فإن أنفسهم أقرب الأشياء إليهم فيستدلون بها على وجود خالقهم ، فلما ظهرت هذه الحجة حاد فرعون عنها ونسب موسى إلى الجنون مغالطة منه ، وأيده بالازدراء والتهكم في قوله ﴿إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون﴾ فزاد موسى في إقامة الحجة بقوله ﴿رب المشرق والمغرب﴾ لأن طلوع الشمس وغروبها آية ظاهرة لا يمكن أحداً جحدها ولا أن يدعيها لغير الله ، فلما انقطع فرعون بالحجة رجع إلى الاستعلاء والتغلب فهذهه بالسجن ، فأقام موسى عليه الحجة بالمعجزة وذكرها له بتلطف طمعاً في إيمانه ^(١) ﴿قال أولو جئتكم بشيء مبين﴾ أي أتسجنني ولو جئتكم بأمر ظاهر ، وبرهان قاطع تعرف به صدقي ؟ ﴿قال فأت به إن كنت من الصادقين﴾ أي فأت بما تقول إن كنت صادقاً في دعواك ﴿فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين﴾ أي رمى موسى عصاه فإذا هي حية عظيمة في غاية الجلاء والوضوح ، ذات قوائم وفم كبير وشكل هائل مزعج ﴿ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ أي وأخرج يده من جيبه فإذا هي تتلألأ كالشمس الساطعة ، لها شعاع يكاد يعشي الأبصار ويسد الأفق ﴿قال للملأ حوله إن هذا لساحر مبين﴾ أي قال فرعون لأشرف قومه الذين كانوا حوله : إن هذا لساحر عظيم بارع في فن السحر . أراد أن يعمي على قومه تلك المعجزة برميهِ بالسحر خشية أن يتأثروا بما رأوا ﴿يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره﴾ أي يريد أن يستولي على بلادكم بسحره العظيم ﴿فماذا تأمرون﴾ أي فبأي شيء تأمرونني وبما تشيرون عليّ أن أصنع به ؟ لما رأى فرعون تلك الآيات الباهرة خاف على قومه أن يتبعوه ، فتنزل إلى مشاورتهم بعد أن كان مستبداً بالرأي والتدبير ﴿قالوا أرجه وأخاه﴾ أي أخر أمرهما ﴿وأبعث في المدن حاشرين﴾ أي وأرسل في أطراف مملكته من يجمع لك السحرة من كل مكان ﴿يأتوك بكل سحر عليم﴾ أي يجيئوك بكل ساحر ماهر ، عليم بضروب السحر قال ابن كثير : وكان هذا من تسخير الله تعالى ليجتمع الناس في صعيد واحد ، وتظهر آيات الله وحججه وبراهينه على الناس في النهار جهرة ^(٢)

فَجُمِعَ السَّحَرَةُ لِمِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢٨﴾ وَقِيلَ لِلنَّاسِ هَلْ أَنْتُمْ مُجْتَمِعُونَ ﴿٢٩﴾ لَعَلَّنَا نَتَّبِعُ السَّحَرَةَ إِنْ كَانُوا هُمْ
 الْغَالِبِينَ ﴿٣٠﴾ فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَأْجُرُكَ إِنَّا نَكُنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنِّكُمْ إِذَا لَمِنَ
 الْمُقَرَّبِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَّهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ
 الْغَالِبُونَ ﴿٣٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٣٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سَجْدِينَ ﴿٣٦﴾ قَالُوا
 آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٣٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ

﴿فجمع السحرة لميقات يوم معلوم﴾ أي فاجتمع السحرة للموعد المحدد وهو وقت الضحى من يوم الزينة ، وهو الوقت الذي حدده موسى ، ليظهر الحق ويزهق الباطل على رؤوس الأشهاد كما قال تعالى ﴿قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشرناس ضحى﴾ ﴿وقيل للناس هل أنتم مجتمعون لعلنا نتبع السحرة إن كانوا هم الغالبين﴾ أي قيل للناس : بادروا إلى الاجتماع لكي نتبع السحرة في دينهم إن غلبوا موسى ﴿فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئننا لأجرك إن كنا نحن الغالبين﴾ أي إن غلبنا بسحرنا موسى فهل تكرمنا بالمال والأجر الجزيل ؟ ﴿قال نعم وإنكم إذا لمن المقربين﴾ أي قال لهم فرعون : نعم أعطيكم ما تريدون وأجعلكم من المقربين عندي ومن خاصة جلسائي ﴿قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون﴾ في الكلام إيجاز دل عليه السياق تقديره : فقالوا لموسى عند ذلك إما أن تلقني وإما أن نكون نحن الملحقين كما ذكر في الأعراف فأجابهم موسى بقوله ﴿ألقوا ما أنتم ملقون﴾ أي ابدعوا بإلقاء ما تريدون فأن لا أخشاكم ، قاله ثقة بنصرة الله له وتوسلاً لإظهار الحق ﴿فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون﴾ أي فألقوا ما بأيديهم من الحبال والعصي وقالوا عند الإلقاء نقسم بعظمة فرعون وسلطانة إنا نحن الغالبون لموسى ﴿فألقي موسى عصاه فإذا هي تلقف ما يأفكون﴾ أي فألقى موسى العصى فانقلبت حية عظيمة فإذا هي تبتلع وتزدد الحبال والعصي التي اختلقوها باسم السحر حيث خيلوها للناس حيات تسعى ، وسمى تلك الأشياء إفكاً مبالغة ﴿فألقي السحرة ساجدين﴾ أي سجدوا لله رب العالمين ، بعدما شاهدوا البرهان الساطع ، والمعجزة الباهرة ﴿قالوا آمنا برب العالمين﴾ ﴿رب موسى وهارون﴾ أي وقالوا عند سجودهم آمنا بالله العزيز الكبير الذي يدعونا إليه موسى وهارون قال الطبري : لما تبين للسحرة أن الذي جاءهم به موسى حق لا سحر ، وأنه مما لا يقدر عليه غير الله الذي فطر السموات والأرض ، خرّوا لوجوههم سجداً لله مدعين له بالطاعة قائلين : آمنا برب العالمين الذي دعانا موسى لعبادته ، دون فرعون وملئه ^(١) ﴿قال آمنتم له قبل أن آذن لكم﴾ أي قال فرعون للسحرة : آمنتم لموسى قبل أن تستأذنوني ؟ ﴿إنه لكبيركم الذي علمكم السحر﴾ أي إنه

السِّحْرِ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَا قِطْعَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِّنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَيْنَكُمُ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنْقَلِبُونَ ﴿٥٢﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَتَنَا أَن كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾

رئيسكم الذي تعلمتم منه السحر وتواطأتم معه ليظهر أمره ، أراد فرعون بهذا الكلام التلبيس على قومه لئلا يعتقدوا أن السحرة آمنوا عن بصيرة وظهور حق قال ابن كثير : وهذه مكابرة يعلم كل أحد بطلانها ، فإنهم لم يجتمعوا بموسى قبل ذلك اليوم ، فكيف يكون كبيرهم الذي أفادهم صناعة السحر ؟ هذا لا يقوله عاقل ^(١) ، ثم توعدهم بقوله ﴿فلسوف تعلمون﴾ أي سوف تعلمون عند عقابي وبال ما صنعتهم من الإيمان به ﴿لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلف﴾ أي لأقطعن يد كل واحد منكم اليمنى ورجله اليسرى ﴿ولأصلبنكم أجمعين﴾ أي ولأصلبن كل واحد منكم على جذع شجرة وأتركه حتى الموت ﴿قالوا لا ضير إننا إلى ربنا منقلبون﴾ أي لا ضرر علينا في وقوع ما أوعدتنا به ، ولا نبالي به لأننا نرجع إلى ربنا مؤملين غفرانه ﴿إننا نطمع أن يغفر لنا ربنا خطايانا﴾ أي إننا نرجو أن يغفر لنا الله ذنوبنا التي سلفت منا قبل إيماننا به فلا يعاقبنا بها ﴿أن كنا أول المؤمنين﴾ أي بسبب أن بادرنا قومنا إلى الإيمان وكنا أول من آمن بموسى .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الكناية اللطيفة ﴿فظلت أعناقهم لها خاضعين﴾ كنى به عن الذل والهوان الذي يلحقهم بعد العز والكبرياء .
- ٢ - الوعيد والتهديد ﴿فسياتيهم أنباء ما كانوا به يستهزئون﴾ .
- ٣ - التوبيخ ﴿أولم يروا إلى الأرض﴾ الاستفهام للتوبيخ على تركهم النظر بعين الاعتبار .
- ٤ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ويضيق صدري﴾ و﴿ولا ينطلق لساني﴾ .
- ٥ - جناس الاشتقاق ﴿رسول . . وأرسل﴾ .
- ٦ - الجناس الناقص ﴿وفعلت فعلتك﴾ فقد اتفقت الحروف بين ﴿فعلت وبين فعلة﴾ واختلف الشكل فأصبح جناساً غير تام .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿قال ألم نربك فينا وليداً﴾ دل على هذا الحذف السياق تقديره فأتيا فرعون فقال له ذلك فقال لموسى ﴿ألم نربك﴾ وكذلك هناك إيجاز في ﴿فأرسل إلى هارون﴾ قال الزمخشري : أصله أرسل جبريل إلى هارون واجعله نبياً وأزرنى به واشدد به عضدي فأحسن في الاختصار غاية الإحسان ^(١) .

٨ - صيغة التعجيب ﴿أَلَا تَسْتَمْعُونَ﴾ .

٩ - التأكيد بإن واللام لأن السامع متشكك ومتردد ﴿إِنْ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ ومثله قول السحرة في بدء المناظرة ﴿إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ وهذا من خصائص علم البيان .
١٠ - الطباق بين ﴿المشرق . . والمغرب﴾ ثم توافق الفواصل وهو من السجع البديع .

لطيفة : إن قيل كيف قال موسى في بدء مناظرته لفرعون وقومه ﴿إِنْ كُنْتُمْ مَوْقِنِينَ﴾ ثم قال آخراً ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ فالجواب أنه تَلَطَّفَ ولأين أولاً طمعاً في إيمانهم ، فلما رأى منهم العناد والمغالطة وبخهم بقوله ﴿إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وجعل ذلك في مقابلة قول فرعون ﴿إِنْ رَسُولَكُمْ لَمَجْنُونٌ﴾ فسلك موسى طريق الحكمة .

قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي . . إِلَى . . وَإِنْ رَبُّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ من آية (٥٢) إلى نهاية آية (١٠٤) .

المناسبة : ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه السورة سبع قصص : أولها قصة موسى وهارون ، وثانيها قصة إبراهيم ، وثالثها قصة نوح ، ورابعها قصة هود ، وخامسها قصة صالح وسادسها قصة لوط وسابعها قصة شعيب ، وكل تلك القصص لتسلية الرسول ﷺ عما يلقيه من المشركين ، ولا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .

اللفظ : ﴿أسر﴾ من الإسرائ وهو السير ليلاً فلا يقال لمن سار نهاراً أسرى وإنما هو خاص بالليل ﴿شرذمة﴾ الشرذمة : الجمع القليل الحقير والجمع شراذم قال الجوهري : الشرذمة الطائفة من الناس ، والقطعة من الشيء ، وثوب شراذم أي قطع ^(١) ﴿أزلفنا﴾ قربنا ومنه ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ أي قربت قال الشاعر :

وكل يوم مضى أو ليلة سلفت
فيها النفوس إلى الأجال تزدلف ^(٢)

﴿فككبوا﴾ كَبَبَ الشيء : قلبَ بعضه على بعض قال ابن عطية : وهو مضاعف من كب وهذا قول الجمهور مثل صر ، وصرصر ، وقال الزمخشري : الكببة : تكرير الكب جعل التكرير في اللفظ دليلاً على التكرير في المعنى كأنه إذا أُلقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها ^(٣) ﴿حميم﴾ الحميم : الصديق الخالص الذي يهيم ما أهمك ﴿كرة﴾ الكرة : العودة والرجوع مرة أخرى .

* وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾

النفسي : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يسير ليلاً إلى جهة البحر ببني إسرائيل قال القرطبي : أمر الله موسى أن يخرج ببني إسرائيل ليلاً ، وسمّاهم عباده لأنهم آمنوا بموسى ^(٤) ﴿إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ أي يتبعكم فرعون وقومه ليردوكم إلى أرض مصر ويقتلوكم

فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٥٩﴾ فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾

﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾ أي أرسل فرعون في طلبهم حين أخبر بمسيرهم وأمر أن يُجمع له الجيش من كل المدن قائلًا لهم ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ﴾ أي طائفة قليلة قال الطبري : كان بنو إسرائيل ستمائة وسبعين ألفاً^(١) ولكنه قللهم بالنسبة إلى كثرة جيشه ﴿وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ﴾ أي وإنهم يفعلون أفعالاً تغيظنا وتضيق صدورنا ﴿وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ﴾ أي ونحن قوم متيقظون منتبهون ، من عادتنا التيقظ والحذر ، واستعمال الحزم في الأمور قال الزمخشري : وهذه معاذير اعتذر بها إلى قومه لثلا يُظنُّ به ما يكسر من قهره وسلطانه^(٢) ، قال تعالى ﴿فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ﴾ أي أخرجنا فرعون وقومه من بساتين كانت لهم وأنهار جارية ﴿وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ أي وأخرجناهم من الأموال التي كنزوها من الذهب والفضة ، ومن المنازل الحسنة والمجالس البهية ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي مثل ذلك الإخراج الذي وضعناه فعلنا بهم ، وأورثنا بني إسرائيل ديارهم وأموالهم بعد إغراق فرعون وقومه ﴿فَاتَّبَعُوهُمْ مُشْرِقِينَ﴾ أي فلحقوهم وقت شروق الشمس ﴿فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ﴾ أي فلما رأى كل منهما الآخر ، والمراد جمع موسى وجمع فرعون ﴿قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ أي ملحقون يلحقنا فرعون وجنوده فيقتلوننا ، قالوا ذلك حين رأوا فرعون الجبار وجنوده وراءهم ، والبحر أمامهم ، وساءت ظنونهم ﴿قَالَ كَلَّا﴾ أي قال موسى كلاً لن يدركوكم فارتدعوا عن مثل هذا الكلام وانزجروا ﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ إنَّ ربي معي بالحفظ والنصرة ، وسيهديني إلى طريق النجاة والخلاص قال الرازي : قوى نفوسهم بأمرين : أحدهما أن ربه معه وهذا دلالة النصر والتكفل بالمعونة والثاني قوله ﴿سَيَهْدِينِ﴾ أي إلى طريق النجاة والخلاص ، وإذا دلَّه على طريق نجاته وهلاك أعدائه فقد بلغ النهاية في النصر^(٣) ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ﴾ أي أمرنا موسى بطريق الوحي أن يضرب البحر بعصاه ﴿فَانْفَلَقَ﴾ أي فضربه فانشق وانفلق ﴿فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ﴾ أي فكان كل جزء منه كالجبل الشامخ الثابت قال ابن عباس : صار فيه اثنا عشر طريقاً لكل سبطٍ منهم طريق^(٤) ﴿وَأَزْلَفْنَا ثَمَ الْآخِرِينَ﴾ أي وقربنا هناك فرعون وجماعته حتى دخلوا البحر على إثر دخول بني إسرائيل ﴿وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ﴾ أي أنجينا موسى والمؤمنين معه جميعاً ﴿ثُمَّ

(١) الطبري ٤٦/١٩ . (٢) الكشف ٢٤٨/٣ . (٣) التفسير الكبير ١٣٨/٢٤ . (٤) ابن كثير المختصر ٦٤٩/٢ .

ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦٨﴾
وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظُلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾
قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾
قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٧٧﴾ الَّذِي
خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾

أغرقنا الآخرين ﴿٦٦﴾ أي أغرقنا فرعون وقومه قال المفسرون : لما انفلق البحر جعله الله ييساً لموسى وقومه ، وصار فيه اثنا عشر طريقاً ووقف الماء بينها كالطود العظيم ، فلما خرج أصحاب موسى وتكامل دخول أصحاب فرعون أمر الله البحر أن يطبق عليهم فغرقوا فيه ، فقال بعض أصحاب موسى : ما غرق فرعون ! فنبذ على ساحل البحر حتى نظروا إليه ﴿٦٧﴾ في ذلك لآية ﴿٦٨﴾ أي إن في إغراق فرعون وقومه لعبرة عظيمة على إنجاء الله لأوليائه ، وإهلاكه لأعدائه ﴿٦٩﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿٧٠﴾ أي ومع مشاهدة هذه الآية العظمى لم يؤمن أكثر البشر ، وفيه تسلية للنبي ﷺ ووعيد لمن عصاه ﴿٧١﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿٧٢﴾ أي المنتقم من أعدائه الرحيم بأوليائه ﴿٧٣﴾ واتل عليهم نبأ إبراهيم ﴿٧٤﴾ هذه بداية قصة إبراهيم أي اقصص عليهم يا محمد خبر إبراهيم الهام وشأنه العظيم ﴿٧٥﴾ إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ﴿٧٦﴾ أي حين قال لأبيه وعشيرته أي شيء تعبدون ؟ سألهم مع علمه بأنهم يعبدون الأصنام ليبيّن لهم سفاهة عقولهم في عبادة ما لا ينفع ، ويقيم عليهم الحجة ﴿٧٧﴾ قالوا نعبد أصناماً فنظل لها عاكفين ﴿٧٨﴾ أي نعبد أصناماً فنبقى مقيمين على عبادتها لا نتركها ، قالوا ذلك على سبيل الابتهاج والافتخار ، وكان يكفيهم أن يقولوا : نعبد الأصنام ولكنهم زادوا في الوصف كالمفتخر بما يصنع ﴿٧٩﴾ قال هل يسمعونكم إذ تدعون ﴿٨٠﴾ أي قال لهم إبراهيم على سبيل التبكيت والتوبيخ : هل يسمعون دعاءكم حين تلجأون إليهم بالدعاء ؟ ﴿٨١﴾ أو ينفعونكم أو يضرونكم ؟ أي وهل يبذلون لكم منفعة ، أو يدفعون عنكم مضرة ؟ ﴿٨٢﴾ قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴿٨٣﴾ أي وجدنا آبائنا يعبدونهم ففعلنا مثلهم قال أبو السعود : اعترفوا بأنها لا تنفع ولا تضر بالمرّة ، واضطروا إلى إظهار الحقيقة وهي أنه لا سند لهم سوى التقليد ﴿٨٤﴾ ، وهذا من علامات انقطاع الحجة ﴿٨٥﴾ قال أفأرأيتم ما كنتم تعبدون * أنتم وأباؤكم الأقدمون ﴿٨٦﴾ أي قال إبراهيم : أفأرأيتم هذه الأصنام التي عبدتموها من دون الله أنتم وأباؤكم الأولون ؟ ﴿٨٧﴾ فإنهم عدوّ لي إلا رب العالمين ﴿٨٨﴾ أي فإن هذه الأصنام أعداء لي لا أعبدهم ، ولكن أعبد الله رب العالمين فهو وليي في الدنيا والآخرة ، أسند العداوة لنفسه تعريضاً بهم وهو أبلغ في النصيحة من التصريح ﴿٨٩﴾ الذي خلقني فهو يهدين ﴿٩٠﴾ أي الله

(١) قال الفخر الرازي : ذكر تعالى في أول السورة حزن النبي ﷺ بسبب كفر قومه ، ثم ذكر قصة موسى ليعرف محمد أن مثل تلك المحنة كانت حاصلة لموسى ، ثم ذكر عقبها قصة إبراهيم ليعرف محمد أيضاً أن حزن إبراهيم بهذا السبب كان أشد من حزنه ، لأن من عظيم المحنة على إبراهيم أن يرى أباه وقومه في النار وهو لا يتمكن من إنقاذهم إلا بالدعاء والتنبية . التفسير الكبير ١٤٢/٢٤ (٢) أبو السعود ١٠٩/٤ .

وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً وَالْحَقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴿٨٣﴾ وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ ﴿٨٤﴾ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ جَنَّةِ النَّعِيمِ ﴿٨٥﴾ وَاعْفُرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴿٨٧﴾ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٩٠﴾ وَبُرُزَّتِ السَّجِدَاتُ لِلْغَاوِينَ ﴿٩١﴾

الذي خلقني هو الذي يهديني إلى طريق الرشاد لا هذه الأصنام ﴿والذي هو يطعمني ويسقين﴾ أي هو تعالى الذي يرزقني الطعام والشراب فهو الخالق الرازق الذي ساق المُرْن ، وأنزل المطر ، وأخرج به أنواع الثمرات رزقاً للعباد ﴿وإذا مرضت فهو يشفين﴾ أي وإذا أصابني المرض فإنه لا يقدر على شفائي أحد غيره ، وإنما أسند المرض إلى نفسه ﴿مرضت﴾ وأسند الشفاء إلى الله رعاية للأدب ، وإلا فالمرض والشفاء من الله جل وعلا فاستعمل في كلامه حسن الأدب ﴿والذي يميتني ثم يحييني﴾ أي وهو تعالى المحيي المميت لا يقدر على ذلك أحد سواه ، يميتني إذا شاء ثم يحييني إذا أراد بعد مماتي ﴿والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين﴾ أي أرجو من واسع رحمته أن يغفر لي ذنبي يوم الحساب والجزاء حيث يجازي العباد بأعمالهم ، وفيه تعليم للأمة أن يستغفروا من ذنوبهم ويقرؤا بخطاياهم ﴿رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين﴾ أي هب لي الفهم والعلم والحقني في زمرة عبادك الصالحين ﴿واجعل لي لسان صدق﴾ أي اجعل لي ذكراً حسناً وثناً عاطراً ﴿في الآخرين﴾ أي فيمن يأتي بعدي إلى يوم القيامة ، أذكر به ويقتدى بي^(١) قال ابن عباس : هو اجتماع الأمم عليه ، فكل أمة تتمسك به وتُعظمه ﴿واجعلني من ورثة جنة النعيم﴾ أي من السعداء في الآخرة الذين يستحقون ميراث جنات الخلد ﴿واعفُرْ لأبي﴾ أي اصفح عنه واهده إلى الإيمان ﴿إنه كان من الضالين﴾ أي ممن ضلَّ عن سبيل الهدى قال الصاوي : وقد أجابه الله تعالى في جميع دعواته سوى الدعاء بالغفران لأبيه^(٢) وقال القرطبي : كان أبوه وعده أن يؤمن به فلذلك استغفر له ، فلما بان له أنه لا يفي تبرأ منه^(٣) ﴿ولا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ أي لا تُذلِّني ولا تُهْني يَوْمَ تَبْعَثُ الخلائق للحساب ، وهذا تواضع منه أمام عظمة الله وجلاله وإلا فقد أثنى الله عليه بقوله ﴿إن إبراهيم كان أمة﴾ الآية ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ﴾ أي في ذلك اليوم العصيب لا ينفع أحداً فيه مالٌ ولا ولد ﴿إلا من أتى الله﴾ أي إلا من جاء ربّه في الآخرة ﴿بقلب سليم﴾ أي بقلب نقي طاهر ، سليم من الشرك والنفاق ، والحسد والبغضاء ، وإلى هنا تنتهي دعوات الخليل إبراهيم ثم قال تعالى ﴿وأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ أي قُرِبَتِ الجنة للمتقين لربهم ليدخلوها قال الطبري : وهم الذين اتقوا عقاب الله بطاعتهم إياه في الدنيا^(٤) ﴿وبُرُزَّتِ السَّجِدَاتُ لِلْغَاوِينَ﴾ أي

(١) قال بعض العلماء : في الآية دليل على استحباب كسب الذكر الجميل إذ هو الحياة الثانية وأنشدوا « قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء » .

(٢) الصاوي على الجلائل ٣/ ١٧٥ . (٣) القرطبي ١٣/ ١١٤ . (٤) الطبري ١٩/ ٥٥ .

وَقِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٩٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ هَلْ يَنْصُرُونَكُمْ أَوْ يَنْتَصِرُونَ ﴿٩٣﴾ فَكُفُّوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴿٩٤﴾ وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ ﴿٩٥﴾ قَالُوا وَهُمْ فِيهَا يَخْتَصِمُونَ ﴿٩٦﴾ تَاللَّهِ إِنَّ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾ وَمَا أَضَلَّنَا إِلَّا الْمُجْرِمُونَ ﴿٩٩﴾ فَمَا لَنَا مِنْ شَافِعِينَ ﴿١٠٠﴾ وَلَا صَدِيقٍ حَمِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَكُونُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٢﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٠٤﴾

وأظهرت النار للمجرمين الضالين حتى رأوها بارزة أمامهم مكشوفة للعيان ، فالؤمنون يرون الجنة فتحصل لهم البهجة والسرور ، والغاؤون يرون جهنم فتحصل لهم المساءة والأحزان ﴿وقيل لهم﴾ أي قيل للمجرمين على سبيل التقرير والتوبيخ ﴿أين ما كنتم تعبدون من دون الله﴾ أي أين آلهتكم الذين عبدتموهم من الأصنام والأنداد ؟ ﴿هل ينصرونكم أو ينتصرون﴾ أي هل ينقذونكم من عذاب الله ، أو يستطيعون أن يدفعوه عن أنفسهم ؟ وهذا كله توبيخ ﴿فكفُّوا فيها﴾ أي ألقوا على رؤوسهم في جهنم قال مجاهد : دهوروا في جهنم وقال الطبري : رمي بعضهم على بعض ، وطُرح بعضهم على بعض منكبين على وجوههم ^(١) ﴿هم والغاؤون﴾ أي الأصنام والمشركون والعابدون والمعبودون كقوله ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ و﴿جنود إبليس أجمعون﴾ أي وأتباع إبليس قاطبة من الإنس والجن ﴿قالوا وهم فيها يختصمون﴾ أي قال العابدون لمعبودهم وهم في الجحيم يتنازعون ويتخاصمون ﴿تالله إن كنا لفي ضلالٍ مبين﴾ أي نقسم بالله لقد كنا في ضلالٍ واضح وبعده عن الحق ظاهر ﴿إذ نسويكم برب العالمين﴾ أي حين عبدناكم مع رب العالمين وجعلناكم مثله في استحقاق العبادة ﴿وما أضلنا إلا المجرمون﴾ أي وما أضلنا عن الهدى إلا الرؤساء والكبراء الذين زينوا لنا الكفر والمعاصي ﴿فما لنا من شافعين﴾ أي ليس لنا من يشفع لنا من هول هذا اليوم ﴿ولا صديق حميم﴾ أي ولا صديق خالص الود ينقذنا من عذاب الله ﴿فلو أن لنا كرة﴾ أي لو أن لنا رجعة إلى الدنيا ﴿فנקون من المؤمنين﴾ أي فنؤمن بالله ونحسن عملنا ونطيع ربنا ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن فيما ذكر من نبأ إبراهيم وقومه لعبرة يعتبر بها أولو الأبصار ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ أي وما كان أكثر هؤلاء المشركين الذين تدعوهم إلى الإسلام بمؤمنين ﴿وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ أي المنتقم من أعدائه ، الرحيم بأوليائه .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإيجاز بالحذف ﴿فانفلق﴾ أي فضرِب البحر فانفلق .

٢ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كالطود العظيم﴾ أي كالجبل في رسوخه وثباته ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

٣ - الطباق بين ﴿ينفعونكم أو يضرون﴾ وكذلك بين ﴿يميتني ثم يحييني﴾ .

٤ - مراعاة الأدب ﴿وإذا مرضتُ فهو يشفين﴾ لم يقل : وإذا أمرضني بل أسند المرض لنفسه تأدباً مع الله لأن الشر لا ينسب إليه تعالى أدباً ، وإن كان المرضُ والشفاء كلاهما من الله .

٥ - الاستعارة اللطيفة ﴿واجعل لي لسان صدق﴾ استعار اللسان للذكر الجميل والثناء الحسن وهو من لطف الاستعارات .

٦ - المقابلة البديعة ﴿وبُرزت الجحيم للغاوين﴾ مقابل قوله عن السعداء ﴿وأزلفت الجنة للمتقين﴾ .

٧ - مراعاة الفواصل في أواخر الآيات مثل ﴿المتقين ، والغاوين ، وضلال مبين﴾ وهو من السجع الحسن الذي يزيد في جمال البيان .

تنبية : « روي أن إبراهيم يلقي أباه آزر يوم القيامة ، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة فيقول له إبراهيم : ألم أقل لك لا تعصني ! فيقول أبوه : فاليوم لا أعصيك فيقول إبراهيم يا رب : إنك وعدتني ألا تخزني يوم يُبعثون ، فأني خزي أخزى من أبي الأبعد ؟ فيقول الله تعالى : إني حرمت الجنة على الكافرين ثم يقول يا إبراهيم : انظر تحت رجلك فينظر فإذا هو بذيخ - ذكر من الضباع - متلطح فيؤخذ بقوائمه فيلقى في النار » رواه البخاري .

قال الله تعالى : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين . . إلى . . وإن ربك هو العزيز الرحيم﴾ من آية (١٠٥) إلى نهاية آية (١٩١) .

المناسكة : لما قصَّ تعالى على نبيه محمد ﷺ خبر موسى وإبراهيم أتبعه بذكر قصة نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وكل ذلك تسليةً لرسول الله ﷺ فيما يلقاه من قومه ، وبياناً لسنة الله في عقاب المكذبين .

اللفكتر : ﴿المشحون﴾ المملوء يقال : شحن السفينة أي ملأها بالناس والدواب والطعام ﴿ريع﴾ الرِّيع : ما ارتفع من الأرض ، والرِّيعُ : الطريق ﴿مصانع﴾ المراد بها الحصون المشيدة وهو قول ابن عباس قال الشاعر :

تركنا ديارهم منهم قفاراً وهدمنا المصانع والبروجا^(١)

كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمُ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿١٨﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنِّي أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرِي ﴿٢٠﴾
* قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ ﴿٢١﴾ قَالَ وَمَا عَلَيَّ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾ إِنْ حَسَابُهُمْ إِلَّا عَلَى رَبِّي لَوْ
تَشْعُرُونَ ﴿٢٣﴾ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٤﴾ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٢٥﴾

﴿بطشتم﴾ البطش : السطوة والأخذ بالعنف يقال : بطش يبطش إذا أخذه بشدة وعنف ﴿الجبلة﴾ الخليفة قال الهروي : الجبلة والجبيل : الجمع ذو العدد الكثير من الناس ومنه قوله ﴿ولقد أضل منكم جبلاً كثيراً﴾ أي ناساً كثيرين ويقال : جبل فلان على كذا أي خلق ﴿كسفاً﴾ جمع كسفة وهي القطعة من الشيء .

التفسير : ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أي كذب قوم نوح رسولهم نوحاً ، وإنما قال ﴿المرسلين﴾ لأن من كذب رسولاً فقد كذب الرسل ﴿إذ قال لهم أخوهم نوح﴾ أي أخوهم في النسب لا في الدين لأنه كان منهم قال الزمخشري : وهذا من قول العرب : يا أخا بني تميم يريدون يا واحداً منهم ومنه بيت الحماسة « لا يسألون أخاهم حين يندبهم » ^(١) ﴿ألا تتقون﴾ أي ألا تحافون عقاب الله في عبادة الأصنام ؟ ﴿إني لكم رسول أمين﴾ أي إني لكم ناصح ، أمين في نصحي لا أخون ولا أكذب ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ أي خافوا عذاب الله وأطيعوا أمري ﴿وما أسألكم عليه من أجر﴾ أي لا أطلب منكم جزاءً على نصحي لكم ﴿إن أجري إلا على رب العالمين﴾ أي ما أطلب ثوابي وأجري إلا من الله تعالى ﴿فاتقوا الله وأطيعوا﴾ كرره تأكيداً وتنبهاً على أهمية الأمر الذي دعاهم إليه ﴿قالوا أنؤمن لك﴾ أي أنصدقك يا نوح فيما تقول ﴿واتبعك الأرذلون﴾ أي والحال أن أتباعك هم السفلة والفقراء والضعفاء ؟ قال البيضاوي : وهذا من سخافة عقولهم ، وقصور رأيهم فقد قصرُوا الأمر على حطام الدنيا حتى جعلوا اتباع الفقراء له مانعاً عن اتباعهم وإيمانهم بدعوة نوح ^(٢) ﴿قال وما علمي بما كانوا يعملون﴾ أي ليس عليّ أن أبحث عن خفايا ضمائرهم ، وأن أنقب عن أعمالهم هل اتبعوني إخلاصاً أو طمعاً ؟ قال القرطبي : كأنهم قالوا : إنما اتبعك هؤلاء الضعفاء طمعاً في العزة والمال فقال في جوابهم : إني لم أقف على باطن أمرهم وإنما إليّ ظاهرهم ^(٣) ﴿إن حسابهم إلا على ربي لو تشعرون﴾ أي ما حسابهم وجزاؤهم إلا على الله فإنه المطلع على السرائر والضمائر لو تعلمون ذلك ﴿وما أنا بطارد المؤمنين﴾ أي لست بمبعد هؤلاء المؤمنين الضعفاء عني ، ولا بطاردهم عن مجلسي قال أبو حيان : وهذا مشعرٌ بأنهم طلبوا منه ذلك كما طلب رؤساء قريش من رسول الله ﷺ أن يطرد من آمن من الضعفاء ^(٤) ﴿إن أنا إلا نذير مبين﴾ أي ما أنا إلا نذير لكم من عذاب الله ، أخوفكم بأسه وسطوته

قَالُوا لَيْنَ لَمْ تَنْتَه يَنْوُحْ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَأَفْتَحَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتَحًا
وَنَجَّيْنِي وَمَنْ مَعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ فَأَنْجَيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلِّ الْمَشْحُونِ ﴿١١٩﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴿١٢٠﴾
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ۖ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٢١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٢﴾ كَذَبَتْ عَادُ
الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٢٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا
وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٧﴾
وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ ﴿١٢٨﴾

فمن أطاعني نجا سواء كان شريفاً أو ضيعاً ، أو جليلاً أو حقيراً ﴿١١٦﴾ قالوا لئن لم تنته يا نوح لتكونن من المرجومين ﴿١١٧﴾ أي لئن لم تنته عن دعوى الرسالة وتقييح ما نحن عليه لتكونن من المرجومين بالحجارة ، خوفوه بالقتل بالحجارة فعند ذلك حصل اليأس لنوح من فلاحهم فدعا عليهم ﴿١١٨﴾ قال رب إن قومي كذبون ﴿١١٩﴾ أي قال نوح يا رب إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي ﴿١٢٠﴾ فافتح بيني وبينهم فتحاً ﴿١٢١﴾ أي فاحكم بيني وبينهم بما تشاء ، واقض بيننا بحكمك العادل ﴿١٢٢﴾ ونجني ومن معي من المؤمنين ﴿١٢٣﴾ أي أنقذني والمؤمنين معي من مكرهم وكيدهم ﴿١٢٤﴾ فأنجيناه ومن معه في الفلك المشحون ﴿١٢٥﴾ أي فأنجينا نوحاً ومن معه من المؤمنين في السفينة المملوءة بالرجال والنساء والحيوان ﴿١٢٦﴾ ثم أغرقنا بعد الباقين ﴿١٢٧﴾ أي أغرقنا بعد إنجائهم الباقين من قومه ﴿١٢٨﴾ إن في ذلك لآية ﴿١٢٩﴾ أي لعبرة عظيمة لمن تفكر وتدبر ﴿١٣٠﴾ وما كان أكثرهم مؤمنين ﴿١٣١﴾ أي وما أكثر الناس بمؤمنين ﴿١٣٢﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿١٣٣﴾ أي وإن ربك يا محمد هو الغالب الذي لا يقهر ، الرحيم بالعباد حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « هود » فقال ﴿١٣٤﴾ كذبت عاد المرسلين ﴿١٣٥﴾ أي كذبت قبيلة عاد رسولهم هوداً ، ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿١٣٦﴾ إذ قال لهم أخوهم هودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٣٧﴾ أي أَلَا تَخَافُونَ عَذَابَ اللَّهِ وَانْتِقَامَهُ فِي عِبَادَتِكُمْ لغيره ! ﴿١٣٨﴾ إني لكم رسولٌ أمينٌ ﴿١٣٩﴾ أي أمينٌ على الوحي ناصح لكم في الدين ﴿١٤٠﴾ فاتقوا الله وأطيعوا أمر الله وأطيعوا أمري ﴿١٤١﴾ وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على ربِّ العالمين ﴿١٤٢﴾ أي لا أطلب منكم على تبليغ الدعوة شيئاً من المال إنما أطلب أجري من الله ، كررت الآيات للتنبيه إلى أن دعوة الرسل واحدة ﴿١٤٣﴾ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ؟ استفهام إنكار أي أتبنون بكل موضع مرتفع من الطريق بناءً شامخاً كالعلم لمجرد اللهو والعبث ؟ قال ابن كثير : الرِّيعُ المكان المرتفع كانوا يبنون عند الطرق المشهورة بنايات محكمات هائلة باهرًا لمجرد اللهو واللعب وإظهار القوة ، ولهذا أنكر عليهم نبئهم عليه السلام ذلك لأنه تضييع للزمان ، وإتعاث للأبدان ، واشتغال بما لا يجدي في الدنيا ولا في الآخرة (١) ﴿١٤٥﴾ وتتخذون مصانع لعلكم تخلدون ﴿١٤٦﴾ أي وتتخذون قصوراً مشيدة محكمة

وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴿١٣٦﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴿١٣٧﴾ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامِ
وَبَنِينَ ﴿١٣٩﴾ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٠﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٤١﴾ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ
لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴿١٤٢﴾ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿١٤٤﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ۖ إِنَّ
فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٤٥﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٤٦﴾

ترجون الخلود في الدنيا كأنكم لا تموتون ؟ ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي وإذا اعتديتم على أحد فعلتم فعل الجبارين من البطش دون رافة أو رحمة ، وإنما أنكر عليهم ذلك لأنه صادر عن ظلم عادة الجبابرة المتسلطين قال الفخر : وصفهم بثلاثة أمور : اتخاذ الأبنية العالية وهو يدل على السرف وحب العلو ، واتخاذ المصانع - القصور المشيدة والحصون - وهو يدل على حب البقاء والخلود ، والجبارية وهي تدل على حب التفرد بالعلو ، وكل ذلك يشير على أن حب الدنيا قد استولى عليهم بحيث استغرقوا فيه حتى خرجوا عن حد العبودية ، وحاموا حول دعاء الربوبية ، وحب الدنيا رأس كل خطيئة ^(١) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ﴾ أي خافوا الله واتركوا هذه الأفعال وأطيعوا أمري ، ثم شرع يذكرهم نعم الله فقال ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أي أنعم عليكم بأنواع النعم والخيرات ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ * وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي أعطاكم أصول الخيرات من المواشي ، والبنين ، والبساتين ، والأنهار ، وأغدق عليكم النعم فهو الذي يجب أن يُعبد ويُشكر ولا يُكفر ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ أي أخشى عليكم إن لم تشكروا هذه النعم وأشركتكم وكفرتكم عذاب يوم هائل تشيب لهوله الولدان . . دعاهم إلى الله بالترغيب والترهيب ، وبلغ في دعائهم بالوعظ والتخويف النهاية القصوى في البيان فكان جوابهم ﴿ قَالُوا سَوَاءٌ عَلَيْنَا أُوْعِظَتْ أَمْ لَمْ تَكُنْ مِنَ الْوَاعِظِينَ ﴾ أي يستوي عندنا تذكيرك لنا وعدمه ، فلا نبالي بما تقول ، ولا نرعى عما نحن عليه قال أبو حيان : جعلوا قوله وعظاً على سبيل الاستخفاف وعدم المبالاة بما خوفهم به إذ لم يعتقدوا صحة ما جاء به ، وأنه كاذب فبدأ ادعاه ^(٢) ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا خُلُقُ الْأَوَّلِينَ ﴾ أي ما هذا الذي جئنا به إلا كذب وخرافات الأولين ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴾ أي لا بعث ولا جزاء ولا حساب ولا عذاب ﴿ فَكَذَّبُوهُ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ أي فكذبوا رسولهم هوداً فأهلكناهم بريح صرصر عاتية قال ابن كثير : وكان إهلاكهم بالريح الشديدة الهبوب ، ذات البرد الشديد وهي الريح الصرصر العاتية ، وكان سبب إهلاكهم من جنسهم ، فإنهم كانوا أعتى شيء وأجبره ، فسلب الله عليهم ما هو أعتى منهم وأشد ، فحصب الريح كل شيء حتى كانت تأتي الرجل منهم فتقتله ، وترفعه في الهواء ثم تنكسه على أم رأسه ، فتشدخ رأسه ودماعه ^(٣) ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً ﴾ أي إن في إهلاكهم لعظة وعبرة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي وما آمن أكثر الناس مع رؤيتهم للآيات الباهرة ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ أي وإن ربك يا محمد هو العزيز في انتقامه من أعدائه ، الرحيم

(١) التفسير الكبير بشيء من الاختصار ١٥٧/٢٤ . (٢) البحر ٣٣/٧ . (٣) مختصر ابن كثير ٦٥٤/٢ بشيء من الإيجاز .

كَذَّبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٤١﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٤٣﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٤٤﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَى رِبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٤٥﴾ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هُنَّاءَ آمِنِينَ ﴿١٤٦﴾ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٤٧﴾ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴿١٤٨﴾ وَتَحْتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا فَرِهِينَ ﴿١٤٩﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يَفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾

بعباده المؤمنين ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « صالح » فقال ﴿ كذبت ثمود المرسلين ﴾ أي كذبت قبيلة ثمود نبيهم « صالحاً » ومن كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين ﴿ إذ قال لهم أخوهم صالح ألا تتقون ﴾ ؟ ألا تخافون عذاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿ إني لكم رسول أمين ﴾ فاتقوا الله وأطيعوا ﴿ وما أسألكم عليه من أجر إن أجرينى إلا على رب العالمين ﴾ كررت الآيات للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، فكل رسول يذكر قومه بالغاية من بعثته ورسالته ، وأنها لصالح البشر ﴿ أتركون فيما ههنا آمينين ﴾ أي أترككم ربكم في هذه الدنيا آمينين ، مخلصين في النعيم ، كأنكم باقون في الدنيا بلا موت ؟ قال ابن عباس : كانوا معمرين لا يبقى البنيان مع أعمارهم ، قال القرطبي : ودل على هذا قوله تعالى ﴿ واستعمركم فيها ﴾ فقرعهم صالح ووبخهم وقال : اتظنون أنكم باقون في الدنيا بلا موت ^(١) ﴿ في جنات وعيون ﴾ أي في بساتين وأنهار جاريات ﴿ وزروع ونخل طلعها هضيم ﴾ أي وسهول فسيحة فيها من أنواع الزروع والنخل الرطب اللين ؟ أتركون في كل ذلك النعيم دون حساب ولا جزاء قال المفسرون : كانت أرض ثمود كثيرة البساتين والماء والنخل فذكرهم صالح بنعم الله الجلييلة من إنبات البساتين والجنات ، وتفجير العيون الجاريات ، وإخراج الزروع والثمرات ، ومعنى « الهضيم » اللطيف الدقيق وهو قول عكرمة ، وقال ابن عباس معناه : اليانع النضيج ^(٢) ﴿ وتحتون من الجبال بيوتاً فارهين ﴾ أي وتبنون بيوتاً في الجبال أشرف بطرين من غير حاجة لسكنائها قال الرازي : وظاهر هذه الآيات يدل على أن الغالب على قوم « هود » هو اللذات الخيالية وهي الاستعلاء ، والبقاء ، والتجبر ، والغالب على قوم « صالح » هو اللذات الحسية وهي طلب المأكول ، والمشروب ، والمساكن الطيبة ^(٣) وقال الصاوي : كانت أعمارهم طويلة فإن السقوف والأبنية كانت تبلى قبل فناء أعمارهم ، لأن الواحد منهم كان يعيش ثلاثمائة سنة إلى ألف ^(٤) ﴿ فاتقوا الله وأطيعوا ﴾ أي فاتقوا عقاب الله وأطيعوني في نصيحتي لكم ﴿ ولا تطيعوا أمر المسرفين ﴾ أي ولا تطيعوا أمر الكبراء المجرمين ﴿ الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴾ أي الذين عادتهم الفساد في الأرض لا الإصلاح قال الطبري : وهم الرهط التسعة الذين وصفهم الله بقوله ﴿ وكان في المدينة تسعة رهط

(١) القرطبي ١٢٧/١٣ . (٢) حكى القرطبي في معنى « الهضيم » اثني عشر قولاً كذا في تفسيره ١٢٨/١٣ . (٣) التفسير الكبير ١٥٩/٢٤ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ١٧٩/٣ .

قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٦﴾ مَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا فَأْتِ بِآيَةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٥٧﴾ قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَعْلُومٍ ﴿١٥٨﴾ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥٩﴾ فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا نَدِيمِينَ ﴿١٦٠﴾ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٦١﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٢﴾ كَذَبَتْ قَوْمٌ لُوطَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٦٣﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطُ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٥﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٦﴾

يُفسدون في الأرض ولا يصلحون ﴿١٥٦﴾ ﴿قالوا إنما أنت من المسحورين﴾ أي من المسحورين سُحرت حتى غلب على عقلك قال المفسرون : والمُسحَرُ مبالغة من المسحور ﴿ما أنت إلا بشر مثْلنا﴾ أي لست يا صالح إلا رجلاً مثْلنا ، فكيف تزعم أنك رسول الله ؟ ﴿فأنت بآية إن كنت من الصادقين﴾ أي فأنتا بمعجزة تدل على صدقك ﴿قال هذه ناقة﴾ أي هذه معجزتي إليكم وهي الناقة التي تخرج من الصخر الأصم بقدره الله قال المفسرون : روي أنهم اقترحوا عليه ناقة عُشراء - حامل - تخرج من صخرة معينة وتلد أمامهم ، فقعد صالح عليه السلام يتفكر فجاءه جبريل فقال : صل ركعتين وسل ربك الناقة ففعل ، فخرجت الناقة وولدت أمامهم وبركت بين أيديهم فقال لهم هذه ناقة يا قوم ﴿١٥٧﴾ ﴿لها شرب ولكم شرب يوم معلوم﴾ أي تشرب ماءكم يوماً ، ويوماً تشربون أنتم الماء قال قتادة : إذا كان يوم شربها شربت ماءهم كله ، وشربهم في اليوم الذي لا تشرب هي فيه ، وتلك آية أخرى ﴿ولا تمسوها بسوء﴾ أي لا تنالوها بأي ضرر بالعقر أو بالضرب ﴿فياخذكم عذاب يوم عظيم﴾ أي فيصيبكم عذاب من الله هائل لا يكاد يوصف قال ابن كثير : حذرهم نقمة الله إن أصابوها بسوء ، فمكثت الناقة بين أظهرهم حيناً من الدهر ، ترد الماء وتاكل الورق والمرعى ، ويتنفعون بلبنها يلبون منها ما يكفيهم شرباً ورياً ، فلما طال عليهم الأمد وحضر أشقاهم تماثلوا على قتلها وعقرها ﴿١٥٩﴾ ﴿فعقروها فاصبحوا نادمين﴾ أي فقتلوا رميةً بالسهم ، رماها أشقاهم - قُدار بن سالف - بأمرهم ورضاهم فاصبحوا نادمين على قتلها خوف العذاب قال الفخر : لم يكن ندمهم ندم التائبين ، لكن ندم الخائفين من العذاب العاجل ﴿١٦٠﴾ ﴿فأخذهم العذاب﴾ أي العذاب الموعود ، وكان صيحةً خمدت لها أبدانهم ، وانشقت لها قلوبهم ، وزلزلت الأرض تحتهم زلزالاً شديداً ، وصبّت عليهم حجارة من السماء فماتوا عن آخرهم ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي لعظة وعبرة لمن عقل وتدبر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿تقدم تفسيرها فيما سبق ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « لوط » فقال ﴿كذبت قوم لوط المرسلين﴾ أي كذبوا رسولهم لوطاً ﴿إذ قال لهم أخوهم لوطُ ألا تتقون﴾ أي ألا تحفون عقاب الله وانتقامه في عبادتكم غيره ! ﴿إني لكم رسول أمين﴾ فاتقوا الله وأطيعون * وما أسألكم عليه

أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذُرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾
 قَالُوا لَنْ لَمْ تَنْتَه يَنْلُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾ قَالَ إِنِّي لِعَمَلِكُمْ مِنَ الْقَالِينَ ﴿١٦٨﴾ رَبِّ نَجِّنِي وَأَهْلِي
 مِمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٩﴾ فَجَنَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ أَجْمَعِينَ ﴿١٧٠﴾ إِلَّا عَجُوزًا فِي الْغَابِرِينَ ﴿١٧١﴾ ثُمَّ دَمَرْنَا الْآخَرِينَ ﴿١٧٢﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ
 مَطَرًا فَسَاءً مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ
 الرَّحِيمُ ﴿١٧٥﴾ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْمِرْثَلَةِ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧٦﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

من أجر إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٦٥﴾ نفس الكلمات والألفاظ التي قالها من قبل صالح ، وهود ، ونوح مما يؤكد أن دعوة الرسل واحدة ، وغايتها واحدة ، وأن منشأها هو الوحي السماوي ، ثم قال لهم لوط ﴿أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ استفهام إنكار وتوبيخ وتقريع أي أتُنكحون الذكور في أدبارهم ، وتفردون بهذا الفعل الشنيع من بين سائر الخلق ؟ ﴿وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم﴾ أي وتركون ما أباح لكم ربكم من الاستمتاع بالإناث ؟ قال مجاهد : تركتم فروج النساء إلى أدبار الرجال (١) ﴿بل أنتم قوم عادون﴾ أي بل أنتم قوم مجاوزون الحد في الإجماع والفساد ، وبخهم على إتيانهم الذكور ، ثم أضرب عنه إلى ما هو أبلغ في التوبيخ كأنه يقول خرجتم عن حدود الإنسانية إلى مرتبة البهيمية بعدوانكم وارتكابكم هذه الجريمة الشنيعة ، فالذكر من الحيوان يأنف عن إتيان الذكر ، وأنتم فعلتم ما يتورع عنه الحيوان ﴿قالوا لئن لم تنته يا لوط لتكونن من المخرجين﴾ أي لئن لم تترك تقبيح ما نحن عليه لنخرجنك من بين أظهرنا وننتفيك من بلدنا كما فعلنا بمن قبلك ، توعده بالنفي والطرده ﴿قال إني لعملكم من القالين﴾ أي إني لعملكم القبيح من المبغضين غاية البغض وأنا بريء منكم ﴿رب نجني وأهلي مما يعملون﴾ أي نجني من العذاب الذي يستحقونه بعملهم القبيح أنا وأهلي قال تعالى ﴿فنجيناه وأهله أجمعين﴾ * إلا عجوزاً في الغابرين ﴿أي نجيناه مع أهله جميعاً إلا امرأته كانت من الهالكين ، الباقيين في العذاب قال ابن كثير : والمراد بالعجوز امرأته فقد كانت عجوز سوء ، بقيت فهلكت مع من بقي من قومها حين أمره الله أن يسري بأهله إلا امرأته (٢) ﴿ثم دمرنا الآخرين﴾ أي أهلكناهم أشد إهلاكاً وأفظعه بالخسف والخصب ﴿وأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حجارة من السماء كالْمَطَرِ الزَاخِر ﴿فساء مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي بشس هذا المطر مَطَرُ الْقَوْمِ الْمُنْذِرِينَ الَّذِينَ أَنْذَرَهُمْ نَبِيُّهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴿إن في ذلك لآية﴾ أي إن في ذلك لعبرة وعظة لأولي البصائر ﴿وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿تقدم تفسيره ، ثم شرع تعالى في ذكر قصة « شعيب » فقال : ﴿كذب أصحاب الأيكة المرسلين﴾ أي كذب أصحاب مدين نبيهم شعبياً قال الطبري : والأيكة : الشجر الملتف وهم أهل مدين (٣) ﴿إذ قال لهم شعيب ألا تتقون﴾ * إني لكم رسول أمين * فاتقوا

إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٧٨﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا ﴿١٧٩﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾ * أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخُسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعَثُّوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولَىٰ ﴿١٨٤﴾ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مِنَ الْمُسَحَّرِينَ ﴿١٨٥﴾ وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَاسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿١٨٧﴾ قَالَ رَبِّي أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨٨﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُم عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾

الله وأطيعون * وما أسألكم عليه من أجرٍ إن أجري إلا على رب العالمين ﴿١٧٨﴾ سبق تفسيره ﴿أوفوا الكيل﴾ أي أوفوا الناس حقوقهم في الكيل والوزن ﴿ولا تكونوا من المخسرين﴾ أي من المتقصين المطففين في المكيال والميزان ﴿وزنوا بالقسطاس المستقيم﴾ أي وزنوا بالميزان العدل السوي ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم﴾ أي لا تنقصوا حقوق الناس بأي طريق كان بالهضم أو الغبن أو الغصب ونحو ذلك ﴿ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تفسدوا في الأرض بأنواع الفساد من قطع الطريق ، والغارة ، والسلب والنهب ﴿واتقوا الذي خلقكم والجيلَّة الأولى﴾ أي خافوا الله الذي خلقكم وخلق الخليقة المتقدمين قال مجاهد : الجيلَّة : الخليقة ويعني بها الأمم السابقين ^(١) ﴿قالوا إنما أنت من المسحَّرين﴾ أي ما أنت إلا من المسحورين ، سحرت كثيراً حتى غلب على عقلك ﴿وما أنت إلا بشر مثنأ﴾ أي أنت إنسان مثنأ ولسن برسول ﴿وإن نظنك لمن الكاذبين﴾ أي ما نظنك يا شعيب إلا كاذباً ، تكذب علينا فتقول أنا رسول الله ﴿فأسقِطْ علينا كِسَفًا من السماء﴾ أي أنزل علينا العذاب قطعاً من السماء ، وهو مبالغة في التكذيب ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تقول قال الرازي : وإنما طلبوا ذلك لاستبعادهم وقوعه ، فظنوا أنه إذا لم يقع ظهر كذبه ^(٢) فعندها أجابهم شعيب ﴿قال ربي أعلم بما تعملون﴾ أي الله أعلم بأعمالكم ، فإن كنتم تستحقون ذلك جازاكم به وهو غير ظالم لكم ، وإن كنتم تستحقون عقاباً آخر فإليه الحكم والمشيئة ، قال تعالى ﴿فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة﴾ أي فكذبوا شعبياً فأخذهم ذلك العذاب الرهيب عذاب يوم الظلة وهي السحابة التي أظلتهم قال المفسرون : بعث الله عليهم حراً شديداً فأخذ بأنفاسهم ، فخرجوا من البيوت هرباً إلى البرية ، فبعث الله عليهم سحابةً أظلتهم من الشمس ، فوجدوا لها برداً ونادى بعضهم بعضاً حتى إذا اجتمعوا تحتها أرسل الله عليهم ناراً فاحترقوا جميعاً ، وكان ذلك من أعظم العذاب ولهذا قال ﴿إنه كان عذاب يوم عظيم﴾ أي كان عذاب يوم هائل ، عظيم في الشدة والهول ﴿إن في ذلك لآية وما كان

وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾

أكثرهم مؤمنين * وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿١٩١﴾ وإلى هنا ينتهي آخر القصص السبع التي أوحيت لرسول الله ﷺ لصفه عن الحرص على إسلام قومه ، وقطع رجائه ودفع تحسره عليهم كما قال في أول السورة ﴿لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين﴾ ففيها تسلية لرسول الله وتخفيف عن أحزانه وآلامه ، وإنما كرر في نهاية كل قصة قوله ﴿إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين﴾ وإن ربك هو العزيز الرحيم ﴿ليكون ذلك أبلغ في الاعتبار ، وأشد تنبيهاً لذوي القلوب والأبصار .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - إطلاق الكل وإرادة البعض ﴿كذبت قوم نوح المرسلين﴾ أراد بالمرسلين نوحاً وإنما ذكره بصيغة الجمع تعظيماً له وتنبيهاً على أن من كذب رسولاً فقد كذب جميع المرسلين .

٢ - الاستفهام الإنكاري ﴿أنؤمن لك واتبعك الأرذلون﴾ ؟

٣ - الاستعارة اللطيفة ﴿فافتح بيني وبينهم فتحاً﴾ أي احكم بيننا وبينهم بحكمك العادل ، استعار الفتح للحاكم والفتح للحكم لأنه يفتح المغلق من الأمر ففيه استعارة تبعية .

٤ - الطباق ﴿يفسدون . . ولا يصلحون﴾ .

٥ - الجناس غير التام ﴿قال . . القالين﴾ الأول من القول والثاني من قلى إذا أبغض .

٦ - الإطناب ﴿أوفوا الكيل ولا تكونوا من المخسرين﴾ لأن وفاء الكيل هو في نفسه نهى عن الخسران ، وفائدته زيادة التحذير من العدوان .

٧ - المبالغة ﴿إنما أنت من المسحurin﴾ والمسحur مبالغة عن المسحور .

٨ - توافق الفواصل مراعاة لرءوس الآيات مثل ﴿يفسدون ، يصلحون ، الأرذلون﴾ .

قال الله تعالى : ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين . . إلى . . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون﴾ من آية (١٩٢) إلى آية (٢٢٧) نهاية السورة الكريمة .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصص الأنبياء لرسوله ﷺ أتبعه بذكر ما يدل على نبوته من تنزيل هذا القرآن المعجز على قلب خاتم الأنبياء والمرسلين .

اللغة : ﴿زُبر﴾ الزُبر : الكتُب جمع زُبور كرسول ورُسُل ﴿الأعجمين﴾ جمع أعجمي وهو الذي لا يُحسن العربية ، يقال : رجل أعجمي إذا كان غير فصيح وإن كان عربياً ، ورجلٌ عجمي أي غير عربي وإن كان فصيح اللسان ﴿بغتة﴾ فجأة ﴿مُنظرون﴾ مؤخرون وممهلون يقال : أنظره أي أمهله ﴿أفأك﴾ كذاب ﴿منقلب﴾ مصير .

وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿١٩٥﴾ وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ ﴿١٩٦﴾ أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿١٩٧﴾ وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ ﴿١٩٨﴾ فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١٩٩﴾ كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٠٠﴾ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ ﴿٢٠١﴾ فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٠٢﴾ فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ ﴿٢٠٣﴾ أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ ﴿٢٠٤﴾ أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ ﴿٢٠٥﴾

التفسير : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وإن هذا القرآن المعجز لتنزِيلُ رَبِّ الأرباب ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ أي نزل به أمين السماء جبريل عليه السلام ﴿عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي أنزله على قلبك يا محمد لتحفظه وتُنذِرُ بآياته المكذِبِينَ ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ أي بلسان عربي فصيح هو لسان قريش ، لثلا يبقى لهم عذر فيقولوا : ما فائدة كلام لا نفهمه ؟ قال ابن كثير : أنزلناه باللسان العربي الفصيح ، الكامل الشامل ، ليكون بيناً واضحاً ، قاطعاً للعذر مقياً للحجة ، دليلاً إلى المحجة^(١) ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ أي وإن ذكر القرآن وخبره لموجود في كتب الأنبياء السابقين ﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ﴾ الاستفهام للتوبيخ والتفريع أي أولم يكن لكفار مكة علامة على صحة القرآن ﴿أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَءِيلَ﴾ أي أن يعلم ذلك علماء بني إسرائيل الذين يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم كعبد الله بن سلام وأمثاله ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ﴾ أي لو نزلنا هذا القرآن بنظمه الرائق المعجز على بعض الأعجمين الذين لا يقدرُونَ على التكلم بالعربية ﴿فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ أي فقرأه على كفار مكة قراءة صحيحة فصيحة ، وانضم إعجاز القراءة إلى إعجاز المقروء ما آمنوا بالقرآن لفرط عنادهم واستكبارهم^(٢) ﴿كَذَلِكَ سَلَكْنَاهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ﴾ أي كذلك أدخلنا القرآن في قلوب المجرمين ، فسمعوا به وفهموه ، وعرفوا فصاحته وبلاغته ، وتحققوا من إعجازه ثم لم يؤمنوا به وجحدوه ﴿لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ أي لا يصدقون بالقرآن مع ظهور إعجازه ﴿حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ﴾ أي حتى يشاهدوا عذاب الله المؤلم فيؤمنوا حيث لا ينفع الإيمان ﴿فَيَأْتِيهِمْ بَغْتَةً﴾ أي فيأتيهم عذاب الله فجأة ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يعلمون بمجيئه ولا يدرون ﴿فَيَقُولُوا هَلْ نَحْنُ مُنْظَرُونَ﴾ أي فيقولوا حين يفجأهم العذاب - تحسراً على ما فاتهم من الإيمان وتمنياً للإمهال - هل نحن مؤخرون لنؤمن ونصدق ﴿أَفَبِعَذَابِنَا يَسْتَعْجِلُونَ﴾ إنكار وتوبيخ أي كيف يستعجل العذاب هؤلاء المشركون ويقولون ﴿أَتُنْزِلُ عَلَيْنَا بَعْدَ الْأَلِيمِ﴾ ؟ وحالهم عند نزول العذاب أنهم يطلبون الإمهال والنظرة ؟ ﴿أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ﴾ أي أخبرني يا محمد إن متعناهم سنين طويلة ، مع وفور

(١) مختصر ابن كثير ٢/ ٦٥٩ . (٢) قال في التسهيل ومعنى الآية : أن القرآن لو نزل على من لا يتكلم ، ثم قرأه عليهم لم يؤمنوا لفرط عنادهم ، ففي ذلك تسلية للنبي ﷺ على كفرهم به مع وضوح برهانه أ . هـ التسهيل ٣/ ٩٠ .

ثُمَّ جَاءَهُمْ مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿٢٠٦﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يُمْتَعُونَ ﴿٢٠٧﴾ وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنْذِرُونَ ﴿٢٠٨﴾ ذَكَرْنَاهُمْ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَمْ نَكُنْ بِهِنَّ ظَالِمِينَ ﴿٢٠٩﴾ وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنْ السَّمْعِ لَمَعَزُولُونَ ﴿٢١٢﴾ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾

الصحة ورغد العيش ﴿ثم جاءهم ما كانوا يوعدون﴾ أي ثم جاءهم العذاب الذي وعدها به ﴿ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ ؟ أي ماذا ينفعهم حينئذ ما مضى من طول أعمارهم ، وطيب معاشهم ؟ هل ينفعهم ذلك النعيم في تخفيف الحزن ، أو دفع العذاب ؟ ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ أي وما أهلكنا أهل قرية من القرى ، ولا أمة من الأمم ﴿إلا لها منذر﴾ أي إلا بعدما ألزمتهم الحجة بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ﴿ذكرى﴾ أي ليكون إهلاكهم تذكراً وعبرة لغيرهم فلا يعصوا مثل عصيانهم ﴿وما كنا ظالمين﴾ أي وما كنا ظالمين في تعذيبهم ، لأننا أقمنا الحجة عليهم وأعذرنا إليهم . . ثم إنه تعالى بعد أن نبه على إعجاز القرآن وصدق نبوة محمد عليه السلام رد على قول من زعم من الكفار أن القرآن من إلقاء الجن والشياطين كسائر ما ينزل على الكهنة فقال ﴿وما تنزلت به الشياطين﴾ أي وما تنزلت بهذا القرآن الشياطين ، بل نزل به الروح الأمين ﴿وما ينبغي لهم وما يستطيعون﴾ أي وما يصح ولا يستقيم أن يتنزل بهذا القرآن الشياطين ، ولا يستطيعون ذلك أصلاً ﴿إنهم عن السمع لمعزولون﴾ أي لأنهم منعوا من استراق السمع منذ بعث محمد عليه السلام ، وحيل بينهم وبين السمع بالملائكة والشهب ، فكيف يستطيعون أن يتنزلوا به ؟ قال ابن كثير : ذكر تعالى أنه يمتنع ذلك عليهم من ثلاثة أوجه : أحدها أنه ما ينبغي لهم لأن سجايهم الفساد ، وإضلال العباد ، وهذا فيه نورٌ وهدى وبرهان عظيم ، الثاني : أنه لو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك ، وهذا من حفظ الله لكتابه وتأييده لشرعه الثالث : أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك لأنهم بمعزل عن استماع القرآن ، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً ، فلم يخلص أحد من الشياطين لاستماع حرف واحد منه لئلا يشبه الأمر ^(١) ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول ﷺ والمراد غيره أي لا تعبد يا محمد مع الله معبوداً آخر ﴿فتكون من المعذبين﴾ أي فيعذبك الله بنار جهنم قال ابن عباس : يحذر به غيره يقول : أنت أكرم الخلق علي ، ولو اتخذت من دوني إلهاً لعذبتك ^(٢) ، ثم أمر تعالى رسوله بتبليغ الرسالة فقال ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ أي خوفاً أقاربك الأقرب منهم فالأقرب من عذاب الله إن لم يؤمنوا ، روي أنه ﷺ قام حين نزلت عليه ﴿وأنذر عشيرتك الأقربين﴾ فقال : « يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا بني عبد مناف لا أغني عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغني عنك من الله شيئاً ، يا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت لا أغني عنك من الله شيئاً » ^(٣) قال المفسرون : وإنما أمر ﷺ بإنذار

وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنَّي بِرِيءٍ مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرْنُكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقْلُبَكَ فِي السَّجْدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا

أقاربه أولاً لثلا يظن أحد به المحابة واللفظ معهم فإذا تشدد على نفسه وعلى أقاربه كان قوله أنفع ، وكلامه أنجع ﴿واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين﴾ أي تواضع وألن جانبك لأتباعك المؤمنين ﴿فإن عصوك فقل إني بريء مما تعملون﴾ أي فإن لم يطيعوك وخالفوا أمرك فتبرأ منهم ومن أعماهم قال أبو حيان : لما كان الإنذار يترتب عليه الطاعة أو العصيان جاء التقسيم عليهما فكان المعنى : من اتبعك مؤمناً فتواضع له ، ومن عصاك فتبرأ منهم ومن أعماهم ^(١) ﴿وتوكل على العزيز الرحيم﴾ أي فوض جميع أمورك إلى الله العزيز ، الذي يقهر أعداءك بعزته ، وينصرك عليهم برحمته ﴿الذي يراك حين تقوم﴾ أي يراك حين تكون وحدك تقوم من فراشك أو مجلسك وقال ابن عباس : حين تقوم إلى الصلاة ﴿وتقلبك في الساجدين﴾ أي ويرى تقلبك مع المصلين في الركوع والسجود والقيام ^(٢) ، والمعنى يراك وحدك ويراك في الجماعة ﴿إنه هو السميع العليم﴾ أي إنه تعالى السميع لما تقوله ، العليم بما تخفيه ﴿هل أنبئكم على من تنزل الشياطين﴾ ؟ أي قل يا محمد لكفار مكة : هل أخبركم على من تنزل الشياطين ؟ وهذا رد عليهم حين قالوا إنما يأتيه بالقرآن الشياطين ﴿تنزل على كل أفَّاكٍ أثيم﴾ أي تنزل على كل كذاب فاجر ، مبالغ في الكذب والعدوان ، لا على سيد ولد عدنان ﴿يلقون السمع وأكثرهم كاذبون﴾ أي تلقى الشياطين ما استرقوه من السمع إلى أولياتهم الكهنة ، وأكثرهم يكذبون فيما يوحون به إليهم وفي الحديث (تلك الكلمة من الحق يخطفها الجنى فيقرقها - أي يلقبها - في أذن وليه كقرقرة الدجاج ، فيخلطون معها أكثر من مائة كذبة) ^(٣) قال الزمخشري : ﴿يلقون السمع﴾ هم الشياطين كانوا قبل أن يجلبوا بالرجم يسمعون إلى الملاء الأعلى ، فيختطفون بعض ما يتكلمون به مما اطلعوا عليه من الغيوب ، ثم يوحون به إلى أولياتهم من الكهنة والمنتبهة « وأكثرهم كاذبون » فيما يوحون به إليهم ، لأنهم يسمعونهم ما لم يسمعوا ^(٤) ، ثم رد تعالى على من زعم أن محمداً شاعر فقال ﴿والشعراء يتبعهم الغاؤون﴾ أي يتبعهم الضالون لا أهل البصيرة والرشاد ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون﴾ أي ألم تر أيها السامع العاقل أنهم يسلكون في المديح والهجاء كل طريق ، يمدحون الشيء بعد أن ذموه ، ويعظمون الشخص بعد أن احتقروه قال الطبري : وهذا مثل ضرب به الله لهم في افتتانهم في الوجوه التي يقتنون فيها بغير حق ، فيمدحون بالباطل قوماً ويهجون آخرين ^(٥) ﴿وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾

(١) البحر ٤٦/٧ . (٢) وهذا اختيار ابن جرير الطبري وقيل المراد قلبه في أصلاب الأنبياء .

(٣) رواه البخاري . (٤) الكشف ٢٦٩/٣ . (٥) الطبري ٧٨/١٩ .

يَفْعَلُونَ ﴿٢٦٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذُكِّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا وَأَنْتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا ۖ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴿٢٦٧﴾

أي يكذبون فينسبون لأنفسهم ما لم يعملوه قال أبو حيان : أخبر تعالى عن الشعراء بالأحوال التي تخالف حال النبوة ، إذ أمرهم كما ذكر من اتباع الغواة لهم ، وسلوكهم أفانين الكلام من مدح الشيء وذمه ، ونسبة ما لا يقع منهم إليهم ، وهذا يخالف لحال النبوة فإنها طريقة واحدة لا يتبعها إلا الراشدون^(١) ، ثم استثنى تعالى فقال ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي صدقوا في إيمانهم وأخلصوا في أعمالهم ﴿وذكروا الله كثيراً﴾ أي لم يشغلهم الشعر عن ذكر الله ولم يجعلوه همهم ودينتهم ﴿وانتصروا من بعد ما ظلموا﴾ أي هجوا المشركين دفاعاً عن الحق ونصرة للإسلام ﴿وسيعلم الذين ظلموا﴾ وعيد عام في كل ظالم ، تنفتت له القلوب وتتصدع لهولة الأكباد أي وسيعلم الظالمون المعادون لدعوة الله ومعهم الشعراء الغاؤون ﴿أي منقلب ينقلبون﴾ ؟ أي أي مرجع يرجعون إليه ، وأي مصير يصيرون إليه ؟ فإن مرجعهم إلى العقاب وهو شر مرجع ، ومصيرهم إلى النار وهو أقبح مصير .

البلاغة : تضمنت الآيات وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنه لتنزيل رب العالمين﴾ لأن الكلام مع المتشككين في صحة القرآن فناسب تأكيده بأنواع من المؤكدات .

٢ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿أفبعذابنا يستعجلون﴾ ؟

٣ - جناس الاشتقاق ﴿يعلمه علماء﴾ .

٤ - المجاز المرسل ﴿وما أهلكنا من قرية﴾ المراد به أهلها .

٥ - أسلوب التهيج والإلهاب ﴿فلا تدع مع الله إلهاً آخر﴾ الخطاب للرسول بطريق التهيج لزيادة إخلاصه وتقواه .

٦ - الاستعارة التصريحية ﴿واخفض جناحك للمؤمنين﴾ شبه التواضع ولين الجانب بخفض الطائر جناحه عند إرادة الانحطاط فأطلق على المشبه اسم الخفض بطريق الاستعارة المكنية .

٧ - صيغة المبالغة ﴿أفأك أثيم﴾ لأن فعّال وفعل من صيغ المبالغة أي كثير الكذب كثير الفجور .

٨ - الطباق بين ﴿يقولون . . ويفعلون﴾ وبين ﴿انتصروا . . وظلموا﴾ .

٩ - الاستعارة التمثيلية البديعة ﴿في كل واد يهيمون﴾ مثل لذهابهم عن سنن الهدى وإفراطهم في

المديح والهجاء بالتائه في الصحراء الذي هام على وجه فهو لا يدري أين يسير ، وهذا من أطف الاستعارات ، ومن أرشقها وأبدعها .

١٠ - جناس الاشتقاق ﴿منقلب ينقلبون﴾ .

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورونقه مثل ﴿يهيمون ، ينقلبون ، يقولون ما لا يفعلون﴾ الخ .

لطيفة : ذكر أن عمر بن عبد العزيز كان إذا أصبح أمسك بلحيته ثم قرأ قوله تعالى ﴿أفرايت إن متّعناهم سنين* ثم جاءهم ما كانوا يوعدون* ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون﴾ ؟ ثم يبكي وينشد :

نهارك يا مغرور سهوً وغفلة وليك نومٌ والردي لك لازم
تسرُّ بما يقنى وتفرح بالئني كما سرُّ باللذات في النوم حالم
وتسعى إلى ما سوف تكوه غبه كذلك في الدنيا تعيشُ البهائم^(١)

تبديله : الشعر باب من الكلام حسنه حسن ، وقبيحه قبيح ، وإنما ذمّ تعالى الشعر لما فيه من المغالاة والإفراط في المديح أو الهجاء ، ومجازة حدّ القصد فيه حتى يفضلوا أجبن الناس على عنتره ، وأشحهم على حاتم ، ويبهتوا البريء ويفسّقوا التقى ، وربما رفعوا شخصاً إلى الأوج ثم إذا غضبوا عليه أنزلوه إلى الحضيض ، وهذا مشاهد ملموس في أكثر الشعراء إلا من استثناهم الله عز وجل ، والشاعر قد يمدح الشيء ويذمه بحلاوة لسانه وقوة بيانه ، ومن أطف ما سمعت من بعض شيوخه ما قاله بعض الشعراء في العسل :

تقول : هذا مجاجُ النحل تمدّحه وإنّ تعب قلت : ذاقي الزنابير
مدحاً وذمّاً وما جاوزت وصفهما سحرُ البيان يرى الظلماء كالنور

لطيفة : ذكر أن الفرزدق أنشد أبياتاً عند « سليمان بن عبد الملك » وكان في ضمنها قوله في النساء العذارى :

فبتن كأنهنَّ مصرّعاتُ وبتُ أفضُّ أغلاقَ الختام
فقال له سليمان : قد وجب عليك الحد ، فقال يا أمير المؤمنين إن الله قد درأ عني الحد بقوله ﴿ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون* وأنهم يقولون ما لا يفعلون﴾ فعفا عنه^(٢) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الشعراء »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة النمل من السور المكية التي تهتم بالحديث عن أصول العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووضعت في المصحف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقصص » ويكاد يكون منهاجها واحداً ، في سلوك مسلك العظة والعبرة ، عن طريق قصص الغابرين .

✽ تناولت السورة الكريمة القرآن العظيم ، معجزة محمد الكبرى ، وحجته البالغة إلى يوم الدين ، فوضحت أنه تنزيل من حكيم عليم ، ثم تحدثت عن قصص الأنبياء بإيجاز في البعض ، وإسهاب في البعض ، فذكرت بالإجمال قصة « موسى » وقصة « صالح » وقصة « لوط » وما نال أقوامهم من العذاب والنكال ، بسبب إعراضهم عن دعوة الله ، وتكذيبهم لرسله الكرام .

✽ وتحدثت بالتفصيل عن قصة « داود » وولده « سليمان » وما أنعم الله عليهما من النعم الجليلة ، وما خصهما به من الفضل الكبير بالجمع بين النبوة والملئك الواسع ، ثم ذكرت قصة « سليمان مع بلقيس » ملكة سبأ .

✽ وفي هذه القصة مغزى دقيق لأصحاب الجاه والسلطان ، والعظماء والملوك ، فقد اتخذ سليمان الملك وسيلةً للدعوة إلى الله ، فلم يترك حاكماً جائراً ولا ملكاً كافراً إلا دعاه إلى الله ، وهكذا كان شأنه مع « بلقيس » حتى تركت عبادة الأوثان ، وأتت مع جندها خاضعةً مسلمةً ، مستجيبةً لدعوة الرحمن .

✽ وتناولت السورة الكريمة الدلائل والبراهين على وجود الله ووحدانيته ، من آثار مخلوقاته وبدائع صنعه ، وسأقت بعض الأحوال والمشاهد الرهيبة ، التي يراها الناس يوم الحشر الأكبر ، حيث يفزعون ويرهبون ، وينقسمون إلى قسمين : السعداء الأبرار ، والذين يكبون على وجوههم في النار .

التسمية : سميت سورة النمل ، لأن الله تعالى ذكر فيها قصة النملة ، التي وعظت بني جنسها وذكرّت ثم اعتذرت عن سليمان وجنوده ، ففهم نبي الله كلامها وتبسم من قولها ، وشكر الله على ما منحه من الفضل والإنعام ، وفي ذلك أعظم الدلالة على علم الحيوان ، وأن ذلك من إلهام الواحد الديان .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾

اللفظ: ﴿يعمّهون﴾ يترددون ويتحIRON ، والعمّة: التحير والتردد كما هو حال الضال عن الطريق قال الراجز: «أعمى الهدى بالحاءين العمّه» ﴿قبس﴾ القبس: النار المقبوسة من جمر وغيره ﴿تصطلون﴾ اصطلي يصطلي إذا استدفا من البرد قال الشاعر:

النارُ فأكهتُ الشتاءَ فمن يُرد
أكلَ الفواكه شاتياً فليصْطَلْ^(١)

﴿بورك﴾ من البركة وهي زيادة الخير والنماء قال الثعلبي: العرب تقول: باركك الله، وبارك فيك، وبارك عليك، وبارك لك، أربع لغات قال الشاعر:

فبوركت مولوداً وبوركت ناشئاً
وبوركت عند الشيب إذ أنت أشيب^(٢)

﴿يؤزعون﴾ أصل الوزع الكف والمنع يقال: وزعه يزعه إذا كفّه عن الشيء ومنعه ومنه قول عثمان «إن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» قال النابغة:

على حين عابت المشيب على الصبا
وقلت أماً أصح والشيب وازع

النفسير: ﴿طس﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن وقد تقدم الكلام عليها^(٣) ﴿تلك آيات القرآن﴾ أي هذه الآيات المنزلة عليك يا محمد هي آيات القرآن المعجز في بيانه، الساطع في برهانه ﴿وكتاب مبين﴾ أي وآيات كتاب واضح مبين لمن تفكر فيه وتدبر، أبان الله فيه الأحكام، وهدى به الأنعام ﴿هدى وبشرى للمؤمنين﴾ أي تلك آيات القرآن الهادي للمؤمنين إلى صراط مستقيم، والمبشر لهم بجنت النعيم، خص المؤمنين بالذكر لانتفاعهم به ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بخشوعها، وأداها، وأركانها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعون زكاة أموالهم طيبة بها نفوسهم ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدقون بالآخرة تصديقاً جازماً لا يخالجه شك أو ارتياب قال الإمام الفخر: والجملة اعتراضية كأنه قيل وهؤلاء الذين يؤمنون ويعملون الصالحات هم الموقنون بالآخرة، فما يوقن بالآخرة حق الإيقان إلا هؤلاء الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، لأن خوف العقابة يحملهم على تحمل المشاق^(٤) وقال أبو حيان: ولما كان ﴿يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة﴾ مما يتجدد ولا يستغرق الأزمان جاءت الصلة فعلاً، ولما كان الإيمان بالآخرة بما هو ثابت ومستقر جاءت الجملة إسمية وأكدت بتكرار الضمير ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ وجاء خبر المبتدأ فعلاً ليدل على

(١) القرطبي ١٣/١٥٧. (٢) البحر ٧/٥٥. (٣) انظر تفصيل القول والتحقيق الدقيق في أول سورة البقرة. (٤) التفسير الكبير ٢٤/١٧٨

إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمْ الْأَخْسَرُونَ ﴿٢﴾ وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ ﴿٣﴾ إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا سَاعَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ بَأْتِيَكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٤﴾ فَلَمَّا جَاءَهَا نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَنَ اللَّهُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٥﴾ يَمْوَسَّىٰ إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦﴾

الديمومة^(١) ، ولما ذكر تعالى المؤمنين الموقنين بالبعث ، ذكر بعدها المنكرين المكذبين بالآخرة فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ﴾ أي لا يصدقون بالبعث ﴿زَيْنًا لَّهُمْ أَعْمَلُهُمْ﴾ أي زينا لهم أعمالهم القبيحة حتى رأوها حسنة قال الرازي : والمراد من التزيين هو أن يخلق في قلبه العلم بما فيها من المنافع واللذات ، ولا يخلق في قلبه العلم بما فيها من المضار والآفات^(٢) ﴿فَهُمْ يَعْمَهُونَ﴾ أي فهم في ضلال أعمالهم القبيحة يترددون حيارى لا يميزون بين الحسن والقيح ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَهُمْ سُوءُ الْعَذَابِ﴾ أي لهم أشد العذاب في الدنيا بالقتل والأسر والتشريد ﴿وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْأَخْسَرُونَ﴾ أي وخسارتهم في الآخرة أشد من خسارتهم في الدنيا لمصيرهم إلى النار المؤبدة والجحيم والأغلال ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ﴾ أي وإنك يا محمد لتتلقى هذا القرآن العظيم وتُعْطَاهُ ﴿مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ أي من عند الله الحكيم بتدبير خلقه ، العليم بما فيه صلاحهم وسعادتهم قال الزمخشري : وهذه الآية بسطاً وتمهيد لما يريد أن يسوق بعدها من الأفاصيص ، وما في ذلك من لطائف حكمته ، ودقائق علمه^(٣) ﴿إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ نَارًا﴾ أي اذكر يا محمد حين قال موسى لأهله - أي زوجته - إنني أبصرتُ ورأيتُ نارا قال المفسرون : وهذا عندما سار من مدين إلى مصر ، وكان في ليلة مظلمة باردة ، وقد ضلَّ عن الطريق وأخذ زوجته الطَّلُقُ ﴿سَاعَتِيكُمْ مِنْهَا بِخَبَرٍ﴾ أي سأتىكم بخبرٍ عن الطريق إذا وصلتُ إليها ﴿أَوْ بَأْتِيَكُمْ بِشَهَابٍ قَبَسَ﴾ أي أو أتىكم بشعلةٍ مقتبسة من النار ﴿لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾ أي لكي تستدفئوا بها ﴿فَلَمَّا جَاءَهَا﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار رأى منظراً هائلاً عظيماً ، حيث رأى النار تضطرم في شجرة خضراء ، لا تزداد النار إلا توقداً ولا تزداد الشجرة إلا خضرةً ونُضرةً ، ثم رفع رأسه فإذا نورها متصلٌ بعنان السماء قال ابن عباس : لم تكن ناراً وإنما كانت نوراً يتوهج^(٤) فوقف موسى متعجباً مما رأى وجاءه النداء العلوي ﴿نُودِيَ أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ أي نودي من جانب الطور بأن بوركت يا موسى وبورك من حولك وهم الملائكة قال ابن عباس : معنى ﴿بُورِكَ﴾ تقدَّسَ ﴿وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ الملائكة قال أبو حيان : وبدؤه بالنداء تبشيراً لموسى وتأنيساً له ومقدمةً لمناجاته ، وجديرٌ أن يبارك من في النار ومن حولها إذ قد حدث أمرٌ عظيم وهو تكليم الله لموسى وتنبئته^(٥) ﴿وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي تقدَّس وتنزه ربُّ العزة ، العليُّ الشَّانُ ، الذي لا يشبهه شيء من مخلوقاته لا في ذاته ، ولا في صفاته ، ولا في أفعاله ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي أنا الله القويُّ القادر ، العزيز الذي لا

وَأَلْقَى عَصَاكَ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَمُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ فَإِنِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١١﴾ وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ فِي تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿١٢﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلُمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ يُقْهَرُ ، الحكيم الذي يفعل كل شيء بحكمة وتدبير ﴿وَأَلْقَى عَصَاكَ﴾ عطف على السابق أي ونودي أن ألق عصاك لترى معجزتك بنفسك فتأنس بها ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان﴾ أي فلما رآها تتحرك حركة سريعة كأنها ثعبان خفيف سريع الجري ﴿ولَّى مدبراً ولم يعقب﴾ أي ولَّى الأدبار منهزماً ولم يرجع لما دهاه من الخوف والفرع قال مجاهد : « لم يعقب » لم يرجع ، وقال قتادة : لم يلتفت ، لحقه ما لحق طبع البشر إذ رأى أمراً هائلاً جداً وهو انقلاب العصا حية تسعى ولهذا ناداه ربه ﴿يا موسى لا تخف﴾ أي أقبل ولا تخف لأنك بحضرتي ومن كان فيها فهو آمناً ﴿إنه لا يخاف لدي المرسلون﴾ أي فأنت رسولي ورسلي الذين اصطفتيهم للنبوة لا يخافون غيري قال ابن الجوزي : نبهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية ﴿١٠﴾ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ ثُمَّ بَدَّلْ حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ ﴿الاستثناء منقطع أي لكن من ظلم من سائر الناس لا من المرسلين فإنه يخاف إلا إذا تاب وبدل عمله السيء إلى العمل الحسن ﴿فإني غفور رحيم﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة قال ابن كثير : وفيه بشارة عظيمة للبشر وذلك أن من كان على عمل سيء ، ثم أقلع ورجع وتاب وأناب فإن الله يتوب عليه كقوله ﴿وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ ﴿٢١﴾ ﴿وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء﴾ هذه معجزة أخرى لموسى تدل على باهر قدرة الله والمعنى أدخل يا موسى يدك في فتحة ثوبك ثم أخرجها تخرج مضيئة ساطعة بيضاء تتلألأ كالبرق الخاطف دون مرض أو برص ﴿في تِسْعِ آيَاتٍ إِلَى فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ﴾ أي هاتان المعجزتان « العصا واليد » ضمن تسع معجزات أيدتك بها وجعلتها برهاناً على صدقك لتذهب بها إلى فرعون وقومه ﴿إنهم كانوا قوماً فاسقين﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، معنيين في الكفر والضلال ﴿فلما جاءتهم آياتنا مبصرة﴾ أي فلما رأوا تلك المعجزات الباهرة ، واضحة بينة ظاهرة ﴿قالوا هذا سحرٌ مبين﴾ أي أنكروها وزعموا أنها سحرٌ واضح ﴿وجحدوا بها﴾ أي كفروا وكذبوا بتلك الخوارق ﴿واستيقنتها أنفسهم﴾ أي وقد أيقنوا بقلوبهم أنها من عند الله وليست من قبيل السحر ﴿ظُلُمًا وَعُلُوًّا﴾ أي جحدوا بها ظُلماً من أنفسهم ، واستكباراً عن اتباع الحق ، وأيُّ ظلمٍ أفحش ممن يعتقد ويستيقن أنها آيات بينة واضحة جاءت من عند الله ، ثم يكابر بتسميتها سحراً ؟ ولهذا قال ﴿فانظر كيف كان عاقبة المفسدين﴾ أي انظر أيها السامع وتدبر بعين الفكر والبصيرة ماذا كان مآلُ أمر الطاغين ، من الإغراق في الدنيا ، والإحراق في الآخرة ؟ قال ابن كثير : وفحوى الخطاب كأنه يقول :

الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥﴾ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ۚ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ ﴿١٦﴾ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسْكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿١٨﴾

احذروا أيها المكذبون لمحمد ، الجاحدون لما جاء به من ربه ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم بطريق الأولى والأخرى ، فإن محمداً ﷺ أشرف وأعظم من موسى ، وبرهائه أدل وأقوى من برهان موسى ، عليه من ربه أفضل الصلاة والتسليم (١) ﴿لَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا﴾ هذه هي القصة الثانية في السورة الكريمة وهي قصة « داود وسليمان » والمعنى والله لقد أعطينا داود وابنه سليمان علماً واسعاً من علوم الدنيا والدين ، وجعلنا لهما بين سعادة الدنيا والآخرة قال الطبري : وذلك علم كلام الطير والدواب وغير ذلك مما خصهم الله بعلمه (٢) ﴿وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي وقالوا شكراً لله الحمد لله الذي فضّلنا بما آتانا من النبوة ، والعلم ، وتسخير الإنس والجن والشياطين ، على كثير من عباده المؤمنين ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ﴾ أي ورث سليمان أباه في النبوة ، والعلم ، والملك دون سائر أولاده قال الكلبي : كان لداود تسعة عشر ولداً فورث سليمان من بينهم نبوته وملكه ، ولو كانت وراثته مال لكان جميع أولاده فيه سواء (٣) ﴿وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَطِقَ الطَّيْرِ﴾ أي وقال تحدثاً بنعمة الله : يا أيها الناس لقد أكرمنا الله فعلمنا منطق الطير وأصوات جميع الحيوانات ﴿وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ أي وأعطانا الله من كل شيء من خيرات الدنيا يعطاها العظماء والملوك ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ أي إن ما أعطيناه وما خصنا الله به من أنواع النعم هو الفضل الواضح الجلي ، قاله على سبيل الشكر والمحمدة لا على سبيل العلو والكبرياء ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ﴾ أي جمعت له جيوشه وعساكره وأحضرت له في مسيرة كبيرة فيها طوائف الجن والإنس والطير ، يتقدمهم سليمان في أبهة وعظمة كبيرة ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ أي فهم يكفون ويمنعون عن التقدم بين يديه قال ابن عباس : جعل على كل صنف من يرد أولاه على أخرها لثلاث يتقدموا في المسير كما تصنع الملوك (٤) ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ﴾ أي حتى إذا وصلوا إلى واد بالشام كثير النمل ﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ﴾ أي قالت إحدى النملات لرفيقاتها ادخلوا بيوتكم ، خاطبتهم مخاطبة العقلاء لأنها أمرتهم بما يؤمر به العقلاء ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ﴾ أي لا يكسركم سليمان وجيوشه بأقدامهم ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ أي وهم لا يشعرون بكم ولا يريدون حطمكم عن عمد حذرت ثم اعتذرت لأنها علمت أنه

(١) مختصر ابن كثير ٦٦٧/٢ . (٢) الطبري ٨٧/١٩ . (٣) القرطبي ١٦٤/١٣ . (٤) الطبري ٨٨/١٩ .

فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴿١٩﴾

نبيٌ رحيم ، فسمع سليمان كلامها وفهم مرامها ﴿فَتَبَسَّ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا﴾ أي فتبسَّ سروراً بما سمع من ثناء النملة عليه وعلى جنوده ، فإن قولها ﴿وهم لا يشعرون﴾ وصف لهم بالتقوى والتحفظ من مضرة الحيوان ﴿وقال رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلى والدي﴾ أي ألهمني ووفقني لشكر نعمائك وأفضالك التي أنعمت بها عليّ وعلى أبوي ﴿وأن أعمل صالحاً ترضاه﴾ أي ووفقني لعمل الخير الذي يقربني منك والذي تحبه وترضاه ﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾ أي وأدخلني الجنة دار الرحمة مع عبادك الصالحين .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإشارة بالبعيد عن القريب ﴿تلك آيات القرآن﴾ للإيذان ببعده منزلته في الفضل والشرف .
 - ٢ - التنكير للتفخيم والتعظيم ﴿وكتاب مبين﴾ أي كتاب عظيم الشأن رفيع القدر .
 - ٣ - ذكر المصدر بدل اسم الفاعل للمبالغة ﴿هدى وبشرى﴾ أي هادياً ومبشراً .
 - ٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر والاختصاص ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ ومثله ﴿وهم في الآخرة هم الأخسرون﴾ وفيه المقابلة اللطيفة بين الجملتين .
 - ٥ - التأكيد بإن واللام ﴿وإنك لتلقى القرآن﴾ لوجود المتشككين في القرآن .
 - ٦ - إيجاز الحذف ﴿وألقى عصاك فلما رآها تهتز﴾ حذفت جملة فآلقاها فانقلبت الى حية الخ وذلك لدلالة السياق عليه .
 - ٧ - الطباق ﴿حُسناً بعد سوء﴾ . وبين ﴿ولئى مدبراً . . ولم يُعقَّب﴾ .
 - ٨ - الاستعارة ﴿آياتنا مبصرة﴾ استعار لفظ الإبصار للوضوح والبيان لأن بالعينين يبصر الإنسان الأشياء .
 - ٩ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كأنها جان﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فصار مرسلًا مجملًا .
 - ١٠ - حسن الاعتذار ﴿وهم لا يشعرون﴾ .
- لطيفة :** قال بعض العلماء هذه الآية ﴿قالت غلة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم . .﴾ من

عجائب القرآن لأنها بلفظة « يا » نادى « أيها » نبهت « النمل » عيّنت « ادخلوا » أمرت « مساكنكم » نصّت « لا يحطمنكم » حذّرت « سليمان » خصت « وجنوده » عمّت « وهم لا يشعرون » اعتذرت ،
فيا لها من غلة ذكية ! !

* *

قال الله تعالى : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ . . إِلَى . . وَأَسَلْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾
من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٤) .

المناسكة : لا تزال الآيات تتحدث عن « سليمان بن داود » الذي جمع الله له بين « النبوة والملوك » فكان نبياً ملكاً ، وسخر له الإنس والجن وعلمه منطق الطير ، وتذكر الآيات هنا قصته مع « بلقيس » ملكة سبأ وما كان من الأمور العجيبة التي حدثت في زمانه .

اللغز : ﴿ تَفَقَّدَ ﴾ التفقد : طلب ما غاب عن الإنسان ﴿ الْخَبَاءُ ﴾ : الشيء المخبوء من خبأت الشيء أخبؤه خبأ إذا سترته ﴿ صَاغِرُونَ ﴾ أذلاء مهانون من الصغار وهو الذل ﴿ عَفْرِيَّتُ ﴾ العفريت : القوي المارد من الشياطين ومن الإنس ، والخبيث الماكر ﴿ الصَّرْحُ ﴾ القصر ، وكل بناء عال مرتفع يسمى صرحاً ومنه قول فرعون « يا هامان ابن لي صرحاً » ﴿ مَرْدٌ ﴾ المرد : المملّس ، والأمرد الذي لم تخرج لحيته بعد إدراكه ، وشجرة مرداء : لا ورق عليها ﴿ قَوَارِيرُ ﴾ جمع قارورة وهي الزجاجاة .

وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴿٢٠﴾ لَا عَذْبَةَ فَاكِهَةٍ شَدِيدًا وَلَا أَذْبَحْنَهُ -
أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٢١﴾ فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾
إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾

التفسير : ﴿ وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ ﴾ أي بحث سليمان وفُتِّش عن جماعة الطير ﴿ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ ﴾ أي لم لا أرى الهدهد هنا ؟ قال المفسرون : كانت الطير تصحبه في سفره وتظله بأجنحتها ، فلما فصل سليمان عن وادي النمل ونزل في قفر من الأرض ، عطش الجيش فسألوه الماء ، وكان الهدهد يدهله ، على الماء فإذا قال : ههنا الماء شقت الشياطين وفجّرت العيون ، فطلبه في ذلك اليوم فلم يجده فقال مالي لا أراه ﴿ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ﴾ أم منقطعة بمعنى « بل » أي بل هو غائب ، ذهب دون إذنٍ مني ﴿ لَا عَذْبَةَ فَاكِهَةٍ شَدِيدًا وَلَا أَذْبَحْنَهُ ﴾ أو لأذبحنه أو لياطيني بسلطانٍ مبين ﴿ أي لأعاقبه عقاباً أليماً بالسجن أو تنف الريش أو الذبح أو لياطيني بحجة واضحة تبين عذره ﴾ ﴿ فَكَثَّ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴾ أي فأقام الهدهد زماناً يسيراً ثم جاء إلى سليمان ﴿ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ ﴾ أي اطلعت على ما لم تطلع عليه وعرفت ما لم تعرفه ﴿ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبِيلٍ بَنِيَّ يَقِينٍ ﴾ أي وأتيتك من مدينة سبأ - باليمن - بخبر هام ، وأمر صادق خطير ﴿ إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ ﴾ أي من عجائب ما رأيت أن امرأة - تسمى بلقيس - هي ملكة لهم ، وهم

وَجَدْتَهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيْنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ * قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٧﴾ أَذْهَبَ بِكَ نَبِيٌّ هَذَا فَاَلْقَهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾

يدينون بالطاعة لها^(١) ﴿وأوتيت من كل شيء﴾ أي وأعطيت من كل شيء من الأشياء التي يحتاج إليها الملوك من أسباب الدنيا من سعة المال وكثرة الرجال ووفرة السلاح والعتاد ﴿ولها عرش عظيم﴾ أي ولها سرير كبير مكلل بالدر والياقوت قال قتادة : كان عرشها من ذهب ، قوائمه من جوهر ، مكلل بالؤلؤ قال الطبري : وعنى بالعظيم في هذا الموضع العظيم في قدره وخطره ، لا عظمه في الكبر والسعة ، ولهذا قال ابن عباس : ﴿عرش عظيم﴾ أي سرير كريم حسن الصنعة ، وعرشها سرير من ذهب قوائمه من جوهر ولؤلؤ^(٢) ، ثم أخذ يحدثه عما هو أعظم وأخطر فقال ﴿وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله﴾ أي وجدتهم جميعاً مجوساً يعبدون الشمس ويتركون عبادة الواحد الأحد ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾ أي حسن لهم إبليس عبادتهم الشمس وسجودهم لها من دون الله ﴿فصدّهم عن السبيل﴾ أي منعهم بسبب هذا الضلال عن طريق الحق والصواب ﴿فهم لا يهتدون﴾ أي فهم بسبب إغواء الشيطان لا يهتدون إلى الله وتوحيده ، ثم قال الهدد متعجباً ﴿ألا يسجدوا لله الذي يخرج الخبء في السموات والأرض﴾ أي أيسجدون للشمس ولا يسجدون لله الخالق العظيم ، الذي يعلم الخفايا ويعلم كل مخبوء في العالم العلوي والسفلي^(٣)؟ قال ابن عباس : يعلم كل خبيئة في السماء والأرض ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾ أي ويعلم السر والعلن ، ما ظهر وما بطن ﴿الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم﴾ أي هو تعالى المتفرد بالعظمة والجلال ، رب العرش الكريم المستحق للعبادة والسجود ، وخص العرش بالذكر لأنه أعظم المخلوقات ، وإلى هنا انتهى كلام الهدد ﴿قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ أي قال سليمان : سننظر في قولك ونثبت هل أنت صادق أم كاذب فيه ؟ قال ابن الجوزي : وإنما شك في خبره لأنه أنكر أن يكون لغيره سلطان ، ثم كتب كتاباً وختمه بخاتمه ودفعه إلى الهدد وقال ﴿إذهب بكتابي هذا فألقه إليهم﴾ أي اذهب بهذا الكتاب وأوصله إلى ملكة سبأ وجندها ﴿ثم تول عنهم﴾ أي تنح إلى مكان قريب مستتراً عنهم ﴿فانظر ماذا يرجعون﴾ أي فانظر ماذا يردون من الجواب ؟ قال المفسرون : أخذ الهدد الكتاب وذهب إلى بلقيس وقومها ، فرفرف فوق رأسها ثم

(١) وجه العجب أن الملوك عادة من الرجال وأن النساء لا يصلحن لإدارة الممالك ويؤيده حديث (لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة) هذا هو منطلق الفطرة . (٢) الطبري ٩٢/١٩ . (٣) هذا ما انقلدح في ذهني من معنى الآية الكريمة ، ولعله هو الأقرب إلى فهم روح النص القرآني فإن المجال مجال تعجب وإنكار ، لا مجال حديث وإخبار ، فما ذهب إليه بعض المفسرين من أن « لا » زائدة وأن المعنى فهم لا يهتدون أن يسجدوا لله أو أن المعنى ألا يا هؤلاء فاسجدوا .. الخ غير ظاهر والله أعلم .

قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءَا إِنِّي أَتِيَّتُكِ كَرْيَمٌ ۖ ۞ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۖ ۞ أَلَا تَعْلَمُوْنَ عَلَىٰ وَأَتُونِي مَسْلِيْنَ ۖ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءَا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْنَ ۖ ۞ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا بِأَسْ شَدِيْدٍ وَأَلَا أَمْرٌ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِيْنَ ۖ ۞ قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوْا قَرْيَةً أَفْسَدُوْهَا وَجَعَلُوْا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً ۖ وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ۖ ۞ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ۖ ۞ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمٰن قَالَ أَتِمِدُوْنَ بِمَالِي فَا ءَاتِنِيَّ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا ءَاتٰكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ أَتٰنِي الْكِتَابَ فِي حَجَرِهَا ۖ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءَا إِنِّي أَتِيَّتُكِ كَرْيَمٌ ۖ ۞ أَي قَالَتْ لِأَشْرَافِ قَوْمِهَا إِنَّهُ أَتَانِي كِتَابٌ عَظِيْمٌ جَلِيْلٌ ۖ ۞ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ۖ ۞ أَي إِنْ هَذَا الْكِتَابُ مَرْسَلٌ مِنْ سُلَيْمَانَ ثُمَّ فَتَحَتْهُ فَإِذَا فِيهِ : بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَهُوَ اسْتِفْتَا حُشْرِ بَارِعٍ فِيهِ إِعْلَانُ الرُّبُوبِيَّةِ لِلَّهِ ثُمَّ الدَّعْوَةُ إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ وَالْانْقِيَادِ لِأَمْرِهِ ۖ ۞ أَلَا تَعْلَمُوْنَ عَلَيَّ وَأَتُونِي مَسْلِيْنَ ۖ ۞ أَي لَا تَكْبُرُوا عَلَيَّ كَمَا يَفْعَلُ الْمُلُوكُ وَجِيئُونِي مَوْثِقِيْنَ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : أَي مُوَحِّدِيْنَ ، وَقَالَ سَفِيَّانُ : طَائِعِيْنَ ۖ ۞ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُوْٓءَا أَفْتُونِي فِي أَمْرِي ۖ ۞ أَي أَشِيرُوا عَلَيَّ فِي الْأَمْرِ ۖ ۞ مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُوْنَ ۖ ۞ أَي مَا كُنْتُ لَأَقْضِي أَمْرًا بَدُونِ حُضُورِكُمْ وَمَشُورَتِكُمْ ۖ ۞ قَالُوا نَحْنُ أَوْلُوْا قُوَّةً وَأُولُوْا بِأَسْ شَدِيْدٍ ۖ ۞ أَي نَحْنُ أَصْحَابُ كَثْرَةٍ فِي الرِّجَالِ وَالْعِتَادِ ، وَأَصْحَابُ شِدْقٍ فِي الْحَرْبِ ۖ ۞ وَالْأَمْرُ إِلَيْكَ فَانْظُرِي مَاذَا تَأْمُرِيْنَ ۖ ۞ ؟ أَي وَأَمَرْنَا إِلَيْكَ فَمَرِينَا بِمَا شِئْتَ نَمْتَثِلُ أَمْرَكَ ، وَقَوْلُهُمْ هَذَا دَلِيلٌ عَلَى الطَّاعَةِ الْمَفْرُطَةِ قَالَ الْقُرْطُبِيُّ : أَخَذْتُ فِي حَسَنِ الْأَدَبِ مَعَ قَوْمِهَا وَمَشَاوَرَتِهِمْ فِي أَمْرِهَا فِي كُلِّ مَا يَعْضُرُهَا ، فَرَأَيْتُهَا الْمَلَأُوْٓءَا بِمَا يُقَرِّعُ عَيْنَهَا مِنْ إِعْلَامِهِمْ إِيَّاهَا بِالْقُوَّةِ وَالْبَاسِ ، ثُمَّ سَلَّمُوا الْأَمْرَ إِلَى نَظَرِهَا ، وَهَذِهِ مَحَاوِرَةٌ حَسَنَةٌ مِنَ الْجَمِيعِ (١) قَالَ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ : فَوَضُّوا أَمْرَهُمْ إِلَى عِلْجَةٍ يَضْطَرُّ بِثَدْيِهَا ، فَلَمَّا قَالُوا لَهَا مَا قَالُوا كَانَتْ هِيَ أَحْزَمَ مِنْهُمْ رَأْيًا وَأَعْلَمَ (٢) ۖ ۞ قَالَتْ إِنْ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ۖ ۞ أَي إِنْ عَادَةُ الْمُلُوكِ أَنَّهُمْ إِذَا اسْتَلَوْا عَلَى بَلَدٍ عَنُوءَ وَقَهْرًا خَرَبُوهَا ۖ ۞ وَجَعَلُوا أَعْرَءَ أَهْلِهَا أَذَلَّةً ۖ ۞ أَي أَهَانُوا أَشْرَافَهَا وَأَذَلُّوهُمْ بِالْقَتْلِ وَالْأَسْرِ وَالتَّشْرِيدِ ۖ ۞ وَكَذٰلِكَ يَفْعَلُوْنَ ۖ ۞ أَي وَهَذِهِ عَادَتُهُمْ وَطَرِيقَتُهُمْ فِي كُلِّ بَلَدٍ يَدْخُلُونَهَا قَهْرًا ، ثُمَّ عَدَلَتْ إِلَى الْمَهَادَنَةِ وَالْمَسَالِمَةِ فَقَالَتْ ۖ ۞ وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ فَنَظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُوْنَ ۖ ۞ أَي وَإِنِّي سَابَعْتُ إِلَيْهِمْ بِهَدِيَّةٍ عَظِيْمَةٍ تَلِيْقٌ بِمِثْلِهِ ، فَانْظُرْ هَلْ يَقْبَلُهَا أَمْ يَرُدُّهَا ؟ قَالَ قَتَادَةُ : مَا كَانَ أَعْقَلُهَا فِي إِسْلَامِهَا وَشُرْكِهَا !! عَلِمْتُ أَنَّ الْهَدِيَّةَ تَقَعُ مَوْقِعًا مِنَ النَّاسِ ، وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ : قَالَتْ لِقَوْمِهَا إِنْ قَبِلَ الْهَدِيَّةَ فَهُوَ مَلِكٌ يَرِيدُ الدُّنْيَا فَقَاتَلُوهُ ، وَإِنْ لَمْ يَقْبَلُهَا فَهُوَ نَبِيٌّ صَادِقٌ فَاتَّبِعُوهُ (٣) ۖ ۞ فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتِمِدُوْنَ بِمَالِي ۖ ۞ ؟ أَي فَلَمَّا جَاءَ رَسُلُ بَلْقَيْسَ إِلَى سُلَيْمَانَ بِالْهَدِيَّةِ الْعَظِيْمَةِ قَالَ مِنْكَرًا عَلَيْهِمْ : أَتَصَانَعُونَنِي بِالْمَالِ وَالْهَدَايَا لِأَتَرْكِبَكُمْ عَلَى كُفْرِكُمْ وَمُلْكِكُمْ ؟ ۖ ۞ فَمَا أَتَانِي اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا أَتَاكُمْ ۖ ۞ أَي فَمَا أَعْطَانِي اللَّهُ مِنَ النَّبُوَّةِ وَالْمُلْكِ الْوَاسِعِ خَيْرٌ مِّمَّا أَعْطَاكُمْ مِنْ زِينَةِ الْحَيَاةِ

تَفْرَحُونَ ﴿٢٧﴾ أَرْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴿٢٨﴾ قَالَ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ ﴿٣٠﴾ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴿٣٢﴾ فَلَمَّا رَأَاهُ مُسْتَقَرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌ كَرِيمٌ ﴿٣٣﴾

فلا حاجة لي بهديتكم ﴿٢٧﴾ بل أنتم بهديتكم تفرحون ﴿٢٨﴾ أي أنتم تفرحون بالهدايا لأنكم أهل مفاخرة ومكاثرة في الدنيا ، ثم قال لرئيس الوفد ﴿إرجع إليهم فلنأتيهم بجنود لا قِبَلَ لَهُمْ بِهَا﴾ أي ارجع إليهم بهديتهم فوالله لنأتيهم بجنود لا طاقة لهم بمقابلتها ، ولا قدرة لهم على مقاتلتها ﴿ولنخرجهم منها أذلة وهم صاغرون﴾ أي ولنخرجهم من أرضهم ومملكتهم أذلاء حقيرين إن لم يأتوني مسلمين قال ابن عباس : لما رجعت رسل بلقيس إليها من عند سليمان وأخبروها الخبر قالت قد عرفت ما هذا بملك ، وما لنا به من طاقة ، وبعثت إلى سليمان إني قادمة إليك بملوك قومي حتى أنظر ما أمرك ، وما تدعو إليه من دينك ثم ارتحلت إلى سليمان في اثني عشر ألف قائد ﴿٢٩﴾ قال يا أيها الملأ أيكم يأتيني بعرشها قبل أن يأتوني مسلمين ﴿٣٠﴾ ؟ أي قال سليمان لأشرف من حضره من جنده : أيكم يأتيني بسريرها المصنوع بالجواهر قبل أن تصل إلي مع قومها مسلمين ؟ قال البيضاوي : أراد بذلك أن يريها بعض ما خصه الله به من العجائب ، الدالة على عظيم القدرة ، وصدقه في دعوى النبوة ، ويختبر عقلها بأن ينكر عرشها فينظر أتعرفه أم تنكره ﴿٣١﴾ ؟ ﴿قال عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾ أي قال مارِدٌ من مردة الجن : أنا أحضره إليك قبل أن تقوم من مجلس الحكم - وكان يجلس من الصبح إلى الظهر في كل يوم - وغرضه أنه يأتيه به في أقل من نصف نهار ﴿وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾ أي وإني على حمله لقادر ، وأمين على ما فيه من الجواهر والدُر وغير ذلك ﴿قال الذي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ قال المفسرون : هو « آصف بن برخيا » كان من الصديقين يعلم اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب ، وهو الذي أتى بعرش بلقيس وقال لسليمان : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك أي آتيك به بلمح البصر فدعا الله فحضر العرشُ حالاً ﴿فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربي﴾ أي فلما نظر سليمان ورأى العرش - السرير - حاضراً لديه قال : هذا من فضل الله علي ، وإحسانه إلي ﴿ليبلوني أَأشكر أم أَكفر﴾ ؟ أي ليختبرني أَأشكر إنعامه ، أم أجدد فضله وإحسانه ؟ ﴿ومن شكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن شكر فمنفعة الشكر لنفسه ، لأنه يستزيد من فضل الله ﴿لئن شكرتم لأزيدنكم﴾ ﴿ومن كفر فإن ربي غني كريم﴾ أي ومن لم يشكر وجحد فضل الله

قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي ۖ أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٤١﴾ فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ ۖ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴿٤٣﴾ قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۖ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي ۖ وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٤﴾

فإن الله مستغن عنه وعن شكره ، كريمٌ بالإنعام على من كفر نعمته . . ولما قُرب وصولُ ملكة سبأ إلى بلاده أمر بأن تُغيّر بعضُ معالم عرشها امتحاناً لها ﴿قَالَ نَكِرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ أي غَيَّرُوا بعض أوصافه وهيئته كما يتنكر الإنسان حتى لا يُعرف ﴿نَنْظُرْ أَتَهْتَدِي أَمْ تَكُونُ مِنَ الَّذِينَ لَا يَهْتَدُونَ﴾ أي لننظر إذا رآته هل تهتدي إلى أنه عرشها وتعرفه أم لا ؟ أراد بذلك اختبار ذكائها وعقلها ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكَ﴾ ؟ أي أمثل هذا العرش الذي رأيته عرشك ؟ ولم يقل : أهذا عرشك ؟ لثلا يكون تلقيناً لها ﴿قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ﴾ أي يشبهه ويقاربه ولم تقل : نعم هو ، ولا ليس هو قال ابن كثير : وهذا غاية في الذكاء والحزم ^(١) ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ هذا من قول سليمان أي قال سليمان تحدثاً بنعمة الله : لقد أوتينا العلم من قبل هذه المرأة بالله وبقدرته وكنا مسلمين لله من قبلها ، فنحن أسبقُ منها علماً وإسلاماً ﴿وَصَدَّهَا مَا كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي منعها عن الإيمان بالله عبادتها القديمة للشمس والقمر ﴿إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ أي بسبب كفرها ونشوتها بين قوم مشركين ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ﴾ أي ادخلي القصر العظيم الفخم ﴿فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا﴾ أي فلما رأت ذلك الصرح الشامخ ظنته لجة ماء - أي ماءً غمرأً كثيراً - وكشفت عن ساقها لتخوض فيه ﴿قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ﴾ أي قال سليمان : إنه قصر مملّس من الزجاج الصافي ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ أي قالت بلقيس حينئذٍ : ربِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي بالشرك وعبادة الشمس ﴿وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أي وتابعتُ سليمان على دينه فدخلت في الإسلام مؤمنةً برب العالمين ، قال ابن كثير : والغرض أن سليمان عليه السلام اتخذ قصراً عظيماً منيفاً من زجاج لهذه الملكة ، ليرى عظمة سلطانه وتمكنه ، فلما رأت ما آتاه الله وجلالة ما هو فيه وتبصرت في أمره ، انقادت لأمر الله تعالى وعرفت أنه نبي كريم ، ومليكٌ عظيم ، وأسلمت لله عز وجل ^(٢) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - أسلوب التعجب ﴿مَالِي لَا أَرَى الْهَدَّهْدَ﴾ ؟

٢ - التأكيد المكرر ﴿لَأَعَذِّبَنَّهُ . . أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ . . أَوْ لِيَأْتِنِي﴾ لتأكيد الأمر .

٣ - طباق السلب ﴿أحطتُ بما لم تُحط به﴾ وكذلك ﴿تهتدي . . لا يهتدون﴾ .

٤ - الجناس اللطيف ﴿وجئتُك من سبأ نبياً﴾ ويسمى الجناس الناقص لتبديل بعض الحروف ^(١) .

٥ - الطباق في اللفظ ﴿تُخفون . . وتعلنون﴾ وكذلك ﴿أشكر أم أكفر﴾ .

٦ - الطباق في المعنى ﴿أصدقت أم كنت من الكاذبين﴾ .

قال علماء البيان : والمطابقة هنا بالمعنى أبلغ من اللفظ لأنه عدول عن الفعل إلى الاسم فيفيد الثبات فلو قال « أصدقت أم كذبت » لما أدّى هذا المعنى لأنه قد يكذب في هذا الأمر ولا يكذب في غيره ، وأما قوله ﴿أم كنت من الكاذبين﴾ فإنه يفيد أنه إذا كان معروفاً بالانخراط في سلك الكاذبين كان كاذباً لا محالة فلا يوثق به أبداً .

٧ - جناس الاشتقاق ﴿تقوم من مقامك﴾ وكذلك ﴿أسلمت مع سليمان﴾ .

٨ - التشبيه ﴿كأنه هو﴾ أي كأنه عرشي في الشكل والوصف ويسمى « مرسلأ مجملاً » .

٩ - الاستعارة البديعة ﴿قبل أن يرتدَّ إليك طرفك﴾ شبه سرعة مجيئه بالعرش برجوع الطرف للإنسان ، وارتداد الطرف معناه التقاء الجفنين وهو أبلغ ما يمكن أن يوصف به في السرعة ومثله « وما أمرُ الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب » فاستعار للسرعة الفائقة ارتداد الطرف ^(٢) .

١٠ - توافق الفواصل في كثير من الآيات ، ولها وقع في النفس رائع مثل ﴿أم كان من الغائبين﴾ ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾ ﴿وجئتُك من سبأ نبياً يقيس﴾ إلى آخر ما هنالك .

لطيفة : أخذ بعض العلماء من قوله تعالى ﴿وتفقد الطير﴾ استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية ، وكذلك تفقد الأصدقاء ، والإخوان ، والخلان وأنشد بعضهم :

سَنَ سُلَيْمَانُ لَنَا سُنَّةً وَكَانَ فِيمَا سَنَّهُ مُقْتَدَى
تَفَقَّدَ الطَّيْرَ عَلَى مُلْكِهِ فَقَالَ : مَالِي لَا أَرَى الْهُدْهَدَا ؟

قال الله تعالى : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً . . إلى . . بل هم منها عمون﴾ من آية (٤٥) إلى نهاية آية (٦٦) .

المناسبة : لما ذكر تعالى في أول السورة قصة موسى ، ثم أعقبها بقصة داود وسليمان وما فيها من العجائب والغرائب ، ذكر هنا قصة « صالح » ثم قصة « لوط » وكل هذه القصص غرضها التذكير

(١) قال صاحب الكشف : وهذا من محاسن الكلام بشرط أن يجيء مطبوعاً غير متكلف أو يصنعه عالم بجوهر الكلام ، ولقد حسن في الآية وبدع لفظاً ومعنى ، ألا ترى أنه لو وضع مكان « نبأ » لفظة « بخبر » لكان المعنى صحيحاً ولكن يفوت ما في النبأ من الزيادة التي معناها الخبر الهام والتي يطابقها وصف الحال . (٢) انظر تلخيص البيان ص ٢٦١ .

والاعتبار ، وبيانُ سنة الله في إهلاك المكذبين ، ثم أتبعها بذكر البراهين الدالة على الوحدانية ، والعلم ، والقدرة .

اللفظ : ﴿أَطِيرْنَا﴾ من التطير وهو التشاؤم قال الزجاج : أصلها تطيرنا فأدغمت التاء في الطاء واجتلبت الألف لسكون الطاء ﴿خاوية﴾ خالية من خوى البطن إذا خلى ، وخوى النجم إذا سقط ﴿الفاحشة﴾ الفعلة القبيحة الشنيعة ﴿حدائق﴾ جمع حديقة وهي البستان الذي عليه سور قال الفراء : الحديقة البستان الذي عليه حائط ، فإن لم يكن عليه حائط فهو البستان^(١) ﴿قراراً﴾ مستقراً يثبت عليه الشيء ﴿حاجزاً﴾ الحاجز : الفاصل بين الشيئين .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ فَإِذَا هُمْ فَرِيقَانِ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا أَطِيرْنَا بِكَ وَبَيْنَ مَعَكَ قَالَ طَبَّرُ كُمْ عِنْدَ اللَّهِ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴿٤٧﴾ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾

النفيس : ﴿ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله﴾ اللام جواب قسم محذوف أي والله لقد أرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم - في النسب لا في الدين - صالحاً عليه السلام يدعوهم إلى توحيد الله وعبادته ﴿فإذا هم فريقان يختصمون﴾ أي فإذا هم جماعتان : مؤمنون وكافرون يتنازعون في شأن الدين قال مجاهد : «فريقان : مؤمن ، وكافر» واختصامهم : اختلافهم وجدالهم في الدين ، وجاء الفعل بالجمع ﴿يختصمون﴾ حملاً على المعنى ﴿قال يا قوم لم تستعجلون بالسبيئة قبل الحسنه﴾ أي قال لهم صالح بطريق التلطف والرفق : يا قوم لم تطلبون العذاب قبل الرحمة ؟ ولأي شيء تستعجلون بالعذاب ولا تطلبون الرحمة ؟ ﴿لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون﴾ أي هلاً تتوبون إلى الله من الشرك لكي يتوب الله عليكم ويرحمكم ؟ قال المفسرون : كان الكفار يقولون لفرط الإنكار : يا صالح اتنا بعذاب الله فقال لهم : هلاً تستغفرون الله قبل نزول العذاب ، فإن استعجال الخير أولى من استعجال الشر !! ﴿قالوا أطيرنا بك وبمن معك﴾ أي تشاء منا بك يا صالح وبأتباعك المؤمنين فإنكم سبب ما حل بنا من بلاء ، وكانوا قد أصابهم القحط وجاعوا ﴿قال طائرکم عند الله﴾ أي حظكم في الحقيقة من خير أو شر هو عند الله وبقضائه ، إن شاء رزقكم وإن شاء حرّمكم . لما لطفهم في الخطاب أغلظوا له في الجواب وقالوا تشاء منا بك وبمن معك ، فأخبرهم أن شؤمهم بسبب عملهم لا بسبب صالح والمؤمنين ﴿بل أنتم قوم تفتنون﴾ أي بل الحقيقة أنكم جماعة يفتنكم الشيطان بوسوسته وإغوائه ولذلك تقولون ما تقولون ﴿وكان في المدينة تسعة رهط﴾ أي وكان في مدينة صالح - وهي الحِجْر - تسعة رجال من أبناء أشرافهم قال الضحاك : كان هؤلاء التسعة عظماء أهل المدينة ﴿يُفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ أي شأنهم الإفساد ، وإيذاء العباد بكل طريق ووسيلة قال ابن عباس :

قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٥٩﴾ وَمَكْرُؤًا مَكَرًا
وَمَكْرَنَا مَكَرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٦٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مُكْرِهِمْ أَنَا دَمَرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٦١﴾
فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةٌ بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَنْجَيْنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾
وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ ﴿٦٤﴾ أَنْتُمْ لَنَا تُؤْنِسُونَ الرِّجَالَ شَهْوَةً مِنْ دُونِ النِّسَاءِ بَلْ
أَنْتُمْ قَوْمٌ مُّجْهَلُونَ ﴿٦٥﴾ * فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أَنَاسٌ
يَتَطَهَّرُونَ ﴿٦٦﴾

وهم الذين عقروا الناقة ﴿قالوا تقاسموا بالله﴾ أي قال بعضهم لبعض : احلفوا بالله ﴿لنبيئته وأهله﴾ أي لنقتلن صالحاً وأهله ليلاً ﴿ثم لنقولن لوليّه ما شهدنا مهلك أهله﴾ أي ثم نقول لوليّ دمه ما حضرنا مكان هلاكه ولا عرفنا قاتله ولا قاتل أهله ﴿وإننا لصادقون﴾ أي ونحلف لهم إننا لصادقون قال ابن عباس : أتوا دار صالح شاهرين سيوفهم ، فرمتهم الملائكة بالحجارة فقتلتهم^(١) قال تعالى ﴿ومكروا مكراً﴾ أي دبّروا مكيدة لقتل صالح ﴿ومكروا مكراً﴾ أي جازيناهم على مكروهم بتعجيل هلاكهم ، سمّاه مكراً بطريق المشاكلة^(٢) ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي من حيث لا يدرون ولا يعلمون قال أبو حيان : ومكروهم ما أخفوه من تدبير الفتك بصالح وأهله ، ومكر الله إهلاكهم من حيث لا يشعرون^(٣) ﴿فانظر كيف كان عاقبة مكروهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾ أي فتأمل وتفكر في عاقبة أمرهم ونتيجة كيدهم ، كيف أنا أهلكناهم أجمعين وكان ما لهم الخراب والدمار ! ﴿فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا﴾ أي فتلك مساكنهم ودورهم خالية بسبب ظلمهم وكفرهم لأن أهلها هلكوا ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ أي إن في هذا التدمير العجيب لعبرة عظيمة لقوم يعلمون قدرة الله فيتعظون ﴿وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ أي وأنجينا من العذاب المؤمنين المتقين الذين آمنوا مع صالح ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا « لوطاً » حين قال لقومه أهل سدوم ﴿أتأتون الفاحشة﴾ أي أتفعلون الفعل القبيحة الشنيعة وهي اللواط ﴿وأنتم تبصرون﴾ أي وأنتم تعلمون علماً يقيناً أنها فاحشة وأنها عمل قبيح ؟ ﴿أنتم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء﴾ تكرير للتوبيخ أي أنتم أيها القوم لفرط سفهكم تشتهون الرجال وتتركون النساء ؟ ويكتفي الرجال بالرجال بطريق الفاحشة القبيحة ﴿بل أنتم قوم تجهلون﴾ أي بل أنتم قوم سفهاء ماجنون ولذلك تفضلون العمل الشنيع على ما أباح الله لكم من النساء ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ أي فما كان جواب أولئك المجرمين إلا أن قالوا أخرجوا لوطاً وأهله من بلدتكم ﴿إنهم أناس يتطهرون﴾ أي إنهم

(١) زاد المسير ١٨٢/٦ . (٢) المشاكلة هي الاتفاق في اللفظ دون المعنى . (٣) البحر ٨٥/٧ .

فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تَرَوْهُ قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٥٧﴾ وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ ﴿٥٨﴾ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى ۚ اللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا ۚ أَوَلَمْ يَكُنْ مَعَ اللَّهِ بَلٌّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ

قوم ينتزهون عن القاذورات ويعدون فعلنا قدراً ، وهو تعليلٌ لوجوب الطرد والإخراج قال قتادة : عابوهم والله بغير عيب بأنهم يتطهرون من أعمال السوء وقال ابن عباس : هو استهزاء يستهزئون بهم بأنهم يتطهرون عن أدبار الرجال^(١) ﴿فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا﴾ أي فخلصناه هو وأهله من العذاب الواقع بالقوم إلا زوجته ﴿قَدَرْنَاهَا مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ أي جعلناها بقضائنا وتقديرنا من المهلكين ، الباقيين في العذاب ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَرًا﴾ أي أنزلنا عليهم حجارة من السماء كالطمر فأهلكتهم ﴿فَسَاءَ مَطَرُ الْمُنْذِرِينَ﴾ أي بشس هذا العذاب الذي أمطروا به وهو الحجارة من سجيل منضود ، ولما ذكر تعالى قصص الأنبياء أتبعه بذكر دلائل القدرة والوحدانية فقال ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى﴾ أي قل يا محمد الحمد لله على إفضاله وإنعامه ، وسلامٌ على عباده المرسلين الذين اصطفاهم لرسالته ، واختارهم لتبليغ دعوته قال الزمخشري : أمر الله رسوله ﷺ أن يتلو هذه الآيات الدالة على وحدانيته ، الناطقة بالبراهين على قدرته وحكمته ، وأن يستفتح بتحميده والسلام على أنبيائه ، وفيه تعليمٌ حسن ، وتوقيفٌ على أدبٍ جميل ، وهو حمد الله والصلاة على رسله ، ولقد توارث العلماء والخطباء والوعاظ كابراً عن كابر هذا الأدب ، فحمدوا الله وصلوا على رسوله أمام كل علم ، وقبل كل عظة وتذكرة^(٢) ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ مِمَّا يَشْرُكُونَ﴾ تبيكت للمشركين وتهكم بهم أي هل الخالق المبدع الحكيم خيرٌ أم الأصنام التي عبدوها وهي لا تسمع ولا تستجيب ؟ ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ برهان آخر على وحدانية الله أي أمَّنْ أبدع الكائنات فخلق تلك السموات في ارتفاعها وصفاتها ، وجعل فيها الكواكب المنيرة ، وخلق الأرض وما فيها من الجبال والسهول والأنهار والبحار ، خيرٌ أمَّا يشركون ؟ ﴿وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتِ بَهْجَةٍ﴾ أي وأنزل لكم بقدرته المطر من السحاب فأخرج به الحدائق والبساتين ، ذات الجمال والخضرة والنضرة ، والمنظر الحسن البهيج ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنبِتُوا شَجَرَهَا﴾ أي ما كان للبشر ولا يتهياً لهم ، وليس بمقدورهم ومستطاعهم أن ينبِتوا شجرها فضلاً عن ثمرها ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِرَبِّكُمْ﴾ استفهام إنكار أي هل معه معبود سواه حتى تسووا بينها وهو المتفرد بالخلق والتكوين ؟ ﴿بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ أي بل هم قوم يشركون بالله فيجعلون له عديلاً ومثيلاً ، ويسوون بين الخالق الرازق والوثن ﴿أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا﴾ برهان آخر أي جعل الأرض مستقراً للإنسان والحيوان ، بحيث

حَاجِزًا أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ ۖ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٢﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيْحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٣﴾ أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ أَوْلَهُ مَعَ اللَّهِ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤﴾

يمكنكم الإقامة بها والاستقرار عليها ﴿وجعل خلاها أنهاراً﴾ أي وجعل في شعابها وأوديتها الأنهار العذبة الطيبة ، تسير خلاها شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ﴿وجعل لها رواسي﴾ أي وجعل جبلاً شامخة ترسي الأرض وتثبتها لئلا تميد وتضطرب بكم ﴿وجعل بين البحرين حاجزاً﴾ أي وجعل بين المياه العذبة والمالحة فاصلاً ومانعاً يمنعها من الاختلاط ، لئلا يفسد ماء البحار المياه العذبة (١) ﴿أإله مع الله﴾ أي أفع الله معبوداً سواه ؟ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي أكثر المشركين لا يعلمون الحق فيشركون مع الله غيره ﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه﴾ برهان ثالث أي أمن يجيب المكروب المجهود الذي مسه الضر فيستجيب دعاءه ويلبي نداءه ؟ ﴿ويكشف السوء﴾ أي ويكشف عنه الضر والبأساء ؟ ﴿ويجعلكم خلفاء الأرض﴾ أي ويجعلكم سكان الأرض تعمرونها جيلاً بعد جيل ، وأمة بعد أمة ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يفعل ذلك حتى تعبدوه ؟ ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ أي ما أقل تذكركم واعتباركم فيما تشاهدون ؟ ﴿أم من يهديكم في ظلمات البر والبحر﴾ ؟ برهان رابع أي أم من يرشدكم إلى مقاصدكم في أسفاركم في الظلام الدامس ، في البراري ، والقفار ، والبحار ؟ والبلاد التي تتجهون إليها بالليل والنهار ؟ ﴿ومن يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته﴾ ؟ أي ومن الذي يسوق الرياح مبشرة بنزول المطر الذي هو رحمة للبلاد والعباد ؟ ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يقدر على شيء من ذلك ؟ ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ أي تعظم وتمجد الله القادر الخالق عن مشاركة العاجز المخلوق ﴿أمن يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ برهان خامس أي أمن يبدأ خلق الإنسان ثم يعيده بعد فئاته ؟ قال الزمخشري : كيف قال لهم ذلك وهم منكرون للإعادة ؟ والجواب أنه قد أزيحت عنهم بالتمكين من المعرفة والإقرار ، فلم يبق لهم عذر في الإنكار (٢) ﴿ومن يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي ومن ينزل عليكم من مطر السماء ، ويُنبت لكم من بركات الأرض الزروع والثمار ؟ قال أبو حيان : لما كان إيجاد بني آدم إنعاماً إليهم وإحساناً عليهم ، ولا تتم النعمة إلا بالرزق قال ﴿ومن يرزقكم من السماء﴾ أي بالمطر ﴿والأرض﴾ أي بالنبات (٣) ﴿أإله مع الله﴾ ؟ أي إله مع الله يفعل ذلك ؟ ﴿قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين﴾ أي أحضروا حجتكم ودليلكم على ما تزعمون إن كنتم صادقين في أن مع

(١) هذا قول الحسن واختاره ابن كثير وهو الأظهر وقيل : المراد بحر فارس والروم .

(٢) الكشف ٣ / ٢٩٧ . (٣) البحر ٧ / ٩٠ .

قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٢٥﴾ بَلْ أَدَارِكُهُمْ فِي
الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ ﴿٢٦﴾

الله إلهاً آخر^(١) ﴿٢٥﴾ قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ﴿٢٥﴾ أي هو سبحانه وحده المختص بعلم الغيب ، فلا يعلم أحد من ملك أو بشر الغيب إلا الله علام الغيوب قال القرطبي : نزلت في المشركين حين سألوا النبي ﷺ عن قيام الساعة ﴿وما يشعرون أيان يُبعثون﴾ ؟ أي وما يدري ولا يشعر الخلائق متى يُبعثون بعد موتهم ؟ ﴿بل أدرك علمهم في الآخرة﴾ أي هل تتابع وتلاحق علم المشركين بالآخرة وأحوالها حتى يسألوا عن الساعة وقيامها ؟ إنهم لا يصدقون بالآخرة فلماذا يسألون عن قيام الساعة ؟ ﴿بل هم في شك منها﴾ إضراب عن السابق أي هم شاكون في الآخرة لا يصدقون بها ولذلك يعاندون ويكابرون ﴿بل هم منها عمون﴾ أي بل هم في عمى عنها ، ليس لهم بصيرة يدركون بها دلائل وقوعها لأن اشتغالهم باللذات النفسانية من شهوة البطن والفرج صيرهم كالبهائم والأنعام لا يتدبرون ولا يبصرون قال ابن كثير : هم شاكون في وقوعها ووجودها ، بل هم في عمية وجهل كبير في أمرها .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباقي ﴿يفسدون .. ولا يصلحون﴾ .
- ٢ - التحضيض ﴿لولا تستغفرون الله﴾ أي هلاً تستغفرون الله .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿اطيرنا .. طائرکم﴾ .
- ٤ - المشاكلة ﴿ومكروا .. ومكرنا﴾ سُمي تعالى إهلاكهم وتدميرهم مكرأ على سبيل المشاكلة .
- ٥ - الطباقي ﴿لم تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة﴾ ؟
- ٦ - الاستفهام التوبيخي ﴿أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون﴾ ؟
- ٧ - أسلوب التبكيت والتهكم ﴿آله خير أمأ يشركون﴾ ؟
- ٨ - الاستعارة اللطيفة ﴿بين يدي رحمته﴾ أي أمام نزول المطر فاستعار اليدين للأمام .

(١) قال في البحر : وناسب ختم كل استفهام بما تقدمه ، فلما ذكر خلق العالم العلوي والسفلي وما امتن به من إنزال المطر ختمه بقوله ﴿بل هم قوم يعدلون﴾ أي يعدلون به غيره مما هو مخلوق ، ولما ذكر جعل الأرض مستقراً وتفجير الأنهار ، وكان فيه التنبيه على الكفر والتعقل ختمه بقوله ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ولما ذكر إجابة المضطر وكشف سوء ختمه بقوله ﴿قليلاً ما تذكرون﴾ لأن الإنسان يتوالى عليه النسيان عندما يزول عنه اضطراؤه ، ولما ذكر الهداية في الظلمات وإرسال الرياح مبشرات ، ومعبوداتهم لا تهدي ولا تسعف وهم يشركون بها ختمه بقوله ﴿تعالى الله عما يشركون﴾ البحر ٩١/٧ .

٩ - الطباقي ﴿يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ .

١٠ - الاستعارة ﴿بل هم منها عمون﴾ استعار العمى للتعمي عن الحق وعدم التفكير والتدبر في آلاء الله .

١١ - مراعاة الفواصل مما يزيد في رونق الكلام وجماله ، وله على السمع وقع خاص مثل ﴿وما يشعرون أياں يُبعثون﴾ ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾ ومثل ﴿إن في ذلك لآية لقوم يعلمون﴾ وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون﴾ . وأمثاله كثير ، وفي القرآن روائع بيانية يعجز عن التعبير عنها اللسان ، فسبحان من خصَّ نبيّه الأُمي بهذا الكتاب المعجز !

قال الله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وأبأؤنا . . إلى . . وما ربك بغافل عما تعملون﴾ من آية (٦٧) إلى آية (٩٣) نهاية السورة .

المُنَاسِبَةُ : لما ذكر تعالى الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين ، ذكر هنا شبهات المشركين في الإيمان بالآخرة والبعث والنشور ، وأردفها بذكر الدلائل القاطعة ، وذكر بعض الأحوال التي تكون بين يدي الساعة .

اللفظ : ﴿رَدَفَ﴾ اقترَب ودنا ﴿تَكُنُّ﴾ تُسِرُّ وتخفي ﴿داخرين﴾ ذليلين صاغرين ﴿فوجاً﴾ الفوج : الجماعة ﴿جامدة﴾ الجمود : سكون الشيء وعدم حركته ﴿أتقن﴾ الاتقان : الإتيان بالشيء على أحسن حالاته من التام والكمال والإحكام ﴿كُتِبَ﴾ الكُتِبَ : الطرح والإلقاء يقال : كتبت الرجل ألقيته على وجهه ، وكتبت الإناء قلبته .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَءَابَاؤُنَا إِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ وَءَابَاؤُنَا مِن قَبْلُ إِن هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾

النفسِير : ﴿وقال الذين كفروا أئذا كنا تراباً وأبأؤنا أننا لمخرجون﴾ أي قال مشركو مكة المنكرون للبعث : أئذا متنا وأصبحنا رفاتاً وعظاماً بالية ، فهل سنخرج من قبورنا ونحيا مرة ثانية ؟ ﴿لقد وعدنا هذا نحن وأبأؤنا من قبل﴾ أي لقد وعدنا محمد بالبعث كما وعد من قبله آباءنا الأولين ، فلو كان حقاً لحصل ﴿إن هذا إلا أساطير الأولين﴾ أي ما هذا إلا خرافات وأباطيل السابقين . ينكرون البعث وينسون أنهم خلُقوا من العدم ، وأن الذي خلقهم أولاً قادر على أن يعيدهم ثانياً ! ﴿قل سيروا في الأرض﴾ أي قل لهؤلاء الكفار : سيروا في أرجاء الأرض ﴿فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ أي فانظروا - نظر اعتبار - كيف كان مآل المكذبين للرسل ؟ ألم يهلكهم الله ويدمرهم ؟ فما حدث للمجرمين

وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُنْ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿٧٠﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٧١﴾ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ رَدِفَ لَكُمْ بَعْضُ الَّذِي تَسْتَعْجِلُونَ ﴿٧٢﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿٧٤﴾ وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴿٧٥﴾ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْ يَقُصَّ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَءِيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَهْدَىٰ وَرَحْمَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٧٧﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ بِحُكْمِهِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٧٨﴾

من قبل ، يحدث للمجرمين من بعد ، والآية وعيد وتهديد ﴿ولا تحزن عليهم ولا تكن في ضيق مما يمكرون﴾ تسلية للرسول عليه السلام أي لا تحزن يا محمد ولا تأسف على هؤلاء المكذبين إن لم يؤمنوا ، ولا يضق صدرك من مكرهم فإن الله يعصمك منهم ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ أي يقولون استهزاء : متى يجيئنا العذاب إن كنتم صادقين فيما تقولون ؟ والخطاب للنبي ﷺ والمؤمنين ﴿قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذي تستعجلون﴾ أي لعل الذي تستعجلون به من العذاب قد دنا وقرب منكم بعضه قال المفسرون : هو ما أصابهم من القتل والأسر يوم بدر ﴿وإن ربك لذو فضل على الناس﴾ أي لذو إفضال وإنعام على الناس بترك تعجيل عقوبتهم على معاصيهم وكفرهم ﴿ولكن أكثرهم لا يشكرون﴾ أي ولكن أكثرهم لا يعرفون حق النعمة ، ولا يشكرون ربهم ﴿وإن ربك ليعلم ما تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ أي وإنه تعالى ليعلم ما يُخْفُونَ وما يعلنون من عداوة الرسول وكيدهم له وسيجازيهم عليه ﴿وما من غائبة في السماء والأرض إلا في كتاب مبين﴾ أي ليس من شيء في غاية الخفاء على الناس والغيوبة عنهم إلا وقد علمه الله وأحاط به ، وأثبت في اللوح المحفوظ عنده ، فلا تخفى عليه سبحانه خافية قال ابن عباس : معناه ما من شيء سر في السموات والأرض أو علانية إلا وعند الله علمه ^(١) ﴿إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون﴾ لما ذكر تعالى أمر المبدأ والمعاد والنبوة ، وكان القرآن من أعظم الدلائل والبراهين على صدق محمد وصدق ما جاء به ، أعقبه هنا بذكر القرآن المجيد وذكر أوصافه والمعنى : إن هذا القرآن المنزل على خاتم الرسل هو الكتاب الحق الذي يبين لأهل الكتاب ما اختلفوا فيه من أمر الدين ، ومن جملة اختلافهم في أمر المسيح وتفرقهم فيه فرقاً كثيرة حتى لعن بعضهم بعضاً ، فلو كانوا منصفين لأسلموا ، لأن القرآن جاءهم بالرأي الساطع ، والخبر القاطع ﴿وإنه هدى ورحمة للمؤمنين﴾ أي وإنه هداية لقلوب المؤمنين من الضلالة ، ورحمة لهم من العذاب ، قال القرطبي : وإنما خص المؤمنين بالذكر لأنهم المتفعلون به ^(٢) ﴿إن ربك يقضي بينهم بحكمه﴾ أي إن ربك يا محمد يفصل بين بني إسرائيل يوم القيامة بحكمه العادل ، وقضائه المبرم ، فيجازي المحق والمبطل ﴿وهو العزيز﴾ أي المنيع الغالب الذي لا يُرد أمره ﴿العليم﴾ أي العليم

فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴿٧٨﴾ إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدِيرِينَ ﴿٧٩﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادِي الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٨٠﴾ * وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ ﴿٨١﴾

بأفعال العباد فلا يخفى عليه شيء منهم ﴿فتوكل على الله﴾ أي فوض إليه أمرك ، واعتمد عليه في جميع شئونك فإنه ناصرك ﴿إنك على الحق المبين﴾ أي إنك يا محمد على الدين الحق ، الواضح المنير ، فالعاقبة لك بالنصر على الكفار ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ أي لا تسمع الكفار لتركهم التدبر والاعتبار ، فهم كالموتى لا حس لهم ولا عقل ﴿ولا تسمع الصم الدعاء إذا ولوا مدبرين﴾ أي ولا تسمعهم دعاءك ونداءك إذا ذكرتهم بالله أو دعوتهم إلى الإيمان ، لأنهم كالصم الذين في آذانهم قر ، فلا يستجيبون الدعاء ، لا سيما إذا تولوا عنك معرضين ، فإن الأصم إذا تولى مدبراً ثم ناديته كان أبعد عن السماع حيث انضم إلى صممه بعد المسافة ﴿وما أنت بهادي العمى عن ضلالتهم﴾ أي وليس بوسعك يا محمد أن تصرف عمى القلوب عن كفرهم وضلالهم ﴿إن تسمع إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون﴾ أي ما تسمع - سماع تدبر وإفهام - إلا المؤمنين ، ولا يستجيب لدعوتك إلا أهل الإيمان ، وهم الذين انقادوا وأسلموا وجوههم للرحمن . شبه من لا يسمع ولا يعقل بالموتى في أنهم لا يسمعون وإن كانوا أحياء ، ثم شبههم ثانياً بالصم وبالعُمى وإن كانوا سليمي الحواس ، وأكد عدم سماعهم بقوله ﴿إذا ولوا مدبرين﴾ لأن الأصم إذا أدبر زاد صممه أو عُدِم سماعه بالكلية ، والغرض من الآية أن هؤلاء الكفار كالموتى ، وكالصم ، وكالعُمى ، لا يفهمون ولا يسمعون ولا يبصرون ، ولا يلتفتون إلى شيء من الدلائل الكونية ، أو الآيات القرآنية ﴿وإذا وقع القول عليهم﴾ هذا بيان لما يكون بين يدي الساعة أي وإذا قُرب نزول العذاب وقيام الساعة ، وحان وقت عذاب الكفار ﴿أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم أن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون﴾ أي أخرجنا للكفار هذه الآية الكبيرة «دابة الأرض» تكلم الناس وتناظرهم وتقول من جملة كلامها : ألا لعنة الله على الظالمين ، الذين لا يصدقون ولا يؤمنون بآيات الله ، وخروج الدابة من أشراط الساعة وفي الحديث (لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات . . . وعد منها طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة . . .) (١) الحديث قال ابن كثير : هذه الدابة تخرج في آخر الزمان ، عند فساد الناس وتركهم أوامر الله ، وتبديلهم الدين الحق ، فتكلم الناس وتخطبهم مخاطبة قال ابن عباس وعطاء : تكلمهم كلاماً فتقول لهم : إن الناس كانوا بآياتنا لا يوقنون (٢) ، وروي أن خروجها حين ينقطع الخير ، ولا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر ، ولا يبقى منيب ولا تائب ، وهي آية خاصة

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ، وفي صحيح مسلم (إن أول الآيات خروجا طلوع الشمس من مغربها ، وخروج الدابة على الناس ضحى ، وأيتها كانت قبل صاحبها فالأخرى على إثرها قريباً) .

(٢) مختصر ابن كثير ٢ / ٦٨٢ .

وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ وَقَالَ أَكْذَبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عَلَيَّا أَمَاذَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ ﴿٨٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصَرًا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٨٦﴾ وَيَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ وَكُلُّ أَتَوْه دَاخِرِينَ ﴿٨٧﴾

خارقة للعادة ، ثم ذكر تعالى بعض مشاهد القيامة فقال ﴿ويوم نحشر من كل أمة فوجاً﴾ أي واذكر يوم نجمع للحساب والعقاب من كل أمة من الأمم جماعة وزمرة ﴿ممن يكذب بآياتنا﴾ أي من الجاحدين المكذبين بآياتنا ورسلنا ﴿فهم يُوزعون﴾ أي فهم يجمعون ثم يُساقون بعنف ﴿حتى إذا جاءوا قال أكذبتُم بآياتي ولم تحيطوا بها علماً﴾ أي حتى إذا حضروا موقف الحساب والسؤال قال لهم تعالى مؤبخاً ومقرعاً : أكذبتُم بآياتي المنزلة على رسلي من غير فكر ولا نظر يؤدي إلى إحاطة العلم بكنهها ، أو معرفة صدقها ؟ ﴿أمأذا كنتم تعملون﴾ تقرير وتوبيخ آخر أي شيء كنتم تعملون في الدنيا ؟ وبخهم أولاً بقوله ﴿أكذبتُم بآياتي﴾ ثم اضرب عنه إلى استفهام تقرير وتبكيت كأنه قيل : دَعُوا ما نسبته إليكم من التكذيب وقولوا لي : أي شيء كنتم تعملونه في الدنيا غير التكذيب ؟ ﴿ووقع القول عليهم بما ظلموا﴾ أي بهتوا فلم يكن لهم جواب ، وقامت عليهم الحجة وحق عليهم العذاب ، بسبب ظلمهم وهو تكذيبهم بآيات الله ﴿فهم لا ينطقون﴾ أي فهم لا يتكلمون لأنه ليس لهم عذر ولا حجة ، وقد شغلوا بالعذاب عن الجواب . . ثم لما ذكر تعالى أحوال القيامة ذكر الأدلة والبراهين على التوحيد والحشر والنشر مبالغة في الإرشاد إلى الإيمان فقال : ﴿ألم يروا أَنَّا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ أي ألم يروا قدرة الله فيعتبروا أنه تعالى جعل الليل مظلاً ليناموا ويستريحوا من تعب الحياة ، وجعل النهار منيراً مشرقاً ليتصرفوا فيه في طلب المعاش والرزق ؟ ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون﴾ أي إن في تقلب الليل والنهار من نور إلى ظلمة ، ومن ظلمة إلى نور لآيات باهرة ، ودلائل قاطعة على قدرة الله لقوم يصدقون فيعتبرون ، ثم أشار تعالى إلى أحوال الناس في الآخرة فقال ﴿ويوم يُنفخ في الصور ففزع من في السموات والأرض إلا من شاء الله﴾ أي واذكر يوم ينفخ إسرافيل في الصور نفخة الفزع « فلا يبقى أحدٌ من أهل السموات والأرض إلا خاف وفزع إلا من شاء الله من الملائكة والأنبياء والشهداء قال المفسرون : هذه نفخة الفزع ، ثم تتلوها نفخة الصعق - وهو الموت - ثم بعد ذلك نفخة النشور من القبور وهي نفخة القيام لرب العالمين ، قال أبو هريرة : إن الملك له في الصور ثلاث نفخات : نفخة الفزع - وهو فزع الحياة الدنيا - وليس بالفزع الأكبر ، ونفخة الصعق ، ونفخة القيام من القبور ^(١) ﴿وكلُّ أَتَوْه داخرين﴾ أي وكل من الأموات الذين أحيوا أتوا ربهم صاغرين مطيعين لم

وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٨﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ آمِنُونَ ﴿٢٩﴾ وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٠﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ أَنْ أُعْبَدَ رَبُّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَاهُ وَلَهُ كُلُّ شَيْءٍ وَأَمْرُهُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾ وَأَنْ أَتْلُوا الْقُرْآنَ أَنْ فَمِنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ أَيْتِهِ

يتخلف منهم أحد ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة﴾ أي وترى أيها المخاطب الجبال وقت النفخة الأولى تظنها ثابتة في مكانها وواقفة ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي وهي تسير سيراً سريعاً كالسحاب قال الإمام الفخر : ووجه حسابهم أنها جامدة أن الأجسام الكبار إذا تحركت حركة سريعة على نهج واحد ظن الناظر إليها أنها واقفة مع أنها تمر مرّاً سريعاً ^(١) ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ أي ذلك صنع الله البديع ، الذي أحكم كل شيء خلقه ، وأودع فيه من الحكمة ما أودع ﴿إنه خبيرٌ بما تفعلون﴾ أي هو عليم بما يفعل العباد من خير وشر ، وسيجازيهم عليه أتم الجزاء . ثم بيّن تعالى حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم الرهيب فقال ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات ، فإن الله يضاعفها له إلى عشر حسنات ، ويعطيه بالعمل القليل الثواب الأبدي ﴿وهم من فزع يومئذ آمنون﴾ أي وهم من خوف ذلك اليوم العصيب آمنون كما قال تعالى ﴿لا يحزنهم الفزع الأكبر﴾ ﴿ومن جاء بالسئنة فكُبَّتْ وجوههم في النار﴾ قال ابن عباس : السيئة : الإشراف بالله أي ومن جاء يوم القيامة مسيئاً لا حسنة له أو مشركاً بالله فإنه يكب في جهنم على وجهه منكوساً ، ويلقى فيها مقلوباً ﴿هل تجزون إلا ما كنتم تعملون﴾ أي يقال لهم توبيخاً : هل تجزون إلا جزاء ما كنتم تعملون في الدنيا من سيء الأعمال ؟ ﴿إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها﴾ أي قل لهم يا محمد : لقد أمرت أن أخص الله وحده بالعبادة رب البلد الأمين الذي جعل مكة حرماً آمناً لا يُسفك فيها دم ، ولا يُظلم فيها أحد ، ولا يصاد صيدها ولا يُحتلّ خلاها ^(٢) كما جاء في الحديث الصحيح ﴿وله كل شيء﴾ أي هو تعالى الخالق والمالك لكل شيء فهو رب كل شيء ومليكه ﴿وأمرت أن أكون من المسلمين﴾ أي وأمرت أن أكون من المخلصين لله بالتوحيد ، المنقادين لأمره ، المستسلمين لحكمه ﴿وأن أتلوا القرآن﴾ أي وأمرت أيضاً بتلاوة القرآن لتكشف لي حقائقه الرائعة ، وأن أقرأه على الناس ﴿فمن اهتدى فإنما يهتدي لنفسه﴾ أي فمن اهتدى بالقرآن ، واستنار قلبه بالإيمان ، فإن ثمرة هدايته راجعة إليه ﴿ومن ضلّ فقل إنما أنا من المُنذرين﴾ أي ومن ضلّ عن طريق الهدى ، فوبال ضلاله مختص به ، إذ ما على الرسول إلا البلاغ وقد بلغتكم رسالة الله ﴿وقل الحمد لله﴾ أي قل يا محمد : الحمد لله على ما خصني

(١) التفسير الكبير ٢٤ / ٣٤ . (٢) لا يُحتلّ خلاها : أي لا يقطع حشيشها الرطب .

فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾

به من شرف النبوة والرسالة ، وما أكرمني من رفيع المنزلة والمقام ﴿سيريكم آياته فتعرفونها﴾ تهديد ووعد أي سيريكم آياته الباهرة الدالة على عظيم قدرته وسلطانه في الأنفس والآفاق فتعرفونها حين لا تنفعكم المعرفة ﴿وما ربك بغافل عما تعملون﴾ أي وما ربك بغافل عن أعمال العباد بل هو على كل شيء شهيد ، وفيه وعد ووعد .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستفهام الإنكاري ﴿أئذا كنا تراباً أئنا لَمُخْرَجُونَ﴾ وتكرير الهمزة ﴿أئنا﴾ للمبالغة في التعجب والإنكار .

٢ - الوعد والتهديد ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين﴾ .

٣ - التأكيد بإن واللام ﴿وإن ربك لذو فضل﴾ ﴿وإن ربك ليعلم﴾ ﴿وإنه لهدى﴾ .

٤ - الطباق ﴿ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ لأن معنى ﴿تكن﴾ تخفي .

٥ - الاستعارة البديعة ﴿إن هذا القرآن يقصُّ﴾ لأن القصص لا يوصف به إلا الناطق المميز ، ولكن القرآن لما تضمن نبأ الأولين ، كان كالشخص الذي يقصُّ على الناس الأخبار ففيه استعارة تبعية .

٦ - المبالغة ﴿العزيز العليم﴾ لأن صيغة فعيل من صيغ المبالغة .

٧ - الاستعارة التمثيلية ﴿إنك لا تسمع الموتى﴾ التعبير بالموتى ، والصم ، والعمي ، جاء كله بطريق الاستعارة ، وهو تمثيل لأحوال الكفار في عدم انتفاعهم بالإيمان بأنهم كالموتى والصم والعمي .

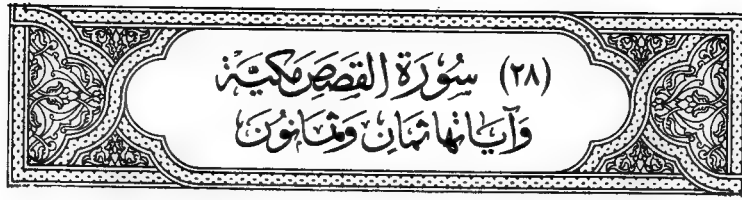
٨ - أسلوب التوبيخ والتأنيب ﴿أمأذا كنتم تعملون﴾ ؟

٩ - الطباق ﴿من جاء بالحسنة . . ومن جاء بالسيئة﴾ .

١٠ - التشبيه البليغ ﴿وهي تمر مر السحاب﴾ أي تمر كمر السحاب في السرعة ، حذفت الأداة ووجه الشبه فأصبح تشبيهاً بليغاً مثل محمد قمر .

١١ - الإحتباك ﴿ألم يروا أنا جعلنا الليل ليسكنوا فيه والنهار مبصراً﴾ حُذِفَ من أوله ما أثبت في آخره وبالعكس ، أصله جعلنا الليل مظلاً لتسكنوا فيه ، والنهار مبصراً لتصرفوا فيه فحذف « مظلاً » لدلالة « مبصراً » عليه ، وحذف « لتصرفوا فيه » لدلالة « ليسكنوا فيه » وهذا النوع يسمى الإحتباك وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة النمل »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة القصص من السور المكية التي تهتم بجانب العقيدة « التوحيد ، والرسالة ، والبعث » وهي تتفق في منهجها وهدفها مع سورتي « النمل ، والشعراء » كما اتفقت في جو النزول ، فهي تكمل أو تُفصل ما أجمل في السورتين قبلها .

✽ محور السورة الكريمة يدور حول فكرة الحق والباطل ، ومنطق الإذعان والطغيان ، وتصور قصة الصراع بين جند الرحمن ، وجند الشيطان ، وقد ساق في سبيل ذلك قصتين : أولاها قصة الطغيان بالحكم والسلطان ، ممثلة في قصة فرعون الطاغية المتجبر الذي أذاق بني إسرائيل سوء العذاب ، فذبح الأبناء ، واستحيا النساء ، وتعالى على الله حتى تجرأ على ادعاء الربوبية ﴿ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ والثانية : قصة الاستعلاء والطغيان بالثروة والمال ممثلة في « قارون مع قومه » وكلا القصتين رمزاً إلى طغيان الإنسان في هذه الحياة ، سواءً بالمال ، أو الجاه ، أو السلطان .

✽ ابتدأت السورة بالحديث عن طغيان فرعون وعلوه وفساده في الأرض ، ومنطق الطغيان في كل زمان ومكان .

✽ ثم انتقلت إلى الحديث عن ولادة موسى وخوف أمه عليه من بطش فرعون ، وإلهام الله تعالى لها بإلقائه في البحر ليعيش معزراً مكرماً في حجر فرعون كريحانة زكية تنبت وسط الأشواك والأوحال .

✽ ثم تحدثت عن بلوغ موسى سن الرشد ، وعن قتله للقبطي ، وعن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، وتكليف الله له بالعودة إلى مصر لدعوة فرعون الطاغية إلى الله ، وما كان من أمر موسى مع فرعون بالتفصيل إلى أن أغرقه الله ، وتحدثت عن كفار مكة ووقوفهم في وجه الرسالة المحمدية ، وبيّنت أن مسلك أهل الضلال واحد .

✽ ثم انتقلت إلى الحديث عن قصة قارون ، وبيّنت الفارق العظيم بين منطق الإيمان ، ومنطق الطغيان .

✽ وختمت السورة الكريمة بالإرشاد إلى طريق السعادة وهو طريق الإيمان الذي دعى إليه الرسل الكرام .

التسمية : سميت سورة « القصص » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة موسى مفصلة موضحة من

حين ولادته الى حين رسالته ، وفيها من غرائب الأحداث العجيبة ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذلانه لأعدائه .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

طَسَمَ ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ ﴿٢﴾ تَتْلُو عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣﴾ إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِنْهُمْ يَذِخُّ أبنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ

اللفظة : ﴿شيعاً﴾ فرقاً وأصنافاً ﴿يستحي﴾ يتركه حياً ولا يقتله ﴿نمن﴾ نتفضل وننعم ﴿اليم﴾ البحر ﴿فارغاً﴾ خالياً ﴿المراضع﴾ جمع مريض ، وأما المرضعة فجمعها مرضعات وهي التي ترضع الطفل اللبن ﴿عن جنب﴾ عن بعد ومنه الأجنبي للبعيد غير القريب ﴿وكزه﴾ الوكر : الضرب بجمع الكف أي بكفه مجموعة قال أهل اللغة : الوكر واللكز كلاهما بمعنى واحد وهو الضرب بجمع الكف على الصدر ، وقيل : الوكر في الصدر ، واللكز في الظهر ، وجمع الكف : الكف المقبوضة الأصابع ^(١) ﴿ظهيراً﴾ عوناً ﴿يستصرخه﴾ يستغيثه والاستصراخ الاستغاثة وهو من الصراخ لأن المستغيث يصرخ ويرفع صوته طلباً للغوث قال الشاعر :

كنا إذا ما أتاننا صارخ فرغ
كان الصراخ له قرع الظنايب ^(٢)

﴿ييطش﴾ البطش : الأخذ بالشدة والعنف ، بطش وييطش ويبطش بالكسر والضم .

التفسير : ﴿طَسَمَ﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن الكريم ، والإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز في فصاحته وبيانه مركب من أمثال هذه الحروف الهجائية ^(٣) ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ أي هذه آيات القرآن الواضح الجلي ، الظاهر في إعجازه ، الواضح في تشريعه وأحكامه ﴿تتلوا عليك﴾ ﴿من نبي موسى وفرعون بالحق﴾ أي نقرأ عليك يا محمد بواسطة الروح الأمين من الأخبار الهامة عن موسى وفرعون من الحق الذي لا يأتيه الباطل ، والصدق الذي لا ريب فيه ولا كذب ﴿لقوم يؤمنون﴾ أي لقوم يصدقون بالقرآن فينتفعون . . ثم بدأ بذكر قصة فرعون الطاغية فقال ﴿إن فرعون علا في الأرض﴾ أي استكبر وتجبر ، وجاوز الحد في الطغيان في أرض مصر ﴿وجعل أهلها شيعاً﴾ أي جعل أهلها فرقاً وأصنافاً في استخدامه وطاعته ﴿يستضعف طائفة منهم﴾ أي يستعبد ويستذل فريقاً منهم وهم بنو إسرائيل فيسومهم سوء العذاب ﴿يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾ أي يقتل أبناءهم الذكور ويترك الإناث على قيد الحياة لخدمته وخدمة الأقباط قال المفسرون : سبب تقتيله الذكور أن فرعون رأى في منامه أن ناراً عظيمة أقبلت من بيت المقدس وجاءت إلى أرض مصر فأحرقت القبط دون بني إسرائيل ، فسأل عن ذلك المنجمين والكهنة ، فقالوا له : إن مولوداً يولد في بني إسرائيل ، يذهب ملكك على يديه ، ويكون هلاكك بسببه فأمر أن يقتل كل ذكر من أولاد بني إسرائيل ﴿إنه كان من المفسدين﴾ أي من الراسخين في

(١) حاشية شيخ زاده على البياضوي ٥٠٧/٣ . (٢) القرطبي ٢٦٤/١٣ . (٣) انظر ما كتبناه في أول سورة البقرة حول أوائل السور .

مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٠﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٦١﴾ وَنُكِنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦٢﴾ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي ۖ إِنَّا رَأَدُّهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٦٣﴾ فَالتَّقَطُّهُ ۖ أَلْ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ۖ إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِعِينَ ﴿٦٤﴾

الفساد ، المتجبرين في الأرض ، ولذلك ادعى الربوبية وأمعن في القتل وإذلال العباد ﴿٦٠﴾ ونريد أن نمُنَّ على الذين استضعفوا في الأرض ﴿٦١﴾ أي ونريد برحمتنا أن نتفضل وننعم على المستضعفين من بني إسرائيل فننجيهم من بأس فرعون وطغيانه ﴿٦٢﴾ ونجعلهم أئمة ﴿٦٣﴾ أي ونجعلهم أئمة يقتدى بهم في الخير بعد أن كانوا أذلاء مسخرين قال ابن عباس : ﴿٦٤﴾ أئمة ﴿٦٥﴾ قادة في الخير ، وقال قتادة : ولاية وملوكاً ﴿٦٦﴾ ونجعلهم الوارثين ﴿٦٧﴾ أي ونجعل هؤلاء الضعفاء وارثين للملك فرعون وقومه ، يرثون ملكهم ويسكنون مساكنهم بعد أن كان القبط أسياد مصر وأعزتها ﴿٦٨﴾ ونمكن لهم في الأرض ﴿٦٩﴾ أي ونملكهم بلاد مصر والشام يتصرفون فيها كيف يشاءون قال البيضاوي : أصل التمكين أن تجعل للشيء مكاناً يتمكن فيه ثم استعيد للتسليط وإطلاق الأمر ﴿٧٠﴾ ﴿٧١﴾ ونري فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿٧٢﴾ أي ونري فرعون الطاغية ، ووزيره « هامان » والأقباط من أولئك المستضعفين ما كانوا يخافونه من ذهاب ملكهم وهلاكهم على يد مولود من بني إسرائيل ﴿٧٣﴾ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ﴿٧٤﴾ أي قدفنا في قلبها بواسطة الإلهام قال ابن عباس : هو وحي إلهام وقال مقاتل : أخبرها جبريل بذلك قال القرطبي : فعلى قول مقاتل هو وحي إلهام لا إلهام ، وأجمع الكل على أنها لم تكن نبيه ، وإنما إرسال الملك إليها على نحو تكليم الملك للأقرع والأبرص والأعمى كما في الحديث المشهور ، وكذلك تكليم الملائكة للناس من غير نبوة ، وقد سلّمت على « عمران بن حصين » فلم يكن نبياً ﴿٧٥﴾ ﴿٧٦﴾ فإذا خفت عليه فالقيهِ في اليم ﴿٧٧﴾ أي فإذا خفت عليه من فرعون فاجعليه في صندوق وألقيه في البحر - بحر النيل - ﴿٧٨﴾ ولا تخافي ولا تحزني ﴿٧٩﴾ أي لا تخافي عليه الهلاك ولا تحزني لفراقه ﴿٨٠﴾ إِنَّا رَأَدُّهُ إِلَيْكَ وجاعلوه من المرسلين ﴿٨١﴾ أي فإننا سنرده إليك ونجعله رسولاً نرسله إلى هذا الطاغية لننجي بني إسرائيل على يديه ﴿٨٢﴾ فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ﴿٨٣﴾ أي فأخذه وأصابه أعوان فرعون لتكون عاقبة الأمر أن يصبح لهم عدواً ومصدر حزن وبلاء وهلاك قال القرطبي : اللام في « ليكون » لام العاقبة ولا م الصيرورة ، لأنهم إنما أخذوه ليكون لهم قرة عين ، فكان عاقبة ذلك أن صار لهم عدواً وحزناً ، فذكر الحال بالمآل كما قال الشاعر :

وللمنايا تُرَبِّي كُلَّ مَرْضَعَةٍ ودورنا لخراب الدهر نَبِيهَا (٣)

﴿٨٤﴾ إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين ﴿٨٥﴾ أي كانوا عاصين مشركين آثمين ، قال العلماء : الخاطيء

وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرْتُ عَيْنِي لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَسْعُرُونَ ﴿٩﴾
 وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۚ إِن كَادَتْ لَتُبْدِيَ بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠﴾
 وَقَالَتِ لَأُخْنِئَهُ قُصِيصِهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١١﴾ * وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ
 فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾

من تعمد الذنب والاثم ، والمخطيء من فعل الذنب عن غير تعمد ﴿وقالت امرأة فرعون قرة عين لي ولك﴾ أي قالت زوجة فرعون لفرعون: هذا الغلام فرحة ومسرة لي ولك لعلنا نسر به فيكون قرة عين لنا قال الطبري : ذكر أن المرأة لما قالت هذا القول لفرعون قال لها : أمّا لك فنعم ، وأمّا لي فليس بقرّة عين^(١) ، وقال ابن عباس : لو قال قرة عين لي لهداه الله به ولأمن وأبى ﴿لا تقتلوه﴾ أي لا تقتله يا فرعون ، خاطبته بلفظ الجمع كما يخاطب الجبارون تعظيماً له ليساعدها فيما تريد ﴿عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا﴾ عسى أن ينفعنا في الكبر، أو نتبناه فنجعله لنا ولداً تقرُّ به عيوننا قال المفسرون : وكانت لا تلد فاستوهبت موسى من فرعون فوهبه لها قال تعالى ﴿وهم لا يشعرون﴾ أي وهم لا يشعرون أن هلاك فرعون وزبانيته سيكون على يديه وبسببه ﴿وأصبح فؤاد أم موسى فارغاً﴾ أي صار قلبها خالياً من ذكر كل شيء في الدنيا إلا من ذكر موسى^(٢) ، وقيل المعنى : طار عقلها من فرط الجزع والغم حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿إن كادت لتبدي به﴾ أي إنها كادت أن تكشف أمره وتظهر أنه ابنها من شدة الوجد والحزن قال ابن عباس : كادت تصيح وإبناه ، وذلك حين سمعت بوقوعه في يد فرعون ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ أي لولا أن ثبتناها وألهمناها الصبر ﴿لتكون من المؤمنين﴾ أي لتكون من المصدقين بوعد الله برده عليها ﴿وقالت لأخته قصصه﴾ أي قالت أم موسى لأخت موسى : إتبعني أثره حتى تعلمي خبره قال مجاهد : قصي أثره وانظري ماذا يفعلون به ؟ ﴿فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون﴾ أي فأبصرته عن بعد وهم لا يشعرون أنها أخته ، لأنها كانت تمشي على ساحل البحر حتى وصل الصندوق إلى بيت فرعون وهي ترقبه مستخفية عنهم ﴿وحرّمنا عليه المراضع من قبل﴾ أي ومنعنا موسى أن يقبل ثدي أي مرضعة من المرضعات اللاتي أحضروهن لإرضاعه من قبل مجيء أمه قال المفسرون : بقي أياماً كلياً آتي بمريض لم يقبل ثديها ، فأهمهم ذلك واشتد عليهم الأمر فخرجوا به يبحثون له عن مرضعة خارج القصر فرأوا أخته ﴿فقال هل أدلكم على أهل بيت يكفلونه لكم﴾ أي هل أدلكم على مرضعة له تكفله وترعاه ؟ ﴿وهم له ناصحون﴾ أي لا يقصرون في إرضاعه وتربيته قال السدي : فدلّتهم على أم موسى فانطلقت إليها بأمرهم فجاءت بها ، والصبي على يد فرعون يعلله شفقة عليه وهو يبكي يطلب الرضاع ، فدفعه إليها فلما وجد ريح أمه قبل ثديها ، فقال فرعون : من أنت منه فقد أبى كل ثدي إلا ثديك ؟ فقالت : إني امرأة طيبة الريح ، طيبة

(١) الطبري ٢٠/ ٢٢.

(٢) هذا قول ابن عباس ومجاهد والضحاك وجهور المفسرين ، والقول الثاني ذكره القرطبي عن ابن القاسم عن مالك ، ولعله الأظهر .

فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَىٰ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤﴾ وَدَخَلَ الْمَدِينَةَ عَلَىٰ حِينٍ غَفْلَةٍ مِّنْ أَهْلِهَا فَوَجَدَ فِيهَا رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلَانِ هَٰذَا مِنْ شِيعَتِهِ وَهَٰذَا مِنْ عَدُوِّهِ فَاسْتَغْنَىٰ الَّذِي مِّنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِّنْ عَدُوِّهِ فَوَكَرَهُ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ ۖ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَنْعَمْتَ عَلَيَّ فَلَنْ أَكُونَ ظَهِيرًا لِلْمُجْرِمِينَ ﴿١٧﴾

اللبن ، لا أكاد أوتى بصبي إلا قبلني فدفعه إليها ، فرجعت إلى بيتها من يومها ولم يبق أحد من آل فرعون إلا أهدى إليها وأتحفها بالهدايا والجواهر فذلك قوله تعالى ﴿فرددناه إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن﴾ أي أعدناه إليها تحقيقاً للوعد كي تسعد وتهنأ بلاقائه ولا تحزن على فراقه ﴿ولتعلم أن وعد الله حق﴾ أي ولتتحقق من صدق وعد الله برده عليها وحفظه من شر فرعون ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر الناس يرتابون ويشكون في وعد الله القاطع ﴿ولما بلغ أشده واستوى﴾ أي ولما بلغ كمال الرشد ، ونهاية القوة ، وتمام العقل والاعتدال قال مجاهد : هو سن الأربعين ﴿آتيناه حكماً وعلماً﴾ أي أعطيناه الفهم والعلم والتفقه في الدين مع النبوة ﴿وكذلك نجزي المحسنين﴾ أي ومثل هذا الجزاء الكريم نجزي المحسنين على إحسانهم ﴿ودخل المدينة على حين غفلة من أهلها﴾ أي دخل مصر وقت الظهيرة والناس يخلدون للراحة عند القيلولة ﴿فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه﴾ أي فوجد شخصين يتقاتلان : أحدهما من بني إسرائيل من جماعة موسى ، والآخر قبطي من جماعة فرعون ﴿فاستغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه﴾ أي فاستنجد الإسرائيلي بموسى وطلب غوثه ليدفع عنه شر القبطي ﴿فوكزه موسى فقضى عليه﴾ أي ضربه موسى بجمع كفه فقتله ، قال القرطبي : فعل موسى ذلك وهو لا يريد قتله إنما قصد دفعه فكانت فيه نفسه وكانت القضية^(١) ﴿قال هذا من عمل الشيطان﴾ أي هذا من إغواء الشيطان فهو الذي هيج غضبي حتى ضربت هذا ﴿إنه عدو مضل مبين﴾ أي إن الشيطان عدو لابن آدم ، مضل له عن سبيل الرشاد ، ظاهر العداوة قال الصاوي : نسبه إلى الشيطان من حيث إنه لم يؤمر بقتل القبطي ، وظهر له أن قتله خلاف الأولى لما يترتب عليه من الفتن ، والشيطان تفرحه الفتن ولذلك ندم على فعله^(٢) ﴿قال رب إني ظلمت نفسي فاغفر لي﴾ أي إني ظلمت نفسي بقتل النفس فاعف عني ولا تؤاخذني بخطيئتي ﴿فغفر له إنه هو الغفور الرحيم﴾ أي إنه تعالى المبالغ في المغفرة للعباد ، الواسع الرحمة لهم ﴿قال رب بما أنعمت علي فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ أي بسبب إنعامك علي بالقوة وبحق ما أكرمتني به من الجاه والعز ، فلن أكون عوناً لأحد من المجرمين^(٣) ، وهذه معاهدة عاهد موسى ربه عليها وقيل : هو

(١) القرطبي ٢٦١/١٣ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ١١٢/٣

(٣) قال الرازي : وفي الآية دلالة على أنه لا يجوز معاونة الظلمة والفسقة .

فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اَسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ، قَالَ لَهُ، مُوسَى إِنَّكَ لَغَوِيٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾
 فَلَمَّا أَنْ أَرَادَ أَنْ يَبْطِشَ بِالَّذِي هُوَ عَدُوٌّ لَهُمَا قَالَ يَمْوَسَّى أُرِيدُ أَنْ تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِنْ تُرِيدُ إِلَّا
 أَنْ تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾

قسم وهو ضعيف ﴿فأصبح في المدينة خائفاً يترقب﴾ أي فأصبح موسى في المدينة التي قتل فيها القبطي خائفاً على نفسه يتوقع ويتنظر المكروه ، ويخاف أن يؤخذ بجريته ﴿فإذا الذي استنصره بالأمس يستصرخه﴾ أي فإذا صاحبه الإسرائيلي الذي خلّصه بالأمس يقاتل قبطياً آخر فلما رأى موسى أخذ يصيح به مستغيثاً لينصره من عدوه ﴿قال له موسى إنك لغويٌ مبين﴾ أي قال موسى للإسرائيلي : إنك لبين الغواية والضلال ، فإنني وقعت بالأمس فيما وقعت فيه من قتل رجل بسببك وتريد أن توقعني اليوم في ورطة أخرى ؟ ﴿فلما أن أراد أن يبطش بالذي هو عدوٌ لهما﴾ أي فحين أراد موسى أن يبطش بذلك القبطي الذي هو عدوٌ له وللإسرائيلي ﴿قال يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفساً بالأمس﴾ أي قال القبطي : أتريد قتلي كما قتلت غيري بالأمس^(١) ؟ ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً في الأرض﴾ أي ما تريد يا موسى إلا أن تكون من الجبابرة المفسدين في الأرض ﴿وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ أي وما تريد أن تكون من الذين يصلحون بين الناس .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات من وجوه البيان والبدیع ما يلي :

- ١ - الإشارة بالبعيد عن القريب لبعده مرتبته في الكمال ﴿تلك آيات الكتاب المبين﴾ .
- ٢ - حكاية الحالة الماضية ﴿ونريد أن نمن﴾ لاستحضار تلك الصورة في الذهن .
- ٣ - إثارة الجملة الاسمية على الفعلية ﴿إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ ولم يقل سنرده ونجعله رسولاً وذلك للاعتناء بالبشارة لأن الجملة الاسمية تفيد الثبوت والاستمرار .
- ٤ - الاستعارة ﴿لولا أن ربطنا على قلبها﴾ شبه ما قذف الله في قلبها من الصبر بربط الشيء المنفلت خشية الضياع واستعار لفظ الربط للصبر .
- ٥ - صيغة التعظيم ﴿لا تقتلوه﴾ تحاطب فرعون ولم تقل لا تقتله تعظيماً له .
- ٦ - صيغة المبالغة ﴿جبار ، غوي ، مبين﴾ لأن فعال وفعل من صيغ المبالغة .
- ٧ - الطباق المعنوي ﴿جباراً . . وما تريد أن تكون من المصلحين﴾ لأن الجبار المفسد المخرب ، المكثّر للقتل وسفك الدماء ففيه طباق في المعنى .

(١) هذا هو الظاهر أن القاتل هو القبطي لا الإسرائيلي لأن قوله ﴿إن تريد إلا أن تكون جباراً﴾ لا يصدر من المؤمن وإنما من الكافر .

٨ - الاستعطاف ﴿ربِّ بما أنعمت عليّ فلن أكون ظهيراً للمجرمين﴾ .

٩ - توافق الفواصل في كثير من الآيات مثل ﴿وهم لا يشعرون﴾ ﴿وهم له ناصحون﴾ ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : «حكى العلامة القرطبي عن الأصمعي أنه قال سمعت جارية أعرابية تنشد :

أستغفر الله لذنبي كله قتلتُ إنساناً بغير حلّه
مثل الغزال ناعماً في دله انتصف الليل ولم أصلّه

فقلت : قاتلك الله ما أفصحك ؟ فقالت : ويحك أويعد هذا فصاحة مع قول الله عز وجل ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه ، فإذا خفت عليه فألقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني ، إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ فقد جمع في آية واحدة بين أمرين ، ونهيين ، وخبرين وبشارتين^(١) .

قال الله تعالى : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى . . إلى . . ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾
من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٢) .

المناسبة : لا تزال الآيات تتحدث عن قصة موسى ، وقد تناولت الآيات السابقة قصة ولادته وإرضاعه ، وتربيته في بيت فرعون إلى أن شبّ وبلغ سنّ الرشد والكمال ، ثم قتله للفرعوني ، وتحدثت الآيات هنا عن هجرته إلى أرض مدين وتزوجه بابنة شعيب ، ثم عودته إلى مصر ، ونزول النبوة عليه ، وهلاك فرعون على يديه .

اللفظ : ﴿يأتَمُّون﴾ يتشاورون قال الأزهري : ائتمر القوم وتأمروا أي أمر بعضهم بعضاً
﴿تذودان﴾ ذاد يذود إذا حبس ومنع ، وذاد طرد قال الشاعر :

لقد سلبت عصاك بنو تميم فما تدري بأي عصى تذود^(٢)

﴿خطبكما﴾ الخطب : الشأن قال رؤية : «يا عجباً ما خطبه وخطبي» ﴿الرعاء﴾ جمع راعٍ مثل صاحب وصحاب وهو الذي يرعى الغنم ﴿حجج﴾ جمع حجة بكسر الحاء وهي السنة ﴿جذوة﴾ الجذوة : الجمرة الملتهبة ﴿ردءاً﴾ عوناً قال الجوهري : أردأته أعنته ، وكنتُ له ردءاً أي عوناً ﴿المقبوحين﴾ الهالكين المبعدين أو القبيحين في الصورة يقال : قبحه الله وقبحه إذا جعله قبيحاً .

(١) تفسير القرطبي ٢٥٢/١٣ . (٢) البيت لجرير يهجو الفرزدق كذا في القرطبي ٢٦٨/١٣ .

وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَمُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢١﴾ وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةٌ مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِنْ دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ ۖ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ ۖ وَأُبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ ﴿٢٣﴾ فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾

النفسير : ﴿وجاء رجلٌ من أقصى المدينة يسعى﴾ أي وجاء رجل مؤمن من آل فرعون يكتُم إيمانه من أبعد أطراف المدينة يشتد ويسرع في مشيه قال ابن عباس : هذا الرجل هو مؤمن من آل فرعون ﴿قال يا موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك﴾ أي قال له يا موسى : إن أشراف فرعون ، ووجوه دولته يتشاورون فيك بقصد قتلك ﴿فاخرج إني لك من الناصحين﴾ أي فاخرج قبل أن يدركوك فأننا ناصح لك من الناصحين ﴿فاخرج منها خائفاً يترقب﴾ أي فخرج من مصر خائفاً على نفسه يترقب ويتنظر الطلب أن يدركه فيأخذه ، ثم التجأ إلى الله سبحانه بالدعاء لعلمه بأنه لا ملجأ سواه ﴿قال رب نجني من القوم الظالمين﴾ أي خلصني من الكافرين واحفظني من شرهم - والمراد بهم فرعون وملؤه - ﴿ولما توجه تلقاء مدين﴾ أي قصد بوجهه ناحية مدين وهي بلدة شعيب عليه السلام ﴿قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل﴾ أي لعل الله يرشدني إلى الطريق السوي الذي يوصلني إلى مقصودي قال المفسرون : خرج خائفاً بغير زاد ولا ظهر - مركب - وكان بين مصر ومدين مسيرة ثمانية أيام ، ولم يكن له علمٌ بالطريق سوى حسن ظنه بربه ، فبعث الله إليه ملكاً فأرشده إلى الطريق ، ويروى أنه لما وصل مدين كانت خضرة البقل تراءى من بطنه من الهزال ، لأنه كان في الطريق يتقوت ورق الشجر ﴿ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمةٌ من الناس يسقون﴾ أي ولما وصل إلى مدين بلدة شعيب وجد على البئر الذي يستقي منه الرعاة جمعاً كثيراً من الناس يسقون مواشيهم ﴿ووجد من دونهم امرأتين تذودان﴾ أي ووجد سوى الجماعة الرعاة امرأتين تكفان غنمهما عن الماء ﴿قال ما خطبكما﴾ ؟ أي ما شأنكما تمنعان الغنم عن ورود الماء ؟ ولم لا تسقيان مع السقاة ؟ ﴿قالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير﴾ أي من عادتنا الثاني حتى ينصرف الرعاة مع أغنامهم عن الماء ، ولا طاقة لنا على مزاحمة الأقوياء ، ولا نريد مخالطة الرجال ، وأبونا رجل مُسنٌ لا يستطيع لضغفه أن يياشر سقاية الغنم ، ولذلك اضطررنا إلى أن نسقي بأنفسنا قال أبو حيان : فيه اعتذار لموسى عن مباشرتها السقي بأنفسهما ، وتنبية على أن أباهما لا يقدر على السقي لشيخوخته وكبره، واستعطاف لموسى في إعانتها^(١) ﴿فسقى لهما ثم تولى إلى الظل﴾ أي فسقى لهما غنمهما رحمة بهما ، ثم تنحى جانباً فجلس تحت ظل شجرة ﴿فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير﴾ أي إني يا رب محتاج إلى فضلك

فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٤﴾ قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَبَاطِئُ اسْتَعِجْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَعَجَرَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٥﴾ قَالَ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَنِي حَجَجٍ فَلَمَّا أَتَمَمْتَ عَشْرًا فَمِنْ عِنْدِكَ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٢٦﴾

وإحسانك ، وإلى الطعام الذي أسدُّ به جوعي ، طلب من الله ما يأكله وكان قد اشتد عليه الجوع قال الضحاك : مكث سبعة أيام لم يذق فيها طعاماً إلا بقل الأرض^(١) وقال ابن عباس : سار موسى من مصر إلى « مدين » ليس له طعام إلا البقل وورق الشجر ، وكان حافياً فما وصل إلى مدين حتى سقطت نعل قدميه ، وجلس في الظل - وهو صفوة الله من خلقه - وإن بطنه للاصق بظهره من الجوع ، وإن خضرة البقل لتُرى من داخل جوفه ، وإنه لمحتاج إلى شق تمر^(٢) ﴿فجاءته إحداهما تمشي على استحياء﴾ في الكلام اختصار تقديره : فذهبتا إلى أبيهما سريعتين ، وكان من عادتهما الإبطاء فحدثناه بما كان من أمر الرجل ، فأمر إحداهما أن تدعوه له فجاءته تمشي . . الخ أي جاءته حال كونها تمشي مشية الحرائر بحياء وخجل قد سترت وجهها بثوبها قال عمر : لم تكن بسلفع من النساء خراجة ولاجة^(٣) ﴿قالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا﴾ أي إن أبي يطلبك ليعوضك عن أجر السقاية لغنمنا قال ابن كثير : وهذا تأدب في العبارة لم تطلبه طلباً مطلقاً لثلا يومهم ريبة^(٤) ﴿فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين﴾ أي فلما جاءه موسى وذكر له ما كان من أمره وسبب هربه من مصر قال له شعيب : لا تخف فأنت في بلد آمن لا سلطان لفرعون عليه وقد نجاك الله من كيد المجرمين ﴿قالت إحداهما يا أبت استأجره﴾ أي استأجره لرعي أغنامنا وسقايتهما ﴿إن خير من استأجرت القوي الأمين﴾ أي إن أفضل من تستأجره من كان قوياً أميناً قال أبو حيان : وقولها كلام حكيم جامع لأنه إذا اجتمعت الكفاية والأمانة في القائم بأمر من الأمور فقد تم المقصود^(٥) ، روي أن شعيباً قال لها : وما أعلمك بقوته وأمانته ؟ فقالت : إنه رفع الصخرة التي لا يطيق حملها إلا عشرة رجال ، وإنني لما جئتُ معه تقدمتُ أمامه فقال لي : كوني من ورائي ودليني على الطريق ، ولما أتيتَه خفض بصره فلم ينظر إلي ، فرغب شعيب في مصاهرته وتزويجه بإحدى بناته ﴿قال إني أريد أن أنكِحك إحدى ابنتي هاتين﴾ أي إني أريد أن أزوجك إحدى بنتي هاتين الصغرى أو الكبرى ﴿على أن تأجرني ثماني حجج﴾ أي بشرط أن تكون أجيراً لي ثماني سنين ترعى فيها غنمي ﴿فإن أتممت عشراً فمن عندك﴾ أي فإن أكملتها عشر سنين فذلك تفضل منك ، وليس بواجب عليك ﴿وما أريد أن أشق عليك﴾ أي وما أريد أن أوقعك في المشقة باشتراط العشر ﴿ستجدني إن شاء الله

(١) الرازي ٢٤٠/٢٤ . (٢) ابن كثير المختصر ١٠/٣ (٣) الطبري ٣٩٠/٢٠ والسلفع : الجرينة السليطة الجسور أفاده الجوهري .

(٤) ابن كثير ١١/٣ . (٥) البحر ١١٤/٧ .

قَالَ ذَلِكَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ أَيَّمَا الْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَانَ عَلَيَّ وَاللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾ * فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ ﴿٢٩﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَمْوِسَّ إِلَىٰ أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٣٠﴾ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدَبِّرًا لَّا يَعْقِبُ يَمْوِسَّ أَقْبَلَ وَلَا تَحْزَنَ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ ﴿٣١﴾

من الصالحين ﴿٢٨﴾ أي ستجدني إن شاء الله حسن المعاملة ، لين الجانب ، وفياً بالعهد قال القرطبي : في الآية عرض الولي أبنته على الرجل ، وهذه سنة قائمة ، عرض شعيب أبنته على موسى ، وعرض عمر أبنته حفصة على أبي بكر وعثمان ، وعرضت الموهوبة نفسها على النبي ﷺ ، فمن الحُسْنِ عرض الرجل وليته على الرجل الصالح ، اقتداءً بالسلف الصالح ﴿٢٩﴾ قال ذلك بيني وبينك أيما الأجلين قضيتُ فلا عدوان علي ﴿٣٠﴾ أي قال موسى : إنَّ ما قلته وعاهدتني عليه قائم بيننا جميعاً لا نخرج عنه ، وأي المدين الثماني أو العشر أديتها لك فلا إثم ولا حرج علي ﴿٣١﴾ والله على ما نقول وكيل ﴿٣٢﴾ أي والله شاهد على ما تعاهدنا وتوالتنا عليه ﴿٣٣﴾ فلما قضى موسى الأجل ﴿٣٤﴾ أي فلما أتم موسى المدة التي اتفقا عليها قال ابن عباس : قضى أتم الأجلين وأكملها وأوفاهما وهو عشر سنين ﴿٣٥﴾ وسار بأهله ﴿٣٦﴾ أي ومشى بزوجته مسافراً بها إلى مصر ﴿٣٧﴾ آنس من جانب الطور ناراً ﴿٣٨﴾ أي أبصر من بعيد ناراً تتوهج من جانب جبل الطور ﴿٣٩﴾ قال لأهله امكثوا إنني آنست ناراً ﴿٤٠﴾ أي قال لزوجته امكثي هنا فقد أبصرت ناراً عن بعد قال المفسرون : كانت ليلة باردة وقد أضلوا الطريق ، وهبَّ ريح شديدة فرقت ماشيته ، وأخذ أهله الطلق فعند ذلك أبصر ناراً بعيدة فسار إليها لعله يجد من يدلّه على الطريق فذلك قوله تعالى ﴿لعلِّي آتيكم منها بخبر﴾ أي لعلِّي آتيكم بخبر الطريق وأرى من يدلني عليه ﴿أو جذوة من النار لعلكم تصطلون﴾ أي أو آتيكم بشعلة من النار لعلكم تستدفئون بها ﴿فلما أتاهَا نُودِيَ من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة﴾ أي فلما وصل إلى مكان النار لم يجدها ناراً وإنما وجدها نوراً ، وجاء النداء من جانب الوادي الأيمن في ذلك المكان المبارك من ناحية الشجرة ﴿أَنْ يَا موسى إني أنا الله رب العالمين﴾ أي نودي يا موسى إن الذي يخاطبك ويكلمك هو أنا الله العظيم الكبير ، المنزه عن صفات النقص ، رب الإنس والجن والخلائق أجمعين ﴿وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ﴾ أي ونودي بأن اطرَحْ عصاك التي في يدك ﴿فلما رآها تهتز كأنها جانٌ ولى مدبراً ولم يعقب﴾ أي فألقاها فانقلبت إلى حية فلما رآها تتحرك كأنها ثعبان خفيف سريع الحركة انهزم هارباً منها ولم يلتفت إليها قال ابن كثير : انقلبت العصا إلى حية وكانت كأنها جانٌّ في حركتها السريعة مع عظم خلقتها ، واتساع فمها ، واصطكاك أنيابها بحيث لا تمر بصخرة إلا ابتلعته تنحدر في فمها تتقعقع كأنها حادة في واد ، فعند ذلك ولى مدبراً ولم

أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ فَذَنُوكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ
إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾
وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي ۚ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾ قَالَ سَنُنْذِرُ

يلتفت ، لأن طبع البشرية ينفر من ذلك ^(١) ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمنين﴾ أي فنودي يا موسى :
إرجع إلى حيث كنت ولا تخف فأنت آمن من المخاوف ، فرجع وأدخل يده في فم الحية فعادت عصا ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ أي أدخل يدك في جيب قميصك - وهو فتحة الثوب مكان دخول
الرأس - ثم أخرجها تخرج مضيئة منيرة تتلألأ كأنها قطعة قمر في لمعان البرق من غير أذى ولا برص
﴿وَأَضْمَمَ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ الرَّهْبِ﴾ قال ابن عباس : اضمم يدك إلى صدرك من الخوف يذهب عنك
الرعب قال المفسرون : المراد بالجنح اليد لأن يدي الإنسان بمنزلة جناحي الطائر ، وإذا أدخل يده اليمنى
تحت عضده اليسرى فقد ضم جناحه إليه وبذلك يذهب عنه الخوف من الحية ومن كل شيء ﴿فَذَنُوكَ بُرْهَانًا مِنْ رَبِّكَ﴾
من ربك إلى فرعون وملئه ﴿أي فهذا - العصا واليد - دليلان قاطعان ، وحجتان نيرتان واضحتان من
الله تعالى تدلان على صدقك ، وهما آيتان إلى فرعون وأشراف قومه الطغاة المتجبرين ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا
فَاسِقِينَ﴾ أي خارجين عن طاعتنا ، مخالفين لأمرنا ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ أي
قال موسى يا رب إني قتل قبطياً من آل فرعون وأخشى إن أتيتهم أن يقتلوني به قال المفسرون : هو القبطي
الذي وكزه فمات ، فطلب من ربه ما يزداد به قوة على مجابهة فرعون بإرسال أخيه هارون معه فقال ﴿وَأَخِي
هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ أي هو أوضح بيانا ، وأطلق لساناً ، لأن موسى كان في لسانه حُبْسَةٌ من أثر
الجمرة التي تناوَلها في صغره ﴿فَأَرْسَلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي﴾ أي فأرسله معي معيناً يبين لهم عني ما أكلمهم
به بتوضيح الحجج والبراهين ﴿إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ﴾ أي أخاف إن لم يكن لي وزير ولا معين أن
يكذبوني لأنهم لا يكادون يفقهون عني ، قال الرازي : والمعنى أرسل معي أخي هارون حتى يعاضدني
على إظهار الحجة والبيان ، وليس الغرض بتصديق هارون أن يقول له : صدقت ، أو يقول للناس :
صدق موسى ، وإنما هو أن يلخص بلسانه الفصيح وجوه الدلائل ، ويحجب عن الشبهات ، ويجادل به
الكفار ^(٢) ﴿قَالَ سَنُنْذِرُ عَصَدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ أي أجابه تعالى إلى طلبه وقال له : سنقولك

(١) يقول سيد قطب عليه الرحمة والرضوان «وَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ إِطَاعَةً لِأَمْرِ مَوْلَاهُ ، وَلَكِنْ مَاذَا حَدَثَ ؟ إِنَّهَا لَمْ تَعُدْ عَصَاهُ الَّتِي صَاحِبُهَا طَوِيلًا وَالَّتِي يَعْرِفُهَا مَعْرِفَةُ الْبَقِيَّةِ ، وَلَكِنَّهَا حَيَّةٌ تَدْبُ فِي سُرْعَةٍ ، وَتَتَحَرَّكُ فِي خَفَةٍ ، وَتَتَلَوَّى كَصَغَارِ الْحَيَاتِ وَهِيَ حَيَّةٌ كَبْرَى ، إِنَّهَا الْمَفْجَأَةُ الَّتِي لَمْ يَسْتَعِدَّهَا وَلِذَلِكَ وَلَّى مَدْبِرًا وَلَمْ يَعْقِبْ ، لَمْ يَفْكُرْ فِي الْعُودَةِ إِلَيْهَا لِيَتَبَيَّنَ مَاذَا بَهَا ، وَلِيَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْعَجَبِيَّةَ الضَّخْمَةَ ، ثُمَّ يَسْتَمِعَ إِلَى رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿يَا مُوسَى أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْأَمِينِينَ﴾ وكيف لا يأمن من ترعاه عين الله ؟ ثم يأتيه النداء مرة أخرى ﴿أَسْلَكَ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخَرَّجَ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ وأطاع موسى الأمر ، وأدخل يده في فتحة ثوبه عند صدره ثم أخرجها ، فإذا هي المفاجأة الثانية في اللحظة الواحدة ، إنها بيضاء لامعة مشعة من غير مرض ، وقد عهدا آدماء تضرب إلى السمرة ، إنها إشارة إلى إشراق الحق ، ووضوح الآية ، ونصاعة الدليل ، من الظلال . (٢) التفسير الكبير للرازي ٢٤ / ٣٤٩ .

عُضْدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيٰتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا جَاءَهُم مُّوسَىٰ بِآيٰتِنَا بَيِّنٰتٍ قَالُوا مَا هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرًى وَمَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِي ءَابَآئِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَن جَاءَ بِآلِهَدًى مِّنْ عِنْدِهِ ۖ وَمَن تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَتَأَيَّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي ۖ فَأَوْقِدْ لِي الْيَتِينَ فَاجْعَلْ لِّي صَرَخًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكٰذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَاسْتَكَبرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُم إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾

بأخيك ونعينك به ، ونجعل لكما غلبةً وتسلطاً على فرعون وقومه ﴿فلا يصلون إليكما بآياتنا﴾ أي لا سبيل لهم إلى الوصول إلى أذاكما بسبب ما أيدتكما به من المعجزات الباهرات ﴿أنتم ومن اتبعكما الغالبون﴾ أي العاقبة لكما ولأتباعكما في الدنيا والآخرة ، وأنتم الغالبون على القوم المجرمين كقوله تعالى ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿فلما جاءهم موسى بآياتنا بينات﴾ أي فلما جاءهم موسى بالبراهين الساطعة ، والمعجزات القاطعة ، الدالة على صدقه وأنه رسولٌ من عند الله ﴿قالوا ما هذا إلا سحرٌ مفترى﴾ أي ما هذا الذي جئنا به من العصا واليد إلا سحرٌ مكذوبٌ مخلق ، افتريته من قبل نفسك وتنسبه إلى الله ﴿وما سمعنا بهذا في آبائنا الأولين﴾ أي وما سمعنا بمثل هذه الدعوى - دعوى التوحيد - في آبائنا وأجدادنا السابقين ﴿وقال موسى ربي أعلم بمن جاء بالهدى من عنده ومن تكون له عاقبة الدار﴾ أجل موسى في جوابهم تلطفاً في الخطاب ، وإيثاراً لأحسن الوجوه في المجادلة معهم والمعنى : إن ما جئتكم به حقٌ وهدى وليس بسحر ، وربى عالمٌ بذلك يعلم أنني محقٌ وأنتم مبطلون ، ويعلم من تكون له العاقبة الحميدة في الدنيا والآخرة ﴿إنه لا يفلح الظالمون﴾ أي لا يسعد ولا ينجح من كان ظالماً فاجراً ، كاذباً على الله ﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إلهٍ غيري﴾ أي قال فرعون لأشرف قومه وسادتهم : ما علمت لكم إلهاً غيري قال ابن عباس : كان بين هذه القولة الفاجرة وبين قوله ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ أربعون سنة ، وكذب عدو الله بل علم أن له رباً هو خالقه وخالق قومه ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً﴾ أي فاطبخ لي يا هامان الأجر فاجعل لي منه قصراً شاهقاً رفيعاً ﴿لعلي أطلع إلى إله موسى﴾ أي لعلي أرى وأشاهد إله موسى الذي زعم أنه أرسله ، قال ذلك على سبيل التهكم ولهذا قال بعده ﴿واني لأظنه من الكاذبين﴾ أي واني لأظن موسى كاذباً في ادعائه أن في السماء رباً قال تعالى ﴿واستكبر هو وجنوده في الأرض بغير الحق﴾ أي وتكبر وتعظم فرعون وقومه عن الإيمان بموسى في أرض مصر بالباطل والظلم ﴿وظنوا أنهم إلينا لا يرجعون﴾ أي واعتقدوا أن لا بعث ولا نشور ، ولا

فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ۖ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى
النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤٢﴾ وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٣﴾

حساب ولا جزاء ﴿فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم﴾ أي فأخذناه مع جنوده فطرحناهم في البحر ، وأغرقناهم فلم يبق منهم أحد ﴿فانظر كيف كان عاقبة الظالمين﴾ أي فانظر يا محمد بعين قلبك نظر اعتبار كيف كان مال هؤلاء الظالمين الذين بلغوا من الكفر والطغيان أقصى الغايات ؟ ﴿وجعلناهم أمة يدعون إلى النار﴾ أي وجعلناهم في الدنيا قادة وزعماء في الكفر يقتدي بهم أهل الضلال ﴿ويوم القيامة لا ينصرون﴾ أي ويوم القيامة ليس لهم ناصر يدفع عنهم العذاب ﴿واتبعناهم في هذه الدنيا لعنة﴾ أي جعلنا اللعنة تلحقهم في هذه الحياة الدنيا من الله والملائكة والمؤمنين ﴿ويوم القيامة هم من المقبوحين﴾ أي وفي الآخرة هم من المبعدين المطرودين من رحمة الله عز وجل .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - التأكيد بأن واللام ﴿إِنَّ الْمَلَائِكَةَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ﴾ مناسبة لمقتضى الحال .

٢ - الاستعطاف والترحم ﴿رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقِصَصَ﴾ .

٤ - التشبيه المرسل المجمل ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾ حذف وجه الشبه فأصبح مجملاً .

٥ - الطباق بين ﴿يصدقني .. ويكذبون﴾ .

٦ - الكناية ﴿واضمم إليك جناحك﴾ كنى عن اليد بالجناح ، لأنها للإنسان كالجناح للطائر .

٧ - المجاز المرسل ﴿سنشد عضدك بأخيك﴾ من إطلاق السبب وإرادة المسبب لأن شد العضد يستلزم شد اليد ، وشد اليد مستلزم للقوة ، قال الشهاب : ويمكن أن يكون من باب الاستعارة التمثيلية ، شبه حال موسى في تقويته بأخيه بحال اليد في تقويتها بيد شديدة .

لطيفة : قال الزمخشري : إنما قال ﴿فأوقد لي يا هامان على الطين﴾ أي أوقد لي النار فأأخذ منه أجراً ولم يقل «أطبخ لي الأجر» لأن هذه العبارة أحسن طباقاً لفصاحة القرآن وعلو طبقته ، وأشبه بكلام الجبارة ، وهامان وزيره ومدبر رعيته .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى .. إلى .. وله الحكم

من آية (٤٣) إلى نهاية آية (٧٠) .

وإليه ترجعون﴾

المناسكة : بعد أن ذكر تعالى نعمته على بني إسرائيل بإهلاك فرعون رأس الطغيان وتخليصهم من شره ، ذكر هنا ما أنعم به عليهم من إنزال التوراة التي فيها الهدى والنور ، كما ذكر نعمته على العرب بإنزال القرآن العظيم خاتمة الكتب السماوية .

اللفظة : ﴿ثاويًا﴾ مقياً وثوى بالمكان أقام به قال الشاعر :

« لقد كان في حول ثواء ثويته »^(١)

﴿يدرءون﴾ يدفعون ، والدرء : الدفع وفي الحديث (إدرءوا الحدود بالشبهات) ﴿يجبى﴾ يجمع ، جبي الماء في الحوض جمعه ، والجابية : الحوض العظيم ﴿بطرت﴾ البطر : الطغيان في النعمة ﴿الأنباء﴾ الأخبار جمع نبأ وهو الخبر الهام .

سبب النزول : لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له رسول الله ﷺ : يا عم قل « لا إله إلا الله » أشهد لك بها يوم القيامة فقال أبو طالب : لولا أن تعيرني قريش يقولون : إنما حمله على ذلك الجزع لأقررت بها عينك فأنزل الله عز وجل ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ ، وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾^(٢) .

وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ
يَتَذَكَّرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَكِنَّا

التفسير : ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد أعطينا موسى التوراة من بعد ما أهلكنا الأمم التي كانت قبله كقوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وغيرهم من المكذبين لرسولهم ﴿بصائر للناس﴾ أي ضياء لبني إسرائيل ونوراً لقلوبهم يتبصرون بها الحقائق ، ويميزون بها بين الحق والباطل ﴿وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون﴾ أي وهدى من الضلالة ، ورحمة لمن آمن بها ليتعظوا بما فيها من المواعظ والإرشادات الإلهية ﴿وما كنت بجانب الغربي﴾ أي وما كنت يا محمد بجانب الجبل الغربي ، وهو المكان الذي كلم الله تعالى به موسى ﴿إذ قضينا إلى موسى الأمر﴾ أي حين أوحينا إلى موسى بالنبوة وأرسلناه إلى فرعون وقومه ﴿وما كنت من الشاهدين﴾ أي وما كنت من الحاضرين في ذلك المكان ، ولكن الله أوحى إليك ذلك ليكون حجة وبرهاناً على صدقك قال ابن كثير : يقول تعالى منبهاً على برهان نبوة محمد ﷺ حيث أخبر بالغيوب الماضية خبراً كأن سامعه شاهد وراء لما تقدم ، وهو رجل أُمي لا يقرأ شيئاً من الكتب ، نشأ بين قوم لا يعرفون شيئاً من ذلك ، والمعنى ما كنت حاضراً لذلك ولكن الله أوحاه إليك لتخبرهم بتلك المغيبات^(٣) ﴿ولكننا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر﴾ أي ولكننا خلقنا أئماً وأجيالاً

أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٥٥﴾ وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٦﴾ وَلَوْلَا أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا لَوْلَا أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ مُوسَىٰ أَوَّلَ

من بعد موسى ، فتطاول عليهم الزمان ، وطالت الفترة فنسوا ذكر الله ، وبدلوا وحرفوا الشرائع فأرسلناك يا محمد لتجدد أمر الدين قال أبو السعود : المعنى ولكننا خلقنا بين زمانك وزمان موسى قرونًا كثيرة ، فتأدى عليهم الأمر ، فتغيرت الشرائع والأحكام ، وعميت عليهم الأنباء فأوحينا إليك ، فحذف المستدرك اكتفاءً بذكر الموجب ^(١) ﴿وما كنت ثاوياً في أهل مدين يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي وما كنت يا محمد مقيماً في أهل مدين فتعلم خبر موسى وشعيب وابنتيه فتتلو ذلك على أهل مكة ﴿ولكننا كنا مرسلين﴾ أي ولكننا أرسلناك في أهل مكة وأخبرناك بتلك الأخبار ، ولولا ذلك لما علمتها ﴿وما كنت بجانب الطور إذ نادينا﴾ أي وما كنت أيضاً بجانب جبل الطور وقت ندائنا لموسى وتكليمنا إياه ﴿ولكن رحمةً من ربك لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي لم تشاهد شيئاً من أخبار وقصص الأنبياء ، ولكننا أوحيناها إليك ، وقصصناها عليك ، رحمةً من ربك لتخوف قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ﴿لعلهم يتذكرون﴾ أي لعلهم يتعظون بما جئتهم به من الآيات البينات ، فيدخلوا في دينك قال المفسرون : المراد بالقوم الذين كانوا في زمن الفترة بين عيسى ومحمد صلوات الله عليهما وهي نحو من ستمائة سنة ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة بما قدمت أيديهم﴾ أي ولولا قولهم إذا أصابتهم عقوبة بسبب كفرهم ومعاصيهم ﴿فيقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين﴾ أي فيقولوا عند ذلك ربنا هلاً أرسلت إلينا رسولا يبلغنا آياتك فتتبعها ونكون من المصدقين بها !! قال القرطبي : وجواب ﴿لولا﴾ محذوف تقديره لما بعثنا الرسل ^(٢) ، وقال في التسهيل : ﴿لولا﴾ الأولى حرف امتناع ، و﴿لولا﴾ الثانية عرض وتحضيض ، والمعنى : لولا أن تصيبهم مصيبة بكفرهم لم نرسل الرسل ، وإنما أرسلناهم على وجه الإعذار وإقامة الحجة عليهم لئلا يقولوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك ونكون من المؤمنين ^(٣) ، ثم أخبر تعالى عن عناد المشركين وتعتنهم في رد الحق فقال ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي فلما جاء أهل مكة الحق المبين وهو محمد بالقرآن المعجز من عندنا قالوا - على وجه التعتن والعناد - هلاً أعطي محمد من الآيات الباهرة ، والحجج القاهرة مثل ما أعطي موسى من العصا واليد !! قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل؟﴾ أي أولم يكفر البشر بما أوتي موسى من تلك الآيات الباهرة ؟ ! قال مجاهد : أمرت اليهود قريشاً أن يقولوا لمحمد : اتنا بمثل ما جاء به موسى من المعجزات ، فرد الله عليهم

يَكْفُرُوا بِمَا أُوتِيَ مُوسَى مِنْ قَبْلِ قَالُوا سِحْرَانِ تَظَاهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا بِكِتَابٍ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٩﴾ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَغْيَ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾ * وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥١﴾ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِهِ هُمْ بِهِ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾

بأنهم كفروا بآيات موسى^(١) ، فالضمير في ﴿أو لم يكفروا﴾ لليهود ، وهذا اختيار ابن جرير وقال أبو حيان : ويظهر عندي أن الضمير عائد على قريش الذين قالوا لولا أوتي محمد مثل ما أوتي موسى ، وذلك أن تكذيبهم لمحمد ﷺ تكذيب لموسى ، ونسبتهم السحر للرسول نسبة السحر لموسى ، إذ الأنبياء من وادٍ واحد فمن نسب إلى أحد من الأنبياء ما لا يليق كان ناسباً ذلك إلى جميع الأنبياء ، وتتناسق حينئذ الضمائر كلها^(٢) ﴿قالوا سحران تظاهرا﴾ أي وقال المشركون ما التوراة والقرآن إلا من قبيل السحر ، فهما سحران تعاونتا بتصديق كل واحد منهما الآخر قال السدي : صدق كل واحد منهما الآخر ﴿وقالوا إِنَّا بِكُلِّ كَافِرُونَ﴾ أي إِنَّا بِكُلِّ مِنَ الْكِتَابَيْنِ كَافِرُونَ قال أبو السعود : وهذا تصريح بكفرهم بهما وذلك لغاية عتوهم وتماديهم في الكفر والطغيان^(٣) ﴿قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه﴾ أمر على وجه التعجيز أي قل لهم يا محمد إنكم إذ كفرتم بهذين الكتابين مع ما تضمنتا من الشرائع والأحكام ومكارم الأخلاق فأتوني بكتاب منزل من عند الله أهدى منهما وأصلح أتمسك به ﴿إن كنتم صادقين﴾ أي في أنهما سحران قال ابن كثير : وقد علم بالضرورة لذوي الألباب أن الله تعالى لم ينزل كتاباً من السماء أكمل ولا أشمل ولا أفصح ولا أعظم من الكتاب الذي أنزله على محمد ﷺ وهو القرآن ، وبعده في الشرف والعظمة الكتاب الذي أنزله على موسى ، وهو الكتاب الذي قال فيه ﴿إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور﴾ والإنجيل إنما أنزل متمماً للتوراة ومحملاً لبعض ما حُرِّم على بني إسرائيل^(٤) ﴿فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم﴾ أي فإن لم يجيبوك إلى ما طلبته منهم فاعلم أن كفرهم عناداً واتباعاً للأهواء لا بحجة وبرهان ﴿ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله﴾ أي لا أحد أضل ممن اتبع هواه بغير رشاد ولا بيان من الله ﴿إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ أي لا يوفق للحق من كان معانداً ظالماً ، بالانهاك في اتباع الهوى ، والإعراض عن سبيل الهدى ﴿ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون﴾ أي ولقد تابعنا ووالينا لقريش القرآن يتبع بعضه بعضاً ، وعداً ووعداً ، وقصصاً وعبراً ، ونصائح ومواعظ ليتعظوا ويتذكروا بما فيه قال ابن الجوزي : المعنى أنزلنا القرآن يتبع بعضه بعضاً ، ويجبر عن الأمم الخالية كيف عذبوا لعلهم يتعظون^(٥) ﴿الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون﴾ أي الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل من قبل هذا القرآن - من مسلمي أهل الكتاب - هم بهذا القرآن يصدقون قال ابن عباس : يعني من آمن بمحمد ﷺ

(١) مختصر ابن كثير ١٧/٣ . (٢) البحر ١٢٣/٧ . (٣) تفسير أبو السعود ١٥٦/٤ . (٤) مختصر ابن كثير ١٧/٣ . (٥) زاد المسير ٢٨٨/٦ .

وَإِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ قَالُوا آمَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ ﴿٥٣﴾ أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ سَلَمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ ﴿٥٥﴾ إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾

من أهل الكتاب^(١) ﴿٥٣﴾ وإذا يُتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا ﴿٥٤﴾ أي كنا من قبل نزوله موحدين لله ، مستسلمين لأمره ، مؤمنين بأنه سيبعث محمد وينزل عليه القرآن قال تعالى ﴿٥٤﴾ أولئك يؤتوا أجرهم مرتين ﴿٥٥﴾ أي أولئك الموصوفون بالصفات الجميلة يعطون ثوابهم مضاعفاً ، مرة على إيمانهم بكتابهم ، ومرة على إيمانهم بالقرآن وفي الحديث (ثلاثة يؤتوا أجرهم مرتين : رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه ثم آمن بي . . .) ^(٢) الحديث ﴿٥٦﴾ بما صبروا ﴿٥٦﴾ أي بسبب صبرهم على اتباع الحق ، وتحملهم الأذى في سبيل الله قال قتادة : نزلت في أناس من أهل الكتاب ، كانوا على شريعة من الحق يأخذون بها ويتنهون إليها ، حتى بعث الله محمداً ﷺ فأمنوا به وصدقوه ، فأعطاهم الله أجرهم مرتين بما صبروا ، وذكر أن منهم سلمان وعبد الله بن سلام^(٣) ﴿٥٧﴾ ويدرءون بالحسنة السيئة ﴿٥٨﴾ أي ويدفعون الكلام القبيح كالسب والشتم بالحسنة أي الكلمة الطيبة الجميلة قال ابن كثير : لا يقابلون السيء بمثله ولكن يعفون ويصفحون^(٤) ﴿٥٩﴾ ومما رزقناهم ينفقون ﴿٦٠﴾ أي ومن الذي رزقناهم من الحلال ينفقون في سبيل الخير ﴿٦١﴾ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه ﴿٦٢﴾ أي وإذا سمعوا الشتم والأذى من الكفار وسمعوا ساقط الكلام ، لم يلتفتوا إليه ولم يردوا على أصحابه ﴿٦٣﴾ وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ﴿٦٤﴾ أي لنا طريقنا ولكم طريقكم ﴿٦٥﴾ سلام عليكم ﴿٦٦﴾ أي سلام متاركة ومباعدة قال الزجاج : لم يريدوا التحية وإنما أرادوا بيننا وبينكم المتاركة ﴿٦٧﴾ لا نبتغي الجاهلين ﴿٦٨﴾ أي لا نطلب صحبتهم ولا نريد مخالطتهم قال الصاوي : كان المشركون يسبون مؤمني أهل الكتاب ويقولون : تباً لكم أعرضتم عن دينكم وتركتموه ! فيعرضون عنهم ويقولون لنا أعمالنا ولكم أعمالكم^(٥) . مدحهم تعالى بالإيمان ، ثم مدحهم بالإحسان ، ثم مدحهم بالعفو والصفح عن أهل العدوان ، ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﴿٦٩﴾ إنك لا تهدي من أحببت ﴿٧٠﴾ أي إنك يا محمد لا تقدر على هداية أحد ، مهما بذلت فيه من مجهود ، وجاوزت في السعي كل حدٍّ معهود ﴿٧١﴾ ولكن الله يهدي من يشاء ﴿٧٢﴾ أي ولكنه تعالى بقدرته يهدي من قدر له الهداية ، فسلم أمرك إليه فإنه أعلم بأهل السعادة والشقاوة ﴿٧٣﴾ وهو أعلم بالمهتدين ﴿٧٤﴾ أي هو تعالى العالم بمن فيه استعداد للهداية والإيمان فيهديه قال المفسرون : نزلت في عمه «أبي طالب» حين عرض عليه الإسلام عند موته فأبى قال أبو حيان : ومعنى ﴿٧٥﴾ إنك لا تهدي من أحببت ﴿٧٦﴾ أي لا تقدر على خلق الهداية فيه ، ثم قال : ولا تنافي بين هذا وبين

(١) الطبري ٥٦/٢٠ . (٢) أخرجه مسلم . (٣) الطبري ٥٦/٢٠ . (٤) مختصر ابن كثير ١٨/٣ . (٥) حاشية الصاوي على الجلالين

وَقَالُوا إِن تَبِيعَ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُنْخِطُفَ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ تَمَرَّتْ كُلُّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٧﴾ وَكَرَّ أَهْلُكَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسْكِنُهُمْ لَمْ تَسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ﴿٥٨﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٥٩﴾

قوله ﴿وإنك لتهدي إلى صراطٍ مستقيم﴾ لأن معنى هذا : وإنك لترشد ، وقد أجمع المسلمون على أنها نزلت في «أبي طالب» ^(١) ثم ذكر تعالى شبهة من شبهات المشركين ورد عليها بالبيان الواضح فقال ﴿وقالوا إن تبع الهدى معك نتخطف من أرضنا﴾ أي وقال كفار قريش : إن اتبعناك يا محمد على دينك وتركنا ديننا نخاف أن نتخطفنا العرب فيجتمعون على محاربتنا ، ويخرجوننا من أرضنا ، قال المبرد : والتخطف الانزعاع بسرعة ، قال تعالى رداً عليهم ﴿أولم نمكن لهم حرماً آمناً﴾ أي أولم نعصم دماءهم ونجعل مكانهم حرماً ذا أمن ، بحرمة البيت العتيق ؟ فكيف يكون الحرم آمناً لهم في حال كفرهم ، ولا يكون آمناً لهم في حال إسلامهم ؟ ﴿يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقاً من لدنا﴾ أي تجلب إليه الأرزاق من كل مكان مع أنه بوادٍ غير ذي زرع رزقاً لهم من عندنا ﴿ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثرهم جهلة لا يتفكرون في ذلك ولا يتفطنون قال أبو حيان : قطع الله حاجتهم بهذا البيان الناصع إذ كانوا وهم كفار بالله ، عباد أصنام قد آمنوا في حرمهم ، والناس في غيره يتقاتلون وهم مقيمون في بلدٍ غير ذي زرع ، يحيى إليهم ما يحتاجون من الأقوات ، فكيف إذا آمنوا واهتدوا؟ ^(٢) ﴿وكم أهلكنا من قرية بطرت معيشتها﴾ أي وكثير من أهل قرية طغت وأشرت وكفرت نعمة الله فدمر الله عليهم وخرب ديارهم ﴿فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم إلا قليلاً﴾ أي فتلك مساكنهم خاوية بما ظلموا لم تسكن من بعد تدميرهم إلا زماناً قليلاً إذ لا يسكنها إلا المارة والمسافرون يوماً أو بعض يوم ﴿وكنا نحن الوارثين﴾ أي وكنا نحن الوارثين لأملاكهم وديارهم قال في البحر : والآية تحذير لأهل مكة من سوء عاقبة قوم كانوا في مثل حالهم ، من إنعام الله عليهم بالرقود في ظلال الأمن ، وخفض العيش ، فكفروا النعمة وقابلوها بالاشرب والبطر فدمرهم الله وخرب ديارهم ^(٣) ﴿وما كان ربك مهلك القرى﴾ أي ما جرت عادة الله جل شأنه أن يهلك أهل القرى الكافرة ﴿حتى يبعث في أممها رسولاً يتلوا عليهم آياتنا﴾ أي حتى يبعث في أصلها وعاصمتها رسولاً يبلغهم رسالة الله لقطع الحجج والمعاذير ﴿وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون﴾ أي وما كنا لنهلك القرى إلا وقد استحق أهلها الإهلاك ، لإصرارهم على الكفر بعد الإغذار إليهم ببعثة المرسلين قال القرطبي : أخبر تعالى أنه لا يهلكهم إلا إذا استحقوا الإهلاك بظلمهم ، وفي هذا بيان لعدله وتقديره عن الظلم ، ولا يهلكهم - مع كونهم ظالمين - إلا بعد تأكيد الحجة والإلزام ببعثة الرسل ، ولا

(١) البحر المحيط ١٢٦/٧ وانظر سبب النزول الذي ذكرناه سابقاً . (٢) البحر المحيط ١٢٦/٧ . (٣) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَّعَهُ مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦١﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا يَجْعَلْ عِلْمُهُ تَعَالَى بِأَحْوَالِهِمْ حجة عليهم ^(١) ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيَّنْتُهَا﴾ أي وما أعطيتكم أيها الناس من مالٍ وخيرٍ فهو متاعٌ قليل تتمتعون به في حياتكم ثم ينقضي ويفنى قال ابن كثير : يخبر تعالى عن حقارة الدنيا وما فيها من الزينة الدنيئة ، والزهرة الفانية ، بالنسبة إلى ما أعدده الله لعباده الصالحين في الدار الآخرة ، من النعيم العظيم المقيم ^(٢) ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ أي وما عنده من الأجر والثواب ، والنعيم الدائم الباقي خير وأفضل من هذا النعيم الزائل ﴿أفلا تعقلون﴾ ؟ توبيخٌ لهم أي أفلا تعقلون أن الباقي أفضل من الفاني ؟ قال الإمام الفخر : بين تعالى أن منافع الدنيا مشوبة بالمضار ، بل المضار فيها أكثر ، ومنافع الآخرة غير منقطعة ، بينما منافع الدنيا منقطعة ، ومتى قوبل المتناهي بغير المتناهي كان عدماً ، فكيف ونصيب كل أحدٍ من الدنيا كالذرة بالقياس إلى البحر ، فمن لم يرجح منافع الآخرة على منافع الدنيا يكون كأنه خارجٌ عن حدِّ العقل ^(٣) ﴿أفمن وعدناه وعداً حسناً فهو لاقِيهِ﴾ أي أفمن وعدناه وعداً قاطعاً بالجنة وما فيها من النعيم المقيم الخالد ، فهو لا محالة مدركه لأن وعد الله لا يتخلف ﴿كمن متعناه متاع الحياة الدنيا﴾ ؟ أي كمن متعناه بمتاع زائل ، مشوب بالأكدار ، مملوء بالمتاعب ، مستتبع للحسرة على انقطاعه ؟ ﴿ثم هو يوم القيامة من المحضرين﴾ أي ثم هو في الآخرة من المحضرين للعذاب ، فهل يساوي العاقل بينهما ؟ قال ابن جزى : والآية ايضاحٌ لما قبلها من البون الشاسع بين الدنيا والآخرة ، والمراد بمن وعدناه المؤمنين ، وبمن متعناه الكافرين ^(٤) ﴿ويوم يناديهم فيقول أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ أي واذكر حال المشركين يوم يناديهم الله فيقول لهم على سبيل التوبيخ والتفريع : أَيْنَ هَؤُلَاءِ الشُّرَكَاءِ وَالْأَلْهَةِ مِنَ الْأَصْنَامِ وَالْأَنْدَادِ الَّذِينَ عَبْدْتُمُوهُمْ مِنْ دُونِي ، وزعمتم أنهم ينصرونكم ويشفعون لكم ؟ ﴿قال الذين حق عليهم القول﴾ أي قال رؤسائهم وكبرائهم الذين وجب عليهم العذاب لضلالهم وطغيانهم ﴿ربَّنَا هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا﴾ أي هَؤُلَاءِ أَتْبَاعُنَا الَّذِينَ أَضَلَّلْنَاهُمْ عَنْ سَبِيلِكَ ﴿أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا﴾ أي أَضَلَّلْنَاهُمْ كَمَا ضَلَّلْنَا ، لا بالقسر والإكراه ولكن بطريق الوسوسة وتزيين القبيح فضلوهم كما ضللنا نحن ﴿تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون﴾ أي تبرأنا إليك يا الله من عبادتهم إيانا ، فما كانوا يعبدوننا وإنما كانوا يعبدون أهواءهم وشهواتهم ﴿وقيل ادعوا شركاءكم﴾ أي وقيل للكفار استغيثوا بالتهكم التي عبدتموها في الدنيا لتنصركم وتدفع عنكم عذاب الله ، وهذا على سبيل التهكم بهم ﴿فدعوههم فلم يستجيبوا لهم﴾ أي فاستغاثوا بهم فلم يجيبوهم ولم ينتفعوا بهم ، وهذا من

لَهُمْ وَرَأَوْا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ ﴿١٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٥﴾ فَعِمَّتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَاءَلُونَ ﴿١٦﴾ فَأَمَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْمُفْلِحِينَ ﴿١٧﴾ وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٨﴾ وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴿١٩﴾ وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٠﴾

سخافة عقولهم ﴿١٤﴾ ورأوا العذاب لو أنهم كانوا يهتدون ﴿١٥﴾ أي وتمنوا حين شاهدوا العذاب لو كانوا مهتدين قال الطبري : أي فودوا حين رأوا العذاب لو أنهم كانوا في الدنيا مهتدين للحق ﴿١٦﴾ ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتكم المرسلين ﴿١٧﴾ توبيخ آخر للمشركين أي ويوم يناديهم الله ويسألهم : ماذا أجبتكم رسلني ؟ هل صدقتموهم أم كذبتموهم ؟ ﴿١٨﴾ فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون ﴿١٩﴾ أي فخفيت عليهم الحجج ، وأظلمت عليهم الأمور ، فلم يعرفوا ما يقولون ، فهم حيارى واجمون ، لا يسأل بعضهم بعضاً عن الجواب لفرط الدهشة والخيرة ﴿٢٠﴾ فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفّلحين ﴿٢١﴾ أي فأما من تاب من الشرك ، وجمع بين الإيمان والعمل الصالح فعسى أن يكون من الفائزين بجنت النعيم قال الصاوي : والترجي في القرآن بمنزلة التحقق ، لأنه وعد كريم من رب رحيم ، ومن شأنه تعالى أنه لا يخلف وعده ﴿٢٢﴾ ﴿وربك يخلق ما يشاء ويختار﴾ أي هو تعالى الخالق المتصرف ، يخلق ما يشاء ويفعل ما يريد ، فلا اعتراض لأحد على حكمه قال مقاتل : نزلت في « الوليد بن المغيرة » حين قال ﴿لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم﴾ ﴿ما كان لهم الخيرة﴾ أي ما كان لأحد من العباد اختيار ، إنما الاختيار والإرادة لله وحده ﴿سبحان الله وتعالى عما يشركون﴾ أي تنزه الله العظيم الجليل وتقديسه أن ينازعه أحد في ملكه ، أو يشاركه في اختياره وحكمته قال القرطبي : المعنى وربك يخلق ما يشاء من خلقه ، ويختار من يشاء لبنوته ، والخيرة له تعالى في أفعاله ، وهو أعلم بوجوه الحكمة ، فليس لأحد من خلقه أن يختار عليه ﴿٢٣﴾ ﴿وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون﴾ أي هو تعالى العالم بما تخفيه قلوبهم من الكفر والعداوة للرسول والمؤمنين ، وما يظهره على ألسنتهم من الطعن في شخص رسوله الكريم حيث يقولون : ما أنزل الله الوحي إلا على يتيم أبي طالب ! ﴿وهو الله لا إله إلا هو﴾ أي هو جل وعلا الله المستحق للعبادة ، لا أحد يستحقها إلا هو ﴿له الحمد في الأولى والآخرة﴾ أي له الثناء الكامل في الدنيا والآخرة ، لأنه تعالى المتفضل على العباد بالنعم كلها في الدارين ﴿وله الحكم﴾ أي وله القضاء النافذ والفصل بين العباد ﴿وإليه ترجعون﴾ أي إليه وحده مرجع الخلائق يوم القيامة ، فيجازي كل عامل بعمله .

(١) الطبري ٢٠/٦٣ وهذا على أن ﴿لو﴾ للتمني ، وهو الذي أثبتناه وهو اختيار الطبري ، وقال الزجاج : جواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لو كانوا يهتدون لما اتبعوهم ولما رأوا العذاب . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٢٣ . (٣) القرطبي ١٣/٣٠٥ بشيء من الاختصار .

البلاغة : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - التشبيه البليغ ﴿بصائر للناس﴾ أي أعطيناه التوراة كأنها أنوار لقلوب الناس ، حذف أداة الشبه ووجه الشبه فأصبح بليغاً قال في حاشية البيضاوي : أي مشبهاً بأنوار القلوب من حيث إن القلوب لو كانت خالية عن أنوار التوراة وعلومها لكانت عمياء لا تستبصر ، ولا تعرف حقاً من باطل^(١) .

٢ - المجاز العقلي ﴿أنشأنا قروناً﴾ المراد به الأمم لأنهم يخلقون في تلك الأزمنة فنسب إلى القرون بطريق المجاز العقلي .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿تصيبهم مصيبة﴾ .

٤ - المجاز المرسل ﴿بما قدمت أيديهم﴾ والمراد بما كسبوا وهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل قال الزمخشري : ولما كانت أكثر الأعمال تزاوُل بالأيدي جعل كل عمل معبراً عنه باجتراح الأيدي^(٢) .

٥ - حذف الجواب لدلالة السياق ﴿ولولا أن تصيبهم مصيبة﴾ حذف منه الجواب وتقديره : ما أرسلناك يا محمد رسولاً إليهم وهو من باب الإيجاز بالحذف .

٦ - التحضيض ﴿لولا أوتي مثل ما أوتي موسى﴾ أي هلاً أوتي فهي للتحضيض وليست حرف امتناع لوجود .

٧ - التعجيز ﴿قل فائتوا بكتاب﴾ فالأمر خرج عن حقيقته إلى معنى التعجيز .

٨ - طباق السلب ﴿إنك لا تهدي . . ولكن الله يهدي﴾ .

٩ - المجاز العقلي ﴿حرماً آمناً﴾ نسب الأمن إلى الحرم وهو لأهله .

١٠ - أسلوب السخرية والتهكم ﴿أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ ؟ .

١١ - التشبيه المرسل ﴿أغويناهم كما غوينا﴾ .

١٢ - الاستعارة التصريحية التبعية ﴿فعميت عليهم الأنباء﴾ قال الشهاب : استعير العمى لعدم الاهتداء ، فهم لا يبتدون للأنباء ، ثم قلب للمبالغة فجعل الأنباء لا تهتدي إليهم وأصله «فعموا عن الأنباء» وضُمِّن معنى الخفاء فعدي بـ ﴿على﴾ ففيه أنواع من البلاغة : الاستعارة ، والقلب ، والتضمين^(٣) .

١٣ - الطباق بين ﴿تكن . . ويعلمون﴾ وبين ﴿الأولى . . والآخرة﴾ وهو من المحسنات البديعية .

(١) حاشية زاده على البيضاوي ٣/ ٥١٥ . (٢) الكشف ٣/ ٣٢٠ . (٣) نقلاً عن محاسن التأويل للقاسمي .

تَنْبِيْهِهٖ : ما ذكر أن «أبا طالب» مات على غير الإيمان هو الصحيح الذي دلّ عليه الكتاب والسنة ، ونقل عن بعض شيوخ الصوفية أنه أسلم قبل موته ، وهو معارضٌ للنصوص الكريمة ولعلمهم أخذوه من بعض أشعار أبي طالب حيث يقول :

ولقد علمتُ بأنّ دين محمدٍ من خير أديان البرية ديناً
والله لن يصلوا إليك بجمعهم حتى أُوسد في التراب دفيناً

أقول : ماذا يعني هذا الكلام بعد امتناعه عن الدخول في الإسلام والنطق بالشهادة ؟

قال الله تعالى : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ سَرْمَدًا . . . إِلَى . . . لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^١
من آية (٧١) إلى آية (٨٨) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى أنه هو الخالق المختار ، وسفّه المشركين في عبادتهم لغير الله ، عبّبه بذكر بعض الأدلة والبراهين الدالة على عظمته وسلطانه ، تذكيراً للعباد بوجوب شكر المنعم ، ثم ذكر قصة «قارون» وهي قصة الطغيان بالمال ، وما كان من نهايته المشئومة حيث خسف الله به وبكنوزه الأرض ، وهذه هي نتيجة الاستعلاء والغرور والطغيان .

اللفظة : ﴿سَرْمَدًا﴾ السرمد : الدائم الذي لا ينقطع ومنه قول طرفة :

لعمرك ما أمري عليّ بغمةٍ نهاري ولا ليلى عليّ بسرمد^(٢)
﴿مفتاحه﴾ جمع مفتاح بالكسر وهو ما يفتح به ، وأما المفتاح فجمعه مفاتيح . ﴿تنوء﴾ ناء به الحمل إذا أثقله حتى أماله قال ذو الرمة :

تنوء بأخراها فلايأ قيامها وتمشي الهوينى عن قريب فتبهر^(٣)

﴿العصبة﴾ الجماعة الكثيرة ومثلها العصابة ومنه قوله تعالى ﴿ونحن عصبة﴾ سميت الجماعة عَصْبَةً لأن بعضهم يتعصب لبعض ويتقوى به ﴿ويُكأن﴾ قال الجوهري : «وي» كلمة تعجب وقد تدخل على «كأن» فتقول : ويكأن ، وقيل إنها كلمة تستعمل عند التنبيه للخطأ وإظهار الندم قال الخليل ، إن القوم تنبهوا وقالوا نادمين على ما سلف منهم وي^(٤) ﴿ظهيراً﴾ معيناً ومساعداً .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَمْ لَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾

النفسير : ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء الجاحدين من كفار مكة : أخبروني لو جعل الله عليكم الليل دائماً مستمراً بلا انقطاع إلى يوم القيامة ﴿من إله غير الله يأتيكم بضياء﴾ ؟ أي من هو الإله الذي يقدر على أن يأتيكم بالنور الذي تستضيئون به في حياتكم غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تسمعون﴾ أي أفلا تسمعون سماع فهم وقبول فتستدلوا

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٦﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٧﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٨﴾ وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعِلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٩﴾ * إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءَ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٨٠﴾

بذلك على وحدانية الله تعالى ؟ ﴿قل أرايتم إن جعل الله عليكم النهار سرمداً إلى يوم القيامة﴾ أي أخبروني لو جعل الله عليكم النهار دائماً مستمراً بلا انقطاع ﴿من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه﴾ أي من هو الإله القادر على أن يأتيكم بليل تستريحون فيه من الحركة والنصب غير الله تعالى ؟ ﴿أفلا تبصرون﴾ أي أفلا تبصرون ما أنتم عليه من الخطأ والضلال ؟ ثم نبه تعالى إلى كمال رحمته بالعباد فقال ﴿ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار﴾ أي ومن آثار قدرته ، ومظاهر رحمته أن خلق لكم الليل والنهار يتعاقبان بدقة وإحكام ﴿لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله﴾ أي لتستريحوا بالليل من نصب الحياة وهمومها وأكدارها ، ولتلتمسوا من رزقه بالمعاش والكسب في النهار ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولتشكروا ربكم على نعمه الجليلة التي لا تحصى ، ومنها نعمة الليل والنهار قال الإمام الفخر : نبه تعالى بهذه الآية على أن الليل والنهار نعمتان يتعاقبان على الزمان ، لأن المرء في الدنيا مضطر إلى أن يتعب لتحصيل ما يحتاج إليه ، ولا يتم له ذلك لولا ضوء النهار ، ولولا الراحة والسكون بالليل ، فلا بدّ منهما في الدنيا ، وأما في الجنة فلا نصب ولا تعب فلا حاجة بهم إلى الليل ، فلذلك يدوم لهم الضياء واللذات ^(١) ﴿ويوم يناديهم أين شركائي الذين كنتم تزعمون﴾ قال ابن كثير : هذا نداء ثانٍ على سبيل التوبيخ والتقريع لمن عبد مع الله إلهاً آخر ، يناديهم الرب على رؤوس الأشهاد : أين شركائي الذين زعمتموهم في الدنيا ^(٢) ؟ ﴿ونزعنا من كل أمة شهيداً﴾ أي أخرجنا من كل أمة شهيداً منهم يشهد عليهم بأعمالهم وهونبيهم ﴿فقلنا هاتوا برهانكم﴾ أي هاتوا حجتكم على ما كنتم عليه من الكفر ، وهذا إعذار لهم وتوبيخ وتعجيز ﴿فعلّموا أن الحق لله﴾ أي فعلّموا حينئذ أن الحق لله ولرسله ، وأنه لا إله إلا هو ﴿وضلّ عنهم ما كانوا يفترون﴾ أي وغاب عنهم غيبة الشيء الضائع ما كانوا يتخرونه في الدنيا من الشركاء والأنداد ، ثم ذكر تعالى قصة « قارون » ونتيجة الغرور والطغيان فقال ﴿إن قارون كان من قوم موسى﴾ أي من عشيرته وجماعته قال ابن عباس : كان ابن عم موسى ﴿فبغى عليهم﴾ أي تجبر وتكبر على قومه ، واستعلى عليهم بسبب ما منحه الله من الكنوز والأموال قال الطبري : أي تجاوز حدّه في الكبر والتجبر عليهم ^(٣) ﴿وآتينا من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة﴾ أي أعطينا من الأموال الوفيرة ، والكنوز الكثيرة ما يثقل على الجماعة أصحاب القوة حمل مفاتيح

وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ
 الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي ۚ أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ
 أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَىٰ
 قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ ۚ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا لَنَنَالَنَّ لِذَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾

خزائنه لكثرتها وثقلها فضلاً عن حمل الخزائن والأموال والآية تصوير لما كان عليه قارون من كثرة المال والغنى والثراء ﴿إذ قال له قومه لا تفرح﴾ أي لا تأثر ولا تبطر ﴿إن الله لا يحب الفرحين﴾ أي لا يحب البطرين الذين لا يشكرون الله على إنعامه ، ويتكبرون بأموالهم على عباد الله ﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة﴾ أي اطلب فيما أعطاك الله من الأموال رضى الله ، وذلك بفعل الحسنات والصدقات والإنفاق من الطاعات ﴿ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾ قال الحسن : أي لا تضع حظك من دنياك في تمتعك بالحلال وطلبك إياه^(١) ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك﴾ أي أحسن إلى عباد الله كما أحسن الله إليك ﴿ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ أي لا تطلب بهذا المال البغي والتناول على الناس ، والإفساد في الأرض بالمعاصي ﴿إن الله لا يحب المفسدين﴾ أي لا يحب من كان مجرمًا باغياً مفسداً في الأرض ﴿قال إنما أُوتيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾ لما وعظه قومه أجابهم بهذا على وجه الرد عليهم والتكبر عن قبول الموعظة والمعنى : إنما أُعطيت هذا المال على علمٍ عندي بوجوه المكاسب ، ولولا رضى الله عني ومعرفته بفضلي واستحقاقي له ما أعطاني هذا المال ! قال تعالى رداً عليه ﴿أولم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوةً وأكثر جمعاً﴾ أي أولم يعلم هذا الأحق المغرور أن الله قد أهلك من قبله من الأمم الخالية من هو أقوى منه بدنًا وأكثر مالا ؟ ! قال البيضاوي : والآية تعجب وتوبيخ على اغتراره بقوته وكثرة ماله ، مع علمه بذلك لأنه قرأه في التوراة ، وسمعه من حفاظ التواريخ^(٢) ﴿ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون﴾ أي لا حاجة أن يسألهم الله عن كيفية ذنوبهم وكميتها لأنه عالم بكل شيء ، ولا يتوقف إهلاكه إياهم على سؤالهم بل متى حق عليهم العذاب أهلكهم بغته ، ثم أشار تعالى إلى أن قارون لم يعتبر بنصيحة قومه ، بل تمادى في غطرسته وغيه فقال تعالى ﴿فخرج على قومه في زِينَتِهِ﴾ أي فخرج قارون على قومه في أظهر زينة وأكملها قال المفسرون : خرج ذات يوم في زينة عظيمة بأتباعه الكثيرين ، ركبناً متحلين بملابس الذهب والحرير ، على خيول موشحة بالذهب ، ومعه الجواري والغلمان في موكب حافل باهر ﴿قال الذين يريدون الحياة الدنيا يا ليت لنا مثل ما أوتي قارون﴾ أي فلما رآه ضعفاء الإيمان ممن تحذعهم الدنيا ببريقها وزخرفها وزينتها قالوا : يا ليت لنا مثل هذا الثراء والغنى الذي أعطيه قارون ﴿إنه لذو حظٍ عظيم﴾ أي ذو نصيب وافر من الدنيا

(١) وقيل معناه : لا تضع عمرك بترك الأعمال الصالحات وهو مروي عن ابن عباس ومجاهد ، وما قاله الحسن وقتادة أظهر وهو اختيار ابن

كثير . (٢) البيضاوي ٩٥/٣ .

وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٦﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ
وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ ﴿٨٧﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ
تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنَّ مِنَ اللَّهِ عَلَيْنَا
لَخَسَفَ بَنَّا وَيَكَآنَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٨﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ

﴿وقال الذين أوتوا العلم﴾ أي وقال لهم العقلاء من أهل العلم والفهم والاستقامة ﴿ويلكم ثواب الله خيرٌ
لمن آمن وعمل صالحاً﴾ أي ارتدعوا وانزجروا عن مثل هذا الكلام فإن جزاء الله لعباده المؤمنين الصالحين
خيرٌ مما ترون وتتمنون من حال قارون قال الزمخشري : أصل ﴿ويلك﴾ الدعاء بالهلاك ثم استعمل في
الزجر والردع ، والبعث على ترك ما لا يرتضى ^(١) ﴿ولا يلقاها إلا الصابرون﴾ أي ولا يعطى هذه المرتبة
والمنزلة في الآخرة إلا الصابرون على أمر الله قال تعالى تنبيهاً لنهايته المشثومة ﴿فخسفنا به وبداره الأرض﴾
أي جعلنا الأرض تغور به وبكنوزه ، جزاءً على عتوه وبطره ﴿فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله﴾
أي ما كان له أحد من الأنصار والأعوان يدفعون عنه عذاب الله ﴿وما كان من المنتصرين﴾ أي وما كان من
المنتصرين بنفسه بل كان من الهالكين ﴿وأصبح الذين تمنؤا مكانه بالأمس﴾ أي وصار الذين تمنؤوا منزلته
وغناه بالأمس القريب بعد أن شاهدوا ما نزل به من الخسف ﴿يقولون ويكأن الله يبسط الرزق لمن يشاء من
عباده ويقدر﴾ أي يقولون ندماً وأسفاً على ما صدر منهم من التمني : اعجبوا أيها القوم من صنع الله ،
كيف أن الله يوسع الرزق لمن يشاء من عباده - بحسب مشيئته وحكمته - لا لكرامته عليه ، ويضيّق
الرزق على من يشاء - لحكمته وقضائه ابتلاءً - لا لهوانه عليه !! قال الزمخشري : ﴿ويكأن﴾ كلمتان
«وي» مفصولة عن «كأن» وهي كلمة تنبيه على الخطأ وتندم ، ومعناه أن القوم تنبهوا على خطئهم في
تمنيهم منزلة قارون وتندموا ^(٢) وقالوا ﴿لولا أن من الله علينا﴾ أي لولا أن الله لطف بنا ، وتفضل علينا
بالإيمان والرحمة ، ولم يعطنا ما تمنيناها ﴿لخسف بنا﴾ أي لكان مصيرنا مصير قارون ، وخسف بنا الأرض
كما خسفها به ﴿ويكأنه لا يفلح الكافرون﴾ أي أعجب من فعل الله حيث لا ينجح ولا يفوز بالسعادة
الكافرون لا في الدنيا ، ولا في الآخرة . . . وإلى هنا تنتهي «قصة قارون» وهي قصة الطغيان بالمال ، بعد
أن ذكر تعالى قصة الطغيان بالجاه والسلطان في قصة فرعون وموسى ، ثم يأتي التعقيب المباشر في قوله
تعالى ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوًّا في الأرض ولا فساداً﴾ الإشارة للتفخيم والتعظيم
أي تلك الدار العالية الرفيعة التي سمعت خبرها ، وبلغك وصفها هي دار النعيم الخالد السرمدى ، التي
فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، نجعلها للمتقين الذين لا يريدون التكبر

(١) الكشف ٣/ ٣٤١ . (٢) الكشف ٣/ ٢٤٢ وهذا الذي قاله الزمخشري هو مذهب الخليل وسيبويه واختاره الجمهور ، قال في الجلالين
«وي» اسم فعل بمعنى عجب أنا ، والكاف بمعنى اللام والمعنى أعجب لأن الله يبسط ونقل الطبري عن قتادة أن معنى «ويكأن» ألم ترأن ،
وأنا كلمة واحدة ، وهو اختيار الطبري ، والله أعلم .

وَلَا فُسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٢﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٣﴾ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ مَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٨٤﴾ وَمَا كُنْتَ تَرْجُو أَنْ يُلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ إِلَّا رَحْمَةً مِّنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَافِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا يَصُدُّكَ عَنْ ءَايَاتِ اللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنْزِلَتْ إِلَيْكَ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٧﴾

والطغيان ، ولا الظلم والعدوان في هذه الحياة الدنيا ﴿والعاقبة للمتقين﴾ أي العاقبة المحمودة للذين يخشون الله ويراقبونه ، ويتبعون رضوانه ويحذرون عقابه ﴿من جاء بالحسنة فله خير منها﴾ أي من جاء يوم القيامة بحسنة من الحسنات فإن الله يضاعفها له أضعافاً كثيرة ﴿ومن جاء بالسئنة فلا يجزى الذين عملوا السيئات إلا ما كانوا يعملون﴾ أي ومن جاء يوم القيامة بالسيئات فلا يجزى إلا بمثلها ، وهذا من فضل الله على عباده أنه يضاعف لهم الحسنات ولا يضاعف لهم السيئات ﴿إن الذي فرض عليك القرآن﴾ أي إن الذي أنزل عليك يا محمد القرآن وفرض عليك العمل به ﴿لرأذك إلى معاد﴾ أي لرأذك إلى مكة كما أخرجك منها ، وهذا وعد من الله بفتح مكة ورجوعه عليه السلام إليها بعد أن هاجر منها قال ابن عباس : معناه لرأذك إلى مكة ، وقال الضحاك : لما خرج النبي ﷺ من مكة فبلغ الجحفة اشتاق إلى مكة ، فأُنزل الله عليه هذه الآية (١) ﴿قل ربّي أعلم من جاء بالهدى ومن هو في ضلال مبين﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : ربّي أعلم بالمهتدي والضال هل أنا أو أنتم؟ فهو جلّ وعلا الذي يعلم المحسن من المسيء ، ويجازي كلا بعمله ، وهو جواب لقول كفار مكة : إنك يا محمد في ضلال مبين ﴿وما كنت ترجو أن يلقى إليك الكتاب إلا رحمة من ربك﴾ أي وما كنت تطمع أن تنال النبوة ، ولا أن ينزل عليك الكتاب ولكن رحمك الله بذلك ورحم العباد ببعثتك قال الفراء : وهذا استثناء منقطع والمعنى إلا أن ربك رحمك فأنزله عليك ﴿فلا تكونن ظهيراً للكافرين﴾ أي لا تكن عوناً لهم على دينهم ، ومساعداً لهم على ضلالهم ، بالمداواة والمجاملة ولكن نابذهم وخالفهم قال المفسرون : دعا المشركون الرسول إلى دين آبائهم ، فأمر بالتحرز منهم وأن يصدع بالحق ، والخطاب بهذا وأمثاله له عليه السلام ، والمراد أمته لثلا يظاهروا الكفار ولا يوافقوهم ﴿ولا يصدنك عن آيات الله بعد إذ أنزلت إليك﴾ أي ولا تلتفت إلى هؤلاء المشركين ، ولا تركز إلى قولهم فيصدوك عن اتباع ما أنزل الله إليك من الآيات البينات ﴿وادع إلى ربك﴾ أي وادع الناس إلى توحيد ربك وعبادته ﴿ولا تكونن من المشركين﴾ أي بمسايرتهم على أهوائهم ، فإن من رضي بطريقتهم كان منهم ﴿ولا تدع مع الله

إلهاً آخر» أي لا تعبد إلهاً سوى الله ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله تعالى قال البيضاوي : وهذا وما قبله للتهييج وقطع أطماع المشركين عن مساعدته لهم ^(١) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أي كل شيء يفنى وتبقى ذاته المقدسة ، أطلق الوجه وأراد ذات الله جلّ وعلا قال ابن كثير : وهذا إخبار بأنه تعالى الدائم الباقي ، الحي القيوم ، الذي تموت الخلائق ولا يموت ، فعبر بالوجه عن الذات كقوله ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام ﴿لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي له القضاء النافذ في الخلق ، وإليه مرجعهم جميعاً يوم المعاد لا إلى أحدٍ سواه .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التبكيت والتوبيخ ﴿مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بَضِيَاءٌ﴾ ؟ ومثله ﴿يَأْتِيكُمْ بَلِيلٌ﴾ ؟ .
 - ٢ - اللف والنشر المرتب ﴿وَمَنْ رَحِمْتَهُ جَعَلْ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ جمع الليل والنهار ثم قال ﴿لَتَسْكُنُوا فِيهِ وَلَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ﴾ فأعاد السكن إلى الليل، والابتغاء لطلب الرزق إلى النهار ، ويسمى هذا عند علماء البديع اللف والنشر المرتب ، لأن الأول عاد على الأول ، والثاني عاد على الثاني وهو من المحسنات البديعية .
 - ٣ - جناس الاشتقاق ﴿لَا تَفْرَحُ . . الْفَرَحِينَ﴾ ومثله ﴿الْفُسَادُ . . وَالْمُفْسِدِينَ﴾ .
 - ٤ - تأكيد الجملة بـ ﴿إِنَّ﴾ و ﴿الْلَامُ﴾ ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ لأن السامع شك ومتردد .
 - ٥ - الكناية ﴿تَمَنُّوا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ كُنَى عن الزمن الماضي القريب بلفظ الأمس .
 - ٦ - الطباق ﴿يَسِطُ الرِّزْقُ . . وَيَقْدِرُ﴾ .
 - ٧ - المقابلة اللطيفة ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى . .﴾ الآية .
 - ٨ - المجاز المرسل ﴿إِلَّا وَجْهَهُ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي ذاته المقدسة ففيه مجاز مرسل .
- لطيفة :** قال بعض العلماء : من لم تشبعه القناعة لم يكفه ملك قارون وأنشدوا :
- هي القناعة لا تبغي بها بدلاً فيها النعيم وفيها راحة البدن
انظر لمن ملك الدنيا بأجمعها هل راح منها بغير القطن والكفن ؟
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة القصص » .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة العنكبوت مكية وموضوعها العقيدة في أصولها الكبرى «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحور السورة الكريمة يدور حول الإيمان و«سنة الابتلاء» في هذه الحياة لأن المسلمين في مكة كانوا في أقصى أنواع المحنة والشدة ، ولهذا جاء الحديث عن موضوع الفتنة والابتلاء في هذه السورة مطوَّلاً مفصلاً وبوجه خاص عند ذكر قصص الأنبياء .

✽ تبتدىء السورة الكريمة بهذا البدء الصريح ﴿السم﴾ أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون؟ وتمضي السورة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون الإيمان كلمةً تقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة والشدة انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وارتدوا عن الإسلام تخلصاً من عذاب الدنيا ، كأن عذاب الآخرة أهون من عذاب الدنيا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله . . .﴾ الآيات .

✽ وتمضي السورة تتحدث عن «محنة الأنبياء» وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ رسالة الله ، بدءاً بقصة نوح ، ثم إبراهيم ، ثم لوط ، ثم شعيب ، وتحدث عن بعض الأمم الطغاة المتجبرين كعاد ، وثمود ، وقارون ، وهامان وغيرهم وتذكر ما حلَّ بهم من الهلاك والدمار ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ الآيات .

✽ وفي قصص الأنبياء دروسٌ من المحن والابتلاء ، تتمثل في ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فهذا نوح عليه السلام يمكث في قومه تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله فما يؤمن معه إلا قليل ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ وهذا أبو الأنبياء إبراهيم الخليل يحاول هداية قومه بكل وسيلة ، ويجادلهم بالحجة والبرهان فما تكون النتيجة إلا العلو والطغيان ﴿قالوا اقتلوه أو حرقوه فأنجاه الله من النار . . .﴾ الآيات .

✽ وفي قصة لوط يظهر التبجح بالرديلة دون خجل أو حياء ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ الآيات وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء ، تمضي

السورة الكريمة تبين صدق رسالة محمد ﷺ فهو رجل أُمِّي لم يقرأ ولم يكتب ثم جاءهم بهذا الكتاب المعجز ، وهذا من أعظم البراهين على أنه كلام رب العالمين ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تحطه﴾ بيمينك إذا لارتاب المبتلون ﴿وتنتقل السورة للحديث عن الأدلة والبراهين على القدرة والوحدانية منبثقة من هذا الكون الفسيح ، ثم تختتم ببيان جزاء الذين صبروا أمام المحن والشدائد وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي والمالي ، ووقفوا في وجه المحنة والابتلاء﴾ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا ، وإن الله لمع المحسنين ﴿ .

التسمية : سميت «سورة العنكبوت» لأن الله ضرب العنكبوت فيها مثلاً للأصنام المنحوتة ، والآلهة المزعومة ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً . .﴾ الآيات .

اللفظ : ﴿فتنة﴾ الفتنة : الابتلاء والاختبار ﴿أنقاهم﴾ جمع ثقل وهو الحمل الثقيل الذي ينوء به الإنسان ، والمراد بالأنقال هنا الذنوب والأوزار ﴿لبث﴾ أقام ومكث ﴿إفكاً﴾ كذباً وزوراً ﴿تقلبون﴾ تُرجعون وتُردون .

سبب النزول : عن سعد بن أبي وقاص قال : « كنت رجلاً باراً بأمي فلما أسلمت ، قالت : ما هذا الدين الذي أحدثت يا سعد ؟ لتدعن دينك هذا أولاً ولا تأكل ولا أشرب حتى أموت فتعير بي فيقال : يا قاتل أمه ، قلت : لا تفعل يا أمه ، فإني لا أدع ديني هذا لشيء أبداً ، قال : فمكثت يوماً وليلة لا تأكل ، فأصبحت قد جُهدت ، ثم مكثت يوماً آخر وليلة لا تأكل ، فلما رأيت ذلك قلت : تعلمين والله يا أمه لو كانت لك مائة نفس فخرجت نفساً نفساً ما تركت ديني هذا لشيء أبداً ، فإن شئت فكني ، وإن شئت فدعي ، فلما رأت ذلك أكلت فأنزل الله هذه الآية ﴿ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما . .﴾ الآية (١) »

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿١﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ

التفسير : ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن (٢) ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون﴾ ؟ الهمزة للاستفهام الإنكاري أي أظن الناس أن يتركوا من غير افتتان لمجرد قولهم باللسان آمنا ؟ لا ليس كما ظنوا بل لا بد من امتحانهم لتمييز الصادق من المنافق قال ابن جزي : نزلت في قوم من المؤمنين كانوا بمكة مستضعفين ، منهم « عمار بن ياسر » وغيره ، وكان كفار قريش يؤذونهم ويعذبونهم على الإسلام ، فضاعت صدورهم بذلك فأنسهم الله بهذه الآية ووعظهم وأخبرهم أن ذلك اختبار ، ليوطنوا أنفسهم على الصبر على الأذى ، والثبات على الإيمان ، وأعلمهم أن تلك سيرته في

(١) أسباب النزول للواحدي ١٩٥ وفي بعض الروايات كان أولادها إذا أرادوا أن يطعموها شجروا فإياهم ادخلوا فيه عوداً ليفتحوه .

(٢) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة .

فَلْيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلْيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٩﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٣٠﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٣١﴾ وَمَنْ جَاهَدَ فَلِنَا مَا يَجْهَدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِبَادَةٌ يَسْلُطْ الْكُفَّارُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ لِيَمْحَقَهُمْ بِذَلِكَ ، ويظهر الصادق في إيمانه من الكاذب ^(١) ﴿٣٤﴾ ولقد فتننا الذين من قبلهم ﴿٣٥﴾ أي ولقد اخترنا وامتحنا من سبقهم بأنواع التكاليف والمصائب والمحن قال البيضاوي : والمعنى أن ذلك سنة قديمة ، جارية في الأمم كلها ، فلا ينبغي أن يتوقع خلافة ^(٢) ﴿٣٦﴾ فليعلمنَّ الله الذين صدقوا وليعلمنَّ الكاذبين ﴿٣٧﴾ أي فليميزنَّ الله بين الصادقين في دعوى الإيمان ، وبين الكاذبين فيه ، وعبر عن الصادقين بلفظ الفعل ﴿الذين صدقوا﴾ وعن الكاذبين باسم الفاعل ﴿الكاذبين﴾ للإشارة إلى أن الكاذبين وصفهم مستمر وأن الكذب راسخ فيهم بخلاف الصادقين فإن الفعل يفيد التجدد ، قال الإمام الفخر : إن اسم الفاعل يدل في كثير من المواضع على ثبوت المصدر ورسوخه فيه ، والفعل الماضي لا يدل عليه كما يقال : فلان شرب الخمر ، وفلان شارب الخمر ، فإنه لا يفهم من صيغة الفعل الثبوت والرسوخ ^(٣) ﴿٣٨﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا ﴿٣٩﴾ أي أيظن المجرمون الذين يرتكبون المعاصي والموبقات أنهم يفوتون من عقابنا ويعجزوننا ؟ ﴿٤٠﴾ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤١﴾ أي بشس ما يظنون قال الصاوي : والآية انتقال من توبيخ إلى توبيخ أشد ، فالأول توبيخ للناس على ظنهم أنهم يفوتون عذاب الله ويفرون منه مع دوامهم على كفرهم ^(٤) ﴿٤٢﴾ مَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ اللَّهِ فَإِنْ أَجَلَ اللَّهُ لَاتٍ ﴿٤٣﴾ لما بين تعالى أن العبد لا يترك في الدنيا سدى ، بين هنا أن من اعترف بالآخرة وعمل لها لا يضيع عمله ، ولا ينجب أمله والمعنى من كان يرجو ثواب الله فليصبر في الدنيا على المجاهدة في طاعة الله حتى يلقي الله فيجزيه ، فإن لقاء الله قريب الإتيان ، وكل ما هو آت قريب ، والآية تسلية للمؤمنين ووعد لهم بالخير في دار النعيم ﴿٤٤﴾ وهو السميع العليم ﴿٤٥﴾ أي هو تعالى السميع لأقوال العباد ، العليم بأحوالهم الظاهرة والباطنة ﴿٤٦﴾ ومن جاهد فلننا يجاهد لنفسه ﴿٤٧﴾ أي ومن جاهد نفسه بالصبر على الطاعات ، والكف عن الشهوات ، فممنعة جهاده إنما هي لنفسه ﴿٤٨﴾ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٩﴾ أي مستغن عن العباد ، لا تنفعه طاعة الطائعين ، ولا تضره معصية العاصين ﴿٥٠﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿٥١﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿٥٢﴾ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴿٥٣﴾ أي لنمحون عنهم سيئاتهم التي سلفت منهم بسبب إيمانهم وعملهم الصالح ﴿٥٤﴾ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ أي ونجزهم بأحسن أعمالهم الصالحة وهي الطاعات ﴿٥٦﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ﴿٥٧﴾ أي أمرناه أمراً مؤكداً بالإحسان إلى والديه غاية الإحسان ، لأنهما سبب وجوده ولهما عليه غاية الفضل والإحسان ، الوالد

عَلِمَ فَلَا تُطْعُهُمَا إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأَنْبِئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ
فِي الصَّالِحِينَ ﴿١١﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ
جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ ﴿١٢﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ

بالإنفاق والوالدة بالإشفاق قال الصاوي : وإنما أمر الله الأولاد ببر الوالدين دون العكس ، لأن الأولاد
جبلوا على القسوة وعدم طاعة الوالدين ، فكلفهم الله بما يخالف طبعهم ، والآباء مجبولون على الرحمة
والشفقة بالأولاد فوكلفهم لما جبلوا عليه ^(١) ﴿وإن جاهدك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾
أي وإن بذلا كل ما في وسعهما ، وحرصا كل الحرص على أن تكفر بالله وتشرك به شيئا لا يصح أن يكون
إلهاً ولا يستقيم ، فلا تطعهما في ذلك لأنه لا طاعة لمخلوق في معصية الله ﴿إلى مرجعكم فأنبئكم بما
كنتم تعملون﴾ أي إلى مرجع الخلائق جميعاً ، مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم ، فأجازي كلأ بما
عمل ، وفيه وعد حسن لمن بر والديه واتبع الهدى ، ووعد لمن عقر والديه واتبع سبيل الردى ﴿والذين
آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنهم في الصالحين﴾ أي لندخلنهم في زمرة الصالحين في الجنة قال
القرطبي : كرر تعالى التمثيل بحالة المؤمنين العاملين لتحريك النفوس الى نيل مراتبهم ، وفي
﴿الصالحين﴾ مبالغة أي الذين هم في نهاية الصلاح وأبعد غاياته ^(٢) ، ولما ذكر تعالى ما أعده للمؤمنين
الخلص ذكر حال المنافقين المذبذبين فقال ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله ، فإذا أُوذِيَ في الله جعل
فتنة الناس كعذاب الله﴾ أي ومن الناس فريق يقولون بألسنتهم آمنا بالله ، فإذا أُوذِيَ أحدهم بسبب
إيمانه ارتد عن الدين وجعل ما يصيبه من أذى الناس سبباً صارفاً له عن الإيمان كعذاب الله الشديد الذي
يصرف الإنسان عن الكفر قال المفسرون : والتشبيه ﴿كعذاب الله﴾ من حيث إن عذاب الله مانع
للمؤمنين من الكفر ، فكذلك المنافقون جعلوا أذاهم مانعاً لهم من الإيمان ، وكان مقتضى إيمانهم أن
يصبروا ويتشجعوا ، ويروا في العذاب عذوبة ، وفي المحنة منحة ، فإن العاقبة للمتقين قال الامام
الفخر : أقسام المكلفين ثلاثة : مؤمن ظاهر بحسن اعتقاده ، وكافر مجاهر بكفره وعناده ، ومذبذب بينهما
يظهر الإيمان بلسانه ويضم الكفر في فؤاده ، فلما ذكر تعالى القسمين بقوله ﴿فليعلمن الله الذين
صدقوا وليعلمن الكاذبين﴾ ذكر القسم الثالث هنا ﴿ومن الناس من يقول آمنا بالله﴾ واللطيفة في الآية
أن الله أراد بيان شرف المؤمن الصابر ، وخسة المنافق الكافر ، فقال هناك : أُوذِيَ المؤمن في سبيل الله
ليترك سبيله ولم يتركه ، وأُوذِيَ المنافق الكافر فترك الله بنفسه ، وكان يمكنه أن يظهر موافقتهم ويكون قلبه
مطمئناً بالإيمان ، ومع هذا لم يفعله بل ترك الله بالكلية ^(٣) ﴿ولئن جاء نصر من ربك ليقولنَّ إِنَّا كُنَّا
مَعَكُمْ﴾ أي ولئن جاء نصر قريب للمؤمنين ، وفتح ومغانم قال أولئك المذبذبون : إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ ننصركم
على أعدائكم ، فقاسمونا فيما حصل لكم من الغنائم قال تعالى رداً عليهم ﴿أو ليس الله بأعلم بما في

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٣١ . (٢) القرطبي ١٣/ ٣٢٩ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/ ٣٧ .

ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطِيئَتَكُمْ وَمَاهُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطِيئَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ

ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾

صدور العالمين ؟ استفهام تقرير أي أوليس الله هو العالم بما انطوت عليه الضمائر من خير وشر ، وبما في قلوب الناس من إيمان ونفاق ؟ بلى إنه بكل شيء عليم ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين﴾ أي وليظهرنَّ الله لعباده حال المؤمنين وحال المنافقين حتى يتميزوا فيفتضح المنافق ، ويظهر شرف المؤمن الصادق قال المفسرون : والمراد ﴿وليعلمنَّ الله﴾ إظهار علمه للناس حتى يصبح معلوماً لديهم ، وإلا فالله عالم بما كان ، وما يكون ، وما هو كائن لا تخفى عليه خافية ، فهو إذاً علم إظهار وإيداء ، لا علم غيب وخفاء بالنسبة لله تعالى ، وقد فسر ابن عباس العلم بمعنى الرؤية ^(١) ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم﴾ أي قال الكفار للمؤمنين اكفروا كما كفرنا ، واتبعوا ديننا ونحن نحمل عنكم الإثم والعقاب ، إن كان هناك عقاب قال ابن كثير : كما يقول القائل : افعَلْ هذا وخطيئتك في عنقي ^(٢) ، فإن قيل ﴿ولنحمل﴾ صيغة أمر ، فكيف يصح أمر النفس من الشخص ؟ فنقول : الصيغة أمر والمعنى شرط وجزاء أي إن اتبعتمونا حملنا خطاياكم ﴿وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء﴾ أي وما هم حاملين شيئاً من خطاياهم ، لأنه لا يحمل أحد وزر أحد ﴿إنهم لكاذبون﴾ أي وإنهم لكاذبون في ذلك ، ثم قال تعالى ﴿وليحملنَّ أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم﴾ أي وليحملنَّ أوزارهم وأوزار من أضلوهم دون أن ينقص من أوزار أولئك شيء كما في الحديث (ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من اتبعه من غير أن ينقص من آثامهم شيء) ^(٣) وليسألنَّ يوم القيامة﴾ أي وليسألنَّ سؤال توبيخ وتقريع ﴿عما كانوا يفترون﴾ أي عما كانوا يخلقونه من الكذب على الله عز وجل ، ثم ذكر تعالى لرسوله ﷺ قصة نوح تسلياً له عما يلقيه من أذى المشركين فقال ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ أي ولقد بعثنا نوحاً إلى قومه فمكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى توحيد الله جلَّ وعلا ، وكانوا عبدة أصنام فكذبوه ﴿فأخذهم الطوفان وهم ظالمون﴾ أي فأهلكهم الله بالطوفان وهم مصرّون على الكفر والضلال قال أبو السعود : والطوفان : كل ما يطوف بالشيء على كثرة وشدة ، من السيل والريح والظلام ، وقد غلب على طوفان الماء ^(٤) قال الرازي : وفي قوله ﴿وهم ظالمون﴾ إشارة إلى لطيفة ، وهي أن الله لا يعذب على مجرد وجود الظلم ، وإنما يعذب على الإصرار على الظلم ولهذا قال ﴿وهم ظالمون﴾ يعني أهلكهم وهم على

(١) انظر ما كتبه العلامة ابن كثير في هذا الشأن ٢٨/٣ من المختصر . (٢) ابن كثير المختصر ٣٠/٣ . (٣) الحديث في الصحيحين .

(٤) أبو السعود ١٦٦/٤ .

فَأُنْجِيْنَهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾ وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ ۖ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ

ظلمهم^(١) ﴿فَأُنْجِيْنَهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾ أي فَأُنْجِيْنَا نوحاً من الغرق ومن ركب معه في السفينة من أهله وأولاده وأتباعه المؤمنين ﴿وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ أي وجعلنا تلك الحادثة الهائلة عظة وعبرة للناس بعدهم يتعظون بها ﴿وَإِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عبده ورسوله وخليله «إبراهيم» إمام الحنفاء ، أنه دعا قومه إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، والإخلاص له في التقوى ، وطلب الرزق منه وحده ، وتوحيده في الشكر فإنه المشكور على النعم لا مُسدي لها غيره^(٢) ﴿ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي عبادة الله وتقواه خير لكم من عبادة الأوثان إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ الخير من الشر وتفرقون بينهما ﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا﴾ أي أنتم لا تعبدون شيئاً ينفع أو يضر ، وإنما تعبدون أصناماً من حجارة صنعتوها بأيديكم ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾ أي وتصنعون كذباً وباطلاً قال ابن عباس : تتحنون وتصورون إفكاً^(٣) ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ أي إِنْ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ تَعْبُدُونَهُمْ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى أَنْ يَرْزُقُوكُمْ ﴿فَابْتَغُوا عِنْدَ اللَّهِ الرِّزْقَ﴾ أي فاطلبوا الرزق من الله وحده ، فإنه القادر على ذلك ﴿وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ أي وخصوه وحده بالعبادة واخشعوا واخضعوا له ، واشكروه على نعمه التي أنعم بها عليكم ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة فيجازي كل عامل بعمله ﴿وَإِنْ تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّنْ قَبْلِكُمْ﴾ لما فرغ من بيان التوحيد أتى بعده بالتهديد أي وَإِنْ تُكَذِّبُونِي فلن تضروني بتكذيبكم وإنما تضرون بأنفسكم فقد سبق قبلكم أمم كذبوا رسلهم فحل بهم عذاب الله ، وسيحل بكم ما حل بهم^(٤) ﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ أي وليس على الرسول إلا تبليغ أوامر الله ، وليس عليه هداية الناس قال الطبري : ومعنى ﴿البلاغ المبين﴾ أي الذي يبين لمن سمعه ما يُراد به ، ويفهم منه ما يعني به^(٥) ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ الاستفهام للتوبيخ لمنكري الحشر أي أولم ير المكذبون بالدلائل الساطعة كيف خلق تعالى الخلق ابتداءً من العدم ، فيستدلون بالخلقة الأولى على الإعادة في الحشر ؟ قال قتادة : المعنى أولم يروا بالدلائل والنظر كيف يجوز أن يعيد الله الأجسام بعد الموت ؟ ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ

(١) التفسير الكبير ٤٢ / ٢٥ . (٢) مختصر ابن كثير ٣٢ / ٣ . (٣) هذا هو الظاهر أنها من الخلق وهو قول مجاهد والحسن واختاره ابن جرير ، وقيل أنه من الاختلاق أي تخلقون وتقولون الكذب . (٤) قال ابن كثير : والظاهر من السياق ان كل هذا من كلام إبراهيم الخليل عليه السلام ، يخرج به عليهم لإثبات المعاد ، لقوله بعد هذا كله ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ وذهب الإمام الطبري إلى أن هذا من كلام الله تعالى لكفار مكة ويراد به تسلية النبي ﷺ وليس من كلام إبراهيم ، وما ذهب إليه ابن كثير أظهر والله أعلم . (٥) الطبري ٨٩ / ٢٠ .

يُعِيدُهُ ۖ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَنْ يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ ۖ أُولَٰئِكَ يَكْسِبُونَ سُوءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَأَمَّا جَوَابَ قَوْمِهِ ۖ إِلَّا أَنْ قَالُوا اقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَاهُ اللَّهُ مِنَ النَّارِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٢٤﴾

يسير ﴿١٩﴾ أي سهل عليه تعالى فكيف ينكرون البعث والنشور ؟ فإن من قدر على البدء قدر على الإعادة ، قال القرطبي : ومعنى الآية على ما قاله البعض : أولم يروا كيف يبدىء الله الثمار فتحيا ثم تفسى ثم يعيدها أبداً ، وكذلك يبدأ خلق الإنسان ثم يهلكه بعد أن خلق منه ولداً ، وخلق من الولد ولداً ، وكذلك سائر الحيوان ، فإذا رأيت قدرته على الإيداء والإيجاد ، فهو القادر على الإعادة لأنه إذا أراد أمراً قال له كن فيكون ﴿٢٠﴾ قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ﴿٢١﴾ أي قل لهؤلاء المنكرين للبعث سيروا في أرجاء الأرض فانظروا كيف أن الله العظيم القدير خلق الخلق على كثرتهم وتفاوت هيئاتهم ، واختلاف ألستهم وألوانهم وطبائعهم ، وانظروا إلى مساكن القرون الماضية وديارهم وأثارهم كيف أهلكهم الله ، لتعلموا بذلك كمال قدرة الله عز وجل ! ﴿٢٢﴾ ثم الله ينشئ النشأة الآخرة ﴿٢٣﴾ أي ثم هو تعالى ينشئهم عند البعث نشأة أخرى ﴿٢٤﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿٢٥﴾ أي لا يعجزه تعالى شيء ومنه البدء والإعادة ﴿٢٦﴾ يعذب من يشاء ويرحم من يشاء ﴿٢٧﴾ أي هو الحاكم المتصرف الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد ، فله الخلق والأمر ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ﴿٢٨﴾ وإليه تؤولون ﴿٢٩﴾ أي وإليه ترجعون يوم القيامة ﴿٣٠﴾ وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء ﴿٣١﴾ أي لا تفوتون من عذاب الله ، وليس لكم مهرب في الأرض ولا في السماء قال القرطبي : والمعنى لو كنتم في السماء ما أعجزتم الله كقوله ﴿ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ ﴿٣٢﴾ ﴿وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾ أي ليس لكم غير الله ولي يحميكم من بلائه ، ولا نصير ينصركم من عذابه ﴿والذين كفروا بآياتِ الله ولقائه﴾ أي كفروا بالقرآن والبعث ﴿أولئك يثسوا من رحمتي﴾ أي أولئك المنكرون الجاحدون قنطوا من رحمتي قال ابن جرير : وذلك في الآخرة عند رؤية العذاب ﴿٣٣﴾ ﴿وأولئك لهم عذاب أليم﴾ أي لهم عذاب موجه مؤلم ﴿فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرقوه﴾ أي فما كان رد قومه عليه حين دعاهم إلى الله ونهاهم عن الأصنام إلا أن قال كبارؤهم المجرمون : اقتلوه لتستريحوا منه أو حرقوه بالنار ﴿فأنجاه الله من النار﴾ أي فألقوه في النار فجعلها برداً وسلاماً عليه ﴿إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون﴾ أي إن في إنجائنا لإبراهيم من النار لدلائل وبراهين ساطعة على قدرة الله لقوم يصدقون بوجود الله وكمال قدرته وجلاله

وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِّن دُونِ اللَّهِ أَوثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ
وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٥٥﴾ * فَأَمَّن لَّهُ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ
إِلَىٰ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٥٦﴾ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ
أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿٥٧﴾

﴿وقال إنما اتخذتم من دون الله أوثاناً﴾ أي قال إبراهيم لقومه توبيخاً لهم وتقريعاً : إنما عبدتم هذه الأوثان والاصنام وجعلتموها آلهة مع الله ﴿مودة بينكم في الحياة الدنيا﴾ أي من أجل أن تدوم المحبة والألفة بينكم في هذه الحياة باجتماعكم على عبادتها ﴿ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضاً﴾ أي ثم في الآخرة ينقلب الحال فتصبح هذه الصداقة والمودة عداوة وبغضاء حيث يقع التناكر ويتبرأ القادة من الأتباع ويلعن الأتباع القادة ، لأن صداقتهم في الدنيا لم تكن من أجل الله ﴿ومأواكم النار ومالكم من ناصرين﴾ أي ومصيركم جميعاً جهنم وليس لكم ناصر أو معين يخلصكم منها ﴿فأمن له لوط﴾ أي فأمن معه لوط وصدقه وهو ابن أخيه وأول من آمن به لما رأى من الآيات الباهرة ﴿وقال إني مهاجر إلى ربي﴾ أي وقال الخليل إبراهيم ، إني تارك وطني ومهاجر من بلدي رغبة في رضى الله قال المفسرون : هاجر من سواد العراق الى فلسطين والشام ابتغاء إظهار الدين والتمكن من نشره ﴿إنه هو العزيز الحكيم﴾ أي هو العزيز الذي لا يذل من اعتمد عليه ، الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها ﴿ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ أي وهبنا لإبراهيم - لما فارق قومه في الله - ولداً صالحاً هو إسحق وولد ولد وهو يعقوب بن اسحاق ﴿وجعلنا في ذريته النبوة والكتاب﴾ أي خصصناه بهذا الفضل العظيم حيث جعلنا كل الأنبياء بعد إبراهيم من ذريته ، وجعلنا الكتب السماوية نازلة على الأنبياء من بنيه قال ابن كثير : وهذه خصلة سنية عظيمة مع اتخاذ الله إياه خليلاً ، وجعله إماماً للناس ، أن جعل الله في ذريته النبوة والكتاب ، فلم يوجد نبي بعد إبراهيم إلا وهو من سلالة ، فجميع أنبياء بني إسرائيل من سلالة ولده «يعقوب» ولم يوجد نبي من سلالة «إسماعيل» سوى النبي العربي عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿وآتيناها أجره في الدنيا﴾ أي وتركنا له الشئ الحسن في جميع الأديان ﴿وإنه في الآخرة لمن الصالحين﴾ أي وهو في الآخرة في عداد الكاملين في الصلاح ، وهذا ثناء عظيم على أب الأنبياء إبراهيم عليه السلام .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ والإنكار ﴿أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمناً﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿صدقوا﴾ والكاذبين ﴿وبين﴾ آمنوا . . والمنافقين ﴿وبين﴾ يعذب . . ويرحم ﴿وبين﴾ يبدىء ويعيد . .

٣ - التأكيد بأنَّ واللام ﴿فإنَّ أجل الله لآتٍ﴾ لأنَّ المخاطب منكر .

٤ - صيغة المبالغة ﴿السميع العليم﴾ .

٥ - الجناس غير التام ﴿يسير . . وسيروا﴾ .

٦ - التشبيه المرسل المجمل ﴿فتنة الناس كعذاب الله﴾ حذف منه وجه الشبه فهو مجمل .

٧ - التفنن في التعبير ﴿ألف سنة إلا خمسين عاماً﴾ لم يقل إلا خمسين سنة تفناً لأن التكرار في الكلام الواحد مخالف للبلاغة إلا إذا كان لغرضٍ من تفخيم أو تهويل مثل ﴿القارعة ما القارعة﴾ .

٨ - أسلوب الإطناب ﴿إنما تعبدون من دون الله آوثاناً . . إن الذين تعبدون من دون الله﴾ لغرض التشنيع عليهم في عبادة الاوثان .

٩ - أسلوب الإيجاز ﴿اقتلوه أو حرقوه﴾ أي حرقوه في النار ثم قال ﴿فأنجاه الله﴾ أي ففعلوا فأنجاه الله من النار .

١٠ - الاستعارة اللطيفة ﴿وليحملن أثقالهم﴾ شبه الذنوب بالأثقال لأنها تثقل كاهل الانسان .

قال الله تعالى : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة . . إلى . . والله يعلم ما تصنعون﴾ من آية (٢٨) إلى نهاية آية (٤٥) .

المناسبة : لما ذكر تعالى قصة نوح وإبراهيم ، وما فيهما من مواطن العظة والعبرة ، ذكر هنا قصص الأنبياء « لوط ، شعيب ، هود ، صالح » على سبيل الاختصار لبيان عاقبة الله في المكذبين . . وكل ذلك لتأكيد ما ورد في صدر السورة الكريمة من أن الابتلاء سنة الحياة ، وأنه من السنن الكونية على مر العصور والدهور .

اللفظ : ﴿الفاحشة﴾ الفعل المتناهية في القبح قال أهل اللغة : الفاحشة : القبيح الظاهر قبحه ، وكل فعل زاد في القبح والشناعة فهو فاحشة ﴿ناديكم﴾ النادي : المجلس الذي يجتمع فيه القوم للسمر أو المشورة أو غيرها ﴿تعثوا﴾ العثو والعثي أشد الفساد يقال : عثي يعثي ، وعثا يعثو بمعنى واحد^(١) ﴿رجزاً﴾ عذاباً ﴿جائمين﴾ جثم : إذا قعد على ركبتيه ﴿سابقين﴾ فائتين من عذابنا ﴿أو هن﴾ أضعف ، والوهن : الضعف .

وَلَوْطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنِّي أَنْتُمْ لَفَاحِشَةٌ مَّا سَبَقْتُكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ

النفسير : ﴿ولوطاً إذ قال لقومه﴾ أي واذكر رسولنا لوطاً عليه السلام حين قال لقومه ﴿إنكم لتأتون الفاحشة﴾ أي إنكم يا معشر القوم لترتكبون الفعل المتناهية في القبح ﴿ما سبقكم بها من أحد من العالمين﴾ أي لم يسبقكم بهذه الشنيعة ، والفعله القبيحة - وهي اللواط - أحد من الخلق ، ثم فسر تلك الشنيعة فقال ﴿إنكم لتأتون الرجال﴾ أي إنكم لتأتون الذكور في الأدبار وذلك منتهى القذارة والخسة قال المفسرون : لم يقدم أحد قبلهم عليها اشمئزازاً منها في طباعهم لا إفراط قبحها حتى أقدم عليها

وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيَكُمُ الْمُنْكَرَ مَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا أَتَيْنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قَالَ رَبِّ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا إِنَّا مُهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴿٤١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَنْ فِيهَا

قوم لوط ، ولم ينز ذكرٌ على ذكر قبل قوم لوط ﴿١﴾ ﴿وتقطعون السبيل﴾ أي وتقطعون الطريق على المارة بالقتل وأخذ المال ، وكانوا قطاع الطريق قال ابن كثير : كانوا يقفون في طريق الناس يقتلونهم ويأخذون أموالهم ﴿٢﴾ ﴿وتأتون في ناديكم المنكر﴾ أي وتفعلون في مجلسكم ومتداكم ما لا يليق من أنواع المنكرات علناً وجهاراً ، أما كفاحكم قبحُ فعلكم حتى ضمتهم إليه قبح الإظهار ! ؟ قال مجاهد : كانوا يأتون الذكور أمام الملاء يرى بعضهم بعضاً ، وقال ابن عباس : كانوا يحذفون بالحصى من مر بهم مع الفحش في المزاح ، وحل الإزار ، والصغير وغير ذلك من القبائح ﴿فما كان جواب قومه﴾ أي فما كان ردُّ قومه عليه حين نصحهم وذكرهم وحذَّروهم ﴿إلا أن قالوا اتنا بعذاب الله﴾ أي إلا أن قالوا على سبيل الاستهزاء : اتنا يا لوط بالعذاب الذي تعدنا به ﴿إن كنت من الصادقين﴾ أي إن كنت صادقاً فيما تهددنا به من نزول العذاب قال الإمام الفخر : فإن قيل إن الله تعالى قال ههنا ﴿إلا أن قالوا اتنا﴾ وقال في موضع آخر ﴿إلا أن قالوا أخرجوا آل لوط من قريبتكم﴾ فكيف وجه الجمع بينهما ؟ فنقول : إن لوطاً كان ثابتاً على الإرشاد ، مكرراً عليهم النهي والوعيد ، فقالوا أولاً : اتنا بعذاب الله ، ثم لما كثر منه ذلك ولم يسكت عنهم قالوا أخرجوا آل لوط ﴿٣﴾ ، ثم إن لوطاً لما يش منهم طلب النصرة من الله ﴿قال رب انصُرني على القوم المفسدين﴾ أي قال لوط رب أهلكهم وانصُرني عليهم فإنهم سفهاء مفسدون لا يرجي منهم صلاح وقد أغرقوا في الغي والفساد قال الرازي : واعلم أن نبياً من الأنبياء ما طلب هلاك قوم إلا إذا علم أن عدمهم خير من وجودهم كما قال نوح ﴿إنك إن تذرهم يضلوا عبادك﴾ فكَذلك لوط لما رأى أنهم يفسدون في الحال ، ولا يرجي منهم صلاح في المال طلب لهم العذاب ﴿٤﴾ ﴿ولما جاءت رُسُلنا إبراهيم بالبُشرى﴾ المراد بالرسَل هنا « الملائكة » والبُشرى هي تبشير إبراهيم بالولد ، أي لما جاءت الملائكة تبشُر إبراهيم بغلام حليم ﴿قالوا إِنَّا مهْلِكُوا أَهْلَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ﴾ أي جئنا لنهلك قرية قوم لوط ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ أي لأنَّ أهلها معنُون في الظلم والفساد ، طبيعتهم البغي والعناد قال المفسرون : لما دعا لوط على قومه ، استجاب الله دعاءه ، وأرسل ملائكته لإهلاكهم ، فمروا بطريقهم على إبراهيم أولاً فبشروه بغلامٍ وذريةٍ صالحة ، ثم أخبروه بما أرسلوا من أجله ، فجادلهم بشأن ابن أخيه لوط ﴿قال إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ أي كيف تهلكون أهل القرية وفيهم هذا النبي الصالح « لوط » ؟ ﴿قالوا نحن أعلمُ بمن فيها﴾ أي نحن أعلم به وبمن فيها من المؤمنين قال الصاوي : وهذا بعد المجادلة التي تقدمت في سورة هود ﴿يجادلنا في قوم لوط﴾ حيث قال لهم : أتهلكون قريةً فيها ثلاثمائة مؤمن ؟ قالوا لا ، إلى أن

لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا أَمْرًا تُرَاوِدُكَ إِلَهُ الْغَابِرِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنْجُونَكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا أَمْرًا تَكُ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٣٧﴾ إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٩﴾ وَإِلَى مَدِينِ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَتَقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْنُوا فِي الْأَرْضِ مَفْسِدِينَ ﴿٤٠﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جِثِيمِينَ ﴿٤١﴾ وَعَادًا وَثَمُودًا وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ مِنْ مَسْكَنِهِمْ وَزِينَتِهِمْ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِ

قال : أفرايتم إن كان فيها مؤمن واحد ؟ قالوا لا فقال لهم ﴿إن فيها لوطاً﴾ فأجابوه بقولهم ﴿نحن أعلم بمن فيها﴾^(١) ثم بشروه بإنجاء لوط والمؤمنين ﴿لننجيَنَّهُ وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين﴾ أي سوف ننجيه مع أهله من العذاب ، إلا امرأته فستكون من الهالكين لأنها كانت تماثلهم على الكفر ، ثم ساروا من عنده فدخلوا على « لوط » في صورة شبان حسان ﴿ولمّا أن جاءت رسلنا لوطاً سيء بهم وضاق بهم ذرعاً﴾ أي ولما دخلوا على لوط حزن بسببهم ، وضاق صدره من مجيئهم لأنهم حسان الوجوه في صورة أضياف ، فخاف عليهم من قومه ، فأعلموه أنهم رسل ربه ﴿وقالوا لا تخف ولا تحزن﴾ أي لا تخف علينا ولا تحزن بسببنا ، فلن يصل هؤلاء المجرمون إلينا ﴿إننا منجوك وأهلك إلا امرأتك كانت من الغابرين﴾ أي كانت من الهالكين الباقين في العذاب ﴿إننا منزلون على أهل هذه القرية رجلاً من السماء بما كانوا يفسقون﴾ أي منزلون عليهم عذاباً من السماء بسبب فسقهم المستمر قال ابن كثير : وذلك أن جبريل عليه السلام اقتلع قراهم من قرار الأرض ، ثم رفعها إلى عنان السماء ثم قلبها عليهم ، وأرسل عليهم حجارة من سجيل منضود ، وجعل الله مكانها بحيرةً خبيثةً منتنة ، وجعلهم عبرةً إلى يوم التناد ، وهم من أشد الناس عذاباً يوم المعاد^(٢) ﴿ولقد تركنا منها آيةً بينة﴾ أي ولقد تركنا من هذه القرية علامةً بينةً واضحةً ، هي آثار منازلهم الخربة ﴿لقوم يعقلون﴾ أي لقوم يتفكرون ويتدبرون ويستعملون عقولهم في الاستبصار والاعتبار ، ثم أخبر تعالى عن قصة شعيب فقال ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾ أي وأرسلنا إلى قوم مدين أخاهم شعيباً ﴿فقال يا قوم اعبدوا الله وارجوا اليوم الآخر﴾ أي فقال لقومه ناصحاً ومذكراً : يا قوم وحدوا الله وخافوا عقابه الشديد في اليوم الآخر ﴿ولا تعشوا في الأرض مفسدين﴾ أي لا تسعوا بالافساد في الأرض بأنواع البغي والعدوان ﴿فكذبوه فأخذتهم الرجفة﴾ أي فكذبوا رسولهم شعيباً فأهلكهم الله برجفة عظيمة مدمرة زلزلت عليهم بلادهم ، وصيحة هائلة أخرجت القلوب من حناجرها ﴿فأصبحوا في دارهم جاثمين﴾ أي فأصبحوا هلكى باركين على الركب ميتين ﴿وعاداً وثموداً وقد تبين لكم من مساكنهم﴾ أي وأهلكنا عاداً وثمود ، وقد ظهر لكم يا أهل مكة من منازلهم بالحجاز واليمن آيتنا في هلاكهم أفلا تعتبرون ؟ ﴿وزين لهم الشيطان أعمالهم﴾

أَعْمَلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقُرُونِ وَفِرْعُونَ وَهَلَمَّنْ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ وَمَا كَانُوا سَابِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذُنُوبِهِ فَمِنْهُمْ مَن أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَن أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَن خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَن أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ

أي وحسن لهم الشيطان أعمالهم القبيحة من الكفر والمعاصي حتى رأوها حسنة ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ أي فمنعهم عن طريق الحق ، وكانوا عقلاء متمكنين من النظر والاستدلال ، لكنهم لم يفعلوا تكبراً وعناداً ﴿وقارون وفرعون وهامان﴾ أي وأهلكنا كذلك الجبابرة الظالمين ، ﴿قارون﴾ صاحب الكنوز الكثيرة ﴿وفرعون﴾ صاحب الملك والسلطان ، ووزيره ﴿هامان﴾ الذي كان يُعينه على الظلم والطغيان ﴿ولقد جاءهم موسى بالبينات﴾ أي ولقد جاءهم موسى بالحجج الباهرة ، والآيات الظاهرة ﴿فاستكبروا في الأرض﴾ أي فاستكبروا عن عبادة الله وطاعة رسوله ﴿وما كانوا سابقين﴾ أي وما كانوا ليفلتوا من عذابنا قال الطبري : أي ما كانوا ليفوتونا بل كنا مقتدرين عليهم ^(١) ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ أي فكلاً من هؤلاء المجرمين أهلكناه بسبب ذنبه وعاقبناه بجنايته قال ابن كثير : أي وكانت عقوبته بما يناسبه ^(٢) ﴿فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً﴾ أي ريحاً عاصفة مدمرة فيها حصباء «حجارة» كقوم لوط ﴿ومنهم من أخذته الصيحة﴾ أي ومنهم من أخذته صيحة العذاب مع الرجفة كشمود ﴿ومنهم من خسفنا به الأرض﴾ أي خسفنا به وبأملأه الأرض حتى غاب فيها كقارون وأصحابه ﴿ومنهم من أغرقنا﴾ أي أهلكناه بالغرق كقوم نوح وفرعون وجنده ﴿وما كان الله ليظلمهم﴾ أي وما كان الله ليعذبهم من غير ذنب فيكون لهم ظالماً ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلّموا أنفسهم فاستحقوا العذاب والدمار ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمشركين في اتخاذهم آلهة من دون الله فقال ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ أي مثل الذين اتخذوا من دون الله أصناماً يعبدونها في اعتمادهم عليها ورجائهم نفعها كمثل العنكبوت في اتخاذها بيتاً لا يغني عنها في حر ولا برد ، ولا مطر ولا أذى قال القرطبي : هذا مثل ضربه الله سبحانه لمن اتخذ من دونه آلهة لا تنفعه ولا تضره ، كما أن بيت العنكبوت لا يقيها حراً ولا برداً ^(٣) ﴿وإن أوهن البيوت لبیت العنكبوت لو كانوا يعلمون﴾ أي وإن أضعف البيوت لبیت العنكبوت لتفاهته وحقارته ، لو كانوا يعلمون أن هذا مثلهم ما عبدوها ﴿إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء﴾ أي هو تعالى عالم بما عبدوه من دونه لا يخفى عليه ذلك ، وسيجازيهم على كفرهم ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي وهو جل وعلا العزيز في ملكه ، الحكيم في

الْأَمْثَلُ نُضْرِبَهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٥﴾ أَتُلُّ مَا أَوْحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٦﴾

صنعه ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس﴾ أي وتلك الأمثال نبينها للناس في القرآن لتقريبها الى أذهانهم ﴿وما يعقلها إلا العالمون﴾ أي وما يدركها ويفهمها إلا العالمون الراسخون ، الذين يعقلون عن الله عز وجل مراده ﴿خلق الله السموات والأرض بالحق﴾ أي خلقهما بالحق الثابت لا على وجه العبث واللعب ﴿إن في ذلك لآية للمؤمنين﴾ أي إن في خلقهما بذلك الشكل البديع ، والصنع المحكم لعلامة ودلالة للمصدقين بوجود الله ووحدانيته ﴿أتل ما أوحى إليك من الكتاب﴾ أي اقرأ يا محمد هذا القرآن المجيد الذي أوحاه إليك ربك ، وتقرّب إليه بتلاوته وترداده ، لأن فيه محاسن الآداب ومكارم الأخلاق ﴿واقم الصلاة﴾ أي دم على إقامتها بآركانها وشروطها وآدابها فإنها عماد الدين ﴿إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر﴾ أي إن الصلاة الجامعة لشروطها وآدابها ، المستوفية لخشوعها وأحكامها ، إذا أداها المصلي كما ينبغي ، وكان خاشعاً في صلاته ، متذكراً لعظمة ربه ، متدبراً لما يتلو ، نهته عن الفواحش والمنكرات ﴿ولذكر الله أكبر﴾ أي ولذكر الله أكبر من كل شيء في الدنيا ، وهو أن تتذكر عظمته وجلاله ، وتذكره في صلاتك وفي بيعك وشرائك ، وفي أمور حياتك ولا تغفل عنه في جميع شؤونك ﴿والله يعلم ما تصنعون﴾ أي يعلم جميع أعمالكم وأفعالكم فيجازيكم عليها أحسن المجازاة ، قال أبو العالية : إن الصلاة فيها ثلاث خصال : الإخلاص ، والخشية ، وذكر الله ؛ فالإخلاص يأمره بالمعروف ، والخشية تنهاه عن المنكر ، وذكر الله - القرآن - يأمره وينهاه فكل صلاة لا يكون فيها شيء من هذه الخلال فليست بصلاة^(١) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التأكيد بعدة مؤكدات والاطناب بتكرار الفعل تهجيناً لعملهم القبيح وتوبيخاً ﴿إنكم لتأتون الفاحشة . . أأنتم لتأتون الرجال﴾ الآية .
- ٢ - الاستهزاء والسخرية ﴿أئتنا بعذاب الله إن كنت من الصادقين﴾ وجواب الشرط محذوف دل عليه السابق أي إن كنت صادقاً فائتنا به .
- ٣ - التنكير لإفادة التهويل ﴿رجزاً من السماء﴾ أي رجزاً عظيماً هائلاً .
- ٤ - تقديم المفعول للعناية والاهتمام ، والإجمال ثم التفصيل ﴿فكلاً أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة﴾ الخ .

٥ - التشبيه التمثيلي ﴿مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً﴾ شبه الله الكافرين في عبادتهم للأصنام بالعنكبوت في بنائها بيتاً ضعيفاً واهياً يتهاوى من هبة نسيم أو من نفخة فم ، وسمي تمثيلاً لأن وجه الشبه صورة متزعة من متعدد .

٦ - توافق الفواصل في الحرف الاخير وما فيه من جرس عذب بديع مثل ﴿انصرني على القوم المفسدين . . إن أهلها كانوا ظالمين﴾ ومثل ﴿وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت﴾ ومثل ﴿بما كانوا يفسقون . . وآية بينة لقوم يعقلون﴾ الخ وهو من خصائص القرآن .

تنبيه : أفادت الآية أن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، وقد ثبت أن رسول الله ﷺ لما قيل له : إن فلاناً يصلي الليل فإذا أصبح سرق فقال : (ستمعه صلاته) رواه البزار ، يريد عليه السلام أن الصلاة إذا كانت على الوجه الأكمل ، تنهى صاحبها عن الفحشاء ، ولا تزيده بعداً بل تزيده قرباً .

قال الله تعالى : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن . . . إلى . . . وإن الله لمع المحسنين﴾ .

المناسكة : لما بين تعالى ضلال من اتخذ أولياء من دون الله ، وضرب المثل ببيت العنكبوت ، أمر هنا بالتلطف في دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان ، ثم ذكر البراهين القاطعة على صدق محمد ﷺ وصحة القرآن ، وختم السورة الكريمة ببيان المانع من التوحيد وهو اغترار الناس بالحياة الدنيا الفانية ، وبين أن المشركين يوحدون الله وقت الشدة ، وينسون وقت الرخاء .

اللفظ : ﴿بغتة﴾ فجأة يقال : بَغَتَهُ إذا دهمه على حين غفلة ﴿يغشاهم﴾ يجللهم ويغطيهم من فوقهم ، والغشاء : الغطاء ﴿لنبوثنهم﴾ بؤاه : أنزله في المكان على وجه الإقامة ﴿غرفاً﴾ منازل رفيعة عالية في الجنة ﴿يؤفكون﴾ يُصرفون عن الحق إلى الباطل ﴿يبسط﴾ يوسع ﴿يقدر﴾ يضيق ﴿مشوى﴾ المكان الذي يقيم فيه الإنسان .

سبب النزول : عن ابن عباس أن النبي ﷺ أمر المؤمنين بالهجرة حين آذاهم المشركون فقال لهم : اخرجوا إلى المدينة وهاجروا ، ولا تجاوروا الظلمة ، قالوا : ليس لنا بها دار ولا عقار ، ولا من يطعمنا ولا من يسقينا فنزلت ﴿وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم . . .﴾ (١) الآية .

* وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأَنْزَلَ

التفسير : ﴿ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن﴾ أي لا تدعو أهل الكتاب إلى الإسلام وتناقشهم في أمر الدين إلا بالطريقة الحسنى كالدعاء إلى الله بآياته ، والتنبيه على حججه وبياناته ﴿إلا الذين ظلموا منهم﴾ أي إلا من كان ظالماً ، محارباً لكم ، مجاهداً في عداوتكم ، فجادلوهم بالغلظة

إِلَيْكُمْ وَإِلَيْنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ فَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ
الْكِتَابَ يُؤْمِنُونَ بِهِ ۖ وَمِنْ هَؤُلَاءِ مَنْ يُؤْمِنُ بِهِ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا كُنْتَ تَتْلُوا مِنْ
قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذْ أَلَّا رَتَابَ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا

والشدة قال الإمام الفخر : إن المشرك لما جاء بالمنكر الفظيع كان اللائق أن يجادل بالأحسن ، ويبالغ في
توهين شبهه وتهجين مذهبه ، وأما أهل الكتاب فإنهم آمنوا بإنزال الكتب وإرسال الرسل إلا الاعتراف
بالنبي عليه السلام ، فلمقابلة إحسانهم يجادلون بالأحسن إلا الذين ظلموا منهم بإثبات الولد لله ،
والقول بثالث ثلاثة فإنهم يجادلون بالأحسن من تهجين مقالتهم ، وتبيين جهالتهم ^(١) ﴿وقولوا آمنا بالذي
أنزل إلينا وأنزل إليكم﴾ أي وقولوا لهم : آمنا بالقرآن الذي أنزل إلينا وبالتوراة والإنجيل التي أنزلت
إليكم ، قال أبو هريرة : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ،
فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل
إليكم ^(٢) ﴿وإلهنا وإلهكم واحدٌ ونحن له مسلمون﴾ أي ربنا وربكم واحد لا شريك له في الألوهية ،
ونحن له مطيعون ، مستسلمون لحكمه وأمره ﴿وكذلك أنزلنا إليك الكتاب﴾ أي وكما أنزلنا الكتاب على من
قبلك يا محمد أنزلناه عليك ﴿فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به﴾ أي فالذين أعطيناهم الكتاب كعبد الله
ابن سلام وأمثاله ممن أسلم من اليهود والنصارى يؤمنون بالقرآن ﴿ومن هؤلاء من يؤمن به﴾ أي ومن أهل
مكة من يؤمن بالقرآن كذلك ﴿وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون﴾ أي وما يكذب بآياتنا وينكرها مع ظهورها
وقيام الحجة عليها إلا المتوغلون في الكفر ، المصرّون على العناد قال قتادة : وإنما يكون الجحود بعد
المعرفة ^(٣) ﴿وما كنت تتلوا من قبله من كتابٍ ولا تخطه بيمينك﴾ أي وما كنت يا محمد تعرف القراءة ولا
الكتابة قبل نزول هذا القرآن لأنك أمي قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ أمياً لا يقرأ شيئاً ولا يكتب ^(٤)
﴿إذا لارتاب المبطلون﴾ أي لو كنت تقرأ أو تكتب إذا لشك الكفار في القرآن وقالوا ؛ لعله التقطه من كتب
الأوائل ونسبه إلى الله ، والآية احتجاج على أن القرآن من عند الله ، لأن النبي أمي وجاءهم بهذا الكتاب
المعجز ، المتضمن لأخبار الأمم السابقة ، والأمور الغيبية ، وذلك أكبر برهان على صدقه ﷺ قال ابن
كثير : المعنى قد لبثت في قومك يا محمد - من قبل أن تأتي بهذا القرآن - عمراً لا تقرأ كتاباً ، ولا تحسن
الكتابة ، بل كل أحد من قومك يعرف أنك أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وهكذا كان رسول الله ﷺ دائماً إلى
يوم الدين لا يحسن الكتابة ، ولا يخط حرفاً ولا سطرأ بيده ، بل كان له كتاب يكتبون له الوحي ^(٥) ﴿بل هو
آياتٌ بيناتٌ في صدور الذين أُوتوا العلم﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما حسب الظالمون والمبطلون بل
هو آياتٌ واضحاتٌ الإعجاز ، ساطعات الدلالة على أنها من عند الله ، محفوظة في صدور العلماء ، قال

(١) التفسير الكبير ٧٥/٢٥ . (٢) أخرجه البخاري كذا في القرطبي ٣٥١/١٣ . (٣) الطبري ٤/٢١ . (٤) نفس المرجع السابق

والصفحة . (٥) مختصر ابن كثير ٤٠/٣ .

أَلَعَلَّكُمْ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً

المفسرون : من خصائص القرآن العظيم أن الله حفظه من التبديل والتغيير بطريقتين : الأولى : الحفظ في السطور ، والثاني : الحفظ في الصدور ، بخلاف غيره من الكتب فإنها مسطرة لديهم غير محفوظة في صدورهم ولهذا دخلها التحريف ، وقد جاء في صفة هذه الأمة « أنا جيلهم في صدورهم » وقال الحسن : أعطيت هذه الأمة الحفظ ، وكان من قبلها لا يقرءون كتابهم إلا نظراً ، فإذا أطبقوه لم يحفظ ما فيه إلا النبيون ^(١) ﴿وما يجحدُ بآياتنا إلا الظالمون﴾ أي وما يكذب بها إلا المتجاوزون الحد في الكفر والعناد ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ أي وقال كفار مكة : هلاً أنزل على محمد آيات خارقة من ربه تدل على صدقه مثل ناقة صالح ، وعصا موسى ، ومائدة عيسى !! ﴿قل إنما الآيات عند الله﴾ أي قل لهم يا محمد : إنما أمر هذه الخوارق والمعجزات لله وليست بيدي ، إن شاء أرسلها ، وإن شاء منعها ،. وليس لأحد دخل فيها ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي وإنما أنا منذر أخوفكم عذاب الله ، وليس من شأني أن آتي بالآيات ﴿أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾ ؟ الاستفهام للتوبيخ أي أولم يكف المشركين من الآيات هذا الكتاب المعجز الذي لا يزال يقرع أسماعهم ؟ وكيف يطلبون آية والقرآن أعظم الآيات وأوضحها دلالة على صحة نبوتك ؟ قال ابن كثير : بين تعالى كثرة جهلهم ، وسخافة عقلهم ، حيث طلبوا آيات تدل على صدق محمد ﷺ ، وقد جاءهم بالكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، الذي هو أعظم من كل معجزة ، إذ عجزت الفصحاء والبلغاء عن معارضته ، بل عن معارضة سورة منه ، أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب ، وجنتهم بأخبار ما في الصحف الأولى ^(٢) ؟ ولهذا قال بعده ﴿إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون﴾ أي إن في إنزال هذا القرآن لنعمة عظيمة على العباد بإنقاذهم من الضلالة ، وتذكرة بليغة لقوم غرضهم الإيمان لا التعنت ﴿قل كفى بالله بيني وبينكم شهيداً﴾ أي قل لهم : كفى أن يكون الله جلّ وعلا شاهداً على صدقي ، يشهد لي أنني رسوله ﴿يعلم ما في السموات والأرض﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أمر العباد ، فلو كنت كاذباً عليه لانتقم مني ﴿والذين آمنوا بالباطل وكفروا بالله أولئك هم الخاسرون﴾ أي والذين آمنوا بالأوثان وكفروا بالرحمن ، أولئك هم الكاملون في الخسران حيث اشتروا الكفر بالإيمان ﴿ويستعجلونك بالعذاب﴾ أي يستعجلك يا محمد المشركون بالعذاب يقولون ﴿أمطر علينا حجارة من السماء﴾ وهو

وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَاهُمْ الْعَذَابُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾ يَعْبَادِي الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِنِّي فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ مِنَ الْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا نِعَمَ أَجْرَ الْعَامِلِينَ ﴿٥٨﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾

استعجال على جهة التكذيب والاستهزاء ﴿ولولا أجلٌ مسمى لجاءهم العذاب﴾ أي لولا أن الله قدر لعذابهم وهلاكهم وقتاً محدوداً لجاءهم العذاب حين طلبوه ﴿وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون﴾ أي وليأتينهم فجأة وهم ساهون لاهون لا يشعرون بوقت مجيئه ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين﴾ تعجب من قلة فطنتهم ومن تعنتهم وعنادهم والمعنى : كيف يستعجلون العذاب والحال أن جهنم محيطة بهم يوم القيامة كإحاطة السوار بالمعصم ، لا مفر لهم منها ؟ ثم ذكر كيفية إحاطة جهنم بهم فقال ﴿يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم﴾ أي يوم يجللهم العذاب ويحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم ، ومن جميع جهاتهم ﴿ويقول ذوقوا ما كنتم تعملون﴾ أي ويقول الله عز وجل لهم : ذوقوا جزاء ما كنتم تعملونه في الدنيا من الاستهزاء والإجرام ، وسيء الأعمال ، ثم لما بين تعالى حال المكذبين الجاحدين ، أعقبه بذكر حال الأبرار المتقين فقال ﴿يا عبادي الذين آمنوا إن أَرْضِي وَاسِعَةٌ﴾ خطابٌ تشریف للتحريض على الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام أي يا من شرفكم الله بالعبودية له هاجروا من مكة إن كنتم في ضيق من إظهار الإيمان فيها ، ولا تجاوروا الظلمة فأرض الله واسعة قال مقاتل : نزلت في ضعفاء مسلمي مكة ^(١) ﴿فإياي فاعبدون﴾ أي فخصوني بالعبادة ولا تعبداً أحداً سواي ﴿كل نفس ذائقة الموت﴾ ثم إلينا ترجعون ﴿أي أينما كنتم يدرككم الموت ، فكونوا دائماً وأبداً في طاعة الله ، وحيث أمرتم فهاجروا فإن الموت لا بد منه ولا محيد عنه ، ثم إلى الله المرجع والمآب﴾ والذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴿أي جمعوا بين إخلاص العقيدة وإخلاص العمل﴾ لنبوتنهم من الجنة غُرَفًا أي لننزلنهم أعالي الجنة ولنسكنهم منازل رفيعة فيها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي تجري من تحت أشجارها وقصورها أنهار الجنة ﴿خالدين فيها﴾ أي ماكثين فيها إلى غير نهاية لا يخرجون منها أبداً ﴿نعم أجر العاملين﴾ أي نعمت تلك المساكن العالية في جنات النعيم أجراً للعاملين ﴿الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون﴾ هذا بيان للعاملين أي هم الذين صبروا على تحمل المشاق من الهجرة والأذى في سبيل الله ، وعلى ربهم يعتمدون في جميع أمورهم قال في البحر : وهذان جماع الخير كله : الصبر ، وتفويض الأمر إليه تعالى ^(٢) ﴿وكأين من دابةٍ لا تحمل رزقها﴾ أي كم من دابة ضعيفة لا تقدر على كسب رزقها ولكن الله يرزقها مع ضعفها ﴿الله يرزقها

وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَنَحَرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولَنَّ اللَّهُ فَإِنِّي يُؤْفَكُونَ ﴿٦٦﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٧﴾ وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولَنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٨﴾ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَا اللَّهُ مُخْلِصِينَ لَهُ

وإياكم ﴿٦٦﴾ أي الله تعالى يرزقها كما يرزقكم ، وقد تكفل برزق جميع الخلق ، فلا تخافوا الفقر إن هاجرتم ، فالرازق هو الله قال في التسهيل : والقصد بالآية التقوية لقلوب المؤمنين إذا خافوا الفقر والجوع في الهجرة من أوطانهم ، فكما يرزق الله الحيوانات الضعيفة كذلك يرزقكم إذا هاجرتم من بلدكم ^(١) ﴿٦٧﴾ وهو السميع العليم ﴿٦٨﴾ أي هو السميع لأقوالكم ، العليم بأحوالكم ، ثم عاد الحديث إلى توبيخ المشركين في عبادة غير الله فقال ﴿٦٩﴾ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ الله ﴿٧٠﴾ أي ولئن سألت المشركين من خلق العالم العلوي والسفلي وما فيهما من العجائب والغرائب ؟ ومن ذلَّل الشمس والقمر وسخرهما لمصالح العباد يجريان بنظام دقيق؟ ليقولون : الله خالق ذلك ﴿٧١﴾ فأنسى يؤفكون ﴿٧٢﴾ أي فكيف يُصرفون عن توحيده بعد إقرارهم بذلك ؟ ﴿٧٣﴾ الله يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ﴿٧٤﴾ أي هو جلُّ وعلا الخالق وهو الرازق ، يوسع الرزق لمن يشاء من عباده امتحاناً ، ويضيِّق الرزق على من يشاء ابتلاءً ، ليظهر الشاكر والصابر ﴿٧٥﴾ إن الله بكل شيء عليم ﴿٧٦﴾ أي إنه تعالى واسع العلم يفعل ما تقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿٧٧﴾ ولئن سألتهم من نزل من السماء ماءً فأحيا به الأرض من بعد موتها ليقولنَّ الله ﴿٧٨﴾ توبيخ آخر وإقامة حجة أخرى عليهم أي ولئن سألت المشركين من الذي أنزل المطر من السماء فأخرج به أنواع الزروع والثمار بعد جذب الأرض ويسها ؟ ليقولون : الله فاعل ذلك ﴿٧٩﴾ قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴿٨٠﴾ أي قل يا محمد : حمداً لله على ظهور الحجة ، بل أكثرهم لا يعقلون ، حيث يقرون بأن الله هو الخالق الرازق ويعبدون غيره ﴿٨١﴾ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب ﴿٨٢﴾ أي وما الحياة في هذه الدنيا إلا غرور ينقضي سريعاً ويزول ، كما يلعب الصبيان ساعة ثم يتفرقون ﴿٨٣﴾ وإن الدار الآخرة هي الحيوان ﴿٨٤﴾ أي وإن الآخرة هي دار الحياة الحقيقية التي لا موت فيها ولا تنغيص ﴿٨٥﴾ لو كانوا يعلمون ﴿٨٦﴾ أي لو كان عندهم علم لم يؤثروا دار الفناء على دار البقاء ، لأن الدنيا حقيرة لا تزن عند الله جناح بعوضة ^(٢) ، ولقد أحسن من قال :

ترى الدنيا الدنية كالحيال

ويبقى وجه ربك ذو الجلال

تأمل في الوجود بعين فكر

ومن فيها جميعاً سوف يفنى

﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين﴾ إقامة حجة ثالثة على المشركين في دعائهم الله عند

(١) التسهيل ١١٩/٣ . (٢) في الحديث الشريف (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً جرة ماء) .

الَّذِينَ فَلَمَّا نَجَّيْنَاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٥٥﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا مِّنَ الْأَمْنِ وَنُحْطَفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥٧﴾ وَمَن أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ ۗ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَافِرِينَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٩﴾

الشدائد ، ثم يشركون به في حال الرخاء والمعنى إذا ركبوا في السفن وخافوا الغرق دعوا الله مخلصين له الدعاء ، لعلمهم أنه لا يكشف الشدائد عنهم إلا هو ، وفي لفظ ﴿مخلصين﴾ ضرب من التهكم ﴿فلما نجَّاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾ أي فلما خلَّصهم من أهوال البحر ، ونجَّاهم إلى جانب البر إذا هم يعودون إلى كفرهم وإشراكهم ، ناسين ربهم الذي أنقذهم من الشدائد والأهوال ﴿ليكفروا بما آتيناهم وليتمتعوا فسوف يعلمون﴾ أمرٌ على وجه التهديد أي فليكفروا بما أعطيناهم من نعمة الإنجاء من البحر ، وليتمتعوا في هذه الحياة الدنيا بباقي أعمارهم ، فسوف يعلمون عاقبة أمرهم ﴿أولم يروا أننا جعلنا حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي أولم يروهؤلاء الكفار ، رؤية تفكر واعتبار ، أننا جعلنا بلدهم « مكة » حرمًا مصنوعًا عن السلب والنهب ، آمنًا أهله من القتل والسي ، والناس حولهم يُسبون ويقتلون ؟ قال الضحاك : ﴿ويتخطف الناس من حولهم﴾ أي يقتل بعضهم بعضاً ، ويسبي بعضهم بعضاً^(١) ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ أي أبعد هذه النعم الجليلة يؤمنون بالأوثان ويكفرون بالرحمن ؟ ﴿ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بالحق لما جاءه﴾ أي لا أحد أظلم ممن عبد غير الله وكذب بالقرآن حين جاءه ﴿أليس في جهنم مثوى للكافرين﴾ ؟ أي أليس في جهنم مأوى وموضع إقامة للكافرين بآيات الله جزاء افتراءهم وكفرهم ؟ ﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبُلنا﴾ أي والذين جاهدوا النفس والشيطان واهوى والكفرة أعداء الدين ابتغاء مرضاتنا لنهدينهم طريق السير إلينا ﴿وإن الله لمع المحسنين﴾ أي مع المؤمنين بالنصر والعون .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التحضيض ﴿لولا أنزل عليه آيات من ربه﴾ .
- ٢ - الطباق ﴿آمنوا بالباطل وكفروا بالله﴾ .
- ٣ - إفادة القصر ﴿أولئك هم الخاسرون﴾ أي لا غيرهم .
- ٤ - الإطناب بذكر العذاب مراتٍ للتشجيع على المشركين ﴿ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل

مسمى ﴿يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم﴾ ﴿يوم يغشاهم العذاب﴾ الخ .

٥ - الإضافة للتشريف والتكريم ﴿يا عبادي الذين آمنوا﴾ .

٦ - الطباق ﴿يسطر الرزق . . ويقدر﴾ ومثله ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ .

٧ - المجاز العقلي ﴿حرماً آمناً﴾ أي آمناً أهله .

٨ - التشبيه البليغ ﴿وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب﴾ أي كاللهو وكاللعب حذفت أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : « زيدٌ أسد » .

٩ - الإيجاز بحذف جواب الشرط لدلالة السياق عليه ﴿لو كانوا يعلمون﴾ أي لو كانوا يعلمون لما آثروا الدنيا على الآخرة ، ولا الفانية على الباقية .

١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع عظيم على السمع يزيد الكلام رونقاً وجمالاً مثل ﴿أفبالباطل يؤمنون وبنعمة الله يكفرون﴾ ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ ﴿إذا هم يشركون﴾ الخ .

تنبية : لا ينبغي لمسلم أن يبقى بأرض لا يتيسر له فيها عبادة الله ، فأرض الله واسعة ، وقد أشارت الآيات إلى وجوب الهجرة إلى دار الإسلام وكما قيل « وكل مكان يُنبِت العزْ طيب » .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة العنكبوت »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ سورة الروم مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، التي تعالج قضايا العقيدة الإسلامية في إطارها العام وميدانها الفسيح « الايمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء » .

✽ ابتدأت السورة الكريمة بالتنبؤ عن حدث غيبي هام ، أخبر عنه القرآن الكريم قبل حدوثه ، ألا وهو انتصار الروم على الفرس في الحرب التي ستقع قريباً بينهما ، وقد حدث كما أخبر عنه القرآن ، وبذلك تحققت النبوءة ، وذلك من أظهر الدلائل على صدق محمد ﷺ فيما جاء به من الوحي ، ومن أعظم معجزات القرآن .

✽ ثم تحدثت السورة عن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن ، وحزب الشيطان ، وأنها معركة قديمة قدم هذه الحياة ، فالحرب لا تهدأ ما دام هناك حق وباطل ، وخير وشر ، وما دام الشيطان يحشد أعوانه وأنصاره لإطفاء نور الله ، ومحاربة دعوة الرسل الكرام ، وقد ساقَت الآيات دلائل وشواهد على انتصار الحق على الباطل ، في شتَّى العصور والدهور ، وتلك هي سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

✽ ثم تناولت السورة الحديث عن الساعة والقيامة ، وعن المصير المشوم لأهل الكفر والضلال في ذلك اليوم العصيب ، حيث يكون المؤمنون في روضات يُحبرون ، ويكون المجرمون في العذاب محضرين ، وتلك نهاية المطاف للأبرار والفجار ، والعاقبة المؤكدة للمحسنين والمجرمين .

✽ وتناولت السورة بعد ذلك بعض المشاهد الكونية ، والدلائل الغيبية ، الناطقة بقدرة الله ووحدانيته لإقامة البرهان على عظمة الواحد الديان ، الذي تخضع له الرقاب ، وتعنوله الوجوه ، وضربت بعض الأمثلة للتفريق والتمييز بين من يعبد الرحمن ، وبين من يعبد الأوثان .

✽ وختمت السورة بالحديث عن كفار قريش ، إذ لم تنفعهم الآيات والنذر ومهما رأوا من الآيات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، لا يعتبرون ولا يتعظون ، لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين ، والصبر حتى يأتي النصر .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة الروم » لذكر تلك المعجزة الباهرة ، التي تدل على صدق أنباء

القرآن العظيم ﴿الم﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين ﴿وتلك هي بعض معجزات القرآن .

قال الله تعالى : ﴿الم﴾ غلبت الروم في أدنى الأرض . . إلى . . وكذلك تُخرجون ﴿من آية (١) إلى نهاية آية (١٩) .

اللفظ : ﴿يُغْلِبُونَ﴾ يهزمون ويُقهرون ﴿أثَارُوا الْأَرْضَ﴾ حرثوها وقلبوها للزراعة ﴿السُّوءِ﴾ تأنيث الأسوء وهو الأقبح كما أن الحسنى تأنيث الأحسن ، والسُّوءى : العقوبة المتناهية في السوء ﴿يُجْبِرُونَ﴾ يُسْرُونَ يقال : حبره إذا سره سروراً تهلّل له وجهه وظهر عليه أثره قال الجوهري : الجبور : السرور ، ويَجْبُرُونَ : يُنْعَمُونَ وَيُسْرُونَ ﴿عِشْيَا﴾ العشي : من صلاة المغرب إلى العتمة ﴿تُظْهِرُونَ﴾ تدخلون وقت الظهيرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بَضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾

التفسير : ﴿الم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ^(١) ﴿غلبت الروم في أدنى الأرض﴾ أي هُزم جيش الروم في أقرب أرضهم إلى فارس ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون﴾ أي وهم من بعد انهزامهم وغلبة فارس لهم سيغلبون الفرس ويتصرون عليهم ﴿في بضع سنين﴾ أي في فترة لا تتجاوز بضعة أعوام ، والبضع : ما بين الثلاث إلى التسع قال المفسرون : كان بين فارس والروم حربٌ ، فغلبت فارس الروم ، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ وأصحابه فشق ذلك عليهم ، وفرح المشركون بذلك لأن أهل فارس كانوا مجوساً ولم يكن لهم كتاب ، والروم أصحاب كتاب فقال المشركون لأصحاب رسول الله ﷺ إنكم أهل كتاب ، والروم أهل كتاب ، ونحن أميون ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من الروم ، فلنظهِرَنَّ عليكم فقال أبو بكر : لا يقرُّ الله أعينكم فأنزل الله ﴿وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين﴾ وقد التقى الجيشان في السنة السابعة من الحرب ، وغلبت الروم فارس وهزمتهم ، وفرح المسلمون بذلك قال أبو السعود : وهذه الآيات من البينات الباهرة ، الشاهدة بصحة النبوة ، وكون القرآن من عند الله عز وجل حيث أخبر عن الغيب الذي لا يعلمه إلا العليم الخبير ، ووقع كما أخبر ^(٢) ، وقال البيضاوي : والآية من دلائل النبوة لأنها إخبارٌ عن الغيب ^(٣) ﴿لله الأمر من قبل ومن بعد﴾ أي لله عز وجل الأمر أولاً وآخرأ ، من قبل الغلبة ومن بعد الغلبة ، فكل ذلك بأمر الله وإرادته ، ليس شيء منها إلا بقضائه قال ابن الجوزي : المعنى إن غلبة الغالب ، وخذلان المغلوب ، بأمر الله وقضائه ^(٤) ﴿ويومئذٍ يفرح المؤمنون

(١) انظر ما كتبناه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة من كتابنا هذا . (٢) أبو السعود ١٧٦/٤ . (٣) البيضاوي ١٠٣/٢ .

(٤) زاد المسير ٢٨٨/٦ .

يَنْصُرَ اللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ وَعَدَ اللَّهُ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٨﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَائِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ ﴿٩﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا

بنصر الله ﴿٦﴾ أي ويوم يهزم الروم الفرس ويتغلبون عليهم ، ويجل ما وعده الله من غلبتهم يفرح المؤمنون بنصر الله لأهل الكتاب على المجوس ، لأن أهل الكتاب أقرب الى المؤمنين من المجوس ، وقد صادف ذلك اليوم يوم غزوة بدر قال ابن عباس : كان يوم بدر هزيمة عبدة الأوثان ، وعبدة النيران ﴿٧﴾ ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴿٨﴾ أي ينصر من يشاء من عباده ، وهو العزيز بانتقامه من أعدائه ، الرحيم بأوليائه وأحبابه ﴿٩﴾ وعَدَ الله لا يخلف الله وعده ﴿١٠﴾ أي ذلك وعدٌ مؤكد وعد الله به فلا يمكن أن يتخلف ، لأن وعده حق وكلامه صدق ﴿١١﴾ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿١٢﴾ أي لا يعلمون ذلك لجهلهم وعدم تفكيرهم ﴿١٣﴾ يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا أي يعلمون أمور الدنيا ومصالحها وما يحتاجون إليه فيها من أمور الحياة كالزراعة والتجارة والبناء ونحو ذلك قال ابن عباس : يعلمون أمر معاشهم متى يزرعون ، ومتى يحصدون ، وكيف يغرسون ، وكيف يبنون ﴿١٤﴾ وهم عن الآخرة هم غافلون ﴿١٥﴾ أي وهم عمي عن أمر الآخرة ، ساهون غافلون عن التفكير فيها والعمل لها قال الإمام الفخر : ومعنى الآية أن علمهم منحصر في الدنيا ، وهم مع ذلك لا يعلمون الدنيا كما هي وإنما يعلمون ظاهرها ، وهي ملاذها وملاعبها ، ولا يعلمون باطنها وهي مضارها ومتاعبها ، ويعلمون وجودها الظاهر ولا يعلمون فناءها وهم عن الآخرة غافلون ﴿١٦﴾ ، ولعل في التعبير بقوله ﴿ظاهراً﴾ إشارة الى أنهم عرفوا القشور ، ولم يعرفوا اللباب فكان علومهم إنما هي علوم البهائم ﴿١٧﴾ أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجلٍ مُّسَمًّى ﴿١٨﴾ أي أولم يتفكروا بعقولهم فيعلموا أن الله العظيم الجليل ما خلق السموات والأرض عبثاً ، وإنما خلقهما بالحكمة البالغة لإقامة الحق لوقتٍ ينتهيان إليه وهو يوم القيامة ؟ قال القرطبي : وفي هذا تنبيه على الفناء ، وعلى أن لكل مخلوق أجلاً ، وعلى ثواب المحسن وعقاب المسيء ﴿١٩﴾ وإن كثيراً من الناس بقاء ربهم لكافرون ﴿٢٠﴾ أي وأكثر الناس منكرون جاحدون للبعث والجزاء ﴿٢١﴾ أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ﴿٢٢﴾ أي أولم يسافروا فينظروا مصارع الأمم قبلهم كيف أهلكوا بتكذيبهم رسلهم فيعتبروا !! ﴿٢٣﴾ كانوا أشد منهم قوة ﴿٢٤﴾ أي كانوا أقوى منهم أجساداً ، وأكثر أموالاً وأولاداً ﴿٢٥﴾ وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ﴿٢٦﴾ أي وحرثوا الأرض للزراعة ، وحفروها لاستخراج المعادن ، وعمروها بالأبنية المشيدة ، والصناعات الفريدة أكثر مما

أَكْثَرِمَا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٩﴾ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوْأَىٰ أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ ﴿١٠﴾ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُومِّدُ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾ فَسُبْحَنَ

عمرها هؤلاء قال البيضاوي : وفي الآية تهكم بأهل مكة من حيث إنهم مغترون بالدنيا ، مفتخرون بها ، وهم أضعف حالاً فيها ، إذ مدار أمرها على السعة في البلاد ، والتسلط على العباد ، والتصرف في أقطار الأرض بأنواع العمارة ، وهم ضعفاء ملجئون الى دار لا نفع فيها^(١) ﴿وجاءتهم رسلهم بالبينات﴾ أي وجاءتهم الرسل بالمعجزات الواضحات والآيات البينات فكذبوهم ﴿فما كان الله ليظلمهم﴾ أي فما كان الله ليهلكهم بغير جرم ﴿ولكن كانوا أنفسهم يظلمون﴾ أي ولكن ظلموا أنفسهم بالكفر والتكذيب فاستحقوا الهلاك والدمار ﴿ثم كان عاقبة الذين أساءوا السُّوْأَى﴾ أي ثم كان عاقبة المجرمين العقوبة التي هي أسوأ العقوبات وهي نار جهنم ﴿أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون﴾ أي لأجل أنهم كذبوا بآياتنا المنزلة على رسلنا واستهزءوا بها ﴿الله يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي الله جل وعلا بقدرته ينشئ خلق الناس ثم يعيد خلقهم بعد موتهم ﴿ثم إليه ترجعون﴾ أي ثم إليه مرجعكم للحساب والجزاء ﴿ويوم تقوم الساعة يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُخْشَرُ النَّاسُ لِلْحِسَابِ يسكت المجرمون وتقطع حجتهم ، فلا يستطيعون أن ينسوا بينت شفة قال ابن عباس : ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾ يبأس المجرمون ، وقال مجاهد : يفتضح المجرمون قال القرطبي : والمعروف في اللغة : أبلس الرجل إذا سكت وانقطعت حجته^(٢) ﴿ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء﴾ أي ولم يكن لهم من الأصنام التي عبدوها شفعاء يشفعون لهم ﴿وكانوا بشركائهم كافرين﴾ أي تبرعوا منها وتبرأت منهم ﴿ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون﴾ كرر لفظ قيام الساعة للتهويل والتخويف لأن قيام الساعة أمر هائل أي ويوم تقوم القيامة يومئذ يتفرق المؤمنون والكافرون ، ويصبحون فريقين : فريق في الجنة ، وفريق في السعير ، ولهذا قال ﴿فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي فأما المؤمنون المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فهم في روضة يحبرون﴾ أي فهم في رياض الجنة يسرون وينعمون ﴿وأما الذين كفروا وكذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة﴾ أي وأما الذين جحدوا بالقرآن وكذبوا بالبعث بعد الموت ﴿فأولئك في العذاب محضرون﴾ أي فأولئك في عذاب جهنم مقيمون على الدوام ﴿فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون﴾ أي سبحوا الله ونزهوه عما لا يليق به من صفات النقص ، حين تدخلون

اللَّهُ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿٧﴾ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًا وَحِينَ يُظَاهِرُونَ ﴿٨﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿٩﴾

في المساء ، وحين تدخلون في الصباح ﴿وله الحمد في السموات والأرض وعشياً وحين تظهرون﴾ أي وهو جل وعلا المحمود في السموات والأرض قال ابن عباس : يحمده أهل السموات وأهل الأرض ويصلون له ^(١) ، قال المفسرون : ﴿وله الحمد في السموات والأرض﴾ جملة اعتراضية وأصل الكلام : ﴿فسبحان الله حين تُمسُونَ وحين تصبحون * وعشياً وحين تظهرون﴾ والحكمة في ذلك الإشارة الى أن التوفيق للعبادة نعمة ينبغي أن يحمد عليها ، والعشي : من صلاة المغرب الى العتمة ، ﴿وتظهرون﴾ أي تدخلون وقت الظهر ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ، وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ﴾ أي يخرج المؤمن من الكافر ، والكافر من المؤمن ، والنبات من الحب ، والحب من النبات ، والحيوان من النطفة ، والنطفة من الحيوان ﴿وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي ويحيي الأرض بالنبات بعد يبسها وجدها ﴿وكذلك تُخْرَجُونَ﴾ أي كما يخرج الله النبات من الأرض كذلك يخرجكم من قبوركم للبعث يوم القيامة ، قال القرطبي : بين تعالى كمال قدرته ، فكما يحيي الأرض بإخراج النبات بعد همودها كذلك يحييكم بالبعث ^(٢) .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿غَلَبَتْ .. وَيَغْلِبُونَ﴾ وبين ﴿قَبْلَ .. وَبَعْدَ﴾ .
- ٢ - طباق السلب ﴿لَا يَعْلَمُونَ .. يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ .
- ٣ - صيغة المبالغة ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾ أي المبالغ في العزة ، والمبالغ في الرحمة .
- ٤ - تكرير الضمير لإفادة الحصر ﴿وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ ووردوها اسمية للدلالة على استمرار غفلتهم ودوامها .
- ٥ - الإنكار والتوبيخ ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا﴾ الآية .
- ٦ - جناس الاشتقاق ﴿أَسَاءُوا السُّوءَ﴾ .
- ٧ - الطباق بين ﴿يَبْدِئُ .. وَيُعِيدُ﴾ وبين ﴿تُمْسُونَ .. وَتُصْبِحُونَ﴾ .
- ٨ - المقابلة بين حال السعداء والأشقياء ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ﴾ .
- ٩ - الاستعارة اللطيفة ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ﴾ استعار الحي للمؤمن ، والميت للكافر ، وهي استعارة في غاية الحسن والإبداع والجمال .

١٠ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير لما له من أجل الوقع على السمع مثل ﴿ثم إليه ترجعون﴾
﴿في روضة يجبرون﴾ ﴿في العذاب محضرون﴾ .

لطيفة : قال الزمخشري : دلّ قوله تعالى ﴿يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا﴾ على أن للدنيا ظاهراً وباطناً ، فظاهرها ما يعرفه الجاهل من التمتع بزخارفها ، والتنعّم بملاذها ، وباطنها وحقيقتها أنها معبرٌ للآخرة ، يتزود منها إليها بالطاعة والأعمال الصالحة^(١) . ولقد أحسن من قال :

أبنيَّ إن من الرجال بهيمةً في صورة الرجل السميع المبصر
فطنٌ بكل مصيبةٍ في ماله فإذا أصيب بدينه لم يشعر

قال الله تعالى : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب .. إلى .. سبحانه وتعالى عما يُشركون﴾
من آية (٢٠) إلى نهاية آية (٤٠) .

المناسبة : لما ذكر تعالى أحوال الناس في الآخرة ، وقدرته على البدء والإعادة ، ذكر هنا الأدلة على الربوبية والوحدانية ، في خلق البشر ، واختلاف الألسنة والصور ، وإحياء الأرض بالمطر ، وفي قيام الناس ومنامهم ، ثم ضرب الأمثال للمشركين في عبادتهم لغير الله مع أنه وحده الخالق الرازق .

اللفت : ﴿آياته﴾ جمع آية وهي العلامة على الربوبية والوحدانية ﴿تنتشرون﴾ تتصرفون في شؤون معاشكم ﴿لتسكنوا إليها﴾ لتميلوا إليها وتألفوها ﴿قانتون﴾ مطيعون منقادون لإرادته ﴿المثل الأعلى﴾ الوصف الأعلى في الكمال والجلال ﴿القيم﴾ المستقيم الذي لا عوج فيه ﴿منيبين﴾ الإجابة : الرجوع بالتوبة والإخلاص .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ

التفسير : ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق أصلكم « آدم » من تراب ، وإنما أضاف الخلق إلى الناس ﴿خلقكم﴾ لأن آدم أصل البشر ﴿ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون﴾ أي ثم أنتم تتطورون من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى بشر عقلاء ، تتصرفون فيما هو قوام معاشكم قال ابن كثير : فسبحان من خلقهم وسيّرهم وسخرهم وصرّهم في فنون المعاش والمكاسب ، وفاوت بينهم في العلوم والفكر ، والحسن والقبح ، والغنى والفقر ، والسعادة والشقاوة^(٢) ! ! ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً﴾ أي من آياته الدالة على عظمته وكمال قدرته أن خلق لكم من صنفكم وجنسكم نساءً آدميات مثلكم ، ولم يجعلهن من جنسٍ آخر قال ابن كثير : ولو أنه تعالى جعل الإناث من جنسٍ آخر ، من جان أو حيوان ، لما حصل هذا الائتلاف بينهم وبين

(١) الكشف ٣/ ٣٦٨ . (٢) مختصر ابن كثير ٣/ ٥١ .

أَزْوَاجًا لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتُكُمُ وَالْوَلَوَاتُ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ ۚ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ

الأزواج ، بل كانت تحصل النفرة ، وذلك من تمام رحمته ببني آدم ^(١) ﴿لَتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ أي لتميلوا إليهن وتالفوهن ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ أي وجعل بين الأزواج والزوجات محبة وشفقة قال ابن عباس : المودة : حب الرجل امرأته ، والرحمة شفقة عليها أن يصيبها بسوء ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ أي إن فيما ذكر لعبراً عظيمة لقوم يتفكرون في قدرة الله وعظمته ، فيدركون حكمته العلية ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْسِنَتُكُمُ وَالْوَلَوَاتُ﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على كمال قدرته خلق السموات في ارتفاعها واتساعها ، وخلق الأرض في كثافتها وانخفاضها ، واختلاف اللغات من عربية وعجمية ، وتركية ، ورومية ، واختلاف الألوان من أبيض وأسود وأحمر ، حتى لا يشتبه شخص بشخص ، ولا إنسان بإنسان ، مع أنهم جميعاً من ذرية آدم ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ أي لمن كان من ذوي العلم والفهم والبصيرة ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته نومكم في ظلمة الليل ، ووقت الظهيرة بالنهار راحة لأبدانكم ﴿وَابْتِغَاؤُكُمْ مِّن فَضْلِهِ﴾ أي وطلبكم للرزق بالنهار ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أي يسمعون سماع تفهم واستبصار ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ أي ومن آياته العظيمة الدالة على قدرته ووحدانيته أنه يريكم البرق خوفاً من الصواعق ، وطمعاً في الغيث والمطر قال قتادة : خوفاً للمسافر ، وطمعاً للمقيم ^(٢) ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْجِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ أي وينزل المطر من السماء فينبت به الأرض بعد أن كانت هامة جامدة لا نبات فيها ولا زرع ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي إن في ذلك المذكور لعبراً وعظات لقوم يتدبرون بعقولهم آلاء الله ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ أي ومن آياته الباهرة الدالة على عظمته أن تستمسك السموات بقدرة بلا عمد ، وأن تثبت الأرض بتدبيره وحكمته فلا تنكفيء بسكانها ولا تنقلب بأهلها ﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ أي ثم إذا دعيتم إلى الخروج من القبور ، إذا أنتم فوراً تخرجون للجزاء والحساب ، لا يتأخر خروجكم طرفة عين قال المفسرون : وذلك حين ينفخ إسرافيل في الصور النفخة الثانية ويقول : يا أهل القبور قوموا ، فلا تبقى نسمة من الأولين والآخرين ، إلا قامت تنظر ^(٣) ﴿وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي وله جل

﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَهٍ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ
 وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَلْ لَّكُمْ مِّنْ
 مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِّنْ شُرَكَاءَ فِي مَارَزَقْنَكُمْ فَآتَتْكُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ تَخِيفَتَكُمْ أَنفُسُكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ
 لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَن أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِّنْ نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾

وعلا كل من في السموات والأرض من الملائكة والإنس والجن ملكاً وخلقاً وتصرفاً لا يشاركه فيها أحد ﴿كل له قانتون﴾ أي جميعهم خاشعون خاضعون منقادون لأمره تعالى ﴿وهو الذي يبدأ الخلق ثم يعيده﴾ أي وهو تعالى ينشئ الخلق من العدم ، ثم يعيدهم بعد موتهم للحساب والجزاء ﴿وهو أهون عليه﴾ أي إعادة الخلق أهون عليه من بدئه قال ابن عباس : يعني أيسر عليه ، وقال مجاهد : الإعادة أهون عليه من البداءة ، والبداءة عليه هيئة ^(١) قال المفسرون : خاطب تعالى العباد بما يعقلون ، فإذا كانت الإعادة أسهل من الابتداء في تقديركم وحكمكم ، فإن من قدر على الإنشاء كان البعث أهون عليه حسب منطقكم وأصولكم ^(٢) ﴿وله المثل الأعلى﴾ أي له الوصف الأعلى الذي ليس لغيره ما يدانيه فيه من الجلال والكمال ، والعظمة والسلطان ﴿في السموات والأرض﴾ أي يصفه به من فيهما وهو أنه الذي ليس كمثله شيء ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي القاهر لكل شيء الحكيم الذي كل أفعاله على مقتضى الحكمة والمصلحة ، ثم وضَّح تعالى بطلان عبادتهم للأوثان بمثل فقال : ﴿ضرب لكم مثلاً من أنفسكم﴾ أي ضرب لكم أيها القوم ربكم مثلاً واقعياً من أنفسكم ﴿هل لكم ممَّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم﴾ أي هل يرضى أحدكم أن يكون عبده ومملوكه شريكاً له في ماله الذي رزقه الله تعالى ؟ فإذا لم يرض أحدكم لنفسه ذلك فكيف ترضون لله شريكاً له وهو في الأصل مخلوق وعبد لله ؟ ﴿فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم﴾ هذا من تنمة المثل أي لستم وعبيدكم سواء في أموالكم ، ولستم تخافونهم كما تخافون الأحرار مثلكم ، وأنتم لا ترضون أن يكون عبيدكم شركاء لكم في أموالكم ، فكيف رضيتم لله شريكاً في خلقه وملكه ؟ ﴿كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون﴾ أي مثل ذلك البيان الواضح نبين الآيات لقوم يستعملون عقولهم في تدبر الأمثال ﴿بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم﴾ بل للإضراب أي ليس لهم حجة ولا معذرة في إشراكهم بالله بل ذلك بمجرد هوى النفس بغير علم ولا برهان قال القرطبي : لما قامت عليهم الحجة ذكر أنهم يعبدون الأصنام باتباع أهوائهم في عبادتها ، وتقليد الأسلاف في ذلك ^(٣) ﴿فمن يهدي من أضل الله﴾ أي لا أحد يستطيع أن يهدي من أراد الله إضلاله ﴿وما لهم من ناصرين﴾ أي ليس لهم من عذاب الله منقذ ولا ناصر ﴿فأقم وجهك

(١) مختصر ابن كثير ٥٢/٣ . (٢) هذا قول، وذهب بعض المفسرين إلى أن افعل التفضيل ليس على بابه فيكون معنى «أهون» أي وهو هين عليه . (٣) القرطبي ٢٣/١٤ .

فَاقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ * مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾ وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ لِلدِّينِ أَيْ أَخْلَصَ دِينُكَ لِلَّهِ وَأَقْبَلَ عَلَى الْإِسْلَامِ بِهَمَّةٍ وَنَشَاطٍ ﴿حَنِيفًا﴾ أَيْ مَائِلًا عَنْ كُلِّ دِينٍ بَاطِلٍ إِلَى الدِّينِ الْحَقِّ وَهُوَ الْإِسْلَامُ ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ أَيْ هَذَا الدِّينُ الْحَقُّ الَّذِي أَمْرُنَاكَ بِالْإِسْتِقَامَةِ عَلَيْهِ هُوَ خَلْقَةُ اللَّهِ الَّتِي خَلَقَ النَّاسَ عَلَيْهَا وَهُوَ فِطْرَةُ التَّوْحِيدِ كَمَا فِي الْحَدِيثِ (كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ ، فَأَبَوَاهُ يَهُودَانِهِ) ^(١) الْحَدِيثُ ﴿لَا تَبْدِيلَ لَخَلْقِ اللَّهِ﴾ أَيْ لَا تَغْيِيرَ لَتِلْكَ الْفِطْرَةِ السَّلِيمَةِ مِنْ جِهَتِهِ تَعَالَى قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ : لَفْظُهُ لَفْظُ النَّفْيِ وَمَعْنَاهُ النَّهْيُ أَيْ لَا تَبْدِلُوا خَلْقَ اللَّهِ فَتَغْيِرُوا النَّاسَ عَنْ فِطْرَتِهِمُ الَّتِي فَطَرَهُمُ اللَّهُ عَلَيْهَا ^(٢) ﴿ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ أَيْ ذَلِكَ هُوَ الدِّينُ الْمُسْتَقِيمُ ﴿وَلَكِنْ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيْ أَكْثَرَ النَّاسِ جَهْلَةٌ لَا يَتَفَكَّرُونَ فَيَعْلَمُونَ أَنَّ لَهُمْ خَالِقًا مَعْبُودًا ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ أَيْ أَقِيمُوا وَجُوهَكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ عَلَى الدِّينِ الْحَقِّ حَالِ كَوْنِكُمْ مُنِيبِينَ إِلَى رَبِّكُمْ أَيْ رَاجِعِينَ إِلَيْهِ بِالتَّوْبَةِ وَإِخْلَاصِ الْعَمَلِ ، وَخَافُوهُ وَرَاقِبُوهُ فِي أَقْوَالِكُمْ وَأَفْعَالِكُمْ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يُرْضِي اللَّهَ ﴿وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ أَيْ وَلَا تَكُونُوا مِمَّنْ أَشْرَكَ بِاللَّهِ وَعَبَدَ غَيْرَهُ ثُمَّ فَسَّرَهُمْ بِقَوْلِهِ ﴿مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا﴾ أَيْ مِنَ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي دِينِهِمْ وَغَيَّرُوهُ وَبَدَّلُوهُ فَأَصْبَحُوا شِيعًا وَأَحْزَابًا ، كُلٌّ يَتَعَصَّبُ لِدِينِهِ ، وَكُلٌّ يَعْبُدُ هَوَاهُ ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ أَيْ كُلُّ جَمَاعَةٍ وَفِرْقَةٍ مَتَمَسِّكُونَ بِمَا أَحْدَثُوهُ ، مُسْرُورُونَ بِمَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الدِّينِ الْمَعْجُوزِ ، يَحْسِبُونَ بِاطْلَاهُمْ حَقًّا قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ : أَيْ لَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ أَيْ بَدَّلُوهُ وَغَيَّرُوهُ ، وَأَمَّنُوا بِبَعْضٍ وَكَفَرُوا بِبَعْضٍ ، كَالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ وَعِبَدَةِ الْأَوْثَانِ ، وَسَائِرِ أَهْلِ الْأَدْيَانِ الْبَاطِلَةِ - مِمَّا عَدَا أَهْلَ الْإِسْلَامِ - فَأَهْلُ الْأَدْيَانِ قَبْلَنَا اخْتَلَفُوا فِيمَا بَيْنَهُمْ عَلَى آرَاءٍ وَمَذَاهِبٍ بَاطِلَةٍ ، وَكُلُّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ تَزْعُمُ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ ^(٣) ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ﴾ أَيْ إِذَا أَصَابَ النَّاسَ شِدَّةٌ وَفَقْرٌ وَمَرَضٌ وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاءِ ﴿دَعَا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ أَيْ أَفْرَدُوهُ تَعَالَى بِالتَّضَرُّعِ وَالدَّعَاءِ لِيَنْجُوَ مِنْ ذَلِكَ الضَّرِّ ، وَتَرَكُوا أَصْنَامَهُمْ لَعَلَّهُمْ أَنَّهُ لَا يَكْشِفُ الضَّرَّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى ، فَلَهُمْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ إِنَابَةٌ وَخُضُوعٌ ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاهُمْ مِنْهُ رَحْمَةٌ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ أَيْ ثُمَّ إِذَا أَعْطَاهُمُ السَّعَةَ وَالرِّخَاءَ وَالصَّحَّةَ وَخَلَّصَهُمْ مِنْ ذَلِكَ الضَّرِّ وَالشَّدَّةِ ، إِذَا جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ يُشْرِكُونَ بِاللَّهِ وَيَعْبُدُونَ مَعَهُ غَيْرَهُ ، وَالْغَرَضُ مِنَ الْآيَةِ التَّشْنِيعُ عَلَى الْمُشْرِكِينَ ، فَإِنَّهُمْ يَدْعُونَ اللَّهَ فِي الشَّدَائِدِ ، وَيُشْرِكُونَ بِهِ فِي الرِّخَاءِ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ أَمْرٌ عَلَى وَجْهِ التَّهْدِيدِ أَيْ لِيَكْفُرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ ، وَلِيَتَمَتَّعُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ أَيُّهَا الْمُشْرِكُونَ عَاقِبَةُ

تَعْلَمُونَ ﴿٣٤﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٣٥﴾ وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِيبُهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ﴿٣٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٣٧﴾ فَآتَاكَذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ وَأَوْلَتْكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رَبٍّ لَيْزُبُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرَبُّوا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ تَعْمَلُونَ بِزِينَةِ الْحَيَاةِ وَنَعِيمِهَا الْفَانِي ﴿٤٠﴾ أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يَشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ والمعنى : هل أنزلنا على هؤلاء المشركين حجة واضحة قاهرة على شركهم ، أو كتاباً من السماء فهو ينطق ويشهد بشركهم وبصحّة ما هم عليه ؟ ليس الأمر كما يتصورون ، والمراد ليس لهم حجة بذلك ﴿٤٢﴾ وإذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ﴿٤٣﴾ أي وإذا أنعمنا على الناس بالخصب والسعة والعافية استبشروا وسرّوا بها ﴿٤٤﴾ وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم يقنطون ﴿٤٥﴾ أي وإن أصابهم بلاء وعقوبة بسبب معاصيهم إذا هم يياسون من الرحمة والفرج قال ابن كثير : وهذا إنكار على الإنسان من حيث هو إلا من عصمه الله ، إذا أصابته نعمة بطر ، وإذا أصابته شدة قنط وأيس ^(١) ﴿٤٦﴾ أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ﴿٤٧﴾ أي أولم يروا قدرة الله في البسط والقبض ، وأنه تعالى يوسع الخير في الدنيا لمن يشاء ويضيّق على من يشاء ؟ فلا يجب أن يدعوهم الفقر إلى القنوط من رحمته تعالى ﴿٤٨﴾ إن في ذلك لآياتٍ لقوم يؤمنون ﴿٤٩﴾ أي إن في المذكور لدلالة واضحة على قدرة الله لقوم يصدقون بحكمة الخالق الرازق ﴿٥٠﴾ فآتَاكَذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ﴿٥١﴾ أي فأعط القريب حقه من البر والصلة وكذلك المسكين والمسافر الذي انقطع في سفره اعطه من الصدقة والإحسان قال القرطبي : لما تقدم أنه سبحانه يبسط الرزق ويقدر ، أمر من وسّع عليه الرزق أن يعطي الفقير كفايته ، ليمتحن شكر الغني ، والخطاب للنبي عليه السلام والمراد هو وأمته ^(٢) ﴿٥٢﴾ ذلك خيرٌ للذين يريدون وجه الله ﴿٥٣﴾ أي ذلك الإيتاء والإحسان خيرٌ للذين يتبعون بعملهم وجه الله ويريدون ثوابه ﴿٥٤﴾ وأولئك هم المفلحون ﴿٥٥﴾ أي وأولئك هم الفائزون بالدرجات العالية ﴿٥٦﴾ وما آتيتهم من ربٍّ ليزبوا في أموال الناس فلا يربوا عند الله ﴿٥٧﴾ أي وما أعطيتهم من أموالكم يا معشر الأغنياء على وجه الربا ليزيد مالكم ويكثر به ، فلا يزيد ولا يزكو ولا يضاعف عند الله لأنه كسبٌ خبيثٌ لا يبارك الله فيه قال الزمخشري : هذه الآية كقوله تعالى ﴿٥٨﴾ يمحَقُّ الله الربا ويربِّي الصدقات ﴿٥٩﴾ سواءً بسواء ^(٣) ﴿٦٠﴾ وما آتيتهم من زكاةٍ تريدون وجه الله ﴿٦١﴾ أي وما أعطيتهم من صدقةٍ أو إحسان خالصاً لوجه الله الكريم ﴿٦٢﴾ فأولئك هم المضعفون ﴿٦٣﴾ أي فأولئك هم الذين لهم الضعف من الأجر والثواب ، الذين تضاعف لهم الحسنات ﴿٦٤﴾ والله الذي خلقكم ثم رزقكم ﴿٦٥﴾ أي الله جل وعلا هو الخالق الرازق

ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِّنْ شَيْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣٠﴾

للعباد ، يُخْرِجُ الْإِنْسَانَ مِنْ بطن أمه عُرْيَانًا لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا سَمْعَ وَلَا بَصَرَ ، ثُمَّ يَرْزُقُهُ بَعْدَ ذَلِكَ الْمَالِ وَالْمَتَاعِ وَالْأَمْلاكِ ﴿ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾ أَيِ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ بَعْدَ هَذِهِ الْحَيَاةِ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، لِيَجْزِيَكُمْ عَلَى أَعْمَالِكُمْ ﴿هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ﴾ ؟ أَيِ هَلْ يَسْتَطِيعُ أَحَدٌ مِّنْ تَعْبُدُوهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْ يَفْعَلَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ ؟ بَلِ اللَّهُ تَعَالَى هُوَ الْمُسْتَقِلُّ بِالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ أَيِ تَنْزَهُ جَلَّ وَعَلَا وَتَقَدَّسَ عَنْ أَنْ يَكُونَ لَهُ شَرِيكٌ أَوْ مِثِيلٌ ، أَوْ وَلَدٌ أَوْ وَالِدٌ ، وَتَعَالَى عَمَّا يَقُولُ الْمُشْرِكُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبدیع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين قوله ﴿خَوْفًا . . وَطَمَعًا﴾ وبين ﴿يَسْط . . وَيَقْدِرُ﴾ وبين ﴿يُمِيتُكُمْ . . وَيُحْيِيكُمْ﴾ وبين ﴿يَبْدَأُ . . وَيُعِيدُ﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿دَعَاكُمْ دَعْوَةً﴾ ﴿فَطَرَهُ اللَّهُ الَّذِي فَطَرَ﴾ .

٣ - المقابلة بين قوله ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرَحُوا بِهَا﴾ وبين ﴿وَإِنْ تُصَبِّهُمُ سَيْئَةٌ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ .

٤ - المجاز المرسل ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ﴾ أطلق الجزء وأراد الكل أي توجه إلى الله بكلتیک .

٥ - السجع المرصع كأنه الدر المنظوم مثل ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ . . الخ .

قال الله تعالى : ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ . . إِلَى . . . وَلَا يَسْتَخْفِنُكَ

الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ من آية (٤١) إلى نهاية آية (٦٠) .

الْمَنَاسِكَةُ : لما شَنَّ عَلَى الْمُشْرِكِينَ فِي عِبَادَتِهِمْ لغير الله ، ذَكَرَ فِي هَذِهِ الْآيَاتِ الْأَسْبَابَ الْمَوْجِبَةَ لِلْمَحَنَةِ وَالْإِبْتِلَاءِ وَهِيَ الْكُفْرُ ، وَانْتِشَارُ الْمَعَاصِي ، وَكَثْرَةُ الْفُجُورِ وَالْمُوبِقَاتِ ، الَّتِي بِسَبَبِهَا تَقُلُ الْخَيْرَاتُ وَتَرْتَفِعُ الْبَرَكَاتُ ، وَضُرِبَ الْأَمْثَالُ بِهَلَاكِ الْأُمَمِ السَّابِقَةِ ، تَنْبِيْهُاً لِقَرِيشٍ وَأَمْرًا لَهُمْ بِالْإِعْتِبَارِ بِمَنْ سَبَقَهُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ كَيْفَ أَهْلَكَهُمُ اللَّهُ بِسَبَبِ طُغْيَانِهِمْ وَإِجْرَامِهِمْ .

الْفَكْر : ﴿يَصْدَعُونَ﴾ يَتَفَرَّقُونَ يَقَالُ : تَصَدَّعَ الْقَوْمُ إِذَا تَفَرَّقُوا وَمِنْهُ الصَّدَاعُ لِأَنَّهُ يُفَرِّقُ شَعْبَ الرَّأْسِ ﴿يَمْهَدُونَ﴾ يَجْعَلُونَ لَهُمْ مَهْدًا وَيُوْطِئُونَ لَهُمْ مَسْكَنًا ، وَالْمَهَادُ : الْفَرَاشُ ﴿كَسَفًا﴾ جَمْعُ كَسَفَةٍ وَهِيَ الْقِطْعَةُ ﴿الْوَدْقُ﴾ الْمَطَرُ ﴿مَبْلَسِينَ﴾ يَأْتِسِينَ مَكْتَبِينَ قَدْ ظَهَرَ الْحُزْنُ عَلَيْهِمْ مِنْ شِدَّةِ الْيَأْسِ ﴿يُؤْفَكُونَ﴾ يَصْرِفُونَ ، وَالْإِفْكُ : الْكَذِبُ ﴿يَسْتَعْتَبُونَ﴾ يَقَالُ : اسْتَعْتَبْتَهُ فَأَعْتَبَنِي أَيْ اسْتَرْضَيْتُهُ فَأَرْضَانِي .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾
 قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمَّ وَجْهَكَ لِلدِّينِ
 الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يُصَدِّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ، وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا
 فَلَا نَفْسَ لَهُ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ ؕ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ ﴿٤٥﴾
 وَمِنْ ءَايَاتِهِ ؕ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ ؕ وَلِتَجْرِيَ الْفُلُكُ بِأَمْرِهِ ؕ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ ؕ

التفسير : ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾ أي ظهرت البلايا والنكبات في بر الأرض وبحرها بسبب معاصي الناس وذنوبهم قال البيضاوي : المراد بالفساد الجذب وكثرة الحرق والغرق ، ومحق البركات ، وكثرة المضار بشؤم معاصي الناس أو بكسبهم إياه ^(١) وقال ابن كثير : أي انَّ النقص في الزروع والثمار بسبب المعاصي لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة ^(٢) ﴿ليذيقهم بعض الذي عملوا﴾ أي ليذيقهم وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بها جميعاً في الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون ويرجعون عما هم عليه من المعاصي والآثام ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين : سيروا في البلاد فانظروا الى مساكن الذين ظلموا كيف كان آخر أمرهم وعاقبة تكذيبهم للرسل ، ألم يخرب الله ديارهم ويجعلهم عبرة لمن يعتبر ﴿كان أكثرهم مشركين﴾ أي كانوا كافرين بالله فأهلكوا ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ أي فتوجه بكليتك الى الدين المستقيم دين الإسلام ، واستقم عليه في حياتك قال القرطبي : أي أقم قصدك واجعل جهتك اتباع الدين القيم يعني الإسلام ^(٣) ﴿من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من الله﴾ أي من قبل أن يأتي ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا يقدر أحد على رده ، لأن الله قضى به وهو يوم القيامة ﴿يومئذ يصدعون﴾ أي يومئذ ينفرون ، فريق في الجنة وفريق في السعير ﴿من كفر فعليه كفره﴾ أي من كفر بالله فعليه أوزار كفره مع خلوده في النار المؤبدة ﴿ومن عمل صالحاً فلأنفسهم يمهدون﴾ أي ومن فعل خيراً وأطاع الله فلأنفسهم يقدمون الخير ويلقون ما تقربه أعينهم في دار النعيم قال القرطبي : أي يوطنون لأنفسهم في الآخرة فراشاً ومسكناً وقراراً بالعمل الصالح ، ومهدت الفراش أي بسطته ووطأته ^(٤) ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله﴾ أي يمهدون لأنفسهم ليجزيهم الله من فضله الذي وعد به عباده المتقين ﴿إنه لا يحب الكافرين﴾ أي لا يحب الكافرين بل يمقتهم ويبغضهم ، يجازي المؤمنين بفضله ، والكافرين بعدله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ أي ومن آياته الدالة على كمال قدرته أن يرسل الرياح تسوق السحاب مبشرة بنزول المطر والإنبات والرزق ﴿وليذيقكم من رحمته﴾ أي ولينزل عليكم من رحمته الغيث الذي يحيي به البلاد والعباد ﴿ولتجري

(١) البيضاوي ١٠٦/٢ . (٢) مختصر ابن كثير ٥٧ . (٣) القرطبي ٤٢/١٤ . (٤) نفس المرجع السابق والصفحة .

وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَاَنْتَقَمْنَا مِنْ الَّذِينَ أَجْرُمُوا
وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ
وَيَجْعَلُهُ كَسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ۚ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ ۖ مِنْ يَسَاءٍ مِنْ عِبَادِهِ ۖ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ ۖ لُمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَانْظُرْ إِلَىٰ آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا
إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْيِ الْمَوْتَىٰ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾

الفلك بأمره ﴿٤٦﴾ أي ولتسير السفن في البحر عند هبوب الرياح بإذنه وإرادته ﴿٤٧﴾ ولتبتغوا من فضله ﴿٤٨﴾ أي ولتطلبوا الرزق بالتجارة في البحر ﴿٤٩﴾ ولعلكم تشكرون ﴿٥٠﴾ أي ولتشكروا نعم الله الجليلة عليكم ﴿٤٦﴾ ولقد أرسلنا من قبلك رسلاً إلى قومهم ﴿٤٧﴾ تسلياً للرسول وتأنيس له بقرب النصر أي ولقد أرسلنا من قبلك يا محمد رسلاً كثيرين إلى قومهم المكذبين كما أرسلناك رسولاً إلى قومك ﴿٤٨﴾ فجاءهم بالبينات ﴿٤٩﴾ أي جاءهم بالمعجزات الواضحات والحجج الساطعات الدالة على صدقهم ﴿٥٠﴾ فانتقمنا من الذين أجمعوا ﴿٤٦﴾ أي فكذبوهم فانتقمنا من الكفرة المجرمين ﴿٤٧﴾ وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ﴿٤٨﴾ أي كان حقاً واجباً علينا أن ننصر المؤمنين على الكافرين ، والآية اعتراضية جاءت بين الآيات المفصلة لأحكام الرياح تسلياً للنبي عليه السلام قال أبو حيان : والآية اعتراض بين قوله ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات﴾ وبين قوله ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ جاءت تأنيساً للرسول ﷺ وتسلياً له ، ووعداً له بالنصر ، ووعداً لأهل الكفر^(١) ثم ذكر تعالى الحكمة من هبوب الرياح وهي إثارة السحب وإخراج الماء منه فقال ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً﴾ أي يبعث الرياح فتحرك السحاب وتسوقه أمامها ﴿فيسطه في السماء كيف يشاء﴾ أي فينشره في أعالي الجو كيف يشاء خفيفاً أو كثيفاً ، مطبقاً أو غير مطبق ﴿ويجعله كسفاً﴾ أي ويجعله أحياناً قطعاً متفرقة ﴿فترى الودق يخرج من خلاله﴾ أي فتري المطر يخرج من بين السحاب ﴿فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ أي فإذا أنزل ذلك الغيث على من يشاء من خلقه إذا هم يسرون ويفرحون بالمطر ﴿وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين﴾ أي وإن كانوا قبل نزول المطر عليهم يائسين قانطين ، قال البيضاوي : والتكرير للتأكيد والدلالة على تطاول عهدهم بالمطر واستحكام يأسهم^(٢) ﴿فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها﴾ أي فانظر أيها العاقل نظر تدبر واستبصار إلى ما ينشأ عن آثار نعمة الله بالمطر من خضرة الأشجار ، وتفتح الأزهار ، وكثرة الثمار ، وكيف أن الله يجعل الأرض تنبت بعد أن كانت هامدة جامدة ؟ ﴿إن ذلك لمحْيِي الموتى﴾ أي إن ذلك القادر على إحياء الأرض بعد موتها هو الذي يحيي الناس بعد موتهم ﴿وهو على كل شيء قدير﴾ أي مبالغ في القدرة على جميع الأشياء ، لا يعجزه شيء ﴿ولئن

وَلَيْنِ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ * اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ

أرسلنا ريحاً فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا أي ولئن أرسلنا على الزرع بعد خضرته وغموه ريحاً ضارة مفسدة فَرَأَوْا الزرع مصفراً من أثر تلك الرياح ﴿لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ﴾ أي لمكثوا بعد اصفراره يجحدون النعمة ، فشأنهم أنهم يفرحون عند الخصب ، فإذا جاءتهم مصيبة في زرعهم جحدوا سابق نعمة الله عليهم ، ثم نبه تعالى إلى أن هؤلاء الكفار كالأموات لا ينفع معهم نصيح ولا تذكير فقال ﴿فَإِنَّكَ لَا تَسْمَعُ الْمَوْتَى وَلَا تَسْمَعُ الصَّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ أي فإنك يا محمد لا تسمع الأموات ولا تسمع من كان في أذنيه صمم تلك المواعظ المؤثرة ، ولو أن أصم ولى عنك مدبراً ثم ناديته لم يسمع فكذلك الكافر لا يسمع ، ولا ينتفع بما يسمع قال المفسرون : هذا مثل ضرب به الله للكفار فشبههم بالموتى وبالصم والعمى ﴿وَمَا أَنْتَ بِهَادٍ الْعُمَى عَنْ ضَلَالَتِهِمْ﴾ أي ولست بمرشد من أعماه الله عن الهدى ﴿إِنْ تَسْمَعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ أي ما تسمع إلا من يصدق بآياتنا فهم الذين ينتفعون بالموعظة لخضوعهم وانقيادهم لطاعة الله ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعِفٍ﴾ أي الله الذي خلقكم أيها الناس من أصل ضعيف وهو النطفة ، وجعلكم تتقلبون في أطوار الجنين ، الوليد ، الرضيع ، المظوم وهي أحوال في غاية الضعف ، فصار كأن الضعف مادة خلقتكم ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعِفٍ قُوَّةً﴾ أي ثم جعل من بعد ضعف الطفولة قوة الشباب ﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشِبْهَةً﴾ أي ثم جعل من بعد قوة الشباب ضعف الهرم والشيخوخة ، ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ أي يخلق ما يشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب وهو العليم القدير أي وهو العليم بتدبير الخلق ، القدير على ما يشاء قال أبو حيان : وجعل الخلق من ضعف لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته وطفولته ، ثم حال الشيخوخة والهرم ، والترداد في هذه الهيئات شاهد بقدرة الصانع وعلمه ^(١) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ أي ويوم تقوم القيامة ويُبْعَثُ الناس للحساب يحلف الكافرون المجرمون بأنهم ما مكثوا في الدنيا غير ساعة قال البيضاوي : وإنما استقلوا مدة لبثهم في الدنيا بالنسبة إلى مدة عذابهم في الآخرة أو نسياناً منهم ^(٢) ﴿كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ﴾ أي كذلك كانوا في الدنيا يصرفون من الحق إلى الباطل ، ومن الصدق إلى الكذب وقال الذين أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ أي وقال العقلاء من أهل الإيمان

لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مُعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّا أَنْتُمْ إِلَّا مُبْتَلُونَ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴿٦٠﴾

والعلم رداً عليهم وتكذيباً لهم : لقد مكثتم فيما كتبه الله في سابق علمه إلى يوم البعث الموعود ﴿فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لا تعلمون﴾ أي فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه ، ولكنكم لم تصدقوا به لتفريطكم في طلب الحق واتباعه ، قال تعالى ﴿فيومئذٍ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم﴾ أي ففي ذلك اليوم لا ينفع الظالمين اعتذارهم ﴿ولا هم يستعتبون﴾ أي لا يقال لهم أرضوا ربكم بتوبة أو طاعة ، لأنه قد ذهب أوان التوبة ﴿ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن من كل مثل﴾ أي ولقد بينا في هذا القرآن العظيم ما يحتاج الناس إليه من المواعظ والأمثال والأخبار والعبر عما يوضح الحق ويزيل اللبس ﴿ولئن جئتكم بآية ليقولنَّ الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون﴾ أي ووالله لئن جئتكم يا محمد بما اقترحوا من الآيات كالعصا والناقة واليد ليقولنَّ المشركون من قومك لفرط عنادهم ما أنت وأصحابك إلا قوم مبطلون ، تُدجلون علينا وتكذبون ﴿كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون﴾ أي مثل ذلك الطبع على قلوب الجهلة المجرمين ، يختم الله على قلوب الكفرة الذين لا يعلمون توحيد الله ولا صفاته ﴿فاصبر إن وعد الله حق﴾ أي فاصبر يا محمد على تكذيبهم وأذاهم فإن وعد الله بنصرتك وإظهار دينك حق لا بد من إنجازه ﴿ولا يستخفَّنك الذين لا يوقنون﴾ أي لا يحملنك على الخفة والقلق جزعاً عما يقوله أولئك الضالون الشاكون ، ولا تترك الصبر بسبب تكذيبهم وإيذائهم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿البر . . والبحر﴾ .

٢ - المجاز المرسل باطلاق الجزء وإرادة الكل ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ .

٣ - جناس الاشتقاق ﴿فأقم وجهك للدين القيم﴾ .

٤ - الاستعارة اللطيفة ﴿فلأنفسهم يمهدون﴾ شبه من قدم الأعمال الصالحة بمن يمهّد فراشه ويوطئه للنوم عليه لثلاً يصيبه في مضجعه ما يؤذيه وينغص عليه مرقده .

٥ - أسلوب الإطناب ﴿ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات ، وليذيقكم من رحمته . .﴾ الآية وذلك لعدداد النعم الكثيرة وكان يكفي أن يقول : ﴿لتبتغوا من فضله﴾ ولكنه أسهب تذكيراً للعباد بالنعم

٦ - جناس الاشتقاق ﴿أرسلنا من قبلك رسلاً﴾ .

- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿فجاءوهم بالبينات فانتقمنا﴾ حذف منه فكذبوهم واستهزؤوا بهم .
- ٨ - الاستعارة التصريحية ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ شبه الكفار بالموتى وبالصم في عدم إحساسهم وسماهم للمواعظ والبراهين بطريق الاستعارة التصريحية .
- ٩ - الطباق بين ﴿ضعف . . وقوة﴾ .
- ١٠ - صيغة المبالغة ﴿العليم القدير﴾ لأن معناه المبالغ في العلم والقدرة .
- ١١ - الجناس التام ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة﴾ المراد بالساعة أولاً القيامة وبالثانية المدة الزمنية فبينهما جناس كامل ، وهذا من المحسنات البديعية .
- تنبية :** الصحيح أن الميت يسمع لقوله ﷺ (ما أنتم بأسمع منهم) وقوله (وإن الميت يسمع قرع نعالهم) وأما قوله تعالى ﴿فإنك لا تسمع الموتى﴾ المراد منه سماع التدبير والاتعاظ ، والله أعلم .
- « تم بعونه تعالى تفسير سورة الروم »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

✽ هذه السورة الكريمة «سورة لقمان» من السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة ، وتعنى بالتركيز على الأصول الثلاثة لعقيدة الإيمان وهي «الوحدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور» كما هو الحال في السور المكية .

✽ ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة ، الباقية الدائمة على مدى الزمان ، وأقامت الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين ، وذكرت دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ، في هذا الكون الفسيح ، المحكم النظام المتناسق في التكوين ، في سمائه وأرضه ، وشمسه وقمره ، ونهاره وليله ، وفي جباله وبحاره ، وأمواجه وأمطاره ، ونباته وأشجاره ، وفي سائر ما يشاهده المرء من دلائل القدرة والوحدانية ، مما يأخذ بالقلب ، ويهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها إلا التسليم بقدرة الخالق العظيم .

✽ كما لفتت أنظار المشركين إلى دلائل القدرة والوحدانية منبهة في هذا الكون البديع ، وهزت كيانهم هزاً ﴿هَذَا خَلَقَ اللَّهُ فَأَرْوَنِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ .

✽ وختمت السورة الكريمة بالتحذير من ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ ، وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا . .﴾ الآية .

التسمية : سميت سورة لقمان لاشتغالها على قصة «لقمان الحكيم» التي تضمنت فضيلة الحكمة وسر معرفة الله تعالى وصفاته ، وذم الشرك ، والأمر بمكارم الأخلاق ، والنهي عن القبائح والمنكرات وما تضمنته كذلك من الوصايا الثمينة التي أنطقه الله بها ، وكانت من الحكمة والرشاد بمكان ! .

اللفظة : «الحكيم» المحكم الذي لا خلل فيه ولا تناقض ﴿يُوقِنُونَ﴾ اليقين : التصديق الجازم ﴿هُوَ الْحَدِيثُ﴾ الباطل الملهي عن الخير والعبادة ﴿وَقَرَأَ﴾ ثَقْلًا وصمماً يمنع من السماع ﴿عَمَدٌ﴾ جمع عماد وهو الدعامة التي يرتكز عليها الشيء ﴿رَوَّاسِي﴾ جبالاً ثوابت ، ورست السفينة : إذا ثبتت واستقرت ﴿تَمِيدُ﴾ تتحرك وتضطرب ﴿بَثْ﴾ نشر وفرق .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أن «النضر بن الحارث» كان يشتري المغنّيات ، فلا يظفر بأحدٍ يريد الإسلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ ﴿٢﴾ هُدًى وَرَحْمَةً لِلْمُحْسِنِينَ ﴿٣﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٤﴾ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿٦﴾

إلا انطلق به إلى قينته « المغنية » فيقول لها : أطعميه ، واسقيه الخمر ، وغنيه ، ويقول : هذا خير مما يدعوك إليه محمد ، من الصلاة والصيام ، وأن تقاتل بين يديه فأنزل الله ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله . . .﴾ (١) الآية .

التفسير : ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن ، وللإشارة إلى أن هذا الكتاب المعجز الذي أفحم العلماء والأدباء والفصحاء والبلغاء منظوم من أمثال هذه الحروف الهجائية «ألف ، لام ، ميم » وهي في متناول أيدي الناطقين بالعربية ، وهم عاجزون أن يؤلفوا منها كتاباً مثل هذا الكتاب بعد التحدي والإفحام ، وهذا من أظهر الدلائل وأوضح البراهين على أنه تنزيل الحكيم العليم ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب البديع ، الذي فاق كل كتاب في بيانه ، وتشريع ، وأحكامه ﴿الحكيم﴾ أي ذي الحكمة الفائقة ، والعجائب الرائقة ، الناطق بالحكمة والبيان ، والإشارة بالبعيد عن القريب « تلك » للإيذان ببعده منزلة في الفضل والشرف ﴿هدى ورحمة للمحسنين﴾ أي هداية ورحمة للمحسنين الذين أحسنوا العمل في الدنيا ، وإنما خصوا بالذكر لأنهم هم المتفعون بما فيه ، ثم وضع تعالى صفاتهم فقال ﴿الذين يقيمون الصلاة﴾ أي يؤدونها على الوجه الأكمل بأركانها وخشوعها وآدابها ﴿ويؤتون الزكاة﴾ أي يدفعونها إلى مستحقيها طيبة بها نفوسهم ابتغاء مرضاة الله ﴿وهم بالآخرة هم يوقنون﴾ أي يصدقون بالدار الآخرة ويعتقدون بها اعتقاداً جازماً لا يخالطه شك ولا ارتياب ، وكرر الضمير « هم » للتأكيد وإفادة الحصر ﴿أولئك على هدى من ربهم﴾ أي أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة على نور وبصيرة ، ومنهج واضح سديد ، من الله العزيز الحميد ﴿وأولئك هم المفلحون﴾ أي هم الفائزون السعداء في الدنيا والآخرة قال أبو حيان : وكرر الإشارة ﴿وأولئك﴾ تنبيهاً على عظم قدرهم وفضلهم (٢) ، ولما ذكر تعالى حال السعداء ، الذين اهتدوا بكتاب الله وانتفعوا بسماحه ، عطف عليهم بذكر حال الأشقياء ، الذين أعرضوا عن الانتفاع بسماح كلام الله ، وأقبلوا على استماع الغناء والمزامير فقال ﴿ومن الناس من يشتري لهو الحديث﴾ أي ومن الناس من يشتري ما يلهي عن طاعة الله ، ويصد عن سبيله ، مما لا خير ولا فائدة فيه قال الزمخشري : واللهو كل باطل ألهى عن الخير ، نحو

(١) انظر أسباب النزول للواحدي ، وتفسير القرطبي والبحر المحيط . (٢) البحر ١٨٣/٧ .

وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧﴾ إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ﴿٨﴾ خَالِدِينَ فِيهَا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٩﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَقْصَى فِي الْأَرْضِ رَوْسَى أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا

السمر بالأساطير ، والتحدث بالخرافات المضحكة ، وفضول الكلام وما لا ينبغي^(١) ، وروى ابن جرير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه سئل عن الآية فقال : والله الذي لا إله إلا هو - يكررها ثلاثاً - إنما هو الغناء^(٢) ، وقال الحسن البصري : نزلت هذه الآية في الغناء والمزامير^(٣) ﴿لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ أي ليُضِلَّ الناس عن طريق الهدى ، ويُبعدهم عن دينه القويم ، بغير حجة ولا برهان ﴿وَيَتَّخِذَهَا مَزْوَاجًا﴾ أي ويتخذ آيات الكتاب المجيد سخرية واستهزاء ، وهذا أدخل في القبح ، وأغرق في الضلال ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ أي لهم عذاب شديد مع الذلة والهوان ﴿وَإِذَا تَنَزَّلَ عَلَيْهِ آيَاتُنَا﴾ أي وإذا قرئت عليه آيات القرآن ﴿وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ أي أعرض وأدبر متكبراً عنها كأنه لم يسمعها ، شأن المتكبر الذي لا يلتفت إلى الكلام ، ويجعل نفسه كأنها غافلة ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾ أي كأن في أذنيه ثقلاً وصمماً يمنعانه عن استماع آيات الله ﴿فَبَشَّرَهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ أي أنذره يا محمد بعذاب مؤلم ، مفرط في الشدة والايلام ، ووضع البشارة مكان الإنذار تهكم وسخرية قال في البحر : تضمنت هذه الآية ذم المشتري من وجوه : التولية عن الحكمة ، ثم الاستكبار عن الحق ، ثم عدم الالتفات إلى سماع الآيات ، ثم الإيغال في الإعراض مشبهاً حال من لم يسمعها ، لكونه لا يلقي لها بالاً ولا يلتفت إليها ، ثم التهكم به بالبشارة بأشد العذاب^(٤) . . ولما ذكرنا وعد به الكفار من العذاب الأليم ، ذكرنا وعد به المؤمنين من جنات النعيم فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ، وبين حسن النية وإخلاص العمل ﴿لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أي لهم على إيمانهم واستقامتهم على شريعة الله جنات الخلد يتمتعون فيها بأنواع الملاذ ، من المأكّل والمشرب والملابس ، والنساء والخور العين ، وسائر ما أكرمهم الله به من الفضل والإنعام ، مما لا عين رأت ولا أُذُن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أي دائمين في تلك الجنات ، لا يخرجون منها أبداً ، ولا ييغون عنها حولاً ﴿وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا﴾ أي وعداً من الله قاطعاً ، كائناً لا محالة ، لا خلف فيه لأن الله لا يخلف الميعاد ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ أي هو تعالى العزيز الذي لا يغلبه شيء ليمنعه عن إنجاز وعده ، الحكيم الذي لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة . . ثم نبّه تعالى إلى دلائل قدرته ، وأثار عظمته وجلاله لإقامة البراهين على وحدانيته فقال ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ أي خلق السموات في سعتها وعظمتها وإحكامها بدون دعائم ترتكز عليها ، حال كونكم تشاهدونها كذلك واقفة من غير أن

(١) الكشف (٢) الطبري ٣٩/٢١ . (٣) ابن كثير ١٦٣/٣ المختصر وانظر أسباب النزول في بدء السورة الكريمة .

(٤) البحر المحيط ١٨٤/٧ .

فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٌ ﴿١٥﴾ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ۚ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿١٦﴾

تستند على شيء ، ولا تمسكها إلا قدرة الله العلي الكبير ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُقِيدَ بِكُمْ﴾ أي جعل فيها جبلاً ثوابت لثلاث تتحرك وتضطرب بكم فتهلككم بأن تقلبكم عن ظهرها ، أو تهدم بيوتكم بتزلزلها قال الإمام الفخر : واعلم أن الأرض ثباتها بسبب ثقلها ، وإلا كانت تزول عن موضعها بسبب المياه والرياح ، ولو خلقها تعالى مثل الرمل لما كانت تثبت للزراعة ، كما نرى الأراضي الرملية ينتقل الرمل الذي فيها من موضع الى موضع ، فهذه هي حكمة إرسائها بالجبال^(١) ، فسبحان الكبير المتعال ﴿وَبِثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾ أي ونشر وفرق في أرجاء الأرض من كل أنواع الحيوانات والدواب من مأكول ومركوب ، مما لا يعلم عدد أشكالها وألوانها إلا الذي خلقها ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي وأنزلنا لحفظكم وحفظ دوابكم المطر من السحاب ﴿فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ أي فأنبتنا في الأرض من كل نوع من النبات ، ومن كل صنف من الأغذية والأدوية ﴿كَرِيمٍ﴾ أي كثير المنافع ، بديع الخلق والتكوين^(٢) ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ﴾ أي هذا الذي تشاهدونه وتعاينونه أيها المشركون هو من مخلوقات الله ، فانظروا في السموات والأرض ، والإنسان ، والنبات ، والحيوان ، وسائر ما خلق الله ثم تفكروا في آثار قدرته ، وبديع صنعته ، ثم أخبروني ﴿مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ﴾ ؟ أي أي شيء خلقته أهتكم التي عبدتموها من دون الله من الأوثان والأصنام ؟ وهو سؤال على جهة التهكم والسخرية بهم وبآلهتهم المزعومة ، ثم أضرب عن تبكيتهم الى التسجيل عليهم بالضلال الواضح فقال ﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ أي بل المشركون في خسران ظاهر ، وضلال واضح ما بعده ضلال ، لأنهم وضعوا العبادة في غير موضعها ، وعبدوا ما لا يسمع ولا يبصر ولا ينفع ولا يضر ، فهم أضل من الحيوان الأعجم ، لأن من عبد صنماً جامداً ، وترك خالقاً عظيماً مدبراً ، يكون أخطأ شأناً من الحيوان .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - وضع المصدر للمبالغة ﴿هَدَى وَرَحْمَةً لِلْمَحْسِنِينَ﴾
- ٢ - الإشارة بالبعيد ﴿تِلْكَ آيَاتُ﴾ عن القريب ﴿هَذِهِ﴾ لبيان علو الرتبة ورفعة القدر والشأن .
- ٣ - الإطناب بتكرار الضمير واسم الإشارة ﴿وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ يَوْقِنُونَ﴾ أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم ﴿لِزِيَادَةِ الثَّنَاءِ عَلَيْهِمْ وَالتَّكْرِيمِ لَهُمْ﴾ كما أن الجملة تفيد الحصر أي هم المفلحون لا غيرهم .
- ٤ - الاستعارة التصريحية ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لُحُودَ الْخَلْقِ﴾ شبه حالهم بحال من يشتري سلعة

(١) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٤٣/٢٥ . (٢) يقول سيد قطب تغمد الله برحمته في تفسيره الظلال : « والنص القرآني يقرر أن الله أنبت النبات أزواجاً ﴿مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾ وهي حقيقة ضخمة اهتدى إليها العلم قريباً جداً ، فكل نبات له خلايا تذكر ، وخلايا تأنث ، إما مجتمعة في زهرة واحدة ، أو في زهرتين في العود الواحد ، وإما منفصلة في عودين أو شجرتين ولا توجد الثمرة إلا بعد التقاء وتلقيح بين زوج النبات ، كما هو الشأن في الإنسان والحيوان على السواء » .

وهو خاسر فيها ، واستعار لفظ يشترى لمعنى يستبدل بطريق الاستعارة التصريحية .

٥ - التشبيه المرسل المجمل ﴿كَأَنَّ فِي أُذُنِهِ قِرَاءً﴾ ذكرت أداة التشبيه وحذف وجه الشبه فهو تشبيه « مرسل مجمل » .

٦ - أسلوب التهكم ﴿فبشره بعذاب أليم﴾ لأن البشارة إنما تكون في الخير ، واستعمالها في الشر سخريه وتهكم .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿وأنزلنا من السماء﴾ بعد قوله ﴿خلق﴾ ، وألقى ، وبث ﴿ وكلها بضمير الغائب ، ثم التفت فقال ﴿وأنزلنا﴾ تعظيماً لشأن الرحمن ، وتوفيةً لمقام الامتنان ، وهذا من المحسنات البديعية^(١) .

٨ - إطلاق المصدر على اسم المفعول مبالغة ﴿هذا خلق الله﴾ أي مخلوقه .

٩ - الاستفهام للتوبيخ والتبكيت ﴿ماذا خلق الذين من دونه﴾ ؟

١٠ - وضع الظاهر موضع الضمير لزيادة التوبيخ ، وللتسجيل عليهم بغاية الظلم والجهل ﴿بل الظالمون في ضلال مبين﴾ وكان الأصل أن يقال : بل هم في ضلال مبين .

١١ - مراعاة الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿عذاب أليم ، جنات النعيم ، زوج كريم ، الكتاب الحكيم﴾ ويسمى هذا النوع في علم البديع « سجعاً » وأفضله ما تساوت فقره ، وكان سليماً من التكلف ، خالياً من التكرار ، وهو كثير في القرآن الكريم في نهاية الآيات الكريمة .

فكائدة : وصف الكتاب بالحكمة في هذه السورة ﴿الكتاب الحكيم﴾ مناسب لجو السورة الكريمة لأن موضوع الحكمة قد تكرر فيها ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ فناسب أن يختار هذا الوصف من أوصاف الكتاب المجيد ، على طريقة القرآن في التنسيق بين الألفاظ والمواضيع .

قال الله تعالى : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة . . . إلى . . . إن أنكر الأصوات لصوت الحمير﴾

من آية (١٢) إلى نهاية آية (١٩) .

المناسكة : لما بيّن تعالى فساد اعتقاد المشركين ، بسبب عنادهم وإشراكهم من لا يخلق شيئاً بمن هو خالق كل شيء ، ذكر هنا وصايا « لقمان » الحكيم ، وهي وصايا ثمينة في غاية الحكمة والدعوة إلى طريق الرشاد ، وقد جاءت هذه الوصايا مبدوءةً بالتحذير من الشرك الذي هو أقبح الذنوب ، وأعظم الجرائم عند الله .

اللفت : ﴿الحكمة﴾ الإصابة في القول والعمل ، وأصلها وضع الشيء في موضعه قال في اللسان : أحكم الأمر أتقنه ويقال للرجل إذا كان حكيماً : قد أحكمته التجارب ، والحكيم : المتقن

(١) قال الفخر الرازي : وفي هذا الالتفات فصاحة وحكمة ، أما الفصاحة فهي أن السامع إذا سمع كلاماً طويلاً من غط واحد ، ثم ورد عليه غط آخر يستطيه ، ألا ترى أنك إذا قلت : قال زيد كذا ، وقال خالد كذا ، وقال عمرو كذا ، ثم إن بكراً قال قولاً حسناً . . . يستطاب لما قد تكرر القول مراراً ، وأما الحكمة فهو أن إنزال الماء نعمة ظاهرة متكررة في كل زمان ومكان ، فأسند الإنزال الى نفسه صريحاً ليتنبه الإنسان لشكر النعمة ، فيزيد له في الرحمة . التفسير الكبير ٢٥ / ١٤٤ .

وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌ حَمِيدٌ ﴿١٧﴾
وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ ۖ وَهُوَ يَعِظُهُ ۖ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ ۚ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٨﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ

للأمور^(١) ﴿يعظه﴾ ينصحه ويذكره ، والعظة والموعظة : النصيح والإرشاد ﴿وهنا﴾ الوهن : الضعف ومنه ﴿وهن العظم مني﴾ أي ضعف ﴿فصاله﴾ الفصل : الفطام وهو لفظ يستعمل في الرضاع خاصة ، وأما الفصل فهو أعم ، وفصلت المرأة ولدها أي فطمته وتركت إرضاعه ﴿أناب﴾ رجع ، والمنيب الراجع إلى ربه بالتوبة والاستغفار ﴿تصعّر﴾ الصعر : بفتحيتين في الأصل داء يصيب البعير فيلوي منه عنقه ثم استعمل في ميل العنق كبراً وافتخاراً قال عمرو التغلبي :

وكنّا إذا الجبار صعر خده
أقمنا له من ميله فتقوم^(٢)
﴿مرحاً﴾ فرحاً وبطراً وخيلاء ﴿مختال﴾ متبختر في مشيته ﴿اقصد﴾ توسّط ، والقصد : التوسط بين الإسراع والبطء ﴿اغضض﴾ غضّ الصوت خفضه قال جرير :

فغضّ الطرف إنك من غير
فلا كعباً بلغت ولا كلاباً

التفسير : ﴿ولقد آتينا لقمان الحكمة﴾ أي والله لقد أعطينا لقمان الحكمة وهي الإصابة في القول ، والسداد في الرأي ، والنطق بما يوافق الحق ، قال مجاهد : الحكمة : الفقه والعقل ، والإصابة في القول ، ولم يكن نبياً إنما كان حكيماً^(٣) ﴿أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ﴾ أي وقلنا له : اشكر الله على إنعامه وإفضاله عليك حيث خصّك بالحكمة وجعلها على لسانك قال القرطبي : والصحيح الذي عليه الجمهور أن «لقمان» كان حكيماً ولم يكن نبياً وفي الحديث (لم يكن لقمان نبياً ، ولكن كان عبداً كثير التفكير، حسن اليقين ، أحبّ الله تعالى فأحبّه ، فمنّ عليه بالحكمة)^(٤) ﴿ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه﴾ أي ومن يشكر ربه فتواب شكره راجع لنفسه ، وفائدته إنما تعود عليه ، لأن الله تعالى لا يفعه شكر من شكر ، ولا يضره كفر من كفر ولهذا قال بعده ﴿ومن كفر فإنّ الله غنيٌ حميدٌ﴾ أي ومن جحد نعمة الله فإنما أساء إلى نفسه ، لأن الله مستغن عن العباد ، محمود على كل حال ، مستحق للحمد لذاته وصفاته قال الرازي : المعنى أن الله غير محتاج إلى شكر حتى يتضرّر بكفر الكافر ، فهو في نفسه محمود سواء شكره الناس أم لم يشكروه^(٥) ، ثم ذكر تعالى بعض نصائح لقمان لابنه وبدأ بالتحذير له من الشرك ، الذي هو نهاية القبيح والشناعة فقال ﴿وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ﴾ أي واذكر لقومك موعظة لقمان الحكيم لولده ، حين قال له واعظاً ناصحاً مرشداً : يا بني كن عاقلاً ولا تشرك بالله أحداً ، بشراً أو صنماً أو ولداً ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ أي إن الشرك قبيح ، وظلم صارخ لأنه وضعٌ للشيء في غير موضعه ، فمن سوى بين الخالق والمخلوق ، وبين الإله والصنم فهو - بلا شك - أحق الناس ، وأبعدهم عن منطق العقل والحكمة ، وحري به أن يوصف بالظلم ويجعل في عداد البهائم ﴿ووصينا الإنسان بوالديه﴾ أي

(١) لسان العرب مادة حكم . (٢) القرطبي ١٤ / ٦٩ . (٣) الطبري ٢١ / ٤٣ . (٤) القرطبي ١٤ / ٥٩ . (٥) التفسير الكبير ٢٥ / ١٤٥ .

حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَىٰ مَرْجِعِكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَبْنِيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾

أمرناه بالإحسان إليهما لا سيما الوالدة ﴿حملته أمه وهناً على وهن﴾ أي حملته جنيناً في بطنها وهي تزداد كل يوم ضعفاً على ضعف ، من حين الحمل إلى حين الولادة ، لأن الحمل كلما ازداد وعظم ، إزدادت به ثقلاً وضعفاً ﴿وفصاله في عامين﴾ أي وفطامه في تمام عامين ﴿أن أشكر لي ولوالديك﴾ أي وقلنا له : اشكر ربك على نعمة الإيمان والإحسان ، واشكر والدك على نعمة التربية ﴿إلي المصير﴾ أي إلي المرجع والمآب فأجازي المحسن على إحسانه ، والمسيء على إساءته قال ابن جزي : وقوله ﴿أن أشكر﴾ تفسير للوصية ، واعترض بينها وبين تفسيرها بقوله ﴿حملته أمه وهناً على وهن وفصاله في عامين﴾ ليبين ما تكابده الأم بالولد مما يوجب عظيم حقها ، ولذلك كان حقها أعظم من حق الأب ^(١) ﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما﴾ أي وإن بذلا جهدهما ، وأقصى ما في وسعهما ، ليحملاك على الكفر والإشراك بالله فلا تطعهما ، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق ﴿وصاحبهما في الدنيا معروفاً﴾ أي وصاحبهما في الحياة الدنيا بالمعروف والإحسان إليهما - ولو كانا مشركين - لأن كفرهما بالله لا يستدعي ضياع المتاعب التي تحمّلها في تربية الولد ، ولا التكر بالجميل ﴿واتبع سبيل من أناب إلي﴾ أي واسلك طريق من رجع إلى الله بالتوحيد والطاعة والعمل الصالح ﴿ثم إلي مرجعكم فأنبئكم بما كنتم تعملون﴾ أي مرجع الخلق إلى الله فيجازيهم على أعمالهم ، والحكمة من ذكر الوصية بالوالدين - ضمن وصايا لقمان - تأكيد ما أفادته الآية الأولى من تقبيح أمر الشرك ﴿إن الشرك لظلم عظيم﴾ فكأنه تعالى يقول : مع أننا وصينا الإنسان بوالديه ، وأمرناه بالإحسان إليهما والعطف عليهما ، وألزمناه طاعتهما بسبب حقهما العظيم عليه ، مع كل هذا فقد نهيناه عن طاعتهما في حالة الشرك والعصيان ، لأن الإشراك بالله من أعظم الذنوب ، وهو في نهاية القبح والشناعة . . ثم رجع الكلام إلى وصايا لقمان فقال تعالى ﴿يا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ﴾ أي يا ولدي إن الخطيئة والمعصية مهما كانت صغيرة حتى ولو كانت وزن حبة الخردل في الصغر ﴿فتكن في صخرة أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ أي فتكن تلك السيئة - مع كونها في أقصى غايات الصغر - في أخفى مكان وأحرزه ، كجوف الصخرة الصماء ، أو في أعلى مكان في السماء أو في الأرض يحضرها الله سبحانه ويحاسب عليها ، والغرض التمثيل بأن الله لا تخفى عليه خافية من أعمال العباد ﴿إن الله لطيف خبير﴾ أي هو سبحانه لطيف بالعباد خبير

يَبْنِيْ اَقِمِ الصَّلَاةَ وَاْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاَصْبِرْ عَلَى مَا اَصَابَكَ ^ط اِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾
وَلَا تُصْعِرْ خَدَكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ^ط اِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاَقْصِدْ فِي مَشْيِكَ
وَأَغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ ^ج اِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾

أي عالم ببواطن الأمور ﴿يا بني أقم الصلاة﴾ أي حافظ على الصلاة في أوقاتها وبخشوعها وآدابها
﴿وأمر بالمعروف وانه عن المنكر﴾ أي وأمر الناس بكل خير وفضيلة ، وانهم عن كل شر ورذيلة
﴿واصبر على ما أصابك﴾ أي اصبر على المحن والبلايا ، لأن الداعي إلى الحق معرض لا يصال الأذى
إليه قال أبو حيان : لما نهاه أولاً عن الشرك ، وأخبره ثانياً بعلمه تعالى وباهر قدرته ، أمره بما يتوسل به إلى
الله من الطاعات ، فبدأ بأشرفها وهي الصلاة ، ثم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم بالصبر على ما
يصيبه من المحن بسبب الأمر بالمعروف ، فكثيراً ما يؤذى فاعل ذلك ^(١) ﴿إن ذلك من عزم الأمور﴾ أي
إن ذلك المذكور مما عزمه الله وأمر به قال ابن عباس : من حقيقة الإيمان الصبر على المكاره وقال الرازي :
معناه إن ذلك من الأمور الواجبة المعزومة أي المقطوعة ، فالمصدر بمعنى المفعول ^(٢) ﴿ولا تُصْعِرْ خَدَكَ
لِلنَّاسِ﴾ أي لا تمل وجهك عنهم تكبراً عليهم قال القرطبي : أي لا تمل خدك للناس كبراً عليهم
وإعجاباً ، وتحقيراً لهم ، وهو قول ابن عباس ^(٣) ﴿ولا تمش في الأرض مرحاً﴾ أي لا تمش متبختراً متكبراً
﴿إن الله لا يحب كل مختال فخور﴾ تعليل للنهي أي لأن الله يكره المتكبر الذي يرى العظمة لنفسه ،
ويتكبر على عباد الله ، المتبختر في مشيته ، والفخور الذي يفتخر على غيره ، ثم لما نهاه عن الخلق الذميم ،
أمره بالخلق الكريم فقال ﴿واقصد في مشيك﴾ أي توسّط في مشيتك واعتدل فيها بين الإسراع والبطء
﴿واغضض من صوتك﴾ أي اخفض من صوتك فلا ترفعه عالياً فإنه قبيح لا يجمل بالعاقل ﴿إن أنكر
الأصوات لصوت الحمير﴾ أي إن أوحش الأصوات صوت الحمير فمن رفع صوته كان ممثلاً لهم ، وأتى
بالمكر القبيح قال الحسن : كان المشركون يتفاخرون برفع الأصوات فرد عليهم بأنه لو كان خيراً لفضلتهم
به الحمير ، وقال قتادة : أقبح الأصوات صوت الحمير ، أوله زفير وآخره شهيق .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البلاغة والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿شكر . . وكفر﴾ .
- ٢ - صيغة المبالغة ﴿غني حميد﴾ وكذلك ﴿لطيف خبير﴾ و﴿فخور﴾ لأن فاعيل وفعل من صيغ
المبالغة ومعناه كثير الحمد وكثير الفخر .
- ٣ - ذكر الخاص بعد العام ﴿بوالديه حملته أمه﴾ وذلك لزيادة العناية والاهتمام بالخاص .
- ٤ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر مثل ﴿إلى المصير﴾ ﴿إلى مرجعكم﴾ أي لا إلى غيري .

(١) البحر المحيط ٧/ ١٨٨ . (٢) التفسير الكبير ٢٥/ ١٤٩ . (٣) القرطبي ١٤/ ٧٠ .

٥ - التمثيل ﴿إِنهَا إِنْ تَكْ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ مثل ذلك لسعة علم الله وإحاطته بجميع الأشياء صغيرها وكبيرها ، جليلها وحقيقها فإنه تعالى يعلم أصغر الأشياء في أخفى الأمكنة .

٦ - التتميم ﴿فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ﴾ تَمَّ خفاءها في نفسها بخفاء مكانها وهذا من البديع .

٧ - المقابلة ﴿وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ﴾ ثم قال ﴿وَأَنَّهُ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ فقابل بين اللفظين .

٨ - الاستعارة التمثيلية ﴿إِنْ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتُ لَصُوتِ الْحَمِيرِ﴾ شبه الرافعين أصواتهم بالحمير ، وأصواتهم بالنهيق ، ولم يذكر أداة التشبيه بل أخرجه مخرج الاستعارة للمبالغة في الذم ، والتنفير عن رفع الصوت .

تَبْيِيْهُ : حين أمر تعالى بشكر الوالدين قدَّم شكره تعالى على شكرهما فقال ﴿أَنْ أَشْكُرَ لِي﴾ ثم أردفه بقوله ﴿وَلَوْلَا دِيكَ﴾ وذلك لإشعارنا بأن حق الله أعظم من حق الوالدين ، لأنه سبحانه هو السبب الحقيقي في خلق الإنسان ، والوالدان سبب في الصورة والظاهر ، ولهذا حَرَّمَ تعالى طاعتها على الإنسان إذا أراد إجباره على الكفر .

قال الله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ . . . إِلَى . . . إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ من آية (٢٠) إلى آية (٣٤) نهاية السورة الكريمة

الْمَنَاسِكَةُ : لما حذَّر تعالى من الشرك ، وأكد بوصايا لقمان الحكيم في الإيمان ومكارم الأخلاق ، ذكر هنا الأدلة الساطعة ، والبراهين القاطعة على وحدانيته تعالى ، ونَبَّه بالصنعة على الصانع ، وما له من نعم لا تُحصى من تسخير السموات بما فيها من الشمس ، والقمر ، والنجوم ، والسحاب ، وتسخير الأرض وما فيها من الحيوان ، والنبات ، والمعادن ، والبحار ، وغير ذلك من الأدلة الشاهدة بوحدانيته ، وختم السورة الكريمة ببيان « المغيبات الخمس » .

الْفَسْخُ : ﴿أَسْبَغَ﴾ أتم وأكمل يقال : سبغت النعمة سبوغاً إذا تمت ﴿أَسْتَمْسَكَ﴾ تمسك وتعلق واعتصم ﴿نَفَدَتْ﴾ فنت وفرغت ﴿يُولِجُ﴾ يدخل والإيلاج : الإدخال ومنه ﴿حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ الفلك السفن ﴿كَالظِّلِّ﴾ الظلل : جمع ظلة وهي كل ما أظلك من جبل أو سحاب ﴿خَتَّارٌ﴾ الختَّار : الغدار ، والختَر : أسوء الغدر قال الشاعر :

فإنك لو رأيت أبا عمير ملأت يديك من غدر وختر^(١)
﴿الغرور﴾ ما يغرُّ ويخدع من شيطان وغيره ، وغرَّه الأمل : خدعه .

أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَهْرَهُ وَبَاطِنَهُ وَمِنَ النَّاسِ

النَّفْسِيرُ : ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي ألم تعلموا أيها الناس أن الله العظيم الجليل سخر لكم ما في السموات من شمس وقمر ونجوم لتنتفعوا بها ، وسخر لكم ما في الأرض من جبال وأشجار وثمار وأنهار وغير ذلك مما لا تُحصى ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً

مَنْ يُجَادِلْ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾ * وَمَنْ يُسَلِّمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَنْ كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُ ۚ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٢٣﴾

وباطنة ﴿٢٠﴾ أي وأتم عليكم أيها الناس نعمه العديدة ، الظاهرة المرئية كنعمة السمع والبصر والصحة والإسلام ، والباطنة الخفية كالقلب والعقل والفهم والمعرفة وما أشبه ذلك قال البيضاوي : أي أسبغ عليكم نعمه المحسوسة والمعقولة ، ما تعرفونه وما لا تعرفونه ^(١) ﴿٢١﴾ ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ﴿٢٢﴾ أي ومن الناس فريق جاحدون يخاصمون ويجادلون في توحيد الله وصفاته بغير علم ولا فهم ، ولا حجة ولا برهان ، ولا كتاب منزل من عند الله قال القرطبي : نزلت في يهودي جاء إلى النبي ﷺ فقال يا محمد : أخبرني عن ربك من أي شيء هو ؟ فجاءت صاعقة فأخذته ^(٢) ، والمنير : الواضح البين المنقذ من ظلمة الجهل والضلال ﴿٢٣﴾ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ﴿٢٤﴾ أي وإذا قيل لهؤلاء المجادلين بالباطل اتبعوا ما أنزل الله على رسوله ، وصدقوا به فإنه يفرق بين الحق والباطل ، والهدى والضلال ﴿٢٥﴾ قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آبائنا ﴿٢٦﴾ أي قالوا نسير على طريقة آبائنا ونقتدي بهم في عبادة الأوثان والأصنام ﴿٢٧﴾ أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴿٢٨﴾ الاستفهام للإنكار والتوبيخ أي أتبعونهم ولو كانوا ضالين ، حتى ولو كان الشيطان يدعوهم إلى النار المستعرة ذات العذاب الشديد ؟ ﴿٢٩﴾ ومن يسلم وجهه إلى الله ﴿٣٠﴾ أي ومن يقبل على طاعة الله وينقاد لأوامره ، ويخلص قصده وعبادته لله ﴿٣١﴾ وهو محسن ﴿٣٢﴾ أي وهو مؤمن موحد قال القرطبي : لأن العبادة من غير إحسان ولا معرفة القلب لا تنفع ^(٣) ، ونظير الآية ﴿٣٣﴾ ومن يعمل من الصالحات وهو مؤمن ﴿٣٤﴾ فلا بد من الإيمان والإحسان ﴿٣٥﴾ فقد استمسك بالعروة الوثقى ﴿٣٦﴾ أي تمسك بحبل لا انقطاع له ، وتعلق بأوثق ما يتعلق به من الأسباب قال صاحب الكشف : هذا من باب التمثيل ، مثلت حال المتوكل بحال من تدلى من شاهق فاحتاط لنفسه بأن استمسك بأوثق عروة ، من حبل متين مأمون انقطاعه ^(٤) وقال الرازي : أوثق العرى جانب الله ، لأن كل ما عداه هالك منقطع ، وهو باق لا انقطاع له ^(٥) ﴿٣٧﴾ وإلى الله عاقبة الأمور ﴿٣٨﴾ أي إلى الله وحده - لا إلى أحد سواه - مرجع ومصير الأمور كلها فيجازي العامل عليها أحسن الجزاء ﴿٣٩﴾ ومن كفر فلا يحزنك كفره ﴿٤٠﴾ تسلياً للرسول ﷺ أي لا يهمنك يا محمد كفر من كفر ، ولا ضلال من ضل ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ، فإننا سننتقم منهم إن عاجلاً أو آجلاً ﴿٤١﴾ إلينا مرجعهم فننبئهم بما عملوا ﴿٤٢﴾ أي إلينا

(١) البيضاوي ١٠٩/٢ (٢) القرطبي ٧٤/١٤ وقيل : نزلت في « النضر بن الحارث » و« أبي بن خلف » وأشباههما الذين كانوا يجادلون النبي ﷺ في وحدانيته تعالى وصفاته ، من غير علم عقلي ولا دليل شرعي .

(٣) القرطبي ٧٤/١٤ . (٤) الكشف ٣/٣٩٥ . (٥) التفسير الكبير للفخر الرازي ١٥٤/٢٥ .

نُتِعْتَهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضَظَرُهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾ وَلَٰكِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَمٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَا خَلَقَكُمْ وَلَا بَعَثَكُمْ إِلَّا كُنْفُسًا وَاحِدَةً ﴿٢٨﴾ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٩﴾

رجوعهم ، فنخبرهم بأعمالهم التي عملوها في الدنيا ﴿إن الله عليم بذات الصدور﴾ أي عليم بما في قلوبهم من المكر والكفر والتكذيب فيجازيهم عليها ﴿نُتِعْتَهُمْ قَلِيلًا﴾ أي نبقهم في الدنيا مدة قليلة يتمتعون بها ﴿ثم نضظرهم إلى عذاب غليظ﴾ أي ثم نلجئهم في الآخرة إلى عذاب شديد هو عذاب النار ، الفطيع الشاق على النفس ، ثم لما بين تعالى استحقاقهم للعذاب ، بين تناقضهم في الدنيا وهو اعترافهم بأن الله خالق السموات والأرض ، ومع هذا يعبدون معه شركاء يعترفون أنها ملك له وأنها مخلوقاته فقال ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ الله﴾ أي ولئن سألت يا محمد هؤلاء المشركين من كفار مكة من خلق السموات والأرض ؟ ليقولنَّ - لغاية وضوح الأمر - الله خلقهن فقد اضطروا إلى الاعتراف به ﴿قل الحمد لله﴾ أي قل لهم : الحمد لله على ظهور الحجة عليكم ، وعلى أن دلائل الإيمان ظاهرة للعيان ﴿بل أكثرهم لا يعلمون﴾ أي بل أكثر هؤلاء المشركين لا يفكرون ولا يتدبرون فلذلك لا يعلمون ، ثم قال تعالى ﴿لله ما في السموات والأرض﴾ أي له جلّ وعلا ما في الكائنات ملكاً وخلقاً وتدبيراً ﴿إن الله هو الغنيُّ الحميد﴾ أي المستغني عن خلقه وعن عبادتهم ، المحمود في صنعه وآلائه ﴿ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام﴾ أي ولو أن جميع أشجار الأرض جعلت أقلاماً ﴿والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر﴾ أي وجعل البحر بسعته حبراً ومداداً وأمدّه سبعة أبحر معه فكتبت بها كلمات الله الدالة على عظمتهم وصفاته وجلاله ﴿ما نفدت كلمات الله﴾ أي لانتهت وفنيت تلك الأقلام والبحار وما انتهت كلمات الله ، لأن الأشجار والبحار متناهية ، وكلمات الله غير متناهية قال القرطبي : لما ذكر تعالى أنه سخر لهم ما في السموات وما في الأرض ، وأنه أسبغ النعم ، نبّه على أن الأشجار لو كانت أقلاماً ، والبحار لو كانت مداداً ، فكتب بها عجائب صنع الله ، الدالة على قدرته ووحدانته لم تنفذ تلك العجائب^(١) وقال ابن الجوزي : وفي الكلام محذوف تقديره : فكتب بهذه الأقلام وهذه البحور كلمات الله ، لتكسرت الأقلام ونفدت البحور ولم تنفذ كلمات الله أي لم تنقطع^(٢) ﴿إن الله عزيز حكيم﴾ أي غالب لا يعجزه شيء ، حكيم لا يخرج عن علمه وحكمته أمر ﴿ما خلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة﴾ أي ما خلقكم أيها الناس ابتداءً ، ولا بعثكم بعد الموت انتهاءً إلا كخلق نفس واحدة وبعثها ، لأنه إذا أراد شيئاً قال له كن فيكون ، قال الصاوي : المعنى أن الله لا يصعب عليه شيء ، بل

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ أَلِيلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتَسْخَرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٦٩﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَطْلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٧٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٧١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُّقْنَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الْأَكْلُ

خلق العالم وبعثه برُمته كخلق نفسٍ واحدةٍ وبعثها^(١) ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ أي سميع لأقوال العباد ، بصير بأعمالهم ، ثم أشار تعالى الى دلائل قدرته في الآفاق فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ أي ألم تعلم أيها المخاطب علماً قوياً جارياً مجرى الرؤية ، أن الله العظيم الجليل يدخل ظلمة الليل على ضوء النهار ، ويدخل ضوء النهار على ظلمة الليل ، ويزيد في هذا ويُتقص من هذا حسب الحكمة الأزلية ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي ذلّلها بالطلوع والأفول تقديراً للأجل ، وإتماماً للمنافع ، كلٌ منهما يسير في فلكه إلى غاية محدودة هي يوم القيامة ﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أي وأنه تعالى عالم بأحوالكم وأعمالكم لا تخفى عليه خافية ، فإن من شاهد مثل ذلك الصنع الرائق ، والتدبير الفائق ، لا يكاد يغفل عن كون صانعه جل وعلا محيطاً بكل أعماله ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ أي ذلك الذي شاهدتموه من عجائب الصنع وباهر القدرة ، لتتأكدوا أن الله هو الإله الحق الذي يجب أن يعبد وحده ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ﴾ أي وأن كل ما يعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام باطل لا حقيقة له كما قال لبيد «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» فالجميع خلقه وعبيده ، ولا يملك أحدٌ منهم تحريك ذرةٍ إلا بإذنه ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ أي وأنه تعالى هو العليُّ في صفاته ، الكبير في ذاته ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَةِ اللَّهِ﴾ تذكيرٌ بنعمة أخرى أي ألم ترأيها العاقل أن السفن العظيمة تسير في البحر بقدرة الله ، وبتسخيره ولطفه بالناس وإحسانه إليهم ، لتهيئة أسباب الحياة قال ابن كثير : يخبر تعالى أنه هو الذي سَخَّرَ البحر لتجري فيه الفلك بأمره أي بلطفه وتسخيره ، فإنه لولا ما جعل في الماء من قوةٍ يحمل بها السفن ما جرت^(٢) ، ولهذا قال بعده ﴿لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ﴾ أي ليرىكم عجائب صنعه ، ودلائل قدرته ووحدانيته ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ أي إن في تسخير هذه السفن وما تحمله من الطعام والأرزاق والتجارات ، آيات باهرة ، وعبراً جلية لكل عبد منيب ، صَبَّارٍ في الضراء ، شَكُورٍ في الرخاء . ولفظة «صَبَّارٌ» و«شَكُورٌ» مبالغة في الصبر والشكر ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ﴾ أي وإذا علا المشركين وغطّاهم وهم في البحر موج كثيف كالجبال ﴿دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي أخلصوا دعاءهم لله حين علموا أنه لا منجي لهم غيره فلا يدعون لخلاصهم سواه ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ﴾ أي فلما أنقذهم من شدائد البحر ، وأخرجهم إلى شاطئ النجاة

خَتَارِ كُفُورٍ ﴿٣٢﴾ يَأْتِيهَا النَّاسُ آتِقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا ۚ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾

في البر ﴿فمنهم مقتصد﴾ في الآية حذف تقديره فمنهم مقتصد ، ومنهم جاحد ، ودل عليه قوله ﴿وما يحجد بآياتنا﴾ والمقتصد : المتوسط في العمل قال ابن كثير : وهذا من باب الإنكار على من شاهد تلك الأحوال ، والأمور العظام ، ورأى الآيات الباهرة في البحر ، ثم بعدما أنعم الله عليه بالخلاص كان ينبغي أن يقابل ذلك بالعمل التام ، والمبادرة إلى الخيرات ، والدؤوب في العبادات ، فمن اقتصد بعد ذلك كان مقصراً^(١) ﴿وما يحجد بآياتنا إلا كلُّ ختار كفور﴾ أي وما يكذب بآياتنا إلا كل غدار ، مبالغ في كفران نعم الله تعالى ﴿يا أيها الناس اتقوا ربكم﴾ أي اتقوا ربكم بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه ﴿واخشوا يوماً

لا يجزي والد عن ولده﴾ أي وخافوا يوماً رهيباً عصياً لا ينفع والد فيه ولده ، ولا يدفع عنه مضرة ، أو يقضي عنه شيئاً مما تحمله ﴿ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً﴾ أي ولا ولد يغني أو يدفع عن والده شيئاً ، أو يقضي عنه شيئاً من جنايته ومظالمه قال الطبري : المعنى لا يغني ولا تنفع عنده الشفاعة والوسائل ، إلا وسيلة من صالح الأعمال التي أسلفها في الدنيا^(٢) ﴿إن وعد الله حق﴾ أي وعده بالثواب والعقاب ، والبعث والجزاء حق لا يتخلف ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي لا تخدعنكم الحياة الدنيا بمفاتنها ولذاتها فتركوا إليها ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان الماكر الذي يغر الخلق ويمنيهم بأباطيله ويلهبهم عن الآخرة ﴿إن الله عنده علم الساعة﴾ هذه هي مفاتيح الغيب التي اختص الله بعلمها وهي خمس كما جاء في الحديث الصحيح (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله وتلا الآية)^(٣) أي عنده تعالى معرفة وقت قيام الساعة التي تقوم فيها القيامة ﴿ويُنزل الغيث﴾ أي وعنده معرفة وقت نزول المطر ومحل نزوله ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي من ذكر أو أنثى ، شقي أو سعيد ﴿وما تدري نفس ماذا تكسب غداً﴾ أي ما تدري أحد ماذا يحدث له في غد ، وماذا يفعل من خير أو شر ﴿وما تدري نفس بأي أرض تموت﴾ أي كما لا تدري أحد أين يموت ، ولا في أي مكان يقبر ﴿إن الله عليم خبير﴾ أي مبالغ في العلم ، يعلم كل الأمور ، خبير بظواهر الأشياء وبواطنها .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين قوله ﴿ظاهرة .. وباطنة﴾ وكذلك بين لفظ ﴿الحق .. والباطل﴾ .

- ٢ - الإنكار والتوبيخ مع الحذف ﴿أولو كان الشيطان يدعوهم﴾ أي أيتبعونهم ولو كان الشيطان الخ .
- ٣ - المجاز المرسل ﴿ومن يسلم وجهه﴾ أطلق الجزء وأراد الكل ففيه مجاز مرسل .
- ٤ - التشبيه التمثيلي ﴿فقد استمسك بالعروة الوثقى﴾ شبه من تمسك بالإسلام بمن أراد أن يرقى إلى شاهق جبل فتمسك بأوثق حبل ، وحذف أداة التشبيه للمبالغة .
- ٥ - المقابلة بين ﴿ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن﴾ وبين ﴿ومن كفر فلا يحزنك كفره﴾ الآية .
- ٦ - الاستعارة ﴿عذاب غليظ﴾ استعار الغلظ للشدة لأنه إنما يكون للأجرام فاستعير للمعنى .
- ٧ - تقديم ما حقه التأخير لإفادة الحصر ﴿وإلى الله عاقبة الأمور﴾ أي إليه لا إلى أحدٍ غيره .
- ٨ - صيغ المبالغة في التالي ﴿صَبَّارٌ شَكُورٌ﴾ و﴿خَتَّارٌ كَفُورٌ﴾ و﴿عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ و﴿سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ كما أن فيها توافق الفواصل وهو من المحسنات البديعية ويسمى بالسجع .

« تم تفسير سورة لقمان ولله الحمد والمنة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

سورة السجدة مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والكتب والرسول ، والبعث والجزاء » والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو موضوع « البعث بعد الفناء » الذي طالما جادل المشركون حوله ، واتخذوه ذريعةً لتكذيب الرسول عليه الصلاة والسلام .

✽ تبتدىء السورة الكريمة بدفع الشك والارتياب عن القرآن العظيم ، المعجزة الكبرى لرسول الله ﷺ ، الذي لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وإشراقه بيانه ، وسمو أحكامه ، اتهم المشركون الرسول بأنه افترى هذا القرآن ، واختلقه من تلقاء نفسه ، فجاءت السورة الكريمة تردُّ هذا البهتان ، بروائع الحجة والبرهان .

✽ ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، ببيان آثار قدرة الله في الكائنات العلوية والسفلية ، على طريقة القرآن في لفت الأنظار إلى إيداع الواحد القهار .

✽ ثم ذكر القرآن شبهة المشركين السخيفة في إنكارهم للبعث والنشور ، وردَّ عليها بالحجج القاطعة ، والأدلة الساطعة ، التي تنتزع الحجة من الخصم الجاحد العنيد ، فلا يلبث أن يقر على نفسه بالهزيمة أمام قوارع القرآن ، وروائع الحجة والبيان .

✽ وختمت السورة بالحديث عن يوم الحساب ، وما أعدَّ الله فيه للمؤمنين المتقين من النعيم الدائم في جنات الخلد ، وما أعدّه للمجرمين من العذاب والنكال في دار الجحيم .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة السجدة » لما ذكر تعالى فيها من أوصاف المؤمنين الأبرار ، الذين إذا سمعوا آيات القرآن العظيم ﴿ خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ .

قال الله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَنْزِيلَ الْكِتَابَ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . . . إِلَى . . . جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (من آية ١ إلى آية ١٧)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْم ﴿١﴾ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَتْهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تُتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾

اللغة: ﴿افتراه﴾ اختلق القرآن من تلقاء نفسه ﴿يعرج﴾ يصعد ويرتفع إليه ﴿يدبر﴾ التدبير : رعاية شئون الغير ﴿سلالة﴾ خلاصة (١) ﴿مهين﴾ ضعيف حقير ﴿سواء﴾ قومه بتصوير أعضائه وتكميلها ﴿ضللنا﴾ ضعنا وهلكنا وأصله من قول العرب : ضلَّ اللبن في الماء إذا ذهب وضاع ﴿ناكسوا﴾ مطرقوا يقال : نكس رأسه إذا أطرقه ﴿الجنة﴾ الجن .

النفسير: ﴿الْم﴾ الحروف المقطعة للتنبيه على إعجاز القرآن (٢) ﴿تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين﴾ أي هذا الكتاب الموحى به إليك يا محمد هو القرآن الذي لا شك أنه من عند الله عز وجل ، تنزيل من رب العالمين ﴿أم يقولون افتراه﴾ الضمير يعود لكفار قريش و﴿أم﴾ بمعنى بل والهمزة أي بل أيقول المشركون اختلق محمد القرآن وافتراه من تلقاء نفسه ؟ لا ليس الأمر كما يدعون ﴿بل هو الحق من ربك﴾ أي بل هو القول الحق ، والكلام الصدق المنزل من ربك قال البيضاوي : أشار أولاً إلى إعجازه ، ثم رتب عليه أنه تنزيل من رب العالمين ، وقرر ذلك بنفي الريب عنه ، ثم أضرب عن ذلك إلى ما يقولون فيه على خلاف ذلك ، إنكاراً له وتعجباً منه ، ثم بين المقصود من إنزاله (٣) بقوله ﴿لتنذر قوماً ما أتاهم من نذير من قبلك﴾ أي أنزله إليك لتنذر به قوماً ما جاءهم رسول قبلك يا محمد ، قال المفسرون : هم أهل الفترة بين عيسى ومحمد عليهما السلام ، وقد جاء الرسل قبل ذلك كإبراهيم وهود وصالح ، ولكن لما طالت الفترة على هؤلاء أرسل الله إليهم محمداً ﷺ لينذرهم عذاب الله ، ويقيم عليهم الحجة بذلك ﴿لعلهم يهتدون﴾ أي كي يهتدوا إلى الحق ويؤمنوا بالله العزيز الحميد ، ثم شرع تعالى في ذكر أدلة التوحيد فقال ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ أي الله جلَّ وعلا هو الذي خلق السموات في ارتفاعها وإحكامها ، والأرض في عجائبها وإبداعها ، وما بينهما من المخلوقات في مقدار ستة أيام قال الحسن : من أيام الدنيا ولو شاء لخلقها بلمح البصر ولكن أراد أن يعلم عباده الثاني في الأمور قال القرطبي : عرفهم تعالى كمال قدرته ليسمعوا القرآن ويتأملوه ، ومعنى ﴿خلق﴾ أبدع وأوجد بعد العدم ، وبعد أن لم تكن شيئاً (٤) ﴿ثم استوى على العرش﴾ استواءً يليق

(١) انظر معنى السلالة بالتوضيح في سورة المؤمنون . (٢) انظر ما كتبه حول الحروف المقطعة في أول سورة البقرة ففيه غنية وكفاية .

(٣) البيضاوي ١١١/٢ . (٤) القرطبي ٨٦/١٤ .

يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

بجلاله من غير تشبيه ولا تمثيل (١) ﴿ما لكم من دونه من ولي ولا شفيع﴾ أي ليس لكم أيها الناس من غير الله ناصر يمنعكم من عذابه ، ولا شفيع يشفع لكم عنده إلا بإذنه ، بل هو الذي يتولى مصالحكم ويدبر أموركم ﴿أفلا تتذكرون﴾ ؟ أي أفلا تتدبرون هذا فتؤمنون ؟ ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ﴾ أي يدبر أمر الخلائق جميعاً في العالم العلوي والسفلي ، لا يهمل شأن أحد قال ابن عباس : أي ينزل القضاء والقدر من السماء إلى الأرض ، وينزل ما دبره وقضاه ﴿ثم يعرج إليه﴾ أي ثم يصعد إليه ذلك الأمر كله يوم القيامة ليفصل فيه ﴿في يومٍ كان مقداره ألف سنةٍ مما تعدون﴾ أي في يومٍ عظيم - هو يوم القيامة - طوله ألف سنة من أيام الدنيا لشدة أهواله ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة﴾ أي ذلك المدبر لأمر الخلق هو العالم بكل شيء ، يعلم ما هو غائب عن المخلوقين ، وما هو مشاهد لهم قال القرطبي : وفي الآية معنى التهديد والوعيد ، كأنه يقول : أخلصوا أعمالكم وأقوالكم فإنني مجازيكم عليها ، ومعنى « الغيب والشهادة » ما غاب عن الخلق وما حضرهم (٢) ﴿العزیز الرحيم﴾ أي الغالب على أمره ، الرحيم بعباده في تدبيره لشئونهم ﴿الذي أحسن كل شيء خلقه﴾ أي أتقن وأحكم كل شيء أوجده وخلقته قال أبو حيان : وهذا أبلغ في الامتنان ومعناه أنه وضع كل شيء في موضعه ، ولهذا قال ابن عباس : ليست القردة بحسنة ، ولكنها متقنة محكمة (٣) قال بعض العلماء : لو تصورت مثلاً أن للفيل مثل رأس الجمل ، وأن للأرنب مثل رأس الأسد ، وأن للإنسان مثل رأس الحمار ، لوجدت في ذلك نقصاً كبيراً ، وعدم تناسب وانسجام ، ولكنك إذا علمت أن طول عنق الجمل ، وشق شفته ليسهل تناوله الكلاء عليه أثناء السير ، وأن الفيل لولا خرطوم الطويل لما استطاع أن يبرك بجسمه الكبير لتناول طعامه وشرابه ، لو علمت كل هذا لتيقنت أنه صنع الله الذي أتقن كل شيء ، ولقلت : تبارك الله أحسن الخالقين (٤) . ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾ أي خلق أبا البشر آدم من طين ﴿ثم جعل نسله من سُلالةٍ من ماءٍ مهين﴾ أي جعل ذريته يتناسلون من خلاصة من ماءٍ ضعيف حقير هو المنى ﴿ثم سواه ونفخ فيه من روحه﴾ أي قوّم أعضائه ، وعدل خلقته في رحم أمه ، ونفخ بعد ذلك فيه الروح ، فإذا هو في أكمل صورةٍ وأحسن تقويم قال أبو السعود : وأضاف الروح إليه تعالى تشريفاً للإنسان ، وإيداناً بأنه خلق عجب ، وصنع بديع ، وأن له شأنًا جليلًا مناسبةً إلى حضرة الربوبية (٥) ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي

(١) انظر تفصيل معنى الاستواء وأقوال السلف في سورة الأعراف . (٢) القرطبي ٨٩/١٤ . (٣) البحر ١٩٩/٧ .

(٤) نقلاً عن أوضح التفاسير . (٥) أبو السعود ١٩٦/٤ .

وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۚ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ﴿١٠﴾ * قُلْ يَتَوَفَّكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ
الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسَ أُرُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا
فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴿١٢﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدًى وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ
مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾

وخلق لكم هذه الخواص : السمع لتسمعوا به الأصوات ، والبصر لتبصروا به الأشخاص ، والعقل لتدركوا به الحق والهدى ﴿قليلًا ما تشكرون﴾ أي قليلًا شكركم لربكم ﴿وما﴾ لتأكيد القلة ﴿وقالوا﴾
أثذا ضللنا في الأرض﴾ أي وقال كفار مكة المنكرون للبعث والنشور : أثذا هلكنا وصارت عظامنا
ولحومنا ترابًا مختلطًا بتراب الأرض حتى غابت فيه ولم تتميز عنه ﴿أئننا لفي خلقٍ جديد﴾ أي سوف
نخلق بعد ذلك خلقًا جديدًا ، ونعود إلى الحياة مرةً ثانية ؟ وهو استبعاد للبعث مع الاستهزاء ولهذا قال
تعالى ﴿بل هم بلقاء ربهم كافرون﴾ أي بل هناك ما هو أبلغ وأشنع من الاستهزاء ، وهو كفرهم
وجحودهم بلقاء الله في دار الجزاء ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم﴾ أي قل لهم ردًا على
مزاعمهم الباطلة : يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بقبض أرواحكم هو وأعوانه ﴿ثم إلى ربكم
ترجعون﴾ أي ثم مرجعكم إلى الله يوم القيامة للحساب والجزاء قال ابن كثير : والظاهر أن ملك الموت
شخص معين ، وقد سُمي في بعض الآثار بـ « عزرائيل » وهو المشهور ، وله أعوان - كما ورد في الحديث -
يتتزعون الأرواح من سائر الجسد ، حتى إذا بلغت الخلقوم تناولها ملك الموت ^(١) وقال مجاهد : جُمِعَتْ له
الأرض فجعلت مثل الطست يتناول منها حيث يشاء ^(٢) ، ثم أخبر تعالى بحال المجرمين يوم القيامة وما هم
فيه من الذل والهوان فقال ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم﴾ أي ولو ترى أيها المخاطب
حال المجرمين يوم القيامة وهم مطرَقو رؤوسهم أمام ربهم من الخجل والحياء لرأيت العجب العجيب قال
أبو السعود : وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره لرأيت أمرًا فظيعًا لا يُقادر قدره من هولهِ وفضاعته ^(٣) ﴿ربنا
أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا حقيقة الأمر وسمعنا ما كنا ننكر من أمر الرسل ، وكنا عُميًا
وصُمًا ﴿فارجعنا نعمل صالحًا﴾ أي فردنا إلى دار الدنيا لنعمل صالحًا ﴿إننا موقنون﴾ أي فنحن الآن
مصدقون تصديقًا جازمًا ، وموقنون أن وعدك حق ، ولقاءك حق قال الطبري : أي أيقنا الآن
بوحدايتك ، وأنه لا يصلح أن يُعبد سواك ، ولا ينبغي أن يكون رب سواك ، وأنتك تحيي وتميت وتفعل ما
تشاء ^(٤) ، قال تعالى ردًا عليهم ﴿ولو شئنا لآتينا كل نفس هُداة﴾ أي لو أردنا هداية جميع الخلق لفعلنا
ولكن ذلك ينافي حكمتنا ، لأننا نريد منهم الإيمان بطريق الاختيار ، لا بطريق الإكراه والإجبار ﴿ولكن
حق القول مني﴾ أي ولكن ثبت ووجب قولي بعذاب المجرمين ، وتقرر وعيدي ﴿لأملأن جهنم من
الجنة والناس أجمعين﴾ أي لأملأن جهنم بالعصاة من الجن والإنس جميعاً ﴿فذوقوا بما نسيتم لقاء يومكم

(١) مختصر ابن كثير ٣/٧٣ . (٢) الطبري ٢١/٦٢ . (٣) أبو السعود ٤/١٩٧ . (٤) الطبري ٢١/٦٢ .

فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾

هذا ﴿١٤﴾ أي يقال لأهل النار على سبيل التقرير والتوبيخ : ذوقوا - بسبب نسيانكم الدار الآخرة وانهاكم في الشهوات - هذا العذاب المخزي الأليم ﴿١٥﴾ إننا نسيناكم ﴿١٦﴾ أي نترككم اليوم في العذاب كما تركتم العمل بآياتنا ﴿١٧﴾ وذوقوا عذاب الخلد بما كنتم تعملون ﴿١٨﴾ أي وذوقوا العذاب الدائم الخالد في جهنم بسبب كفركم وتكذيبكم ، ثم لما ذكر حال الأشقياء وعاقبتهم الوخيمة ، أتبعه بذكر حال السعداء وما أعدّه لهم من النعيم المقيم في دار الجزاء ، ليظل العبد بين الرهبة والرغبة فقال ﴿١٩﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا ﴿٢٠﴾ أي إِنَّمَا يصدق بآياتنا المؤمنون المتقون الذين إذا عظموا بآياتنا سقطوا على وجوههم ساجدين لله تعظيماً لآياته ﴿٢١﴾ وسبحوا بحمد ربهم وهم لا يستكبرون ﴿٢٢﴾ أي وسبحوا ربهم على نعمائه وهم لا يستكبرون عن طاعته وعبادته ﴿٢٣﴾ تتجافى جنوبهم عن المضاجع ﴿٢٤﴾ أي تتحنى وتتباعد أطرافهم عن الفرش ومواقع النوم ، والغرض أن نومهم بالليل قليل لانقطاعهم للعبادة كقوله ﴿٢٥﴾ كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون ﴿٢٦﴾ وبالأسحار هم يستغفرون ﴿٢٧﴾ قال مجاهد : يعني بذلك قيام الليل ﴿٢٨﴾ يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ﴿٢٩﴾ أي يدعون ربهم خوفاً من عذابه وطمعاً في رحمته وثوابه ﴿٣٠﴾ وممّا رزقناهم ينفقون ﴿٣١﴾ أي وما أعطيناهم من الرزق ينفقون في وجوه البر والحسنات ﴿٣٢﴾ فلا تعلم نفسٌ مّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ ﴿٣٣﴾ أي فلا يعلم أحد من الخلق مقدار ما يعطيهم الله من النعيم ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ﴿٣٤﴾ جزاءً بما كانوا يعملون ﴿٣٥﴾ أي ثواباً لما قدموه في الدنيا من صالح الأعمال .

قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ . . . إِلَى . . . وَانتظر إنهم منتظرون﴾ من آية (١٨) إلى آية (٣٠) نهاية السورة .

المناسكبة : لما ذكر تعالى حال المجرمين في الآخرة ، وحال المؤمنين المتقين ، وما أعدّه لهم من الكرامة في دار النعيم ، ذكر هنا أنه لا يتساوى الفريقان : فريق الأبرار ، وفريق الفجار لأن عدالة الله تقتضي التمييز بين المؤمن الصالح ، والفاسق الفاجر .

اللفك : ﴿فاسقاً﴾ الفاسق : الخارج عن طاعة الله ﴿نزلًا﴾ ضيافة وعطاء ، والنزل ما يهبط للنازل والضيف قال الشاعر :

وكنّا إذا الجبار بالجيش ضافنا جعلنا القنا والمرهفات له نزلاً

﴿الجرز﴾ اليابسة الجرداء التي لا نبات فيها ، والجرز : القطع قال الزمخشري : الجرز : الأرض التي جرز

أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٨﴾ أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهِ تَكْذِبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنَذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ نباتها أي قطع ، إِمَّا لعدم الماء أو لأنه رُعي وأزيل ، ولا يقال للتي لا تنبت كالسباخ جُرز ﴿١﴾ الفتح الحكم ويقال للحاكم : فاتح وفتح لأنه يفصل بين الناس بحكمه ﴿يُنظرون﴾ يمهلون ويؤخرون .

سَبَبُ النَّزُولِ : روي أنه كان بين « علي بن أبي طالب » و « عتبة بن أبي معيط » تنازع وخصومة ، فقال الوليد بن عتبة لعلي : أسكت فإنك صبي ، وأنا والله أبسط منك لساناً ، وأشجع منك جناهاً ، وأملأ منك حشواً في الكتية ، فقال له علي : اسكت فإنك فاسق فترلت ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون﴾ (٢) .

التفسير : ﴿أفمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً﴾ ؟ أي أفمن كان في الحياة الدنيا مؤمناً متقياً لله ، كمن كان فاسقاً خارجاً عن طاعة الله ؟ ﴿لا يستوون﴾ أي لا يستوون في الآخرة بالشواب والكرامة ، كما لم يستووا في الدنيا بالطاعة والعبادة ، وهذه الآية كقوله تعالى ﴿أفنجعل المسلمين كالمجرمين﴾ ؟ قال ابن كثير : يخبر تعالى عن عدله وكرمه ، أنه لا يساوي في حكمه يوم القيامة ، من كان مؤمناً بآياته متبعاً لرسله ، بمن كان فاسقاً أي خارجاً عن طاعة ربه ، مكذباً رسل الله (٣) ، ثم فصل تعالى جزاء الفريقين فقال ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أما المتقون الذين جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿فلهم جنات المأوى﴾ أي لهم الجنات التي فيها المساكن والدور والغرف العالية يأوون إليها ويستمتعون بها قال البيضاوي : فالجنة هي المأوى الحقيقي ، والدنيا منزل مرتحل عنه لا محالة (٤) ﴿نزلًا بما كانوا يعملون﴾ أي ضيافة مهياة ومعدة لإكرامهم كما تهيا التحف للضيف وذلك بسبب ما قدموه من صالح الأعمال ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ أي وأما الذين خرجوا عن طاعة الله فملجؤهم ومنزلهم نار جهنم ﴿كلما أرادوا أن يخرجوا منها أُعيدوا فيها﴾ أي إذا دفعهم هب النار إلى أعلاها ردوا إلى موضعهم فيها قال الفضيل بن عياض : والله إن الأيدي لموثقة ، وإن الأرجل لمقيدة ، وإن اللهب ليرفعهم والملائكة تقمعهم (٥) ﴿وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنتم به تكذبون﴾ أي وتقول لهم خزنة جهنم تقرعاً وتوبيخاً : ذوقوا عذاب النار المخزي الذي كنتم تكذبون به في الدنيا وتهزءون منه ، ثم توعدهم بعذاب عاجل في الدنيا فقال ﴿ولنذيقنهم من العذاب الأدنى﴾ أي ولنذيقنهم من العذاب الأقرب وهو عذاب الدنيا من القتل والأسر والبلايا والمحن قال الحسن : العذاب الأدنى : مصائب الدنيا وأسقامها مما يُبتلى به العبيد حتى يتوبوا وقال أبو مجاهد : القتل والجوع (٦) ﴿دون العذاب الأكبر﴾

(١) الكشف ٤٠٨/٣ . (٢) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٦٥/٣ وانظر القرطبي ١٠٥/١٤ وزاد المسير ٣٤٠/٦ .

(٣) مختصر ابن كثير ٧٦/٣ . (٤) البيضاوي ١١٢/٢ . (٥) المختصر ٧٦/٣ .

(٦) قال المفسرون : أصاب أهل مكة القحط والجذب سبع سنين حتى أكلوا فيها الجيف والعظام والكلاب .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلَا تَكُنْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ ۖ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِبَنِي إِسْرَءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾ أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسْكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾

أي قبل العذاب الأكبر الذي ينتظرهم وهو عذاب الآخرة ﴿لعلهم يرجعون﴾ أي لعلهم يتوبون عن الكفر والمعاصي ، ثم بعد أن توعدهم وهددهم بيّن استحقاقهم للعذاب فقال ﴿ومن أظلم ممن ذُكِّرَ بآياتِ ربِّه ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا﴾ أي لا أحد أظلم لنفسه ممن وعظ وذكر بآيات الرحمن ، ثم ترك الإيمان وتناساها ؟ ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ أي سأنتقم من كذب بآياتي أشدَّ الانتقام ، ووضع الاسم الظاهر مكان الضمير لتسجيل الإجماع عليهم ﴿ولقد آتينا موسى الكتاب﴾ أي أعطينا موسى التوراة ﴿فلا تكن في مِرْيَةٍ مِنْ لِقَائِهِ﴾ أي فلا تكن يا محمد في شك من تلقي القرآن^(١) كما تلقى موسى التوراة ، والمقصود تقرير رسالته عليه السلام ، وتحقيق أن ما معه من الكتاب وحي سماوي وكتاب إلهي ﴿وجعلناه هدى لبني إسرائيل﴾ أي جعلنا التوراة هداية لبني إسرائيل من الضلالة ﴿وجعلنا منهم أئمة﴾ أي جعلنا منهم قادة وقادة يقتدى بهم في الخير ﴿يهدون بأمرنا﴾ أي يدعون الخلق إلى طاعتنا ويرشدونهم إلى الدين بأمرنا وتكليفنا ﴿لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون﴾ أي حين صبروا على تحمل المشاق في سبيل الله ، وكانوا يصدقون بآياتنا أشد التصديق وأبلغه قال ابن الجوزي : وفي هذا تنبيه لقريش أنكم إن أطعتم وآمنتم جعلت منكم أئمة^(٢) ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ أي إن ربك يا محمد يقضي ويحكم بين المؤمنين والكفار ، فيميز بين الحق والمبطل يوم القيامة ، ويجازي كلا بما يستحق ، فيما اختلفوا فيه من أمور الدين قال الطبري : فيما كانوا فيه يختلفون من أمور الدين ، والبعث ، والثواب والعقاب^(٣) ، ثم نبه تعالى على آثار قدرته في مخلوقاته ، وأقام الحجة على الكفار بالأمم السالفة الذين كفروا فأهلكوا فقال ﴿أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون﴾ أي أغفل هؤلاء المشركون ولم يتبين لهم كثرة من أهلكناهم من الأمم الماضية الذين كذبوا رسل الله ؟ ﴿يمشون في مساكنهم﴾ أي حال كون أهل مكة يسيرون في دورهم ، ويشاهدون في أسفارهم منازل هؤلاء المهلكين أفلا يعتبرون ؟ قال ابن كثير : أي وهؤلاء المكذبون يمشون في مساكن أولئك الظالمين ، فلا يرون فيها أحداً ممن كان يسكنها ويعمرها^(٤) ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ﴾ أي إن في إهلاكهم لدلالات عظيمة على قدرتنا ،

(١) ذهب بعض المفسرين إلى أن الضمير يعود إلى موسى أي فلا تكن في شك من لقاء موسى ، وما ذكرناه أرجح وهو اختيار البيضاوي وأبو

السعود . (٢) زاد المسير ٦/ ٣٤٤ . (٣) الطبري ٢١/ ٧١ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٧ .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾
وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ
يُنْظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَضِرُونَ ﴿٣٠﴾

أفلا يسمعون سماع تدبر واتعاط؟ ثم ذكر تعالى دلائل الوجدانية فقال ﴿أولم يروا أننا نسوق الماء إلى الأرض الجُرُز﴾ أي أولم يشاهدوا كمال قدرتنا في سوقنا الماء إلى الأرض اليابسة التي لا نبات فيها من شدة العطش لنحييها؟ ﴿فنخرج به زرعاً تأكل منه أنعامهم وأنفسهم﴾ أي فنخرج بذلك الماء أنواع الزروع والثمار، تأكل منه دوابهم من الكلاء والحشيش، وأنفسهم من الحب والخضر والفواكه والبقول ﴿أفلا يبصرون﴾ أي أفلا يبصرون ذلك فيستدلون به على كمال قدرته تعالى وفضله، ويعلمون أن الذي أحيا الأرض الميتة قادر على إعادتهم بعد وفاتهم؟ ﴿ويقولون متى هذا الفتح إن كنتم صادقين﴾ أي ويقول كفار مكة للمسلمين على سبيل السخرية والتهكم: متى ستنصرون علينا ويكون لكم الغلبة والفتح علينا؟ إن كنتم صادقين في دعوكم قال الصاوي: كان المسلمون يقولون إن الله سيفتح لنا على المشركين، ويفصل بيننا وبينهم، وكان أهل مكة إذا سمعوهم يقولون بطريق الاستعجال تكذيباً واستهزاء: متى هذا الفتح فنزلت^(١) ﴿قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم﴾ أي قل لهم يا محمد توبيخاً وتبكيئاً: إن يوم القيامة هو يوم الفتح الحقيقي الذي يفصل تعالى فيه بيننا وبينكم، ولا ينفع فيه الإيمان ولا الاعتذار فلماذا تستعجلون؟ ﴿ولا هم يُنظرون﴾ أي ولا هم يؤخرون ويمهلون للتوبة قال البيضاوي: ويوم الفتح هو يوم القيامة فإنه يوم نصر المؤمنين على الكافرين والفصل بينهم، وقيل هو يوم بدر^(٢) ﴿فأعرض عنهم﴾ أي فأعرض يا محمد عن هؤلاء الكفار ولا تبالي بهم ﴿وانتظر إنهم منتظرون﴾ أي وانتظر ما يحل بهم من عذاب الله، إنهم منتظرون كذلك ما يحل بكم قال القرطبي: أي ينتظرون بكم حوادث الزمان^(٣).

الْبَلَاغَةُ: تضمنت السورة الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي:

- ١ - جناس الاشتقاق مثل ﴿تُنذر . . ونذير﴾ وكذلك مثل ﴿انتظر . . إنهم منتظرون﴾ .
- ٢ - الطباق بين ﴿الغيب . . والشهادة﴾ وبين ﴿خوفاً . . وطمعاً﴾ .
- ٣ - الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ﴿وجعل لكم﴾ والأصل « وجعل له » والنكتة أن الخطاب إنما يكون مع الحي فلما نفخ تعالى الروح فيه حسن خطابه مع ذريته .

(١) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/ ٢٢٦ . (٢) البيضاوي ٢/ ١١٣ . (٣) القرطبي ١٤/ ١١٢ .

- ٤ - الاستفهام الإنكاري وغرضه الاستهزاء ﴿أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلقٍ جديد﴾ ؟
- ٥ - الإضمار ﴿ربنا أبصرنا وسمعنا﴾ أي يقولون ربنا أبصرنا وسمعنا .
- ٦ - الاختصاص ﴿ثم إلى ربكم ترجعون﴾ أي إليه لا إلى غيره مرجعكم يوم القيامة .
- ٧ - حذف جواب لو للتهويل ﴿ولو ترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم﴾ أي لرأيت أمراً مهولاً .
- ٨ - المشاكلة وهي الاتفاق في اللفظ مع الاختلاف في المعنى ﴿نسيتم لقاء يومكم . . إنا نسيناكم﴾ فإن الله تعالى لا ينسى وإنما المراد نترككم في العذاب ترك الشيء المنسي .
- ٩ - المقابلة اللطيفة بين جزاء الأبرار وجزاء الفجار ﴿أما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم جنات المأوى . .﴾ ﴿وأما الذين فسقوا فمأواهم النار﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ١٠ - الكناية عن كثرة العبادة والتبتل ليلاً ﴿تتجافى جنوبهم عن المضاجع﴾ .
- ١١ - الاستفهام للتقريع والتوبيخ ﴿أولم يهد لهم﴾ ؟ ﴿أولم يروا أنا نسوق الماء﴾ ؟ ﴿أفلا يسمعون﴾ ؟ ﴿أفلا يبصرون﴾ وكلها بقصد الزجر والتوبيخ .
- ١٢ - السجع مراعاةً للفواصل ورءوس الآيات مثل ﴿إنا موقنون﴾ وهم لا يستكبرون﴾ لعلمهم يرجعون﴾ أفلا يسمعون﴾ وهذا من المحسنات البديعية وهو كثير في القرآن الكريم .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة السجدة »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

* سورة الأحزاب من السور المدنية ، التي تتناول الجانب التشريعي لحياة الأمة الإسلامية ، شأن سائر السور المدنية ، وقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، وبالأخص أمر الأسرة فشرعت الأحكام بما يكفل للمجتمع السعادة والهناء ، وأبطلت بعض التقاليد والعادات الموروثة مثل « التبني ، والظهار ، واعتقاد وجود قلبين للإنسان » وظهرت من رواسب المجتمع الجاهلي ، ومن تلك الخرافات والأساطير الموهومة التي كانت متفشية في ذلك الزمان .

* ويمكن أن نلخص المواضيع الكبرى لهذه السورة الكريمة في نقاط ثلاث :

أولاً : التوجيهات والآداب الإسلامية .

ثانياً : الأحكام والتشريعات الإلهية .

ثالثاً . الحديث عن غزوتي « الأحزاب ، وبني قريظة » .

* أما الأولى : فقد جاء الحديث عن بعض الآداب الاجتماعية كآداب الوليمة ، وآداب الستر والحجاب وعدم التبرج ، وآداب معاملة الرسول ﷺ واحترامه إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية .

* وأما الثانية : فقد جاء الحديث عنها في بعض الأحكام التشريعية مثل حكم الظهار والتبني ، والإرث ، وزواج مطلقة الإين من التبني ، وتعدد زوجات الرسول الطاهرات والحكمة منه ، وحكم الصلاة على الرسول ﷺ وحكم الحجاب الشرعي ، والأحكام المتعلقة بأمور الدعوة إلى الوليمة إلى غير ما هنالك من أحكام شريعة .

* وأما الثالثة : فقد تحدثت السورة بالتفصيل عن غزوة الخندق التي تسمى « غزوة الأحزاب » وصورتها تصويراً دقيقاً بتألب قوى البغي والشر على المؤمنين ، وكشفت عن خفايا المنافقين ، وحذرت من طرقتهم في الكيد والتخذيل والتشبيط ، وأطالت الحديث عنهم في بدء السورة وفي ختمها ، حتى لم يُبق لهم

سترأ ، ولم تخف لهم مكرأ ، وذكرت المؤمنين بنعمة الله العظمى عليهم في رد كيد أعدائهم بإرسال الملائكة والريح ، كما تحدثت عن غزوة بني قريظة ونقض اليهود عهدهم مع الرسول ﷺ .

التسمية : سميت سورة الأحزاب لأن المشركين تحزبوا على المسلمين من كل جهة ، فاجتمع كفار مكة مع غطفان وبني قريظة وأوباش العرب على حرب المسلمين ، ولكن الله ردَّهم مدحورين وكفى المؤمنين القتال بتلك المعجزة الباهرة .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين .. إلى .. ما قاتلوا إلا قليلاً﴾

من آية (١) إلى نهاية آية (٢٠) .

اللفظة : ﴿أدعياءكم﴾ جمع دعى وهو الولد المتبني من أبناء الغير قال في اللسان : والدعوى : المنسوب إلى غير أبيه قال الشاعر :

دعوى القوم ينصر مدعیه ليُلحقه بذي النسب الصميم
أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقيس أو تميم

﴿أقسط﴾ أعدل يقال : أقسط الرجل إذا عدل ، وقسط إذا ظلم ، والقسط : العدل ﴿مسطوراً﴾ أي مسطراً مكتوباً لا يُمحى ﴿ميثاقهم﴾ الميثاق : العهد المؤكد بيمين أو نحوه ﴿الحناجر﴾ جمع حنجرة وهي نهاية الحلقوم مدخل الطعام والشراب ﴿يثرب﴾ اسم المدينة المنورة وسمّاها رسول الله ﷺ طيبة ﴿عورة﴾ خالية من الرجال غير محصنة يقال : دارٌ مُعورة إذا كان سهل دخولها قال الجوهري : العورة كل خلل يُتخوف منه في ثغر أو حرب^(١) ﴿أفطارها﴾ جمع فطر وهو الناحية والجانب ﴿يعصمكم﴾ يمنعكم ﴿المعوقين﴾ المثبتين مشتق من عاقه إذا صرفه .

سبب النزول : أ - روي أن رجلاً من قريش يدعى (جميل بن معمر) كان لبياً حافظاً لما يسمع فقالت قريش : ما حفظ هذه الأشياء إلا وله قلبان في جوفه فأنزل الله ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه ..﴾^(٢) الآية .

ب - وروي أن النبي ﷺ لما أراد غزوة تبوك أمر الناس بالتجهز والخروج لها ، فقال أناس : نستاذن آبائنا وأمهاتنا فأنزل الله ﴿النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم ..﴾^(٣) الآية .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٢﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٣﴾ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ ۚ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِأَبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ فَإِنْ لَمْ تَعْلَمُوا

النفيس: ﴿يا أيها النبي اتق الله﴾ النداء على سبيل التشريف والتكرمة لأن لفظ النبوة مشعر بالتعظيم والتكريم أي اثبت على تقوى الله ودم عليها قال أبو السعود : في ندائه ﷺ بعنوان النبوة تنويه بشأنه ، وتنبيه على سمو مكانه ، والمراد بالتقوى المأمور به الثبات عليه والازدياد منه ، فإن له باباً واسعاً ومكاناً عريضاً لا يُنال مداه ^(١) ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي ولا تطع أهل الكفر والنفاق فيما يدعونك إليه من اللين والتساهل ، وعدم التعرض لأهتهم بسوء ، ولا تقبل أقوالهم وإن أظهرُوا أنها نصيحة قال المفسرون : دعا المشركون رسول الله ﷺ أن يرفض ذكر أهتهم بسوء ، وأن يقول إن لها شفاعة فكره ﷺ ذلك ونزلت الآية ^(٢) ﴿إن الله كان عليماً حكيماً﴾ أي إنه تعالى عالم بأعمال العباد وما يضمرونه في نفوسهم ، حكيم في تدبير شئونهم ﴿واتبع ما يوحى إليك من ربك﴾ أي واعمل بما يوحى إليك ربك من الشرع القويم ، والدين الحكيم ، واستمسك بالقرآن المنزل عليك ﴿إن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ أي خبير بأعمالكم لا تخفى عليه خافية من شئونكم ، وهو مجازيكم عليها ﴿وتوكل على الله﴾ أي اعتمد عليه ، والجا في جميع أمورك إليه ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي وحسبك أن يكون الله حافظاً وناصراً لك ولأصحابك ، ثم رد تعالى مزاعم الجاهليين ببيان الحق الساطع فقال ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه﴾ أي ما خلق الله لأحدٍ من الناس أياً كان قلبين في صدره ، قال مجاهد : نزلت في رجلٍ من قريش كان يدعى « ذا القلبين » من دهائه ، وكان يقول : إن في جوفي قلبين أعقل بكل واحدٍ منهما أفضل من عقل محمد ^(٣) ﴿وما جعل أزواجكم اللاتي تظاهرون منهن أمهاتكم﴾ أي وما جعل زوجاتكم اللواتي تظاهرون منهن أمهاتكم قال ابن الجوزي : أعلم تعالى أن الزوجة لا تكون أماً ، وكانت الجاهلية تطلق بهذا الكلام وهو أن يقول لها : أنت علي كظهر أمي ^(٤) ﴿وما جعل أديعاءكم أبناءكم﴾ أي وما جعل الأبناء من التبنّي الذين ليسوا من أصلابكم أبناء لكم حقيقة ﴿ذلكم قولكم بأفواهكم﴾ أي دعاؤهم أبناء مجرد قول بالفم لا حقيقة له من الواقع ﴿والله يقول الحق﴾ أي والله تعالى يقول الحق الموافق للواقع ،

(١) أبو السعود ٢٠١/٤ . (٢) انظر القرطبي ١١٥/١٤ وزاد المسير ٣٤٧/٦ . (٣) القرطبي ١١٦/١٤ . (٤) زاد المسير ٣٥٠/٦ .

ءَابَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ
وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ
أَوْلَىٰ مِنْ بَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَىٰ أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا كَانَ ذَلِكَ فِي

والمطابق له من كل الوجوه ﴿وهو يهدي السبيل﴾ أي يرشد إلى الصراط المستقيم ، والغرض من الآية التنبيه على بطلان مزاعم الجاهلية ، فكما لا يكون للشخص الواحد قلبان في جوفه ، فكذلك لا يمكن أن تصبح الزوجة المظاهر منها أمًا ، ولا الولد المتبني ابنًا ، لأن الأم الحقيقية هي التي ولدته ، والابن الحقيقي هو الذي وكلد من صلب الرجل ، فكيف يجعلون الزوجات المظاهر منهن أمهات ؟ وكيف يجعلون أبناء الآخرين أبناء لهم مع أنهم ليسوا من أصلابهم ؟ ثم أمر تعالى برد نسب هؤلاء إلى آبائهم فقال ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾ أي انسبوا هؤلاء الذين جعلتموهم لكم أبناء لأبائهم الأصلاء ﴿هو أقسط عند الله﴾ أي هو أعدل وأقسط في حكم الله وشرعه^(١) قال ابن جرير : أي دعاؤكم إياهم لأبائهم هو أعدل عند الله وأصدق وأصوب من دعائكم إياهم لغير آبائهم^(٢) ﴿فإن لم تعلموا آباءهم فأخوانكم في الدين﴾ أي فإن لم تعرفوا آباءهم الأصلاء فتنسبهم إليهم فهم إخوانكم في الإسلام ﴿ومواليكم﴾ أي أولياؤكم في الدين ، فليقل أحدكم : يا أخي ويا مولاي يقصد أخوة الدين وولايته قال ابن كثير : أمر تعالى برد أنساب الأديعاء إلى آبائهم إن عرفوا ، فإن لم يعرفوا فهم إخوانهم في الدين ومواليهم ، عوضاً عما فاتهم من النسب ، ولهذا قال رسول الله ﷺ لزيد بن حارثة : « أنت أخونا ومولانا »^(٣) وقال ابن عمر : ما كنا ندعو « زيد بن حارثة » إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾^(٤) ﴿وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به﴾ أي وليس عليكم أيها المؤمنون ذنب أو إثم فيمن نسبتموهم إلى غير آبائهم خطأ ﴿ولكن ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ أي ولكن الإثم فيما تقصدم وتعمدم نسبته إلى غير أبيه ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة عظيم الرحمة ، يعفو عن المخطيء ويرحم المؤمن التائب ، ثم بيّن تعالى شفقة الرسول ﷺ على أمته ونصحه لهم فقال ﴿النبي أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ أي هو عليه السلام أرف بهم وأعطف عليهم ، وأحق بهم من أنفسهم في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، وحكمه أنفذ وطاعته أوجب ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ أي وزوجاته الطاهرات أمهات للمؤمنين في وجوب تعظيمهن واحترامهن ، وتحريم نكاحهن قال أبو السعود : أي منزلات منزلة الأمهات ، في التحريم واستحقاق التعظيم ، وأما فيما عدا ذلك فهن كالأجنبيات^(٥) ﴿وأولوا الأرحام﴾ أي أهل القربات ﴿بعضهم أولى ببعض في كتاب الله من المؤمنين والمهاجرين﴾ أي أحق بالآثر من المهاجرين والأنصار في شرع الله ودينه

(١) نقلاً عن كتابنا تفسير آيات الأحكام ٢/ ٢٥٤ . (٢) الطبري ٢١/ ٧٦ . (٣) مختصر ابن كثير ٣/ ٧٩ ابن كثير ٣/ ٨١ . (٤) أخرجه البخاري . (٥) أبو السعود ٤/ ٢٠٣ .

الْكِتَابِ مَسْطُورًا ﴿١٦﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ﴿١٧﴾ لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ

﴿إِلَّا أَنْ تَفْعَلُوا إِلَى أَوْلِيَائِكُمْ مَعْرُوفًا﴾ أي إلا أن تحسنوا إلى إخوانكم المؤمنين والمهاجرين في حياتكم ، أو توصوا إليهم عند الموت فإن ذلك جائز ، وبسط اليد بالمعروف مما حث الله عباده عليه قال المفسرون : وهذا نسخ لما كان في صدر الإسلام من توارث المسلمين من بعضهم بالأخوة الإيمانية وبالهجرة ونحوها^(١) كان ذلك في الكتاب مسطوراً أي كان حكم التوارث بين ذوي الأرحام مكتوباً مسطراً في الكتاب العزيز لا يبدل ولا يُغير قال قتادة : أي مكتوباً عند الله عز وجل ألا يرث كافر مسلماً^(٢) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ أي اذكر وقت أخذنا من النبيين عهدهم المؤكد باليمين ، أن يفوا بما التزموا ، وأن يصدق بعضهم بعضاً ، وأن يؤمنوا برسالة محمد ﷺ ورسالاتهم ﴿وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى﴾ ابن مريم ﴿أَيِ وَأَخَذْنَا مِنْكَ يَا مُحَمَّدُ الميثاقَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ، وهؤلاء هم أولو العزم ومشاهير الرسل ، وإنما قدمه ﷺ في الذكر لبيان مزيد شرفه وتعظيمه قال البيضاوي : خصهم بالذكر لأنهم مشاهير أرباب الشرائع ، وقدم نبينا عليه الصلاة والسلام تعظيماً له وتكريماً لشأنه^(٣) وقال ابن كثير : بدأ بالخاتم لشرفه صلوات الله عليه ، وبياناً لعظم مكانته ، ثم رتبهم بحسب وجودهم في الزمان^(٤) ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ أي وأخذنا من الأنبياء عهداً وثيقاً عظيماً على الوفاء بما التزموا به من تبليغ الرسالة ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ أي ليسأل الله يوم القيامة الأنبياء الصادقين عن تبليغهم الرسالة إلى قومهم قال الصاوي : والحكمة في سؤال الرسل مع علمه تعالى بصدقهم هو التقيح على الكفار يوم القيامة وتبكيتهم^(٥) وقال القرطبي : وفي الآية تنبيه على أن الأنبياء إذا كانوا يُسألون يوم القيامة فكيف بمن سواهم ؟ وفائدة سؤالهم توبيخ الكفار كما قال تعالى لعيسى ﴿أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْلِينَ﴾^(٦) ؟ ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ أي وأعد الله للكافرين عذاباً مؤلماً موجعاً ، بسبب كفرهم وإعراضهم عن قبول الحق ، ثم شرع تعالى في ذكر « غزوة الأحزاب » وما فيها من نعم فائضة ، وآيات باهرة للمؤمنين فقال ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ﴾ أي اذكروا فضله وإنعامه عليكم ﴿إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أي وقت مجيء جنود الأحزاب وتآلبهم عليكم قال أبو السعود : والمراد بالجنود الأحزاب وهم قريش ، وغطفان ، ويهود قريظة وبني النضير ، وكانوا زهاء اثني عشر ألفاً ، فلما سمع رسول الله ﷺ بإقبالهم ضرب الخندق على المدينة بإشارة «سلمان الفارسي» ثم خرج في ثلاثة آلاف من المسلمين ، فحضر معسكره والخندق بينه وبين المشركين ، واشتد الخوف وظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق في المنافقين

(١) انظر زاد المسير لابن الجوزي ٦/٣٥٤ . (٢) القرطبي ١٤/١٢٦ . (٣) البيضاوي ١/١١٤ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/٨٣ .

(٥) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٦٩ . (٦) القرطبي ١٤/١٢٨ .

بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَاءَ وَكَرَّ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظَّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ

حتى قال « معتب بن قشير » يعدنا محمد كنوز كسرى وقيصر ولا نقدر أن نذهب إلى الغائط^(١) ﴿فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها﴾ أي فأرسلنا على الأحزاب ريحاً شديدة وجنوداً من الملائكة لم تروهم وكانوا قرابة ألف قال المفسرون : بعث الله عليهم ريحاً عاصفاً وهي ريح الصبا في ليلة شديدة البرد والظلمة ، فقلعت بيوتهم ، وكفأت قدورهم ، وصارت تلقي الرجل على الأرض ، وأرسل الله الملائكة فزلزلتهم - ولم تقاتل - بل ألقيت في قلوبهم الرعب^(٢) ﴿وكان الله بما تعملون بصيراً﴾ أي وهو تعالى مطلع على ما تعملون من حفر الخندق ، والثبات على معاونة النبي ﷺ في ذلك الوقت ﴿إذ جاءكم من فوقكم﴾ أي حين جاءتكم الأحزاب من فوق الوادي يعني من أعلاه قبل المشرق ، ومنه جاءت أسد وغطفان ﴿ومن أسفل منكم﴾ أي ومن أسفل الوادي يعني أدناه قبل المغرب ، ومنه جاءت قريش وكنانة وأوباش العرب ، والغرض أن المشركين جاءوهم من جهة المشرق والمغرب ، وأحاطوا بالمسلمين إحاطة السوار بالمعصم ، وأعانهم يهود بني قريظة فنقضوا العهد مع الرسول وانضموا إلى المشركين ، فاشتد الخوف ، وعظم البلاء ولهذا قال تعالى ﴿وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ﴾ أي وحين مالت الأبصار عن سندها ومستوى نظرها حيرةً وشخصاً لشدة الهول والرعب^(٣) ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ أي زالت عن أماكنها من الصدور حتى كادت تبلغ الحناجر ، وهذا تمثيل لشدة الرعب والفرع الذي دهاهم ، حتى كأن أحدهم قد وصل قلبه إلى حنجرتة من شدة ما يلاقي من الهول^(٤) ﴿وتظنون بالله الظنونا﴾ أي وكنتم في تلك الحالة الشديدة تظنون الظنون المختلفة قال الحسن البصري : ظن المنافقون أن المسلمين يستأصلون ، وظن المؤمنون أنهم يُنصرون^(٥) ، فالمؤمنون ظنوا خيراً ، والمنافقون ظنوا شراً وقال ابن عطية : كاد المؤمنون يضطربون ويقولون : ما هذا الخلف للوعد ؟ وهذه عبارة عن خواطر خطرت للمؤمنين لا يمكن للبشر دفعها ، وأما المنافقون فتعجلوا ونطقوا وقالوا : ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً^(٦) ﴿هنالك ابتلي المؤمنون﴾ أي في ذلك الزمان والمكان امتحن المؤمنون واختبروا ، ليميز المخلص الصادق من المنافق قال القرطبي : وكان هذا الابتلاء بالخوف والقتال ، والجوع والحصر والنزال^(٧) ﴿وزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا﴾ أي وحرگوا تحريكاً عنيفاً من شدة ما دهاهم ، حتى لكأن الأرض تتزلزل بهم وتضطرب تحت أقدامهم قال ابن جزي : وأصل الزلزلة شدة التحريك وهو هنا عبارة عن اضطراب القلوب وتزعزعها^(٨) ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ أي واذكر حين يقول المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض النفاق ،

(١) أبو السعود ٣٠٤ / ٤ . (٢) الصاوي على الجلالين ٣ / ٢٧١ . (٣) تفسير الكشاف ٣ / ٤٢٦ . (٤) قال القرطبي : وهذا القول منقول معناه

عن عكرمة ، والأظهر أنه أراد اضطراب القلب وضرباته حتى كأنه لشدة اضطرابه بلغ الحنجرة . ا هـ . (٥) القرطبي ١٤ / ١٤٥ .

(٦) نقلاً عن البحر المحيط ٧ / ٢١٧ . (٧) القرطبي ١٤ / ١٤٦ . (٨) التسهيل ٣ / ١٣٤ .

يَتَأَهَّلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَعِذُّنَ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٥﴾ وَلَوْ دَخَلْتَ عَلَيْهِمْ مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سَأَلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوَهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُولُونَ إِلَّا ذُبُرًا وَكَانَ عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا ﴿١٧﴾ قُلْ لَّن يَنْفَعَكُمُ الْفِرَارُ إِن فَرَرْتُمْ مِّنَ الْمَوْتِ أَوِ الْقَتْلِ وَإِذَا لَا تُمْتِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ

لأن الإيمان لم يخالط قلوبهم ﴿١٥﴾ ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ﴿١٦﴾ أي ما وعدنا الله ورسوله إلا باطلاً وخداعاً قال الصاوي : والقائل هو « معتب بن قشير » الذي قال : يعدنا محمدٌ بفتح فارس والروم ، وأحدنا لا يقدر أن يتبرز فرقاً ، ما هذا إلا وعد غرور ﴿١٧﴾ ، يغرنا به محمد ﴿١٨﴾ وإذ قالت طائفة منهم ﴿١٩﴾ أي واذكر حين قالت جماعة من المنافقين وهم : أوس بن قبيط وأتباعه ، وأبي بن سلول وأشياعه ﴿٢٠﴾ يا أهل يثرب لا مقام لكم ﴿٢١﴾ أي يا أهل المدينة لا قرار لكم ههنا ولا إقامة ﴿٢٢﴾ فارجعوا ﴿٢٣﴾ أي فارجعوا إلى منازلكم واتركوا محمداً وأصحابه ﴿٢٤﴾ ويستأذن فريقٌ منهم النبي ﴿٢٥﴾ ويستأذن جماعة من المنافقين النبي ﷺ في الانصراف متعللين بعلل واهية ﴿٢٦﴾ يقولون إن بيوتنا عورة ﴿٢٧﴾ أي غير حصينة فنخاف عليها العدو والسراق ﴿٢٨﴾ وما هي بعورة ﴿٢٩﴾ تكذيب من الله تعالى لهم أي ليس الأمر كما يزعمون ﴿٣٠﴾ إن يريدون إلا فراراً ﴿٣١﴾ أي ما يريدون بما طلبوا من الرسول ﷺ إلا الهرب من القتال ، والفرار من الجهاد ، والتعبير بالمضارع ﴿٣٢﴾ ويستأذن ﴿٣٣﴾ لاستحضار الصورة في النفس ، فكأن السامع يبصرهم الآن وهم يستأذنون ، ثم فضحهم تعالى وبين كذبهم ونفاقهم فقال ﴿٣٤﴾ ولو دخلت عليهم من أقطارها ﴿٣٥﴾ أي ولو دخل الأعداء على هؤلاء المنافقين من جميع نواحي المدينة وجوانبها ﴿٣٦﴾ ثم سئلوا الفتنة لآتوها ﴿٣٧﴾ أي ثم طلب إليهم أن يكفروا وأن يقاتلوا المسلمين لأعطوها من أنفسهم ﴿٣٨﴾ وما تلبثوا بها إلا يسيراً ﴿٣٩﴾ أي لفعلوا ذلك مسرعين ، ولم يتأخروا عنه لشدة فسادهم ، وذهاب الحق من نفوسهم ، فهم لا يحافظون على الإيمان ولا يستمسكون به مع أدنى خوف وفزع ﴿٤٠﴾ ، وهذا ذمٌ لهم في غاية الذم ﴿٤١﴾ ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار ﴿٤٢﴾ أي ولقد كان هؤلاء المنافقون أعطوا ربهم العهود والمواثيق من قبل غزوة الخندق وبعد بدر ألا يفروا من القتال ﴿٤٣﴾ وكان عهدُ الله مسئلاً ﴿٤٤﴾ أي وكان هذا العهد منهم جديراً بالوفاء لأنهم سيسألون عنه ، وفيه تهديدٌ ووعدٌ قال قتادة : لما غاب المنافقون عن بدر ، ورأوا ما أعطى الله أهل بدرٍ من الكرامة والنصر ، قالوا لئن شهدنا الله قتالاً لنقاتلن ﴿٤٥﴾ ﴿٤٦﴾ قل لئن ينفعكم الفرارُ إن فررتم من الموتِ أو القتلِ ﴿٤٧﴾ أي قل يا أيها النبي لهؤلاء المنافقين ، الذين يفرون من القتال طمعاً في البقاء وحرصاً على الحياة ، إن فراركم لن يطول أعماركم ولن

(١) حاشية الصاوي ٢٧٢/٣ . (٢) هذا قول قتادة وابن زيد واختيار ابن جرير قال القرطبي : وقال السدي والحسن والفراء المعنى : ما لبثوا بالمدينة بعد إعطاء الكفر إلا قليلاً حتى هلكوا ، والأول قول أكثر المفسرين ، وذلك لضعف نياتهم وفرط نفاقهم ، فلو اختلط بهم الأعداء لأظهروا الكفر . ١ هـ « القرطبي ١٤/١٥٠ » . (٣) القرطبي ١٤/١٥٠ .

إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۖ وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ * قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنْكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشْحَةٌ عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشْحَةً عَلَى الْخَيْرِ ۚ أُولَٰئِكَ لَا يُؤْمِنُوا ۚ فَاحْبِطْ اللَّهُ أَعْمَلَهُمْ ۖ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾

يؤخر آجالكم ، ولن يدفع الموت عنكم أبداً ﴿١٧﴾ وإذا لا تمتنعون إلا قليلاً أي ولئن هربتم وفرتم فإذا لا تمتنعون بعده إلا زمناً يسيراً ، لأن الموت مأل كل حي ، ومن لم يمت بالسيف مات بغيره ﴿١٨﴾ قل من ذا الذي يعصمكم من الله أي من يستطيع أن يمنعكم منه تعالى ﴿١٩﴾ إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة أي إن قدر هلاككم ودماركم ، أو قدر بقاءكم ونصركم ؟ ﴿٢٠﴾ ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً أي وليس لهم من دون الله مجير ولا مغيث ، فلا قريب ينفعهم ولا ناصر ينصرهم ﴿٢١﴾ قد يعلم الله المعوقين منكم أي لقد علم الله تعالى ما كان من أمر أولئك المنافقين ، المثبتين للعتائم ، الذين يعوقون الناس عن الجهاد ، ويصدونهم عن القتال ﴿٢٢﴾ والقائلين لإخوانهم هلم إلينا أي والذين يقولون لإخوانهم في الكفر والنفاق : تعالوا إلينا واركبوا محمداً وصحبه يهلكوا ولا تقاتلوا معهم ، قال تعالى ﴿٢٣﴾ ولا يأتون البأس إلا قليلاً أي ولا يحضرون القتال إلا قليلاً منهم رياءً وسمعة ، قال الصاوي : لأن شأن من يشبط غيره عن الحرب ألا يفعله إلا قليلاً لغرض خبيث^(١) وقال في البحر : المعنى : لا يأتون القتال إلا إتياناً قليلاً ، يخرجون مع المؤمنين يوهمونهم أنهم معهم ، ولا تراهم يقاتلون إلا شيئاً قليلاً إذا اضطروا إليه ، فقتلهم رياءً ليس بحقيقة^(٢) ﴿٢٤﴾ أشحّة عليكم أي بخلاء عليكم بالمودة والشفقة والنصح لأنهم لا يريدون لكم الخير ﴿٢٥﴾ فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت أي فإذا حضر القتال رأيت أولئك المنافقين في شدة رعب لا مثيل لها ، حتى إنهم لتدور أعينهم في أحداقهم كحال المغشي عليه من معالجة سكرات الموت حذراً وخوراً قال القرطبي : وصفهم بالجبن ، وكذا سبيل الجبان ينظر يميناً وشمالاً محدداً بصره ، وربما غشي عليه من شدة الخوف^(٣) ﴿٢٦﴾ فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد أي فإذا ذهب الخوف عنهم وانجلت المعركة آذوكم بالكلام بألسنة سليطة ، وبالغوا فيكم طعناً وذمماً قال قتادة : إذا كان وقت قسمة الغنيمة بسطوا ألسنتهم فيكم يقولون : أعطونا أعطونا فإننا قد شهدنا معكم ، ولستم أحق بها منا ، فأما عند البأس فأجبن قوم وأخذلهم للحق ، وأما عند الغنيمة فأشح قوم وأبسطهم لساناً^(٤) ﴿٢٧﴾ أشحّة على الخير أي خاطبوكم بما خاطبوكم به حال كونهم أشحّة أي بخلاء على المال والغنيمة ﴿٢٨﴾ أولئك لم يؤمنوا أي أولئك الموصوفون بما ذكر من صفات السوء ، لم يؤمنوا حقيقة بقلوبهم وإن

(١) حاشية الصاوي ٢٧٣/٣ . (٢) البحر ٢٢٠/٧

(٣) تفسير القرطبي ١٥٣/١٤ . (٤) زاد المسير ٣٦٦/٦ والقرطبي ١٥٤/١٤ .

يَحْسَبُونَ الْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا وَإِنْ يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوِائِهِمْ بِأَدُونِ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنْبَاءِكُمْ
وَلَوْ كَانُوا فِيكُمْ مَا قَاتَلُوا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾

أسلموا ظاهراً ﴿فأحبط الله أعمالهم﴾ أي أبطلها بسبب كفرهم ونفاقهم ، لأن الإيمان شرط في قبول الأعمال ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي وكان ذلك الإحباط سهلاً هيناً على الله ، ثم أخبر تعالى عنهم بما يدل على جبنهم فقال ﴿يحسبون الأحزاب لم يذهبوا﴾ أي يحسب المنافقون من شدة خوفهم وجبنهم أن الأحزاب - وهم كفار قريش ومن تحزب معهم - بعد انهزامهم لم ينصرفوا عن المدينة وهم قد انصرفوا ﴿وإن يأت الأحزاب يودُّوا لو أنهم بادون في الأعراب﴾ أي وإن يرجع إليهم الكفار كرة ثانية للقتال يتمنوا لشدة جزعهم أن يكونوا في البادية مع الأعراب - لا في المدينة معكم - حذراً من القتل وتربصاً للدوائر ﴿يسألون عن أنباءكم﴾ أي يسألون عن أخباركم وما وقع لكم فيقولون : أهلك المؤمنون ؟ أغلب أبو سفيان ؟ ليعرفوا حالكم بالاستخبار لا بالمشاهدة ﴿ولو كانوا فيكم ما قاتلوا إلا قليلاً﴾ أي ولو أنهم كانوا بينكم وقت القتال واحتدام المعركة ما قاتلوا معكم إلا قتلاً قليلاً لجبنهم وذلتهم وحرصهم على الحياة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - التوكيد لإفادة الاستغراق والشمول ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قَلِيلين﴾ وإدخال حرف الجر الزائد لتأكيد الاستغراق ، وذكر الجوف ﴿في جوفه﴾ لزيادة التصوير في الإنكار .
- ٢ - جناس الاشتقاق ﴿وتوكل على الله وكفى بالله وكيلًا﴾ .
- ٣ - الطباق بين ﴿أخطأتم . . وتعمدت قلوبكم﴾ وبين ﴿سوء . . ورحمة﴾ لأن المراد بالسوء الشر ، وبالرحمة الخير .
- ٤ - التشبيه البليغ ﴿وأزواجه أمهاتهم﴾ حُذف منه وجه الشبه وأداة التشبيه فصار بليغاً ، وأصل الكلام وأزواجه مثل أمهاتهم في وجوب الاحترام والتعظيم ، والإجلال والتكريم .
- ٥ - المجاز بالحذف ﴿أولى ببعض﴾ أي أولى بميراث بعض .
- ٦ - ذكر الخاص بعد العام للتشريف ﴿وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح﴾ فقد دخل هؤلاء المذكورون في جملة النبيين ولكنه خصهم بالذكر تنوياً بشأنهم وتشريفاً لهم .
- ٧ - الاستعارة ﴿ميثاقاً غليظاً﴾ استعار الشيء الحسي - وهو الغلظ الخاص بالأجسام - للشيء المعنوي وهو بيان حرمة الميثاق وعظمه وثقل حمله .
- ٨ - الالتفات ﴿ليسأل الصادقين﴾ وغرضه التبكيت والتقييح للمشركين .

٩ - الطباق بين ﴿من فوقكم .. وأسفل منكم﴾ .

١٠ - التشبيه التمثيلي ﴿تدور أعينهم كالذي يُغشى عليه من الموت﴾ لأن وجه الشبه منتزع من متعدد .

١١ - المبالغة في التمثيل ﴿وبلغت القلوب الحناجر﴾ صور القلوب في خفقانها واضطرابها كأنها وصلت إلى الحلقوم .

١٢ - الكناية ﴿لا يولون الأدبار﴾ كناية عن الفرار من الزحف .

١٣ - الاستعارة المكنية ﴿سلقوكم بالسنة حداد﴾ شبه اللسان بالسيف المصلت وحذف ذكر المشبه به ورمز له بشيء من لوازمه وهو السلق بمعنى الضرب على طريق الاستعارة المكنية ، ولفظ ﴿حداد﴾ ترشيح .

١٤ - توافق الفواصل في الحرف الأخير مثل ﴿كان ذلك في الكتاب مسطوراً .. ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً﴾ ونحوه وهو يزيد في رونق الكلام وجماله ، لما له من وقع رائع ، وجرس عذب^(١) .

تنبية : خاطب الله تعالى الأنبياء بأسمائهم فقال ﴿يا نوح اهبط بسلام منا﴾ ﴿يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا﴾ ﴿يا موسى إني اصطفيتك على الناس برسالاتي وبكلامي﴾ ولم يخاطب الرسول إلا بلفظ النبوة والرسالة ﴿يا أيها النبي حسبك الله﴾ ﴿يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك﴾ الخ ولا نجد في القرآن العظيم كله نداءً له باسمه ، وإنما النداء بلفظ النبوة والرسالة ، وفي هذا تفخيم لشأنه ، وتعظيم لمقامه ، وإشارة إلى أنه سيد الأولين والآخرين ، وإمام الأنبياء والمرسلين ، وتعليم لنا الأدب معه ﷺ ، فلا نذكره إلا مع الإجلال والإكرام ، ولا نصفه إلا بالوصف الأكمل ﴿لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ..﴾ ﴿إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ..﴾^(٢) الآية .

لطفة : إن قيل : ما الفائدة بأمر الله رسوله بالتقوى وهو سيد المتقين ؟ فالجواب أنه أمرٌ بالثبات والاستدامة على التقوى كقوله ﴿يا أيها الذين آمنوا آمنوا﴾ أي اثبتوا على الإيمان وكقول المسلم ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ وهو مهتد إليه وغرضه ثبتنا على الصراط المستقيم ، أو نقول : الخطاب للرسول والمراد أمته .

* * *

(١) ذكرنا الأمثلة البلاغية بإيجاز على سبيل المثال لا الحصر ، ليتذوق القارئ بعض الروائع البيانية وإلا فكلام الله معجز وفيه من الصور البلاغية والأسرار البيانية ما يتذوقها الإنسان ويعجز عن وصفها اللسان . (٢) انظر ما كتبه أبو حيان في البحر المحيط ٧/ ٢١٠ وما كتبه القاضي عياض في كتابه الشفاء فقد أجاد كل منهما وأفاد .

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . . إلى . . أعد الله لهم مغفرة وأجرًا عظيمًا﴾
من آية (٢١) إلى نهاية آية (٣٥) .

المناسكة : لما ذكر تعالى غزوة الأحزاب ، وموقف المنافقين المذبذبين منها ، بالقعود عن الجهاد ، وتثبيط العزائم ، أمر المؤمنين في هذه الآيات بالاعتداء بالرسول الكريم في صبره وثباته ، وتضحيته وجهاده ، ثم جاء الحديث عن زوجات رسول الله الطاهرات ، وأمرهن بالاعتداء برسول الله ﷺ في زهده ، وعدم التطلع إلى زهرة الدنيا لأنهن قدوة لسائر نساء المؤمنين .

اللفظة : ﴿أسوة﴾ الأسوة : القدوة وفيها لغتان كسر الهمزة وضمها يقال اتتسى فلان بفلان أي اقتدى به ﴿نحبه﴾ النحب : النذر والعهد يقال : نحب ينحب من باب قتل نذر ، ومن باب ضرب بكى قال لبيد :

ألا تسألان المرء ماذا يُحاول
أنحب فيقضى أم ضلال وباطل^(١) ؟
ويقال : قضى نحبه إذا مات ، وعبر به عن الموت لأن كل حي لا بد أن يموت ، فكأنه نذر لازم في رقبته فإذا مات فقد قضى نحبه أي نذره^(٢) ﴿صياصيمهم﴾ حصونهم جمع صيصية وهو ما يتحصن به قال الشاعر :
فأصبحت الثيران صرعى وأصبحت نساء تميم يبتدرن الصياصيا^(٣)

﴿أمتعن﴾ متعة الطلاق ، وأصل المتاع ما يُتَبَلَّغ به من الزاد ، ومنه متعة المطلقة لأنها تنتفع وتمتع به^(٤) ﴿وأسرحكن﴾ أطلقكن ، وأصل التسريح في اللغة : الإرسال والإطلاق^(٥) ﴿تبرجن﴾ تبرجت المرأة : أظهرت زينتها ومحاسنها للأجانب^(٦) ، وأصله من الظهور ومنه سمي البرج لسعته وظهوره ﴿وقرن﴾ إلزمن بيوتكن من قولهم : قررت بالمكان أقر به إذا بقيت فيه ولزمته ، والقرار : مصدر ، وأصل « قرن » اقررن حذف الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها ، واستغني عن ألف الوصل لتحرك القاف^(٧) ﴿الرجس﴾ في اللغة : القذر والنجاسة ، وعبر به هنا عن الآثام لأن عرض المقترف للقبائح يتلوث بها ويتدنس ، كما يتلوث بدنه بالنجاسات^(٨) .

سبب النزول : أ- أخرج ابن جرير الطبري عن أنس بن مالك قال : غاب عمي « أنس بن النضر » عن قتال يوم بدر ، فقال : غبت عن أول قتال مع رسول الله ﷺ ؟ لئن أشهدني الله قتالاً ليرين الله ما أصنع ؟ فلما كان يوم أحد انكشف المسلمون - انهزموا - فقال : اللهم إني أبرأ إليك مما فعل هؤلاء - يعني المشركين - واعتذر إليك مما صنع هؤلاء - يعني المسلمين - ثم مشى بسيفه فلقبه « سعد بن معاذ » فقال : أي سعد والله إني لأجد ريح الجنة دون أحد ! ثم قاتل حتى قتل ، فقال سعد يا رسول الله : ما استطعت أن أصنع ما صنع ، قال أنس بن مالك : فوجدناه بين القتلى وبه بضع وثمانون جراحة بين ضربة بسيف ،

(١) تفسير القرطبي ١٤/١٥٨ . (٢) تفسير الكشاف ٣/٤٢١ . (٣) القرطبي ١٤/١٦١ . (٤) المصباح المنير ٢/٢٢٦ . (٥) المعجم الوسيط ١/٤٢٧ . (٦) المصباح المنير ١/٤٨ . (٧) القرطبي ١٤/١٧٨ . (٨) الكشاف ٣/٤٢٥ .

أو طعنه برمح ، أو رمية بسهم ، فما عرفناه حتى جاءت أخته فعرفته ببنايه - رءوس الأصابع - قال أنس : فكنّا نتحدث أن هذه الآية ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر . . .﴾ نزلت فيه وفي أصحابه^(١) .

ب - وروى الإمام أحمد عن جابر رضي الله عنه قال : أقبل أبو بكر رضي الله عنه يستأذن رسول الله ﷺ - والناسُ ببابه جلوس - فلم يؤذن له ، ثم أقبل عمر رضي الله عنه فاستأذن فلم يؤذن له ، ثم أذن لأبي بكر وعمر فدخلوا والنبي ﷺ جالسٌ وحوله نساؤه وهو ساكت ، فقال عمر : لأكلمنَّ النبي ﷺ لعله يضحك ! فقال يا رسول الله : لو رأيت ابنة زيد - امرأة عمر - سألتني النفقة أنفأ فوجأت عنقها ، فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه وقال : « هُنَّ حَوَالِي يسألنني النفقة » ! فقام أبو بكر إلى عائشة ليضربها ، وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقولان : تسألان رسول الله ما ليس عنده ؟ فنهاهما رسول الله ﷺ فقلن : والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ، وأنزل الله آية الخيار ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعننَّ وأسرحنن سراحاً جميلاً﴾ فبدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني أذكر لك أمراً ما أحبُّ أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ، قالت : وما هو يا رسول الله ؟ فتلا عليها الآية فقالت : أفيك أستأمرُ أبوي ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة ، وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت ، فقال : إن الله لم يبعثني معنفاً ولكن بعثني معلماً وميسراً ، لا تسألني امرأة منهن إلا أخبرتها^(٢) .

ج - عن أم سلمة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ يا نبي الله : مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن ، والنساء لا يُذكرن ! ؟ فأنزل الله تعالى ﴿إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات . . .﴾^(٣) الآية .

لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

النَّبِيُّ : ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ أي لقد كان لكم أيها المؤمنون في هذا الرسول العظيم قدوةً حسنة ، تقتدون به ﷺ في إخلاصه ، وجهاده ، وصبره ، فهو المثل الأعلى الذي يجب أن يُقتدى به ، في جميع أقواله وأفعاله وأحواله ، لأنه لا ينطق ولا يفعل عن هوى ، بل عن وحيٍ وتنزيل ، فلذلك وجب عليكم تتبع نهجه ، وسلوك طريقه ﴿لمن كان يرجو الله واليوم الآخر﴾ أي لمن كان مؤمناً مخلصاً يرجو ثواب الله ، ويخاف عقابه ﴿وذكر الله كثيراً﴾ أي وأكثر من ذكر ربه ، بلسانه وقلبه قال ابن كثير : أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ في صبره ومصابرته ، ومجاهدته ومرابطته ، ولهذا قال للذين تضجروا وتزلزلوا ، واضطربوا يوم الأحزاب ﴿لقد كان لكم في رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

(١) تفسير ابن جرير الطبري ٨٥ / ٢٠ وأسباب النزول للواحدي ٢٣٧ . (٢) أخرجه الإمام أحمد كذا في ابن كثير ٩٢ / ٣ . (٣) رواه النسائي في سننه عن أم سلمة .

وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢١﴾ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّنْ قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴿٢٢﴾ لَيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٤﴾

والمعنى : هلاً اقتديتم به وتأسيتم بشأئله ﷺ (١) !! ثم حكى تعالى موقف المؤمنين الصادقين في غزوة الأحزاب أثناء رؤيتهم جنود قريش ومن تحزب معهم ، وما صدر عن المؤمنين من إخلاص و يقين ، تُظهر بوضوح روح الإيمان والتضحية فقال ﴿ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله﴾ أي ولما رأى المؤمنون الكفار قادمين نحوهم ، وقد أحاطوا بهم من كل جانب إحاطة السوار بالمعصم ، قالوا : هذا ما وعدنا به الله ورسوله ، من المحنة والابتلاء ، ثم النصر على الأعداء ﴿وصدق الله ورسوله﴾ أي صدق الله في وعده ، ورسوله فيما بشرنا به قال المفسرون : لما كان المسلمون يحفرون الخندق اعترضتهم صخرة عظيمة عجزوا عن تكسيرها ، فأخبروا الرسول ﷺ بها فجاء وأخذ المعول وضربها ثلاث ضربات أضاعت له منها مدائن كسرى ، وقصور الروم ، فقال أبشروا بالنصر ، فلما أقبلت جموع المشركين ورأوهم قالوا ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله﴾ (٢) ﴿وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً﴾ أي وما زادهم ما رأوه من كثرة جند الأحزاب ، ومن شدة الضيق والحصار ، إلا إيماناً قوياً عميقاً بالله ، واستسلاماً وانقياداً لأوامره ﴿من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه﴾ أي ولقد كان من أولئك المؤمنين رجالٌ صادقون ، نذروا أنهم إذا أدركوا حرباً مع رسول الله ﷺ ثبتوا وقاتلوا حتى يستشهدوا ﴿فمنهم من قضى نحبه﴾ أي فممنهم من وفى بنذره وعهده حتى استشهد في سبيل الله كأنس ابن النضر وحمة ﴿ومنهم من ينتظر﴾ أي ومنهم من ينتظر الشهادة في سبيل الله ﴿وما بدلوا تبديلاً﴾ أي وما غيروا عهدهم الذي عاهدوا عليه ربهم أبداً ﴿ليجزي الله الصادقين بصدقهم﴾ أي ليجزي الله الصادقين بسبب صدقهم وحسن صنيعهم أحسن الجزاء في الآخرة ﴿ويُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ أي ويعذب المنافقين الناقضين للعهود بأن يميتهم على النفاق فيعذبهم ، أو يتوب عليهم فيرحمهم ﴿إن الله كان غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة رحماً بالعباد قال ابن كثير : ولما كانت رحمته ورأفته تبارك وتعالى هي الغالبة لغضبه ختم بها الآية الكريمة (٣) ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم﴾ أي ورد الله الأحزاب الذين تألبوا على غزو المدينة خائبين خاسرين ، مغيظين محنقين ، لم يشف صدورهم بنيل ما أرادوا ﴿لم ينالوا خيراً﴾ أي حال كونهم لم ينالوا أي خيراً لا في الدنيا ولا في الآخرة ، بل قد اكتسبوا الآثام في مبارزة الرسول عليه السلام وهمهم بقتله ﴿وكفى الله المؤمنين القتال﴾ أي كفاهم شر أعدائهم بأن أرسل عليهم الريح والملائكة حتى ولوا الأدبار منهزمين ﴿وكان الله قوياً عزيزاً﴾ أي قادراً على

(١) مختصر ابن كثير ٨٨/٣ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٢٧٠/٣ . (٣) مختصر ابن كثير ٨٩/٣ .

وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٣٦﴾ وَأَوْرَثَكُم أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَّوُّوها وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٣٧﴾ يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٣٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٩﴾

الانتقام من أعدائه ، عزيزاً غالباً لا يُقهر ، ولهذا كان عليه السلام يقول : (لا إله إلا الله وحده ، نصر عبده ، وأعز جنده ، وهزم الأحزاب وحده)^(١) ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُمْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ صَيَاصِيهِمْ﴾ أي وأنزل اليهود - وهم بنو قريظة - الذين أعانوا المشركين ونقضوا عهدهم وانقلبوا على النبي وأصحابه ، أنزلهم من حصونهم وقلاعهم التي كانوا يتحصنون فيها ﴿وقذف في قلوبهم الرعب﴾ أي ألقى الله في قلوبهم الخوف الشديد حتى فتحوا الحصون واستسلموا قال ابن جزى : نزلت الآية في يهود بني قريظة « وذلك أنهم كانوا معاهدين لرسول الله ﷺ فنقضوا عهده وصاروا مع قريش ، فلما انهزم المشركون وانصرفت قريش عن المدينة حاصر رسول الله ﷺ بني قريظة حتى نزلوا على حكم « سعد بن معاذ » فحكم بأن يقتل رجالهم ، ويسبى نساؤهم وذريتهم^(٢) فذلك قوله تعالى ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ يعني الرجال وقتل منهم يومئذ ما بين الثمانمائة والتسعمائة ﴿وتأسرون فريقاً﴾ يعني النساء والذرية ﴿وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم﴾ أي وأورثكم يا معشر المؤمنين أرض بني قريظة وعقارهم وخيلهم ومنازلهم وأموالهم التي تركوها ﴿وأرضاً لم تطؤوها﴾ أي وأرضاً أخرى لم تطؤوها بعد بأقدامكم ، وهي خير لأنها أخذت بعد قريظة ، وكل أرض فتحها المسلمون بعد ذلك ﴿وكان الله على كل شيء قديرًا﴾ أي قادراً على كل ما أراد ، لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء قال أبو حيان : ختم تعالى هذه الآية ببيان قدرته على كل شيء ، وكان في ذلك إشارة إلى فتحه على المسلمين الفتوح الكثيرة ، فكما ملكهم هذه الأراضي فكذلك هو قادر على أن يملكهم غيرها من البلاد^(٣) ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك﴾ أي قل لزوجاتك اللاتي تأذيت منهن بسبب سؤاكن إياك الزيادة في النفقة ﴿إن كنتنَّ تُردنَّ الحياة الدنيا وزينتها﴾ أي إن رغبتنَّ في سعة الدنيا ونعيمها ، وبهرجها الزائل ﴿فتعالينَّ أمتعنَّ﴾ أي فتعالينَّ حتى أدفع لكنَّ متعة الطلاق ﴿وأسرحكنَّ سراحاً جميلاً﴾ أي وأطلقكنَّ طلاقاً من غير ضرار ﴿وإن كنتنَّ تُردنَّ الله ورسوله والدار الآخرة﴾ أي وإن كنتنَّ ترغبين في رضوان الله ورسوله ، والفوز بالنعيم الوافر في الدار الآخرة ﴿فإن الله أعدَّ للمحسنات منكنَّ أجراً عظيماً﴾ جواب الشرط أي فإن الله تعالى قد هيا للمحسنات منكنَّ بمقابلة إحسانهن ثواباً كبيراً لا يوصف ، وهو الجنة التي فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر قال في البحر : لما نصر الله نبيه ، وفرَّق عنه الأحزاب ، وفتح عليه قريظة والنضير ، ظنَّ أزواجه

(١) أخرجه الشيخان . (٢) التسهيل في علوم التنزيل ١٣٦/٣ وانظر تفصيل القصة في زاد المسير ٣٧٣/٦ .

(٣) البحر المحيط ٢٢٥/٧ .

يَنْسَاءَ النَّبِيِّ مَنْ يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُبِينَةٍ يُضَعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣١﴾
 * وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعَمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣٢﴾ يَنْسَاءَ
 النَّبِيُّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنْ أَتَقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا

أنه اختص بنفائس اليهود وذخائرهم ، فقعدهن حوله وقلن يا رسول الله : بنات كسرى وقبصر في الحلي والحلل ، ونحن على ما تراه من الفاقة والضيق !! وآلن قلبه بمطالبتهم له بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما يعامل به الملوك والأكابر أزواجهم ، فأمره الله أن يتلو عليهن ما نزل في أمرهن ، وأزواجه إذ ذاك تسع زوجات (١) ﴿يا نساء النبي من يأت منكن بفاحشة مبينة﴾ أي من تفعل منكن كبيرة من الكبائر ، أو ذنباً تجاوز الحد في القبح ، قال ابن عباس : يعني النشوز وسوء الخلق (٢) ﴿يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ﴾ أي يكون جزاؤها ضعف جزاء غيرها من النساء ، لأن زيادة قبح المعصية تتبع زيادة الفضل والمرتبة (٣) ﴿وكان ذلك على الله يسيراً﴾ أي كان ذلك العقاب سهلاً يسيراً على الله ، لا يمنعه منه كونهن أزواج ونساء النبي ﷺ ، وفي الآية تلوين للخطاب ، فبعد أن كانت المخاطبة لهن على لسان رسول الله ﷺ وجه الخطاب إليهن هنا مباشرة لإظهار الاعتناء بأمرهن ونصحهن قال الصاوي : وهذه الآيات خطاب من الله لأزواج النبي ﷺ إظهاراً لفضلهن ، وعظم قدرهن عند الله تعالى ، لأن العتاب والتشديد في الخطاب مشعر برفعة رتبتهن ، لشدة قربهن من رسول الله ﷺ ولأنهن أزواجه في الجنة ، فبقدر القرب من رسول الله يكون القرب من الله (٤) ﴿ومن يقنّت منكن لله ورسوله﴾ أي ومن تواظب منكن على طاعة الله وطاعة رسوله ﴿وتعمل صالحاً﴾ أي وتتقرب إلى الله بفعل الخير وعمل الصالحات ﴿نؤتيها أجراً مرتين﴾ أي نعطيها الثواب مضاعفاً ونشبهها مرتين : مرة على الطاعة والتقوى ، وأخرى على طلبهن رضاء رسول الله ﷺ بالقناعة وحسن المعاشرة ﴿وأعتدنا لها رزقاً كريماً﴾ أي وهبنا لها في الجنة - زيادة على ما لها من أجر - رزقاً حسناً مرضياً لا ينقطع ، ثم أظهر فضيلتهن على النساء فقال ﴿يا نساء النبي لستن كأحد من النساء﴾ أي أنتن تختلفن عن سائر النساء من جهة أنكن أفضل وأشرف من غيركن ، لكونكن زوجات خاتم الرسل ، وأفضل الخلق محمد عليه أفضل الصلاة والتسليم ، فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء ﴿إن اتقيتن﴾ شرط حذف جوابه لدلالة ما قبله أي إن اتقيتن الله فأتين بأعلى المراتب قال القرطبي : بين تعالى أن الفضيلة إنما تتم لهن بشرط التقوى ، لما منحهن الله من صحبة رسوله سيد الأولين والآخرين (٥) ، وقال ابن عباس : يريد في هذه الآية : ليس قدركن عندي مثل قدر غيركن من النساء الصالحات ، أنتن أكرم علي وثوابكن أعظم إن اتقيتن ، فشرط عليهن التقوى بياناً أن فضيلتهن إنما تكون بالتقوى ، لا بنفس اتصا لهن برسول الله ﷺ (٦) ﴿فلا تخضعن بالقول﴾ أي فلا ترققن الكلام عند

(١) نفس المرجع السابق ٢٢٧/٧ . (٢) زاد المسير ٣٧٨/٦ . (٣) الكشف ٤٢٤/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٧٦/٣ .

(٥) القرطبي ١٧٧/١٤ . (٦) زاد المسير ٣٧٨/٦ .

مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ

مخاطبة الرجال ﴿٣٢﴾ فيطمع الذي في قلبه مرض ﴿٣٣﴾ أي فيطمع من كان في قلبه فجور وريبة ، وحب لمحادثة النساء ﴿٣٤﴾ وقلن قولاً معروفاً ﴿٣٥﴾ أي وقلن قولاً حسناً عفيفاً لا ريبة فيه ، ولا لين ولا تكسر عند مخاطبتكن للرجال ^(١) قال ابن كثير : ومعنى هذا أنها تخاطب الأجانب بكلام ليس فيه ترخيم ، ولا تخاطب الأجنبي كما تخاطب زوجها ﴿٣٦﴾ وقرن في بيوتكن ﴿٣٧﴾ أي الزمن بيوتكن ولا تخرجن لغير حاجة ، ولا تفعلن كما تفعل الغافلات ، المتسكعات في الطرقات لغير ضرورة ﴿٣٨﴾ ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى ﴿٣٩﴾ أي لا تظهرن زينتك ومحاسنكن للأجانب مثل ما كان نساء الجاهلية يفعلن ، حيث كانت تخرج المرأة إلى الأسواق مظهرة لمحاسنها ، كاشفة ما لا يليق كشفه من بدنها قال قتادة : كانت هن مشية فيها تكسر وتغنج فنهى الله تعالى عن ذلك ﴿٤٠﴾ وأقمن الصلاة وآتين الزكاة ﴿٤١﴾ أي حافظن على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة قال ابن كثير : نهاهن أولاً عن الشر ، ثم أمرهن بالخير ، من إقامة الصلاة وهي عبادة الله وحده ، وإيتاء الزكاة وهي الإحسان إلى المخلوقين ^(٢) ﴿٤٢﴾ وأطعن الله ورسوله ﴿٤٣﴾ أي أطعن الله ورسوله في جميع الأوامر والنواهي لتتلن مرتبة المتقيات ﴿٤٤﴾ إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس ﴿٤٥﴾ أي إنما يريد الله أن يخلصكن من دنس المعاصي ، ويطهركن من الآثام ، التي يتدنس بها عرض الإنسان كما يتلوث بدنه بالنجاسات ﴿٤٦﴾ أهل البيت ﴿٤٧﴾ أي يا أهل بيت النبوة ﴿٤٨﴾ ويطهركن تطهيراً ﴿٤٩﴾ أي يطهركن من أضرار الذنوب والمعاصي تطهيراً بليغاً ﴿٥٠﴾ واذكرن ما يتلى في بيوتكن من آيات الله والحكمة ﴿٥١﴾ أي وقرآن آيات القرآن ، وسنة النبي عليه الصلاة والسلام ، فإن فيهما الفلاح والنجاح قال الزمخشري : ذكرهن أن بيوتهن مهابط الوحي ، وأمرهن ألا ينسين ما يتلى فيها من الكتاب الجامع بين أمرين : آيات بينات تدل على صدق النبوة ، وحكمة وعلوم وشرائع سماوية ^(٣) ﴿٥٢﴾ إن الله كان لطيفاً خبيراً ﴿٥٣﴾ أي عالماً بما يصلح لأمر العباد ، خبيراً بمصالحهم ولذلك شرع للناس ما يسعدهم في دنياهم وآخرتهم ، ثم أخبر تعالى أن المرأة والرجل في الجزاء والثواب سواء فقال ﴿٥٤﴾ إن المسلمين والمسلمات ﴿٥٥﴾ هم المتمسكون بأوامر الإسلام المتخلقون بأخلاقه رجالاً ونساءً ﴿٥٦﴾ والمؤمنين والمؤمنات ﴿٥٧﴾ أي المصدقين بالله وآياته ، وما أنزل على رسله وأنبياؤه ﴿٥٨﴾ والقانتين والقانتات ﴿٥٩﴾ أي العابدين الطائعين ،

(١) أقول : إذا كان القرآن يمنع المرأة أن تتلاين في كلامها مع الرجال الأجانب لئلا يطمع بها الفساق والفجار ، فكيف بمن تثير الكوامن والشجون بالغناء الماجن الذي كله ميوعة وانحلال ، وتختلط فيه أصوات المغنين مع المغنيات في الحفلات الساهرة الدائرة وتنقله الإذاعات ، ثم نسمع بعض أدياء العلم يجذون هذا بحجة أن صوت المرأة ليس بعورة ؟ اللهم إنا نعوذ بك من شر هذا الزمان الذي فسق فيه الشبان ، وطغت فيه النساء وأصبح المنكر معروفاً . والمعروف منكراً ، ولا حول ولا قوة إلا بالله !! (٢) ابن كثير ٩٤/٣ المختصر ر . (٣) الكشف

وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ
وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٥﴾

المدامين على الطاعة ﴿والصادقين والصادقات﴾ أي الصادقين في إيمانهم ، ونياتهم ، وأقوالهم ،
وأعمالهم ﴿والصابرين والصابرات﴾ أي الصابرين على الطاعات وعن الشهوات في المكروه والمنشط
﴿والخاشعين والخاشعات﴾ أي الخاضعين الخائفين من الله جل وعلا ، المتواضعين له بقلوبهم
وجوارحهم ﴿والمتصدقين والمتصدقات﴾ أي المتصدقين بأموالهم على الفقراء ، بالإحسان وأداء الزكوات
﴿والصائمين والصائمات﴾ أي الصائمين لوجه الله شهر رمضان وغيره من الأيام ، فالصوم زكاة البدن
يزكيه ويطهره ﴿والحافظين فروجهم والحافظات﴾ أي عن المحارم والآثام ، وعما لا يحل من الزنى وكشف
العورات ﴿والذاكرين الله كثيراً والذاكرات﴾ أي المديمين ذكر الله بألسنتهم وقلوبهم في كل الأوقات
والأمكنة ﴿أعدَّ الله لهم مغفرةً وأجراً عظيماً﴾ أي أعدَّ هؤلاء المتقين الأبرار ، المتصفين بالصفات الجليلة
أعظم الأجر والثواب وهو الجنة ، مع تكفير الذنوب بسبب ما فعلوه من الأعمال الحسنة .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الإطناب بتكرار الاسم الظاهر ﴿هذا ما وعدنا الله ورسوله ، وصدق الله ورسوله﴾ كرر الاسم
الكريم للتشريف والتعظيم .

٢ - الاستعارة ﴿قضى نحبه﴾ النحب : النذر ، واستعير للموت لأنه نهاية كل حي ، فكأنه نذر
لازم في رقبة الإنسان^(١) .

٣ - الجملة الاعتراضية ﴿ويعذب المنافقين - إن شاء - أو يتوب عليهم﴾ للتنبيه على أن أمر العذاب
أو الرحمة موكل لمشيئته تعالى .

٤ - المقابلة بين ﴿إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها﴾ وبين ﴿وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار
الآخرة﴾ .

٥ - التشبيه البليغ ﴿ولا تبرجن تبرج الجاهلية﴾ أي كتبرج أهل الجاهلية حذفت أداة التشبيه ووجه
الشبه فصار بليغاً .

٦ - عطف العام على الخاص ﴿وأطعن الله ورسوله﴾ بعد قوله ﴿أقمن الصلاة وآتين الزكاة﴾ فإن

(١) انظر البيضاوي ١١٦/٢ والكشاف ٤٢١/٣ .

إطاعة الله ورسوله تشمل كل ما تقدم من الأوامر والنواهي .

٧ - الاستعارة ﴿يذهب عنكم الرجس ويطهركم تطهيراً﴾ استعار الرجس للذنوب ، والطهر للتقوى لأن عرض المرتكب للمعاصي يتدنس ، وأما الطاعة فالعرض معها نقي مصون كالثوب الطاهر .

٨ - الإيجاز بالحذف ﴿والحافظات﴾ حذف المفعول لدلالة السابق عليه أي والحافظات فزوجهن .

٩ - التغليب ﴿أعد الله لهم﴾ غلب الذكور وجمع الإناث معهم ثم أدرجهم في الضمير .

١٠ - توافق الفواصل مثل ﴿يسيراً ، قديراً ، كثيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .

قال الله تعالى : ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً . . . إلى . . . وكان الله على كل شيء رقيباً﴾

المناسكة : لما ذكر تعالى صفات المؤمنين وما نالوه من الدرجات الرفيعة ، أعقبها ببيان أن طاعة الرسول من طاعة الله ، وأمر الرسول من أمر الله ، ثم ذكرهم تعالى بالنعمة العظمى وهي بعثة السراج المنير ، المبعوث رحمة للعالمين ﷺ .

اللفظة : ﴿الخيرة﴾ مصدر بمعنى الاختيار من تخيير على غير قياس مثل الطيرة من تطير^(١) ﴿مبديه﴾ أبدى الشيء : أظهره ﴿وطراً﴾ الوطر : الحاجة التي هي في النفس قال الزجاج : الوطر الحاجة التي لك فيها همة فإذا بلغها الإنسان يقال : قضى وطره ، وقال المبرد : الوطر : الشهوة يقال : ما قضيت من لقائك وطرأ أي ما استمتعت بك كما تشتهي نفسي وأنشد :

وكيف نَوَّائي بالمدينة بعدما قَضَى وطراً منها جميل بن معمر^(٢)

﴿حرج﴾ ضيق وإثم ﴿خلوا﴾ مضوا وذهبوا ﴿قدراً مقدوراً﴾ قضاء مقضياً في الأزل ﴿بكرة﴾ البكرة : هي أول النهار ﴿أصيلاً﴾ الأصيل : آخر النهار ﴿ترجي﴾ تؤخر يقال أرجيت الأمر وأرجأته إذا أخرته^(٣) ﴿تؤوي﴾ تضم ومنه « آوى إليه أخاه » .

سَبَبُ النُّزُول : عن ابن عباس قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لمولاه « زيد بن حارثة » فاستنكفت منه وكرهت وأبت فنزلت الآية ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . .﴾ الآية فأذعن زينب حينئذ وتزوجته . . . وفي رواية « فامتنعت وامتنع أخوها عبد الله لنسبها من قریش فلما نزلت الآية جاء أخوها فقال يا رسول الله مرني بما شئت قال : فزوجها من زيد ، فرضي وزوجها^(٤) » .

(١) البحر المحيط ٧/٢٣٣ . (٢) نفس المرجع ٧/٢٠٩ . (٣) القرطبي ١٤/٢١٤ . (٤) القرطبي ١٤/١٨٧ .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَىٰ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلًّا مُّبِينًا ﴿٣٣﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتُخْفِي النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَحْشَى فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا

التفسير : ﴿وما كان لمؤمن ولا مؤمنة﴾ أي لا ينبغي ولا يصح ولا يليق بأي واحد من المؤمنين والمؤمنات ﴿إذا قضى الله ورسوله أمراً﴾ أي إذا أمر الله عز وجل وأمر رسوله بشيء من الأشياء قال الصاوي : ذكر اسم الله للتعظيم وللإشارة إلى أن قضاء رسول الله هو قضاء الله لكونه لا ينطق عن الهوى ^(١) ﴿أن يكون لهم الخيرة من أمرهم﴾ أي أن يكون لهم رأي أو اختيار ، بل عليهم الانقياد والتسليم قال ابن كثير : وهذه الآية عامة في جميع الأمور ، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء فليس لأحد مخالفته ، ولا اختيار لأحد ولا رأي ولا قول ^(٢) ، ولهذا شدد النكير فقال ﴿ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً﴾ أي ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله فقد حاد عن الطريق السوي ، وأخطأ طريق الصواب ، وضلّ ضلالاً بيناً واضحاً ﴿وإذ تقول للذي أنعم الله عليه﴾ أي اذكر أيها الرسول وقت قولك للذي أنعم الله عليه بالهداية للإسلام ﴿وأنعمت عليه﴾ بالتحريم من العبودية والإعتاق قال المفسرون : هو « زيد بن حارثة » كان من سبي الجاهلية اشترته « خديجة » وهبته لرسول الله ﷺ فكان مملوكاً عنده ثم أعتقه وتبناه ^(٣) ، وزوجه ابنة عمته « زينب بنت جحش » رضي الله عنها ﴿أمسك عليك زوجك واتق الله﴾ أي أمسك زوجتك زينب في عصمتك ولا تطلقها ، واتق الله في أمرها ﴿وتخفي في نفسك ما الله مبديه﴾ أي وتضمري يا محمد في نفسك ما سيظهره الله وهو إرادة الزواج بها ^(٤) قال في التسهيل : الذي أخفاه رسول الله ﷺ أمر جائز مباح لا إثم فيه ولا عتب ، ولكنه خاف أن

(١) حاشية الصاوي ٢٧٨/٣ . (٢) ابن كثير ٩٧/٣ من المختصر (٣) انظر قصة زيد في كتابنا روائع البيان ٣٣٤/٢ .

(٤) يشبه بعض أعداء الإسلام بروايات ضعيفة واهية ، لا زمام لها خطام ، للطعن في الرسول الكريم والنيل من مقامه العظيم ، وجدت في بعض كتب التفسير !! من هذه الروايات الباطلة التي تلقفها « المستشرقون » وخبوا فيها وأوضعوا ، أن الرسول ﷺ رأى « زينب » وهي متزوجة بزيد بن حارثة فأحبها ووقعت في قلبه فقال « سبحان مقلب القلوب » فسمعتها زينب فأخبرت بها زيداً ، فأراد أن يطلقها فقال له الرسول ﷺ « أمسك عليك زوجك » حتى نزل القرآن يعاتبه على إخفائه ذلك . الخ وهذه روايات باطلة لم يصح فيها شيء كما قال العلامة « أبو بكر بن العربي » رحمه الله ، والآية صريحة في الرد على هذا البهتان ، فإن الله سبحانه أخبر بأنه سيظهر ما أخفاه الرسول ﷺ وتخفي في نفسك ما الله مبديه ﴿ فماذا أظهر الله تعالى ؟ هل أظهر حب الرسول وعشقه لزينب ، أم أن الذي أظهره هو أمره عليه السلام بالزواج بها لحكمة عظيمة جليلة هي إبطال « حكم التبني » الذي كان شائعاً في الجاهلية ولهذا صرح تعالى بذلك وأبداه علناً وجهاراً ﴿ فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكمها لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم ﴾ يا قوم اعقلوا وفكروا ، وتفهموا الحق لوجه الحق بلا تلبيس ولا تشويش وتبصروا فيما تقولون فمن غير المعقول أن يعاتب الشخص لأنه لم يهاجم بحبه لزوجة جاره ؟ وحاشا الرسول الطاهر الكريم أن يتعلق قلبه ، بامرأة هي في عصمة رجل ، وأن يخفي هذا الحب حتى ينزل القرآن يعاتبه على إخفائه ، فإن مثل هذا لا يليق بأي رجل عادي ، فضلاً عن أشرف الخلق عليه أفضل الصلاة والتسليم ، وغاية ما في الأمر - كما نقل في البحر - عن علي بن الحسين أنه قال : « أعلم الله نبيه ﷺ أن زينب ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها ، فلما أتاه زيد يشكوها إليه وقال له : اتق الله وأمسك عليك زوجك ، عاتبه الله وقال له : أخبرتك أنني مزوجكها وتخفي في نفسك ما الله مبديه » !! انظر رد الفرية في كتابنا النبوة والأنبياء ص ٩٩ .

زَوَّجْنَاهَا لَكَ لَا يَكُونُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٢٧﴾ مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا ﴿٢٨﴾ الَّذِينَ يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَحْشَوْنَهُ وَلَا يَحْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٢٩﴾

يقول الناس تزوج امرأة ابنه إذ كان قد تبناه ، فأخفاه حياءً وحشمة وصيانة لعرضه من ألسنتهم ، فالذي أخفاه ﷺ هو إرادة تزوجها ليبطل حكم التبني فأبدى الله ذلك بأن قضى له بتزوجها ﴿وتحشى الناس والله أحق أن تحشاه﴾ أي تهاب أن يقول الناس تزوج محمد حليمة ابنه ، والله أحق أن تحشاه وحده ، وأن تجهر بما أوحاه إليك من أنك ستزوج بها بعد أن يطلقها زيد قال ابن عباس : خشي أن يقول المنافقون : تزوج محمد امرأة ابنه ﴿فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكم﴾ أي فلما قضى زيد حاجته من نكاحها وطلقها زوجناك إياها يا محمد ، وهذا نص قاطع صريح على أن الذي أخفاه رسول الله ﷺ هو إرادة الزواج بها بعد تطليق زيد لها تنفيذاً لأمر الوحي ، لا حبه لها كما زعم الأفاكون ، ومعنى ﴿زوجناكم﴾ جعلناها زوجة لك قال المفسرون : إن الذي تولى تزويجها هو الله جل وعلا ، فلما انقضت عدتها دخل عليها رسول الله ﷺ بلا إذن ولا عقد ولا مهر ولا شهود ، وكان ذلك خصوصية للرسول ﷺ روى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : « كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ وتقول : زوَّجَكُنَّ أهاليكُنَّ ، وزوَّجني ربي من فوق سبع سموات » ثم ذكر تعالى الحكمة من هذا الزواج فقال ﴿لكيلا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً﴾ أي لئلا يكون في تشريع الله على المؤمنين ضيق ومشقة وتأثم في حق تزوج مطلقات الأبناء من التبني ، إذا لم يبق لأزواجهن حاجة فيهن قال ابن الجوزي : المعنى زوجناك زينب - وهي امرأة زيد الذي تبنيته - لكيلا يُظن أن امرأة المتبني لا يحل نكاحها ﴿وكان أمر الله مفعولاً﴾ أي وكان أمر الله لك ، ووحى إليك بتزوج زينب مقدراً محتملاً كائناً لا محالة ، ولما نفى الحرج عن المؤمنين ، نفى الحرج عن سيد المرسلين بخصوصه على سبيل التكريم والتشريف فقال ﴿ما كان على النبي من حرج فيما فرض الله له﴾ أي لا حرج ولا إثم ولا عتاب على النبي فيما أباح الله له وقسم من الزوجات قال الضحاك : كان اليهود عابوه بكثرة النكاح ، فرد الله عليهم بقوله ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبلك﴾ أي هذه سنة الله في جميع الأنبياء السابقين حيث وسع عليهم فيما أباح لهم ، قال القرطبي : أي سن لمحمد ﷺ في التوسعة عليه في النكاح ، سنة الأنبياء الماضية كداود وسليمان ، فكان لداود مائة امرأة وسليمان ثلاثمائة امرأة ، عد السريات ^(١) ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾ أي قضاءً مقضياً ، وحكماً مقطوعاً به من الأزل ، لا يتغير ولا يتبدل ، ثم أثنى تعالى على جميع الأنبياء والمرسلين بقوله ﴿الذين يُلَاقُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ﴾ أي هؤلاء الذين أخبرتك عنهم يا محمد ، وجعلت لك قدوة بهم ،

مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ۖ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾ يٰٓأَيُّهَا
 الَّذِينَ ءَامَنُوا أَذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ الَّذِي يُصَلِّيْ عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم
 مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلَامٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾

هم الذين يبلغون رسالات الله إلى من أرسلوا إليه ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله﴾ أي يخافون الله وحده ولا يخافون أحداً سواه ، فاقتد يا محمد بهم ﴿وكفى بالله حسيباً﴾ أي يكفي أن يكون الله محاسباً على جميع الأعمال والأفعال ، فينبغي أن لا يُخشَى غيره ، ثم أبطل تعالى حكم التبني الذي كان شائعاً في الجاهلية فقال ﴿ما كان محمد أباً أحداً من رجالكم﴾ قال المفسرون : لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس : إن محمداً قد تزوج امرأة ابنه فنزلت هذه الآية ^(١) قال الزمخشري : أي لم يكن أباً رجلاً منكم على الحقيقة ، حتى يثبت بينه وبينه ما يثبت بين الأب وولده من حرمة الصهر والنكاح ^(٢) ﴿ولكن رسول الله وخاتم النبيين﴾ أي ولكنه عليه السلام آخر الأنبياء والمرسلين ، ختم الله به الرسالات السماوية ، فلا نبي بعده قال ابن عباس : يريد : لو لم أختم به النبيين لجعلت له ولداً يكون بعده نبياً ^(٣) ﴿وكان الله بكل شيء عليمًا﴾ أي هو العالم بأقوالكم وأفعالكم ، لا تخفى عليه خافية من أحوالكم ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكراً كثيراً﴾ أي اذكروا الله بالتهليل والتحميد ، والتمجيد والتقديس ذكراً كثيراً ، بالليل والنهار ، والسفر والحضر ﴿وسبحوه بكرةً وأصيلاً﴾ أي وسبحوا ربكم في الصباح والمساء قال العلماء : خصهما بالذكر لأنها أفضل الأوقات بسبب تنزل الملائكة فيها ^(٤) ﴿هو الذي يصلي عليكم﴾ أي هو جل وعلا يرحمكم على الدوام ، ويعتني بأمركم ، وبكل ما فيه صلاحكم وفلاحكم ﴿وملائكته﴾ أي وملائكته يصلون عليكم أيضاً بالدعاء والاستغفار وطلب الرحمة قال ابن كثير : والصلاة من الله سبحانه ثناؤه على العبد عند الملائكة ، وقيل : الصلاة من الله الرحمة ، ومن الملائكة : الدعاء والاستغفار ^(٥) ﴿ليخرجكم من الظلمات إلى النور﴾ أي لينقذكم من الضلالة إلى الهدى ، ومن ظلمات العصيان إلى نور الطاعة والإيمان ﴿وكان بالمؤمنين رحيماً﴾ أي واسع الرحمة بالمؤمنين ، حيث يقبل القليل من أعمالهم ، ويعفو عن الكثير من ذنوبهم ، لإخلاصهم في إيمانهم ﴿تحيّتهم يوم يلقونه سلام﴾ أي تحية هؤلاء المؤمنين يوم يلقون ربهم السلام والإكرام في الجنة من الملك العلام كقوله تعالى ﴿سلاماً قولاً من رب رحيم﴾ ﴿وأعدّ لهم أجراً كريماً﴾ أي وهباً لهم أجراً حسناً وهو الجنة وما فيها من النعيم المقيم قال ابن كثير : المراد بالأجر الكريم الجنة وما فيها من المأكّل والمشارب ، والملابس والمساكن ، والملاذ والمناظر ، مما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ^(٦) ، ثم لما بيّن تعالى أنه أخرج المؤمنين من ظلمات

(١) رواه الترمذي عن عائشة : (٢) الكشف ٣/ ٤٣٠ . (٣) زاد المسير ٦/ ٣٩٣ . (٤) حاشية الصاوي ٣/ ٢٨١ . (٥) ابن كثير المختصر

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تَطْعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذُنَهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمْسُوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُونَهَا فَمَتَّعُوهُنَّ وَسِرَّحُوهُنَّ سِرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

الكفر والضلال إلى أنوار الهداية والإيمان ، عقبه بذكر أوصاف السراج المنير الذي أضاء الله به الأكوان فقال ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا﴾ أي شاهداً على أمتك وعلى جميع الأمم بأن أنبياءهم قد بلغوهم رسالة ربهم ﴿ومبشراً﴾ أي مبشراً للمؤمنين بجنات النعيم ﴿ونذيراً﴾ أي ومنذراً للكافرين من عذاب الجحيم ﴿وداعياً إلى الله بإذنه﴾ أي وداعياً للخلق إلى توحيد الله وطاعته وعبادته ، بأمره جل وعلا لا من تلقاء نفسك ﴿وسراجاً منيراً﴾ أي وأنت يا محمد كالسراج الوهاج المضيء للناس ، يهتدى بك في الدهماء ، كما يهتدى بالشهاب في الظلماء قال ابن كثير : أي أنت يا محمد كالشمس في إشراقها وإضاءتها لا يجحدها إلا معانداً^(١) وقال الزمخشري : شبهه بالسراج المنير لأن الله جلى به ظلمات الشرك ، واهتدى به الضالون ، كما يُجلى ظلام الليل بالسراج المنير ويهتدى به^(٢) ، وصفه تعالى بخمسة أوصاف كلها كمال وجمال ، وثناء وجلال ، وختمها بأنه صلوات الله عليه هو السراج الوضاء الذي بدد الله به ظلمات الضلال ، فصلوات ربي وسلامه عليه في كل حين وآن ﴿وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلاً كبيراً﴾ أي وبشر يا محمد المؤمنين خاصة بأن لهم من الله العطاء الواسع الكبير في جنات النعيم ﴿ولا تطع الكافرين والمنافقين﴾ أي لا تطعمهم فيما يطلبونه منك من المساهلة والملاينة في أمر الدين ، بل اثبت على ما أوحى إليك ﴿ودع أذاهم﴾ أي ولا تكثرث بإذابتهم لك ، وصدّهم الناس عنك ﴿وتوكل على الله﴾ أي واعتمد في جميع أمورك وأحوالك على الله ﴿وكفى بالله وكيلاً﴾ أي إن الله يكفي من توكل عليه في أمور الدنيا والآخرة قال الصاوي : وفي الآية إشارة إلى أن التوكل أمره عظيم ، فمن توكل على الله كفاه ما أهمه من أمور الدنيا والدين^(٣) ، ولما كان الحديث عن نساء النبي ﷺ وقصة زيد وتطبيقه لزنب ، جاء الحديث عن نساء المؤمنين والطريقة المثل في تطبيقهن فقال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ﴾ أي يا أيها المؤمنون الذين صدّقوا بالله ورسوله إذا عقدتم عقد الزواج على المؤمنات وتزوجتموهن ﴿ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن﴾ أي ثم طلقتموهن من قبل أن تجامعوهن ، وإنما خصّ المؤمنات بالذكر مع أن الكتابيات يدخلن في الحكم ، للتنبيه على أن الأليق بالمسلم أن يتخير لنطفته ، وألا ينكح إلا مؤمنة عفيفة^(٤) ﴿فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾ أي فليس لكم عليهم حق

(١) ابن كثير ١٠٢/٣ المختصر . (٢) نفس المرجع السابق ١٠٣/٣ . (٣) الكشف ٤٣٢/٣ . (٤) حاشية الصاوي على الجلالين

٢٨٢/٣ . (٥) انظر الكشف ٤٣٣/٣ .

يُنَابِئُ النَّبِيَّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ الَّتِي آتَيْتَ أَجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ الَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٣١﴾

في العدة تستوفون عددها عليهن ، لأنكم لم تعاشروهن فليس هناك احتمال للحمل حتى تحتبسوا المرأة من أجل صيانة نسبكم ﴿فمتعوهن﴾ أي فالواجب عليكم إكرامهن بدفع المتعة بما تطيب نفوسكم به من مالٍ أو كسوة ، تطيباً لخواطرهن ، وتخفيفاً لشدة وقع الطلاق عليهن ﴿وسرّوهن سرّاحاً جميلاً﴾ أي وخلّوا سبيلهن تخليةً بالمعروف ^(١) ، من غير إضرار ولا إيذاء ، ولا هضمٍ لحقوقهن قال أبو حيان : والسراح الجميل هو كلمة طيبة دون أذى ولا منع واجب ^(٢) ، ثم ذكر تعالى ما يتعلق بأحوال زوجات الرسول ﷺ فقال ﴿يا أيها النبي إنا أحللنا لك أزواجك اللاتي آتيت أجورهن﴾ أي إنا قد أبحنا لك يا محمد أنواعاً من النساء ، توسعة عليك وتيسيراً لك في تبليغ الدعوة ، فمن ذلك أننا أبحنا لك زوجاتك اللاتي تزوجتهن بصدّاقٍ مُسمّى ، وهُنَّ في عصمتك ^(٣) ﴿وما مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ﴾ أي وأبحنا لك أيضاً النساء اللاتي تملكهن في الحرب بطريق الانتصار على الكفار ، وإنما قيّدهن بطريق الغنائم لأنهن أفضل من اللاتي يملكن بالشراء ، فقد بدل في إحرازهن جهداً ومشقة لم يكن في الصنف الثاني ﴿وبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّتِكَ وَبَنَاتِ خَالَكَ وَبَنَاتِ خَالَتِكَ اللاتي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ أي وأبحنا لك قريباتك من بنات الأعمام والعمات ، والأخوال والخالات بشرط الهجرة معك ﴿وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبي﴾ أي وأحللنا لك النساء المؤمنات الصالحات اللواتي وهبن أنفسهن لك ، حباً في الله ورسوله وتقرباً لك ﴿إن أراد النبي أن يستنكحها﴾ أي إن أردت يا محمد أن تتزوج من شئت منهن بدون مهر ﴿خالصةً لك من دون المؤمنين﴾ أي خاصة لك يا محمد دون سائر المؤمنين ، فإنه لا يحل لهم التزوج بدون مهر ، ولا تصح الهبة ، بل يجب مهر المثل ﴿قد علمنا ما فرضنا عليهم في أزواجهم وما مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ﴾ أي قد علمنا ما أوجبنا على المؤمنين من نفقة ، ومهر ، وشهود في العقد ، وعدم تجاوز أربع من النساء ، وما أبحنا لهم من ملك اليمين عدا الخرائر ، وأما أنت فقد خصصناك بخصائص تيسيراً لك ﴿لكيلا يكون عليك حرج﴾ أي لئلا يكون عليك مشقة أو ضيق ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي عظيم المغفرة واسع الرحمة ﴿ترجي

(١) الطبري ١٤/٢٢ . (٢) البحر المحيط ٧/٢٤٠ . (٣) هذا أحد قولين للمفسرين ، والآخر أن المراد جميع النساء فقد أباح الله لرسوله ﷺ أن يتزوج كل امرأة يعطيها مهرها ، وهذا أوسع من الأول واختاره القرطبي واستدل بحديث عائشة « ما مات رسول الله ﷺ حتى أحل الله له النساء » انظر القرطبي ١٤/٢٠٧ .

* تُرْجَى مِنْ نِسَاءٍ مِنْهُنَّ وَتُؤْوَى إِلَيْكَ مِنْ نِسَاءٍ وَمِنْ ابْتِغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَىٰ
 أَنْ تَقْرَأَ عَيْنَهُنَّ وَلَا يُحْزَنَ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا ﴿٥٦﴾
 لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَتَّجَبْتَ حُسْنَهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ
 كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا ﴿٥٧﴾

من تشاء منهنَّ وتؤوي إليك من تشاء ﴿٥٦﴾ أي ولك - أيها النبي - الخيار في أن تطلق من تشاء من زوجاتك ،
 وتمسك من تشاء منهنَّ ﴿٥٧﴾ ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴿٥٨﴾ أي وإذا أحببت أن تؤوي إليك
 امرأة ممن عزلت من القسمة فلا إثم عليك ولا عتب ﴿٥٩﴾ ذلك أدنى أن تقر أعينهنَّ ولا يحزنَّ ويرضين بما
 آتيتهنَّ كلُّهنَّ ﴿٦٠﴾ أي ذلك التخيير الذي خيرناك في أمرهنَّ أقرب أن ترتاح قلوبهن فلا يحزنَّ ، ويرضين
 بصنيعك ، لأنهن إذا علمن أن هذا أمر من الله ، كان أطيب لأنفسهن فلا يشعرن بالحزن والألم ﴿٦١﴾ والله
 يعلم ما في قلوبكم ﴿٦٢﴾ خطاب للنبي على جهة التعظيم أي يعلم ما في قلبك يا محمد وما في قلب كل
 إنسان ، من عدل أو ميل ، ومن حب أو كراهية ، وإنما خيرناك فيهن تيسيراً عليك فيما أردت ﴿٦٣﴾ وكان الله
 عليماً حلیمًا ﴿٦٤﴾ أي واسع العلم يعلم جميع ما تظهرون وما تخفون ، حلياً يضع الأمور في نصابها ولا
 يعاجل بالعقوبة ، بل يؤخر ويمهل لكنه لا يهمل ، روى البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت
 « كنت أغار من اللاتي وهبن أنفسهن للنبي ﷺ وأقول : أتهب المرأة نفسها ؟ فلما نزلت ﴿٦٥﴾ ترجي من تشاء
 منهنَّ وتؤوي إليك من تشاء ، ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك ﴿٦٦﴾ قلت : ما أرى ربك إلا يسارع في
 هواك » ثم قال تعالى ﴿٦٧﴾ لا يحلُّ لك النساء من بعد ﴿٦٨﴾ أي لا يحلُّ لك أيها النبي النساء من بعد هؤلاء التسع
 اللاتي في عصمتك ﴿٦٩﴾ ولا أن تبدلَ بهنَّ من أزواج ﴿٧٠﴾ أي ولا يحلُّ لك أن تطلق واحدة منهن وتنكح مكانها
 أخرى ﴿٧١﴾ ولو أعجبك حسنهنَّ ﴿٧٢﴾ أي ولو أعجبك جمال غيرهن من النساء ﴿٧٣﴾ إلا ما ملكت يمينك ﴿٧٤﴾ أي إلا ما
 كان من الجواري والإماء فلا بأس في ذلك لأنهن لسن زوجات ﴿٧٥﴾ وكان الله على كل شيء رقيباً ﴿٧٦﴾ أي
 مطلعاً على أعمالكم شاهداً عليها ، وفيه تحذير من مجاوزة حدوده ، وتخطي حلاله وحرامه . قال
 المفسرون : أباح الله لرسوله أصنافاً أربعة « المهورات ، المملوكات ، المهاجرات ، الواهبات أنفسهن »
 توسعة عليه ﷺ وتيسيراً له في نشر الرسالة وتبليغ الدعوة ، ولما نزلت آية التخيير ﴿٧٧﴾ قل لأزواجك إن كنتنَّ
 تُردن الحياة الدنيا . . . الآية وخيرهن عليه السلام ، واخترن الله ورسوله والدار الآخرة ، أكرمهن الله
 تعالى بأن قصره عليهن ، وحرم عليه أن يتزوج بغيرهن .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

(١) هذا قول ابن عباس ، وقال مجاهد والضحاك تقسم لمن شئت وتؤخر عنك من شئت ، وتقلل لمن شئت وتكثر لمن شئت ، لا حرج عليك
 في ذلك ، كذا في البحر ٢٤٧/٧ .

- ١ - التنكير لإفادة العموم ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ﴾ لأن النكرة في سياق النفي تفيد العموم ، أي ليس لواحدٍ منهم أن يريد غير ما أَراده الله ورسوله .
- ٢ - الطباق بين ﴿تخفى . . ومبديه﴾ وبين ﴿الظلمات . . والنور﴾ وبين ﴿مبشراً . . ونذيراً﴾ وهو من المحسنات البديعية .
- ٣ - جناس الاشتقاق ﴿قَدراً مقدوراً﴾ .
- ٤ - طباق السلب ﴿ويخشونه ولا يخشون أحداً﴾ .
- ٥ - التشبيه البليغ ﴿وسراجاً منيراً﴾ أصل التشبيه : أنت يا محمد كالسراج الوضاء في الهداية والإرشاد ، حذفت منه أداة التشبيه ووجه الشبه فأصبح بليغاً على حد قولهم : علي أسدٌ ، ومحمدٌ قمر .
- ٦ - الكناية ﴿من قبل أن تمسوهن﴾ كُنَى عن الجماع بالمسِّ وهي من الكنايات المشهورة ، ومن الآداب القرآنية الحميدة لأن القرآن يتحاشى الألفاظ البذيئة .
- ٧ - الطباق بين ﴿بكرة . . وأصيلاً﴾ وبين ﴿ترجي . . وتؤوي﴾ وبين ﴿ابتغيت . . وعزلت﴾ .
- ٨ - توافق الفواصل مما يزيد في الجمال والإيقاع على السمع مثل ﴿مبشراً ونذيراً . . وسراجاً منيراً﴾ ومثل ﴿سراجاً جميلاً . . علياً حليماً . . غفوراً رحيماً﴾ وهذا من خصائص القرآن العظيم ، وهو من المحسنات البديعية .

* * *

قال الله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي . . إلى . . وكان الله غفوراً رحيماً﴾ من آية (٥٣) إلى آية (٧٣) نهاية السورة .

المناسكة : لما ذكر تعالى أحوال النبي ﷺ مع أزواجه ، ذكر هنا الآداب التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون عند دخولهم بيوت النبي ﷺ من الاستئذان وعدم الإيقاع ، ثم بيّن شرف الرسول بصلاة الله والملائكة عليه ، وختم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وما يعقبها من أهوالٍ لأهل الكفر والضلال ، وحال الأشقياء والسعداء في دار البقاء .

اللغة : ﴿إناه﴾ نضجه قال في اللسان : إننى الشيء بلوغه وإدراكه والإنى بكسر الهمزة والقصر : النضج^(١) ﴿مستأنسين﴾ الاستئناس : طلبُ الأُنس بالحديث ، تقول استأنست بحديثه أي طلبت الأُنس والسُرور به ، وما بالدار من أنيس أي ليس بها أحد يؤانسك أو يسليك ﴿متاعاً﴾ المتاعُ : الغرض والحاجة كالماعون وغيره ﴿بهتاناً﴾ البهتانُ : الافتراء والكذب الواضح ، وأصله من البهت وهو

(١) انظر لسان العرب .

القذف بالباطل^(١) ﴿جلايبهن﴾ جمع جلاب وهو الثوب الذي يستر جميع البدن وهو يشبه الملاء «الملحفة» في زماننا، قال الشاعر :

تمشي النسور إليه وهي لاهية مشي العذارى عليهن الجلايب^(٢)
﴿المرجفون﴾ جمع مرجف وهو الذي يشيع الكذب والباطل لإخافة الناس به قال الشاعر :

وإننا وإن عيرتمونا بقتله وأرجف بالإسلام باغٍ وحاسد^(٣)
﴿نغرينك﴾ أغراه به : حثه وسلطه عليه ﴿سعيراً﴾ ناراً شديدة الاستعار .

سَبَبُ التَّزْوُل : أ - روي عن أنس أن النبي ﷺ لما تزوج « زينب بنت جحش » أولمَ عليها ، فدعا الناس فلما طعموا جلس طوائف منهم يتحدثون في بيت رسول الله ﷺ وزوجته مولية وجهها إلى الحائط ، فنقلوا على رسول الله ﷺ قال أنس : فما أدري أنا أخبرت النبي ﷺ أن القوم قد خرجوا أو أخبرني ، قال فانطلق حتى دخل البيت فذهبت أدخل معه فألقى الستر بيني وبينه ونزل الحجاب ، ووعظ الناس بما وعظوا به وأنزل الله ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم . . .﴾^(٤) .

ب - وقال ابن عباس : كان ناسٌ من المؤمنين يتحيتون طعام النبي ﷺ فيدخلون قبل أن يدرك الطعام ، ويقعدون إلى أن يدرك ، ثم يأكلون ولا يخرجون فنزلت^(٥) .

ج - وعن عائشة أن عمر رضي الله عنه قال يا رسول الله : إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر ، فلو أمرتهن أن يحتجن فنزلت آية الحجاب ﴿وإذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب ، ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن . . .﴾^(٦) الآية .

د - عن السدي أن الفساق كانوا يؤذون النساء إذا خرجن بالليل ، فإذا رأوا المرأة عليها قناع تركوها وقالوا : هذه حرة ، وإذا رأوها بغير قناع قالوا : أمة فأذوها فأنزل الله ﴿يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن . . .﴾^(٧) الآية .

يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَبْظِرِينَ إِنَّهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ

التفسير : ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبي إلا أن يؤذن لكم﴾ الإضافة للتشريف والتكريم ، والآية توجيه للمؤمنين لهذا الأدب السامي العظيم والمعنى لا تدخلوا بيوت النبي في حال من الأحوال إلا في حال الإذن لكم منه عليه السلام ، مراعاةً لحقوق نسائه ، وحرصاً على عدم إيذائه والاثقال

(١) المصباح المنير ١/ ٧١ . (٢) لسان العرب لابن منظور . (٣) القرطبي ١٤/ ٢٤٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٢٢٤ وانظر كمال القصة في الصحيحين ، وفيها معجزة لرسول الله ﷺ باهرة . (٥) التسهيل في علوم التنزيل ٣/ ١٤٢ قال ابن جزي : والقول الأول المنقول عن أنس أشهر ، وقول ابن عباس بما في الآية من النهي عن الدخول حتى يؤذن لهم . (٦) أخرجه البخاري . (٧) زاد المسير لابن الجوزي ٦/ ٤٢٢ .

فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَعْسِنِينَ لِحَدِيثٍ ^٢ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِيهِ مِنْكُمْ
وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِيهِ مِنَ الْحَقِّ ^٣ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ^٤ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ^٥
وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ^٦ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ^٧
إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ^٨ لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِيءَ آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا
إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَأَتَقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ

عليه ﴿إلى طعام غير ناظرين إناه﴾ أي إلا حين يدعوكم إلى طعام غير منتظرين نضجه ﴿ولكن إذا
دُعيتم فادخلوا﴾ أي ولكن إذا دُعيتم وأذن لكم في الدخول فادخلوا ﴿فإذا طعمتم فانتشروا﴾ أي فإذا
انتهيتم من الطعام فتفرقوا إلى دوركم ولا تمكثوا ﴿ولا مستأنسين لحديث﴾ معطوف على «غير ناظرين» أي
لا تدخلوا بيوته منتظرين للطعام ، ولا مستأنسين لحديث بعضكم بعضاً قال أبو حيان : نهوا أن يطيلوا
الجلوس يستأنس بعضهم ببعض لحديث يحدثه به ^(١) ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ﴾ أي إن صنيعكم هذا
يؤذي الرسول ، وبضايقه ويثقل عليه ، ويمنعه من قضاء كثير من مصالحه وأموره ﴿فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ﴾
أي فيستحي من إخراجكم ، ويمنعه حياؤه أن يأمركم بالانصراف ، لخلق الرفيع ، وقلبه الرحيم ﴿والله
لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ﴾ أي والله جل وعلا لا يترك بيان الحق ، ولا يمنعه مانع من إظهار الحق وتبينه لكم
قال القرطبي : هذا أدب أدب الله به الثقلاء ، وفي كتاب الثعلبي : حسبك من الثقلاء أن الشرع لم
يحتملهم ^(٢) ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ أي وإذا أردتم حاجة من أزواجه
الطاهرات فاطلبوه من وراء حاجز وحجاب ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ أي سؤل الكم إياهن المتاع
من وراء حجاب أزكى لقلوبكم وقلوبهن وأطهر ، وأنفى للريبة وسوء الظن ﴿وما كان لكم أن تؤذوا
رَسُولَ اللَّهِ﴾ أي وما ينبغي لكم ولا يليق بكم أن تؤذوا رسولكم الذي هداكم الله به في حياته ﴿ولا أن
تنكحوا أزواجه من بعده أبداً﴾ أي ولا أن تتزوجوا زوجاته من بعد وفاته أبداً ، لأنهن كالأمهات لكم ،
وهو كالوالد فهل يليق بكم أن تؤذوه في نفسه أو أهله ؟ ﴿إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ أي إن إيذاءه
ونكاح أزواجه من بعده أمر عظيم ، وذنب كبير لا يغفره الله لكم قال أبو السعود : وفيه من تعظيمه تعالى
لشأن رسوله ﷺ وإيجاب حرمة حيّاً وميتاً ما لا يخفى ^(٣) ثم قال تعالى ﴿إِنْ تَبَدُّوا شَيْعًا أَوْ تُخَفُّوهُ﴾ أي إن
تظهروا أمراً من الأمور أو تخفوه في صدوركم ﴿فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا﴾ أي فإن الله عالم به وسيجازيكم
عليه قال البيضاوي : وفي هذا التعميم مع البرهان على المقصود مزيد تهويل ومبالغة في الوعيد ^(٤) ، ثم لما
أنزل تعالى الحجاب استثنى المحارم فقال ﴿لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءَ

عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٧﴾

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٥٧﴾

إخوانهن ولا أبناء أخواتهن ولا نسائهن ولا ما ملكت أيمانهن ﴿٥٦﴾ أي لا حرج ولا إثم على النساء في ترك الحجاب أمام المحارم من الرجال قال القرطبي : لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء لرسول الله ﷺ : ونحن أيضاً نكلمهن من وراء حجاب ؟ فنزلت هذه الآية ^(١) ، والمراد بـ ﴿نسائهن﴾ نساء المؤمنين قال ابن عباس ، لأن نساء اليهود والنصارى يصفن لأزواجهن النساء المسلمات ، فلا يحل للمسلمة أن تُبدي شيئاً منها لثلاث تصفها لزوجها الكافر ^(٢) ﴿واتقين الله﴾ أي اتقين يا معشر النساء الله ، واخشينه في الخلوة والعلانية ﴿إن الله كان على كل شيء شهيداً﴾ أي لا تخفى عليه خافية من أموركن ، يعلم خطرات القلوب كما يعلم حركات الجوارح قال الرازي : وهذا في غاية الحسن في هذا الموضع ، لأن ما سبق إشارة إلى جواز الخلوة بهم والتكشف لهم ، فختلها بأن الله شاهد عند اختلاء بعضهم ببعض ، فالخلوة عنده مثل الجلوة فعليهم أن يتقوا الله ^(٣) ، ثم بيّن تعالى قدر الرسول العظيم فقال ﴿إن الله وملائكته يصلون على النبي﴾ أي إن الله جل وعلا يرحم نبيه ، ويعظم شأنه ، ويرفع مقامه ، وملائكته الأبرار يدعون للنبي ويستغفرون له ، ويطلبون من الله أن يمجد عبده ورسوله ويُنيله أعلى المراتب قال القرطبي : والصلاة من الله رحمته ورضوانه ، ومن الملائكة الدعاء والاستغفار ، ومن الأمة الدعاء والتعظيم لأمره ^(٤) وقال الصاوي : وهذه الآية فيها أعظم الدليل على أنه ﷺ مهبط الرحمت ، وأفضل الأولين والآخرين على الإطلاق ، إذ الصلاة من الله على نبيه رحمته المقرونة بالتعظيم ، ومن الله على غير النبي مطلق الرحمة كقوله ﴿هو الذي يصلي عليكم وملائكته﴾ فانظر الفرق بين الصلاتين ، والفضل بين المقامين ، وبذلك صار منيع الرحمت ، ومنيع التجليات ^(٥) ﴿يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً﴾ أي فأنتم أيها المؤمنون أكثروا من الصلاة عليه والتسليم ، فحقه عليكم عظيم ، فقد كان المنقذ لكم من الضلالة إلى الهدى ، والمخرج لكم من الظلمات إلى النور ، فقولوا كلما ذكر اسمه الشريف « اللهم صل على محمد وآله وسلم تسليماً كثيراً » عن كعب بن عُجرة قلنا يا رسول الله : قد عرفنا التسليم عليك فكيف الصلاة عليك ؟ فقال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم . . . ^(٦) الحديث قال الصاوي : وحكمة صلاة الملائكة والمؤمنين على النبي ﷺ تشریفهم بذلك ، حيث اقتدوا بالله جل وعلا في الصلاة عليه وتعظيمه ، ومكافأة لبعض حقوقه على الخلق ، لأنه الواسطة العظمى في كل نعمة وصلت لهم ، وحق على من وصل له نعمة من شخص أن يكافئه ، ولما كان الخلق عاجزين عن مكافأته ﷺ طلبوا من القادر الملك أن يكافئه ، وهذا هو السر في قولهم « اللهم صل على محمد » ^(٧) ﴿إن الذين يؤذون الله ورسوله﴾ أي يؤذون الله بالكفر ونسبة صاحبة الولد له ، ووصفه بما لا يليق به جل وعلا كقول اليهود ﴿يد الله

(١) القرطبي ٢٣١/١٤ . (٢) انظر حاشية الصاوي ٢٨٧/٣ . (٣) التفسير الكبير ٢٥/٢٢٧ . (٤) القرطبي ١٤/٢٣٢ .

(٥) حاشية الصاوي ٢٨٧/٣ . (٦) (٧) حاشية الصاوي على الجلالين ٢٨٧/٣ .

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا ﴿٥٨﴾ يَتَّبِعَهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَوِّجَكِ وَبَنَاتِكَ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٥٩﴾ * لَيْنَ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِبَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ

مغلولة ﴿٥٨﴾ وقول النصارى « المسيح بن الله » ويؤذون الرسول بالكذب برسالته ، والطعن في شريعته ، والاستهزاء بدعوته قال ابن عباس : نزلت في الذين طعنوا على الرسول ﷺ حين اتخذ صفية بنت حيي^(١) ﴿لعنهم الله في الدنيا والآخرة﴾ أي طردهم من رحمته ، وأحل عليهم سخطه وغضبه في الدنيا بالهوان والصغار ، وفي الآخرة بالخلود في عذاب النار ﴿وأعدّ لهم عذاباً مهيناً﴾ أي وهياً لهم عذاباً شديداً ، بالغ الغاية في الإهانة والتحقير ﴿والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا﴾ أي يؤذون أهل الإيمان بغير ما فعلوه ، وبغير جنابة واستحقاقٍ للأذى ﴿فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً﴾ أي فقد حملوا أنفسهم البهتان والكذب ، والزور ، والذنب الواضح الجلي قال القرطبي : أطلق إيذاء الله ورسوله ، وقيد إيذاء المؤمنين والمؤمنات ، لأن إيذاء الله ورسوله لا يكون إلا بغير حق أبداً ، وأما إيذاء المؤمنين والمؤمنات فمنه ومنه^(٢) ولما حرّم تعالى الإيذاء ، أمر نبيه الكريم أن يوجه النداء إلى الأمة جمعاء ، للتمسك بالإسلام وتعاليمه الرشيدة ، وبالأخص في أمر اجتماعي خطير وهو « الحجاب » الذي يصون للمرأة كرامتها ، ويحفظ عليها عفافها ، ويحميها من النظرات الجارحة ، والكلمات اللاذعة ، والنوايا الخبيثة لئلا تتعرض لأذى الفساق فقال ﴿يا أيها النبي قُلْ لَأُزَوِّجَكِ وَبَنَاتِكَ نِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ أي قل يا محمد لزوجاتك الطاهرات - أمهات المؤمنين - وبناتك الفضليات الكريمات ، وسائر نساء المؤمنين ، قل لهنّ يلبسن الجلابيب الواسع ، الذي يستر محاسنهن وزينتهن ، ويدفع عنهن السنة السوء ، ويميزهن عن صفات نساء الجاهلية ، روى الطبري : عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن في حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدن عينا واحدة^(٣) ، وروى ابن كثير عن محمد بن سيرين قال : سألت عبيدة السلماني عن قول الله عز وجل ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾ فغطى وجهه ورأسه وأبرز عينه اليسرى^(٤) ﴿ذلك أدنى أن يُعرفن فلا يؤذين﴾ أي ذلك التستر أقرب بأن يُعرفن بالعفة والتستر والصيانة ، فلا يطمع فيهن أهل السوء والفساد ، وقيل : أقرب بأن يُعرفن أنهم حرائر ، ويتميزن عن الإماء ، ﴿وكان الله غفورا رحيماً﴾ أي إنه تعالى غفور لما سلف منهن من تفريط ، رحيم بالعباد حيث راعى مصالحهم وشئونهم تلك الجزئيات . . ثم هدّد المولى جل وعلا كل المؤذنين من جميع الأصناف بأنواع العقاب فقال ﴿لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض﴾ أي لئن

(١) زاد المسير ٦/ ٤٢٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٣٨ . (٣) هذا النص عن ابن عباس صريح في وجوب ستر الوجه ، وكذا رواية ابن كثير عن محمد ابن سيرين ، وغيرهما من الروايات الصحيحة والصريحة بوجوب ستر المرأة للوجه ، فأين أقوال السلف الصالح وأئمة علماء التفسير الأجلاء ، من أقوال أدعياء العلم في هذا العصر والزمان ، الذين يبيحون للمرأة أن تكشف وجهها أمام الأجانب !! وانظر أقوال المفسرين في كتابنا « روائع البيان » ٢/ ٣٨٢ . (٤) ابن كثير ٣/ ١١٤ .

لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٠﴾ مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا نُفِقُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا ﴿١١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿١٢﴾ يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عَلَيْهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿١٣﴾ إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿١٤﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٥﴾ يَوْمَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَّا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ ﴿١٦﴾

لم يترك هؤلاء المنافقون - الذين يُظهرون الإيمان ويبطنون الكفر - نفاقهم ، والزناة - الذين في قلوبهم مرض فجور - فجورهم ﴿١٠﴾ والمرجعون في المدينة ﴿١١﴾ أي الذين ينشرون الأراجيف والأكاذيب لبلبله الأفكار ، وخلخلة الصفوف ، ونشر أخبار السوء ﴿لنغرينك بهم﴾ أي لنسلطنك عليهم يا محمد ﴿ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلاً﴾ أي ثم يخرجون من المدينة فلا يعودون إلى مجاورتك فيها إلا زمناً قليلاً ، ريثما يتأهبوا للخروج قال الرازي : وعد الله نبيه أن يخرج أعداءه من المدينة وينفيهم على يده ، إظهاراً لشوكته ﴿١﴾ ﴿ملعونين﴾ أي مبعدين عن رحمته تعالى ﴿أينما تُفِقُوا أَخَذُوا وَقَتَلُوا تَقْتِيلًا﴾ أي أينما وجدوا وأدركوا أخذوا على وجه الغلبة والقهر ثم قتلوا لكفرهم بالله تَقْتِيلًا ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ﴾ أي هذه سنة الله في المنافقين وعادته فيمن سبق منهم أن يفعل بهم ذلك قال القرطبي : أي سنَّ الله عز وجل فيمن أَرَجَفَ بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويُقتل ﴿٢﴾ ﴿ولن تجد لسنة الله تبديلاً﴾ أي ولن تتغير أو تتبدل سنة الله ، لكونها بُنيت على أساسٍ متين ، قال الصاوي : وفي الآية تسلية للنبي ﷺ أي فلا تحزن على وجود المنافقين يا محمد ، فإن ذلك سنة قديمة لم يخل منهم زمن من الأزمان ﴿٣﴾ ثم ذكر تعالى الساعة وأهوالها فقال ﴿يسألك الناس عن الساعة﴾ أي يسألك يا محمد المشركون على سبيل الاستهزاء والسخرية عن وقت قيام الساعة ﴿قل إنما علمها عند الله﴾ أي قل لهم : لست أعرف وقتها وإنما يعلم ذلك علام الغيوب ، فإن الله أخفاها لحكمة ولم يُطلع عليها ملكاً مقرباً ، ولا نبياً مرسلًا ﴿وما يُدريك لعل الساعة تكون قريباً﴾ أي وما يُعلمك أن الساعة تكون في وقت قريب ؟ قال أبو السعود : وفيه تهديد للمستعجلين ، وتبكيث للممتعتين ، والإظهار في موضع الإضمار للتهويل وزيادة التقرير ﴿٤﴾ ﴿إن الله لعن الكافرين﴾ أي طرد الكافرين وأبعدهم عن رحمته ﴿وأعدَّ لهم سعيراً﴾ أي وهباً لهم ناراً شديدة مستعرة ﴿خالدين فيها أبداً﴾ أي مقيمين في السعير أبد الأبدين ﴿لا يجدون ولياً ولا نصيراً﴾ أي لا يجدون لهم من ينجيهم وينقذهم من عذاب الله ﴿يومَ تَقْلُبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ أي يوم تتقلب وجوههم من جهة إلى جهة كاللحم يُشوى بالنار ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ أي يقولون متحسرين على ما فاتهم :

(١) التفسير الكبير ٢٥/٢٣١ . (٢) القرطبي ١٤/٢٤٧ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٢٨٨ .

(٤) تفسير أبي السعود ٤/٢٢٠ .

وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ ﴿٧٧﴾ رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٧٨﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذُوا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٧٩﴾ يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٨١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٨٢﴾

يا ليتنا أطعنا الله ورسوله حتى لا نبتي بهذا العذاب المهين ﴿٧٧﴾ وقالوا ربنا إنا أطعنا ساداتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا ﴿٧٨﴾ أي أطعنا القادة والأشراف فينا فأضلونا طريق الهدى والإيمان ﴿٧٧﴾ ربنا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ ﴿٧٨﴾ أي اجعل عذابهم ضعفي عذابنا ، لأنهم كانوا سبب ضلالنا ﴿٧٩﴾ والعَنُم لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٨٠﴾ أي والعنهم أشد أنواع اللعن وأعظمه ، ثم حذر تعالى من إيذاء الرسول كما آذى اليهود نبيهم فقال ﴿٨١﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴿٨٢﴾ أي لا تكونوا أمثال بني إسرائيل الذين آذوا نبيهم موسى واتهموه ببرص في جسمه أو أذرة لفرط تستره وحيائه ، فأظهر الله براءته وأكذبهم فيما اتهموه به روى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : (إن موسى كان رجلاً حياً ستيراً ، لا يرى من جلده شيء استحياء منه ، فأذاه من آذاه من بني إسرائيل فقالوا : ما يتستر هذا التستر إلا من عيب بجلده ، إما برص وإما أذرة - انتفاخ الخصية - وإما آفة ، وإن الله أراد أن يبرئه مما قالوا لموسى ، فخلا يوماً وحده فوضع ثيابه على الحجر ثم اغتسل ، فلما فرغ أقبل على ثيابه ليأخذها وإن الحجر عدا بثوبه ، فأخذ موسى عصاه وطلب الحجر فجعل يقول : ثوبي حجر ، ثوبي حجر ، حتى مر على ملأ من بني إسرائيل فأروه أحسن ما خلق الله عرياناً ، وأبرأه مما يقولون) الحديث (١) ﴿٨٣﴾ وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٨٤﴾ أي وكان موسى ذا وجهة ورفعة ومكانة عند ربه قال ابن كثير : أي له وجهة وجاه عند ربه ، لم يسأل شيئاً إلا أعطاه (٢) ﴿٨٥﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٨٦﴾ أي راقبوا الله في جميع أقوالكم وأفعالكم ، وقولوا قولاً مستقيماً مرضياً لله قال الطبري : أي قولاً قاصداً غير جائر ، حقاً غير باطل (٣) ﴿٨٧﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ ﴿٨٨﴾ أي يوفقكم لصالح الأعمال ويتقبلها منكم قال ابن عباس : يتقبل حسناتكم ﴿٨٩﴾ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴿٩٠﴾ أي يمحو عنكم الذنوب والأوزار ﴿٩١﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٩٢﴾ أي ومن أطاع الله والرسول فقد نال غاية مطلوبه ، ثم لما أرشدهم إلى مكارم الأخلاق ، نبههم على قدر التكليف الشرعية التي كلف الله بها البشرية فقال ﴿٩٣﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا ﴿٩٤﴾ أي عرضنا الفرائض والتكليف الشرعية على السموات والأرض والجبال الراسيات فأعرضن عن حملها وخفن من ثقلها وشدتها ، والغرض تصوير عظم الأمانة وثقل حملها قال أبو السعود : والمعنى أن

لَيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٣﴾

تلك الأمانة في عظم الشأن بحيث لو كلفت هاتيك الأجرام العظام - التي هي مثل في القوة والشدة - وكانت ذا شعور وإدراك على مراعاتها لأبين قبولها وأشفقن منها^(١) وقال ابن جزى : الأمانة هي التكليف الشرعية من التزام الطاعات ، وترك المعاصي ، وقيل : هي الأمانة في الأموال ، والصحيح العموم في التكليف ، وعرضها يحتمل وجهين أحدهما : أن يكون الله خلق لها إدراكاً فعرضت عليها الأمانة حقيقة فأشفقت منها وامتنعت من حملها ، والثاني : أن يكون المراد تعظيم شأن الأمانة وأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال ، لأبين من حملها وأشفقن منها ، فهذا ضرب من المجاز كقولك : عرضت الحمل العظيم على الدابة فأبت أن تحمله ، والمراد أنها لا تقدر على حمله^(٢) وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولاً أي وتحملها الإنسان إنه كان شديد الظلم لنفسه ، مبالغاً في الجهل بعواقب الأمور قال ابن الجوزي : لم يرد بقوله ﴿أبين﴾ المخالفة ، وإنما أبين للخشية والمخافة ، لأن العرض كان تخيراً لا إلزاماً^(٣) ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات ، والمشركين والمشركات﴾ قال ابن كثير : أي إنما حمل بني آدم الأمانة وهي التكليف ليعذب الله المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر ، والمشركين الذين ظاهرهم وباطنهم على الكفر ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ أي ويرحم أهل الإيمان ، ويعود عليهم بالتوبة والمغفرة والرضوان ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ أي واسع المغفرة للمؤمنين حيث عفا عما سلف منهم ، رحماً بهم حيث أثابهم وأكرمهم بأنواع الكرامات .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإضافة للتشريف ﴿لا تدخلوا بيوت النبي﴾ لأنها لما نسبت للنبي تشرفت .
- ٢ - الطباق بين ﴿ادخلوا .. وانتشروا﴾ وبين ﴿تبدوا .. وتحفوا﴾ وبين ﴿ثقفوا .. وأخذوا﴾ .
- ٣ - طباق السلب ﴿فيستحيي منكم ، والله لا يستحي من الحق﴾ .
- ٤ - ذكر الخاص بعد العام ﴿لئن لم ينته المنافقون .. والمرجعون﴾ والمرجعون هم من المنافقين ، فعمم ثم خصص زيادة في التقييح والتشنيع عليهم .
- ٥ - ذكر اللفظ بصيغة « فعول » و « فعيل » للمبالغة مثل ﴿إنه كان ظلوماً جهولاً﴾ ﴿بكل شيء عليماً﴾ ﴿على كل شيء شهيداً﴾ الخ .
- ٦ - الإتيان بالمصدر مع الفعل للتأكيد ﴿وقتلوا تقتيلاً﴾ ﴿وسلموا تسليماً﴾ .

٧ - التحسر والتفجع بطريق التمني ﴿يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول﴾ .

٨ - التشبيه ﴿لا تكونوا كالذين آذوا موسى﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل .

٩ - الاستعارة التمثيلية ﴿إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال﴾ مثل للأمانة في ضخامتها وعظمتها وتفخيم شأنها بأنها من الثقل بحيث لو عرضت على السموات والأرض والجبال وهي من القوة والشدة بأعلى المنازل لأبت عن حملها وأشقت منها ، وهو تمثيل رائع لتحويل شأن الأمانة .

١٠ - المقابلة اللطيفة بين ﴿ليعذب الله المنافقين والمنافقات﴾ وبين ﴿ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات﴾ وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع « رد العجز على الصدر » لأن بدء السورة كان في ذم المنافقين ، وختمها كان في بيان سوء عاقبة المنافقين ، فحسن الكلام في البدء والختام .

١١ - الثناء على الرسول ﴿إن الله وملائكته يصلون﴾ ورد بهذه الصيغة وفيه دقائق بيانية :

أ - جاء الخبر مؤكداً بـ « إن » اهتماماً به .

ب - وجيء بالجملة إسمية لإفادة الدوام .

ج - وكانت الجملة إسمية في صدرها « إن الله » فعلية في عجزها « يصلون » للإشارة إلى أن هذا الثناء من الله تعالى على رسوله يتجدد وقتاً فوقتاً على الدوام ، فتدبر هذا السر الدقيق .

١٢ - مراعاة الفواصل لماله من الوقع الحسن على السمع مثل ﴿أعدّ لهم سعيراً﴾ . لا يجدون لهم ولياً ولا نصيراً . . والعنهم لعناً كبيراً﴾ الخ وهو من المحسنات البديعية .

لطيفة : أشارت الآية الكريمة ﴿قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين﴾ إلى لطيفة وهي أن الدعوة لا تثمر إلا إذا بدأ الداعي بها في نفسه وأهله ، وهذا هو السر في البدء بالحجاب الشرعي بنساء الرسول وبناته .

« الردُّ على من أباح كشف الوجه ،

وطائفة من أقوال المفسرين في وجوب ستره »

١ - قال ابن كثير : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن لحاجة أن يغطين وجوههن من فوق رؤوسهن بالجلابيب .

٢ - وقال ابن الجوزي : في قوله تعالى ﴿يدنين عليهن من جلابيبهن﴾ أي يغطين رؤوسهن وجوههن ليعلم أنهن حرائر .

٣ - وقال أبو السعود : ومعنى الآية أي يغطين بها وجوههن وأبدانهن إذا برزن لداعية من الدواعي .

٤ - وقال الطبري : أي لا تتشبهن بالأماء في لباسهن إذا خرجن لحاجتهن فكشفن شعورهن وجوههن لئلا يعرض لهن فاسق .

٥ - وقال في البحر : والمراد بقوله ﴿عليهن﴾ أي على وجوههن ، لأن الذي كان يبدو منهن في الجاهلية هو الوجه .

٦ - وقال الجصاص : وفي الآية دلالة على أن المرأة الشابة مأمورة بستر وجهها عن الأجانب لئلا يطمع فيها أهل الريب . فهذه جملة من أقوال أئمة التفسير في وجوب ستر وجه المرأة ، والله يقول الحق ويهدي السبيل^(١) .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة الأحزاب »



(١) انظر شروط الحجاب الشرعي وكيفيته والحكمة التشريعية منه في كتابنا « روائع البيان في تفسير آيات الأحكام من القرآن » ٣٨٧/٢ .



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

- * سورة سبأ من السور المكية ، التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية ، وتتناول أصول الدين ، من إثبات الوجدانية ، والنبوة ، والبعث والنشور .
 - * ابتدأت السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا ، الذي أبدع الخلق ، وأحكم شئون العالم ، ودبر الكون بحكمته ، فهو الخالق المبدع الحكيم ، الذي لا يغيب عن علمه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض ، وهذا من أعظم البراهين على وحدانية رب العالمين .
 - * وتحدثت السورة عن قضية هامة ، هي إنكار المشركين للآخرة ، وتكذيبهم بالبعث بعد الموت ، فأمرت الرسول ﷺ أن يقسم بربه العظيم ، على وقوع المعاد ، بعد فناء الأجساد ﴿وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم . .﴾ الآية .
 - * وتناولت السورة قصص بعض الرسل ، فذكرت « داود » وولده « سليمان » عليهما السلام ، وما سخر الله لهما من أنواع النعم ، كتسخير الريح لسليمان ، وتسخير الطير والجبال تسبح مع « داود » إظهاراً لفضل الله عليهما في ذلك العطاء الواسع .
 - * وتناولت السورة بعض شبهات المشركين ، حول رسالة خاتم الأنبياء والمرسلين ، ففندتها بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ، كما أقامت الأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته .
 - * وختمت السورة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالواحد القهار ، الذي بيده تدبير أمور الخلق أجمعين .
- التَّسْمِيَةُ :** سميت سورة « سبأ » لأن الله تعالى ذكر فيها قصة سبأ ، وهم ملوك اليمن ، وقد كان أهلها في نعمة ورخاء ، وسرور وهناء ، وكانت مساكنهم حدائق وجنات ، فلما كفروا النعمة دمرهم الله بالسيل العرم ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ﴿١﴾ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴿٢﴾

اللفظة: ﴿يلج﴾ يدخل والولوج الدخول ومنه « حتى يلج الجمل في سم الخياط » ﴿يعرج﴾ يصعد ومنه المعراج لأنه صعود إلى السموات ﴿يعزب﴾ يغيب يقال : عزب عن عينه أي غاب عنها ﴿مثقلاً﴾ وزن ومقدار ﴿جنة﴾ بكسر النون بمعنى الجنون وبضمها بمعنى الوقاية والحجاب ﴿كسفاً﴾ قطعاً ﴿أوبي﴾ سبحي والتأويب : التسييح ﴿سابغات﴾ واسعات كاملات يقال : سبغ الدرع والثوب إذا غطى كل البدن وفضل منه شيء قال أبو حيان : السابغات : الدروع وأصله الوصف بالسبوغ وهو التمام والكمال ، وغلب على الدروع فصار كالأبطح قال الشاعر :

عليها أسود ضاريات لبوسهم سوابغ بيض لا يخرقها النبل^(١)
﴿السرد﴾ النسج ، وهو نسج حلق الدروع قال القرطبي : وأصله من الأحكام قال لبيد :

صنع الحديد مضاعفاً أسراده لينال طول العيش غير مروم^(٢)
﴿القطر﴾ النحاس المذاب ﴿جفان﴾ جمع جفنة وهي القصعة الكبيرة ﴿الجوابي﴾ جمع جابية وهي الخوض الكبير يجمع فيه الماء قال الأعشى :

نفى الذم عن آل المخلوق جفنة كجابية الشيخ العراقي تفهق^(٣)
﴿منساته﴾ المنساء : العصا سميت بذلك لأنه ينسأ بها أي يطرد ويزجر قال الشاعر :

إذا دببت على المنساء من كبر فقد تباعد عنك اللهو والغزل^(٤)

النفيس: ﴿الحمد لله الذي له ما في السموات وما في الأرض﴾ أي الثناء الكامل على جهة التعظيم والتبجيل لله الذي له كل ما في الكون خلقاً وملكاً وتصرفاً ، الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، فله الحمد في الدنيا لكمال قدرته ، وفي الآخرة لواسع رحمته ﴿وله الحمد في الآخرة﴾ أي وله الحمد بأجمعه لا يستحقه أحد سواه ، لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ أي الحكيم في صنعه ، الخبير بخلقه ، فلا اعتراض عليه في فعل من أفعاله ﴿يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها﴾ تفصيل لبعض معلوماته جلّ وعلا أي يعلم ما يدخل في جوف الأرض من المطر والكنوز

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عِلْمُ الْغَيْبِ لَا يُعْزِبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي
السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعْجِزِينَ
أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رَّجْزٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ

والأموات ، وما يخرج من الأرض من الزروع والنباتات وماء العيون والآبار ﴿وما ينزل من السماء وما
يعرج فيها﴾ أي وما ينزل من السماء من المطر والملائكة والرحمة ، وما يصعد إليها من الأعمال
الصالحات ، والدعوات الزاكيات ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ أي الرحيم بعباده ، الغفور عن ذنوب
التائبين حيث لا يعاجلهم بالعقوبة ، ثم حكى تعالى مقالة المنكرين للبعث والقيامة فقال ﴿وقال الذين
كفروا لا تأتينا الساعة﴾ أي وقال المشركون من قومك لا قيامة أبداً ولا بعث ولا نشور قال البيضاوي :
وهو إنكار لمجيئها أو استبطاء استهزاء بالوعد به ^(١) ﴿قل بلى وربى لتأتينكم﴾ أي قل لهم يا محمد :
أقسم بالله العظيم لتأتينكم الساعة ، فإنها واقعة لا محالة قال ابن كثير : هذه إحدى الآيات الثلاث التي
أمر الله رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوعها ، والثانية في يونس ﴿قل إني وربي إنه لحق﴾ والثالثة في
التغابن ﴿قل بلى وربى لتبعثن﴾ ^(٢) ﴿عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في
الأرض﴾ أي هو جل وعلا العالم بما خفي عن الأبصار ، وغاب عن الأنظار ، لا يغيب عنه مقدار وزن
الذرة في العالم العلوي أو السفلي ﴿ولا أصغر من ذلك ولا أكبر﴾ أي ولا أصغر من الذرة ولا أكبر منها
﴿إلا في كتاب مبين﴾ أي إلا ويعلمه الله تعالى وهو في اللوح المحفوظ ، والغرض أن الله تعالى لا تخفى
عليه ذرة في الكون فكيف يخفى عليه البشر وأحوالهم ؟ فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو تعالى
عالم أين ذهبت وتفرقت ، ثم يعيدها يوم القيامة ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي أثبت
ذلك في الكتاب المبين لكي يثيب المؤمنين الذين أحسنوا في الدار الدنيا بأحسن الجزاء ﴿أولئك لهم مغفرة
ورزق كريم﴾ أي لهم مغفرة لذنوبهم ، ورزق حسن كريم في دار النعيم ﴿والذين سَعَوْا فِي آيَاتِنَا
مُعْجِزِينَ﴾ أي وأما الذين بذلوا جهدهم وجدوا لا يبطال القرآن مغالين لرسولنا ، يظنون أنهم يعجزونه بما
يثيرونه من شبهات حول رسالته والقرآن ﴿أولئك لهم عذابٌ من رجز أليم﴾ أي فهو لاء المجرمون لهم
عذاب من أسوأ العذاب ، شديد الإيلام قال قتادة : الرجز : سوء العذاب ﴿ويرى الذين أُوتُوا
العلم﴾ أي ويعلم أولوا العلم من أصحاب النبي عليه السلام ومن جاء بعدهم من العلماء العاملين
﴿الذي أنزل إليك من ربك هو الحق﴾ أي يعلمون أن هذا القرآن الذي أنزل عليك يا محمد هو الحق

الْحَقُّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴿١٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمْرِقٍ إِنَّا كُنَّا لَنُحَدِّثُكُمْ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴿١١﴾ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ نَاشِئًا نَحْسِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطُ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿١٢﴾

الذي لا يأتيه الباطل ﴿ويهدي إلى صراط العزيز الحميد﴾ أي ويرشد من تمسك به إلى طريق الله الغالب الذي لا يقهر ، الحميد أي المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله ، ثم ذكر تعالى أساليب المشركين في الصد عن دين الله ، والسخرية برسول الله فقال ﴿وقال الذين كفروا﴾ أي وقال الكافرون من مشركي مكة المنكرون للبعث والجزاء ﴿هل ندلكم على رجل ينبئكم﴾ أي هل نرشدكم إلى رجل يحدثكم بأعجب الأعاجيب ؟ - يعنون محمداً ﷺ - ﴿إذا مرقتم كل ممزق﴾ أي إذا بليتتم في القبور ، وتفرقت أجسادكم في الأرض ، وذهبت كل مذهب بحيث صرتم تراباً ورفاتاً ﴿إنكم لفي خلق جديد﴾ ؟ أي إنكم ستخلقون خلقاً جديداً بعد ذلك التمزيق والتفريق ؟ والغرض من هذا المقال هو السخرية والاستهزاء قال أبو حيان : والقائلون هم كفار قريش قالوه على جهة التعجب والاستهزاء ، كما يقول الرجل لمن يريد أن يعجبه : هل أدلك على قصة غريبة نادرة ؟ ولما كان البعث عندهم من المحال جعلوا من يخبر عن وقوعه في حيز من يتعجب منه ، ونكروا اسمه عليه ﴿هل ندلكم على رجل﴾ مع أن اسمه أشهر علم في قريش بطريق الاستهزاء ^(١) ﴿أفتري على الله أم به جنة﴾ أي هل اختلق الكذب على الله ، أم به جنون فهو يتكلم بما لا يدري ؟ قال تعالى رداً عليهم ﴿بل الذين لا يؤمنون بالآخرة﴾ ﴿بل﴾ للإضراب أي ليس الأمر كما يزعمون من الكذب والجنون ، بل الذين يحددون البعث ولا يصدقون بالآخرة ﴿في العذاب والضلال البعيد﴾ أي بل هؤلاء الكفار في ضلال وحيرة عن الحق توجب لهم عذاب النار ، فهم واقعون في الضلال وهم لا يشعرون وذلك غاية الجنون والحماسة ، ولما ذكر تعالى ما يدل على إثبات الساعة ، ذكر دليلاً آخر يتضمن التوحيد مع التهديد فقال ﴿أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض﴾ أي ألم يشاهدوا ما هو محيط بهم من جميع جوانبهم من السماء والأرض ؟ فإن الإنسان أينما توجه وحيثما نظر رأى السماء والأرض أمامه وخلفه ، وعن يمينه وشماله ، وهما يدلان على وحدانية الصانع ، أفلا يتدبرون ذلك فيعلمون أن الذي خلقهما قادر على بعث الناس بعد موتهم ؟ ثم هددهم بقوله ﴿إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفاً من السماء﴾ أي لو شئنا لخسفنا بهم الأرض كما فعلنا بقارون ، أو أسقطنا عليهم قطعاً من السماء كما فعلنا بأصحاب الأيكة ، فمن أين لهم المهرب ؟ قال ابن الجوزي : المعنى أنهم أين كانوا فأرضي وسمائي محيطه بهم ، وأنا

* وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلًا يٰجِبَالُ أُوبِي مَعَهُ وَالطَّيْرُ وَالنَّارُ لَهُ الْحَدِيدُ ﴿١١﴾ أَنْ أَعْمَلَ سَبِيغًا وَقَدَّرَ فِي السَّرْدِ وَأَعْمَلُوا صَلَاحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٢﴾ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوها شَهْرٌ وَرَوَاحُها شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ

القادر عليهم ، إن شئتُ خسفتُ بهم الأرض ، وإن شئتُ أسقطتُ عليهم قطعة من السماء^(١) ﴿١١﴾ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴿١٢﴾ أي إن فيما يشاهدون من آثار القدرة والوحدانية لدلالة وعبرة لكل عبد تائب رجّاع إلى الله ، متأمل فيما يرى قال ابن كثير : يريد أن من قدر على خلق هذه السموات في ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، قادر على إعادة الأجسام ، ونشر الرميم من العظام^(٢) ، ثم ذكر تعالى قصة داود وما خصّه الله به من الفضل العظيم فقال ﴿١٢﴾ ولقد آتينا داود منا فضلاً اللام موطئة لقسم محذوف تقديره وعزة الله وجلاله لقد أعطينا داود منا فضلاً عظيماً واسعاً لا يقدر قال المفسرون : الفضل هو النبوة ، والزبور ، وتسخير الجبال ، والطير ، والإلانة الحديد ، وتعليمه صنع الدروع إلى غير ذلك ﴿١٣﴾ يا جبال أوبي معه والطير ﴿١٤﴾ أي قلنا يا جبال سبحي معه ورجّعي التسبيح إذا سبّح وكذلك أنت يا طيور قال ابن عباس : كانت الطير تسبح معه إذا سبّح ، وكان إذا قرأ لم تبق دابة إلا استمعت لقراءته وبكت لبكائه^(٣) ﴿١٥﴾ والنار له الحديد ﴿١٦﴾ أي جعلنا الحديد ليناً بين يديه حتى كان كالعجين ، قال قتادة : سخر الله الحديد فكان لا يحتاج أن يدخله ناراً ، ولا يضربه بمطرقة ، وكان بين يديه كالشمع والعجين ﴿١٧﴾ أن اعمل سابغات ﴿١٨﴾ أي اعمل منه الدروع السابغة التي تقي الإنسان شر الحرب قال المفسرون : كان يأخذ الحديد بيده فيصير كأنه عجين يعمل به ما يشاء ، ويصنع الدرع في بعض يوم يساوي ألف درهم فيأكل ويتصدق^(٤) ، والسابغات صفة لموصوف محذوف تقديره دروعاً سابغات ، وهي الدروع الكوامل التي تغطي لابسها حتى تفضل عنه فيجرها على الأرض ﴿١٩﴾ وقدّر في السرد ﴿٢٠﴾ أي وقدر في نسج الدروع بحيث تتناسب حلقاتها قال الصاوي : أي اجعل كل حلقة مساوية لأختها ضيقة لا ينفذ منها السهم لغلظها ، ولا تثقل حاملها واجعل الكل بنسبة واحدة^(٥) ﴿٢١﴾ واعملوا صالحاً ﴿٢٢﴾ أي واعملوا يا آل داود عملاً صالحاً ولا تتكلموا على عز أبيكم وجاهه ﴿٢٣﴾ إني بما تعملون بصير ﴿٢٤﴾ أي إني مطلع على أعمالكم مراقب لها وسأجازيكم بها قال الامام الفخر : ألان الله لداود الحديد حتى كان في يده كالشمع وهو في قدرة الله يسير ، فإنه يلين بالنار حتى يصبح كالمداد الذي يكتب به ، فأني عاقل يستبعد ذلك على قدرة الله^(٦) ؟ وهو أول من صنع الدروع حلقاتاً وكانت قبل ذلك صفائح ثقلاً كما قال تعالى ﴿٢٥﴾ وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم ﴿٢٦﴾ ، ثم ذكر تعالى ما أنعم به على ولده « سليمان » من النبوة والملك والجاه العظيم فقال ﴿٢٧﴾ ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر ﴿٢٨﴾ أي وسخرنا لسليمان الريح تسير بأمره ، وسيرها من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر للسائر المجد ، ومن الظهر إلى الغروب مسيرة شهر قال المفسرون : سخر

(١) زاد المسير ٤٣٥/٦ . (٢) ابن كثير ١٢٢/٣ . (٣) زاد المسير ٤٣٦/٦ . (٤) القرطبي ٢٦٦/١٤ . (٥) حاشية الصاوي على

الجلالين ٢٩٤/٣ . (٦) التفسير الكبير ٢٥٠/٢٥ .

عَيْنَ الْقَطْرِ وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَنْ يَزْغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾
يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحْرِبٍ وَتَمَثِيلٍ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَتٍ أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ
مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ
فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ إِلَيْنِ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾

الله له الريح تقطع به المسافات الشاسعة في ساعات معدودات ، تحمله مع جنده فتنتقل به من بلد الى بلد ، تغدو به مسيرة شهر إلى نصف النهار ، وترجع به مسيرة شهر إلى آخر النهار ، فتقطع به مسيرة شهرين في نهار واحد ﴿وَأَسْلَمْنَا لَهُ عَيْنَ الْقَطْرِ﴾ أي وأذبنا له النحاس حتى كان يجري كأنه عين ماء متدفقة من الأرض قال المفسرون : أجرى الله لسليمان النحاس ، كما ألان داود الحديد ، آية باهرة ، ومعجزة ظاهرة ﴿وَمِنَ الْجَنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾ أي وسخرنا له الجن تعمل بأمره وإرادته ما شاء مما يعجز عنه البشر ، وكل ذلك بأمر الله وتسخيره ﴿وَمَنْ يَزْغِ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا﴾ أي ومن يعدل منهم عما أمرناه به من طاعة سليمان ﴿نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ أي نذقه النار المستعرة في الآخرة ، ثم أخبر تعالى عما كلف به الجن من الأعمال فقال ﴿يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبٍ﴾ أي يعمل هؤلاء الجن لسليمان ما يريد من القصور الشاخنة ﴿وَتَمَثِيلٍ﴾ أي والتماثيل العجيبة من النحاس والزجاج قال الحسن : ولم تكن يومئذ محرمة ، وقد حرمت في شريعتنا سداً للذريعة لئلا تُعبد من دون الله ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾ أي وقصاع ضخمة تشبه الأحواض قال ابن عباس : « كالجواب » أي كالحياض ﴿وقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ﴾ أي وقُدُورٍ كبيرة ثابتات لا تتحرك لكبرها وضخامتها قال ابن كثير : والقُدُور الراسيات أي الثابتات في أماكنها لا تتحرك ولا تتحول عن أماكنها لعظمتها^(١) ﴿أَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾ أي وقلنا لهم اشكروا يا آل داود ربكم على هذه النعم الجليلة ، فقد خصكم بالفضل العظيم والجاه العريض ، واعملوا بطاعة الله شكراً له جل وعلا ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورِ﴾ أي وقليل من العباد من يشكر الله على نعمه قال ابن عطية : وفيه تنبيه وتحريض على شكر الله^(٢) ، ثم أخبر تعالى عن كيفية موت سليمان فقال ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ أي حكمنا على سليمان بالموت ونزل به الموت ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ أي ما دل الجن على موته إلا تلك الحشرة وهي الأرضة - السوسة التي تأكل الخشب - تأكل عصا سليمان ﴿فَلَمَّا خِرَّ تَبَيَّنَتْ إِلَيْنِ أَن لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ﴾ أي فلما سقط سليمان عن عصاه ظهر للجن واتضح لهم أنهم لو كانوا يعرفون الغيب كما زعموا ﴿مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ أي ما مكثوا في الأعمال الشاقة تلك المدة الطويلة ، قال المفسرون : كانت الإنس تقول : إن الجن يعلمون الغيب الذي يكون في المستقبل ، فوقف سليمان في محرابه يصلي متوكئاً على عصاه ، فمات ومكث على ذلك سنة والجن

تعمل تلك الأعمال الشاقة ولا تعلم بموته ، حتى أكلت الأرضُ عصا سليمان فسقط على الأرض فعلموا موته ، وعلم الإنس أن الجنَّ لا تعلم الغيب لأنهم لو علموه لما أقاموا هذه المدة الطويلة في الأعمال الشاقة وهم يظنون أنه حي وهو عليه السلام ميت .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان نوجزها فيما يلي :

- ١ - تعريف الطرفين لإفادة الحصر ﴿الحمد لله﴾ ومعناه لا يستحق الحمد الكامل إلا الله .
- ٢ - الطباق بين ﴿يلج . . ويخرج﴾ وبين ﴿ينزل . . ويعرج﴾ وبين ﴿أصغر . . وأكبر﴾ .
- ٣ - صيغة فاعيل وفعلول للمبالغة ﴿وهو الحكيم الخبير﴾ ﴿وهو الرحيم الغفور﴾ ﴿وقليل من عبادي الشكور﴾ .
- ٤ - المقابلة بين ﴿ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات . .﴾ الآية وبين ﴿والذين سعوا في آياتنا معاجزين﴾ فقد جعل المغفرة والرزق الكريم جزاء المحسنين ، وجعل العذاب والرجز الأليم جزاء المجرمين .
- ٥ - الاستفهام للسخرية والاستهزاء ﴿هل ندلكم على رجلٍ ينشكم﴾ وغرضهم الاستهزاء بالرسول ولم يذكروا اسمه إمعاناً في التجهيل كأنه إنسان مجهول .
- ٦ - التنكير للتفخيم ﴿آتيناً داود منا فضلاً﴾ أي فضلاً عظيماً ، وتقديم داود على المفعول الصريح للاهتمام بالمقدم والتشويق إلى المؤخر .
- ٧ - الإيجاز بالحذف ﴿غدوها شهرٌ ورواحها شهر﴾ أي غدوها مسيرة شهر ورواحها مسيرة شهر .
- ٨ - التشبيه ﴿وجفان كالجواب﴾ ويسمى التشبيه المرسل المجمل لذكر أداة التشبيه وحذف وجه الشبه .

قال الله تعالى : ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية . . إلى . . هل يحزون إلا ما كانوا يعملون﴾

من آية (١٥) إلى نهاية آية (٣٣) .

المناسكة : لما بينَّ تعالى حال الشاكرين لنعمه بذكر « داود » و « سليمان » بينَّ حال الكافرين لأنعمه بقصة سبأ ، موعظةً لقريش وتحذيراً وتنبهاً على ما جرى من المصائب والنكبات على من كفر بأنعم الله ، ثم ذكّر كفار مكة بنعمه ليعبدوه ويشكروه .

اللغة : ﴿سبأ﴾ قبيلة من العرب سكنت اليمن سميت باسم جدّهم « سبأ بن يشجب بن قحطان » ﴿العرم﴾ الحاجز بين الشيثين قال النحاس : وما يجتمع من مطر بين جبلين وفي وجهه مُسْنَأة - أي

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُّوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِیْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثَلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾

حاجز - فهو العرم^(١) ﴿خَمْطٌ﴾ الخَمْطُ : المرءُ البشع قال الزجاج : كل نبت فيه مرارة لا يمكن أكله فهو خَمْطٌ وقال المبرد : هو كل ما تغيَّر إلى ما لا يشتهي ، واللبن إذا حمض فهو خَمْطٌ ﴿أَثَلٌ﴾ الأَثَلُ : شجر لا ثمر له قال الفراء : وهو شبيه بالطرفاء إلا أنه أعظم منه طولاً ومنه اتخذ منبر رسول الله ﷺ والواحدة أثلة ﴿سدر﴾ قال الفراء : هو السَّرو ، وقال الأزهري : السدر نوعان : سدر لا ينتفع به ولا يصلح ورقه للغسل وله ثمرة عصفة لا تؤكل ، وسدر ينبت على الماء وثمره النبق وورقه غسول^(٢) ﴿ظهير﴾ معين ﴿الفتاح﴾ القاضي والحاكم بالحق .

التفسير : ﴿لقد كان لسبأ في مسكنهم آية﴾ اللام موطئة للقسم أي والله لقد كان لقوم سبأ في موضع سكنهم باليمن آية عظيمة دالة على الله جل وعلا وعلى قدرته على مجازاة المحسن بإحسانه ، والمسيء بإساءته ، فإن قوم سبأ لما كفروا نعمة الله خرب الله ملكهم ، وشئت شملهم ، ومزقهم شر ممزق ، وجعلهم عبرة لمن يعتبر ، ثم بين تعالى وجه تلك النعمة فقال ﴿جنتان عن يمين وشمال﴾ أي حديقتان عظيمتان فيهما من كل أنواع الفواكه والثمار عن يمين الوادي بساتين ناضرة ، وعن شماله كذلك قال قتادة : كانت بساتينهم ذات أشجار وثمار ، تسرُّ الناس بظلالها ، وكانت المرأة تمشي تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أوزنبيل ، فيتساقط من الأشجار ما يملؤه من غير كلفة ولا قطاف لكثرتهم ونضجه^(٣) وقال البيضاوي : ولم يرد بستانين اثنين فحسب ، بل أراد جماعتين من البساتين ، جماعة عن يمين بلدهم ، وجماعة عن شماله سميت كل جماعة منها جنة لكونها في تقاربها وتضامها كأنها جنة واحدة^(٤) ﴿كلوا من رزق ربكم واشكروا له﴾ أي وقلنا لهم على لسان الرسل : كلوا من فضل الله وإنعامه واشكروا ربكم على هذه النعم ﴿بلدة طيبة ورب غفور﴾ أي هذه بلدتكم التي تسكنونها بلدة طيبة ، كريمة التربة ، حسنة الهواء ، كثيرة الخيرات ، وربكم الذي رزقكم وأمركم بشكره رب غفور لمن شكره ﴿فأعرضوا﴾ فأرسلنا عليهم سيل العرم ﴿أي فأعرضوا عن طاعة الله وشكره ، واتباع أوامر رسله ، فأرسلنا عليهم السيل المدمر المخرب الذي لا يطاق لشدته وكثرتهم ، فغرق بساتينهم ودورهم قال الطبري : وحين أعرضوا عن تصديق الرسل ، ثقب ذلك السد الذي كان يجبس عنهم السيول ، ثم فاض الماء على جنتاتهم فغرقها ، وخرب أرضهم وديارهم^(٥) ﴿وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتي أكل خَمْطٍ﴾ أي وأبدلناهم بتلك البساتين الغناء ، بساتين قاحلة جرداء ، ذات أكل مر بشع ﴿وأثل وشيء من سدر قليل﴾

(١) القرطبي ٢٨٦/١٤ . (٢) البحر المحيط ٢٥٦ . (٣) مختصر ابن كثير ١٢٦/٣ . (٤) حاشية زاده على البيضاوي ٨٥/٣ والكشاف

ذَلِكَ جَزَيْنَهُمْ بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجْزِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ۖ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَعْدَ بَيْنِ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ ۚ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾

وشيء من الأشجار التي لا ينتفع بثمرها كشجر الأثل والسدر قال الرازي : أرسل الله عليهم سيلاً غرق أموالهم ، وخرّب دورهم ، والخطم كل شجرة لها شوك وثمرتها مرة ، والأثل نوع من الطرفاء ولا يكون عليه ثمرة إلا في بعض الأوقات ، يكون عليه شيء كالعفص أو أصغر منه في طعمه وطبعه ، والسدر معروف وقال فيه ﴿قليل﴾ لأنه كان أحسن أشجارهم ، وقد بين تعالى بالآية طريقة الخراب ، وذلك لأن البساتين التي فيها الناس تكون فيها الفواكه الطيبة بسبب العمارة ، فإذا تركت سنين تصبح كالغيضة والأجمة تلتف الأشجار بعضها ببعض وتنبت المفسدات فيها ، فتقل الثمار وتكثر الأشجار^(١) قال المفسرون : وتسمية البدل «جنتين» فيه ضرب من التهكم ، لأن الأثل والسدر وما كان فيه ختم لا يسمى جنة ، لأنها أشجار لا يكاد ينتفع بها ، وإنما جاء التعبير على سبيل المشاكلة ﴿ذلك جزيناهم بما كفروا﴾ أي ذلك الجزاء الفظيع الذي عاقبناهم به إنما كان بسبب كفرهم ﴿وهل نجازي إلا الكفور﴾ ؟ أي وما نجازي بمثل هذا الجزاء الشديد إلا الكافر المبالغ في كفره قال مجاهد : أي ولا يعاقب إلا الكفور ، لأن المؤمن يكفر الله عنه سيئاته ، والكافر يُجازي بكل سوء عمله^(٢) ﴿وجعلنا بينهم وبين القرى التي باركنا فيها قرى ظاهرة﴾ هذا من تنمة ذكر ما أنعم الله به عليهم أي وجعلنا بين بلاد سبأ وبين القرى الشامية التي باركنا فيها للعالمين قرى متواصلة من اليمن إلى الشام ، يرى بعضها من بعض لتقاربها ، ظاهرة لأبناء السبيل ﴿وقدرنا فيها السير﴾ أي جعلنا السير بين قراهم وبين قرى الشام سيراً مقدراً من منزل إلى منزل ، ومن قرية إلى قرية ﴿سيروا فيها ليالي وأياماً آمينين﴾ أي وقلنا لهم سيروا بين هذه القرى متى شئتم لا تخافون في ليل ولا في نهار قال الزمخشري : كان الغادي منهم يقيم في قرية ، والرائح يبيت في قرية إلى أن يبلغ الشام ، لا يخاف جوعاً ولا عطشاً ولا عدواً ، ولا يحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، وكانوا يسرون آمينين لا يخافون شيئاً^(٣) ﴿فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا﴾ إخبار بما قابلوا به النعم من الكفران أي أنهم حين بطروا النعمة ، وملوا العافية ، وشئمو الراحة طلبوا من الله أن يباعد بين قراهم المتصلة ليمشوا في المفاوز ويتزودوا للأسفار ، فعجل الله إجابتهم بتخريب تلك القرى وجعلها مفاوز قفاراً ﴿وظلموا أنفسهم﴾ أي وظلموا أنفسهم بكفرهم وجحودهم النعمة ﴿فجعلناهم أحاديث﴾ أي جعلناهم أخباراً تُروى للناس بعدهم ﴿ومزقناهم كل ممزق﴾ أي وفرقناهم في البلاد شذر مذر ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ أي إن فيما ذكر من قصتهم لعبراً وعظات لكل عبد صابر على البلاء ، شاكراً في النعماء ، والمقصود من ذكر قصة سبأ تحذير الناس من كفران النعمة لئلا يحل بهم ما حل بمن قبلهم ، ولهذا

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ، فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ ﴿٣٦﴾ قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿٣٧﴾

أصبحت قصتهم يضرب بها المثل فيقال: «ذهبوا أيدي سبأ» ثم ذكر تعالى سبب ضلال المشركين فقال ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ أي تحقق ظن إبليس اللعين في هؤلاء الضالين، حيث ظن أنه يستطيع أن يغويهم بتزيين الباطل لهم، وأقسم بقوله ﴿لَا غَويَنَّهُمْ أَجْعِينَ﴾ فتحقق ما كان يظنه قال مجاهد: ظن ظناً فكان كما ظن فصديق ظنه^(١) ﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ أي فاتبعه الناس فيما دعاهم إليه من الضلالة إلا فريقاً هم المؤمنون فإنهم لم يتبعوه قال القرطبي: أي ما سلم من المؤمنين إلا فريق، وعن ابن عباس أنهم المؤمنون كلهم فتكون ﴿مَنْ﴾ على هذا للتبيين لا للتبعيض، وإنما علم إبليس صدق ظنه وهو لا يعلم الغيب، لأنه لما نفذ له في آدم ما نفذ، غلب على ظنه أنه ينفذ له مثل ذلك في ذريته وقد وقع له تحقيق ما ظن^(٢) ﴿وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ﴾ أي وما كان لإبليس تسلط واستيلاء عليهم بالسوسة والإغواء ﴿إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُوْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ أي إلا لحكمة جليلة وهي أن نظهر علمنا للعباد بمن هو مؤمن مصدق بالآخرة، ومن هو شك مرتاب في أمرها، فنجازي كلاً بعمله قال القرطبي: أي لم يقهرهم إبليس على الكفر، وإنما كان منه الدعاء والتزيين^(٣) وقال الحسن: والله ما ضربهم بعضاً، ولا أكرههم على شيء، وما كان إلا غروراً وأمانى دعاهم إليها فأجابوه^(٤) ﴿وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيزٌ﴾ أي وربك يا محمد على كل شيء رقيب، لا تخفى عليه خافية من أفعال العباد، فهو الذي يحفظ عليهم أعمالهم، ويعلم نياتهم وأحوالهم قال الصاوي: الشيطان سبب الإغواء لا خالق الإغواء، فمن أراد الله حفظه منع الشيطان عنه، ومن أراد إغواءه سلط عليه الشيطان، والكل فعل الله تعالى^(٥)، وإنما سبقت حكمته بتسليط الشيطان على الإنسان ابتلاءً وامتحاناً ليميز الله الخبيث من الطيب، والمراد بقوله ﴿لِنَعْلَمَ﴾ أي لنظهر للخلق علمنا، وإلا فالله تعالى عالم بما كان وما يكون ﴿قُلْ أَدْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ أي قل يا محمد هؤلاء المشركين أدعوا شركاءكم الذين عبدتموهم من الأصنام، وزعمتهم أنهم آلهة من دون الله، أدعوهم ليجلبوا لكم الخير، ويدفعوا عنكم الضر قال أبو حيان: والأمر بدعاء الآلهة للتعجيز وإقامة الحجة عليهم^(٦) ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ أي لا يملكون وزن ذرة من خير أو نفع أو ضرر ﴿فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي في العالم العلوي أو السفلي، وليسوا بقادرين على أمر من الأمور في الكون بأجمعه ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكَ﴾ أي وليس لتلك الآلهة شركة مع الله لا خلقاً ولا ملكاً ولا تصرفاً ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ أي وليس له تعالى من الآلهة معين يعينه في

(١) الطبري ٢٢/٦٠ . (٢) القرطبي ١٤/٢٩٢ .

(٣) القرطبي ١٣/٢٩٣ . (٤) مختصر ابن كثير ٣/١٢٨ .

(٥) حاشية الصاوي ٣/٢٩٨ . (٦) البحر المحيط ٧/٢٧٥ .

وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ * قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾

تدبير أمرهما ، بل هو وحده الخالق لكل شيء ، المنفرد بالإنجاد والإعدام ، ثم لما نفى عنها الخلق والملك ، نفى عنها الشفاعة أيضاً فقال ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ أي لا تكون الشفاعة لأحدٍ عند الله من ملكٍ أو نبي ، حتى يؤذن له في الشفاعة ، فكيف يزعمون أن آلهتهم يشفعون لهم ؟ قال ابن كثير : أي أنه تعالى لعظمته وجلاله وكبريائه لا يجترئ أحدٌ أن يشفع عنده في شيء إلا بعد إذنه له في الشفاعة كقوله ﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾ وقوله ﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾ وإنما كانت الشفاعة لسيد ولد آدم إظهاراً لمقامه الشريف ، فهو أكبر شافع عند الله ، وذلك حين يقوم المقام المحمود ليشفع في الخلق كلهم ^(١) ﴿حتى إذا فُزع عن قلوبهم﴾ أي حتى إذا زال الفزع والخوف عن قلوب الشفعاء ، من الملائكة والأنبياء ﴿قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق﴾ أي قال بعضهم لبعض : ماذا قال ربكم في أمر الشفاعة ؟ فأجابوهم بقولهم : قد أذن فيها للمؤمنين قال القرطبي : إن الله تعالى يأذن للأنبياء والملائكة في الشفاعة ، وهم على غاية الفزع من الله ، لما يقترن بتلك الحال من الأمر الهائل ، والخوف الشديد أن يقع منهم تقصير ، فاذا سرى عنهم قالوا للملائكة فوقهم : ماذا قال ربكم ؟ أي بماذا أمر الله ؟ قالوا الحق أي إنه أذن لكم في الشفاعة للمؤمنين ^(٢) ﴿وهو العليُّ الكبير﴾ أي هو تعالى المنفرد بالعلو والكبرياء ، العظيم في سلطانه وجلاله قال أبو السعود : وهذا من تمام كلام الشفعاء ، قالوه اعترافاً بغاية عظمة جناب الله عز وجل ، فليس لأحدٍ أن يتكلم إلا بإذنه ^(٣) ، ثم وبخ تعالى المشركين في عبادتهم غير الخالق الرازق فقال ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ أي قل لهم يا محمد من الذي يرزقكم من السموات بإنزال المطر ، ومن الأرض بإخراج النبات والثمار ؟ ﴿قل الله﴾ أي قل لهم : الله الرازق لا آلهتكم قال ابن الجوزي : وإنما أمر عليه السلام أن يسأل الكفار عن هذا احتجاجاً عليهم بأن الذي يرزق هو المستحق للعبادة ، وهم لا يشبتون رازقاً سواه ، ولهذا جاء الجواب ﴿قل الله﴾ لأنهم لا يجيبون بغير هذا ^(٤) ﴿وإنّا أو إياكم لعلی هدی أو فی ضلالٍ مبین﴾ أي وأحد الفريقين منا أو منكم لعلی هدی أو ضلالٍ مبين ، وهذا نهاية الإنصاف مع الخصم قال أبو حيان : أخرج الكلام مخرج الشك ، ومعلوم أن من عبد الله وحده كان مهتدياً ، ومن عبد غيره من جهاد كان ضالاً ، وفي هذا إنصاف وتلطف في الدعوى ، وفيه تعريضٌ بضلالهم وهو أبلغ من الرد بالتصريح ، ونحوه قول العرب : أخزى الله الكاذب مني ومنك ، مع تيقن أن صاحبه هو الكاذب ^(٥) ﴿قل لا تُسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون﴾ أي لا

(١) مختصر تفسير ابن كثير ٣/ ١٢٩ . (٢) القرطبي ١٤/ ٢٩٥ . (٣) أبو السعود ٤/ ٢٣١ .

(٤) تفسير ابن الجوزي ٦/ ٤٥٤ . (٥) البحر المحيط ٧/ ٢٧٩ .

قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٣٦﴾ قُلْ أُرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿٣٩﴾ قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَعِجِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ تَوَاضَعُونَ عَلَى مَا ارْتَكَبْنَا مِنْ إِجْرَامٍ ، وَلَا نُوَازِحُنْ بِمَا اقْتَرَفْتُمْ ، وَإِنَّمَا يَعاقِبُ كُلُّ إِنْسَانٍ بِجَرِيرَتِهِ ، وَهَذِهِ مَلَاظِفَةٌ وَتَنْزِيلٌ فِي الْمَجَادَلَةِ إِلَى غَايَةِ الْإِنْصَافِ قَالَ الزَّمْخَشَرِيُّ : وَهَذَا أَدْخَلَ فِي الْإِنْصَافِ وَأَبْلَغَ مِنَ الْأَوَّلِ ، حَيْثُ أَسْنَدَ الْإِجْرَامَ لَأَنْفُسِهِمْ وَالْعَمَلَ إِلَى الْمُخَاطَبِينَ ^(١) ﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبَّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ أَيُّ يَجْمَعُ اللَّهُ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ يَحْكُمُ بَيْنَنَا وَيَفْصِلُ بِالْحَقِّ ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ أَيُّ وَهُوَ الْحَاكِمُ الْعَادِلُ الَّذِي لَا يَظْلِمُ أَحَدًا ، الْعَالَمُ بِأَحْوَالِ الْخَلْقِ ، فَيَدْخُلُ الْحَقُّ الْجَنَّةَ ، وَالْمَبْطَلُ النَّارَ ﴿قُلْ أُرُونِي الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ﴾ تَوْبِيخٌ آخَرُ عَلَى إِشْرَاكِهِمْ وَإِظْهَارٌ لَخَطِئَتِهِمْ الْعَظِيمِ أَيُّ أُرُونِي هَذِهِ الْأَصْنَامَ الَّتِي أَلْحَقْتُمُوهَا بِاللَّهِ وَجَعَلْتُمُوهَا شُرَكَاءَ مَعَهُ فِي الْأُلُوهِيَّةِ ، لِأَنْظَرُ بِأَيِّ صِفَةٍ اسْتَحَقَّتِ الْعِبَادَةُ مَعَ الَّذِي لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ؟ قَالَ أَبُو السَّعُودِ : وَفِيهِ مَزِيدٌ تَبَكَّيْتُ لَهُمْ بَعْدَ الْإِزَامِ الْحُجَّةَ عَلَيْهِمْ ^(٢) ﴿كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ رَدْعٌ لَهُمْ وَزَجْرٌ أَيُّ لَيْسَ الْأَمْرُ كَمَا زَعَمْتُمْ مِنْ اعْتِقَادِ شَرِيكَ لَهُ ، بَلْ هُوَ الْإِلَهُ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ ، الْغَالِبُ عَلَى أَمْرِهِ ، الْحَكِيمُ فِي تَدْبِيرِهِ لَخَلْقِهِ ، فَلَا يَكُونُ لَهُ شَرِيكَ فِي مَلَكِهِ أَبَدًا ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أَيُّ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ يَا مُحَمَّدٌ لِلْعَرَبِ خَاصَّةً وَإِنَّمَا أَرْسَلْنَاكَ لِعُمُومِ الْخَلْقِ ، مُبَشِّرًا لِلْمُؤْمِنِينَ بِجَنَّاتِ النَّعِيمِ ، وَمُنْذِرًا لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابِ الْجَحِيمِ ﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أَيُّ وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ الْكَافِرِينَ لَا يَعْلَمُونَ ذَلِكَ فَيَحْمِلُهُمْ جَهْلُهُمْ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ الْغَيِّ وَالضَّلَالِ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ أَيُّ وَيَقُولُ الْمُشْرِكُونَ عَلَى سَبِيلِ الْاسْتَهْزَاءِ وَالسَّخَرَةِ : مَتَى هَذَا الْعَذَابُ الَّذِي تَخَوَّفُونَا بِهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فَمَا تَقُولُونَ ؟ وَالْخُطَابُ لِلنَّبِيِّ وَالْمُؤْمِنِينَ ﴿قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ﴾ أَيُّ لَكُمْ زَمَانٌ مُعَيَّنٌ لِلْعَذَابِ يَجِيءُ فِي أَجَلِهِ الَّذِي قَدَرَهُ اللَّهُ لَهُ ، لَا يَسْتَأْخِرُ لِرَغْبَةِ أَحَدٍ ، وَلَا يَتَقَدَّمُ لِرَجَاءِ أَحَدٍ ، فَلَا تَسْتَعْجِلُوا عَذَابَ اللَّهِ فَهُوَ آتٍ لَا حَالَةَ ، ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى عَنْ تَمَادِي الْمُشْرِكِينَ فِي الْعِنَادِ وَالتَّكْذِيبِ فَقَالَ ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ أَيُّ لَنْ نَصَدِّقَ بِالْقُرْآنِ وَلَا بِمَا سَبَقَهُ مِنَ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى الْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾ أَيُّ وَلَوْ شَاهَدْتَ يَا مُحَمَّدُ حَالَ الظَّالِمِينَ الْمُنْكَرِينَ لِلْبَعْثِ فِي مَوْقِفِ الْحِسَابِ ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ أَيُّ يَلُومُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا وَيُؤْنِبُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَجَوَابُ

لَكُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بِلَّ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَضَعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسْرُوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يَجْزُونَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾

﴿لو﴾ محذوف للتهويل تقديره لرأيت أمراً فظيماً مهولاً ﴿يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكننا مؤمنين﴾ أي يقول الأتباع للرؤساء : لولا إضلالكم لنا لكننا مؤمنين مهتدين ﴿قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم﴾ ؟ أي قال الرؤساء جواباً للمستضعفين : أنحن منعناكم عن الإيمان بعد أن جاءكم ؟ لا ، ليس الأمر كما تقولون ﴿بل كنتم مجرمين﴾ أي بل أنتم كفرتم من ذات أنفسكم ، بسبب أنكم كنتم مجرمين راسخين في الإجرام ﴿وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار﴾ أي وقال الأتباع للرؤساء : بل مكرهم بنا في الليل والنهار هو الذي صدنا عن الإيمان ﴿إذ تأمرونا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً﴾ أي وقت دعوتكم لنا إلى الكفر بالله ، وأن نجعل له شركاء ، ولولا تزيينكم لنا الباطل ما كفرنا ﴿وأسرنا الندامة لما رأوا العذاب﴾ أي أخفى كل من الفريقين الندامة على ترك الإيمان حين رأوا العذاب ، أخفوها مخافة التعبير ﴿وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا﴾ أي وجعلنا السلاسل في رقاب الكفار زيادةً على تعذيبهم بالنار ﴿هل يجزون إلا ما كانوا يعملون﴾ أي لا يجزون إلا بأعمالهم التي عملوها ولا يعاقبون إلا بكفرهم وإجرامهم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين لفظ ﴿يمين . . وشمال﴾ وبين ﴿بشير . . ونذير﴾ وبين ﴿تستقدمون . . وتستأخرون﴾ وبين ﴿استضعفوا . . واستكبروا﴾ وهو من المحسنات البديعية .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿وقدرنا فيها السير سيروا﴾ فإن كلمة ﴿سيروا﴾ مشتقة من السير .

٣ - التعجيز بدعاء الجهاد الذي لا يسمع ولا يحس ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله﴾ .

٤ - التوبيخ والتبكيت ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض﴾ ؟

٥ - حذف الخبر لدلالة السياق عليه ﴿قل الله﴾ أي قل الله الخالق الرازق للعباد ودل على المحذوف سياق الآية .

٦ - المبالغة بذكر صيغ المبالغة ﴿إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ فإن فعَّال وفعل وفعل من

صاغ المبالغة ومثلها ﴿وهو الفتاح العليم﴾ .

٧ - حذف الجواب للتهويل والتفريع ﴿ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم﴾ حذف الجواب للتهويل أي لو ترى حالهم لرأيت أمراً فظيماً مهولاً .

٨ - المجاز العقلي ﴿بل مكر الليل والنهار﴾ أسند المكر إلى الليل والمراد مكر المشركين بهم في الليل ففيه مجاز عقلي .

٩ - الاستعارة ﴿لن تؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه﴾ ليس للقرآن يدان ولكنه استعارة لما سبقه من الكتب السماوية المنزلة من عند الله .

١٠ - مراعاة الفواصل لما لها من وقع حسن على السمع مثل ﴿وهل نجازي إلا الكفور ؟﴾ . إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور﴾ الخ .

قال الله تعالى : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ * * * إلى .. إنهم كانوا في شكٍ مريبٍ﴾
من آية (٣٤) إلى آية (٥٤) نهاية السورة .

المناسكبة : لما ذكر تعالى قصة أهل سبأ وكفرهم بنعم الله ، وما أعقب ذلك من تبديل النعمة الى النقمة ، ذكر هنا اغترار المشركين بالمال والبنين ، وتكذيبهم لرسول الله عليه السلام ، وختم السورة الكريمة ببيان مصرع الغابرين ، تسلياً لرسول الله ﷺ وتخويفاً وتحذيراً للمشركين .

اللفكتر : ﴿مترفوها﴾ المترف : المنعم المتقلب في الغنى والعز والجاه ﴿يسسط﴾ يوسّع ﴿يقدر﴾ يقتر ﴿زلفى﴾ قري ﴿إفك﴾ كذب مختلق ﴿معشار﴾ المعشار : العُشر قال الجوهري : ومعشار الشيء عشره^(١) ، فهما لغتان ﴿نكير﴾ أصلها نكيري حذفت الياء لمراعاة الفواصل قال الزجاج : النكير : اسم بمعنى الإنكار ﴿جنة﴾ بكسر الجيم أي جنون (فوت) نجاة ومهرب ﴿التناوش﴾ التناول قال الزمخشري : والتناوش والتناول أخوان ، إلا أن التناوش تناول سهلٌ لشيء قريب^(٢) ، ومنه المناوشة في القتال وذلك عند تداني الفريقين ، قال ابن السكيت : يقال للرجل إذا تناول رجلاً ليأخذه ناشه .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّنْ نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا

الفسير : ﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذير﴾ أي لم نبعث في أهل قريةٍ رسولاً من الرسل ينذرهم عذابنا ﴿إلا قال مترفوها﴾ أي إلا قال أهل الغنى والتنعم في الدنيا ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ أي لا تؤمن برسالتكم ولا نصدقكم بما جئتم به قال قتادة : المترفون هم جابرتهم وقادتهم ورؤساؤهم في الشر^(٣) ، وهم الذين يبادرون إلى تكذيب الأنبياء ، والقصد بالآية تسلياً للنبي ﷺ على تكذيب أكابر قريش له ﴿وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً﴾ أي وقال مشركو مكة : نحن أكثر أموالاً

وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جِزَاءٌ الْضَعْفُ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ ﴿٢٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي ءَابَتِنَا مُعْجِزِينَ أُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٢٨﴾ قُلْ إِنْ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ

وأولاداً من هؤلاء الضعفاء المؤمنين ﴿وما نحن بمعذبين﴾ أي إن الله لا يعذبنا لأنه راضٍ عنا ، ولولم يكن راضياً عنا لما بسط لنا في الرزق ، قاسوا أمر الدنيا على الآخرة ، وظنوا أن الله كما أعطاهم الأموال والأولاد في الدنيا لا يعذبهم في الآخرة قال أبو حيان : نصَّ تعالى على المترفين لأنهم أول المكذبين للرسول ، لما شغلوا به من زخرف الدنيا ، وما غلب على عقولهم منها ، فقلوبهم أبداً مشغولة منهمكة ، بخلاف الفقراء فإنهم خالون من مستلذات الدنيا ، فقلوبهم أقبل للخير ولذلك كانوا أكثر أتباع الأنبياء ^(١) ﴿قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء ويقدر﴾ أي قل لهم يا محمد : إن توسعة الرزق وتضييقه ليس دليلاً على رضى الله ، فقد يوسع الله على الكافر والعاصي ، ويضيق على المؤمن والمطيع ابتلاءً وامتحاناً ، فلا تظنوا أن كثرة الأموال والأولاد دليل المحبة والسعادة ، بل هي تابعة للحكمة والمشئمة ﴿ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ أي ولكن أكثر هؤلاء الكفرة لا يعلمون الحقيقة ، فيظنون أن كثرة الأموال والأولاد للشرف والكرامة ، وكثيراً ما يكون للاستدراج ^(٢) كما قال تعالى ﴿سنستدرجهم من حيث لا يعلمون﴾ ولهذا أكد ذلك بقوله ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾ أي ليست أموالكم ولا أولادكم التي تفتخرون بها وتكاثرون هي التي تقرّبكم من الله قربي ، وإنما يقرب الإيمان والعمل الصالح قال الطبري : الزلفى : القربى ، ولا يعتبر الناس بكثرة المال والولد ^(٣) ، ولهذا قال تعالى بعده ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً﴾ أي إلا المؤمن الصالح الذي ينفق ماله في سبيل الله ، ويعلم ولده الخير ويربيه على الصلاح فإن هذا الذي يقرب من الله ^(٤) ﴿فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا﴾ أي تضاعف حسناتهم ، الحسنة بعشر أمثالها وبأكثر إلى سبعائة ضعف ﴿وهم في الغرفات آمنون﴾ أي وهم في منازل الجنة العالية آمنون من كل عذاب ومكروه ، ولما ذكر جزاء المؤمنين ، ذكر عقاب الكافرين ، ليظهر التباين بين الجزاءين فقال ﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أي يسعون في الصد عن سبيل الله ، واتباع آياته ورسله ، معاندين لنا يظنون أنهم يفوتوننا بأنفسهم ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أي فهم مقيمون في العذاب ، محضرون يوم القيامة للحساب ﴿قل إن ربي يسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أي قل يا محمد : إن ربي يوسع الرزق لمن يشاء من خلقه ، ويقتّر على من يشاء ، فلا تغتروا بالأموال التي رزقكم الله إياها قال في التسهيل : كررت الآية لاختلاف القصد ، فإن القصد بالأول

(١) البحر المحيط ٧/٢٨٥ . (٢) البيضاوي ٢/١٢٦ . (٣) تفسير الطبري ٢٢/٦٨ . (٤) البيضاوي ٢/١٢٦ .

شَيْءٌ فَهُوَ يُخْلِفُهُ ۖ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾ وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ أَهْتُولَاءِ ۖ إِنِّي أَكْرَهُ كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيِّنَا مِنْ دُونِهِمْ ۖ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۖ وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾

الكفار ، والقصد هنا ترغيب المؤمنين بالإنفاق^(١) ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يُخْلِفُهُ﴾ أي وما أنفقتم في سبيل الله قليلاً أو كثيراً فإن الله تعالى يعوّضه عليكم إما عاجلاً أو آجلاً ﴿وهو خير الرازقين﴾ أي هو تعالى خير المعطين^(٢) ، فإنّ عطاء غيره بحساب ، وعطاؤه تعالى بغير حساب قال المفسرون : لما بيّن أنّ الإيمان والعمل الصالح هو الذي يقرب العبد إلى ربه ، ويكون مؤدياً إلى تضعيف حسناته ، بيّن أن نعيم الآخرة لا ينافي سعة الرزق في الدنيا ، بل الصالحون قد ييسط لهم الرزق في الدنيا ، مع ما لهم في الآخرة من الجزاء الأوفى والثوبة الحسنى بمقتضى الوعد الإلهي^(٣) ﴿ويوم يحشرهم جميعاً﴾ أي واذكر يوم يحشر الله المشركين جميعاً من تقدم ومن تأخر للحساب والجزاء ﴿ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الاستفهام للتقريع والتوبيخ للمشركين أي أهؤلاء عبدوكم من دوني وأنتم أمرتموهم بذلك ؟ قال الزمخشري : هذا الكلام خطاب للملائكة وتقريع للكفار ، وارد على المثل السائر «إياك أعني واسمعي يا جارة» ونحوه قوله تعالى ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله﴾ ؟ وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى منزّهون عما تُسب إليهم ، والغرض من السؤال والجواب أن يكون تقريع المشركين أشد ، وخجلهم أعظم^(٤) ﴿قالوا سبحانك أنت وليّنا من دونهم﴾ أي تعاليت وتقدست يا ربنا عن أن يكون معك إله ، أنت ربنا ومعبودنا الذي نتولاه ونعبده ونخلص له العبادة ، ونحن نتبرأ إليك منهم ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ أي بل كانوا يعبدون الشياطين لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة غير الله فأطاعوهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ قال الطبري : أي أكثرهم بالجنّ مصدقون يزعمون أنهم بنات الله ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً^(٥) قال تعالى رداً على مزاعم المشركين ﴿فالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ أي ففي هذا اليوم - يوم الحساب - لا ينفع العابدون ولا المعبودون بعضهم لبعض ، لا بشفاعاة ونجاة ، ولا بدفع عذاب وهلاك ، قال أبو السعود : يخاطبون بذلك على رءوس الأشهاد إظهاراً لعجزهم وقصورهم عن نفع عابديهم ، وإظهاراً لخيبة رجائهم بالكلية ، ونسبة عدم النفع والضرر إلى البعض للمبالغة في المقصود ، كأن نفع الملائكة لعبدتهم في الاستحالة كنفع العبداء لهم^(٦) ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ أي ونقول للظالمين الذين عبدوا غير الله ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أي ذوقوا عذاب جهنم التي كذبتهم بها في الدنيا فما قد وردتموها ، ثم بيّن تعالى لونا آخر من

(١) التسهيل ١٥٢/٣ . (٢) زاد المسير ٦/٦٤٢ . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٩٣/٣ .

(٤) الكشف ٤٦٣/٣ . (٥) الطبري ٦٩/٢٢ . (٦) تفسير أبي السعود ٢٣٤/٤ .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ * قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ وَقَدْ أَنْتُمْ قَوْمٌ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا

كفرهم وضلالهم فقال : ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ﴾ أي وإذا تليت على هؤلاء المشركين آيات القرآن واضحات المعاني ، بينات الإعجاز ، وسمعوها غضة طرية من لسان رسولنا محمد ﷺ ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ﴾ أي ما هذا الذي يزعم الرسالة إلا رجلٌ مثلكم يريد أن يمنعكم عما كان يعبد أسلافكم من الأوثان والأصنام ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلَّا إِفْكٌ مُّفْتَرًى﴾ أي ما هذا القرآن إلا كذبٌ مخلق على الله ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ أي وقال أولئك الكفرة المتمردون بجرأتهم على الله ومكابرتهم للحق النير: ما هذا القرآن إلا سحرٌ واضح ظاهر لا يخفى على لبيب قال الزمخشري : وفيه تعجيب من أمرهم بليغ ، حيث بتوا القضاء على أنه سحر ، ثم بتوه على أنه بين ظاهر ، كل عاقل تأمله سمّاه سحراً وفي قوله ﴿لَمَّا جَاءَهُمْ﴾ المبادهة بالكفر من غير تأمل^(١) ، ثم بين تعالى أنهم لم يقولوا ذلك عن بينة ، ولم يكذبوا محمداً عن يقين ، بل عن ظنٍّ وتخمين فقال ﴿وَمَا آتَيْنَاهُمْ مِنْ كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ أي وما أنزلنا على أهل مكة كتاباً قبل القرآن يقرءون فيه ويتدارسونه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِنْ نَذِيرٍ﴾ أي وما بعثنا إليهم قبلك يا محمد رسولا ينذرهم عذاب الله ، فمن أين كذبوك ؟ قال الطبري : أي ما أنزل الله على العرب كتاباً قبل القرآن ، ولا بعث إليهم نبياً قبل محمد ﷺ^(٢) ﴿وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَّغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي وكذب قبلهم أقوام من الأمم السابقين وما بلغ كفار مكة عشر ما آتينا الأمم التي كانت قبلهم من القوة والمال وطول العمر قال ابن عباس : ﴿مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ﴾ أي من القوة في الدنيا^(٣) ﴿فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي وحيث كذبوا رسلِي جاءهم إنكاري بالتدمير والاستئصال ، ولم يغن عنهم ما كانوا فيه من القوة ، فكيف حال هؤلاء إذا جاءهم العذاب والهلاك ؟ وفيه تهديد لقريش ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إنما أنصحكم وأوصيكم بخصلة واحدة ثم فسرنا بقوله ﴿أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ﴾ أي هي أن تتحروا الحق لوجه الله والتقرب له مجتمعين ووحداً ، أو اثنين اثنين وواحداً واحداً قال القرطبي : وهذا القيام معناه القيام إلى طلب الحق ، لا القيام الذي هو ضد القعود^(٤) ﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ﴾ أي ثم تتفكروا في أمر محمد لتعلموا أن من ظهر على يديه هذا الكتاب المعجز لا يمكن

سَأَلْتُكُمْ مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ ۖ إِنَّ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عََلَمُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَلَيْسَ بِي ضَالٌّ عَلَىٰ نَفْسِي ۖ وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَمَا يُوحِيَ إِلَيَّ رَبِّي ۖ إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَرَغُوا فَلَا قُوَّةَ وَاتَّخَذُوا

أن يكون به مسٌّ من الجنون أو يكون مجنوناً قال أبو حيان : ومعنى الآية : إنما أعظكم بواحدة فيها إصابتكم الحق وهي أن تقوموا لوجه الله متفرقين اثنين اثنين ، وواحداً واحداً ، ثم تفكروا في أمر محمد وما جاء به ، وإنما قال ﴿مثنى وفردى﴾ لأن الجماعة يكون مع اجتماعهم تشويش الخاطر والمنع من التفكير ، كما يكون في الدروس التي يجتمع بها الجماعة ، وأما الاثنان إذا نظرا نظر إنصاف وعرض كل واحد منهما على صاحبه ما ظهر له فلا يكاد الحق أن يعدوهما ، وإذا كان الواحد جيد الفكر عرف الحق ، فإذا تفكروا عرفوا أن نسبته عليه السلام للجنون لا يمكن ، ولا يذهب إلى ذلك عاقل ^(١) ﴿إن هو إلا نذيرٌ لكم بين يدي عذاب شديد﴾ أي ما هو إلا رسول منذر لكم إن كفرتم من عذاب شديد في الآخرة ﴿قل ما سألتكم من أجرٍ فهو لكم﴾ أي لا أسألكم على تبليغ الرسالة أجراً قال الطبري : المعنى إني لم أسألكم على ذلك جعلاً فتتهموني وتظنوا أنني إنما دعوتكم إلى اتباعي لمالٍ أخذه منكم ^(٢) ﴿إن أجري إلا على الله﴾ أي ما أجري وثوابي إلا على الله رب العالمين ﴿وهو على كل شيء شهيد﴾ أي هو تعالى رقيب وحاضر على أعمالي وأعمالكم ، لا يخفى عليه شيء وسيجازي الجميع قال أبو السعود : أي هو مطلع يعلم صدقي وخلوص نيتي ^(٣) ﴿قل إن ربي يقذف بالحق﴾ أي يبين الحجة ويظهرها قال ابن عباس : يقذف الباطل بالحق كقوله ﴿بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق﴾ ﴿علام الغيوب﴾ أي هو تعالى الذي أحاط علماً بجميع الغيوب التي غابت وخفيت عن الخلق ﴿قل جاء الحق﴾ أي جاء نور الحق وسطح ضياؤه وهو الإسلام ﴿وما يُبدى الباطل وما يعيد﴾ أي ذهب الباطل بالمرّة فليس له بدء ولا عود قال الزمخشري : إذا هلك الإنسان لم يبق له إبداء ولا إعادة ، فجعلوا قولهم ﴿لا يبدى ولا يعيد﴾ مثلاً في الهلاك والمعنى : جاء الحق وهلك الباطل كقوله تعالى ﴿وقل جاء الحق وزهق الباطل﴾ ^(٤) ﴿قل إن ضللت فأنا أضل على نفسي﴾ أي قل يا محمد لهؤلاء المشركين إن حصل لي ضلالٌ - كما زعمتم - فإن إثم ضلالي على نفسي لا يضر غيري ﴿وإن اهتديت فبما يوحي إلي ربي﴾ أي وإن اهتديت إلى الحق فبهداية الله وتوفيقه ﴿إنه سميع قريب﴾ أي سميع لمن دعاه ، قريب الإجابة لمن رجاه قال أبو السعود : يعلم قول كل من المهتدي والضال وفعله وإن بالغ في إخفائها ^(٥) ﴿ولو ترى إذ فرغوا﴾ أي ولو ترى يا محمد حال المشركين عند فرغهم إذا خرجوا من قبورهم ﴿فلا فوت﴾ أي فلا مخلص لهم ولا مهرب

(١) البحر المحيط ٧/٢٠١ يشيء من الاختصار. (٢) الطبري ٧١/٢٢ . (٣) أبو السعود ٤/٢٣٥ .

(٤) الكشف ٣/٤٦٧ . (٥) أبو السعود ٤/٢٣٥ .

مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَافُشُ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴿٥٣﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ ﴿٥٤﴾

﴿وأخذوا من مكان قريب﴾ أي أخذوا من الموقف - أرض المحشر - إلى النار ، وجواب ﴿لو﴾ محذوف تقديره : لرأيت أمراً عظيماً وخطباً جسيماً ترتعد له الفرائص ﴿وقالوا آمنا به﴾ أي وقالوا عندما عاينوا العذاب آمنا بالقرآن وبالرسول ﴿وأننى لهم التناوش من مكان بعيد﴾ أي ومن أين لهم تناول الإيمان وهم الآن في الآخرة ومحل الإيمان في الدنيا ، وقد ذهبت الدنيا فصارت منهم بمكان بعيد ؟ قال أبو حيان : مثل حالهم بحال من يريد أن يتناول الشيء من بعدل كما يتناوله الآخر من قرب ^(١) ﴿وقد كفروا به من قبل﴾ أي والحال أنهم قد كفروا بالقرآن وبالرسول من قبل ذلك في الدنيا ، فكيف يحصل لهم الإيمان بهما في الآخرة ! ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ أي يرمون بظنونهم في الأمور المغيبة فيقولون : لا بعث ولا حساب ، ولا جنة ولا نار قال القرطبي : والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يعرف هو يقذف ويرجم بالغيب ، على جهة التمثيل لمن يرمي ولا يصيب ^(٢) ﴿وحيل بينهم وبين ما يشتهون﴾ أي وحيل بينهم وبين الإيمان ودخول الجنان ﴿كما فعل بأشياءهم من قبل﴾ أي كما فعل بأشياءهم في الكفر من الأمم السابقة ﴿إنهم كانوا في شكٍ مرِيبٍ﴾ أي كانوا في الدنيا في شكٍ وارتياب من أمر الحساب والعذاب ، وقوله ﴿مرِيبٍ﴾ من باب التأكيد كقولهم عجبٌ عجيب .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الطباق بين ﴿يسط . . ويقدر﴾ وبين ﴿نفعاً . . وضراً﴾ وبين ﴿مثنى . . وفردى﴾ .
- ٢ - المقابلة بين عاقبة الأبرار والفجار ﴿إلا من آمن وعمل صالحاً . . والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ .
- ٣ - الالتفات من الغائب الى المخاطب ﴿وما أموالكم ولا أولادكم﴾ والغرض المبالغة في تحقيق الحق .
- ٤ - أسلوب التقرير والتوبيخ ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ ؟ الخطاب للملائكة تقريراً للمشركين .
- ٥ - وضع الظاهر موضع الضمير لتسجيل جريمة الكفر عليهم ﴿وقال الذين كفروا للحق﴾ والأصل وقالوا .

٦ - الإيجاز بالحذف لدلالة السياق عليه ﴿وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى﴾
حذف خبر الأول لدلالة الثاني عليه أي ما أموالكم بالتي تقرّبكم ولا أولادكم بالذين يقربونكم
عندنا .

٧ - الاستعارة ﴿بين يدي عذابٍ شديد﴾ استعار لفظ اليدين لما يكون من الأهوال والشدائد أمام
الإنسان .

٨ - الكناية اللطيفة ﴿وما يبديء الباطل وما يعيد﴾ كناية عن زهوق الباطل ومحو أثره .

٩ - الاستعارة التصريحية ﴿ويقذفون بالغيب من مكان بعيد﴾ شبه الذي يقول بغير علم ، ويظن
ولا يتحقق ، بالإنسان يرمي غرضاً وبينه وبينه مسافة بعيدة فلا يكون سهمه صائباً واستعار لفظ
القذف للقول .

١٠ - توافق الفواصل لما له من جميل الوقع على السمع مثل ﴿إنا بما أرسلتم به كافرون * أكثر الناس
لا يعلمون * وهم في الغرفات آمنون﴾ .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة سبأ »



بَيْنَ يَدَيِ السُّورَةِ

❖ سورة فاطر مكية نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ ، فهي تسير في الغرض العام الذي نزلت من أجله الآيات المكية ، والتي يرجع أغلبها إلى المقصد الأول من رسالة كل رسول ، وهو قضايا العقيدة الكبرى « الدعوة إلى توحيد الله ، وإقامة البراهين على وجوده ، وهدم قواعد الشرك ، والحث على تطهير القلوب من الرذائل ، والتحلي بمكارم الأخلاق » .

❖ تحدثت السورة الكريمة في البدء عن الخالق المبدع ، الذي فطر الأكوان ، وخلق الملائكة والإنس والجان ، وأقامت الأدلة والبراهين على البعث والنشور ، في صفحات هذا الكون المنظور ، بالأرض تحيا بعد موتها، بتزول الغيث ، وبخروج الزروع والفواكه والثمار ، وبتعاقب الليل والنهار ، وفي خلق الإنسان في أطوار ، وفي إيلاج الليل في النهار ، وغير ذلك من دلائل القدرة والوحدانية .

❖ وتحدثت عن الفارق الكبير بين المؤمن والكافر ، وضربت لهما الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلمات والنور ، والظل والحرور .

❖ ثم تحدثت عن دلائل القدرة في اختلاف أنواع الثمار ، وفي سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، وفي اختلاف أشكال الجبال والأحجار ، وتنوعها ما بين أبيض وأسود وأحمر ، وكلها ناطقة بعظمة الواحد القهار .

❖ وتحدثت بعد ذلك عن ميراث هذه الأمة المحمدية لأشرف الرسالات السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل كتب الله ، ثم انقسام الأمة إلى ثلاثة أنواع : « المقصّر ، والمحسن ، والسابق بالخيرات » .

❖ وختمت السورة بتقريع المشركين في عبادتهم للأوثان والأصنام والأحجار .

التَّسْمِيَةُ : سميت « سورة فاطر » لذكر هذا الاسم الجليل ، والنعت الجميل في طليعتها ، لما في هذا الوصف من الدلالة على الإبداع والاختراع والإيجاد لا على مثال سابق ، ولما فيه من التصوير الدقيق ،

المشير إلى عظمة ذي الجلال ، وباهر قدرته ، وعجيب صنعته ، فهو الذي خلق الملائكة وأبدع تكوينهم بهذا الخلق العجيب .

اللفظة: ﴿فاطر﴾ الفاطر : الخالق ، وأصل الفطر الشَّق يُقال : فطره فانفطر أي انشق ومنه « السماء منفطر به » وفطر الله الخلق : خلقهم وبرأهم ﴿تَوْفُكُون﴾ تُصرفون من الإفك بمعنى الكذب سمي إفكاً لأنه مصروف عن الحق والصواب ﴿حسرات﴾ جمع حسرة وهي الغم الذي يلحق النفس على فوات الأمر ، وفي المختار : الحسرة أشدُّ التلهف على الشيء الفاقد^(١) ﴿النشور﴾ مصدر نشر الميت إذا حيى قال الأعشى :

حتى يقول الناس ممّا رأوا يا عجباً للميت الناشر

﴿بيور﴾ يهلك يقال : بار بيور أي هلك وبطل ، والبوار : الهلاك ﴿فرات﴾ حلوشديد الحلاوة ﴿أجاج﴾ شديد الملوحة قال في القاموس : أجّ الماء أجوجاً إذا اشتدت ملوحته^(٢) ﴿قطمير﴾ القطمير : القشرة الرقيقة البيضاء التي بين التمرة والنواة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلُثَ وَرُبْعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ

التفسير : ﴿الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ أي الثناء الكامل ، والذكر الحسن ، مع التعظيم والتبجيل لله جلّ وعلا ، خالق السموات والأرض ومنشئها ومخترعها من غير مثال سبق قال البيضاوي : ﴿فاطر السموات والأرض﴾ أي مبدعها وموجدتها على غير مثال^(٣) ﴿جاعل الملائكة رسلًا﴾ أي جاعل الملائكة وسائط بين الله وأنبيائه لتبليغهم أوامر الله قال ابن الجوزي : يرسلهم إلى الأنبياء وإلى ما شاء من الأمور^(٤) ﴿أُولَى أَجْنَحَةٍ مَّثْنَى وَثُلُثَ وَرُبْعَ﴾ أي أصحاب أجنحة قال قتادة : بعضهم له جناحان ، وبعضهم له ثلاثة ، وبعضهم له أربعة ، ينزلون بها من السماء إلى الأرض ، ويعرجون بها إلى السماء^(٥) ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ أي يزيد في خلق الملائكة كيف يشاء ، من ضخامة الأجسام ، وتفاوت الأشكال ، وتعدد الأجنحة ، وقد رأى رسول الله ﷺ جبريل ليلة الإسراء وله ستائة جناح ، بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب^(٦) وقال قتادة : ﴿يزيد في الخلق ما يشاء﴾ : الملائكة

(١) مختار الصحاح مادة حسر . (٢) القاموس المحيط مادة أجاج . (٣) حاشية زاده على البيضاوي ٩٨/٣ . (٤) زاد المسير ٤٧٣/٦ .

(٥) القرطبي ٣١٩/١٤ . (٦) الحديث أخرجه مسلم عن ابن مسعود قال الزخشمي : « رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستائة جناح » .

مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢﴾ يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَذْكَرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَلْقٍ غَيْرِ اللَّهِ

في العينين ، والحسن في الأنف ، والحلاوة في الفم ^(١) ﴿١﴾ إن الله على كل شيء قدير ﴿٢﴾ أي هو تعالى قادر على ما يريد ، له الأمر والقوة والسلطان ، لا يمتنع عليه فعل شيء أراده ، ولا يتأبى عليه خلق شيء أراده ، وصف تعالى نفسه في هذه الآيات بصفتين جليلتين تحمل كل منهما صفة القدرة وكمال الانعام الأولى : أنه فاطر السموات والأرض أي خالقهما ومبدعهما من غير مثال يحتذيه ، ولا قانون ينتحيه ، وفي ذلك دلالة على كمال قدرته ، وشمول نعمته ، فهو الذي رفع السماء بغير عمد ، وجعلها مستوية من غير أود ، وزينها بالكواكب والنجوم ، وهو الذي بسط الأرض ، وأودعها الأرزاق والأقوات ، وبث فيها البحار والأنهار ، وفجر فيها العيون والآبار ، إلى غير ما هنالك من آثار قدرته العظيمة ، وآثار صنعته البديعة ، وعبر عن ذلك كله بقوله ﴿فاطر السموات والأرض﴾ والثانية : اختيار الملائكة ليكونوا رسلاً بينه وبين أنبيائه ، وقد أشار إلى طرف من عظمته وكمال قدرته جل وعلا بأن خلق الملائكة بأشكال عجيبة ، وصور غريبة ، وأجنحة عديدة ، فمنهم من له جناحان ومنهم من له ثلاثة ، ومنهم من له أربعة ، ومنهم من له ستائة جناح ، ما بين كل جناحين كما بين المشرق والمغرب ، كما هو وصف جبريل عليه السلام ، ومنهم من لا يعلم حقيقة خلقته وضخامة صورته إلا الله جل وعلا ، فقد روى الزهري أن جبريل قال للنبي ﷺ : (يا محمد كيف لو رأيت إسرافيل إن له لاثني عشر ألف جناح ، منها جناح بالمشرق وجناح بالمغرب ، وإن العرش لعلى كاهله) ^(٢) ولو كشف لنا الحجاب لرأينا العجب العجيب ، فسبحان الله ما أعظم خلقه ، وما أبدع صنعه !! ثم بيّن تعالى نفاذ مشيئته ، ونفوذ أمره في هذا العالم الذي فطره ومن فيه ، وأخضعه لإرادته وتصرفه فقال : ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ أي أي شيء يمنحه الله لعباده ويتفضل به عليهم من خزائن رحمته ، من نعمة ، وصحة ، وأمن ، وعلم ، وحكمة ، ورزق ، وإرسال رسل هداية الخلق ، وغير ذلك من صنوف نعمائه التي لا يحيط بها عد ، فلا يقدر أحد على إمساكه وحرمان خلق الله منه ، فهو الملك الوهاب الذي لا مانع لما أعطى ، ولما معطي لما منع ﴿وما يُمْسِكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي وأي شيء يمسكه ويحبسه عن خلقه من خيري الدنيا والآخرة ، فلا أحد يقدر على منحه للعباد بعد أن أمسكه جل وعلا ﴿وهو العزيز الحكيم﴾ أي هو تعالى الغالب على كل شيء ، الحكيم في صنعه ، الذي يفعل ما يريد على مقتضى الحكمة والمصلحة قال المفسرون : والفتح والإمساك عبارة عن العطاء والمنع ، فهو الذي يضر وينفع ، ويعطي ويمنع ، وفي الحديث «أحق ما قال العبد وكلنا لك عبد : اللهم لا مانع لما أعطيت ، ولا معطي لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» ^(٣) ثم ذكّرهم تعالى بنعمه الجليلة عليهم فقال ﴿يا أيها الناس اذكروا نعمة الله عليكم﴾ أي اشكروا ربكم على

(١) القرطبي ١٤ / ٣٢٠ والآية عامة تتناول كل زيادة في الخلق ، من طول قامته ، واعتدال صورة ، وحصافة في العقل ، وذلاقة في اللسان ، وما أشبه ذلك مما لا يحيط به وصف . (٢) الكشف ٣ / ٤٧٠ . (٣) جزء من حديث أخرجه مسلم في صحيحه .

يَرْزُقُكُمْ مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَإِنِّي تُؤَفِّكُونَ ﴿١﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴿٢﴾ يَتَّبِعُهَا النَّاسُ إِن وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَكُم بِاللَّهِ الْغُرُورُ ﴿٣﴾ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿٤﴾

نعمه التي لا تُعدُّ ولا تُحصى التي أنعم بها عليكم قال الزمخشري : ليس المراد بذكر النعمة ذكرها باللسان فقط ، ولكن المراد حفظها من الكفران ، وشكرها بمعرفة حقها ، والاعتراف بها ، وإطاعة موليتها ، ومنه قول الرجل لمن أنعم عليه : أذكر أياديَّ عندك ^(١) ﴿هل من خالق غير الله﴾ استفهام إنكاري بمعنى النفي أي لا خالق غيره تعالى ، لا ما تعبدون من الأصنام ﴿يرزقكم من السماء والأرض﴾ أي حال كونه تعالى هو المنعم على العباد بالرزق والعطاء ، فهو الذي ينزل المطر من السماء ، ويخرج النبات من الأرض ، فكيف تشركون معه ما لا يخلق ولا يرزق من الأوثان والأصنام ؟ ولهذا قال تعالى بعده ﴿لا إله إلا هو﴾ أي لا رب ولا معبود إلا الله الواحد الأحد ﴿فأنسى تؤفكون﴾ أي فكيف تُصرفون بعد هذا البيان ، ووضوح البرهان ، إلى عبادة الأوثان ؟ والغرض : تذكير الناس بنعم الله ، وإقامة الحجة على المشركين قال ابن كثير : نبه تعالى عباده وأرشدهم إلى الاستدلال على توحيده ، بوجوب أفراد العبادة له ، فكما أنه المستقل بالخلق والرزق ، فكذلك يجب أن يُفرد بالعبادة ، ولا يُشرك به غيره من الأصنام والأوثان ^(٢) ﴿وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك﴾ تسلية للنبي ﷺ على تكذيب قومه له والمعنى : وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون فلا تحزن لتكذيبهم ، فهذه سنة الله في الأنبياء من قبلك ، فقد كذبوا وأودوا حتى أتاهم نصرنا ، فلك بهم أسوة ، ولا بد أن ينصرك الله عليهم ﴿والى الله ترجع الأمور﴾ أي إلى الله تعالى وحده مرجع أمرك وأمرهم ، وسيجزي كلاً بعمله ، وفيه وعيد وتهديد للمكذبين . ثم ذكّرهم تعالى بذلك الموعد المحقق فقال ﴿يا أيها الناس إن وعد الله حق﴾ أي إن وعده لكم بالبعث والجزاء حق ثابت لا محالة لا خُلف فيه ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا﴾ أي فلا تلهكم الحياة الدنيا بزخرفها ونعيمها عن الحياة الآخرة قال ابن كثير : أي لا تتلهوا عن تلك الحياة الباقية ، بهذه الزهرة الفانية ^(٣) ﴿ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ أي ولا يخدعنكم الشيطان المبالغ في الغرور فيطمعكم في عفو الله وكرمه ، ويمينكم بالمغفرة مع الإصرار على المعاصي . ثم بيّن تعالى عداوة الشيطان للإنسان فقال : ﴿إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا﴾ أي إن الشيطان لكم أيها الناس عدو لدود ، وعداوته قديمة لا تكاد تزول فعادوه كما عاداكم ولا تطيعوه ، وكونوا على حذر منه قال بعض العارفين : يا عجباً لمن عصى المحسن بعد معرفته بإحسانه ، وأطاع اللعين بعد معرفته بعداوته ﴿إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير﴾ أي إنما غرضه أن

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبُ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَاهُ بِالْأَرْضِ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ النُّشُورُ ﴿٩﴾

يقذف باتباعه في نار جهنم المستعرة التي تشوي الوجوه والجلود ، لا غرض له إلا هذا ، فهل يليق بالعاقل أن يستجيب لنداء الشيطان اللعين ؟ قال الطبري : أي إنما يدعو شيعته ليكونوا من المخلدين في نار جهنم التي تتوقد على أهلها^(١) ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد﴾ أي الذين جحدوا بالله ورسله لهم عذاب دائم شديد لا يقادر قدره ، ولا يوصف هوله ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾ أي جمعوا بين الإيمان والعمل الصالح ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ أي لهم عند ربهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر كبير وهو الجنة ، وإنما قرن الإيمان بالعمل الصالح ليشير إلى أنها لا يفترقان ، فالإيمان تصديق ، وقول ، وعمل ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنًا﴾ الاستفهام للإنكار وجوابه محذوف والتقدير أفمن زين له الشيطان عمله السيء حتى رآه حسنًا^(٢) واستحسن ما هو عليه من الكفر والضلال ، كمن استقبحه واجتنبه واختار طريق الإيمان ؟ ودل على هذا الحذف قوله تعالى ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ أي الكل بمشيئة الله ، فهو تعالى الذي يصرف من يشاء عن طريق الهدى ، ويهدي من يشاء بتوفيقه للعمل الصالح والإيمان ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ أي فلا تغتم يا محمد ولا تهلك نفسك حسرة على تركهم الإيمان ﴿إن الله عليم بما يصنعون﴾ أي هو جل وعلا العالم بما يصنع هؤلاء من القبائح ومجازيهم عليها ، وفيه وعيد لهم بالعقاب على سوء صنيعهم ﴿والله الذي أرسل الرياح﴾ أي والله تعالى بقدرته هو الذي أرسل الرياح مبشرة بنزول المطر ﴿فتثير سحابًا﴾ أي فحركت السحاب وأهاجته ، والتعبير بالمضارع عن الماضي ﴿فتثير﴾ لاستحضار تلك الصورة البديعة ، الدالة على كمال القدرة والحكمة^(٣) ﴿فسقناه إلى بلد ميث﴾ أي فسقنا السحاب الذي يحمل الغيث إلى بلد مجذب قاحل ﴿فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ فيه حذف تقديره فأنزلنا به الماء فأحيينا به الأرض بعد جدها ويسها ﴿كذلك النشور﴾ أي كما أحيا الله الأرض الميتة بالماء ، كذلك يحيي الموتى من قبورهم ، روى الإمام أحمد عن أبي رزين العقيلي قال قلت يا رسول الله : كيف يحيي الله الموتى ؟ وما آية ذلك في خلقه ؟ فقال : (أما مررت بوادي أهلك ثم مررت به يهتز خضرًا ؟ قلت : نعم يا رسول الله ، قال : فكذلك يحيي الله الموتى ، وتلك آيته في خلقه)^(٤) قال ابن كثير : كثيراً ما يستدل تعالى على المعاد بإحيائه الأرض بعد موتها ، فإن الأرض تكون ميتة هامدة لا نبات فيها ، فإذا أرسل الله إليها السحاب تحمل الماء وأنزله عليها

(١) تفسير الطبري ٧٨ / ٢٢ . (٢) انظر الكشاف ٤٧٤ / ٣ . (٣) أبو السعود ٢٣٩ / ٤ . (٤) أخرجه أحمد وأبو داود وابن ماجه .

مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۖ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ ﴿٣٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا
وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ ۚ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ۚ إِنَّ ذَلِكَ

﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾ كذلك الأجساد إذا أراد الله بعثها ونشورها^(١) ، ثم نبه تعالى عباده إلى السبيل الذي تُنال به العزة فقال ﴿من كان يريد العزة فلله العزة جميعاً﴾ أي من كان يطلب العزة الكاملة ، والسعادة الشاملة ، فليطلبها من الله تعالى وحده ، فإن العزة كلها لله جل وعلا قال بعض العارفين : من أراد عز الدارين فليطع العزيز^(٢) ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ أي إليه جل وعلا يرتفع كل كلام طيب من ذكر ، ودعاء ، وتلاوة قرآن ، وتسبيح وتمجيد ونحوه قال الطبري : إلى الله يصعد ذكر العبد إياه وثناؤه عليه ﴿وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ أي والعمل الصالح يتقبله الله تعالى ويثيب صاحبه عليه قال قتادة : لا يقبل الله قولاً إلا بعمل ، من قال وأحسن العمل قبل الله منه ، نقله الطبري ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ هذا بيان للكلم الخبيث بعد بيان حال الكلام الطيب أي والذين يحتالون بالمكر والخديعة لإطفاء نور الله ، والكيد للإسلام والمسلمين ، لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ﴾ أي ومكر أولئك المجرمين هالك وباطل ، لأنه ما أسراً أحد سوءاً ودبره إلا أباداه الله وأظهره ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ قال المفسرون : والإشارة هنا إلى مكر قريش برسول الله ﷺ حين اجتمعوا في دار الندوة وأرادوا أن يقتلوه ، أو يحبسوه ، أو يخرجوه كما حكى القرآن الكريم ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾^(٣) ثم ذكّرهم تعالى بدلائل التوحيد والبعث ، بعد أن ذكّرهم بآيات قدرته وعزته فقال ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ﴾ أي خلق أصلكم وهو آدم من تراب ﴿ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ﴾ أي ثم خلق ذريته من ماء مهين وهو المنى الذي يُصب في الرحم ﴿ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ أي خلقكم ذكوراً وإناثاً ، وزوّج بعضكم من بعض ليتم البقاء في الدنيا إلى انقضائها^(٤) قال الطبري : أي زوّج منهم الأنثى من الذكر^(٥) ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ أي وما تحمل أنثى في بطنها من جنين ، ولا تلد إلا بعلمه تعالى ، يعلم أذكر هو أو أنثى ، ويعلم أطوار هذا الجنين في بطن أمه ، لا يخفى عليه شيء من أحواله ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ أي وما يطول عمر أحد من الخلق فيصبح هرمًا ، ولا يُنقص من عمر أحد فيموت وهو صغير أو شاب إلا وهو مسجل في اللوح المحفوظ ، لا يُزاد فيما كتب الله ولا يُنقص ﴿إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ أي سهل هين ، لأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، ثم ضرب تعالى مثلاً للمؤمن والكافر

(١) مختصر ابن كثير ٣/ ١٤٠ . (٢) القرطبي ١٤/ ٣٢٩ . (٣) انظر الكشف ٣/ ٤٧٦ . (٤) القرطبي ١٤/ ٣٣٢ . (٥) الطبري

عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١١﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ، وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلِّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لَتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتَخْرُ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ

فقال : ﴿وما يستوي البحران﴾ أي وما يستوي ماء البحر وماء النهر^(١) ﴿هذا عذب فرات سائغ شرابه﴾ أي هذا ماء حلو شديد الحلاوة يكسر وهج العطش ، ويسهل انحداره في الحلق لعذوبته ﴿وهذا ملح أجاج﴾ أي وهذا ماء شديد الملوحة ، يحرق حلق الشارب لمرارته وشدة ملوحته ، فكما لا يتساوى البحران : العذب ، والملح ، فكذلك لا يتساوى المؤمن مع الكافر ، ولا البر مع الفاجر قال أبو السعود : هذا مثل ضرب للمؤمن والكافر ، والفرات الذي يكسر العطش ، والسائغ الذي يسهل انحداره لعذوبته ، والأجاج الذي يحرق بملوحته^(٢) ﴿ومن كل تأكلون منه لحماً طرياً﴾ أي ومن كل واحد منهما تأكلون سمكاً غضاً طرياً ، مختلف الأنواع والطعوم والأشكال ﴿وتستخرجون حلية تلبسونها﴾ أي وتستخرجون منها اللؤلؤ والمرجان للزينة والتحلي ﴿وترى الفلك مواخر فيه﴾ أي وترى أيها المخاطب السفن العظيمة ، تمخر عباب البحر مقبلة ومدبرة ، تحمل على ظهرها الأثقال والبضائع والرجال ، وهي لا تغرق فيه لأنها بتسخير الله جل وعلا^(٣) ﴿لتبتغوا من فضله﴾ أي لتطلبوا بركوبكم هذه السفن العظيمة من فضل الله بأنواع التجارات ، والسفر إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة ﴿ولعلكم تشكرون﴾ أي ولكي تشكروا ربكم على إنعامه وإفضاله في تسخيره ذلك لكم ، ثم انتقل إلى آية أخرى من آيات قدرته وسلطانه في الآفاق فقال ﴿يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل﴾ أي يدخل الليل في النهار ، ويدخل النهار في الليل ، فيضيف من هذا إلى هذا وبالعكس ، فيتفاوت بذلك طول الليل والنهار بالزيادة والنقصان ، حسب الفصول والأمصار ، حتى يصل النهار صيفاً - في بعض البلدان - إلى ست عشرة ساعة ، وينقص الليل حتى يصل إلى ثماني ساعات - آية من آيات الله تُشاهد لا يستطيع إنكارها جاحد أو مؤمن ، ويحس بآثارها الأعمى والبصير . . آية شاهدة على قدرة الله ، ودقة تصرفه في خلقه ، وهذه الظاهرة الكونية دستور لا يتغير ، ونظام محكم لا يأتي بطريق الصدفة ، وإنما هو من صنع الله الذي أتقن كل شيء خلقه ، فسبحان المدبر الحكيم العليم !! ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجلٍ مسمى﴾ أي ذلّلها لمصالح العباد ، كل منهما يسير ويدور في مداره الذي قدره الله له لا يتعداه ، إلى أجلٍ معلوم هو يوم القيامة^(٤) ﴿ذلکم الله ربکم له الملک﴾ أي ذلکم الفاعل لهذه الأمور

(١) سمي النهر بحراً من باب التغليب . (٢) تفسير أبي السعود ٤/ ٢٤١ . (٣) راجع نظرية طفو الأجسام والإعجاز العلمي للقرآن الكريم . (٤) كان المظنون أن الشمس ثابتة في موضعها ولكن أثبت العلم الحديث أنها تجري في اتجاه واحد في الفضاء الكوني الهائل بسرعة حسبها الفلكيون باثني عشر ميلاً في الثانية ، والله الخبير العليم يخبر بسيرها وجرياتها « والشمس تجري لمستقر لها » . وحين نتصور أن حجم هذه الشمس يبلغ نحو مليون ضعف حجم أرضنا هذه ، وأن هذه الكتلة الهائلة تتحرك وتجري في الفضاء لا يسندها شيء إلا هو ، ندرك طرفاً من صفة القدرة التي تصرف هذا الوجود عن قوة وعن علم . تفسير الجوهري .

وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ ۚ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾

البديعة ، هو ربكم العظيم الشأن ، الذي له الملك والسلطان والتصرف الكامل في الخلق ﴿والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير﴾ أي والذين تعبدون من دون الله من الأوثان والأصنام لا يملكون شيئاً ولو بمقدار القطمير ، وهو القشرة الرقيقة التي بين الثمرة والنواة قال المفسرون : وهو مثل يضرب في القلة والحقارة ، والأصنام لضعفها، وهوان شأنها وعجزها عن أي تصرف صارت مضرب المثل في حقارتها بأنها لا تملك فتية ولا قطميراً ، ثم أكد تعالى ذلك بقوله ﴿إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم﴾ أي إن دعوتهم هذه الأصنام لم يسمعوا دعاءكم ولم يستجيبوا لندائكم ، لأنها جمادات لا تسمع ولا تفهم ﴿ولو سمعوا ما استجابوا لكم﴾ أي ولو سمعوا لدعائكم - على الفرض والتسليم - ما استجابوا لكم لأنها ليست ناطقة فتجيب ﴿ويوم القيامة يكفرون بشرككم﴾ أي وفي الآخرة حين ينطقهم الله يتبرءون منكم ومن عبادتكم إياهم ﴿ولا ينبئك مثل خبير﴾ أي ولا يخبرك يا محمد على وجه اليقين أحداً إلا أنا - الله - الخالق العليم الخبير قال قتادة : يعني نفسه عز وجل .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الاستعارة التمثيلية ﴿ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها﴾ شبه فيه إرسال النعم بفتح الخزائن للإعطاء وكذلك حبس النعم بالإمسك ، واستعير الفتح للإطلاق والإمسك للمنع .

٢ - الطباق بين ﴿يفتح .. ويمسك﴾ وكذلك بين ﴿يضل .. ويهدي﴾ وبين ﴿تحمل .. وتضع﴾ وبين ﴿يُعمر .. وينقص من عمره﴾ .

٣ - المقابلة بين جزاء الأبرار والفجار ﴿الذين كفروا لهم عذاب شديد .. والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وكذلك بين قوله ﴿هذا عذب فرات .. وهذا ملح أجاج﴾ وكل من الطباق والمقابلة من المحسنات البديعية إلا أن الأول يكون بين شيئين والثاني بين أكثر .

٤ - حذف الجواب لدلالة اللفظ عليه ﴿أفمن زين له سوء عمله فرآه حسناً﴾ ؟ حذف منه ما يقابله أي كمن لم يزين له سوء عمله ؟ ودل على هذا المحذوف قوله ﴿فإن الله يضل من يشاء ويهدي من يشاء﴾ .

٥ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿فلا تغرنكم الحياة الدنيا .. ثم قال .. ولا يغرنكم بالله الغرور﴾ .

٦ - الكناية ﴿فلا تذهب نفسك عليهم حسرات﴾ كناية عن الهلاك لأن النفس إذا ذهبت هلك الإنسان .

٧ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم بالإشعار بالعظمة ﴿أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه﴾ .

٨ - السجع لماله من وقع حسن على السمع مثل ﴿ليكونوا من أصحاب السعير﴾ ﴿لهم مغفرة وأجر كبير﴾ وأمثال ذلك وهو من المحسنات البديعية .

المناسكة : لما عدّد تعالى نعمه على العباد ، وأقام الأدلة والبراهين على قدرته وعزته وسلطانه ، ذكّرهم هنا بحاجتهم إليه ، واستغناؤه جل وعلا عن جميع الخلق ، وضرب الأمثال للتفريق بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ، بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، « فبضدّها تميز الأشياء » .

اللفك : ﴿وزر﴾ الوزر : الجبل المنيع الذي يعتصم به ومنه « كلا لا وزر » ثم قيل للثقل وزر تشبيهاً له بالجبل ، ثم استعير للذنب لما فيه من إثقال كاهل الإنسان ﴿تندر﴾ تخوف ، والإنذار التخويف ﴿الغيب﴾ ما غاب عن الإنسان ولم تدركه حواسه قال الشاعر :

وبالغيب آمنّا وقد كان قومنا يُصلُّون للأوثان قبل محمد
﴿الحرور﴾ شدة حر الشمس قال في المصباح : الحرّ خلاف البرد والاسم الحرارة ، وحرّت النار : توقّدت واستعرت ، والحرور : الريح الحارة^(١) ﴿جدد﴾ جمع جدّة بالضم وهي الطريقة والعلامة قال الجوهري : والجدّة : الخطّة التي في ظهر الحمار تخالف لونه ، والجدّة الطريقة والجمع جدد وهي الطرائق المختلفة الألوان^(٢) ، قال القرطبي : قال الأخفش : لو كان جمع جديد لقال « جُدّد » بضم الجيم والبدال نحو سرر ﴿غرايب﴾ جمع غريب وهو الشديد السواد ، يقال : أسود غريب أي شديد السواد قال امرؤ القيس :

العين طامحة ، واليد سابعة والرجل لافحة ، والوجه غريب^(٣)

* يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿١٥﴾ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ

النفسير : ﴿يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله﴾ الخطاب لجميع البشر لتذكيرهم بنعم الله الجليلة عليهم أي أنتم المحتاجون إليه تعالى في بقائكم وكل أحوالكم ، وفي الحركات والسكنات ﴿والله هو الغني الحميد﴾ أي وهو جل وعلا الغني عن العالم على الإطلاق ، المحمود على نعمه التي لا تحصى قال أبو حيان : هذه آية موعظة وتذكير ، وأن جميع الناس محتاجون إلى إحسان الله تعالى وإنعامه ، في جميع أحوالهم ، لا يستغني أحدٌ عنه طرفة عين ، وهو الغني عن العالم على الإطلاق ، المحمود على ما يسديه من النعم ، المستحق للحمد والثناء^(٤) ، ثم قرر استغناؤه عن الخلق بقوله ﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جديد﴾ أي لو شاء تعالى لأهلككم وأفناكم وأتى بقوم آخرين غيركم ، وفي هذا وعيد وتهديد

جَدِيدٌ ﴿١٦﴾ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ ﴿١٧﴾ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ۚ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ ۚ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا الْحُرُورُ ﴿٢١﴾

﴿وما ذلك على الله بعزيز﴾ أي وليس ذلك بصعب أو ممتنع على الله ، بل هو سهل يسير عليه سبحانه ، لأنه يقول للشيء كن فيكون ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ أي لا تحمل نفس أئمة إثم نفس أخرى ، ولا تعاقب بذنب غيرها كما يفعل جبابرة الدنيا من أخذ الجار بالجار ، والقريب بالقريب^(١) ﴿وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى﴾ أي وإن تدع نفس مثقلة بالأوزار أحداً ليحمل عنها بعض أوزارها لا يتحمل عنها ولو كان المدعو قريباً لها كالأب والابن ، فلا غياث يومئذ لمن استغاث ، وهو تأكيد لما سبق في أن الإنسان لا يتحمل ذنب غيره قال الزمخشري : فإن قلت فما الفرق بين الآيتين ؟ قلت : الأول في الدلالة على عدل الله تعالى في حكمه ، وأنه تعالى لا يؤخذ نفساً بغير ذنبها ، والثاني في أنه لا غياث يومئذ لمن استغاث^(٢) ﴿إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب﴾ أي إنما تنذر يا محمد بهذا القرآن الذين يخافون عقاب ربهم يوم القيامة ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي وأدوا الصلاة على الوجه الأكمل ، فضماموا إلى طهارة نفوسهم طهارة أبدانهم بالصلاة المفروضة في أوقاتها ﴿ومن تزكى فإنما يترقى لنفسه﴾ أي ومن طهر نفسه من أدناس المعاصي فإنما ثمره ذلك التطهر عائدة عليه ، فصلاحه وتقواه مختص به ولنفسه ﴿والإلى الله المصير﴾ أي إليه تعالى وحده مرجع الخلائق يوم القيامة فيجازي كلأ بعمله ، وهو إخبار متضمن معنى الوعيد ﴿وما يستوى الأعمى والبصير﴾ هذا مثل ضرب الله للمؤمن والكافر^(٣) أي كما لا يتساوى الأعمى مع البصير فكذلك لا يتساوى المؤمن المستنير بنور القرآن ، والكافر الذي يتخبط في الظلام ، ﴿ولا الظلمات ولا النور﴾ أي لا يتساوى كذلك الكفر والإيمان ، كما لا يتساوى النور والظلام ﴿ولا الظل ولا الحرور﴾ أي وكذلك لا يستوي الحق والباطل ، والهدى والضلال كما لا يستوي الظل الظليل مع شدة حر الشمس المتوهجة قال المفسرون : ضرب الله الظل مثلاً للجنة وظلها الظليل ، وأشجارها اليانعة تجري من تحتها الأنهار ، كما جعل الحرور مثلاً للنار وسعيرها ، وشدة أوارها وحرها ، وجعل الجنة مستقراً للأبرار ، والنار مستقراً للفجار كما قال تعالى ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾ ثم أكد ذلك فقال ﴿وما يستوي الأحياء ولا الأموات﴾ أي كما لا يستوي العقلاء والجهلاء قال أبو حيان : وترتيب هذه الأشياء في بيان عدم الاستواء جاء في غاية الفصاحة ، فقد ذكر الأعمى والبصير مثلاً للمؤمن والكافر ، فذكر ما عليه الكافر من ظلمة الكفر ، وما عليه المؤمن من نور الإيمان ، ثم ذكر ما لهما وهو الظل والحرور ، فالؤمن بإيمانه في ظل وراحة ، والكافر

(١) نفس المرجع السابق والصفحة . (٢) الكشف ٤٧٩ / ٣ . (٣) البحر المحيط ٧ / ٨ ، ٣ .

وَمَا يَسْتَوِي الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ^{٢١} إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ^{٢٢} وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ ﴿٢٣﴾
 إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا^{٢٥} وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٦﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ
 فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ^{٢٧} وَبِالزُّبُرِ^{٢٨} وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٢٩﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ
 الَّذِينَ كَفَرُوا^{٣٠} فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٣١﴾

بكفره في حر وتعب ، ثم ذكر مثلاً آخر على أبلغ وجه وهو الحي والميت ، فالأعمى قد يكون فيه بعض النفع بخلاف الميت ، وجمع الظلمات لأن طرق الكفر متعددة ، وأفرد النور لأن التوحيد والحق واحد لا يتعدد ، وقدم الأشرف في المثلين الأخيرين وهما « الظل ، والحي » وقدم الأوضح في المثلين الأولين وهما « الأعمى ، والظلمات » ليظهر الفرق جلياً ، ولا يقال ذلك لأجل السجع لأن معجزة القرآن ليست في مجرد اللفظ ، بل في المعنى أيضاً ، فله سر القرآن^(١) ، ثم زاد في الإيضاح والبيان فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ أي إن الله يسمع من يشاء إسماعه دعوة الحق ، فيحببه بالإيمان ويشرح صدره للإسلام ، وما أنت يا محمد بمسمع هؤلاء الكفار ، لأنهم أموات القلوب لا يدركون ولا يفقهون قال ابن الجوزي : أراد بمن في القبور الكفار ، وشبههم بالموتى^(٢) ، أي فكما لا يقدر أن يسمع من في القبور كتاب الله وينتفع بمواعظه ، فكذلك من كان ميت القلب لا ينتفع بما يسمع^(٣) ﴿إِنَّ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ﴾ أي ما أنت إلا رسول منذر ، تخوف هؤلاء الكفار من عذاب النار ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ أي بعثناك بالهدى ودين الحق ، بشيراً للمؤمنين ونذيراً للكافرين ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ أي ما من أمة من الأمم في العصور والأزمنة الخالية إلا وقد جاءها رسول ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تسلياً للنبي ﷺ للتأسي بالأنبياء في الصبر على تحمل الأذى والبلاء قال الطبري : أي وإن يكذبك يا محمد هؤلاء المشركون من قومك فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم السابقة رسلهم ﴿جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ أي جاءتهم الرسل بالمعجزات البينات ، والحجج الواضحات فكذبوهم وأنكروا ما جاءوا به من عند الله^(٤) ﴿وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ أي وجاءوهم بالزُّبُر أي الصحف المنزلة على الأنبياء ، وبالكتب السماوية المقدسة المنيرة الموضحة وهي أربعة « التوراة ، والإنجيل ، والزبور ، والفرقان » ومع ذلك كذبوهم وردوا عليهم رسالتهم فاصبر كما صبروا ﴿ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أي ثم بعد إمهالهم أخذت هؤلاء الكفار بالهلاك والدمار ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي فكيف كانت عقوبتي لهم وإنكاري عليهم ؟ ألم آخذهم أخذ عزيز مقتدر ؟ ألم أبدل نعمتهم نقمة ، وسعادتهم شقاوة ، وعمارتهم خراباً ؟ وهكذا أفعل بمن كذب رسلي ، ثم عاد إلى تقرير وحدانية الله بالأدلة السماوية والأرضية فقال ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أي ألم تر أيها

(١) البحر المحيط ٣٠٩/٧ بشيء من الإيجاز والتصرف . (٢) تفسير ابن الجوزي ٤٨٤/٦ . (٣) تفسير الطبري ٨٥/٢٢ .

(٤) تفسير الطبري ٨٦/٢٢ .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٍ ﴿٣٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٣٨﴾

المخاطب أن الله العظيم الكبير الجليل أنزل من السحاب المطر بقدرته^(١) ؟ ﴿فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها﴾ أي فأخرجنا بذلك الماء أنواع النباتات والفواكه والثمار ، المختلفة الأشكال والألوان والطعوم قال الزمخشري : أي مختلف أجناسها من الرمان والتفاح والتين والعنب وغيرها مما لا يحصر ، أو هيئاتها من الحمرة والصفرة والخضرة ونحوها^(٢) ﴿ومن الجبال جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا﴾ أي وخلق الجبال كذلك فيها الطرائق المختلفة الألوان - وإن كان الجميع حجراً أو تراباً - فمن الجبال جُدَدٌ - أي طرائق - مختلفة الألوان ، بَيَضٌ مختلفة البياض ، وَحُمْرٌ مختلفة في حمرتها ﴿وغرابيبُ سودٌ﴾ أي وجبال سودٌ غرابيب أي شديدة السواد ، قال ابن جزي : قدّم الوصف الأبلغ وكان حقه أن يتأخر ، وذلك لقصد التأكيد وكثيراً ما يأتي مثل هذا في كلام العرب^(٣) ، والغرض بيان قدرته تعالى ، فليس اختلاف الألوان قاصراً على الفواكه والثمار بل إن في طبقات الأرض وفي الجبال الصلبة ما هو أيضاً مختلف الألوان^(٤) ، حتى لتجد الجبل الواحد ذا ألوانٍ عجيبة ، وفيه عروق تشبه المرجان ، ولا سيما في صخور « المرمر » فسبحان القادر على كل شيء ﴿ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك﴾ أي وخلق من الناس ، والدواب ، والأنعام ، خلقاً مختلفاً ألوانه كاختلاف الثمار والجبال ، فهذا أبيض ، وهذا أحمر ، وهذا أسود ، والكل خلق الله فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم لما عدد آيات الله ، وأعلام قدرته ، وآثار صنعه ، وما خلق من الفطر المختلفة الأجناس أتبع ذلك بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ أي إنما يخشاه تعالى العلماء لأنهم عرفوه حق معرفته ، قال ابن كثير : أي إنما يخشاه حق خشيته العلماء العارفون به ، لأنه كلما كانت المعرفة للعظيم القدير أتم ، والعلم به أكمل ، كانت الخشية له أعظم وأكثر^(٥) ﴿إن الله عزيزٌ غفورٌ﴾ أي غالب على كل شيء بعظمته ، غفور لمن تاب وأناب من عباده ، ثم أخبر عن صفات هؤلاء الذين يخافون الله ويرجون رحمته فقال ﴿إن الذين يتلون كتاب الله﴾ أي

(١) الآية سبقت للبحث والتحريض على النظر في عجائب صنعه تعالى ، وآثار قدرته ليؤدي ذلك إلى العلم بعظمة الله وجلاله ، ويؤدي العلم إلى خشيته ولذلك ختمها بقوله ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فتدبر سرّ القرآن . (٢) تفسير الكشاف ٤٨١/٣ . (٣) التسهيل ١٥٨/٣ . (٤) يقول شهيد الإسلام في تفسيره الظلال : هذه لفظة كونية عجيبة من اللفظات الدالة على مصدر هذا الكتاب ، تبدأ بإنزال الماء من السماء ، وإخراج الثمرات المختلفة الألوان ، ثم تنتقل إلى ألوان الجبال ، ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددتها ، واللفظة إلى ألوان الصخور وتنوعها داخل اللون الواحد ، تهز القلب هزاً ، وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي العالي بما يستحق النظر والالتفات ، ثم ألوان الناس - وهي لا تقف عند حد - وكذلك ألوان الدواب والأنعام ، والدابة كل حيوان ، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز ، ذات الألوان والأصباغ العجيبة ، كلها معروضة للأنظار في هذا الكتاب الكوني ، الجميل الصفحات ، العجيب في التكوين والتلوين . (٥) مختصر ابن كثير ١٤٦/٣ .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوفِّيَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ ۚ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ﴿٣١﴾

يداومون على تلاوة القرآن آناء الليل وأطراف النهار ﴿وأقاموا الصلاة﴾ أي أدوها على الوجه الأكمل في أوقاتها ، بخشوعها وآدابها ، وشروطها وأركانها ﴿وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية﴾ أي وأنفقوا بعض أموالهم في سبيل الله وابتغاء رضوانه في السر والعلن ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ أي يرجون بعملهم هذا تجارة رابحة ، لن تكسد ولن تهلك بالخسران أبداً ﴿ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله﴾ أي ليوفيهم الله جزاء أعمالهم ، وثواب ما فعلوا من صالح الأعمال ، ويزيدهم - فوق أجورهم - من فضله وإنعامه وإحسانه قال في التسهيل : توفية الأجور هو ما يستحقه المطيع من الثواب ، والزيادة : التضعيف فوق ذلك أو النظر إلى وجه الله ^(١) ﴿إنه غفور شكور﴾ أي مبالغ في الغفران لأهل القرآن ، شاکر لطاعتهم قال ابن كثير : كان مطرف إذا قرأ هذه الآية قال : هذه آية القراء ^(٢) ﴿والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق﴾ أي والذي أوحيناه إليك يا محمد من الكتاب المنزل - القرآن العظيم - هو الحق الذي لا شك فيه ، ولا ريب في صدقه ﴿مصدقاً لما بين يديه﴾ أي حال كونه مصدقاً لما سبقه من الكتب الإلهية المنزلة كالطور والإنجيل والزبور قال أبو حيان : وفي الآية إشارة إلى كونه وحياً ، لأنه عليه السلام لم يكن قارئاً ولا كاتباً وأتى ببيان ما في كتب الله ، ولا يكون ذلك إلا من الله ^(٣) ﴿إن الله بعباده لخبير بصير﴾ أي هو جل وعلا خير بعباده محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، بصيرٌ بهم لا تخفى عليه خافية من شئونهم .

الْبَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

١ - الطباق بين ﴿يذهب .. ويأت﴾ وبين ﴿الأعمى .. والبصير﴾ و﴿الظلمات .. والنور﴾ و﴿الظل .. والحرور﴾ و﴿الأحياء .. والأموات﴾ وبين ﴿نذيراً .. وبشيراً﴾ وبين ﴿سراً .. وعلانية﴾ .

٢ - جناس الاشتقاق ﴿ولا تزر وازرة﴾ ﴿حملها لا يحمل منه شيء﴾ .

٣ - الاستعارة التصريحية ﴿وما يستوي الأعمى والبصير ..﴾ الآية شبه الكافر بالأعمى ، والمؤمن بالبصير بجامع ظلام الطريق وعدم الاهتداء على الكافر ، ووضوح الرؤية والاهتداء للمؤمن ، ثم استعار المشبه به ﴿الأعمى﴾ للكافر ، واستعار ﴿البصير﴾ للمؤمن بطريق الاستعارة التصريحية .

- ٤ - الالتفات من الغيبة إلى التكلم ﴿أنزل من السماء ماءً فأخرجنا﴾ بدل فأخرج لما في ذلك من الفخامة ولبيان كمال العناية بالفعل ، لما فيه من الصنع البديع ، النبيء عن كمال قدرة الله وحكمته .
- ٥ - قصر صفة على موصوف ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ فقد قصر الخشية على العلماء .
- ٦ - الاستفهام التقريري وفيه معنى التعجب ﴿ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً . .﴾ الآية .
- ٧ - الاستعارة ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ استعار التجارة للمعاملة مع الله تعالى لنيل ثوابه ، وشبهها بالتجارة الدنيوية وهي معاملة الخلق بالبيع والشراء لنيل الربح ثم رشحها بقوله ﴿لن تبور﴾ .
- ٨ - توافق الفواصل مما يزيد في جمال الكلام ورويقه ووقعه في النفس مثل ﴿يرجون تجارة لن تبور﴾ ﴿إنه غفور شكور﴾ ومثل ﴿وبالكتاب المنير﴾ ﴿فكيف كان نكير﴾ وهكذا .

قال الله تعالى : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذي اصطفينا . . إلى فإن الله كان بعباده بصيراً﴾

من آية (٣٢) إلى آية (٤٥) نهاية السورة

المناسكة : لما أثنى تعالى على الذين يتلون كتاب الله ، ذكر هنا انقسام الأمة الإسلامية أمام هذا الكنز الثمين إلى ثلاثة أقسام : الظالم لنفسه ، والمقتصد ، والسابق بالخيرات ، ثم ذكر مآل الأبرار والفجار ، ليظل العبد بين الخوف والرجاء ، والرغبة والرهبة .

اللغة : ﴿نَصَبَ﴾ تعب ومشقة جسمانية ﴿لُغُوبَ﴾ اللُّغُوبُ : الإعياء والضعف والفتور ومنه ﴿وما مسنا من لُغُوبَ﴾ ﴿يصطرخون﴾ من الصراخ وهو الصياح بصوت عال ، والصارخ : المستغيث ، والمُصرخ : المغيث قال سلامة بن جندب :

كُنَّا إِذَا مَا أَتَانَا صَارْخٌ فَنَرُءُ كَانَ الصُّرَاخُ لَهُ قَرْعُ الظُّنَابِيبِ^(١)

﴿النذير﴾ المنذر الذي يخوف الناس من عذاب الله ﴿خلائف﴾ جمع خليفة وهو الذي يخلف غيره في أمر من الأمور ﴿مقتاً﴾ المقت : أشد البغض والغضب ﴿خساراً﴾ هلاكاً وضللاً ﴿يحيق﴾ حاق به الشيء : نزل وأحاط .

ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ ۖ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ

التفسير : ﴿ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا﴾ أي ثم أورثنا هذا القرآن العظيم لأفضل الأمم - وهم أمة محمد عليه السلام - الذين اخترناهم على سائر الأمم ، وخصصناهم بهذا الفضل العظيم ، القرآن المعجز خاتمة الكتب السماوية قال الزمخشري : والذين اصطفاهم الله هم أمة محمد من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى يوم القيامة^(٢) . . ثم قسمهم إلى ثلاثة أصناف فقال ﴿فمنهم ظالم لنفسه ، ومنهم مقتصد ، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله﴾ أي فمن هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب من هو مقصّر في عمل الخير ، يتلو القرآن ولا يعمل به وهو الظالم لنفسه ، ومنهم من هو متوسط

بِإِذْنِ اللَّهِ ^ج ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٣﴾ جَنَّتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا
وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزْنَ ^ط إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٥﴾ الَّذِي أَحَلَّنَا
دَارَ الْمَقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴿٣٦﴾

في فعل الخيرات والصالحات ، يعمل بالقرآن في أغلب الأوقات ، ويقصّر في بعض الفترات وهو
المقتصد ، ومنهم من هو سبّاق في العمل بكتاب الله ، يستبق الخيرات وقد أحرز قصب السبق في فعل
الطاعات بتوفيق الله وتيسيره وهو السابق بالخيرات بإذن الله قال ابن جزي : وأكثر المفسرين أن هذه
الأصناف الثلاثة في أمة محمد ﷺ فالظالم لنفسه : العاصي ، والسابق : التقي ، والمقتصد : بينهما ^(١)
وقال الحسن البصري : السابق من رجحت حسناته على سيئاته ، والظالم لنفسه من رجحت سيئاته ،
والمقتصد من استوت حسناته وسيئاته ، وجميعهم يدخلون الجنة ^(٢) ﴿ذلك هو الفضل الكبير﴾ أي
ذلك الإيثار والاصطفاء لأمة محمد عليه السلام لحمل أشرف الرسالات والكتب السماوية هو الفضل
العظيم الذي لا يدانيه فضل ولا شرف ، فقد تفضل الله عليهم بهذا القرآن المجيد ، الباقي مدى الدهر ،
وأنعم به من فضل ! ثم أخبر تعالى عما أعدّه للمؤمنين في جنات النعيم فقال ﴿جناتٌ عدنٌ يدخلونها﴾
أي جنات إقامة ينعمون فيها بأنواع النعيم ، وهي مراتب ودرجات متفاوتة حسب تفاوت الأعمال ، وإنما
جمع ﴿الجنات﴾ لأنها جنات كثيرة وليست جنة واحدة ، فهناك جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة
النعيم ، وجنة المأوى ، وجنة الخلد ، وجنة السلام ، وجنة عليين ، وفي كل جنة مراتب وتُزلّ بحسب
مراتب العاملين ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا﴾ أي يزينون في الجنة بأساور من ذهب
مرصعة باللؤلؤ ﴿ولباسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ أي وجميع ما يلبسونه في الجنة من الحرير ، بل فرشهم
وستورهم كذلك قال القرطبي : لما كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان ، جعل الله ذلك لأهل
الجنة ، وليس أحد من أهل الجنة إلا في يده ثلاثة أسورة : سوار من ذهب ، وسوار من فضة ، وسوار من
لؤلؤ ^(٣) ﴿وقالوا الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن﴾ أي وقالوا عند دخولهم الجنة الحمد لله الذي
أذهب عنا جميع الهموم والأكدار والأحزان قال المفسرون : عبّر بالماضي ﴿وقالوا﴾ لتحقيق وقوعه ،
والحزن يعم كل ما يكدر صفو الإنسان من خوف المرض ، والفقر ، والموت ، وأهوال القيامة ،
وعذاب النار وغير ذلك ^(٤) ﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ أي واسع المغفرة للمذنبين ، شكور لطاعة
المطيعين ، وكلا اللفظتين للمبالغة أي واسع الغفران عظيم الشكر والإحسان ﴿الذي أحلنا دار المقامة
من فضله﴾ أي أنزلنا الجنة وأسكننا فيها ، وجعلها مقراً لنا وسكناً ، لا نتحول عنها أبداً ، وكل ذلك من
إنعامه وتفضله علينا ﴿لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا يصيبنا فيها تعب ولا مشقة ﴿وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٥٨/٣ . (٢) زاد المسير ٤٩٠/٦ . والقول بأن هذه الأصناف الثلاثة من أمة محمد ﷺ هو الراجح وهو اختيار

ابن جرير وقد أورد العلامة ابن كثير أحاديث تدل على ذلك . (٣) القرطبي ٥٢/١٢ . (٤) انظر تفسير أبي السعود ٢٤٥/٤ والطبري

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِّخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ۖ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ ﴿٣٧﴾

لغوب ﴿أي ولا يصيبنا فيها إعياء ولا فتور قال ابن جزي : وإنما سميت الجنة ﴿دار المقامة﴾ لأنهم يقومون فيها ويمكثون ولا يخرجون منها ، والنَّصَبُ تعبُ البدن ، واللغوبُ تعب النفس الناشئ عن تعب البدن﴾ . . . ولما ذكر تعالى حال السعداء الأبرار ، ذكر حال الأشقياء الفجار فقال ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم﴾ أي والذين جحدوا بآيات الله وكذبوا رسله فإنَّ لهم نار جهنم المستعرة جزاءً وفاقاً على كفرهم ﴿لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا﴾ أي لا يحكم عليهم بالموت فيها حتى يستريحوا من عذاب النار ﴿وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا﴾ أي ولا يخفف عنهم شيء من العذاب ، بل هم في عذاب دائم مستمر لا ينقطع كقوله ﴿كلما خبت زدهم سعيراً﴾ ﴿كذلك نجزي كل كفور﴾ أي مثل ذلك العذاب الشديد الفظيع ، نجازي ونعاقب كل مبالغ في الكفر والعصيان ﴿وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحاً غير الذي كنا نعمل﴾ أي وهم يتصارخون في جهنم ويستغيثون برفع أصواتهم قائلين : ربنا أخرجنا من النار وردنا إلى الدنيا لنعمل عملاً صالحاً يقربنا منك ، غير الذي كنا نعمله قال القرطبي : أي نؤمِّن بدل الكفر ، ونطيع بدل المعصية ، ونمثل أمر الرسل ﴿٣٦﴾ . . . وفي قولهم ﴿غير الذي كنا نعمل﴾ اعترافٌ بسوء عملهم ، وتندُّمٌ عليه وتحسرٌ ﴿٣٧﴾ ، قال تعالى رداً عليهم وموبخاً لهم ﴿أولم نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ﴾ أي أولم نترككم ونمهلكم في الدنيا عمراً مديداً يكفي لأن يتذكر فيه من يريد التذكر والتفكير ؟ فماذا صنعتم في هذه المدة التي عشتوها ؟ وما لكم تطلبون عمراً آخر ؟ وفي الحديث «أعذر الله إلى امرئٍ أخر أجله حتى بلغ ستين سنة» ﴿٣٨﴾ ومعنى «أعذر» أي بلغ به أقصى العذر ﴿وجاءكم النذير﴾ أي وجاءكم الرسول المنذر وهو محمد عليه السلام الذي بعث بين يدي الساعة ، وقيل : ﴿النذير﴾ هو الشيب ، والأول أظهر ﴿٣٩﴾ ﴿فذوقوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ﴾ أي فذوقوا العذاب يا معشر الكافرين ، فليس لكم اليوم ناصر ولا معين يدفع عنكم عذاب الله قال الإمام الفخر : والأمرُ أمرُ إهانة ﴿فذوقوا﴾ وفيه إشارة إلى الدوام ﴿٣٩﴾ ، وإنما وضع الظاهر للظالمين ﴿موضع الضمير﴾ لكم «لتسجيل الظلم عليهم ، وأنهم بكفرهم وظلمهم ليس لهم نصير أصلاً لا من الله ولا

(١) التسهيل في علوم التنزيل ١٥٩/٣ .

(٢) القرطبي ٣٥٢/١٤ . (٣) التسهيل في علوم التنزيل ١٥٩/٣ . (٤) أخرجه البخاري وترجم له بقوله «باب من بلغ ستين سنة فقد أعذر إليه في العمر وذكر الآية ، قال ابن كثير وهذا هو الصحيح في مقدار العمر» .

(٥) ترجم الإمام البخاري ﴿وجاءكم النذير﴾ يعني الشيب ، وروي هذا عن ابن عباس وعكرمة قال ابن كثير : وما روي عن قتادة أن النذير هو رسول الله ﷺ هو الصحيح وهو اختيار ابن جرير وهو الأظهر . (٦) التفسير الكبير ٢٦/٣٠ .

إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٤٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ خَلْقًا فِي الْأَرْضِ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٤٩﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ أَمْ آتَيْنَهُم كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا

من العباد ، ثم قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي هو تعالى العالم الذي أحاط علمه بكل ما خفي في الكون من غيب السموات والأرض ، لا يخفى عليه شأن من شئونها ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ أي يعلم جلّ وعلا مضمرات الصدور ، وما تخفيه من الهواجس والوساوس ، فكيف لا يعلم أعمالهم الظاهرة ؟ قال المفسرون : والجملة لتأكيد ما سبق من دوام عذاب الكفار في النار ، لأن الله تعالى يعلم من الكافر أنه تمكّن الكفر في قلبه بحيث لودام في الدنيا إلى الأبد ما آمن بالله ولا عبده ، فالعذاب الأبدي مساوٍ لكفرهم الأبدي ، فلا ظلم ولا زيادة ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ قال القرطبي : والمعنى في الآية علم أنه لو ردكم إلى الدنيا لم تعملوا صالحاً كما قال تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوا لَعَادُوا لَمَّا نُهُوا عَنْهُ﴾ ^(١) هو الذي جعلكم خلائف في الأرض أي هو تعالى جعلكم أيها الناس خلائف في الأرض ، بعد عاد وثمود ومن مضى قبلكم من الأمم ، تخلفونهم في مساكنهم جيلاً بعد جيل ، وقرناً بعد قرن ﴿فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ أي فمن كفر بالله فعليه وبال كفرة ، لا يضر بذلك إلا نفسه ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا طرداً من رحمة الله وبعداً وبغضاً شديداً من الله ﴿وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا﴾ أي ولا يزيدهم كفرهم إلا هلاكاً وضللاً وخسران العمر الذي ما بعده شر وخسار ! قال أبو حيان : وفي الآية تنبيه على أنه تعالى استخلفهم بدل من كان قبلهم ، فلم يتعظوا بحال من تقدمهم من المكذبين للرسول وما حلّ بهم من الهلاك ، ولا اعتبروا بمن كفر ، ولا اتعظوا بمن تقدم ، والمقت أشد الاحتقار والبغض ، والخسار خسار العمر ، كأن العمر رأس مال الإنسان فإذا انقضى في غير طاعة الله فقد خسره ، واستعاض به بدل الربح سخط الله وغضبه ، بحيث صار إلى النار المؤبدة ^(٢) ، ثم وبّخ تعالى المشركين في عبادتهم ما لا يسمع ولا ينفع فقال ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَ كُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾ ؟ قال الزمخشري : ﴿أَرَأَيْتُمْ﴾ معناها أخبروني كأنه قال : أخبروني عن هؤلاء الشركاء وعما استحقوا به الإلهية والشركة ^(٣) ، ومعنى الآية : قل يا محمد تبكيتاً لهؤلاء المشركين : أخبروني عن شأن آلهتكم - الأوثان والأصنام - الذين عبدتموهم من دون الله ، وأشركتموهم معه في العبادة ، بأي شيء استحقوا هذه العبادة ؟ ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ﴾ أي أروني أي شيء خلقوه في هذه الدنيا من المخلوقات حتى عبدتموهم من دون الله ؟ ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ﴾ أي أم شاركوا الله في خلق السموات فاستحقوا بذلك الشركة معه في الألوهية ؟

غُرُورًا ﴿٤٠﴾ * إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ۚ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ۚ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾

﴿أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْهُ﴾ أي أم أنزلنا عليهم كتاباً ينطق بأنهم شركاء الله فهم على بصيرة وحجة وبرهان في عبادة الأوثان ﴿بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا﴾ إضراب عن السابق وبيان للسبب الحقيقي أي إنما اتخذوهم آلهة بتضليل الرؤساء للاتباع بقولهم : الأصنام تشفع لهم ، وهو غرور باطل وزور قال أبو السعود : لما نفى أنواع الحجج أضرب عنه بذكر ما حملهم عليه ، وهو تغيير الأسلاف للأخلاف ، وإضلال الرؤساء للاتباع بأنهم يشفعون لهم عند الله ^(١) . . ثم ذكر تعالى دلائل قدرته ووحدانيته فقال ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا﴾ أي هو جل وعلا بقدرته وبديع حكمته ، يمنع السموات والأرض من الزوال ، والسقوط ، والوقوع كما قال تعالى ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ قال القرطبي : لما بيّن أن آلهتهم لا تقدر على خلق شيء من السموات والأرض ، بيّن أن خالقهما وممسكهما هو الله ، فلا يوجد حادث إلا بإيجاده ، ولا يبقى إلا ببقائه ^(٢) ﴿وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أُمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي ولئن زالتا عن أماكنهما - فرضاً - ما أمسكهما أحدٌ بعد الله ، بمعنى أنه لا يستطيع أحدٌ على إمساكهما ، إنما هما قائمتان بقدرة الواحد القهار ﴿إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ أي إنه تعالى حلیم لا يعاجل العقوبة للكفار مع استحقاقهم لها ، واسع المغفرة والرحمة لمن تاب منهم وأتاب ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ أي حلف المشركون بالله أشدّ الأيمان وأبلغها قال الصاوي : كانوا يحلفون بأبائهم وأصنامهم فإذا أرادوا التأكيد والتشديد حلفوا بالله ^(٣) ﴿لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي لئن جاءهم رسول منذر ﴿لَيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ﴾ أي ليكوننَّ أهدى من جميع الأمم الذين أرسل الله إليهم الرسل من أهل الكتاب قال أبو السعود : بلغ قريشاً قبل مبعث رسول الله ﷺ أن أهل الكتاب كذبوا رسلهم فقالوا : لعن الله اليهود والنصارى ، أتتهم الرسل فكذبوهم ، فوالله لئن أتانا رسول لنكوننَّ أهدى من اليهود والنصارى وغيرهم ^(٤) ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أي فلما جاءهم محمد ﷺ أشرف المرسلين ﴿مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾ أي ما زادهم مجيئه إلا تباعداً عن الهدى والحق وهرباً منه ﴿استكباراً في الأرض ومكر السيئ﴾ أي نفروا منه بسبب استكبارهم عن اتباع الحق ، وعتوهم وطغيانهم في الأرض ، ومن أجل المكر السيئ بالرسول وباللؤمنين ، ليفتنوا ضعفاء الإيمان عن دين الله قال أبو حيان : أي سبب النفور هو الاستكبار والمكر السيئ يعني أن الحامل لهم على

(١) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٤ . (٢) تفسير القرطبي ٣٥٦/١٤ . (٣) حاشية الصاوي على الجلالين ٣/٣١٥ .

(٤) تفسير أبي السعود ٢٤٦/٤ .

أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ۚ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ ۚ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٤﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٥﴾ وَلَوْ يَوَازِخُدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ۖ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴿٤٦﴾

الابتعاد من الحق هو الاستكبار ، والمكر السيئ وهو الخداع الذي يرومونه برسول الله ﷺ والكيد له ^(١) ، قال تعالى رداً عليهم ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ أي ولا يحيط وبال المكر السيئ إلا بمن مكره ودبره كقولهم «من حفر حفرة لأخيه وقع فيها» ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ﴾ أي فهل ينتظر هؤلاء المشركون إلا عادة الله وسنته في الأمم المتقدمة ، من تعذيبهم وإهلاكهم بتكذيبهم للرسول ؟ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ أي لن تتغير ولن تتبدل سنته تعالى في خلقه ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ أي ولا يستطيع أحد أن يحول العذاب عنهم إلى غيرهم قال القرطبي : أجرى الله العذاب على الكفار ، فلا يقدر أحد أن يبدل ذلك ، ولا أن يحول العذاب عن نفسه إلى غيره ، والسنة هي الطريقة ^(٢) . . ثم حثهم تعالى على مشاهدة آثار من قبلهم من المكذبين ليعتبروا فقال ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ ؟ أولم يسافروا ويمروا على القرى المهلكة فيروا آثار دمار الأمم الماضية حين كذبوا رسلهم ماذا صنع الله بهم ؟ ﴿وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ أي وكانوا أقوى من أهل مكة أجساداً ، وأكثر منهم أموالاً وأولاداً ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ أي أنه سبحانه لا يفوته شيء ، ولا يصعب عليه أمر في هذا الكون ﴿إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ أي بالغ العلم والقدرة ، عالم بشئون الخلق ، قادر على الانتقام ممن عصاه ﴿وَلَوْ يَوَازِخُدُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهِمَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ بيان لحلم الله ورحمته بعباده أي لو أخذهم بجميع ذنوبهم ما ترك على ظهر الأرض أحداً يدب عليها من إنسان أو حيوان قال ابن مسعود : يريد جميع الحيوان مما دب ودرج ^(٣) ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ أي ولكنه تعالى من رحمته بعباده ، ولطفه بهم ، يمهلهم إلى زمن معلوم وهو يوم القيامة فلا يعجل لهم العذاب ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ أي فإذا جاء ذلك الوقت جازاهم بأعمالهم ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر ، لأنه تعالى العالم بشئونهم المطلع على أحوالهم قال ابن جرير : بصيراً بمن يستحق العقوبة ، وبمن يستوجب الكرامة ^(٤) ، وفي الآية وعيد للمجرمين ووعد للمتقين .

(١) تفسير البحر المحیط ٣١٩/٧ . (٢) تفسير القرطبي ٣٦٠/١٤ . (٣) تفسير القرطبي ٣٦١/١٤ . (٤) تفسير الطبري ٩٦/٢٢ .

البَلَاغَةُ : تضمنت الآيات الكريمة وجوهاً من البيان والبديع نوجزها فيما يلي :

- ١ - الإطناب بتكرار الفعل ﴿لا يمسن﴾ فيها نصب ، ولا يمسن فيها لغوب ﴿للمبالغة في انتفاء كل منهما استقلالاً ، وكذلك الإطناب في قوله ﴿ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتاً ، ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خساراً﴾ لزيادة التشنيع والتقبيح على من كفر بالله .
- ٢ - التهكم في صيغة الأمر ﴿فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ مثل ﴿ذق أنك أنت العزيز الكريم﴾ .
- ٣ - المبالغة مثل ﴿غفور ، شكور ، كفور﴾ ومثل ﴿حليماً ، عليماً ، قديراً﴾ فإنها من صيغ المبالغة .
- ٤ - الاستفهام الإنكاري للتوبيخ ﴿أروني ماذا خلقوا من الأرض﴾ ؟ وكذلك ﴿أم لهم شرك في السموات﴾ ؟
- ٥ - الاستعارة المكنية ﴿ما ترك على ظهرها من دابة﴾ شبه الأرض بدابة تحمل على ظهرها أنواع المخلوقات ثم حذف المشبه به ورمز إليه بشيء من لوازمه وهو الظهر بطريق الاستعارة المكنية .
- ٦ - السجع غير المتكلف ، البالغ نهاية الروعة والجمال مثل ﴿وجاءكم النذير﴾ * فذوقوا فما للظالمين من نصير وهو من المحسنات البديعية .

« تم بعونه تعالى تفسير سورة فاطر »

فهرس موضوعات المجلد الثاني

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٢- سورة يوسف		١١- سورة هود
٣٩	السورة أسلوب فريد في ألفاظها، وتعبيرها، وأدائها	٦	معنى تفصيل الآيات
٣٩	إفراد الحديث في هذه السورة عن قصة يوسف الصديق	٧	الأخنس بن شريق وعداوته للرسول ﷺ
٣٩	سورة يوسف مما يتفكه به أهل الجنة في الجنة	٩	تحريضه ﷺ على تبليغ الدعوة
٤٠	السُرُّ في تكرار قصص الأنبياء في القرآن	١١	الاستغفار مع الإصرار على الذنب توبة الكذابين
٤٣	تأمر إخوة يوسف على أخيه	١٢	التدرج في التحدي من عشر سور إلى سورة
٤٣	المحنة الأولى ليوسف إلقاءه في الحب	١٢	الأنواع التسعة المشتملة على وجوه الإعجاز
٤٤	المحنة الثانية تعرضه للاسترقاق والاستعباد	١٢	تسليية الرسول ﷺ بذكر قصص الأنبياء
٤٥	لطيفة في امرأة تحاكت إلى شريح فبكت	١٣	القصة الأولى قصة نوح عليه السلام
٤٥	التحقيق في أن إخوة يوسف لم يكونوا أنبياء	١٥	أصح الأقوال في المراد بالتنور
٤٦	المحنة الثالثة عشق امرأة العزيز له ومراودته عن نفسها	١٨	العبرة بقراءة الدين لا النسب
٤٧	معنى آية ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾	١٨	تنبيه إلى أسرار الإعجاز في آية كريمة
٤٧	أقوال المفسرين في الهم والبرهان	١٩	مشاهد رائعة من قصة نوح عليه السلام
٥٠	المحنة الرابعة محنة دخوله السجن	٢٠	القصة الثانية قصة هود عليه السلام
٥١	دعوته إلى الله وهو في السجن	٢٢	القصة الثالثة قصة صالح عليه السلام
٥٣	فائدة في عتاب جبريل ليوسف	٢٣	القصة الرابعة قصة إبراهيم عليه السلام
٥٣	القرآن يجمع المعاني الكثيرة في الألفاظ القليلة	٢٥	السُرُّ في التفريق بين شهادة الله والقوم
٥٣	شطحات بعض المفسرين في تفسير الهم	٢٦	القصة الخامسة قصة لوط عليه السلام
٥٣	التحقيق في براءة يوسف الصديق	٢٨	القصة السادسة قصة شعيب عليه السلام
٥٤	عشرة وجوه من القرآن تشير إلى براءته عليه السلام	٣١	القصة السابعة قصة موسى وهارون عليهما السلام
٥٥	الرؤيا التي رآها الملك في منامه وطلب تعبيريها		أنواع العذاب الذي أصاب أهل مدين والسُرُّ في
٥٦	تفسير الصديق لرؤيا الملك	٣١	ذكر الصيحة والرجفة . . الخ
٥٦	امتناع يوسف عن الخروج من السجن إلا بعد البراءة	٣٤	معنى آية ﴿خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾
٥٧	سبب مجيء إخوة يوسف لمصر	٣٤	المراد من الاستثناء في قوله ﴿إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ﴾
٦٠	ثناء الرسول على يوسف في صبره وكرمه وحلمه	٣٥	الميل إلى الظلمة موجب لنار جهنم
٦٠	لطيفة في ميل النساء نحو يوسف حتى نبأه الله	٣٦	ضرورة هجران أهل الفسق والمعاصي
٦٤	سبب فقد يعقوب لبصره حزنه على ولديه	٣٧	معنى قوله تعالى ﴿وَلَذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾
٦٦	لطيفة ذكرها القاضي عياض	٣٨	فائدة إلى لطيفة من الأسرار القرآنية
٧١	تنبيه على وجه الاعتبار بقصة يوسف	٣٨	تنبيه إلى خلود أهل الجنة والنار

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
	١٥- سورة الحجر		١٣- سورة الرعد
١٠٥	الحروف المقطعة للإشارة إلى إعجاز القرآن	٧٢	وجه التسمية بسورة الرعد
١٠٦	اتهام الكفار للرسول ﷺ بالجنون	٧٢	جمع في السحاب بين الرحمة والعذاب
١٠٦	حفظ الله للقرآن من الزيادة والنقصان	٧٣	قصة الجبار من الفراعنة الذي هلك بالصاعقة
١٠٧	البراهين الدالة على وحدانية الله	٧٣	معنى الاستواء على العرش والتحقيق فيه
١١١	قصة الرجل الذي أراد أن يتحن الأديان	٧٤	لا منافاة بين لفظ البسط وكروية الأرض
١١٢	قصة ضيف إبراهيم الخليل	٧٤	معنى آية ﴿جعل فيها زوجين اثنين﴾
١١٧	تنبيه إلى الجمع بين آيتين في القرآن	٧٤	البراهين والأدلة على وجود الله من مخلوقاته
	١٦- سورة النحل	٧٨	لماذا سميت الملائكة معقبات؟
١٢٠	وسائل حديثه في عصرنا أشار إليها القرآن	٧٨	ماذا يُقال عند سماع صوت الرعد؟
١٢٣	المشركون يجلسون بمدخل مكة يحذرون من الرسول	٧٩	مثلان ضربهما القرآن للحق والباطل
١٢٣	مكر المجرمين بأنبيائهم لإطفاء نور الله	٨٠	المثل الأول للماء النازل من السماء
١٢٤	سبب تسمية سورة النحل بسورة النعم	٨٠	المثل الثاني للمعادن التي يوقد عليها الناس
١٢٨	معنى سجود الظلال للواحد الديان	٨٠	كلام سيد قطب حول المثليين
١٢٩	استنباط دقيق أن النبوة خاصة بالرجال	٨٥	فائدة في أن النسب لا ينفع بدون العمل الصالح
١٢٩	تنبيه إلى أن الاحتجاج بالقدر حجة باطلة	٨٥	تنبيه على احتجاج القرآن البليغ على المشركين
١٣٢	العبارة الإلهية في خروج اللبن بين الفرث والدم	٨٨	لطيفة في أن نقصان الأرض بموت علمائها
١٣٣	المناسبة اللطيفة بذكر العقل في آية الخمر		١٤- سورة إبراهيم
١٣٣	السُرُّ في خروج العسل من النحل	٨٩	السُرُّ في تسمية السورة سورة إبراهيم
١٣٦	مثلان لبطلان عبادة الأوثان	٩٠	كلُّ نبي أرسل بلغه قومه
١٤٤	التغليظ لجريمة الرِّدة عن الإسلام	٩١	فائدة السر في التفريق بين لفظة «يذبحون» في
١٤٤	عَمَارٌ ملىء إيماناً من فرقه إلى قدمه	٩٥	البقرة «ويذبحون» هنا
١٤٥	السُرُّ في الاستعاذة قبل قراءة القرآن	٩٥	خطبة إبليس البتراء في جهنم
١٤٦	مثل ضربه الله تعالى لأهل مكة	٩٧	مثلان لكلمتي الكفر والإيمان
١٤٨	إبراهيم خليل الرحمن أمة وحده	٩٧	تثبيت المؤمن في القبر عند سؤال الملكين
١٤٩	الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة	٩٧	كفر أهل مكة لنعمة الله
	١٧- سورة الإسراء	٩٨	الدلائل والبراهين على وجود الخالق
١٥١	لماذا بدئت سورة الإسراء بالتسبيح؟	٩٩	إبراهيم حصن التوحيد والإيمان
١٥٦	الحكمة في إسرائه إلى بيت المقدس	١٠٠	دعوات الخليل إبراهيم لأهل مكة
١٥٦	مقام العبودية أشرف المقامات العلية	١٠١	مشاهد القيامة وما فيها من أهوال
١٥٧	مكارم الأخلاق التي دعا إليها القرآن	١٠٣	الحكمة من تعريف البلد هنا وتنكيره في البقرة

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٢٥٣	لطيفة في سرّ بديع من بلاغة القرآن	١٦٢	لطيفة في دقائق التعبير القرآني
٢٥٣	فائدة في التمثيل بالعشر واليوم	١٧٠	الصحيح أن المراد بالإمام كتاب الأعمال
	٢١- سورة الأنبياء	١٧٤	لطيفة في الحقيقة والمجاز في القرآن
٢٥٥	معنى آية ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾	١٧٨	ما هي الآيات التسع التي أعطيتها موسى؟
٢٥٩	فائدة في كيفية تسبيح الملائكة عليهم السلام		١٨- سورة الكهف
٢٦٥	تفسير ابن عباس لمعنى ﴿كانتا رتقاً ففتقناهما﴾	١٨٣	قصة أصحاب الكهف كما ذكرها المفسرون
٢٦٨	قصة إبراهيم وتحطيمه للأصنام	١٨٧	معنى آية ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾
٢٦٩	قصة داود وسليمان	١٩١	قصة صاحب الجنتين الظالم لنفسه
٢٧١	قصة أيوب وابتلائه بأنواع المحن	١٩٣	مثلٌ للحياة الدنيا يصوره القرآن
٢٧٧	سيدنا محمد ﷺ الرحمة العظمى لجميع الخلق	١٩٥	معنى الباقيات الصالحات..
	٢٢- سورة الحج	١٩٦	قصة موسى عليه السلام مع الخضر
٢٨٠	سبب تسميتها بسورة الحج	١٩٨	الكرامات التي ظهرت على يد الخضر
٢٨٣	معنى آية ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله﴾	٢٠٣	تنبيه على كرامات الأولياء من الآيات والأخبار
٢٨٥	فائدة في الفرق بين الموضع والمرضة	٢٠٣	قصة ذي القرنين ورحلاته الثلاث
٢٨٥	تنبيه على من تحدّث في المشيئة والقدر	٢٠٦	من هم يأجوج ومأجوج، والسرُّ في بناء السدِّ
٢٨٧	إبراهيم وبناء البيت العتيق		١٩- سورة مريم
	أصح ما قيل في تفسير ﴿إذا تئى ألقى الشيطان	٢١١	قصة نبي الله زكريا وولده يحيى
٢٩٤	في أمنيته﴾ وانظر الحاشية.	٢١٣	قصة مريم العذراء وولدها عيسى
٢٩٩	مثل للأصنام وعابديها من روائع الأمثال	٢١٣	السرُّ في تمثيل جبريل لمريم بصورة إنسان
	٢٣- سورة المؤمنون	٢١٤	كيف حملت العذراء بعيسى عليه السلام؟
٣٠٤	الأطوار التي مرَّ بها خلق الإنسان	٢١٧	لماذا كان يوم القيامة يوم الحسرة؟
٣٠٦	تنبيه في ذكر أربعة دلائل من دلائل القدرة	٢٢٣	تنبيه في عمر إبراهيم والمدة بينه وبين آدم
٣٠٦	فائدة في فضل الآيات العشر من سورة المؤمنون	٢٢٤	قصة خبَّاب مع العاص بن وائل
٣١١	لفظ «البشر» يطلق على المفرد والجمع	٢٢٤	التحقيق في معنى الورود على جهنم
٣١٦	قصة إسلام «ثمامة بن أثال»	٢٢٨	لطيفة في نصيحة ابن السماك للمأمون
٣٢٠	العوامل ثلاثة «عالم الدنيا، والبرزخ، والآخرة»		٢٠- سورة طه
	٢٤- سورة النور	٢٣٢	الحكمة من إخفاء وقت الساعة والموت
٣٢٤	سبب تسميتها بسورة النور	٢٣٥	فائدة في نفع موسى لأخيه هارون
٣٢٦	أحسن ما قيل في تفسير ﴿الزاني لا ينكح إلا زانية﴾	٢٣٥	تنبيه إلى ممن الله العديدة على موسى
٣٢٨	حادثة الإفك ومعنى ﴿بل هو خير لكم﴾	٢٤٦	سبب عبادة بني إسرائيل العجل
٣٣١	لماذا بدىء في الزنى بالمرأة، وفي السرقة بالرجل؟	٢٥٠	معنى الحياة الضنك لمن عصى الله

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣٩٩	لطيفة فيما أنشده الفرزدق لسليمان بن عبد الملك	٣٣١	تنبيه إلى فائدة ذكر الإحصان
	٢٧- سورة النمل		لطيفة: لماذا عدل عن قوله ﴿تَوَابٌ رَحِيمٌ﴾ إلى
٤٠٠	سبب تسمية السورة بسورة النمل	٣٣١	قوله ﴿تَوَابٌ حَكِيمٌ﴾؟
٤٠٦	لطيفة في بيان ذكاء النملة في خطاها	٣٣٤	معنى آية ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾
٤٠٩	من هو الذي عنده علمٌ من الكتاب؟		فائدة: ما رضي الله لعائشة ببراءة صبي ولانبي
٤١١	استحباب تفقد الملك لأحوال الرعية	٣٣٨	حتى برأها الله في القرآن
٤١٤	الدلائل والبراهين على وحدانية رب العالمين	٣٣٩	لطيفة في قصة قسيس أراد الطعن في عائشة
٤١٩	خروج الدابة التي تكلم الناس	٣٤٦	لطيفة في إسلام أحد علماء الطبيعة
٤٢١	حرمة البلد الأمين ببلد الإسلام	٣٥١	وجوب تعظيم مقام الرسول وتفخيم شأنه
	٢٨- سورة القصص		فائدة في أن من حَكَّم السُّنة نطق بالحكمة، ومن
٤٢٥	قصة موسى وتربيته في بيت فرعون	٣٥٢	حَكَّم الهوى نطق بالبدعة
٤٢٧	قتل موسى للقبطي وخروجه من مصر	٣٥٢	قل لبعضهم: من أحبُّ إليك أخوك أم صديقك؟
٤٢٩	قصة الأصمعي مع الجارية		٢٥- سورة الفرقان
٤٤٤	تنبيه على موت أبي طالب على غير الإيمان	٣٥٦	ما أكرم الله به الرسول ﷺ
٤٤٥	طغيان قارون بسبب الغنى	٣٥٩	لطيفة في أن الله يعطي على حسب الحكمة
٤٤٩	لطيفة في القناعة وفضلها	٣٥٩	قصة «عقبة بن أبي معيط» وما نزل فيه
	٢٩- سورة العنكبوت	٣٦٣	تنبيه هجران القرآن أنواع وكلام ابن القيم
٤٥١	سبب تسمية السورة بسورة العنكبوت	٣٦٥	الأشياء تعرف بأضدادها
٤٥١	قصة سعد بن أبي وقاص مع أمه المشركة	٣٦٨	الفرق بين «ميت» و«ميت»
٤٥٨	فاحشة اللواط خاصة بقوم لوط	٣٦٨	تفسير آية ﴿فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾
٤٦١	مثلٌ رائع ضربه القرآن للأوثان وعابديها	٣٧٢	وصف تعالى «عباد الرحمن» بإحدى عشرة خصلة
٤٦٣	قصة الذي كان يقوم الليل ثم يسرق		٢٦- سورة الشعراء
٤٦٧	الحياة الدنيا كما يصورها القرآن	٣٧٤	معنى قوله «محدث» أي في نزوله لا في وصفه
٤٦٩	وجوب الهجرة من دار الشرك إلى دار الإسلام	٣٧٦	المناظرة التي جرت بين موسى الكليم وفرعون
	٣٠- سورة الروم	٣٨١	لطيفة في تدرج موسى بالمناظرة بطريق الحكمة
٤٧٠	أهداف سورة الروم	٣٨٤	راعى الخليل جانب الأدب في نسبة المرض إلى نفسه
٤٧١	معجزة غيبية أخبر عنها القرآن	٣٨٦	تنبيه إلى لقاء إبراهيم لأبيه آزر في القيامة
٤٧٥	الكفار يعلمون ظاهر الحياة الدنيا	٣٩١	معجزة صالح في خروج الناقة من صخر أصم
٤٧٥	آيات الله الجليلة المنبثة في الكون	٣٩٦	إنذاره ﷺ لعشيرته وأقربائه
٤٨٥	تنبيه على سماع الميت وإحساسه	٣٩٩	لطيفة فيما كان ينشده عمر بن عبد العزيز
		٣٩٩	تنبيه الشعر حسنه حسنٌ وقبيحه قبيح

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٥٤١	الرد على من أباح كشف الوجه وطائفة من أقوال الأئمة المفسرين .	٤٩٠	٣١- سورة لقمان
٥٤٣	٣٤- سورة سبأ	٤٩٤	وصايا لقمان الحكيم لابنه
٥٥٠	سبب تسميتها بسورة سبأ	٤٩٨	تنبيه على أن شكر الله مقدم على شكر الوالدين
٥٥٦	قصة الجنتين وسبل العرم	٥٠٠	مفتاح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله
٥٥٨	اعتزاز المشركين بالمال والبنين	٥٠٢	٣٢- سورة السجدة
٥٥٩	سؤال الملائكة لتقريع وتوبيخ المشركين	٥٠٤	أهداف السورة الكريمة
٥٥٩	نصيحة الرسول ﷺ لأهل مكة	٥٠٦	الإحكام والإتقان في خلق الرحمن
٥٦٣	٣٥- سورة فاطر	٥٠٧	صفات المؤمنين الأبرار
٥٦٤	أهداف سورة فاطر	٥٠٩	دلائل القدرة والوحدانية
٥٦٦	الملائكة وسائط بين الله ورسله	٥١١	٣٣- سورة الأحزاب
٥٦٦	الشیطان عدو لدود للإنسان	٥١٣	المقاصد الأساسية للسورة الكريمة
٥٧٦	الوراثة الربانية للأمة المحمدية	٥١٨	قصة «جميل بن معمر الفهري» ذي القلبين
٥٧٧	انقسام الأمة إلى ظالم ومقتصد وسابق	٥١٨	من هم الأحزاب؟ وما هو موقف المنافقين؟
٥٧٨	استغاثة الكفار في جهنم	٥٢٠	تنبيه هام إلى قدر الرسول عليه السلام
٥٧٨	معنى آية ﴿وجاءكم النذير﴾	٥٢٤	ما الفائدة بأمر الرسول بالتقوى وهو سيد المتقين؟
٥٨١	بيان لحلم الله ورحمته بعباده	٥٢٧	سبب نزول آية الخيار وتخيير الرسول لزوجاته
			هل صوت المرأة عورة؟
			رد شبهات المستشرقين حول زواج الرسول بزینب

فهرس الأحاديث الشريفة - المجلد الثاني

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
الشيخان	«رحم الله أخي لوطاً لقد كان يأوي إلى ركن شديد»	٢٧
مسلم والترمذي	«الصلوات الخمس كفارة لما بينها ما اجتنبت الكبائر»	٣٦
أصحاب السنن	«ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويصلي ركعتين إلا غفر له»	٣٦
البخاري	«كان ﷺ إذا سمع الرعد قال: سبحان من يسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته»	٧٩
الترمذي	«اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله»	١١١
البخاري	«الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته»	١١٥
الطبري	«كيف تجد قلبك؟ قال: مطمئناً بالإيمان، قال فإن عادوا فعد»	١٤٤
البخاري	«لما دخل ﷺ مكة كان حول الكعبة ثلاثمائة وستون صنماً فحطّمها . . .»	١٧٢
الشيخان	«سئل ﷺ كيف يحشر الناس على وجوههم؟ فقال: الذي أمشاهم على وجوههم قادر. . . الخ	١٧٧
أحمد	«سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، هن الباقيات الصالحات»	١٩٤
الترمذي	«لقيت إبراهيم ليلة أسري بي، فقال يا محمد: أقرئ أمتك مني السلام. . . الخ	١٩٦
الشيخان	«إن موسى قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل أي الناس أعلم. . . الخ	٢٠٢
مسلم	«إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، يجاء بالموت يوم القيامة. . .»	٢١٧
البخاري	«ما يمنحك يا جبريل أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فنزل ﴿وما ننزل إلا بأمر ربك. . .﴾ الخ	٢١٨
الشيخان	«قال خباب: كنت رجلاً قيناً حدّاداً. وكان لي على العاص بن وائل دين. . . الخ	٢٢٣
مسلم	«إن الله تعالى إذا أحب عبداً دعا جبريل فقال: إني أحب فلاناً فأحبه. . .»	٢٢٨
الترمذي	«إن لله تسعة وتسعين اسماً من أحصاها دخل الجنة. . .»	٢٣١
أحمد والترمذي	«الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض. . . الخ	٢٤١
أبو داود	«ما من مكروب يدعو بهذا الدعاء ﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾ إلا استجيب له»	٢٧٣
مسلم	«أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة، عراة، غرلاً. . . الخ	٢٧٦
ابن عساکر	«إنما أنا رحمة مهداة»	٢٧٧
الترمذي	«إن الحميم ليصب على رؤوسهم فينفذ الجمجمة حتى يخلص إلى جوفه. . .»	٢٨٦
أحمد	«لو وضعت مقمعة منها في الأرض فاجتمع عليها الثقلان ما أقلوها»	٢٨٦
أحمد	«إن الله يعطي الدنيا لمن يحب ولن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن أحب»	٣١٢

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
أحمد	«أهو الذي يزني ويسرق ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟..»	٣١٢
الترمذي	«تشويه النار فتتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه..» الخ	٣٢٠
أحمد والنسائي	«البينة أو حدٌ في ظهرك..» الخ	٣٢٥
البخاري	«يرحم الله النساء المهاجرات الأول، لما أنزل الله ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن﴾..» الخ	٣٣٦
أحمد والترمذي	«ثلاثة حقٌ على الله عونهم: الناكح يريد العفاف، والمكاتب يريد الأداء..» الخ	٣٣٧
مسلم	«إن الله زوى لي الأرض- أي جمعها- فرأيت مشارقها ومغاربها..» الخ	٣٤٨
أحمد	«والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أخف عليه من صلاة مكتوبة..» الخ	٣٦١
مسلم	«إني لأعلم آخر أهل الجنة دخولاً الجنة، وآخر أهل النار خروجاً من النار..» الخ	٣٧٠
البخاري	«يلقى إبراهيم أباه آزر يوم القيامة، وعلى وجه آزر قترَةٌ وغبرة..» الخ	٣٨٦
الشيخان	«يا معشر قريش اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئاً..» الخ	٣٩٦
البخاري	«تلك الكلمة من الحق يخطفها الجني فيقرقرها في أذن وليه كقرقرة الدجاج..» الخ	٣٩٧
البخاري	«لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة»	٤٠٧
أحمد	«لا تقوم الساعة حتى تروا عشر آيات.. وعدٌ منها طلوع الشمس من مغربها..» الخ	٤١٩
مسلم	«لما حضرت أبا طالب الوفاة قال له الرسول ﷺ يا عم: قل لا إله إلا الله..» الخ	٤٣٦
مسلم	«ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين: رجل من أهل الكتاب آمن بنبية ثم آمن بي..» الخ	٤٣٩
الشيخان	«كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه..»	٤٧٨
البخاري	«ما كنا ندعو زيد بن حارثة إلا زيد بن محمد حتى نزلت ﴿أدعوهم لأبائهم هو أقسط عند الله﴾..» الخ	٥١٢
أحمد	«أقبل أبو بكر يستأذن رسول الله ﷺ والناس يبابه جلوسٌ..» الخ	٥٢٠
النسائي	«مالي أسمع الرجال يذكرون في القرآن والنساء لا يذكرن..» الخ	٢٥٠
الترمذي	«لما تزوج رسول الله ﷺ زينب قال الناس: إن محمداً تزوج امرأة ابنه..» الخ	٥٢٩
البخاري	«إن نساءك يدخل عليهن البرُّ والفاجر ولو أمرتهن أن يحتجبن !!» الخ	٥٣٤

الراوي	** أطراف الحديث **	الصفحة
	«إن موسى كان رجلاً حيّاً ستيراً لا يرى من جلده شيء استحياءً منه... الخ	٥٣٩
البخاري	«رأى رسول الله ﷺ جبريل في صورته له ستمائة جناح...»	٥٦٤
مسلم	«أحقُّ ما قال العبد وكلنا لك عبد: لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت»	٥٦٥
مسلم	«أما مررت بوادي أهلك ممحلاً، ثم مررت به يهتُز خَصِراً...» الخ	٥٦٧
أحمد وابن ماجه		

وَقِفُّ لِلَّهِ تَعَالَى

طُبِعَ عَلَى نَفَقَةٍ

المحسن الكبير

معالي السيد حسن عباس الشربتلي

وَجَعَلَهُ وَقْفًا لِلَّهِ تَعَالَى

فجزاه الله كل خير

يوزع مجاناً ولا يُباع